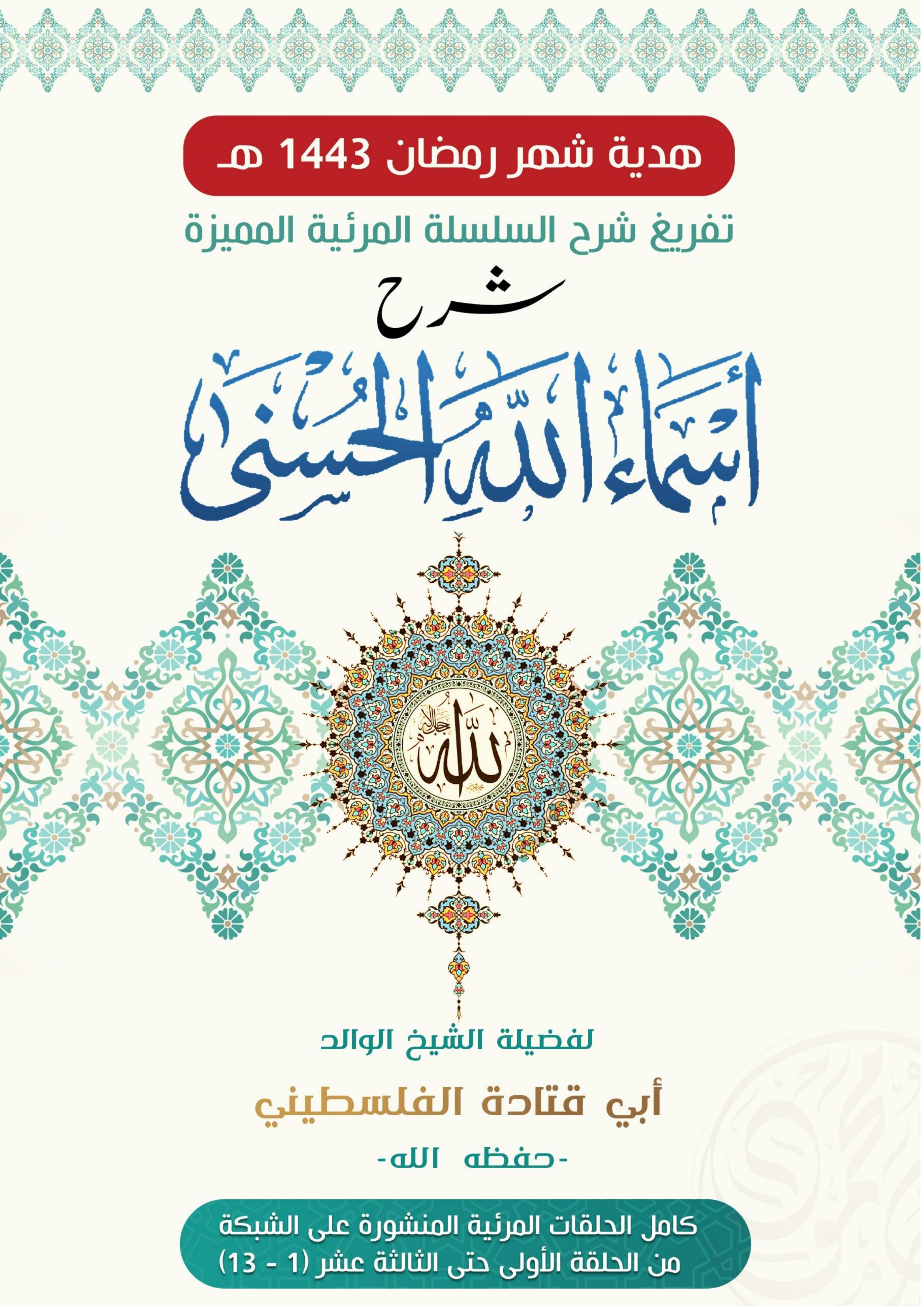


هدية شهر رمضان 1443 هـ
تفريغ شرح السلسلة المرئية المميزة
شرح
أسماء الله الحسنى
الله جل جلاله
لفضيلة الشيخ الوالد
أبي قتادة الفلسطيني
-حفظه الله-
كامل الحلقات المرئية المنشورة على الشبكة
من الحلقة الأولى حتى الثالثة عشر (1 - 13)



شرح أسماء الله الحسنى

لفضيلة الشيخ الوالد:

أبي قتادة الفلسطيني

(عمر بن محمود أبو عمر)

- حفظه الله ورعاه -

شعبان ١٤٤٣ هـ - مارس ٢٠٢٢ م

فهرس المحتويات

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وأصلي وأسلم على نبينا وحبيبنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد.

أشهرٌ طويلة مرَّت عليَّ وأنا أستمعُ إلى محاضرات فضيلة شيخنا الوالد: أبي قتادة الفلسطيني – عمر محمود أبو عمر – حفظه الله وجزاه عنا خيرًا، وكنتُ كلما تقدمت في الاستماع؛ ازددتُ في الاستمتاع، وكلما تقدمَت بيَ المحاضرات كلما وقر في قلبي من المعاني العظيمة التي فتح الله بها على شيخنا الجليل في كلامه عن عظمة الخالق سبحانه، وعن معاني أسمائه، وعن الغوص في أسرار القرآن والسنة والكون؛ وصولًا إلى المقصودِ في هذه المهمة التي لا شك أنها شاقةٌ في هذا المضمار؛ لكن ربنا سبحانه وتعالى أعان شيخنا؛ فكانت هذه المحاضرات من أعظم ما أُلقي –بدون تكلفٍ بل على السجية – في شرح أسمائه الحسنى، سبحانه وتعالى.

ثمَّ ومع إهلال هلال شهر رمضان المبارك علينا؛ رأينا أنها فرصةٌ عظيمة ينبغي على المسلم أن يهتبلها للعيشِ مع أسماء الله الحسنى، ولا خيرَ من العيش مع أسماء الله وأوصافه وعظمته سبحانه؛ فقررنا أن نضرب بسهمٍ في إيصال هذا الخير إلى الناس في كل مكان، وأن نعمم النفع بدل حصره فينا؛ خاصة مع عظمة هذا الباب شرعًا، وكثرة خطأ الناس فيه؛ فكانت محاضرات الشيخ «أبي قتادة» بلسمًا ودواءً في هذا الباب، فشمرنا عن ساعد الجد واستعنا بالله تعالى على **تفريغ** هذه المحاضرات التي وقعت في (٥٩) تسع وخمسين محاضرة، بمجموع ساعاتٍ مرئية قدرها على التحديد: **(٤٤,٥)** أربعة وأربعين ساعة ونصف.

ونعلم أنه قد بقيت محاضرات أخرى للشيخ ولكناه لم تُنشر، بل بقيت حبيسة المصورين لحلقات الشيخ، وقد حاولنا جهدنا أن نأخذها قبل نشر هذا الكتاب على ان لا يأتي رمضان؛ لكن ظروفهم لم تسمح، وقد أعلمونا –جزاهم الله خيرًا– أن الحلقات قد بلغت (٧٣) درسًا، أي أنه بقيت (١٤) درسًا فقط غير منشورة.. ولأننا لا نعرفُ متى تُنشر هذه المحاضرات فآثرنا الانطلاق في التفريغ متكلين على الله تعالى؛ فإن جاءت هذه المحاضرات الجديدة ألحقناها بقسم آخر.

وبدأ المسيرُ في هذا التفريغ، في مطلع رجب –قبل شهرين من تسويدِ هذه الصفحات– وكنا

نظن الأمر مُرهقًا عسيرًا، لكثرة المعلومات، وغزارة الفوائد، ودقة الكلمات.. لكنَّ الله أعان على العمل منذ البداية؛ فما هي إلا شهران حتى كان قد أُنجز العمل على وجهه الذي تراه، وتمَّ على صورته المثلى فيما نحسن عليه ونستطيعه -والنقص طبيعة الإنسان-؛ حيثُ قام عليه أخوان فاضلان -جزاهما الله خيرًا- بذلا فيه جهدهما، حتى خرج بهذه الصورة التي نتقرب فيها لله تعالى أولا، ثم نرجو بها نشر علم شيخنا الوالد، ثم نفعَ القراء الكرام.

وإنَّنا قد تعمدنا الاستعجالَ في نشرِ هذا الكتاب في هذا التوقيت قبل دخول رمضان المبارك؛ آملينَ أن يكون هذا الكتاب محل المدارسة والقراءة والاطلاع من المسلمين عامة، وطلبة العلم خاصة؛ فتستغل أيام رمضلان ولياليه في مثل هذا العلم النافع المتعلق بالله الخالق العظيم سبحانه.

وبعد؛ فقد اتبعنا في تفريغ هذه المحاضرات المنهجية التالية:

١- تفريغ النص كاملًا بحيثُ نلتزم ذكره حرفيًّا أول الأمر، ثمَّ نقوم بإعادة صياغة النص على هيئة توافق المعنى؛ فإنَّ الشيخ يقدم ويأخر ويعيد نفس الجملة أحيانًا أو يذكرها باللفظ العامي؛ فكل ذلك يستدعي إعادة صياغة النص ليوافق مقصد القراءة.

٢- كتابة آيات القرآن الكريم مشكولة مخرجة، على أن نعيد كتابة ما ذكره الشيخ من الآيات بإسقاط كلمة منها سهوا أو نحوه؛ فتكتب صحيحة مضبوطة.

٣- فهرسة الدروس وجعل الفهرس في بداية هذا الكتاب؛ حتى يسهل الوصول للمطلوب، ووضع عنوان لكل درس يوافق الاسم الذي يشرحه الشيخ، جزاه الله خيرًا.

والله ولي التوفيق

وكتب/ **أبو عبد الرحمن**

شعبان ١٤٤٣ هـ

الدرس الأول: مدخل إلى أسماء الله الحسنى

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونستعين به ونتوكل عليه، ونصلي ونسلم على خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم، آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة في هذا اللقاء المبارك بإذن الله عز وجل في الحديث عن أسماء الله تعالى وصفاته.

هذا الباب هو أجلُّ ما يتعلَّمه المرء في هذه الحياة، بل ما خلق الله عز وجل الإنسان وما أنزل الكتاب وما خلق الكون إلا من أجل إدراك هذه المعاني الجليلة وهو أن يتعبّد المرء بأسماء الله عز وجل وصفاته.

الشرع هو مظهر لأسماء الله وصفاته، يعني الله سبحانه وتعالى شرع شرعه فأحلَّ ما يحبّ وأوجب ما يحبّ؛ فإذًا الله عز وجل يُحِبُّ، ومنع ما يكره وما يَبْغَض؛ إذًا الله عزَّ وجلَّ يُبْغِض ويَكْرَه، خلق الخلق على وفق هذه الأسماء والصفات، عندما ترى تعدد الخلق، تعدد المخلوقات مع وحدة الخالق، مع وحدة المادة، يعني أنت ترى الخلية الحيوانية مثلًا هي شيء واحد تُسمى خلية حيوانية، لكن انظر إلى تنوّعها في الإنسان: الخلية الحيوانية في جسدك منها ما يكوّن الرجل، ومنها ما يكوّن العصب، ومنها ما يكوّن العين، ومنها ما يكوّن اليد، ومنها ما يكوّن الأحشاء وهي شيء واحد ولكنها متعددة، فلماذا هذا؟ ليدل على قدرته ووحدانيته.

فالتعدد مع الوحدة دلَّ على القدرة؛ لأنه لو خلق شيئًا واحدًا على جهةً واحدة لقال القائل إنه لا يقدر إلا أن يخلق هذا، ولو خلق الأشياء متناقضة لقال إن هذه الأشياء قد خُلقت من غير جهة واحدة، ولكن لما تعدَّدت وتوحَّدت فدلّ التعدد على تنوّع القدرة، ودلّ التوحّد على أن الخالق واحد.

فأنت ترى أن الله سبحانه وتعالى شرع الشرع على وفق أسماء الله وصفاته، وخلق الخلق على هذا المعنى.

مثال: نحن نتكلّم كثيرًا لماذا خلق الله الإنسان؟ وهذا هو وجه تساؤل الملائكة وعدم فهمهم لماذا خلق الله الإنسان؟ هم علموا أن الله يحب المدح وأن يُمدح فهم يسبحونه ويقدّسونه، وهو أعظم ما يتعبَّد به المرء وهو أن يمدحه فالله يحب المدح وأعظم المدح هو أن يسبحه وأن يقدسه؛ فأما التسبيح فهو التنزيه، وأما

التقديس فهو التعظيم، انظر.. يعني ليس فقط أن الملائكة قالوا نسبحك ولم يقولوا نقدسك، فالتقديس هو تعظيمه ولكن هذا التعظيم قد يكون فيه شيء من الشوائب فجاء التسبيح قبله، وهذه قاعدة من قواعد الحياة أخذها العلماء فقالوا: «التخلية قبل التحلية»، ما معنى التخلية؟ هي إزالة العوائق وإزالة الشر، كما أنك إذا أردت أن تزيّن هذا البيت تقول أنا أخلّيه من الأوساخ.. أزيل منه الأوساخ، القاذورات، الغبار؛ فهذه تخلية، ثم بعد ذلك التحلية: تضع فيه الأشياء الجميلة التي تحبّها، فقالوا: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، هذا التخلية، فلما سبحوه أي نزّهوه عما لا يليق بجلاله، ومع التسبيح الحمد، فقالوا: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، أي نعظمك.

فإذًا الملائكة بمقدار وعيهم ومقدار فهمهم أدركوا أن الله خلق الخلق من أجل أن يحمدوه ومن أجل أن يقدّسوه ومن أجل أن يسبحوه، ولم يدركوا غير ذلك؛ فلما عرض عليهم ربنا سبحانه وتعالى أن يخلق الإنسان لم يدركوا ما هو السبب، ولم يدركوا من صفات الله ما جهلوه: أن الله له أسماء لا تتجلَّى ولا تُعرف من خلال خلقهم في التقديس والتسبيح والتهليل الذي لا يمكن أن يختلط معه معصية؛ فعُلم أنه لماذا خُلق الإنسان؟ من أجل تجلّي أسماءٍ لله لا تُعرف من قبل هذا الخلق وهم الملائكة، ما هي؟ هي المغفرة؛ أن الله غفور، فمن أجل أن يتحقق في الوجود هذا الاسم العظيم الذي يحبه الله وهو صفة من صفاته خلق هذا الإنسان من أجل أن يعصي فيذنب فيستغفر فيغفر الله له؛ حتى يتحقق اسم الله عز وجل الصبور، أن هناك من يعصيه، فمع وجود الملائكة لا يتحقق وجود الصبر لأنهم على وجه واحد في الوجود وهو الطاعة فلا يتحقق معنى الصبر في الخلق.

فالله خلق الإنسان ليعصي فيصبر الله عز وجل عليه.. يسبونه فيطعمهم، وينكرون فضله فيرحمهم؛ فهو صبور يصبر عليهم، حتى المسلم عندما يعصي فيصبر الله عز وجل عليه فيتركه ليتوب ولا يعاقبه بالذنب في لحظتها، فالله عز وجل خلق الخلق كله وشرع الشرع كله من أجل معرفة أسماء الله وصفاته فقط، فلذلك إدراك أسماء الله وصفاته هو من أجل ما يتعلَّمه المرء، لأنه إذا علم الله وعلم صفاته لم يكفره، ولم يتعامل معه إلا بما تحقق من شرعه.

مثال: من أعظم الكفر الذي وُجد في الوجود هو اليأس من رحمة الله، وسبب اليأس الذي يقع في القلب من رحمة الله هو عدم فهم العبد لربّه، عدم فهم العبد لأسماء الله وصفاته؛ فلو علم المرء أن الله عز وجل رحيم ورحمته مطلقة ولا يوجد ذنب في الوجود لا يغفره الله عز وجل، قد يقول قائل: ألم يقل الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦]؟ المقصود به إن لم يتب، فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، يعني حتى لو لم يتب، وهذا مقابل هذه الآية، أما من غير مقابل لها فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ

الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]: إذا تاب العبد، لكن مقابل هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦] أن الله يغفرها حتى ولو لم يتب، يعني العبد معرّض لأن يغفر الله له حتى ولو لم يتب وذلك من رحمة الله، وهذا إذا كان مسلمًا؛ فالعبد إذا كان مسلمًا قد يعصي المعاصي فالله عز وجل يغفرها له ويسترها عليه، وفي الحديث أن الله يستر للعبد من الذنوب يوم القيامة الشيء الكثير، فيعدد الله عز وجل على عبده نعمه ثم يذكر له الذنوب التي سترها عليه في الدنيا فيغفرها الله له وهو لم يتب منها، فهذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، إذا أُخذت لوحدها فإن الله يغفرها إذا تاب، لكن إذا أُخذت مع آية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦]، فتدلَّ على أن الله يغفرها من غير أن يتوب إلا الشرك، فالشرك لا يغفره الله إلا أن يتوب العبد.

فالقصد: بأن اليأس من رحمة الله هو سبب الشرك، يعني لو نظرت في الوجود في زماننا هذا لوجدت الرجل يقول: لك كيف أتوب أنا وكيف يغفر الله لي؟! فيزداد معصية، يغرقه الشيطان في المعاصي ويزيده في الذنوب تحت باب أنك عملت شرًّا عظيمًا، وهذه الذنوب العظيمة كيف يغفرها الله؟! وتعرفون قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا ثم أكمل المائة فغفرها الله عز وجل فلا يوجد ذنب لا يغفره الله عز وجل؛ وذلك لسعة رحمته وسعة مغفرته، وعدم فهم العبد لسعة رحمة الله وعدم فهم العبد لسعة مغفرة الله تؤدي به إلى التمادي في المعاصي وتؤدي به إلى اليأس، ثم اليأس يؤدّي إلى الكفر!

يعني هذا في الذنوب.. والآن نأتي إلى الأقدار، يأس المرء في الأقدار: عندما تقع في المرء مصيبة.. فإذا كان اليأس في قلب هذا العبد كفر، لأنه لا يرجو الفرج! فإذا وقعت فيه مصيبة بأن مات ابنه لا يرى رحمة الله في هذا الفعل ويقع في قلبه اليأس من هذا الفعل فيكفر ويسبّ الأقدار وإذا سبَّ العبد الدهر فإنما يسبّ الله لأن (**الله هو الدهر**)، والمقصود به أنه هو الذي يقلّب الدّهر؛ فإذا سبَّ العبدُ الأقدارَ فإنما يسبّ الله لأن الذي يقلب الأقدار هو الله، فانظر كيف اليأس في النظر في الأقدار وتقلّب الأحوال كيف يوقع في الكفر!

ومن ذلك نظر العبد إلى الأقدار في عدم فهم العبد لحكمة الله، والله عز وجل من أسمائه وصفاته أنه القابض الباسط، فتقلّب الأقدار هو تجلّي لأسماء الله وصفاته: أن يطعمه وأن يمنعه، وأن ينعم عليه وأن يمنعه، فالله عز وجل من أسمائه القابض الباسط: أنت تحزن ثم بعد ذلك تفرح؛ ففرحك هو تجلّي لاسم الله الباسط هو الذي أعطاك فجعل البسط سببًا للفرح، والله عز وجل منعه من الفرح فحصل الألم فغضب العبد؛ فإذا أدرك المرء –انظر هذا الترابط– أن هذا الفعل وقع من الله من الأقدار عليه لأن الله عز وجل هو القابض والآن هو تجلَّى عليك باسمه القابض من خلال هذه الأقدار فقبض هذا الفعل، فأنت تدرك

أن هذا فعلٌ إلهي، ثم هذا يرتبط بالشرع: لماذا قبضه؟ لماذا الله عز وجل تجلَّى باسمه القابض عليك بهذا الفعل أنه منعك أو سلبك نعمة الولد أو نعمة العينين أو الصحة أو المال؟ من أجل أن يتحقَّق القطب الأول من صفة العبودية وهو الصبر؛ لأن العبد متقلِّب بين الصبر والشكر، فعندما تقع النعمة أنت ترى أن الله قد تجلَّى باسمه الباسط عليك، العطاء؛ فهذه توجب عليك الشكر.

فالأقدار تجلّي لأسماء الله وصفاته والشرع من أجل تحقيق هذا، من أجل أن تتم الحالة التي يريدها الله من العبد وهي التعبّد على كل حال؛ إن أصابه خيرٌ شكرَ، وإن أصابه شرٌّ صبرَ، ولا يقع منه هذا إلا بالنظر أن هذا ابتلاء من الله، وأن الله عز وجل له أسماء وصفات لا بد أن تقع في الوجود.. هذا شيء مهم جدًّا، ولذلك فهم العبد لأسماء الله وصفاته يفهمه الشرع، وفهم العبد لأسماء الله وصفاته يفهمه القدر، رأينا الآن لماذا شرع الله عز وجل التوبة؟ ليتحقق اسم الله التواب، لماذا شرع الله المغفرة؟ ليتحقق اسم الله الغفور.

والله عز وجل غفور قبل أن يكون العبد الذي يذنب فيستغفر فيغفر الله له، هذه قضية مسلَّمٌ بها عند أهل السنة؛ يعني أسماء الله عز وجل وصفاته ليست حادثة، فأسماء الله عز وجل أزلية، وكما أن الذات أزلية أي: **(أولٌ فليس قبله شيء)** فكذلك الصفات، ولكن نتحدَّث عن قضية تجلّياتها في الوجود؛ فلو لم يكن هناك عبد يذنب فيستغفر لما تجلَّى اسم الله الغفور في الوجود مع أنه موجود في نفس الربّ؛ يعني هذه الصفة موجودة.

إذًا أنت بهذا تدرك كيف يقع الشرع وكيف يقع القدر، فتصير مدركًا لماذا وقع هذا؟ وقع هذا على جهة الابتلاء ليرى العبد أيشكر ربه؟ أيحمده على كل حال؟ أيصبر أم لا؟ فهذا الوجود الإنساني سواء ما تعلَّق في شخصك أو تعلَّق بالدعوة إلى الله، يعني فهم النبي صلى الله عليه وسلم لأسماء الله وصفاته يرى أن كل ما يقع به هو من أجل تحقيق شيءٍ يريده الله على جهة التعبد من الإنسان، ولا يقع التعبد من الإنسان لله عز وجل إلا على هذا المعنى وهو أن يربط كل شرعٍ مطلوب من العبد في هذه الحالة بأسماء الله وصفاته.

يعني الآن لماذا أمرنا الله بذكره؟ لماذا العبد يذكر ربه؟ لأن هذا يفرح الله! فأنا أقول: هذا مستحب، من الذي أحبه؟ الله، نقول: هذا واجب، والله عز وجل عنده الواجب أحبّ إليه من المستحب: **(وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه)**؛ فالله يحب الفريضة أكثر فشرعها، يحبها يعني الله عز وجل يريدها منك على جهة التعبّد، فأنت لما تسبّح الله عز وجل فيقع في قلبك أن الله يحبّ هذا

الفعل، أنت عندما تسبّح الله يحبه فأنا أفرحه؛ فالله يفرح، ويعجب، ويضحك، ويرضى، ويغضب، ويعطي، ويمنع؛ ولذلك أجلّ ما يتعلَّمه العابد هو هذا الباب وهو أسماء الله عز وجل وصفاته جلَّ في علاه، هذه النقطة هذه مهمة جدًّا.

وبعض أهل العلم يستطرد في هذا الباب كثيرًا بحيث يعالج الأبواب الخاصة والعامة من هذا الباب؛ يعني عندما يأتي عالم من المعاصرين ويؤلّف كتابًا سماه «قدر الدعوة» ما معنى هذا الباب؟ يعني أن الشيخ رفاعي سرور رحمه الله يبدأ ويفتح الباب في كلام ابن القيم في هذا المعنى الذي ذكرته، ويقول لك: عليك أن تفهم أن تقلّبات القدر ما معناه؟ تقلّب العبد فيما يجريه الله من الأقدار، هذا قدر الدعوة، تقلّب العبد للدعوة: صعودًا، نزولًا، نصرًا، هزيمة، كما قال ابن القيم: «لو أن الأنبياء انتصروا ولم يهزموا لالتحق بهم كل الناس!»، الله عز وجل يريد أن يفتن ويريد أن يبتلي، هذا من معرفتنا بفعل ربنا، لماذا فعل هذا؟ ابتلاء، لماذا يقع الابتلاء؟ ليقع التعبّد على جهة الحقيقة، فالله لا يحب الخداع، لا يحب الكذب، يجب أن يظهر الإنسان في الوجود على ما في قلبه ليقع الحكم الإلهي على وجه بيّن بلا خفاء، فلو انتصر الأنبياء لكان في نصرهم فتنة للناس فيدخل فيه كل أحد، ولو هُزموا دائمًا لما التحق بهم أحد ولقيل لهم أين ربكم؟ ولكن يقع بين هذا وهذا، وذلك كله بحسب أسماء الله وصفاته.

فإذًا أنت تريد أن تفهم تقلّبات الدعوة إلى الله، قدر الدعوة على وفق أسماء الله وصفاته؛ فحينئذٍ ما تراه من الوجود لا يصيبك بالحيرة ولا يصيبك بالانتكاس ولا اليأس ولا يصيبك بأنك ستمشي طريق هين وسهل، ويقع منك فهمك لهذا الوجود بحسب أسماء الله وصفاته، وبحسب تقلّبات الوجود تتعبَّد الله بالحال الذي أنت فيه، الحال الذي أنت فيه تتعبَّد الله كما يقع في أحوالك، الآن لما أنت تشرب تحمد الله؛ فيقع منك الفعل الشرعي بحسب أحوالك، وكذلك هكذا قدر الدعوة؛ فيمكن أن تفسّر كل شيء على هذا الأساس سواء كان خاصًا أو عامًا.

ومن ذلك حتى تتجلَّى هذه الصورة بأجلى معانيها لأن التمثيل كلما توسَّع توسَّعت مدارك المرء في هذا الباب، مثل قضية الإعذار.. يعني مرات كثيرة العبد يقع منه معاني باطلة في صبر الله، فيقول قائل: لماذا يعذّب الله هؤلاء العصاة، فيفهم العبد أن الله يحب الإعذار، وأنه ليس من المرة الأولى، يصبر عليه.. آمنا بالصبر لكن نتحدَّث عن الإعذار، لأنه لو وقع العذاب من المرة الأولى لوقع بعض اللوم بالفعل، يعني اصبر عليه حتى تعذر له مرة بعد مرة فيقع الإعذار، وفي الحديث الله يحب العذر، ما معنى يحب العذر؟ بمعنى أنه جلَّ في علاه يترك للمرء أن يتوب، ويحب ربّنا أن يقيم الحجج حتى تنقطع هذه الحجج.

فنرى مثلًا أن الله عز وجل بالنسبة للعصاة أنه يبقى فيهم: إما أن يتوبوا فيعودوا، وإما أن يقع منهم الدليل الذي لا يمكن أن يُردّ.. يقع منهم الفعل الذي لا يُرد..؛ معناه بأنهم عصاة لا يمكن أن يتوبوا! فيقيم ربنا الحُجَّة مرة بعد مرة بعد مرة، يعاقبه بالعقوبات القدرية، ويقع الإنذار: الناس ينذرونه، ويقيمون عليه الحُجَّة، ويبلّغونه؛ فحتى إذا انقطعت الحجج أخذه وعذَّبه؛ لأنه حينئذٍ لا يقول: لو صبرت علي! فالله يحب العذر.

فأنت عدم اعتراضك على أقدار الله الجارية في الخلق إنما فهمته من أسماء الله وصفاته، الله يحب العذر، فهمت هذا المعنى في نفس الرب، هذا يحب العذر هو معنى في نفس الله عز وجل، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، نفس الرب فيها هذا المعنى فيجري في الوجود، فحينئذ لا تعترض، وإذا رأيت مثلًا أن العصاة يعطيهم الله، فتقول: لماذا يعطي المؤمنين البلاء ويعطي الكفار العطاء؟ هذا قانون يعذرهم، يقول لهم خذوا، تريدون مالًا؟ تفضلوا مالًا، تريدون زينة الحياة الدنيا؟ تفضلوا زينة الحياة الدنيا، وبعد الإعذار ماذا يقع؟ عليك أن تعلم نفس الرب، بأن الله عز وجل قال: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فيقع هذا، وهذا يحتاج إلى أن تفهمه، فهذا من فهمك لنفس الرب، أن الله عز وجل يريد منهم حتى ترتفع الدرجات وترتفع ليقع منه المكر الإلهي، وأنت فهمت الآن صفة جديدة!: بعد أن وقع الإعذار حتى تمّ وبلغ يقع منه المكر، فيعطيهم ليكون الهبوط والنزول والعذاب شديدًا؛ لأنه لو أُخذ من شيء بسيط لكان في ذلك بلاغ ولكن بلاغ يسير، لكن لو وقع وهم في العلو؛ لعلم الناس أنهم لم يوقعهم من هذا العلو إلا الله! لأنه لا يقع من البشر فهم في علو ولا أحد يقدر عليهم.. فلما وقعوا من علو يدرك الناظر بأنه لم يقع هذا السقوط إلا من الله، نحن نتكلم أن هذا كله ابتلاء وللأسف بعض المؤمنين لا ينتبهون لهذه الأمور ولا يفهمونها.

والمعنى الثاني: كذلك أن السقوط من العلو هو بلاءٌ عظيم: العذاب الشديد، فبعد الإعذار يقع العذاب الشديد، لا يقول أحد هذا أمرٌ يسير، بل هذا أمرٌ عظيم، حتى يفهم الناس أن التعامل مع الله أمره شديد، نوح عليه السلام عبد الله تسعمائة وخمسين سنة فلما بدا منه كلمات لم يحبها الله عز وجل ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦)﴾ [هود: ٤٦] انظر هذا الخطاب لرجل عبد ربَّه تسعمائة وخمسين سنة!

أعظم جريمة في الوجود الاعتراض على شرع الله وقدره، هو كل الكفر، يقول المرء: لا يعجبني هذا.. لا يعجبك؟! لو كنت عابدًا طوال عمرك...! وهذا أمر أنا لا أفهمه فلا أقبله!

ونوح عليه السلام ظنّ ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥] هو ظنّ أن الله وعده أن ينجي أهله، ولم ينتبه إلى إنجاء أهله المؤمنين، فقط لم ينتبه لهذا؛ فهدَّده الله هذا الوعيد الشديد! فكيف لو وقع ممن لم يعبد ولم يأت بمثل هذه الأفعال العظيمة كنوح من التعبّد؟! فهذا شيء مهم.

ومن هنا قضية أن يفهم المرء الأقدار؛ هذا هو مقدار الامتحان في الوجود، وأعظم درجة تعبّد، بم بلغ أبو بكر الصديق؟ بم سُمي صديقًا؟ للتسليم، هو يفهم أبو بكر كثيرًا من الأقدار فإذا عجز عن فهمها سلَّم، وهذا هو أعظم درجات التعبّد، الأصل هو أن تعلم ولكن تبقى أقدار الله جارية حتى تمتحنك فيما لا تعلم، وهذا يقع للأنبياء ولغير الأنبياء، والأنبياء يفهمون الكثير من الأقدار ولكن تبقى حكمة الله فوقهم حتى تتجلَّى صفة من صفات الله وهي الكبرياء، **(الكبرياء ردائي والعزة إزاري)** الكبرياء أعظم.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في حديث ناقته عندما جاء رجل أعرابي فسبقه على قعود له شقَّ ذلك على الصحابة أن يأتي أعرابي فيسبق ناقة النبي صلى الله عليه وسلم، فكيف فسَّر النبي لهم هذا الفعل؟ هزيمة هذه الناقة التي كانت لا تُسبق؟ فسَّرها بأن الله عز وجل لا يرتفع شيء في الوجود إلا وضعه، لماذا؟ تجلّيًا لاسم الله الكبرياء، ما يصير واحد فوق، ولا ناقة النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك حتى الأنبياء يقع منهم المرض، وتقع منهم الهزيمة.

فأنت إذا فهمت هذه الصفة أن الله متكبر ولا يقبل لأحد أن يبقى هكذا يقف على الدوام.. فحين تفهم أنت هذا تفهم هذا الوجود حتى ما يصيبك أنت وحتى ما يصيب الأنبياء، الله عز وجل في قضية الكبرياء لا يرضى حتى الأنبياء وحتى أحبابه يصيبهم من البلاء من أجل إظهار التعبّد، لأن مقام العبد مهما علا في الوجود هو مقام التعبّد، أنك عبد، عبدٌ ليس في التزامك للشرع ولكن كذلك بوقوع الأقدار عليك والتسليم بها، بل إن التعبد في معناه هو جريان الأقدار عليك قبل جريان الشرع عليك، أن تجري عليك الأقدار فتسلَّم لها؛ فإذا فهمتها كنت عظيمًا وإذا سلَّمت لها كنت عظيمًا.

ولا يمكن لأحد في الوجود أن يفهم كل أقدار الله حتى الأنبياء، ولذلك الله عز وجل رأيناه في الأنبياء عند اللحظات: يعني ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)﴾ [هود: ٨١]، فيه اعتراض يعني الصبح بعيد؟ الصبح قريب ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١].. فهذا قول الله، إذًا وقع هناك شيء بين: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١] و: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)﴾ [هود: ٨١]، وقع بينهما شيء من الكلام هو هذا الذي يقع يعني الآن فجاء الجواب ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)﴾ [هود: ٨١]، يعني الآن أو لا في النهاية سيأتي فلا تستعجل.. لأن الأنبياء يقع منهم كذلك التسليم للأقدار، لأن الأنبياء هم بشر كذلك، نحن نتحدث هنا

عن الأنبياء ولا نتحدث عن أنفسنا.. لما إبراهيم عليه السلام قال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ [لقمان: ٢٣]، القرآن ردَّ عليه قال ومن كفر سأطعمه، لكن هو قال: فقط أطعم المؤمنين، فقال له الله عز وجل: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ [لقمان: ٢٣].

فتجد أن امتحان الأقدار للعباد هو أجلّ ما يقع ولا يمكن للمرء أن يفهمه إلا بالنظر إلى نفس الله.. إلى طريقة فعل ربنا في الوجود، وهذه الطريقة هي كلها تجلّيات لأسماء الله وصفاته.. أنت تقول: فلان كريم يعني ماذا؟ أنت تتوقع إذا ذهبت عنده أن يكرمك لأنه كريم، تقول: إنسان مسامح فلو وقع من ذنب لجهته تفهم أنه سيسامحك، وربما هو يلومك وربما يشدّد عليك في الخطاب ولكن هو سيسامحك، فأنت تفهم منه.

وهكذا كلما فهمت صفة من صفات الله أجريتها على هذا المعنى من التعبد لله، كما قال الأعرابي عندما قيل له سنموت ثم يحاسبنا، فقال: من سيحاسبنا؟ قال: الله، فقال: والله ما عهدنا عليه إلا كل خير، فهو نظر في هذه الحياة.. فالإنسان يراقب وله بصر.. وهذا العماء الموجود في هذه الدنيا من الأشخاص والناس هذا عماء مهلك، لا أحد ينظر لعين الله، لا يوجد توجيه: انظر إلى فعل الله، الناس في غفلة، ما معنى الغفلة؟ الغفلة أن يؤذن المؤذن فلا يذهب للصلاة، أن يأتي وقت الزكاة فلا يزكي، هذه غفلة، ولكن الغفلة الأعظم أن تقع هذه الأقدار فلا تُنسب إلى الله! وفي كل شيءٍ له آية، أنت عندما ترى الشمس فلا تقول سبحان الله مع أن هذه آية قدرية.. وعندما ترى تقلّبات الليل والنهار وهذه الآيات العظيمة في القرآن بذكر الليل والنهار والتقلّبات وهذه لا تذكرك فهذه غفلة، كذلك أن تقع الأقدار: هنا هزيمة، هنا صعود ملك، هنا نزولك ملك، هنا ولادة ولد، هنا موت ولد، فالغفلة أن تمرّ عليك هذه الأقدار وتراها في الوجود ولا تنسبها إلى الله ثم لا تفهم لماذا أجراها الله؟ ولا تتعبَّد الله بهذا النظر.

ولذلك أعظم عبادة هي التفكر، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾ [آل عمران: ١٩٠] كيف؟ ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فالتفكّر هو الذي يؤتي بالذكر، تفكّرك في كل شيء يأتيك بذكر الله؛ لأن الوجود كله شرعًا وقدرًا كلّه خاضع لهذه الكلمات الأربع: (**سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر**)، ما من شيء إلا يذكرك بعظمة الله: الله أكبر، ما من شيء إلا يذكرك بقدسيته وبتنزيهه: سبحان الله، كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رأى شيئًا فأعجبه سبَّح: سبحان الله، ما من شيءٍ في الوجود إلا هو نعمة، حتى البلاء هو نعمة، فيحمد الله، ما من شيء إلا ويذكرك بأن الفاعل الحقيقي لهذا الوجود هو الله، والذي ينبغي أن يعبد هو الله: لا إله إلا الله.

فلذلك مرآة الوجود في كونه وشرعه، كلها مجموعة في هذه الكلمات الأربع، وهذه لا ينطقها المرء على جهة التعبّد التام والذي يحبّه الله إلا أن تقع على جهة التفكّر في شرعه وقدره، فلذلك هذا الباب وهو باب تعلّم أسماء الله وصفاته هو أعظم ما يتعلَّمه المرء، ومن هنا نأتي إلى أن أعظم ما في القرآن هو الحديث عن الله، وما نزل القرآن إلا ليعلّم البشر من هو ربهم فقط، ونحن علينا أن نوقن بأن كل شرع هو من أجل أن يعرّفنا بنفسه وكل قدر من أجل أن يعرّفنا بنفسه والقرآن ما نزل إلا ليعرفنا من هو الله وأعظم ما في القرآن هو هذا، وإذا فهم المرء هذا أحبَّ كتاب الله على هذا المعنى.

ولذلك الصحابي عندما سأله النبي صلى الله عليه وسلم وقد اعترضه المصلون في مسجد قباء: لماذا يصلي بهم في كل ركعة بعد كل سورة بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص: ١]؟ قال: إنها صفة الرحمن وأنا أحبّها، ولا يوجد إلا آيتين يشبهان بعضهما البعض في قضية التقرير: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢)﴾ [آل عمران: ٢]، هذه قال: إنها أعظم آية، وهذا من فقه أُبيّ عندما سأله عن أي آية أعظم في كتاب الله؟ لم يذهب إلى آيات الأمر بالجهاد مثلًا، ولم يذهب إلى آيات الأمر بالذهاب للصلاة، مع أنها آيات عظيمة وفيها بيان ما يحب الله، لو قال على آية الصلاة، لقال قائل نعم هذه آيات عظيمة، ولو قال سورة، لن يذهب إلا إلى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص: ١] لأنها هي التي تتحدث عن الله، ولكن سأله عن أعظم آية فذهب إلى هذه.. لماذا فهم أن هذه أعظم آية؟ لأنها تتحدث عن أجلّ ما يتحدث به القرآن وهو عن الله فقط ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، تقريرات عشر فيها عن ربنا عز وجل، ولذلك هذا من فقهه.

وهذا نحن لا ندركه إلا إذا علمنا لماذا خلقنا الله ولماذا أنزل شرعه؟ لماذا خلقنا نحن بهذه التركيبة؟ فينا الضعف، فينا الغفلة، فينا الهوى، وفينا كذلك الفقر الذي هو أعظم سبيل للتعبّد، فخلقنا فقراء كما يقرّر العلماء منهم ابن القيم رحمه الله كما في «طريق الهجرتين» يقرّر بأن مدخل التعبّد للعبد هو أنه فقير بذاته وأن الله غني بذاته، وأنت عندما تسأله فيعطيك، فتسأله لأنك تعرف أنه كريم، ويعطيك فيوجب هذا منك الحمد والشكر، فمن أين انطلق هذا السؤال؟ هو أنك فقير بذاتك، ولذلك جاء الدعاء، لماذا شرعه الله؟ لأنه كريم ولأنك فقير، فأعطاك بابًا من أبواب الرزق، فتح لك بابًا من أبواب العطاء وهو الدعاء.

فأعظم ما في كتاب الله هو الحديث عن الله؛ ولذلك تجد أن أغلب الآيات القرآنية فاصلتها الحديث عن الله، بما يلائم من هذه الأسماء ما تقدَّم من الآيات، فيقول: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢)﴾ [الدخان: ٤٢]، ﴿الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)﴾ [الدخان: ٤٩]، ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١)﴾ [المائدة: ١٠١]، يتحدَّث عن نفسه.. وهذا بابٌ عظيم وهو أن يربط العبد بين ما تقدَّم من ذكرٍ في القرآن وهو الفاصلة القرآنية، -ما معنى الفاصلة؟

الفاصلة أي ما يُختم بها الآية: غفور رحيم، عليم حكيم، أو حكيم عليم، عزيز حكيم، تواب رحيم، وهكذا هذه الخواتم التي تتحدث عن صفات الله هذه تُسمى الفاصلة القرآنية- هذه الفاصلة القرآنية كأن الله يريد أن يقول لك بأن كلَّ ما تقدَّم لتعلم هذا الاسم الذي خُتم به ومن أجل أن تتعبّد الله به. ودورك -وهذا سيأتي إن شاء الله ما هو دور العبد مع الأسماء- ولكن نتحدَّث الآن عن قيمة تعلّم العبد لأسماء الله وصفاته.

فإذًا أجلّ ما ينبغي أن يُشرح ويُفسّر في كتاب الله هو أسماء الله وصفاته، الحديث عن علم الله، الحديث عن قدرة الله، الحديث عن سعة رحمة الله، الحديث عن مغفرة الله، الحديث عن نفسه أنه ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾ [الحديد: ٣]، وكيف تجتمع الصفتان من أجل أن يحصل التكامل، هذا سيأتي: لماذا عزيز حكيم؟ لماذا تجتمع دائمًا العزة مع الحكمة؟ لماذا تجتمع التواب مع الرحيم؟ لماذا تجتمع العزيز مع الرحيم؟ فيحصل التكامل وليُدرأ من نفس العبد ما تحققها الصفة إذا انفردت، فالصفة إذا انفردت قد يقع في نفس العبد معاني لا يحبها الله ولا يريدها فتأتي الصفة مكملة لهذا المعنى ونافية لما يقع في نفس العبد ما لو استقلَّت، فأجلَّ ما نتعبَّد به الله هو أن نعلم أسمائه وكل العبادات من أجل تحقيق هذا المعنى وما نزل الكتاب وما في الكتاب هو كله من أجل أن يعرف المرء ربَّه ثم يحصل به التعبّد وهذا إن شاء الله نتحدَّث عنه.

فهذا باب عظيم، جليل، مهمٌّ جدًّا، وإن كان العلماء قد صنَّفوا فيه مصنّفات قليلة في الحقيقة، فالمصنّفات في أسماء الله قديمًا هي مصنّفات قليلة ولكنهم يُعلمون هذا في كتبهم ويشرحون هذا في كتب التفسير وكتب الحديث، وتجد هذا المعنى بيّنًا ظاهرًا في كلام أهل العلم، ولو رجعت إلى تفسير الطبري رحمه الله هذا يتحدَّث عنه بإسهاب: لماذا وقعت هذه الصفة هنا؟، وابن كثير رحمه الله أيضًا، وإن كانت الكتب في أسماء الله وصفاته قليلة.. يعني عندنا مثلًا للغزالي رحمه الله كتاب، لابن حزم رحمه الله كتاب، وإن كان لم يصل إلينا ولكن ذكره الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى» وكذلك ابن العربي المعافري المالكي له كتاب في أسماء الله وصفاته.. أنا لا أتحدَّث عن المعاصرين فالمعاصرين كتبوا فيه ولكن أتحدث قديمًا فالكتب المصنفة الخاصة بأسماء الله وصفاته قليلة، ولهم مذاهب إن شاء الله ربما نمرّ عليها عندما نتحدث عن بعض الأقوال: ما منهج الغزالي؟ ما منهج ابن العربي؟ وهكذا نتحدَّث عنها إن شاء الله تعالى.

أعتقد أن هذا يكفي لليوم إن شاء الله.

جزاكم الله خيرًا، وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا في القرآن تقديم الصفات على بعضها: يعني أحيانًا يقول: ﴿الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾، وأحيانًا يقول ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؟

الشيخ: كل هذا تبعًا لما تقدم.. عليك أن تقرأ الآية من أولها وسياق الآية في السورة.. فحينئذ تهديك لهذا المعنى، يعني مثال ذلك العلماء ذكروه وهذا شيء يُتوسّع فيه وإن شاء الله سيكون جزء من الكلام فيه.. أي لماذا وقع: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة: ١١٨] فالمناسب لها هو ما قاله إبراهيم: إنهم عبادك وإنك أنت الغفور الرحيم هذا المناسب لها، فلماذا جاءت العزيز الحكيم، فالعزة والحكمة غير مناسبة للمغفرة.. فإذًا هنا معنى لا بد أن تلتفت له وهو كما قال أغلب أهل العلم: أن هذا ليس مناسبًا لهم لأنهم عبدوا غير الله وقالوا: عيسى هو ابن الله، فلذلك المناسب ليس المغفرة والرحمة فقال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المائدة: ١١٨]، يعني هذا لا يقع فقال: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة: ١١٨].. بخلاف ما وقع لأوليائه من كلام إبراهيم فإن المناسب لهم ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨)﴾ [الأحقاف: ٨].

فلماذا وقع مثلًا في سورة النور ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾ [النور: ١٠] هذه فقط آية، وسنرى أن هناك بعض الصفات اجتمعت مرة واحدة فقط مثل: تواب حكيم، لا توجد إلا في سورة النور، لماذا تواب حكيم؟ وليس تواب غفور؟ وليس غفور تواب؟ وليس رحيم تواب؟ ولماذا وقع هنا ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢)﴾ [الدخان: ٤٢] في سورة السجدة؟ فهذا لا يمكن أن يُفهم هكذا، وإنما يُفهم بحسب سياقه.. السياق ماذا يناسب؟ وهذا تكلَّمنا عنه بأن الفاصلة القرآنية هي مظهر لما تقدَّم من الذكر وهي تفسير لما تقدَّم من الذكر ولا يمكن أن تُفهم إلا من خلال سياقها فيما تقدَّم من الذكر القرآني.

السائل: شيخ اللهم صل على سيدنا محمد كنا شرحنا أنه من أسماء الله جل جلاله كيف تحقق في بعض البشرية مثل سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه أعظم درجات التعبّد.

الشيخ: صلى الله عليه وسلم، هذه مصدرها أمران:

الأمر الأول: كلما اتسعت معارف المرء بربّه كلما علم معنى أقداره ومعنى شرعه ولماذا هذا الشرع.. فكلما اتسعت معرفة المرء بأسماء الله وصفاته وتعبَّد الله –وهذا علم يُعطى بالقراءة ويُعطى كذلك بمقدار تقرّبك من الله، فالله لا يُعلم إلا بأمرين: بما أخبر به عن نفسه وأخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم،

وبمقدار ما يحصل في قلبك من المعارف بالتقرّب إليه؛ ولذلك قال –سبحانه وتعالى–: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)﴾ [العلق: ١٩].. فكلما اقترب العبد من ربه بالسجود لأن أعظم درجات القرب من الله هي السجود: **(أعظم ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)**، فلذلك كلما تقرّب من الله كلما علمه، ولا يكفي أن يتعلّم المرء معاني الأسماء والصفات على جهة عقلية ومعرفية.. هذا لا ينفع، وإنما على جهة التعبّد.. وجهة التعبّد أن تذوقها، وأن تفهما فهمًا قلبيًا؛ ولذلك قال: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)﴾ [العلق: ١٩] فجعل الاقتراب منه طريقه السجود، مع أن بداية السورة: ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ٣] فجعلها طريق العلم وجعل خاتمة الأمر وأهميته ونهايته هو ﴿وَاسْجُدْ﴾ [العلق: ١٩]. أول شيء لتتعلم عليك أن تقرأ.. أنزلته عليك لتقرأه وتعلم ما عندي ولتعلمني من خلال ما أنزلته إليك من كتاب وهو هذا القرآن وإذا أردت الزيادة: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)﴾ [العلق: ١٩].

ولذلك في الآية التي تقدّمت قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾ [آل عمران: ١٩٠] ماذا قال؟ ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ [آل عمران: ١٩١] اجتماع الفكر وهو عمل العقل أولًا بالنظر إلى كتاب الله والنظر إلى الموجودات، وكذلك الذكر وهو التعبّد وهو اسجد. وأعظم الذكر هو السجود، وأعظم العبادة في الوجود هي الصلاة؛ عُبّر عنها بأجزائها وأعظم أجزائها. يعني أعظم الأذكار ما هي؟ أعظم الذكر هو الصلاة.. وعبَّر عن الصلاة بأعظم ما فيها وهو السجود.

ولو قال قائل لماذا قال الله –عزَّ وجلَّ– لمريم: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [آل عمران: ٤٣] وما قال: واسجدي مع الساجدين؟ فلم يذكر لها هذا الأمر وإنما ذكر ما هو أدنى منه وهو الركوع؟ ذلك لأن الأمر أمر جماعة: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [آل عمران: ٤٣]، وفي الجماعة لا يُذكر أعظم ما فيهم لأن الجماعة شأنها أن يجتمعوا على قاسم مشترك والقاسم المشترك هو الأقل أو القليل أو الوسط ولكن ليس الأعظم، ولكن من جهة نفسك عليك أن تذهب إلى أعظم ما فيها وهو السجود؛ ولذلك قال: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)﴾ [آل عمران: ٤٣] ولم يقل: واسجدي مع الساجدين.

إذًا في قضية الأقدار ينبغي أن يسلّم العبد.. وهنا نأتي إلى نقطة: هل يوجد أحد في الوجود بلغ الغاية التي تفسّر له كل ما في الوجود على جهة ما في نفس الرب؟ الجواب: لا، حتى الأنبياء –وضربت هذا المثال– فإن العبد ممتحنٌ بالفهم وممتحنٌ بالتسليم، ولا بد من وقوع هذا التعبّد حتى من الأنبياء، العبد ممتحنٌ بالعلم أن الله يفتح عليه من أبواب العلم ما ترفع درجته ويتذوقها، وكذلك ممتحن بالتسليم حتى الأنبياء؛ ولذلك لا بد من أن يقول سلّمت.. خلاص لا أفهم.. وهذه هي نهاية الطلب في التعبّد وهو

التسليم. وهذا رأينا لو أخذنا سيرة النبي صلى الله عليه وسلم على أنها هي مسيرة التعبّد بالنسبة للصحابة خاصة في موضوع الجهاد وهو أعظم الابتلاءات بالنسبة لمجموع الأمة لرأينا أن خاتمة الابتلاء هو ما حدث في الحديبية! ولرأينا أن خاتمة الابتلاء في مسيرة المرء في تعبّده لربّه وقع في الحديبية.. ولذلك كان أشق ما يقع عليهم ولم يفهموها فسلَّموا. وتصور هي عند الله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ [الفتح: ١]! ماذا يلزم الفتح المبين؟ أن يكون بيّنًا، وهو بيّنٌ في نفسه ولكنه خفي عن غيره. ولذلك لما تناقش عمر وأبو بكر رضي الله عنهما فيهما وهما الصدوقان الصدّيقان لم يكن جواب عند الصدّيق الأعظم للصدّيق الذي يليه إلا أن قال له: أليس رسول الله؟ فلو كان عند أبي بكر وجه من التفسير لفسَّره، فهو عند الله وفي نفسه، لأن الأشياء تكون على مراتب ثلاثة قالها الله:

أولًا: في شأنها عند الله.

ثانيًا: شأنها في نفسها.

ثالثًا: شأنها عند البشر؛ قال ذلك في سورة «البقرة» في آية الدين: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وماذا بعدها؟ ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وثالثًا لما دخلت في البشر قال: ﴿وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢].. فانظر هو استخدم أسلوب التفضيل هي عند الله أقسط، وفي نفسها، وأدنى ألا ترتابوا.. فهي محت محيًا كاملًا إلا قليلًا، لكن لما جاء من جهة البشر ماذا قال؟ ﴿وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فقال: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أسلوب أفعل للتفضيل لكن لما جاءت للبشر قال: ﴿وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فالأشياء في الوجود لها ثلاثة مظاهر:

المظهر الأول: كما هي عند الله وهو الأعظم.

المظهر الثاني: كما هي في نفسها، وهي عند الله كما في نفسها ولكن على معنى آخر من الفضل التكميلي.

المظهر الثالث: وهي بين البشر.

ولذلك صح الحديبية في نفسه فتح مبين، وعند الله فتح مبين، وأما عند البشر فهو مغلق لم يفهموا منه شيئًا، وهو أعظم درجات التعبد فقد ابتلاهم الله بالتسليم، والابتلاء في أحد شيء آخر: ابتلاء بالعقوبة. وفي بدر: الابتلاء بالنصر، ووقع ابتلاء بـ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: ١]، انظر إلى الامتحان! حتى

في النصر وقع ابتلاء، هو نصر الابتلاء أو هو ابتلاء النصر، وفي أحد ابتلاء على معنى آخر.. ومشت المسيرة النبوية في التعبّد في مراتب الجهاد مثلًا في هذا الباب إلى قمتها حيث وصلوا إلى امتحان أن يخرجوا منه وأوراقهم بيضاء فيها كلمة واحدة فقط: «إنا لله وإنا إليه راجعون».. فيها كلمة واحدة: «حسبنا الله ونعم الوكيل».. فيها كلمة واحدة: نحن عبيدك.. كلمة واحدة.. هي ورقة امتحان، والعبد كل يوم عنده أوراق امتحان كثيرة.. قد تكون ورقة واحدة.. قد تكون ورقتين، ثلاثة، أربعة كل يوم، عليك أن تفهم أن الحياة على هذا المعنى.

ويمكن أن تشرح في بعض المواقف ولكن في صلح الحديبية خرجت أوراقهم بيضاء فيها كلمة واحدة: الزم غرزك.. أليس هو رسول الله؟ فقط سلِّم.. لم نفهم شيئًا ولكن سلَّمنا، فبعد ذلك قال ربُّنا عز وجل: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ [الفتح: ١]، فقال عمر: «أهو فتح؟»، قال: «نعم هو فتح»، وبعض المفسرين جعل ﴿فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ [الفتح: ١]، يعني مكة، وهو غير صحيح، وصلح الحديبية هو الفتح المبين وما فتح مكة إلا أثر لهذا الفتح المبين.

فالقصد: بأن ابتلاء العبد بالتسليم هذا سيقع لكل أحد حتى يحصل منه الفضل.. يعني الله يعطي الأنبياء طعامًا ليشكروا، ويمنع الأنبياء الطعام ليصبروا ليقع التعبّد؛ لأنهم أكمل الناس، ولا يقع الكمال البشري إلا بهاتين المرتبتين: الفهم والتسليم، فلو وقع منهم الفهم لكل شيء وما وقع التسليم لما كملت عبوديتهم لله، وإنما كملت عبوديتهم لله عز وجل بالتسليم، حيث يُبتلى العبد فلا يفهم ولكن يعلم أنه عبدٌ لله.. فتجلَّت العبودية في هذا، وتجلّي العبودية في نفس العبد في العلم لها معنى يختلف عن تجلّي العبودية في نفس العبد في التسليم.. فهذه مرتبة وهذه مرتبة.

السائل: شيخ قلنا في جحود العاصي إن من صفات أسماء الله الحسنى عليه السقوط من العلو وهو بلاء عظيم حتى يوقن العاصي أنه من الله عزَّ وجلَّ.

الشيخ: يعني الآن لماذا يمكر الله بالعبد بعد إقامة الإعذار؟ تكلَّمنا عن الإعذار ثم تكلَّمنا عن سبب إغراء الله العبدَ بعد أن يقيم عليه الإعذار يغريه بالمال ويزيّن له ويمدّه؟ من معاني هذا الأمر.. وقد يقع في نفوس العابدين أمور أكثر من هذا.. نحن نتكلّم عن الأمور الظاهرة البيّنة.. هذا مستوانا، يعني الولد الصغير إذا حملته بما يتعلّق؟ بلحيتك لأنه لا يرى غيرها، فنحن صغار متعلقين لا نرى إلا الجبال ولكن لا نرى دقائق الأشياء التي يراها المتعبّدون، فالمتعبّدون والكبار عند الله عز وجل يفهمون الأمور الدقيقة والأمور العظيمة متروكة لأمثالنا، كما أنك الآن لو مشيت لا تعرف النبط في الأرض فقد ترى جوهرة.. وبعض

الناس حتى يرى الجوهرة وهي على الأرض فلا يدرك أنها جوهرة، فلذلك نحن مرتبتنا هي الجواهر الظاهرة على الأرض البيّنة.. أما الباطنة التي تحتاج إلى نبط فيمكن لبعضكم أن يصل لمتر أو مترين ثلاثة أربعة لكن الصالحين ينبطون لمائة متر ويستخرجون الكنوز من النبط، فمما نراه أنه عند سقوط الكبار يتجلَّى اسم الله الأعظم أنه أنا الفاعل، أنا الله.

وهنا فقط نقطة مهمة جدًّا إخواني.. كل ما تراه في الوجود هو من أجل أن تدرك ما في الغيب.. كل ما تراه في عالم الشهادة هو لئن تدرك كيف يجري عالم الغيب، أعطيكم مثالًا: لو أن القرآن تحدَّث عن الحور من غير أن يكون هناك لذة الجماع التي يذوقها الإنسان فكيف سيتحدَّث معه القرآن ويقول له حور عين؟ فالله أقام لذَّة الجماع في الدنيا من أجل أن ينشّط فيك هذا المعنى من أجل أن تدرك المعنى في الآخرة.. فهو وسيلة، وهذا طبعًا من بعض المعاني وليس كل المعاني، هذا واحد من المعاني، الله أقام في الدنيا من اللذائذ ما ينشّطك للذائذ أمثالها في الجنة، والله أقام من العقوبات في الدنيا «النار، السقم، المرض، الألم» من أجل أن يعرّفك بعض ما يمكن أن يلاقيه العاصي في الآخرة.

كذلك أقام الله في نفوسنا من المعاني ما تدرك به المعاني في نفس الرب.. يعني أنت لما تجد في البشر رجلًا قتل ابن رجل فسامحه الأب.. فهذا حتى تدرك معنى السماحة في الوجود.. هذه الرقة التي تجدها في قلبك على ابنك وهو غير مهتم بك ومعرض عنك ولكنه إذا أصابه بلاء ركضت إليه! وهو يعصيك ويهرب من البيت وأنت تلحق به! من أجل أن تدرك معنى الرحمة في نفس الرب، انتبه لهذه المعاني عندما يقول: **(لله أصغى للعبد في قراءة القرآن من الرجل في قينته مع قينته)** كيف يضع العود ويصير يضرب عليه وهو لأنه ذوّاق ولأنه صاحب فن فهو يدرك الأخطاء والجماليات أكثر منك، فالله يصغي لقارئ القرآن أشد من أن يصغي صاحب القينة لقينته من أجل أن تدرك هذا المعنى، **(لله أشد رحمة على العبد من الأم على ابنها)**.. حتى تدرك.

فالله أقام في هذا الوجود من المعاني من أجل أن تدرك كيفية إجراء المعاني في عالم الغيب.. وهذا مهمٌّ جدًّا في هذا الباب وعليك أن تتعلَّمه وأن تفهمه في هذا الوجود.. كيف إن وقع العقاب من كبير عزيز يكون شديدًا.. كيف إذا وقع العقاب من عظيم لعبد إذا عصى يرجو منه الخير يقول أنا أطعمتك وسقيتك ثم تقع الخيانة.. كيف يكون عقاب من رُجي منه الوفاء فجاءت منه الخيانة.

ومن هنا في قصة بني قريظة لما حكّم النبي صلى الله عليه وسلم سعدَ بن معاذ رضي الله عنه لماذا قال: **(لقد قضيت فيهم بقضاء الله من فوق سبع سماوات)**؟ هذا الشيء المذهل لماذا؟ لهذا المعنى.. لأن سعد

بن معاذ خانه من رجى منه الوفاء **(أخواله)**.. هؤلاء الأنصار كان عامة أعمامهم وأخوالهم هم من بني قريظة.. يعني كان بينهم من الحب الشيء العظيم والشيء الكثير.. حتى إن أحدهم يؤخذ لترضعه اليهوديات من بني قريظة.. فرجل بهذا الحب وهذه الصلة ثم تقع منه الخيانة! يعني رجل بهذه الصلة بينك وبينه وأنت صديق له وتدخله بيتك ويدخلك بيته وإذا طلب منك شيئًا تقوم به ثم إذا هو يخونك في موطن فيه الزوال وليس موطنًا يسيرًا بل موطن يكون فيه السحق؛ فكيف يكون عقابك له؟ هل يكون عقابك لمثل من لم ترجو منه شيئًا؟ لو رجل لم ترج منه شيئًا تقول: أنا لم أرج منه شيئًا وهو أصلًا خارج حساباتي.. لكن رجل ترجو منه كل خير لسابق معرفتك ثم تقع منه المعصية والخيانة كيف سيكون عقابك له؟! ولذلك وقع في نفس معاذا ما وقع في نفس الله.. ولذلك ماذا قال له؟ حكمك لما وقع في نفسك -من أنهم خانوا، واليهود هكذا: الله أعطاهم، ومن عليهم، وأكرمهم، ثم وقعت منهم الخيانة- ولذلك قال: **(ما وقع في نفسك يا معاذ هو ما وقع في نفس الله، فحكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات)**.

هذا أهم ما يُتعلّم في الأسماء والصفات.. لا يهمنا أن نعلم فقط المعنى اللغوي وهذا مهم جدًا وإن شاء الله نبيّن مراتب العبد مع الأسماء والصفات تعبّدًا ومراتب العبد مع الأسماء والصفات علمًا.. فهذه إن شاء الله نأتي بها في الدروس القادمة ولكن هذه مقدمة.. لكن أجلّ ما تصل إليه هو هذه الخواتم التي تكلّمنا عنها.

جزاكم الله خيرًا، وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني: التعبد لله بأسمائه الحسنى

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم، آمين، آمين.

أهلا وسهلا بالإخوة..

في الدرس الفائت في موضوع أسماء الله وصفاته علمنا أن فضل هذه الأسماء مهم جدًا لأن ما يشرع ربنا مما يحب ويبغض ومما يأمر وينهى إنما هذا أثر من أسماء الله وصفاته، الله عز وجل يشرع الشرائع من آثار أسمائه وصفاته ويقدر الخلق ويخلق الخلق أثرًا من أسماء الله وصفاته، فلذلك أفضل درجات التعبد هو الدخول على الله من هذا الباب، هذا الدرس الفائت بينّا أنك لا تدرك الشرع إدراكًا تامًا صحيحًا خاليًا من عيوب البدعة والانحراف إلا إذا دخلت الشريعة من باب أسماء الله وصفاته، يعني الله عز وجل شرع المغفرة لأنه الغفور، والله عز وجل جعل شريعته رحمة مهداة بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وهو رحمة مهداة بما جاء من شريعة لأن الله عز وجل هو الرحيم فرحم الخلق بشريعته، فهذا جانب وفصلنا فيه بما إن شاء الله يكفي بما يناسب الحال.

وكذلك أنت تدرك خلقه سواء كان في الزمن أو في المادة التاريخ أو الجغرافيا كما يقولون بالعبارات المعاصرة، أنت تدرك وجه خلقها لأنها أثر من آثار أسماء الله وصفاته، الله عز وجل هو الخالق، الله عز وجل هو الحكيم، حكمة الله في شرعه وفي خلقه وقدره كيف الله خلق هذا الإنسان يحيا ويموت، وكيف خلق له الذرية لامتداد هذا من الحكمة، ونرى هذا الخلق المتسع العجيب لأنه الواسع، ورحم خلقه لأنه جل في علاه لم ينتقم منهم انتقام البطش السريع لأنه الصبور.

فالله قدر المقادير وخلق الخلق على وفق أثرها أثر أسماء الله وصفاته فلذلك عِلمك بالأسماء بأسماء الله وصفاته يدلك على شرعه وعلى قدره، وعلمك بشرعه وخلقه يدلك على أسماء الله وصفاته، يعني هذا يمد هذا وهذا يمد هذا.

ولكن المقصد هو أن تعرف الله، يعني الله خلق الخلق ليُعرف، الله قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢]، لتعلموا... فإذًا خلق الخلق، الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله، لتعلموا أولًا أن الله على كل شيء قدير، انظر هذا الخلق خلقه لنعلم خالقها، خالق هذه الأجرام والسماوات وخالق هذه الأراضين، أولًا للعلم.

وثانيًا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥٦]، فهذا هو العلم والعبادة خلق الخلق من أجل أن يعلم ومن أجل أن يعبد، وأعظم عبادةٍ هو العلم، ولكن إذا اجتمع العلم مع العبادة دل كل واحدٍ على معنى، وإذا افترقا دل كل واحدٍ على المعنى ما غاب، هذه قاعدة أهل العلم: «إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا».

فالمقصود في الدرس الفائت هو بيان أن شرعه هو أثر أسمائه وصفاته وأن خلقه هو أثر أسمائه وصفاته، ومن هنا ضرورة كل علمٍ ليمد الآخر، لا يقال بأن الأسماء والصفات تدلك على الخلق والشرع فقط، ولا يقال بأن خلقه وشرعه يدل على أسمائه وصفاته فقط، ولكن هذا يمد هذا وهذا يمد هذا، كالشرايين والقلب، لا تستطيع أن تقول القلب يمد الشرايين بالدماء ولا تستطيع أن تقول الشرايين تمد القلب، وكلها القلب يمد الشرايين والشرايين تمد الدماء للقلب، فأسماء عِلمك بأسماء الله وصفاته تمدك العلم بشرعه، وعلمك بشرعه يمدك علمًا بأسمائه وصفاته، وهذا يدل على أمرين اثنين:

الأمر الأول: أن أسماء الله عز وجل إن الكثير منها تدرك من جهة النظر، إن الكثير من أسماء الله وصفاته تدرك من جهة النظر وهذا الأمر ينفي قول بعض أهل العلم إن أسماء الله وصفاته لا تدرك إلا من جهة الأثر، خطأ هذا، هذا القول غير صحيح مع انتشاره في بعض كتبهم، هناك فرق بين إثبات الاسم وبين إدراك وجوده، فرق... يعني نحن أهل السنة لا يثبتون لله أسماء إلا بالنص، لكن هناك فرق بين إثبات الاسم وبين إدراك معناه، يعني هل يستطيع المرء أن ينظر إلى شرع الله فيدرك حكمته أنه حكيم؟ الجواب نعم، لو أن عاقلًا تفكر في شرع الله لأدرك أن الله حكيم بما شرع، لو جئت إلى فيلسوف غربي أو إلى فيلسوف غير مسلم وقلت له: على ماذا تدل هذه الشريعة؟ لقال لك كلمة واضحة: أن هذه الشريعة تدل على حكمة واضعها، لو فكر متفكر غير مسلم في خلق الله وقيل له: على ماذا يدل هذا الخلق؟ لقال:

هذا يدل على قدرة الخالق، على أن له خالق ودل على أن هذا الخالق قدير وأنه عليم وأنه حكيم وأنه واسع.

فالأسماء تدرك بالنظر وليس فقط بالأثر، فأسماء الله تدرك بهذا المعنى، ولذلك مما ذكره ابن القيم من قصة في جلاء الأفهام أن رجلًا ما سمع قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ رحيم﴾، قال: ليس هذا كلام الله، قال له: أتكذب كلام الله؟ قال: هذا ليس كلام الله، فلما قرأ في المصحف وجدها ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨)﴾ [المائدة: ٣٨]، قال: هذا هو كلام الله، عز فحكم فقطع، فهو أدرك مناسبة التقدمة للفاصلة القرآنية في أسماء الله وصفاته.

إذًا أسماء الله جل في علاه الكثير منها يدرك من جهة النظر ولكن إثبات الصفة لا يكون إلا بالأثر.

وهذا الأمر الثاني: إثبات الأسماء لا يكون إلا بالأثر، لو أن رجلًا أدرك بالنظر صفة من صفات الله وفعلًا من أفعال الله لم يأت به الأثر فهذا يثبت فعلًا، ولذلك باب إثبات الأفعال أوسع من باب إثبات الأسماء والصفات، هذه فقط مقدمة وإلا سيأتي تفصيلها في القواعد في أسماء الله عز وجل، باب إثبات الأفعال... الآن نقول الله عز وجل يبتسم، الله عز وجل يضحك، هذا واسع، باب أفعال الله أوسع لكن لا يجوز أن تجعلها اسمًا، فباب إثبات الأفعال أوسع من باب إثبات الأسماء.

المسألة الثانية في قضية التعبد: نحن ما يهمنا في أسماء الله وصفاته هو أن نتعبد بها، فإذا لم ندرك فضل التعبد بها لم يكن هناك فائدة إلا مجرد علوم تأتي إلى أذهاننا في هذا الباب ولا ننتفع بها.

الموضوع الأول: إذًا أنت تدرك أسماء الله عز وجل من خلال شرعه وخلقه، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وإدراكك للخلق والأمر يمدك، الآيات التكوينية تمدك علمًا بأسماء الله وصفاته وعلمك بأسماء الله وصفاته يمدك علمًا بشرعه وبقدره وبخلقه، هذا أولًا في موضوع الأسماء والصفات،

الموضوع الثاني: في باب التعبد بأسماء الله وصفاته: أنه كلما ازددت علمًا بأسماء الله وصفاته كلما ازددت تعبدًا له، والتعبد مبني على أمور، أهمها على أمرين مما يذكر العلماء، الأمر الأول التعبد يقوم على

الحب ويقوم على الخوف، وبعضهم يفصل فيقول: على الرجاء «على الحب والخوف والرجاء»، ولو قال قائل: بأن الرجاء أثر من آثار الحب لصدق، ولكن التفصيل عندهم مهم.

العبد المخلوق يتعبد الله عز وجل بأسماء الله وصفاته، يتعبد، ولذلك الله عز وجل قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ولا يقتصر هنا معنى الدعاء على معناه الاصطلاحي، هنا ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] ليس المقصود فقط الدعاء هو دعاء المسألة، ليس هذا المقصود، المقصود هنا فادعوه أي فاعبدوه بكل أنواع الدعاء، وهناك كما في سورة الفاتحة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، هناك دعاء العبادة والذي منه الثناء وهناك دعاء الاستعانة، وكل العبادة خاضعة لهذين المعنيين، كل العبادة، لا يوجد عبادة شرعها الله إلا وخاضعة لدعاء العبادة ودعاء الاستعانة، ومن دعاء العبادة دعاء الثناء على الله، لماذا؟ لأن أسماء الله عز وجل وضعت للخلق على معاني الآن نذكرها، أسماء الله عز وجل في دلالتها، لها دلالات.

فلا تنشأ العبادة إلا من أسماء الله وصفاته، هنا نحن ندرك الشرع أولًا وندرك القدر؛ لأن الشرع والقدر أثر من آثار الأسماء، الآن جئنا لشيءٍ آخر، ما هو؟ هو التعبد بأسماء الله وصفاته، لماذا؟ لأن دلالات أسماء الله عز وجل وأثرها على القلب فهناك أسماء الجمال التي تؤدي إلى الحب، هناك أسماء لله أسماء الجمال تؤدي إلى الحب، من ذلك أن الله سبحانه وتعالى هو الرزاق، أن الله عز وجل هو الرحيم، أن الله هو اللطيف، أن الله هو الجميل، أن الله هو الغفور، فهذه تبعث من نظر فيها إلى الحب فيحب هذا الإله لما فيه من هذه الأسماء.

ومن هنا فإن تعبد المسلم لربه هو أرقى أنواع العلاقة، أعظم أنواع التعبد ليس لِم يعطيك ربك من نعمة، هذه مرتبة من التعبد عظيمة لكنها مرتبة ثانية من التعبد، فرق أن تحب الله لِم فيه من جميل الصفات وفرق بين أن تحب الله بما يعطيك من نعمة، ما هو الأجل؟ انظر إلى رقي هذه العبادة، أنت لا تحبه فقط لأنه يعطيك وإن كان هذا من قبيل و﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)﴾ [الرحمن: ٦٠]؟ قاعدة من قواعد الوجود أنك تحب من يحسن إليك، لكن من أرقى؟ أن تحب من تحب لِم فيه من جميل الصفات دون أن تعود عليك بالمنفعة لمجرد أنه جميل الصفات وعظيمها فهذا حب المعاني، وهذا كما ترى ليس فقط رقيًا في درجة الإحسان لكنه رقيٌّ إنساني، ومن هنا فالمسلم في هذا الباب هو من أرقى أنواع البشر في علاقته مع ربه، فإذًا صفات الجمال تُنشئ هذا الحب لِم في ربك الذي تحبه من جمالٍ حتى لو لم تتعدى

صفات الجمال إليك، وسنتكلم عن أن هناك ثمة صفات لازمة لا تتعدى كصفة الجميل، كصفة الحي، فهذه الحي لا تتعدى إليك، وهذه ستأتي إن شاء الله في دلالة أسماء الله عز وجل على المعاني.

ثم بعد ذلك تنظر إلى آثار نعمة الله عليك فتحبه، فتحبه لما أعطاك من نعمة، لكن الأرقى أن تحمده، تحمده لماذا؟ ماذا يقول العابد في قيام الليل؟ الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه، وجلال الوجه ماذا ينفعك سوى أنه جميل؟ وانظر إلى جلال الوجه، وهنا جمعٌ بين الجمال والجلال، لا يفوت أن نذكر هذه المعاني ولو كانت في سياقٍ آخر، الله قال: **(كما ينبغي لجلال وجهه)**، الوجه يحب لجماله ولكن هنا لجلاله فدل على اجتماع الجلال مع الجمال، الجمال لوحده من غير جلال نقص والجلال من غير جمال نقص، الجلال من الهيبة، وقد تكون هيبته لغير جماله كما هو شأن الطواغيت والكبراء تنشأ هيبتهم من ظلمهم ومن عساكرهم ومن جنودهم ومن سلطانهم، ولكن جلال وجهه نشأ من جمال، وقد يكون جميلًا لا هيبة له هذا نقص، وكما هو جمال المرأة لا هيبة لها من غير سلطان.

فالله عز وجل يحب ويحمد لجلال وجهه، قال أيش بعدين؟ وعظيم سلطانه، فانظر، فقد أحب ربنا أحبه المحبون له أولًا لما فيه من جمالٍ وجلالٍ في وجهه جل في علاه في ذاته في صفاته في أسمائه، ثم أحبه العابدون لعظيم سلطانه لفعله الذي انتفعوا به، ومع ذلك لم يقل العابد إلا تلميحًا للنعمة التي أتت إليه عندما قال: وعظيم سلطانه، انظر، هذه تلميحًا، ما ذكرها إلا على جهة فعل الرب لا على جهة انتفاعه بها، لما قال: وعظيم السلطان إنما حمد لجهة انتسابها لله، من فعله، فحمد لفعله ولم يحمده العبد وهو حمد النبي صلى الله عليه وسلم أعظم الحامدين وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يحمده لجهة النظر إلى منفعته بها، ما قال وله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه ولِمِ أعطاني من نعمة ولِمِ مكنني من سلطانه، وإنما قال: لعظيم سلطانه، فحصل الحمد لانتسابها لله، بقي الأمر في قلب العبد... بقي الأمر لجهة انتسابه لله لا من جهة منفعته بها.

القصد: عليك أن تتعبد بأسمائه، كيف التعبد؟ أولًا بالنظر إلى هذا المعنى في أسمائه وصفاته وهو أن تنظر إليها بأنها حسنةٌ جميلة فتؤدي إلى الحب، والحب ينشأ لهذين المعنيين: المعنى الأول: لجميل وجلال هذا المحبوب، وثانيًا: لما يعطيك من نعمة ولكن هذه مرتبة ثانية، ولذلك إن الله عز وجل يحب للعبد إذا أكل الأكلة أن يحمده عليها، يحب الله ذلك، فأن تحمد الله على ما أعطاك من نعمة أن ترى الولد فأنت تحبه لما أعطاك الولد، أعطاك المال تحب وما أعطاك من خلقة وجمال وجعلك إنسانًا ما جعلك دابة،

وخلقك في أحسن تقويم هذه نعمة، فالله يحب، فأنت حمدت الله لأسمائه وصفاته، حمدته، وهذا الحمد مبني على الحب.

وهناك مرتبة ثانية في مراتب التعبد وهي: مرتبة الخوف، وهذه تنشئها أسماء الجلال والهيبة، أنت لما تعلم أن الله عز وجل شديد العقاب أنت تخاف منه، وعندما تعلم أنه جل في علاه له الكبرياء وله العزة فتنشأ في قلبك الهيبة والخوف منه، فأنت تتعبد بالخوف، إذا أنت تعبدت الله عز وجل بالحب وهو أعظم أنواع التعبد، ما هو الأعظم أن تعبده بالحب أم بالخوف؟ بالحب أعظم، ولكن لا بد مع الحب الخوف، -انتبهوا- كل نوع من أنواع العباد -هذه ستتكرر كثيرًا في هذه الدروس، هذه الكلمة التي سأقولها- كل عبادةٍ وكل اسمٍ من أسماء الله مع الآخر ينشأ كمالًا جديدًا وتعديلًا لما يطرأ على الذهن من خطأ في المعاني.

لماذا دائما تقترن العزيز الحكيم؟ -هذا نعجل به وإن كان سيأتي تفصيله- لماذا يقترن السميع العليم؟ لماذا يقترن العليم الحكيم أو الحكيم العليم؟ العليم الحكيم في سورة يوسف، الحكيم العليم كثيرًا، لماذا تقترن؟ الاقتران لينشأ أولًا علمًا جديدًا ومعنًا جديدًا، ولكنه يعدل معنًا طارئًا، إذا أولًا: يكمل معنى، وثانيًا: يعدل معنى، يصنع كمالًا وتعديلًا، فإن اجتماع الحكمة مع العلم ينشأ علمًا جديدًا غير ما لو انفردا، الحكمة صفة كمال في ذاتها لا يعتريها النقص، فكيف لو اجتمعت مع العلم؟ العزة صفة كمالٍ بذاتها فكيف لو اجتمعت مع الحكمة؟ فتنشئ علمًا جديدًا، تنشئ معنًا جليلًا جديدًا.

وكيف تعدل المعنى؟ ما لو نشأ في ذهن العبد معنًا باطلًا في انفراد الصفة لوحدها تعدلها الصفة الأخرى، هي أولًا تُنشئ عِلمًا جديدًا، ثانيًا تعدل معنًا طارئًا، يعني لو قال: هو عزيز والعزيز قد يبطش وقد يظلم، فتأتي الحكمة، قد يكون عزيزًا له الجنود وله الممالك وله السلاطين وهو عزيز، وسنرى أن معنى العزة الانفراد، العزة بمعنى الانفراد، يقول لك: شيءٌ عزيز، يعني نادر، وتأتي بمعنى العزة التقدم -هذا كله سيأتي إن شاء الله- فتأتي كلمة الحكيم أنه عزيزٌ وحكيم لا يبطش خارج العدل ولا خارج ما هو مطلوب ولا يتجاوز الحكمة، فإذًا هي تعدل، أولًا ماذا؟ أنشأت عِلمًا جديدًا، وثانيًا عدلت معنًا طارئًا.

فإذًا لما نقول: أعظم أنواع التعبد هو الحب، ما الذي يُنشئ الحب في قلب العبد؟ هو علمك بأسماء الجمال والجلال فيه جل في علاه، تحبه كما ذكرنا، وإذا انفرد الحب لوحده فهو معنى عظيم، وأعظم أنواع

التعبد أن تحبه، يعني ما الأعظم للعابد في سجوده وهو يقول سبحان ربي الأعلى؟ ما الأعظم؟ هو أنه نشأ هذا الذكر على لسان الساجد بسبب خوفه من الله أم بسبب حبه لله؟ الحب يجعل العبد يقول: أفعل هذا لأني أحبك، وإذا أحب الحبيب حبيبه رغب في إرضائه وإفراحه، أول معنى ينشئه الحب في قلب الحبيب هو أنه يدعوه إلى إرضائه، فانظر أنت وأنت هذه مجربة، هذه جربها، جربها إذا صليت ركعتين اليوم منفردا وأنت تقول سبحان ربي الأعلى وأنت ساجد تذكر أنك تفرح الله، أنا أقول هذه الكلمة لأني أريد أن أفرحك، تذكرها، أنا أريد أن أصوم لأنك تحب الصوم فأنا أريد أن أفرحك، أن يفرح الرب، أنا أريد أن أتصدق لأنك تحب الصدقة فأنا أريد أن أفرحك، انظر إلى هذا المعنى، هذا أرقى أنواع التعبد، وهذا هو الإحسان بعينه.

فأنت تتعبد بالحب ولكن هنا يكمله أن تعبده للخوف، يكمله ويعدّله، يكمله ويعدّله –شرحنا وبينا هذا– يكمله بأن يصبح العبد خاضعًا لأمره ناظرًا إلى الجانب الآخر؛ أنه أنا أحب أن أفرحك ولا أريد أن أغضبك خوفًا منك، وكذلك في عدم عملك ما يغضبه إنما منشأه الحب كذلك، هو يريد أن يفرحه لا يريد أن يغضبه لأنه يحبه ولكن ليس فقط لذلك وإنما لا يريد أن يغضبه لأنه كذلك يخاف منه، لأن الخوف من الله يحبه الله، فمرد الأمر إلى الحب.

يقول ابن القيم رحمه الله –له كلمة عجيبة–: «السماوات والأرض تقوم على الحب»، حتى الأشياء، حتى الشجر في عطائه، حتى الماء في نفعه، حتى الدواب في العلاقة بينها، حتى السماوات، هذا قائمة على الحب، إذًا هذا الركن الأول.

الركن الأول: من التعبد الذي ينشئه علمك بأسماء الله وصفاته هذا، أن تحبه لأسمائه لما تقدم، لما فيه من أسماء جميلة وصفات جليلة وجميلة فيه.

ثانيًا: الخوف منه.

ثالثًا: إذا تفكرت في أسماء الله وصفاته أنشأت عندك معاني من التعبد، وذلك إذا علمت أن الله هو الرزاق إذا علمت أن الله هو السميع إذا علمت أن الله هو البصير، إذا علمت أن الله هو الجواد، هو الكريم، هو البر، ينشئ عبادات شرعها الله لك، غير أن تذكره هذا دعاء العبادة أن تذكره.

الناس يسألون ما معنى دعاء الثناء ودعاء العبادة؟ كيف يدعو المرء دعاء العبادة؟ وكلمة دعاء نداء من أجل السؤال والحاجة، وعندما تقول اللهم أنت السلام ومنك السلام –تأمل– أنت تثبت له السلام في نفسه وتثبت السلام في فعله، أولًا اللهم أنت السلام هذا دعاء الثناء وهذا دعاء العبادة، أنت دعوت الله بأن تثبت له ما أثبت لنفسه من صفاتٍ حسنى، يقول الشاعر، يقول: أأذكر حاجتي أم قد كفاني ثناءك؟ هذه رواية، الرواية الأشهر:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي؟ أَمْ قَدْ كَفَانِي ... حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الحَيَاءُ

إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ المرءُ يَوْمًا ... كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

معنى هذا الكلام إذا وقف الشاعر بباب الممدوح فيقول: أأذكر حاجتي؟ أأقول حاجتي؟ أأذكر حاجتي أم قد كفاك من شيمتك الحياء؟ يكفي أن أقول: أن أمدحك، إذا أثنى عليك المرء يومًا كفاه من تعرضه الثناء، بمجرد أن أذكرك مادحًا إياك فهذا سؤالي وهذا ذكري لحاجتي، لماذا؟ لأنك حيي فإنك إن سمعت ثنائي عليك أعطيتني لأنك حيي، وهذا أليق بربنا جل في علاه ولله المثل الأعلى من كل خلقه، فإنه إذا أثنى المرء على الله كأنه سأله، ومن هنا سميت بدعاء الثناء أو بدعاء العبادة، إذا أثنيت على الله يعني إذا قلت أنت: الحمد لله رب العالمين، ماذا تعني؟ ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، بمجرد أن أثنيت على الله أنت سألته.

ولذلك ما الأفضل؟ دعاء المسألة.. وكل هذا فرع من فروع علمك بربك، يعني انظر، أثبت لله الحياء فعلمت كيف تتعبده بأعلى درجات التعبد، ما الأعلى أن تسأله الدعاء أم أن تذكره؟ ما الأعظم أن تقرأ كتابه أم أن تسأله؟ ما الأعظم؟ أن تذكره أجل من أن تسأله، ولذلك في كلام أهل العلم يقول بعض الناس –هذه كلمة لشيخ الإسلام رحمه الله–، يقول: «وبعض الناس ينفعه أدنى درجات العبادة من غيرها»، ويقول: «ومثل ذلك من ينتفع بالدعاء أكثر من الذكر»، أي أن بعض الناس يصلحه القليل لأن هذا شأنه أما الكبار فلا يصلحهم إلا الأمور العظيمة.

فالأولى والأعظم هو أن تذكره لأنك إن ذكرته سألته، إن حمدته أثنيت عليه سألته، والحمد هو الثناء، ثناء على الله؛ ولذلك عِلمُك بأسمائه يؤدي بك إلى العبادة على معنى الأول، ما هو؟ علمك بأنه سميع

أنت تذكره في سرك وعلانيتك، علمك بأنه سميع تعبده في خفائك ولو كنت في الجحر ولو كنت في السجن ولو كنت.. لأنك تعلم أنه سميع.

ومما استوقفني: لماذا ذكر ربنا عز وجل في سورة الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، ثم قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، لماذا يذكر هذا المعنى في هذه السورة دون غيرها؟ لأن أساس الإسراء هو لترطيب قلب النبي صلى الله عليه وسلم، العلماء يذكرون هذا كثيرًا، يذكرون إنما أسري به ليشهد مقامه، والحقيقة هذه مرتبةٌ تالية، نعم مهم أن يشهد مقامه ومقامه في تعظيمه، أن يقول أسريت بك ورفعتك لتعرف من أنت في السماء إن جهلك أهل الأرض، ولكن أن يشهد مقامه في العبودية حين يشهد نفسه وقد غاب البشر كلهم عن تسبيح الله أنه مع خلق الله في تسبيحهم.

فصعد إلى السماء ليرى مقامه في العبودية مع الله، في عبودية الله مع الملائكة ومع السماوات والأرض وليقول له وهو يمشي ساريًا رأى كل شيء يسبح ورأى الملائكة تسجد وراكعة، فهو أسري به ليشهد مقامه في العبودية وليس فقط مقامه في الرفعة.

ولذلك قال الله عز وجل فيها: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ولو شهدت هذا المعنى مع نفسك ما غُمِمت أبدًا من ظلم أحد لك، أي لو أنك كنت في السجن، في زنزانة، لا يعرفك أحد، لو شهدت هذا المقام وتعبدت به لذهب عنك كلما تجد ولشعرت بالراحة والاطمئنان، أنت لست غائبًا عن الوجود، تصور أنك أنت في مكان وأنت تشهد هذا المقام من عبودية كل شيء لله في تسبيحهم له، تأمل هذا الموقف فقط، وأنت وحيد في الصحراء وتشعر بالأُنس، لا أريد الأُنس جبل يحبنا ونحبه، هذه يحبك لأنك تذكر، ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩)﴾ [الدخان: ٢٩].

هذه مقامات ولكن أعظمها أن تشهد مقامك مع الوجود بأن تسبح معهم لله عز وجل، وهذا المقام الذي أراده الله له، وليس فقط مقام الرفعة له، من أعظم أن يشهد المرء مقامه في مراتب العبودية لله أم أن يشهد مقامه في مقام رفعته في عبوديته لله؟ ما الأعظم؟ الأولى أعظم، ولذلك أسماء الله تنشئ الحب وأسماء الله عز وجل تنشئ الخوف وأسماء الله عز وجل تنشئ المراقبة، السميع البصير، أسماء الله عز وجل تنشئ في قلب العبد الهيبة والجلال لله عز وجل، هذا مقام آخر غير مقام الخوف، أنه إذا جلس بين يدي الله بكى،

إجلالًا لربه، هذه مقامات كان يشهدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويشهدها الصحابة، وهذه هي المقامات المطلوبة، يراقبون الله.

يا أخوتي.. بعض الناس يظن أنها مقامات قاصرة في التعبد، ليس صحيح، في التأمل فيها هذه مقامات تنشئ حركة الإنسان في الوجود وتنشئ معارفه في الوجود ولا يجوز لمجتهد أن يجتهد في مسألة فقهية حتى يقف هذا الموقف من العبودية، ما هو سبب ضلال المجتهدين في عصرنا؟ **(المجتهدين)** بين قوسين، ما هو السبب؟ هو عدم شهودهم مقام العبودية، يعني العبد عندما يدخل باحثًا عن حكم شرعي، ما هي طريقة أئمتنا؟ يدخل ليعلم ما يحبه الله، أيحب الله هذا أم يبغضه؟ إذا دخل العالم محراب العلم ليبحث عن الحكم حلال أم حرام، واجب أم مستحب، إنما أراد أن يدخل ليعلم هذا الحكم في نفس الله، في نفسه، فحين يدخل على هذا المعنى أتراه يتلعب؟ أتراه يبحث عما في نفسه هو؟ وفي الضال وصاحب الهوى ينشئ العلم في نفسه –العلم يعني: من المعرفة– ثم يذهب ليبحث عن دليلها، عما يحب هو وعما يحب الناس وليس عما يحب الله، هذه مقامات التعبد أثرها في كل الوجود.

عندما يمشي المرء في الطريق فيعلم أن امرأة بجانبه، لو لم ينشأ في قلبه أنه يريد أن يستحيي من ربه أن يعصيه وأنه يحب الله فلا يريد أن يغضبه وأنه يخشى الله فلا يريد أن ينال عذابه وأنه يجل الله عز وجل من أن يقترف معصيةً، يجل الله من أن يقترف معصيةً تؤذي ربنا وتغضبه، لو لم تنشأ هذه المعاني لاقترف المعصية، شهود الصفات الإلهية في نفس يوسف عليه السلام هي التي منعته من المعصية، شهد مقام عبوديته لربه، قال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ [يوسف: ٢٣]، نظر إلى صفات الله ونظر إلى عطاء الله له وإلى كرامة الله له، ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، المقصود به هنا الله تقريبًا لا أريد أن أقول إجماع أهل التفسير لأن بعضهم قال: المقصود به الملك وهذا غير صحيح، هذا من أبطل الباطل، وإنما قال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، إنما نظر إلى مقام عبوديته مع ملك عظيم أحسن إليه وأنقذه وأعطاه وأكرمه ورفع شأنه، هذا المقام إذا دخله العبد هذا هو الذي يريده الله منا.

إذًا هذه مقامات التعبد لله عز وجل: الحب له، الخوف منه، إجلاله، التمثل بكل اسمٍ تعبده، ولذلك انظر ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فكل اسمٍ له عبادةٌ خاصةٌ به، يعني بما هو أقرب للذهن وإن كان سنبين هذا الأمر أوسع، قلنا إن أعظم أنواع العبادة ما هو؟ هو الثناء، فأنت إذا خفت عدوًا تسأله: **(اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب)**، هذه المقدمات توافقت مع

المطلوب، هذه لا يقولها العبد حين يسأل الله الولد، هذه المقدمات في صفات الله ليست مما يحتاجه العبد حين يسأل الولد، ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ [الأنبياء: ٨٩]، انظر ما الذي يناسب طلب الولد، ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ [الأنبياء: ٨٩]، وكأن هذا فيه النقص، نظر إلى حاجته فقط، فلم يبقى العابد الحبيب لربه على هذا المقام، بل أتمها بالنظر إلى نفس الرب: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾ [الأنبياء: ٨٩].

والمقصود أن كل اسمٍ يجب أن تتعبده وكلما نقص تعبد باسمٍ من أسمائه نقص تعبدك لله، وهذا من إحدى المطلوب في قوله صلى الله عليه وسلم: **(من أحصاها دخل الجنة)**، يعني أتى بالتعبد من جميع أبوابه، أي التعبد يعني ماذا؟ للثناء على الله ولسؤال الله والإخبات له والخوف منه إلا من أبواب أسمائه وصفاته، لا يوجد تعبد إلا من هذا الباب، فأنت حين تسجد، السجود خضوع، والخضوع لا يكون إلا لمن له العظمة وله الجلال وله المجد، لا يوجد تعبد في الشريعة إلا وهو باب -عمل من أعمال الشريعة- يدخلك إلى الله بأسمائه وصفاته،

فإذًا من أعظم ما يستفاد منه في قضية عِلمِك بهذه الأسماء بعد ما ذكرنا من قضية أثر هذه الأسماء على الشريعة وعلى التكوين والقدر هو أثر هذه الأسماء في تعبدك لله عز وجل، وأعظمها أن تعبد الله، هذا أن تعبد الله كأنك تراه، هذا لا ينشأ إلا بمراقبتك لأسمائه وصفاته وبعلمك له وبتمثلك بالتعبد بها.

فهذا الباب الذي تكلمنا عنه يدلك على فضل هذا العلم وكل علمٍ لا تعرف فضله فاتك خيره، وكل علمٍ لا فضل له لا قيمة له، إنما العلوم بفضلها وفضلها ينشأ بالمعلوم، وهاهنا المعلوم هو الله، ولذلك أجل العلوم هو علمك بأسماء الله وصفاته، أجل العلوم، وما نزل الكتاب القرآن إلا من أجل أن يعلمنا من هو الله، الله فقط قبل كل شيء، يعلمك من هو الله ويعلمك من هو المرسل بهذا الكتاب وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ويعلمك بعاقبة الرسالة، هذه أركان الشخصية القرآنية منذ أن بعث آدم إلى اليوم، ماذا يريد الله منا؟ هذه الأركان الثلاثة:

أولًا: أن يعرفك من هو الله من أجل أن تعبده.

ثانيًا: أن يعرفك من هو الرسول من أجل أن تتبعه.

ثالثًا: أن يعلمك العاقبة من أجل أن تسرع إليها.

القرآن كله حديث عن أسماء الله وصفاته، وأجل ما علم الناس هو الآيات التي تتكلم عن أسماء الله وصفاته، ولذلك من فقه الصحابة رضي الله تعالى عنهم هذا؛ أنهم نظروا إلى الكتاب فوجدوا أن أجل ما يتكلم به الكتاب هو الحديث عن الله جل في علاه وأسمائه وصفاته، ولذلك لما سأل أبي قال: أي آية في كتاب الله، لماذا ذهب لها هذا أبي؟ لماذا ذهب إليها؟ لماذا لم يذهب إلى غيرها؟ أي آية أعظم في كتاب الله؟ نظر إلى مقصد الكتاب فوجد أن هذه الآية فيها مقصد الكتاب، نزول الكتاب، فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال: **(ليهنك العلم يا أبا المنذر)**، ولما سأله عن أي سورة أعظم؟ قال: **(الفاتحة)**؛ لأن فيها الحديث عن الله أعظم ما يكون، كلها حديثٌ عن الله، وإن كانت جامعة لهذه الخصال الثلاثة التي ذكرناها: الحديث عن الله، وعن المرسل بهذا الكتاب، وعن العاقبة، ولكن أجل ما فيها الحديث هذا لي وهذا لعبدي، الأول هو الحديث نصفها مع أن الآخر هو حديث عن الله في عطائه حديث عن الله في عقوبته الحديث عن مقامات الناس معه، ولكنها حديث عن الله.

ولما الرجل دخل الجنة بحبه لسورة قال: **(لأنها صفة الرب)**، سورة التي كان يقرؤها إمام أهل قباء في كل ركعة بعد أن يقرأ والإثبات معها ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾ [الإخلاص: ١-٢]، فأهل المسجد أنكروا عليه، يعني إما أن تقرأ غيرها وإما أن تقرأها، أما أنه كان يقرأ في كل ركعة يقرأ ما يريد ثم يختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾.

وللأسف إن بعض الفقهاء كره هذا، للأسف بعض العلماء قال: كره تكرار سورة في الركعتين، وهذا الحديث ردٌ عليهم، وبعض أهل العلم نهى عن التنكيس في القرآن وهذا الحديث ردٌ عليهم، فلما سأل النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إنها صفة الرحمن وإني أحب أن أقرأها، قال: حبك إياها أدخلك الجنة)**، هو يحب السورة، هو لماذا أحب السورة؟ لأنه أحب من وصفته هذه السورة وهو الله، هذا هو باب الجنة، هل هناك باب غيره؟ فقال: **(حبك إياها أدخلك الجنة)**، ولأنه يحب هذه السورة لأنها صفة الرحمن صفة الله لا يوجد فيها، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص: ١-٤]، وهي حديث عن الله خالص، وانظر إليها، أجل ما فيها الحديث عن ذاته لا عن عطائه، مع أن فيها عطائه، حديثٌ عن ذاته، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾، أين العطاء؟ هو الصمد، الصمد وإن كانت هي صفة ذات فهي صفة عطاءٍ كذلك، العرب تقول: الصمد أخذت من المصمت الذي لا جوف له، والذي لا جوف له لا حاجة له، نحن أجوافنا هي حاجاتنا، فالله لا جوف له لا حاجة

له، وكذلك يصمد من أجل أن يسأل، فقديمًا كانوا يصمدون الملك من أجل حاجات الناس، فمثلًا يسمون إلى الآن العروس صمدوها، أخذًا من هذه الصفة القديمة.

لكنها في الأصل هي صفة الذات له، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص: ١-٤]، بالله عليكم إذا بلغ العبد في مراقبته للحب لما يحب أن يبلغ أن يحب من أجل جمال وجلال وعظمة المحبوب، هل هناك أجل من هذا الحب؟ تصور يعني الإنسان يحب لأنه يعطى الإحسان، يحب والده لأنه أنعم عليه، يحب أمه لأنها رعته، يحب صديقه لأنه يقدم، لكن أن يحبه لجماله ويحبه لعظيم صفاته، انظر إلى هذا المقام البشري الذي وصل إليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

إذًا القرآن نزل فيما هو بيان قال: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، وخلق الخلق ليعبد، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾ [الطلاق: ١٢]، ، القدير قد يخلق ولا يعلم وبعد ذلك يفوته خلقه، فمن أجل الكمال ومن أجل تكميل ومن أجل تعديل ما يحصل في الذهن، لأنه قد يخلق فجاء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾، وكل شيءٍ هو خلقه الله، كل شيءٍ هو مخلوق لله عز وجل.

فهذا باب التعبد على المرء أن يراقبه في نفسه وأن يتعلمه، أيها الإخوة الأحبة التوحيد علم، وهذا بابٌ لا ينشأ إلا بالتعليم، فمن أعظم ما ينبغي أن تكون التزكية هو هذا الباب، وإذا دخل المرء من هذا الباب في العلم كما ذكرنا، حتى في بنائه للمسائل الفقهية أن يدخل إليها في هذا الباب، وإذا صلى دخل من هذا الباب، وإذا جاهد دخل من هذا الباب، لأن هذه الأعمال يمكن أن تحرف في نفس العابد فتكون من أجل هواه.

سئل الإمام أحمد عن رجلٍ نصح رجلًا فلم يلتفت، أيعيد عليه؟ قال: «لا يعيد عليه لأن لا يكون انتصارًا لنفسه»، هو لا ينهاه ولكن يراقب، يعني المرء مرات يكرر النصيحة من أجل طاعته يعني لماذا لم تطعني؟ كما للابن والولد يطلب منه فيقول لماذا لم تطعني؟ افعله، فيغيب أنه في الأول هو بلغ لأنه مبلغ عن الله، فالثانية فيها شبهة أنك بلغت لأنه نسي أمرك، فلذلك المرء أن يراقب تعبده، أن يراقب فعله في

علمه في جهاده في وعظه في تذكيره في سيره ليكون ممتثلًا لهذه الصفات وهذا إعمال لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وجزاكم الله خيرا، وبارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا ذكرت أن مقام التعبد الحب والخوف، عند تفصيل الرجاء أليس الرجاء مختلف عن الحب؟

الشيخ: يعني هو فرع منه ولذلك قلت هو خارج منه، لا ينشأ الرجاء الذي فيه المدح إلا من الحب، نعم يمكن للرجل لأن يبغض فيرجو منه، ولكن هذا ليس مقام التعبد، يرجو منه عطاءه مع أنه لا يحبه، يمكن هذا، لكن هذا معنى باطل، ولذلك الأصل هو أن يحبه فيرجو منه، ولذلك كما ذكرت أساس التعبد أن تنظر إلى صفات الجمال، الصفات الذاتية في خلق الله، بعد ذلك ننظر إلى الصفات المتعدية وإن شاء الله نتكلم عنها في الدروس القادمة.

ولذلك عند التفصيل والعلماء يحبون التفصيل، إخواني من راقب كلام العلماء السابقين يرى أن الخلف يطيل الكلام من أجل التفصيل لأنهم لا يخاطبون من خاطبهم العلماء السابقون، الآن أنا أذكر أمثلة، فالعالم يخاطب العالم، قديمًا العالم يخاطب علماء، فإذا خاطب العالم علماء إنما ألقى الكلام إشارة فهم يفهمون ما ورائها، ولكن المتأخرين نشأ عندهم أمران:

الأمر الأول: كثرة الخطأ، وكثرة الخطأ لا بد فيها من التفصيل.

الأمر الثاني: قل إدراك كلام معنى الإشارة فلا بد من التفصيل.

أمثلة على هذا: عندما قال القدماء: الإيمان قولٌ وعمل، فكان هذا كافيا لأن تستوعب هذه الكلمة كل التعبد كل ما أمر الله من معاني غيبية وشهادة وكل ما أمر الله عز وجل من عبادات عملية، كافية، فجاء قول قائل: أين عمل القلب؟ فزادوا، موجود هذا، هو القلب فيه قولٌ وعمل والنية منه؛ لأن النية من عمل القلب، لكن لما صار في الناس أسئلة حولها، زادوا قالوا: ونية، فقال بعضهم: أنتم تقولون قول وعمل ونية أنتم تتحدثون عن الإيمان الشرعي فأين صفة الالتزام بأنه أمر الله؟ فجاءوا وقالوا: وسنة، فصار الإيمان قولٌ وعملٌ ونيةٌ وسنة، هكذا تجد في كلام المتأخرين والأوائل لم يقولوا هذا، طبعًا بلا شك خطأ قول الذين قالوا: أنه عمل بالأركان وقول باللسان واعتقاد بالجنان، هذا خطأ، هذا قول غير صحيح، مع انتشاره قول غير صحيح، لأن الجنان ليس فقط مقامه الاعتقاد، هم قالوا: قول باللسان مش صحيح، الأوائل قالوا

قولٌ بماذا؟ قولٌ باللسان وقولٌ بالجنان، فجعلوا الجنان فقط مقامه الاعتقاد، هذا خطأ، لكن نتكلم عما هو صحيح وشارح، هذا موجود.

ارجعوا إلى كتاب جامع العلوم والحكم، تجدون أول حديث في الأربعين النووية إنما الأعمال بالنيات، ارجعوا إليه وانظروا إلى كلمة الشافعي في الحديث ثم انظر بعده كم شرحت كم زادوا عليها وكم نقصوا وكم وضعوا، وفقط الكلمة الأولى كانت كافية وإنما زيد عليها وشرح عليها وقيدت بها لما يحدث من هذا الأمر من جهل ومن أخطاء، من جهل بمعاني كلام العلماء الإشارة ومن أخطاء.

مثال ذلك في اللغة: من جهل فاعله، القدماء المبني المجهول لم يقولوا، ما قالوا في مبني المجهول لأنهم يرون أن الإعراب يحتاجونه في إعراب كلام الله ليفهموا معناه لأن باب الفهم هو الإعراب فهل يصح أن يقال عن الله مبني للمجهول؟ ولذلك قالوا: من لم يسمى فاعله، فانظر كلام الأوائل كيف وكلام المتأخرين كيف، مع أنه نبه عليه المتأخرون ولكن الاقتصار على كلام الأوائل وشرحه هو الأولى من غير هذه الإضافات، فلذلك عندهم العبادة عند الأوائل هو الحب، حب الله عز وجل وماذا؟ الحب والخوف، وبعد ذلك يأتي مثلًا: يذكرون يقولون الدعاء هو دعاء عبادة ودعاء مسألة يزيدون الثناء، والثناء في العبادة، ولكن يأتي التفصيل لما ذكرنا، والله تعالى أعلم.

الدرس الثالث: فضائل وفوائد العلم بأسماء الله الحسنى

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم، آمين، آمين.

تكلمنا في الدرسين الفائتين عن أهمية معرفة أسماء الله وصفاته، وأن منشأ العبادة ومنشأ النظر في الكون، ومنشأ إدراك القدر الإلهي والشرع الإلهي، وكذلك العبادة التي أمرنا الله عز وجل بها، إنما يكون بابها ومدخلها هو فقه المرء لأسماء الله وصفاته، هذا أمرٌ مهم جدًا، أي لا مدخل للتعبد الحقيقي والسليم والصحيح ولا لإدراك ما في الوجود من كون إلا إذا كان هذا المدخل تم عن طريق أسماء الله وصفاته.

فالناس حين ينظرون في الكون كدارسي الفيزياء، دارسي الفلك، دارسي الجغرافيا، حين يدخلون إلى هذه المعارف دون النظر ودون أن يكون المدخل لذلك كله هو أسماء الله وصفاته، فلا تحصل العبادة، ولا يحصل الانتفاع، تصبح هذه العلوم مجرد معارف ذهنية، ليس فيها من التعبدية شيئًا.

الآن ندخل إلى موضوع مهم وهو فضل معرفة هذه الأسماء والصفات، يعني العلوم قيمتها من فضلها، تكلمنا بأن هذا العلم وهو متعلق بالله وبأسمائه وصفاته وأفعاله، ففضلها إنما ينشأ من فضل موضوعها، ولذلك علمنا فضلها لما علمنا أنها تبحث في الله عز وجل تبحث في أسماء الله وصفاته، وهو أجل العلوم وأعظم العلوم وما خلقنا إلا لذلك **(فأعلم أنه لا إله إلا الله)**، ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾ [الطلاق: ١٢]، المقصود هو هذا العلم، لكن لابد من التوسع قليلًا في معرفة فضل هذا العلم، هذا العلم هو الذي جاء بالكتاب، وقلنا في الدرس الفائت بأن القرآن لم ينزل إلا ليعرفنا بالله عز وجل، فالعلماء نطقوا بهذا اللفظ، نطقوا بهذا اللفظ بأن الله عز وجل ما خلقنا إلا من أجل أن نعرفه، وهذه المعرفة العلمية الصحيحة تنشئ التعبد ليس المعرفة فقط المسألة الذهنية، المعرفة التي تنشئ العلم، والعلم الذي ينشئ الخشية وينشئ الحب.

ونتكلم الآن قليلًا عن فضائل هذا العلم، ما هي فوائد هذا العلم؟ ولماذا ندرسه؟ ولماذا ينشط له العلماء؟ قلنا في الدرس الفائت بأن العلماء لم ينشطوا إلى تأليفهم مثلًا المؤلفات في شرح أسماء الله وصفاته ولكن تعاملوا معها من خلال الشريعة، تعاملوا معها من خلال تفسيرهم لكتاب الله عز وجل، يعني أنت ترى في كتب التفسير الوقوف على هذه الأسماء من خلال السياق القرآنية، لماذا قال الله عز وجل جعل

الفاصلة القرآنية ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢)﴾ [الدخان: ٤٢]؟ لماذا جعل الفاصلة القرآنية ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ [التغابن: ١٨]؟ لماذا جعل هذا؟ الفاصلة المقصود به خاتمة الآية، هذه تسمى بالفاصلة القرآنية.

لكن من المهم أن ينشط الناس لتعلم هذا العلم، وهو تعلم فقه أسماء الله وصفاته، سواء كان من آثارها على الحياة من فضلها من أهميتها، وكذلك من تعلم معانيها، الناس العرب قديمًا يعرفون هذه المعاني لأنهم عرب أقحاح والقرآن نزل بلغتهم، ولكن الآن فاتنا كثير من لغة العرب، والناس لا يستخدمون من اللغة في زماننا إلا القليل، بعضهم يعد فقط نحن نستخدم في حياتنا اليومية أقل من إثنين في المئة مما يوجد في المعاجم من الأصول اللغوية، يعني الناس في حديثهم لا يستخدمون فقط إلا اثنين في المئة، والكثير منهم يستخدم لغة الإشارة والكثير منهم الآن صار يستخدم اللغات الأجنبية، والألفاظ العامية، فلابد أن نتعلم هذه الأسماء أن نفقهها من أجل أن نتعبد الله عز وجل بها على بصيرة، فما هي فضائل هذا العلم؟

أولًا: أن العلم بأسماء الله وصفاته يعرفك بموضوعها، وهو أن تعرف الله، والذي لا يعرف ربه لا يعبده، لا يخشاه لا يحبه، فأول الشرف هذا العلم وأول فضل هذا العلم هو أنه يعرفك بالله، أنه يعرفك بالله فحين إذن باب العبادة يكون مفتوحًا إذا عرفت هذه الأسماء والصفات، إذا عرفتها، إذًا أولًا فضلها بأنها تعرفك بأعظم موجود، وتعرفك بأشرف علم، وتدخلك إلى مقصد خلقك من بابه الصحيح، ما هو مقصد خلقك؟ هو أن تعبد الله، فلا يمكن أن يعبد المرء ربه حتى يكون عالمًا به، وأساس كل كفرٍ هو الطعن في أسماء الله وصفاته.

مثال ذلك: أغلب كفر الناس يتعلق بعدم أدراك حكمة الله، يقول البحاثة: «بأن أعظم ما كفر الناس به هو بسبب عدم إدراكهم لحكمة الله في الوجود، وخاصةً فيما يتعلق بموضوع الشر»، المبحث الذي يدور في أذهان الناس هو هذا المبحث، ولماذا هذا الشر في الوجود؟ لماذا الخير قليل والشر كثير؟ لماذا يحصل إيلام من لا يعقل؟ لماذا يتألم الأطفال؟ أين على الحكمة الإلهية؟ ونحن نعيش ونموت، ما هو سبب خلقنا؟ وفي هذه الحياة لا يغلب إلا الظالمون! ولا يقوى في الحياة إلا اللصوص والسراق! فموضوع الخير والشر وعدم فهمه هو سبب الكفر في الوجود، وحل هذا ينبع من إدراك المرء لأسماء الله وصفاته، يعني هذا طعن في حكمة الله!! وهذا موجود، فما الحل لهذا؟ هو أن يعلم المرء أسماء الله وصفاته، هذا الحل لهذه المشكلة.

فالآن الكفر ينشأ كثيرًا، وأنا قابلت أناسًا كثر يكفرون ليأسهم من الرحمة، ليأسهم من أن يصلوا إلى المرتبة التي يظنون وجوبها في تعاملهم مع الله، يقول: نحن لا نقدر أن نكون كما يريد الله قديسين لا يمكن، فينشأ عندهم اليأس، هذا نوع ونوع منتشر كثيرًا في الكفر في الوجود الآن، الكثير من كفر أهل الغرب

منشأه هذا وهو اليأس من الوصول إلى رضا الله، ولكثرة ما يقترفون من معاصي في بداية حياتهم فلو وعظوا من أجل أن يتوبوا إلى الله، لقالوا: انتهى الأمر ختم، لا نستطيع أن نعود، والسبب لا يمكن أن نصبح طائعين، لا يمكن أن نصبح من المرضي عنهم، اليأس وسبب اليأس هو عدم إدراكهم لأسماء الله وصفاته، فكما أنهم لم يدركوا الحكمة الإلهية، وكما أنهم كفروا بالمعاد.

وقال الله عز وجل: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٥]، لماذا جعل الله عز وجل عدم الإيمان بالأخرة هو كفر بالله لماذا؟ لأنه اتهامٌ لله بالظلم، حين ينفي المرء الآخرة، ثم ينظر إلى الوجود فقط أن نهاية المسألة في الدنيا في إقامة الحق وفي إقامة العدل أنه فقط ما يقع في هذه الدنيا، هذا اتهام لله بالظلم، وهذا نفي الحكمة عن الله عز وجل، فهو إذًا أساس الخير عدم الفهم الخير والشر، مبعثه عدم فهم حكمة الله، وحكمة الله اقتضت بوجود دنيا وبوجود أخرى.

نحن تكلمنا عن قضية أن وجود الدنيا ووجود الأخرى هذا من المسائل القدرية، وأنت تؤمن شرعًا بوجود نص لك يخبرك بوجود أخرى، لكن وجود الأخرى أمر قدري سيكون، فالله خلق الدنيا وخلق الآخرة، إدراكك لحكمة الله يوجب عليك إن تؤمن بالدنيا وبالآخرة، أن هناك آخرة، ولذلك الله عز وجل سمى الذين لا يؤمنون بالآخرة كفارًا به، لا كفارًا بالرسول، كما في سورة الرعد، وقال جل في علاه: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، وقال عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾، لا على جهة كفرهم بالخبر الذي أرسله الله عن طريق الأنبياء فقط، ولكن على جهة كفرهم بربهم في إثبات الظلم له، لأنه من لا يؤمن بوجود الآخرة، لابد أن يتهم الله عز وجل بالظلم جل في علاه، ولله المثل الأعلى.

إذًا هذا الذي يحل، ما الذي يحل مسألة الخير والشر في الوجود، ما الذي يحلها؟ هو إدراكك لأسماء الله وصفاته، وإدراكك لأسماء الله وصفاته توجب عليك أن تعرف كيف تعامل الله عز وجل مع مسائل الوجود، كالظلم يموت المرء مظلومًا، يموت المرء قتيلًا، يموت المرء ضعيفًا فقيرًا، يموت المرء غنيًا ظالمًا، فأين العدل؟ لابد أن تفهم، لابد أن تجيب، الله الحكيم، فلا يقبل بهذه، ما هو الحل؟ الحل أن هناك أخرى أن هناك موازين تقام يوم القيامة، حتى أنه يقتص من الشاة القرناء للشاة الجلحاء، هذا العدل الإلهي.

وأيضًا من أعظم الكفر في الوجود اليأس، هذا تجدونه حتى بين المسلمين، ويصل اقتراف المعاصي أن الله لن يغفر لي، هو كان عاصيًا فقط، فلما اشتدت عليه المعاصي وكثرت يئس من رحمة الله فوصل إلى الكفر، يعني عندما تسأل العوام وتقول: لهم توبوا إلى الله، فيقول: أنا ما عاد فيها توبة خلاص الله لن يقبل، هذا كفر ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)﴾ [يوسف: ٨٧] يعني كفر باسم الله

الرحيم، كفر باسم الله الرحمن، كفر باسم الله الغفور، كفر باسم الله اللطيف، كفر باسم الله العفو، هذا كفر فمنشأ الكفر هو جهل المرء بأسماء الله وصفاته.

فما من كفرٍ في الدنيا منشأه إلا وبسبب تعلق المرء بجهله، بسبب جهله بأسماء الله وصفاته، كما أننا قلنا إنه لا تتم العبادة التامة، ولا تقع العبادة الكاملة إلا إذا أحصى المرء أسماء الله تعبدًا، فكذلك ما من كفرٍ في الوجود إلا بسبب الطعن والجهل في أسماء الله وصفاته.

فإذًا أولًا: ما هو فضل هذا العلم؟ هو أنه يعرفك بأعظم موجود، من هو أعظم موجود؟ هو الله.

الأمر الثاني: من فضائلها هو الحديث، **(أن لله تسعة وتسعين أسمًا من حفظها أو من عدها أو من أحصاها دخل الجنة)**، **(أن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة اسم إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة)**، ما معنى الإحصاء هنا؟ الإحصاء أختلف أهل العلم فيه، أغلب أهل العلم على العد، وليس المقصود أن يسردها كما يأتي لحديث الذي في الترمذي أن يحفظها وأن يسردها لا، من قرأ القرآن مؤمنًا به حصل له هذا المعنى، لأن هذه الأسماء موجودة في كتاب الله عز وجل، وموجودة في السنة النبوية.

فالمقصود أنه يعلم هذه الصفات في الله، وليس المقصود الحفظ المقصود هو أن يعدها، يعني إذا قيل للمرء ما هي أركان الإسلام فيقول لك كذا وكذا، فإذا قيل له ما هي أسماء الله ليس المقصود أن يجلس فيعدها الله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام، كما يفعل بعضهم، لا ليس هذا المقصود ونفى هذا المعنى كثير من أهل العلم ومنهم الإمام النووي ومنهم ابن حجر نفوا هذا المعنى، المقصود بمن حفظها ومن عدها بأنه يعرفها وإذا ذكر بها علمها وإذا سئل عن بعض هذه الأسماء أثبتها لله عز، هذا الحفظ، المعنى هذا معنى صحيح، وهذا الذي عليه البخاري وكثير من أهل العلم، ولذلك في الحديث **(من عدها)** كما من أحصاها لأن الإحصاء هو العد، من **(أحصاها دخل الجنة)**، وجاء في روايةٍ أخرى **(من حفظها)**، فدل هذا المعنى.

وبعض أهل العلم قال لا الإحصاء هو الإطاقة، ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، تحصوه يعني تطيقوه هذه في سورة المزمل، يعني علم الله أنكم لن تطيقوا قيام الليل، قيامه كله، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ٢٠]، أن جعله فسحةً لكم، لأنه من النوافل فتقوم بعضه، فقال: الإحصاء هنا معنى الإطاقة، ما معنى الإطاقة هنا؟ معنى أن من أحصاها من أطاقها؛ أي من أطاقها عملًا وتعبدًا، فعلم من أحصاها تعبدًا أي تعبد الله بها، وهناك معنى ثالث الحصاة بمعنى العقل، الحصاة في اللغة والمأخوذة من الحصى وهو العقل،

والعقل هو الربط، رجلٌ ذو حصائد ذو عقل، فقوله: **(من أحصاها)**، قال: من عقلها يعني من عرف معناها، هذا قولٌ ثالث.

وهي مجموعة في ثلاث مراتب، هذه من أحصاها، القول المشتهر ومن حفظها، فأما بعض أهل العلم فقال: لا هذه الأقوال الثالثة هي المرادة:

أولًا: أن تعرفها.

ثانيًا: أن تعلم معناها.

ثالثًا: أن تتعبد الله عز وجل بها كما أمرك، ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، أن تتعبد الله بها، بدعائك دعاء العبادة، دعاء الثناء، ودعاء المسألة.

إذًا هي من فضلها أنها تدخل المرء الجنة، من فضلها وفضل العلم بها، أنك تعرف مقصد وجودك، وتعرف من أنت، البشرية حائرة، نحن طبعًا هنا نتكلم عن العقلاء، لا نتكلم عن العوام، العوام يدخلون في هذه الدنيا فيأكلون ويشربون كالدواب ثم يرحلون، لا يعرفون لماذا خلقوا ولا يسألوا أسئلة الوجود! لا يسأل ولا يبحث! نحن نتكلم عن العقلاء الذين أول ما تتفتح أعينهم نظرًا في الوجود أن يقولوا من نحن؟ متى كنا؟ لماذا نحن هنا في هذا الوجود؟ من نحن؟ لماذا نحن في هذه الدنيا؟ أين مصائرنا؟ هذا الموت هو نهاية كل شيء؟ هذه أسئلة الوجود الكبرى، وهي التي شغلت البشرية، العقلاء فيها مشغولون ليس المزارع وليس العامل هذا ربما لا يتفكر كثيرًا في هذه الأسئلة، هو مشغول في أكله وشربه وفي لبسه وفي تزيينه كما هو شأن بقية المخلوقات من الدواب وغيرها، لكن العقلاء لهم أسئلتهم الكبرى، من نحن؟ ما هو أمرنا في الوجود؟ ولماذا نحن في هذه الدنيا؟ ما هي عاقبتنا؟ أين نهايتنا؟

فهذه الأسئلة لا يجيب عليها إلا من خلال أسماء الله وصفاته، أسئلة الوجود، من نحن؟ الآن عندما الناس يسألون من نحن؟ فيقول أنت مخلوق، يعني هناك خالق، أنت أثبت لله عز وجل هذه الصفة، هل نحن وجودنا عبثي؟ الحكمة تنفي هذا، الحكمة تنفي العبثية، وحين نعصي فهل يمكن أن نعود؟ انظر إلى مسألة الذنب أقلقت البشرية جمعاء، الأديان ضلت فيها، الذنب هل يتوارثه الناس؟ الفضيلة هل يتوارثها الناس؟ هل بنو إسرائيل عظماء بسبب نسلهم، بغض النظر عما اقترفوه؟ ﴿قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤]، ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، أنظروا هذا الكفر ما منشأه؟ ما منشأ هذا الاعتقاد؟ نحن أبناء الله وأحبائه، ومنشأ اليأس من التوبة بسبب الخطيئة التي حملها أبونا آدم، الديانة النصرانية التي عليها الملايين ممن قضوا نحبهم مشركون؛ سببها عدم إدراكهم لمسألة الذنب، زعموا أن آدم

أخطأ فحملت البشرية هذه الخطيئة على ظهورها تعاني منها، وكم حاولت أن تتوب وأن تصلح شأنها مع الله فلم تفلح، فالذنب عندهم تتوارثه الأجيال، ويتوارثه الأبناء عن الآباء، هذا لا يخطر في بالك أنت لأنها مسائل محسومة في دينك، محسومة في القرآن، المسلم العادي يذهب إليه وهو مرتاح، يشعر بالرضا، أنا مسلم والله يغفر لنا، مرتاح بهذا، وهو مرات يذكر ذنبه فيبكيه.

لكن البشرية التي لم تتحصل هذه المعاني والمعارف الإيمانية التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم هذه تقلقهم تتعبهم، أساس مبدأ الدين النصرانية الباطلة تقوم على قضية توارث الخطيئة، توارث الخطيئة هو نفي لعدل الله، نفي للعدل الإلهي، أبي عصى ما دخلي أنا.

وأساس توارث الخيرية بسبب النسل، اليهود شعب الله المختار هو نفي العدل الإلهي، عدم فهم العلاقة بين المخلوق والخالق، من أنت؟ فهم نظروا لأنفسهم أنهم أبناء الله وأحبائه، والواجب هو علاقة الخالق بالمخلوق هو علاقة الإله بعبده فقط هذه العلاقة، ليس بين أحد وبين الله عز وجل نسب إلا أنه مخلوق وأنه عبد.

فإذًا معرفة المرء لأسمائه وصفاته تجيب على الأسئلة الوجودية الكبرى، تعرفك من أنت، الآن عندما ينظر المرء إلى تعظيم الأشياء فوق الإنسان، تعظيم الأشياء المخلوقة هذا نفي لحكمة الله عز وجل في التسخير، ما القيمة؟ هل هي للإنسان ام للمادة؟ هل القيمة للإنسان أم للحيوان؟ هو نفيٌ لفهم المرء إذا وقع في هذا الخطأ، هو نفي لحكمة الله في إكرامه للإنسان، أن الله عز وجل جواد كريم.

فإذًا العلم بأسماء الله وصفاته يجيب على الأسئلة العظمى، سواء كان من النفاة الذين يقولون إن الإنسان من خلال التطور، من خلال الارتقاء وغيرها، لا فالقرآن يجيبنا يعرفنا بأن الله خالق، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، خلص أنت مخلوق، هناك خالق جل في علاه.

الفضيلة الأخرى من فضائل معرفة الله بأسمائه وصفاته: أنها السبب لتحقق سعادة المرء في التعامل مع هذه الأسماء وخاصةً في موضوع التعبد، وأخص أنواع التعبد هو الدعاء، هذه الأسماء علمنا الله إياها من أجل أن نرتاح في هذه الحياة، ومن أجل أن نحقق السعادة في الآخرة، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فأنت سعادتك في هذا الوجود تتحقق من خلال معرفتك لهذه الأسماء، أنت تدعو الله فيعطيك، عندما قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ ادعوه، ويدعوك أن تدعوه ولا يعطيك! ولذلك **(أن الله حييٌ كريم، يستحي إذا رفع العبد يديه أن يردهما صفرين)**، أن يرده خائبًا، حيي، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أصابه الكرب، عند الكرب ما هو دعاؤه؟ **(لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا**

إله إلا الله ورب العرش العظيم، لا إله إلا الله ورب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم)، أنظر هذا اسمه دعاء الكرب، مع ذلك أنت لا ترى فيه اللهم، مجرد أن تذكر اسمه ناطقًا اسمه يحصل لك الفرج، أن تقول: (لا إله إلا الله العظيم الحليم)، أين الدعاء؟ ويسميه العلماء دعاء الكرب لأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا كربه أمر قاله، ولما قال: (اللهم أنت الله الواحد الأحد الحي الصمد)، قال: (لقد دعوت باسم الله الأعظم)، فإذا المعرفة، أنظر هذا الرجل الذي دعا بهذا الأمر علم، هو لماذا اختار هذا؟ لشيء علمه، السر في هذه الأسماء، هذا لم يتعلمه من النبي صلى الله عليه وسلم.

ولذلك في باب الأدعية وفي باب الذكر ليس في هذه الأمور توقيف، هذه باب سبق بين أهل التعبد والصالحين، هذه الأمر لا يوقف فيها، الرجل الذي وقف يصلي ورأى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: (سمع الله لمن حمده)، فقال: ربنا ولك الحمد، أنظر هذه لم يسمعها من النبي صلى الله عليه وسلم، قالها من جهة فهمه لأسماء الله وصفاته، فهذه –كما قال صاحب المغني ابن قدامة رحمه الله– قال: «هذه لا يسأل فيها عن الدليل»، هذه باب الحمد باب التعظيم الإلهي، هذه بقدر مرتبة المرء يدركها العبد.

الله عز وجل علمنا عن طريق القرآن عن طريق النبي صلى الله عليه وسلم أشياء، وبقيت أشياء من أجل أن يتسابق الناس فيها علمًا وتعبدًا، لما قال: «لك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه»، أنظر هذا الإحصاء العجيب، هذا شيء منشأه هو علم هذا المرء، ومنشأه أن هذا العلم دخل في قلبه فجعله في حالة من حالات الإحسان والتعبد، «اللهم لك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيها ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعده عدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك» ماذا أبقى؟ هذه القلوب المشغولة بالمعارف الكبرى، فقارن بينه وبين من ليس له أي تفكر وليس له أي نظر، لا في نعم الله ولا في عطائه، ولا في أفراح الله، لا يتفكر أن يفرح الله.

هذا الذي يثني على الله ما مراده؟ مراده أنه رأى الوجود كله من أجله فحمد الله، مراده أن الله عز وجل تجلى على قلبه علمًا، تجلى على قلبه علمًا وجمالًا وجلالًا، فقال هذه الكلمات العظيمة الجليلة وأراد أن يفرح الله أن يثني عليه، وأراد أن يستجيب الله له لماذا؟ لأن مقدمتها ما هي؟ (سمع الله لمن حمده)، يعني كلما حمدته سمع الله لك، وكلما بالغت في الحمد فتح الله لك السماع أكثر، وبعد الحمد أن يسمع الله لك، أن يجيبك الله، أن يعطيك، أن يكرمك، فهذا بابٌ لا يسأل العبد عنه، فلما هذا العبد قال: «اللهم إنك الله لا إله إلا أنت لك الحمد» أو قال: «أسألك بأسمائك الحسنى أسألك بأنك أنت الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»، فهم سر هذه الكلمات من جهة

نفسه، هذه معارف لا تؤخذ بالكتابة، هذه المعارف يدركها المرء بالنظر وفي علمه بربه وفي علمه بمعنى التعبد.

فإذًا هذا باب لتحقيق مرادك في الحياة، الدعاء إذا أنت كلما فتح الله عليك من المعارف كلما فتح عليك من معاني التعبد، تصبح لك كلمات تقولها غريبة، ولذلك تجد أدعية خاصة لبعض أهل العلم، أنظر بعض أهل العلم كان لا يقول إلا الحاجة، أنظر وهذه مراتب لا يسأل العبد عنها ويقال لماذا فعلت كذا والسنة كذا، هذه معارف خاصة بعض الناس يفتح الله عليه من المعارف على معاني معينة، فبعض أهل الذكر يكون ذكره الحمد لله واستغفر الله، كان أحدهم لا يذكر إلا الحمد لله استغفر الله، لماذا فقط وقفت عند هذه المرتبة؟ فوجد أن الدين كله حمد لله على ما أعطى من نعم واستغفارٌ لما تم فيه من تقصير، هذا منتهى التعبد عنده، نظر إلى نفسه فوجده قمينٌ بالاستغفار، ونظر إلى ربه فوجده قمينٌ بالحمد والثناء، منتهى الوجود هذا هو، من هو؟ هو من ربه، ماذا يأتي منه ومن أمثاله وماذا يأتي من الواحد الأحد، الفرد الصمد هذه مراتب التعبد أنظر، هذه قلوب مشغولة بهذه المعاني، قلوب مشغولة بهذا التفكر.

إذًا من فضائل معرفتنا لأسماء الله أن نتعبد الله بها، أن ندخل عليه جل في علاه من أسمائه وصفاته، وحينئذٍ يفتح لك الباب، فحينئذٍ لقد تلقفها ستة وثلاثون ملكًا، بضع وثلاث ملكًا، سبع وثلاثون ملكًا، جاء يتلاقاها، يتسابقون، **(فيما يختصم الملأ الأعلى)**، هذا الحديث من أجل الأحاديث، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن سند هذا الحديث **(فيما يختصم الملأ الأعلى)** الذي شرحه ابن رجب شرحًا جميلًا، يقول: «وسنده أجل من كثير من الأسانيد في الصحيحين»، **(فيما يختصم الملأ الأعلى)**، لماذا يختصمون؟ هل هناك خصومة في الملأ الأعلى؟ نعم، ما هي؟ هي خصومتهم في كتابة العمل الصالح، الملائكة تختصم في كتابة العمل الصالح، حين يصدر العمل الصالح، ومع أنهم يتعبدون ويأتي منهم التعبد، ولكن صدور التعبد من هذا الإنسان له معاني لا تتحصل في الملائكة نفسهم.

من أعظم تعبد الملائكة التي لا ينشئ منهم لا فتنة ولا امتحان، أم تعبد هذا الإنسان الذي هو مفتونٌ مبتلى؟ ولذلك في الحديث: **(يعجب ربنا لعبد في القّي يؤذن ويقيم ويصلي)**، يعني الله يعجب لرجل في الفلا لا يراه أحد، وهو في الفلا يمشي مسافر وتعب، والله يعجب له وهو في هذه الحالة أن يقوم ويصلي، وعلى مثل هذا يعجب ربنا لرجل نائم يشده النوم فيقوم ويصلي، ويعجب ربنا لرجل يخاف الشح والمرض ويخاف العجز ويخرج الصدقة فيعطيها، ولا يعجب ربنا لفعل الملائكة لأنهم خلقوا لهذا، يعجب ربنا يفرح، هو الذي خلقه وهو يعجب منه ويفرح له.

ما منشأ هذا؟ منشأه علمك بأسماء الله وصفاته، عندما تعلم أن الله عز وجل محسنٌ ويحب الإحسان، أنظر هذه المرتبة، **(اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام)**، وانظر إلى تبارك، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١]، البركة ما هي الكثرة، وهي من اسم الله المجيد الذي يدل على الكثرة والسعة والعطاء.

فإذًا من أعظم ما يستفاد من معرفتنا لأسماء الله وصفاته هي أنها باب العطاء الإلهي، باب الكرم، وكذلك ما تدل عليه الأحاديث أن من فضائل معرفة أسماء الله وصفاته، أنها باب حب الله للعبد، هذا هناك يدعوه بها، هنا حبه للعبد، كيف؟ يقول صلى الله عليه وسلم في الحديث للذي كان يقرأ بسورة الصمد في كل ركعة: **(حبك إياها)** وحبه لماذا؟ لأسماء الله وصفاته، قال: **(أدخلك الجنة)**، هذه الصفات إن علمتها أحببت الموصوف، وأنت أيها الإنسان مركب على حب الجمال، حتى لو لم يكن لك منفعة به، أنت الآن لماذا تحب أبا بكر؟ هذه معاني لابد من وجودها للإنسان.

أنا قلت ما هي قوام الشخصية في الوجود؟ هو أنه عبد، الشخصية المسلمة ما هو قوامها؟ العبودية والاتباع واليوم الآخر، النظر للممات، الشخصية المسلمة قوامها هذه الأركان فقط، كل شيء بعدها تبع لها، لماذا؟ الإنسان مركب على العبودية، ولذلك ابن القيم له لفظ يكرره في كتبه كثيرًا، موجود في طريق الهجرتين موجود في مدارك السالكين في كتبه، الإنسان فقير بذاته، هذا الفقر هو الذي يُنشئه رغم أنفه عبدًا، الغنى الإلهي غنى ذاتي، لم ينشأ لوجود الأشياء، أنت لأنك فقير ينشأ غناك، بماذا؟ بتملك ما تفتقر إليه، يعني واحد عنده مال، هو غني بماذا؟ هل غني بذاته أم غني بالمال؟ المال، فلفقره للمال نشأ غناه، فأساس ما ينشأ الغنى في الإنسان هو فقره، لكن الله عز وجل غني بذاته قبل أن ينشئ الأشياء.

وصفاته -هذا ما سنتعلمه- صفات الله عز وجل أزلية حيث ذاته أزلية، الأول الذي ليس قبله شيء ولم تنشأ صفاته بوجود المخلوق، يعني الله غني قبل أن يكون هناك خلق، لكن السؤال، فتحة هذا الباب لماذا؟ لأن الله خلق العبد على هذه الصفات لا يمكن إلا أن يكون عبدًا، فإما أن يكون عبدًا لله وإما أن يكون عبدًا لغيره، أما أن يكون إلهًا لا يمكن، أما أن يكون غنيًا عن العبودية فلا يمكن.

كذلك في قضية الاتباع، لا يمكن للمرء إلا أن يكون مُتبِعًا، انظر الناس من صغرهم ينشؤون على التقليد لماذا؟ لفقرهم إلى الاتباع فقرهم إلى النموذج، كما أن في فقرهم إلى الله، عبيد، أو فقرهم لغير الله يفتقرون لغير الله، ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، وهذا ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩] هو مشتت في عبوديته مشتت، وسلما لرجل هو عبدٌ

لواحد، إذا سأله أعطاه ويطلب منه أن يكون له فقط، وكذلك في مسألة الاتباع، ضربتها من أجل أن تعلم، إما أن يكون في قلب العبد تعظيم لواحد وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يتبعه النموذج الإنسان مركب على هذا المعنى.

انظر اليوم هو مركب لأن يعشق مثلًا لاعب كرة قدم، فتراه يحلق مثله، يربي لحيته أو يقص لحيته مثله، يلبس لباسه، وإذا جلس لوحده حاول أن يقلده في مشيته، يلتقط أخباره، اليوم تزوج اليوم طلق اليوم دخل له، يتابع أخباره وأحداثه ويحاول تقليده، لماذا؟ لأن الإنسان مركب على هذا المعنى، وأنت الآن تحب أبا بكر رضي الله عنه لماذا تحبه؟ لهذا المعنى، لماذا تحب عمر رضي الله عنه؟ لهذا المعنى، بالرغم أنه لا ينفعك بشيء وهذا لا ينفعه شيء، طبعًا تنشأ أوهام جهالات يظن أنه بمعرفته اللاعب قد عرفه اللاعب، لكن هذه جهالات، لكن أنت تحب هؤلاء العظماء لماذا؟ لما فيهم من جمال، فالمرء مركب على هذا المعنى.

الآن أنت تحب الله عز وجل فحبك لله أدخلك الجنة، هذا هو الأساس، فقال صلى الله عليه وسلم في الحديث: **(حبك إياها أدخلك الجنة)**، لماذا حب السورة؟ لأنها ذكرٌ للموصوف الذي يحب، فمن فضائلها أنها تدخلك الجنة، وأنها تُنشئ لديك المعارف الصحيحة، العابد هو أسلم الناس لربه، هو أفضل الناس، هو أكرم الناس، هو أسعد الناس، هو المطمئن حتى وهو في البلاء، هذه كلها من فضائل معرفتك لأسماء الله وصفاته، لابد أن تتعلمها على هذا المعنى، وهذا أمر لا ينتهي، هذا الأمر الذي ذكرناه يعني لا ينتهي، أنت تدعو الله عز وجل بها أنت تعبد الله عز وجل بها، ومن ذلك أن الله يحب منك الصفات التي يحبها لنفسه.

انظر للحديث: **(إن الله وترٌ يحب الوتر)**، **(إن الله جميل يحب الجمال)**، فهناك أسماء لله عز وجل، يحب الله عز وجل العبد أن يتمثل بها، الله عز وجل جواد يحب الجواد، الله كريم يحب الكريم، الله رحيم، **(الراحمون يرحمهم الرحمن)**، فهذه التي تُنشئ حركة الإنسان؛ معرفة المرء لربه تنشئ حركته.

يكفي إذًا هذه فضائل معرفتنا لأسماء الله عز وجل تنشئ فضائل في القلوب على هذا المعنى، وهذا أمر لا ينتهي كما قلنا، وهذا أمرٌ يتسابق الناس فيه، انتبهوا أكرر إياك أن تظن بعض الناس يقولون: لا العبادات توقيفية، نحن نقول عبادة توقيفية لكن الحمد من العبادة والذكر من العبادة، والمرء يُنشئ من الحمد ما لا يستطيع أن يحصيه الناس، ولا يستطيعون أن ينتهوا إلى قول، فهذا بابٌ يتسابق الناس فيه، يحمدونه في سجودهم، تنشأ لديهم أذكار، لكن المطلوب منه أن يكون عالما، والعوام يقولون كلمات تقارب معاني التعظيم، ويقولونها على جهة الفطرة، وهي معاني صحيحة، حتى وإن لم يصيغوها على ألفاظ

سليمة، فهذه تترك لهم، وتقوم ألفاظهم، ولكن في قلوبهم ما تنشأ من المعارف في حمد الله والثناء عليه، هي معاني صحيحة، والمبلغ لا يدركها من زعم العلم أو من قرأ الكتب، وهي معاني صحيحة تحبها.

فأنت تتعجب يقولون كلمات عجيبة وجميلة، العوام والعجائز يقولون كلمات عجيبة في الله عز وجل، وأنت تطرب لها، صحيح ربما لا تستقيم مع اللفظ ولكن لو بحثتها تنشئها هذه القلوب، فهذا أمر لا ينتهي من العبادات والأذكار، كما ذكرنا في الأحاديث والدالة على هذا.

فأعظم العلوم في هذا الباب هو المدخل لأسماء الله وصفاته وهو الآية التي تحدثت عن أسماء الله وصفاته، قال جل في علاه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، إذًا أثبت له أسماء وجعل هذه الأسماء حُسنى، ليس حَسنة، لم يقل هذه أسماء حَسنة، ولكن جعلها حُسنى، أولًا ما معنى الاسم؟ الاسم في اللغة اختلف أهل العلم قالوا: إما مأخوذ من السمة أو من السمو، الاسم أما من السمة، السمة تعني العلامة، فالمرء له علامة مميزة هذا اسمه أحمد، هذا اسمه ابراهيم، هذا اسمه خليل، هذا اسمه علي، فالأسماء هذه هي سمة له، يعرف بها، فقالوا الاسم مأخوذ من السمة، وقال بعضهم: الاسم من السمو وهو الارتفاع، ذلك لأن الناس يختارون الأسماء التي بها يمدحون، فالأسماء فيها معنى المدح.

وقد يكون المدح جميلًا، وقد يكون جميلًا من جانب وفيه نقص من جانب، يعني الواحد يقول: كيف من السمو وأنتم تعلمون أن بعض العرب سمى ابنه حمارًا وبعضهم سمى ابنه كليب، تصير كلب، فكيف تقولون أنه من السمو والارتفاع؟ هم يسمون الأسماء فيها تعظيم لما يريدونه من صاحبها، إذا كان عندك الحمار أنت على معنى البلادة، فالحمار عنده على معنى الصبر، هو يريده حمارًا على معنى الصبر، هذه معاني موجودة في الدواب والكلب لماذا؟ يريده كلبًا، ليعقر، وأصلًا كلمة كلب –قالوا في أحد العلماء اسمه محمد بن سعيد بن كُلاب، هو سمي لماذا كُلاب؟ قالوا: كخطاف، ابن كلاس ابن كلاب كخطاف، قالوا: لفظًا ومعنى، محمد بن سعيد بن كلاب، قالوا: كلاب لفظًا، كلاب كخطاف ومعنى خطاب، قال لماذا؟ قال: كان إذا ناظر كان كالكلب، إذا قبض ما فلت، إذا ناظر غيره قبض عليه.

ولذلك قال الله عز وجل: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾، العلماء عندما نظروا لكلمة مكلبين، ما جعلوها فقط خاصة بالكلب، ولكن جعلوها عامة لما يحصل منه الكلاب، وهو الكلاب إذًا الخطاف، ولذلك ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ تصح للصقر، لماذا؟ لأنه يقبض، كلاب يقبض عليه، فليست خاصة ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ بالكلب.

القصد من هذا: بأن الأسماء الناس يسمونها لحاجاتهم، ولهم فلسفتهم فيها، فقالوا: الاسم من السمو لأن الناس يبحثون للناس عن الأشياء الجميلة، ومن ذلك في الحديث لما سئل النبي صلى الله عليه وسلم

عن هارون ولما قال في حديث صحيح مسلم: لما قال الله عز وجل: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ [مريم: ٢٨]، لكن بين مريم وبين هارون -وهو أخ موسى عليه السلام- سنين طويلة فكيف يا أخت هارون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(كان فيمن كان قبلكم يتسمون بأسماء الأنبياء والصالحين)**.

ولذلك من هداية الله لأباء الأنبياء ألا يسموهم إلا بأسماءٍ الجميلة، لا تتغير بعدها، يعني الأنبياء الله يختار لهم الأسماء، ويوفق أباهم للأسماء الجميلة، وهذا أمر مهم جدًا أن نعلم أن الله يختار للأنبياء من الأقدار ما توافق مرتبتهم الجليلة، النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب فطرةً، هذا الحب أي حب؟ كان يحب الذراع من الشاة، كان يحب الطيب، كان يكره كذا، هذه الكراهة هي أكرم ما يقام عليه البشر، فحتى ما هو فطري وقدري فالله لا يختار له من الأقدار إلا ما هو حسن، ومما اختاره من أقداره الحسنة اسمه محمد، ولذلك ماذا سميت هذه الأمة؟ يوم القيامة تدعى بأي اسم؟ بأمة الحمد، الأمة هذه أمة محمد تجتمع يوم القيامة تحت لواء اسمه لواء الحمد، أنظر أجل ما في العبادة هو الحمد لله، فسمي بأجل ما تتعبد به هذه الأمة، وهو أنها تحمد الله عز وجل، ليس فقط هذا خاصًا لنبينا صلى الله عليه وسلم، ولكنه عام لكل الأنبياء، أن الله عز وجل يختار لهم من الأقدار ما تناسب مرتبتهم الجليلة الشريفة عليهم الصلاة والسلام.

فإذًا أسماؤهم شريفة وجميلة، **(فكان فيمن كان قبلكم يتسمون بأسماء الأنبياء والصالحين)**، هذا من قبيل الرجاء والتفاؤل، يعني أنت تسمي ابنك خالد، لماذا؟ رجاءً يكون مثل من سبقه وحمل هذا الاسم، وإن كانت الأسماء لا تؤثر، لكنه كله من باب التفاؤل، ومن هنا فأسماء الله الحسنى خلافًا لأسماء الأخرين، قد يكون الاسم حسنًا ولا يكون الصفة، واحد يسميه ابنه كريم ويكون من أبخل الناس، يسميه حسن وهو من أقبح الناس خلقًا أو شكلًا، قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، الأسماء المقصود منها إما من السمة التي ينادى بها ويعرف بها ويتميز بها.

وإذا حصل الخلط ينهى عنها، مع الأنبياء لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التسمية بأبي القاسم، وقال صلى الله عليه وسلم: **(تسموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي)**، والسبب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في السوق فنادى رجل رجلًا يا أبا القاسم، ويريد رجلًا فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم وأجاب وهو لم يرد النبي صلى الله عليه وسلم، النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(إنما أنا قاسم والله يعطي)**، فنهى عن تسمية أبا القاسم، واختلف أهل العلم هل هذا خاص بحياته أم بعد وفاته، والصواب أنه خاص بحياته لأن هذا هو المقصود، لأن الناس كلهم يشتركون في القسمة، الأب يقسم بين أبنائه، والأستاذ يقسم بين التلاميذ والمدير وهكذا ..، فالقاسم الذي يقسم بين الناس.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾، ما معنى الحسنى؟ أولًا هي صفة مدح، فأسماء الله عز وجل من أين أتيتها كانت حسنة، أما الأسماء التي يحتمل أن تكون حسنة، وأن تكون سيئة، وإنما يتعلق الحسن والسوء بمتعلقها فيجوز أن يوصف بها ربنا فعلًا، ولا يجوز أن يسمى بها اسمًا، الاسم إذا كان اسم لا يكون إلا حسنًا، الكريم، الغفور، الرحيم، الملك، القدوس، هذه أسماء الله عز وجل، فهذه لا تكون إلا حسنة، لكن لو كان الاسم يمكن أن يحمل دلالة الحسن ودلالة السوء يمكن، وإنما النظر لمتعلقة، مثل قول الله عز وجل: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، الله يشاء فجاء هذا الوصف لربنا فلا يشتق منه الاسم، لأنه يمكن أن يشاء الخير، ويمكن أن يشاء الشر، ويمكن أن يشاء العدل، ويمكن أن يشاء الظلم، فلما كان متعلقه يمكن أن يحمل دلالة حسنٍ، ودلالة سوء، فجاء وصف الفعل لربنا فيه ويجوز أن يوصف مع ذكر متعلقه الحسن ولذلك في الحديث: **(والشر ليس إليه)**.

هل الله عز وجل خلق الشر؟ الله خلق كل شيء، لكن لا يوصف به، لأن الشر هو عدم وجود الخير، ما هي الظلمة؟ الظلمة عدم وجود النور، فالله خلق النور وخلق غياب النور، فما هي الظلمة؟ عدم وجود النور، فالإنسان هو الذي يحدث الظلمة، لا يجوز أن ينسب الشر إلى الله.

والقصد من ذلك: أنها حسنى إذا كانت أسماء فهي حسنى من كل جانب، فإذا كانت هذه الأفعال من ربنا أو من أي أحد، يمكن أن تحمل دلالة حسن أي متعلقها دلالة حسن ودلالة شر يجوز أن تنسب إلى الله فعلًا لا اسمًا، **مع شرط**: أن يكون متعلقها حسنًا فتنسب إلى الله، كما يعني ذكرنا من ذلك أنه إذا أراد، يريد الشر ويريد الخير يريد العدل ويريد الظلم، فحينئذٍ ينسب الفعل إلى الله يقول: الله عز وجل يريد، الله يتكلم، يمكن المتكلم يتكلم بالخير والصدق ويمكن أن يتكلم بغيره، فالمتعلق يختلف، ننسب الفعل لكن مع شرط متعلقه، وأما إذا كان الفعل قبيحًا بذاته كالكذب كالظلم وغيره فلا يجوز أن تنسب لربنا، لا اسمًا ولا فعلًا، لا يجوز، هذا يناقض ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

بارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا حديث (يعجب الله) ما المقصود به؟

الشيخ: العجب هو الفرح، والعجب في كثير من لغة القرآن وفي هذا الحديث هو **(يعجب ربنا)** يعني يفرح، ولكن مبعثه، ما منشأ العجب؟ هو أن يأتي من الشيء ضد ما يتوقع منه، فيقع العجب، فأصل العجب أن يأتي الشيء من غير من لا يتوقع منه، فيقع العجب، «معقولة أجت منك أنت!!» هذا العجب منشأه أنه يفرح! هذا الأنسان الذي خلقته على هذه الخلقة من الضعف، ومن الكسل ومما خلق، الذي خلق الله عز وجل عليه آدم، قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ [طه: ١١٥]، فأمرٌ تعلق بالذهن والعلم وأمرٌ تعلق بالإرادة، ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا﴾ ظلوم متعلق بالإرادة، ﴿جَهُولًا (٧٢)﴾ يتعلق بالعلم، ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ ما تعلق أمرٌ بالعلم.

فالوجود كله علمٌ وإرادة، من غير علم ومن غير إرادة انتفى في الوجود، لم يبقى في الوجود شيء، فكل أسماء الله قائمة على علمه وأرادته، ولذلك -وسنأتي إلى اسم الله الأعظم- لماذا جاء في بعض هذا الأحاديث أن الله هو الحي القيوم؟ أن اسمه الأعظم هو الحي القيوم لماذا؟ لأن كل الصفات تعود إليها، القيوم إرادة، والحي أساسها العلم، قال صلى الله عليه وسلم: **(أصدق الأسماء همام والحارث)**، يعني ما دام في حياة همامٌ وحارث فاعل، كل أسماء الله تعود إلى الحي والقيوم، من غير حياة ومن غير قيومية فما في أسماء وصفات، فالقيومية هي إرادة، والحي هي علم، فقال الله عز وجل: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، -نعود للسؤال- فالله عز وجل عجب منه، لأن أباه علم منه فنسي ولم نجد له عزمًا، فعجب الله منه أنه أتى منه غير ما يتوقع منه، فعجب الله له.

والعجب إلى ماذا أدى؟ أدى إلى الفرح، وإذا وقعت من الكفار في القرآن، دائمًا في كل القرآن تقع على معنى الإنكار، قالوا لأنهم لا يتوقعون أن يرسل الله رسولا، وألا يكون هذا الفقير رسولا، ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف: ٣١]، فعجبوا، عجبوا قالوا: ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤)﴾ [ص: ٤] فالعجب هو أن يأتي من الأخر أو من الغير على خلاف ما يتوقع منه.

جزاكم الله خير وبارك الله فيكم.

الدرس الرابع: وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

وقفنا عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾ [الأعراف: ١٨٠]، هذه الآية من سورة الأعراف، وقعت الموقع الذي به يتحدث ربنا سبحانه وتعالى عما وقع به الناس من الإشراك، ولذلك تجدون في هذه السورة بعد هذه الآية أنه وصف ربنا سبحانه وتعالى المعبودات الأخرى بأنها معطلة، وأنها لا تستطيع أن تدفع عن نفسها الخير ولا تسمع لمن سألها الخير، لا تسمع ولا ترى ولا تفعل فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)﴾ [الأعراف: ١٩٧-١٩٨]، وقال سبحانه وتعالى بعد أن ذكر أمر من سأله الولد من أجل أن يوحده وأن يعبده: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)﴾ [الأعراف: ١٩٠-١٩٣]، حالهم واحد أنهم لا يسمعون سواء سئلوا من قبل معابدهم أو لم يسألوا.

وذكر سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦)﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٦]، فموطن هذه الآية العظيمة في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، من أجل أن تبين حال المعبودات الأخرى وأنه سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى والتي هذه الأسماء خلق الله عز وجل الإنسان من أجل أن يعبده من خلالها، فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ

بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والمقصود بها دعاء العبادة ودعاء الثناء ودعاء المسألة، وهذا شامل لكل العبادة فادعوه بها.

ولولا أن ربنا سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى ما أستحق العبادة، فاستحقاقه للعبادة لأنه سبحانه وتعالى له هذه الأسماء، لأنه الخالق، لأنه الرازق وغيره لا يستحق العبادة لخلوه من هذه الأسماء، لعدم اتصافه بهذه الأسماء فهو لا يستحق العبادة، ولذلك وقعت هذه الآية بين أمر الدعاء وأمر الذكر، قبل هذه الآية الله عز وجل يأمرنا ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وصف نفسه، قدم جل في علاه قدم من أجل أن يطلب منا أن ندعوه، وطلب منا أن نعرفه، فقال سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وبعد ذلك قال بعد أن بين صفاته، وبين من هو جل في علاه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ [الأعراف: ٥٤]، ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذلك بعد أن بين من هو، قال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)﴾ [الأعراف: ٥٥].

التضرع هو التذلل ذكر سبحانه وتعالى هنا ذكر حال الباطن وذكر حال الظاهر في الدعاء، لماذا؟ لعلاقتها بأسمائه وصفاته، فإنه لو دعا بصوت عال لكان في ذلك الاتهام لربنا أنه لا يسمع به إلا في هذه الحالة، ولذلك في الحديث لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة وأظنها تبوك فجعل الصحابة يرفعون أصواتهم بالذكر، فقال: **(أَربِعوا على أنفسِكم فإنّكم لا تَدعونَ أصمَّ ولا غائبًا، إنما تَدعونَ سميعًا بصيرًا)**، فالله عز وجل ليس بعيدًا لينادى، ولذلك المطلوب في الدعاء ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)﴾ [مريم: ٣]، وهذا الضج بالدعاء إذا كان الإنسان منفردًا أو يدعو لنفسه فقط، ورفع الصوت بالدعاء هذا مخالف للسنة، ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)﴾، ويسر لربه.

وأدب الدعاء، أول شيء الدعاء أساسه مشروع لأن الله عز وجل سميعٌ بصير، لماذا ينشأ الدعاء؟ مبدأه أن الله سميع بصير، وأنه جوادٌ كريم، أولًا: هو يسمع، وثانيًا: أنه هو يعطي، وثالثًا: أنه رؤوف، لأنه حين يسمع عبده يلتجئ إليه، فإنه لا يقسو عليه، ومبدأه لأنه حيي، لأنه يستحي أن يرد يدي عبده فارغتين من الدعاء، فهذا كله مبدأه هو علمك بأسماء الله وصفاته، فمبدأ الدعاء -هنا الشرع- مبني على ما تقدم وأدب الدعاء مبني على علم المرء بأسمائه وصفاته.

لماذا تدعو ربك تضرعًا وخفية لماذا خفية؟ لأنه يسمعك، حتى ولو كنت في جوف النون في جوف الحوت كما دعا يونس عليه السلام ذو النون: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فسمعه الله عز وجل وأجاب دعاءه.

فإذًا: **مبدأ الدعاء**: مبني على معرفة المرء بربه، **وأدب الدعاء**: مبني على معرفة المرء بربه، فهذا لابد منه، فإذًا ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)﴾، سياق الآية أن الاعتداء يكون إذا دعا بغير هاتين الصفتين، التضرع والتذلل التخشع هو من الضراعة، لأن فيها التخشع والتذلل لأن فيها الرجاء، والخفية من الخفاء، والرجاء كما أن الابن الصغير الوليد عندما يتعلق بالضرع، كيف يتعلق بالضرع، ويلتصق به التصاق المحتاج، يلتصق به لأنه لو قطع هذا السبيل من الطعام والشراب لهلاك، ولذلك هو يلتصق به، وكأن الداعي يلتصق بربه على هذا المعنى من الحاجة أنه لو قطعت هذه الصلة عجز الإنسان وفني ولم يكن شيئًا، وأصابه الضيق، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦]، جاء الأمر الباطن.

انظر الرجاء رجاء التضرع بالتذلل والتخشع، ومعنى الحاجة والإقبال كأنه ملهوف لحاجته، ومع الخفاء وجاء أمر الباطن، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، والمرء كل حياته بين هذين الحدين، بين شيء يخافه وبين شيء يرجوه، إن حياة المرء قائمةٌ على هذا، لا تقوم إلا على هذين الأمرين، شيءٌ يخافه يريد دفعه وشيءٌ يحتاجه فيسعى لتحصيله، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، وهذا أمر الباطن ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، وهذا صح أن المرء يطمع فيما في يد الله عز وجل، والطمع هو أشد من الرجاء، الطمع أشد ولا يقع الطمع إلا مع الأمل، لا يقع الطمع بدون أمل، ولذلك لا يجوز لأحد أن يدعو إلا وهو موقن بالإجابة، لأنه لو لم يكن هناك أمل في العطاء لم طمع، هل يطمع المرء من الصخر أن يخرج منه الماء، هل يطمع المرء من الصخر أن تخرج له المال، هل يطمع من الصخر أن يحتضنه إذا تعب وأن يزيل عنه المشقة لا، لا يطمع لماذا؟ لعدم وجود الأمل.

فلذلك الطمع هو أشد من الرجاء، يرجو نعم ولكن الطمع يكون أعلى، لأنه على مقاربة الإصابة فذكر الله الظاهر والباطن، وهذا كله مقدمات لما قاله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، ثم بعدها قال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾، فلما قال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ استغنى عن ذكر وخفية لأنه في

نفسه، فاستغنى عن ذكرها، فقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، والخيفة من الخوف، هناك الخُفية من الخفاء وهنا تضرع وخيفة، فذكر أمر الباطن فجعل ذكر الله عز وجل ماذا؟ لم يجعل فيه طمعا، في الذكر لم يذكر فيه الطمع، كما ذكر في الدعاء، لأن الدعاء فيه استنزال الحاجة، سؤال الحاجة.

ولماذا ذكر الخوف هنا؟ لئلا يصنع الذكر كما نهى الله عنه قال: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦)﴾، لئلا يقع التدلخ، يعني إذا ذكر ربما يشعر بأنه عمل الشيء الكثير، وحصل له القرب والرضا بأنه ذكر الله فحتى يقطع عليه هذا المعنى فالله أمره بأن يذكره مع الخوف منه، وطلب صرف ما يعذب الله عز وجل به العصاة، مع إنه يذكر، ولذلك في العبادات تختم عادةً بالاستغفار، ولو وقع المعنى الآخر لما استغفر، ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨)﴾ [الذاريات: ١٨].

وقالت عائشة رضي الله عنها: **(إنما هم يقومون الليل ويخافون ألا يقبل منهم فيستغفرون)**، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يستغفر عقب الصلاة، وفهم هذا ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ [النصر: ١]، ما مبعث الاستغفار؟ هو هذا ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، وهذا كله متعلق كما قلنا ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]، الله له الأسماء الحسنى.

فماذا صنعت هذه الأسماء؟ صنعت أن يعبده المرء وأن يعبده عبده، بأن يعبده على أي معنى؟ على معنى الطلب، والطلب حين يقع وحين يؤتى فيصنع الحب، وعلى معنى الخوف، وعلى معنى الإخبات، من هنا منطلق العبادات، إذا لم تدخل إلى العبادات –هذه نكررها ونصر عليها حتى نستفيد وحتى نفهم ما هو مراد هذه الحلقات، نحن لا نريد في هذه الحلقات أن نكرر ما كرره يعني المشايخ والعلماء من قواعد الأسماء والحسنى هذه موجودة في الكتب، والعلماء تكلموا عنها والناس يتفقون عليها، لا يوجد من يخالف فيها، ولكن نريد أن نرتقي مع المطلوب في فهمنا لأسماء الله وصفاته أن ترتقي عباداتنا، وأن يكون مصدر العبادة هو النظر إلى أسماء الله وصفاته، إلى فرحه إلى ما يحب، لماذا يحب هو؟ الله أقام من الوجود المشهود علامة على الوجود الخفي من عالم الغيب.

فلماذا يفرح؟ كيف يفرح المرء؟ لماذا يفرح؟ لأنه يتلقى ما تحبه نفسه، لماذا يفرح؟ لو جاءه ما لا تحبه نفسه لا يفرح، فالله متى يفرح؟ عندما يقع من عبده ما يحبه هو، فيقع من العبد ما يحبه الله فيقع الفرح الإلهي، وإذا وقع الفرح الإلهي هذه هي الحسنة، ما الحسنة؟ هي اسمها حسنة ومرتبطة باسم الله بأسماء الله الحسنى هي حسنة وهي ضد السيئة، لماذا حسنة؟ لأنه يحبها الله، ولماذا يقع الأجر والثواب، لأن الله عز

وجل رضي عنك، فلماذا رضي؟ لأنك أفرحته، وضده يقع من العصاة، لماذا أعطاه السيئة؟ لأنه أغضبه، لماذا أغضبه؟ لأنه لم يؤدي له ما يحبه منه، وما طلبه منه، بل أتى بغيره، أتى بضده.

ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم كان دائمًا يربط في هذا المعنى، الله عز وجل حيي، الله يحب العذر، هذا في الأحاديث (الله يحب العذر)، ما معنى هذا؟ أنت كيف تفهم الله يحب العذر؟ يعني الله لا يحب لأحد أن يأتي يوم القيامة، وينصب له الموازين فيقول له: أنا لي حجة عندك، فإذا وقعت الحجة انتفى الحساب، ولذلك هؤلاء الثلاثة يأتون يوم القيامة ولهم موقف من الحساب، المجنون الذي لا يعقل، وصاحب الفترة الذي جاءه ولم يأتي حساب، فالله لأن يحب العذر، فلذلك يقطع الأعذار، ومن هنا أرسل الأنبياء وأنزل الكتب وأقام شواهد الحق.

والله حيي، ما معنى حيي؟ قال صلى الله عليه وسلم: (كره من عبده أن يظهر عورته)، لأنه حيي، الحياء لا يقع فقط بأن لا تفعل أنت الغلط ولكن ألا يفعل الخطأ أمام عينيك، فالله حيي، لا يقع منه جل في علاه الشر ولا يحب أن يقع الشر بين يديه، وبين عينيه جل في علاه لا يحب، فهذا هو منطلق هذا العبد إذا فهم هذا وأقبل عليه فهمه.

وتكلمنا أنه سابقًا كيف المرء ترتقي عبوديته كل ما ارتقت معاني ما في قلبه في تعامله مع الله، ولذلك ما هي درجة الإحسان؟ هو أن تدرك بعلم قلبك لا فقط بلسانك وعقلك، أن تدرك بعلم قلبك هذا المعنى في العلاقة مع الله، أن تعبد الله كأنك تراه، ما معنى كأنك تراه؟ يعني أن تشهد حضوره بأسمائه وصفاته في كل موقف، هذا الذي سماه علمائنا توحيد الشهود.

وحدة الشهود بمعنى: أن تشهد أسمائه وصفاته في كل موطن، كأن تشهده إذا رأيت شيئًا وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد في كل حدث، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ حضرت.

ولذلك حتى في السورة التي فيها هذه الآية، ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، لابد أن نفهم ما يحيط بهذه الآية لماذا هذه الآية وقعت في هذا الموقع من السورة؟ حتى نفقهها على وجهها الصحيح، لا نعزلها فقط من أجل أن نأخذ ما فيها ولكن كذلك أن ندرك موقعها من هذه السورة العظيمة، فقال سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ٢٠١]، تذكروا ماذا؟ حضر في قلوبهم معنى ما علموا من أسمائه وصفاته علموا ذلك، تذكروا عند حضور المعصية يغفل عن الله، يغفل من هو؟ من أنا؟ ما هذا الحكم؟ ما هذا الفعل؟ فيقع الإنسان، (نسي آدم فنسيت ذريته)، الإنسان

ينسى، ولكن إذا وقعت تذكروا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١)﴾، ما الذي أبصروه؟ قال: تذكر أبصر، ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١)﴾ [الأعراف: ٢٠١]، انتبه تذكروا عقلًا فأبصرت قلوبهم كأنهم يروه، هل رأوا الله؟ وإنما رأوا شهود أسمائه وصفاته عند حدوث ما يلزم، وعند حدوث ما يحدث، وقال إخوانهم أولئك قال لما ذكر المشركين هؤلاء والآلهة الباطلة من الشياطين هم لا يعبدون هذه الحجارة، ولا يعبدون الملائكة، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١)﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

هؤلاء لا يعبدون الحجارة يعبدون الشياطين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، ولم يسمهم شيءً إلا إخوانهم، لالتصاقهم بهم على الدوام، إخوانهم المشركين الشياطين إخوانهم من الأنس، والإنس إخوانهم كما قال الله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، قدم الأنس ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾، يعني الجن يمدون الأنسي ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾، يعني هو يريد فقط أن ينظر للمرأة فيتمتع بها، هو الذي يريده الشيطان يقول له لا، مد، زد، مد يدك، فإذا مد يده يمده أكثر، قال: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ يزيدونهم في المعصية حتى يقع فيما هو أعظم من ذلك، ولا يقبل منه أن يقع في المعصية لا ينتهي إلا أن يكون كافرًا، مستهزئًا بالشريعة مستهزئًا بالدين.

كل هذا أيها الأخوة الأحبة هو مدار هذا الحديث ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهذا أعظم درجات الحسنى فيها، أنها إن حضرت كان لها الفعالية، ما هو أعظم ما فيها؟ أنها إذا حضرت عملت من الخير الذي يحبه الله، وإذا غابت عن قلب المرء فسد المرء، إذًا هذا هو المدخل.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، إذًا له أسماء جل في علاه –وتكلمنا عن الأسماء– فما معنى الحسنى؟ أول الحُسن أن يكون الاسم له فعالية ولا تتحقق الفعالية إلا بأن تكون صفة، إذًا شرط الحُسن أن يكون هذا الاسم له حقيقةٌ من معناه، فإن الأسماء إما أن تكون مشتقة، وإما أن تكون جامدة، ما معنى مشتقة؟ يعني من معاني لها معاني، وإما جامدة يسمي الناس أسماء فقط هكذا جرت، وليس لها معاني، فمثلًا اسم خالد هذا مشتق من الخلود، عمر مشتق من العمر، يرجو له أن يكون العمر الذي لا ينقضي، والخلود الذي لا ينقطع فيرجو له، ومحمد صلى الله عليه وسلم من الحمد، كما تكلمنا أجّل ما يتعبد العبد بها ربه، وهناك أسماء يتسمى بها الناس ليس لها معاني، جامدة، ما معنى جامدة يعني ليس لها معاني.

فلو كانت الأسماء الجامدة ليس لها معاني ليست حُسنى، إلا أنها سمة فقط للدلالة على الشيء، حين يتسمى المرء حجرًا -ابن حجر العسقلاني- يسمى حجر فأين موقع الحسن فيه، في معناه، ليس له معنى فهو جامد، يقال هنا جامد، فما فائدته لماذا الناس يتخذون أسماء جامدة؟ من أجل السمة، من أجل أن يتميز بها فلان، فلان إذا نودي فلان عرف، وإذا حضر عرف باسمه، فهي أسماء لأجل المعارف، للدلالة على الأشخاص فقط ولكن لتكون الأسماء لها الفعالية لابد أن تكون صفات، ومن هنا فأول -هذا على المعنى الفعالية شهودها لتكون لها الفعالية حين تطلب، وحين تسأل وحين يستغاث بها-.

فإذًا أول شرط من شروط الحُسن أن يكون له معنى، فلذلك أسماء الله صفات، لها معاني ليس فقط أسماء متعددة بلا معاني، لا هذه صفات له جل في علاه، ولذلك كل اسم له هو صفة له، هذه الصفة قائمة به جل في علاه، قائمةٌ به صفة، فالله عز وجل من أسمائه السميع، ماذا تدل؟ تدل على أن صاحب هذا الاسم يدرك ما يُسمع، ما معنى صفة السميع؟ لو قيل فلان سميع فإنها تدل على أنه إذا خوطب أو إذا وقع منه ما يُسمع وقع من أمامه أو معه أو عنده ما يُسمع؛ سمعه أدرك مراد قائله وأدركه، فيقول الإنسان سميع، الأنسان يسمع، وضده ألا يسمع أصم، الله عز وجل ليس أصمًا جل في علاه **(وإنكم لا تدعون أصمًا)**، فالله السميع يسمع، أي يدرك المسموعات، يدرك ما يُسمع، الله بصير من أسمائه أنه البصير، فلو العبد نادى البصير على هذا اللفظ البصير فإنه يقع على الله جل في علاه، ولما كان له صفة البصر فإذن هو يدرك ما يبصر، ولا يغيب عنه.

وهكذا له سبحانه وتعالى صفة الرحمة فيقال الله الرحيم الرحمن إذًا هو في نفسه الرحمة في نفسه أنه له صفة الرحمة ويقع منه الرحمة على خلقه، والله عز وجل الغني، لما نقول الغني، فدل هذا على أنه غير محتاج لأحد، والغنى وصف ذاتيٌ له لا يتحقق بالْمُلك، الغنى عنده ذاتي لا يتحقق بالْمُلك، ما الفرق بينهم؟ الغنى عنده لا يتحقق بالموجودات، نحن الغنى عندنا منبعه الفقر، فالفقر صفةٌ لازمة مع وجود الغنى، والغنى صفة طارئة سببها الفقر عندنا، ومن هنا الفقر عندنا ذاتي، ما معنى ذاتي يعني لا يتحول، لا يتغير، كل أحدٍ في الوجود مهما بلغ غناه هو فقير لماذا؟ لأن فقره لهذا الشيء هو أساس تحقق الغنى، يعني رجل يملك مئة دينار، بماذا صار غني؟ هل غني بذاته؟ أم لأنه فقير للمئة دينار، الجواب: بسبب فقره لهذا المال، فمع وجود المال هو فقير لهذا المال.

ولذلك الفقر في غير الله ذاتي، ما معنى ذاتي؟ لا يتحول، لا يتبدل لا يتغير، هو ثابتٌ لازمٌ لهذا المخلوق، الله عز وجل غناه ذاتي، صاحب المال معه مئة دينار فهو غني، ذهبت مئة دينار هو فقير، مع

وجودها هو فقيرٌ إليها ليبقى له صفة الغنى، فصفة الغنى عارضة، وصفة الفقر ثابتة، الله عز وجل الغني، ما معنى الغني؟ غنىً ذاتي، ما معنى غنىً ذاتي؟ يعني أنه لا يحتاج إلى شيء ليكون غنيًا، فالله عز وجل غنيٌ قبل أن يخلق الخلق، قبل أن توجد هذه الدنيا والسماوات والأراضين والملائكة العُباد، الله غني، هل يحتاج إلى شيء منا؟ لا يحتاج، فلو أفنى كل شيء لبقي ربنا سبحانه وتعالى له صفة الغنى فالغنى صفة ذاتية، لا تتحول ولذلك لا يطرأ الفقر عليه جل في علاه.

إذًا وهكذا، الله عز وجل له صفة الحياة، الله عز وجل له صفة الْمُلك، الْمَلِك ولما نقول الْمَلِك يعني كل شيء مملوك له، فإذًا هذه صفات.

أولًا: إذًا أول صفة ومعنى من معاني الحُسن أنها صفات، وهذه الصفات لا تتحول لا تتبدل لا تتغير –وسيأتي الكلام عنها– لكن هي صفات، وليست أسماء جامدة.

ثانيًا: أن هذه الصفات جميلةٌ وحسنةٌ من كل وجه، من أين أتيتها تحقق فيها وصف الحسن ولذلك ما قال الله ولله الأسماء الحَسنة، فهي حُسنى أي بالغة الحُسنِ بلوغًا تامًا فلا يعتريها نقص، هذه الصفات لله عز وجل صفات تامة لا يعتليها النقص، الله عز وجل السميع لا يعتليه الصمم، لا يعتليه العجز عن السمع، الله عز وجل بصير لا يعتليه العجز عن البصر، فلا تعتريه هذه جميلة.

وثالثًا: إذا قال الله عز وجل صفة فحينئذٍ يستطيع المرء أن يتعبد بها في كل حال لأنها حسنة من كل وجه، وبها يحب ربه على كل حال فيها، وعلى كل حال منه، ويخاف من ربه على أي حال منه، فهي حسنة.

ونحن قلنا في الدرس الفائت أن أساس كفر الكافرين هو عدم إدراكهم للقدر، طيب الله خلق المرض، انتبهوا نحن نعرف الصفة من آثارها، فوق أن نعرفها من الخبر المنزل بها، كيف علمنا صفات الله؟ علمناها من خلال النص، وهذا مبحث موجود، بأن صفات توقيفية، وربما نأتي إليه في موطن، ولكن أنظر إلى قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٥٠]، أمرنا جل في علاه أن ننظر، النظر للعلم والتفكر والتدبر ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾، ما قال أنظر إلى رحمة الله، هذه آثار كيف ترى الأم حانية على ابنها حنوًا عجيبًا، هذه من آثار رحمة الله، كيف ترى السماء تنزل بالماء لتحيي الارض، هذا من أثار رحمة الله، ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾، فأنت تعرف صفات الله عز وجل من خلال الخبر المنزل ومن خلال آثاره الحادثة التي تراها أمام عينيك.

هذا التنوع في الخلق وعظم المخلوق ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، هذا يدلك على عظم الخالق وعلى حكمته وعلى قدرته وعلمه وإحاطته لا يخفى عنه شيء، لماذا هذا نذكره؟ لأنك أنت ترى في الوجود ما تكره فهل هذا يعود على الله؟ يعني أنت ترى الظلم في الوجود وترى آلام من لا يكلف، ترى الدابة تتألم تمرض فتتألم، ترى الآلام في الأطفال يتألمون، ترى الأقدار نحن قلنا القدر هو فعل الله، وأفعال الله عز وجل كما تقدم من آثار أسمائه وصفاته، والشرع من آثار أسمائه وصفاته –هذه لا ننساها فهذه أمور مهمة–.

فالمرء ينظر إلى هذا الوجود فيرى الظلم، أن لم يفهمها على الوجه، اتهم هذا العبد الجاهل من قدر هذه المقادير من الظلم ومن الآلام ومن الشقاء ومن الفساد في الأرض، يتهم أن مقدرها ليس على المعنى الكامل في الحُسن، فنحن نحكم بأن له الأسماء والصفات بهذه الأقدار الموجودة في الكون، فيأتي واحد ويقول كيف؟ أين أنتم من الظلم؟ إذن الله قدر الظلم فهو كذا، الله قدر الشقاء كما ترونه والجهل في الناس، والعذاب وتباين الناس وشقائهم، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم نفى عن ربنا ذلك كله فقال: **(والشر ليس إليه)**؛ أي لا ينسب إليه، وهذا الشر ما خلقه؟ من الذي خلق الشيطان؟ الله، هل هناك خالق غير الله؟

طبعًا بعض الفرق الإسلامية كالمعتزلة أصابتهم الحيرة، فقالوا أقوالًا من الجهل بما كان، فزعموا –لا نريد أن نكثر المباحث الكلامية– ولكن زعموا أن الله عز وجل ما دام أنه الشر ليس إليه، فهذا الشر لم يخلقه الله، من الذي خلقه؟ خلقه فاعله، ولم يخلقه الله، ومن أبجديات توحيد المسلم لربه في أسمائه وصفاته وهو أن ينسب كل مخلوق إليه، أنه هو خالقه فالله خالق كل شيء، ﴿هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، ليس هناك خالق غير الله، وحتى وأنت تعمل فالله هو الذي خلق الفعل، ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [الصافات: ٩٦]، فالله خالق كل شيء، فكيف نفهم هذا؟ كيف نوجه هذا المعنى؟ كيف نفهم أن أسماءه حسنة من كل وجه، ونرى أنه خلق ما نراه من الشر والفساد وإلى آخره؟

أول شيء: علينا أن نفهم أن الفساد في الوجود معناه الخلو من الخير، ما هو الفساد؟ ما هو الشر؟ هو عدم وجود الخير، خلوه من الخير، فالشيء إذا خلى منه الخير صار فاسدًا، ولذلك الفساد صفة سلبية بخلاف الخير فإنه صفة واجبة موجبة، إيجابية، كيف؟ لو نظرت إلى الليل والنهار، ماذا يعني الليل؟ عدم وجود الشمس فالليل هو غياب صفة النور، فالخير غياب الباطل، أنظر إلى كلمة باطل حتى العوام الآن يستخدمونها على المعنى الصحيح، يستخدمونها: لما الرجل لا يعمل فيجلس ويقول لك رجل بطال، المعنى

صحيح، فأصل كلمة الباطل خلوها من الفعل، فأصل كلمة الباطل هي خلوها من الخير، الناس يسموها «يد بطالة هذه» يعني لا تعمل، فترك الشيء باطل، فالباطل خلوه من الخير، والفساد خلوه من الإتقان.

فلذلك الله جل في علاه خلق الخير، فإذا خلا الشيء من الخير كان باطلًا، ولذلك الشر لا ينسب إليه هذا واحد.

الشيء الثاني: أن الله خلق الخير على جهة الوجود، وفي الوجود يقع من الإنسان الفعل، هناك خلق لله، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، الله عز وجل خلق الخير وخلق كل شيء على تمامه، وأحسن كل شيء خلقه، عندما خلقه أحسنه على أحسن تدبير، وعلى أحسن وجهة وعلى أحسن حال وأمر العبد أن يأتي بالخير؛ ليتمم هذا العبد الخير بفعله، فلما يأمرنا الله بالصلاة، ماذا نقول نحن؟ اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، الله رب ماذا؟ الدعوة وهي الأذان، وهو رب الصلاة، اللهم أنت رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة فهو ربها، فالله خلق الصلاة، وأمر بها، خلقها فهذا تمام الخير، وأمر بها هذا تمام التشريع، فحين يترك العبد الصلاة وقع الفساد، فمن أين حصل الفساد؟ لو لم يخلق الله الصلاة لنسب إليه، لأنه لم يخلق الصلاة، فلو نسب إليه أنه لم يحدث الخير، لم يأتي منه الخير التام، لكن من أين وقع الفساد؟ الله خلق الصلاة، اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، فالصلاة مخلوقة الله ربها، فالصلاة مخلوقة الله خلقها، وأمر بها العبد فحين خلقها هذا هو تمام الخير، وأمر بها فإن أتى العبد تساوى الأمر الشرعي مع الأمر القدري مع فعل العبد، تم الصلاح في الوجود على الوجه الذي يريده الله، فإن لم تقع الصلاة وقع الفساد، هل وقع الفساد لعدم وجودها خلقًا؟ أم لعدم أداء العبد لها شرعًا؟ لعدم أداء العبد لها شرعًا، ولذلك الشر ليس إليه، فهي ما زالت حسنى.

لكن هذا كيف نفهمه فيما لا يفعله العبد؟ ليس له إرادة، كيف نرى الله خلق الإنسان على أحسن تقويم، ثم نرى طفلًا يخرج من بطن أمه نراه غير تام مشوه، الله ماذا قال؟ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، فهو أقامه لمعنى أجل مما يريده الإنسان، الناس من فهمهم لهذه الأسئلة تنشأ من فهمهم لعدم إدراك حكمة الله في الوجود، هم يظنون أن كل خير في هذه الدنيا والله خلق هذه الدنيا ليس على هذا المعنى، الله لم يخلق هذه الدنيا ليتم بها الكمال من جهة القدر على نهايته، نهاية كل خير في هذه الدنيا ليس نهاية كل خير، هذه الدنيا مقامة على حكمة الله وعلى قدرته وعلى حسن خلقه ولكنه جل في علاه جعل هناك ما هو أجل منها وهي الآخرة، فإذا كانت هذه الحياة الدنيا هي الطريق التي تؤدي إلى الآخرة فحينئذٍ ينبغي أن ينظر إليها تابعة، ولا ينظر إليها أصالة.

فلما نرى هذا المولود المشوه يخرج من بطن مشوهًا ننظر فلماذا أقامه الله؟ أقامه كما أقام لأوليائه في أحد من الهزيمة والقرح، لماذا أقامه؟ للمعاني، هذه المعاني أجّل من قضية استواء الخلق على هذا المعنى، من أين يأتي هذا؟ من أجل أن تحمد الله، الله يريد منك أن تحمده، يعني كم عدد من يخرج من بطن أمه مشوهًا؟ هل نسبة وتناسب بينه وبين من يخرج بطن أمه كاملًا سليمًا كم؟ فإذن ليحصل هذا الأمر من الحمد من عبيده يقيم هذه الأمر، وثانيًا هل أقامه من غير أن يجزي الذي وقع عليه هذا الفعل جزاءً خاصًا؟ دفع له أمرًا آخر، ولذلك الفقير يدخل الجنة قبل الغني، بنصف يوم بخمسمائة سنة، قال صلى الله عليه وسلم في الحديث، عن الذي يأخذ ابنه، **(أقبضت حبيبه؟ قال: نعم، قال: فماذا قال؟)** أخذ منه ابنه تألم، حصل الألم، **(قال: حمدك استرجع، قال: فأبنوا له بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد)**، وهذا يقع من الأب مع رحمة الأب إلى ابنه، يدخله في المشاق ويقول له إذا نجحت أعطيك كذا وكذا، لأنه يريد منفعته فلو أعطاه من غير عمل ومن غير مشقة، لمثل ما يقول الناس: دللت ابنك ذبحته، أفسدت حياته، فالنظر إلى حكمة الله.

إذًا هذا الذي نراه من الشر في الوجود هو الدال على حكمة الله، وقد تتصارع الأسماء، ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم؟ **(قال الله تعالى: ما ترددت في شيء ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره إساءته)**، أنظر الصفات تتصارع صفة الرحمة مع صفة العدل، صفة الرحمة مع الحكمة، قلنا الله عز وجل أقام من عالم الشهود ما يدلنا على عالم الغيب، الله يعطي من الدلائل في هذه الدنيا ما تدل على الأخرة، كيف نتعامل؟ انظر الأب تتصارع عنده إرادتان الحكمة أم الرحمة؟ أيرحم ابنه رحمة بلا تكليف، أم يتعامل معه بالحكمة التي فيها التكليف والمشقة لكن العواقب أسلم وأجود وأفضل؟، تتصارع الإرادتان، هل هذه الأسماء تتنافس، يعني يصبح بينها التعارض فلابد أن يقدم ما هو أفضل.

فقال صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي **(ما ترددت في شيء ترددي)**، الله تردد، ما معنى تردد هنا؟ هذا ليس على المعنى السيء، التردد ينشأ من العبد بسبب الجهل في العواقب، لعدم علمه التام بما هو مقبل عليه، كرجل وقف بين طريقين، لا يدري أيهما يوصل لبيته؟ فتردد، فتردده ناشئ لجهله، لكن هذا الأب متردد بين أن يعطيه وأن يمنعه، فقال صلى الله عليه وسلم: **(أن الله تردد في قبض نفس عبده المؤمن)**، تردد لأنه وقع بين حبه لعبده وبين إجراءه القدر الذي قدره، ولم ينشئ التردد هذا بسبب الجهل جل في علاه سبحانه العظيم، إنما التردد نشأ هو يحب هذا العبد، ولحبه له يكره إساءته، أنظر هذه الدرجة

الحب العظيمة، يكره أن يساء، **(وأكره إساءته)** وهو الموت، **(إن للموت سكرات)** كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة **(إن للموت سكرات)**.

فيقبض روحه لأنه لابد من إجراء القدر، أنه لابد أن يموت، ما الذي جرى؟ ما الذي يناسب سنن الحياة؟ أيعطيه ويلغي قدره، أم أن يوقع القدر؟ يوقع القدر، لأنه هذا العبد بعد أن يموت سيقول كما يقول الشهيد، عندما قال الشهداء، ماذا قالوا؟ من يبلغ إخواننا وراءنا ما نحن فيه من الحياة، ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣)﴾ [آل عمران: ١٤٣]، رأيتم الموت، الموت صعب ومشقة تتمنونه رأيتموه، فرأيتم هذا الموت، لكن رأوه وقد تعبوا وخافوا.

أحد العلماء من أهل الأندلس، وقف حاجًا فقال: «رفعت يدي وسألته أن يرزقني الشهادة، ثم تذكرت ألم الموت، فأردت أن أعتذر»، قال: «وقفت سألت اللهم أرزقني الشهادة، قال تذكرت الموت قال فأردت أن أعتذر، فقلت لا أمضيها يعني، فمات شهيدًا»، ولذلك الله ذكر كثيرًا في القرآن جل في علاه ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الشورى: ١٤]، القدر هو الذي يجري، لأن القدر مبني على حكمة الوجود التامة وليس من أجلك، لو أن القدر رتب على مراد المؤمنين لفسد الكون، حتى المؤمن والصالح لا يحب أن يأتيه بنات، كان كلهم جاءهم فقط أولاد ولم يأتيهم بنات، فسد الكون.

حتى المؤمن يحب أشياء لا تتحقق فيها الحكمة، قال سبحانه وتعالى في سورة الأنفال، ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥)﴾ [الأنفال: ٥] من المؤمنين انظر هذا الوصف ما بقي أي اتهام لهم يعني بأن السبب لكارهون، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، القدر ليس مبنيًا على ما يحب الإنسان، حتى المؤمن هو لا يعرف العواقب، ما الأفضل؟ المشقة التي حصلت النصر وهم راجعين قال قطعًا أنهم ندموا على كراهتهم للخروج، وهما راجعين من الغزوة وقد تحقق النصر ندموا، بلا شك ندموا أنهم كانوا كارهين للخروج، فلا يقع الكون على ما يحب، وقال والله عز وجل يعني يغضبني هؤلاء كأنه جل في علاه يقول يغضبني هؤلاء حتى لا أكاد أن أبطش بهم في لحظتهم، ولكن سبقت كلمتي أجل لهم مد لهم، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [فصلت: ٤٥]، ولذلك قال: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]، انظر يعني هذه الكلمة فيها اتهام أن الله ليس قادر يعذبنا، نتكلم ونكفر ولا يقع العذاب، فأين هو؟ لماذا لا ينتقم؟ لأنهم يرون من طواغيتهم من كبرائهم ما لو غضب لبطش للحظته ولا يصبر، ولكن الله يصبر، لماذا؟ ليكون في الأقدار من العذاب ما يحقق الحكمة الإلهية، ويحقق الفعل على الوجه التام الذي لا يقع فيه خطأ.

فالغضب الشديد دون النظر إلى البصر والبصيرة والنظر إلى العواقب مفسدة، حتى لو وقعت على معنى العدل، فلابد من الحكمة في العدل.

القصد من هذا: أن الشر ليس إليه، فإذًا هي حُسنى، أسماء الله ليس فقط صفات لأن الصفات قد يكون فيها الله عز وجل من صفاته أنه يغضب، أنه جل في علاه يغضب، لكنها حُسنى، لماذا؟ لأنها تقع على مستحقها وتقع على معنى الحكمة، فهي حُسنى، فإذًا:

المعنى الأول: -أول معنى من معاني أسمائه الحسنى- أنها صفات.

المعنى الثاني: أنها حسنة من كل وجه.

المعنى الثالث: ولله الأسماء الحسنى أنها بلغت النهاية في معانيها، المعنى الثالث للحسنى أنها بلغت النهاية في المعنى، ولذلك لما نقول: الخالق، هل من خالق غير الله؟ فبلغت النهاية، السميع بلغت النهاية في السماع، فلا يغفل عنه شيء، البصير الرحيم بلغت النهاية، وفي ذلك إن شاء الله كلامٌ طويل، نكتفي بهذا القدر لهذا اليوم.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم.

الدرس الخامس: اسم الله الأعلى والأعظم

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين جعلنا الله وإياكم منهم آمين، آمين.

هذا هو اللقاء الخامس مع شرح أسماء الله عز وجل وبيان صفاته جل في علاه، كنا مع قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وما بيناه من علاقة هذه الآية في سياق سورة الأعراف، وهذا القول وهو ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، كما تعلمون، ورد في أربعة مواطن من كتاب الله عز وجل:

الموطن الأول: في سرة الأعراف ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

الموطن الثاني: في سورة الإسراء وسورة بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

الموطن الثالث: في قوله تعالى من سورة طه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)﴾ [طه: ٨].

الموطن الرابع: في سورة الحشر، قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الحشر: ٢٤].

فهذه أربعة مواطن ذكر الله عز وجل فيها هذا الأمر، في أن ربنا عز وجل جل في علاه له الأسماء الحسنى، تقدم الكلام عن موطن هذه الآية في سورة الأعراف، فإن الله عز وجل ذكر فيها الدعاء، وذكر فيها كيف يذكر اسمه جل في علاه.

هنا فقط نحن نعلم أن الله عز وجل أمرنا أن نسبح اسمه، ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى: ١]، فهل هو التسبيح لاسمه؟ أم التسبيح له جل في علاه؟ هل يسبح الاسم؟ أم يسبح ذو الاسم، صاحبه؟ هذا أدخل العلماء في مسائل كلامية لا ضرورة للخوض فيها، بل إن إمامنا الشافعي رحمة الله عليه، ورد عنه القول بأن الحديث عن هل الاسم هو المسمى أو غيره، «أن هذا من البدع»، بمعنى هل نقول سبح اسم ربك، فبعض أهل العلم قال: «هذا يعني أن الاسم هو نفس المسمى هو صاحبه»، وبعض أهل العلم قال: «الاسم ليس هو المسمى»، بنى كل فريق قوله على معتقده.

وإذا أراد طالب العلم أن يعرف أساس هذا الخلاف، فإنه لما كان المعتزلة لا يرون تعدد القدماء، باختصار لا أحب أن أدخل في المسائل الكلامية خاصة في هذا الباب التربوي العظيم، الذي له تعلق بالعلم بأسمائه علمًا وتعبدًا وحالًا وإخباتًا لله عز وجل، فإن البحث في هذه المسألة يقسي القلب ويبعدنا عن المطلوب، ولكن هذه المسألة موجودة في كتب أهل العلم، وحيث تدخل في باب الأسماء في كتب العلماء الأقدمين تجد هذه المسألة أمام عينيك.

فلو قرأت كتاب المقصد الأسنى للإمام الغزالي رحمة الله عليه، فإنها أول الإمام هذه المسألة كيف تسبح اسم ربك الأعلى؟ فقال المقصود هو تسبيح ذاته جل في علاه، وهذا الذي يقوله ابن تيمية: «أنك تسبح اسم ربك الأعلى، أي تسبح ذاكرًا اسمه»، لا تسبح الاسم، إنما تسبح أنت صاحب الاسم، فما معنى سبح اسم ربك الأعلى؟ يعني سبح هذا ذاكرًا اسمه، أن تقول سبحان ربي فأنت تسبح ذاكرًا اسمه، وابن القيم لما أورد هذا عن شيخه ابن تيمية تاه بها فرحًا، وقال: «هذه مما يرحل إليها –وشبيهًا من هذا الكلام– وأنها من درر الكلام، وخواصه الذي لا يصل إليها إلا الكبار».

العلماء الآخرون قالوا: لا، الاسم هو غير المسمى، ويعني لهم أدلة في هذا كثيرة، ولابن تيمية رحمه الله قال: «الاسم هو الدال على المسمى، ليس هو عين المسمى»، كما يقول كثيرًا ابن حزم على مذهب المعتزلة، ابن حزم على مذهب المعتزلة ولكنه لا يلتزم التزاماتهم في هذه النقطة، ويقول ابن تيمية رحمه الله: «بأن الاسم دال على المسمى ليس هو عين المسمى، وليس هو غير مسمى هو الدال على المسمى»، ويكفي هذا لا أريد أن أخوض في هذه المسألة، فهي مبحوثة يعني أنت عندما تدخل كتاب الإمام النووي مثلًا في تفسيره لصحيح مسلم عندما يقف عند هذه يكثر أقوال أهل العلم ويرددها كثيرًا، وهكذا تجد في كتب أهل العلم الذين يشرحون هذه المسألة يخوضون فيها، وأنا فقط أتكلم بها لمن يحب أن يعرف ما يقوله أهل العلم في هذا الباب، وإلا فلا فائدة منها تذكر، والعلماء ثقات السلف نهونا عن البحث فيها.

يقول الإمام الشافعي: «إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى فأعلم أنه ضال أو مبتدع»، يعني لا تلتفت له لأن هذا ليس مما ينفع في العلم، إلا أن المرء بحاجة له ليعرف مذاهب القوم من أجل أن يرد عليهم، وقد ظهرت البدع وفشت وانتشرت، في الكتب في زمانها.

فإذًا نحن تكلمنا في سورة الأعراف كيف أن الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نذكره وأمرنا أن ندعوه، فعلمنا هذه الأسماء التي ندعوه بها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ونحن نرى في سورة الإسراء أنها افتتحت بتسبيح الله، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]،

والمسبحات رتبت كما يقول الإمام السيوطي ترتيبًا عجيبًا، فإنها افتتحت بتسبيح الله على جهة المصدر، ما قال: سبح، ما قال: يسبح، وإنما قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، سبحان فجاء بالمصدر.

والتسبيح هو تنزيه الله، فبدأ بالتسبيح وفي آخر السورة، على ما تقدم ذكره في الدرس الفائت، بأن الله عز وجل ذكر في سورة الإسراء ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فهو سبحانه، ويسبحونه حقيقة فهو سبحانه، لا تدركه عوارض الفناء ولا يدركه ما يشين، ولا يدركه جل في علاه ما يسيء، فهو سبحانه ثم اختتمت هذه السورة: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

انظر: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]، انظر هذه الصلة مع سورة الأعراف، نحن رأينا في سورة الأعراف: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، تضرعًا في بيان أمر القلب، في وجود الأمل ووجود الرجاء، التضرع هو وجود الرجاء في القلب، وخفية هو الحالة الظاهرة، هذا رأيناه، ورأينا أن الله أمرنا أن نذكره كذلك جهرًا وكذلك خيفةً ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، فهنا كذلك في سورة الإسراء ذكر الله عز وجل قال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]، نفس الرابط مع سورة الأعراف.

لكن السؤال يعني هذه الدعوة ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ ما هي علاقتها مع الأسماء والصفات؟ هذه يشرحها الحديث؛ لما غزا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم معه في غزوة فكانوا إذا صعدوا كبروا ورفعوا أصواتهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(إنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا، أنكم تدعون سميعًا بصيرًا)**، فالذي يدعو مرتفع الصوت كأنه ينادي، وهذا فيه شبهة، أن هذا بعيد، وهو أقرب إليه من حبل الوريد.

فلذلك العلاقة مع أسماء الله وصفاته بهذا النوع من الدعاء؛ هذه علاقة وثيقة، المرء إذا أخفت فهو في قلبه أنه مع هذا الإخفات، ومع هذا السر بينه وبين الله، ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)﴾ [مريم: ٣]، فهو في حاله يعلم أنه يسمعه، وأنه قريب منه، وأنه يناجي أقرب ما يكون القرب، فهذا له علاقة في هذا المعنى، ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠)﴾ [الإسراء: ١١٠]، انظر هذا التفصيل وعادةً يأتي التفصيل لما هو جليل، وهذا بين

كما سيأتي في سورة طه التي ذكر فيها الأسماء، فإنه لما أراد أن يعظم موسى عليه السلام عصاته موسى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨)﴾ [طه: ١٨]، وإنما أراد تعظيم هذه العصا، بيان أمرها وأهميتها لديه، وأنها وثيقة به.

وهذا القرب من الأشياء هذا أمرٌ ديني، هذا ما ينبغي عليه أن يكون المرء، أن تكون علاقته مع الأشياء مع الوجود، هي العلاقة العظيمة علاقة الحب، علاقة الاحترام، علاقة التقدير، **(جبلٌ يحبنا ونحبه)**، ولما الجمل شكى إليه أن صاحبه يتعبه، هذه العلاقة مع الوجود هذه كلها من العلاقة مع ربنا عز وجل، هذا من معنى العلاقة مع الله، لذلك لأن الأخلاق لا تتجزأ، لا تتصور أن رجلًا حسن الأخلاق مع الله والتعبد وهو سيء الأخلاق، عندما يخرج من مخبأه في دعائه، وإخباته لله، فيكون أحسن ما يكون مع الله إخباتًا ورقيًا وعبادةً، ثم إذا خرج إلى الأشياء أساء إليها سب هذا وقذف هذا، وتعامل مع الأشياء باحتقار، يعني هذا خلق الله هذا شيء عظيم.

ولذلك في أول ما قال الله عز وجل لموسى، قال: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]، هذا متقدم لقوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فأنظر إلى سورة الإسراء كيف اجتمع هذا القول: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾ [الإسراء: ١١٠-١١١]، انظر هذه جمعت الكلمات العظيمة كلها، أنها ابتدأت بالتسبيح وانتهت بالتكبير، وتذكر أن السورة التي بعدها هي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١)﴾ [الكهف: ١] هذه الباقيات الصالحات.

والباقيات الصالحات هي الْمُسبغة لمعنى الإلهية والربوبية على كل الوجود، يعني أنت تقول سبحان الله، هذه تعطيك حق الرب وما هو عليه، وتعطيك كذلك صفة فعله في الوجود، لأنه سبحانه وتعالى القدوس فلا يخرج منه إلا الكمال، أنت تسبح الله فإذن هو قدوس، انظر **(سبوح قدوس)** هو سبوح قدوس وهذه من أسماء الله، سبوح قدوس الله هو السبوح، الله هو القدوس، فالسبوح ألقت على قلب المتعبد بها فهمه لكل هذا الوجود، بعد فهمه لربنا عز وجل ذاتًا وصفاتًا، ولكن كذلك هذا الوجود هو خلقه، فلذلك سبحان الله شاملة.

ثم بعد ذلك بعد أن تنزه الله، سبحان الله الحمد لله بعد أن نظرت إلى وجود هذه النظرة الكمالية العظمى، نظرت إلى أنه يستحق أن يحمد، ويستحق أن يحمد لما فيه من هذه الخصال أنه سبوح، وأنه لا

يعتريه النقص، وكذلك لأن هذا الوجود كله من أجلك أنت، خلق خدمة لك، فأنت تحمد الله، وبعد هذا كله لا ينبغي أن تعبد إلا الله، فلا إله إلا الله، وبعد ذلك هذا الوجود كله دال على عظم الله، فينبغي أن يكون هناك الخشية، هذا كله من التعظيم والتسبيح، لا تستقيم العبادة إلا بالخشية ولذلك هو الله أكبر، فهو أكبر من كل شيء.

فهذه الكلمات الأربع الباقيات الصالحات هي التي تدلك على معنى الوجود كله، وعلى حقيقته، وهي شاملة لكل أنواع التعبد، الصلاة داخلة في هذه الكلمات الأربع، الزكاة داخلة في هذه الكلمات الأربع، الزكاة من حمدك لله، الصلاة ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤)﴾ [طه: ١٤]، ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾ [طه: ٣٣-٣٥]، موسى عليه السلام يطبق في سورة طه ما أمر به: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦)﴾ [طه: ٥-٦]، فهو يطبق موسى عليه السلام والله بين أنه ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦)﴾ [طه: ٣٦]، لما دخل إلى الله من هذا المدخل ماذا قال له؟ ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦)﴾.

فموطن قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، هذا بين في سياقها مع السورة، في تسبيحه سبحانه وتعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾ [الإسراء: ١١١]، وفي بيان ما تقدم من أن كل شيء يسبح بحمده، ورأينا في الدرس الفائت علاقة هذا التسبيح، تسبيح الوجود كله مع إسرائه ومع عروجه إلى الله، في أنه رأى كل شيء يسبح، هذا يعطيك أن التفرد في الوجود بابٌ من أبواب بل هو أعظم بابٌ من أبواب الولوج على الله، حالًا بما يخصه وحالًا بما هو يعيشه مع الناس، كيف هذا؟

لماذا الله عز وجل رفع شأن إبراهيم عليه السلام؟ فقال ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، لماذا؟ لأنه كان هو الوحيد الذي يذكر الله، **(فقال لزوجته: ليس على الأرض مؤمن إلا أنا وأنتِ)**، فلذلك كان وحيدًا فكان أمة، فإذا انفرد المرء بهذا بمعنى -وهذا يدخل فيه- لا يعني أن يحب المرء أن ينفرد، فهذا ليس من دين الله، ولكن إذا انفرد المرء بمعنى من معاني التعبد التي تلقى على قلبه، ولج من هذا الطريق إلى الله ولوجًا خاصًا به، هذا الباب من التعبد، يلج فيه ولوجًا خاصًا به فلا يدركه غيره، ويأتي بمعنى الانفراد هو أن يجلس المرء منفردًا بعيدًا عن الناس، بينه وبين الله يناجيه، ويلقي ربنا عز وجل عليه كنفه، فيحصل له التعبد الخاص الذي يحصل به الانفراد في هذا التعبد.

وانظر أن الأسماء الحسنى وردت في صورتين من المسبحات، ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وفي الحشر ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤]، -وهذا إن شاء الله يأتي- من أين ندخل من أسماء الله تعريفًا؟ العلماء لهم مداخل لهذه الأسماء مداخل رائعة، يعني مثلًا نرى الإمام - من هذا الباب- نرى الإمام ابن حزم يدخل لأسماء الله عز وجل من ما هو المدخل لمعرفة الله عز وجل خالقًا وموجدًا، على اعتبار في الرد على الذين ينكرون أن لهذا الكون خالقًا، فما هي الأسماء التي يستحقها ربنا عز وجل عقلًا، ما هي الصفات التي يستحقها ربنا عز وجل عقلًا قبل ورود النص، وسنبينه أن شاء الله، سنأتي إليه عندما نأتي إلى اسم الله الحق، ويقول: أن اسم الله الواحد وأن اسم الله الحق، هذه أسماء تعرفها العقول قبل أن يأتي بها النص، سنبين هذا.

لكن الإمام البيهقي في ترتيبه لكتاب الأسماء والصفات يرتب الأسماء في بداية الكتاب، يرتب الأسماء الربانية -الأسماء الحسنى- يرتبها على مداخل الوجود وعلى مداخل الاستحقاق، يعني مثلًا: ما هو الاسم الذي يستحقه أنه الخالق، يجب أن يكون هو الأول والآخر، وهو الواحد الذي لا يتثنى لأنه الخالق، فإذن هو الأول فليس قبله شيء، ليس معه مخلوقات، لأنه الخالق فليس قبله ولا معه شيء جل في علاه عندما كان في الأزل، فله مداخل في هذا الباب يعني أن شاء الله نأتي إليها.

وهذا تعلمه من قوله عز وجل: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، فهذه الأسماء الخالق والبارئ والمصور هل فيها معاني مختلفة، تذكروا هذه الجملة التي ابتدأنا بها أن علاقة صفات الله عز وجل وأسمائه أن علاقتها فيما بينها علاقة كمال وعلاقة تكميل، العلاقة بينها إذا انفردت فيها كمال، وإذا اجتمعت منعت الباطل وزادت هذا الكمال.

نحن بدأنا في ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فنبدأ بأعظم اسم لله عز وجل، انتهينا ما يمكن أن يدل عليه قوله تعالى: الحسنى، وقلنا بأنها حسنى من كل جانب، هذا مهم جدًا، وكذلك فيها صفات الكمال المطلق، لا يمكن أن تكون حسنى بهذا البلاغ إلا وفيها الكمال المطلق، يعني أن يكون المعنى فيها دالًا على نهايته، ولو انتهى له، في الواقع لو انتهى له في الحُسن، هذا الحُسن لا منتهى له، كلما قلت هذا حسن جاءك ما هو أحسن منه، فلا منتهى له، ولكن مما ينبغي اعتقاده أن أسماء الله عز وجل فيها الكمال المطلق، يعني عندما نقول: سبحانه وتعالى العليم، فهل يجوز لأحد أن يقول أنه سبحانه وتعالى أن علمه له انتهاء؟! هل يجوز لأحد أن يقول هذا؟! لا، ولو قال أحدٌ هذا لكفر.

ولذلك مما كفر الغزالي في كتابه في الرد على الفلاسفة -كفر تهافت الفلاسفة- مما كفرهم به هو أنهم قالوا: بأن الله عز وجل يعلم الأشياء بعد حدوثها، أو بعضهم قال: إن الله يعلم كبار الأشياء ولا يعلم صغارها، هذا مما يكفر به، لو أن أحدهم قال: بأن الله عز وجل قدير ولكن قدرته محدودة؛ لكفر، فإذن من موجبات معنى أن له الأسماء الحسنى ماذا؟ أنها كمالٌ مطلق، بخلاف غيره، لو أطلقت بعض الصفات على الإنسان أو على المخلوق لما فيه من هذه الصفات فإنها في النهاية محدودة، لا يتجاوزها، علم المرء محدود، القادر من المخلوق فيه قدرة، لكن قدرته محدودة، مع أن هذه القدرة قائمة بغيره وليست به، بخلاف صفات الله عز وجل فهي قائمة به، وليست قائمةٌ بغيره، الله قدير لا يحتاج إلى شيء ليقدر ليتحصل منه القدرة، المرء يتحصل القدرة من أكله وشربه وأدواته، وهذه القدرة جاءته من غيره، فهو محتاج إلى غيره لهذه الصفة، ولكن الله عز وجل قائم بذاته بهذه الصفات، هذا من معاني أن له الأسماء الحسنى جل في علاه.

وأول ما ينبغي الاهتمام به هو أن كلمة الله وردت أكثر من (**١٧٠٠**) مرة، هذا الاسم العظيم الجليل ورد في القرآن تقريبًا ١٧٢٤) مرة في القرآن، الله! ونحن نرى أننا نتعبد بهذا الاسم في دعائنا، تعبدًا بدعاء الطلب والحاجة، وتعبدًا بدعاء التعبد الذي فيه ذكر أسماء الله عز وجل، يعني أن نقول: «اللهم أنت الله الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد»، فأنت دعوت الله عز وجل «باللهم»، وكذلك عندما تحتاج تقول: «اللهم اغفر لي اللهم ارحمني»، فلذلك أعظم ما نتعبد به هو أن نسأله بهذا الاسم العظيم، يعني اللهم، ما معناها؟ الله، والميم عند أغلب أهل العلم لهم قولان في هذا -لا نريد نكثر من التفريعات- الميم في اللهم قالوا إنما جعلت بدل الياء، لما في ذلك من السهولة، يعني الأصل نقول يا الله، أن نسأل الله عز وجل، ولكن نحن نقول اللهم، لماذا؟ قال لأن الميم هنا جاءت بدل الياء، يا الله! فاستعضنا عنها بقولنا: اللهم، وقالوا الميم هذه لقربها ولحسنها في الفم، اللهم بخلافنا لو إنك ناديت فقلت: يا الله، مع إنه يتعبد بها، ولكن الأقرب أن تقول اللهم.

فأعظم ما نتعبد به هو أن نسأله باسمه، وهذا الاسم هو الذي تعود إليه كل الصفات وكل الأسماء، ولا يمكن أن يوصف اسمٌ بهذا الاسم، ولا صفة بهذا الاسم، يعني لا يمكن أن نقول الرحمن صفته الله، لا يمكن، ولا يمكن أن نقول الغفور هو صفته الله، إنما نقول الله عز وجل له الأسماء، الله له الصفات، فأجل اسم من أسماء الله عز وجل هو اسم الذات، الدال عليه وهو: الله، ولذلك قال الإمام القرطبي: «وهذا أحد القولين في قوله تعالى ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم: ٦٥]»، بمعنى أنه لا يوجد أحد في الوجود ادعى أنه صاحب هذا الاسم إلا الله، الذي هو يستحقه، هل هناك أحد ادعى أنه هو له هذا الاسم؟ لا يوجد.

فلذلك هذا الاسم هو الاسم الدال على ذات الله عز وجل، وفيه الدلالة على جميع أسماء الله وصفاته إجمالًا، كيف نعلم أن هذا الاسم الله وهو أجل اسم وتنسب الأسماء كلها إليه جل في علاه هذا يحتوي على كل أسماء الله وصفاته إجمالا كلها، كيف هذا؟ الله مأخوذة من المألوه بحق، أنه المألوه وهي عند أغلب أهل العلم مشتقة، كما هو قول أغلب أهل العلم من سيبويه وأصحابه وكثير منهم، أي لها معنى، وليست اسم ذات واسم علم، لا معنى له، لا، الصواب أن الله مشتقة من صفة، ما هي هذه الصفة؟ كلمات كثيرة لأهل العلم والصواب أنها مشتقة من الإله، والإله هو المعبود.

فالله جل في علاه مشتقة من المألوه وهو المألوه الحق الذي لا يستحق التأليه إلا هو، طيب هذا التأليه ما موجباته؟ ما موجب هذه العبادة؟ السؤال، لماذا استحق ربنا عز وجل أن يكون مألوهًا؟ المألوه الوحيد الذي يستحق أن يأهل وأن يعبد لماذا؟ لأنه هو الخالق، لأن له صفات الكمال، ولأن له صفات الجمال، ولأن له الفعل الحسن في خلقه، ولأن أمره قائم على العدل والحكمة، فعندما نقول بأنه لا يستحق العبادة إلا هو فهو واحد، هو أحد، هو الصمد، هو حي وهو قيوم وهو خالق وهو بارئ، فإذن جميع أسماء الله وصفاته داخلة في هذا الاسم على صفة الإجمال، ثم بعد ذلك يأتي كيف التفصيل، فجميع أسماء الله فيه.

ومن هنا عند كثير من أهل العلم يرون أنه الله هو الاسم الأعظم، لماذا؟ لأن جميع أسماء الله عز وجل وصفاته داخلة في هذا الاسم، كما قلنا على صفة الإجمال، وهذا قول كثير من أهل العلم، هذا قول الحُليمي شيخ البيهقي، وقول البيهقي، وهو قول القرطبي يميل إليه ويذكره، وهو قول كثير من العلم واختلفوا فيما إلى ثلاثة أقوال تقريبًا، ما هو الاسم الأعظم؟ **أحد هذه الأقوال هذا**، ويرجحه كثير من أهل العلم.

والقول الثاني: أنه الحي القيوم لورود ذلك في أن أسماء الله في ثلاث سور، في الأولى في البقرة والثانية في آل عمران والثالثة في طه وهو الحي القيوم.

وهذا المعنى الذي ذكرناه في استحقاق هذا الاسم لكونه اسم الله الأعظم هو الذي ذكره ابن القيم في استحقاق الحي القيوم، أنه اسم الله الأعظم، ما هو سبب استحقاق هذا الاسم لأن يكون اسم الله العظيم لماذا؟ قلنا لأن جميع أسماء الله وصفاته داخلةٌ في هذا الاسم إجمالًا، يقول ابن القيم: «ولا يمكن أن تقوم صفة من الصفات التي نعرفها لربنا عز وجل إلا بكونه حيٌّ قيوم».

لماذا قلنا بأن الله هو اسم الله الأعظم؟ لأن جميع الصفات داخلة فيها، فهو حاوي لكل الخير، حاوي لكل أسماء الله الحسنى، وهذا المعنى قاله ابن القيم عندما بحث في كون الحي القيوم هو اسم الأعظم، لماذا؟ قال: «لأنه لا يتصور صفة لله عز وجل فيما ذكر في الكتاب والسنة إلا وهي قائمة في أنه الحي القيوم»،

هل يتصور صلة الرحمة بغير حياء؟ هل يتصور صفة الرئفة بغير حياة، هل يتصور ذو الجلال والإكرام بغير حياة؟ فالحياة لازمة لكل صفة والقيوم هي قائمةٌ به غير محتاج لغيرها، فهي دالة على الكمال، وكل رحمة في الخلق من رحمته، وكل وجودٍ في الخلق من قدرته.

القول الثالث: وهو قولٌ جديد، قاله ابن سعدي عليه رحمة الله في تفسيره، قال: «بأن اسم الله الاعظم هو اسم جنس، هو اسم للجنس وليس اسم لوحد»، بمعنى يقول: «بأن اسم الله الأعظم هو كل اسم من أسمائه»، لقوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فكل اسم من أسمائه يحصل به الخير، لأن الناس في أذهانهم وكما ينتشر عند بعض الجهلة، بأن اسم الله هو كنز خاص هذه من استخدمه أتى بأثره، والأسماء من غير إخبات، والدعاء من غير وجود شروطه لا يتحقق، يعني لو دعوت باسم الله الرحمن كما تنبغي من الرحمة أو دعوة باسم الله القهار لما فيه دعاء على الخصوم وعلى الأعداء، فأنت قد دعوت باسمه الأعظم الذي إذا دعيت به أجبت لأنه ينفع في الباب، هذه تقريبًا هي أقوال أهل العلم في هذا الباب.

ولكن الكثيرين يقولون بأن الله عز وجل هو اسم الله الأعظم، وهو الاسم الدال على ذات الله عز وجل، ودال على صفاته، والدال على أفعاله جل في علاه، فالله عز وجل مأخوذة من إله، يعني هو المألوه، المألوه يعني المعبود، وقال بعضهم: «من الوله، إله من الوله، ومن التحير»، وذلك لعظمه وكمال صفاته وعدم انتهائها، وإطلاقها الذي لا ينتهي فالعقل يتحير بها، أنه يتأله، وقال بعضهم: «من الوله وهو الحب والشوق»، لأن العبد حين يعبد الله عز وجل فإنه يألهه، وكما تقول العربية: وَلِّهَ الفصيل، يعني تعلق الفصيل وهو ابن الناقة يتعلق بأمه، وبعض الناس يقول: ولهان، والألف والنون تدخل للمبالغة كرحمن.

فإذن أعظم اسم نتعبد الله عز وجل به هو الله، وذلك يكثر في القرآن اللهم هذا من سؤال العباد لله عز وجل، كقول عيسى عليه السلام: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٤]، اللهم فنعبد الله عز وجل بهذا الاسم، وهو الذي لا يصح التوحيد إلا بإفراده، ولذلك لا يدخل المرء الإسلام إلا بقوله: «أشهد أن لا إله إلا الله» فهو يفرده جل في علاه، يفرده بالإلهية ويفرده بالتعبد ويفرده بما يستحق من صفات الجمال والجلال، إذن هذا الاسم هو أعظم أسماء الله عز وجل الدال على بقية الأسماء إجمالًا، الدال على بقية صفات الله عز وجل.

الاسم الأول الذي نبحثه هو «الله»، وهو الذي لا يقوم مقامه أي اسمٍ آخر، بل كل اسمٍ من أسمائه داخلٌ فيه، ولا يصح الاستبدال كما بينا، هذا الاسم الأول.

الاسم الثاني الذي نبحثه وهو شعار القرآن، ما هو شعار القرآن؟ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، شعار القرآن، هذه الآية من القرآن عند كثير من أهل العلم وهو الصواب أنها آية من القرآن، واختلف هل هي آية من السورة أم لا، وبعضهم قال: هي فقط للبركة وليست آية من القرآن، كما هو قول الأحناف، والصواب أنها كانت تنزل هذه وكان الصحابة يعلمون بداية السورة إذا نزلت هذه الآية، فهي آية من كتاب الله عز وجل، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، انظر هذا الافتتاح العظيم في قوله الرحمن الرحيم.

فأول صفات الدخول على الله بالنسبة لهذا المؤمن في قراءته للقرآن وفي تعبده لله أنه الرحمن الرحيم، ولذلك الله عز وجل يقول عن رحمته جل في علاه، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وسعت رحمته كل شيء ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فرحمة الله عز وجل هي المدخل، وهذه الرحمة شاملة، والرحمن مشتقة من الرحمة.

وفي الحديث عن الرحم قال: **(عندما خلق الله عز وجل الرحم تعلقت بالعرش)** لماذا؟ لضعفها، وحاجتها، فقالت: **(هذا مقام العائذ بك)**، وهذا يعلمنا أن نستعيذ بالله، فالله عز وجل إذا المرء استعاذ به أعاذه، أي حماه ومنعه وصار في حمى ربنا عز وجل، فقال لها: **(أما يكفيك أنني قد اشتققت لك اسمًا من اسمي)**، الرحم، وهذا الحديث وإن لم يذكره العلماء في باب الأسماء وهل هي توقيفية أم وضعية، لكن هذا الحديث دليل على أن الأسماء توقيفية، لقوله ربنا للرحم: **(أما يكفيك أنني قد اشتققت لك اسمًا من اسمي)**، فمن الذي وضع اسم الرحم لها؟ الله، فهذا دليل على أن الأسماء توقيفية، فقال: **(أما يكفيك أنني قد اشتققت لك اسمًا من اسمي)** ولذلك **(من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته)**، الله سيعذب من يقطع هذه الرحم، فإذن هي مأخوذة من الرحمة، وهذا دليلٌ على أن الأسماء صفات، وهذا رد على من ينفي ذلك، كابن حزم.

فابن حزم ينفي أن تكون الأسماء أن تكون صفات، ويجردها من معانيها، لما جرى من شبه الفلاسفة والمتكلمين في عقله كما يقول أهل العلم عنه، ولكن قوله: **(أما يكفيك أنني قد اشتققت لك اسمًا من اسمي)**، فهذا الاسم مشتق من أين؟ من الصفة، لذلك قال: الرحم، فكلاهما يجتمع فيه صفات الرحمة،

وهذان الاسمان الرحمن الرحيم، إذا تعدد اشتقاق الأسماء من مصدرٍ واحد دل على الكثرة والتنوع ودل على عظمة المشتق منه، ماذا نعني بهذا الكلام؟ عندما نقول الرحمة مشتق منها كم اسم؟ قد اشتق منها اسمان الرحمن الرحيم، فدل على عظمها، لا نريد أن نطيل كما أطلنا في تفسير الرحمن الرحيم في تفسير سورة الفاتحة، لكن نمر عليها إجمالًا، فإذن الله عز وجل له صفة الرحمن وصفة الرحيم، وهي مشتقة من

الرحمة، بلا شك أنه يجب علينا أن نعتقد أنها صفة حقيقية، ردًا على من يقول: بأن الرحمن والرحمة هو إرادة الإحسان، البعض يقول: الرحمة هي رقةٌ في القلب، فلذلك هذا ممتنع في حق الله إذا ما هو معنى الرحمة عندكم؟ ما معنى الرحمن الرحيم؟ قال: هو إرادة الإحسان لمن يستحقه، وهذا خطأ.

وفهمنا لمعنى الرحمة الإلهية يقربه لنا ربنا عز وجل من كلام النبي صلى الله عليه وسلم يقربه لنا من الرحمة التي تنشأ في قلوب الخلق بعضهم على بعض، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(الرَّاحمون يرحمهم الرَّحمن)** انظر يقرب لنا الرحمة في حقيقتها، وفي معناها لما يحصل في قلب العبد من الرحمة على الخلق، وفي الحديث أن الله عز وجل قسم رحمته مئة جزء، انتبه لهذا، **(جعل اللهُ الرحمةَ مائةَ جُزءٍ، فأمسك عنده تسعةً وتسعين جزءًا ، وأنزل في الأرضِ جزءًا واحدًا)**، قسمًا واحدا، **(فبها الناس يتراحمون)**، فإذن هذه الرحمة الموجودة في الخلق إنما هي من رحمة الله.

فهنا نفهم في حديث ما دام أن هذه جزء من رحمة الله، نفهم أن هذه الرحمة هي من نوع التي تحصل في الخلق في قلوب الخلق، في قلب الأم على ابنها، حتى أن الدابة لترفع رجلها لأن لا تطأ ابنها هذا من رحمة الله، ورحمة الأم على جنينها، ورحمة الغني على الفقير الذي يحسن إليه، هذه من رحمة الله، ومن أجل أن يقرب لنا أنها رحمة واحدة وهذا فهمٌ لنا وتفهيمٌ لنا بأن هذه الرحمة من نفس نوعها، هذا رد على من يقول بأن الرحمة الإلهية لا نفهم معناها، وإنما النبي صلى الله عليه وسلم يبين لنا أن الرحمة الإلهية هي من جنس ما يقع منا ولكن هذا كل ما يقع في الخلق من آدم عليه السلام، إلى يوم منتهى الأرض، إنما هو جزء من رحمة الله.

ثم ربنا سبحانه وتعالى يجمع هذه الرحمة إلى بقية الرحمات ويرحم بها الخلق يوم القيامة، ولذلك قيل لأعرابي: أنت ستدخل الجنة؟ قال: على يقين سأدخل الجنة، وهذه الصفة يشتق منها الأفعال التي رأيناها في حديث النبي صلى الله عليه وسلم، الرحمة يشتق منها أن ربنا عز وجل يضحك، هذه من رحمة الله أنه يضحك، هذه اشتقت منها صفات، فالمدخل إلى القرآن كله إلى حكمة الله، إلى شرع الله، إلى خلق الله الذي بينه في كتابه إلى هذا الكتاب العظيم قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، يعني لا نريد أن نقف عند ما الفرق بين الرحمن والرحيم، ما الفرق بينهما؟ العلماء على أقوال متعددة بلا شك أن الرحمن أبلغ من الرحيم، وأعظم دليل هذا أنه لا يجوز أن يوصف أحد بأنه رحمن، ولم يدعي هذا إلا الكذاب مسيلمة، حيث سمي برحمن اليمامة، هذا الكذاب وإلا فلا أحد سمى نفسه باسم الرحمن أو وصفه واصف باسم الرحمن، إنما يوصف باسم الرحيم، المرء يوصف باسم الرحيم، فالرحمن أبلغ وهي خاصة بالله عز وجل.

ما هو الفرق بينهما؟ للعلماء كلام كثير في هذا ولكن أبلغ الأقوال أن الرحمن هي صفة ذات، والرحيم هي صفة فعل، فهو رحيم بخلقه، ولذلك ما وصف فعل الله على عبده إلا بأنه الرحيم، وما وصف ربنا عز وجل وصفًا لذاته إلا وصف بالرحمن، فهو الرحمن بذاته جل وعلا، وإذا فعل هذه الرحمة على الخلق كان رحيمًا، وبعضهم قال: أن الله عز وجل رحمن للمؤمن والكافر في هذه الدنيا، فهو يطعم الكافر ويطعم المؤمن ويعطي، ويوم القيامة لا تكون رحمته إلا لمن يستحقها، في إدخال المؤمنين الجنة، وهذا قول يعني لا يكون هناك كذلك من الرحمات لمن لا يستحقها، وإنما هي من رحمته يكون هذا، يعني يدخل الجنة أناس لم يعملوا خيرًا قط، ويرفع مراتب أناس لا يستحقونها، كل هذا من رحمة الله عز وجل.

مما ينبغي أن نفهمه في هذا الاسم، هو أن الله عز وجل يحب من الخلق أن يتصفوا بهذه الصفة، الرحمة التي هي في نفس الرب عز وجل، والرحمة التي تقع من فعله على خلق، يحبه ربنا عز وجل من عبيده أن يتصفوا بها، فقال: **(الراحمون يرحمهم الرحمن)**، **(ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)**، فهذه الصفة يحب ربنا عز وجل أن نتعبد بها الخلق، وهذه صفة شاملة، هل هي خاصة لأحد؟ يعني هل يختص الله عز وجل هذه الصفة بها أحد دون البقية؟ أم هي شاملة لكل ما خلق الله؟ انظر العدل هذه صفة ممدوحة لكنها مع مدحها هناك ما هو أعظم منها، وهذا يدخلنا في شيء مهم جدًا، هل أسماء الله وصفاته تتفاضل؟ ما هو الأشمل والأوسع الرحمة أم العدل؟ الرحمة، فإذن الرحمة أفضل من صفة العدل.

ولذلك الصواب كما أن كلمات الله تتفاضل، القرآن يتفاضل، **(قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن)** فتتفاضل، وهذه مبنية الذين ينفون هذا التفاضل في كلمات الله عز وجل وفي أفعاله مبنى الكلام عندهم مباني فلسفية لا أحب أن أدخل فيها الآن، وهذه تشرح في كتب أهل العلم، وفي مجالس العلم، التي هذا بابها وإلا فالصواب في أن كلمات الله عز وجل تتفاضل وكذلك صفات الله تتفاضل، كما رأينا أنه تقدمة الرحمة خير من تقدمة العدل. ولذلك **(إن الله عز وجل كتب كتابًا عنده فهو عنده فوق العرش)**، ماذا في هذا الكتاب؟ **(إن رحمتي سبقت غضبي)**، هذا الكتاب مكتوب عنده فوق العرش.

وانظر إلى هذا الجمع بين أنه لم يرد أنه استوى على العرش إلا بصفة الرحمة، لم يقل القهار بالرغم أنه قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ٦١]، ولكن لما جاء استوائه على عرشه جل في علاه، وعلوه على خلقه فلم يأت إلا بهذه الصفة، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥)﴾ [طه: ٥]، وهذا جمع مع قوله صلى الله عليه وسلم: **(كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي سبقت غضبي)**، وهذه الصفة جامعة لكل صفات الله عز وجل، وهي محيطةٌ -أي الرحمة- محيطةٌ لكل صفات الله عز وجل، مبنى الخلق على القدرة أولًا، لكنها قدرة مشروعة برحمة، التدبير، تدبير الله لهذا الكون، كل شيء هو خاضع لتدبير الله، وهو من

قوله عز وجل: ﴿هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، هذا صفة التدبير، هذه مشفوعةٌ بماذا؟ في قيامها على الخلق، مشفوعة بالعدل أم مشفوعة بالرحمة؟ بالرحمة، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، فهي إذن مشفوعة بالرحمة، إذن خلقه مشفوعٌ بالرحمة، تدبيره مشفوع بالرحمة، شرعه؟ الذي شرعه على الخلق مشفوعٌ ومحاطٌ بالرحمة.

فصفة الرحمن الرحيم هي محيطةٌ لكل أسماء الله وصفاته ولكل أفعاله، واحد يقول لكن كيف المنتقم؟ أين هذا المنتقم من الرحمة؟ نقول ألم يسبق الانتقام الرحمة، يعني الله قبل أليس هو الصبور، هل عذب ربنا عز وجل قومًا دون أن يقيم عليهم الحجة، هل عذب قومًا ربنا تعالى قبل أن يعذره في عذابه لهم، أقام عليهم الحجة والبيان وأعطاهم الوقت ليتوبوا وإلى آخره، فسبحانه وتعالى رحمته شاملة هي الأبلغ، وهذا المعنى هو الذي يرزق القلب الحب لله.

فصفة الله هذا المألوه، ماذا تصبغ على قلب؟ اسم الله ماذا يصبغ على القلب؟ هل يصبغ عليه معنى الجمال أم الجلال أكثر؟ نتكلم هنا عن موازنة هو يعطيك صفة الجمال أنه الله، ولكن كلمة الله ماذا تلقي على القلب؟ تلقي على القلب صفات الجلال الهيبة العظمة، لما أنت تسمع هذه الكلمة تقول الله، فأي معنى يطرأ على قلبك؟ التعظيم، الجلال هذه صفات الجلال، ولكن عندما تتكلم عن الرحمة، ماذا تصبغوا على قلبك؟ صفات الجمال الحب والرأفة، وانظر هذا التوافق ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ومن هنا نقول يأتي اتصال الأسماء بسم الله الرحمن الرحيم العزيز الحكيم، ماذا قلنا؟ ماذا تعطي؟ تعطي معاني جديدة وتصلح، تأتي بصفات كمال جديدة تزيد في الكمال، تزيد في العظمة وتصلح المعاني الأخرى، يعني لو بقي في العبد الله هذه الكلمة هكذا الله، ولم يتعامل إلا بها، تفتح بسم الله، فلا تصبغ إلا على هذا المعنى العظيم والهيبة والخوف، ولكن عندما تأتي هذه الكلمة وراءها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فكيف تجتمع؟ فإذا اجتمعت حققت هذا التكامل العظيم في قلب العبد لله عز وجل.

فإذن هذه الصفة وهي صفة الرحمن، تصنع الحب في القلب لله، تصنع الحب لله لأنه رحيمٌ بك، وتكلمنا من أعظم ما يحقق الشرك، ومن أكثر أبواب الشرك في الوجود هو اليأس، القنوط، ما الذي يصنع الشرك في الوجود؟ أغلبه هو اليأس من رحمة الله، -هذا تكلمنا عنه- إذا حصل في القلب هذه الصفة وهذا المعنى بأنه الرحمن ماذا تصنع؟ هل يكون في القلب اليأس؟ عندما يقول لك ربنا عز وجل: **(أنا رحمنٌ رحيم)**، هذه تزيل اليأس فلذلك ينشأ أعظم أنواع التعبد، ما هو أعظم أنواع التعبد الذي من أجله؟ هو الاستغفار.

لماذا خلقنا نحن؟ لماذا خلق الإنسان؟ ما هو أُس تعبد البشر الذين خلقوا بعد أن كان الوجود كله لا يعرف إلا الطاعة، لماذا خلقنا نحن؟ فقط للاستغفار، ولو ذهبت المعصية من الأرض لذهب الوجود، فعندما الملائكة استفسروا ولم يفهموا عن ربنا أنه جاعلٌ في الأرض خليفة، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، الله ما رد عليهم، ما نفى أنه سيكون في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء، ما نفى، أثبت لهم قولهم، ما قال لهم لن يكون كذلك، بل أثبت سيكون من هذا الإنسان هذا الأمر، وهو أنه سيفسد في الأرض ويسفك الدماء، أثبت لهم ولكن لماذا سيكون سفك الدماء والقتل؟ لماذا؟ ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠].

فما هو الشيء وهم يسبحون بحمده ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، والله يحب المدح ويحب أن يسمع الملائكة يمدحونه، لكن مدحهم ليس فيه استغفار، لكن مدحهم ليس فيه معرفة لاسم الله الغفور، لأنهم لا يذنبون، فكيف يستغفرون؟ إنما الملائكة الله عز وجل قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]، يستغفرون لغيرهم ولكن لا يستغفرونه، لماذا لا يستغفرون لهم؟ لأنهم لا يذنبون، فالله خلقنا من أجل أن نذنب فنستغفر.

فأعظم مقام للعبودية بالنسبة للإنسان هو الاستغفار، وفي الحديث: **(لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولأتى بأقوامٍ يستغفرون فيغفر الله لهم)**، وعندما سأل أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم عن دعاء، - هذا أبو بكر ليس أحد الصحابة هذا أبو بكر الصديق، الذي يدعى من كل أبواب الجنة، والصديقية أول ما تعني هذا المعنى، وهو أنه أتى العبودية من كل أبوابها، فيدعى من كل أبواب العبودية، الصديقية أنه أستحوذ على كل أبواب العبودية لله، هناك صديقون كثير لكن هو الصديق الأكبر-، فلما أراد دعاء خاصًا به قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو الله به، ماذا قال له؟ وهذا كنت لما أقرأ هذا الحديث أتعجب، فلما فتح هذا المعنى علمت أنه أعطاه أعظم أنواع التعبد الذي به يدخل المرء على ربه، وهل الاستغفار هو الدخول من باب الذنب ولا في أبواب أخرى أصلًا الناس يستغفرونها.

فلما قال: «له علمني دعاء أدعو الله به»، قال له صلى الله عليه وسلم: **(اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا وأنه لا يغفر الذنوب إلا أنت اللهم فاغفر لي مغفرة من عندك فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)**، فعلمه أعظم ما يدخل به البشر على الله، الملائكة من أي باب يدخلون من باب العبودية؟ يسبحوا بحمدك ويقدسون، تسبيح تحميد، هذا أعظم ما يدخلون به على الله، لكن العباد أعظم ما يدخلون به على الله هو الاستغفار، ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)﴾ [طه: ١٢٢]، أول عبودية لآدم أنه تاب إلى الله،

ولكن بعض الناس يقول يعني هل هذا للجميع؟ نعم للجميع، حتى الأنبياء، بالاستغفار للتقصير وللضعف وللغفلة ولعدم بلوغ المقامات التي لا تنتهي، لابد من الاستغفار.

ولذلك في سورة التوبة ذكرة التوبة لما لا يقع، والتوبة لما وقع، فقال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ١١٧]، تاب الله عليهم، لشيء لم يقع فتاب الله عليهم، ولولا الاستغفار لوقعوا فيه ولولا الإقبال على الله لوقعوا فيه، فهذا مقام الإنسان، ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، وفي آخرها لم يقل الله أنا التواب الرحيم في الأولى، ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١١٧] ما قال: ليتوبوا، لأن هذه ليتوبوا لمن وقع فيه التي بعد ذلك جاءت، ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]، تلك تاب عليهم لئلا يقعوا في الذنب، هنا تاب عليهم ليقعوا في الذنب فيتوبوا، فهذا مقامان، المقام الأول أعظم، وهذا المقام هو الذي يدخل فيه أبو بكر، وهو أنه يستغفر الله لما لا يقع منه، ولماذا يستغفر؟ من أجل أنه لم يبلغ الدرجات بعد، تستغفر الله.

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يستغفر الله عز وجل في الجلسة الواحدة يعدون له مئة مرة، **(وإني استغفر الله في الجلسة الواحدة سبعين مرة)**، فالنبي يستغفر، لماذا يستغفر؟ لئلا يهان على قلبه لأنه يستغفر بعد تمام العبادة، أنظر بعد العبادة تريد الناس لو تركوا لأنفسهم لما وجدوا بابًا بعد العبادة إلا الحمد، ولكنهم بعد العبادة يستغفرون، لأنهم مهما بلغت هذه العبادة منهم فلن تبلغ ما يستحق ربنا، ولذلك في الحديث **(ولا أحصي ثناءً عليك)**، لا لفظًا ولا معنى، **(لا أحصي ثناء عليك، كما أثنيت أنت على نفسك)**، النبي يقولها.

ولذلك هذا المعنى من الرحمة هو الذي يحقق أعظم أنواع التعبد لنا، أعظم أنواع التعبد هو أن نستغفر، أن نستغفر قبل الفعل وأثناء الفعل وبعد الفعل، وأن يبقى الاستغفار حاضرًا في ألسنتنا، وهذا لا يمكن أن يقوم المرء به حق القيام إلا وقد استقر في قلبه معنى صفة الرحمة على حقيقتها، وكلما أوغل المرء عبودية في معنى هذا الاسم كلما اقترب من الله، فأكثر الدعاء وأكثر الحب وأكثر الاستغفار، وأكثر السؤال، وذلك في الحديث إذن نكثر، قال: **(لأنه رحمان)**، فأنت إن تقول أنا أعطى هذا! إذن أنت شككت أنه رحمن، أنه رحيم ورحمته واسعة، وكلما ازدادت هذه أزدت حبًا له.

وأعظم ما يصنع الحب هو الحياء، الحب هذا المعنى الجليل ماذا يصنع؟ الحياء من الله، هو الذي ينعم عليك، فلا يمنع ولذلك تعبد المرء بصفة الرحمة؛ مانعةٌ له من المعصية، هو الذي يطرأ على الذهن يقول يعني ما دام أنه، هذا يطرأ على أبواب الشياطين والعصاة، أنه كلما فهم أن الله رحيم يوغل في المعصية، هذا الجهلة يفهمون هذا، هذا من قلة الحياء، هذا لأن نفوسهم شيطانية، وإلا فالأصل كلما نظرت إلى يد المنعم أنها كثيرة العطاء، الأصل أن يصنع عند النفوس المشرقة والنفوس الطيبة والنفوس العالمة بربها أن يصنع عندها الحياء، من الذي يصنع عنده العطاء يصنع عنده الفجور، من هو؟ النفس الخبيثة.

ولذلك في الحديث النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(أفلا أكون عبدًا شكورًا)**، العطاء صنع عنده الشكر، **(أفلا أكون عبدًا شكورا)**، وهذا كله من فيض معنى اسم الرحمن الرحيم على قلب المتعبد، وكلما تأمل المرء الوجود رأى رحمة الله سارية، عندما يخرج المرء من بيته فيجد الدنيا حرارة شديدة، أليست هذه من رحمة الله، الله ينذرك، يقول لك انظر ومع ذلك هذا من الرحمة، وإلا فلو أنه سبحانه وتعالى اشتد الحر ماذا يكون؟ لو أنه بسط الحر وأطلقه، ما الذي يقبض السماء والأرض أن تزولا؟ من الذي يقبض السماء أن تنزل الأرض.

لما الله عز وجل قال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١)﴾ [القمر: ١١]، لما فتح الله أبوابها ما الذي حدث؟ هذا الماء رحمة بحياة البشر، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فلما فتحت هذه الرحمة بماءٍ منهمر وخرجت عن طوع هذا الملك ميكائيل من أن تنزل بمقدار، ما الذي كان؟ هلاك وجود، فالوجود قائمٌ على رحمة الله، هذا الوجود قائم أنت لا ترى شيئًا إلا وهو قائم برحمة الله، لو أن الله عز وجل نزع الرحمة من هذا البيت ماذا يكون؟ لو نزع الرحمة من قلب خصمك لك، من قلب أمك، من قلب الدابة التي تمشي تحتك، لو نزع الرحمة ماذا سيكون؟ ولذلك هذه الصفة التي تحببك بالله، وهذا الحب يصنع الحياة، ويصنع العبادة ويصنع الإخبات، ويصنع الذكر لله عز وجل، هذا الاسم يجب علينا أن نتعبده وأن يكون حاضرًا لنا في كل وقت، أطلت عليكم اليوم، جزاكم الله خيرا وبارك الله فيكم الحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا ذكرت صفة العدل أكثر من مرة هل يصح وصف ربنا عز وجل أنه العدل؟

الشيخ: نعم سبحانه وتعالى، وإن شاء الله سيأتي هذا، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، ونحن نرى أنه إذا وصف الرب عز وجل كلماته فهو وصفٌ له، وإذا وصف خلقه فهو وصف له على ما يمدح، يعني عندما يقال: هذا مخلوقٌ محكم فدل على أنه حكيم، وعندما نقول إن كلماته العدل فهو إنه العدل وإنما اشتقت الصفات لهذه المخلوقات أو لهذه الأفعال لأنها فيه جل في علاه، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، الله عز وجل له صفة الصدق، فكلماته صدق لأن له صفة الصدق، نتكلم عن الصفة هنا، والله كلماته العدل لماذا؟ من أين أتى العدل فيها؟ لأن قائلها هو سبحانه وتعالى هو العدل وسيأتي إن شاء الله.

السائل: شيخنا كل الدعاء في القرآن على الأغلب، الأفضل أن ندعي يا رب اغفر لي أم رب اغفر لي؟

الشيخ: رب اغفر لي وبإزالة الياء يحصل القرب، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ [نوح: ٢٨]، وسنبين إن شاء الله أسلوب القرآن في متى يستخدم اللهم، ومتى يستخدم ربنا، أو رب، إن شاء الله يأتي هذا، سنوزع الأمور بحسب الوقت إن شاء الله.

بارك الله فيكم جزاكم الله خيرًا.

الدرس السادس: الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

تقدم الكلام أيها الأخوة الأحبة مع شعار القرآن وهو الفتح بالبسملة وأن هذه البسملة جعلها الله عز وجل مفتاحًا لكتابه ولآياته فدخول لآيات الله عز وجل، الباب الذي يدخل فيه إلى الآيات، يعرفنا ما في هذه الآيات فإذن علمنا أن عز وجل يقدم صفة الرحمة، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وعلى الصواب أن البسملة هي آية كانت تنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، مع الخلاف هل هي جزء من السورة أم آية مستقلة، هذا لا يهمنا الآن البحث فيه.

نحن قلنا شيئًا مهمًا هو مفتاح الباب في قضية التفاضل في أسماء الله وصفاته وبيان اجتماعهما، لأننا نرى كثيرًا حين تختم الآيات بفواصلها، أن الله عز وجل يجمع صفتين أو أكثر ولكن العادة في القرآن الكريم أن يجمع صفتين، وقلنا بأن سبب هذا الجمع مبناه على التعديل والتكميل، أو التكميل والتعديل، وهذا شرحناه وأنا أكرره لأهميته لأنه هو المدخل الذي ربما يكون فيه تتابع فهمنا وشرحنا لأسماء الله وصفات.

والمقصود بالتكميل في أن انفراد الصفة يعطي كمالًا، ويعطي معنًا حسنًا تامًا من كل وجه، ولكن إذا اجتمعت معها صفة أخرى دلت على كمالٍ أعظم، على مزيد كمال، أي الصفة حين تكون منفردة فيها الكمال، والاسم إذا جاء فإنه لا يدل إلا على معنًا حسنًا من كل وجه، هذا تقدم الحديث فيه، في تفسير قوله ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ بأن الاسم لا يكون إلا حسنًا من كل وجه، لكن إذا اقترن بأخرى دل على مزيد كمال أكثر، دل على معنى جديد، فيه كمال الزائد.

والله عز وجل هو الأول والآخر، وهو الظاهر والباطن وهو الواسع، واسعٌ حكيم جل في علاه فلذلك لا انتهاء لكمالاته، ولا انتهاء للمعاني الحسنة ولا انتهاء لآثار أسمائه في الوجود، ولذلك تكمل الأسماء الحسنى بمزيد كمالٍ بإضافة بعضها إلى بعض، بجمع بعضها إلى بعض، هذا هو التكميل، والتعديل وقلنا وهذا أمر مهم جدًا في أنه قد يطرأ على الذهن ليس في واقع حقيقة الرب جل في علاه، ولكن قد يطرأ على ذهن السامع حين تنفرد صفة معاني يمكن أن تكون مع هذا المعنى إذا انفرد، أن يكون هذا المعنى يطرأ فهو عزيز والعزة على معنى الانفراد، لأن هذا الشيء العزيز هو المنفرد الذي قل وندر، فيقال: الذهب

عزيز، يقال: الكريم عزير، وتأتي بمعنى العزة تأتي بمعنى من ملك أسباب العزة، من ملك أسبابها، فهو عزيز في نفسه جل في علاه.

لكن نحن نرى أنه قد يكون العزيز كما عزيز مصر فيه الظلم، فتأتي الصفات العزيز الحكيم لتعدل هذا المعنى في ذهن السامع، ليس في الواقع، فهذا من التكميل والتعديل، وطريقة القرآن تأتي على هذه القاعدة كثيرًا ما تفسر اقتران الآيات في داخل القرآن على هذا المعنى، ومما ضربته مثلًا في الدرس الفائت في التفسير، لماذا قال عز وجل: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [البقرة: ٩٦]، هذا من أجل ماذا؟ من أجل تعديل ما يطرأ على الذهن.

ولما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦)﴾ [الجمعة: ٦]، ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥)﴾ [البقرة: ٩٤-٩٥]، فيرد على هذا يأتي أحد فيقول: لكن هذا ليس خاصًا باليهود أنهم لا يتمنون الموت، الكل لا يتمنى الموت، وربما الكثير يهرب من دعاء نفسه على الموت إذا جاء التحدي، فقال سبحانه تعديلًا لهذا المعنى، وأن اليهود يختصون في هذا الباب بما لم يشاركهم فيه غيرهم، فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، التعديل، هذا تعديل للمعنى، ويطرأ على الذهن معاني ومعارضات، فتأتي الآيات لتقسم هذه المعارضة، فيتم التعديل، هذا شيء مهم، فهذه قاعدة التكميل وقاعدة التعديل.

وربما يقدم التعديل على التكميل بحسب الحال وعلى الموقع وليس هذا من الشيء المهم فيما هو الأقرب هو التعديل أم التكميل، وفي حق الله عز وجل ولا شك أن التكميل أعظم وأجل وهو الباب الأولى في هذا الأمر.

ونحن تكلمنا عن الرحمن الرحيم، نلاحظ في هذه الصفة في القرآن نحن ما يهمنا الآن أن نبحث هذه الصفات في كتاب ربنا عز وجل، كيف يقدم ربنا سبحانه وتعالى هذا الاسم في القرآن، وهذا التقديم في القرآن له معاني ينبغي التأمل فيها، فمثلًا: نحن لا نجد أبدًا في القرآن صفة الرحمن مقرونة بأي صفة أخرى إلا الرحيم، لا نجدها، ونجد أن صفة الرحيم مقرونة بغيرها، فصفة الرحمن إما أن تنفرد من غير اقتران، وإما أن تقترن مع صفة الرحيم، لكن لا يمكن أن تأتي الرحمن في القرآن مع صفة أخرى، لا في البر ولا الغفور ولا الرؤوف ولا تأتي أبدًا، الرحمن لا تقترن إلا بالرحيم.

وقلنا مع الخلاف الكثير في الفرق بين الرحمن والرحيم، ولكن نرى أن الأغلب أن الرحمن هي صفة الذات، وهو أن الرحيم هي صفة الفعل، ولذلك لم تأتي في القرآن الرحمن ثم فيها فعل الرحمة على خلقه، بخلاف ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة: ١٢٨]، لما جاء إلى الفعل في خلقه فاستخدم صفة الرحيم، فدل هذا على أن صفة الرحمن لا يعتريها ما يعتري صفة الرحيم، نحن قلنا بأن المقصود به التكميل والتعديل، فكأن صفة الرحمن لجلالها ولعظمتها ولبلوغها في نفسها تمام الكمالات التي لا تنتهي فلا تحتاج لهذا.

فالله عز وجل ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)﴾ [الرحمن: ١-٢] وهكذا فلم تأتي إلا منفردة ولم تأتي إلا مع صفة الرحيم، وصفة الرحيم مع صفة الرحمن مشتقتان من مصدرٍ واحد وهو الرحمة، فصفة الرحمة هي الأبلغ، التي لا تحتاج إذا كانت في نفس الرب لا تحتاج إلى اقتران مع غيرها، يعني صفة الرحمن ما الذي تحتاجه لتعديلٍ من أجل أن تعدل في ذهن السامع شيئًا يطرأ في الذهن، ولذلك قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وهذا من تمام المدح أن تكون الرحمة هي مقدمة على كل شيء، واسعة لكل شيء.

بخلاف صفة الرحيم فإننا نجدها مقترنة لأنها فعلٌ في الخلق، ونجد أن الصفة الرحيم لا تحتاج إلى تعديل ولكن كل ما أتى بها، لا يمكن إلا أن يدل على معنى التكميل، البر الرحيم، الغفور الرحيم، التواب الرحيم فلا يطرأ أبدًا على ذهن السامعين أي معنى من معاني التعديل عندما تطلق الرحيم، وإنما هي ما يقترن بها يدل على الكمالات، ولذلك الرحمة ممدوحة من كل وجه، فلذلك أمر الله عز وجل الخلق بها، عليهم أن يتراحمون، وجعل أعظم موطن لبلوغ رحمة الله هو أن يرحم العبد خلقه من العبيد.

فأعظم باب لتحصيل رحمة الله ما هو؟ رحمة الخلق، **(الراحمون يرحمهم الرحمن)**، والله عز وجل جعل هذا الاسم مقترنًا لما يحتاج إلى الرحمة، فقال في الحديث: **(لما خلق الله الرحم فتعلقت بالعرش، فقالت: هذا مقام العائذ بك، فقال ربنا عز وجل: أما يكفيك أنني قد اشتققت لك اسمًا من أسمي، فمن وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته)**، فدل هذا على أن أعظم باب يدخل فيه إلى رحمة الله وهو أن ترحم الخلق، وهذا من أثر هذا الاسم على نفس العابد، أعظم ما ينبغي أن نهتم به وأن يقوم حالنا عبادةً لله عز وجل لبلوغ هذه الصفة ولإدراك حقيقتها علمًا وحالًا هو أن يتمثل المرء بها رحمةً بالخلق، والله عز وجل يرحم الخلق.

الأمر الأخر أننا نجد أن صفة الرحمن ووردت في القرآن سبعة وخمسين مرة، والرحيم بلغ ضعفها، كم مرة إذن صفة الرحيم في القرآن مئة وأربعة عشر، فصفة الرحمن صفةٌ عظيمة لأنها تستقل، ولكن لما كانت صفة الفعل هي الأكثر فكان أمرها مقترنًا بأحوال متعددة مع الخلق، لكن من أعجب ما نراه في القرآن ما وردت صفة الرحمن في مواطن تستدعي التفكير، أكثر سورة ورد فيها صفة الرحمن هي سورة مريم، ستة عشر مرة ونرى أنها مقترنة بمواطن فيها العذاب، نراها مقترنة بصفات فيها العذاب، ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩)﴾ [مريم: ٦٩]، كيف تقترن هذه بهذه، أقرب ما يفسر به هذا الباب أن هذا المشرك قد أتاه الرحمن من كل باب، فأبى أن يدخل إليه.

فمعنى ذلك أن العبد لا يستحق العذاب، ولا يعذب حتى تغلق دونه كل أبواب الرحمة وهذا من تمام ما ينبغي أن يفهمه المرء؛ أن المرء لا يعذب حتى لا يكون مستحقًا لأي نوع من أنواع الرحمة، بل كما سيأتي أي نوع من أنواع الرأفة، فالأشد من الرحمة هي الرأفة، كما سيأتي الرؤوف الرحيم، الرؤوف هي أشد من الرحمة، ومع ذلك فالله عز وجل قال: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢]، يعني إياكم أن يقع في قلوبكم أي حالة من حالات الرأفة التي تمنع إقامة هذا الحكم، فإنه قد أغلقت دونه الرحمات في هذا الباب في هذه النقطة.

إذًا هذا ما ينبغي أن نتعلمه ونتعامل به مع ربنا جل في علاه، لإدراك وبلوغ هذه الصفة في عبادتنا له تعبدًا لله عز وجل، الأمر الأخر –وقد انتهينا تقريبًا من صفة الرحمن والرحيم–، ما هي أول صفةٍ وردت في القرآن لربنا عز وجل مقترنة مع الرحيم، في القرآن الكريم؟ أول صفة في القرآن اقترنت مع الرحيم في القرآن في سورة البقرة، وهي: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾ [البقرة: ٣٧]، فأول صفة جاء بها القرآن مقترنة مع صفة الرحيم هي التوبة، أنه جل في علاه أنه التواب الرحيم، وهذه صفة التواب الرحيم وردت في سورة البقرة في أكثر من ستة مواطن، ﴿التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

وهذا لو تفكرنا فيه مع علاقة ما نحن فيه، في موضوع خلق آدم عليه السلام، فسورة البقرة بينت لنا بداية الخلق، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، الآن نحن انتهينا من قولنا بأن الرحمن منفردة في كمالاتها التي لا تحتاج إلى تكميل ولتمامها الذي لا يحتاج إلى تعديل، إلا في كون هذه الصفة هي صفة ذاتٍ لربنا فإنها كذلك تعطى للعبد على صفة الرحيم جل في علاه، وهذا شامل للخلق أجمعين.

طيب هذا الذي خُلق جديدًا بعد أن خلق الله السماوات والأرض وتم خلق كل شيء، وتم الخلق، ثم بعد أن تم الخلق خلق الله السماوات وخلق الأرض وقدر في الأرض أقواتها، وخلق كل شيء ثم خلق الإنسان فكان أول صفة تعمل مع هذا الإنسان هي التوبة، أول صفة هو أنه التواب الرحيم، اقتران التوبة مع الرحمة انتبه لأن الرحمة تتعلق بالخلق، أنه خلقك مرحومًا، ورحمك بما رأيت في الوجود، لأن الرحمة متعلقة بالخلق، كيف خلقك مرحومًا؟ يعني الله عز وجل رحمك عندما خلقك فأوجدك من العدم، ورحمك عندما أوجدك على هذه الخلقة، ورحمك بما أوجد لك من سبل الحياة، فرحمك، فإذن الرحمة هي صفة في هذا الباب متعلقة بالوجود.

فما هو الشيء الأخر أنت تحتاج إليه؟ هي الشرائع، فباب الشرائع فيما تعلق بالأحكام التي تلائم وجود هذا الإنسان في هذه الأرض أنه تواب، هذا المخلوق ماذا يحتاج في سلوكه؟ إلى أن يكون تائبًا ويكون ربه سبحانه وتعالى عليه توابا، فلذلك أول ما احتاجه الإنسان في وجوده بل بينت صفة الوجود، وهذا تكلمنا فيه الدرس الفائت، يعني لماذا خلق الله الإنسان؟ هناك الملائكة، الله سبحانه وتعالى يحب المدح، ويحب الحمد، وهو متكبر جل في علاه، ولذلك هناك الملائكة التي لا تكل عن تسبيح الله وتقديسه والركوع له والسجود له، **(قد أطَّت بهم السماءُ، وحقَّ لها أن تئطَ، ما فيها موضعَ أربعِ أصابعٍ إلا وملك قائمٌ، أو راكعٌ، أو ساجدٌ)** فالله يحب.

ولذلك ما من شيء في الوجود إلا يسبح بحمده، الله يحب المدح ويحب الحمد ويحب الشكر، فلماذا خلق الله الإنسان؟ خلقه من أجل أن يتوب عليه، خلقه من أجل هذه الصفة، أن تتمثل في الوجود من هو يعرض، ما معنى التواب؟ التواب مأخوذة من الإنابة العودة، التوبة، تاب أي عاد، فمعنى هذا أن هذا الإنسان يذهب بعيدًا، ثم يعود فيجد من يقبل عودته، وهو الله، فالله يتوب عليه، أي يقبل أنابته، ويقبل عودته، فما هو اجتماعها الغفور مقابل التوبة؟ المغفرة هي إسقاط الذنب، لأنه قد يتوب يعود فيقبل توبته مع بقاء الذنب عليه، ما هو الفرق بين التوبة والمغفرة؟ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]، فإذًا ما هي التوبة؟ هي قبول عودته، قد يقبل عودته ولكن عاقبوه على ذنبه، وقد يعفو عن سيئاته ولا يقبل عودته، هذا يقع في البشر.

فلذلك ربنا سبحانه وتعالى يعفو عن السيئة يمحوها، ما معنى العفو؟ المحو، ولذلك المغاربة يسمون النار عافية، ولذلك إذا قلت لمغربي: الله يعطيك العافية، يزعل يقول لك: يعطيني النار، وهذا صحيح في اللغة لأن العفو هو المحو الإزالة، وأعظم ما يزال به النار، فلذلك سميت العافية، فلذلك ربنا سبحانه وتعالى يعفو عن السيئة كأنها لم تكن، بل من رحمته جل جلاله في علاه -وهذا سنتكلم عنه في موضوع العفو

سبحانه وتعالى-، أنه الغفور يغفر يزيل هذا الذنب يمحوه، بل يبدل السيئات حسنات، قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾، أي يقبل الإنابة أن يعودوا إليه.

انظر هذا الأحكام القرآني العظيم في حال البشر فإن مفتاح الوجود خلقًا وشرعًا هو الرحمة، والرحمة لها تعلق بالشرع ولها تعلق قبل الشرع بالخلق، ولذلك ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، هو الرحيم، هو الرحيم على الجبال، هو الرحيم على الدواب، هو الرحيم على السماوات، الرحيم على الملائكة، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ولكن التوبة اختصت بمن يذنب، ولذلك اختصت بالشريعة، فكانت أول صفة جاءت في القرآن، مع ذكر القرآن لأول خلق آدم، ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، هو جاء هنا بالفعل وبالصفة، ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾ [البقرة: ٣٧].

والتواب وورد في سورة البقرة كثيرًا كما قلت أكثر من ست مرات وردت في سورة البقرة، التواب الرحيم وهذا هو معناها، فكيف هي أولًا في ذاتها عظيمة، لأنها في ذاتها جميلة وحسنة، أن الله يقبل التوبة، يقبل أن يعود عليه الإنسان، بل هذا مبدأ وجود الإنسان، لماذا خلقه الله؟ لماذا خلق الله الإنسان؟ قال صلى الله عليه وسلم: **(لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولأتى بأقوامٍ يذنبوا)**.

وأنا أكرر وفي أكثر من موطن بأن أعظم ما يتعبد به المرء ربه أن يتوب إليه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾ [التوبة: ١١٨]، وقبلها قال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧)﴾ [التوبة: ١١٧]، هذه سنأتي إليها، لماذا اقترنت هنا الرأفة بالرحمة وهناك اقترنت التوبة بالرحمة.

والتوبة بما اقترنت في القرآن؟ كم صفة اقترنت بها التوبة؟ بالرحمة، التوبة اقترنت بصفة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧)﴾ [البقرة: ٣٧]، هل اقترنت بصفة أخرى في القرآن؟ نعم اقترنت فقط مرة أخرى في سورة النور، ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾ [النور: ١٠]، فما هو موطن هذا الاقتران المناسب لسورة النور ما هو؟ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾ [النور: ١٠]، بعد أن ذكر سبحانه وتعالى أحكام الزاني والزانية وأحكام جلد من رمى المحصنات، ثم بعد ذلك أفرد حكم الزوج بحكم خاص وهو اللعان، فبعد أن ذكر اللعان سبحانه وتعالى فقال جل في علاه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ

إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)﴾ [النور: ٦-١٠].

﴿التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ وجدنا وجهها، أنه يتوب عليه ويرحمه، المقارب بينهم موجودة الرحمة مع التوبة، أنه يقبل أن يعود إليه فيعامله برحمته، يقبل أن يؤوب إليه ويعود إليه فيعامله برحمته، ولماذا هنا اقترنت التوبة مع الحكمة؟ لأن الموطن فيه موطن أحكام وموطن اختصاص، أولًا موطن الحكم: هو أن الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء، ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤)﴾ [النور: ٤]، هذه هي الحكمة، يعني الله عز وجل أجرى هذا الحكم على موطن صفة الحكمة الربانية، هذا الحكم يدل على حكمة الله، أنه أقام حكم يلائم هذا الفعل، فلذلك هذا الحكم يلائم حكمة الله فلذلك هو حكيم.

فلما جاء الاختصاص، لو جرى هذا الحكم على كل البشر لكان حكمة، لكنه سبحانه وتعالى خصص الزوجة بأمرٍ خاص، هو إذا رمى الزوجة فعليه أن يجلد هذه حكمة الله، فلما أخرجه، أخرجه على معنى التوبة.

أولًا الحكم الذي يلائم كل أحد، فلما خرج الزوج عن هذا الأمر عامله على معنى الحكمة، لماذا؟ لخصوصيته، فبقي على معنى الحكمة ولكن غلب عليه معنى التوبة والقبول ما هو فيه، معنى تاب؟ ثم تاب عليه، بمعنى رفع عنه الحكم الذي أجره على بقية البشر، ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾ [النور: ٤] فخرج الزوج، هذا أمر متعلق بحكمة الله وهذا الاختصاص ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ﴾، فهذا جرى على معنى التوبة، أن الله عز وجل تاب عليه، فإذًا وردت هذه الصفة في هذا الموطن أنها مقترنة بالرحمة، فأن الله يتوب عليه ويرحمه، ووردت على معنى التوبة والحكمة لأن الله عز وجل خص قبول هذا الرجل على معنى دون بقية المعاني لاختصاصه.

من الذي يرمي زوجته؟ رمي الزوجة من الزوج هو طعن في عرضه يعني المرأة عندما تقوم بالفاحشة على فراش زوجها، هو ما يكون الطعن في زوجها، لماذا جاء الرمي من الزوج ولم ينظر إلى الأب والأخ؟ لأن هؤلاء لا يمكن أن يرموها لعدم وجود المعنى، فلماذا الزوج يوجد فيه معنى الرمي؟ من أجل نفي النسب، لأنه يكون ما في بطنها ليس له، فهو مضطر، ولذلك إن لم يكن هنالك أولاد أو في بطنها أولاد، فلا ينبغي له أن يرميها، ما في معنى لرميها، وإنما يتم الرمي لماذا؟ حتى ينفي نسب ما في بطنها، قد يقول قال

لماذا أبوها لا يرميها، لماذا أخوها لا يرميها، لماذا خالها لا يرميها، فهؤلاء لا معنى لهم لرميهم، فإذا فعلوها يستحقون، بخلاف الزوج فإنه يرميها مضطرًا صادقًا إن كان صادقًا من أجل ضرورة وهو نفي النسب.

ولذلك هنا جاء الاختصاص في كونه سبحانه ﴿تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾، انتهينا من صفة التواب، لماذا لما ذكر الله توبته على النبي والمهاجرين والأنصار، ذكر ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، ولما جاء إلى ذكر الذين خُلفت توبتهم وليس تخلفوا عن الجهاد، هذا فسره الصحابة، وعلى الثلاثة الذين خلفوا أي خُلفت أي تأخرت توبتهم، فالله عز وجل قضى لأهل الجهاد بالإيمان وقضى للضعفاء والمساكين بأن العذر لهم، وقضى على الذين جاؤوا وكذبوا أنهم كذبة ومجرمون، فلا تقبل لهم، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [التوبة: ٤٣]، فبقيت جماعة هؤلاء الثلاثة الذين تخلف حكمهم، تأخر حكمهم.

ولما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧)﴾ [التوبة: ١١٧]، فأين المعصية التي وقعوا فيها؟ لم يقعوا في معصية ومع لقد تاب الله عليهم، ليس فقط المهاجرين والأنصار الذين اختصوا بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾، لمن هذا الوصف؟ للمهاجرين والأنصار ليس للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾، جاء الخطاب إليهم، اتبعوا النبي.

فهل تاب الله على النبي؟ نحن عندنا هذا من أجل أن نفهم سعة كلمة التوبة وأن الله هو التواب، إن الله أوقع التوبة قبل حدوثها على النبي، ما حدث منه، تاب الله على النبي، هو لم يقع منه المعصية في هذا الباب، وأولئك كاد فلم يفعلوا وإنما مشوا معه، فتاب عليهم، ولذلك لم يقل سبحانه وتعالى بعد قوله هنا: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، ما قال بعدها: «ليتوبوا»، بل ختمها ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧)﴾، لأن التوبة: -انتبه- الرجل إذا أذنب ابتعد عن رحمة الله، فإذا تاب أي عاد فقبل الله توبته، ففي النهاية هو مستقر في رحمة الله وإن حدث منه في حالته يعني أبتعد، في حالة من الحالات كان بعيدًا، معلق بعيد، ثم عاد إلى موطنه من الرحمة والقبول.

طيب لو أن رجلًا بقي مقيمًا، حصل المقصود، وإن لم تقع الوسيلة، يعني شيخ الإسلام أحتج على بعض المسائل في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾، فقال: لو كان بعضهم في داخل مصر، هل يقال له أخرج لتدخل، قال له: وهو في داخل مصر، فيحق فيه القول: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾، يعني الذي في المكان

يقال أدخل مصر، يعني يشمله هذا الخطاب، يشمله كما يشمل الخارج، لو هؤلاء الجماعة يقول لهم ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾، فأنه يشمل من هو خارج ويشمل من هو داخل، والذي داخل لا يطلب منه الخروج ليعود، فإن المقصود هو العودة، وهو مقيم في مكانه.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾، يعني منعهم رحمةً بهم من أن يذهبوا فيعودوا فبقوا في مكانهم على معنى التائب، بقوا مكانهم في الطاعة والمحبة على معنى التائب، المقصود هو أن تعود إلى المكان الذي أنت فيه، فإذا بقيت أنت فيه فقد حصل هذا المقصد فهذا عودة، ولذلك الله عز وجل قال: ﴿لَقَدْ تَابَ﴾؛ فكانت توبته أن لا يذهبوا فيعودا، بل توبته أن يبقوا مكانهم، على معنى ما يحصل من مآلات التوبة.

فإذن توبة الله على العبد تشمل معنيين:

المعنى الأول: أن يذهب العبد عاصيًا فيؤوب ويتوب فيقبله.

المعنى الثاني: أن يمنعه من أن يذهب فيعود بل يبقى على مكانه.

لكن السؤال: لماذا يستخدم هذا اللفظ ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾؟ هذا عودة لما تقدم لأن أجّل ما يتعبد به الناس لربهم وهو خلقهم لهذا، هو أن يتوب عليهم، يعني أعظم ما يتعبد به العابد لربه هو أن يستغفره، ولأن الاستغفار الذي فيه معنى التوبة يطلب المغفرة ليعود إلى مقامه، هو يطلب ماذا؟ المغفرة، يطلب العفو، ليعود إلى مقامه، لأن هذا المقام هو أجل ما يتعبد به العبد لربه، أجل مقام.

ولذلك أمر الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم بالاستغفار، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستغفر، والاستغفار يؤدي إلى عدة معاني:

المعنى الأول: أن يمحو الله عز وجل عنه الذنب مهما صغر أو كبر، ومن ذلك لماذا يستغفر المرء بعد عبادته وصلاته؟ ليجبر النقص، هي عبادة ولكن من أجل أن تحصل الكمال، هذا نقص ليحصل به الكمال، وليس المقصود فقط أن يخرج من الطاعة إلى المعصية فيقول له: توب لتعود إلى الطاعة، ولكن وهو في مقام الطاعة يحتاج إلى توبة من أجل أن يصلح طاعته.

المعنى الثاني: كذلك من مقامات التوبة التي تعبدٌ لاسم الله عز وجل التواب وهو أن يتوب ليرقى، مقامك أيها العبد أنت ألا تكون في هذا المقام أن تكن أرقى منه، فلذلك تتوب لماذا؟ لترقى في المقامات أولًا لتصلح النقص، هنا لا هنا من أجل أن ترقى في المقامات وهذا هو المعنى من توبة واستغفار النبي صلى

الله عليه وسلم، يتوب ويستغفر ليرتفع، وإن العبد ليذنب الذنب فيتوب فيكون مقامه بعد التوبة خير من مقامه قبل الذنب، هذا الأمر ينبغي أن نهتم به في حياتنا، أن نهتم في عبوديتنا لله عز وجل.

فالعبد ربما يطيع ربه فيمنن ويقع في قلبه من المعاني التي لا يحبها الله، أنه عابد وأنه كذا، والله لا يحب هذا الأمر، ولذلك إن أول تربية للنبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام أو في أول السور التي ارتكزت عليها عبودية هذا النبي وأمته من بعده ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦)﴾ [المدثر: ٦]، من بدايتها إياك أن تنظر إلى فعلك بل الواجب هو ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ [النساء: ١٠٦]، الواجب هو الاستغفار، الواجب هو بقاؤك في هذا المقام، في كل وقت أن تبقى في مقام الاستغفار والتوبة، لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يستغفر في جلساته، يستغفر في أعماله، يستغفر إذا جلس **(وأني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة)**، وكانوا يعدون له الاستغفار مئة مرة في المجلس الواحد.

فلذلك التوبة تأتي أولًا وأنها تجبر ما نقص، أنها تستدعي المقامات العلية التي لا تحصل إلا بهذا، هناك مقامات من العبودية لا تحصل إلا بالانكسار أمام الله، رجل ربما يعبد فيفرح لكن إذا أذنب بكى، وهذا البكاء يحبه الله أكثر من فرح ذلك العابد، يحبه أكثر أن ينكسر؛ لأنه إذا انكسر أمام الله عز وجل وإذا استغفر ربه تمام الاستغفار مع الشعور بالذنب هذا مقامٌ هو مقام الإنسانية وهو مقام الإنسان، ومقام الإنسان هو الضعف، ولا يكفي أن يكون ضعيفًا، لا بد أن يعترف بالضعف.

لماذا تحصل التوبة؟ قالوا: التوبة هي أجّل أنواع الاعتراف بالذنب، قالوا: لا تخلو حالة المذنب إلا من هذه الثلاث: إما أن لا يعترف بالذنب، وإما أن يعتذر عنه بأنني فعلت هذا الفعل لكني فعلته بتأويل كذا وكذا، وإما أن يعترف به مع شعور التقصير هذه هي التوبة، فأعظم أنواع التعبد التي تحصل بها التوبة هو ان يعترف بذنبه ويعترف بأنه فعله مقصرًا مذنبًا وانه فعله على جهة الضعف.

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(كل ذلك عندي)** يعترف بضعفه ويعترف بذنبه، لأنه هذا مقام الإنسان.

فإذًا مقام التوبة في قوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أنه منعهم من أن يذنبوا فتاب عليهم وأبقاهم على ما هو عليه، المقصود أبقاهم، وكذلك فيها معنى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ﴾ ما الذي عصمهم؟ هو تاب وذكر انه أبقاهم في مكانهم فلم يعدهم بالذنب فما الذي منعهم أن يزيغوا؟ هو أنه رءوف، فلائمة هذه الفاصلة القرآنية مقدمة الحدث فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧)﴾، والرأفة كما سيأتي هي أعظم من الرحمة، إذا تجاوزت الرحمة مقامها كانت رأفة.

لكن الثالث الذين خُلفوا ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، بقوا في مكانهم في مقام الانتظار فهم بعيدون فقال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ تاب عليهم أسقط عنهم الذنب ﴿لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾ [التوبة: ١١٨].

ولذلك جاءت التواب على صيغة المبالغة فلم يقل التائب، ولذلك ليس من أسماء الله عز وجل التائب بل هو التواب، والتواب قد تلصق بمن قبل التوابة وقد تلصق بمن أكثر التوبة، فالإنسان الذي يتوب مرة بعد مرة يقال له تواب والذي يقبل التوبة من عبده كل ما أذنب هو التواب، ولكن لا يقال عن ربنا عز وجل التائب، بعض أهل العلم يقولن هذا اللفظ والصواب هو عدم إطلاقه على الله عز وجل لِمَ يوهم من المعنى الذي ذكرناه، هذا الذي ينبغ أن نعلمه في هذا الاسم والله تعالى أعلم، وجزاكم الله خيرًا.

وقبل أن ننهي في بعض الأمور المتعلقة بالرحمن الرحيم فقط في موطنها من القرآن، بما اقترنت صفة الرحيم وبعض صورها وهناك بعض الأمور في مواطن القرآن من أجل التنبيه لماذا هذه الفاصلة وردت، وهذه فوائد عامة فيما نحن فيه.

الرحيم اقترنت بالعزيز وذكرت في عدة مواطن في سورة الشعراء ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)﴾ [الشعراء: ٩]، – وهذا ربما نشرحه في صفة الله العزيز لكن نقدم حتى نبين– لما اقترنت صفة الرحيم مع العزيز لماذا؟

نحن في سورة الشعراء أيها الإخوة الاحبة نرى سياق القرآن يدور حول طائفتين، فسورة الشعراء لا يوجد فيها إلا أخبارُ الأنبياء وأقوامهم، –يصح أخبارُ وأخبارَ إذا كان المستثنى منفيًا يصح الرفع ويصح النصب، كما نقول لا إله إلا اللهُ؛ فيصح النصب ويصح الرفع– فلم يرد في سورة الشعراء إلا أخبار الأنبياء وأقوامهم، فلذلك كانت صفة الرحمة وصفة العزة ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)﴾، صفة الرحمة بالأنبياء أنهم نجاهم، وأن أقوامهم عتوا وتجبروا وكفروا ورفضوا وعادوا، فاستحقوا العذاب فلذلك كانت صفة العزة في عذابه عليهم، فلذلك توزعت هاتان الصفتان على حالين لكنها في وقتٍ واحد وبفعلٍ واحد، ما هو الفعل؟ أن الله يعذب الكافرين فيكون في عذابه للكافرين عزةً، هذا مبعثه العزة، وفي ذلك رحمة للمؤمنين هذا معنى.

والمعنى الثاني: أن الله عز وجل أعز المؤمنين ورحمهم فهي خاصة بأهل الإيمان، خاصة بهم أنه أعزهم، وأنه العزيز الذي يعز من يستحق العزة مع الرحمة بهم، لأنه قد يعزهم فيكون في ذلك غضب عليهم، لكنه هو يعزهم مع الرحمة، فلذلك جاءت صفة العزيز الرحيم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)﴾ [الشعراء: ٩]، تكررت مرات.

وجاءت صفة التواب وشرحناها وإن شاء الله نشرح في الدرس القادم اقتران صفة الرأفة مع الرحمة، وكذلك اقترنت صفة الرحمة مع المغفرة ﴿الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)﴾ [سبأ: ٢] وجاءت في مواطن كثيرة في القرآن وإن شاء الله نأتي إليها، كذلك جاءت صفة الرحمة مقترنة مع الودود في سورة هود، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)﴾ [هود: ٩٠]، كذلك اقترنت في سور الطور في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾ [الطور: ٢٨]، ورءوف رحيم كما في عشر آياتٍ من القرآن، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧)﴾ [النحل: ٧]، وسنأتي إليها إن شاء الله تعالى.

والتواب الرحيم وردة في سورة البقرة خمس مرات.

الطالب: شيخنا العزيز الرحيم وردت في سورة ثانية في سورة الروم ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥)﴾ [الروم: ٥].

الشيخ: نعم، صحيح أحسنت، وسأبين إن شاء الله لماذا في هذه المواطن عند شرحنا لاسم الله العزيز، لماذا جاء العزيز الرحيم في هذه المواطن.

وهناك مواطن في القرآن تستدعي الانتباه منها: ما ورد في سورة المائدة في قوله عز وجل: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة: ١١٨]، المناسب كما قال إبراهيم عليه السلام لربنا: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦)﴾ [إبراهيم: ٣٦]، فلماذا قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾، العلماء على شبه اتفاق أنا لم أرى غير هذا التفسير لأهل العلم، أن العزيز الحكيم هنا، ذلك لأن هؤلاء أهل الشرك فلا يستحقون الرحمة، لأن هؤلاء عبد غير الله، ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)﴾ [المائدة: ١١٦]، وهذا الحديث عن من قالوا: أن عيسى عليه السلام ابن الله تعالى الله عما يقولون، فهل هؤلاء يستحقون الرحمة؟!! لا يستحقونها.

فلما كان هذا الخيار الآخر في عدم قبول التوبة ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، هم تحت سيطرتك وقوتك وأنت ربهم ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وهم ليس أهل للرحمة ولذلك لم يقول الغفور الرحيم، فلذلك قال: ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾، فمبعث مغفرته لهم ليس الرحمة لأنهم لا يستحقونها وإنما هو عزته وحكمته، ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾.

وفي موطنين آخرين يستغرب المرء، الموطن الأول في سورة الممتحنة والموطن الثاني في سورة التوبة، في سورة التوبة -هذه مواطن ينبغي الوقوف عندها- يقول الله عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ

أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾ [التوبة: ٧١]، فلماذا ورد الموطن هنا بأنه هو العزيز الحكيم؟

سياق سورة التوبة كله يتحدث عن أمر الجهاد وأغلبها بل في مقدمتها، وأنا ذكرت هذا في صفة الله الصمد لما جئت إلى الآيات المتعلقة بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته، في صفة الله الصمد جعلت هذا الكتاب تفسيرًا للآيات التي نزلت في المغازي، فسورة التوبة نزلت في غزوة تبوك، من أين أبدأ –وهذا السؤال تساءلته– كل السورة من أولها تتحدث عن تبوك، فأولها تمهيدٌ لقضية غزوة تبوك.

مثلًا عندما يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤]، ما مناسبتها لقضية غزوة تبوك؟ مناسبته في تنبيه هؤلاء العلماء الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، تنبيه لهؤلاء، هو صنف من أصناف النفاق، الذي ذكر في التوبة أصناف النفاق في الغزو والجهاد وما تعلق بالجهاد، وكذلك هناك صنف من المنافقين يتعلق بقضية العلم.

فالمقصود: أن سورة التوبة حديثها كله عن قضايا غزوة تبوك وعن قضايا الجهاد وحال الناس مع الجهاد، فالحديث عن المؤمنين ليس للمغفرة، السياق ليس للمغفرة كلها، إنما حديثٌ عن الجهاد وأحواله والمناسبة هو أن ينصرهم الله، ولذلك قال جل في علاه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، هو حديث عن الولاية كما تقدم قبل عن المنافقين ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]، بعض أهل العلم فسر لماذا لم يقل أولياء، مع أنه قال سبحانه وتعالى في سورة الانفال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣)﴾ [الأنفال: ٧٣]، فذكر هنا في الكفار أولياء بعضهم لبعض، وفي المنافقون لم يقل فيهم أولياء بعض لماذا؟ لأمرين –لا بأس هذا كله في فهمنا لأسماء الله وصفاته، لأن المقصود أن نعرف كيف يطرح القرآن أسماء الله وصفاته، كيف يطرحها وكيف نستخدمها، كيف أنت تتعامل مع أسماء الله وصفاته في أي موطن– فالأمرين:

الأمر الأول: قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، هذه بعضهم من بعض هي أقل مرتبة من أولياء بعض، لأن بعضهم من بعض أي أنهم بجانب بعضهم البعض، وحالهم حالٌ واحد وحكمهم حكمٌ واحد، ولكن أولياء في تناصر، فلما جاء الاقتران –هذا التفسير الأول– فلما جاء الاقتران بين حالين كان المؤمنون بعضهم أولياء بعض، والمنافقون ليسوا بعضهم أولياء بعض لكن هم من بعض، كما هو حال الدويبة «الصراصير» مع بعضها البعض، ولكن المؤمنون ينصر بعضهم بعض، فلما

قورنوا بالمؤمنين لم يستحقوا، والكافرين بعضهم أولياء بعض، نعم هناك من الكافرين من هم أولياء بعض بخلاف المنافقين، لأن المنافقين شأنهم الكفر أصلًا ولولا الجبن ما نشأ النفاق، منشأ النفاق هو الجبن.

ولذلك لما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، فالحديث عن ولاية والحديث عن تناصر وعن تكاتف ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾ [التوبة: ٧١]، الحديث سيرحمهم الله في ولايتهم، هذه الرحمة في ولايتهم تحتاج إلى العزيز الحكيم.

الأمر الثاني: جاء ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، نحن نرى في القرآن أنه إذا جاء الأمر من غير مقارنة يطلق المعنى اليسير، فإذا جاءت المقارنة هذا المعنى اليسير لا يلتفت إليه؛ لوجود ما هو أعلى منه.

مثال ذلك: الله جل في علاه يقول: ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الواقعة: ٦٤-٦٥]، فقال: ﴿لَجَعَلْنَاهُ﴾، لكن لما جاء إلى الماء قال سبحانه وتعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)﴾ [الواقعة: ٦٩-٧٠]، لما كان هناك أمر قد ذكر فيه أمرين فلابد من التمايز بينهما، هل يصح ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ﴾ لجعلناه؟ لو انفرد لجعلناه، لكن لما جاء مقترنًا بأن يجعل الله الزرع حطامًا ما هو الأقوى؟ هل تشابه الأمران؟ ما هو الأيسر والأقوى في عرف الناس؟ هو أن يحطم، الإنزال من المزن هذا لا يقدر عليه الناس، فلما كان اقترانهما مع اختلاف أحوالهم؛ اختلف اللفظ، لكن لو بقي كل واحدٍ على حِدى، لاعتبر هذا المعنى، فلذلك قال لما جاء إلى التحطيم وقال: ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾، ولما جاء إلى إنزاله فقال: ﴿جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ مع أنه أشق، لكنه سهلٌ على الإنسان هذا.

فهذا المعنى الذي نذكره: إذا جاء الاقتران فلا بد من وجود التمايز، فإذا انفرد يذكر هذا المعنى اليسير ويهتم به، فلذلك جاء الاقتران ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، وبين آية ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

بقية الآية الثالثة في سورة الممتحنة قال سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)﴾ [الممتحنة: ٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ

﴿الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤)﴾ [الممتحنة: ٤]، ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ انظر في صراع معهم، ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ لماذا تقال؟ والعداوة والبغضاء فكلها تدل على وجود صراع.

فقال جل في علاه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)﴾ [الممتحنة: ٥]، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ هل الغفور الرحيم تناسب الآية في سياقها كله؟ أم المقصور مناسبة آخر صفة وردت، هل المهم أن ننظر إلى ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ إلى خاتمتها أم النظر إلى حال هؤلاء القوم فيما يتحدثون فيه جملةً؟ ما هو المطلوب؟

يعني مثلًا رجل يتحدث –ولله المثل الأعلى– رجل يتحدث عن موضوعٍ عام ويذكر ما يحدث فيه من صفات ويقول: فعل كذا وفعل كذا، فهل الخاتمة لمجمل القضية التي يتحدث عنها أم لتلك الأفراد الداخلة في هذه القضية؟

فلما قال جل في علاه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ما معنى ﴿فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هنا؟ معناها ألا تهزمنا أمامهم فيكون نصرهم فتنةٌ على أنهم على الحق ونحن على الباطل، ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ يعني بضعفنا ونصرتهم علينا لا تجعلنا كذلك، فيقولون: ألسنا على الحق وأنتم على الباطل والدليل أننا انتصرنا، فقال: ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ وهي من ضمن ما يطلبونه من الله، فإذًا خاتمتها ماهي؟ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لأن السياق هو حديثٌ عن موطن الصراع بين المؤمنين والكافرين.

السائل: رحيم هل أتت منفردة شيخنا؟

الشيخ: نعم أتت منفردة.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس السابع: الغفور

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع هذا اللقاء السابع من لقاءات شرح وتذكير أنفسنا بأسماء الله عز وجل وصفاته.

تقدم الحديث عن صفتي الرحمن الرحيم وقلنا من الصفات التي لها تعلق بالرحمة هي صفة التوبة، وذكرنا ما معنى التواب جل في علاه وهي من صيغ المبالغة كما تعلمون، وذكرنا بأن صفة التواب هي أول صفة تعلقت مع الرحمة في القرآن الكريم، وفيها معنا الإنابة، العودة الله يتوب يعني يعود على عبده مع ذنبه ويأذن لعبده أن يعود إليه، ولذلك العبد يسمى تواب والله عز وجل هو التواب، أي يقبل توبة، والله يقبل على عبده **(من أتاني يمشي أتيته هرولة)**.

ومن الصفات التي لها تعلق بصفة الرحمة وهي قريبة وتستخدم دائمًا في القرآن الكريم صفة المغفرة وصفة المغفرة اشتق منها في القرآن ثلاث أسماء لله عز وجل، ونحن كما ذكرنا في اسم الرحمن الرحيم وفي صفة الرحمة بأن كثرة الأسماء المشتقة من الصفة يدل على عظم هذه الصفة ونحن نرى أن هذه الصفة وهي المغفرة اشتق منها غفار وغافر الذنب وغفور، فغافر الذنب ذكرت مرة في القرآن في سورة غافر، وذكرت صفة غفار في خمس آيات من القرآن الكريم، وذكرت صفة غفور على صيغ تقريبًا واحد وتسعين مرة فما أصل صفة التوبة؟

نحن نستخدم دائمًا تاب وأناب واستغفر ويتوب ويستغفر –هذه نقطة مهمة جدًا– مع أن الصفات ربما تلتقي بينها في المعنى تلاقيًا كبيرًا، لكن لابد أن هناك ثمة فرق ويسير بين هذه وهذه الفرق هو الذي يعطي للصفة خصوصيتها فيما لو اقترنت، فالقاعدة كما تعلمون: «أن هناك من الكلمات ما تجتمع في معاني متعددة ولكنها تفترق في معاني خاصة بها»، وهذه القاعدة التي قالها أهل العلم: «إذا اجتمع افترقا وإذا افترقا اجتمعا» قاعدة مشهورة معروفة بين طلبة العلم بمعنى أن الصفة لو أنها استقلت في الذكر لدلت معناها الخاص بها ودلت على المعنى المشترك الذي يجمعها مع غيرها وربما تقوم مقام غيرها فيما افترقت

فيه، ربما تقوم في الصفة التي افترقت عن غيرها في هذا الجانب، ولكنها إذا اجتمعت فلابد من التميز من وجود فرق يسير.

ودائمًا يقول أهل العلم: «بأن الواو هي حرف عطف ولابد من التغاير فلا يمكن أن يعطف الشيء على نفسه»، الشيء لا يعطف على نفسه، فلابد من وجود التغاير، التغاير لا يعني التباين الكلي وربما يكون تباين في المرتبة هما نفس المعنى، ولكن هذا أعلى من هذا، من ذلك الإسلام والإيمان والإحسان فكلها عند بعض أهل العلم مع وجود الاختلاف كلها معنى واحد ولكنها تدل على مراتب.

فالصلاة هي من الإسلام وهي من الإيمان وهي من الإحسان، ولكن مرتبة الصلاة في الاسلام دخولها في هذه المرتبة من الإسلام هي ركن الإسلام وهي في الإيمان عملٌ قلبي وفي الإحسان مرتبة راقية أعلى منها، فلا يدل هذا العطف الذي يدل على التباين والتغاير لا يدل على وجود الانفصال الكلي كما نقول السماوات والأرض أو التضاد لا يعني هذا.

ومن ذلك هذه الصفات التي نراها لها تعلق بالرحمة هي من رحمة الله أنه سبحانه وتعالى غفورٌ رحيم فنجد أن صفة الرحمة وصفة التوبة وصفة المغفرة وصفة العفو هذه الصفات الأربع تلتقي في معنى واحد، لكن بينها من الخصوصية ما ينبغي أن نهتم له وأن نتعامل معه، وخاصةً أننا نجد النبي صلى الله عليه وسلم يقول هذا الاجتماع **(أستغفرك وأتوب إليك)**، يعني اغفر لي وتب علي؛ فدل على أن المغفرة فيها معنى ليس في التوبة وفي صفة التوبة معنى لا يكون فيه صفة المغفرة.

فما أصل كلمة المغفرة؟ المغفرة هي الستر، أن يستره ومن ذلك يسمى المغفر الذي به الرأس والحروب هذا يسمى المغفر، يعني الذي يستر الرأس، فإذًا المغفرة أصلها الستر والمنع، فإذا أذنب العبد غفر الله له يعني ستره من هذا الذنب، ومن عظمة هذه الصفة لله عز وجل –وتقدم الكلام وأكرره– بأن أعظم ما يتعبد به العبد ربه هو التوبة؛ لأن سبب وجود الإنسان في هذه الدنيا هو الذي تقدم ذكره في أنه يذنب فيتوب، فيتوب الله عليه، ويذنب فيستغفر فيغفر الله له، هو يذنب فيطلب عفو الله فيعفو الله عز وجل عنه، فهذا هو أعظم التعبد الذي يأتيه العبد في هذه ولذلك الله سبحانه وتعالى جعل من هذه الصفة ثلاثة أسماء.

فإذًا الله يغفر ويستر على العبد وهذا الستر بعض أهل العلم حتى جعله على معنى من معاني التكوين يعني الغزالي في المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى جعل ليس فقط المغفرة للذنب، فالذنب أمر

معنوي، السيئة والحسنة أمرٌ معنوي وإن كان يوم القيامة يحول إلى أعيان يحول إلى عين، الحسنة والسيئة لما توزن صارت عين لها كتلة لها وزن تُرى وتحس.

فإذًا المغفرة هي كأنها حديث معنوي الله عز وجل يغفر له يستر ذنبه، لكن الغزالي جعل حتى المغفرة تتعلق بالتكوين، بتكوينك أنت، ومن ذلك مثلًا قال: بأن من تجليات اسم الله عز وجل أنه الغفور أنه جعل ظاهره أحسن من باطنه الإنسان، ولذلك خلقه على أحسن تقويم لأنه يراه ولكن في الباطن فالله عز وجل يغفر الذنوب بأن جعل الذنوب والبواطن مستورة على جهة التكوين.

فمثلًا: إذا ذبحت الذبيحة فماذا تجد في داخلها؟ تجد القاذورات التي تستقبح، فلو رأيت الإنسان في داخله لاستقبحت منظره، فكان من غفران الله أن ستر هذا الباطن وأظهر الظاهر فجعل هذا الظاهر جميلًا في أحسن تقويم **(إن الله خلق أدم على صورته)**، **(الله جميل يحب الجمال)**، فمما خلقه؟ من هذا الجمال، هذه الصفة أن خلق الخلق في ظاهره جميلًا، انظر المغفرة هنا لم يستخدمها في الجانب العملي ولكن حتى من مظاهر هذا الاسم المغفرة أنه في الوجود وفي الخلق وفي التكوين.

وبالنسبة لأسمي غفور وغفار كلاهما صيغة مبالغة واختلف أهل العلم في معنى هذه الأسماء، الذي رأيته ولم أجده في الحقيقة كتاب ولكني تتبعت هذه المواطن الخمسة في القرآن لغفار متى وردت؟ وجدت كلمة غفور في هذه المواطن القرآنية وجدتها في الحديث عن المؤمنين، في كل أمرٍ يتعلق في خطابه للمسلمين وما يأتونه وما يذرونه يأتي اسم غفور، وأما الغفار فلم أجدها في القرآن إلا في الحديث عن الكافرين، وورد الغفار في القرآن في عدة مواطن، ورد في «طه» مرة ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ [طه: ٨٢]، وفي سورة «ص»: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦)﴾ [ص: ٦٦]، انظر في كم مرة اقترنت العزيز مع المغفرة، وكذلك في سورة «الزمر»: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)﴾ [الزمر: ٥]، وفي سورة «غافر»: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣)﴾ [غافر: ٣]، ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢)﴾ [غافر: ٤٢]، وفي سورة «نوح»: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠)﴾ [نوح: ١٠].

هذه مواطن ذكر غفار في القرآن الكريم، انظروا إليها في سورة «طه»: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ [طه: ٨٢]، وهذا خطاب الله عز وجل لموسى عليه السلام عند إرساله إلى فرعون، فهو حديث عنهم.

وفي سورة «ص» هذا وإن تقدم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦)﴾ [ص: ٥٥-٥٦]، فهو حديث عن الكافرين.

وكذلك في سورة «الزمر»: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، الحديث عن الكفار.

وفي سورة «غافر» وفي قول سبحانه وتعالى: في قول مؤمن آل فرعون: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢)﴾ [غافر: ٤٢].

ونوح عليه السلام يخاطب قومه في سورة «نوح»: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠)﴾ [نوح: ١٠].

فغفار؛ قال بعض أهل العلم على هذا المعنى وربما بنوه على هذا المعنى: بأن الغفور هو كثير المغفرة، الغفور هو من تكررت مغفرته وهذا للمؤمنين، لأنه يذنب فيستغفر فيغفر الله له، وأما الكفار فهذا لهم على الغفار حين تكون ذنوب عظيمة وهو الشرك فيغفرها الله لهم، هذا من الفرق بين هذا وهذا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿غَفَّارًا﴾.

فما هو المطلوب من العبد في تعامله مع هذا الاسم؟ طيب لماذا اقترن العزيز الغفار؟ فهمنا هذا فيما شرحناه في قضية لختم القرآن في قول عيسى عليه السلام: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة: ١١٨]، فاقترنت العزة بالمغفرة وفي تعامل ربنا مع الكافرين، أغلب اقتران صفة المغفرة بالنسبة للمؤمنين مع الرحمة ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)﴾، ولكن في رأينا في ثلاث مواطن أنه اقترنت المغفرة مع العزة لأنها حديث عن الكافرين، فهذا تعامل الله جل في علاه مع الكافرين في مغفرته لهم فاقترن هذا بالعزة لأن الموطن هو موطن تهديد في خطاب الأنبياء ، فيه خطاب التهديد لأنه هو العزيز يعني لا يحتاج إليكم.

أما المؤمن هو في موطن الطاعة فيقول له: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٠)﴾، أغفر وأرحم، أغفر لك ذنبك وأرحم حالك، ودائمًا الاقتران بين الآيات بما يحقق الحال، يعني لما قال النبي صلى الله عليه وسلم للرجل الذي قال: يا رسول الله «أجعل لك صلاتي كلها» قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(إذًا يكفى همك ويغفر ذنبك)**، فجمع له خيري الدنيا والآخرة، فالهم هو أكبر مصيبة في هذه الدنيا، وكل المصائب تنتهي إلى كل الهم، الموت ينتهي إلى الهم، الفقر ينتهي إلى الهم، المرض ينتهي إلى الهم، الحاجة إلى الطعام والشراب ينتهيان إلى الهم، فإذا زال الهم يعني كل هذه المصائب غير موجودة، إذا زال الهم يعني زوال كل المصائب فهذا خير الدنيا والآخرة.

وكذلك لما يقول الله عز وجل ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ماذا يحقق له؟ إزالة الذنب الذي يشق على نفسه في الدنيا والآخرة، والرحمة التي تحقق له حسن الحال في الدنيا والآخرة، يزيل عنك الذنب ويحقق لك الرحمة

زيادة عليها، لأن هذا المؤمن في موطن الرحمة وفي موطن المغفرة وفي موطن الإيمان، ولكن الكافر ماذا يقال له؟ يقول له: ﴿الْغَفَّارُ﴾ لو قاله في موطن الرحمة لما نبهه إلى الحال الذي هو فيه، لو قال له: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما كان في ذلك تنبيه إلى الحال الذي هو فيه وهو عزة الله عز وجل عليه، أي فأنا أدعوك وأنا لست محتاجًا إليك وأنا عزيز ولكني أدعوك إلى المغفرة؛ ولذلك جاء هذا الاقتران بين العزيز الغفار.

وفي حديث ابن عمر في الصحيح يقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي عندما يقرر الله سبحانه وتعالى عبده على ذنوبه يوم القيامة: **(قال: سترته -انظر إلى اقتران الستر والمغفرة- قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم)**، سترت الذنوب عليك في الدنيا وأنا أغفر لك الذنوب اليوم، وهذا من رحمة الله؛ أن الله عز وجل إذا العبد تاب أن يغفر الله عز وجل له ذنبه وربما يغفر له ذنبه بأعمالٍ صالحة، **(أتبع السيئة الحسنة تمحها)** تزيلها، وهذا فوق ما هو مطلوب من المغفرة.

إذًا المغفرة: هي ستر الذنوب أن الله يسترها، فإذا سترها الله عز وجل دل على عدم المساءلة..

الصفة التي لها اقتران بالتوبة، العودة بعد الابتعاد الأواب الذي يعود بعد ابتعاد، وهذه متعلقة بالفاعل كما نرى، التوبة متعلقة بالفاعل أنه يتوب، بالإنسان، والمغفرة لها تعلق بالذنب، وهناك ما هو أزيد من الستر، التوبة متعلقة بالفاعل، والمغفرة متعلقة بالفعل، يستر الله.. وهناك ما هو أزيد من المغفرة وهو العفو.

والعفو هو المحو، ولذلك المغفرة هي ستر هذا الذنب، ولكن العفو هو إزالته، كأنه غير موجود، ولذلك العفو هو أزيد من المغفرة، عفى بمعنى ذهب أثره لم يبقى كأنه لم يوجد، ولذلك من صفات الله عز وجل العفو وطمس هذا الذنب.

ولذلك في الحديث: **(اللهم أني أسألك العفو والعافية)**، وصفة العفو وردت كما ذكرت في صفات غفار في خمسة مواطن، وكذلك صفة العفو وردت في خمسة مواطن في سورة «النساء» في ثلاث مرات، انظر إليها بماذا تقترن؟ ومن الذي يتعلق به العفو؟ كما نرى أن العفو أكثر تعلقًا بالمؤمن:

فقوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣)﴾ [النساء: ٤٣]، انظر إليها مع الطاعة، ﴿فَامْسَحُوا﴾ خطاب للمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)﴾ [النساء: ٩٩]، كذلك في سورة النساء.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩)﴾ [النساء: ١٤٩]، في الأولى أقرن الله عز وجل العفو بالمغفرة، سترها وبعد سترها أزالها، لكن لماذا اقترن في ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩)﴾، لماذا جاء اقترانها بعفوٍ قديرا؟ لأن الحديث في هذه الآية ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ عن المؤمنين في عفوهم عن الآخرين، ولذلك لا يكون العفو عظيمًا إلا عن مقدرة، كاقتران المغفرة بالعزة، فالعفو هنا في خطاب لله عز وجل ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾، فهو خطاب للمؤمنين في حال القدرة، العفو عند عدم المقدرة لا يمدح، لأنه مجبورٌ عليه، والإنسان إنما يمدح عند الاختيارات، يمدح الفعل عند وجود الاختيارات، أما مع عدم وجود الاختيارات كيف يمدح؟ ليس له إلا هذا السبيل؛ فهو دخله اضطرارًا أو دخله بغير اختيار، لكن إذا وجد الاختيار حينئذٍ يمدح الفعل لأنه اختار هذا وهذا.

فعفوًا قديرًا مع قدرته وهو قادر ألا يعفوه فعفى فكانت هذه الصفة أجل وأعظم، وفي سورة «الحج» –وهذا نفس المعنى الذي نحن فيه– في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)﴾ [الحج: ٦٠]، تعلق بما تقدم المغفرة، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢)﴾ [المجادلة: ٢]، إذًا ما هو الأبلغ؟ الأبلغ هو العفو الإزالة.

حتى قال بعضهم وهو قول للقرطبي في تفسيره كما وجدته يقول: «بأن العفو إنما بعد وجود العذاب والعقاب، وقد لا يوجد»، أي يعفو عنه بعد عذاب وعقاب أو عدم وجود عذاب وعقاب، ولكن المغفرة إنما تكون بغير عذاب ولا عقاب، فإذا صح هذا المعنى وإن كان بعض أهل العلم لم يرضه؟

نعيد الكلمة: «يكون العفو إما بعد عذابٍ وعقاب وإما بغير عذاب وعقاب، وأما المغفرة لا تكون إلا بغير عذابٍ وعقاب»، فمن أبلغ كل واحد أبلغ من الآخر في جانب، الجانب الأول: أن عاقبة العفو أعظم، لأنها إزالة محو بالمرة، العفو في العاقبة أبلغ لأنه يدل على إزالة الشيء ونهايته، وربما يكون مع عذاب وعقاب، وربما لا يكون، لكن في النهاية العاقبة لا تكون أبدًا، لكن المغفرة على هذا المعنى لا تكون أبدًا بعذاب وعقاب فتكون في الابتداء أبلغ، فالمغفرة في الابتداء أبلغ والعفو في الانتهاء أبلغ.

ونحن قلنا غفور يعني لا تكونوا مع عذاب وعقاب أبدًا، ولكنها سترٌ لها ففي الابتدائي هي أبلغ لأنها لا تكون مع عذابٍ وعقاب ولكن العفو في العاقبة أبلغ، ولذلك الله عز وجل جل في علاه كما ترون في هذا الباب وهو باب الذنوب التي يختلفها العبد له سبحانه وتعالى صفة الرحمة وهذا كله من رحمة الله، وأنه

سبحانه وتعالى الغفور وأنه سبحانه وتعالى العفو والغفار والغافر، وكلها دالة على عظم ما يتعامل العبد به مع ربه جل في علاه.

هذه الصفات الله يحبها في العبد.. التي ذكرنا هذه الصفات وتأتي صفة الرؤوف، هذه الصفات كما ترون يحبها الله عز وجل في العبد، فالله يحب العفوّ الذي يعفو ويحب الذي يغفر ويحب الذي يرحم، هذه صفات يحبها الله عز وجل، فمن تعبد من تعبد العبد لربه بهذه الصفات أن يتخلق بها، وإن كلمة تخلق بعض أهل العلم رفضها والأغلب هنا على استخدامها، وقال ابن القيم رحمه الله: «بأن الأبلغ هو أن ندعو الله بها»، أي اللفظ الأجلى والأعظم وهو القرآني ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، يعني فاعبدوه بها.

ومن عبادتنا لله عز وجل أن العبد إذا أذنب عليه أن يستغفر وعليه أن يتوب، ولما يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **(وأني لأستغفر الله وأتوب إليه)**، انتبه! هذا الاقتران ليدل على الكمال، ونحن قلنا الاقتران يدل على التعديل وعلى التكميل، فقال النبي صل الله عليه وسلم: **(وأني لاستغفر الله في وأتوب إليه)**، أي يطلب أن يستر الله علي وأن يعيدني إلى المقام الذي كنت عليه، ولذلك هو يستغفر الله بعد كل طاعة من أجل أن يعود إلى المقام الذي كان عليه وأن يزيد عليه **(وأني لاستغفر الله في وأتوب إليه)**، يستغفر الله كي يستر عليه ما لا يحب من مقام الضعف، فالإنسان خلق ضعيف، فلا يخرج من هذا المقام أبدًا، ومن مقام النسيان لا يخرج الإنسان من هذا المقام أبدًا مهما كان عابدًا لا يخرج من هذا المقام فلذلك هو يستغفر الله من هذه المقامات الإنسانية المتلبس بها قدرًا لا فكاكًا للإنسان عنها مهما بلغت درجته حتى لو كان نبيًا، قال صلى الله عليه وسلم **(وأني لاستغفر الله في وأتوب إليه)**، يستغفر الله ويتوب إليه ويعود إليه.

ولذلك جاءت هذه الصفات الإلهية التي نتعبد الله بها وندعو الله بها أولًا بأن يفعلها المرء في يومه عليه أن يستغفر ويتوب في كل يوم وفي كل لحظة، وكان يعد للنبي صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد يعدون له مئة مرة، عنِ ابنِ عمرَ قالَ: **(إن كنَّا لنعدُّ لرسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليَهِ وسلَّمَ في المَجلِسِ الواحدِ مائةَ مرَّةٍ: ربِّ اغفر لي، وتُب عليَّ، إنَّكَ أنتَ التَّوَّابُ الرَّحيم)**.

ويقول ابن القيم له كلمة جميلة قال: «لماذا يظهر النبي صلى الله عليه وسلم عبادته في هذا المقام؟ إظهارًا للضعف»، ليس فقط للتعليم وإنما إظهار للضعف، فلما يقوم المرء بعبادة من العبادات ربما تظهر شيئًا من قيمته، شيئًا من قيمته في كونه إنسانًا، ولكن إذا أظهر عبادةً فيها ضعفه، وهذه العبادة فيها

ضعفه، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم في المجلس يستغفر الله أمام الناس ليس فقط تعليمًا، وإنما إظهار لمقام عبوديته أن مقامي لم يخرج عن هذا في أني أستغفر الله وأتوب إليه، وهو مقام الاعتراف بالذنب، الاعتراف بالخطأ، الاعتراف بالضعف، الاعتراف بعبوديته لله وأنه عبد وأنه في هذا المقام، ولذلك كان يظهر هذا المقام.

فإذًا أولًا هو أن نتعبد الله عز وجل بهذه الأسماء في أن ندعوه بها، وأن نستغفر في كل وقت وفي كل حال، حتى بعد الطاعات؛ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾ [النصر: ١-٣]، استغفره اطلب مغفرته إنه كان ما قال غفار ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، يغفر فيعود إليك، فجاء بهاتين الصفتين المتلازمتين في حق مقام العابد حين اكتمال الطاعة وحين تمامها.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستغفر الله عز وجل بعد الصلوات وبعد العبادات في مِنى بعد أن يرمي الجمرات يقف بعد كل جمرة ويستغفر الله عز وجل طاعةً إكمالا وتكميلًا لعبوديته وإزالةً لما يحصل فيها من نقص، لأن الإنسان يستغفر فليس فقط الاستغفار -كما تقدم- ليس فقط بعد المعصية ولكن حتى بعد الطاعة من أجل بلوغ المقام التي تبلغها هذه الطاعة في مقامها الأجلى والأحسن والأفضل تكميلًا لهذا العبد فيما نقص عنه.

ومن تعبد المرء لربه في هذه الأسماء أن يتخلق بها أن يتعبد الله عز وجل بها من خلال تعامله مع الخلق أن يغفر وأن يرحم وأن يقبل من جاء إليه يعني مستغفرًا أو طالبًا للمغفرة وطالبًا الازالة، إزالة الذنب الذي يقع منه؛ ذلك لأن هذا هو الإنسان وهذا مقامه لا يمكن أن يخرج من حال النقص، لا يمكن، ولذلك مقامه أن يستغفر وأن يتوب، والله عز وجل هو الغفار الرحيم، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: فقط توضيح ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، العفو والمغفرة عرفناهم ولكن بالنسبة للرحمة، الدعاء بالرحمة نرجو التوضيح؟

الشيخ: الرحمة قد تكون بالبلاء حتى إن الناس يستخدمونها، -وسنأتي بالفرق بين الرحمة وبين الرأفة- ﴿وَارْحَمْنَا﴾ قد تكون بعد البلاء، يعني الآن الناس يقولون لما واحد يصاب بلأواء يقولوا: واللهِ رحمةً بك، يعني هذه رحمة من الله، فقد تكون الرحمة بعد البلاء، ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ قلنا بأن هذه لها تعلق بالذنوب، الرحمة لها تعلق بما هو أزيد من ذلك، الرحمة ليس تعلقها فقط بالذنوب، هي لها تعلق بالذنوب ولكنها أبلغ في ذلك، الرزق والعطاء كله من الرحمة، إزالة ما ينغص المرء هذا من الرحمة، هذه لا تعلق لها بالذنب، الذنب له تعلق بالسيئة، ولكن الرحمة لها تعلق بوجودك أنت، يعني الله خلقك مرحومًا، رزقك مرحومًا، أبعد عنك اللأواء مرحومًا.

فالرحمة بالغة لما هو قدري ولما هو شرعي، المغفرة مع ما قاله الإمام الغزالي لكن في القرآن لها تعلق بالذنب، لها تعلق بالمعصية، الرحمة؛ وجود الأم رحمة لا تعلق لهذا بالذنب وغيره، لها تعلق بالضعف لما خلقك الله فرحيم، فالرحمة أبلغ في هذا الباب؛ أبلغ لأنها شاملة ولكن حين اقترنت بها كانت خاصة بما هو قدري، على قاعدة: إذا اجتمع افترق، الرحمة إذا أُفردت دلت على ما هو قدري وما هو شرعي، يعني الله رحيم يرحم العبد بأن غفر له ذنبه ورحيم بأن يسر له أموره القدرية، فالناس يرحمونك برحمة الله، أمك ترحمك برحمة الله، فهو لما هو قدري، فعند الاقتران جاءت الرحمة لما هو قدري وبقيت الأمور ما تعلق بالذنب والمعصية في قضية ربنا اغفر لنا وارحمنا.

السائل: شيخنا في قوله عز وجل: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣]، ما الفرق بين العفو والصفح؟

الشيخ: العفو قلنا إزالة الشيء ولكن ما يترتب عليه، مثلًا: لو أن رجلًا قتل رجلًا عمدًا، فأسقط عنه حكم القتل، فهذا عفا عنه، لكن لم يسقط عنه ما ترتب عليه وهو الدية، فلما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ [البقرة: ١٠٩]، أراد الله منه أمرين أن يسقط ذنبه بأن لا يقتله مقتصًا، وأن يسقط عنه ما زاد عن ذلك وهي الدية، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾، فدل على الأمرين.

الآن لو أن رجلًا أساء قولًا وأهلك مادة، رجل سب على رجل ولكنه مع زيادته حرق سيارته حرق له بيته، فما هو المطلوب؟ ما هي أعلى درجات التعبد في هذا الباب؟ هو أن يعفو عن ذنبه وأن يصفح عما أتى من حقوق، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾، اعفوا عن هذا الذنب المعنوي الذي حصل من الإيذاء، وكذلك اصفح عنه فيما تعلق من ماديات لك، فجمع الله عز وجل خيرين عند وجود الذنب من العبد للعبد.

والصفح ليس من أسماء الله لأنه لا تعلق له بطلب شيء منه، يعني الله لا يطلب منه أن يعيد إليه ثمن الكتاب الذي أحرقه، لو أن رجلًا أفسد حقًا من حقوق الله لا يطلب منه الله أن يعود إليه بهذا الشيء، ولكنه يطلب منه أن يستغفره، وأن يطلب عفوه، وأن يغفر له، ولكن لا يطلب منه أن يرد إليه الشيء بخلاف الإنسان، الإنسان في حقوقه المادية يطلب منه أن يعيد إليه الشيء، فالله عز وجل ليس من أسمائه أنه يصف، وليس من صفاته أنه يصفح لأن هذه الصفة لمن يطلب حقه ثمن الشيء أو يطلب القيمي ما هو قيمي والمثلي ما هو مثلي أن يعود إليه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾.

هو مع القواعد الأولى تصبح هذه الصفات فقط للتمايز بينها مع وجود القواعد الأولى التي ذكرناها، يعني الآن كل ما ذكرناه في صفة الرحمة هي في صفة المغفرة، فقط نذكر ميزة هذه الصفة فيما تميزت به، العفو موجودة في صفة المغفرة، لأنه لا يقل العفو إلا بالستر، يعني أولًا يسترها فلا يسائله عنها، ولكن العفو بعد ذلك يأتي إليه فيزيله، فتصبح بعد ذلك الصفات التي لها تعلق في بابٍ واحد أقرب إلى الفهم فلا تحتاج إلى كثيرٍ من الشرح.

ثم ندخل إلى الصفات التي لها تعلق، مثل قضية أنه الخالق من أنه الخالق لكل شيء لها تعلق لأنه سبحانه وتعالى الأول والآخر والظاهر كل هذه لها تعلق بالخالق، وسنأتي إليها إن شاء الله، لكن نحن ندخل إلى الصفات حتى ننتهي منها، بقيت صفة واحدة في هذا الباب، وهي صفة الرؤوف إن شاء الله في الدرس القادم.

جزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن: الرحيم

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله وإياكم منهم آمين، آمين.

يلاحظ مما تقدم في تنوع الأسماء الدالة على معنى واحد، مع وجود الفوارق اليسيرة، لأنه لا يوجد ترادف كما تعلمون، وعلى الصواب أن الترادف في اللغة غير موجود، والترادف المقصود به: الكلمة تقوم مقام الكلمة من كل وجه، وهذا ليس من بلاغة العربية، بعض أهل العلم أثبته ولكنه في القرآن أبعد ما يكون؛ لأن كل كلمة فيها معاني جديدة، وفيها معاني خاصة بها، وحين تطلق ينتبه السامع إلى المراد منها، وإلى مراد المتكلم من هذه اللفظة في دقتها، وهذا من إعجاز هذه اللغة الشريفة، ولهذا الإعجاز العظيم في داخل اللغة الشريفة، استوعبت هذه اللغة الشريفة إعجاز القرآن.

ابن خلدون له كلمة رائعة لابد أن نذكرها هنا، يقول: «لماذا لم يكن في الكتب السابقة الإعجاز؟» والإعجاز المقصود به الإعجاز البلاغ اللغوي، فقال: «لأن اللغات التي نزلت بها الكتب السابقة لم تكن قادرة على استيعاب الإعجاز»، اللغات السابقة التي نزلت بها الكتب السابقة لم تكن كاملة، لتستوعب الإعجاز لو أنزله الله عز وجل في لغتها، الذي هو التشريع هو التشريع، والإخبار بالغيب هو الإخبار بالغيب ولكن في اللغة، فقال: «لما كانت تلك اللغات لم تصل إلى درجة الكمال في استيعاب الإعجاز فلم يكن هناك إعجاز».

لكن لما كانت هذه اللغة الشريفة قد اتسعت حتى قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: «لا يستوعب اللغة -هذه اللغة العربية- إلا نبي»، لا يمكن لأحد أن يحيط بهذه اللغة كلها إلا نبي، حتى أبو عمرو بن العلاء وهو من أئمة اللغة وجهابذتها، قال: «ما فاتنا من اللغة أكثر مما وصلنا».

ونحن اليوم لا نتحدث إلا بكلمات يسيرة من المعجم، يعني انظر ما نستخدم من المعجم كلمات يسيرة، ومع ذلك يمكن لا يستخدم الناس عشرين في المئة من لغة المعجم، وهذا المعجم الكبير انظر ما فيه من ألفاظ وما فيه من مصطلحات وما فيه جذور لغوية، ومع ذلك لم يصلنا إلا القليل مما فات، هذه اللغة شريفة ولذلك فتقت على لسان نبي وهو إسماعيل عليه السلام.

(أول من فُتق لسانه بالعربية هو إسماعيل عليه السلام)، كانت اللغة العربية قبله تسمى اللغة العروبية وهي لغة لم تبلغ درجة الكمال، فلما جاء إسماعيل عليه السلام وسكن مع جرهم قبيلة عربية، بعد أن وضعه والده السيد الكريم إبراهيم عليه السلام وضعه في مكة فجاءت قبيلة وهي قبيلة جرهم فأسكنته وولته الزعامة، والماء بقي في ملكه على شرط أمه، فقال صلى الله عليه وسلم: **(أول من فُتق لسانه بالعربية هو إسماعيل عليه السلام)**.

فانظر كأنها وحي من الله سبحانه وتعالى هذه اللغة، فاللغة دقيقة ومن هنا هذا الباب ينفعنا في موضوع أسماء الله وصفاته، أن الله سبحانه وتعالى بتعدد أسمائه إنما يريد أن يبين لنا تعدد الأبواب في الدخول عليه، تعدد الأبواب من رحمة الله أن تدخل على الله من باب واحد ضيق، يعني انظر مثلًا من حكمة تشريع ربنا جل في علاه أن المرء لا يذكر ذِكرًا واحدًا، وإنما تتعدد هذه الأذكار، لتتعدد أبواب الطاعة ويتعدد أبواب العطاء.

أول شيء هو تعدد أبواب الرحمة الإلهية ليتعدد الدخول، فكان الصحابة مثال ذلك يحبون الآيات، ولما مات النبي صلى الله عليه وسلم بكوا، لماذا بكوا؟ أنظر إلى هذا السر في بكائهم، قال أبو بكر لعمر أخذه ليسلم على أم هانئ قال: **(فدخلوا عليها فبكت فقالوا: ما يبكيكِ؟)** أم هانئ هي أم النبي في الرضاعة، هي امرأة حبشية جاءت مع أبرهة في غزو الحبشة كما يذكرون واستقرت في مكة وكانت هي مرضعة النبي صلى الله عليه وسلم وحاضنته، فدخلوا عليها فبكت، فانظر لهذا السر **(فقالوا: ما يبكيكِ؟ ألا تعلمين أن ما عند الله خيرًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم)**، يعني هل تبكين أنه قضى وانتهى فالذي ذهب إليه خير مما تركه، **(قالت: ما يبكيني ذلك، وما أعلم إلا أن ما عند الله عز وجل خير لرسوله، ولكني أبكي لانقطاع الوحي من السماء)**، منافذ العبودية انحصرت، خلاص انقطعت.

فتعددت أسماء الله عز وجل لتعدد طرق التعبد لله عز وجل، يدخل إليها العابد من هذا الباب، ومن هذا الباب، يدخل إليها ولذلك نحن نرى أن هذا الباب الذي فيه الرحمة أنه بابٌ متعدد، والأسماء فيه قد كثرت، الأسماء هذه الرحمة الإلهية في الدخول عليه، في العطاء الإلهي في شرعه في قدره، في تعامله مع عباده المؤمنين ومع بقية البشر وبقية خلقه تعددت هذه الرحمة، فلذلك تجد عندما تريد أن تعود إلى أصل واحد تجد الرحمة ولكنك حين تتأمل تجد هذه الأسماء قد كثرت مع وجود فوارق يسيرة من أجل أن تلائم حال الناس.

فالناس لهم أحوال في قلوبهم ولهم أحوال في حياتهم تلائمهم الأسماء هذه ليدخلوا إليها، وسنرى هذا مثلًا عند اقتران الأسماء بالشكر، بالمغفرة، بالرحمة، كيف تقترن هذه الأسماء لماذا؟ لأن أحوال الناس متعددة، هناك الذي مقامه الشكر، هناك من مقامه أن يدخل من باب المغفرة هناك من مقامه أن يدخل باب الحلم، من أجل أن يقول الله لنا ما من أحد في الوجود إلا وله بابه للدخول على عطاء الله، والدخول إلى عبودية الله، وهذا يجب أن نفهمه.

فتعددت أسماء الله عز وجل بمثل هذا التمايز اليسير بين اسم واسم من أجل أن يدخل الناس جميعًا، لصلوح هذه الأسماء لصلوحها لكل أحد بحسب حاله للدخول إلى عبودية الله عز وجل، هذا مهم في تعبدنا لله عز وجل أنت في أي حال أنت؟ أنا في حال العطاء، فيصلح لك هذا باب تدخل فيه، هذا في مقام الذنب تدخل من هذا الباب، أنا في مقام الذنب والانكسار، هذا يصلح لك، هذا في مقام الذنب وعلو النفس، يصلح لك هذا المقام، وهكذا في كل حال هناك باب تدخل فيه على الله عز وجل.

فتعددت أبواب الدخول على الله بتعدد أسمائه على اختلاف أحوال الناس، وهذا ينبغي أن نفهمه ونعيّه من أجل أن نرى أننا في كل حال، اعلم يا عبد الله إنك في كل حال أنت عليه هناك ما لا تغلق الأبواب دونك لا يوجد حال أنت فيه قد أغلقت عليك أبواب الدخول على الله لا يوجد، ومن ظن ذلك فقد كفر بالله، وقع في اليأس، ما مقامك أنت، أي حال أنت، هناك باب يصلح لك في حالك هذا مع دقته وحاله الدخول على الله.

ولذلك يعجبني ما ورد في الرسالة القشيرية وهي كلمة بليغة، قال: «مالنا ندعو الله ولا يستجيب لنا؟ قال لأنكم لم تعرفوه»، يعني أي خاطر في قلبك لا يلائم حالك فقد انتقصت عبوديتك، تصور أن رجل يدعو وفي قلبه شك أن الله لا يستجيب له، أن هناك ثمة باب لا يصلح للدخول عليه فيغلق دونه، لا يستجاب له لأنه لا يعرف الله، هو جهل بابًا من الأبواب الذي يصلح له، جهل باب أو أبواب لكل واحد منا ليس بابًا واحدًا، ولكنها أبواب متعددة، لكل أحدٍ منا أبواب متعددة في حال واحد.

أنت تريد العطاء الإلهي فأنت جهلت الله عز وجل، هذا الباب الذي تدخل منه، لا تدخل باب مغلق في نفسك، مغلق دونك لأنك لا تعرفه، فأنظر إلى هذه الكلمة العجيبة هذه من هذا العالم، قال: «لأنكم لم تعرفوه»، ما ربطها بالمعصية قال: «لأنكم لم تعرفوه» فقط، فالذي لا يعرف الباب الذي يدخل منه لا يصل إلى مراده.

ما زلنا مع الأسماء التي لها تعلق بالرحمة، تكلمنا عن الرحمن والرحيم والغفار والتواب والغفور والآن نتابع الكلام عن بقية أسماء الله عز وجل التي لها تعلقٌ بهذا الباب، وهذه الصفات لو تأملتها لوجدتها الأغلب والأكثر، هذا باب الرحمة وقلنا أنه أعظم باب للدخول على الله، وهو الباب الذي هو أبلغ من كل باب في أسماء الله وصفاته، أبلغ من أي باب، قال صلى الله عليه وسلم: **(إنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتابًا قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إنَّ رَحْمَتي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهو مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ)**، خلص قبل أن يخلق الله الخلق رحمهم، قبل أن يشرع الشرع رحمهم، قبل أن يحاسبهم يوم القيامة رحمهم، قبل أن يتعامل معهم بما يستحقون رحمهم، فقبل كل نظر إلهي فعله الرب في العبد أو يستحقه العبد ففعله به على جهة العقوبة أو المثوبة أولًا تقدمت الرحمة.

انظروا إلى هذا المعنى وانظروا إلى ما في نفوس الناس، لو تأملت نفوس الناس في التاريخ الإنساني كله وفي عالم المسلمين، لوجدت أن هذا الباب هو الأضعف للأسف في النفوس، هم لا ينظرون إلى الله إلا على جهة العقوبة، وهذا من جهلهم، فيأتي الجاهل ويأتي العامي، لو سألت العوام كلهم يعني لو جئت إليهم وخبرت نفوسهم لوجدت أن هذه أوامر كثيرة، في الشرع أوامر كثيرة، نصلي خمس صوات،

أذكر لكم واحد في السجن عندنا أسلم وأحب الإسلام وصار جيدًا ثم تركه، وصار بوذيًا، فأحد الإخوة يسأله لماذا تركت هل الإسلام باطل؟ قال: والله أنه الحق وهو خير دين، ولكن الأوامر كثيرة، فتقوم تصلي تغسل وجهك وكل يوم وكذا، قال: وأما البوذية فتشعل هذا البخور وتوقف قبل ما تنام دقيقتين ثلاث أمامه، وانتهى الموضوع، لا وضوء ولا جنابة، انظر نظر إلى الأوامر أنها تكليف وليست عطاء إلهيًا، هي هذه الأوامر عطاء إلهي، الله أمرنا عطاء إلهيًا لنا.

يعني عندما يعطيك رب العزة أن تتوضأ أن تصلي أن تزكي انظر ماذا سماها، خذ من أموالهم صدقة تطهرهم، وتذكيهم بها، هي طهر لك من أجل أن تتطهر، أمرك أن تذكره من أجل ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد: ٢٨]، واحد يذهب إلى الطبيب يدفع أموال لوجود التعب في نفسه والألم والمشقة، والقرآن يقول: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، يعطيك العلاج.

فنظر الناس إلى التكاليف الإلهية نظروا إليها على معنى الثقل والمشقة، إلى معنى الكُلفة وليس معنى الكَلَف، التكليف يبتدأ بكُلفة إلى درجة الكَلَف، كُلفة يعني فيه مشقة ولكن درجة الكلف إلى درجة العشق والمحبة، فلانٌ كَلَفٌ بفلان يعني يحبه ومتعلق به إلى درجة الهوى، أعلى من الحب.

فلما الناس نظروا إلى الشريعة وإذا هي تكاليف ومشقات وتعب، فالأسف بعد ذلك هذا صبغ عقولهم بصبغة سيئة بالنظر إلى ربهم، نظروا إلى ربهم أنه يكلف ويتعب عباده بالأوامر، والمؤمنون والصحابة لم يكونوا ينظروا هذه النظرة، كانوا ينظرون أن التكاليف هي باب محبة، هي باب عطاء، وباب كرم، هي أبواب تعطى.

فلذلك إذا نزلت الأوامر سعدوا بها ونظروها أبوابًا جديدة من أجل سعادتهم، فإذا المرأة تعامل مع الله على أنه الرحيم، كان أسعد الناس، وصل إلى درجة الحب لله، الناس يحبون الله، يسأل حتى الذين في المساجد، هل تحب الله، فهو ينظر إلى من هو أعلى منه في الدنيا، ينظر يقول أخ ظهري يؤلمني، ما رئيت إلا ركبي توجعني، ما ينظر إلا إلى الأمراض، ولا ينظر إلى العطايا.

ولذلك في الحقيقة شاكر السياب هذا شيوعي شيعي، ولما صار شيوعيًا بعدها ألّف كتابًا فيهم وسبهم، الشيوعيين كذابين دجالين، ولكنه بقي علمانيًا وهو أصلًا نحيف ومريض، ففي أخر عمره أخذ إلى الكويت، وعولج هناك، على حساب بعض أصدقائه الكويتيين، فكتب شعرًا عجيبًا، وقال هذه الكلمات، أنا لما أقرأها فهمت منها شيء واحد أنه لم يصنعها صناعة، يعني الشعر يسمى صناعة الشعر، يعني أنت تصنعه، تقوم تكتبه هذه مثلًا أردت أن تضع لبنة فوق لبنة هذه زائدة هذه ناقصة وهكذا، فأنت تشعر أنه لما كتب هذا الشعر قد تعب فيه، عرق فيه، لكن إذا سمعت هذه الكلمات من هذا الشاعر تشعر أنها لا يوجد فيها صناعة أبدًا:

لكَ الحَمدُ مهما استطالَ البلاء	ومهما استبدّ الألم
لكَ الحمدُ إنّ الرزايا عطاء	وإنّ المِصيبات بعض الكَرَم

درجة من الرقي، وصل في حالة إنسانية، ولا ندري على أي شيء مات، لكن درجة من الرقي الإنساني غريبة جدًا، لك الحمد مهما أستبد البلاء، ولك الحمد مهما أستطال الألم، لك الحمد أن بعض الرزايا عطاء، وإن المصائب بعض الكرم.

يعني هذا فهم الصحابة، هذا فهم التعبد في أعلى رقيه، هو نظر إلى هذا الجانب، هو دخل إلى هذا الجانب، لكن هذا في نفوس المؤمنين أنه نظر أن كل ما يحصل هو رحمة، ومن هنا فالدخول في اسم الله الرؤوف انظر الفرق بين الرحمة والرأفة، الرؤوف من الرأفة، ما هي الرأفة؟ هي شدة الرحمة، إذا بلغت الرحمة نهايتها فهي الرئفة، ذلك لأنه يمكن أن تكون الرحمة بالبلاء، ولا يمكن أن تكون الرأفة بالبلاء، يعني الناس واحد يمرض فيقول له: رحمة بك، الله رحمك، أخرجك المرض من كذا منعك من كذا، مثلًا رجل يمرض

فتجده كان يشرب الخمر فتركه، والله رحمة بك، فتكون الرحمة بالبلاء، مع البلاء هي رحمة، بل يكون البلاء هو الرحمة.

يعني قد الإنسان يفقُر يقول له: والله الفقر رحمةً بك، نعرف لما كنت غني والله الفجور تأتيه من كل باب، فالله عز وجل رحمك أن أفقرك، تكون الرحمة بالبلاء، لكن لا يمكن أن تكون الرأفة بالبلاء، ولذلك يقول الأمام القرطبي رحمه الله في هذا الباب، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [النور: ٢]، ما قال رحمة، لأنها لا تصلح في هذا الباب، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، لماذا؟ لأن الرأفة تمنع الضرب، لكن الرحمة لا تمنعه، فأن ضرب العاصي رحمة من الله، إقامة الحد على القاذف أو على الزاني هو رحمة من الله، لأنه يتطهر بهذا الحد في هذه الدنيا، الله يطهره فهي رحمة، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾، لأن الرأفة هي التي تمنع الضرب، أنت تضرب ابنك وأنت رحيم به.

ومن هنا انظر باب الرحمة هو الأشمل والأعظم ولكن هناك باب أعظم منه، وهو الرأفة، لكن ما هو الأعم والأبلغ في تعامل ربنا مع البشر هو الرحمة، لأنها الحكمة، فإذا تجلت في بعض مواطنها بأن يرأف الله عز وجل فهي على معنى خاص، ولذلك في الأغلب أن الرأفة لا تكون إلا للمؤمنين، الاسم.

إذًا رأينا ما معنى الرؤوف وتميز هذا الاسم عن اسمه سبحانه وتعالى الرحيم ولذلك اقترن به في قوله سبحانه وتعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)﴾ [البقرة: ١٤٣]، في أي باب هذه الرأفة جاءت؟ جاءت في باب الحسنات، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ يعني صلاتكم، وهذا دليل عند أهل العلم على أن الصلاة من الإيمان وأنها رد على المرجئة الذين يقولون الأعمال ليست بالإيمان، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ يعني حسناتكم، لماذا؟ لأن الصحابة صلوا ستة عشر شهرًا متوجهين إلى بيت المقدس، فلما أمرهم التوجه إلى الكعبة، فأنهم شكوا هل تبقى هذه الحسنات لنا أو لا تكون، فالتعامل مع الحسنة لا عقوبة فيه، لأن الحسنة هي طيبة من كل وجه، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، فجاءت في هذا الموطن.

وتأتي كذلك الرأفة الإلهية في الخلق، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧)﴾ [النحل: ٦-٧]، فجاءت في الخلق، العطاء الإلهي الذي فيه هذه المنة الإلهية التي لم تكن بالغيه إلا بشق الأنفس، فهذا الأمر يمكن أن تصل فهذا من رحمة الله، ولكن لن تصل إليه إلا بمشقة هذا من الرأفة الإلهية.

وتأتي كذلك في القدر، تأتي الرأفة في التقدير الإلهي، قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧)﴾ [النحل: ٤٥-٤٧]، حتى في تقدير العقوبة رفع عنهم، نحن قلنا الرحمة، لكن هنا باب رفعها مع استحقاقهم لباب الرأفة بهم.

ولذلك هذه الصفة، وردت في عشر آيات من القرآن الكريم، وورد في قوله تعالى في سورة «الحديد»: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩)﴾ [الحديد: ٩]، فتعلقت كذلك بالتشريع، فتشريعه سبحانه وتعالى رحمة، هذا ما يتعلق باسمه جل في علاه الرؤوف.

وكما قلنا ورد الرؤوف في القرآن في عشر مواطن، واقترنت بالرحمة في ثمان مواطن، ولذلك قلنا إن الصفة -نعيد هذه الجملة لأهميتها- إن اقتران الصفة بالصفة من أجل التكميل والتعديل، وها هنا الرحمة، قلنا الرحمة يمكن أن تقع مع البلاء، فإذا اقترنت مع الرأفة دلت على أنها رحمة بلا بلاء، فهذا كأن يقول له أنت رحيم، ورحيم، ورحيم، فتكررها يعني عدم جواز ضدها في أي وجهٍ من الوجوه، حين تتكرر حين تقول لفلان أنت كريمٌ، وكريمٌ، وكريمٌ، فإنما أنت أردت أن تبين خلوص هذه الصفة من ضدها حتى لو وجد على معنى من المعاني يمكن أن تكون قوي، تقول أنت قوي، فإذا قلت: فلان قوي، فلا يعني أنه قوي من كل باب، ولكن كلما كررتها دلت على خلوصها مما يعارضها.

فلما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، دلت على أن الرحمة هنا خالصة من ضدها، فاقترنت في ثمان آيات بالرحمة.

السائل: قالوا الرؤوف هو اللطيف في جلب المنافع، والرحيم هو اللطيف في جلب الضرر أو الأذى، يأتي الأذى مع الرحمة؟

الشيخ: هذا ما شرحناه.

الصفة الثانية التي لها تعلق بما نحن فيه، هي صفة البر، والبر هو كثير البِر كثير العطاء، سبحانه وتعالى وهذا من رحمته، وعطاءه سبحانه وتعالى في هذه الدنيا في ما أعطا الناس من النعم، أنظر هذه النعم يغرق المرء فيها من صباحه إلى المساء، من يوم مولده من بطن أمه إلى يوم وفاته عطاء الله عز وجل، بأن أعطاه هذا الجسد، أعطاه هذه الصورة، أعطاه هذه النعم نعمة النطق، أعطاه هذا النظر، أعطاه هذه الخلقة الجميلة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)﴾ [التين: ٤] وأعطاه بعد ذلك الزوجة وأعطاه الولد.

وأنا دائمًا أسال عندما يبلغ المرء الشيب لو قلت لكل أحد ماذا كان حلمك وأنت صغير؟ دائمًا هذه انظر إليها وتأملها، وانظر إلى ما أنت فيه هل هو أعظم مما تمنيت أم أقل أم مساوي، لو نظر الإنسان لوجد أن ما أعطاه الله عز وجل أكثر مما تمناه، وأكثر مما حلم به، وأكثر مما اشتهاه، ولكن لابد من النظر هنا أن عطاء الله عز وجل مستورٌ بالأسباب.

السبب: أن المرء لا يرى يد الله، لجهله لأنه يرى السبب فقط اليد الإلهية العطاء الإلهي وفعل الله عز وجل في الغيب مستور في عالمنا بالأسباب، فالرجل الذي حين يعطيك المال، أنت لا تتذكر أن الله هو الذي أعطاك، لما الزوجة تلد يقول لك الزوجة ولدت الله يجزيها الخير، ما شاء الله، الله رزقنا منها الولد، هو لا يرى يد الله، ولما يذهب إلى العمل فيشتغل ويكد، يقول لك والله ما شاء الله تعبت فالحمد لله حصلت المال بجهدي، هو يرى فقط الأسباب في هذه الدنيا، لكن لا يرى التوفيق الإلهي، لا يرى أن الله كيف وفقه وفي هذا كيف قد حصل له الكثير، لا يرى.

فإذًا أولًا العطايا قد حجبت على الإنسان بظواهر الأسباب وبذلك يفوت النظر إلى الله، يعجبني حكمة يذكرونها في بعض الكتب، قال: جاءت أربع نملات إلى حرف جيم، فقالت النملة الأولى: ما أجمل هذا الحرف! حرف جميل!، والثانية قالت: لا ليس الجمال في الحرف، الجمال في القلم الذي كتبها، فقالت الثالثة: ليس الجمال في القلم الجمال في اليد التي حركت القلم، الرابعة قالت: ليست الجمال في كل هذا، الجمال في الذي خلق كل هذا، وهذا من رقي الإنسان بالنظر إلى يد الله.

ولذلك في هناك يقولون: «حمد كل شيءٍ حمدٌ لله»، يعني عندما أنت تشكر واحدًا من الناس لشيء عليك أن تشكر الله قبله، هو الذي يسره لك، وإلا لو ترك الناس على ما هم عليه لقست قلوبهم والبطش ولم يقع منهم العطاء ولم يقع منهم شيء، ليس فيه رحم المرأة قوة لأن يعطيك الولد، وليس في العمل قوة لأن يعطيك المال، وليس هذا يحصل منه أي شيء، الله عز وجل هو الذي يقدر المقادير.

والأمر الثاني الذي يمنع رؤية العطاء الإلهي، وهو أن هذه الدنيا جعلت فقط مثال تذوق الآخرة وليست مستقر لتمام النعم وكمالها، ما أعطى الله عز وجل من النعم في هذه الدنيا مذاق، نموذج، من أجل أن تعرف مذاق وحقيقة الآخرة، فلذلك يحصل النقص في هذه الدنيا بالنعم، النعم لابد أن تنتهي إلى الزوال، تشرب تأكل تنتهي إلى القاذورات، يأتي أهله فيذوق أفضل النعم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء)**، ثم ينتهي إلى الرهق والتعب، وهكذا فالله عز وجل يعطيه الشباب ثم ينتهي إلى الشيبة والعجز.

فالناس ينظرون إلى نهاية النعم، ونظرهم إلى نهاية الزعم يجعلهم في حالة تخوف بعد حصولها، يعني المرء يبقى متمنيًا النعمة حتى إذا جاءت خاف من ذهابها هو مسكين تعبان ومرهق من أجل تحصيلها، فإذا حصلها خاف ذهبها، وهي ذاهبة، ولأنه لا يفقه سر تقديرها ومقاديرها في الدنيا، لا يفهم، ما هو سر قدر هذه النعم الإلهية في الدنيا؟ من أجل أن تذوقها فتعرف بعض الجمال في الآخرة، وإلا ما حصل لك الخطاب الإلهي، يعني عندما يقول لك في حور عين، لو أنك لا تعرف مذاق المرأة لا تعرف هذا الحُسن لا تعرف هذا الجمال، لولا أن وضع الله في قلبك هذا التذوق في الدنيا لما عرفت معنى الخطاب الإلهي.

ولذلك لهي الحُيوان ليست هي الحياة، ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤)﴾ [الفجر: ٢٤]، فعدم إدراك المرء لمعنى العطاء في الدنيا؛ يحجب عنه رؤية النعم، فاستل في علاه البر أي كثير البر والإحسان والعطاء في هذه الدنيا وهذا ينطبق على قدره –العطاء الإلهي في القدر– وينطبق على شرعه.

ولذلك وردت صفة البر، في آية واحدة في سورة «الطور»، ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)﴾ [الطور: ٢٨]، فكان يعطينا عطاءً عظيمًا وهذا العطاء مقترنٌ بالرحمة.

والصفة الثالثة في هذا الدرس متعلقة برحمة الله عز وجل وهي صفة الحليم، حلمه، والحلم يعني هي صفة لله، والحلم لها تعلقٌ بالصبر والتعقل والأنى، ولذلك سمي العقل، حِلما، فجمعت على الحلوم، يعني أصحاب عقول؛ لأن العقل هو الربط، هو أصلًا كلمة العقل من الربط، يقال عقل الدابة، انظر كلمة الدابة كم دخلت في العربية، أول شي عقل الدابة فستوفي منها العِّقال: أي الذي يربط، وأخذت منها العاقلة؛ أي الديا، كلها من ربط الدابة، فأصلها ربط الدابة، أخذ من العاقلة لأن الأولياء أهل القاتل كانوا يأتون بالدية فيربطونها عند خباء أولياء المقتول، فسمية العاقلة.

كما الناس لما يقولوا: طنيب، أتت من طنب الخيمة الكبيرة، طنب: أي العمود الذي تقف عليه الخيمة، فإذا دخل اللاجئ التجئ إليه وأخذ به هذا العامود وبهذا يسمى طنيب، انظر لبلاغة العربية وروعتهم، وأخذت العاقلة بالزوجة، فقيل عقيلة فلان، عقيلة يعني زوجته لماذا؟ أي مربوطة في البيت ليست «سايبة على رأسها وطالعة من بيت أبوها رايحة لبيت الجيران»، فهي مربوطةٌ في بيتها، عاقلة، لأنها في بيتها وتأتي على معنى أنها لا تخرج للخدمة، فلذلك هي زوجته عقيلة.

ولذلك سمي العقل عقلًا بهذا، وسمي العقل بالحلم لأنه يؤدي إلى التعقل الأنى، يربط المرء من السفاهة يربط المرء من التعجل، لأن العجلة في الإنسان تمنعه من التفكر وتمنعه من إتيان الفعل، فالله عز وجل حليم جل في علاه، أي أنه صاحب الحلم الذي لا يعجل العقوبة، ولا يعجل التعامل مع عباده بما

يستحقون، فسبحانه وتعالى رحيمٌ بهم، وحتى لو وقع منهم ما يمنع الرحمة لا يسلب منهم الرحمة ولكنه يحلم عليهم، والحلم في الدنيا بما يعطيهم من عطاء، ويحلم عليهم بما يمنع عنهم العقوبة ويسارعها.

ولذلك وردت في القرآن الكريم صفة الحلم، إحدى عشر مرة، ولذلك الله عز وجل وصف نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥)﴾ [هود: ٧٥]، قال الله عز وجل عن نفسه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)﴾ [البقرة: ٢٣٥]، لماذا جاء الحلم هنا؟ فأما الغفران يعني قبل توبتهم ولكن هذه قبول التوبة لم تقع إلا بعد حلمه عليهم، يعني هم وقع منهم معصية، فلو عاقبهم لما تابوا، لما أجلهم بأن يتوبوا.

فربما المرء يفعل المعصية اليوم ويتوب منها بعد أسبوع، أو بعد شهر يقبله الله أم لا يقبله، فوقع قبول المغفرة، لكن هذه قبول المغفرة منه، قلنا معنى غفور: أي يستر الذنب، فلم تقع المغفرة إلا بسبب الحلم، ثم قبل الله توبته فغفر له، لم تقع إلا بسبب حلمه عليهم، وإلا بمجرد أن يأتي المرء المعصية وقعت العقوبة، ما في مغفرة، فوقع اقتران المغفرة بالحلم في باب المعصية.

وانظر إلى قول الله جلا في علاه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)﴾ [البقرة: ٢٢٥]، يقول الطاهر عاشور عليه رحمة الله في كتابه «التحليل والتنوير»، عند هذا المعنى الذي ذكرناه، ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ﴾، فلم يسمع المرء أن هناك مؤاخذة فيرتجف قلبه، وكلمة مؤاخذة –هذه مني ليست من الطاهر عاشور، إنما الطاهر عاشور قال الذي قلناه أول اقتران المغفرة والمعصية–.

انظر هنا إذا سمع المرء، ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، إذا فعلت سأعاقبك، فلئلا لا يقع هذا المعنى على معنى اليأس بالعقوبة الله طمنه أعطاه، نحن قلنا الصفة الثانية من صفات الاقتران: التعديل، عدلت هذا، نحن قلنا هذا هو للتكميل، هنا التعديل لأنه إذا وقع قوله تعالى، ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، فأول ما يتبادر والله هو الذي يقول إنما تأجل العقوبة لمن لا يقدر عليه.

مثال: رجل هارب من رجل، فإذا أطلق عليه حكمًا بالعقوبة وتأخرت العقوبة فلماذا هذا التأخر يقع؟ لعدم القدرة، هذا فالت منه، ولكن حين يقع هذا التهديد من الله، هذا المعنى غير موجود، إذن لا يبقى إلا تعجيل العقوبة، أنظر إلى رحمة الله، لئلا يقع في قلب العبد هذا المعنى، فقال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

ووقع قوله سبحانه وتعالى باقتران الحلم بالغنى، في سورة «البقرة»، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)﴾ [البقرة: ٢٦٣]، يقول ابن القيم: «هذا الاقتران

له سبب، لأن الحديث يدور على تمنن العبد بطاعته»، الحديث يدور في هذا الموطن من سورة البقرة عن المن والأذى، فحين يتصدق العبد ربما يقع في قلبه المن، الله يقول له: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾، ومع غناه يقبل منك فهو حليم.

يعني إذا وقع المن من العبد، فالله لا يريد منك شيئًا الله هو الغني وإنما أنت تتصدق لأجل نفسك، العبد لا يفعل الفعل لحاجة الله إليه ولكن لحاجة العبد لله عز وجل، فالله عز وجل غني قبل أن يخلق الخلق هو غني والله عز وجل له صفات المحامد والصفات الحسنى قبل أن يخلق الخلق، فلذلك هو الغني، وحتى لا يقع هذا المعنى على المعنى الذي يتم به التخويف فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾، حليم جل في علاه.

وقد اقترنت صفة الحلم كذلك بأعمال القدر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)﴾ [فاطر: ٤١]، وهذا دليلٌ على أن السماوات والأرض باقية ولا تزول لحلم الله على عبده مما يأتي من معاصي، ولذلك هذا يؤخذ مع قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، في سورة «النحل» وفي سورة «فاطر».

فلذلك اقترن حلمه في شرعه وفي قدره وفي مغفرته جل في علاه، أما قوله في سورة «التغابن»، اقترن الحلم بالشكر صحيح، ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧)﴾ [التغابن: ١٧]، وبعد الطاعة كان من سنته صلى الله عليه وسلم يستغفر لأنه ما من طاعةٍ يبلغ بها العبد المقام الإلهي، فيقبلها منه شاكرًا ويغفر له على تقصيره، ويحلم عليه على تقصيره، فالله عز وجل شكر له فعله بأنه ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾، الله شكورا لما تفعلون، ويحرم عليكم لما يذهب من معاني الكمال، ولذلك اقترن الشكر بالحلم في هذا الموطن من القرآن.

ومن الصفات التي تقترن بالرحمة الإلهية كذلك صفة المنان، قبل أن نتكلم عن صفة المنان، ننبه أن صفة الحنان غير صحيحة حتى أنها لم ترد على جهة الفعل لا في الكتاب ولا في السنة، يعني صفة المن موجودة في القرآن، ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٧]، صفة، نحن لا نتكلم هنا على كل ما ذكر الله من الصفات له في القرآن، ولكن نذكر ما ورد في الكتاب والسنة، من الأسماء له، نشرح الأسماء له.

ففي القرآن ورد أن الله يمن ولكن لم يرد أبدًا، حتى يأتي أحدهم ويثبت صفة الحنان، لم يرد قد في الكتاب أن الله يحن، بخلاف يمن، فوردت والسنة عند كثير من أهل تفسر القرآن، يقول ابن القيم له كلمة

عجيبة في بدائع الفوائد، قال: «ويتفاوت الناس في العلم بميزان»؛ أي يتفاوت الناس بالعلم في معرفتهم أين هذا الحديث في القرآن، العالم هو الذي يعرف أين هذا الحديث من القرآن، ولذلك من عجائب كلام الشافعي رحمه الله كثيرًا ما يقول: «وهذا المعنى يوافق ظاهر القرآن» وهذا من فقه وسر إدراكه للقرآن يقول: «وهذا المعنى يوافق ظاهر القرآن»، وأنت تتعجب أين هو، مرات يشرح لنا، وفي الكثير يترك ظانًا أنه يحدث أهل زمانه لا يحدثنا.

القصد من ذلك: أن الحنان ليست من أسماء الله عز وجل، وإنما وردت المنان في سنة النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي ذكر فيه أنه سأل الله باسمه الأعظم، **(اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ بأنَّ لَكَ الحمدُ لا إلَهَ إلَّا أنتَ المنَّانُ بديعُ السَّمواتِ والأرضِ يا ذا الجلالِ والإكرامِ يا حيُّ يا قيُّومُ)**، فوردت صفة المنان في السنة وهذا حديث صحيح رواه الأمام أحمد، وهناك حديث ورد فيه الحنان وهذا لا يصح، وهي من زيادات في الحديث التي لم يقبلها أهل العلم.

وما هو المن؟ في اللغة المن هو القطع والذهاب به، ولذلك سمي الموت بالمنون، ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠)﴾ [الطور: ٣٠]، فالموت هو المنون، لماذا؟ قال لأنه يضعف المرء حتى يقطعه، يقطع عمره ويذهب به، فإذن المن هو القطع والذهاب به، فالله نهى عبيده عن المن، قال: ﴿لَا تَمُنُّوا﴾ [الحجرات: ١٧]، كيف اقترن هذا المن على المعنى القطع، ذلك لأن المرء إذا من على آخر قطعه، إذا عد عليه حسناته، إذا حدثه عما أعطاه فجعل يمن عليه، أعطيتك، قطعت ظهري كسرتني، فنهى الله عنه، وذلك المن من العبد ممدوح من جانب مذموم من جانب.

فالمن إما أن تعطيه حتى ينقطع ظهره، وإما أن تعد عليه بلسانك بعد ذلك فتقطع ظهره، فالأول ممدوح، أعطيه حتى ينقطع ظهره، أنفق عليه، إذا أب أنفق على أبنائك حتى ينقطع ظهرهم، ابن عباس لما أراد أن يحمل فقال: أحملوا معي، **(قال أعطني يا رسول الله فقال: خذ، فجعل يحمل حتى لم يستطع القيام فقال أعينوني، قال: لا نعينك)**، فأنت أعطيه حتى ينقطع ظهره.

فالمن من العبد ممدوح من جهة الفعل مذموم من جهة القول، لا تمن، ولذلك قال الله عز وجل قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ [الحجرات: ١٧]، يعني يذكرون لك الأقوال قطعًا لكن نحن أسلمنا فاتبعناك فنصرناك، هذا مذموم، وأول مراتب تربية التي رق الله عز وجل به رسوله أن منعه من هذا، لا تعدد لا تنظر إلى نفسك أنت لا شيء، ستمشي في هذا الدنيا وعاءً لأقداري التي أنصرك بها، أنت فقط مجرد وعاء، لأنزل عليك الكرامات والعطاء وليس منك شيء، وهذا من بداية السور، وهذه ثاني سورة في سورة

«المزمل»: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦)﴾ [المدثر: ٦]، إياك لا تنظر لنفسك النظر أنك تفعل شيئًا، كل شيءٍ بعطاء الله عز وجل لك، وأنت لا شيء وهذا من أعظم التربية.

فإذا نظر المرء إلى نفسه أنه شيء بداية المهلكة، وبداية الغفلة عن حمد الله وشكره، وبداية الغفلة عن نسبة الحمد لصاحبه، ولذلك يعجبني ابن القيم رحمه الله، لما جاء لحديث الإفك فقال: **(أبا بكر لعائشة قومي فأحمدِ رسول الله أشكريه، فقالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هذا عجيب فضحك النبي)**، فقال ابن القيم: «فرح النبي أنها نسبت الحمد لصاحبه».

فإذن المن من البشر هذا المذموم وهذا الممدوح، والمن من الله يقع على المعنيين، على معنى أنه يعطي العبد العطاء العظيم يمن عليه عطاءًا بالكرم والفعل، ويمن عليه بالعد؛ لأنه له ذلك هو المتكبر جل في علاه هو الإله وهو العظيم وكذلك هو المنان، يعطي العطاء الذي لا ينقطع بل يقطع ظهره حتى لو نظر من أي جهةٍ ومن أي حالٍ وفي أي ظرفٍ لم يجد إلا نعم الله عليه، لكثرتها عليه فسبحانه وتعالى، ثم بعد ذلك يعدها عليه، لماذا يعدها عليه لأنه الله ولأنه المتكبر ولأنه الرب وأنت العبد، لأنه السيد وأنت التابع، أنت العبد فلذلك يعد عليك سبحانه وتعالى نعمه.

والقرآن يثبت حق الإلهية من وجوه:

الوجه الأول: أنه هو الخالق.

والوجه الثاني: أنه الذي يمدك بعد أن خلقك يمدك بالنعم.

فذلك هو ثبتت أُلهيته عليك بهذين الأمرين، لم يحصل أن عطاك أحد أو أن أوجدك أحد، فإذًا من الذي يستحق أن يحمد؟ هو الله عز وجل، فمنه أصل حمده من قبل عبده.

وفقط لمعنى القطع قال سبحانه وتعالى: ﴿لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣)﴾ [القلم: ٣]، يعني غير مقطوع، قلنا المن يأتي بمعنى القطع.

الصفة الأخيرة التي نحن في بابها اليوم هي صفة الودود، ووردت هذه الصفة في موطنين من القرآن الكريم، في سورة «هود» وفي سورة «البروج»، قوله في سورة «هود» سبحانه وتعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)﴾ [هود: ٩٠]، والود هو المحبة، بل هو من أعظم المحبة، أوده يعني أحبه، والودود تجوز في حق الله من وجهين، أنه يود أحبابه يعني يحبهم، وكذلك هو مودود يحبه عباده، فهو ودود

من جهتين، يُحب ويحِب، وهذا الموطن بيّن، أنه يقول جلا في علاه: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾، يقربه إليه، فإذا رحمكم وتبتم إليه وجئتم إليه أحبكم.

وأما موطنها في سورة «البروج»، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤)﴾ [البروج: ١٣-١٤]، بعض العلماء بغض النظر الآن عن المعنى الذي نذكره، يقول: «هذا يأتي على جهة الفاصلة المتحدة في اللفظ، لأنه قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤)﴾».

ولكن الموطن أشد من ذلك، لماذا ذكرت المودة هنا؟ في سورة البروج نعرف أي قصة فيها؛ هي ذكر أصحاب الأخدود، فختم الله عز وجل قصة الأخدود بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤)﴾ [البروج: ١٣-١٤]، فجعل بعد أن ذكر ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤)﴾ [البروج: ٤]، من قتل هنا؟ -تقريبًا بإجماع أهل التفسير وإن وجد غيرهم- الذي قتل هنا القاتلون الذين هم أصحاب الأخدود المقتول الذين وقفوا وحرقوا المؤمنين، وعلى جهة إثبات من الذي سيكون الذي يقتل ثم يقتل، أما هؤلاء فأحياء لأنهم شهداء عند ربهم يرزقون، الذي بقي هذا الذي قتل هو الذي يستحق هذا.

فقال الله عز وجل: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠)﴾ [البروج: ٤-١٠]، وبعض أهل العلم تكلم من أهل التفسير تحس في كلماتهم العجب، وهذا الموطن يستحق العجب، موطن لا يقع إلا من الله عز وجل، هذا القول لا يقع أبدًا إلا من الله عز وجل، مهما بلغ حلم البشر، ومهما بلغ عفو البشر، بعضهم على بعض لا يمكن أن يصلوا إلى هذه المرتبة، لا يمكن، فهذا موطن لا يمكن أن يتصف به إلا الله.

وهو أن يأتي هؤلاء المجرمون فيأتوا بهذه الجموع، من رجال ونساء وأطفال ويلقونهم في النيران، وهم شهود ولا ترتعد فرائصهم ولا تلين قلوبهم، ولا تحس نفوسهم بأي نوع من أنواع الشفقة، ثم بعد ذلك الله يفتح لهم باب التوبة، من الذي يفعلها، الناس يذكرون عن حلم الأحنف بن قيس ما بلغ من حلمه قال: جيء بابن أخيه وقد قتل ابن له فبلغ من حلمه فقال: فما حل حبوته، كان جالس ورابط، الناس إذا طالت جلوسهم هذا ربط على نفسه الإزار وجلس، فقال: أطلقوه فقد أخفتموه، وأذهبوا إلى أم القتيل فأعطوها كذا، لجزعها على ابنها، وما تغير، قال: هذا أعظم ما بلغ، أن جاءوه بابن أخيه وقد قتل ابنه، فقال فكوه، فقال: والله مصابك بابن عمك أشد من مصابي بك، لكأنك قطعت يدك ابن عمك هذا

الذي يساندك في الحروب ويكون معك، فقال: أتركوه وأذهبوا بالدية وأعطوها لأم فلان فإنها بها جزعة الآن، ثم فك حبوته، هذا أبلغ الحلم.

أما أن يبلغ الحلم لهذه الدرجة فهذا لا يكون إلا من الله، ولذلك كانت هذه الخاتمة: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤)﴾ [البروج: ١٣-١٤]، جل في علاه، يغفر ثم بعد المغفرة لا يكون في القلب شيء ولا في النفس شيء، فقد يغفر المرء، يستر الذنب، ولكن يبقى في نفس المرء الأشياء الكثيرة، ولكنه سبحانه وتعالى ترغيبًا للعبد.

فالنبي صلى الله عليه وسلم على عظمته وحلمه وعفوه وهو الرؤوف الله سماه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة: ١٢٨]، ومع ذلك ماذا فعل بحبشي لما جاء قال له: **(لا تريني وجهك)**، هكذا البشر، وهذا ليس من المذمة هكذا خلقنا الله، لا يقدر المرء أن يخرج من إنسانيته، ولا مما خلقه الله عليه، ولكن ينتهي الأمر أن يقول الله غفور وبعد ذلك يحصل الحب، يرتقي المرء من بعد الذنب أن يكون حبيبًا لله، وهذا الذي فتح الباب للأولياء.

أنت أنظر إلى كتاب التوابين مثلًا أغلب الأولياء حصلت لهم الولاية والود لله بعد المغفرة، كانوا عصاة، قصة مالك بن دينار كيف تاب، قصة عبد الله بن مبارك كيف تاب، قصة الفضيل بن رياض كيف تاب، تجد أنهم دخلوا من باب المغفرة إلى باب الولاية، أي باب الحب لله عز وجل، والصحابة ماذا كانوا؟ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ٩٤]، كانوا من أهل الشرك والكفر وعبادة الأوثان، فبعد ذلك دخلوا، فغفر الله لهم وحصلت المحبة، وصاروا من أولياء الله عز وجل.

فلذلك لا ينسى المرء ولا يقول أنا كيف أسبق؟! كيف أدخل ويحبني الله عز وجل وأنا في هذا الحال؟! الله يغفر ثم بعد ذلك يدخلك في مقامات الحب له جل في علاه، أسال الله أن يغفر لنا ويرحمنا أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله خيرًا.

الأسئلة

السائل: شيخنا ماذا تعني رسالة القشيري «الرسالة القشيرية»؟

الشيخ: أبو القاسم القشيري هو من أئمة الشافعية ومن أئمة التصوف، فرسالته من الأجمل الرسائل، هو كتاب سماه الرسالة ونسبت إليه لأن اسمه أبا القاسم القشيري فسميت الرسالة القشيرية، تعتبر عند المتصوفة من مراجع الكتب الكبرى كالغُنية لعبد القادر الجيلاني، في موضوع التربية والتصوف، وليس فيها مما يعاب، ولكن أغلبها حديث عن هذا الباب، وهو باب التربية وباب العلاقة مع الله وباب الذكر وباب القرب من الله، اسمها «الرسالة القشيرية»، فلذلك هي من كتب التربية على طرق كتب الحارث المحاسبي، على طريق الغُنية وهكذا، وأبا القاسم القشيري دائمًا منسوب إليه الفتنة القشيرية، وهو أول في حياته وفي زمانه أول ما حصل الاختلاف بين الحنابلة والأشعرية، كانوا شيئًا واحدًا ثم حصل الخلاف عن طريقه وعن طريق بعض الحنابلة.

جزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع: الوهاب

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله وإياكم منهم آمين، آمين.

مما يدخل في صفات رحمة الله عزو جل ولها تعلقٌ برحمته في العطاء؛ أنه سبحانه وتعالى الوهاب، والوهاب كما ترون أنها صفة مبالغة، الواهب، ولكن هذه حين تكثر عطاياه هبةً؛ لأن العطاء قد يكون على جهةٍ غير الهبة، ولكن إذا أعطيت على جهة الهبة، فإذا كثرت عطاياه على جهة الهبة سمي وهابًا وهذا اسمٌ يختص به ربنا سبحانه وتعالى.

والهبة عند العلماء هي العطية التي يعطيها أحدهم لكن بلا غرضٍ ولا عوض، شرطها بلا غرض ولا عوض، فممكن الإنسان أن يعطي أحدًا شيئًا هدية ولكن يقصد بها أن يتحصل عِوضًا ما، أن يعطيه شيء ليأخذ العِوض عنها، عوضًا ما يجنيه، أو أنه يعطيه شيء ليتقرب إليه على جهة الغرض له فإما العوض وإما الغرض، فإذا خلت العطية عن هذين المقصدين؛ أي لا يطلب منه عوضًا على عطيته، لا يطلب منه مقابلها، وكذلك ليس له غرضٌ في إعطائه إياه؛ فحينئذٍ تكون هذه الهبة، فإذا خلت عن العوض والغرض سميت هبة.

ولذلك الله سبحانه وتعالى جل في علاه يعطي عبيده العطايا ويكرمهم بالمكارم ويجود عليهم من جوده لا يطلب منهم فيما يعطيهم ليس له غرضٌ في ذلك؛ لأنه جل في علاه أكرم الأكرمين ولأنه سبحانه وتعالى غنيٌ عن الخلق، فالإنسان يعطي لغرض من أجل أن يقابله عِوض من أجل أن يربح، ولكن ربنا سبحانه وتعالى هو الغني وغناه ذاتي لا يحتاج إلى خلقه لا يعطيهم شيء من أجل أن يردوا عليه أكثر منه أو مقابله، ولا يعطيهم من أجل أن له غرض ما في حاجات هم يملكونها، لكن لو قال قائل: بأن الله عز وجل يهب الخلق من أجل أن يشكروه.

ولكن المعلوم بأن الشكر لا يزيد في ملك الله، المعلوم أن شكر العبد لله لا يزيد في ملك الله لا يحصل به الزيادة **(ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحد منكم ما زاد ذلك في ملك الله شيئًا)**، وهنا في هذا الحديث، الحديث عن المقابل في الطاعات ولم يقل ربنا سبحانه وتعالى

لو أن كل ما تملكونه أعطيتموني إياه؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذي أعطاهم إياه وهو الذي من عليهم ولكن جاء إلى ما طلب من العبد وأحبه له ورغّبه فيه وهو الطاعة.

فقال سبحانه وتعالى: **(لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب)**، فذكر التقوى فقال سبحانه وتعالى: **(ما زاد ذلك في ملكي شيئًا)**، لأن هذا هو الذي طلبه منهم، الله عز وجل لم يطلب منهم الرزق، ما طلب منهم المال، ما طلب منهم الأشياء، ما طلب منهم ما يملكون لا من ثياب ولا دور ولا من مال ولا من خيل مسومة وأنعام، ما طلب منهم شيئًا من هذا، لكن طلب من عبيده أن يعبدوه.

فقد يأتي على البال وعلى الوهم بأن ما طلبه الله عز وجل إذًا هو بحاجة إليه، فقال: **(ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحد منكم ما زاد ذلك في ملك الله شيئًا)**، لا يزيد في ملك الله شيء، وإنما هي أعمالكم أؤديها إليكم، أنتم في النهاية تنتفعون بها.

وهذا الغرض الذي هو يحصل من محبة الله للعبد ومن فرح الله بطاعة العبد، الله عز وجل يفرح ويحب الحمد، وما خلق الخلق إلا ليسبحوه، وما خلق الخلق إلا ليحمدوه، وما خلق الخلق إلا ليعرفوه ويعبدوه، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولكن هذا ليس من غرض الحاجة، هذا ليس من طلب الحاجة، الله يحب ذلك ولكن ليس حاجةً إليه لا يحتاجه جل في علاه.

ولذلك هو يحمد نفسه، وحمد الله لنفسه أعظم من حمد أي مخلوقٍ له، ولذلك قال بعض الصالحين: عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢]، قال: «لما علم ربنا أن عبيده لن يبلغوا حمده على الوجه الذي يحب فتكفل الله بحمد نفسه»، فهو القائل جل في علاه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، الله حمد نفسه فهو أعظم حمد وإنما نحن نحمده بما حمد نفسه جل في علاه، ولذلك **(لا أحصي ثناءً عليك كما أثنيت أنت على نفسك)**، فلا يحصي العبد ثناءً كما أثنى الله على نفسه، فالله عز وجل يحمد نفسه ويمجد نفسه ويثني على نفسه، فلا يحتاج إلى ثناء العبد.

فتأمل هذا الله يثني على نفسه ويمجد نفسه ويحمد نفسه **(أثنى علي عبدي)**، ولكن الله عز وجل هو الذي أثنى وهو الذي حمد وهو الذي مجد جل في علاه.

إذًا الهبة: هي العطية من غير عوضٍ ومن غير غرض لا يريد منه شيء، وهذا أكرم ما يكون، أن يعطي ولا يريد شيئًا منه ولا يحتاج منه، وأن يعطيه على وجه الإنعام التام والرحمة التامة، هذه الصفة لله عز وجل

جاءت على وجوه في القرآن فإن الله عز وجل لما ذكر عطاياه قال: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩)﴾ [الشورى: ٤٩]، يهب فُذكر هذا الفعل لله عز وجل.

وقال سبحانه وتعالى ذاكرًا أن العبد يسأل ربه الأمر على جهة الهبة، قال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥)﴾ [مريم: ٥]، فتعلق العبد في سؤاله لربه أن يعطيه ما يعطيه على جهة الهبة؛ ذلك لأن الهبة لا تكون عاقبتها الفساد ولا تكون عاقبتها المعصية، الهبة ليس مما يحصل فيها الفساد وإلا لخلت عن جهت المدح، لا يكون فيها الفساد ولا تكون مآلاتها الفساد، فلذلك لما طلب قال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾، إنما طلب الولد ليكون طائعًا لله وطائعًا لوالديه، أي سأله على جهة الهبة، فما قال أعطني وارزقني فقط ولكن سأله على جهة الهبة؛ حتى يكون هذا الولد خاليًا عن الفساد خاليًا عن الخروج عن طاعة الله عز وجل وطاعة والديه، فقال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾، هب لي لأن الهبة خالية عن الفساد.

إذًا الهبة لا تكون إلا خالية من جهة الفعل من جهة فاعلها، خالية من الغرض وخالية من العوض، وبالنسبة لمن أعُطيها لا يحصل منها إلا الخير التام الذي لا نقص فيه والذي ليس فيه عاقبة السوء، فهل هناك أكمل من هذا العطاء؟!

ولذلك سبحانه وتعالى الوهاب فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، انظر صفة الهبة قرة أعين ليس فيهم الفساد، فإذًا الهبة التي لا يكون فيها وعقبتها الفساد.

هذه الصفة لربنا سبحانه وتعالى ووردت ثلاث مرات في القرآن، فقال سبحانه وتعالى في سورة «آل عمران»: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)﴾ [آل عمران: ٨]، وهذه نكررها بأن العبد يختم دعائه أو يسأل ربه بأسمائه التي لها تعلق، بما يسأل؛ لأنه ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فهذا هو الأمر، وإنما أنزلت هذه الأسماء من أجل أن نتعبد الله بها من جهة الدعاء، هذا هو الأصل.

فإذًا على المرء أن يختم دعائه أو أن يسأل ربه بأسمائه التي لها تعلق بما يسأل، هو يريد الهبة فيسأله باسمه الوهاب، يريد رزقًا فيسأله باسمه الرازق، يسأله دفع شر الكافرين الذين لا يطيق دفعهم فيسأله باسمه القوي العزيز، ويريد الرحمة لأنه مبتلى يريد رحمة الله فيسأله باسمه الرحمن، إذًا أنت تسأل الله فلا يجوز وليس

من النفع أن تقول: اللهم إني أسألك الولد بسمك القوي، ليس هناك مناسبة بين الاسم الذي دعوت به وبين ما تريده في سؤالك.

ولذلك هذا ينبغي على المرء أن يتعلمه من القرآن فقال: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)﴾ [الفرقان: ٧٤]، وقال فيها: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، هذا أمر، قال: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، انظر هنا الكلام عن النهاية والعاقبة ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، فقد تكون الهداية يعقبها الإضلال.

وكم من الناس هداهم الله ثم كان عاقبته الإضلال، من أشهر الملحدين في هذا العصر رجل يسمى عبد الله القصيمي وهو من القصيم نشأ على الدعوة للتوحيد ومنابذة الشرك وألف كتابًا الصراع بين الإسلام والوثنية، قال بعض مشايخ القسيم: هذا الكتاب هو حصل به على هوية الدخول إلى الجنة؛ لأن هذا الكتاب من أقوى الردود على عباد القبور وعلى الذين يستغيثون بغير الله ..إلخ، هذا الرجل لما ذهب إلى مصر وكانت هناك في البداية صرعة اليسار والماركسية، فارتد على عقبيه وعاش حتى بلغ التسعين سنة، أحد الإخوة يقول: جدي زاره وهو قريب من الموت، قال: قبل موته فقط بشهور قليلة، فوعظه أن يعود وأن يرجع قال: له أنتم لا شيء!! وصار يستهزئ بالدين!!

فكم من مهتدٍ ارتد خرج على عقبيه!! فقال: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، فما الذي يناسب الهداية التي لا عاقبة لها من الشر، ما الذي يناسب في الهداية والعطاء الذي يأتي بعده إلا الخير؛ ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾، فسأله بسمه الوهاب ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)﴾ [آل عمران: ٨]، كما في سورة «آل عمران».

وهذه الصفة وردت مرتين في سورة «ص» في قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩)﴾ [ص: ٩]، فلماذا جمعت العزة مع الهبة؟ نحن قلنا أن الوهاب عطاءٌ من غير طلب الغرض، وكلمة الوهاب ليس فيها خلو عن وجود الضاغط عليه لدفع الضرر، يهبه لدفع ضرره، ولكن العزة تأبى ذلك، فلما كانت الهبة –أي العطاء الإلهي– يمكن أن توحي في بعض صورها أنها تعطى وخاصةً عند ذكر الملك ففي سورة «ص» فيها ذكر ملك سليمان ففيها ذكر الملك فهو تعامل مع ملوك الحديث عن ملوك، فالله يهب هؤلاء الملوك ولا يهبهم على جهة الخوف ولا جهة الجزع ولا جهة دفع الضرر.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩)﴾ [ص: ٩]، فهو عزيزٌ عند هبته فهو لا يعطيهم على جهة الخوف وهذه من العزة، فاجتمع وصف العزة والوهب في قوله تعال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا

يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥)﴾ [ص: ٣٥] لماذا سئل باسمه الوهاب هنا؟ وكأن سليمان عليه السلام رأى من نقص النعمة على وجه من الوجه أن يشاركه فيها غيره، رأى من نقص النعمة في باب الدنيا وإلا فلا يجوز لمسلمٍ أن يبغض نعمة الله على غيره في الإيمان لا يجوز، ولا أن يحسده عليها الحسد المذموم.

ولذلك لما جاء ابن القيم رحمه الله في كتاب مدارج السالكين إلى ما قاله أبو إسماعيل الهروي في باب الغيرة فنطق كلامًا فاسدًا أبو إسماعيل الهروي، كلام فاسد يدور على أن من غيرة العبد ألا يرى عابدًا لله إلا هو، هذه الغيرة التي تتصور في البشر؛ أي ألا يشاركك في النعمة التي أنت فيها غيرك ومن هنا الغيرة على المرأة ألا يشاركك في زوجتك أحد، فأجرى هذه الغيرة المذمومة أو الممدوحة في البشر أجراها على ذات الله عز وجل فأجرها في نفسه على التعامل مع الله عز وجل، فقال ويغار على الله يعني ماذا؟ بدل أن يجريها على المعنى الحسن -الذي سنبينه- بل أجراها على المعنى السيء، وهو قال: ألا يرى أحد في أن يشاركه في عبادة الله عز وجل، هذا معنى مذموم والمطلوب إيمانيًا أن تحب لجميع الناس أن يدخلوا إلى طاعة الله لأن هذا مما يفرح الله عز وجل.

فالإنسان ينظر إلى مقصد الله فوق مقصده وبعد ذلك الغيرة التي يتم فيها التنازع هي التي يقع فيها القسمة فيفوتك بعض المنفعة، الغيرة على المرأة إذا شارك هذا الرجل فيها غيره فيتم القسمة ويفوتك بعض المنفعة لمشاركة غيرك فيها، لكن هذا لا يتصور في حق الله عز وجل.

فلذلك أن تغار أن يشاركك غيرك في عبادة الله عز وجل هذا المعنى لا يتصور المعنى المذموم في هذا الباب في حق البشر لا يتصور في حق الله عز وجل، فلذلك هذه الغيرة مذمومة وهذه غيرة باطلة وما قاله أبو إسماعيل الهروي غلط فيه، فما هي الغيرة؟ إذا جاز أن نصف أن العبد يغار على ربه ما غار الله عز وجل، فالله عز وجل يغار وغيرة الله عز وجل أن يأتي العبد ما حرم الله عز وجل فأن تغار على الله ألا يؤذيه أحد، ففي **(الحديث يؤذيني)** عبدي فالعبد يؤذي فأنت عليك أن تغار ألا يؤذيه أحد، أما أن يشاركك في الطاعة فهذا أمرٌ عظيم.

المهم فلما سليمان عليه السلام قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]، أن يشاركه غيره في الملك في نفس الملك وفي نفس المعنى كأن الملك نقصت قيمته العظيمة التي يريد أن يختص بها، أي عندما يأخذ أحدٌ شيئًا يملكه ولا يملك أحدٌ من البشر مثله، يفتخر أن هذا الملك خاص به، ولذلك قال سليمان عليه السلام: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾، ولذلك لا يطرأ عليه

النقص على أي جهةٍ كانت حتى ولو شارك غيرٌ ليس فيه ولكن شارك بمثله، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.

والعباد يسألونه سبحانه وتعالى بقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وقلنا وهب لي لأنه رأه صالحًا ونبيًا فلم يطرأ عليه النقص، فهذه من صفات الله عز وجل أنه الوهاب.

وهناك نقطة مهمة جدًا في هذا الباب: هذه الصفات الإلهية، الوهاب هذه صفةٌ لربنا عز وجل ولكن هذه مقتضاها لا يظهر إلا بالإرادة والفعل، ولذلك الصفات في هذا المعنى إما صفات لا يطرأ أثرها إلا بالإرادة وهناك صفات لا تعلق للإرادة بها، يعني الله عز وجل من صفاته أنه وهاب حتى قبل أن يهب شيئًا لأحد حيث كان الأول فليس معه أحد وليس قبله شيء، عندما كان ربنا عز وجل قبل أن يكون معه أحد لم يهب شيًا لشيء، ولكنه هو الوهاب، لكن هذه الصفة لا يظهر مقتضاها إلا بالإرادة على الغير، ولكنها صفة ذات قبل وجود الإرادة؛ أي لا تنسب الصفة لربنا بعد حدوث مقتضاها أو حدوث أثرها، لكن لا يحدث أثرها إلا بالإرادة، فلذلك هو جل في علاه هو الوهاب صفة في ذاته جل في علاه وكذلك تحدث الصفة.

من الصفات التي لها تعلق بهذا المعنى وهو أنه الوهاب أنه سبحانه وتعالى الرزاق، ما هو الرزق أولًا؟ الرزق: هو ما ينتفع به الإنسان هذا معناه ومن معاني الرزق هو ما جرى على جهة التتابع حتى الناس يقولون أجرى عليه رزقه أي أجراه في كل أسبوع، في كل شهر، في كل سنة ... إلخ، أجرى عليه رزقه، إذًا كلمة الرزق لها صفتان:

الصفة الأولى: أنها تعني ما ينتفع به الإنسان، فلا يقال لشيء لا ينتفع به الإنسان رزق لا بد أن ينتفع به.

الصفة الثانية: أن يكون متتابعًا لا ينقطع، الرزق هو الذي لا ينقطع ويكون متتابعًا.

ولذلك سبحانه وتعالى الرزاق أي الذي يعطي الرزق الكثير فهو لا يرزق فقط ولكنه يكثر رزقه سبحانه وتعالى وإن كان ورد الرازق جل في علاه.

إذًا هذه صفتان قال سبحانه وتعالى بيانًا لهذا الفعل الإلهي: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)﴾ [العنكبوت: ٦٠]، وهذه الآية وردت في سورة العنكبوت، ما هو مدار حديث سورة العنكبوت ومقصدها؟ ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)﴾

[العنكبوت: ٢]، فسورة العنكبوت من جهة الرواية قال بعضهم: هي سورة مكية، وقال بعضهم: هي سورة مدنية، وذلك بالنظر إلى ما فيها من ما يشبه المكية والمدنية، فهي تتحدث عن قضية الهجرة، هجرة الناس، وهي تتحدث عن النفاق، الهجرة هي قضيةٌ مكية، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١)﴾ [العنكبوت: ١١]، ففيها ذكر النفاق والنفاق ليس إلا بالمدينة، فبعضهم نظر إلى هذه الكلمة فقال: بأنه سورة مدنية لأن النفاق لم يظهر إلا في المدينة، وبعضهم نظر إلى موضوعات فيها فوجد أنه مكية.

والصواب: -وأنا فسرت هذه السورة كما تعلمون- والصواب أن هذه السورة نزلت في المدينة لتعالج من آمن في مكة ولم يهاجر، فيحرضهم على الهجرة، فكان مما عالجت وعالجت أمور كثيرة في هذا الباب منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)﴾ [العنكبوت: ٧-٩].

انظر إلى هذا الابتداء بالسورة: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، ثم ذكر قضية أين مقر المؤمنين، ثم ذكر حال المؤمنين مع آبائهم، لأن السورة تعالج معوقات الهجرة، ومن أول معوقات الهجرة الوالدين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)﴾ [العنكبوت: ٨]، فالرجل يخرج من بيئةٍ هي بيئة الأبوة وبيئة الأسرى، ويخرج من بيئة المجتمع الصغير الذي يعيش فيه، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)﴾ [العنكبوت: ٩].

فجاءت السورة وبدأت تعالج قضايا الهجرة ومن القضايا في الهجرة هي قضية الرزق، -أنا جئتكم من أجل هذه النقطة-، ومن القضايا التي تعالج في الهجرة: مثال: واحد جالس وعنده دكانه وعنده مزارع وعنده أهله وعنده استقراره وإذا هاجر قد يؤخذ منه كما أخذ من صهيب الرومي رضي الله عنه، فتؤخذ أمواله وتصادر، وقد يتركها ورائه، فكان مما عالجته السورة من أجل دفع المرء للهجرة وهي قضية الرزق، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)﴾ [العنكبوت: ٦٠]، رزق سيؤتيكم، هذا هو رزق الله، الرزق ليس قائمًا في مكانٍ دون مكان.

وصفة الرزاق وردت مفردة مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات: ٥٨]، المتين من القوة والشدة، ويقال للشيء متين يعني من الشدة، فسبحانه وتعالى رزاق ولا ينفذ من رزقه ما يوهنه، فالإنسان لما يرزق غيره يقل ماله، فيضعف ماله، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

ولكنها وردت خمس مرات في صيغة الجمع، في سورة المائدة لما دعا عيسى ربه، قال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)﴾ [المائدة: ١١٤]، هنا المتأمل يرى الفرق بين غرض عيسى عليه السلام وبين غرض الحواريين، هناك فرق، ما غرضهم؟ لما قال: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾ [المائدة: ١١٢]، يعني هم أبعدوا القضية التي بدأوا فيها.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾ [المائدة: ١١٢]، فابعدوا هذا الغرض، في الابتداء قالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، قد يقول قال: أليس هذا من الكفر الشك في قدرة الله، كفروا هل الله لا يستطيع!! الاستطاعة في هذا الباب تطلق على معنيين على المعنى الأول: القدرة، على معنى جريان السنة، واختلاف غرضه، فأنت تستطيع أن تقول: هل تستطيع هذا، وأنت تعلم أنه يستطيع، ولكنه عند خلو الغرض عنه، يعني هل الله في هذا الوقت يفعلها، وليس هذا شك في قدرة الله.

لكن يمكن للمرء أن لا يتصور القدرة، وهذا يقع فيه، يعني يمكن للمرء أن يثبت القدرة ولكن لا يستطيع أن يتخيلها، لا يستطيع أن يتخيل منتهاها، الله عز وجل قوي، قوة مطلقة، هذه القوة المطلقة هل تستطيع أن تتخيل مداها، لا يستطيع أحد أن يتخيل مداها، ولذلك ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] لا ذاتًا ولا صفة، لا يدرك ذاته ولا صفاته جل في علاه، لا أحد يدركه، ولأن هذه الصفات مطلقة، فيمكن للمرء أن يشك في تمام القدرة، أو لا يتصور تمام القدرة مع إثباته لأصلها ولذلك في الحديث **(لإن قدر الله عليا ليعزبني)**، هو مسكين.

والناس في حياتهم يعرفون القدرة بمقدار حياتهم، بمقدار ما يعيشون به، رجلٌ لا يعرف ولا يرى هذه القدرة، يعني الناس الآن بعد اكتشاف ومعرفة الناس الآلات الموجودة، كيف تتخيلوا القدرة الآن، شيء كثير، أكثر بكثير من العوام، لكن العوام يعني لو تقول زمان بتعرف أنو ممكن الواحد يطير في الطيارة من هنا إلى بريطانيا فقط في ساعة، هو لا يتخيل هذه القدرة لأنه لا يعرف أدواتها، فالقدرة تزيد بمعرفة المرء، فإذن المرء يثبت القدرة ولكنه يعجز عن تخيل أو تصور مداها وانتهائها، فهذا الذي وقع.

المهم أن غرضهم ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، وإنما هو تحريض، فقالوا إن نريد منها وتغير الغرض وكشفوا عن أنفسهم، ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)﴾ [المائدة: ١١٣]، فغرضهم في الابتداء يريدون الأكل منها، هل هذا مما يتهم به العبد، لا لكنه ليس من المقامات العليا، لا يتهم به العبد يريد أن يأكل.

فماذا قال أهل الكهف؟ قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩)﴾ [الكهف: ١٩]، فطلبوا الرزق، وموسى عليه السلام لما مشى مع الخضر، ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧٧]، يعني موسى وهو النبي العظيم ومن اولي العزم استطعم طلب الطعام، فلا يظن أحد أن هذا مما يعيب، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يدخل بيوت أصحابه، ويعلم الصحابة أنه جاء من أجل أن يأكل، ولما خرج أبا بكر وعمر مع النبي صلى الله عليه وسلم ذهبوا إلى بيت الأنصاري **(فقال: الْحَمْدُ للهِ، مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، فقال صلى الله عليه وسلم: إياك والحلوب)**، هذا ليس من العيب، أن يطلب المرء الرزق.

ولكنه ليس الغرض في التعامل مع الله فيما كان على وجه الخصوص، هذا ليس وجه الخصوص، هم يريدون شيئًا معينًا، فينبغي التعامل على وجهٍ أعلى وأعظم.

فماذا قال الحواريين: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾، الاطمئنان ليس كذلك مطلبًا مما يتهم به العبد، قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري قال: **(نحن أحق بالشك من إبراهيم)**، الاطمئنان درجة علية، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، واضح الاطمئنان السكون لا تأتيه العوارض، فهل قدوم العوارض مما يقدح؟ لا، ونشبه العوارض التي تجعل الإيمان ممتحنًا كما نشبه وجود الكفار عندما يغزون المسلمين، المسلمون مطمئنون لكن تأتيهم العوارض من الكفار يقاتلونهم، فسكون العوارض هذه هو اطمئنان، فهو طلبٌ للاطمئنان، ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)﴾ [المائدة: ١١٣]، ولكن غير الترتيب، لما جاءت على لسان النبي أعرف بربه منهم مع انهم حواريون، طبعًا نتكلم نحن عن مراتب نبي وحواريين والله أعلم بحالنا، ولكنه لما جاء الطلب على لسان عيسى عليه السلام ماذا قدم؟ ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٤]، ما ذكر الطعام، حتى ما جاء به على وجه الإجمال في الآخر، ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا

﴿وَآخِرِنَا﴾ [المائدة: ١١٤]، عيد: عبادة، جعلها تذكرةً للطاعة عيد، كما عيد اليهود عندما فرحوا بنجاة موسى عليه السلام فجعلوه عيدًا.

فالعيد مما يدخل في العبادة، ومن هنا الأعياد عبادة أمور تعبدية وليست من الأمور الدنيوية فعيد نذكرك فيه، لماذا الذكر؟ ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾ [البقرة: ١٨٥] يشكرون الله فيها ويصلون فيها ويعبدون فيها هذا العيد عند المؤمنين، قال: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)﴾ [المائدة: ١١٤]، جعلها آية والآيات تعطى بقدر الإيمان.

فهذا هو القصد أنه جاء فيها الله خير الرازقين وفي سورة «الحج» قال سبحانه وتعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨)﴾ [الحج: ٥٨]، وفي سورة «المؤمنون» قال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ [المؤمنون: ٧٢]، هو هنا مقارنة بين عطاءً وعطاء ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾ [الجمعة: ١١]، عطائه لا يشبه عطاء الآخرين، وقال سبحانه وتعالى في سورة «سبأ»: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)﴾ [سبأ: ٣٩]، مقارنة أنت تعطي ما أنفقت من شيء فأنت تعطي ولكن عطاء الله خير وفي سورة «الجمعة» قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾ [الجمعة: ١١]، هذه هي الصفة الثانية الرزاق.

الصفة الثالثة في هذا اليوم هي صفة الكريم والأكرم، الكرم صفة ذات وصفة فعل على ما تقدم ذكره، لما ذكرنا الوهاب صفة ذات وصفة فعل، أما صفة الذات: أي لا تعلق لها بالإرادة؛ لأن الكرم يطلق كما تطلق كلمة الكرامة؛ أي الشرف والسؤدد، الكرم إذا اشتق منه الكرامة فلا تدل إلا على الشرف ومن ذلك «يا ابن الأكرمين»، وهنا لا تعلق لها بالعطاء ولكنه بيانٌ لشرف نسبه وكرمه، أن تقول فلان كريمٌ الأصل، لا علاقة لها بالعطاء، هو كريم أي نسبه نسبٌ عظيم، وأن الصفة التي تحلى بها صفة عظمةٍ وعزةٍ لنفسه فهذا معنى.

المعنى الثاني وهو الذي نفهمه عندما نقول: كرم، وهو الذي يعطي ويكرم ويجود على غيره، ولذلك قال بعضهم: ما الفرق بين الكريم والأكرم؟ قال: الأكرم صفة ذات والكريم صفة فعل، الأكرم صفة ذات يعني على هذا المعنى بأن الله عز وجل لا يأته النقص وأنه سبحانه وتعالى العظيم جل في علاه، في الحديث وإن كان فيه ضعف عند بعض أهل العلم **(قال: يا محمد انسب لنا ربك –يعني صفه لنا ما هو في**

الأصل وفي المبتدأ وفي المنتهى- فأنزل الله عز وجل سورة «الإخلاص»: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص: ١-٤])، وهذا هو نسبه.

وما الفرق بين السخي والكريم؟ السخي هو الذي يعطي بعد السؤال أو بدون السؤال، لكنه يمكن أن يكون بعد السؤال، فهذه الصفة لمن يعطي بعد السؤال أي حين يُسأل فيعطي فيقال سخي، ويمكن أن يقال سخي بغير سؤال، ولكن الكريم لا تكون بسؤالٍ قط، فالله يمكن أن يوصف بالسخي، نحن نتكلم هنا عما جاز نسبته لله عز وجل من أفعال، وأما ثبوت الاسم وعدم ثبوته فيحتاج إلى النص.

ولكن هل الله سخي؟ نعم، يعطي بعد السؤال ويعطي من غير سؤال، ولكنه جل في علاه صفته الكريم يعطي من غير سؤال، الكريم لا يشترط أن يكون بسؤال، بخلاف السخي فإنه يكون بسؤال، فلذلك الكريم أعظم وأجل من السخي.

الآن هذا الكريم الذي يعطي عطاءً دائمًا لا ينتهي، فيدل ملكه على السعة والعظمة لأنه يعطي من غير أن ينقص ملكه فدل على أن ملكه واسعٌ عظيم، ولذلك من صفات الكرم أنه الذي ملكه السعة والعظمة جل في علاه.

إذًا صفة الكرم تدل على العطاء وتدل العزة وتدل على عِظّم الشرف، وهكذا قلنا في الأكرم، ووردت صفة الكريم في القرآن ثلاث مرات:

الأولى: على قراءة، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمُ (١١٦)﴾ [المؤمنون: ١١٦]، لو أنها -وهذه قراءة الأكثر- ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، فتكون صفة للعرش، لأن الإعراب هو الذي يكشف المعنى، فكلمة الْكَرِيمِ إذا كانت مجرورة فالمجرور الذي قبلها كلمة العرش، ﴿رَبُّ الْعَرْشِ﴾ مضاف ومضاف إليه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ﴾ رَبُّ بدل الله وهو مرفوع، وكلمة الْعَرْشِ مجرورة، فإذا كانت الْكَرِيمِ مجرورة فهي صفة للمجرور والصفة من التوابع، النعت من التوابع، فتكون صفة للعرش.

لكن قراءه ابن كثير -قراءة عن ابن كثير- بالضم -الْكَرِيمُ- فتكون صفة لله، ولذلك قوله عز وجل ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥)﴾ [البروج: ١٥]، فهناك قراءتان: هناك قراءة ﴿الْمَجِيدُ﴾، وهناك قراءة ﴿الْمَجِيدِ﴾، فـ ﴿الْمَجِيدِ﴾ صفة للعرش، و﴿الْمَجِيدُ﴾ صفة لله، حسب القراءة إذا كانت مرفوعة فهي صفة لله، وإذا كانت مجرورة فهي صفة للعرش، وقراءة حفص ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥)﴾ فهي صفة لله عز وجل مع أن العرش مجيد في القراءة الثانية، والمعروف أن كل قراءة رواية من هنا هذه المنقبة من أعظم

مناقب الإكثار من الروايات ذكرها الشوكاني أعظم منقبة لمن يحفظ القرآن ويعدد القراءات، قال صلى الله عليه وسلم: (**يُقالُ لصاحِبِ القرآنِ اقرأ وارتَقِ ورتِّل كما كنتَ ترتِّلُ في الدُّنيا فإنَّ منزلَكَ عندَ آخرِ آيةٍ تقرؤُها**)، فيقرأ أولًا القرآن على هذه الرواية ثم على هذه الرواية ...إلخ، فتزداد مرتبته بكثرة الروايات – بكثرة القراءات– هذه أعظم منقبة للقرء، إذًا هذا في سورة «المؤمنون» على ما تقدم.

الثانية: في سورة «النمل» ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾ [النمل: ٤٠]، قد يكون غني ويحبس غناه، ولكنه غنيٌّ كريم، وانظر إلى تعطف السائل هنا، لو كان الخطاب من الله جل في علاه فإنه سبحانه وتعالى ومن كفر فإني قويٌّ عزيز لمعاملته، ولكن انظر إلى هذا التحنن فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾، يعني كلما زاد يعود إليه، وكلما ذكر من الخير يعود إليه، فهذه أطلقها لأنه هو بعد ذلك يقرر ما الذي يريده.

لكن ومن كفر ومن أعرض، ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾، ولم يقل مثلًا غنيٌّ عزيز، لا أريدك، فبيّن أولًا عدم حاجته له وعدم نقصه، ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ هذه بينة، لكن ما هو وجه ذكر الكرم؟ وعدم النقص الكريم هو واسع وفيه عظمة، فإن نقصه فغني فهو غني، والغني قد يطرأ على غناه بعد النقص، الغني ليس مطلقًا وقد يطرأ على غناه بعض النقص فقال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾، فغناه كريم، فهذا وجه وهناك وجه أخرى يمكن للمرء أن يجدها في هذا الباب وهو أنه غنيٌّ بإعراضه ولكنه فاتحٌ عليه باب العطاء، لهذا العبد الذي أعرض.

الثالثة: قوله سبحانه وتعالى في الانفطار: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦)﴾ [الانفطار: ٦]، يعني ينبغي أن تدخل على كرمه ببابٍ يحبه ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، أي بعصيانك، وقال بعض أهل العلم: الكريم هو الجواد والصفوح والعزيز، وتقدم أنه صفة ذاتٍ وكرم والفرق بينهما؛ قالوا: الأكرم: صفة وصف ذات، والكريم: وصف فعل، والله عز وجل وصف كتابه بأنه ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧)﴾ [الواقعة: ٧٧]، هو عظيمٌ بنفسه متسع المعاني وهو كذلك يعطي لمن أراده فإنه عظيمٌ بذاته ومن أتاه من أتى هذا الكريم يعطيه، ولذلك الكرم لا يكون فقط في ما هو مادي وإنما كذلك في العلم والمعاني.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)﴾ [النساء: ٣١]، يعني خاليًا من أي نقص وخاليًا من أي شوب وتعب، وأنت داخل لا يصيبك فيه أي شيء يعنتك فهو مدخل كريم سالم ومليء بالعطاية وهذا شأن ربنا سبحانه وتعالى، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

السائل: شيخنا أكثر ما وردت صفة الهبة في الأولاد مثل في قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩)﴾ [الشورى: ٤٩]، ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤].

الشيخ: صحيح نعم ذلك لأنهم يطلبون الأولاد والغالب أنه يقع فيهم الفساد ولذلك دعوا ﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [النساء: ٧٥]، فهو يريده صالحًا، ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)﴾ [آل عمران: ٣٨].

والناس يطلبون الذرية أي حاجة فقط يأتي بعدها يصبح حشاش أو فاسد فيصير يدعي عليه «الله ياخدك» يريد أن يتخلص منه، يعني الأبناء هذه الأيام الأبناء العصاة، الآباء لا يجدون منفذًا للخروج مما هم فيه إلا الموت، أنا أجلس وأعرف وأسمع هؤلاء العصاة من الأولاد الذين يأخذون المخدرات وكذا، الآباء لا يجدون مخرج، يخافون أن يقتلهم أحد، والله أحد أخبرني قال: كل يوم يأتي على ابنه ويدعوا يا رب أجده ميت.

أما ذكريا عليه السلام دعا ذرية طيبة ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾، وقد كان له ذلك وإنه نبي، فهو نبي وابنه نبي عليهما السلام.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس العاشر: الشكور

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، نسأله سبحانه وتعالى أن يعرفنا به، وأن يجعل قلوبنا مقبلة له، وأن يقيم في قلوبنا من العِرفان لنعمه، ومن المعرفة بذاته، وبصفاته ليزداد المرء قربًا لله عز وجل.

المقرر في كل مجلس أنه ما من معصية إلا وهي نقيض لاسم من أسمائه، ولذلك الله عز وجل يكره ما يضاد الأسماء التي تسمى بها وأتصف بها، فالله يكره الجاهل، ويكره البخيل، ويكره القبيح في خُلُقِه، فالله يكره هذه الأمور، والمعاصي التي يقترفها الإنسان مبناها على هذه الصفات، يعني المرء يترك الزكاة لتلبسه بصفة البخل، فإنه يمنع الخير في الناس، فالله يبغض هذا، والله عز وجل يحب الجواد، والجواد هي صفة من صفات الله، كيف يفعل بها المرء، يطيع بها الله عز وجل، فهو يذكي ويتصدق، وينجد الملهوف والسائل والطالب.

فلذلك ما من باب من أبواب الطاعة أمر الله به، إلا وهو دخول على الله عز وجل باسم من أسمائه، وما من معصية يقترفها المرء إلا لتلبس هذا العبد بصفة يبغضها الله سبحانه وتعالى وهذه الصفة بعد ذلك لها مقتضيات تتجلى على صفات المرء تظهر على المرء بالعمل، فالله عز وجل يبغض هذه الأعمال، فلذلك يبقى نظر المرء دائمًا، إلى التقرب إلى الله بمعنى كيف يحب الله ما الذي يريده، ما الذي يحبه جل في علاه، بمعنى أن العبد دائما البحث عن رضا الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله يستحق أن يحب، لأنه جل في علاه يستحق له هذا الاستحقاق على عبيده أن يحب، وذلك بالنظر إلى آلائه والنظر إلى صفاته.

ولذلك ما من صفة يحبها الله إلا واتصف بها، فهي صفة يعني الله يحبها ويثني عليها، والله عز وجل خلق الخلق من أجل أن يتصفوا بها إلا ما كانت من هذه الصفات ما لا تجوز إلا في حق الربوبية، كاستعلائه على خلقه جل في علاه، فهذا صفة لله سبحانه وتعالى يستعلي بها على خلقه، ويتميز جل في علاه بهذه الصفة بأنه الرب، وأما غير ذلك من المعاني الأخرى فالله يحب هذه الصفة فجل في علاه يتصف بها، لأنه يحبها، ويطلب من العبد أن يتصف بهذه الصفة، لأنه يحب هذه الصفة أن تكون في عبيده.

ومن هذا الصفات التي يحبها الله سبحانه وتعالى في نفسه، ويحبها في عبيده، وعليهم أن يدعو الله عز وجل أن يتلبسوا بها وأن تكون لهم مَلَكة دائمة في أنفسهم وأعمالهم، وهي صفة الشكور والشاكر، الشكر هذه الصفة لله عز وجل باب سماه ابن القيم كباب الصبر بمعنى أن الشكر يعم الوجود، شُكر الله عز وجل لعبيده وخلقه يعم الوجود، فما من وجود إلا وهو قد تجلت عليه هذه الصفة على وجه من الوجوه.

والشُكر أصلًا مأخوذ من قضية الاعتراف بالعطاء والاعتراف بالمنة أن يعترف العبد بما أنعم عليه فيكون شكورًا، ثم بعد ذلك له لوازم هذا الاعتراف، أول شيء هو الاعتراف القلبي وبعد ذلك الاعتراف اللساني، وبعد ذلك الاعتراف البدني، والشكر لجلال هذا الصفة فأنها تكون اعترافًا لما هو قليل، في أصلها في الأصل أن صفة الشكر لا تكون إلا لمن أعترف بالقليل من النعم التي تسبغ عليه.

ولذلك يقال للدابة إذا أكلت القليل فسمنت يقال: دابة شكور، الأصل في اللغة، أنها إذا أخذت القليل من الطعام سمنت فتسمى عند العرب: بالدابة الشكور، أي لا ينبغي النظر إلى أن هذه الصفة تكون فقط لمن أعطي بالكثير، بل بالقليل، إذا اتصف بها يكون شكورًا، بل في الحقيقة بعض أهل العلم ميز لأن كلا الصفتين قد وردتا في الكتاب والسنة الشاكر والشكور، فقالوا: «إن الشكور تكون على البلاء»، يشكره على البلاء وهذا في حق الله عز وجل ولا يمكن أن تصور في حق غيره، يعني العبد يكون شكورًا في البلاء.

وأما الشاكر «فيكون بهذه الصفة على النعم»، وقالوا الشكور: «يكون بالمنع»، يشكر حتى على المنع، وهذا يتصور في حق العبد لجهة ربه، فإنه يشكره على البلاء لأن البلاء في النهاية هو نعم وعطاء، هذا متصور، ويكون الشكر على العطاء والشكور يكون على المنع، إذا منعه، فالعبد يحمد، وسيأتي الفرق بين الحمد والشكر أن شاء الله نبينه، ولكن الشكر ليس فقط على ما تعطى ولكن كذلك على ما يصرف عنك من شر؛ لأنه ما من شر يقع عليك إلا وقد صرف الله به شرًا أكبر، فيشكر العبد ربه على هذا.

وهذه الصفة في حق ربنا عز وجل هذه صفة تسبغ المحبة، أن الله عز وجل سمى نفسه الشكور؛ بمعنى أن أي شيءٍ قليل يقترفه العبد من الطاعات في حق الله يشكره عليه، أي طاعة يتقرب بها العبد لربه يشكره عليها، بمعنى يثيبه عليها، ولذلك الشكر يكون أولًا بالاعتراف القلبي أن قلبه يعترف بهذه النعم، وأن الله عز وجل له النفس، نحن نتكلم عن نفس الرب، ننسب لربنا النفس، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، فالله عز وجل يشكره في نفسه على ما أطاعه واستجاب له، وكذلك بعد ذلك يذكره في الملأ الأعلى، فالله عز وجل يشكره بالقول، وبذلك أنه يذكره في الملأ الأعلى، وأنه يرفع شأنه، وأنه ينادى في الصديقين والصالحين يشكره، ويرفع شأنه، ويجعله عبيده في الدنيا يذكرونه في الخير.

قال صلى الله عليه وسلم: **(إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فأحْبِبْهُ، فيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فيُنَادِي جِبْرِيلُ في أهْلِ السَّمَاءِ: إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فأحِبُّوهُ، فيُحِبُّهُ أهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ له**

الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ)، فالناس يبهجوا في ذكره في الطاعات، ويبهجوا بذكره بالحسن له، وهذا من شكر الله، لأن الله شكره فألهم عبيده محبته، وبذكره على ألسنتهم بالحب والثناء له.

قال ابن القيم رحمه الله: إن أولى من وصف بهذه الصفة هو الله، لأن العبد من عادته ألا يشكر إلا على الإحسان، عما يعطى له، يعني الإنسان يشكر إذا وقع الإحسان عليه من الآخر، الله عز وجل أعطى العبد النعمة فصرفها العبد على نفسه في طاعة الله، فالله شكر له أنه قام على نفسه بما يحسن لنفسه، يعني الله عز وجل لم يزداد شيئًا بإحسان العبد، ولا بطاعته، ولا بصرفه النعمة.

فلو أن رجلًا أخذ المال فتصدق به على زوجه شكر الله له ذلك، الله عز وجل لم يجني شيئًا، هو صرفه على نفسه، لأنه ممن يعول زوجته وأولاده، فالله أعطاه النعمة وصرفها العبد على نفسه بما يعود على نفسه بالخير، فشكر الله له ذلك، فهذا من تمام المدح لربنا، ومن تمام الثناء عليه.

وهذه الصفة الجليلة أيها الأخوة الأحبة الشكور وردت في أربع مواطن، لنرى هذه الصفات:

في سورة «فاطر» وردت هذه الصفة مرتين، في قوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)﴾ [فاطر: ٣٠].

وفي آية أربع وثلاثين، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤)﴾ [فاطر: ٣٤]، وهذا بيّن، فاقترنت صفة الشكر مع المغفرة، لأن العبد الطائع –هذا حديث عن المؤمنين، فالعبد بين حالتين إما حالة طاعة وإما حالة معصية، أما حالة صرف النعمة فيما أمر الله وأما صرفها في معصية الله، فذلك اقترنت المغفرة مع الشكر، فإن العبد بين هذين الحدين إما أن يذنب فالله يغفر له، وأما أن يشكر فيشكر الله له، إما أن يعصي فيغفر الله له.

انظر الله محيط برحمته من كل وجه بالعبد، لم يتركه إذا عصاه، ولم يعرض عنه إذا أطاع، بل بقي حبيبًا له في معصيته بأن غفر له، وبقي حبيبًا له جل في علاه وهو في طاعته فشكر له.

وفي سورة «الشورى» وردت ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)﴾ [الشورى: ٢٣].

ووردت في سورة «التغابن» في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧)﴾ [التغابن: ١٧]، الحلم تقدم، وصفة الحلم توجب الأنى، لا يتصور حلم بلا أنى، ولا يتصور حلم بلا صبر، فلذلك انظر ﴿شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾، فإنه حين المعصية يحلم عليه.

انتبه الشكر يذم إن تأجل، لأن من تمام الشكر أن يوفي الشاكر لمستحق الشكر عند حصوله، ولذلك عندهم الهبة والهدية إذا وعد المرء بها فمن الذنب ومن القلة ومن العار أن تؤجل، فلذلك يجب أن يعجل له، فلذلك كلمة شكور تعني العطاء السريع، والحلم تقضي الأنى فهي شاملة بما يقع العبد من المعصية فالله عز وجل يؤجله.

فالحسنة تسجل عند وقوعها والسيئة تترك مدة **(لعل عبدي يستغفر)**، لعله يتوب فلا تسجل له، فلذلك ورد الشكور.

الشاكر وردت مرتين:

في قوله تعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)﴾ [البقرة: ١٥٨]، فهو حديث عن العطاء، فالله عز وجل يعلم فعل العبد ويشكره له.

ووردت في «سورة» النساء: وانظر إلى هذه الآية هذه آية عجيبة، هذه آية ينبغي أن يتلوها المرء دائمًا، عندما يغفل عن نعم الله عليه، وعندما يغفل عن معرفته لربه، هذه الآية تعرف العبد ربه معفرة عظيمة، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)﴾ [النساء: ١٤٧].

هل الشر الكامن في النفوس يتصور أن الله ما دام عنده القدرة على العذاب يعذب، وما دام عنده المنع يمنع، فالله جل في علاه يقول: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾، هل تظنوا أن ربنا عز وجل هو بنفس الطاغية الذي هو يتلذذ بتعذيب عبيده، هل يصاب بهذه اللذة أو بهذا الفرح أن يعذب، الله عز وجل سبقت رحمته غضبه، **(إن رحمتي سبقت غضبي)**.

فلذلك هو إذن يفرح أن يعطي، ويفرح أن يكرم ويفرح أن يمن، ولذلك ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)﴾.

رأيت خلاف بين أهل العلم في موضوع هل الله يشكر للكافر؟ شكر ربنا للعبيد من كل جانب، يشكر لهم أنه أعطاهم، أنه رزقهم، أنه قبل منهم القليل، انظر للعلماء عند كلمة الشاكر كلمة جميلة يقولون: «فإنه من شكره لعبيده أنه يعطي على القليل من الطاعة الكثير»، فالعبد يأتي بالحسنة فيعطيه الله عز وجل عشر حسنات ويضاعفها الله إلى سبعمائة ضِّعف وهكذا، والله عز وجل شاكر عليم يعطي، فإنه يعطي على الطاعة القليلة النعم العظيمة، ويسبغ رحمته على عظيم المعاصي فيغفرها، القليل من الطاعة

الحسنة، الحرف من القرآن عشر حسنات والله يضاعف لمن يشاء، التسبيحة، أن يصلي اثنى عشر ركعة بعشرين دقيقة تقريبًا يبنى له بيت في الجنة.

فعلى قليل الطاعة يعطي الكثير، وعلى عظيم المعصية يغفر، هذا من شكره، قالوا: هل يشكر الله عز وجل الكافر على ما يفعل؟ أما الزجّاجي من أئمة اللغة فقال: «هذه لا تتصور»، الزجّاجي من أئمة اللغة القدماء قال: «هذه لا تتصور في حق العبد الكافر فإنه لا يعطى على ما هو عليه».

ولكن رأيت لابن القيم في مدارج السالكين وفي عدة الصابرين يقول: «لا إن الله يشكر للكافر فعله، وذلك لأنه إذا فعل حسنة في الدنيا شكر له فأعطاه، وكذلك في الآخرة فإنه إذا فعل الحسنة في الدنيا لا يكون في الدرك الأسفل ممن ترك الحسنة وأتى بضدها»، هذا مما ذكر في كلامهم.

ما الفرق بين الشكر والحمد؟ هنالك من أهل العلم كابن جرير الطبري مثلًا يرى أن الشكر والحمد على معنى واحد، وعندما جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: «هي الشكر»، جعل الشكر والحمد شيئًا واحدًا، والعلماء أغلبهم من الكبار لا يقبلون هذا ويقولون: «هناك فرق بين الحمد والشكر»، فما الفرق بينهما؟

الفرق بينهما كما قال ابن القيم رحمه الله قال: «بأن الشكر أوسع آلة والحمد أوسع مقتضى»، ما معنى هذا الكلام، قال: «الحمد لا يكون باليد والشكر يكون باليد مع اجتماعهما على أن الشكر يكون بالقلب ويكون باللسان»، الحمد لا يكون بالعمل، والشكر يكون بالعمل.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، وهذا لا يكون بالحمد، ولكن الحمد أوسع مقتضى، كيف أوسع مقتضى؟ الشكر لا يكون إلا على النعمة ولذلك يقال: «يكون الشكر على الصفة المتعدية»، يعني يشكر له حسنته يشكر له عفوه عنه، يشكر له مساعدته له، فتكون على النعمة المتعدية التي وقعت عليك، لكن الحمد يكون على الصفة المتعدية وعلى غيرها، فإنه يحمد ربنا لجماله، ويحمد ربنا لقدوسيته، فهذه لا يرتب عليها أن تتعدى هذا الصفة على عبده، إنما هي صفة ذات لازمة له وليست متعدية بشيء على العبيد، القدوس، أنه قدوس جل في علاه، وأنه جميل جل في علاه وأنه الكامل جل في علاه، وأنه الجليل جل في علاه وهكذا، فهذه صفات لا تتعدى، فالحمد أوسع مقتضى فيكون الحمد على الصفة المتعدية والصفة اللازمة التي لا تتعدى.

وقال ابن تيمية رحمه الله: «وحمد الله على هذا أي على صفات الذات التي لا تتعدى على العبد، أعظم من حمده على النعم»، من أجّل؟ ولذلك أنت تقول: لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم

سلطانك، فجعل أعظم الحمد هو أن تحمده لجميل صفاته، هذا أعظم من أن تحمده للنعم التي تأتي عليك، فإن الأول حمد للجمال، والثاني حمد للنعمة، من أعظم؟ الأولى أعظم، الأولى أكثر قرب من الله، وأكثر دلالة على فهم العبد لربه جل في علاه.

إذن قال بعضهم الحمد والشكر على هذا المعنى بلا شك أن حظ من هذه الصفة أن الله عز وجل أمر عبيده بهذه الصفة، أمر الله عز وجل عبيده أن يشكروا، إذا أعطي المرء نعمة فعليه أن يشكر الله، فالله هو يشكر عبده وطلب من عبده أن يشكره، بل جعل أعظم مطلب يطلبه العبد هو أن يشكر الله أن يعينه على الشكر.

ولذلك في حديث: **(اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)**، فما هو أعظم مطلب يطلبه العبد؟ أن يطلب من الله أن يعينه على شكره، وأن يطلب من الله أن يعينه على عبادته، وذلك أول الدعاء ما هو؟ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٢-٥]، هذا لعبدي ولعبدي ما سأل، ما هو أول مطلب؟ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦].

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: **(يا معاذُ، واللهِ إنّي لأحبُّكَ، فقالَ: أوصيكَ يا معاذُ لا تدَعَنَّ في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ تقولُ: اللَّهمَّ أعِنِّي على ذِكرِك وشُكرِك وحسنِ عبادتِك)**، فأعظم ما يطلبه العبد من الدعاء؛ أن يجعله شاكرًا له، أن يعينه على شكره، أن يعينه على عبادته، أن يعينه على طاعته.

وابن القيم انظروا هنا في المدارج عليه رحمة الله، ومن ذلك أن الله طلب من العبد أن يشكر، كما في سورة «لقمان»: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وفي حديث قال صلى الله عليه وسام: **(من لم يشكرِ النَّاسَ لم يشكرِ اللَّهَ)**، هذه قضية مهمة الأخلاق لا تتجزأ، الأخلاق مَلَكَةٌ في النفس لا تتجزأ، فإذا تجزئت عريت عن المدح، وعُلم أنها ليست مَلَكة، وإنما هي تتغير بتغير الأحوال، أي من كان من صفته النظر إلى العطاء أنه يستحق المدح من أي جهة كان فمَلَكةٌ في النفس أن يشكر فاعله.

ولذلك **(من لم يشكرِ النَّاسَ لم يشكرِ اللَّهَ)**، من فقد هذا الملكة في التعامل مما يقع من الناس عليه فإنه من باب أولى ألا يشكر نعمة الله؛ لأن نعم الله عز وجل، -نحن تكلمنا عنها- الله أخفى يده وفعله في الوجود بالأسباب، الله عز وجل أقام أمك لك لترحمك وخلق في قلبها الرحمة عليك، من الذي هو رحمك حتى خلق الرحمة في قلب أمك؟ الله، لما يأتي رجل ويتصدق على رجل هو يرى فقط اليد التي تتصدق، لكنه حين يفهم سنن الوجود يعلم أن الله هو الذي يسر هذا ليأتي إليك.

فمن غفل عن الصورة الظاهرة من باب أولى أن يغفل عن الصورة الباطنة، ظاهرة بينة الرجل يعطيك ويحسن إليك رجل يسامحك، رجل يدفع عنك الشر، رجل يسعى في خير لك، فأنت تراه في عينك ثم لا تشكره، فمن باب أولى أن يعمى البصر عن رؤية ما في عالم الغيب من التدبير الإلهي، وذلك **(من لم يشكرِ النَّاسَ لم يشكرِ اللَّهَ)**، لأن الشكر مَلَكةٌ في القلب، مَلَكةٌ في النفس، مَلَكةٌ في الإرادة إذا فقدت لا يمكن أن تتجزأ.

والقرطبي له منفذ يقول: «ومن الشكر ألا يستعمل الشيء فيما لا يكره»، ولذلك جعل ابن القيم الشكر مبني على خمس قواعد نمر عليها سريعًا:

أولًا: الشكر: «خضوع الشاكر للمشكور»، لماذا ذكر هذا، لماذا في الشكر خضوع؟ لأن الشكر لا يقع، عندما تشكر لا يمكن أن يقع منك إلا لمعرفتك بأن يدًا عليا كانت عليك، أليس هو الاعتراف بالنعمة، الشكر هو الاعتراف بالنعمة، فدل هذا على أن هناك يدًا عالية أنعمت عليك، فأولًا من الشكر –هذا بالنسبة للعبد أن يشكر الله– أولًا أن يخضع هذا الشاكر للمشكور، لأنه يعلم نعمته عليه.

ثانيًا: قال: «أن يحبه»، أي أن يحب المشكور.

ثالثًا: «اعترافه بالنعم»، أن يعترف بالنعمة، الأولى مع الثانية ضبط، الخضوع قد يقتضي الكراهة، فقلنا دائمًا التعديل والتكميل، فإن الأولى خضوعه له قد يقتضي الكراهة لكن هو يحبه، مع خضوعه له يحبه.

رابعًا: وبعد الاعتراف بالنعمة «أن يثني عليها»، يقول بعض أهل العلم: «بأن من أعظم صفة الشكر –ليس فقط أن يعترف بها– ولكن أن ينشرها في الملء»، من الشكر أن ينشرها في الملء، ولذلك على المرء أن يحمد الله حمدًا ظاهرًا بين الناس.

خامسًا: قال: «وألا يستعمل النعمة فيما يكره من أنعم عليه فيها وهذا من الشكر»، ألا يغضبه لأنه يستخدم النعمة فيما يغضبه لم يكن شاكرًا له، هذا هي هذه الصفة لربنا عز وجل وهي قائمة على معرفة الإحسان ونشره الشكر، قائم على معرفة الإحسان أن يعرفه وأن يقر به وأن ينشره.

الصفة الثانية التي هي من هذا المعنى الذي بين يدينا، وهي صفة المعطي، هذه وردت لربنا فعلًا في القرآن في مواطن، أن الله عز وجل يعطي، وردت على صيغة الفعل في القرآن في مواطن متعددة:

منها قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥)﴾ [الضحى: ٥]، هل هذا ذكر لما أتى؟ وتأجيل لما سيعطي؟ بمعنى أنه لم يعطيه، ﴿وَلَسَوْفَ﴾ تسويف للمستقبل، فيقول جل في علاه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ

رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، ولم يقل ولسوف أعطيك، وأما فعل المضارع هنا يعطيك فدل على الوجود الآن الحاضر، ودل على المستقبل وعدم الانتهاء، فمن صفات فعل المضارع إذا جاء دل على الاستمرار، فهذا واحد.

الشيء الثاني أن الله قدم ذكره له، قدم ذكره وعطاياه، فقال هذا عطائي لن ينقطع ولكن ما سيأتي سيكون أعظم وأكثر، فقال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠)﴾ [الإسراء: ٢٠].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَعْطَى﴾ [طه: ٥٠]، انظر ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾، هذا عطاءٌ خاص، ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ هذا عطاء عام، وقوله تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: ٥٠]، ليس المقصود بالهداية هنا الهداية الشرعية ولكن الهداية القدرية، يعني أعطى كل شيء خلقه وهدى هذا الخلق لما خلق له، فهذه من صفات ربنا.

وهذه صفة المعطي لم ترد إلا في صحيح البخاري ووردت في روايتين هذه الصفة، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: **(من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين، والله المعطي وأنا القاسم)**، وفي حديث آخر: **(وإنما أنا قاسمٌ والله يعطي)**، ولكن هذا وردت في البخاري في الصحيح ونثبتها لله جل في علاه أنه جل في علاه المعطي.

والعطاء ضد المنع، لا تعرف العطاء إلا بهذا في اللغة لإنها واضحة في نفس السامع، من العطية وهو أن يعطي: أي أن يبذل ما في يده للآخرين، فهذه صفة لربنا سبحانه وتعالى، ولذلك في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: **(اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت)**، فإنه إذا أعطى جل في علاه لا يمنع عطاءه شيء، **(اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت)**.

والصفة الثالثة في هذا اليوم هي صفة الفتاح، هذه وردت مفردة في القرآن مرة واحدة، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦)﴾ [سبأ: ٢٦]، ومعنى الفتاح: هو ضد الأغلاق، ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾، هنا الفتح على معنى القضاء، ثم يفتح بيننا أي يقضي بيننا، ولذلك يقال للقاضي فتاح لأنه يفتح مغاليق ما أغلق على الناس وتاهوا فيه، الناس يتوهون في مسألة فيأتي القاضي فيبصرهم بالحق ويقضي بينهم، فيبين الحق، فيفتح بينهم، لأن الإغلاق هو من العماية، لما يكون شيء بينك وبينه إغلاق فأنك لا تعرفه.

ووردت هذه الصفة كذلك مرة واحدة في القرآن مضافة في سورة «هود»، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف: ٨٩]، وهنا على نفس الشيء أفتح بيننا بمعنى أقضي بيننا، ولكن على أي معنى أقضي بيننا هل في بيان الحق والصواب، أم أفتح بيننا في نصرة أهل الحق ودمار أهل الباطل؟ في نصرة أهل الحق، ولذلك وردت في هذا المعنى في القرآن كثيرًا كقوله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]، يعني أنتم طلبتم أن ينصر الله أهل الحق.

وقال أبا جهل في بدر: اللهم أنصر أولى الطائفتين بالحق، هذا من العدل، فنصر الله أولى الطائفتين بالحق، قالوا: أعدل بيت في العرب قاله حسان بن ثابت يقول لأبي سفيان، قال:

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء

هذا البيت ما عين، ما بين من.

وكما قال: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، وهو الأذل نعوذ بالله، كما قال، فالله عز وجل قال ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، أنت الذليل، فهذا من العدل في الخطاب بين الناس علينا أن نتعلم هذا، حين يكون الأمر بين نقول طيب لعنة الله على الكذاب، وتترك.

كان أحد إخواننا، تعرفون المصريين لهم نهفات ونكت جيدة فيأتي لبعضهم ويقول: الله يلعن أبو الجهل، أنتم زعلتم.

المهم فقال أبو جهل في بدر: اللهم أنصر أولى الطائفتين بالحق، فقال الله عز وجل: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ [الأنفال: ١٩]، فيعني أحاط بكل الاحتمالات، استفتحوا وجاءهم الفتح، إذا تنتهوا من هذا الشر خلاص فهو خيرٌ لكم، فتح لهم باب العودة، وإذا عدتم عدنا، فأغلق عليهم كل مرادهم وكل طلباتهم وكل أحوالهم المهم أن الفتح هنا بمعنى العطاء، بمعنى أنه ينصرهم ولذلك وردت أكثر ما تكون في هذا، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ [الفتح: ١].

في القرآن في الحقيقة كلمة الفتح لم تأتي إلا بمعنى النصر، إلا أنه كما قال جل في علاه في سورة «الأعراف»: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف: ٨٩]، انصرنا عليهم، وبين ما نحن فيه.

ولذلك الفتح هو إزالة الإبهام لأن الأغلاق هو إبهام، فإذا أزيل الإبهام وهو الإغلاق كان فتحًا، قد يرد الفتح بمعنى ضد الأغلاق مطلقًا، قال سبحانه: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠] ومع ذلك فيها معنى النصر، لأن هنا عدم الفتح هو ذلة وإهانة وطرد، طردوا من رحمة الله، لأن السماء موطن كرامة الْمُكرم من قبل الله عز وجل، فلما لم يفتح الله عز وجل عليهم يعني طردهم، فالفتح لم يأتي إلا بمعنى المدح ومعنى العطاء الإلهي بالنصر والإكرام، هذا ما في الدرس اليوم في هذه الأسماء الحسنى لربنا عز وجل فكلها تدور على ما تقدم من أنه سبحانه وتعالى الشاكر والشكور وهو جل في علاه المعطي وهو سبحانه وتعالى الفتاح، جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

سؤال: شيخنا الشاكر والشكور هي على نفس المعنى؟

الشيخ: نعم من مادةٍ واحدة وهي الشكر، وهو اعتراف المنعم عليه بنعمة المنعم، فقط رأيت المناوي رحمه الله، ذكر هذا الذي ذكرته لكم فقط، رأيته قال: بأن الشكور -طبعًا الشكور صفة مبالغة، وهي أبلغ من الشاكر- فقال: الشكور وهو الذي يشكر على العطاء والمنع والبلاء، وأما الشاكر فلا يكون إلا للعطاء، هذا يعني محاولة لهذا الأمر، ولكن لا شك بأن الشكور هي أبلغ من الشاكر، فربنا سبحانه وتعالى شكورٌ وشاكر.

وثانيًا نحن قلنا في مرات سابقة بأن الصفة إذا تعدد منها الاسم دلت على عظمتها وعلى اتساعها وعلى أنها محببة إلى الله، كالرحمن والرحيم والشكور والشاكر والرزاق والرازق وهكذا.

السائل: شيخنا الأخلاق مَلَكة في النفس لا تتجزأ، هل يعني طبع في الشخص؟

الشيخ: نعم تصبح مَلَكة والملَكة يفعلها المرء على صفة الدوام هذا معنى الملَكة، يعني الآن لما نقول العلم مَلَكة في النفس، يعني هل يمكن للمرء أن يريد فيكون جاهل؟ ولذلك في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: **(يبخلونني والله يأبى، ولست بباخل)**؛ بمعنى أن البخل ليس عندي، إنما هو الكرم والجود، فهم يطلبون ما ليس حقهم، فإما أن يعطيهم وإما أن يمنعهم، فإذا أعطاهم، أعطاهم ما ليس حقهم، وإذا منعهم سموه بخيلًا، وهو يأبى أن يكون، حتى اسمًا، يأبى أن يكون أو يطلق عليه هذا الاسم، وقال: **(لست بباخل)**، فهي ملكة في النفس الكرم، لا يتكلفها.

بعض الناس عندما يتصدق، وهذه ليست مذمة، ولكنها كذلك مرتبة من مراتب الإيمان، العلماء اختلفوا ما الأفضل، أن يجاهد في أداء الفعل أو أن يقوم به على صفة المحبة، يعني رجلٌ يتصدق يجد في نفسه الكره، ولكنه يتصدق يجاهد نفسه في الصدقة، ورجلٌ يحب الصدقة يتمتع بها، رجلٌ إذا عفى قلبه لوجود الغل والغيظ، يعفو بقوة ولكنه يعفو مع مجاهدة نفسه، وبعضهم يعفو لأنه نفسه تحب العفو، حتى أن بعضهم قال وهذه منسوبة للمأمون للخليفة العباسي قال: «والله لو علم -أي الرعية والشعب بمعنى ما قال- لو علموا ما في قلبي من العفو لتقربوا إلي بالمعاصي»، لمحبته بالعفو فيحب أن يعفو، فمن أفضل؟

بعض أهل العلم قال: «الأفضل الأولى لأن فيها المجاهدة والأجور تكون بمقدار الجهد والبذل»، وقال بعضهم: «لا أن يقوم بها مع على صفة الحب، فاجتمع فيها الحب لها وأدائها، فهو أفضل».

وابن القيم في «طريق الهجرتين» بحث هذه المسألة من الأفضل في ذلك، فقال: «كلٌ بحسب مرتبته له الأجر، أي هذا له الأجر وهذا له الأجر، وهذا له فضلٌ في باب وهو باب الصبر، وهذا له أجر في باب الحب للطاعة، فلا يوجد تعارض بينهما»، ومع ذلك نزيد ونقول لا يمكن للمرء إذا كانت الصفة مكتسبة أن يصل لدرجة الحب والملَكة حتى يمر فيها مع صفات الصبر، ولذلك في الحديث: **(وإنما الصبر بالتصبر، وإنما العلم بالتعلم)**، وكذلك الحلم بالتحلم، يعني هو في الأول في شبابه وشدته منفعل في كل شيء وقليل الصبر لكن يصبر نفسه مرة بعد مرة، حتى تصبح هذه الصفة مَلَكة له، فهو لم يصل إلى النهاية التي يحب فيها الطاعة.

ويقول أحدهم: «جاهدت نفسي عشرين سنة في الصلاة»، فهذه المجاهدة كمقاومة الأعداء جهاد، بعد ذلك تصبح مَلَكة فيه في قضية الخشوع إذا دخل في الصلاة لا يتكلف أن يبعد عنه الدنيا ويمشي فيها، كيف وصل إلى هذه المرتبة؟ من خلال المجاهدة التي بذلها.

القصد من ذلك: هذه لها مرتبة وهذه لها مرتبة.

سؤال المعطي جاءت كلها في صفة الفعل ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾ [الضحى: ٥] هل تعد من أسماء الله؟

قلنا فقط لورودها في الحديث، وردت في البخاري على رواية الحديث، ولهما مخرجٌ واحد وهو بنفس الصيغة، **(ومن يرد الله به خيرًا يفقه في الدين وإنما أنا قاسم والله معطي)**، هكذا وردت، ووردت في رواية أخرى **(وإنما الله المعطي وأنا القاسم)**، فإذا صح هذا اللفظ فيكون من أسمائه، لأنها وردت في التعريف، وإن لم تصح فهي بقيت على الفعل، لأنه لا يشتق من الأفعال هذه قاعدة: «لا يشتق من الأفعال أسماء، والأسماء يشتق منها أفعال»، وباب الفعل أوسع من باب الاسم، فالفعل يدخل فيه ما جاء من أسماء، ويدخل فيه كذلك الأفعال التي لا تكون أسماءً له، فلذلك ذكرناها لورود هذا الحديث: **(وإنما الله المعطي وأنا القاسم)**، وردت على هذا المعنى من الرزاق والمعطي ولأنها صفة مدح من كل وجه، شرط الاسم لربنا أن يكون ممدوحً من كل وجه، أن يكون حسنًا من كل وجه، والعطاء صفة حسن من كل وجه، كالرزاق والرازق.

السائل: شيخنا هل هذا الأمر إلينا يعني أن نحكم نحن مثلًا على هذا الاسم بأنه يعني خير من كل وجه؟

الشيخ: لا، مما قاله أهل السنة -مع خلاف- ولكن على الصواب الذي عليه الجمهور بأن لا ينسب الاسم إلا روايةً، حتى لو اقتضى عقل، ولكن هذا مما يرجح أن المعطي في هذا المعنى، لوروده اسمًا ورد هذا اسم لله عز وجل، فنن أثبتناه للورود ولكن مما يقوي هذا الذي ذكرناه.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الحادي عشر: اللطيف

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

نواصل أيها الإخوة الأحبة مع شرح أسماء الله الحسنى جل في علاه، هذا هو اللقاء الحادي عشر، ومن رحمته جل في علاه أنه اللطيف، من أسماء الله عز وجل أنه اللطيف، وهذه الصفة وردت في القرآن -كما يقول المحصون- سبع مرات، خمسة وردت مقرونة بغيرها، مقرونة بالخبير خمس مرات لم تقرن إلا بهذه الصفة.

وردت مفردة مرتين:

في سورة «الشورى» الله يقول جل في علاه: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩)﴾ [الشورى: ١٩].

وفي سورة «يوسف» قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾ [يوسف: ١٠٠].

ووردت مقرونة باللطيف الخبير:

في سورة «الأنعام» في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وفي سورة «لقمان»، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)﴾ [لقمان: ١٦]، ولقوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)﴾ [لقمان: ١٦].

وفي سورة «الملك» قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك: ١٤].

وفي سورة «الأحزاب» قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)﴾ [الأحزاب: ٣٤]،

وفي سورة «الحج» قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣)﴾ [الحج: ٦٣].

هذه الأسماء الجليلة التي لها تعلق بالرحمة كما تقدم، هي صفات ذات وصفات فعل، كيف نفرق بين صفات الذات وصفات الفعل؟ صفات الذات غير متعدية، لا تتعدى كالجمال ليست متعدية على غيره، ليس لها أثر على غيره، فهو جميل جل في علاه فصفةٌ لذاته، ولكن صفة الفعل تتعدى كالكرم، الكرم صفة مَلَكَة في الذات ولكن لها أثارها على غيره من الخلق، تتعدى بأن لها وقعٌ وفعلٌ على غيره، فهذا هو الفرق بين صفة الذات وصفة الفعل.

لماذا فقط هذه القضية، -فقط نريد أن ننبه على مسألة- أنا لا أحب في هذه اللقاءات أن أكثر في مسائل الكلامية والخلاف بين أهل السنة وغيرهم من المخطئين من المتكلمين، من الأشاعرة، من المعتزلة، ولكن لابد أن نفهم هذه الأمور لأننا سنجدها مطروحة أمامنا، ولأن كثيرًا من المشايخ يتكلمون فيها كلامًا ربما في الخطب تأثرٌ بكلمة سمعوها، أو قرءوها في كتاب فألقوها على الناس، والناس لا يدرون إلا أنها على هذا المعنى.

الأغلب من المتكلمين ينفون صفات الفعل ويرجعونها إلى صفة معنى فقط، يسمون هناك صفات المعاني، انظر إلى أنه معنى بمعنى صفةٌ في الذات لها تعلقٌ بصفةٍ وحيدة وهي الإرادة، يعني المتكلمون من الأشاعرة يثبتون لله فقط سبع صفات، الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، فأين صفة الرحمة؟

مثلًا: لو سألهم سائل أين صفة الرحمة، أين صفة الخبير، يقول لك: هذه كلها تعود إلى صفة واحدة من صفات المعاني وهي الإرادة، أي الرحمة ليست صفة في ذات الله، لا على معنى ولا على عين ولا على أي شيء، ولكن هي إرادة الخير للآخرين فقط، ما هو الله الوهاب الله الرؤوف، ما هي صفة الرأفة؟ قالوا: لا، لا يجوز أن نتوهم أن الله عز وجل فيه جل في علاه في ذاته أن ذاته متصفة بصفة الرأفة، لماذا؟ كل هذا طبعًا عندهم خوفًا من التشبيه، يعني لأن يقولون الرحمة رقةٌ في القلب وهذه لا تتصور في حق الله.

هو كما يقول سلفنا التأويل هو فرعٌ من التشبيه، كيف؟ للأسف أولًا هو شبه، فلما لم يفهم، ذهب فأول، يعني هو في الأول شبه فهرب من التشبيه إلى التأويل، ولو أنه أجرى القاعدة التي عليها سلف هذه

الأمة «بأن القول في الصفات كالقول في الذات»، عندما نثبت لله ذاتًا، ونثبت للمخلوق ذواتًا، فهل ذات الله بمعنى لما أثبتناها تشبه ذوات المخلوقين؟! لا.

والغريب جدًا أن هذه الصفات التي يعيدونها إلى صفة واحدة، لماذا صفة المعاني؟ انتبه معنى، لأنه لا يقوم المعنى إلا بذات، وهذه صفات المعاني التي جعلتهم ينفون صفات أخرى، مثل صفات الأعيان كوجه الله، كيد الله -أنا أتكلم عن المتأخرين من المتكلمين- هذه صفات تسمى بصفات الأعيان؛ لأنها يمكن أن يفهم معناها على وجه من وجوه الذات.

فلو سئل سائل ما الفرق بين صفات المعاني وصفات الأعيان؟ نذكر دائمًا ما الفرق إضافة الملك وإضافة الصفات؟ هذه مثل هذه، كيف نفرق؟

مثلًا: نقول مساجد الله، نقول بيت الله، نقول أَمَة الله، عيسى عليه السلام نقول عنه روح الله، فنسبنا لكن هذه نقول ماذا؟ النسبة نسبة تشريف، ونسبة ملك الله يملكها لكن اختصت بذلك أن الله شرفها فانتسبت إليه، فلماذا لم نقل إنها نسبة صفة؟ لأن هذا المضاف يمكن تخيله بعيدًا عن المضاف إليه، له وجود مستقل منفصل عن المضاف إليه، المسجد مساجد الله، فالله له ذات جل في علاه، والمسجد له ذات، فيمكن تخيل انفصال الذات المضاف على المضاف إليه، المضاف يعني المسجد والمضاف إليه الله عز وجل.

ولما نقول عيسى روح الله، الروح يعني مخلوقة لله، فروحنا منفصلة لها ذات مستقلة منفصلة عن ذات الله، هذه تسمى إذا كان المضاف يمكن استقلاله في الوجود عن المضاف إليه فتكون النسبة نسبة ملك وتشريف، يعني نقول: الله له ملك السماوات والأرض، فهذا ملك لكن عندما يختص شيء بأن ينسب إلى الله يكون هذا على معنى التشريف والتقدير والتعظيم.

فكيف نفرق بين صفات المعاني وصفات الأعيان؟ صفات المعاني يُشتق منها أسماء، وصفات الأعيان لا يشتق منها أسماء، يد الله هذه صفة لله، -نرجع للأولى- كيف نعرف أن النسبة نسبة صفة؟ عندما لا يمكن تخيلها منفصلة، أي المضاف عن المضاف إليه، لا يمكن أن تقوم بنفسها، عندما نقول نحن علم الله، هل نتصور أن هناك ثمة علم يقوم بنفسه بعيدًا عن الموصوف، بعيدًا عن المضاف إليه، لا يمكن ذلك، فهذا هو الفرق بين نسبة الصفة ونسبة الْمُلك والتشريف.

نرجع إلى المعاني: ما الفرق بين صفات المعاني وصفات الأعيان؟ صفات المعاني يشتق منها أسماء مثل العلم، نقول: العلم صفة من صفات المعاني، فإذن يشتق منها اسم فنقول: الله العليم، القدرة صفة من

صفات المعاني يُشتق منها القدير وهكذا، ولكن صفات الأعيان مثل يد الله، هذه كلها صفات النسبة يد الله، عين الله، وجه الله، كلها هذه صفات أعيان لا يشتق منها أسماء، الفرق بينهما هذا، ولكن هذه صفات لله عز وجل.

انظروا إلى أعجب ما قالوا! نفوا عن الله صفة الرحمة وأعادوها إلى صفة إرادة الرحمة، فصارت الرحمة ليست صفة لله، ولكن صارت هي بمتعلقها في إرادة الرحمة على الخلق، إذن هي إرادة، والعجيب جدًا أن صفة الإرادة هي أكثر ما يمكن أن يقدح فيها في كونها مشابها للخلق، هربوا من كل الصفات التي ذكرت عن الله عز وجل خوفًا من أن تتشابه مع المخلوق إلى صفة هي أجلى ما يمكن أن تتشابه مع المخلوق، يعني صفة الإرادة يقال فيها ما يقال عن صفة الرحمة، وزيادة عن ذلك: أن الإرادة تتجدد، أي الإرادة لا يمكن أن تكون قديمة، هم قالوا: في إرادة قديمة هكذا جهلًا، ومنجزاتها حادثة، فلا تتجدد الإرادات، لماذا؟ قالوا لأن تجدد الإرادات يعني الحدوث، والحدوث صفة مخلوق، والمخلوقة يعني أنها تحدث في ذات الله، فهذا عندهم هو حلول الحوادث في ذات الله.

ما المقصود بالحوادث؟ بمعنى أن الشيء لم يكن فكن، بهذا المعنى عندم نقول الإرادة قديمة يعني هي العلم، ما الفرق بينها وبين العلم؟ لا فرق، الله يعلم أنه سيخلق، طيب متى خلق؟ قال: خلق أزلًا لكن حدثت أثر الإرادة متجددًا، هذه لا يمكن أن تتخيلها، لا يمكن للعقل أن يفهمها، ولذلك إثبات صفة الإرادة فيها تشبيه على قاعدتهم، وفيها كذلك مصيبة أخرى، وهي حلول الحوادث بذات الله عز وجل، هذه هي الطامة.

فلذلك نقول: بأن هذه الصفات هي صفاتٌ حقيقة، الآن سأبين هذه الكلمة؛ لأننا نسأل اليوم عن هذه النقطة وأنا سأبينها في بداية التفسير لأني وصلت ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، سأبينها ولكن لا بأس هنا.

ما معنى هذه الكلمة عندما نقول: الله رحيم، فهذه صفة لله عز وجل قائمة بذاته، واحد سأل سؤال لابد أن نجيب هنا، قال: عندما نقول إن الله عز وجل قسم رحمته مئة جزء، فأنزل في الدنيا جزءً واحدًا من هذه الرحمة وأبقى تسعة وتسعين، ما المقصود؟ الصفة لا تنفك عن الموصوف، ولكن يصبح لها أثر، عندما يكون الأنسان رحيمًا لا تنفك عنه الرحمة، لكن يصبح لها أثر ومقتضى في الوجود، فلذلك هذا ليس معنى أن رحمة الله خلت عنه وخرجت عنه إلى الخلق، فالذي يحدث من الرحمة في قلوب الخلق، ليست

هي رحمة الله، هذه أثر رحمة الله، مخلوقة من رحمة الله، فهذه يجب أن نفهمها لأني وجدت من يسأل عن هذا الباب، فلذلك الصفة لا تنفصل عن الموصوف لكن لها أثارها.

نعود نقول: أن عيسى هو كلمة الله يعني خلقه كما خلق آدم كن فيكون، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فهل هو ذات الكلمة؟ الله تكلم فالكلمة هي صفة من صفاته جل في علاه، الله يتكلم، لكن هل هو ذات كن، هل عيسى ذات كن، نعوذ بالله يعني يصبح جزء، ويصبح بعد ذلك الصفة هي جزء من الموصوف، فهي أثر هذا.

فإذن الله من رحمته أن خلق مئة رحمة، فما يحدث في البشر في الأم في الأب، في الرحيم من الخلق، الله خلق رحمات، مئة رحمة فأنزل من هذه المخلوقات، فهذه الرحمة في قلوبنا مخلوقةٌ، لكن مخلوقة من أي أثر؟ ولذلك انظر آثار رحمة الله، الله هو الخالق صفة الخلق هل نحن هذه الصفة، أم نحن أثر هذه الصفة، نحن مخلوقين، فنحن إذن أثر من أثر هذه الصفة.

نرجع إلى الموضوع الذي بين أيدينا –انتبهوا– الرحمة قال: أثر إرادة الرحمة الإحسان أثر إرادة الإحسان، الرؤوف أثر إرادة الرأفة، إذًا بهذا المعنى كلها زيادات لا فرق بينها –على ما قالوه: إرادة الرحمة، إرادة الخلق، إرادة الإيجاد – إذن هي صفة واحدة، وهذا باطل.

والصواب أن الله له أسماء وله صفاته، هذه الصفات تختلف –هذا الذي نبينه نحن ولكن بطريقة من وجه آخر– نبين أن الرحمة تختلف عن الرأفة، تختلف عن الإحسان، وهكذا كل صفة لها وجهها، وقد تجتمع هذه الصفات في قاعدةٍ واحدة، ولكن كل صفة تفترق من جانب من الجوانب، كما رأينا في التواب والغفار والعفو، رأينا أن هذه الصفات فيها افتراق وفيها اجتماع.

يبقى موضوع مهم عندما نقول نحن –القاعدة المعروفة– بأن الكيف مجهول والمعنى معلوم، قال: «الاستواء معلوم» يعني كل صفة من صفات الله معلومة، هنا السؤال، ما معنى معلومة؟ ما الذي نطلبه من كلمة معلومة؟ نطلب من كلمة معلومة أولًا: ما علمته العرب، ينبغي أن تثبت ما علمته العرب من هذه الصفة، عندما تقول الاستواء، عندما تقول الرحمة، كل الصفات يجب أن تكون معلومة وإلا فلا معنى أن يخاطبنا الله عز وجل بها، ويأمرنا أن ندعو بها ونحن لا نعلم معناها، لا نعلم أثرها.

أهم شيء في قضية المعنى هو أن نعلم اختصاص ما لها من معنى دون غيرها، أهم هذا هو المعنى أهم كلمة وشرح لكلمة معنى، هو أن نتعلم اختصاص هذه الصفة لمعاني دون غيرها، نرجع لو قلنا الرحمة هي إرادة الرحمة، الإحسان هي إرادة الإحسان، الرأفة هي إرادة الرأفة، يعني أنت جعلتها كلها شيء واحدًا.

وهنا تأتي قضية مهمة وهي صفات الأعيان، أنا أرد على شبه المعاصرين، القدماء يطرحونها باستحياء ولكن المعاصرين فجوا فيها وفجروا فيها، عندما أهل السنة يقولون: أن الله له يد، وتقولون: لها معنى، ولا يتصور المعنى إلا بأن تكون اليد جزءً، تقول هذا التبعيض وغيره والتركيب دعكم منه، فإن أعظم –الآن لا نرد على المعتزلة نرد على الأشاعرة– فإن أعظم ما يرد عليكم هي أن الله يرى يوم القيامة، إما أن تجعلوها رؤيا حقيقة بالبصر، قال صلى الله عليه وسلم: **(إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر)**، يثبتون هذا، فإما أن تثبتوا هذا المعنى فحينئذٍ الله يرى والله حقيقة، وبعد ذلك ليس لي بعد ذلك كيف فهمتها، كيف رددتها، لكن عليك أن تثبتها كما أثبتها النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: **(إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر)**، أثبت مشابهة الرؤيا لا المرء، يعني لا يجوز تشبيه الله بالقمر، ولكن هو هنا تشبيه الرؤيا، فلا يجوز لك أن تأولها، لا يجوز لك أن تأول الرؤيا.

نقول: ما المقصود؟ يقول: علمني معناها حتى أفهم، نقول: أولًا يكفي أن تفهم أن مقتضاها غير مقتضى الصفة الأخرى، بمعنى يد الله هل تفسرها بأنها وجه الله، إذًا أنت جعلتها صفة تختلف عن بقية الصفات، هذا يكفي هنا هذه واحدة، هل يد الله هي عين الله، إذًا هي صفة مستقلة تصبح في القرآن موجودة، فنقول هذا المعنى:

أولًا: أنك جعلت لها معنى مستقل يختلف عن بقية الصفات الأخرى التي تشابهها في كونها صفات أعيان هذه واحدة.

الشيء الثاني: مقتضى هذه الصفة يختلف عن الأخرى، نريد أن نفهم المعنى، لما نقول ما هو المعنى المتبادر لديك لكلمة اليد؟ ما هو عمل اليد، ما هو أثرها، وما هو أثر العين، أنت تعلم أن أثر العين هو الأبصار، وأن أثر اليد هو القدرة، العطاء، الكرم، فإذًا أنت أثبت أثر لهذه الصفة يختلف عن الأثر الأخر، إذن جعلت لها أولًا: معنى مستقل، يختلف هذا عن هذا، ثانيًا: جعلت لها أثر يختلف عن الأخرى، هل نزيد عن ذلك؟ عند المخالف يكفي هذا.

حتى نقول أنها لها معنى، أنك أثبت أنها صفة تختلف عن الأخرى، فليست هي كلام عن الذات، يعني مثلًا نقول: وجه الله، قد يقول قائل: المقصود بوجه ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، فلا أحد يقول بأنه يفنى كل شيء في ذات الله ولا يبقى إلا وجهه، المقصود وجه الله هنا الذات، المقصود لا يبقى إلا هو جل في علاه ذاتًا وصفاتًا، لا يبقى إلا ذاته وصفاته وأفعاله، ولكنه لا يمكن أن يعبر عن هذا المعنى، إلا بالوجه الذي هو حقيقة له جل في علاه.

هذا الوجه لو قال قائل: كل شيء هالك إلا يده يصح هذا الوجه، ولكن نحن نعرف أن مقتضى اليد غير مقتضى الوجه فإثبات الوجه يختلف عن إثبات اليد، من هنا هذه الصفات لابد أن تفترق على هذا المعنى.

فإذا سألك سائل وقال لك: ما معنى ما تقول الاستواء معلوم، نقول اللغة يعني معلوم في خطاب العرب، وثانيًا أن لم يقبل هذا يقول: أنا لا أتصور إذا خُطبت بخطاب العرب إلا أن أقول بأنها تشبه يد المخلوق، وأصر على هذا الجهل في كلامه، فيصار إلى النقطة الثانية التي ذكرناها؛ بأنه هذه الصفة تختلف عن تلك الصفة، وهذه مقتضاها يختلف عن مقتضى تلك، إذن هي صفة مستلقة لابد أن تثبت لله عز وجل.

الآن نأتي إلى قضية إثبات صفة اللطيف لله عز وجل، فإذن اللطيف هي صفة ذات؛ أنه هو جل في علاه ذاته لطيفة وأن فعله في خلقه لطيف، فصفة اللطف ذاتًا وفعلًا، كما سيأتي **(اللهم أنت السلام – هو السلام– ومنك السلام)**، هذه القاعدة يجب أن تبقى في أذهاننا دائمًا، أن هذه الصفات هي صفات ذاتٍ وصفات فعل، وقلنا إنما وردت أنها اللطيف الخبير، –وسيأتي الكلام عن الخبير–.

ولكن ما هو اللطف؟ اللطف هو الرقة، هو الدقة لأنه يدق فإذا دق ورق استطاع أن يصل إلى ما يريد، الآن عندما يكون الشيء خشنًا ويكون كتلة وصلب لو أردت أن تدخله هذا البيت لا يدخل، لكن لماذا يدخل الهواء؟ لأنه لطيف، فكلما كان الشيء لطيفًا كلما استطاع أن يصل إلى مراده؛ بأن يصل إلى باطن الأشياء وإلى ما يخفى على غيره مما لم يكن معه اللطف الذي معه.

إذًا ما هي صفة اللطيف في حق الله؟ أنه جل في علاه ذاته لطيف على هذا المعنى وفعله في خلقه لطيف، فلما جاءت الصفة مقرونة بالخبرة، الآن لماذا اقترنت صفة اللطف بالخبرة؟ الخبير هو العليم، ولكن العلم قد يكون لما ظهر، عالم يعلم، عالم لظاهر الأمور، فإذا دق علمه حتى خبر الأشياء من بواطنها لم يحصل هذا الخبرة إلا باللطف، ولذلك اقترن دائمًا يأتي اللطيف بالخبير، لأن جل في علاه يصل إلى مراده في خلقه باللطف، علمًا وبعد ذلك عملًا فيهم، ولذلك اقترن اللطيف بالخبير.

ما هو الخبير؟ هو العالم بظاهر الأمور وبواطنها، ولا يمكن أن يصل إلى بواطن الأمور علمًا إلا بالطف، فلذلك هو ذاته جل في علاه لطيف، جل في علاه هو النور حجابه النور وهو جل في علاه لطيف بأعلى المعاني التي في فعله وفي ذاته جل في علاه وفي صفاته، وكذلك لطيفٌ في تعامله مع الخلق، كيف لطيف في التعامل مع الخلق؟ يوصل نعمه ومراده في الخلق بخفاء، ويوصل نعمه ومراده في الخلق بدقة ورحمة، لأن

اللطف هو الرحمة، الآن لو جاءتك نسمة هواء هذه لا تؤذيك لكن لو جاءك حجر يؤذيك، إذًا قدوم الشيء إليك لطيفًا يؤدي إلى عدم الإيذاء، وقدوم الشيء إليك بغير لطفٍ يؤدي إلى إيذاءك؛ فكلما دق الشيء كان لطيفًا.

وضح لدينا أن ذاته لطيف جل في علاه فهي صفة ذات، والآن لطفه في خلقه، أول لطف هو لطفه بالعلم كما ذكرنا لطيف خبير، أنه سبحانه وتعالى لطيفٌ خبير يعلم بواطن الأمور في الخلق لأنه لطيف، وكذلك عطاءه ورحمته باللطف، انظر ما يعطيه ربنا عز وجل لعبيده من غير أن يؤذيهم، ويرحمهم في عطاءه، يعطيهم الأولاد ويعطيهم المال، ويعطيهم ما يعطيهم من الكرم بخفاء، وهذا من أعظم الرحمة.

وإن أعظم –دائمًا أقولها وأظن سمعتموها مني كثيرًا– إن أعظم ابتلاء في الخلق في عدم رؤيتهم يد الله؛ أنه يعطيهم عن طريق الأسباب، من رحمته يعطيهم عن طريق الأسباب، ويمن عليهم هذا العطاء عن طريق الأسباب حتى خفيت يد الله، نستطيع أن نفهم هذا من خلال قصة يوسف عليه السلام، بعد أن تم العطاء الإلهي وابتدأت القصة بأن رأى يوسف عليه السلام رأى أحدا عشر كوكبًا والشمس والقمر رآهم ساجدين له، كيف تأولت الرؤية، هذا المسيرة التي مشاها يوسف عليه السلام ومشاها أبوه وإخوانه، من أول القصة إلى أخرها، الله عز وجل قدر أن يكون هذا الأمر، ومشى هذا الأمر إلى العزة بطريقٍ فيها الإيذاء، ظاهرها الإيذاء، أول شيء أخذ من أبيه ورمي بالبئر، صار عبدًا وبيع وزوجة العزيز راودته فسجن.

فأنت حين تنظر إلى هذا الأمر لا يمكن لإنسان يعيش اللحظة –وهنا أنبه على نقطة مهمة سآتي إليها الآن– لو أنك عشت اللحظة لا يمكن لك أن تفهم النهاية، أن تتصور كيف يصل مرادك في العزة مع أخطر وأصعب طرقٍ يوصل إليه، يعني المرء يريد أن يصل إلى شيء جيد، فلا بد أن يسلك الطريق السهل الذي ليس فيه المشقة، بحيث ينظر الناس يقولوا ما شاء الله يعني هو سالك طريق سهل وهذا دليل على أنه سيصل إلى مراده.

ولكن تصور أن رجلًا –ولله المثل الأعلى– أراد أن يصل إلى عزة وكرامة ويصل إلى مبتغاه، فأتى إلى أصعب الطرق وأشقها، على ماذا يدل هذا؟ يدل على قدرته، ولذلك افتتحت السورة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]، منذ بداية الأمر، الغريب –وأنا قلتها وسجلتها– أن السورة افتتحت ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ واختتمت باللطيف، ولو كان الأمر بيد كاتب غير الله عز وجل لعكس المسألة، لبدأ باللطيف، فيبدأ باللطف به وبعد أن ينتهي الأمر وإذا قد صار هذا الولد الطريد المأسور صار ملكًا فقال والله غالب على أمره.

ولكن أعلم دائمًا أن الأمور لم تفلت من يد الله، فلتت من يدك أنت، خرجت الأمور من يدك أنت، لكن عندما تتحقق الأمور قل مع هذا الوضع سيتم النصر؟! هذا سؤال لك أنت ولا يسأل به رب العزة، أنا أسألكم كم من الحوادث التي عشتموها، كيف ستنتهي؟ أما جلست في حوادث كثيرة تتساءل كيف سينقضي هذا الأمر؟ أنقضى أم لم ينقضي؟ أنقضى، ذهب، من الذي قضاه أنت؟ لا، أنت جلست مستسلمًا ويأسًا، ثم قضاه رب العزة بلطفه، ومع اللطف كان في أشق حالاته.

فيوسف عليه السلام، الله عز وجل بدأ بهذه الرؤية، وسيرفع شأنك، ويقول له والده لا تقصص رؤياك على أخوتك، يبين واضح الأمر أن يعقوب عليه السلام علم أنه سيكون له شأن هذا الولد، فقال إياك ابتعد، هو أراد حتى يسلم له الملك، ويصل إلى الدرجة العالية، أن يسلك طريق الإنسان، يعقوب الإنسان عليه السلام، من أجل أن يصل إلى مراده لابد من طريق السلامة.

فيعني عندما تقول أنا أريد هذا الولد أن يصبح ملكًا وعليه الأعداء ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، هناك إخوانك في بيتك يكيدون، قل خذه وأهرب به إلى الجبال وأجعله سليمًا من أي أذى من هؤلاء الإخوان، هذا فعل الأنسان، الله عز وجل لا أسلمه إلى إخوانه، وإخوانه ورموه في البئر، هل الأمور فلتت من يد الله؟ هل خرجت من سلطانه؟ انظر إلى لطفه، هنا اللطف، كل الأمور تدل على صعوبة الأمور ومشقتها، وأن النهاية مأساوية ستنتهي بهذا المسكين، سيموت إما في البئر، وإما تأكله الدواب، وإما البرد وإما الجوع، وكل القصة كأنه ليس هناك يد إلهية تديرها.

لو أراد رجل أن يقول أين يد الله؟ إخوانه رموه بالبئر وبعدها مرت سيارة قافلة وأخذته، لكن هي يد الله الخفية، هذا اللطف، ولذلك انتهى بهذه الآية، أن الله لطيف، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾ [يوسف: ١٠٠]، كل ما وقع من هذه الأحداث مع ظاهرها المشقة، لم تفلت من يد الله وقامت على معنى اللطف، يعني خفاء يد الله عز وجل من هذا الحدث، هذا أعظم ما ينبغي ان تنتبه له ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)﴾ [لقمان: ١٦]، يأتي بها الله بخبرته في معالجة كل أمر، وللطفه في وصوله إلى مراده جل في علاه فلا يحجزه أحد فعله.

فالثقة في أن الله هو اللطيف، والنظر إلى يد الله التي لطفت بالخلق، وهذا المعنى في سورة «يوسف» يدلك على أن لطف الله غير لطف المخلوقين.

نأتي إلى نقطة وعدت أن أتكلم عنها، من أغرب ما رأيته في جريان القدر ومن لم يفهمها لم يفهم كيف تقع الأقدار، مما رأيته في جريان الأقدار في تحقق المراد أن الشيء يوصل إلى -في فهم الناظر وفي سلوكه- إلى تجاوز محطات النصر ومحطات الحدث، يتجاوزه، هو يكون النصر موجود، ولكن الإنسان نظره يتجاوزه، أو فعله يتجاوزه ولا يفهم عليه مع أنه يكون قريب منه.

لتتضح هذه الكلمات أضرب لكم الأمثلة في أقدار الله البينة: نحن الآن يوم الجمعة نقرأ سورة «الكهف»، ما هو السر في أن يتجاوز موسى عليه السلام، ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، هذا كله من هذه المعاني التي يجب أن تفهمها في جريان أقدار الله، من أجل أن يثبت الله عز وجل لعبيده أنه ليس بيدهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾ [سبأ: ١٤]، يكون الأمر بين يديك حاضرًا على وجه من الخفاء فلا تعلمه وهو حاضر عندك، وتتجاوزه وهو بين يديك.

موسى عليه السلام مشى هو وفتاه، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١)﴾ [الكهف: ٦٠-٦١]، وصلوا هم إلى المكان الموعود، لكن تجاوزوه، لماذا تجاوزه؟ هذه كلها من أقدار الله التي تجري على هذا المعنى، يعني هو وصل إلى المكان الذي أراده، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾، إذًا هو ذاهب لمكان محدد، وفي الحديث الذي رواه ابن عباس: **(قال له إن المكان الذي تغيب فيه السمكة)**، أي السمكة التي وضعها في المكتل، فتخرج من المكتل إلى البحر، وهي خرجت ولم ينتبه لها، ثم مشى حتى إذا مشى بعيدًا عن المكان الموعود مع الخضر، قال له: آتنا غدائنا ﴿قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢]، فلما فتح المكتل وإذا السمكة هاربة، فعلم أنه تركها ورائه، لماذا هذا؟ لماذا لم وصل لم يقع؟ هذا واحد.

ثانيًا: لما لوط عليه السلام جاءه الملائكة، ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هود: ٨٠]، الملائكة عنده، النصر بين يديه في بيته، النصر مع قمة البلاء والوصول إلى قمة البلاء، ماذا قال موسى عليه السلام، ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا﴾ [الكهف: ٦٢]، لم يبقى خلاص انتهى الجهد البشري، وهنا ماذا قال لوط؟ ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)﴾ [هود: ٨٠]، وهم عنده ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨١]، يعني لما قال صلى الله عليه وسلم: **(لقد كان يأوي إلى ركن شديد)**.

في صلح الحديبية هم في قمة ما يريدون وقاموا وحلقوا رأسهم حتى جزا بعضهم رأس بعض من شدة الغضب، تعرفون قصة الحديبية لما تم الصلح، ومع ذلك كان النصر، هذا يعلم البشر أنهم ضعفاء وأنكم سعيتم وفعلتم وكان النصر بين أيديكم وكان سليمان ميت وأنتم تعملون، وكان المكان قد وصلتموه وأنتم لا تعلمون، وحدث النصر وأنتم لا تعرفونه، الصحابة زعلانين عن صلح الحديبية، لا يريدونه، في بدر راحت عليهم القافلة، كل هذا يدل على ماذا؟ أنكم أنتم ضعفاء لا تملكون شيئًا، لا في رزقكم، ولا في مرادكم ولا في أحوالكم، لا تملكون شيئًا، هو بيد الله هذه افهمها، هذه الزاوية الأخيرة الحادة في حصول الكرامات الإلهية والعطاء الإلهي، هذا لابد أنت تلاحظه في حياتك.

فعندما يكون الأمر ماشيًا على اتجاه أنت تقول خلص هذا نهاية الأمر، ويكون الأمر قد خبأ الله لك خبيئة الخير، أو خبأ نعوذ بالله لعدوه خبيئة الشر ماشي في زهوه وعتوه، فيخبئ له، هو يمشي ويقول انتصرت، انتهى خلص، ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾ [يونس: ٢٤]، انتهى ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ﴾، هذا الظن له أدواته ولم ينشأ من الخيال ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾، هم فيما يرون من أدوات الوجود قد ملكوا كل شيء، فتكون النهاية مخفية عنهم نقولها في لغتنا العامية "كوربا شوي مخباي هناك" انتظر قليلًا هناك.

فهذا كله يجب أن نفهمه في حياتنا، وهذا كله من لطف الله، بالنسبة لأهل طاعته، هذا لطفه بهم، ولأجل أن يعلموا حتى إذا انتهى الأمر **(ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده)**، حتى تحمد الله، حتى ترى يد الله، حتى يأتي هذا الحديث العظيم في الحديبية، **(يقول الله أصبح اليوم مؤمنٌ بي وكافرٌ بي، فأما الكافر يقول مطرنا بنوء كذا، وأما المؤمن يقول مطرنا برحمة الله)**، حتى يحمد، حتى المرء يرى يد الله ويعلم، لو جرت على هذا المجرى من الأمور، تصور لو جرت على مجرى العزة من عزة إلى عزة يقول هذه مفهومة، لكن أن تجري من البئر إلى العبد إلى السجن ليكون مَلِكًا، هذه هي يد الله، كنا نريد أن نتكلم عن الخبير لصلتها باللطيف، لكن نؤجل الحديث إلى الدرس القادم إن شاء الله.

بارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني عشر: الخبير

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

من الصفات التي تكررت كثيرًا في القرآن الكريم لما لها من علاقة في تعبد المرء لربه وفي مراقبته لربه يعني مراقبة الإنسان هذه النفس لربه جل في علاه، فهذه الصفة تكررت من أجل أن يبقى العبد مراقبًا لربه، مراقبًا لربه يعني أن الله عز وجل يراقبه وأن الله عز وجل مطلعٌ عليه، واطلاع الله عز وجل عليه يوجب الحياء منه أولًا، يستحي منه، وهذا أمرٌ علوي عظيم وهو أن يكون مبعث الطاعة ومبعث اجتناب المعصية هو الحياء؛ لأن في الحياء رؤية المنعم، في صفة الحياء أي العبد يتعبد ربه بالحياء منه فإن في ذلك رؤية النعم التي أنعم به الله عز وجل على العبد.

والعبد حين يرى هذه النعم العظيمة التي أنزلها ربنا عز وجل على العبد فتنشأ لديه الحياء من أن يعصيه، ثم إن تعبد المرء من خلال صفة الحياء من ربه عز وجل فيها الحب؛ فإن المحب يستحي أن يغضب محبوبه أو أن يطلع محبوبه على شيءٍ يكرهه فيه ولذلك مما ذكره العلماء قديمًا بأن الحب يرقي النفس، الحب حب الإخوة يحب أخاه فيرقي نفسه، حبه لأبنائه يرقي نفسه، الحب من أعظم الصفات التي ترقي النفس البشري، ومن أعظم ما يترقى به العبد من خلال صفة الحب هو الحياء؛ أي إذا بلغ المرء درجة الحياء فهذه صفة ممدوحة.

والحياء مع البشر ممدوح ولا يذم من حال فالحياء لا يأتي إلا بالخير، وأعظم الحياء أن يستحي العبد من ربه، فإذا كان منشأ التعبد هو الحياء فدل هذا على عظيم التعبد وعلى عظيم الطاعة وعلى أن هذه الطاعة له خصال خاصة، يعني تنشأ العبادة من خلال صفة الخوف ولكن صفة الخوف من الله عز وجل ليست بأجّل من صفة الحب له الذي هو ينشئ الحياء.

فلذلك من أعظم الصفات التي أخبرنا القرآن عنها عن ربنا عز وجل أنه الخبير، والخبير من مراتب صفة الرحمة ومن مراتب صفة العلم ولذلك في القرآن لئلا تقع صفة الخبرة على وجهٍ من وجوه الغلط في نفس العبد فإنه أجراها على معنى اللطف، فاقترنت صفة اللطيف -فيما تكلمنا بالدرس الفائت- جرت صفة اللطيف مع صفة الخبرة؛ لحاجة صفة الخبير إلى اللطف وحاجة صفة اللطف إلى الخبرة، كيف؟ صفة

الخبرة هي فوق صفة العلم فالعلم هو معرفة الشيء وقد تقع على المعنى الظاهر -وهذا تكلمنا عنه- يعلم الشيء فربما يعلم وجوده يعلم ظاهره ولكن أن يكون عالمًا ببواطنه فهذه الخبرة، لا يكفي أن يكون عالمًا بظاهره ولكن أن يكون عالمًا بباطنه.

ومثال ذلك: لو أن المرء عِمل عملًا في ظاهر الأمر فأنت تعلم أن هذا الرجل قد عِمل هذا، تصدق تكلم، ضرب، تحرك، مشى، ذهب من مكان إلى مكان، فهذا علمٌ به، ولكن أن تعلم دخائل نفس هذا الإنسان لماذا تكلم؟ ما هي دوافعه؟ كيف نشأت إراداته في داخله؟

ولذلك من أعظم ما تفيده قصص القرآن وأخبار القرآن أنها تتحدث عن بواطن الفاعلين، يعني السيرة النبوية المروية لنا من خلال الصحابة رضي الله عنهم تتحدث عن ظاهر الفعل، تتحدث أن الصحابة رضي الله عنهم فعلوا كذا، قالوا، مشوا من المكان الفلاني، أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم فامتثلوا، قاتلوا فانتصروا، فتتحدث السيرة عن الأمور الظاهرة، أين كانوا؟ ما هو المكان الذي نزلوا فيه؟ كيف وزعوا أنفسهم؟ ما الذي حدث؟ فالسيرة تتحدث عن الظواهر ولا يستطيع أحد أن يتكلم عن البواطن إلا بأن تظهر علامات ودلالات ظاهرة تدل على الباطن.

مثال ذلك: عندما تحدث الصحابة عن ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١] فقالوا: «ساءت أخلاقنا»، نحن لا نستطيع أن نقولها إنهم يتحدثون، كيف ساءت أخلاقهم؟ بما يتحدثون هم، فعلموا ما في بواطنهم من خلال الظاهر، فالإنسان لا يجوز له أن يتكلم عن الباطن إلا من خلال الظاهر ودلالة الظاهر على الباطن دلالةٌ تامة ولكنها ليست مطلقة، فهي دلالة تلازم، بمعنى أنه لا يمكن أن ينشأ شيءٌ من الظاهر إلا وقد نشأ مثيله من الباطن، من الحب والكره والإرادة والطلب إلى غير ذلك.

ولكن هذا غير مطلق لوجود النفاق، يمكن أن يفعل فعلًا في الظاهر ويكون ضده في الباطن، ويمكن أن يكره المرء يُظهر عمل في الظاهر ويكون مكرهًا عليه فلا يكون دالًا على ما في باطنه، ولذلك علاقة الظاهر مع الباطن علاقة تلازم، لكنها غير مطلقة، هذه قاعدة من القواعد يجب أن نفهمها في أبواب كثيرة من العلم.

لكن نرجع إلى الصحابة لما يخبرونا في السيرة نقرأ الظاهر، القرآن أعظم ما يتحدث به عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وقد تحدث القرآن عن أغلب الغزوات الكبرى، تحدث عن غزوة بدر في سورة «الأنفال»، وتحدث في قطعة من سورة «آل عمران» عنها، وتحدث عن أحد في «آل عمران»، وتحدث

عن الخندق في «الأحزاب»، وتحدث عن بني النضير في سورة «الحشر»، وتحدث عن بني قريظة والأحزاب في سورة «الأحزاب»، وتحدث عن غزوة تبوك في سورة «براءة».

ولكن كيف تحدث القرآن عن السيرة؟ تحدث عن البواطن، فهذا دليل خبرة ربنا عز وجل؛ أنه خبير وهذا الخبير اطلع على النفوس، انظر إليه لما تحدث مثلًا عن الكفر قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)﴾ [النحل: ١٠٦]، هذا الكفر كيف نشأ؟ تحدث عن باطنه، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧]، انظر فكشف ما هو السبب وماهي العلة للدافع؟

وهذا الإخبار من ربنا يفيدنا من أجل أن نقطع عن أنفسنا احتمال الفكر والنظر بالنسبة لهذا الخصم، وللأسف اليوم هذا نحن في غفلةٍ عنه، مشايخنا في غفلةٍ عنه، المفكرون في غفلةٍ عنه، يظنون بأن الخصم لهذا الدين ربما يكون مبعثه الفكر، يأتون ويتكلمون، يقول: المشايخ لم يعذروا إلى الله لم يتكلموا لم كذا، القرآن ليس كافيًا في الدلالة!! الرجل بذل وسعه ولم يهتدي، القرآن يكذبهم ويقول جل في علاه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾ [العنكبوت: ٦٩]، هذه قاطعة بأن المرء إذا جاهد في الوصل إلى الحق بمقدار ما يحتاجه الحق لا بد أن يتحصله، وهذه قاطعة بأن الله قد أعذر إلى الخلق كل واحد يريد الحق لا بد أن ينتهي منه.

فلذلك هؤلاء المرتدون ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾، سواء أكان كافرًا أصليًا أو تحول من الإيمان إلى الكفر فهذا سببه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾، خلاص كشف الباطن انظر إلى كشف الباطن العجيب هنا -هذا يفيد العابد لربه- الله عز وجل قال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧)﴾ [التوبة: ١١٧]، من الذي يستطيع أن يتحدث عن هذا سوى الرب سبحانه وتعالى سوى الله عز وجل الذي علم ما في بواطن هذه النفوس، وهذا حديثٌ عن المهاجرين والأنصار خيرة الخلق، كشف.

والخبر هناك أجراه ليقطع العذر في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧]، ليقطع العذر، حتى أنت تطمئن أيها المؤمن وتكشف، لا يوجد دينٌ من الأديان يكشف خصوم الأصحاب الذين يتبعون خصومهم لا يكشفهم كما يكشفهم القرآن، يكشفهم ويعريهم في بواطنهم، ومن أجل أن تكون الثقة بما أنت عليه من الحق واحتقار من خالفه، لا يمكن أن يخالف هذا الحق أحدٌ إلا وهو

يستحق الإبعاد وأنه لم يبذل جهده أو أن نفسه –بسبب الهوى– تقول نفسه خلاف ما أبطنت في داخلها، فيخبرنا عن الصحابة هؤلاء الأنصار والمهاجرون العظماء، القرآن هنا لماذا يخبرنا عن بواطنهم؟ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾، لماذا يخبرنا هذا؟ يخبرنا ليدل على رحمته جل في علاه في اجتباه، أنه اجتبى الخلق، فيدل على رحمته.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾، الله عز وجل عصمهم ورحمهم من أجل أن يدل على رعايته لهم وأنهم يستحقون رحمته.

وثانيًا: ومن أعظم ما يفيدنا هذا الإخبار عن بواطن هذه النفوس أن النفوس مهما علت –هذا إخبار من رحمته لهم– أن النفوس مهما علت فإنه لا بد أن تحدثها نفسها بالشر، ليقول لك أيها المؤمن إياك أن تنزع إذا حدثتك نفسك بالباطل فقد حدثت الأخيار من قبلك، لأن الناس مساكين كثيرًا ما تنشأ الأسئلة وتأتي إلى المشايخ: شيخ نفسي تحدثني، هذا الآن يدل على أن هذه مرتبة وقع فيها الكبار والأخيار والعظماء، فوقع الحديث النفسي والصراع النفسي بين إرادتين هذه شيءٌ مقرر في النفوس، فعليك ألا تعده من الشر ولكن الشر هو أن يخلي ربك بينك وبين المعصية.

فحين تحدثك نفسك بالشر فيجتبيك الله عز وجل؛ فدل على أنه يريد الرحمة بك وأنه يحبك ولا يريد لك المعصية كما وقع في يوسف عليه السلام فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]، والصواب أنه هم بها، والهم درجات يعني هي همت به فهمها كان مقترنًا بفعل وهمه لم يكن مقترنًا بفعل، وهذا أعظم من أن يقال بأنه لم يهم بها، فإنه لو لم تقع في نفسه لما كان في مجاهدته قيمة، أما أن تقع في نفسه ويشتهيها ويجاهدها هذا يد على عظمته مع الأحوال المرافقة لها بأنها سيدته وأنها الملكة وهو شابٌ ممتلئ رجولةً فهذا دل على عظمته.

فلذلك العبرة بما يقع فإذا وقع في نفسك الشر هذا ليس مما يعبك ولكن العيب هو أن تتابع الشر ومن هنا تأتي المرتبة الثالثة لماذا يخبرنا الله بذلك؟

أولًا: يخبرنا لم تقدم بأنه سبحانه وتعالى مطلعٌ عليهم ورحيمٌ بهم.

ثانيًا: يعلمنا بذلك ليدلنا على نوع النفس البشرية.

ثالثًا: يريد أن يعرفنا ويعلمنا قيمة هؤلاء القوم، يعني النفس ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾، ومع ذلك لم تزغ، هذا يدل على أنهم حملوا حملًا عظيمًا، المرء حين يصل إلى هذه المرتبة يوسف عليه

السلام عندما يصل لهذه المرتبة من أن يهم بها ثم يتركها دل على أنه جاهد جهادًا عظيمًا ومن وقع منه مثل هذا الجهاد دل على عظمته، ودل على أنه يخاف الله.

مثال ذلك: عندما تأتي للموظف رشوة بخمس دنانير يمكن أن يجاهد نفسه، ولو جاءت خمسين تزيد، لكن لو جاءت خمسمائة، لو جاءت خمسة آلاف، لو جاءت خمس ملايين، فكلما زاد ضغط المعصية عليه كلما كان جهاده أعظم فمن ثبت للقليل لا يعني أنه يثبت للكثير، ولكن من ثبت للكثير دل على إيمانه، فلما قال: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ﴾ عندما وصلوا إلى هذا كادت نفوسهم فردوها هذا الرد العظيم مقابل ما يحصل لديهم من ساعة العسرة؛ هذا ليعرفنا قيمتهم، ساقها ليعرفنا معالجة البشر لما يقع في نفوسهم، لكن لا تدل أبدًا على قلةٍ في هؤلاء القوم في إيمانهم ولا على ضعفٍ في دينهم.

فيمكن أحد يأتي يقول لك: انظر كادت قلوبهم تزيغ!! لمن لا يجرب الفتن فبعض الناس لم يجربوا الفتن، يعني عندما النبي صلى الله عليه وسلم دخل على الصحابة في غزوة الخندق قال: **(من يأتيني بخبر القوم وله الجنة)**، الرجل الجالس في الفراش وجالس في الراحة يقول: جنة فيقوم، وكأنه أكثر إيمانًا من الصحابة رضي الله عنهم ولكن هذا يدل على عِظَّم ما فيهم من البلاء، فالمرء:

وإذا مـــا خـــلا الجـــبان بأرض ... طـلـب الـطـعـن وحـده والـنـزالا

لكن عندما تقع الفتن والبلاء يعرف الناس قيمتها، فلذلك لما الله عز وجل أخبرنا عن هؤلاء أنه كادت قلوبهم أن تزيغ.. فحماها الله ليدل على حبه لهم ويدل على قيمتهم في أنفسهم أنهم جاهدوا أمرًا عظيمًا.

ولذلك ربنا عز وجل في القرآن في كل ما تحدث عنه، تحدث عن القلوب، خَبَرَ في قلوب الصحابة وهم ذاهبون إلى بدر، بعد الانتصار العادة الناس يتركون كل الأخبار السيئة للمنتصر ويحملون كل الأخبار السيئة على المنهزم، الآن عندما يتحدث الأوروبيون عن الحرب العالمية الثانية انظر إليهم كل الشر والغباء والحقد كله على الألمان، لا يرون في الألمان إلا النقائص، وأما هم المنتصرون فهم الأبطال، الشجعان، الحلماء، العادلون، المنتصر يكتب التاريخ فيكتبه من جهته ولا يذكر شيئًا من الشر.

لو أن الصحابة رضي الله عنهم من هذا النوع ولم يأت القرآن يرافق هذه النعم الإلهية في نصرهم فانظر لو تحدث عن بدر كيف سيكون الحديث؟ انظر اسأل مرء لو أن قومًا غير مهديين وليس هو حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وليس حديث عن مرحلة إيمانية تدل على نصرة الله لدينه، فكيف سيكون حديث عن بدر؟ لكن انظر هذا المطلب: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)﴾ [الأنفال: ١]، ويبدأ ليقول لهم أنتم لم

تصنعوا شيئًا يخرج النصر من بين أيديهم وكأنهم لم يصنعوه من الابتداء إلى الانتهاء من أجل أن يكون بيد الله عز وجل منسوبًا إليه جل في علاه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧)﴾ [الأنفال: ٧]، من أولها أنتم رايحين لم ترتبوا ولم يقع منكم لا ترتيب لنصر ولا تدبير له ولا تخطيط له ولم يقع منكم شيء من ذلك كله، بل قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ [الأنفال: ٤٢]، حتى التوقيت لم يقع منكم، ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ [الأنفال: ٤٢]، التواعد سواء كان في المكان أو الزمان أنتم لا دخل لكم فيه، ولما ذهبتم أنتم ذهبتم بغيره رضاكم وإنما تريدون العير فقط خارجين من أجل أن ترجعوا بقليلٍ من البعير معكم إلى بيوتكم.

فأخرج الله عز وجل النصر من أيدي الصحابة لينسبه إليه، وهذا من كبريائه ومن عظمته، وكذلك من بيان مقام الفعل أنه فقط بين عابدٍ ومعبود، بين العبد وبين ربه، ولذلك ليس لكم، المال ليس لكم لا تتحدثوا عنه، أنا الذي حققت النصر، أنا الذي دبرته، أنا الذي أتيت به وأنزلت لكم الملائكة وو... إلخ، فالنتائج بيده ليست بيدكم، من يقدر على هذا؟ الخبير، الذي خبير النفوس، لم يتحدث عنها بالظاهر وإنما تحدث عنها بالباطن.

ولذلك هو خبير جل في علاه، وخبرته جل في علاه هذه الخبرة قرنها باللطف فيما تقدم؛ لأنه يخبر الأمور دون أن تحس بها، يعني لو أراد –ولله المثل الأعلى– لو أراد أحد أن يختبر شيئًا في الداخل ماذا يفعل؟ إما أن يكسره وإما أن يدخل فيه بقوة، إذا أراد أن يختبر شيئًا فلابد أن يلج فيه بالطرق التي توصله إليه، ولكن الله عز وجل يعلم ما الصدور، انظر وأنت جالس، تأمل ما تجري في نفسك من أمور، من كلام، من أحداث، من خوف منه جل في علاه، أو من رغبة المعصية أو ... إلخ، ولذلك كيف هو يعلمها؟ فلذلك لا بد من اقتران الخبرة باللطف، وكثُر الحديث عن أن الله هو الخبير من أجل أن يخافه العبد ومن أجل أن يعلم أنه مطلع وليتحقق في العبد درجة، أن يعبد الله أنه يطلع عليه، فيعبد الله كأنه يراه، وأنه عليم بنفسه ولا ينظر فقط إلى ظاهر الأمر، ويراقب العبد فقط في كذلك في ظاهره مع باطنه.

وهذه دعوةٌ للعبد ألا يحسن الفعل ظاهرًا فقط، أنت عندما يقول لك في الدوائر عندما تكون موظفًا عندما تكون شريكًا، يقول أنا لا أريد باطنك لا يهمني تحبيني ما تحبني، ماذا قال عمر للرجل وقد قال: إني ابغضك؟ قال: **(إنما يضر الحب والكره النساء)**، بمعنى قال له: أنا أكرهك، قال له: أنا لست زوجتك

أطلب حبك.. **(إنما يضر الحب والكره النساء، هل اعطيك حقك؟)**، نعم هذا هو فقط، فيقول: لا يضرني باطنك.

فالناس لا يهمهم البواطن ولكن الله عز وجل لا يرضى من العبد ظاهره، ولو قبل منه الظاهر دون الباطن لقبل من المنافق، فالمنافقون خرجوا للجهاد، والمنافقون يصلون، والمنافقون يحسنون القول، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، ولكن الله عز وجل رب القلب ورب الظاهر، لا يقبل من العبد الظاهر دون الباطن، لا بد أن يحسن المرء باطنه أكثر من إحسانه لظاهره.

والناس ربما يرتقون ببواطنهم عند الله أكثر من ارتقاء البعض بظاهره، ومن هنا فإن الله يتعبد عند أقوام بالخوف منه، لم يسبقكم أبو بكر مع الكلام في الحديث **(لم يسبقكم أبو بكر بكثرة صومٍ ولا صلاة ولكنه بشيءٍ وقر في قلبه)**، هكذا قالوا: بشيءٍ وقر في قلبه، والصحابة رضي الله عنهم ليسوا بأكثر تعبد من كثير ممن تفرغ للعبادة بعدهم، لكن كان تعبدهم بما هو باطن، الخوف منه، الحب له، الاستجابة لأمره باطنًا بما قدِروا وما استطاعوا، فكان جلوسهم تعبدًا..

ولذلك كما قالت زوجة أبو موسى الأشعري رضي الله عنهما عندما سئلت عن أفضل عبادته: «كان أعظم عبادته التفكر»، هذا أمرٌ باطني التفكر.. هذا مما ينبغي أن نعرفه، فهذا كله من علاقة العبد مع الله عز وجل باسم الخبير، وقلنا يكفي هذا في معنى الخبير وهو من بواطن الأمور ويعرف الخفايا والسرائر، وليس فقط في الإنسان بل في كل شيء، في كل شيء يعرف الخفايا والسرائر جل في علاه.. فلا يعزب عنه شيء مما هو موجود، وهذا في الحقيقة يعني سيأتي حاجتنا لمعرفة أنه الباطن، الله عز وجل هو الظاهر والباطن.

ولذلك الظاهر فليس فوقه شيء والباطن فليس دونه شيء وهذا من مقتضيات أنه الخبير، تكلمنا وردت مع قوله سبحانه وتعالى: اللطيف الخبير، ووردت صفة الخبير في القرآن خمسًا وأربعين مرة، تكررت كثيرًا لما تكلمنا فيه، واقترنت بأنه العليم الخبير، ليقول هو عالم بالشيء ظاهرًا وباطنًا كما في سورة «التحريم» اقترنت بالعليم، قال سبحانه وتعالى: ﴿نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣)﴾ [التحريم: ٣]، لأنهم تساروا فيما بينهم، هو حديثٌ سري يدور، ﴿نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ الذي يعلم الباطن والظاهر، ويقرن بالحكيم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)﴾ [الأنعام: ٧٣]، أنه سبحانه وتعالى خبيرٌ ببواطن الأمور وحكيمٌ جل في علاه، والخبرة قد تقتضي الشر والعلم.

وخبرة الله عز وجل أنه خبيرٌ جل في علاه، من حكمته أنه لا يفضح إلا من يستحق، بل يحب ربنا عز وجل الستر، وقال صلى الله عليه وسلم: **(كلُّ أُمَّتي مُعافًى إلا المجاهرين)**، وإن من المجاهرة أن يفعل المرء المعصية بالليل فيصبح وقد ستره الله وهو يتحدث بها، فالله من حكمته أنه يستر جل في علاه، وأنه يدير بواطن الأمور كإدارة ظاهرها فهو حكيمٌ جل في علاه.

وكذلك وردت إن الله عز وجل بعباده خبيرٌ بصير كما في سورة «فاطر»: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١)﴾ [فاطر: ٣١]، وهذه وردت خمس مرات الخبير البصير، والحكيم الخبير وردت أربع مرات، والعليم الخبير وردت خمس مرات. أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١)﴾، الله عز وجل يرى جل في علاه هو خبير بصير، بما يعلم ما في باطن الأمور؟ بطريق العلم وبطريق البصر.. يعني الله عز وجل لا يحجب بصره شيء جل في علاه، فيعلم الأشياء ببصره كما يعلم الأشياء بلطفه.

في القرآن نجد -هذه يعني فقط نمر فيها كمسألة بلاغية- نجد أن الله عز وجل يقول: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)﴾ [آل عمران: ١٨٠]، ونجد أنه يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)﴾ [آل عمران: ١٥٣]، في سورةٍ واحدة كما في سورة «آل عمران» وكما في «المجادلة»، في سورة «المجادلة» يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)﴾ [المجادلة: ١١]، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)﴾ [المجادلة: ١٣].

في سورة «آل عمران» قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)﴾ [آل عمران: ١٥٣]، وبعدها في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)﴾ [آل عمران: ١٨٠]، لماذا يقدم ويأخر؟ لماذا يقع؟ هذه شرحناها، نفس ما قلناه -لمن يتابع التفسير- نفس ما قلناه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)﴾ [البقرة: ٢٦٥]، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)﴾ [الحجرات: ١٨].

الشيخ: أنت أردت أن تقول شيئًا؟ لماذا؟

طالب العلم: الخبرة تقدمت من أجل النظر في الداخل وبعدها العلم من أجل الأمور الظاهرة.

الشيخ: هو بما تعملون واضحة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

الشيخ: أعد.

طالب العلم: الأولى تقدمت بواطن الأمور على ظاهرها، والثانية تقدم ظاهرها على باطنها.

الشيخ: ما هو الوجه هنا يعني؟ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، من سمع غير هذا؟

هذه ليست جديدة، قد تكلم بها العلماء كثيرًا -سابقًا- إذا كان الحديث يجري في الآية على قيمة العمل وأهميته تقدم العمل على الصفة والله ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، وإذا كان الحديث عن ربنا عز وجل واطلاعه على العمل، هو المقدم هو صيغة الآية من أجله تقدمت صفة الله عز الخبير على العمل، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

الشيخ: واضح الكلام؟ نعيدها؟

الطلاب: نعم.

الشيخ: سنقرأ الآيات ونرى هذا الذي قلناه، إذا كان الحديث في الآية، ما المراد من الآية؟ إذا كان الحديث هو بيان اطلاع ربنا على العمل هو المقدم، العمل مهم ولكن الأهم منه هو أن يخبرنا ربنا عز اطلاعه على هذا العمل، فتكون صفة الخبرة مقدمة على العمل، فيقول عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، لأن الحديث يدور أنه احذروا أنا أعلم ما تفعلون.

وإذا كان الحديث عن العمل وأهميته فيقدم العمل على الخبرة، فيقول هذا العمل عظيم وأنا خبيرٌ به.

فلنرى هذا أولًا في سورة المجادلة انظر إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)﴾ [المجادلة: ١١]، الحديث يدور عن العمل، أن الله أمر بهذا العمل، فيدلنا على أن هذا العمل مهم وأنتم حين تفعلونه الله عز وجل خبير به، فالآية تدور حول العمل وأهميته لأنه هو المأمور به.

وأما الآية التي تأتي بعدها قال سبحانه وتعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)﴾ [المجادلة: ١٣]، هذه الآية قالوا مما نسخت قبل أن يعمل بها، قال بعض أهل العلم: هذه الآية لم يعمل بها،

وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢)﴾ [المجادلة: ١٢]، قالوا: رفعت هذه قبل أن تطبق.

طبعًا الشيعة وضعوا أحاديث عن علي رضي الله عنه أنه هو أول من طبقها وفعلها، المهم، لا يهمنا هذا.. فإذًا الحديث يدور عن علم الله بشأنكم، الآية التي تقدمت تتحدث عن العمل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾ فالحديث عن العمل، لكن هذه الآية تتحدث عن علم الله بحالكم لأنهم ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ [المجادلة: ١٢-١٣]، حديث عن عمل القلب، والحديث عن اطلاع الله على العمل وليس عن العمل ليس عن أهميته ولكن على اطلاع الله عز وجل عليه الذي أدى إلى نسخه الذي أدى إلى رفع الحكم.

فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)﴾ [المجادلة: ١٣]، لأنه حديث عنه جل في علاه، أهم من الحديث عن العمل كلاهما مهم، ولكن الذي يدور حوله الكلام الله عز وجل وخبرته هذا بيّن، وسورة «المجادلة» سورة ورد فيها في كل آية كلمة الله، بل وردت في بعض الآيات كلمة الله أكثر من مرة.

ووردتا كثيرًا هتان الآيتان ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، لكن نتحدث عن سورة جمعت بينهما، في سورة «آل عمران» قول تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣)﴾ [آل عمران: ١٥٣]، يتحدث هنا عن أمرٍ قلبي، يتحدث عن فعلٍ هو أمرٌ ظاهري ولكن فيه أمرٌ باطني، ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾، فالحديث سيكون عن الله عز وجل سيكون حديثٌ عن فعلٍ باطني، فلا يمكن الاطلاع عليه إلا من خبير، فلذلك قدم الكلام عنه جل في علاه ليدل على أنه اطلع على هذا لأنه خبير.

لكن لما جاء إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)﴾ [آل عمران: ١٨٠]، فكان الحديث عن أفعالكم، حديث عنكم، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، هذا بما يقدم وما يؤخر، والله تعالى أعلم.

ووردت صفة الخبير مفردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)﴾ [العاديات: ١١]، عالم بما يدور في نفوسهم وما هم عليه.

ومن الصفات التي جل في علاه له وتستلزم الرحمة صفة السلام وهذه صفة وردت في القرآن مرة واحدة، صفة السلام وردت في القرآن مرة واحدة في سورة الحشر، في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣].. فمن أسمائه السلام والحديث شرح لنا أن هذه الصفة هي صفة ذات وهي صفة فعل، فقال صلى الله عليه وسلم: **(اللهم أنت السلام)** فهو السلام جل في علاه، **(ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام)**، فهي صفة ذات وصفة فعل، صفة ذات يعني لازمة له جل في علاه تليق به ودالة على معنى فيه، على معنى في ربنا عز وجل، وفعله في غيره السلام.

معنى السلام: السلام من السلامة، والسلامة هي البراءة، فأينما قلبت هذه الحروف الثلاث السين والام والميم دلت على البراءة، وبعض العلم قال: «دلت على الخلوص»، الانتهاء، يعني عندما تقول أنا سلمت من فلان؛ أي خَلُصتُ من إيذائه خلصت انتهى، فهي براءةٌ من إيذائه ولكنها دالة الخلوص والانتهاء.. والله عز وجل حين تكون صفة السلام دالة على ذاته فهي دالة على قدوسيته، ولذلك العلاقة بين السلام والقدوس علاقة وثيقة، يعني أن الله عز وجل بريء من العيوب، وهو السلام جل في علاه في ذاته، فبريء من العيوب في ذاته، وكذلك في صفاته فهو بريء من النقص، وفي أفعاله فهو بريء من الشر.

الله عز وجل السلام في ذاته وصفاته وأفعاله، فهو بريءٌ جل في علاه مما يعتري البشر في هذا، وهو جل في علاه السلام الذي يعطيه لعبيده، فهو لا يظلم جل في علاه، وهو سبحانه وتعالى يوصل خيره لعبده من غير ظلم، ومن غير إيذاء؛ فلذلك هو السلام ومنه السلام، فهي صفة فعلٍ وصفة ذاتٍ لله عز وجل.

إذًا هو الموصوف بالسلامة والسلامة من الأمن والأمان -كما قالوا- والحصانة والاطمئنان والبراءة من كل عيب وآفة، ومادة السلام تدل كما قلنا على الخلوص والنجاة، وسميت الجنة دار السلام على هذا المعنى.. لخلوصها من العيب، فهي ليس فيها أي عيب ما فيها أي نقص، لإنها خلصت ونجت من الهموم والآفات،

فلما يقول سبحانه وتعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، أي الناس عندما يطلقون السلام يعني لا تخف، خلصت من شري برئت من أن أأذيك، فلما يقول: السلام عليكم كأنه يقول أنت ليس عليك الإيذاء وليس مني الشر لك، فسميت الجنة بهذا المعنى. قال خلينا نقرأ كلمة للغزالي طيبة نقلها

ابن كثير بالمعنى في تفسيره قال: «هو الذي تسلم ذاته عن العيوب وصفاته عن النقص وأفعاله عن الشر حتى إذا كان كذلك لم يكن في الوجود سلامة إلا وكانت معزيةٌ إليه صادرة منه»، لما كان السلام في ذاته وصفاته وأفعاله كان كل سلام في الوجود منه جل في علاه صادر منه..

ولا نقول السلام على من اتبع الهدى للمسلمين، فمن اتبع الهدى أي سلم، فنحن نطلقها على أننا نبرئ، أننا إذا أردنا أن نقاتل قومًا إنما نقاتلهم إن لم يتبعوا الهدى فإن اتبعوا الهدى سلموا منا والله تعالى أعلم.

وابن العربي قال عن السلام: «سلم من كل عيب، ومعناه ذو السلام أي الْمُسلِم على عباده في الجنة»، السلام أي الذي يصدر منه فعل السلام، قال: «فيسلم على عباده في الجنة»، قال: «وسلم الخلق من ظلمه أي في الدنيا جل في علاه فهو السلام».

وفي الحديث نحن نعرف أن الصحابة كانوا في بداية الأمر حين يتشهدوا يقولون: «التحيات لله والصلوات، السلام على الله»، يقولون: «السلام على الله»، ومن الذي يقدر أن يؤذيه؟!! فقال لهم صلى الله عليه وسلم: **(إن السلام هو الله)**، السلام على الله!! أنت تسلم فهو السلام، فالسلام صادرٌ منه ليس منك إليه جل في علاه، أنت تعتقد سلامةً لكن السلام لا يصدر منك إليه بل هو جل في علاه السلام ومنه السلام، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا إذا سمحت تعيد نص إذا جاهد المرء للوصل إلى الحق.

الشيخ: هذه في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، إذا جاهد المرء للوصول إلى الحق لابد أن يصل إليه، فإن لم يصل إليه كان معذورًا، ولكن القرآن يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، لا يوجد أحد يجاهد في الوصول للحق إلا ويهديه الله، وأكبر قصة على هذا قصة سلمان الفارسي رضي الله عنه، سلمان الفارسي هذا ابن المباث الذي كان راعيًا للنار في فارس، لم يعجبه دين أبائه وجاء جماعة من النصارى التجار فأعجب بدينهم، تنقل من فارس إلى البلاد عبدًا وبيع وتأذى، حتى وصل إلى أن آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم.

لكن الناس لا يعرفون قيمة الحق، ولا يعرفون قيمة الدين، فهم يريدون الحق أن يأتي إلى بيوتهم، يطرق البيوت، ومع ذلك يأتي الحق ويطرق بيوتهم ويدخل على قلوبهم فيرفضونه، لأن للحق تكاليف.

السائل: شيخنا ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)﴾ [آل عمران: ١٢٠]، هل هي على نفس المعنى أيضًا؟

الشيخ: نعم، المحيط تدل على اتساع علمه، فمعنى المحيط: يعني الذي أحاط من الإحاطة أي الذي وسع كل شيء.

الشيخ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ يعني أنت تريد أن تقول تقدمت وتأخرت؟

السائل: نعم.

الشيخ: نعم بلا شك هذه قاعدة مطردة، أنه إذا كان الحديث أعظم عن الله في خبرته تقدم وصفه على الفعل، على العمل، وإذا كان الحديث عن قيمة العمل من أجل أن تعرف أن الله يقبله وأن الله يريده وأن الله يحبه تقدمت صفة العمل على الخبير.

فلذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا﴾ [المجادلة: ١١] حديث عن العمل، يريد أن يرغبهم به، فالحديث ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)﴾ [المجادلة: ١١].

ولما كان الحديث عما في نفوسهم عما جرى وليس فقط عن العمل تقدمت كلمة ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣)﴾ [المجادلة: ١٣] تقدمت صفته على الفعل، هذه قاعدة مضطردة، نعم..

يقول سيبويه في الكتاب: وهذه قاعدة مهمة أن التقدمة والتأخير لابد أن تكون للاعتناء، يعني ما تقدم يكون أعنى ويكون أهم وأرغب والسياق يدور حوله، لا يتم التقديم إلا لملحظٍ في هذا التقديم، لابد، التقديم والتأخير هو من بلاغة اللغة العربية؛ يفعلونه لحضور قيمة المقدم على المؤخر في باب من أبوابه، هذه قاعدة مثل تقدمة الجن على الإنس.

أين يقدم الجني على الإنسي؟ وأين يقدم الإنسي على الجني؟ في القرآن قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٣٣]، الحديث عن القدرة، فلذلك الجن أقدر من الإنسان، ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩]، فلذلك يتقدم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥٦]، هنا تقدم لأنهم أسبق في الخلق، الحديث هنا عن العبادة، من الذي خلق قبل؟ الجن أم الإنس؟ الجن، ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧)﴾ [الحجر: ٢٧]، الجن قبل فلذلك يتقدم.

لكن عندما يكون الحديث عن العلم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، لأنه أعلم، الناس يظنون أن الجني أخبر في الإغواء وهذا خطأ، الإنسي أكثر خبرةً وعلمًا في الإغواء، ولذلك قدم شياطين الإنس على شياطين الجن لأنهم أعلم، فالأنسي أعلم من الجني، فحين كان الحديث عن القدرة تقدم الجن، وحين كان الحديث عن العلم تقدم الإنسي.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثالث عشر: الأول والآخر

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

إخواني هناك مجموع صفات الله عز وجل مجموع أسماء الله سبحانه وتعالى تدل على تفرده، تدل على أنه لا يشاركه في هذه المعاني التي هي مقتضى ربوبيته، وهي كذلك إذا استقرت على هذا المعنى هي مقتضى ألوهيته، تعبد الخلق إفراد الله عز وجل بالعبادة والتأليه، فمجموع هذه الصفات لا تليق إلا بالله، وهناك صفات لأنها صفات لذاته جل في علاه ولأنه مختص بهذه الصفات ذاتًا وأفعالًا، فإنه سبحانه وتعالى له التفرد في الوجود، لا يشبهه شيءٌ من خلقه، ولا يشبه شيءً من خلقه، لا يدخل فيه شيءٌ من خلقه، وهو لا يدخل في شيءٍ من خلقه.

ومن أعظم الصفات الدالة على تفرد ذاته، صفات هذه الذات الجليلة العظيمة، والتي بعد ذلك هذه الذات المتصفة بهذه الصفات التي هي أزلية، هذه الصفات التي كذلك تُنشئ أفعالًا له جل في علاه، هي صفاتٌ ذاتية وهي في مجموعها تُنشئ أفعالًا له جل في علاه، وبعد ذلك يقوم العبد بسبب هذه الصفات بتعبد الله، من حبٍ له ومن خوفٍ له ومن إخباتٍ له ومن طاعةٍ له، وتوكل عليه، لأنه متفرد بهذه الصفات.

ومن هذه الصفات التي لا تليق إلا به جل في علاه وهي التي تقرب للعبد هذه المعاني التي أختص الله عز وجل بها، هي من أسمائه لذلك هو أسمه الأول والآخر، هذا الاسم الجليل لله عز وجل هذا يعني يدل على أنه لا يشاركه شيءٌ من خلقه، الخلق أساس صفاتهم أن لهم ابتداء ولهم انتهاء، لا يوجد شيء في الوجود ليس له ابتداء، ولا يوجد شيء ليس له انتهاء، وإذا قدر الله عز وجل لشيءٍ أن يكون له دوام، كدوام أهل الجنة بالجنة، ودوام الجنة فإنها لا تكون ببقاءٍ ذاتيٍ فيها، أي لا تملك القوة الذاتية بهذا البقاء، هي لإبقاء الله لها.

يعني هناك فرق بين أن يكون الشيء هو يملك هذه الصفة وقائمة به وهو لا يحتاج إلى غيره فيها، وهذا لا يتصور في شيء من خلقه لا في الدنيا ولا في الآخرة، يعني لا يتصور أبدًا في شيئًا موجود على الأرض أو في السماء أو ما بينهما، يمكن أن يقوم بذاته، لأنه لو قام بذاته لاستقل في الوجود فدل على

أنه متفرد، معنى ما يقوم بذاته: يعني لا يحتاج إلى غيره لا في الوجود عندما وجد، ولا في الإمداد والبقاء ولا في الانتفاع، فإنه لا يوجد شيء، كل شيء يقوم بإقامة الله له وجودًا، وإقامة الله له إمدادًا.

ولذلك الله عز وجل الحي القيوم، ما معنى القيوم -كما سيأتي-؟ أنه قائمٌ على نفسه بنفسه لا يحتاج إلى غيره، وقائمٌ على غيره وقائمٌ على نفسه فلا يحتاج إلى شيء من خلقه، وكل صفاته جل في علاه أزليةٌ حيث كان وقبل أن يوجد الخلق، هذه كلها صفات، الله من صفاته الخالق قبل أن يوجد المخلوق، ومن صفاته الرحيم قبل أن يوجد من يرحمه، والله سبحانه وتعالى السميع قبل أن توجد الأصوات، فهو لم يكتسب هذه الصفات لوجود شيءٍ آخر.

فهذه الصفة وهو أنه الأول والآخر هي التي محيطةٌ بكل الأسماء الأخرى، كما أن الحياة هي أساس كل صفة، لا يمكن أن تقون صفة السمع بغير حياة، ولا يمكن أن تقون صفة البصر بغير حياة، ولا يمكن أن تقون صفة القيومية بغير حياة، لا يمكن أن تقوم أي صفة في الموصوف بغير حياة التي فيها الأفعال والتي فيها التأثير والتي فيها المدح والإحسان، لا يمكن أن تقون بغير الحياة، هذه أساس، ولكن هناك صفات لله عز وجل هذه حين تنظر إليها ترى شمولها لبقية الأسماء، كل الأسماء والصفات تكون داخلة فيها، ومن ذلك أنه الأول والأخر جل في علاه.

وحين يتأمل المرء هذه الصفة وهي صفة الإحاطة الزمانية، الأول والأخر وهي صفةٌ لله لأنه لا يمكن أن نتصور الأولية أن نقول الأول من غير أن نقول الأخر، فهما في الأصل صفتان، ولكنهما على حقيقة واحدة هما صفة واحدة، الأول والآخر صحيح هذه تتكلم عن الابتداء وتلك تتكلم عن الانتهاء والدوام فيه وعدم الانتهاء فيه، ولكنها لتدل على دوام الكمال لابد من اقترانهما، وتدل تمام الكمال وعلى مطلق الحسن لابد من اقترانهما.

فهو الأول كما فسر النبي صلى الله عليه وسلم الأول، قال: **(الأول الذي ليس قبله شيء)**، فكل الصفات تدخلها الأولية، لو قلنا أن الله عز وجل السميع، فتدخلها الأولية فهو سميعٌ ولم يسبقه سميعٌ قلبه، وهو بصير ولم يسبقه بصير من قبله، وحيث كانت الأولية كانت هذه الصفة، بلا ابتداء ولذلك قال الطحاوي مع وجود ملاحظات على قوله في المتن قال: «هو القديم بلا ابتداء»، القديم يطلقها الكثير من أهل السنة وبعض المتكلمين أنها صفة لله عز وجل، وهي عندهم على هذا المعنى الأول، فالقديم الذي ليس قبله شيء، مع أن كلمة القديم في اللغة إنما هي أمر نسبي وليس مطلق كالأول.

كيف القديم قالوا: لا يسمى الشيء بهذه الوصف قديم حتى يظهر جديد، كالعرجون القديم لا يكون قديمًا حتى يظهر الجديد، فإذا وجد الجديد أطلقت صفة القديم، فالقديم ليس صفة ذاتية تنشئ من غير مؤثرٍ خارجي، قلنا لا يكون الشيء قديمًا حتى يكون هناك جديد، إذن لاتصاف الشيء بالقدم يحتاج إلى جديد، بخلاف الأول لا تحتاج إلى مؤثرٍ خارجي لتكون هذه الصفة لأقة في حق الله عز وجل، من هنا أهل العلم مع إقرارهم بمراد المتكلمين.

أي العلماء في الردود دائمًا ينظرون إلى أمرين، الأمر الأول المعنى الذي يريده صاحبه هل هو معنى صحيح أم خطأ، هذه الناس الآن لا ينتبهون لهذا، حين يردون لا ينتبهون لهذا، ينبغي أن تنظر إلى مراده، هل هو يريد شيئًا صحيحًا أم شيئًا باطلًا، ثم بعد ذلك تنظر إلى اللفظ الذي عبر به صاحبه عن هذا المعنى في باطنه، يعني كل العلوم تحتاج إلى فنين، فن إدراك هذا المعلوم وفن التعبير به، أن تعبر عنه، يعني بعض الناس عندهم علم في داخله عارف، لكن لا يعرف يعبر، وبعض الناس بيهرد -يتكلم- كثير لا بعلم في نفسه ولا بلفظ في لسانه.

فالعلماء نظروا إلى مراد المطلقين على الله الاسم القديم فوجدوا أن المعنى صحيح في نفوسهم، لكنهم حين نظروا إلى اللفظ الذي عبروا به عما في نفوسهم لم يجدوه صحيحًا، فالقديم يحتاج إذن إلى شيء لتثبت له هذه الصفة، لكن الأول لا يحتاج، الأول لا يحتاج إلى ثاني ليكون هو الأول، فحيث هو لا يوجد معه غيرهن هو الأول، بل هذا الأول من هنا تأتي كلمة لابن حزم، بل هذا الأول هو الذي به تثبت الأشياء، يعني هو لا يحتاج، حيث يكون منفردًا هو أول، لا يحتاج إلى ثاني ليكون هو الأول، هو الأول، ولكن لا يمكن أن يوجد ثاني إلا بوجوده، فالأول يدل الثاني.

لذلك من كلام أهل النظر وكلام أهل العبر وكلام أهل الحق والقلوب، يقولون: «بأن الله لا يحتاج إلى دليل، الله دليل على غيره، وليس غيره دليلًا عليه»، الله عز وجل لظهوره في قلوب أوليائه هو الحق، وغيره هو الباطل، فأصدق كلمة: «ألا كل شيءٍ ما خلى الله باطل»، ما معنى كلمة باطل في اللغة؟ الباطل في اللغة أصلها عدم الوجود، أصل كلمة الباطل عدم الوجود، حتى الفلاحين يستخدموها، لما الواحد ما يشتغل يقولوا له؟ عطال بطال، فالباطل أصلًا هو عدم الوجوب، بعد ذلك أطلقت على ما يضاد الحق، وعلى ما يضاد الصواب، وإلا فأصلها الباطل فلذلك إلا كل شيء ما خلى الله باطل.

لماذا باطل؟ لأنه في الأصل غير موجود، وفي الانتهاء لا يكون ولا يوجد، فهو باطل فوجوده عارض، فإذًا «ألا كل شيءٍ ما خلى الله باطل»، ولكنه موجود، هذا وجود عارض، فالله سبحانه وتعالى هو دليلٌ

على غيره لأنه الحق، وحضوره أكمل من أي حضورٍ آخر، حضوره الكمال لأنه لا يغيب، فلذلك سبحانه وتعالى هو الأول فليس قبله شيء، لأنه سبق كل شيء، ولأنه سبحانه وتعالى يترتب عليه وجود غيره، فهو سبق.

هذه الأولية العلماء يعبرون عنها بتعبيرين، تعبير تتعلق بأنها صفة ذات، وهذا هو الأصل لو لم تكن صفة ذات لما كانت صفة يترتب عليها غيرها، فهو الأول صفةٌ ذاتيةٌ له حيث كان ولم يكن شيءٌ معه، وذلك في الحديث الذي رواه الإمام البخاري: **(كان الله ولم يكن قبله شيء، وكتب كل شيء، وخلق السماوات والأرض)**، ثم كتب كل شيء، انظر هذا الترتيب العجيب في الحديث: **(كان الله ولم يكن قبله شيء)**، هذا حديث عن الأولية المطلقة.

هناك مسائل في هذا الباب يعني لمن يريد أن يعلمها، وهي التي يتحدثون عنها في قضية الحوادث التي لا أول لها، يتحدثون عنها ولها تعلقٌ بهذا الباب، يعني في الحديث، هذا تمام الحديث: **(كان الله ولم يكن شيء قبله، ثم خلق العرش)** فذكر الأولية المطلقة، ما هي الأولية المطلقة؟ هو الوجود الذي كان لا وجود فيه لشيء، لم يكن شيءٌ قبله، فهو الوجود المطلق، والأولية المطلقة، ثم ذكر أول شيء خلقه الله، العرش، على خلاف بين أهل العلم ولكن الصواب **(إن أول ما خلق الله العرش)**، قال: **(وخلق السماوات والأرض)**، بعد ذلك جاء التتابع في خلق كل شيء، ثم قال: **(وكتب كل شيء)**، ذكر قضية الكتابة قبل الخلق، قبل أن يخلق كل شيء، كتب الله عز وجل فما من شيءٍ يحدث إلا وكتبه الله، وهذه كتابة قدرية.

يعني الله كتب ما سيخلقه جل في علاه، فهذا الحديث من أعجب الأحاديث، جاء العلماء ونظروا إلى قضية هل خلق الله شيئًا قبل العرش؟ فأهل السنة قالوا: لا نعلم، ما يدرينا قد يوجد أو لا يوجد، المهم أن الله أعلمنا أنه بالنسبة لهذا الوجود الذي بين حضورنا وما نعلم من السماوات والأرض لا نعلم إلا أن الله قد خلق العرش قبل كل شيء، لكن هل كان هناك مخلوقات قبله؟ نحن لا ندري، ما الذي يدرينا علمنا قاصر، ولذلك قال الله عز وجل احتجوا بهذه ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، إذا كانت العلوم الموجودة الآن نحن لا نحيط بها!! إذا كنا لا نحيط بعلم أنفسنا! المرء لو نظر لنفسه لا يحيط بها! والناس الآن يظنون أنهم صعدوا إلى السماء، ونزلوا إلى الأرض، فما الذي أحاطوه من علوم الأرض، هل وصلوا إلى بطنها؟ هل وصلوا إلى جوفها؟ ما الذي أحاطوا من هذه الأكوان، من قبل أيام اكتشفوا نجمًا جديدًا، الناس لا يحيطون بشيء من علمه جل في علاه.

فالله عز وجل هو الأول، قال: **(فليس قبله شيء)**، فهو أولًا هو بذاته الأول لم يكن معه شيء، وكل شيء قد ترتب عليه، كل شيء قد ترتب عليه بوجود ربنا عز وجل وبخلق ربنا، وبعلم ربنا جل في علاه وبقدرة ربنا سبحانه وتعالى، وجدت بقية المخلوقات كلها من العرش إلى الفرش، ومن الصغير إلى الكبير، ومن الذرة إلى العرش، يعني كل شيء قد خلقه الله عز وجل.

فكيف يتعبد العبد بهذه الصفة؟ يتعبد العبد بهذه الصفة بالنظر إلى الأسباب، بالنظر إلى أنه ما من نعمةٍ في الوجود إلا وهي من الله، فلذلك يشتغل قلب العبد بالحمد والثناء والتعظيم، يعني أساس العبادة تقوم على هذا الأمر، تقوم على تعظيم الله وعلى الثناء عليه، وعلى حمده، لأنه ما من شيءٍ خلقه الله إلا من أجل خدمة الإنسان، فلذلك الله خلق كل شيء، فإذن التعبد هو بالنظر إلى أنك حين تحمد شيء لوجوده فعليك أن تحمد الذي أوجده قبل كل شيء.

فأنت تفرح لو أن رجل أحسن إليك، وأنت تشعر بالغبطة لوجود المال بين يديك، لكن من الذي أعطاك إياه؟ من الذي أوجد هذا الوجود؟ هو الله لأنه الأول جل في علاه.

صفة الآخر وهي بوصف النبي صلى الله عليه وسلم، **(الآخر الذي ليس بعده شيء)**، **(الأول ليس قبله شيء)**، وهذه لا يمكن أن تليق إلا بالله، وأن يكون الآخر فليس بعده شيء، ولم يقل في الحديث وليس معه شيء، لأننا نعلم أن هناك من النعم الإلهية التي يصبغها على بعض خلقه بأن يديم حياتهم ولا تنقضي، ولكن ليس بعده شيء، وبوجود ربنا عز وجل تبقى هذه الأشياء، وبإبقاء الله لها تبقى، لو أراد أن يفنيها؛ يفنيها، ولكن هو كتب على نفسه جل في علاه، ولذلك «أهل الجنة خالدين فيها أبدًا، والجنة لا تفنى ولا تبيد»، كما في متن الطحاوية، هذه الجنة لا تفنى، فالله عز وجل هو الآخر، والإحاطة هذه إحاطةٌ زمانية في العاقبة.

ولما جاء الإمام الطبري إلى الأول قال: «هو السابق على كل شيءٍ بلا حد»، تفسير كلمة بلا حد أي هذه الأولية مطلقة، وليست أولية لها ابتداء، يعني حيث رجعت إلى الزمن في ابتدائه لا نهاية له، ما له حد، وحيث نظرت إلى الزمن في خاتمته فليس له حد، فهو الآخر بلا حد وبلا نهاية، لا تتصور أن الأول الذي له بداية، وأن الآخر الذي له نهاية، هذه ينفيها الله عن نفسه جل في علاه، فهو الحي الذي لا انتهاء لحياته، وكذلك الآخر هذه ماذا تفيدنا في التعبد؟

الأول أرتنا أن كل نعمة في الوجود منه، وأن كل شيء في الوجود مستمد منه جل في علاه.

والآخر أرتنا أن كل نعمة في الدنيا لها نهاية، كل نعمة فلا تتوكل عليها، الزوجة ستموت، الصحة ستفنى، المال سيذهب، العمر سينقضي، فلا تتوكل على أشياء، وذلك لوجوب النظر إلى أنه الآخر.

فمن وجوب نظرك وعلمك بأن الله هو الآخر أن تعلم أن كل شيءٍ له انقضاء، يعني كما في الحديث الآن المشهور لما كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة لا تسبق، فجاء أعرابي على قاعود له فسبقها فشق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فالنبي صلى الله عليه وسلم طمأنهم **(أنه ما من شيء في هذه الوجود إلا كان حقًا على الله)**، لأن الله عز وجل لا يصارع، والله عز وجل لا ينازع، ليس من جهة إرادة المنازع ولكن من جهة وجود المنازع، فقط مجرد وجوده لا ينبغي أن ينازع.

وهؤلاء مجانين وسفهاء الذين ينازعون الله بإرادته، هم مغلوبون بمجرد وجودهم في الوجود مغلوبون، حتى من غير منازعة، أنت لماذا تفنى؟ لماذا المال يذهب؟ لماذا العمر ينقضي؟ لماذا كل شيءٍ فيه هلكته؟ لأنه بمجرد وجوده قدرًا هو ينازع الله عز وجل، فحقٌ على الله أن يضعه، يضعه بقدره الله عز وجل لا يصارع الناس إلا بأقداره، يخلق المرض فينازع صحة الإنسان، ويخلق الفقر من أجل أن يقضي على الغنى –الفقر مخلوق– الفقر كالموت مخلوق، ما هو الموت؟ الموت عند أهل السنة هو شيء حقيقي اسمه الموت، صحيح هو إذهاب الروح لكنه في الحقيقة هو شيءٌ حقيقي له وجود.

لذلك يوم القيامة هذا الموت يجسد، ينتقل إلى حالة حقيقية وهو أن يصبح كبشًا، الموت يصبح كبشًا، فالموت شيءٌ حقيقي، فالله يخلق الفقر من أجل أن يقضي على الغنى، هل الفقر هو مادة من مواد الغنى؟ الجواب: نعم، هو في داخله، ولذلك في الحقيقة ما من شيءٍ في الوجود إلا وفيه هلكته، بذرته فيه، أنا أتكلم الآن الطفل الصغير ما هي مصدر قوته؟ أن ينمو، فحتى يصبح قوي يكبر، وهذا الكبر ماذا يصبح بعد ذلك؟ هلك مصدر قوته فناؤه، وكذلك الغنى مصدر قوته فناؤه وكل شيء.

ولذلك الله عز وجل قال: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾ [الإسراء: ٥٨]، معذبوها ينزل أمرٌ فجائي لغلبة معاصي أهلها فيدمرهم، وكيف مهلكوها؟ لما أوجد الله فيها من عوامل الوجود هي عوامل الفناء، ولذلك الله عز وجل جل في علاه الآخر الذي لا يعتريه مثل هذه المعاني التي توجد في مخلوقاته.

فكيف يتعبد المرء بها –الأشياء–؟ يتعبد بأن لا يتوكل عليها –على الأشياء–، في الابتداء يحمد الله على وجود هذه الأسباب، في الأول هو يحمد الله إنها جاءت لتسهل حياته، لكن ماذا يكون شأن قلبه معها؟ هو عدم التوكل؛ لأن فيها ذهابها، فهي ستذهب فلا يبقى إلا الله، ومن هنا يحسن التوكل، والتوكل

ينبغي أن يصاحب العبد ليس عند ذهاب الأشياء، ينبغي أن يكون متوكلًا على الله عز وجل، وهذا تمام التوكل وأن يكون ناظرًا إلى الله مع وجود الأشياء.

ومن هنا عظم شأن الغني الزاهد، الفقير الزاهد سهل، لما قال للحسن البصري: أنت الزاهد، قال: «الزاهد هو عمر بن عبد العزيز ليس أنا»، فعمر بن عبد العزيز جاءته الدنيا فرفضها، ولذلك الذي ينظر إلى يد الله الفاعلة في الوجود مع وجود الأشياء هو أتم في عبادته وتوكله من الذي فنيت عنده الأشياء ولم ينظر إلا إلى الله، وإن كان هذا المعنى عظيم، لأن الكثيرين ممن تذهب عنهم الأشياء فلا تزال قلوبهم ساعية وراكضة لتحصيلها والنظر إليها.

بعض الذين كنت أراهم في السجن، ممن سجنوا ولهم نظر إلى أن المسؤول الفلاني والملك الفلاني يعرفهم، فهو في السجن مسكين في البلاء ليس عنده شيء، يقول: أخ بس لو يعرف الملك، لو يعرف الرئيس الفلاني أني مسجون، هو في الأول يقول: سيخرجني، بعدها تطول المدة الناس يضحكوا عليه يقولون ما خرجت، يقول لا يعرف أني بالسجن، هو فقط يعرف، هو مسكين خالي من كل شيء، خالي من أي سبب ومع ذلك قلبه متعلق بالوهم بلا شيء، ولو توكل على الله لقضاه، انظر لهذا يدلك على أن معاني القلوب من أعظم الأسباب.

الناس لا يعرفون أن معاني القلوب من أعظم الأسباب، ما ينشأ في قلبك من معاني هي من أعظم الأسباب التي يتحصل بها المرء حاجته ويقضي مراده، فالتوكل في القلب، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)﴾ [الطلاق: ٣]، معنى حسبه: كافيه، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، -فانتبه لهذا- معاني القلوب هذه الكلمات التي نقولها في أن تنظر أن الله هو الأول وليس قبله شيء، ألا كل شيءٍ عارض، «ألا كل شيء ما خلى الله باطل» عارض، ولا شيء لا وجود له، وهذه أصدق كلمة قالها البشر «ألا كل شيء ما خلى الله باطل».

فأنت حين تعيش مع هذا المعنى بأن الله عز وجل هو الأول فليس قبله شيء، فتحمد الله على كل نعمة فهذا يوجب الحمد، والآخر ليس بعده شيء فهذا يوجب التوكل، لأن كل الأسباب ستفنى وأنت ستفنى، وعليك ألا تتعلق بها ولا تتوكل عليها، ولا تصرف نظرك إليها ولا تغرك، لا تكن مثل قارون، يقول تعالى مخبرًا عن جواب قارون لقومه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ

﴿(٧٨)﴾ [القصص: ٧٨]، عليك إلا تثق بشيء عليك إن تثق بالله عز وجل، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم.

لما سئل الإمام أحمد رحمه الله عنها لئلا يقع في ذلك المعنى المادي خاصةً في الظاهر والباطن، قال: «هذه آيات العلم» فهي مختومة بالعلم ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)﴾ [الحديد: ٣] ، فقال: «هذه آيات العلم»، بمعنى أن مدارها على العلم فهو الأول سبحانه وتعالى وهو الآخر وهذه كذلك ليس فقط الإحاطة الزمانية ولكن إحاطة العلم لأنه الأول الذي أوجد كل شيء فهو عالمٌ بكل شيء، وهو الآخر الذي يفنى كل شيء وهو باقٍ ويعلم كل شيء، لذلك هو ليس فقط محيط إحاطة زمانية، فكل شيء عارض وهو سبحانه وتعالى الحق، وهذه سنأتي إليها وهي من مقتضيات هذا المعاني في قضية أن الله هو الحق، وكل شيء باطل.

وكذلك من المعاني التي تربي قلب العبد في أنه الأول والآخر أنه سبحانه وتعالى عالمٌ بكل شيء، محيطٌ بكل شيء، وكل شيءٍ تحت قدرته، فهو الذي أوجده، وكل شيءٍ تحت علمه وبصره فهو سبحانه وتعالى الذي يرعاه ويمده، فهذا هو الذي ينشأ في قلب العبد عندما يدعوه، أنه بكل شيءٍ عليم، وهذا العلم – أكررها لأهميتها– هذا العلم بالله هو من أعظم أنواع التعبد.

الناس يقولون كيف أتعبد الله؟ هذا العلم بالله أن تعلم الله عز وجل على ما هو عليه وتنسب له الكمال وتنسب له الحُسن كله، وتنسب له كل ما نسبه لنفس سبحانه وتعالى من المعاني الشريفة، هذا هو أعظم العبادة، هذه العبادة العلمية في القلب هي التي تفرز العبادة العملية على البدن والجوارح، فلذلك كلما قوي العلم بالله قويت عبادة الله عز وجل، قوي تعبد المرء لربه.

هذا الذي نقوله في هذا والعلماء لهم كلمات، أرجو فقط أن نقرأها لتدل على ما قلناه ونختم بها، يقول: «الأول الذي يترتب عليه غيره، والذي يسبق كل شيء»، ولذلك قال الزجاج: «الأول هو موضع التقدم والسبق»، ولذلك قال ابن جرير: «الأول هو قبل كل شيء بغير حد»، كلمة حد لم يشرحها ولكن كلام البيهقي يشرحها كلمة الحد قال: «هو الذي لا ابتداء –بغير حد– لا ابتداء لوجوده»، هو نظر إلى معنى التقدم المطلق، فقال: «هو الذي لا ابتداء لوجوده»، ونفس الكلام الذي ذكروه قال الطبري: «الآخر بعد كل شيء بغير نهاية» حتى لا يقع أنه بعد ذلك هو الآخر فبعد انقضاء كل شيء، قال: «بغير نهاية»، ولذلك قال البيهقي: «الآخر هو الذي لا انتهاء لوجوده»، هذا فقط ما نقوله في هذا الدرس، نستغفر الله لنا ولكم. جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

السائل: شيخنا ذكرت أنه نستفيد من الأول، «ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل»، يعني هو أوجد كل شيء، هل نستطيع حمل الكلام الصوفية في وحدة الحال على المراد الذي نتكلم فيه؟

الشيخ: يعني العلماء جاءوا لكلام الصوفية في قضية ألا كل شيء ما خلا الله باطل، مثلًا جاءوا إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم الذي مدح كلمة لبيد «ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل»، فقالوا: بأن كل شيء غير موجود إلا الله، فهناك فرق بين أن تشهد يد الله وحكمة الله وقدرة الله، وراء كل قدرة ووراء كل حكمة ووراء كل وجود، مع إثبات هذا الوجود على المعنى الذي أثبته الله له من الضعف والحاجة وعدم الدوام والانقضاء والانتهاء، وأن له أولية، يعني الأشياء الموجودة في هذا الخلق من السماوات والأرض من العرش، إلى أسفل السافلين، هذه موجودة حقيقة، ولكن وجودها بما وصف الله أنها مخلوقة لله، أن لها ابتداء ولها انتهاء، وأنه لا وجود لها إلا بإيجاد الله لها، والقيام عليها.

يعني أنا دائمًا أكرر هذه، يمكن كررتها مئات المرات لكن لأهميتها -تتمة لما سئل بس فقط هذه على الهامش- من غفلة العبد يظن أن الأشياء قد خلقها الله على جهة من الخلق ثم قامت بنفسها على هذه السنة التي أقيمت عليها، وهذا خطأ، فهي بحيث هي موجودة وحيث هي قائمة على الصفة التي خلقها الله أي السنة التي أوجدها عليها، الله يقوم عليها في كل آن وفي كل لحظة، ولولا قيام الله عليها في كل لحظة لفنيت وذهبت، يعني هي لا تجري بمجرد إجراء السنة التي تم بها الأمر الأول القدري، هذه الكواكب التي تمشي في الوجود لا تجري بمجرد الأمر الأول، امشي على هذه السنة فهي مشت وثم بعد ذلك تم الأمر وانتهى وتم صرف نظر الله عنها بحيث هي ماشية بالأمر القدري الأول، هذا غير صحيح.

ما من شيء أوجده الله على صفةٍ من الصفات أو سنةٍ من السنن إلا وهذا الشيء الله قائمٌ عليه حال قيامه على هذه السنة، فأنظر إلى مقدار علم الله وقدرته وإحاطته، ما من ذرة من الذرات هي على هيئة ما، الذرة عالم متحرك أثبتوا أن الذرة عالم متحرك، وليس ثابت يعني لو أن شيء هناك يتحرك نظرك لدوام حركته هل هو نظرك لشيء أخذته وطرحته على الأرض وسكن، ما هو الذي يحتاج إلى رعاية أكثر المتحرك ولا الساكن؟ لما يأتي بكر يتعبنا وهو ماشي ولا هو قاعد أو نائم؟

فالأشياء في دوام حركتها تحتاج إلى رعاية، ثبت أن كل شيء فيه حركة، لا يوجد شيء ثابت، كل ذرة في الوجود هي متحركة، ولذلك **(أصدق الأسماء همامٌ وحارث)**، وهذا ليس فقط فيما يظن الظان أنها

فقط في البشر، هذا في كل شيء همامٌ وحارث، فإذن قيام الله عليه في كل آن وفي كل لحظة، الله يقوم عليها على الصفة التي أقامها في لونها، في حركتها، في عطائها، في مدها، لأنها تحتاج، تحتاج إلى ان الله يأمرها فتستجيب، تحتاج بأن الله يمدها من أجل أن تكون فيها القوة، من أين لها القوة؟ هذه الذرة التي توجد ذرة من الحديد، من أين لها القوة في أن تكون فيها الإلكترونات تتحرك؟ من أين لها القوة؟ هي تصنع قوتها؟!

وعندما يقولون هذه الجاذبية الأرضية، مساكين هم اعتماد الملحدين المعاصرين على نفي الوجود الإلهي والخلق الإلهي هو على الجاذبية، عامة ما يعيدونه ما دام موجودة الجاذبية، خلص الجاذبية هي التي تؤسس، ولكن هذه الجاذبية من أين أتت؟ هذه القوة في أن يسقط كل شيء يرتفع، إن لم يجد له حامل، من الذي يديم هذه القوة في هذه الأرض؟ يديمها يمدها من؟ الله جل في علاه، فلذلك ﴿هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] كل نفس ليس فقط الإنسان كل شيء.

وتأمل هذا الضوء الذي بين يديك، لم يكن ليوجد إلا لوجود طاقة تمده، هذه الطاقة من الذي يجعلها طاقة؟ يعني عندما نزع الله عز وجل من البحر خاصية الميوعة، الماء مائع، نزعها سلب منها جل في علاه، منعها من هذه الصفة، منعها يعني حجب عنها ما يعطيها، هي ليست فيها ولكن حجب عنها ما يعطيها فتعطلت منها هذه، هذا يدلك على عظم الخلق، على عظمه جل في علاه، لما نقول الله يعلم الذر يعلم قطر الماء، يعلمه يعني هو قائمٌ عليه وجودًا، لأنه لو تحرك على غير ما يريده الله لتدمر العالم.

أنا أسألكم هو العالم يتدمر بماذا؟ هذه الرياح التي تهلك، ما هي الرياح؟ هي ذرة، وأنت تأتي إليك ذرة فلا تحس بها، طيب مليون ذرة، تتحرك بهذه القوة، ملايين وبلايين وتريليونات ذرات الله يخلقها، هذا الدمار هو دمار العالم في الشيء اليسير، لكنه معدد ومكرر، هذا الماء تأتي قطرة ماء الآن تنزل عليك رحمة، طيب لو نزل كما نزل على قوم نوح ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١١-١٢]، هذه قطرة الماء عندما تكررت صارت دمارًا، إذًا ما هو الفناء؟ هو ذرة، هو في النهاية ذرة.

فلذلك أنا أريد أن أقول: أن الصغير لا يجوز لأحد أن يقول ليس هو عظيم، ينظر إلى العظيم يقول هذا العظيم نعم تحرك، ما هو العظيم؟ ولو خلا هذا العظيم من هذا القليل لما وجد لأن، العظيم هو مجموعة هذا الصغير.

المهم أهل الدين وأهل الحق وأهل الإسلام يثبتون أن هناك خالق ومخلوق، يثبتون وجود خالقٍ له صفات الكمال، مما نتحدث عنه في هذه الجلسات، ويثبتون للمخلوقات وجود حق، الإنسان المكلف كذا... إلخ، هذا جيد هو أن لا ترى هذه الأشياء، أن لا ترى يد المنعم من البشر إلا على المعنى الذي طلبه الله منك، ماذا طلب الله منك حين ترى يد المنعم هو أن تشكره، لكن عليك أن تكون أعظم في باب التعبد ليس فقط طاعة لله بأن تشكره، ولكن أن تنظر إلى الذي يسره إليك من أجل أن تعبده.

ويجب أن تنظر إلى يد الله، أنت عليك أن تحمد زوجتك أن الله أكرمك بهذه الزوجة فرزقت منها الولد، شيء جيد حملت أبنائك، فعليك أن تشكرها وأن تقوم بشأنها وأن ترعاها، لكن عليك أن تنظر إلى المنعم الحقيقي الذي يسر لها هذه القوة، وهذه النعمة وهو يد الله، فينبغي أن تحمد الله ولذلك عليك أن تحمد الله، فحمد كل شيء ينبغي أن يكون رافعًا لك داعيًا لك لأن تحمد الله، فهذا هو هذا الأصل، أن تنظر إلى يد الله عز وجل، ولذلك قالوا: «وفي كل شيءٍ له آية تدل على أنه الواحد».

المشكلة في الصوفية والمشكلة في وحدة الوجود والمشكلة في المذهب العرفاني الذي هو قبل الإسلام، فالصوفية قبل الإسلام، يقولون بأن الوجود كله هو شيءٌ واحد، أن الوجود لا يوجد خالق ومخلوق، لا يوجد مدنس ومقدس، لا يوجد حادث وقديم، كل ما تراه هو الله، ففرقٌ بين أن ترى يد الله وراء كل شيء وجودًا وأمدادًا، وبين أن لا ترى إلا الله، على الحقيقة إنك ترى الأشياء، ولكن هذه الأشياء تراها ناقصة باطلة عليك أن تراها قبل وجودها بأنها لم تكن، وعليك أن تراها بعد وجودها بأنها فانية، عليك أن ترى يد الله عز وجل القائمة عليها فتحمده وتنظر إليها بما أمر الله عز وجل بقيامك في طاعة الله بها، تؤدي زكاتها... إلخ.

والأشياء ليست كلها على وجه النعمة المباشرة، فماذا نصنع في الأعداء؟ الأعداء لهم وجود كيف نحمد الله على وجودهم؟ لو لم يكن لهم وجود لما تم هناك مرتبة الشهادة، كيف الشهداء يكونون؟ بوجود الأعداء، الإنفاق في سبيل الله كيف يكون؟ مرتبة الطاعة، والجهاد في سبيل الله كيف تكون؟ بوجود الأعداء، لكن هل هؤلاء الأعداء هم الله؟ لا، نعوذ بالله، فهكذا الفرق بينما نقوله ويقوله أهل وحدة الوجود يعني بين وظاهر في هذا.

فإذن الواجب علينا أن نحمل كلام المسلمين الذين يفرقون بين الخالق والمخلوق على هذا المعنى، ولكن حين يأتي واحد ويصرح، فنقول واحد ماذا نصنع؟ التأويل حينئذٍ يصبح ألعوبة، ولذلك علماؤنا يؤولون ما استطاعوا، كما فعل ابن القيم في مدارج السالكين، هو إمام التأويل، وكما فعل ابن تيمية لكلام كثير مما

قاله الصوفية، ولكن حين يصرحون ويبنون عليها أحكامًا، يعني يبنون أنهم لا يتورعون من الدنس لأنهم لا يرون الأشياء نجسة وطاهرة، يقولون: هما شيءٌ واحد، لا يوجد شيء اسمه طاهر وشيء نجس، هو شيءٌ واحد، كما يقولون نعوذ بالله مما يقولون.

السائل: شيخنا في كلامك أن الله عز وجل لا يحتاج إلى دليل على وجوده، الحمد لله الصورة واصلة لكن نحتاج لمزيد من الشرح.

الشيخ: الأصل حين تدرك الوجود على حقيقته، أنت الباطل، وأنت الطارئ، والحق والأول والظاهر والذي وجوده الحق هو الله، فهو وجوده دليلٌ عليك، هناك فرق بين الكلام عن الابتداء، والكلام عن الانتهاء، نحن بلا شك بداية التعلم «أول الرقص حجلان»، وقالوا: «بداية الإبداع هو المحاكاة»، قبل أن تصبح أنت مبدعًا، تكون محاكيًا مقلدًا، تقلد وبعدها يكون الإبداع، فالأشياء في ابتدائها على معنى وفي انتهائها على معنى، في الابتداء يدلك على الغائب ما تشاهده، لكن في الانتهاء حين هذا الغائب تدرك حقيقته، وأنه الحق والأول والآخر والظاهر والباطن، وأن الذي تشاهده هو الباطل يصبح الباطل هذا الذي سميناه باطلًا على هذا المعنى، يصبح هو الطائر وهو المدلول وليس الدليل هو المدلول عليه، فالابتداء غير، والانتهاء غير.

أعطيك أيضًا مثال آخر الآن العلوم، ما هو الأرقى في الوجود، هل الأشياء أم المعاني؟ المعاني، من أرقى أن يكون عندك المال أو يكون عندك العلم؟ أن يكون عندك العلم، ثانيًا: العلم هو الذي يحصل به الفضل، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠)﴾ [العاديات: ١٠]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦]، العلم والإيمان هو كل شيء، لكن يحصل العلم بالنظر إلى الأشياء، والإنسان لما يبدأ، بما يبدأ هل يبدأ بالعلم والتفكر أم يبدأ بالنظر؟ بما تبدأ علوم المرء؟ بالأشياء بالمحسوسات، ثم يترقى الإنسان إلى الحكمة، بعد أن تبدأ علومه بالأشياء يرتقي إلى الحكمة، فيبدأ بفهم الأمور على وجهٍ من الكمال، فالابتداء الناس نثبت لهم هذا الغائب، بدلالة الحاضر، فالبعرة تدل على البعير صحيح، لكن حين الانتهاء يقول والله كنا مساكين وضعفاء وكنا جهلة، فالله هو الحق والأشياء هي الباطلة، والله هذا زيف، أين هي؟

هذا الذي كان يظن أن المال كل شيء، ثم نظرنا وإذا لا مال لديه، هذا الرجل الذي كانت عنده الصحة، رأيناه يفنى يذهب إلى القبر، هذا دليل على الباقي الحي القيوم، الباقي الذي لا يفنى والحي الذي لا يموت هذا دليل، هل هذا الشيء دليل على هذا الحق؟ أم أن هذا الحق الذي صار علمًا في قلوبنا، علم وأقوى مما تراه، ما الأقوى؟ الآن نرى نحن أمريكا من الأقوى؟ ما تراه من قوة أمريكا، أم ما تعلمه من قوة

الله؟ أجيبوني، المؤمن والتقي والعابد والذي يفهم الأمور على حقيقتها، من الأقوى؟ هذا الذي يراه أم الذي يعلمه؟ أنت ترى أمريكا هذه، وأنت تعلم قوة الله، ما هو الحقيقة وما هو الباطل؟ العلم هو الحق، أنت تراه شابًا قويًا وتعلم الموت، ما الذي تثبته؟ قوة هذا المرء أمامك، أم تعلم أنه فاني.

فلذلك بعد الارتقاء يصبح ما تعلمه أقوى مما تراه، فإن ما تراه من هذه الموجودات نهايته الفناء والانتهاء، وما تعلمه هو البقاء، والله عز وجل هو الحق المبين، هذا الذي أردته.

جزاكم الله خير وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الرابع عشر: الظاهر والباطن

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك اللهم لك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، عدد خلقك ورضاء نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك، اللهم صل وسلم على حبيبنا سيدنا وإمامنا وقدوتنا محمد النبي العربي الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين وعلى من تبعهم بإحسان وهدى وتقى إلى يوم الدين جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

فقط كمسألة علمية، هناك بعض الناس من يمارس العلم بطريقة عملية، وبطريقة منتظمة فهو يمارس العلم، كمن يذهب إلى العمل في كل يوم هو لا يهمه كيف يكون مزاجه، هو يمارس العمل ممارسة منتظمة، وهذه صفةٌ جيدة لو وجدت، أن المرء عليه أن يضغط نفسه بعيدًا عن مزاجه ليمارس ما هو مطلوب منه، ويحقق المنفعة، والكثير من الكُتّاب والمدرسين يعيشون هذه الظرف، وإذا حدث أن ابتعدت عنهم هذه الصفة فيأتي الطلبة، أو الناشرون.

أنا أتكلم عن العلم مطلقًا سواء كان عند المسلمين أو عند غير المسلمين، وخاصة في زمننا هذا، يأتي الناشرون ويحرضونهم على الكتابة من خلال رفيق، يفرغون رجل يكون يأخذ مالًا كثيرًا، وهو أشبه بالطبيب النفسي، وبالمستفز ويعيش معه في بيته ليل نهار، ويكون عالمًا بقضايا متعددة، منها علم النفس، لما يعانيه هذا من مرض، ويعانيه هذا من حالة، قد يكون مرض وقد يكون حالة، الحالة النفسية تختلف عن المرض النفسي، وتختلف عن المرض العقلي، فيجلس معه ويبدأ يستفزه للكتابة، ويحضر الأسئلة.

وهذه قديمًا عند سلفنا كانت موجودة، هناك الكثير من الكتب منشأها أسئلة طلبة العلم، يعني الآن لو ذهبت إلى كتاب العلل للإمام الدارقطني، هذا كتاب عظيم، وهو خاتمة كتب العلل في علم الحديث، يعني بعد هذا الكتاب لا عطر بعد عروس، لا يوجد كتاب مثيل له، الأوائل كتبوا كتبًا كثيرة، كالإمام الرازي وعلي بن المديني، أقصد أبا حاتم الرازي، كذلك علي كتب في العلل والإمام أحمد كتب في العلل، لكن هذا الكتاب بهذا الجمع وبهذه الكثرة وبهذه الإحاطة لم يكتب مثله أحد.

هذا الكتاب كيف كتبه؟ هو لم يكتبه، يسر الله عز وجل له تلميذًا وهو أبو بكر البرقاني، كان يأتيه فيسأله، وهذا الرجل العملاق الدارقطني هذا عملاق، هذا قنطرة بشرية قل ما يوجد في الوجود البشري مثيلًا لها، فبدأ يكتب ويجيبه وهذا الكتاب الآن أكثر من عشر مجلدات، ويمكن الأخيرة فهرس، ولم يتمه، مات قبل أن يتمه.

هذه الطريقة للاستفزاز، مرات المرء لا يقوم فيبدأ الآخر يسأله، والأسئلة تستفز ومن ذلك ومثيل لذلك هي كتب الردود، المرء مرات يُنشئ من نفسه هكذا يبدأ، المهم أن أكتب، هذه قضية قد ينشغل بها بأشياء في حياته، قد ينشغل بالقراءة ولا يهمه أن يكتب، وكثير من الناس يحبون القراءة أكثر من الكتابة، بل لا يتقنون الكتابة ولا يحبونها، وإن كان الأفضل والكمال هو أن يقرأ المرء وأن يكتب.

بعض الناس يكتبون ولا يقرأون، يكتبون ولكن لا يقرأون، هؤلاء مِثل تعرفهم يعني ترى مجرد تراب، ترى مجرد تراب منثور أمامكم، تعرف أنه فارغ، لأنه فقط يكتب، ولا تجد تصور أن رجل مثلًا في السنة يخرج ثلاثة أو أربعة كتب.

وبعض الناس يقرأون كثيرًا ولكن لا يكتبون، وهؤلاء منفعتهم لنفسهم كثيرًا ولكن هؤلاء في الحقيقة لا إبداع عندهم، لا يستطيعون هم فقط يتلقون، ولا يستطيعون صناعة علمٍ خاص بهم، لا يستطيعون المناقشة، ولا يستطيعون البحث.

والأفضل والكمال وبعض الناس يقرأون ويكتبون وهؤلاء هم الأكمل، أن يكون قارئًا وأن يكتب، ولكن لا أن يسرق ولا أن يقرأ ليكتب، ولكن أن يقرأ ليناقش، وهذه طريقة مهمة جدًا.

وقيل لأبي نواس كيف قرضت الشعر، فقال: جئت لشيخًا ذكره، أمرني أن أحفظ عشرة آلاف مقطوعة شعرية، وقد حفظتها وجئته، فقال: انساها، خلاص الآن، روح أكتب الشعر، فهذا قد استبطن داخلك هذا الشعر خلص الآن تخرج، والإبداع يبدأ بالمحاكاة، الحقيقة في الأول المرء يبدع بأن يحاكي، الطفل الصغير كيف يبدأ؟ بالمحاكاة، بعد ذلك لا يعجبه أن يبقى ماشيًا، لماذا لا أفعل كذا؟ هو يأتيها باليمين أريد أن أتيها باليسار، طيب لو أنا لفيت لفة، فيبدأ حينئذٍ الإبداع.

فهناك من أهل العلم من يقيد لهم الله عز وجل يقيد أعدائهم، من هنا ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)﴾ [الفرقان: ٣١]، قال ابن تيمية رحمه الله: «من نعم الله على الأنبياء أن أوجد لهم الأعداء»، هو لولا وجود الأعداء، كيف تظهر الشجاعة؟ كيف تظهر محنة الإيمان؟ كيف تظهر الشهادة؟ كيف يظهر أن الدين أنتصر؟ لو كان الدين يمشي بلا أعداء كيف يقال الدين أنتصر؟ فوجود الأعداء، ووجود الضد هو من كمال الشيء ومن نقصه، لأنه دال على أنه في النهاية سيفنى وسيبيد، سينتهي، وهذا من كماله لأنه يرتقي من خلال وجود عدوه.

هذه مقدمة ولكنها انتهت إلى شيء بتوفيق الله لشيء مهم وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، ونحن تكلمنا في الدرس الأول عن السابق، عن الأول والآخر، والآن نتكلم عن الظاهر والباطن، وهذه في الآية

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، ابن القيم له لمحة عجيبة وهذا في بدائع الفوائد، قال: «بأن القرآن يأتي بالأسماء والصفات من غير ذكر حرف الواو»، يقول السميع العليم، ما يقول السميع والعليم، الملك القدوس السلام المؤمن، لا يأتي بالواو، قال: «لأن هذه الأسماء إذا وجدت فتمامها أن توجد الأخرى، فهي من متمماتها، ومن لوازمها ومقتضياتها»، فحين أنت تقول أن الله هو السميع، لابد أن يأتي للكمال، لأنك تتعامل مع كامل، وتتعامل مع من لا نقص فيه وهو القدوس، وهو السبوح فإنه لابد أن يكون بصيرًا، سميعًا بصيرًا ليتم الكمال، وإذا تكلمت عن العزة تكلمت عن الحكمة، وإذا تكلمت عن الحكمة تكلمت عن العلم وهكذا، فأنت ترى أن هذه الأسماء تتتابع.

ولكن أنت ترى الأول والآخر هذه تضاد، السميع لا تضاد للعليم، ولا تضاد البصير، والحكيم لا يضاد العزيز لا يضاده من كماله، ولكن الأول يضاد للآخر، هذا من جهة وهذا من جهة، والظاهر والباطن هذا ضد هذا، فلا يمكن للشيء فيما نعلم من كمالات البشر، أن يكون ظاهرًا وباطنًا، إما أن يكون ظاهرًا وإما أن يكون باطنًا وإما أن يكون أولًا وإما أن يكون آخرًا، فهي متناقضة ولذلك جاء حرف الواو ليدل على كمالها، يعني هو يجمع -وهذه ليست كلمته أنا الذي أقولها- كأنه يجمعها رغما عنك، هو سميع بصير هذه تأتي معك، ما في اعتراض في قلبك عليها، -هذه كلمتي ليست كلمته- أنت الآن لما تقول سميع بصير هذه لا ينشأ في قلبك النقد لها ولا ينشأ في قلبك الاعتراض عليها، ولا في نفسك النكارة لها، بل هو لابد أن يكون السميع لكماله أن يكون بصيرًا وأن يكون حكيمًا وأن يكون عليمًا وهكذا.

ولكن حين يأتي الأول فهو يجبرك وهو كذلك الآخر، فكأن نعم الأول ويقول لك والآخر، فدل وجود الواو هذه على الكمال، وهذا كمالٌ بين متعارضين وليس بين شيئين يعني بينهم التناسق والتناسب، فالله عز وجل الأول والآخر، وهذا الأول والآخر هذه كما يقول هو عليه رحمة الله ابن القيم يقول: «هذه إحاطة زمانية، فهو الأول ليس قبله شيء، هذه إحاطة زمنية، والآخر هذه إحاطة زمانية فهو الأول والآخر جل في علاه»، وهذا من كماله وقدوسيته وأنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، وسبحانه وتعالى الظاهر والباطن، وفسر النبي صلى الله عليه وسلم ما معنى الظاهر، وما معنى الباطن، فقال: **(الظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس دونه شيء)**.

نحن نعلم أن الإمام أحمد، فقط لأن هذه معاني كثيرة، الظاهر والباطن معاني كثيرة العلماء تكلموا فيها، لكن أغلب قبل أن أتي بكلمة أحمد عليه رحمة الله، أغلب أهل العلم قالوا: أنه الظاهر بمعنى أنه البين الذي لا خفاء فيه، وذلك لما أقام من أدلة عليه، فيما نظرت وجدت أن أغلبهم يأتي بهذا المعنى أنه الظاهر أي الذي أقام الله عز وجل من الأدلة ليكون ظاهرًا غير خفيًا على قلوب الناس وعلى أحوالهم.

وهو الباطن الذي تعجز العقول والنفوس والمدارك أن يحيطوا به، باطنٌ حتى لا يدرك، والناس لا يدركون الباطن، وكلما كان باطنًا كان خفيًا، فهو خفيٌ جل في علاه، وظاهرٌ جل في علاه، ظاهرٌ حتى كأنه غير خفي على العيون ولا على القلوب، كأنه غير خفي لظهوره، لما أقام الله عز وجل لنفسه من أدلةٍ في الوجود تدل على أنه سبحانه وتعالى ظاهرٌ فلا يمكن أن يخفى، فهو ظاهرٌ فليس فوقه شيء، هذا أغلب ما قاله أهل العلم، وهذا معنى جميل ودار عليه كثيرًا كلام الغزالي في المقصد الأسنى، الغزالي أغلب مدار كلامه يدور على هذا المعنى، ويقول: «فهو ظاهرٌ من خلال العقول باطنٌ من خلال الهواجس»، هذه عبارته وهي جميلة، يعني لو أن الإنسان أراد أن يتخيل بهاجسه وتصوراته رب العزة عز وجل وأن يحيط به هل يستطيع، ولكنه في عقله بيّنٌ ظاهر.

ولكن انظروا إلى هذا الخفاء، هذا الخفاء وهذا الظهور، هذا الباطن وهذا الظاهر، لما جاء أحدهم يسأل ابن عمر وهو يطوف حول الكعبة يسأله أن يخطب ابنته وهو عبد الله بن الزبير، جاء لابن عمر وأراد أن يخطب ابنته وهو يطوف، قال: «لا يأتينا أحدكم في حاجته -يعني الزواج وغيره- وأحدنا يتراءى الله بين عينيه»، هذا هو تمام الإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه، هو كأنه يتراءى الله بين عينيه، وهذا أمر تصوري يحتج بشرحه أنه لا يشرح، ويحتج عليه بأنه من الأمور التي لا يمكن التعبير عنها، يحسها المرء في قلبه، **(أن تعبد الله كأنك تراه)**، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، وهذه من المقامات التي يعجز المرء أن يبين عنها، أن يظهر عليها.

فمن الجهلة اليوم من يقول كيف؟ طيب لما النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(رأيت ربي الليلة في أحسن صورة في المنام)**، يعني لو أن النبي صلى الله عليه وسلم هل خطر على باله -لأن هذا السؤال سألته- ولكن انظر إلى قيمة وعظمة الصحابة لفهمهم لما يخاطبوا به، ما الذي يسئل عن هذا، وما الذي لا يسئل عنه، هل طرأ على قلب صحابي أن يسأله كيف رأيته؟ أي شيءٍ رأيت؟ لم يخط على قلب صحابي أن سأل هذا السؤال، كيف رأيته؟ كيف هو؟ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(رأيت ربي الليلة في أحسن صورة في المنام)**.

هذا أمرٌ إذا كانت مخلوقاته وبعض مخلوقاته وبعض عظمة مخلوقاته يعجز البيان عن ذكرها، ما الحديث؟ لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى، عندما عرج به ماذا قال؟ **(رأيت فيها من التهاويل والتصاوير ما لا يقدر أحد على وصفه)**، ما في أحد ما في، الوصف هو أن ترى، لكن إن يقول لك كيف؟ وأنت وعبارتك في النهاية هي خروج كيف تنشأ الكلمات في أذهاننا؟ تنشأ من خلال المواد

والأشياء التي نراها هذا كتاب هذا كذا، ثم ترتقي إلى الأفكار وإلى التصورات وإلى الخيالات، وفي النهاية هذه الخيالات محكومة بك وبواقعك وبإنسانيتك، فكيف تعبر عنها.

لماذا نحن نقف أمام عالم البرزخ فنقول لا ندري، كيف؟ ما أدري، ذلك لأن عالم البرزخ هو عالمٌ خارج إطار السنن التي نعيشها في هذا الوجود، ما فيه سنن هذه الدنيوية، أنا مئة مرة ضربت هذا الكلام ولا أخجل أن أضربه ألف مرة، لما يأتي الحديث يقول عن يوم القيامة، قال عن المتحابين: **(على منابر من نور)**، حدثوني كيف يتحول النور إلى كتلة يجلس عليها الإنسان أو الإنسان ماذا يتحول حتى يمكن أن يجلس فوق النور؟ إذن نحن نتحدث عن سنن أخرى، نتحدث عن قوانين أخرى في عالم أخر تظهر فيه كرامات الله، ويظهر فيه عذاب الله لمن يستحقه.

ولذلك هم يرون الله، الله يأتيهم يوم القيامة فيسجد المؤمنون ولا يستطيع المنافقون ويرتدوا على أعقابهم، لا يستطيعون السجود، هذه عوالم من التفكر ما يمكن أن تصنع الجمال، وكذلك تصنع الجلال، الجمال يؤدي إلى الحب والجلال يؤدي إلى الهيبة، الرجل يحب زوجته لكن لا جلال لها، والرجل يجل الملك ولا يحبه، يجله يهابه ولكن لا يحبه، فالجمال يصنع الحب والجلال يأتي بالهيبة والتعظيم فلذلك الله عز وجل يُحب حبًا يليق به جل في علاه أنه العظيم، يُحب لما اسبغ من نعمة، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)﴾ [الرحمن: ٦٠].

ويهاب لأنه العظيم يخوف عباده، بأن لا يعصوه، لأن المحب يمكن أن يعصيه دلالًا، مع أن المحب لا يعصي، فالأصل كمال الحب ألا يعصي، لكن قد يعصي دلالًا، يعني واحد يعلم أن أباه يحبه فيعصيه على اطمئنان ألا يعاقبه، هذا من قبح أنواع الحب، ولكنه لا يصنع هيبةً لكن التخويف يصنع الهيبة.

القصد من هذا: الظاهر بهذا المعنى والباطن بهذا المعنى، وكذلك عند أهل العلم الظهور بمعنى العلم، الإمام أحمد لما أحتج عليه بسورة «الحديد»، قال: «هذه سورة العلم»، فتتحدث عن الأول والآخر، مع أنها تتحدث عن إحاطةٍ زمانية كذلك تتحدث عن العلم، وأنه سبحانه وتعالى الظاهر والباطن، أنه كذلك الذي يعلم كل شيء، كل شيء تحته فيعلمه، ولا يخفى عليه شيءٌ في أنه مستتر، بل يعلمه جل في علاه وهو مستتر، فهو الظاهر على كل شيء بالعلم، والظاهر على كل شيء بالاطلاع والسمع والبصر، ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥]، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨].

فلذلك الله عز وجل الظاهر لأن الظاهر هو ما بعد، ظهر، ما معنى ظهر؟ يعني كان خفيًا فبان، كان خفيًا ولما يكون خفي يكون مستتر، فالله عز وجل هو الظاهر لم يكن خفيًا جل في علاه، ولكنه سبحانه وتعالى ظاهرٌ أي عالمٌ بكل شيء فهو فوق كل شيء فيعلمه، هو سبحانه وتعالى الباطن في علمه فلو أن المرء تخفى حيث تخفى فإنه يعلمه، ولذلك يعبرون بالكلمات الطيبة «الله يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليل»، الله لا يخفى عليه شيء، لا يخفى مهما استتر المرء فإن الله عز وجل معه بعلمه محيط به جل في علاه.

وكذلك من معنى أنه الظاهر جل في علاه، أنه الغالب فأصبحوا ظاهرين، فالله عز لا يغالبه شيء، وظهور ربنا على كل من حاول أن يظهر، فإن كل شيء يريد أن يرتفع الله عز وجل فوقه وهو في ارتفاعه تحت قدرة الله.

هذا ما يفيدنا؟ الإفادة التي علمناها في العلم أدت إلى المراقبة، حين نعلم أن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء، ظاهر يعلم كل شيء وباطن فلا يخفى عليه شيء، هذه تصنع المراقبة في قلب العبد، يعني تأمل يوسف عليه السلام ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ [يوسف: ٢٣] أطمئن، بعضهم قال: ربي الملك وهذا كثير من العلماء قال: قبيح هذا التفسير لم يرضوه، وإنما هو ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣].

ما الذي جعله؟ هذه أول شيء امرأة وملكة وهو فتى عندها يخدم، يعني لو جاءت امرأة لرجلٍ وهي امرأة فقيرة وامرأة غير جميلة وليست ممكنة، يعرض عنها، فلو أعرض عنها يقول لك: هو أعرض عن شيء يعني يسير، وليس بغني وليس له أهمية، لكن كيف يوسف عليه السلام هذا الشاب الممتلئ، ولذلك الله أراد أن يثبت أنه لم يعرض عنها من أجل عجز جنسي، ولا ضعف في بدنه، ولا لغياب شهوة حدثت عنده، فقال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]، فأثبت رجولته وفحولته ورغبته بها بهذا، ومع كل هذه الدوافع الباطنية والظاهرية، ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ [يوسف: ٢٣] ما في شيء مستور، ومع ذلك رأى برهان ربه، ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]، ما هو البرهان؟ كل ما يقوله البعض من ظهور آيات كونية أنه رأى يعقوب يحذره ويرى يد يعقوب تحذره أو رأى الملك يحذره، كل هذا غير صحيح، هذه لا ترتفع درجة يوسف بهذه الأقاويل، إنما ترتفع درجة يوسف بأنه رأى برهان ربه وهو الإيمان في قلبه، عصمة النبوة وأمثالها فيما يكون غير نبي من قضية الحفاظة الإلهية للعبد، ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)﴾ [يوسف: ٢٤]، وقال كذلك: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، الله أكبر وانظر إلى نعمة الشكر وإلى حالة الشكر كيف تمنع المعصية.

نحن علمنا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم أن حالة الشكر أعظم من حالة الطلب، الشكر في النهاية أداء، الطلب أخذ، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم يصلي قالت له عائشة رضي الله عنها:**(يا رسول ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)**، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(أفلا أكون عبدًا شكورا)**، مقام الشكر في أداء الطاعة، يعني أنتم تعبدون لئلا تقعوا في العقوبة الإلهية والغضب الإلهي، هذه أمنتها، فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فأي باب أعظم؟ هو باب الشكر، فالطاعة في الشكر، وللشكر ولمقام الشكر أعظم من الطاعة في مقام الخوف والطلب.

لكن أنظر هنا مقام يوسف عليه السلام في هذا الباب وهو أن مقام الشكر منع المعصية، مقام النبي صلى الله عليه وسلم مقام الشكر أقامه في العبادة، مقام يوسف عليه السلام منعه من المعصية، قال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، أحسن مثواي فأنا أجازيه بالمعصية.

ولذلك قال الله في سورة الكهف عن عُباد الشيطان ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠)﴾ [الكهف: ٥٠]، هو عدوكم تتخذونه وليًا، ولذلك مما شغلني كثيرًا هذا التكرار تقريبًا في أربعة مواطن في القرآن يفصل لنا –أو أكثر– في سورة «الإسراء» وفي سورة «الكهف» وفي سورة «ص» وفي سورة «البقرة» وفي سورة «الأعراف»، أكثر يفصل لنا القرآن هذا الخبر السماوي، في عداوة الشيطان لنا، لماذا يكرره؟ مع أن في كل خبرٍ فوائد عظيمة، لكن لماذا يكرره؟ هذا تاريخه معكم، وهو في السماء هذا تاريخه مع أبيكم وهو في السماء، أفتتخذونه عدو.

فلذلك ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، هذا مقام الشكر الذي منع المعصية، فلذلك هذا العلم بأن الله مطلع، تصور أن العبد حين يأتي المعصية كما في بعض الآثار «أجعلتني أهون الناظرين إليك»، يعني لو رآك أحد لخجلت واستحييت، فأنت جعلتني أهون الناظرين إليك، أنني لما رأيتك لم تستحي.

أما الفائدة أن الله هو الظاهر: أولًا يدل على كبرياء الله عز وجل، وأن كل شيءٍ لن يبقى قائمًا، لن يبقى هناك شيء، ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ [الإسراء: ٥٨]، كل شيءٍ سيؤول إلى الانتهاء كل شيء، ومن سنته أن لا يرتفع شيء إلا قضى الله عليه، وسيقضي الله على أمريكا، وسيقضي الله على إسرائيل، وهذا الظهور، –انتبه– حتى لا تظن أن هذه سنة تعمل فقط في الكافرين، حتى تعمل في المؤمنين، هذا العلاج الإلهي في أحد على ماذا يدل؟

انظر –وأنا تأملت وقلتها مرات، وأقولها في هذه الجلسة لأهميتها– الناس يظنون أن الانتصارات النبوية كانت على حالةٍ من الزيادة التي تمنع الهلك في كل مرحلة، يعني الآن نحن عندما نرى دولة تقوى، خلاص

تأمن الهزيمة، في كل معركة عندما تكون هي انتصرت الأولى والثانية خلاص تأمن، ونحن نرى أن حالة العناية الإلهية بالنبي صلى الله عليه وسلم أنه في كل مرحلة كان الخطر مهددًا لزوال دولة النبوة، لتبقى قلوب الناس غير آمنة فلو أمنت لهلكت، لو أمنت لجاءها الهلكة، وهذه حالة لا يحبها الله لرسوله فأقامه في أعظم المقامات وهو بقاء الخوف.

ففي بدر لو هلكت هذه الإصابة...، في الخندق كادوا أن يزولوا ولا يبقى منهم شيء، بعد أن فتحت مكة وانتصروا جاءت حنين «والله –كما قال أبو سفيان– لن يردهم إلا البحر»، ولذلك الأمن من الهلكة هي بداية الهلكة، ولذلك هم يصعدون، ويصعدون وهم إلى أين يمشون؟ يمشون إلى نهايتهم، هكذا أنا أتصور مرات بيني وبين نفسي هكذا أتخيل هؤلاء يمشون في السلم وإلى النهاية وهم يمشون، ما زالوا يطمئنون أن هناك ارتفاع وهم يمشون إلى أين؟ إلى الهاوية، يسقطون بعدها، لأنه سبحانه وتعالى هو الظاهر، فلا يمكن أن يرتقوا فوق ما يريد فهو الظاهر عليهم، وهم في كل صعودهم لم يخرجوا عن قدرة الله.

وهذا الكفر الذي ترونه اليوم، اغترارٌ في الكافرين؛ مرده أنهم يظنوا أنهم ملكوا الوجود وأنه لا عاقبة لهم إلا البقاء والزيادة في النفوذ، هو في الحقيقة هو ابتلاء إيماني، ومكرٌ إلهي، ابتلاء للمؤمنين بأن يصبروا هذه فرصة للصبر، بالله عليكم لو لم يقع هذا البلاء في حنين، هل علمنا قيمة النبي صلى الله عليه وسلم في مثل هذه المقامات؟ هل مقام النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه قبل الواقعة كما هو بعد الواقعة، إياك أن تفوت هذه الفرص، إذا تعلمت تفويت الفرص فاتتك الجنة، في كل حالة لما تبتلى قل هذه فرصتي لأدخل الجنة، هذه فرصتي لأكون عبدًا لله، هذه فرصتي، لو تذكرت هذه الكلمات في كل ابتلاء لكنت أعظم الناس، وفي كل لحظة.

يعني أنت معك دينار رأيت فقيرًا وعلمت أنه الفقير هذه فرصة، وأعلم أن العطاء الإلهي والكرم الإلهي مخبأ لا تدري أين هو لا تدري، انظر **(سقى الكلب فشكر الله له فغفر الله له فأدخله الجنة)**، هي فرصة، جالس أنت فأمك دعتك إلى مطلب، فهذه فرصة، لا تدري لعلها تكون هي الفرصة التي بها تدخل الجنة، وهكذا في كل فرصة.

فالقصد: أن هؤلاء قد آمنوا ظنوا أن هذا الوجود لا يزول، والله ظاهر عليهم فوقهم محيط بهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٢٦)﴾ [النساء: ١٢٦]، فهو سبحانه وتعالى الظاهر والباطن جل في علاه، هذه أعظم المعاني وهو أنه ظاهرٌ للبشر، ظاهرٌ لمن أراده جل في علاه، وظاهرٌ لمن غالبه وهو ظاهرٌ عليه، وأنه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شيء بعلمه لا في ما هو ظاهر ولا في ما هو باطن، أسأل الله عز وجل أن

يجزيكم خير الجزاء وأن يبارك فيكم، وأن يعلمنا ما ينفعنا وينفعنا بما علمنا جزاكم الله خيرا الحمد لله رب العالمين.

أريد أن أذكركم بفضل ابن عباس في حديثٍ رواه أبو داوود وسنده جيد، «جاء أبو زميل سماك بن الوليد لابن عباس قال: وشكى له أنه يقع في قلبه بعض الأمر، فقال: حدثني أخبرني ماذا يقع؟ قال لا أقدر، أعوذ بالله، فضحك ابن عباس وقال: ما من أحد إلا ويجده حتى أنزل الله –هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وهو خطاب لأمته، وانظر أن هذا الأمر لا يخجل منه فجعله موصوفًا بالنبي وهو أعظم الناس مقامًا في اليقين، أعظم الناس يقينًا– فقال: حتى أنزل الله عز وجل كما في سورة «يونس»: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤)﴾ [يونس: ٩٤]، قال: فإن وجدت هذا فقل هو الأول والآخر، والظاهر والباطن»، هذا من علاجات القلوب، هذه الآية أن هذا الجمع من علاجات القلوب، أن الله يصرف كأن هذا الوصف الذي وصفه ابن عباس لهذا الرجل كأنه نور كأنه أعطى كشاف لأجل أن يطرد كل الظلمات، وكأنه أعطاه الدواء، الآية بعلمها وبلفظها وبقراءتها الدواء التي تشفى به أمراض القلوب من الشكوك وعوارض الشياطين التي تغزو القلوب، تشكيكًا أو تهوينًا، فجعل هو الأول والآخر وهذا علاج.

كما كان الصحابة رضي الله عنهم اتخاذ القرآن نور وعلاج كما كانوا رضي الله تعالى عنهم في غزواتهم يرفعون **(حم لا ينصرون)**، **(حم لا ينصرون)** هي علاج هي دعاء هي شعار، لكن بها يستنصرون، يرفع الراية كأنها ﴿حم﴾ راية يلتف حولها، وتجمع القلوب عليها، هذه أحببت أن أذكركم بهذه الفائدة.

الأسئلة

السائل: سؤال عن النص الذي صار مع ابن عمر في الطواف؟

الشيخ: جاء عبد الله بن الزبير ليسأله زواج ابنته، قال: «يأتينا أحدكم لحاجته، ونحن في هذا المقام كأننا نتراءى الله بين أعيننا».

السائل: شيخنا، الأول والآخر والظاهر والباطن ما الرابط بين الأسماء الأربعة؟

الشيخ: الإحاطة الزمانية والإحاطة المكانية، الأول والآخر إحاطة الزمان، والظاهر والباطن إحاطة المكان، فالله بكل شيء محيط، والوجود كل الوجود إما زمان وإما مكان، تاريخ وجغرافيا، كل شيء له تاريخ أول وآخر، وجغرافيا ظاهر وباطن له وجود، فالله محيط بكل شيء وهو سبحانه وتعالى فوق هذا كله، فوق الزمان وفوق المكان جل في علاه.

لا أريد أن أدخل في قضية فوق الزمان بمعنى هل الزمان الذي الحياة، هل الاشتراك بين الحياة، بين حياتنا وحياة الله هو اشتراك لفظي أم هو اشتراك حقيقي، هذه من قضايا الكلام ونحن اتفقنا أن نتجنبها الآن في مثل هذه الدروس إن شاء الله.

السائل: شيخنا علاج ما يأتي في النفس هو الباطن، أن نعرف أن الله هو الباطن يعني لم يستطع الإنسان أن يحيط به وبصفاته؟

الشيخ: لا يستطيع أحد أن يحيط بعلمه، لا يستطيع أحد أن يحيط به علمًا ولا أن يحيط به إدراكًا، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ولا علمًا لا تستطيع أن تحيط به علمًا، نحن كل ما نعلم أنه سميع لكن هل نحيط نحن بسمع الله كم هو جل في علاه، فنحن إذا تحدثنا عن المخلوقات عجزنا أن نحيط بها، يعني الآن كم إحاطتنا للمخلوقات؟ كم إحاطتنا لنفوسنا؟ نفوسنا التي بين جنبينا كيف نتحدث؟ كيف نحيط بهذا الكون المتسع الممتد؟

السائل: عندما ابن عباس قال له: اقرأ هذه الآية، أهم شيء اسم الباطن والله أعلم وهو الذي يدل على هذا الشيء؟

الشيخ: هو أراد أن يقول له التفكر من أين ينشأ؟ ينشأ من العجز وسواس الشيطان ينشأ من العجز، فأراد أن يعالجه بتمام هذا العلم، هو تمام الشيء كله هو هذا، تمامه هو أنك جمعت كما قلنا، لماذا قلنا سميع بصير في كلمة ابن القيم؟ لماذا سميع البصير؟ لأنها لا نرى فيها التعارض، لكن أول آخر، فيها تعارض هو أول والآخر رغم أنفك.

فلذلك أنت ترد عليه بالعلم، بعلمك بالله أنه سبحانه وتعالى فوق كل شيء وأنه فوق محاولتك لإدراك ما تريد إدراكه، فوق ذلك كله.

العلماء طبعًا لهم كلام في هذا مثلًا: «أنه سبحانه وتعالى الظاهر فهذا يقتضي الفوقية»، فوقية المكان فوقية المكانة، فوقية القهر، وهكذا يقول: «هذا من مقتضياتها»، ولكن نحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى بائنٌ عن خلقه، فليس باطن بمعنى أنه موجود في كل شيء بذاته لا، هو محيط بكل شيء بعلمه.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس عشر: الواحد

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغّر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

الامام ابن حزم عليه رحمة الله شخصية مشاغبة وحضوره في مسائل العلم حضورٌ دائم، يثير العقل ويثير العلم، ويدعو المرء للمساءلة قبولًا وردًا لما يقول، ولذلك استفتح اليوم في شرح اسمه عز وجل الواحد بمقولة ابن حزم التي أثارها حول ما هو القول الصواب في أسماء الله الحسنى، يمكن أن تُعرف بالاستنباط أم لابد من السمع؟ هل يمكن للإنسان بعقله أن يدرك دون السماع أن يدرك أسماء الله الحسنى؟ أم أنه لا يمكن أن يدرك هذه الأسماء أو أن يدرك بعضها فقط؟

هذه مسألة طاف حولها ابن حزم على طريقته في كتابه الفصل في الملل والنحل أو الفصل كما هو مشهور الفصل في الملل والنحل، وطاف حولها وجعل المخالفين لما يقول على طريقته أنهم مشغبون وأنهم على غير هدى.

ابن حزم قال: «بأنه لا يمكن للمرء أن يستنبط من جهة عقله أي اسم من أسماء الله الحسنى الله، إلا أربعة أسماء فقط»، هي: الأول والواحد والحق والخالق فقط، وشرحها شرحًا يسيرًا في هذا الباب، ولم يأتي بالأدلة على النفي هذا الذي قال به، رادًا على المخالفين، يعني ما آتى بكبير أدلة فعندما تقرأ كلامه في الفصل لا تجد كبير كلام في رد من قال بإمكانية أن يعرف العقل الأسماء الأخرى أو غير هذه الأسماء، ليس شرط كل الأسماء، أو غير هذه الأسماء من جهة العقل لم يأتي بكبير أدلة، وإنما قال فقط هو في كتابه الفصل يبدأ بالبناء التدريجي في قضايا الاعتقاد في إثبات وجود الله عز وجل وفي اثبات أسمائه وصفاته في الرد على المخالفين من الملحدين في نفي وجود الله في الرد على المخالفين في أسماء الله وصفاته وتفرده وربوبيته، فقال: «الاستنباط لا يمكن أن يأتي إلا بهذه الأسماء فقط، وهي: الأول والواحد والحق والخالق» فقط.

وثم يبني بهذا البناء الذي آتى به ابن حزم لا يعرج على النصوص النصية، النصوص القرآنية؛ لأنه يتكلم مع المخالفين الذين لا يؤمنون بالكتاب والسنة، فلما يأتي إلى القضايا المتعلقة بخلاف المسلمين بين بعضهم البعض يأتي بالأدلة، وأما هو في الابتداء لا يأتي إلا بالأدلة العقلية، فلما جاء إلى اسم الله الواحد،

طبعًا هو يتكلم عن الواحد المطلق في ذاته الواحد المطلق في الوجود، يعني هو الواحد المطلق في ذاته بأنه عنده لا يتجزأ لا يمكن أن يتجزأ فهو واحد، ولذلك كل شيءٍ في الوجود لا يمكن أن يكون واحدًا، لا يمكن.

ومن أدلة عظمة الله أنه ما من شيء إلا وقد جعل الله له ثاني، وما من عدد إلا ويمكن أن يكون له ثاني وثالث ورابع وهكذا. والواحد الأول في الأشياء عندما يقول الأول والثاني في الأشياء فإنما هي نسبية، عندما نقول: هذا واحد اثنين ثلاث أربعة فإنما هي نسبية، وهو في ذاته -الشيء- ليس واحدًا هو مُجَزِّئ أجزاء تستطيع أن تقسمه، الشيء عندما يكون واحدًا لثاني وثالث ورابع هذا هو شيء نسبي فهو نسبي ولم يكن أولًا لأنه واحد وأول لابد أن يقول الأول وأن يكون الواحد، فهذا لا يكون في الوجود، لا يوجد في هذا الوجود بمثل هذه الصفة.

وثانيًا: لا يمكن أن يكون هذا الواحد مطلقًا أي في ذاته لابد أن يتجزأ، هو الشيء عبارة عن أجزاء.

ومن هنا فالذي يستحق أن يكون له هذا الاسم العظيم هو الله عز وجل.

ثم أتى إلى قضية ثانية جيدة في هذا الكلام، وهو قضية أن هذا الواحد لا نراه في الوجود، لكل شيءٍ لابد من أول وهذا المطلق الأول في ذاته، والمطلق الأول في وجوده واحد في ذاته غير منقسم وواحد بالنسبة لكل شيء؛ لأن كل شيء ثاني وثالث ورابع لكن هو الأول، هذا لا نراه في الوجود، فدل على أنه غائبٌ عنا وهو الله عز وجل.

فهكذا هو يبني، وهذه فقط لمن أراد أن يعرف هذا القول من كلام ابن حزم.

المهم أن الله سبحانه وتعالى سمى نفسه: الله عز وجل إلهٌ واحد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنعام: ١٩]، وجاءت كثيرًا اقتران اسم الله الواحد بالقهار، الواحد هو المتفرد، والواحد هو الفرد، ولكن الفرد يمكن أن يكون ثانيًا يمكن أن يكون ثالثًا، لكن لابد من التفرد المطلق هو الواحد وهو الله سبحانه وتعالى، وهو لا يمكن أن يكون في عالم الوجود لأن عالم الوجود نسبي، لست أنت الاول المطلق في كل شيء، لست أنت الواحد المطلق في كل شيء.

فإذًا الله سبحانه وتعالى جل في علاه هو الواحد المطلق في ذاته الذي لا يتجزأ، قالوا الواحد الذي لا يتجزأ هو الأحد، الواحد الذي لا يتجزأ هو الأحد، والواحد الذي لا مثيل له هو الواحد، فإذًا الأحد هي نفي عن التجزيء والواحد هو إثبات الأحدية المطلقة، هذا من التفريق بين الواحد والأحد، والأحد لم ترد

إلا في آية واحدة فقط أما الواحد وردت في أكثر من عشر آيات تقريبًا، وجاء الواحد غالبًا مقترنًا بالقهار الواحد القهار ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر: ١٦].

انظر الأحد اقترن بالصمد، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾ [الإخلاص: ١-٢]، واقترن الواحد بالقهار ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، الصمد فيه العطاء، ما معنى الصمد؟ أصلها لغة من الْمُصمَت، والْمُصمَت الذي لا جوف له، فرق بين لما تكون أنت علبة فيها جوف فهذه ليست مصمتة، فإذا أغلق كل شيءٍ في داخلها؛ كانت مُصمَتة، والْمُصمَت الذي لا جوف له، فالصمد الذي لا يحتاج إلى أحد، ليس له جوف لا يأكل ولا يشرب لا يحتاج، والعرب تقول صُمد الملك، يعني جلس إذا صمد وقف وكأنك صمدته أي أقمته من أجل قضاء حوائج الآخرين.

-أنا أريد من أن أشرح الصمد ثم نتابع لا بأس- فاقترن الأحد بالصمد بالعطاء، هو الذي لا يحتاج وهو كل شيءٍ يحتاج إليه، الله عز وجل لا يحتاج إلى أحد وكل شيءٍ يحتاج إليه في الوجود والإمداد والبقاء، ولكن الواحد اقترن بالقهار.

والأحد قلنا الذي لا يتجزأ فهو لا يحتاج إلى أحد؛ لأنه أحد لا يحتاج الى أحد، وهو سبحانه وتعالى لإنه الأحد في ذاته فهو تامٌ في كل صفةٍ أخرى له، هو تام جل في علاه لا يحتاج إلى أحد، فهو الذي لا جوف له لا يحتاج أحدًا، ويحتاجه كل أحد فوافق أن يكون سبحانه وتعالى الأحد، لإنه لا يتجزأ لا يحتاج، لا أجزاء في نفسه، ولا يحتاج إلى غيره.

ولكن لماذا جاءت الواحد مع القهر؟ لأن الواحد هو الذي لا ينازع، وهو واحدٌ جل في علاه لا ينازع في شيء، فلما لم يكن منازعًا في شيء كان قاهرًا على كل شيء، عندما لا تكون هناك الأشياء يكون هو الواحد، فهو قاهرٌ لها بعدم إيجادها، ولذلك يوم القيامة يقول تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، بعد أن تفنى كل الأشياء ولا يبقى شيء؛ للواحد هو بقي الواحد الذي صار كل شيءٍ بعده ثانيًا، ثالثًا، رابعًا، بوجوده وبخلق الله له، لكن عندما لا يكون هناك شيء هو يبقى هو الواحد، فهو قاهرٌ بعدم وجود شيء، وعندما توجد الأشياء لا تخرج عن مُلكه ولا تخرج عن سلطانه ولم يتغير وضعه.

هل يمكن للأول أن يصبح ثانيًا في الوجود؟ نعم، يمكن في الوجود النسبي، وهل يمكن للواحد أن ينقلب لعدم الوجود النسبي -فيما هو نسبي-؟ الجواب نعم، ولكنه سبحانه وتعالى الواحد قبل وجود الأشياء، فهو قاهرٌ لها بعدم وجودها وغير محتاج لها، وبعد وجود الأشياء لم يتغير جل في علاه.

فقط أنا هنا في –لم يتغير– فقط هنا ردًا أريد ان أبين كلمة منتشرة، هم يقولون هذا: وهو على ما عليه كان، وهذه كلمةٌ غير صحيحة، هذه صحيحة من جهة ما نذكر أنه سبحانه وتعالى صفاته قبل وجود الأشياء وبعد وجود الأشياء وبعد فناء الأشياء، أي الله سبحانه وتعالى خالق قبل أن يَخلُق، والله سميع قبل أن تكون هناك الأصوات، الله عز وجل يرى قبل أن تكون هناك الأشياء، فهذه الصفات لم تحدث بعد وجود الخلق بل هي أزليةٌ مع ذاته جل في علاه، لكن هل الله عز وجل جل في علاه على ما عليه كان؟ لا، الله خلق العرش فاستوى عليه، **(كان الله ولم يكن شيءٌ قبله ثم خلق العرش ثم استوى على العرش)**، وكان عرشه قبل أن يخلق العرش على الماء ثم استوى على العرش.

فاذًا هم بهذه الكلمة «وهو على ما عليه كان»، إنما يريدون نفي صفات الفعل التي لها تعلقٌ بالإرادة –وهذا شرحناه مرةً– هناك صفات لله عز وجل لها تعلق بالإرادة، كان لم يتكلم فيتكلم، كأن يتكلم متى شاء ويسكت متى شاء جل في علاه، **(ينزل ربنا سبحانه وتعالى في الثلث الأخير من الليل)**، فلا نقول وهو على ما عليه كان، هذا من أجل أن يقولوا من أجل نفي صفات الفعل، فأما على المعنى الذي ذكرناه وهو أنه سبحانه وتعالى بصفاته لم يزل جل في علاه وهذه الصفات لم تحدث بعد أن لم تكن.

المهم فإذًا الله عز وجل اقتران اسمه جل في علاه الواحد مع القهار ملائمةٌ لذلك؛ لأنه سبحانه وتعالى قاهر الأشياء قبل وجودها بعدم إيجادها مقهورة حتى وهي في عالم العدم مقهورة، فلما أوجدها لم تحدث تغيرًا بل هي ما زالت تحت قهره جل في علاه، ولو شاء لأفناها ولو شاء لأمدها وأعطاها فهي بيده سبحانه وتعالى.

أولًا: الواحد الأحد هي أساس قضية التوحيد، ونحن نقول دائمًا أنه جل في علاه واحدٌ أحد في أسمائه وصفاته وأفعاله وكذلك يجب أن يكون واحد في ألوهيته، يعني أساس ما خُلق العبد له هو أن يوحد الله، وهذا الاسم إذًا هو داخلٌ في كل أسماء الله وصفاته، هو الأحد وهو السميع يعني صفة السميع بهذه الصفة وهذا الإطلاق فهو أحدٌ هذه صفة لواحد فقط، وصفة البصير بهذا الاطلاق لواحد فقط، فإذًا الله عز وجل واحد في أسمائه، هذه الأسماء كلها التي نثبتها لله عز وجل ويذكرها ربنا سبحانه وتعالى في كتابه ويذكرها رسولنا صلى الله عليه وسلم في حديثه إنما هي لواحد بمعنى أنها لا تتعدد على هذا المعنى.. لا تتعدد.

هل اسم السميع يتعدد؟ لو تعدد بهذا الإطلاق لكان هناك آلهة أخرى، الله البصير، الله الرزاق، الله عز وجل القدير، بهذا الاطلاق، فالإنسان قد يكون قديرًا والمخلوق قد يكون قديرًا، لكن هل هو بهذا

المعنى الذي نطلقه على الله؟ بمعنى القدرة المطلقة التي لا حدود لها القدرة الذاتية التي ليست من غيره؟ الانسان قدير القدرة حادثة فيعطيه الله عز وجل هذه القدرة ويسلبها منه، فيكون لها أول ويكون لها انتهاء، فهي محدودة وليست مطلقة، فإذًا لما نقول إنه الواحد جل في علاه فإذًا نثبت له صفات لا تكون هذه الصفات إلا لهذا الواحد بهذا المعنى، ولذلك هو واحدٌ في أسمائه وصفاته، لم يشاركه في هذه الصفات أحد ولن يكون أحد ينازعه جل في علاه في هذه الصفات على هذا الإطلاق من المعاني الحسنة والحُسنى، بهذا المعنى.

ثانيًا: نحن نقول بأن الله عز وجل واحدٌ في أفعاله، ومعنى الفعل يعني أن الله عز وجل لا يفعل أفعالًا ثم يوجد لها المقتضى، هذه آثار هذه الصفات وليست الصفات، الصفات لله عز وجل لا تنفصل عنه كما أنه بائنٌ عن خلقه فصفاته فيه لا تنفصل عنه.

وعندما نتكلم عن الرحمة هذه الرحمة الموجودة في القلوب، هل هذه رحمة هي منه على معنى هي جزء من رحمته أم أنها مخلوقة من رحمته جل في علاه؟ مخلوقة، يعني هذه الرحمة التي في قلوب العبيد على بعضهم البعض، الرحمة في قلب الأم على ابنها، الرحمة في قلب الحيوان على ابنه، الرحمة في قلب الحاكم على رعيته، الرحمة في قلب الكبير على الصغير، الرحمة في قلب الذكر على الأنثى، هذه مخلوقة الله عز وجل هو الذي خلقها في القلوب وليست هي جزء من الرحمة -كما يفهم البعض- بأن الرحمة قسمت فدخلت في قلوب الناس رحمة الله، لا، هذه رحمة صفة له، ولكنها الموجودة في قلوب الخلق هي مخلوقة.

ولذلك ننظر إلى آثار رحمة الله، من رحم الله عز وجل هذا المطر هذا المطر مخلوق، فالله عز وجل أنزل المطر على الناس رحمةً بهم، الله عز وجل أوجد للابن للطفل الرضيع أمًا تحميه رحمةً به، وهكذا، فالرحمة التي توجد في القلوب هي مخلوقة لله سبحانه وتعالى، إذًا الله سبحانه وتعالى واحدٌ في صفاته لا يشاركه غيره جل في علاه في هذه الصفات على هذا المعنى وإن اشتركت في المعاني اشتراكًا جزئيًا، أي أنت قدير والله قدير أنت حي والله حي هذا اشتراك في المعاني وليس اشتراك فقط في اللفظ على الصحيح.

فالله عز وجل هو الخالق، الله عز وجل هو الرازق، الله عز وجل هو المدبر لهذا الكون، الله عز وجل هو المحيي، الله عز وجل هو المميت، فهذه هي واحد، لا أحد يميت إلا الله، لا أحد يرزق إلا الله، ونحن نرى فلانًا يعطي فلانًا هذا كله من عطاء الله عز وجل، من الذي أوجد هذه النعمة أصلًا في يد هذا العبد ليعطيها لغيره؟ الله سبحانه وتعالى.

فإذًا الله عز وجل واحدٌ في أسمائه وصفاته وواحدٌ في أفعاله.

ثالثًا: الله عز وجل واحد في تألهه وتأليه العباد له، هذا الذي سميناه الأول هو فعل توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية على ما يذكرونه، إذًا ما دام أنه الواحد الذي خلق وهو الذي رزق وه الذي يعطي وهو الذي يميت وبيده كل شيء، إذًا هو الذي يستحق أن تُثبِتَ له هذا وأن تطيع أمره وهذا توحيد الألوهية، فلأنه الواحد فيما تقدم كان لابد من هذه النتيجة وهي: ألا يعبد إلا الله جل في علاه، يعني بما استحق ربنا عز وجل أن يعبد؟ لأنه الواحد الذي خلق لم يخلق غيره، والذي رزق، والذي أمد، والذي أعطى وهكذا، فلذلك كان ينبغي ألا يعبد إلا هو.

ومن هنا ينشأ الشرك، إما شرك في إثبات غيره بأن يجعله إما واحد متبعض، أن يصبح جزءًا يخرج منه جزء، الآن ماذا تعتقد النصارى؟ تعتقد النصارى اعتقادات باطلة كثيرة متعددة ولكن بعضهم يقول بأن هذا الابن هو جزء انفصل عن الإله هذا كفر وشرك، فلما فصلوه عن الإله أوجبوا عبادته، ما دام هو جزء من الألوهية، أو أن جزءًا من الربوبية قد حلت في بعض المخلوقات إكرامًا لها، هكذا هم يزعمون.

مثلًا: لقيت من الصوفية والروافض الشيعة مما يلبسون به في قضية التوحيد القضية التالية:

انتبهوا الفرق هذا مما ينتشر هذا الكلام بين المشايخ، حتى المشايخ مرات يجعلونه حجة لنفي اسم الشرك على مستحقه يقولون: بأن نحن نعتقد بأن فلانًا مخلوق -لنفترض ما يقوله الصوفية في مشايخهم أو ما يقوله الروافض في أئمتهم أو ما يقوله غيرهم من أصحاب العقائد الباطلة في تأليه غير الله- يقولون: نحن نعتقد أن هذا مخلوق ولكن الله أكرمه، أكرمه بماذا؟! هنا السؤال أكرمه بماذا؟! بأن جعل فيه بعض الألوهية أو بعض الربوبية!! أن جعل فيه قوة هي ما يختص الله عز وجل به!! فبمجرد قولهم بأن هذا مخلوق يجعلهم يخرجون هذا الذي نسبوا حلول الربوبية فيه ألا يكون إلهًا، مع أنهم بعد ذلك يثبتون له حق الألوهية؛ فيسألونه ويستغيثون به وهذا من مقتضيات اعتقادهم بأنه يسمع كل دعاء ويبصر كل حال ويقدر على كل سؤال وهكذا، يعني هذا أعظم الشرك.

أولا: كذبوا على الله بأن زعموا بأن الله يضع في بعض عبيده بعض صفاته مع أن القرآن يكرر دائمًا أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو أعظم خلق الله وأكرم خلق الله أنه بشر، لم يخرج عن البشرية في شيء، هو يسأل ويدعو ويحتاج ويحيا ويموت ويُقتَل، وهكذا، فقط هو يوحى إليه، فإذا جئت إليه وقلت له: هذا مخلوق؟ يقول لك نعم يكفي أنا أعتقد بأنه مخلوق ولكن الله أكرمه، أكرمه بماذا؟!!

النبي صلى الله عليه وسلم بما أكرم؟ أكرم بأن يدعو فيستجيب الله له، لم يكرم بأن يُدعى فيستجيب سؤال داعيه، فهذه من أين جئتم بها؟!! يعني الآن ينتشر الكثير من هذه الدعوة الباطلة في أن هذا ليس

من الشرك، ما دام أننا نقول هو مخلوق ونقول بأن الله ما أعطاه الله هذه كرامة له هذه تخرجنا من الشرك!!

وهذا هو أعظم الشرك؛ لأنه كذب على الله بأنه يزعم بأن الله قد أحل فيه بعض صفاته، من القدرة، من النفع، من السمع، من البصر، من العطاء، من المنفعة، من الحياة التي تدوم ولا يموت هذا لا يموت هذا هو ميت ولكن مع ذلك تستغيث به!!

طبعًا هناك شُبه أخرى في هذا الباب يعني شرحتها في بعض المواطن مثل قولهم لا نحن لا نعتقد بأن جزءًا من الربوبية حلت فيه لا نعتقد ولكن نعتقد بأن سؤاله يقرب من الله وكل هذا يعني يوصل إلى نفس الحال هذا كذب على الله، لماذا تسأله؟! لماذا تسأله وأنت لا تعتقد أنه يسمع كل صوتٍ في أي مكان؟! ويقدر على كل سؤال! من أين أتيت بهذا؟! إلا إذا كان في قلبك الاعتقاد بأنه يسمع ويبصر ويقدر، فلماذا تسأل فلان؟! لماذا يقول الصوفية يا عبد القادر ويقول الرافضي يا حسين لماذا؟! إن لم يكن قد اعتقد بأن فيه صفات السمع المطلق لكل من يدعوا في المشرق والمغرب، ويقدر أن يعطيه سؤله في المشرق والمغرب أي سؤل أن يرزقني الولد، أحيي لي ابني وهكذا.

ولذلك هذا الآن من أعظم ما ينتشر من مفسدات الاعتقاد الصحيح، الاعتقاد بأن الله أعطى بعض صفاته للعبد، أن الله خلق في العبد ما يكرم به العبد من الرحمة من القدرة المال الغنى من القوة هذا الله خلقه فيها، ولكن خلق ليس على معنى الدوام، ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)﴾ [الزخرف: ٤٥]، من الذي أعطاه الله عز وجل هذه الصفة فتكون دائمة؟ من؟

كل شيءٍ قد كتب الله عليه عز وجل الفناء، وكل شيء قد كتب الله عز وجل عليه الضعف؛ هذا من كبريائه، هذا من كبرياء الله عز وجل من تفرده، هذا لأنه الأحد، الله عز وجل له صفات، هذه الصفات لها مقتضى لا يجوز أن تنقض، فنقضها يعني أنها غير الحقيقية، وأنها ناقصة.

ولذلك له صفة الواحد الأحد والذي لا يجوز لهذا الواحد أن يتبعض، ولا يجوز أن يشركه في غيره، أي هذا الواحد في الصفات في هذه الأفعال بحق العبادة إذا صرفت لغير الله باعتقاد بعضها هذا كفر وشرك ولو كان في جزءٍ منها، أن لو صرفت عبادةً واحدة لغير الله عز وجل فهذا ناقضٌ للتوحيد وناقضٌ لأنه الواحد الأحد، ولو جعلت أي صفة من صفات الله عز وجل التي هي صفات الكمال ولو بجزء يسير في العبد على هذا المعنى من الذي نثبته لله عز وجل هذا خروج كذلك عن حق الله عز وجل، والله لا يقبل بذلك.

فالله عز وجل خلق الخلق ليعبدوه، خلق الخلق على معنى من الضعف من أجل أن يذنبوا فيستغفروا، خلقنا الله على معنى من الضعف من أجل أن نسأله ونستغيث به، خلقنا على معنى الابتلاء والكبد من أجل أن نستغيث به، خلقنا على معنى من الغنى من أجل أن نخاف الفقر فنستغيث به، حتى ونحن في حال الغنى نسأله سبحانه وتعالى ونعوذ به **(اللهم إنّا نعوذ بك من الحَوْرِ بَعْدِ الكَوْرِ)**، حتى وهو في غناه هو محتاج إلى الله عز وجل يسأله أن لا يذهب عنه الغنى ولا يفقره، حتى وهو في حال العزة هو فقير فالله سئلنا من أجل أن نسأله، إن كنا على معنا من الضعف سألناه أن يخرجنا وإن كنا على معنى من الذنب سألناه ان يخرجنا منه وغن كنا على معنى من الطاعة سألناه أن يتقبلها وأن يديمها، فهكذا خلقنا الله عز وجل، وهذا تمام العبودية، بما تكون عبودية العبد إلا بهذا.

فهل بعد هذا من ترقي العبد في مراتب ومقامات العبودية أن يأتي أحد وينسب لهذا العبد مقامًا من مقامات الربوبية؟! بما يترقى العبيد بأن يعطيهم الله أن يكونوا الهة وأن يكونوا أربابًا، أم أن يزيدهم في مقام الاستغاثة، ومقام الخوف من الله.

بما أقام الله عز وجل الأنبياء؟ بمقام الاستغاثة والاستغفار، النبي صلى الله عليه وسلم يستغفر **(واللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَومِ أَكْثَرَ مِن سَبْعِينَ مَرَّةً)**، ومقام الدعاء، فكلما ازداد المرء عبودية لله أي أن يزداد في مقام الحاجة وشعور الذنب والضعف أمام الله، فحق الله عز وجل أن يكون واحدًا في ذاته، واحدًا في أفعاله، واحدًا سبحانه وتعالى فيه تألهه على عبيده، نسأل الله عز وجل أن يرحمنا برحمته وأن يكرمنا بكرامته هذا واستغفر الله لي ولكم.

السائل: شيخنا في شيخ صوفي سوري مشهور يقول: يعني رجل ذهب إلى البحر وقال له شيخه إذا ماج بك البحر قل يا فلان عن نفسه، فماج فيه البحر فقال: يا الله قال: فما استجاب! قال: يا رسول الله قال: ما استجابت! فقال: يا شيخ، فهدئ البحر، يقول فصار يشك في الإيمان، لما رجع إلى شيخه قال له ماذا حدث معك؟ فحكى القصة، لكن شيخي أنا صار في نفسي شك، قال له: أنت لما قلت يا الله أنت تعرف الله؟ قال له: قال له ناديت من لم يعرفك، فلما ناديت الشيخ هو يعرفك يعني أنا بعرفك، أما أنت لا تعرف، حتى قال له واحد من الجالسين: أنت بتدعي الله أنت تعرف الله؟ قال له أنت لا تعرف الله فلماذا تقول الله؟ قول يا فلان، وهذا مسجل أيضًا.

الشيخ: يعني هذا منتهى الكفر، يعني هذا لا يوجد في الوجود ما هو أكفر من هذا، نحن ندعو الله عز وجل من أجل أمرين: ندعو الله لحاجة وضعفنا، وهذا هو منتهى العلم بالله، يعني الله –انتبهوا لهذا– الله ما خلقنا الله إلا لعبادته في أي طور، يعني ونحن نجلس معكم إذا تخيلتم أن هذه الجلسة لا تحقق العبودية فنحن قد قصرنا في مقصد وجودنا، في هذه الجلسة، وأنت تمشي –هذا مقام المراقبة ومقام الإحسان– وأنت تمشي إذا لا تحقق مقصد الله فيك في هذا المشي من تحقيق العبودية فاعلم أنك لم تحقق مقصد الله الله عز وجل وينبغي أن تستغفر وينبغي أن تتوب.

فهذا الرجل الذي مشى في البحر فوقع فيه، الله أقامه في مقام ليحقق هذا المقصد من عبوديته لله، وهو أن يشعر بضعفه وبغنى الله، وأن يشعر بحاجته وعطاء الله، وأن يشعر بأنه لم يخرج عن إحاطة الله له لا سمعًا ولا بصرًا، فهي فرصة عظيمة من أجل تحقيق حب الله له، وفرصة عظيمة من أجل أن يحقق عبوديته لله عز وجل، فعندما يسأل الله وقد عرفه تمام المعرفة، وعلم ربه تمام العلم؛ لأنه عرف نفسه وعرف هو أي شيءٍ في الوجود ومن هو هذا الوجود، من الذي يسيطر على هذا الماء، من الذي يراقبه، هذا هو تمام المعرفة، ماهي المعرفة التي يطلبها هذا الشيخ المشرك من هذا المريد ماهي المعرفة غير هذا، فهذا شيخٌ مشرك.

هذا شيخٌ مشرك يقول: أنت تعرف الله، نعم أعرفه، ما الذي عرفه الأنبياء؟ ما الذي عرفه الأولياء؟ هذا الرجل عرفه لأنه الآن هو ضعيف، يا رب هذا منتهى المعرفة منتهى الإيمان، وهذه المعاني الجزئية في الفعل الواحد يدركها العالم، وهي موجودة عند كل إنسان عالم وغير عالم.

ما الفرق بين العالم والعامي؟ العامي يعلمها في قلبه لكن لا يميزها لا يقدر أن يحكي عنها، فقط، لكن يأتي عالم يقول له قف قليلًا تعالى أبين لك ما الذي يعنيه عندك هذا، عندما هذا العامي قال يا الله، هذا الفعل تحليله في العلم والوجود والواقع ماذا يعني؟ يعني أن الله يراه، لو قيل له هل الله يراك؟ يقول: أنا أدعو ربًا يراني، أنا أدعو ربًا يسمعني، أنا أدعو ربًا قادرًا، أنا أدعو ربًا يسيطر على كل شيء في الوجود فأنا محتاج إليه، فهذه فرصة لتحقيق العبودية.

الله عز وجل يقيمنا في أحوالٍ متعددة في هذا الوجود من أجل أن نحقق العبودية له، ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، لماذا فتنة؟ ما معنى الفتنة؟ يقال: فوتن الحديد عندما يؤتى بالذهب فيوضع في النار، النار اسمها فتنة؛ لأنه تصهر هذا الذهب فتميز الخبيث عن الذهب فتفتنه يعني نقت الذهب مما فيه من الشوائب، الناس يظنون أن الفتنة بمعنى يأخذوها بالمعنى الأول ولا يتمون معناها النهائي، ما هي الفتنة؟ الفتنة نار ابتلاء ولكنها في النهاية فصل بين ما هو شوائب لا تضر ولا تنفع وبين ما هو ذهبٌ إبريز هو كل شيء.

المرقب في هذه الدنيا وهو يعمل يأتيه أبوه فيعطيه مائة دينار، فيختلط عليه فيقول: أبي يعطيني، يركب السيارة، السيارة أقلتني، يأكل يقول الطعام أشبعني، هو لو سئل من أشبعك؟ هو يقول: الله، ولكن هو في الحياة هذه تختلط هذه المعاني الجزئية بالمعاني الكلية وهكذا، ولكن عندما يكون وحيدًا في مثل ما ضرب المثل هذا الرجل، ويكون في البحر، لا الطعام يشبعني ولا الماء يرويني ولا الأرض تقلني هذا فتن وابتلي، فقال: يا الله، ما نادى زوجته لتنقذه ولتطعمه، ولا نادى ابنه من أجل أن يحمله لأنه ليس قادر على القيام، لم ينادي إلا الله، فصار فتنة، هذا البلاء والشدة النار التي دخلها هذه فتنة فلم يلجأ إلا إلى الله هذا هو تمام التوحيد، فتبقى هذه المعاني اللحظات هي التي تبرز ما في القلب من التوكل والصلة بالله عز وجل حينئذٍ افتنه خلاص وحد، ومن هنا يخرج بعد الابتلاء أعظم مما دخل فيه، فخلاص خرجت هذه الزوائد لا يوجد إلا الله عز وجل.

والله يا جماعة لا يوجد إلا الله وهذه كلها صور، وأنا كما قلت وأكرر ووجدتها بالحياة فالإنسان بالحياة يدرك حكم، فبعد ذلك يدرك أن الكثير قد قالها، أقول: لكم إن الأسباب ستار عن رؤية يد لله، الأسباب الدنيوية هي ستار عن رؤية يد الله الفاعلة الحقيقية، الله أقام الأم هذه ستار، ستار عن رؤية يد الله، فبعد هذه الابتلاءات يدرك المرء أن هذه أوهام وضعف لا قيمة لها وإنما يحركها جل في علاه ورحمة الله وعطاء الله.

وثانيًا شوف الكذب والتحايل في القصة، وأنت لا تعرف الشيخ أيضًا، هو لما قال: يا فلان أنت تعرف الشيخ؟ أتعرف أن هذا المسكين لما يدخل بيت الخلاء يتعب وعرقه ينزل وليس قادر أن يقوم، تعرف أنه لما يجوع بصير يتلوى مثل الطفل الصغير من الجوع هو هل يعرف هذا الشيخ من هو؟ ومن تلعبه قال: أنا أعرفك، يعني الله لا يعرفنا؟!!

طبعًا كلمة معرفة لا تنسب إلى الله عز وجل، قال: «أهل العلم لا تنسب المعرفة إلى الله لأن المعرفة يسبقها جهل بخلاف العلم، وليس من مقتضيات العلم أن يسبقه الجهل»، بخلاف المعرفة، ففلان عرف يعني سبقها جهل ولذلك لا تنسب إلى الله لا يقال الله يعرف لأنه جل في علاه لم يسبقه جهل هذه، وإنما الله يعلم كان عليمًا قبل أن يوجد شيءٌ يعلمه جل في علاه.

السائل: هو يقول له –الشيخ الصوفي– أنت تعرف الله يا ابني، أنت لا تعرف الله هيك يقول له.

الشيخ: نعوذ بالله من الشيطان يعني الشيخ يعرف الله؟ يعني هذه تزكية للشيخ لنفسه.

السائل: هل الفتنة تنقية تعني؟

الشيخ: نعم الفتنة تنقية.

السائل: شيخنا هل يعتبر اسم الأحد مكمل لاسم الواحد لأن الواحد يحتمل التكملة؟

الشيخ: من أجل ذلك قالوا: الواحد يمكن أن يكون له ثاني وثالث بخلاف الأحد، ولكن نقول: الواحد المطلق ليس له ثاني وإلا تنازعا، حينئذٍ لا يصبح واحدًا، وهذه من كلام ابن حزم: ما من شيءٍ في الوجود الا وهو ثاني وثالث ورابع إذًا لابد من أول، لابد من واحد، فقالوا: «الأحد أشد في النفي من الواحد»، بمعنى لو قلت أنت لا واحد في البيت يمكن أن يكون اثنين ثلاثة أربعة، لكن لما تقول لا أحد في البيت نفيت، فقالوا: «الأحد أشد في النفي».

وفي الإثبات الواحد يكون لما بعده ثانيًا وثالثًا ورابعًا، الأحد لا يكون اثنين ثلاث، فكيف تقول أحد اثنين ثلاث؟ «فالأحد أشد في النفي والواحد هي التي تثبت وجود الأشياء»، فلولا وجود الواحد لم توجد الأشياء.

السائل: شيخنا في كلام ابن حزم ذكرت أنت أن العقل يثبت بعض الصفات ما رأيك في هذا القول؟

الشيخ: لا، طبعًا بلا شك هذا كلامه غير صحيح، على الصحيح العقل يثبت البقية يثبت سمعه وبصره وإحاطته، لأن حديث ابن حزم إنما يدور على الأولية، ولا يدور على الأثناء، نعم هو في الأولية لولا وجود الواحد لولا وجود الأول لولا وجود الحق لولا وجود الخلق لم يكن شيء، لكن بعد وجود الشيء هذه لا تكفي.

طيب الأشياء وجدت؟ فأين إمدادها؟ فنحتاج إلى الرازق، اين عناية الله بها؟ فنحتاج إلى سميع وبصير، أين إجراء هذه المخلوقات على قدرٍ من التوازن؟ نحتاج إلى الحكمة؟ فكلام ابن حزم في الرد عليه، فكلام ابن حزم في بابه في إثبات هذه الصفات في القضية الأولية، ولكنها ليست في الأثناء، يعني الآن هل صفة الواحد وصفة الأول وصفة الحق وصفة الرازق تقوم بالوجود بعد وجوده، أم لابد من صفاتٍ أخرى؟ إذًا الأول والواحد والحق والخالق بما يحقق الابتداء لكن بعد ذلك نحتاج إلى صفات أخرى يدركها العقل ويعرف آثارها، ويعرف آثارها في الوجود.

طيب خالق بلا حكمة، خالق بلا تدبير، خالق بلا عدل أين الأقدار؟ لماذا لا يتكلم عن الأقدار في الوجود؟ كلها تدل على حكمة الله عز وجل وعلى علمه، طيب خالقٌ بلا علم، كيف يتصور خالقٌ بلا علم؟ ولذلك كلامه مردود عليه رحمة الله عليه.

السائل: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ [الكهف: ١٠٩]، **ما المقصود بالكلمات؟**

الشيخ: كلمات الله عز وجل على أمرين:

إما الكلمات القدرية وأنا اجتنبت الحديث عن قضية عيسى عليه السلام كان في البال أنه يقول هل عيسى هو ذات الكلمة أم مقتضى الكلمة؟ يعني الله قال كن لعيسى، فهل عيسى هو كلمة كن أم أنه مقتضى هذه الكلمة؟ إنَّ مَثَلَ عِيسَى ﴿عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)﴾ [آل عمران: ٥٩]، فليست كلمة كن هي عيسى، إنما مقتضاها كما قلنا آثار رحمة الله، فالكلمات القدرية هذا معناها.

والكلمة الشرعية يعني الله عز وجل كتب علينا فكلماته الشرعية والمقصود بهذا هي الكلمات القدرية، المقصود بالكلمات هي كلمات علم الله لما سيكون وعلم الله عز وجل لما لم يكن وعلم الله عز وجل، لو كتب سبحانه وتعالى كل شيء من علمه لما انتهى لأن علمه مطلق، فقال عز وجل: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾، أي مدادًا تكتب به كلمات الله لنفد البحر.

فالمقصود الكلمات القدرية هنا، ويمكن أن تفسر بعطاء الله لم خلق يعني هذه الكلمات القدرية هي كل شيء، فيمكن أن يختص بها مفسر ويقول المقصود ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾، أي عطاء الله لِمَ خلق الله عز وجل، لما نقول الحمد لله عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، هذه الكلمات أنت قلتها ذاكرةً أشياء كثيرة، هل البحار موجودة في الدنيا تقدر أن تكتب عدد ما ذكرت أنت من لسانك وزنة عرش الله ومداد كلماته؟ لا تستطيع.

فالتفسير هو كلمات الله القدرية ويمكن أن تفسر ببعضها أن تفسر ببعض هذه الكلمات القدرية، وهو من باب التمثيل هذا ليس من باب التعارض.

السائل: شيخنا ذكرت في أن كل ما ازداد المرء تعبدًا لله، كلما ازداد حاجةً إلى الله عز وجل.

الشيخ: لابد أن نفهم بأن المرء بحسب مقامه، فالأول الذي يدخل في الصف الأول في الابتداء يحتاج من العلم إلى القليل ألف باء يعرف الحروف، بعد ذلك يعرف الكلمات، فهذه الكلمات الآن إلى الآن نحن نعرف الكلمات ولكن لا نعرف معانيها، يعني الآن كثير من الكلمات التي في كتاب الله وفي أشعار العرب وفي كلمات الأدباء لا نعرف معانيها، فكلما ارتقى المرء في العلم؛ كانت حاجته إلى ما بعده أشد وأكثر ويتسع العلم بالنسبة إليه.

فبعض الناس يظن أنه كلما ارتقى علمًا كلما سهلت عليه الأمور، لا، كلما ازداد مقامًا كلما ازداد عليه البلاء فشبهات العالم أشد من شبهات العامي، شبهات العامي يستطيع ربما الأعلى منه درجة أن يقضيها عامي على قد حاله يسأل أسئلة، يقول له يا ابن الحلال بيّنة هذه البعرة تدل له على البعير وانتهى الموضوع ويجيبه على قدر ما يحصل عليه من شبهات، فشبهات العامي يسيرة يقضي عليها بعض العلم.

لكن عندما تأتي الشبهات العظيمة، ومن هنا الكثير من الأسئلة عند العالم من تمام عبوديته أن يسلم لله ولا يجد عنده شيء، كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «الناظر في القدر كالناظر في الشمس كلما ازداد فيها نظرًا ازداد تحيرا»، هناك أسئلة إلى الآن كل الوجود لم يستطع أن يجيب عنها هذه لا تطرأ على بال العامي هذه تطرأ على باب العالم ومع ذلك ازداد علمه فازداد جهله.

يعني هناك أسئلة –أنا ذكرت الأمثلة– من ذلك؛ نحن نؤمن بأن الله عز وجل قدر كل شيء فقدر أن يكون هذا كافرًا قدر في علمه، لم هذا كافر؟ قال قلبه أسود، من الذي خلق قلبه أسود؟ من الذي خلقه لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا وقلبه ولو خاطبه بكل علمٍ لأنكر ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام: ٢٨]، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)﴾

[الأنفال: ٢٣]، من الذي خلق؟ على أي صفةٍ هذا؟ هذه الأسئلة لا ندري عنها، لم يجب عليها أحد، من ابن عباس إلى يومنا هذا لم يجب عليه أحد.

والله أعلم بأمر الأنبياء، لأن الله يكشف لهم من المعاني ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)﴾ [التكوير: ٢٤] النبي له معاني أخرى، أما بقية البشر لا يجب عليه أحد، ولا من أعظم الصحابة من أبي بكر رضي الله عنه إلى يومنا هذا لا يستطيع أن يجيب عنها.

القدر سر الله، أنا أتكلم عن العلم، علم القدر سر الله استأثره لنفسه، فإذًا كلما ازداد المرء في العلم ازدادت حاجته إلى الله في علمه، في دفع شبهاته، في دفع مقامات هو له، مثل الاتساع الدولة الإسلامية، والمسلمون يظنون بأنه إذا قامت الدولة الإسلامية ارتاحوا، هو كلما ازداد النصر ازداد البلاء، كلما ازداد العطاء زاد البلاء والتكليف، فكلما زاد العلم زادت الشبهة وزاد العطاء وبالتالي زاد التكليف.

فازدادت حاجته إلى الله عز وجل من هنا لا يقبل من العالِم، العالِم نحن لا نتكلم عن واحد معه شهادة وواحد أخذ كلمتين وحفظ والمسألة فيها خلاف، نحن لا نتكلم عن هؤلاء، يعني لا نتكلم عن هذا الشيخ يتكلم ويخطب، يذهب ويحفظ كلمتين أو ينقل خطبة وحديث، لا نتكلم عن هؤلاء، نتكلم عن العلماء في الله العلماء الذين بالفعل يعيشون مع العلم ويعيشون مع الله.

ما هي الأسئلة التي تنشأ في قلب العلماء حيث تجعلهم يكثرون الاستغفار ليفتح الله عليهم؟ الآن لو سألت الناس هل هناك أسئلة تحيره؟ يقول لك: الحمد لله كل الأسئلة سألتها للشيخ وارتحت ومن غوغل ما هي هذه الأسئلة؟

وبمقدار خوف هؤلاء العلم عندما تراهم على خوف وعلى وجل وعلى شعور بالضعف والتواضع؛ تعلم أنهم سالكو طريق هداية، هذه المقامات نسأل الله عز وجل أن يرينا أمثال هؤلاء نحن نتكلم عن هل نرى هؤلاء هل رأيناهم؟ أين هؤلاء الذين يعيشون للعلم سلوكًا وعطاءً وخوفًا وإخباتًا وعبوديةً ونظرًا في كتاب الله وهكذا، يعني نحن نتمنى أن نراهم، لا يعني أنهم غير موجودين، لكن نتمنى أن نراهم فقط نراهم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس عشر: الحق

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغّر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

نتم اليوم الأسماء التي قال عنها الإمام ابن حزم رحمه الله: «بأنها تجب من جهة العقل، وأنه لولا ورود الأسماء الأخرى سمعية، فأنه لا يجوز أن نتكلم فيها»، كما ذكرنا في الدرس الفائت، ولكنه قال: «هناك أربعة أسماء لله عز وجل تجب العقل أي تدرك من خلال النظر، وقد جاء بها الخبر»، يعني العقل يدركها وكذلك جاء النص الإلهي والحديث النبوي مؤيدًا لهذا النظر الصحيح، ونحن قلنا سابقًا بأن هذا الكلام عليه أصلًا اعتراضات ولكن نحن نتابع معه، فنبحث في بقية الأسماء التي قالها وهي: «الأول الواحد الحق الخالق»، ونحن شرحنا بما الله فتح به علينا من الأول والآخر وتكلمنا عن صفة الواحد والأحد، واليوم نتكلم عن صفة الحق.

أما كونه أنه الحق ذلك لأن كل شيءٍ لا يثبت وجوده ولا يثبت دوامه دوامًا بلا نهاية كما هو نعيم أهل الجنة ودوام له نهاية أي زمني ينتهي، فإن وجوده هو الحق، أولًا أن وجود الشيء هو الحق، ولكن أن يثبت هذا الوجود ولا يزول هذا يجعله حقًّا مطلقًا، وكلمة الحق تأتي بمعنى الوجود أنه شيءٌ حقيقي، وهذا يقابل الباطل.

ونحن قلنا إن الباطل في أساسها تعني لا شيء، أصل كلمة الباطل ماذا تعني؟ لا شيء، وقلنا العوام يستخدمونها على هذا المعنى إلى اليوم، وهذا معنى صحيح، وأنه إذا قيل رجلٌ باطل يعني هذا كلامٌ لا حقيقة له، لا وجود له، هذا من اختراع الذهن، والذهن يخترع أشياء أكثر واللسان يخترع أكثر، من هو الأكثر الحقائق أم الألفاظ؟ الألفاظ أوسع، وإن كان هناك من الحقائق الوجودية ما لا يسع اللفظ أن يعلمها وأن يبين عنها وهذا ذكرناها سابقًا، ذكرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن سدرة المنتهى: ما لا يستطيع أحد وصفها، يعني حقائقها أكبر من الألفاظ، وإلا فالتصور الذهني كبير وفي الحديث: **(فيها ما لا عين رأت ولا إذن سمعت ولا خطر)**، ولا خطر فالجنة أوسع من الذهن، لكنها من عالم الغيب، وسدرة المنتهى من عالم الغيب.

وأما في هذه الدنيا فالألفاظ والتصورات أوسع، والتصورات أوسع من الحقائق، والألفاظ أوسع من الحقائق، ومن هنا يأتي الكذب، ومن هنا تأتي المعارف العلمية الذهنية، وهذه معارف ذهنية فقط، فإذن الله عز وجل من صفاته أنه الحق لأن الأشياء تثبت به، ولأن وجود الأشياء تقوم به سبحانه وتعالى.

هذا الكلام تفسير لكلام ابن حزم رحمه الله، لماذا أن وصف ربنا بأنه الحق تأتي من جهة العقل؟ ذلك لأنه لولا أنه هو الحق ما ثبت حقٌّ آخر، سواء كان مما يتعلق في الوجود المنظور أم في الوجود الغائب، ولذلك أكثر ما جاء وصف الحق في القرآن مقترنًا بالملك، مرتين اقترن وصف ربنا عز وجل بأنه الحق مع الملك أنه سبحانه وتعالى له الملك وهو الحق لهذا المعنى، وهو أن الأشياء لقيام ربنا عليها، خلقًا وإيجادًا فهو يملكها، بعد ذلك أن الأشياء هي من ملكه، فإنها لا تثبت إلا بكونه هو الحق، وإلا لكانت هي الباطل، وهي باطل من جهة ما وحق من جهة ما.

وإذا كان الشيء حقًّا من هذه الجهة وباطلًا من جهة أخرى فهذه نسبية، كيف الأشياء حق من جهة وباطل من جهة، كيف؟ الأشياء هذا الوجود هي حق من جهة وباطن من جهة، حق من جهة أنها موجودة، أن لها وجود، ولذلك في الحديث النبوي أنظر الحديث النبوي هذا من الذي ينبغي أن نتأمله لما قال: **(اللهم أنت الحق)**، انتبه في الحديث الذي هو من دعاء قيام الليل، **(اللهم لك الحمد وأنت قيام السماوات والأرض ومن فيهم ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهم اللهم لك الحمد أنت الحق)**، ما قال: أنت حق قال: **(اللهم أنت الحق)**، ما قال ولقاؤك الحق، ولا قال وعدك ولا قال النار ولا قال الجنة الحق، ولكن قال: **(اللهم أنت الحق ولقائك حق، والجنة حق والنار حق)**، فلم يقل الحق وإنما قال ماذا؟ حق.

الله هو الحق لأنه حقٌّ مطلق، لا يعتريه النقص، لا يعتريه الزوال لا يعتريه الباطل لا يعتريه الذهاب لا يعتريه التحول، لا يعتريه الضعف، ولكن الأشياء الأخرى هي حقٌّ بوجودها، وهي باطل من وجودٍ آخر، ومعنى الباطل هنا أنها لا تقوم إلا بغيرها ويعتريها النقص ويعتريها الضعف ويعتريها الزوال.

فإذًا الأشياء كل الأشياء الموجودة هي حقٌّ جهة وجودها فلا يجوز إنكارها، يعين لو واحد جاء وأنكر شيئًا مما أخبرنا الله عز وجل سواءً من عالم الشهود أو من عالم الغيب، هذا يكفر، ولذلك مما ذكره العلماء لو أن رجلًا أنكر أن هذا قبر النبي لكفر، هو أمرٌ كوني، يعني وجود القبر في هذا المكان أمرٌ كوني، لو أن رجلًا أنكر أن هذه هي القبلة هذه الكعبة التي هي القبلة التي علينا أن نتوجه إليها في الصلاة لكفر، وهي

أمرٌ كوني يعني الكلام عن القبلة، لو أن رجلًا أنكر أن مكة هذه مكة التي أخبر الله عز وجل عنها، لو قال: لا، هذه ليست مكة لكفر، لأنها حق، وكفر بهذا الحق هو كفرٌ بحق، فهو كفر.

الآن لو أن رجلًا انتسب إلى غير أبيه ملعونٌ، من أنتسب لغير أبيه، وهو أمر كوني لأن الولد للفراش، فكونه هذا ولد على فراش هذا يجب عليك شرعًا أن تثبت بنوته، وتثبت أبوة أبيه له، والكفر بهذا هو كفرٌ بحق، كفرٌ بأحد الحقائق التي أمر الله أن نؤمن بها، وبالتالي الجنة والنار هي من عالم الغيب وهي من الحقائق التي تجعلنا نؤمن بها، فهي حقق من هذه الجهة، فلا يجوز أن تنكره، من هذه الجهة من هذا المعنى، لا يجوز أن تنكره، فهو حقٌ من هذه الجهة، الأشياء حق، الموجودة حق، الصلات التي أثبتها الشارع حق، الجنة حق والنار حق والنبي محمد صلى الله عليه وسلم حق والنبيون حق، أليس هذا في الحديث، ولكنها باطل من جهة أخرى.

ولذلك قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، والآية الأخرى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠]، ما المعنى؟ ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم أصدق كلمة قالها لبيد «إلا كل شيءٍ ما خلى الله باطل»، لأنها في وقت من الأوقات ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان: ١]، الإنسان حق، محمد صلى الله عليه وسلم إنسان وهو حق، في كونه بشر موجود وفي كونه نبي يوحى إليه كذلك، ولكن هذا لم يكن يومًا من الأيام، هل كان محمد صلى الله عليه وسلم في الأزل، **(كان الله ولم يكن شيئًا قبله)**.

فلذلك الأشياء باطل بهذا المعنى أنها لم تكن موجودة، وأن وجودها قائم بغيرها فهي حقٌ من جهة وباطلٌ من جهة أخرى، ولكن الله عز وجل هذه النسبة لا تجوز عليه، نسبية أنه حقٌ من جهة، وباطلٌ من جهة لا تجوز عليه، بل الله عز وجل هو الحق، كما قلنا في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: **(اللهم أنت الحق)**، فدخلت عليه هذه الـ التي دلت على العموم ودلت على الإطلاق ودلت على الشمول ودلت على الثبات.

فما معنى إذن الحق؟ أول شيء الحق هي مقابل الباطل الذي يعتريه النقص، ويعتريه الذهاب، ويعتريه البحث، من هنا ما معنى الكلمة التي نقرأها كثيرًا، قال: «هذا جائز الوجود وهذا واجب الوجود»، ما معنى هذه الكلمة؟ نسمعها كثيرًا في كتب العلماء، حتى العلماء من السلف يستخدمونها، وليس عليها ما يعترض، يقول: «الله هو واجب الوجود والأشياء جائزة الوجود»، ما معناها؟ ما معنى واجب الوجود؟ يعني لا يتصور ذهابه، لا يتصور عدم وجوده لا يتصور، ولا يعتريه هذا المعنى، لا في الأزل ولا فيما هو أتٍ، لا

في القديم الذي لا ينتهي ولا في الآتي الذي لا ينتهي، هو الأول والآخر ولذلك سبحانه وتعالى واجب الوجود يعني بأنه لا يحتاج إلى غيره بأن يثبته.

ولذلك ماذا عرف الإمام سيبويه في كتابه الكتاب عندما جاء الى كلمة الله؟ قال: «أعرف المعارف» يعني أنت إذا أردت أن تقول كتاب ما معنى كتاب؟ فأنت تبدأ بشرحه، هو المعرفة، كلمة كتاب معرفة، إنسان معرفة، لكنك تحتاج إلى إثباتها، قد يعتري بعض الناس معنى هذه الكلمة، ما معناها؟ نحن كلمات كثيرة في الدنيا لا نعرف معناها فنحتاج إلى أن نُعرف بها، أليس كذلك نقرأ عنها في القاموس، وفي المعجم، لأن هناك أشياء في الحقائق لا نعرفها حتى لو واحد قال سِمع، ما سِمع؟ هو اسم هو معرفة، هو إذا تزوج الكلب بالذئب أنجب السِمع، فالسِمع هو من تزاوج الذئب بالكلب، فإذن نحن احتجنا إلى تعريف هذا المعرف.

لكن الله عز وجل لا يحتاج إلى تعريف، فقال: «هو أعرف المعارف»، انظر لهذا القلب الذي نطق بهذه الكلمة، هذه كلمة ليست فقط معرفة عقلية، هذه الكلمة معرفة قلبية، أعرف المعارف، نوره في القلب لا يحتاج، ولذلك قال: «هو واجب الوجود»، يعني لا يعتريه نقص ولا يعتريه تحول ولا يعتريه ذهاب، لا يتكلم عن قضية حقيقة وجوده، يتكلم عن أعرف المعارف واجب الوجود في الذهن، في ذهنك هو واجب الوجود، كل شيء قد يغيب عنك، ولكن لا يغيب الله، كل شيء قد يعتريه النقص في ذهنك إلا الله، كل شيء قد تتهمه بالصفات التي تعتري ما يعتريه الأخرين.

مثلًا: فلان يكذب، في البشر هناك من يكذب، بل في الحيوانات، ذلك من خداع الثعلب، لذلك كان من إثبات إبراهيم عليه السلام لربه قضية التحول والزوال، التحول والزوال هذا نقص، ﴿رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦)﴾ [الأنعام: ٧٦]، هو يريد أن يقول لهم الله لا يغيب، مع غيابه هو غيب ربنا، ربنا من عالم الغيب أم من عالم الشهادة؟ من عالم الغيب، لكنه ماذا قال إبراهيم؟ ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ يعني الله عز وجل لا يغيب، هذا الغياب بل هو أعظم ما في الغيب، ومحجوبون عنه حجاب النظر، لكنه مع هذا الغيب المطلق هو حاضر حتى لا يغيب.

انظر يحتج ويريد أن يقول لهم إلهنا حاضر لا يغيب، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٨]، فبما أحتج؟ أعرف المعارف، هو الحق الذي لا يغيب.

ومن هنا يأتي دور العبد في تعامله مع الله، باسمه الحق، هذا الحق الذي جل في علاه لا يغيب لا يتحول لا يتبدل، صفاته لا تزول ولا تنقص، بل لو أراد الله أن يخلق خلقًا لا ينتهي لما استطاع الناس إنهائه ولا إبداله، فانظر إلى وصفه لكلماته، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩]، هذا كله تقريب، قال: الخضر لموسى، **(ما علمي وعلمك، مقابل علم الله عز وجل، إلا كما أخذ هذا الطائر)**، جاء طائر وقف على السفينة ونقر نقرةً من الماء، **(قال ما علمي وعلمك في علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر من هذا اليم)**، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾، فهو حق، لا يعتريه شيء.

هذا النظر إلى الله عز وجل لا يتحول لا يتغير جل في علاه، فهو العظيم هو الكبير هو الواسع هو المحيط، هو الحق فلذلك كل الصفات –انظر هنا دائمًا نقول هذه الكلمة– كل الصفات تحتاج إلى هذه الصفة، السميع تحتاج أنه الحق، لأنه لو لم يكن سبحانه وتعالى الحق لكان سمعه متحولًا متغيرًا متبدلًا ولكنه الحق، ولو لم يكن هو الحق لكان في وقت من الأوقات لا سمع له، ثم صار له السمع، لكنه سمعه هو الحق، وبصره هو الحق لا يتحول.

فلذلك ما الذي تفيدنا هذه الصفة أن نعلمها، عندما نتعامل معه، انظر البشر تعتريهم، دعك من ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٥]، هذه آية كلما مررت عليها تعجبت منها كيف الناس لا يتلونها في الصباح والمساء، والتي هي في سورة «الأحقاف»: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤)﴾ [الأحقاف: ٤]، قال بعدها جل في علاه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥)﴾ [الأحقاف: ٥]، الله عاب على هؤلاء أمرين: الغفلة عن دعائهم، وعدم الاستجابة، حتى إلى يوم القيامة، ما الذي يقابلها، ما الذي يريد أن يخبرنا الله عز وجل؟، عندما يعيب على هؤلاء أنهم ﴿لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾، ما الذي يريد أن يخبرنا الله؟ يريد أن يخبرنا، أنا أستجيب دعاءكم، ولست غافلًا عنكم.

سبحان الله هاتان الآيتان كانتا سميرتي في السجن، فلما أتذكر الآيات تنفرج عني أعظم الانفراج، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾، يعني أنت تستجيب لي، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥)﴾، الله ليس غافلًا، وسيستجيب هذا أمره ولذلك الله عز وجل هو الحق، فإذا تعاملت مع الله أنه الحق تعاملت على هذا المعنى، تعاملت أنه عندما تدعو تتعامل أنه الحق، وعندما تعبد تتعامل أنه الحق.

مشكلة الآخرين كلها الفارق بين الخالق والمخلوق أن المخلوق يعتريه النقص، ويعتريه التبدل، الملك تذهب إليه إذا كان راضي عنك يعطيك، إذا ليس راضي، حتى لو كان راضي عن زوجته يعطيك، يعني أنت تدخل على الملك حسب يوم تعاسته، أو يوم سعادته، أليس الملوك لهم يوم تعاسة، تعرفون قصة الملك يوم التعاسة ويوم السعادة، فأنت تدخل عليه، أنت ابنك تطلب منه طلب قد يكون تعبان مريض، قد يكون راضي عنك، أو آنت تطلب من أبيك، هذا المعنى لا يعتري الله.

أنت تصور أن المشركين يدعون الله لحظة بلائهم ولحظة خلوصهم من شركهم، يعبدونه شركًا ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، هل يستجيب لهم أو لا يستجيب لهم؟ يستجيب لهم.

أنت تأمل هذا المعنى في نفس ربنا، من أجل أن تعلم أنه الحق، وأنا أذكر كيف الرب عز وجل يأتي في نفس ربنا من المعاني ما تدل أنه الحق، أن تتأمل هذا الكفر والشرك به، يلعنونه يسبونه، ومع ذلك هو الحق لأنه أخذ على نفسه أن يطعمهم وأن يسقيهم إلى أمرٍ معين، يقف الواحد منهم يقول أنزل علي، ولو كان هذا الأمر أنزل علينا رجسًا من السماء عذبنا، ذلك هذا لو يقع لما يقع من نفسيات البشر التي ليست هي الحق، التي مما يعتريها التبدل والتغير والنقص، وتأتيها النوازع ماذا يفعل به؟ يقتل ابنه، ينسى كل وعوده، هذا الرجل الذي يقف ويسب ويلعن لكن الله عز وجل أخذ على نفسه هو جل في علاه ما أحد من البشر يلزمه أن يكون على صراط مستقيم، أن يطعمه ويسقيه، إذا أشتغل في الدنيا يعطيه إلى أمد معين.

هذا الحق كونه أنه الصبور هذا هو الحق، كونه الصبور كونه الرزاق هو الحق، كونه مجيب الدعاء لهذا المشرك في هذا هو الحق لأنه الحق، لأنه جل في علاه لا يعتريه النقص لا يعتريه التبدل، لا يعتريه التغير، لا يغير كلماته، هل عُهد عن ربنا أنه غير كلماته؟! هم لا يفهمون تحول هذه الأقدار في الوجود، لا يفهمون، هم فقط لا يفهمون هم يعيشون السعادة، المرء يعيش السعادة عشرين سنة، رأسه ما يؤلمه، أظفر رجله لا يؤلمه، بعد ذلك يمرض أسبوع فيكفر بالله يسب النعم، فهو من جهلهم، وليس بسبب أنه ليس هو الحق، لأنه وعدهم وأعطاهم.

ولكن كذلك جل في علاه قال: **(وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن)**، إذن هو يتردد، ما هو التردد؟ وليس منشأه العجز ولا منشأه الجهل، لماذا ينشئ التردد في الإنسان؟ لجهله، يجهل يعني هل هذا الطريق يؤدي إلى النجاة أو لا، هل هذا أفضل، هل تربح التجارة أو تخسر،

فالتردد ينشأ من الجهل، التردد ينشأ من العجز، ليس معنا أموال نصنع أو لا نصنع، هذا التردد لا ينشأ بسبب هذا المعنى، لكن لماذا يشاء التردد؟ بين ما قره وقدره على نفسه من القدر، وبين ما يعتري نفسه من الحب، وأحبه مثلما يعني يحب ابنه ولكن لا يريد له أن يفسد، لا يعطيه المال، هذا تردد ليس منشأه إلا تردد بين ما هو حكمة وما هو حب، مرات الحكمة تقتضي أن تأخذ الدواء المر، والحكمة تذهب إلى المستشفى فيجرحك فيسيل الدم، ويقطع اليد، هذا من الحكمة.

فقال الله عز وجل: **(ما ترددت في شيء ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن)** أو روح عبدي المؤمن، لماذا تردد؟ لأن الله كتب عليه أن يموت، ولكني يعلم أن الموت يسيء له لا يريد أن يسيئه، إلهي، لا يريد أن يسيء عبده المؤمن، انظر إلى هذا الحب ولكن ما الذي يمضي؟ تمضي كلمته القدرية مع إنه لا يحب، ولكن يمضي لتعلم أن الله هو الحق.

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: **(لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافرون شربة ماء)**، لو مضت على الحب والكره أيطعم الكافر؟ أجعله يتنعم هذا النعيم لو مضت على الحب والكره؟ لكن بما يطعم الكافر وبما ينعمه لأنه الحق، ولذلك فكلماته سبحانه وتعالى الحق، من هنا هو سبحان الحق وله الملك، فإجراء مقاديره على الوجود بالحق، وأنه سبحانه وتعالى الحق المبين واقترن كذلك اسمه جل في علاه الحق المبين، لأن الحق هو الظهور، لا يكون الحق إلا ظاهرًا، لا يمكن للحق أن يكون خفيًا، خفاء الحق يعني ضعفه، إذا خفي الحق ما معناها؟ معناه أنه ضعيف، والضعف ينازع كلمة الحق.

ما معنى لما تقول أنت حق؟ بمعنى أنه تامٌ كاملٌ في صفاته لا يعتريه النقص، فإذا كان الحق ضعيفًا دل على أنه ضعفٌ في كونه الحق، حين يكون الحق ضعيفًا يعني كون هذا الحق ليست تامًا في كونه حقًا، لأن تمام الحق أن يكون ظاهرًا، فيأتي واحد يقول لك الحق مهزوم وكذا، أنت تتكلم عن حق دنيوي ويتنازع، الله ألقى الحق ليقوم الناس به، ولكنه حين يجري هذا الحق على مقدار الله، نرى المآلات.

بالله عليكم يعني أنا أعجب والله هذا ليس فقط نظرة من جهة الشرع، أعجب ما رأيت أنه في كل محنة ضعف لهذا الدين ينتصر الدين يتقدم أكثر، أنتم تعرفوا هذه البلاد الإسلامية في الأناضول ومبادئ الأناضول تعرفون متى دخلت الإسلام، دخلت الإسلام بعد التتار والصليبيين يعني الأصل أن ينحسر الإسلام، بعد هذه الغزوات الكبيرة، ما الذي يحدث؟ الآن العجيب هذا الإسلام الممتحن المبتلى، الناس يدخلون فيه أم يخرجون منه؟ يدخلون فيه.

ولذلك هذا حق، هذه سمة الحق حين يتعامل الله معه، لكن حين نتعامل نحن معه حين يقترن الحق بنا نهزم في أحد، نشرد في حنين، نحاصر فيه الأحزاب؛ لأن الحق اقترن بنا بالبشر، نحن نتكلم عن الحق في أعظم مجالات تطبيقه ووجوده على الأرض، وذلك بوجود النبي صلى الله عليه وسلم، لكن حين التعامل مع الحق على يد الله عز وجل نرى فعله، نرى هذه المآلات كيف حدثت، يعني الله يخلي بينهم أنتم أهل الحق أنصروه، أرأيتم كيف خفتم في الأحزاب حتى لا يستطيع الواحد منكم أن يخرج إلى قضاء الحاجة من بيته هذا أنتم في حنين، ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥]، هذا أنتم، انظروا إلى أحوالكم، أنتم في أحد هذا أنتم، ولكن حين يكون أمر الله ماذا يكون؟ حين يأتي الحق على يد الله عليه ماذا يكون؟ النصر والتأييد ودخول الناس في دين الله أفواجا... وإلخ.

لذلك يجب علينا أن نتعامل مع هذا الاسم العظيم تعبدًا بأن نثق به، وأن ما يعترينا هو ليس تغيرًا في نفس الرب، حتى والمرء يحيي ويموت، أتظنون أن الله عز وجل كره الصحابة في أحد فعذبهم؟ أم أنه الحق في حبه لهم، نحن قلنا المحب يمكن يجري عملية، قد يكون الطبيب هو الأب، يجري عملية ويقلع العين ويقطع اليد، فلم يتغير الحق جل في علاه.

وقال الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [الحج: ٦]، اقترن الحق فيما وعد الله عز وجل به أنه الحق، وحين أحياء الموتى والبعث، ومن أعظم الكفر بالله هو عدم نسبة العدل له، وذلك بإنكار يوم القيامة، في كونه الحق، انظر هذه الدنيا، أين الحق في هذه الدنيا؟ مرات نحن لا نفهمه يعني بمعنى **(وإن الله عز وجل يوم القيامة لينتصف من الشاة القرناء الشاة الجلحاء)**، يعني في الدنيا نرى فلان يظلم وفلان كذا ويموت، قد يعدم مظلومًا فيموت، فأين الحق؟ فلابد من يوم القيامة، ولذلك اقترن ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦)﴾ [الحج: ٦]، واقترن بالدعاء كما فيما ندعو، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

فنسأل الله عز وجل أن يقيم هذه المعاني في قلوبنا إخباتًا، دعاءً ثقةً به، توكلًا عليه يقينًا أنه سبحانه وتعالى يقيم الحق، انظر المسلمون -انتبهوا لهذه سأكررها يمكن مئة ألف مرة لأننا نحتاج إليها في كل لحظة- المسلم لا يمتحن ولا يبتلى في الشرع، لأنه يثق بشرع الله، يعني تعال لأي عامي، قل له: ما رأيك في الصلاة؟ يقول لك في أحسن من الصلاة يا رجل! أي والله الصلاة ما شاء الله عنها، ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، قال أهل العلم ما من أحد يزور البيت وقد قضى حاجته منه، إلا ويقول

سأعود، المعتمرين الحجاج أليس كذلك، فالعامي يرجع من الحج، يقول والله تعبنا، لكن الله يطعمها لكل أحد، والله بإذن الله إذا قدرنا كمان مرة.

فالمسلم لا يبتلى بالشرع حتى بالزكاة، يقول لك، الحمد لله بركة، أنفق ما في الجيب يأتيك ما في الغيب، فيحبون الزكاة –أنا أتكلم عن المكلف– الزكاة المكلف يفرح بها، فالمؤمن والعبد لا يبتلى كثيرًا بالشرائع، الابتلاء بالقدر، ابتلاء المؤمن أشد ما يكون في القدر، الصحابة كانوا يتمنون أن تأتيهم الشرائع من أجل أن تزداد عبوديتهم لله عز وجل لكن ابتلائهم بالقدر، انظر إلى الابتلاء العظيم في الحديبية، حتى قال صلى الله عليه وسلم **(كاد الناس أن يهلكوا)**، هلك الناس، يأمرهم رسولهم، ما قال: أأمرهم أنا، يأمرهم رسولهم ولا يطيعونه، فابتلاء بالقدر، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، فإذا أستقر هذا المعنى في قلبك طاردت كل الوساوس، الله يقيم في هذه الدنيا كل ما يقوم هو الحق، ويوم القيامة يكون الحق المطلق، يكون النعيم المطلق لأهل الجنة، ويكون العذاب المطلق لأهل النار ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] ما في تغير.

فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته وأن يتوب علينا وأن يجعلنا من أهل هذه العبادة، بهذا الاسم العظيم لربنا جل في علاه، جزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: صفة الوحيدة الله يؤكدها ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج: ٦]، ما السبب؟

الشيخ: هذه التأكيدات لما يعتريها، انظر السمع يعني لا ينازع فيه، البصر لا ينازع فيه، لكن المنازعة بأنه هو الحق، أكثر كفر البشرية في ماذا يقوم؟ يقول الباحثون في علم الإلحاد: أن أكثر الكفر في الوجود سببه هو النظر في مقادير الله، وعدم إجرائها على هذا المعنى الذي تكلمنا فيه، بما كفر الناس سواء آمنوا بوجود الله أو لم يؤمنوا، أنت أنظر إلى الكفار اليوم في الغرب، أكثر عنادهم مع الله عز وجل في كونه لا يجري الأمور على مقادير الحق، لماذا يتعذب فلان، لماذا كذا؟ لماذا يتألم فلان؟ لماذا كذا؟ لا يفهمون، ذلك بأن الله هو الحق، هذا كله حق، فعله جل في علاه هو الحق في ذاته بأنه سبحانه لا يتحول لا يتبدل أنه هو الحق، أعرف المعارف الذي لا يغيب، وكذلك في فعله وكذلك في شرعه، وكذلك في موازينه، وفي تعامله مع الوجود، أنه هو سبحانه وتعالى الحق، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾.

السائل: شيخنا ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ [النبأ: ٣٩]؟

الشيخ: هذا لأنه كما قلنا هو أنه سيأتي ردًا على من يزعم أنه باطل، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، وقلنا الحق هو الصواب، الحق هو النجاة، ما دام هو الحق هو النجاة هو الحقيقة، فإذا جاء المعنى الآخر كان ضلالًا، كان فسادًا، ما معنى ضلا؟ يعني تاه عن الطريق لم يصبها.

السائل: شيخنا أيعني حتى لا يترك حجة وشبهة على الكافر أو على المخالف، أنه ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ يعني لا يوجد وسط؟

الشيخ: بلا شك هو يرد عليها قوله في سورة «العنكبوت» قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فكل أحد يسعه لو تفكر أن يعلم الله، لكن من رحمته أنه لا يحاسب إلا على بلوغ الرسالة، يعني الكافر الذي لم تأتيه رسالة هو ضال؟ هو ضال وكافر، لكن السؤال يوم القيامة أين هو؟ لابد من إقامة الرسالة، فأهل الفترة وكذا... إلخ، لابد من إقامة الحجة عليهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)﴾ [الإسراء: ١٥]، فهذا شيءٌ وهذا شيء، نحن نؤمن بالتحسين والتقبيح العقلي، أن العقل يدرك الحقائق ولكن الله عز وجل لم يحاسب البشرية على ما يقوله العقل، إنما يحاسب البشرية على ما يأتيها من الشرائع.

لكن هل هذا يعني لا فضيلة لمن أدرك الحق على ما انتهى عنه؟ الجواب لا، قال صلى الله عليه وسلم: **(أسلمت على ما أسلفت من خير)**، لما الإنسان يسلم ويكون صالحًا قبل إسلامه كل الأعمال الصالحة التي عملها قبل الإسلام تصبح حسنات بعد إسلامه، ثم هل الكفار يوم القيامة دركات في جهنم؟ نعم، الناس يستفيدون من أعمالهم، يستفيدون من إعمال عقولهم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس السابع عشر: الخالق

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع لقاء جديد مع اسمٍ جديد من أسماء الله جل في علاه، وقد تقدم أن ابن حزم عليه رحمة الله مشيًا معه، في تقرير الأسماء أو الصفات –وللذكر فإن كلمة الصفات يُنكرها ابن حزم، وهذا من أخطائه التي عابها العلماء عليه– فإن من الأسماء التي تقررت له جل في علاه، من جهة العقل، وكما قال ابن القيم رحمه الله: «وهي أعظم المعلومات وأجلها وأصدقها هو لا تغيب عن أحد»، أن من أسمائه جل في علاه الخالق، وورد الخالق والخلاق، وسنبيّن بعض ما قاله أهل العلم من خلافٍ بينهم.

وهذا الاسم كما هو معلوم هو اسم لله وهذه الصفة لله عز وجل هي أساس حق الله عز وجل في العبودية، يعني أول ما يجب لله عز وجل من العبودية أن تعلم أنه هو الخالق، ومن موجب الخلق أنه سبحانه وتعالى هو الذي يجب أن يعبد، ولذلك في أول أمر إلهي في القرآن قاله أهل العلم في سورة «البقرة»: بأن أمر الله عز وجل الناس أن يعبدوه، وجعل موجب هذه العبودية هو أنه الخالق، هذا اول أمر في القرآن هذا هو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١)﴾ [البقرة: ٢١].

فجعل سبحانه وتعالى أول أمر هو أن يعبدوه، وجعل موجب هذا الأمر هو أنه هو الذي خلقهم، هو الذي خلق، فالذي خلق هو الذي يستحق أن يعبد لأن هو الرب، لأن المخلوق هو عبدٌ له، فهو الذي خلقه الله سبحانه وتعالى.

ثم قال سبحانه وتعالى في سورة «فاطر»، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣)﴾ [فاطر: ٣]، فاجتمعت حاجة العبد بالوجود من العدم وحاجة العبد بالإمداد في البقاء حتى يموت، ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، فهو الخالق الذي أوجد من العدم من غير مثالٍ سابق، ولا حاجة إلى مادة الخلق، ولا إلى الاستعارة لصورة الخلق من صورة سابقة.

فبعد أن أوجده أحتاج هذا الإنسان إلى الإمداد للبقاء، فالله عز وجل رزقه، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾، فإذًا أوجب الله عز وجل العبادة على خلقه له جل في علاه وحده دون غيره، هو أنه سبحانه وتعالى هو الذي خلقهم.

والخلق عند العلماء هو الإيجاد من العدم، يمكن للشيء أن يصنع، بأن يأتي إلى المادة فيصورها تصويرًا جديدًا يمكن، ويمكن أن يأتي الإنسان إلى مادةً موجودة فيشكلها، أن يجعلها على هيئة ما، لكنه لا يستطيع أن يوجد شيئًا من العدم لا يوجد، لا أحد يستطيع أن يوجد شيئًا من العدم من لا شيء إلا الله سبحانه وتعالى، وإلا فالإنسان هو ما يصنعه وإنجاز لنا أن نسمي أن العبد يخلق، وإن كان هذا عند كثير من أهل العلم لا يجوز نسبة الخلق إليه، ولكن من بعض معاني الخلق هو التقدير، الله عز وجل قال: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، يعني تقدرونه، تجعلونه علمًا، تجعلونه معنى، فهذا المعنى يمكن أن يوجد.

ولكن المعنى الذي تدل عليه كلمة الخالق هو صفة الخالق في أنه سبحانه وتعالى أوجد كل شيء من غير مثالٍ سابق، ولا من مادة سابقة، قال صلى الله عليه وسلم: **(كان الله عز وجل ولم يكن شيء قبله)**، ما كان شيء فقال: للشيء، وهو الذي في العدم ليس موجودًا، قال له: كن فكان، أوجده بالكلمة وأوجد كل شيء سبحانه وتعالى، وما من أحد شارك الله سبحانه وتعالى في الخلق، وهو سبحانه وتعالى وكل هذا من معاني الخالق، أنه سبحانه وتعالى أوجد الأشياء من العدم، على غير مثال سابق ومن غير حاجة إليها.

الناس يصنعون الأشياء من أجل أن تعينهم على قضاء حوائجهم، ويفرغون طاقاتهم وقدراتهم، من أجل إيجاد المواد التي تعينهم على صعوبة الحياة وعلى حاجاتها، الناس صنعوا الآن السيارات من أجل أن توصلهم إلى مكان، كانوا يمشون ويتعبون في المشي للوصول إلى أهدافهم، الآن السيارات توصلهم، الطائرات توصلهم، السفن توصلهم، فأوجدوا الأشياء من أجل حاجاتهم.

الله سبحانه وتعالى أوجد الأشياء لحكمة، ولكن ليس في هذا الإيجاد شيء أن الله سبحانه وتعالى أوجده من أجل حاجة له، ولذلك حتى لما طلب الله عز وجل من عباده أن يحمدوه، كان حمده لنفسه أعظم الحمد، فقال صلى الله عليه وسلم: **(لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أنْتَ كما أثْنَيْتَ على نَفْسِكَ)**، الله لا يحتاج إلى عباده ليحمدوه، ولا ليعظموه، لا يحتاج إليهم، فحمده لنفسه أعظم الحمد، والأمر كما قال القرطبي رحمه الله نقلًا عن بعض أهل العلم: «لما علم الله عز وجل أن العباد لن يستطيعوا حمده كما ينبغي،

فحمد نفسه وعلم عباده أن يحمدوه»، فحمد نفسه هو، من الذي قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)﴾؟ الله.

فعلم الله أن العبيد كلهم لن يستطيعوا أن يحمدوه لن يستطيعوا أن يأتوا بكلمةٍ تعبر عن حق الله عز وجل في هذا الأمر من العبودية، هو الحمد فحمد نفسه وعلم الناس أن يحمدوه.

فالله عز وجل خلق أولًا أنه أوجد الأشياء أوجدها من العدم، لم يكن هناك شيء، البقية من الخلق لو اجتمعوا ولذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، هذا الذباب هذا أصغر الخلق لا يستطيعون إيجاده، والأشياء كلما دقت كلما كانت عظمة الخلق فيها أعظم، وكلما عظمت، وكلما دقت ظهرت عظمة الخالق، وكلما عظمت ظهرت عظمة الخالق، ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، هذه السماوات العظيمة الله خلقها، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

والله عز وجل بين في سورة «المؤمنون»، بعد أن بين صفات المؤمنين، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]، هذه العلماء جعلوها على معنى أن الخلق هنا بمعنى التقدير، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥)﴾ [المؤمنون: ١٥].

فالناس وأي واحد منا يحضره شيء، أنه إذا أبدع شيئًا أوجده وأفرغ فيه طاقته، فأنه يحافظ عليه، ويسعى ألا يبيت، وربما يدفع الأموال من أجل بقائه، والناس هكذا يفعلون، الأشياء التي يحتاجون إليها أو التي يبدعونها إبداعًا جميلًا، انظر إلى النحات الذي ينحت، المصور بعد أن ينحت فيأتي هذا النحت في ذهنه، أنه إبداع عظيم ماذا يفعل بعد ذلك، يسعى إلى إبقائه، ولأنه يشعر أن هذا شيءٌ لا ينبغي أن يفنى من هذا الجمال.

الله عز وجل بعد هذا التقدير كله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾، قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥)﴾، فدل هذا أنه لا يحتاج إليه، هو الحاجة قد تكون فقط من أجل المتعة، فالله لا يحتاج إليه لأنه خلقه من

أجل حكمة، هذه الحكمة لا تقع إلا بعد الوفاة بعد الموت، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾ [المؤمنون: ١٥-١٦].

يعني انظر هذا التنوع في قضية الإيجاد، وانتبه لهذه الآيات، كيف فصل عملية الإيجاد الأولى؟ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢)﴾، فصلها، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ بعد ذلك فصل هذا التفصيل العجيب، لكن لما أتى إلى يوم القيامة ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾، لأنه لا يحصل كل هذا والإنسان ليس بحاجة لأن يعرف التفصيل، هذا التفصيل من أجل أن تقول هذه الكلمة التي انتهت إليها كلمة الرحمن في كتابه، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

كل هذا التفصيل من أجل أن تنطق أنت، لو سكت المرء ولم يتم وألقاها على أي إنسان، يقرأ له هذه الآيات، فماذا سيقول بعدها، ماذا سيقول بنفسه ماذا سيقول؟ فتبارك الله، انظر هنا ما معنى كلمة تبارك؟ لماذا هنا جاءت كلمة تبارك؟ تبارك من البركة وهي تدل على الكثرة، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)﴾ [الفرقان: ١]، تبارك ما معناها؟ يعني عظم أمره وفعله وصفاته وكلامه، البركة تبارك الله، هذا الأمر الذي نلقيه عليكم لا ينته أمره، كلما قلت توقف زاد، كلما ظننت أنه انتهى أتى غيره فهذا ما لا نهاية له.

فلذلك ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، فهذه الصفة تدل على العظمة، تدل على الاتساع كما هي كلمة المجيد، تدل على الاتساع والعطاء الكثير، فالإنسان لو ترك لوحده من غير أن تتلى عليه هذه الآيات عقب هذه الكلمات لقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، وبعد ذلك هل أبقاه لأنه بحاجة إليه، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ(١٥)﴾، انظر فجأة ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾، لأن هذا التفصيل في كيفية عودته مرة أخرى ليس بحاجة لهذا الأمر لهذا التفصيل، لا ندري هل هو مرة واحدة؟ ولا نعلم إلا **(أن السماء تمطر ماء كمني الرجال، فينبت الناس كما ينبت البقل)**، من خلال هذا العجب الذنب الذي فيهم.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾، هنا التفصيل كل هذا خلق الإنسان وبين بعد ذلك ماذا خلق، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)﴾ [المؤمنون: ١٧]، والغفلة التي تجعل

الأشياء تمشي لوحدها، الله عز وجل خلق ولم يجعل الأمور تجري لوحدها بل سبحانه وتعالى رعاها بالرزق، رعاها في الرعاية والعطاء والإمداد والقوة.

فلما الله عز وجل خلق السماوات والأرض، من السماوات والأرض هذه الإجرام السماوية التي تدور فوقنا، هذه هل أطلقها قال لها دوري فتبقى تدور على الأمر الأول، أم هو في كل لحظة يرعاها في دورانها؟ هو في كل لحظة يرعاها، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١)﴾ [المؤمنون: ١٧-٢١]، انظر هذا الخلق.

فالله سبحانه وتعالى أعظم المعلومات، وأعظم العلوم التي نحتاجها التي لا يمكن للمرء أن ينكرها، هو أن الله الخالق، ولذلك جاء القرآن بين على هذا ودلل عليه بقوله ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، هذا أمر لا ينكر، ولا يمكن لأحد أن ينكر هذا الأمر، ولم يوجد في التاريخ البشري كله، أحد أنكر هذه الصفة إلا قلة قليلة سافلة منحطة لا تدري ما تقول، والناس يضحكون منها، وهو أن الأشياء أوجدت نفسها، أو أن الطبيعة هي التي أوجدت نفسها.

هم يزعمون، وترون هذا الإنجليزي هذا المشلول الذي لا يتحرك منه، وفقط بحركة عينه يتحرك الكمبيوتر حتى يفهموا عليه، قال: فقط الجاذبية هي التي حلت مشكلة الوجود!! هذا قولهم كقول مات!! ما سبب موته؟ السكتة القلبية! سكت قلبه فمات!! فسبب الموت هو السكتة القلبية، هو في الحقيقة الموت هو السكتة القلبية! فمن أسكت قلبه؟! وهكذا يقولون عن هذه الجاذبية!!

هذه الجاذبية من أوجدها؟ من أوجد السنن في داخل الأشياء؟ فلذلك الله عز وجل أقام الحجة على وجوب تأليهه، وعلى أن يقوم العباد بتأليهه لأنه هو الخالق، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥)﴾ [لقمان: ٢٥].

فلذلك هذه الصفة هي صفة لله سبحانه وتعالى وهي الدالة على أن الأشياء كلها له جل في علاه هو يملكها، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، الله عز وجل خلق كل شيء، خلق الإنسان، وقبل أن يخلق الإنسان خلق السماوات والأرض وقبل أن يخلق السماوات والأرض كان سبحانه وتعالى وخلق العرش وكان عرشه على الماء، خلق العرش ثم استوى إليه ثم خلق

السماوات والأرض، وجاء التفصيل كله في سورة «السجدة» كما تعلمون، الله عز وجل فصل كيف خلق هذه السماوات والأرض ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤)﴾ [السجدة: ٤]، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، الله خلق السماوات هذه.

ونحن نعجب أن هذا الخلق متنوع، ولكنه متحد، أعجب ما في الوجود هو التنوع مع التوحد، وهذا دالٌ على قدرته التي لا يمكن أن تنازع، ودالٌ على وحدانيته، كيف؟ الآن يقولون عن الخلية الحيوانية، انظر الخلية الحيوانية في داخل الإنسان الخلية الحيوانية في داخل الحيوانات التي نعرف منها أشياء ولا نعرف منها أشياء، هناك حيوانات إلى الآن لم تكتشف هناك خلق من الحيوانات تمشي، من الذباب من الأشياء لا يعرفونها الناس ولم يكتشفوها، إلى الآن يكتشفون الفراشات، كل يوم يكتشفون نوع من أنواع الفراشات، لا يعرفون.

لكن انظر عندما يقال لك اكتشفوا شيء، يعني الله عز وجل خلقه لك وأنت لا تدري، هو خلقه لك وأنت لا تدري، ولما خلقه ما أراد أن يعرضه أمامك العرض الذي هو بحاجة إليك، الناس لما يصنعون أشياء كما ذكرنا مثل في النحات، ماذا بعد ينحت ويحافظ عليه، هو يعرضه أمام الناس من أجل أن يدلل على قدرته صحيح، نحن إلى الآن في أشياء لا نعرفها، يخبرنا الله عز وجل عنها فقط أخبار من عالم الغيب.

مثل الآن قضية الملائكة، نحن نؤمن بالملائكة وهي من عالم الغيب، وهي من أعظم ما خلق الله، أهل العلم اختلفوا ما هو الأفضل الملائكة أم الإنسان؟ فأغلبهم قالوا الملائكة بجنسها أفضل، والناس بدينهم أفضل، يعني الأنبياء أفضل من الملائكة، ولكن جنس الملائكة من حيث هي مخلوقة على معنى من معاني العظمة، فهي مخلوقة من نور وأنت مخلوق من تراب، فجنسها أفضل من جنس الإنسان.

فتصور أنت لو رأيت ملكًا كيف هذا الملك النور، ومع ذلك أعظم هذا الخلق ما عرضه عليك من أجل أنه بحاجة إليك من أجل أن تشكره وتذكره وتعرفه، لم يفعل هذا، هو عرفك أشياء، وأشياء عظيمة جدًا لم يعرفك بها، هذا العرش العظيم، ابن عباس صح عنه أنه قال: -ما هذه الدنيا-، «الدنيا كلها تحت عرش الرحمن»، أنظر إلى الآن ماذا قال لهم أينشتاين مسكين -ضحك عليهم- قال لهم: الكون غير متناهي، بمعنى هذا الفضاء ممتد إلى ما لا نهاية وفي الحقيقة هذا كذب، هذا كذب الخلق متناهي، ولكن هذه الكلمة نستفيد منها إلى الآن مع كل ما أوتوا من آلات وأدوات لاكتشاف هذا الأفق ما زالوا هم

يقولون: ما زلنا لم نكتشف كل هذا الأفق، وهم يقولون ولا ندري أن صح هذا، لكن هذا من عجائب ما يقولونه: هناك من النجوم ما لم تصل إلى الآن أشعتها إلينا منذ أن خلقها الله.

ولذلك هم يتكلمون هؤلاء، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، الله عز وجل أعطانا من كلمات هؤلاء الكفار ما نستدل به على عظمته، ولذلك قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣]، في هذه الآفاق.

فهذه الأشياء بدقة كلها تدل على قدرة الله عز وجل، وأعظم ما في ذلك أن هذه الخلية الحيوانية -نعود إليها-، هذه الخلايا الحيوانية قل هي خلية حيوانية في كل شيء، طيب هي خلية حيوانية في أصلها أنها شيءٌ واحد، لكنها بنفسها هذا الواحد متعدد في كل حيوان، بل هو متعدد في كل خلق من هذه الحيوانات، يعني الإنسان حيوان، حيوان ناطق، هذا الإنسان فيه خلايا حيوانية، هذه الخلية الحيوانية في داخل اليد غير في داخل العقل، الدماغ هو خلية حيوانية، الخلية الحيوانية التي للقلب غير الخلية الحيوانية التي في المعدة، فانظر هي شيء واحد لكنها متعددة، تدل على أن الذي خلقها واحد، لكنها تدل على أن هذا الواحد عظيمٌ وقادر.

فهذه الوحدة في المخلوقات دلت على أنه واحد، وهذا التنوع دل على أنه قادر، الشيء الواحد ينوعه إلى ما لا نعلم، لا ندري نحن تكلمنا أننا لا نعلم، وهناك من الحيوانات ما بادت وانتهت هم يتكلمون عن الديناصورات، يتكلمون عن الماموث، يتكلمون عن أشياء غريبة، يعني ولا شك أننا نؤمن بها لوجود آثارها، هم اكتشفوا العظام للديناصورات واكتشفوا الآثار، لكن تأمل هذا العالم كيف هو.

فالله سبحانه وتعالى جل في علاه، هذا الخلق خلقه وهذا التنوع العظيم دل على عظمته وعلى قدرته في الخلق، وعلى أنه سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، ولا شك أن هناك في علم الله من المخلوقات ما لا نعلمها، وهناك في قدرة الله ما هو فوق تصوراتنا، لأنه الخالق جل في علاه يعني أنه سبحانه وتعالى لا تنتهي هذه الصفة إلى حدٍ ما، لا تنتهي، فالله عز وجل الخالق الذي أوجد الأشياء من العدم بعلمه، وقدرته وتقديره.

انظر اقتران العلم مع القدرة دائمًا، وأن العلم العظيم دالٌ على القدرة، أما في سورة «البقرة» قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾ [البقرة: ٢٩]، هو المناسب للعقل عندما يقرأها هو أن يختمها وهو على كل

شيء قدير، لأن الكلام عن الخلق، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)﴾، فلولا العلم لم يقع الخلق على هذا المعنى من التكليف.

ولذلك سبحانه وتعالى صفة الخلق في داخلها صفة العلم، وصفة الخلق على هذا فيها صفة الحكمة، ولذلك نحن نتكلم في كل درس نقول إن كل صفة هي بحاجة إلى أخرى وهي دالة على أخرى، كل الصفة هي دالة على أخرى، ومعنى الخالق: الموجد على غير مثالٍ سابق، وهو سبحانه وتعالى الموجدها من غير مثالٍ سابق، وأوجدها من العدم، مثال سابق يعني صورة.

الناس الآن يقولون دائمًا هذه الكلمة منتشرة بينهم يقولون: الإبداع يبدأ بالمحاكاة، يبدأ إبداع الإنسان بالمحاكاة، الطفل الصغير إبداعه يبدأ مرتقيًا، هذا الارتقاء يبدأ بالمحاكاة، يبدأ بمحاكاة والديه، محاكاة إخوانه، كيف يتكلمون، كيف يتحركون وهكذا، لكن بعد ذلك ينعتق، خلاص يجمع عنده معلومات معينة وبعد ذلك تتكون شخصيته الخاصة به، فالإبداع يبدأ بالمحاكاة، إذًا المحاكاة تقتضي وجود مثال سابق، فحتى الإبداع يحتاج إلى محاكاة بالنسبة للبشر.

الله عز وجل خلق كل شيء من غير مثالٍ سابق، لم يكن هناك شيء قد سبقه من أجل أن يقال هذا، ولما أوجده لم يحتاج إلى التجربة، فدل هذا على أنه خلقه وهو عالم به، وأوجده على هذه الصفة جل في علاه.

فما هو الخلاق؟ العلماء وقفوا أمام كلمة الخلاق قالوا: الذي يتكرر منه الخلق، الخلاق ﴿الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦)﴾ [الحجر: ٨٦]، هذا الذي يتكرر منه الخلق، وقال بعضهم: الخلاق هو الذي يقع منه الخلق كمية كثيرة وكيفًا كثيرًا، الخلاق هو الذي يقع منه الخلق بكثرة بكمية كثيرة وكيفية كثيرة، وهذه الكيفية هذا التنوع الذي تكلمنا عنه والكمية كما قلنا ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥)﴾ [المؤمنون: ١٥]، والذين يموتون يأتي غيرهم، فهو خلاق جل في علاه مرة بعد مرة.

وللإمام القرطبي رحمه الله كلمة قال: «الخلاق هو الذي يخلق الخلق من العدم، وكذلك يخلق في الخلق أخلاقهم»، وهذا معناه يريد أن يقول إن كل شيء قد خلقه الله عز وجل ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: ٥٠]، هدى تعني هنا الهداية القدرية، يعني خلق كل شيء فهداه لما خلق له، يعني الله خلق العين للأبصار، فهداها لما خلقت له الإبصار، الله خلق اليد للقدرة، فخلقها فأمضاها على هذا المعنى من الذي خلقها له، خلق كل شيء جل في علاه ثم هدى.

وهذه لما نقول فسبحان الله هذه يتعلمها العبد ومن سنة النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا رأى شيئًا أعجبه من خلق الله سبحه، لماذا؟ لأن التسبيح دالٌ على التعظيم، فإذا رأيت شيء رأيت يد الله التي أوجدته، فحينئذٍ أنت تسبح، ومن هنا فرؤيتك لكل شيء في هذا الوجود دالةٌ على عظمة الله، تسبح الله، ولذلك في كل شيء له آية تدل على أنه هو الواحد.

هذا المعنى الذي نتكلم عنه هو الذي يوجد في داخل العبد دوام الذكر لله ودوام الطاعة لله، في أنه يتذكر ربه في كل شيء، ويرى قدرة الله في كل شيء، ويرى رعاية الله في كل شيء، لكن السؤال لماذا قال يونس عليه السلام هذه الكلمة دون غيرها، بعد أن خرج مغاضبًا ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء: ٨٧]، لماذا قال هاتين الكلمتين لا إله إلا أنت سبحانك؟ إني كنت من الظالمين مفهومة، لأن هذا الذي يعصي ربه هو ظالمٌ لنفسه، هو لا يضر ربه شيئًا لا يضر الله شيئًا، هو يضر نفسه فهو ظالمٌ لنفسه.

وقالها موسى عليه السلام عندما قتل، ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦)﴾ [القصص: ١٥-١٦].

لكن لماذا قال يونس عليه السلام لا إله إلا أنت سبحانك؟ لأن المعصية كما أننا قلنا بأن رؤية كل شيء هي دالةٌ على رؤية العبد لعظمة الله وقدرته فيسبحه في كماله، يسبحه بعطائه يسبحه بتمام خلقه، وهنا المعصية دالةٌ على نقد العبودية في بعض جوانبها، أي معصية هي نقد للعبودية، ولا إله إلا الله هذه الكلمة ابن القيم رحمه الله وقف عند كلام بعض أهل العلم عندما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(من قال لا إله إلا الله دخل الجنة)**.

فبعض الناس يقول: فقط يقول لا إله إلا الله!! لا إله إلا الله تقتضي كل ما ذكر من شروط بعدها، لا يمكن للعبد أن يقولها على معنى الالتزام، وعلى معنى الإثبات لها إلا وهو مقيم لكل شروطها، ذكرت أو لم تذكر، وإنما ذكرت من أجل التنبيه، صادقًا من قلبه مخلصًا، فهذه ليست من الزوائد التي جاءت، بعض أهل العلم قال: يعني زادت أول شيء قولوا لا إله إلا الله، بعدها قولوها مخلصين، بعدها قولوها صادقين، بعدين قلوها طائعين، هذا كلام غير صحيح.

أعيدها بعض أهل العلم وقف عند هذه الشروط لا إله إلا الله، فقال: هل هذه الشروط جاءت متنامية بعد أن قال: قول لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا الله، قال له: لكن في شرط لا بد أن تأتوا به قولوها

الصادقين، فقالوها: صادقين، قولوها مخلصين، فقالوها: مخلصين، قولوها مع الكفر بالطواغيت، أكفروا بالطواغيت، فجعل يزيد عليهم، قال ابن القيم: هذا غير صحيح، هي بذاتها متضمنة لكل هذه الشروط، لا يمكن للعبد أن يقولها جاهلًا، هو يكون عالمًا بمعناها وليس جاهلًا وليس أجنبيًا عن العربية وعن مدلولاتها وعن ما تفيد الكلمات من التزام، لا يمكن للعبد أن يقول لا إله إلا الله وهو غير مخلص، لا يمكن للعبد أن يقول لا إله إلا الله وهو يعبد غيره، لا يمكن للعبد أن يقول لا إله إلا الله وهو غير صادق لا يمكن، على معنى الالتزام لابد، حين يقول هذه الكلمة أن يكون قد أتى بشروطها.

إذًا لا إله إلا الله عندما تكون على حقيقتها تكون ملزمة للعبد في كل أعماله أنه عبدٌ لله، وقائم لله في كل طاعة وتارك لأمر الله كل معصية، حين يقول العبد لا إله إلا الله ماذا يعني؟ أنني يا رب مصدقٌ لما تخبر، ملتزمٌ لما أمرت، لن أخدش هذا العقد بيني وبينك في حال، فحين يقول هذا العبد لهذه الكلمة يعني أنه ملتزمٌ بها، فإذا عصى هل المعصية ناقضة لا إله إلا الله من بعض جوانبها، بعض المعاصي تنقض لا إله إلا الله من أصلها، كعبادة غير الله هذه كالإشراك، في الشرك الأكبر ينقضها من أصلها، لكن كل معصية يفعلها العبد صغرت أم كبرت تنقض لا إله إلا الله بمقدارها.

فلما عصى يونس عليه السلام كان ناقضًا لـ لا إله إلا الله من بعض جوانبها، فأعادها التزامًا، فكان لابد منها، فلا إله إلا الله إذًا تصلح استغفارًا، لو أن المرء عصى ربه فقال: لا إله إلا الله تصلح استغفارًا يعني إعادة العقد مع الله، إعادة العهد مع الله، لذلك هو قال: لا إله إلا أنت، طيب لماذا سبحانك؟ لأن المعصية أحدثت في القلب شيءٌ من هذا المعنى في أنه ليس مُقدِسًا لربه، وليس مُسبحًا له تمام التسبيح، فأتى بالعقد من جديد وأتى بتصليحه من جديد معترفًا بذنبه، فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء: ٨٧].

هذه تذكرنا بأن هذه الأشياء التي خلقها الله إنما من أجل أن تقربك إلى الله، كل قراءةٍ لما خلق الله من التكوين، هي دالةٌ على تسبيحه، دالةٌ على تعظيمه، دالةٌ على أنه سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة، فأنه سبحانه هو الخلاق، ومن هنا جاءت اقرأ القرآن في حديث ربنا سبحانه وتعالى عن نفسه وما خلق، ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]، أحسن الخالقين، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون: ١٤]، فكلها حديث عن خلق السماوات خلق الأرض، تسخير الجبال تسخير الأنهار، تسخير السماوات، تسخير الأرض، تسخير الدواب، كلها حديث تفصيلات عن هذا الخلق، عن خلق الملائكة عن خلق السماوات والأرض وأنه سبحانه وتعالى قادرٌ أن يخلق مثلهم، قادر أن يعيد أن يفني الخلق جميعًا ويخلق مثلهم، ويجدد هذا الخلق مرة أخرى دون أن يعييه.

ولذلك سبحانه وتعالى يخلق ولا يتعب، لكن ليس كما قالت اليهود، اليهود يزعمون أن الله عز وجل خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع، والاستراحة من الراحة وهي دالةٌ على التعب والنصب، والله عز وجل قال: ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، هو أمره بين الكاف والنون جل في علاه.

وهناك كلمة يرددها البعض يقولوا لما يتأملوا وهي كلمة في الأصل معناها صحيح، ولكنها لفظ لا ينبغي الاهتمام به وهي «ليس في الإمكان أحسن مما كان»، بلا شك أنه لما ينظر المرء إلى هذا الوجود يراه تامًا، هذا الخلق لما ينظر إليه العبد يراه تامًا، يراه متكاملا ما الذي يحتاجه؟ الله خلق الأشياء أكثر من حاجة الناس، ونحن ذكرنا أن الله خلق أشياء لا يعرفها الناس، وهناك أشياء تعيش بينهم ولا يعرفونها، متى أكتشف الناس الجراثيم؟ متى أكتشف الفيروسات، وكل يوم يكتشفون من الأشياء ما هي تعيش بينهم ولا يعرفونها، فالله خلق جل في علاه الأشياء فوق حاجة الناس أكثر من حاجة الناس، المياه أكثر من حاجة الناس، الهواء من أكثر حاجة الناس، الأطعمة أكثر من حاجة الناس.

على فكرة من سنين من خمسين سنة ستين سنة دائمًا يتحدثون وهذا من جهل الناس، يتحدثون على أن العالم سيصاب بالمجاعات ويصاب يعني بالبؤس والفقر وأنه لم تعود الأشياء كافية للإنسان، أنتم ماذا تلاحظوا؟ يعني نحن لو ذكرنا العجائز قبل أربعين سنة، خمسة وأربعين سنة، خمسين سنة، قبل خمسين سنة لما تذهب المرأة إلى السوق كم تجد من الكميات؟ مثلًا البندورة الكوسا، كم تجد؟ قليلة، كانوا الناس يتحدثون عن الموز أنه سيفنى من الأرض، بذكركم قبل أربعين سنة، كم كنا نجد الموز في الأردن؟ اليوم معلق أكثر من القناديل في الشوارع، فالناس يتحدثون كثيرًا على أن العالم مقبل على المجاعة وبهذا يكذبون.

فالناس يزيدون ويزيد العطاء أكثر، ويصبح العطاء أكثر، لا تتكلم عن الغلاء، موضوع آخر هذا فعل البشر، الغلاء فعل البشر، أما الخلق والرزق هذا من فعل الله عز وجل، نعم المسعر هو الله معصية وطاعة، ولكن العطاء انظر العطاء كثير، المياه كثيرة وهكذا، والناس يتحدثون عن الفقر، فالله سبحانه وتعالى خلق الأشياء فوق حاجة الناس، وفوق ما يريده الناس، سبحانه وتعالى فلا يعجزه شيء.

ولذلك لما اليهود لعنة الله عليهم، قالوا يد الله مغلولة، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، يعني انظروا إلى هذا الكذب، أنا أرجع للكلمة يعني انظر على هؤلاء القوم، على فكرة أكثر ناس يعني عليهم النعم كانت اليهود، أكثر الناس أعطاهم الله من النعم، وجعل فيهم الملوك، فلا لا تناسب بين عطاء الله وبين شكر العبد، ما في تناسب، الأصل كلما زاد العطاء كثر الشكر، اليهود أكثر ناس أعطاهم الله

قلة قليلة من البشر، دائمًا قلة اليهود ومع ذلك الذهب بين أيديهم والماس بين أيديهم، ومع ذلك الملاعين يقولون يد الله مغلولة.

وأما الصالحون فإنهم يكفي أن يقوموا في الصباح فيجدون أنفسهم أحياء فيقولون: **(لا إله إلا الله الحمد الذي أحيانا بعد ما اماتنا وإليه النشور)**، فهناك كلمة منتشرة وهي كلمة في أصلها يعني تدل على نظر العبد إلى كمال حكمة الله، لكنها لا ينبغي أن تقال، والكلمات يجب أن لا ينظر إليها فقط من حيث كون أن معانيها الأولى التي نشأت منها صحيحة، يجب أن تكون في ذاتها صحيحة، منتشر كلمة «ليس في الإمكان أحسن مما كان»، هذه تقال للعبد يعني هذه قدرتي، ولكن لا يجوز أن تقال لله، ليس في الإمكان أبدع مما كان، هل هذه تقال في حق الله؟

والدليل أنه هذه الدنيا كلها فانية، وليس فيها الكمال المطلق، هناك نعيم في الجنة هو الخير المطلق، ولا نقول هو الكمال المطلق، يعني حتى هذه الجنة هل هناك نعم كذلك أعظم منها؟ هل هناك خير أعظم منها الله قادر، الله قادر أن يخلق خلقًا أعظم مما يُخلق، وهذه قدرته غير متناهية.

فالعبد إذا تفكر في أنه مخلوق، وتفكر أن الأشياء مخلوقة، نسب إلى الله عز وجل الصنعة، وهو أساس التوحيد إثبات أساس الصنعة لله هو الذي يرتكز عليه معنى العبودية لله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، لماذا لم يقل خلق كل شيء؟ لأنه هذا الإنسان، هو الذي خلق الله الأشياء من أجله، فيكفي أن يعلم أنه مخلوق وأن الأشياء خلقت له، ومن أجله ليعلم أن الله خالق كل شيء سبحانه وتعالى، لا ما في خالق غير الله، جل في علاه سبحانه وتعالى.

فلذلك هذا المعنى يدلنا على عِظمه، يدل على حكمته يدل على رحمته، على عطائه، فهذا يوجب التأليه، ويوجب التسبيح، ويوجب التحميد، ويوجب التكبير، هذه الكلمات **(سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر)**، عندما أنت تصعد الجبل، ماذا تقول؟ الله أكبر، هذا الكبير من الذي خلقه؟ الأكبر، هذا الذي تراه من تمام الإتقان من الذي خلقه؟ العليم جل في علاه، خلقه لك من أجل أن تحمده سبحانه وتعالى، خلق لك الأشياء، خلق لك الماء، خلق لك الأشياء على أكثر مما تحتاج.

فلذلك نسبة صفة الخلق لله عز وجل توجب هذه الكلمات الأربعة، **(سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر)**، نسأل الله أن يرحمنا برحمته، جزاكم الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: الكلمة التي قالها نبي الله يونس عليه السلام ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء: ٨٧]، **أن تعيد لنا تفصيلها؟**

الشيخ: هو لما قال لا إله إلا الله، تأله بهذه الكلمة أعاد العقد مع الله، وعلى ما تقدم من المعنى، ولما قال سبحان الله لأن المعصية خدش لتقديس العبد لربه، هي لا تضر الله، هي خدشٌ لتقديس قلبك لله، فلذلك أنت تعيد هذا الإصلاح بقولك سبحان الله، تعيد إصلاح قلبك الذي خدشت فيه تسبيحه، فلذلك ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وهو يخاطب الله هذا تمام القرب، حتى وأنت في المعصية لا تظن أنك بعيد، لا تقل لا إله إلا هو، كما يفعل المرء.

لما الإنسان يعصي والده ربما يقف وراء الباب ويناجيه، لأن والده طارده فيقف، قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(لك العتبة)**، العتبة: باب البيت، فكأنه يقول أنا ألقى نفسي على العتبة حتى ترضى فتأذن لي بالدخول، **(لك العتبة)** لن أفارق بابك، فهذا يناجيه مباشرة مع معصيته، يقول: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾، لأنه أين يفر؟ العبد أين يذهب؟ أين يهرب من أقدار الله؟ الناس أين يهربون هؤلاء؟ ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠)﴾ [البروج: ٢٠]، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

السائل: ذكرت في أحد التسجيلات تكلمت عن سعيد حوى عن ذكر الله المفرد، وأنه بداية الذكر المفرد، لكن قول الله عز وجل: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢٥)﴾ [الإنسان: ٢٥]، **يعني كيف ذكر اسم الله؟ وفي الحديث (إن الله وتر يحب الوتر)، ما المقصود فيها؟**

الشيخ: أولًا ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾، ما الذي يفسر هذا؟ أذكر اسم الله، ما الذي يفسره؟ للذكر أولًا قبل كل شيء، قبل أن نخوض معكم، لا أحد يقول بأن الشارع أستحب ذكر اسمه المفرد، لا أحد يقول منهم، وأنا قرأت كلامهم، هم الصوفية يركبون كلامًا دال على أنهم شياطين، أسمحوا لي بذلك، تجدون كالتالي يقول الذكر المفرد ما حكمه؟ قال الجواز، كلام جميل -جميل يعني مسايرةً لهم- وبعد ذلك يقول: وأعظم أسمائه أنه الله -أنتبه للتزوير- الذكر أن تذكر الله جائز، والحق ما هو اسم الله الأعظم عند كثير من أهل العلم؟ هو الله لأنه اسم الذات، فهم الآن انظر هو يتحدث الآن عن الذكر ولا يتحدث عن الاسم وعظمته، الحديث عن عظمة الاسم هذا شيء مقرر، متفق عليه، هو يريد أن يجعل أن ذكر كلمة الله

فقط، هي أعظم الذكر لأنه ماذا؟ لأن اسمه هو أعظم الأسماء، ما الرابط بينهما؟ ما في رابط، أنت في الأول قلت إن ذكر اسم الله المفرد عندك مباح وجائز -قلت لكم: شياطين- هو يأتي على الجدار فيفتح الطاقة، ويدخلك بهذه الطاقة، فتجد طاقة أكبر وهكذا يبدأ بك واحدة، واحدة.

والأصل نأتي إلى النصوص بعد أن تبين شيطنتهم وطريقتهم، كيف فسر النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الله؟ يعني الآن هذه طريقة إما أن تقرون عليها وإما لا تقرون عليها، أن لم تقرون عليها صرتم من العلمانيين، يعني صرتم إخوان الشياطين، العلمانيون يقولوا: نفسر القرآن، تقول لهم: والسنة، يقولوا لك: لا، القرآن لغة، فيأتي أحد يقول: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾، نقول له: جيد، هذا في القرآن، أنا أريد أن أطبقها.

هل النبي ذكر اسم الله أم لم يذكره؟ فيقول: لا، أريد اللغة، نقول يا عبد الله: ذكر الاسم مجردًا في الوجود، متفق عليه بين العقلاء لا يفيد ذمًا ولا مدحًا، أجلكم نسأل الله العفو والعافية، لو قلنا كلمة حائط، ماذا تفيد؟ لا تفيد الذهن إلا أنها علم على شيء اسم على شيء في الذهن، وهو الحائط، لو شخص قال: خالد، هذا العقل يقتضي ما أنت، لا شرع قابل إلا بالعقل، لما تقول الله ماذا يفيد؟ طبعًا بعدها هم واصلوا هذه الضلالات الآن نبينها، لما نقول الله ماذا تفيد؟ ماذا تفيد من التعظيم؟ ماذا تفيد في قلب العبد؟ ماذا تفيد في قلب العبد من الاجلال؟ ماذا تفيد في قلب العبد من التأليه وتوحيد التأليه؟ قد يقول: الله أفادت أنه معبود، نقول: صحيح لكن هذه لا تفيد أنه أفرده بالعبادة، والمقصود من كلمة التوحيد؛ إفراد الله بالعبادة.

انتبهوا للفرق بينهما، الله عند أهل العلم إما مشتق وإما جامع، لنفترض أنهم يقولون قولنا إنه مشتق من التأليه يعني الله هو المؤله، كلام صحيح، إذًا أنت كيف تقول لنا -يردون علينا- أن الله لا تفيد عبودية؟ نقول: أفادت التأليه لكن لم تفد اختصاصها التأليه لن تفد إفراد التأليه، يعني ألا أعبد إلا هو، أفادت أنه مألوه معبود، لكن لم تفد أنه هو الذي ينبغي أن يفرد بالعبادة، لأن لا إله إلا الله ماذا تعني؟ لا إله بحق إلا الله، لا معبود بحق إلا الله، هذه هي إفادته، نمشي معهم.

إذًا كيف نفسر ذكر الله بما فعله النبي صلى الله عليه وسلم، ائتونا فقط بنص واحد يدل على نبي بغير جواب للسؤال، من غير إفادة لمعنى، كان يمشي يقول: الله، الله، الآن أنا أبين لك لماذا يريدون هذا، انظر كيف بدأوا بالجواز وانتهوا أنه اسم الله الأعظم، إذًا ذكره هو أعظم الذكر بعد ذلك خرجوا من هذا كله، هم يريدون الوصول معك إلى أعظم من ذلك أنا أعرف، ثم جعلوا أن أعظم الذكر هو «هو»، هذه لماذا؟ لا إله إلا الله، هي عند المسلم توحيد، وعند المسلم تعظيم، وعند المسلم أخبات، وعند المسلم استغفار،

وعند المسلم دعاء، وقد سألوا سفيان ابن عينية، قالوا له: ما أعظم الدعاء في عرفة؟ قال لهم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قالوا هذا ذكر وليس دعاء، ولكن هو دعاء، في الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(وأعظم الدعاء الحمد لله)**، **(وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله)**، هي كل شيء، فقال لهم البيت المشهور:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني	حياؤك إن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوما	كفاه من تعرضه الثناء

الثناء هو طلب حاجة، لما واحد تثني عليه أنت كريم يعني اعطيني لما تثني عليه أنه عظيم، يعني احميني وهكذا، فهم الآن ماذا فعلوا؟ لا يريدون هذا التوحيد، ولا يريدون التعظيم ولا يريدون الحمد، هم لا يريدون هذا، يريدون أن ينطبق في أذهانهم شيءٌ واحد، وهو أن كل ما يرونه هو الله هو وحدة الوجود، هم يريدون وحدة الوجود؛ وهو أن يصل المرء في كشفه أن كل شيء هو الله.

-انتبه- تكرار ذكر اسم الله، الله، الله، هو لما العبد يقول: سبحان الله فورًا يذهب إلى السماء، لا إله إلا الله يذهب إلى تأليهه والكفر بالأشياء مش هيك، ولما يقول: الحمد لله؛ يعني ثناء كل شيء يعود على الله، الله أكبر؛ يعني يصغر الأشياء، إذا هذه الكلمات التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم ذِكرًا لله أفادت بمعنيين:

أولًا: أفادت إسقاط الآخر الذي هو الأشياء المخلوقات إسقاطها على أي معنى إسقاط عبوديتها إسقاط تكبيرها إسقاط الثناء عليها الثناء المطلق إسقاطها

ثانيًا: وإثبات كل ذلك لله، إذًا هي مقارنة بين خالق ومخلوق بين عابد ومعبود.

فالعبد عنده حضور لأمرين: حضور من أذهبه، وحضور من أثبته؛ فهي إذهاب وإسقاط لما يراه ويعيش معه ويمتلكه أو يعانده أو... إلخ، وإثبات لهذا الغائب العظيم الحاضر العظيم وهو الله جل في علاه.

كلمة الله إذا ترددت بهذا المعنى كثيرًا أسقطت هذه الثنائية.. ثنائية الذاهب والمثبت، ثنائية المنفي لا إله إلا الله، سبحان الله، هذا لا يسبح، الحمد لله هذا ليس له الثناء المطلق، الله أكبر الأشياء صغيرة وهو الكبير جل في علاه، فذكر كلمة الله مفردة تذهب هذا المعنى؛ فتسقط الحواجز بين الخالق والمخلوق.

هو في الدنيا ينظر إلى الأشياء «الله، الله، الله»، ثبتت هذه الله بعد ذلك يعني كل شيء هو الله، هذه ليست كافية، فلابد من كلمة أكثر دلالة على هذا المعنى وهي «هو» من «هو» هذا؟ هو كل شيء،

«هو»، فهي إثباتٌ لكل شيء في قلبه الكتاب البيت الصديق الشاي القهوة أجلكم الله لا أريد أن أقول الدواب؛ فإذًا هو يريد أن يصل إلى إثبات أن كل شيء هو الله، فهذه هي التي توصلهم، هذه الثنائية.

فلذلك هم يعدون الذكرى يقولون بايعه على الذكر الخاص والذكر العام، ما هو الذكر العام؟ يعني الذي يصح لنا نحن مساكين لا إله إلا الله، وما هو الذكر الخاص؟ هو «الله» ثم لا ينتهي إلى هذا حتى يقول له: «هو، هو، هو» وهكذا، هذه بعد مدة تعينه على قضيتين: قضية التحشيش الذي هو العرفان والجذب، وتعينه على قضية أن كل شيء هو «هو».

فالأصل هو بقاء الأمر على الذي علمنا إياه النبي صلى الله عليه وسلم خاصةً في موضوع كيف نتقرب إلى الله؟ كيف كل طريق إذا انحرفت قليل فقد قصرت بنا وأدخلتنا المهالك، هذه الطريق لو دخلتها ولو فرعية في الوصول إلى الله ستوصلك إلى غيره..

الطريق المستقيم الصراط المستقيم البين الهدي هو ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وعلمنا كيف نذكره وعلمنا كيف نعظمه، علمنا الباقيات الصالحات، فلماذا نذهب إلى غيرها؟

السائل: يا شيخنا يذكر أنه حتى من المعاصرين محمد راتب النابلسي يشرح أن هو اسم الدرس الخامس والتسعين من شرح أسماء الله الحسنى يذكر اسمه «هو»، وحتى الأناشيد «كل ما ناديت يا «هو»، قال يا عبدي أنا الله»، ويذكر أن «هو» تدعو الله بضميره ويقول الضمير اسم معرفة والضمائر لها عظيم الشأن في اللغة، فعندما تقول يا هو فتدعوا الله بالضمير!!

الشيخ: أول شيء الضمير الغائب دائمًا يحتاج إلى مرجع، الضمائر أسماء بإفادتها إلى أشياء، يعني عندما نقول «هو» في ذهنك لابد أن يذهب؛ إما أن يذهب إلى المطلق فلا يفيد معنى، أو يفيد أن كل شيء هو المراد -انتبه- «هو» هذا ضمير فإما أن يعود إلى مخصوص أو يعود إلى شيئين:

إما يعود إلى كل شيء أو يعود إلى لا شيء إما يعود إلى مخصوص، هو جاء من هذا «هو»؟ فإما أن يعود لابد له من مرجع، في الكلام أو الذهن، هذا «هو» وهو نافعٌ وصالحٌ لأن يطلق على كل شيء؛ هو باب البيت، هو السقف هو الأرض فهو صالحٌ لكل شيء، فإما أن يدل على شيء مخصوص أو يدل على شيئين: أن يدل على كل شيء أو ألا يدل على شيء، إما أن يدل على الفناء المطلقة وإما أن يدل على الإثبات المطلق وهم يريدون هذا.

وهذا الكلام أنه والله الضمائر أعوذ بالله يعني لا إله إلا هو، فلما تقول أنت لا إله إلا هو أعطني، ماذا نقول الضمير هو أعظم شيء هذا ليس صحيح، هذا كذب، أعطني دليل واحد من كلام النبي صلى الله عليه وسلم أو كلام الصحابة أو كلام التابعين على ان «هو» من أسماء الله، يحتج بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾ [الإخلاص: ١]، نقول له: هذا ضمير غائب دال على معنى في الذهن وهو الله، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، هنا «هو» دالة على الله.

هل «هو» حين تطلق هكذا دالة على الله في نفس كل أحد؟ هل في كلام كل المتكلمين في الوجود لما يقولوا: «هو»، تعود على الله؟ يعني لما نقول: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، هل هذه «هو» هي «هو» التي نطقها كل أحد في الدنيا؟ إذًا هي هنا مخصوصة في الذهن على واحد ليس على كل أحد أطلق كلمة «هو»، وإلا كل واحد يقول «هو» تدل على الله، وهذا الذي يريدونه، في النهاية هذا الذي يريدونه، وهو ان «هو» الدالة على كل شيء هي هو الدالة في القرآن على الله عز وجل فالله هو كل شيء.

القصد من هذا: إذا لم نعرف أن هذه وسائل عند الصوفية للوصل إلى وحدة الوجود لن نستطيع أن نفهم، هذه التي يقولها بعض الناس المساكين الذين لا يؤمنون بوحدة الوجود تغرهم الكلمات الجميلة - انتبهوا أنا خبيرٌ بهذا السبيل ولا أتكلم عن وهم لمجرد الرد أعرف تمامًا ماذا يريدون-.

بعض الناس مساكين لا يؤمنوا بما تؤمن به الصوفية -أفهم هذا- لا يؤمنوا بوحدة الوجود ويقولوا وحدة الوجود كفر، لكن للأسف يحبون كلمات الصوفية لما فيها من جمالٍ ذهني تجريدي ولكن لا يعرفون مؤداها عند مراد أصحابها من الصوفية، يعني لما نأتي لكلام الشعر لما واحد من الشعراء يأتي ويتغزل في ليلى، والآن لا يوجد داعي إلى ان تذهب إلى جلساتهم متوفر كل شي على شبكة العنكبوتية «النت» افتح وشاهد حضرات الصوفية يتكلم في ليلى.

في الحضرات الصوفية يوجد «الشمهروش» هذا الذي يكون في الأول فهم يقسموا الحضرة إلى أقسام: واحد في الوسط وهذا يكون الشيخ الكبير فيهم عادةً وهو الذي يمدهم بالمدد، يخرج من نفسه المدد ويعطيهم!!

وعلى فكرة كل ما تضحكون عليه هو حقائق عندهم، فمثلًا قضية الإمداد من الشيخ وهو الجلوس أمام قبر الشيخ لأخذ المدد منه هذه ليست طرفة هذه حقيقة! مشايخ التبليغ يفعلونها عند قبور أشياخهم، وهذه مذكورة في الكتب أنهم يذهبون إلى القبور.

وحازم أبو غزالة مرة ذهب عند مقام النبي شعيب حدثني الرجل الذي كان معه، فلم يدخل القبر حتى أذن له شعيب أن يدخل عليه لماذا؟ من أجل أن يحصل المدد، فإذا جلسوا أمام القبر طلب المدد من صاحب القبر أن يمدهم بمدده من أجل أن يقولوا مدد، أعطني من معانيك وأعطني من معارفك، بركة الشيخ ليس بما تقولون أخذ العلم ولا حضور منه وأخذ من أخلاقه وإنما المدد من داخل قلبه إلى قلبك، من الإيمان إلى الإيمان، من المعرفة إلى المعرفة، يمده.

المهم -نرجع للحضرة لأنه بدأنا بها- فتذهب للحضرة فيبدأ واحد والبقية يذكرون الله، الله أو هو، هو إلخ، وواحد يقرأ شعرًا غزليًا، كل الشعر الذي يقرأ هو الغزل الذي يقال بليلى، لماذا قلت هذا؟ تغزل بليلى هو شعر جميل يرعب وأنا أقول لكم لولا أن هذا العبد مقيد بالكتاب والسنة وإلا كان معهم، فكلامهم حلو ينسيك أمك ليس فقط ينسيك الدنيا، ينسيك زوجتك من جمال الشعر.

فبعض الناس يذهب إلى الصوفية طلبًا لهذه المعاني الشعرية المعاني الجميلة، يعني واحد يقول لك: «هو» يا سلام، «هو» ما أجملها، هو لا يعرف المسكين «هو» إلى أين تؤدي به، هو ينظر إليها نظرة الشاعر لا نظرة الأصولي والمحقق والفقيه، هم هؤلاء يحبون هذه الأشياء الجميلة، يحبونها جمالًا، لكن لا يدققون في معانيها الفقهية ولا معانيها الواقعية ولا معانيها العقدية، لما واحد يقول لك: لا إله إلا هو يا سلام! يا أخي! يعني هو نسي وفني عن كل شيء ولم يبقى عنده إذا أطلقت «هو» إلا الله.

نقول له قف قليلًا يا رجل «هو» عندك هو الله، جيد «هو» هو الله لكن لا تفيد هذا المعنى، لا بد في الأول أن يكون متصور «هو» هو الله، فبعد ذلك أنت يا مسكين كل كلمة «هو» تدل على الله مع الترقي هذا الذي يزعمونه والتقدم في الذكر، كل كلمة «هو» تطلقها أنت إذا أدمة لا إله إلا هو يعني انت إذا ذكرتها في اليوم ألف مرة لا إله إلا هو، بعد ذلك ماذا يصير في قلبك؟ يصبح في قلبك أن كلمة «هو» إذا أطلقت دلت على الله، فحينئذٍ -سأقول الكلمة التي يقولونها- عندما تقول الكلب هو، هذا الكلب هو، فحينئذٍ لا إله إلا ...، وحينئذٍ تقول ما قالوه: وما الكلب والخنزير إلا إلهنا وما ربنا إلا عابدٌ في كنيسةٍ، هذا ليس كلامي هذا كلام الذي قال: أعظم الذكر هو «هو»، هذا ليس كلامي لست أنا الذي أكذب عليهم.

الذي قال وهو ابن عربي: أعظم الذكر هو «هو»، هو الذي قال وما الكلب والخنزير إلا إلهنا، لأن هذا مؤداها في الذكر، هذا أمر ليس كلام شعري، فرق يطلع علينا نزار قباني يتكلم، لأنه نعرف لماذا يأتي

الناس وماذا يسمعون ويأتون سُكارى وهو يلقي الشعر والناس يسكروا، شعر مع سكر، فهم لا تعنيهم الكلمات إلا لحظة السكر وبعداها تخرج من حياتهم كلها.

لكن أنت يا مسكين يا عابد يا ذاكر هذا المعنى مختلف، فلا تعامل ربنا بمعاملة الشعراء لمن تغزلوا به هذا لا يصح، مجنون ليلى يتعامل مع ليلى مع مجنونة مثله، مجنون مع مجنونة، ولكن أنت تتعامل مع الله لا يصير أن تنزل الله في قلبك منزلة ليلى في قلب مجنونها، أنا أعرف تمامًا أعرف المدخل والمرء أحسه وخلال سلوكه في هذه المراحل التعبدية والنظر في كلمات الشعراء، هذا مسلك انتهيت منه، وأتكلم لك عن معرفة وليس فقط عن قراءة، أتكلم لك عن معرفة وهذا الطريق مسلوك بهذه المعاني التي يريدونها وأغلب الذين لا يريدون الوصول إلى عقيدة وحدة الوجود، مرد احترامهم لما يقوله الصوفية هو التغزل هو الكلام الجميل، لكن في واقع الأمر لا عبادة، لا يوجد عبادة، هو يقول لك: مجرد كلام جميل، لكن إذا مارسته على معنى التعبد وصلت إلى ما وصلوا إليه من الكفر والزندقة والشرك.

السائل: انتشارهم قليل لكن دروسهم تبث كمحمد راتب النابلسي هو له الدرس خمسة وتسعين بالضبط من أجل هذا الكل يسمعه يذكر انه من أسماء الله الحسنى!!

الشيخ: هو الرجل مسكين يعني وجد كلام إما على حالتين ومحمد راتب النابلسي معروف، وعادةً من يتكلم من هؤلاء بهذا إما أن يكون زنديقًا وإما يكون متجملًا يحب الكلام الجميل يريد أن يتكلم كلام جميل، يعني على حالتين –وكلاهما جاهل– الذين يتكلمون هذا في تعظيم هذه الكلمات إما أن يكون زنديقًا بمعنى أنه يعرف هذه المردات ولكنه يعرضها عرض الجمال وهذا قليل هذه الأيام من الناس ولكن موجدين في الطرق الصوفية ويفعلونها.

فكل شيخ صوفي عنده زاوية وهذه الزاوية فيها خلوة فشرط البيعة على الذكر الخاص هو أول شيء عندما يأتي على الذكر العام يقول له: قل لا إله إلا الله واحمل مسبحة وقل لا إله إلا الله هكذا أنت مع العوام والطرش، أما بالذكر الخاص يأتي به ويأخذ منه بيعة الذكر الخاص الله ويدخله بالخلوة، الخلوة فيها قديمًا كانوا يكتبون كلمة الله وينظر له ويذكر الله، الله، بعدها رقوها قليلًا فوضعوا ضوء من أجل أن تبقى ظلمة يمكث فيها ثلاثة أيام يدخل فيها ويعطوه الطعام فقط على مقدار معين مع القليل يصوموه ويبقى ينظر إليها فقط وهو طيلة الوقت وهو يذكر الله، الله، الله، هذه هي تصنع حالتين:

الحالة الأولى: هو هذا الذي قلناه.

والحالة الثانية: هو الجنون، الذي يسمى الجذبة خلاص الجذب، فبعضهم الجذب بنصف يوم، ليس بسبب أنه والله ولي، الناس يظنوا أنه ولي، لا، لأنه ضعيف بدنيًا، يعني لو أخذوا واحد مثلكم -الشيخ يخاطب طلابه- يحتاج شهر لكي تنجح معه، أما واحد مسكين نصف مجنون أو نصف ضعيف بعد يوم، يوم ونصف فورًا يصير يتوه وكذا، ويقول لك الحمد لله وصل، ما شاء الله فتح عليه وهذا قريبه وهكذا، نعم هذه حقيقة.

السائل: يا شيخنا فقط حديث (إن الله وتر يحب الوتر) ما معناه؟

الشيخ: معنى وتر أنه سبحانه وتعالى فرد، نعم هو وتر يحب الفرد، ومن هنا نجد أنه سبحانه وتعالى صلاة الوتر أمر بها وحض عليها وهكذا، وخلق السماوات سبع وخلق الأراضين السبع، وتر يحب الوتر، أما هل معنى الوتر هو أنه الله، الله، هكذا؟ من قال هذا؟ هل فسره النبي بهذا؟ لا، هذا كذب، أما أنت مثلًا ثلاث وثلاثين سبحان الله ثلاثة وثلاثين فهو يحب العدد الوتر لأنه جل في علاه، ولكن إذا كان معنى الزوج من مراد الله فالله يحبه، الزوج أن يكون زوجًا لما يريده الله عز وجل كصلاة الظهر أربعة كصلاة الفجر ركعتين الله يحب هذا، سبحانك اللهم وبحمدك وأشهد أن لا إله إلا الله أستغفرك وأتوب إليك.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن عشر: البارئ المصور

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

مشيًا مع ما آتى به القرآن من بعد ذكر اسمه جل في علاه في سورة «الحشر» أنه الخالق، وقال سبحانه وتعالى: ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، وذكر هذه الصفات الثلاثة في هذا السياق يعني مدلول ولا شك، وتقدم بأن اسم الله عز وجل الخالق كما قال ابن القيم: «أعلم العلوم وأعظمها وأجلها وأوضحها» مما لا يخالف فيها أحد، ولكن ما معنى كذلك البارئ المصور؟

فقال العلماء كما تعلمون: أن الكلمة إذا انفردت تدل على معاني كثيرة، إما هذا المعنى يكون أصيلًا فيها وإما لازمًا لها وإما من مقتضياتها، هذا المعنى إما بالمطابقة وإما باللزوم وإما بالمقتضى في الاقتضاء.

وإذا اجتمعت فلابد أن يكون لها معنى خاص بها يميزها عما جمعت معه، هذه قاعدة معروفة لأهل العلم أن اللفظين: «إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا» بمعنى أن اللفظة إذا ذكرت لوحدها فتدل على معنى غيرها إذا انفردت وإذا جمعت فإنها تدل على معنى خاص لها، مثل ما يضربون دائما الإسلام والإيمان يضربون هذا المثل لشهرته بين الناس ولكثرة ما حصل فيه من خلاف.

فمثلًا: الإسلام والإيمان، الإسلام لو قال: الإسلام فإنه من أجزاءه الإيمان والإحسان، لو قال ما الإسلام؟ يقول هو كل الدين، لكن لما نقول الإسلام والإيمان فالإسلام يدل على معنى يغاير معنى الإيمان، وذلك لعبقرية العربية وجلالها وشرفها؛ لأن هذه اللغة فيها ميزة لكل لفظةٍ قيلت، ولا ينبغي أن يطرأ في أذهاننا على أن الناس يأتون بكلام أو أن اللغة العربية يمكن أن يكون هناك لفظ قائمٌ بكل معنى فيه كما يقوم آخر بنفس هذا المعنى فيه.

بمعنى لما نحن نقول كأس وكوب نحن عندنا متشابهان بسبب ضعف العربية وأنها صارت العربية صناعة الآن وليست سليقة، العرب كانت اللغة عندهم سليقة؛ يعني أنها تنشأ من الطفولة تنشأ من بيئة الطفولة ويتربون عليها ويعرفون موازينها ووجوهها على وجه من وجوه الفطرة حتى لو جهلوا صناعتها، يعني لو قلت للعربي ما هو التمييز ما هو الحال؟ فهو يأتي به على المعنى اللغوي في ذهنه وليس على المعنى الاصطلاحي

الذي استقر عليه علم النحو والإعراب، فمن عبقرية هذه اللغة أن الألفاظ لا تترادف، فإذا ترادفت دلت على التكرار فقط التكرار، نعم يكون فيها معنى التثبيت ولكن التكرار الناس لا يميلون إليه.

وقاعدة من قواعد العلوم قواعد العربية وقواعد التفسير وقواعد الشرح «أن التأسيس خير من التأكيد» ما المقدم التأكيد أم التأسيس؟ التأسيس، ما معنى هذا الكلام؟ بمعنى إذا جاءت كلمتان في القرآن، فإما أن تكون هذه الكلمة مؤكدة لهذه الأولى وإما أن تكون دالة على معنى جديد، فهل الأولى أن نذهب لإنها مؤكدة أم مؤسسة لمعنى جديد؟ الصواب أنها مؤسِسة لمعنى جديد فهذا الأبلغ، التأكيد شيءٌ جيد يراد به تثبيت هذه المعلومة على ما في نفس سامعها أو قائلها، ولكن أن تؤسس لعلمٍ جديد فهذا أبلغ وأعظم، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)﴾ [الكافرون: ١-٣]، هذا ليس تكرار من أجل التأكيد، هذا كل لفظةٍ فيها تدل على مرادٍ خاصٍ بها.

ولذلك عندما يأتون إلى المشابهات في القرآن الكريم ينظرون لسبب هذا التشابه وسبب هذا الانفراد، ولا ينظرونه مؤكدًا وهذا مهم في الأسماء -ونحنا ذكرنا هذا سابقًا ونكرره الآن- بمعنى أن الرحمن الرحيم هناك فارق بينهما هذا الفارق الدقيق تحتاجه وليست هذه مؤكدة فقط للأولى، ففي الرحمن الرحيم ليست الرحيم مؤكدة للرحمن، فيها معنى زائد؛ تؤكد على المعنى المشترك بينهما، ولكنها تبني وتؤسس لمعنى جديد.

وهكذا في هذا موضوع الخالق البارئ المصور، فنحن قلنا إن الخالق -وهذا تكلمنا عنه في الدرس الفائت- أن الخالق هو الذي يبدع الشيء واحتجنا أن نقول إنه يبدع الشيء أو يوجد الشيء على غير مثالٍ سابق، هذا مسبوق بالعلم والتقدير، لا يمكن أن نتصور أن صانعًا يصنع شيئًا دون أن يكون هذا الشيء حاضرًا في ذهنه على جهة من جهة التخيل وجهة من جهة العلم، وجهة من جهة التقدير، فعندما يأتي الصانع إلى صناعة مثلًا الطاولة، فهي في ذهنه أولًا، قبل أن تصنع تصير أولًا ذهنيًا.

ولذلك يقول علمائنا: الوجود له مراتب:

الوجود الأول: هو الوجود الذهني، وهذا مهم جدًا الوجود الذهني، لماذا وجدت التعاريف؟ التعاريف لما واحد يسألك ما هو هذا الشيء؟ فبماذا تتكلم؟ نقول تعرف له هذا الشيء، كما أنه إذا سُئلت عن فلان اسم فلان خليل، فتقول هذا خليل الذي كذا وكذا فأنت تحدد تعرف هذا الشخص، تحاول أن تقربه، مع خلاف ما معنى التعريف ومعنى التوضيح والحد... إلخ، ولكن أنت تعرفه.

وينشئ التعريف من أجل إيجاد تصور ذهني للمُعرف، يعني حتى في اللغات عندما تختلف لو واحد أراد أن يسألك عن كلمة في اللغة الانجليزية أنت تعرفها بالعربية من أجل أن تتصور معناها، فإذًا الشي له

وجود ذهني، والكلام مجرد وجود لفظي ليس كافيًا؛ لأنه قد أنت تنطق الكلمة ولكن لا تتصور معناها، وكثيرًا من الكلمات نسمعها وننطقها ولا نتصور معناها سواء كان في اللغة العربية وفي غيرها، ومن هنا احتجنا إلى كتب الشروح وكتب التفسير.

الوجود الثاني: هو الوجود اللفظي، ذاك وجود ذهني، وهذا وجود لفظي.

الوجود الثالث: هو الوجود الحقيقي هو الشيء.

فلابد من هذه العلوم أن تكون في ذهنك في أن مجرد ورود اللفظ ليس كافيًا لتصوره لابد من تعريفه لابد من تحديد معناه، وهكذا تنشأ التعاريف يعني التعاريف التي تجدونها في الكتب تعريف الصلاة، الصوم الزكاة، ما هو أصول الفقه؟ لما أنت تسمع كلمة أصول الفقه ما أحد يدريها، فأنت تحتاج أن تعرفها، ما هو مصطلح الحديث؟ تريد أن تعرفه ما هو مصطلح الحديث.

فإذًا نعود تأسيس العلم خيرٌ من تأكيده، التأسيس ينشئ علمًا جديدًا، وفهمًا جديدًا، فلما تأتي إلى الآيات المتشابهة في لفظها في القرآن فقلنا تجد أن هناك ثمة تغاير في كلمة في لفظ، كما في قواه تعالى: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]، الواو في سورة «إبراهيم» جاءت هذه مؤكدة نعم لما تقدم من أنهم يذبحون أبنائهم كما في ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٤١] كما في سورة الأعراف، ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ كما في سورة البقرة، ولكن لماذا جاءت الواو هنا؟ فهذا فيها علم زائد، لا يكفي أن تقول هذه مؤكدة ابحث عن السبب الذي جعل هذه الواو تأتي في هذا السياق، لماذا؟

فإذًا التأسيس خيرٌ من التأكيد، الرحمن الرحيم، الرحيم أسست لعلمٍ جديد ولمفهومٍ جديد، غير الرحمن، مع إنها مؤكدة ولكن فيها معنى زائد، لابد من هذا المعنى الزائد أن تتصوره، هذه القاعدة يعني ذكرناها ولكن نؤكد عليها فلما الله عز وجل قال: ﴿الْخَالِقُ﴾ [الحشر: ٢٤]، فالخالق لابد أن يكون عالمًا لما يخلق كما قلنا في موضوع الطاولة لابد أن يكون عالمًا مقدرًا للأشياء على جهةٍ ما.

أحد المهندسين المشهورين في فرنسا، وبعض البلاد تختص ببعض العلوم في أوروبا وفي العالم؛ فتجد هذا البلد مختص في الاتصالات وهذا مختص في الطرق ومدها، فهذا خبير عالمي شهير له شركة كبيرة وكبير في السن مختص ببناء الجسور، فنزل عطاء لبناء جسر بين بلدين وبينهما شبه البحر يعني نهر كبير، هو شهير وشهرته في بناء الجسور، الجسر الذي يسموه «كوبري»، قال لهم: أنا مستعد أن ابني الجسر من هنا ومن هنا على أن يلتقيا على نقطة الصفر، نقطة الصفر تعني خلوها من أي انحراف، وقال: إذا نجحت هذا عرضي وعطائي قيمة العطاء، وإذا فشلت فكل ما تكلفت على حسابي، -الرهان كبير- المهم قدره

هو، ولما وصل إلى النهاية وصل إلى نقطة صفر، إذًا هو صنع ما تصوره، إذًا لابد من التقدير أولًا، كما صانع الثوب فقبل أن يصنعه لابد أن يقدر يأتي إلى قطعة القماش ويخططها كذا ليقطعها على معنى من التقدير.

فالخالق يتضمن العلم ويتضمن التقدير ويتضمن كذلك القدرة، القدرة عليه، فإذًا عندما يأتوا إلى ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، إذا أفردت هذه الصفة لوحدها فدالة على العلم ودالة على التقدير ودالة على القدرة، تقدير والقدرة، ودالة على ما تقدم ذكره وهو إيجاد الشيء من غير مثالٍ سابق، العلم به.

لكن إذا جاءت مع البارئ فعلى ماذا تدل؟ البارئ برأ الشيء أي خلقه يأتي يقول ما معنى برأ الشيء؟ تجد في كتب أهل العلم بهذا المعنى، تجد أنه برأ الشيء خلقه أوجده، إذًا الخالق هي نفس البارئ، لكن لابد من وجود معنى خاص، إذًا البارئ على معنى برأ الشيء أي أوجده، وهي لم ترد في القرآن على الصفة المعرفة إلا هذه المرة في سورة «الحشر» في قوله تعالى: ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، ولكن وردت في سورة «البقرة» في قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، هذا فقط، وردت فعلًا ﴿عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ يعني الصفة من غير تعريف ووردت صفة معرفة في سورة «الحشر».

لكن ما معنى البارئ إذا اقترنت بالخالق؟ أول شيء برأ الشيء أوجده، فإذا اجتمعت مع الخالق، قالوا: الخالق حينئذٍ يكون معناها التقدير، قدر ثم برأ يعني أوجد، وهذا كلام كثير من أهل العلم كابن كثير رحمه الله، إذًا عند اجتماعهما يكون الخالق بمعنى المقدر والبارئ بمعنى الموجد، لأن الموصوف قد يكون قادرًا على التقدير لكنه لا يستطيع أن يفعل، ولذلك قال: وبعض الخلق أو وبعض الناس أو وبعض القوم يخلق ولا يفري، يقدر يعني ولكن لا يفعل.

ولأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري

إذًا ما معنى خلق هنا -في لغة العرب في هذا البيت-؟ يعني تقدر وتخطط، في ناس كثير يخططوا لكن لا يقدرون على التنفيذ، فقالوا: «معنى الخالق هنا بمعنى التقدير والبارئ بمعنى الموجد لما قدر»، هذا وجه.

ووجهٌ آخر أن الخالق على ما تقدم وهو الموجد للشيء من غير مثالٍ سابق، ولكن البارئ هنا على معنى الذي فصل الأشياء على جهاتها وميزها ثم أتمها، هذه معاني يذكرونها متكررة منفردة ومجموعة، بمعنى أنه خلق وخلق كل شيء على ما أراده، على غير مثالٍ سابق، لكن ماذا؟ أتم خلقه، فليس فقط خلقه

لكن أتم خلقه وميزه عما سواه، من أين جاء هذا؟ لما تقول أنت برئ الشيء، يعني خرج من مرضه خلص الشيء، حتى تقول أنت بريء، عندما يخرج المرء من المشكلة في القضاء يقال بريء يعني خلص من المشكلة.

فإذًا ما معنى هنا خلص؟ يعني تخلص من الزائد عليه، فيكون حينئذٍ الإتمام، يكون المعنى على معنى الإتمام والتميز عن غيره.

فإذًا ما معنى الخالق؟ الموجد للشيء على غير مثالٍ سابق.

ما معنى البارئ؟ الذي ميز كل شيءٍ على جهته وصفته، فيكون معناها كذلك هو إعطاء كل شيءٍ صفته الخاصة به، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، والإنسان يقول خلق كل شيء وأوجده كل هذه الأشياء أوجدها لكن لا تعرف شيئًا عن شيء ولكن سبحانه وتعالى ميز، أتم هذه الأشياء ولا يكون تمامها إلا بتميزها، الشيء لا يتم إلا بمعرفته مختصًا بالصفات عن بقية غيره.

إذًا الأوائل أخلصوا كلمة خالق إلى معنى من معانيها لأن معانيها متعددة فخلصوها إلى معنى من معانيها وهو المقدر، فيكون الباري هو الموجد، والقول الثاني: لا، الخالق أبقوها على معناها وعلى معانيها التامة وهو أنه سبحانه وتعالى الموجد للأشياء على غير مثالٍ سابق، والبارئ هو الذي ميز الأشياء ولا يكون هذا التمييز إلا بإتمام خلقه واستوائه، برئ الشيء اي خرج من أمراضه من عاهاته من تعبه فهذا هو تمام الشيء، فتمام الشيء أن يكون بريئًا، وتميزه عن غيره خلص مما فيه من زوائد، هذا بيّن.

فإذًا ما معنى المصور؟ المصور بيّن صور الشيء مال، صور لغةً أي مال، فإذًا التصوير هو من صار، أي: كان على حالةٍ ثم صار على حالةٍ أخرى. فالأشياء في أصل خلقتها لا نعرفها إلا هكذا كما هي، ولكن الله عز وجل ألقى عليها وعلى أشكالها من المعاني ما جعل لها صورةً خاصة.

إذًا معنى الصورة هي التي على معنى التميز وهو أنها صارت إلى وصف من الأوصاف، إذًا انظر هذه العلاقة بين هذه الصفات الثلاثة لربنا أنه خلق الشيء أوجده من العدم، ثم أتم خلقه فاستوى وبرأه مما سواه فجعله مستويًا وجعل له حالةً خاصة متميزة، ثم ألقى على شكله صورةً خاصة، فحينئذٍ ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون: ١٤]، الله سبحانه وتعالى هذه الصفات التي وصف بها نفسه دالةً على كماله جل في علاه، ودالةً على أن علمه لا ينتهي وأن قدرته لا تنتهي، انظر ليس فقط قدرته على الخلق، ولكن هنا نحن نتكلم على قدرته على تمام الشيء وجماله، الصورة ما هي حقيقتها هو إطفاء الجمال على الشيء.

إخواني من أول ما أدركت لما ذهبت إلى بريطانية أن عندهم صفة نفقدها نحن وهو ما يسمى باللمسة الأخيرة، نحن هذه لا نهتم بها هنا، يعني أنت الناس يبنون ولكن لا يهتمون لتلك اللمسة الأخيرة التي فيها الجمال، نحن نعتمد على الأشياء؛ أن الشيء يقوم بحاجته من غير حاجة النظر، يعني كأمر في المساجد تجد مدفوع أموال في المساجد الأبنية وكذا، ولكن هناك أشياء تعجب يعني هي اللمسة الأخيرة تحتاج لا يفعلون لا يهتمون بها.

يعني صدقًا تنظر إلى الذي يسموه «البنكيت» ماذا يحتاج ليكون جميلًا؟ فقط تمسح الدهان الزائد الذي ينزل عليه من الدهان فقط لا يفعلون لا يهتمون، تجد صنع الباب قليل فقط لا تحتاج إلى مال كثير قليل شيء من العناية ليكون جميلًا، أي يهتمون بإيجاد الشيء، أما الاهتمام بتلك اللمسة الأخيرة التي تعطيه الجمالية لأنها مهمة، كما أن من مهمات الأشياء أن تعطي الجمال للناظر، وأن تعطي الراحة لمن ينظر إليها، هذه في بلادنا مفقودة، ولا نهتم بها، مستعد أن يضع الدبش وهذا ويبني، ويبنين ولكن إذا طلب منه –بيده– أن يفعل شيئًا لا يفعله، هذه مفقودة.

فانظر إلى تمام عطاء الله وكماله في إيجاده لخلقه، أنه سبحانه وتعالى جعل خاتمة كل شيء في أنه جل في علاه صوره على صيغةٍ من الجمال والتمام والتميز، فلم تختلط العين مع الأذن والعين هي حالة واحدة هي التي تسمع وهي التي ترى وهي التي تأكل من نفسها ويعني تصور والله قادر، ألم يقل لعائشة رضي الله عنها وقد سألته كيف يعني على وجوههم؟ قال صلى الله عليه وسلم: **(الذي أمشاه على رجلين)**، أي من الذي أعطى القدرة للرجلين أن تمشي؟ الله، ولو شاء لنزع هذه القدرة وأعطاها للرأس، ممكن الرأس يمشي، ممكن العين تمشي الواحد على حواجبه يمشي، الله عز وجل قادر على كل شيء.

والله يخلق ومن تنوع الخلق ما يدلنا على هذا، فتصور أنه شيئًا واحدًا قد خلقنا الله عز وجل فيه، وهو الذي يأكل ويشرب وهو الذي يخرج الفضلات وهو الذي يرى به ويسمع به ويفكر به، فكيف تكون الحالة؟ هو خلقها هذا شيء خلقه، ولكن جل في علاه ميز هذا الخلق برأه وأخلصه من غيره، أخلص الذي يرى به بغير الذي يسمع به بغير الذي يشم به بغير الذي يأكل به، ميز كل شيء، وميز الذكر والأنثى وميز الدواب عن النبات وميز الحيوان عن الثمار، وميز جل في علاه كل شيء.

وبعد ذلك أعطى هذا الخلق جمالًا عظيمًا لو تأملته لرأيت فيه منتهى الجمال، انظروا إلى تشكلات السحاب كيف صورها الله، لا تنظر فقط إلى صورتك أنت، مع أنها أجمل الصور ليس هناك في الوجود أبدع من صورة الإنسان لا يوجد، لا من سماوات ولا من أرض ولا من ... لا يوجد.

الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)﴾ [التين: ٤]، تقويم يعني هي مأخوذة من القوام ومأخوذة من القيمة، يعني ممكن هذا وهذا، فمن القوامة والاستواء والتمام، قوة تمام القوة التي يحتاجها، وقِوامها أي تمامها، ففيها القوة وفيها القيمة، فقد يكون الشيء قويًا ولا قيمة له وقد يكون له قيمة وهو ناعم لا قوة له، فالله خلقه قويًا قائمًا، قويًا تامًا، فانظر إلى هذه الصور التي الله عز وجل خلقها، أنت لما تأتي إلى بعض الحيوانات وترى هذه الصورة كيف خلق عليها؟ انظر إليها.

والوحدة الدالة على القدرة هذه دائمًا في الأشياء، ضربنا مثال في قضية الخلية الحيوانية وأنها شيءٌ واحد ولكنها هي شيءٌ واحد دالة على الوحدة ومتنوعة دالة على القدرة، وانظر هذه الصورة العجيبة كلنا إنسان، هذا البشر العجيب والاعداد لابد أن ترى فرقًا بين هذا وهذا، حتى في البويضة عندما تنقسم عند اللقاح فيخرج توأم متشابه تمامًا لكن لابد من وجود فارق، لابد في إصبعه في كذا تجد شيء يميزه.

يوجد اخ عنده بنتان من أعجب العجب في تشابههما، قال له كيف تفرق بينهما؟ قال: إذا فتحت فمها أعرف هذه من هي، فقد إذا فتحت فمها، واحد سألته كيف تعرف؟ قال لها أصبع عجيب أعوج قليل فانظر إلى إصبعها.. هذا التمايز ليس فقط الذي نراه عند البارئ ليس التمايز فقط في الصورة يعني في البارئ، هذا التميز الذي نراه في الأخلاق، يعني من أعجب ما يكون لا تجد رجلًا قد اجتمع كرجلٍ تام في أخلاقه، تقول نعم فلان يشبه فلانًا في الكرم، لكن لا يشبه في الشجاعة، يشبه فلان في الكرم لكن لا يشبهه في الصبر، يعني هذا الصبر مخلوق، الكرم خلق من خلق الله، الله يخلق الكرم.

تقول فلان يشبه فلان في كل شيء، لكنه لا يمشي مشيه، إذا مشى اختل، مع أنه واحد، هذا التنوع الإلهي هذا دال على أنه البارئ أخلصك على صفةٍ لا تجتمع أبدًا في غيرك، لا يوجد.. حتى هذا التوأم الذي تحدثنا عنه في تمام الصورة مع وجود خلافٍ يسير حتى فيما خلق الله فيه من الأخلاق يختلف تجد هذا تقول فلانة أنشط من فلانة.. فلان أنشط من فلان، إذا طلبت من هذا تجد روحه طويلة ويقهرك لما ينفذ المطالب، والثاني لا، ترميه مثل الكرة ترميه للحائط فيرتد إليك سريعًا.

فهذا الخلق العجيب الدال على قدرة الله، قدرة نحن نراها لا يوجدها شيء، جل في علاه، ولله المثل الأعلى، هذا الخلق ليس له «كتالوكات» تمشي عليه، أي إنسان مر في هذه الدنيا يشبه الآخر، يعني عندما يقولوا انظر فلان يشبه فلان نعم يشبهه، وهو يوجده الله على معنى من معاني الحكمة.

وهذا الاستواء والخلوص الذي تكلمنا عنه في قضية الباري، الله عز وجل ينقضه لحكمة أخرى، يعني تجد الإنسان يخرج من بطن أمه وربما بدون أرجل، فيوجده لحكمة عظيمة، يوجده لأن يصبر في نفسه، ويعطيه من القدرات العجيبة، تقول عجيب، تقول هذا يرسم في فمه، هذا ليدلك على أنه يمكن للمرء أن يستخدم فمه كما تستخدم أنت يديك، يقول لك هذا يكتب في فمه ويرسم في فمه، أنت بأيديك ما شاء الله عشر أصابع إذا مسكت القلم يتحرك لوحده لجهلك ولضعفك في الرسم، وهو يحرك الريشة والقلم في فمه أو في رجليه فيكتب في رجليه!

فالله يوجد هذا الخلق في الوجود لحكمة، لحكمة تراها أنت لتتعجب لتتفكر، من أجل بعد ذلك أن تقف عند قضية الذكر والفكر، وفي قول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وَاخْتِلَافِ، هذا الاختلاف موجود في الخلق في كل شيء الاختلاف في الخلق، أنا ما فسرت ما نشطت لتفسير سورة الشورى إلا لهذا المعنى، يتكلمون عن تنوع الشرائع كما يتكلمون عن تنوع الخلق وهذا كذب على الله، فالشرائع إما حق وإما باطل، ما فيها التنوع هذا غير موجود، فلا يوجد شرائع متنوعة.

فالآن فقط الإسلام هو الحق، الآن بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كل شيءٍ غير شريعته فهو باطل، وهذا لا يجوز أن يقال فيه تنوع أن الله نوع الشرائع، لا، لا يجوز، إنما نوعها ليبتلينا بعضنا بعض، قال جل في علاه: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، الله خلق الكافر ليبتلينا، لكن خلق الأشياء على معنى من أنواع التضاد والتنوع والاختلاف وو ... إلخ، وهذا لا يضر.

ولذلك الله عز وجل خلق هذا التنوع في العربي والعجمي ثم العربي قبائل والقبائل فخوذ، والفخوذ عشائر، والعشائر عائلات والعائلات أفراد ومتنوعون وهكذا، هذا كله خلقه لماذا؟ ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، ومن التعارف أن يعرف بعضنا لما يدخل فلان غير لما يدخل فلان آخر عليه، وهذا ابن فلان لئلا يتزوج من أخته، ليتزوج ابنة عمه وهذا أخ فلان من أجل أن يرث والده من أجل أن يرث أمه، وهكذا، وهذه قيمة تعارفية من الاختلاف الشيء العظيم، وأوجد هذه الصلات على هذا المعنى.. على هذا المعنى الذي هو قيمة فقط تعارفية.

ولكن قيم الحق والباطل لا علاقة لها إلا بالشريعة الواحدة، كيف تحب؟ كيف تبغض؟ فتحب في الله وتبغض في الله، توالي أو تقاتل، لا يجوز أن تكون على القيمة التعارفية، هذه قيمة تعارفية تلك قيمة ربانية

اختيارية لك، فأنت لا تختار والدك وأنت لا تختار شقيقتك، ولكن أنت تختار دينك، أنت تختار خُلقك، أنت لا تختار شكلك، لكن تختار مسلكك.

فلذلك الله سبحانه وتعالى من عظمته جل في علاه أنه نوع الخلق وهذا التنوع لا ينتهي، ومن أعجب ما يمكن لنا أن نعلم من هذا التنوع هو أن الناس كلهم يحشرون يوم القيامة، تصور منذ آدم إلى يومنا هذا كم حصل من التنوع في الخلق، نتكلم فقط عن الإنسان، يعني إلى الآن كما قلنا في شرح اسم الخالق والخلاق أن هناك من أنواع الفراشات إلى الآن لم تكتشف، فانظر إلى تنوعها، لكن من أعجب هو أن هذا الإنسان المتنوع غير متشابه على ما ذكرنا في هذه الدنيا يكون إنسانًا آخر يوم القيامة في الجنة والنار، على جسدٍ آخر وكل إنسان على صورةٍ أخرى، الوجه غير الوجه، هي لتنقلب الصور والأجساد تصبح طويلة والناس يختلفون والذي في الجنة والذي في النار وكلهم يعرف بعضهم بعضا.

وهناك من الأزواج والغلمان ما يعرفهم كما يعرف أبناؤه في الدنيا، يعرف أزواجه لا إله إلا الله، أزواجه من الحور العين، الغلمان الذين يخدمونه، وهو يعرفهم يميزهم، ليس شيئًا واحدًا، ليس كالكرات الحديدية لا تعرف هذه من هذه على شيء، لا، الغلمان الذين يدخلون عليك لهم أشكال مميزة هي تميز بعضهم عن بعض، انظر هذا الخلق أول شيء الخلق الدال على قدرةٍ غير متناهية وجمالٌ لا تعرفه ونهاية خيرٍ لا يمكن تصورها، **(ما لا يخطر على بال بشر)**، أي لو أن جلسنا لنتخيل الجمال والذوق في الأطعمة، في المذاقات، في النساء في الحور العين، في الصداقات، في الأخلاق لا نتصورها، في البنيان، في الأنهار التي تجري من تحتها الأنهار.

هذا الخلق العجيب والذي ميزه انظر حتى ميز الدنيا عن الآخرة وميز ما في الدنيا على بعضها البعض من خلق الجبال خلق السماوات إذا نظرت هذا الجبل ونظرت هذه السماء ونظرت هذا السحاب وإذا نظرت هذا المطر وإذا نظرت هذا النبت وهذا النبت يختلف تقول هذا جرجير لكن هذا فول وهكذا، وهذه الثمار العجيبة المتنوعة.

مرات أنت تنظر إلى الأشياء تقول واحدة، يقول: لا، ليست واحدة أنت مسكين، هذه مختلفة، مثلًا: أنا إلى الآن لا أعرف الفرق بين فاكهة «الكرمنتينة» و«اليوسف أفندي» و«المندلينة»، لا أعرف الفرق بينها، كلها على شكل واحد، كما الأطعمة عند الناس كثيرة ومتنوعة لا تميز بينهم وهم من مكونات واحدة.

فهذا التنوع في الخلق دال على قدرة الله وعلى عظمته جل في علاه وعلى أن حقه عليك أن تعبده وأن الواجب عليك أن تعبده وأن تُذل له وأن تعظمه فوق كل عظيم، وأن كل عظيم ما أعطية شيئًا من العظمة إلا بإذنه، الله سبحانه وتعالى هو الذي أعطاه، هو يعطيهم وهو يسلبهم إياه، وما رأينا أحدًا عظيمًا إلا وأرانا الله فيه ضعفه، انظر كيف تنتهي أشكالهم تتعجب!! ترى الأشكال في لحظة الشباب.

أحد المشايخ الأحبة ذكرت أنا وهو عن رجل قال: كنت لما أراه لقوته ولصلابة جسمه وعضلاته أقول كيف سيموت هذا؟ كيف يموت!! هل رأيت كيف تتحول أجسادهم إذا جاءهم فقط فيروس صغير لا يرى؟ فالله لا يضربه بإلقاء عليه سهم من السماء، جل في علاه، هو العظيم، يلقي عليه فيروس صغير هكذا يبدأ، فكأنه لا شيء، كأنه أمس الذاهب كما يقولون ويتحول، ترى كيف هذه الأشكال العجيبة تتحول هذه المرأة الجميلة كيف تتحول؟ تقرف منها، كيف تصبح الاشياء الكبيرة وكيف تنتهي؟ هذه الامبراطوريات الكبرى كيف تنتهي؟ هذا الإسكندر المقدوني خرج من اليونان حتى وصل الصين، أين هو الآن؟ أين جنوده؟ تحت الأرض، ثم تذهب فلا تجد لهم أثرًا قد بادت أجسادهم وعظامهم نخرت، ولم يبق إلا الله جل في علاه هو الباقي هو القوي.

ولذلك يوم القيامة ينادي: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، أين هؤلاء الملوك؟ أين الطواغيت؟ أين أصحاب الأموال؟ فالله هو الخالق، هو البارئ جل في علاه، هو المصور، فحظ العبد في التفكر في هذه الصفات هو أن يعبده أن يخضع لشرعه إذا أمره أن يطيع وإذا خوفه أن يخاف وإذا أمله أن يرجو، فهذا حظ العبد مع هذه الصفات؛ أن يعيش معها وأن يأتي إلى هذه الآيات التي تقدمت ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾ [آل عمران: ١٩٠]، الدال على أنه كل شيء آية لنا، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذه الأرض التي نحن فيها والسماوات في علو ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

كانت تقول أم الدرداء: «إن أعظم عبادة لأبي الدرداء هو التفكر».. التفكر كما أنك تتفكر في القرآن فتستخرج درره وتعيش معه ليلك فتستخرج منه حكمه وعطايا الله عز وجل لك، كذلك تنظر إلى هذا الكون فتؤمن بأنك ستنتهي، عندما ترى الغني صار فقيرًا تقول: سبحان الله، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠)﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ماذا تصنع هذه الآيات في نفسه الناظر والعامل بها؟ ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، ما هو الباطل؟ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا

﴿بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧]، الباطل: هو الذي لا قيمة له أو الذي ينتهي على غير معنى، فما هو المعنى الذي ينتهي إليه؟ هو القيامة هو الآخرة.

قيمة الأشياء في كونها ماذا؟ مآل باطل يعني لا قيمة لها لا أهمية لها، هي قامت جميلة آمنا لكن لمعنى أنها سبيل لتسبيح ربنا المؤدي إلى الآخرة، لتعظيم ربنا الذي هو الآخرة، هذه قيمتها، قيمة الأشياء لا فقط أن تستخدمها من أجل أن تخدمك في بدنك، وفي راحتك، قيمة هذا البيت ليس فقط في أن يخدمك، قيمة هذا البيت أن تحمد الله، التفسير تفسير هذا الوجود يجب ألا ينظر إليه خدمةً للإنسان، هذه شرحتها الدرس الفائت في جواب على قضية السؤال الذي توجه، أن هذه الأنواع التي نراها الرياح وكذا، هل هي عذابًا لكذا؟

أهم قضية إن فاتتنا فاتنا الوجود كله لم نفهم شيئًا، فاتنا الوجود كله، وهي: أن كل شيء يجب أن تفهمه أنه من أجل عبادتك لله كل شيء، التفسير الباطل الذي يقولنا أن كل شيء من أجل خدمتك على معنى الدنيا، يعني عندما يأتي الشيوخ ويقولوا نعم كل شيء سخر لنا خدمةً لنا، لكن هذا تفسير قاصر يجب أن لا يوقف عنده، يجب أن لا تقف عنده، أعظم من ذلك أن كل شيء قد أعطيته من أجل هذه الكلمات الأربع، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، كل شيء تراه يجب عليك حين تنظر إليه وتتعامل معه أن تأتي بهذه الكلمات الأربعة.

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، ﴿رَبَّنَا﴾ هكذا صرخوا بعد أن رأوا فتأملوا بسبب عقولهم النيرة المهتدية المؤمنة وألسنتهم الذاكرة هذا هو الذي سموه التفكر الذكر والفكر هذا اسمه الذكر والفكر، لابد هذا يشتغل وهذا يشتغل، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾، بماذا صرخوا؟ ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ [آل عمران: ١٩١]، انظر إلى مسيرة التعبد، انظر إلى خاتمتها وانظر إلى مآلاتها، هذا هو الدين.

انظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذي يعرف قيمة الأشياء ويميز قال: **(لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خيرٌ من الدنيا وما فيها)**، يعني ولله المثل الأعلى لما يدخل شاعر مسكين سهران له شهر شهرين وهو ينحت في قصيدة أو ليلتين أو ثلاثة ينحت قصيدة فيأتي على باب الملك ويلقي هذه القصيدة، الملك يعطيه يفتح له إذا كانت القصيدة كبيرة.

فلما جلس بشار بن برد أبو معاذ وكان ضريرًا ضخم شكله قبيح كان دميم، اتهموه بالزندقة وكذا وأنا أشكك بهذا، فألقى أحدهم قصيدة للخليفة:

وَلَو رامَها أَحَـــــــــــــــــــــدٌ غَيرُهُ   لَـزُلـزِلَـــــــــــــــــــتِ الأَرضُ زِلـزالَهـا

فبشار فاهم الكلام ماذا يصنع؟ انتبه إلى الكلام ماذا يصنع من الفرح في نفس الممدوح، المدح ماذا يصنع؟ فمال على الرجل الذي بجانبه وقال له: أطار الخليفة عن فراشه، هذا كلام رجل يفهم ذوق الكلام، هؤلاء كبار حتى الجاهليين يعرفون ماذا يصنع الكلام في نفس الممدوح.

نحن اليوم كل شعرك لا يساوي عندي قرش، كل هذه الكتب أعطيني خمس ليرات أبيعهم، بقرة، أعطيه سندويشة لهذا الإنسان فقط أعطيه قطعة كاتو لا يوجد لديه مشكلة فقط أعطيه يلبس وأعطيه حذاء وجرابين باسم معين وأطلقه مثل الدابة، يعني لا شعر ولا أدب ولا كلام، لا يعرف قيمة الكلام.

علماؤنا بذلوا أموالهم وأوقاتهم من أجل الكلام، لكنه كلام النبي صلى الله عليه وسلم، لكنه كلام، من أجل أن تعرف قيمة الكلام، فلما مدح هذا الشاعر الخليفة هو يعرف هذا الكلام كيف يفعل فعله من السحر في نفس سامعه إذا مدح فقال أطار الخليفة عن فراشه؟!! هذا فعل البشر فأنت تخيل في ذهنك لما تقول لربك سبحان الله، لما يطعمك، كن فيكون، ليكن مثل هذا الكون كله طعامًا، ما قيمته؟

ولذلك أنت لما تطعم فتعطى فتقول الحمد لله، أنا أعرف موازيننا، الحمد لله وخمسة عشر طن ذهب، لن نكون عبادًا لله حتى ننظر إلى الأمور بنظر نور الله لها، بنظر أمر الله لها، لا نصل إلى العبودية، فهذه كلمة من النبي صلى الله عليه وسلم. **(سبحان الله أحب إلّي من الدنيا وما فيها)**.

لو خيرت بين ألف طن من الذهب وأن تقول سبحان الله، هذا مقدار العبودية لله عز وجل لماذا؟ لان كلمة سبحان الله –هذا الذهب لذاتك– وسبحان الله لربك، والحمد لله لربك، انظر الله ماذا يريد؟ ما قيمة الأشياء؟ ولا شيء، كوني فكوني اذهبي فاذهبي، لكن تبقى الكلمة، ولذلك سميت الباقيات، فكل هذا يذهب لا يأتي في الميزان، تأتي كلمة سبحان الله في الميزان، قال صلى الله عليه وسلم: **(كَلِمَتانِ خَفِيفَتانِ علَى اللِّسانِ، ثَقِيلَتانِ في المِيزانِ، حَبِيبَتانِ إلى الرَّحْمَنِ: سُبْحانَ اللَّهِ العَظِيمِ، سُبْحانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ)**، لماذا ثقيلتان في الميزان؟

كان من توفيق الله للإمام البخاري أن هذا الحديث هو آخر حديث ختم به كتابه، من توفيق الله له، أنا لما انظر فيه أعجب وأقول هذا لا يكون إلا على يد رجل متبع للنبي له كرامة لا يعلمها إلا الله، وأنا عندي ظن أن هذا توفيق ليس بإرادته، أن يبتدأ حديثه بباب بدء الوحي، وينتهي –هذا توفيق إلهي– بهذا الحديث **(كَلِمَتانِ خَفِيفَتانِ علَى اللِّسانِ، ثَقِيلَتانِ في المِيزانِ، حَبِيبَتانِ إلى الرَّحْمَنِ: سُبْحانَ اللَّهِ العَظِيمِ، سُبْحانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ)**، لأن كل شيءٍ دالٌ على عظمته، وكل شيءٍ من أجلك أنت لتحمده، فكل شيءٍ

في الوجود موجود في ميزان، موجود في كفة هنا، وكل شيء بالنسبة إليه دالٌ على عظمته، وبالنسبة إليك موجبٌ لشكره، سبب للشكر، **(فسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)**.

فهذه الكلمة ثقيلتان في الميزان تعادل كل ما خلق الله، هذه سبحان الله وبحمده سبحان الله ثقيلتان في الميزان، كل ما في الوجود فقط سبحان الله وبحمده سبحان الله، وقال أهم من ذلك كله وهذا هو نظر العبد وهذا ينبغي أن تنتبه له وأنت تسجد، أنت تأمل وأنت تقول سبحان الله تأمل أنك تفرح الله، الله يفرح الآن.

فبعض الناس يفعل أفعال عظيمة فقط ليفرح غيره، يعني الرجل يشتغل مسكين سبع أيام من أجل بعضهم، من أجل أن يشتري هدية لزوجته لتفرح، ينظر هكذا، هذه لحظة الفرح تساوي الدنيا وما فيها، لماذا تذهب على ابنك فتشتري له هدية؟ لترى الفرحة في نفس هذه اللحظة بعدها يأخذها ويكسرها وكذا لا يوجد مشكلة، لكن أنت تريد أن ترى تلك الفرحة في عينيه، فأنت تبذل المال والجهد والرهق من أجل أن تفرح حبيبك.

فالأهم وأنت ساجد تقول سبحان ربي الأعلى لا تنظر إلى أنك أخذت حسنة، هذا شيء مهم، ولا تنظر أنك أطعت الله فقط في أنك استجبت لأمره، هذا مهم، لكن تأمل أن الله ينظر إليك ويفرح، الله يفرح، **(حبيبتان إلى الرحمن)** هذا هو المهم، فسبحان جل في علاه سبحانه الخالق البارئ المصور فكل هذا دالٌ على قدرته في تسبيحه، دالٌ على قدرته في أنه الله أكبر، دالٌ على كمال ما أعطى فموجبٌ للشكر.

وليس هناك خالق غيره وليس هناك مصور سواه خرجت من بطن أمك، من الذي شكلك وأنت في بطن أمك؟ في هذا التشكيل الجميل؟ فهذا موجبٌ لحمده، فهذه الصفات موجبةٌ وهي السبب لأن تسبحه وأن تكبره وأن تحمده وأن تؤلهه، اللهم أرحمنا برحمتك جزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

السائل: لن نكون عبادًا لله حتى نرى الحياة بنور الله؟

الشيخ: لن نكون حتى نرى الأشياء كلها برؤية الله لها بنور الله لها، كيف هي في نفس ربنا؟ يجب أن تكون في نفوسنا، يعني الله أخبرنا كيف علينا أن ننظر إلى هذه الحياة؟ علمنا، كيف هذا المعنى؟ يعني الله أمرنا أن نحتقر الدنيا وأن نحب الأخرة، لأن هذا الأمر كذلك في نفس الله، في نفس الله أن هذه الدنيا ملعونة، قال صلى الله عليه وسلم: **(الدنيا مَلْعُونَةٌ، مَلعونٌ ما فيها، إلَّا ذِكْرَ اللهِ وما والاهُ، أوْ عَالِمًا أوْ مُتَعَلِّمًا)**.

الله أمرنا أن نعظم ما يعظم وأن نبغض ما يبغض، أمرنا جل في علاه أن تكون الأمور في نفوسنا كما هي في نفسه جل في علاه، وأن نقول فيها كما يقول وأن نعتقد فيها كما أمرنا جل في علاه، بارك الله فيكم جزاكم الله خيرا. الحمد لله رب العالمين.

السائل: شيخنا إذا الإنسان رأى شيءً من بديع خلق الله السماوات والغيوم والأراض، وقال: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

الشيخ: هذا هو القرآن، كانت تقول عائشة رضي الله عنها: **(يقول سبحان ربي العظيم سبحان ربي الأعلى، قالت: يتأول القرآن)**، يتأول القرآن: أي يمتثل أمره، فهذا هو امتثال لأمر ربنا، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١] هذا أعظم، هو يذكر ويقرأ القرآن ويأتي المعاني ويعتقد وهكذا.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع عشر: الملك، مالك الملك

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلا وسهلًا بالأخوة الأحبة مع شرح اسمٍ جليل من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الحسنى، وهو اسمه جل في علاه الملك، ومالك الملك والمليك، وكلها دالة على معنى واحد أنه سبحانه وتعالى خلق الخلق وبراه على ما تقدم من المعنى وصور كل شيء على صورته التي أحسنها، فهو بعد أن خلق جل في علاه، ملك؛ لأن المرء قد يكون غيره جل في علاه غير الله عز وجل قد يملك، ولكن يذهب ملكه، وقد يتعب في تحصيل الشيء فإذا ملكه أخذه غيره وقهره.

ولكن من أسماء ربنا سبحانه وتعالى أنه الملك، وأصل كلمة الملك هي الشدة والقوة والربط، حتى أن الفلاحين إلى الآن ماذا يسموا الزواج؟ ملك، يقول: ملكت البنت، إلى الآن ما زال الناس يستخدمون ذلك لأنه إذا الرجل أخذ المرأة تزوجها فشد الشارع بينهما برباط العقد سمي تمليكًا، لا يكون الشيء مملوكًا ولا يكون الشيء مالكًا للمملوك إلا إذا كان بينهما رباط من القوة والشدة التي تمنع نزع غيره منه، المرأة لا تنزع منه وهذه المرأة لا يأخذها غيره، فلذلك كان هذا الوصف الذي يستخدمه الناس وهذه من الكلمات العامية الجميلة التي لها أصول عربية رائعة تدل على ذوق العامي لمعاني الكلمات.

فالكثير من الكلمات العامية، أنت فكرت فيها إذا كانت أصولها عربية ولم تدخل من اللغات الأجنبية، بسبب الاستعمار أو بسبب التجاور كما هناك لغات وألفاظ مأخوذة من الأتراك مثلًا أو مأخوذة من بعض البلاد الإنجليزي إذا استعمروا، والألمان ولكن إذا كانت الكلمة عربية فهذه لها أصول من العربية من المعاني، ومعاني جميلة جدًا.

فالله سبحانه وتعالى له صفة الملك، فهذه الصفة دالة أولًا على أنه سبحانه وتعالى لا يستطيع أحد أن ينازعه في يده، لا يستطيع أحد أن يأخذ منه ما بيده وما خلقه، فكل شيءٍ بيده، وكل شيءٍ خاضع إلى ملكه، فإذا لا يُنازع أولًا، لا أحد يستطيع أن ينازعه، كما ينازع الملوك، وكما ينازع أصحاب الملك الذين لهم ملك قد ينازعوا فيأخذونه منهم.

ولذلك ربنا سبحانه وتعالى لا يؤخذ منه إلا برضاه، ولا يعطي إلا برضاه، وإذا قال سبحانه وتعالى ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ [آل عمران: ٢٦] ، الله هو الذي يعطي والله هو الذي يمنع، الله هو الذي يعطي الغني، الله الذي يمنع الفقير، وليس هناك أحد يشفع عنده إلا بإذنه، لا يستطيع أحد أن يجرؤ أن يتكلم كلمة تنفذ في ملك الله، أو أن يقضي بقضاءٍ ينفذ ملك الله إلا بإذنه جل في علاه، بل لا يستطيع أحد أن يتكلم كلمة في هذا الوجود إلا بإذنه سبحانه وتعالى.

فأولًا: أنه سبحانه وتعالى بيده كل شيء، ولا ينازعه شيء، وتجري أقداره -لأنه الملك- وتجري أقداره على كل شيء، وهذا الملك الذي في الوجود هذا تنوع الخلق من النجوم في سريانها والشمس والقمر والأرض، هذه تجري كلها في ملك الله عز وجل، وهو متحكم بها، وقضاءه نافذٌ فيها، قضاؤه القدري نافذٌ فيها، وقضاءه الشرعي الذي يجب أن ينفذه العباد بها، الله عز وجل لأنه هو بيده كل شيء.

والإنسان إذا ملك ملكه ناقص، أولًا الله الملك، فدال على أن ملكه كل شيء هو خاضعٌ له، وقد يكون هناك ملك، ولكن لا يملك كل شيء، ولكن ربنا سبحانه وتعالى هو مالكٌ لكل شيء، ما من شيء في الوجود من الذرة إلى العرش إلا خاضع له سبحانه وتعالى، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾ [التغابن: ١]، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾ [المؤمنون: ١١٦].

فانظر الله الملك سبحانه وتعالى، لأنه الملك فعلمنا أنه يجب أن يطاع، وذكر سبحانه وتعالى أجل ما في ملكه وهو العرش، أعظم ما خلق الله سبحانه وتعالى هو العرش، فإذا كان أعظم ما في ملكه وأجل ما في ملكه من المخلوقات من جهة كونه سبحانه وتعالى هو الذي استوى عليه العرش فدل على أن ما دونه كذلك خاضع له، إذن أولًا هو مالك كل شيء، فرق بين أن يملك العبد وملك العبد زائل، وأما ملك الله عز وجل فدائم، وملك العبد قاصر وملك الله سبحانه وتعالى تام وكامل.

ثانيًا: ثم سبحانه وتعالى يتجلى أعظم ما في الملك يتجلى عندما يفرغ الناس ويخضعون لأمره خضوعًا ظاهرًا لا يستطيعون منازعته ولا يستطيعون رد هذا الحكم، المشكلة في العبيد أنهم يرون تنازع الناس في الأشياء في المخلوقات، يرون هذا التنازع هذا يأخذ، وهذا يأخذ، وهذا يأخذ، فتغيب عن أذهانهم يد الله عز وجل الحاكمة لهذا الملك، تغيب عن أذهانهم.

لكن يوم القيامة أختص الله عز وجل بهذا المشهد بأن يشهد الناس أنه لا ملك إلا له، وذلك في الحديث: **(يطوي الله عز وجل السماوات بيمينه ثم ينادي، أنا الملك، أين الجبارون؟ أنا الملك أين المتكبرون؟)**.

انظر إلى هاتين الصفتين الجبارون والمتكبرون، الجبارون هي صفة فعل خارجي، يعني تظهر أثارها في الآخر، جبار يظلم يتصرف، ولكن المتكبرون هي صفة نفسية داخلية، وهاتان أعظم ما ينازع فيهما الرب سبحانه وتعالى من قبل من ظن في نفسه الملك، ومن ظن في نفسه أنه مالك، لماذا يتجبر المتجبرون؟ لأنهم يملكون القوة تنفذ إرادتهم في الناس فلا يرون أن إرادتهم ترد، أوامرهم تطلق، فلا يظن أحد أن إرادتهم يمكن أن تتوقف، ولذلك هذه تعطيهم صفة الظلم والبغي، الجبارون من الجبر، والجبر هو القوة، الجبارون الذين لهم قوة على الخلق تنفذ أردتهم فيهم.

والمتكبرون هم الذين يعيشون وهم القوة في أنفسهم سواء كانت موجودة أو غير موجودة، ولكن يمكن أن يكون الفقير متكبرًا يمكن، ولذلك في الحديث: **(هو عائلٌ مستكبر)**، عائل هنا جاءت باسم الفاعل، وهي باسم المفعول، يعني هو معال من قبل غيره، ما معنى عائل: يعول غيره ويقوم بشأنه، يقوم بشأن غيره، ولكن هنا بمعنى هو الناس يقومون على شأنه يعطونه ويساعدونه وهو مستكبر.

فهاتان الصفتان لمن كان له يد من القدرة على الخلق يوم القيامة لا وجود لها، وهؤلاء المتكبرون لا مظاهر لكبرهم فهم خاضعون في الضعف، ولذلك ينادي الله عز وجل: **(أنا الملك، أين الجبارون؟ أنا الملك، أين المتكبرون؟)** فحينئذٍ لا أحد، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٤].

مالك وملك، ما الفرق بينهما؟ ومن هي الأشمل؟ نحن نقول فلان ملك، فهذا يعني أنه يملك، ولكن هل كل مالك يكون ملكًا؟ لا، ما الفرق بينهما، المالك الذي عنده الأشياء التي يملكها ولكن لا يشترط أن يكون ملك، ولذلك قال بعض أهل العلم: «أن ملك أبلغ من مالك»، قالوا: ملك أبلغ لأن الملك من يكون مالكًا وفيه صفة زائدة، أنه له الملك، والسلطان وتنفذ أرادته في الأشياء والبشر، بخلاف من كان مالكًا يعني ممكن واحد عنده مال لكن لا تنفذ أرادته في غيره من البشر، فالملك صفة مدحية.

قال الآخرون: لا، صحيح في البشر أن ملك أبلغ من مالك، في البشر من أكثر مدحًا ملك ولا مالك، ملك أكثر مدحًا، ولكن في حق الله عز وجل المالك أبلغ، لأنه مالك فمتضمن لصفة الملك، لأنه متفادة في حق الله عز وجل، فقالوا: «ملك هي أبلغ في صفة البشر في أطلاقها على وصف البشر من

مالك، وأما في حق الله فمالك أعظم وأجل»، وخاصةً هذا إذا أخذناها على قاعدة إذا زاد المبنى زاد المعنى، فمالك فيها زيادة المبنى فتدل على زيادة المعنى.

وهناك صفة ثالثة عليها، في قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر: ٥٥]، لماذا جاءت هنا على التصغير؟ والتصغير لا يدل على التحقير، قد يكون ولكن هذا ممتنع في حق الله عز وجل، ولكن هنا جاءت على صفة التحبب، قال سبحانه وتعالى ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾، فهي جاءت على صفة التحبب لماذا؟ لأن الحديث يوم القيامة يدور حول العطاء الإلهي لأهل الجنة فهي وصف لأهل الجنة، هو يملكهم فجاءت على معنى التحبب.

لماذا جاءت هنا؟ ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾، لماذا لم يقل ملكًا مقتدر أو مالك مقتدر؟ لأن المقام هو مقام تحبب، والمقام مقام رفق، والمقام مقام عطاء فلذلك جاءت على مليك والمليك تصغير يراد به هنا التحبب، ولا يراد به شيء آخر.

الله سبحانه وتعالى في القرآن جاء بصفة الملك لتدل على أمور لتدل على تصرفه وتدل على تألهه، أنه ملك سبحانه وتعالى تدل على أنه هو المتصرف، وأنه هو بيده كل شيء، لأنه لا يكون الملك على صفة الحسن، إلا إذا أجرى ما في يده على معنى الحكمة، الملك قد تطلق على معنى الذنب، ويكون فيها صفة الذنب، لكن إذا أطلقت هذا الملك الذي يملك كل شيء على صفة الحُسن لأن أسماء الله الحسنى، فإذا أطلق هذا الاسم على معنى الحُسن، فلا يمكن أن يتصرف في ملكه إلا على معنى الحكمة، أن يتصرف به حكيمًا، أن يتصرف به عادلًا، أن تجري هذه الإرادة الإلهية في الأشياء على معنى ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود: ٥٦].

ولذلك أنه سبحانه وتعالى الملك هكذا الملك بكل استغراق معناها وبكل شمول ما فيها من معنى، هذه تدل على أن الله عز وجل حكيم في ملكه، حكيم فإذن:

أولًا: دالة هذه على قدرته، لأنه لا ينازع، دالة على القدرة، ودالة على الحكمة، ودالة على اتساع الأمر وعلى العظمة.

ثانيًا: دالة على ما قلنا، وهو أهم من الحكمة، وهذه الصفة بهذا المعنى توجب على العبد أن يعبده، توجب على العبد أن يخضع له، توجب على العبد ألا يسأل إلا إياه.

الآن إذا علمنا أن كل شيء هو بيد الله هل تسأل غيره؟ هل تعبد غيره؟ فإذا احتجت إلى شيء من تسأل؟ ولذلك في الحديث: **(إذا سألت فاسأل الله)**، لو سأل أحد لماذا أنا أسأل الله لماذا؟ لأن كل شيء بيده، فلو أراد رجل زوجة من الذي يجعل هذه الزوجة تكون زوجة له؟ من الذي يجعل هذا المال الذي بيد الآخر مالًا لك.

ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦)﴾ [الزمر: ٦]، كيف رتب سبحانه وتعالى هاتين النهايتين على أي قضية؟ إذًا فإذا كان ﴿لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، فرتب عليها المقدمة الأولى، وهو إلا يعبد إلا الله، لكن على أي مقدمة، على مقدمة أن له الملك، ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، جاءت صفة الرب، وتقدم الكلام على أن صفة الرب يعني المربي، صفة الرب من المربي، وهي صفة ذات الله سبحانه وتعالى.

ف ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾، فرتب عليها، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾، أين تذهبون؟ انظر ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ كيف وقعت بين هذين الحدين، وهو أنه له الملك، فإذا كان له الملك وأنت مملوك له، فأين ستذهب؟ وقال تعالى: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ الصرف ما هو؟ التبديل، مثال: يقول لك: اصرف لي مال يعني بدل لي اصرف هذا المال بدل من شيء إلى شيء، فأين تذهبون؟ أين تفرون من ملك الله؟

ولذلك كان من موعظة عبد الله بن مبارك لرجل: «إذا أردت أن تعصي الله فأخرج من مُلكه»، ليس من الحياء هو أن تكون في ملكه وتعصيه، ليس من الحياء أن تأكل ما يعطيك وأنت محتاج إليه وتعصيه، فقال سبحانه: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦)﴾ [الزمر: ٦]، أين ستذهبون.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾ [المؤمنون: ١١٦]، انظر لا إله إلا هو رتب تألهه؛ فتعالى الله الملك الحق، هنا الحق تدل على الثبات، لأن الحق لا يمكن أن ينقلب إلى باطل، الحق في ذاته هو حق، ولا يكون الشيء حقًا إلا له وجود، الخيال ليس حقًا، الخيال وأسطورة الذهن ليست حقً فأول صفة للحق ماذا؟ أن له وجود، فتعالى الله الملك الحق، فإذًا الحق هنا تدل على ثبات الملك وعدم تغيره، وعدم نقصانه، هل تظن أنه إذا خلق الله شيئًا زاد شيء في ملكه، يعني هل انتقال الشيء من صورة العدم من حالة العدم إلى حالة الوجود والثبات، هل هذا يعني أنه قد تغير في ملكه شيء؟ لا، يعني هل الله له الملك، ثبتت له صفة الملك بعد أن خلق فصار هناك مملوك فصار ملكًا؟ لا.

فإذن سبحانه وتعالى لا يزيد ملكه شيء بأن خلق، ولا ينقص من ملكه شيئًا ذهب، لأنه لو تأثرت هذه الصفة لكانت مكتسبة حتى في بعض أجزائها في أصلها هي لله، وليس كذلك في معانيها الزائدة لا تزيد، فالله عز وجل مالك الأشياء وقت عدمها، ومالك الأشياء وقتها فنائها، ووقت وجودها، فلا يزد في ملكه بوجود الشيء. وذلك في الحديث قال: **(لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته، ما نقص ذلك في ملكي شيئًا)**، سألوا فأعطاهم.

فالآن السؤال أليس هناك في عطايا هؤلاء السائلين، **(فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته)**، تصور ماذا سيتخيل الناس في مسائلهم ربما أحد يسأل مقدار الأرض ذهبًا، طيب هذه الأشياء تنتقل، يقول أنا أريد ملء هذه الأرض ذهبًا، هو أين هذا الذهب لا وجود لهذا الذهب الآن، فإذا أعطاه خرج من عالم العدم إلى عالم الوجود، هو في الحقيقة في تصور الناس ينبغي أن يكون زيادة في ملك الله لأنه ما زال حتى وهو في يد العبد هو في مُلك الله.

من هنا سنتكلم أن ملك العبد ناقص، وأن هذا الملك الذي هو في ظنك لك هو في ملك الله، الله يتصرف فيه لو شاء نزعه منك، وأنت تتصرف فيه بإذنه، فالأشياء عندما خلقها الله استجابةً لدعوة الداعي، إنما هي خارجة من العدم إلى الوجود، بحسب هذا النظر القاصر زاد ملك الله ولم ينقص، بحسب هذا هو زاد في ملك الله، والحقيقة أنه لم يزد، كما أنه لم ينقص؛ فدل على أن عالم العدم هو عالمٌ من خزائن الله، والعدم بالنسبة للعبد هو من لا شيء، ما العدم بالنسبة إليك لا شيء لا تملك، لكن بالنسبة إلى الله هو من خزائنه فهو يخرج من خزائن العدم إلى خزائن الوجود فلا يزيد في ملكه شيئًا على هذا المعنى.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾، الحق هذه ينبغي أن تضعها على أنها تثبت هذا الملك ولا يتغير، الحق لا ينتقص، الحق لا يفنى، الحق لا يذوب، الحق لا يتغير، فيبقى كما هو، فدل على أن ملك الله عز وجل ثابت، وهذا الثابت هو الذي لا نهاية له.

فإذن الله عز وجل بصفة الملك هذا نثبت له ألهيته، ونثبت له تصرفه وإحاطته، ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾؟ إحاطته أينما ذهبت فأنت في مُلكه، أين ستخرج؟ فهو محيط جل في علاه، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾ [المؤمنون: ١١٦]، إذن دل على أن سلطانه عامٌ.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣)﴾ [فاطر: ١٣]، بعد أن ذكر الله عز وجل أنه الملك وأن كل شيء خاضعٌ له، فأوجبت هذه الصفة علينا ألا نسأل

إلا إياها، لأنك لو سألت غيره ربما بخل، ربما قصر، ربما نسي، ربما أعرض، ولكن لا تسأل إلا الله، مدام أنه سبحانه وتعالى له الملك، فلا تسأل إلا إياه، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾، لماذا لا نسألهم؟ ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾، لا يملكون شيئًا.

فأعلمنا أن الله عز وجل لما كانت له هذه الصفة، أعلمنا ألا نعبد إلا إياه، لا نؤله إلا هو، ومن تأليهنا له ألا نسأل إلا هو، ولذلك هكذا كان الأولياء، كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم إذا سقط سوط أحدهم وهو على دابته لا يسأل الناس، وبعضهم بايع النبي صلى الله عليه وسلم ألا يسأل أحدًا شيئًا، إما أن يقوم بنفسه مستعينًا بالله، حتى وهو يقول بنفسه هو يحتاج إلى الله ليقيم فيه القوة، أن يأتي بهذا الفعل، وإما أن يسأل الله عز وجل، حتى إن الملح كان يسألونه من الله سبحانه وتعالى.

وقال سبحانه وتعالى كما في المائدة: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: ٧٦]، مدام أنه لا يملك فلا يستحق أن تعبده، الذي يستحق العبادة هو من يملك جل في علاه، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦)﴾ [الإسراء: ٥٦]، لا يملكون، انظر هذا الملك ليس فقط للأشياء، الملك للإرادات، الملك للمعاني الذي يملك المعاني هو الله.

ولذلك من ملكه جل في علاه، أنه يملك العلم، فأنت حين تسأل الله العلم تسأله من ملكه، العلم من مملوكات الله سبحانه وتعالى، إذًا هذه المعاني عندما تكون في قلب العبد، عندما يأتي هذا المعنى في قلب العبد أنه سبحانه وتعالى مالك الملك، وأن كل شيءٍ بيده، وأن هذه الدنيا بما فيها هي خاضعة لحكمته، وخاضعة لأمره، وأنه هو الذي أوجدها، لا يستطيع أحد أن ينازعه في ذرة فيها.

والله كتب على نفسه أنه من زعم المنازعة له، أنه هذا ملكي، وليس هو ملك الله، أن يذله قبل وفاته، وأن يري فيما يوقع عليه من معاني عبرةً لبقية الخلق، وهذه تعلمنا كذلك أن نطيع الله فيما بين أيدينا، لا تظن الذي بيدك هذا يدوم الله عز وجل يدمره، كم من الملوك ذهبت؟! ذهب سلطانهم وذهب ما يملكون ذهبوا، الذي ملك الدنيا وما فيها، قارون ملك المال وأين ذهب؟ ذهبوا، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨)﴾ [الدخان: ٢٨]، ذهبت الأراضي ذهبت البلاد ذهبت المدن ذهبت الممالك.

فحين يتذكر العبد أن الله عز وجل بيده كل شيء، وأنه مالك الملك يخضع له، وحين يتذكر أن ما بيده هو ملك الله، لم يأت من أحد منه ليس بجهد، ماذا قال قارون؟ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، وظن أنه بالعلم يستطيع، لا تستطيع، لا ينازع الرب.

فالأشياء أيها الإخوة الأحبة أما أن تؤخذ بالقوة، يسطو عليها وبجبروته ينهبها ويأخذها منازعا أهلها، مذلًا لهم فيأخذها، هذه طريق للتملك، الطريق الثانية بيع والشراء، مقايضة تعطيه المال فيعطيك الشيء، وإما بالتذلل والاستكانة، وهي ضد الأولى، فكيف يؤخذ ما بيد الرب؟ هل يؤخذ بالقوة؟! هل يؤخذ بالمنازعة؟! هل الله عز وجل يريد منا أشياء يعني أن تعطي لله أشياء؟! بل نأخذها بالتذلل.

ولذلك أغنى الناس هم من كانوا مع الله، هذا المعنى في قضية الملك دار حوله الغزالي في شرحه لهذا الاسم، قال كلمة أنا أراها يعني جافة، قال: «وأعظم ملوك الدنيا من ملك الله»، هذه كلمة جافة، ليست جائزة أن يملك الله، لأن كلمة الملك قلنا فيها السلطان، فيها الشدة، فيها القوة على من يملكه، وهذه لا تجوز في حق الله، بهذا المعنى ولكن هو دار حولها، على أن أعظم ملوك الدنيا، من هم الملوك؟ الذين مع الله، يسألونه فيجيبهم، ويستغيثون به فيغيثهم.

وقد ذكروا قصةً عجيبة، يقال بأن ملكًا كانت عنده جارية محبوبة عن بقية الجواري، فعاتبنه بقية نسائه والجواري، أن هذه الزوجة يعني لماذا تخصها؟ فأراد أن يبين لهم قيمة هذه الجارية أو المرأة عن بقية الجواري والنساء، فأحضر في غرفة في داخل قصره وملأها بالجواهر، والدرر والذهب والرياش، ثم أدخل جواريه ونساؤه مع هذه المرأة وأدخلهن في الغرفة، قال: لتضع كل واحدة منها يدها على شيء من هذه الغرفة فهو لها، فهن نظرن وتسابقن إلى الأشياء هناك ذهب، هناك لباس هناك جواهر، وهناك سفط من الجواهر، هناك كذا، فكل واحدة قفزت إلى الشيء الذي تحبه ووضعت يدها عليه، إلا هذه الجارية بقيت واقفة، قال: لها خذي ما تريدين، فقالت: إذا وضعت يدي على شيء فتعطيني إياه؟ قال: نعم، هكذا وعدتك، فوضعت يدها على الملك، خلاص أخذت كل شيء.

هنا يأتي باب التوكل، لماذا قال صلى الله عليه وسلم: **(اللهم أجعل رزق آل محمد كفافا)**؟ الناس يظنون هنا يأتي الجهل العجيب، يظن أن الكفاف يعني القلة، هو مسكين ويقول أعطني مائة ألف لتكون بيدي فهو غني، هكذا خيال البشر، أنت يعطيك بطاقة لا قيمة لها هكذا، وفي البنك مفتوح لك تأخذ ما تشاء، لكن لا تأخذ إلا عندما تحتاج، ولا تأخذ إلا ما تحتاج، فمن الأغنى في واقع الأمر؟ الذي يملك بيده مائة ألف وهو يتصرف بها هذه ستذهب وتفنى وبعد أن تفنى، كم من الناس معهم مئات الملايين فنيت وذهبت وانتهت.

وكان أحد الأثرياء –رجل مشهور– كان يقول: والله لو ضربت النار في أموالنا ما انتهت، والله مات متسولًا، من أغنى هذا الرجل أم الذي عنده البطاقة ما معنى البطاقة؟ البطاقة بيد محمد صلى الله عليه

وسلم، البطاقة بيد أبي بكر، أعطني فيعطيه، فهو يملك، لأن خزائنه بيد الله، ملكه بيد الله، **(إذا سألت فسأل الله)**، يجيب أو لا يجيب، يعطي أو لا يعطي، فمن الغني إذًا؟ الغني الذي بيده المال أم الغني الذي يتوكل على الله الذي بيده كل شيء، والذي يعتمد على الله عز وجل في سؤاله فيعطيه.

لكن المشكلة عندنا هذه لا يلتفت لها الناس، عندنا شك شئنا أم أبينا، عندنا شك أن هذا المال الذي بيد الله هو مالنا وهذا هو ضعف التوكل واليقين، كأن يذهب البنك يقول له: لا ما أريد هذا، أعطيني الآن أنت غدًا تغلق، غدًا تصبح فقير، أعطني الله يسعدك حملني المئة ألف ودعني أذهب بهم، يا رجل! خلي كل شيء، هذه نحن بطاقتنا مفتوحة وحسابنا قوي، ورصيدنا لا يتغير، الله يقول له لا تغير، كل شيء عندي، متى تريد أعطيك، متى تريد النصر أعطيك إياه، متى تريد الغنى أعطيك إياه، متى تريد الزوجة أعطيك، فما عليك إلا أن تسأل، بابي مفتوح، إذا أردت في الليل في الليل، إذا أردت في النهار في النهار، أينما شئت.

كانوا يسألون الله عز وجل عن الملح، الله عز وجل في خزائنه الملح وفي خزائنه الذهب وفي خزائنه كل شيء، فمن الغني في الحقيقة من الغني؟ الغني الذي له هذا الرصيد، أن تتصور أن هؤلاء الفقراء المساكين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الواحد منهم يسقط ما بين المنبر وما بين البيت، بيت النبي يسقط مرات من الجوع لا يجد شيئًا، ثم يصبح هذا الرجل أبو هريرة ملكًا، يصبح واليًا على المدينة، من الذي أعطاه؟ الله لماذا أعطي؟ لأنه توكل على الله.

أين ذهب كسرى هذا، أين مشى؟ أجهل الناس وأغبى الناس من يحارب رب العباد، الله –كما يقول الفلاحين عندنا– الله لا يرمي الناس بالحجار، يرمي الناس بالأقدار، فكسرى يمشي معه الجنود، احموني من قدر الله، ويمشي معه الذهب احموني من قدر الله، هو يريد كل هذا الذي ترونه هو حماية من قدر الله، الله لطيف انظر إلى هؤلاء كيف يمشي إليهم ويتسلل إليهم المرض، تأكل أجسادهم، كيف تصبح أشكالهم عند الموت، كيف يدخل المرض، هو كم جندي حواليه؟ كم آلة تصنت؟ كم آلة من الآلات تراقب؟ هو يريد كل هذا حمايةً له من قدر الله.

وأما الذي لا يخاف، فمثل عمر رضي الله عنه ومثل هؤلاء يمشي بين الناس يأكل بينهم، وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لأنه متوكل على الله، فكسرى لما هرب حمل معه الذهب، من الذي قتله؟ راعي، نزل عند راعي، والراعي وجد معه ذهب فقام قتله ذبحه وأخذ الذهب.

وقارون أين ذهب؟ الله عز وجل خسف به الأرض، **(فهو يتجلجل بها إلى يوم القيامة)**، إياك أن تكون تريد أن تجمع بين الظلمة والنور، ما هي الظلمة والنور؟ إياك أن تطمع أن تعطى فوق حاجتك، حينئذٍ تصبح قد أدخلت الظلمة، إياك تقول يعني أنا لا أريد ما بيد الله، فقط قليل من الرصيد يعني يكون بيدي، ولذلك قال صلى الله عليه سلم: **(اللهم أجعل قوت آل محمدٍ كفافا)** ما معنى كفافا؟ يعني كافي، ولكنه في النهاية لا ينقطع هذا هو تمام الملك.

فتمام ملكك أن تتوكل على من بيده ملك كل شيء، تمام ملكك أن تثق بأن دعائك يحقق لك ما تريد من الذي يملك كل شيء، فدل على أن كل شيءٍ في يد الله عز وجل مما تحتاجه وتريده في هذه الحياة الدنيا، هو من ملكك أنت ما دمت إنك تملك الوسيلة له، ما هي الوسيلة؟ التذلل، لا تنازعه لا تأخذ.

بعض الناس يقول: فلان أخذ بالمعصية، هذا رجل قاتل الناس وقتل الناس وأخذ الملك، هذا الرجل سطا على البيت فأخذ ملكه، هذه كلها لحظات تجري على معنى الابتلاء للخلق، ثم يصير الأمر ال العاقبة، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)﴾ [الأعراف: ١٢٨].

هذا الذي عندي في هذا الباب نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا اليقين على ما في يد الله، وأن يعلمنا أن نتعلم كيف نتحصل ما بيد الله عز وجل، فنتوكل عليه، وندرك حكمته في كل شيء، ونتيقن أن بيده كل شيء ولا ينازع في ملكه، وأن ما نراه من هذه ظواهر التملك بيد الناس هذه خادعة، ثم نتذكر أن هذه حقيرة، هذا الملك الذي ترونه في الدنيا حقير، قال صلى الله عليه وسلم: **(لَوْ كَانَتَ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْها شَرْبَةَ مَاءٍ)**، لا إله إلا الله.

أن تتصور أن أدنى أهل الجنة منزلة يعطى عشرة أضعاف، ويضاعف الله له وهذه عشر أضعاف لا تبلى، له عشر أضعاف في قضية كمية الحضور لكن لا تبلى، أما الدنيا، طيب لو أخدت أنت عشر أضعاف ملك هذه الدنيا منذ أن خلق الله الدنيا، إلى أن يفنيها، عشر أضعاف ولكن هذا الضعف ينتهي، وهذا الضعف ينتهي، وهذا الضعف ينتهي، إذا هناك في يوم سينتهي هذا الملك، هذا لا يحدث في الجنة، هو عشر أضعاف الكمية ولكنه لا يفنى ولا يبلى ولا ينتهي، فإذن هو فوق أمور الدنيا بكثير، لأن أمور الدنيا مهما كانت نهايتها إلى الانتهاء، لكن ما تعطى أنت من أضعاف الدنيا لا انتهاء له، إذن عشرة أضعاف الدنيا في الحقيقة من أجل أن نتخيل فقط أن نفهم، وإلا في هذا المعنى الذي ذكرته مما لا يخطر على قلب بشر.

يعني هذه عشر أضعاف فيها ما لا يخطر، لم تتكلم به البشر، ولم تخطر على بالهم، ولا تتصور أذهانهم إلى غير ذلك، حتى هذه العشر أضعاف، أنت تعرف ما معنى عشر أضعاف يعني؟! أنا متأكد بعض المساكين في هذه البلاد لو دخل بيوت الأثرياء لصدم، بيت ثري تدخل عليه أربع مئة متر مربع تقريبًا أو كذا إذا دخلته، أغمى عليك.

فعشر منذ أن خلق الله الدنيا، بأشجارها وأمطارها وأنهارها وذهبها ونسائها وملكها، ثم شرطه أن لا تبلى، وتتجدد وأظن شيئًا آخر، هناك النماء في الجنة، نماء، العطاء المتزايد، قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)﴾ [ق: ٣٥]، في هناك عطاء متزايد، يوم المزيد، فهناك مزيد، فيعني هذا الابتداء هذه الدفعة الأولى، والله عز وجل كريم كما في الحديث: **(والله أكثر)**، **(قالوا يا رسول: الله إذًا نكثر، قال: الله أكثر)**، سبحانه جل في علاه.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته وأن يغفر لنا تقصيرنا وذنوبنا وجهلنا، إخواني أكثروا في دعائكم قدموا بين يدي دعائكم اعترافكم بالضعف والجهل والذنب، قدموا بين أدعيتكم اللهم إني ضعيف وجاهلٌ ومسرفٌ على نفسي مذنب، فأغفر لي ضعفي وأغفر لي جهلي وأغفر لي إسرافي على نفسي وكل ذلك عندي، قدموا في أدعيتكم قدموا اعترافكم بهذا.

فنحن فقط كل ما نقوله في هذا ندور حول القضايا، أما أن نذوقها وأن نستشعر أننا أغنياء بطاعتنا لله، وأننا أغنياء بمعرفتنا واتخاذنا الوسيلة الصحيحة، في ملك ما نريد وهو الدعاء، أن يعطيك الله عز وجل ما تدعو، هذا من أجمل العطايا، كيف هذا؟ والله إن عِلمك بأن الله استجاب دعائك، أعظم في قلب العبد المؤمن فرحًا من فرحه بتحصيل الشيء، أي عندما يسأل العبد ربه، فيستجيب الله دعاءه ويعطيه يسأل الله الولد، فيعطيه، ما الأحب إليه؟ أن الله استجاب الدعاء، أم أنه أعطاه الولد؟ أن الله استجاب دعاؤه، أنه خاطب الله تكلم مع الله فقال: عبدي استجبت دعائك، ما الأجمل؟ هذه الحالة في قلب العبد المؤمن أم أن الشيء الذي أخذه؟ هذه الحالة أنك علمت أن الله عز وجل استجاب لك.

فدائمًا قدموا في أدعيتكم استغفاركم في تقصيركم في ضعفكم في جهلكم، في جهلنا في ضعفنا، اللهم لك الحمد كله ولك الشكر كله وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: أليس أعظم ما خلق الله العرش؟ في بعض العلماء تكلموا أنه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟

الشيخ: يعني هناك خلاف ما أعظم ما خلق الله عز وجل؟ أنا أتكلم من جهة المادة، وربما من جهة تصوير الإنسان أكثر ولكن الله جعل عرشه مكانًا لاستوائه جل في علاه، فلذلك هو أعظم المخلوقات، نقول هو أعظم المخلوقات، لذلك قال الله عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، فإذا كانت السماوات أعظم، فالعرش أعظم من الكرسي قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ما الأعظم؟ العرش أعظم من الكرسي، والكرسي هو موضع القدمين والعرش لا يقدره أحد.

الحديث النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(العرش لا يقدره أحد)**، ومعنى لا يقدره: يعني لا يتخيله لا يتصوره، ما في رقم في ذهنك يأتي به، ما في رقم في ذهنك في اتساعه وثقله وجماله، وجمال صورته وتدبير أمره، تدبيره، كيف يدبر هذا العرش؟ ربما تخلق الكبير فينفلت منك، ولكن كيف يدبر؟ أنوار العرش فيقول في الحديث: **(والعرش لا يقدره أحد)**، يقدره؛ تقدير، ليس بمعنى لا يقدر عليه أحد، هي القدرة حتى القدرة العلمية بمعناه، يأتي إلى القدرة والقدر من مادة واحدة.

فلا يقدره أحد لا يمكن أن يقدر على أن يتصور هذا السلطان أحد، وهو مخلوق، فكيفما بقي في ملكه من الخزائن التي لو أراد لخلق، هل يقدر ربنا أن يخلق فوق العرش ما هو أعظم منه جل في علاه؟ يقدر جل في علاه.

السائل: شيخنا في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ألا يدل على أن المالك أعظم من الملِك؟

الشيخ: قلنا الخلاف بين عقول قل اللهم مالك الملك، فهنا مالك على معنى هو الذي بيده الْمُلك هو الذي بيده الشيء، والملِك هي صفة مميزة وصفة اعتبار، وهي دالة على أنه يملك، وهكذا، وهكذا على القولين، والأمر بينهما يسير أن شاء الله.

السائل: شيخنا هل يجوز سؤال الله بضعف الإنسان، مثلًا اللهم أسألك بغناك وفقري؟

الشيخ: هذا أعظم ما يسأل به، هذا أن يسأل الله مُقدمًا ضعفه، أن يسأله بضعفه، اللهم أنت القوي وأنا الضعيف، وأنت الغني وأنا الفقير، هذا أعظم ما يُسأل به ربنا، وأعظم ما يسأل العبد به ربه أن يقدم بين يديه هذا التذلل، الله يحب هذا التذلل لله.

الله عز وجل متكبر، أعظم ما يحبه في الخلق أن يتذللوا، فما هو الدعاء!؟ ذلة وانكسار، انظر حاله حال الفقير ولذلك يقول الصوفية –وهذه أيدهم فيها ابن القيم–: أعظم صفة في العبد الفقر، يعني أعظم ما تتقرب به إلى الله عز وجل الفقر، اعترافك بالفقر، وفقرك لا يزول ولا ينقضي، فهل هناك فقر يزول وينتهي؟!

قال صلى الله عليه وسلم: **(لَوْ أنَّ لِابْنِ آدَمَ وادِيًا مِن ذَهَبٍ أحَبَّ أنْ يَكونَ له وادِيانِ، ولَنْ يَمْلَأَ فاهُ إلَّا التُّرابُ، ويَتُوبُ اللَّهُ علَى مَن تابَ)**، أنا لا تتكلم عن الفقر الظاهر، الفقر بالداخل، ففقر العبد في نفسه لا يزول، شعوره بالفخر لا يزول، وهو قد يملك المال لكن ليس عنده الصحة، عنده المال لا يستطيع أن يدبر الفقر، عنده المال ويخاف أن يذهب عنه، عنده المال ويريد فوقه، يعني مازال هو فقير، ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥)﴾ [عبس: ٥]، ما معنى الغنى؟ استغنى، يعني لا يريد خلص يكفي، هل العبد يمكن أن يقولها يومًا.

ماذا قال أيوب عليه السلام وهو نبي الله؟ فقصة أيوب عليه السلام قام يغتسل عريانا –هذه بوب عليها البخاري باب الاغتسال عريان– فقام أيوب عليه السلام يغتسل عريانا، فنزل عليه مطرٌ من جراد من ذهب –السماء تمطر ذهب يا جماعة– فقام يجمعه، ترك الغسل وجاب ثوبه صار يجمع الذهب، فناداه الله ألم أغنيك عن هذا؟ انظر الفقر ألم أغنيك عن هذا؟ قال ليس لي غنى عن رحمتك، انظر أيضًا هو كذلك عنده أدب مع الله، واعتذار جميل، يعني زيادة الخير خير يا رب، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالإنسان ضعيف، فقير، فأعظم الصفة نتقرب بها إلى الله اعترافنا بصفة الفقر، الله هو الغني جل في علاه.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس العشرون: القدوس

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغّر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

اليوم بعد أن تكلمنا في الدرس الفائت عن اسم الله عز وجل الملِك، الذي ناسب ما ذكر في سورة «الحشر» بعد صفة أنه الملِك سبحانه وتعالى وأن اسمه الملِك وله الْمُلك، فناسب أن نتكلم عن القدوس، أنه القدوس جل في علاه، وفي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده: **(سبوح قدوس رب الملائكة والروح)**، وقوله سبوح قدوس صلى الله عليه وسلم هو تأويل لما قالته الملائكة لما قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠].

فأعظم ما تفعله الملائكة وهم ليسوا أهل ذنب، يفعلون ما يؤمرون وليس فيهم إلا صفة التعظيم لله عز وجل، فأعظم ما تقوم به الملائكة هو هذا الذي ذكروه، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وفي التفسير معروف مع هذا المعنى، فالنبي صلى الله عليه وسلم يتأول هذه الآية فيقول: **(سبوح قدوس رب الملائكة والروح)**.

فما معنى هذه الصفة سبوح قدوس ما معنى القدوس؟ وكيف يجتمعان؟ ولماذا جاءت صفة القدوس بعد اسم الله الملك؟

أولًا: صفة القدوس جاءت في سورتين، في سورة «الحشر» في قوله تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وفي سورة «الجمعة» في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١)﴾ [الجمعة: ١]، مناسبة هذه لم ترد هذه الصفة إلا في هاتين السورتين فقط القدوس، وجاءت بعد الملك القدوس.

أولًا ورودها في هاتين السورتين لها علاقة بنسق هاتين السورتين، لأن هناك سور في القرآن تسمى الْمُسبحة، يعني تفتتح هذه السور بالتسبيح، أولها ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، وآخرها ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى: ١]، وبعض أهل العلم يقول وهي أجلها، ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى

(١)﴾ هي أجلها في الأمر، فجاءت ﴿سُبْحَانَ﴾ وهو مصدر ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، وهذه السورة بدأت بمصدر وختمت بمصدر، سورة «الإسراء» أو سورة «بني إسرائيل» افتتحت بالمصدر ﴿سُبْحَانَ﴾، هذا مصدر، وختمت بأمر.

وأول سورة من المسبحات بعد «الإسراء» هي سورة «الحديد» وهذه المسبحات بينها صلات، انتبه ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ حديثٌ فيها عن بني اسرائيل ولذلك سميت بسورة «بني إسرائيل»، ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤)﴾ [الإسراء: ٤].

ثم المسبحات كلها إلا سورة «التغابن» لم يذكر فيها أهل الكتاب، وإلا فكل المسبحات ذكر فيها أهل الكتاب، فـ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، هي سورة «بني إسرائيل» ثم ذكر أمر الحديد، ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وبعد ذلك انظر في هذه السورة فيها ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ [الحديد: ١]، فعل ماضي، ثم جاءت بالفعل المضارع ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة: ١]، في سورة «الجمعة»، أول سورة «الجمعة»، ﴿يُسَبِّحُ﴾، ثم سورة «التغابن» ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾.

فهذه المسبحات بينها صلة، من هذه الصلة المسبحات ﴿سُبْحَانَ﴾ لها علاقة بالتقديس، ولذلك وردت صفة القدوس في المسبحات وهذا جزءٌ من العلاقة، وإلا فالعلاقة كثيرة جدًا بين المسبحات، هذه علينا أن نعرفها وهي العلاقة بين السور مثل ﴿حم﴾، هذه بينها علاقة الحوام فيها علاقة، وكذلك المسبحات فيها علاقة، من هذه العلاقة هي ذكر قضية بني إسرائيل، من هذه العلاقة هو أنها سور التقديس، ولذلك جاءت صفة القدوس في المسبحات، لأن القدوس لها علاقة بالتسبيح والتنزيه والتقديس.

أما لماذا جاءت هذه الصفة مع الملك، بعد أن نشرح ما معنى القدوس، أخذت من القدس، ما هو القدس؟ أولًا البراءة من العيب، الطهور هو الطهر، ولذلك أهل الحجاز يسمون السطل أو الدلو بهذا المعنى، ذلك لأن الناس يتطهرون به، يتقدسون به، الدلو أهل الحجاز يسمونه بهذا المعنى وهو التقديس لماذا؟ لأن الدلو يؤخذ الماء فيتطهرون به، فسمي بهذا المعنى، فإذن هو البراءة من العيوب، وهذا يقتضي الطهرية.

والمعنى الثاني: من القدس وهو البركة، يقال أرض مقدسة يعني أرض مباركة، ومعنى البركة: كثرة الخير، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، أي كثر الخير في يده، عظم الخير في يده، تبارك أي كثر، تمجد تعظم، كثر الخير عنده سبحانه وتعالى، فإذن سبحانه وتعالى هو القدوس، بمعنى أنه لا يجوز أن ينسب له النقص، انظر لا يجوز أن ينسب له النقص، هذا معنى في ذاته لا ينسب له النقص، ولا في أفعاله ولا في

تشريعه، لا في صفاته ولا في فعله ولا في تشريعه لا ينسب له النقص، فهذا معناه كما نرى أن هذه الصفة تسلب عنه النقص، ولكن إذا جاءت بمعنى البركة تثبت له الخير، فهذه الصفة لها حدان: الحد: هو أننا لا نثبت له ننفي عنه جل في علاه كل ما يعتري الأذهان مما ينظر الناس فيه لبعضهم البعض أو لمخلوقاته، والحد الثاني: وبعد أن ننفي عنه النقص نثبت له الخير، هذا معنى قدوس في هذا.

فإذن قدوس هنا متضمنة للتسبيح، إذا انفردت كلمة قدوس صفة قدوس دلت على التسبيح، لأن التسبيح تنزيه وهو المعنى الأول، معنى التسبيح: تنزيه الله عز وجل، فإذا انفردت كلمة قدوس تضمنت التسبيح، وإذا انفردت كلمة تسبيح -سبوح- تضمنت التقديس، لكن إذا اجتمعتا دلت كلمة التسبيح في الأصل على التنزيه، وقدوس دلت على البركة.

ولذلك قال الحليمي عليه رحمة الله في كلامه عن الإيمان، أكثر عنه البيهقي في كتبه في شروح الحديث كان شافعيًا فقيهًا عالما عظيمًا، فيه بعض ما في منطقة وزمانه من التأويل، ولكنه إمامٌ عظيمٌ له كتاب في شعب الإيمان نسج عليه البيهقي كتابه شعب الإيمان، للبيهقي كتاب كبير في شعب الإيمان، **(الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة)**، فاجتهد أهل العلم في تجميعهم، ما هي هذه شعب الإيمان؟ فكتب فيها الحليمي كتابه مطبوع موجود، وهو في مكتبتي هنا، فنسج تلميذه أبو بكر البيهقي عليه رحمة الله نسج عليه ولكن على غير الطريقة، فالحليمي نسج عليها فقهًا وكلامًا منه، والبيهقي نسج على منوالها حديثًا ورواية، جمع الأحاديث التي فيها أن هذه الأعمال من الإيمان، وهو كتاب كبير مهم جدًا أختصره بعضهم القزويني في مختصر شعب الإيمان كالرسالة، لكنها في الحقيقة أنا أعتبر هذه الرسالة مع انتشارها لأنها مفسدة لكتاب، كأنها أغنت النظر عن الكتاب.

وما يهمنا هنا، ماذا قال الحليمي؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾ [الإخلاص: ١-٢]، هذه تقديس لأنها إثباتٌ للخير، إثباتٌ للصفة، فهذه تقديس، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣)﴾ [الإخلاص: ٣] هذه تسبيحة، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾ هذه تقديس لأن فيها إثبات صفات الكمال، نحن قلنا القدوس بمعنيين، المعنى الأول الطهارة وهي البراءة من العيب وكذلك البركة، على المعنى الثاني فإذا اجتمعت هذه الصفة قلنا على أنها دالة على البركة وإثبات الفضل وإثبات الصفة، تلك إثبات نفي السوء والشر عن الله، فإذن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾ هي تقديس، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣)﴾ هي تسبيح لله عز وجل، هذه الصفة العظيمة.

ولماذا اقترنت الآن بعد أن علمنا ما معنى قدوس؟ لماذا اقترنت بالملك القدوس لماذا؟ لم تأتي صفة القدوس في القرآن إلا باقترانها بصفة الملك لماذا؟ بسم الله عز وجل الملك، لأن الملك قد يعتريه النقص، وكل مُلك لا بد أن ينتهي، كل مُلك لا بد إلى زوال فيما نرى في المخلوقات، كل مُلك ينتهي إلى زوال، وهو فيه نقص، كل مُلك ينازعه مِلك آخر وهكذا، إذًا كل مُلكٍ فيه نقص.

فالله عز وجل برأ مُلكه من النقص بقوله: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾، فملكه تام وتقدس سبحانه وتعالى، فملكه تام جل في علاه لا يعتريه نقص، فاقترن الملك بالقدوس هذا معنى.

المعنى الثاني قد يكون الملك فيه ظلم وفيه تعسف، فالله عز وجل نزه ملكه عن هذا، نزه صفته الملك عن أن يعتريه ظلم أو أن يعتريه نقص جل في علاه، فقال تعالى: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾، وفي سورة «البقرة» قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، واختلفوا العلماء في قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وهم على قولين:

القول الأول: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي نقدس أنفسنا من أن يعتريها ظنونٌ فيك، وهذا معنى دار حوله الغزالي في المقصد الأسنى في كتابه عن الصفة دار على هذا المعنى ونسج عليه أننا نقدس يعني أنه يقدس، ليس هو فقط أنه قدوس ولا يعتريه النقص ولكن يقدس قلوب عبيده أوليائه من أن يقع فيها ما يغضبه، يعني الآن جئنا إلى أنه هو قدوسٌ بذاته وقدوسٌ في فعله في قلوب أوليائه هذا معنى.

القول الثاني: قال ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ على ما ذكرنا نسبح بحمدك، لماذا تأتي دائمًا سبحان الله وبحمده؟ أي سبحوه على ما يحمد عليه، لأنه ليس كل من سُبح محمودًا، وهذه كلمة لابن رجب عليه رحمة الله في تفسير سورة «العصر»، قال: «نسبح بحمد الله، لأنه ليس كل من سُبح محمودا»، وهذه استغلها أهل العلم فاحتجوا بها على أن الذين نفوا صفات الله عز وجل، أرادوا تسبيحه فلم يحمدوه.

نعيدها لا بأس الذين نفوا عن الله الصفات التي نسبها لنفسه، عندما قالوا: هذا ليس هو كلام الله، الله لا يتكلم، لأننا إذا أثبتنا صفة الكلام شبهناه بخلقه، لماذا فعلوا هذا؟ أرادوا أن ينزهوا الله عز وجل، أرادوا أن لا يشبهوا الله بخلقه، فنفوا هذه الصفة عنه، إذن هو مقصدهم التنزيه، مقصدهم أن ينزهوا الله قالوا: نحن نريد أن ننزه الله، الله عز وجل لا يتكلم، لأننا إذا قلنا إنه يتكلم شبهناه بخلقه، هم سبحوه، لكن هل بهذه الصفة وبهذا القول مدحوه؟ هم جعلوه جل في علاه لا يقدر أن يتكلم.

ولذلك قال أحدهم: أنا أؤمن بإله لا ينزل ولا يتكلم، قال الآخر: أنا أؤمن بإله يستطيع أن يفعل ما يشاء، من الأولى بالحق من القولين؟ الله يفعل ما يشاء، لماذا تحجروا؟ فإذن ليس كل من سبح الله حمده،

فالله قال: ﴿يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، دائمًا التسبيح أن تسبح الله بما يحمد عليه، هذا إذا جعلناها كلمة واحدة، لأن سبحان الله وبحمده أو سبح بحمده عند العلماء على دربين، على مسلكين العلماء فيها:

المسلك الأول: أنها معنى واحد نسبحه بما يحمد.

المسلك الثاني: لا، نسبح بحمده المقصود نقول سبحان الله والحمد لله.

هذان القولان لأهل العلم ذكرهما الإمام أبي عبيدة القاسم بن سلام في غريب الحديث.

إذن سبوح قدوس هذا معناهما إذا اجتمعا وإذا افترقا، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يتأول ذلك بقوله: **(سبوح قدوس)**، وفي الحديث الذي عند أبي داوود يقول المرء بعد الوتر **(سبحان الملك القدوس)**، وهذه من السنن المهجورة أن المرء بعد الوتر يقول: **(سبحان الملك القدوس)**، فجمع إليه، النبي صلى الله عليه وسلم يتأول القرآن، دائمًا هذه قضية مهمة.

وأنا ذكرت في كلمة ما قاله الإمام الشافعي عليه رحمه الله، قال: «كل قول الأئمة شرح للسنة»، كل هذا الكتب هي شرح للسنة، والسنة شرح للقرآن، يتأول القرآن تقول عائشة رضي الله عنها: يتأول القرآن، **(سبحان الله وبحمده سبوح قدوس يتأول القرآن)**، وكل القرآن هو شرح لأسماء الله وصفاته، إذا علمت ما في القرآن علمت من هو الله، ولا يمكن أن تعلم من هو الله حتى تعلم ما في القرآن.

كيف نقدس ربنا ونسبحه؟ أول الأمر أعظم ما يقع فيه الناس من ظلمهم لأنفسهم وذلك بظنهم بربهم غير الحق، أعظم جريمةٍ يقع بها العبد هو أن يظن العبد بربه غير الحق، يعني لا يقدسه، الناس يشركون يظنون بالله غير الحق، يثبتون له الولد، يثبتون له الشريك، يسبتون له الضعف، اليهود يقولون: إن الله عز وجل خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع -تعالى الله عما يقولون- ما معنى استراح؟!! هذا ضعف هذا نقص، النصارى يقولوا له الولد، هذا ضعف هذا نقص ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١)﴾ [مريم: ٩٠-٩١] هذا ظن بالله غير الحق.

ويقولون أقوال المشركون يرون أنه لا يمكن إلا أن يكون كالملوك الظلمة، لماذا يجعلون وسائط بينهم وبين الله في الدعاء والاستغاثة والتوسل لماذا؟ لأنهم يظنون بالله أنه كالملوك الظلمة لا يمكن الدخول إليه مباشرة لابد من وسيط، فلذلك هم يظنون بالله غير الحق، فهذه الظنون ناقضة لأنه قدوس.

ولذلك صحيح أن العقل يدرك عامة صفات الله عز وجل، ولكن يجب أن تقيد هذه الصفات بأنها من الله خبرًا منه، لأن الناس حتى لو ذهبت ظنونهم إلى تقديس وتعظيم الله، فإنهم يقعون في الخطأ، يغلب عليهم ظن على ظن، يعني عندما العبد يقع في ظنه وهذا حق؛ أن الله عز وجل شديد العقاب، وهذه الكلمة حق ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، لكن إذا غلبت عليه من غير النظر إلى رحمة الله أصيب باليأس والقنوط، فإذا وقع في معصية لن يتوب، لأن التوبة لا تلتقي مع ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لا تلتقي، فالعقول تذهب في الظنون كثيرًا، ولذلك لابد من النص.

فلما تناظر النصارى يقولون يعني كلهم يعتمد على هذه الكلمات، تقول له: كيف تنسب لله الولد؟ يقول: أنت تؤمن برب يقدر أو لا يقدر، أقول: أنا أؤمن برب يقدر، فيقول: لماذا لا يقدر أن يكون له الولد؟ وهذا كقولهم لماذا لا تظن أن الله يحتاج؟ يعني أنت تقول الله يريد أن يأكل؟ فأقول: الله لا يأكل لأنه سبحانه وتعالى منزه عن الحاجات، منزه عن النقائص منزه على أن يقوم هو بغيره، هو القيوم، فيقول: لك أنت تحجر على الله، بأنك تقيد قدرته، لماذا تقول الله يقدر؟ تقول: أعوذ بالله.

ومن هنا الظنون –ظنون العقل– تذهب في جهة، فتغلُب حتى تذهب إلى ضدها، يعني هو ذهب في قدرة الله إلى أن نفى الحدود الأخرى التي الله عز وجل قيد بها صفاته في قوله الملك القدوس، هذا اقترانه أنه الملك، هذا عيسى عليه السلام يقول: هو ابنه، نقول لا هو ملك له، هو ملك لهذا الابن، وهو سبحانه لا يمكن أن يكون له ولد، لأنه القدوس جل في علاه.

إذن الظنون هي التي تقدح بصفة الله عز وجل القدوس، أوقف الظنون، فالظنون في ذاته جل في علاه عليك أن تظن بربك الحق، أولًا: سبحانه وتعالى أنه القدوس في ذاته، ثانيًا: أن تنظر إلى أنه سبحانه وتعالى القدوس في أقداره عليك ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] والمنافقون لما قال الله عز وجل في سورة «الفتح»: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦].

الآن انظروا كيف يكفر الناس؟ عندما الإنسان يقتر عليه بالمال، حكمة من الله أن يبتلى في بدنه أن يبتلى في ابنه فالمؤمن عندما يبتلى يقول: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، يظنون بالله ظنًا حسنًا؛ لأنهم يرون أن هذا مقدرٌ من الله عز وجل ولا يقع منه إلا الحسن، أليست أسماء الله الحسنى يعني صفاته حُسنى وهذه الأقدار هي بيد الله هذه الأقدار هي من فعله جل في علاه فالأصل هو ألا ترى في أقدار إلا الحسن، فكيف يقع عليه هذا البلاء تقطع رجله أو تفقى عينه وربما يفقد ابنه وربما يفقر فلماذا؟

فإما أن يظن بالله الظن الحقيقي وهو أنه ابتلاء من أجل رفعته ومن أجل استغفاره ومن أجل الدعاء ولأن الله عز وجل يريد أن يرى صبر عباده، فقال تعالى: ﴿الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢)﴾ [العنكبوت: ١-٢]، هذه حكمة لله عز وجل، هذه فرصة للعبد ليثبت في هذا البلاء أنه عبدٌ لله كما أنه عبدٌ لله في باب الشكر حين ينعم عليه فهو عبدٌ لله في باب الصبر حين يبتلى والعبد بين هذا الحدين الصبر والشكر، الصبر على ما يقع عليه من بلاء والشكر على ما يقع عليه من نعمة، هذان مطيتان يصل بهما إلى الجنة يدخل بهما الجنة الحمد حمد الله عز وجل والصبر.

فلذلك أعظم ما يقع فيه الكفر من الناس هو الظن السيء، وذلك لأنهم لا يؤمنون بهذه الصفة أنه القدوس جل في علاه، الأصل هو أنه كل ما يقع عليك أن تحسن الظن بالله، ومن هنا تأتي مسألة التعبد من أعظم التعبد هو أنك تتخذ هذه الحالة هذا القدر الذي يقع تتخذه مطيةً من أجل المزيد من التقرب إلى الله والمزيد من العلم بربك، يعني فرصة، لماذا وقع هذا؟ تفكرك بنفس الرب لما أوقع هذا الفعل هذا من أعظم التعبد؟ لماذا وقع هذا الفعل؟ ما سببه ما هو مآله قد يكون الأمر لا سبب له مقدم لكنه حكمة في المآل، وقد يكون له السبب في الابتداء، وكذلك له حكمة في المآل.

فيعني الله عز وجل حين يبتلي المؤمن، البلاء يقع على معنى البلاء للمؤمن ويقع على معنى العقوبة للكافر، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ [البقرة: ١٥٥]، هذا وعد للمؤمنين، ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ [البقرة: ١٥٥]، من أجل أن يرى الله عز وجل صفة الصبر في العبد، وينزل عليهم البلاء على الكافرين عقوبة لهم وقليل من الأمم تابت عند وقوع العقوبة، قليل من الأمم من أمارات العذاب تابت ورجعت الى الله عز وجل.. وإلا فنحن نرى في هذه الدنيا في هذا الحال أنه إذا وقع البلاء ربما يكون السبب لمزيد كفر، ومزيد سخط على فعل الله ويد الله عز وجل.

القصد: أن أعظم النواقض لاعتقاد المرء بأنه سبحانه وتعالى السبوح القدوس هو هذا، هو أن يظن بالله غير الحق، كذلك أن يظن بشرعه مثل أن يقول لماذا فرض الله علينا الصلاة؟ لماذا فرض علينا الزكاة؟ لماذا فرض علينا كذا؟

سبحان الله الصحابة بكوا أن توقف أمر السماء.. «قالَ أبو بَكرٍ بعدَ وفاةِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيْهِ وسلَّمَ لعُمرَ: انطلِق بنا إلى أمِّ أيمَنَ نزورُها كما كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيْهِ وسلَّمَ يزورُها قالَ: فلمَّا انتَهينا إليْها بَكت، فقالا لَها: ما يبْكيكِ فما عندَ اللَّهِ خيرٌ لرسولِهِ» -هم ظنوا أنها بكت لشأن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مات كما يبكي الناس أنه يعني مسكين مات، خسر الدنيا، الناس هكذا عند الموت يبكون

ماد خلاص يعني خسر الدنيا، انتهى- «قالت: إِنِّي لأعلمُ أنَّ ما عندَ اللَّهِ خيرٌ لرسولِهِ ولَكن أبْكي أنَّ الوحيَ قدِ انقطعَ منَ السَّماء قالَ فَهيَّجَتْهما على البُكاءِ فجعلا يبْكيانِ معَها» ما معنى هذا؟

معناه أن الصحابة كانوا يرون أن الأوامر هي مزيد أبوابٍ للدخول على الله، فكلما كثرت الأبواب كثر التقرب، يريد أوامر من أجل أن يدخل، كالذي يريد أنا عندي شغلتين جيب ثالثة جيب رابعة جيب خمسة، أعطني مواد لأبيع أكثر من أجل أن أجتني المال أكثر، فهم هكذا كانوا يرون الأوامر، هذا ظن بالله ظن الحق.

عندما يأتي الفاجر والزنديق والكافر يقول كل شيء في كل شيء تفعلونه هو طاعة؟ إذا أكلت حمدت الله فطاعة، سميت الله طاعة، إذا ذهبت للخلاء طاعة، أتيت أهلك طاعة هذا كل شيء دين، هو هذا من الجهل بحقيقة وجودك والجهل بالله عز وجل الله يريد منك أن تكون عبدًا له، ولذلك قال سبحانه وتعالى في باب النصرة والتأييد: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢)﴾ [الأحزاب: ١٢]، والظن غرورا، والمؤمنون ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢)﴾ [الأحزاب: ٢٢]، فهذا الظن الحسن، وهذا ظن الكافر ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، سبحان الله! سبحان الله!

سؤال لكل أحد من في هذه الدنيا ما أعطي أقل مما تأمل؟ أعجبتني كلمة يذكرون فيها كلمة قالها الدكتور أيمن البلوي تحتاج شرح جميل، قال في هكذا كلمة في الذنب تنظر إلى الله وفي الكرم تنظر إلى نفسك، كلمة تدور على هذا المعنى، يعني الناس فيما يرون من نعم لا يرونها، لا يرون النعم، لا يعدونها، يرون ما فقدوا ولا يرون ما أعطوا، ومن هنا تبقى نظرتهم لربنا عز وجل فيها الجهل وعدم الشكر.

لكن من منا الآن كان وهمه وهو صغير أن يكون أكثر مما هو عليه الآن؟ فعنده الزوجة وعنده الولد وعنده الصحة وعنده المال وعنده ...إلخ، الله يعطي، هم قالوا هؤلاء الجهلة هؤلاء المشركون اليهود ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، لماذا قيد الإنفاق؟ لأنه قال سبحانه وتعالى كما في سورة «الشورى»: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧)﴾ [الشورى: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)﴾ [الزخرف: ٣٣].

يعني إذا أعطى الله عز وجل الكافر كل شيء وأغدق عليه من النعم، ومنع المؤمن، الناس سيكفرون، فرحمةً بالمؤمن بسط على الكافر بسطًا يسيرًا، وقيد المؤمن تقييدًا يسيرًا وإلا المؤمن الأصل ألا يأكل ولا يشرب، الأصل ألا يعطى، لكنه اعطاه رحمةً به لئلا يكفر.

ولذلك من النصر عندما الله عز وجل تحدى الكفرة قال جل في علاه: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾ [الحج: ١٥]، هذه العلماء اختلف فيها، وأقوى الأقوال كما قال ابن كثير رحمه الله فيها وهو: «أنها خطابٌ للمشركين في نصرة الله لمحمد صلى الله عليه وسلم»، ما ظنهم؟ أنه لن ينصره الله، هم يعتقدون أنه نبي، ولكن لن ينصره الله ولذلك كذبوا كل الوعود التي قدمها لهم، كلمة واحدة تدين لكم بها العرب وتدفع العجم لكم بها الجزية، فهم هو من هذا؟ هذا الضعيف الفقير هذا ينصره الله عز وجل.

ولذلك أبو سفيان لما رأى ماذا قال؟ قال: لقد صار ملك ابن اخيك عظيمًا، قال: أنه ليس الملك إنها النبوة، هذا ليس ملك، فقال جلا في علاه: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ من الذي يظن هذا الظن يعني سيقع ضده ماذا يفعل؟ يمد حبل، يمد حبل في السقف بيته في السماء يعني في سقف بيته، السماء بمعنى العلو هنا، وبعدها يقتل نفسه ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾، هل بموته هذا يذهب غيظ قلبه أم لا؟ يعني الله سينصره، نصر هذا الفقير نصر هذا اليتيم نصر هذا الوحيد الذي في مكة في الأرض القسي. ماذا

لما جاءوا بالرسالة كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية لما جاءوا بالرسالة إلى كسرى يعني وحملها المغيرة، المغيرة بن شعبة حمل رسالة عمر رضي الله عنه إلى كسرى، فنظر فيها، قال من أنتم؟ يعني نحن كنا نملك عليكم أصحاب الحواضر، نستنكف من أن نملككم أنتم، من نتم؟ أتيتم تأمرون وتنهون وو... إلخ، المغيرة قال له: نحن أسوء مما تقول، لما كنا على الشرك نحن أسوأ مما تقول فكنا كذا وكذا ولكن هذا هو الدين.

ولذلك يجب على المرء أن يعلم شرعه، عليه أن لا ينتقد على شرعه وعليه أن يتيقن على موعوده، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)﴾ [النساء: ٨٧] في أول سورة «النساء»، ثم الثانية ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)﴾ [النساء: ١٢٢].

العلماء نظروا لماذا جاءت هنا حديثا وجاء هنا قيلا مع أن المعنى واحد بعضهم نظر إلى السياق إذ أن حرف القاف ورد ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ وهذا من البلاغة بلاغة السياق، ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ حرف القاف، وبعضهم نظر إلى المعنى واختلفوا فيها اختلافًا، قالوا: بأن الحديث هو الإخبار عن النفس وعن الغير، ولكنها إخبارٌ عن النفس أغلب، حديثا هو الإخبار، حديث يخبر عن النفس وعن الغير، لكنها أغلب في الحديث عن النفس ولذلك لما تحدث ربنا جل في علاه عن نفسه الله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)﴾، لأنه حديث عن نفسه.

لكن لما تحدث عن المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (١٢٢)﴾، هذا إخبار عن المؤمنين، هذه أقوال مقاربة وإن كان في الحقيقة يمكن النظر إلى أقوال أخرى وأكثر قوة فيها ولكن هذا ما نقوله.

إذًا: أن يتعبد الله عز وجل بهذه في قلوبنا ونتعبده بألسنتنا سبوح، قدوس؛ يعني هو الذي يقدس وهو الذي يسبح جل في علاه وفعله مقدس وفعله سبحانه وتعالى سبوح في فعله وقوله وخلقه وشرعه، وكذلك علينا أن نكثر من هذا خاصةً في السجود كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في سجوده سبوح، قدوس، رب الملائكة والروح، نسأل الله عز وجل أن يرحمنا برحمته.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغّر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ آخر من أسماء ربنا سبحانه وتعالى والتي يقصد من تعلمنا لهذه الأسماء أن نكثر أبواب التعبد، للدخول على الله وهذا من رحمته جل في علاه، من رحمته أن لم يقيد بابًا واحدًا للدخول عليه ولحصول العبادة، وإلا لمل الإنسان، هو في الأصل أن الله سبحانه وتعالى له الأسماء فنتعبد بهذه الأسماء الكثيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ)**، فهذه أبواب متعددة.

والله عز وجل أقام من العبادات التي بها يتحقق للعبد في عبوديته لله من خلال هذه الأسماء، فتعددت العبادات، الله عز وجل أمرنا بالأذكار، والأذكار متعددة، منها الاستغفار، ومنها التسبيح، التحميد، التهليل التكبير، وتعددت سياق كل واحدة فتسبيح له صيغ متعددة، وهذا من رحمة الله على العبد، حتى إذا عجز العبد عن شيء أو مل من شيء، **(لا يمل الله حتى تملوا)**، ولكن العبد يمل لأنه هكذا خلق.

ولذلك قال عثمان رضي الله عنه: «لو صفت قلوبنا مع القرآن ما مللنا منه»، فدل على أن المرء يمل لأنه ضعيف، لأنه جاهل لأنه صاحب غفلة، لا يعرف قيمة الأشياء، فالله عز وجل إبعادًا للعبد ورحمةً به من الملال نوع التعبد.

فانظر للمرء يجلس ويقرأ القرآن يجلس ساعة ويقرأ أجزاء، فإذا انتهى ربما يأخذ في التسبيح، وإذا انتهى من التسبيح ربما يقوم فيقرأ كتب العلم، وربما يقوم إلى الصدقة، وربما يقوم إلى خدمة إخوانه، ربما يزور أخًا له في الله، فالله عز وجل عدد العبادات نوعها، الأذكار الصلاة، العبد إذا قام يصلي فالصلوات لها أنواع والصلاة فيها أنواع متعددة من العبادات فيها القيام، **(أَفْضَلُ الصَّلاةِ طُولُ الْقُنُوتِ)**، القنوت أي طول القيام، فيقرأ فيها من القرآن، أو فيركع ويطيل الركوع، وفي الركوع من الأذكار وفيه من المعاني القلبية أنه راكع لله.

كما قال ابن عمر رضي الله عنه «نتخيل الله بين أعيننا»، لما طلب منه عبد الله بن الزبير وهو يطوف حول الكعبة أن يتزوج ابنته، قال: «يأتينا أحدكم في حاجته من حاجات الدنيا وأحدنا يتخيل الله بين عينيه»، يعني هو يطوف وينظر إلى الله عز وجل في قلبه، وهو راكع هو ينظر إلى حاله مع الله، وينوع الأذكار في الركوع ينوعها، فإذا قال: سمع الله لمن حمده، وبدأ يحمد الله عز وجل من المحامد.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يطيل كما في الحديث عند أبي داود **(يقول: ربنا ولك الحمد ربنا ولك الحمد ويطيل في الركوع)**، وهكذا إذا سجد، **(وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء)**، والعلماء اختلفوا، ما هو الأفضل هو طول القيام أم كثرة السجود؟ لأن الرجل الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم **(قال له: سلني، قال: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: فأعني على نفسك بكثرة السجود)**.

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(أفضل الصلاة طول القنوت)**، أي القيام، فاختلف أهل العلم ما هو الأفضل؟ هو أن يكثر السجود يعني لو قام من الليل، هل الأفضل له ان يصلي كثيرًا ما شاء، وللأسف المبارك فوري هو أول من قال في تحفة الأحوال وهو رجل معاصر يعني، فهو أول من قال بأنه لا يجوز الزيادة على إحدى عشر ركعة في قيام الليل، وأخذها منه بعض المعاصرين كالشيخ الألباني وهذا خطأ، هذا خطأ الإجماع منعقد على أنه يجوز أن يصلي المرء من الليل ما شاء، يطيل عشرين كان الناس يصلون العشرين وهذا يعني حتى الحديث عندما يضعفون فيه، وهذا أخطاء بعض الناس يعني عندما يضعفون حديث أن عمر رضي الله تعالى عنه أمر أن يصلي أُبي بالناس بعشرين ركعة، فهذا يضعفونه من جهة سنده.

لكن العبرة أنهم كانوا يصلون، فالإمام مالك رحمه الله وهذا في القرن الثاني الهجري فهو يذكر عن حالةٍ يعيشها وفي القرن الثاني الهجري يعني الناس في هذا من التواتر، أنهم كانوا يقومون بالعشرين، وأهل مكة يقومون بالعشرين وأهل المدينة يقومون ستة وثلاثين، لأنهم رأوا أن أهل مكة يفوتونهم كلما صلوا بأربع ركعات قاموا وطافوا، فهم أرادوا أن يدركوا الفضل بما عندهم، فكانوا يزدادوا على الصلاة، وهكذا.

والعلماء اختلفوا ما هو الأفضل؟ فبعضهم قال: هو صلاة الليل الأفضل في الليل هو طول القنوت، اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم والسلف، كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الركعة ويطيل، فقالوا قريبًا يقوم صلى الله عليه وسلم بخمسين آية في كل ركعة، فيطيل مع التسبيح فيها إذا كان في الآية تسبيح سبح، وإذا كان فيها تهليل هلل، وإذا كان فيها تعظيم لله عظمه، وإذا كان فيها دعاء دعا.

وكان الإمام الشافعي رحمه الله يقوم بين الخمسين والمئة، ويطيل فيها بهذا الذي ذكرناه، التفكر فيها وإعادتها وتكرارها، فقالوا: «أنه الأفضل من الليل هو أن يطيل القيام»، وأما صلاة النهار –هذا من بعض تفصيلاتهم مع الخلاف بينهم– حاول بعضهم أن يجمع على هذا المعنى أنه في الليل يطيل القيام وفي النهار يكثر من السجود فيدرك الفضلين.

ورأيت لابن القيم في كلامٍ قديمٍ قرأته قديمًا أنه فرق بين المبتدئ في التعبد وبين المنتهي في التعبد، لأن المرء كما قال ابن رشد: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد، المرء بين بداية ونهاية»، البدايات غير النهايات فقال: «في البدايات يستحب للمرء إذ بدأ تائبًا وعائدًا وعابدًا، أن يكثر من السجود، لكنه في النهايات يكثر من القيام»، والمرء لابد أن يدرك الفضلين لقوله صلى الله عليه وسلم: **(فأعني على نفسك بكثرة السجود فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة)**.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم أقل ما يصلي في صلواته أربعين ركعة، سبعة عشر ركعة هي الفريضة وثلاثة وعشرين ركعة هي النافلة، كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي النافلة سواء كانت الراتبة أو المستحبة أو غيره من النوافل الرواتب والمستحبات والوتر كان يصلي ثلاثة وعشرين ركعة، وكان يصلي بعد المغرب ركعتين وبعد العشاء ركعتين، ويقوم بعشرة مع الوتر أحد عشر ركعة، فهذه أربعة عشر ركعة ثم الفجر أي ستة عشر ركعة ثم ست ركعات في الظهر فهذه ثلاثة وعشرين ركعة، سبعة عشر ركعة من الفريضة، فهذا أقل ما يصليه المرء، وإن عجز عن ذلك فلا يفوته حديث أم حبيبة رضي الله تعالى عنها، وحديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، وهو أنه قال صلى الله عليه وسلم: **(من صلى في اليوم اثنتي عشرة ركعة من غير الفريضة بني له بيت في الجنة)**.

القصد من هذا: أن الله عز وجل نوع لنا العبادات، بعض الناس يحب العبادة العلمية، بعض الناس يحب العبادة البدنية، بعض الناس لا يجلس ويتفكر وكذا هو يقرأ جزئه من القرآن يقرأ ورده لكنه لا يحب الفكر، يقول لك: لا تتعبني لا أحب أن أفكر، لكن أعطيه أعمال يدوية يقوم بها يمشي بها، ضعه في توصيل الصدقات ضعه في قضاء حوائج المسلمين، ضعه في الجهاد، يكونوا مبرزًا.

فالله عز وجل نوع للعبد العبادات من أجل أن تستوعب هذه العبادات أمزجة الناس، حتى:

أولًا: تنوع في الدخول عليه، لأنها صفاته هذا هو حق، وهذه العبادات حق وخير لأنها تحقيق لتعبد المرء بهذه الصفات، يعني هو يتعبد الله عز وجل بأن الله عز وجل هو العظيم، كيف يتعبد بأن ينظر في ملكوته ويرى ويكون في قلبه العظمة لله عز وجل فيفعل هذه الأعمال.

هذا السجود الذي تسجده أنت ماذا يعني؟ يعني أنك ضعيف السجود فيه ذلة، ولذلك أبو جهل من أسباب تركه الصلاة أنه رأى أن يكون إسته فوق رأسه، أستصغره، لما رآهم يسجدون احتقر هؤلاء؛ لأنهم في عزة نفوسهم لم يفهموا هذا المعنى مع حق الله، فحتى تكبروا كما تكبر أستاذهم وسيدهم إبليس، ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾ [الإسراء: ٦١]، السجود.

وفي الحديث الذي في الصحيح أنه إذا قرأ المرء السجدة يعني أمره الله وهذه أحتج بها بعض أهل العلم على أن سجود التلاوة واجب، كما هو رأي الأحناف، الأحناف يرون سجود التلاوة واجب، وهذا اختيار ابن تيمية، وأما البقية فيرونه مستحبًا وهذا قول عمر رضي الله عنه وقول لابنه، فأنه قرأ يومًا على المنبر سورة «النحل» ثم لما جاءت السجدة نزل فسجد ففي الأسبوع الذي تلاه قرأها ولم يسجد، قال: «إن الله خيرنا» فرأى أنها من الخيرة.

بعض أهل العلم لهذا الحديث قال صلى الله عليه وسلم: **(إذا أمره الله أن يسجد فقرأ السجدة فقام فسجد، أعتزل الشيطان يبكي)**، فهم قالوا: «إذن السجدة هي أمر»، هذا رأي بعض أهل العلم، والحديث الصحيح **(اعتزل الشيطان يبكي)**، **(قال الشيطان إن الله أمرني أسجد فلم أسجد، وأمره أن يسجد فسجد)**، فهو ينظر.

فإذن السجود لا ينبغي، فيه ذلة للمرء، وفيه تعظيم شديد جدًا للمسجود له، هذا هو تعبد الله بأن الله العظيم، لأن الله هو العظيم فيسجد له، كيف يركع له؟ لأنه العظيم، فهذه أبواب التعبد.

ثانيًا: من أجل ألا يحصل الملال.

ثالثًا: من أجل أن تستوعب العبادات أمزجة الخلق، على أي حالٍ أنت مزاجك الآن يريد تستطيع أن تكون عابدًا لله، وما تظنه ليس عبادة أو أن تقوم به وأنت تعب هو من العبادات العظيمة.

المشكلة فينا إننا نظن إذا قمنا بنوع من أنواع العبادة على جهة الضعف أن هذه العبادة ليست عظيمة الشأن، هذا خطأ، فتقول أم الدرداء: «وكان أعظم عبادة أبي الدرداء التفكر»، تصور وأنت جالس وذهنك مشغول، هذه هي أعظم عبادة لأبي الدرداء التفكر، هل تعجز عن التفكر؟! أنا أتعجب يمشوا الناس وهكذا وأفواههم مغلقة، أعجزوا أن يحركوا ألسنتهم **(كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)**، لا يستطيع، فإذًا وهو نائم هكذا، سبحان الله الحمد لله.

أنا مرات أفكر لماذا الصوفية يرقصون؟ مرات هكذا في ذهني، يعني يطرأ أنه ربما أخذت من ديانات أخرى وثنية يرقصون كما يرقصون حول النار مثلًا، ترون الوثنيين، يرقصون حول النار يعظمونها وهكذا لهم رقصات، فربما الصوفية عندما يرقصون يقلدون الوثنيين فيها، فمثلًا: الضرب واللطم الذي هو للتطبير عند الروافض، أخذوه من الأرثوذكس، وزير الإعلام الصفوي ذهب إلى موسكو فرأى النصارى يضربون أنفسهم من قبيل العذاب، لأنهم يريدون الخلاص، النصارى تاريخهم تاريخ مؤلم لمن أراد الخلاص من القسيسين والرهبان والعباد.

فبعضهم كما يذكر أبو الحسن الندوي في كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، ذكر عن بعض أخبارهم من كتبهم أن بعضهم من القسيسين كان يعيش مثلًا في بركة فيها البعوض والهسهس والذباب، يعيش سنين من أجل أن يخلص نفسه، وهذه قضية منتشرة في الأديان، ليس فقط في النصرانية، موجودة كذلك في البوذية، وفي الهندوسية تروهم يحبسون أنفسهم ويجوعون من أجل انطلاق الروح وتخلصها من أدران البدن، الأكل والشرب والنكاح والتعب والإرهاق يعتبرونها مثبطة عن التعبد عن خلاص الروح الإنسانية، هذه تتداخل.

فالقصد: أنه ذهب فرأى الضرب والجرح وضرب الرؤوس وأعجبته، قال: نحن أولى أن نفعلها لما قصرنا مع الحسين، فرجع وأمر بها أتباعه، فانتشرت وهذا جديد ليس ببعيد من مئتان ثلاثة مئة سنة فقط.

فأفكر الصوفية لماذا يفعلون هذا؟ ربما أخذ من بعض الأديان الوثنية، لكن مرات أرى أن السبب هو احتقار السنة، واحتقار التعبد لأن التعبد يشق على المرء أن يصوم، ويشق على المرء أن يقوم فيصلي يطيل ساعة ساعتين، لكن هو يريد شيء يقنع نفسه أنه يتعبد، يريد أن يقنع نفسه هذا العابد المتصوف أنه يتعبد ويأتي بشيء مهم، فجالس سبحان الله الحمد لله أنت ماذا تفعل؟ سبحان الله الحمد لله لا إله إلا الله، أحضر شيء أكثر، فتبدأ نفسه والشيطان يؤزه بشيء أكبر قوم أرقص حرك بدنك، أنا مرات أفكر أن هذا هو السبب، لأن هذه من تجربة شخصية مرات العبادة والسنة المرء يستقلها بسبب جهله.

كما جاء الثلاثة إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم فاستقلوا عبادتهم، ماذا أصنع؟ ماذا أقوم؟ فتبدأ النفس والشيطان بإظهار، ولعل حتى الأديان الوثنية هو هذا سببها يعني أتعب، وعليك أن تؤلم نفسك في العبادة، وهذا خطأ يعني لما تقول حديث **(كلمتان)**، كما يقول العز ابن عبد السلام: هذا **(سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)**، كما في كتابه قواعد الأحكام، يقول: «هذا الحديث من أدلة على أن التعب ليس شرطًا في عظمة العبادة»، لأن بعض الناس يظنوا أنه كلما زاد التعب زاد الأجر، هذا موجود يعني

كلمة عائشة رضي الله عنها الشهيرة: **(أحب الأعمال إلى الله أحمزها)**، حمزة معناه الشديد، الحمزة من الحموزة من الشدة والقوة، فهي تقول: **(أحب الأعمال إلى الله أحمزها)** يعني أشدها، لكن هذا ليس على إطلاقه، نعم الأجر على قدر المشقة لكن هذا ليس على إطلاقه.

الله عز وجل أعطى من الأجور الكثيرة على عملٍ فمثل كلمة «لا إله إلا الله»، يوم القيامة تأتي البطاقة هذه «لا إله إلا الله» فتطيش كل الأعمال السيئة، هذه في حديث البطاقة المشهورة، أتعرفون هذه البطاقة؟ أنه يؤتى يوم القيامة للعبد بذنوب كالجبال، فتوضع له على الكفة، ما الذي ينقذه من هذه الذنوب، فتأتي هذه البطاقة، ماذا تصنع هذه البطاقة أمام هذه الذنوب، مكتوب عليها لا إله إلا الله، فتوضع هذه البطاقة فتطيش كل الأعمال السيئة.

إذن العبرة بالمعاني، وليس فقط بمشقة البدن، مع أن مشقة البدن كذلك لها أجور هذا ليس تقليل للأعمال التي فيها المشقة، ولكن علينا ألا نجعل هذا هو الضابط في قضية القرب والتقرب إلى الله عز وجل.

القصد من هذا: أن الله عز وجل نوع هذه العبادات، ومن ذلك من أعظم العبادات التي يجب أن نفهمها هي عبادات القلوب، يعني الناس يقولون ماذا تنفع هذه؟ هذه تنفع، فلا تتحرك الأبدان ولا تتحرك الألسنة ولا تتحرك العيون إلا بسبب ما يحصل في القلوب، القلب هو كالمرجل، فقديمًا كيف تتم التدفئة؟ يضعون المرجل ثم يمدون الوقود، اليوم نفس المرجل يضعون فيه الوقود ثم تبدأ القنوات وتبدأ الأنابيب بسحب المياه الساخنة، إن لم يكن هناك مرجل يدفئ ومرجل يكون فيه احتراق، لا قيمة لكل هذه الأنابيب، فلم يكن للقلب فلا قيمة للأنابيب.

ومن هنا قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله)**، ولذلك عليك أن تهتم بالعلم تهتم بمعنى ما يحصل في قلبك من علوم، وما تحصل من علوم من أجل أن تعرف هذه العلوم أن يكون لها المنافذ إلى بقية البدن، إلى اللسان، إلى العين، إلى النظر، إذا سمعت أشياء وإذا رأيت أشياء ينبغي أن تمر على هذه العلوم هي المصفاة، وأن تقوم بالأعمال من خلال هذه العلوم.

يعني فقط نمر على هذا مرورًا من أجل أن نتذكر دائمًا هذا الأمر، وأن يأتي أحد يقول يعني ماذا أفيد من هذا؟ ما في، هذا كلام غير صحيح، وإذا لم نعلم أسماء الله لم نعلم شرعه، إذا لم نعلم صفات الله لم نعلم فعله أقداره، كيف تجري هذه الأقدار، إذا لم نعلم أسماءه ولم نعلم صفاته سبحانه وتعالى فلا نستطيع أن نفهم هذا الوجود نبقى في حيرة، كل الفلاسفة كل الذين تفكروا إنما أصابهم الجهل، وأصابهم الانحراف في

فهم وفي إدراك ما يمكن لهم أن يدركوه من الأسماء من الشرائع، بسبب جهلهم بأسماء الله وصفاته، وكل تفسيراتهم لأحداث الوجود مبناها على هذا، وهذا أيها الإخوة الأحبة يعطي المعنى الصحيح للتعبد، هل هذا فيه انحراف؟ نعم لأن هناك من جعل التعبد للأسف على معنى اللذة ومعنى المنفعة الذاتية.

فمثلًا: انتشار الآن الفتوى وانتشار ما يقال من قضية المصلحة هذه مهمة –جدًا– انتشار الآن فقه ما يسمى فقه المصلحة، بأن الشريعة جاءت من أجل تحقيق مصالح العباد، هل هذا فرعٌ أم أصل؟ هل الشريعة جاءت لتحقيق مصالح العباد؟ هي أصلٌ أم فرع؟ هي فرع، الشريعة والأنبياء بعثوا لأصلٍ عظيم وهو تحقيق توحيد الله، من أجل أن نعبد الله، من أجل أن نعلم من هو الله، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥٦]، قال ابن عباس ليعرفون.

فأصل الدين هو تحقيق العبادة لله، والله عز وجل ضمن هذه العبادة التي هي إخلاص له، السجود له، والامتثال لأمره، والخضوع لأمره، محبته والبغض فيه ومحبة الله، والرضى عنه، والإخبات له والخوف منه والرجاء منه، فكل هذا هو المقصد الأول، وضمنه الله عز وجل مصلحة العبد أنه في الدنيا، ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]، ضمنه راحة للنفس، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد: ٢٨]، هذا كله مضمن، ولكن الأصل هو أولًا ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ﴾، الأصل هو أن تذكر الله من أجل أن تفرحه، من أجل أن تحقق عبوديته.

ولذلك إذا تعارض الأصل مع الفرع يقدم الأصل، القاعدة التي قالها العلماء ومنهم الشاطبي «إذا عاد الفرع على الأصل بالإبطال بطل»، فالناس يتصدقون من أموالهم، أين مصلحتهم؟ في النهاية يقولوا ماذا نستفيد من الصدقة؟ الناس يخرجون للجهاد فيموتون لا يعودون، وتخرب الأوطان ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ [البقرة: ١٥٥]، ماذا حصل في المدينة عندما جاء النبي صلى الله عليه وسلم، وجاءت بعد ذلك الوفود؛ الفقر والجوع وجاء الأحزاب وجاء الأعداء، بعد ذلك كان في ذلك كله الخير، بعد ذلك المصلحة، لكن الأصل هو تحقيق العبودية، وهذا أصلٌ في قضية الفتوى.

فعندما جاءت القافلة التي فيها الخمر للأطفال لليتامى، وقد حرم الخمر، لو كان الدين على معنى المصلحة دون النظر إلى ما يحب الله وما يبغض، لجاز –في الشرع– أن يبيعها الصحابة لليهود، يبيعوها للنصارى يبيعوا المشركين، لجاز أن نحوله خل، لكنهم استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في هذا فلم يأذن.

وعندما أصيبت بنت بمرض فتساقط شعرها، فجاءت الأم تستأذن النبي صلى الله عليه وسلم أن تصل شعرها بشعر غيرها، تزيينا لها من أجل أن تتزوج، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (**لَعَنَ اللَّهُ الْوَاصِلَةَ**

وَالْمُسْتَوْصِلَةَ) وذلك لأن الله عز وجل أمرك والله لا يحب لعبده أن يعصيه، فأمره ألا يشرب الخمر، الله هو السلام، ويحب السلام، **(منك السلام وإليك السلام)**، الله هو السلام، ويحب السلام، ومن السلام ألا يضيع المرء عقله، فالله يحب للعبد أن يكون سليمًا، فأمر كل الخمر لا قيمة له، أن نفسد المفسد خيرٌ من أن نفسد الصالح، ما الصالح؟ العقل، أن نفسد المال خيرٌ من أن نفسد العقل، لأنه إذا فسد العقل فسد المال.

لماذا سميت الخمر أم الشرور؟ هناك قصة مشهورة أنه عرض على رجل أجبر إما أن يختار الخمر، وإما أن يختار الزنا، وإما أن يختار القتل، أن يقتل طفلًا، هذه قصة مذكورة، ملك جاء برجل قال له: اسمع إما أن تقتل هذا الطفل وإما أن تزني بهذه المرأة وإما أن تشرب الخمر، هو نظر قتل الطفل جريمة، والزنا جريمة، فيشرب الخمر فلما شرب الخمر قتل الطفل وزنا بالمرأة، فسميت الخمر أم الشرور، أم الخبائث، **(فلتهلك الخمر)**.

فأين في قضية المرأة أن تصل بغيرها، الله صورها على هذه الصورة، إما على أصل الخلقة وأما بالطارئ، فالله يحب هذه الصورة، الله يريد منها أن تبقى عبرة لغيرها، له حكم فيها، ولذلك ينهى عن المرأة أن تتزين الزينة الباطلة، كتلاعبها بأسنانها، تنشرها إذا كانت طويلة، وإذا كانت مجموعة تفرقها، الجمال يتعدد، فالجمال ليس له نسبة واحدة.

من سيطرة الشيطان المعاصرة هو أنه رسم صورةً للجمال من قبل هؤلاء الدهاقنة المجرمين، رسموا صورة للجمال فجعلوا أي خروج عنها هو قبح، يعني مثلًا: الأنف وهذا المساكين الذي جالسين طول النهار ويدفعوا الملايين، ومئات الألاف من أجل تغيير صورة الأنف لماذا؟ السبب لأن هؤلاء الشياطين مع سيدهم أوحى لهم أن صورة الأنف الجميلة هي هذه، فالكل مسكين بروح فيها، واضح تجد الشفة أن تكون كبيرة، والأنف يكون صغير، والأسنان أن تكون مجتمعا، قديمًا كان من الجمال أن تكون الأسنان متفرقة، الجمال يختلف من بلد لبلد.

يعني لماذا البنت البيضاء هي أجمل من السمراء؟ لا أفهم هو ضحك على الذقون، لماذا البنت الطويلة والبنت القصيرة وكذا، لماذا؟ لماذا قضية الشعر شعر المرأة؟ تعرفون في جنوب شرق آسيا يرغب بالمرأة التي لها شعر طويل في وجهها وفي يديها الجمال عندهم هكذا فدل على أن الجمال هو أمرٌ نسبي، الآن في موريتانيا البنت إذا أراد التزوج يحبسها أهلها شهورًا يطعمونها كل يوم عشرين ثلاثين وجبة، حتى تصبح

المرأة كالفيل، فهذه الجميلة عندهم إذا كانت نحيفة هذه معصعصة هذه ما أحد يتزوجها، وإلى وقت قريب أنا أدرك هذا الزمن كانت المرأة الجميلة هي المرأة السمينة.

انظر اليوم ماذا فعلوا في البنت، انظر وأقرأ فقط في الكتب، وفي الأخبار كيف تعيش ما تسمى عارضات الأزياء، يعشن في جحيم، وأغلبهن يمتن أو يصبن بأمراض نفسية خطيرة، تصور امرأة تنظر من الأربعة وعشرين ساعة غير النوم، ثمان ساعات نوم والبقية تنظر أربع خمس ساعات في المرآة، تصور هذه الحالة، والمصيبة أن الآن الجريمة الكبرى في هذا، كله من عدم الرضا بخلقة الله، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)﴾ [التين: ٤].

انظر المصيبة اليوم أنها تنظر إلى المرآة وتنظر بالصورة في المجلة والصورة في المجلة غير حقيقية، صاحبتها تنظر فيها وتنظر في المرآة خمس ساعات، لأن هذه الصورة التي في المجلة مصنوعة صناعة، معدلة عن طريق الكمبيوتر ببرامج المعينة لتزال منها الزوائد وترتب وتجمل وتوضع عليها ظلال من هنا وهنا، فحتى لا تكون هي صاحبتها.

القصد من هذا: أيها الإخوة الأحبة هو أن علينا أن نفهم هذه المعاني القلبية التي تثمر فقهًا، ما في معنى قلبي لا يثمر فقه، أي لا يثمر سلوكًا لا يثمر عملًا لا يثمر تعبدًا، اليوم نحن مع اسم من أسماء الله عز وجل السلام، وهذا الاسم النبي صلى الله عليه وسلم فسره تفسيرًا تامًا، أي أن تقرأ لأهل العلم فلا تجد كلامهم يخرج عن قوله صلى الله عليه وسلم: **(اللهم أنت السلام ومنك السلام)**، فكل ما يكتب لا يخرج عن هذين الحدين وهذين المعنيين.

والحقيقة أن أعظم ما يفسر به القرآن هو القرآن، وأعظم ما يفسر به الحديث ما قاله في الحديث، وأعظم ما يفسر بالقرآن ما قالته السنة، **(اللهم أنت السلام ومنك السلام)**، فهو سبحانه وتعالى السلام ومنه السلام، فهذه الصفة صفةٌ ذاتيةٌ له وصفة فعل له، هو السلام أي: الذي برئ من كل عيب، من السلامة، والسلامة هي الخلوص الانتهاء من كل شائبة، ولذلك تسمى الجنة بدار السلام لأنها خلوص من كل التعب، من كل مشقة من كل القاذورات، من كل الإهانات، ولذلك فأهل الجنة تحيتهم فيها سلام، والله عز وجل يلقي عليهم السلام.

فلذلك هو سبحانه وتعالى السلام بنفسه صفاته سالمة من كل ما يطرأ على العقل من نقص، ومن هنا نقول بأن صفاته تامة، لأن النقص عدم السلامة، ولا يوجد ما يناقضه لأن النقض عدم سلامة، فكل أسماء الله عز وجل تحتاج إلى هذا الاسم، وهو ورد مرة واحدة كما تعلمون في سورة الحشر قال تعالى:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)﴾ [الحشر: ٢٣].

وذلك لأن أسماء الله عز وجل تامةٌ لا يعتريها النقص ولا يعتريها الضعف ولا يعتري النقد لها، لا يكون في ذاته سبحانه وتعالى النقد لها، فلذلك هو حيٌّ فلا يعتريه الموت، ومن ضد الحياة النعاس، لأن النوم موت، كما في الحديث: **(سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ فقيل: يا رسولَ اللهِ أينامُ أهلُ الجنةِ؟ قال: النومُ أخو الموتِ وأهلُ الجنةِ لا ينامونَ)**، فلذلك ما فيها نوم ولذلك الله عز وجل الحي الذي سلمت حياته من النقص، وسلمت حياته من النقيض الموت أو النقص، والله عز وجل القدير فسلمت صفته القدير مما يضادها، لا يقدر عليه أحد، وهذه القدرة لا تتخلف عن لحظة، لا تحتاج إلى وقت استراحة ليزداد الله جل في علاه منها، فهو سبحانه وتعالى كل صفاته وهكذا الرحيم، فهذه الصفة أنه هو السلام والرحيم، فهذا هو المعنى.

المعنى الأول أنه سبحانه وتعالى في صفاته الذاتية هو السلام لأنه سلمت صفاته من كل نقص، وهي على معنى القدوس، والعبد إذا فهم هذا عظم أمر الله في قلبه، وإذا عظم أمر الله في قلبه لم يعصيه، وإذا عظم أمر الله عز وجل في قلبه لم يحتج إلى سواها، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، وإذا عظم الله في قلبه أحبه لأن صفاته تستدعي الحب فأطاعه، وإذا عظم الله في قلبه علم أن كلامه الحق والصدق، لا يشك، إذا عظم الله عز وجل وصار الرب عظيمًا في قلبه فلا يشك العبد، لا يعتريه أنه ممكن وليس ممكن، لا، فهو على يقينٍ تام بما يقوله الله سبحانه وتعالى عن نفسه.

فإذن أولًا السلام جل في علاه هي صفة ذاتية له، فهو سليمٌ من العيوب، ومن النقائص مما يعتري غيره من البشر، والله عز وجل في هذا الباب أقام في الوجود، انظر الوجود أقامه على معنيين، على معنى السلامة في حال، وعلى الضد منه، يعني الله أقام القوة في الإنسان هو سليم من الضعف، لكن الضعف كامن في قوته لماذا؟ ليعلم المرء أن الله عز وجل قادر أن يوجد العبد على هذا المعنى، ولكن هذه الإقامة هي محتاجة إلى الله.

فالله عز وجل هل أقام هذا الكون على معنى الكمال؟ الجواب، نعم، هذا الكون أقامه الله على معنى الكمال والتمام والحكمة، فهذا دالٌ على قدرة الله ولكن أقام فيه الخلل أقام فيه الموت، أقام فيه المرض، أقام فيه القوة المعارضة وجود الموانع، ما من شيء إلا وله ما يضاده مما يفسده، طب لماذا أقام هذا؟ من أجل أن يعلم العبد قدرة الله ويعلم كمال الله ويعلم نقص البشر وحاجة البشر دائمًا في هذا الكمال

والقدرة، لا يستغني عن الله عز وجل، بخلاف ربنا سبحانه وتعالى فإن هذا لا يكون في حقه جل في علاه إلا الكمال وأما النقص فلا يأتيه جل في علاه.

إذن هو السلام جل في علاه، ومنه السلام، **(اللهم أنت السلام ومنك السلام)**، إذن الله سبحانه وتعالى سلم من البراءة في ذاته وسلمت أفعاله من النقائص جل في علاه ومن هنا أمر الله عز وجل العباد أن يقيموا السلام فيما بينهم.

إذن ما معنى السلام ومنه السلام؟ لأنه هو سلم المؤمنون من عذابه، وهذا معنى موجود ولذلك الله عز وجل كما سورة «الصافات» قال: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩)﴾ [الصافات: ٧٩]، الله سلم هؤلاء من عذابه، وسلم كل فعلٌ خلقه من أن يخلق أحد سواه، وسلم أي شيء من أن يكون محتاج إلا له جل في علاه محتاج إلى الله عز وجل في وجوده فالله هو السلام، ثم سبحانه أمر عبيده المؤمنين بأن يقيموا السلام بينهم، هذا من أمره وهذا من فعله جل في علاه، ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾ [الأنفال: ٦٣]، هذه الألفة التي تحصل بين الرجل وزوجته، بين الرجل وأبنائه، بين المؤمنين، بينهم خاصة هذه الألفة ما الذي يحصلها؟ **(اللهم أنت السلام ومنك السلام)**.

فالله عز وجل سلم المؤمنين، ويوم القيامة يسلم المؤمنين من النار يسلمهم من عذابه، هذه النار العظيمة التي تخرج التي تأتي محمولة في سبعين ألف زمام، قال صلى الله عليه وسلم: **(يؤتى بجهنمَ يومئذٍ لها سبعونَ ألفَ زِمامٍ مع كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ يجُرُّونَها)**، الله ينجي المؤمنين منها، ينجيهم فيسلمهم من عذابها ويدخلهم الجنة التي هي دار السلام.

وأمر الله عز وجل قال لآدم بعد أن خلقه، أذهب إلى هؤلاء الملائكة، فسلم عليهم، وأنظر ما سيردون عليك، فسلم عليهم، فقالوا: وعليك السلام، فقال هذه تحيتك وتحية أبنائك من بعدك، كما في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: **(خلق اللهُ آدمَ على صُورتِه، وطُولُه سِتُّونَ ذِراعًا، ثُم قال: اذْهبْ فَسَلِّم على أُولئِكَ النَّفَرِ –وهُم نَفَرٌ من الملائِكةِ جُلُوسٌ– فاسْتمِعْ ما يُحَيُّونَك؛ فإنَّها تَحِيَّتُك وتَحيةُ ذُرِّيَّتِك، فذَهبَ فقال: السَّلامُ عليكم، فقالُوا: السَّلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ، فزَادُوهُ (ورَحمةُ اللهِ) فكُلُّ مَن يَدخلُ الجنةَ على صورةِ آدمَ في طُولِه سِتُّونَ ذِراعًا، فلمْ تَزلْ الخَلْقُ تَنقُصُ بعدَه حتى الآنَ)**.

فأعظم ما ينبغي أن يطلقه الناس، **(أفشوا السلام)**، وهذه أول وصايا النبي صلى الله عليه وسلم وأول كلمات قالها النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل المدينة، عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه الصحابة

الحبر اليهودي قال: «جئت أرقب النبي صلى الله عليه وسلم عند قدومه المدينة»، يريد أن يرى فماذا قال؟ أول كلمات للنبي صلى الله عليه وسلم، هذه سبحان الله أنا كتبت الحديث في قوام الحضارات، بمعنى قوام الحضارات تقوم على هذه الكلمات التي قال أول ما دخل، قال صلى الله عليه وسلم: **(أيها الناس أفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)**.

وبعد أن كتبت فيها أحد الإخوة أقرأته إياه كتبتها في السجن، فأعطيتها لأحد الإخوة، فأحضر لي كتابًا وهو يقرأ بالإنجليزية وهو ذكي، قال: انظر أحد أكبر العلماء الاجتماع في أمريكا يدرس في الجامعة -بعد أن كتبت فيها بفضل الله- قال: هذا حديث لو أقامته أي أمة من الأمم كان فيها الصلاح وكان فيها التمام، انظر كيف يقرأون الأحاديث على أنها قِوام الحياة، ونحن نقرأها يعني دون وعي لمقدار أهميتها في الوجود.

ووالدي هذه ما زلت أذكرها يقول: رجع مرة متأخرًا في الليل وتعرفون البيت مثل بيوت المخيمات، هو ليس مخيم لكن في وسط الحي والبيوت متقاربة، فقال: نظرت شاب وإذا هو ماشي في الطريق وهو واقف جنب البيت، وهذه المناطق لا يدخلها إلا الناس يعرفونهم، يعني إذا دخل هذا الزقاق ما يدخله إلا من يعرفه، نظرت إليه من بعيد من هذا الشاب؟ فأصبت بتخوف منه، فلما وصل إلي قال: السلام عليكم، قال أطمئن قلبي، انظر **(وأفشوا السلام)**.

فالله عز وجل هو السلام ومنه السلام، ولكنه لا يحتاج إلى سلام أحد، وفي الحديث كانوا يقولون كما في الصحيحين، كانوا يقولون **(السلام على الله)**، قال صلى الله عليه وسلم: **(إن الله هو السلام)**، فلماذا يقولون السلام على الله؟! أنت تؤمن أن الله هو السلام لكن لا تسلم عليه، لأنه لا يحتاج جل في علاه، ذلك لأن معنى السلام عليكم كما قال أهل العلم: «هي أخبارٌ وأمرٌ وطلب»، يعني دعاء، السلام عليكم هي أخبار بأن الله عز وجل سلمنا، فالعبد لأنه من قبيل الرجاء، وكذلك هي طلب من الله السلام عليكم، كأنك تدعو أن الله عز وجل أن يسلم عليه.

القصد من هذا: أن الله عز وجل أمر العبيد بأن يفشوا هذا الأمر بينهم، ليس فقط في كلماتهم ولكن الكلمات لها أثر، الكلمات لها سحر بين الناس، انظر الناس كيف يسلم بعضهم على بعض، السلام عليكم مع ما في ذلك من الأجر، كما حديث أبي هريرة قال صلى الله عليه وسلم: **(من قال: (السلامُ عليكم)** كُتِبَتْ له عشرُ حسناتٍ، ومن قال: **(السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ)** كُتِبت له عشرون حسنةً، ومن قال: **(السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه)** كُتِبَتْ له ثلاثونَ حسنةً)، ولما النبي صلى الله عليه وسلم أخبر

بهذا الخبر قام رجل فخرج ولم يسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(ما أسرع ما تنسون)**، ليست الأولى بأحق من الثانية، يعني أنت لما تأتي هذه الأولى تسلم، فإذا خرجت سلم.

فانظر إلى عظيم الأجر وإلى التذكر، السلام عليكم تذكر اسم الله عز وجل، فالله عز وجل هو السلام جل في علاه، وهو الذي ألقى السلام بيننا وأمرنا أن نلقيه بيننا، وأقام الوجود على معنى السلام، وقد يقول قائل في هذا الباب فلماذا أمر الله عز وجل بالقتال؟ مع أن كلمة الحرب لم ترد في القرآن ولا في السنة الحرب، وإنما أمر الجهاد وبيّن القتال، حتى ورد في مسند أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكره كلمة الحرب، ورد أنه كان لا يحب هذه الكلمة.

فلماذا أمر بالقتال؟ من أجل إقامة السلام، وهو أعظم سلام، وهو تحقيق سلامة قلب العبد في طاعته لربه، لأن الله أمر بالسلام، ما هو أعظم السلام؟ أعظم السلام في الوجود هو أن يسلم قلب العبد من أن يكون فيه ما يسيء إلى علم العبد في ربه، ما هو أعظم ناقضٍ للسلام؟ هو الشرك هذا يدمر القلب، ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾ [الشعراء: ٨٩]، أين سلامة القلب هنا؟! في الكفر أين سلامة القلب؟! في بغض المؤمنين ومحبة الكافرين أين سلامة القلب؟!

فلذلك الله عز وجل أمر العبد أن يقيم السلام بأن يزيل ما يضاده، ولو كان في ذلك المشقة وإنما الحال كحال الجراح، وإن كان يؤلم في جراحته في إزالة الألم، لكن في النهاية لا يصلح العبد في إزالة الآلام إلا بالجراحة، ولذلك الدعوة إلى السلام بالمفهوم الجاهل المعاصر وهو ترك الناس على كفرهم وشركهم هذا من تمام الفساد، وليس هو السلام، السلام الذي أمر الله عز وجل به وهو أن يوحد الناس ربهم، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، أن يحبوا فيه وأن يبغضوا فيه، أما أن يبغضوا لأهوائهم وشهواتهم، أين العبودية لله، فهذا كله بنظر العبد أنه مخلوق لعبودية الله وليس لتحقيق مصالحه، فتحقيق المصالح قلنا أمرٌ ثاني، أما الأمر الأول هو أن نحقق عبوديتنا لله عز وجل، أسأل الله عز وجل أن يرحمنا برحمته وأن يرزقنا فقه هذه الأسماء والصفات بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

السائل: شيخنا قال الله عز وجل: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾ [القصص: ٥٥]، ما المقصود؟ إذا كان المقصود البراءة من العيوب ما المقصود فيها؟

الشيخ: يعني هو يسلم عليهم، يقول جل في علاه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾، العيش مع الجاهلين يؤدي إلى الإيذاء والسلامة تكون بالإعراض، السلامة إما أن تصلح أن تزيل الفساد فيتم السلام، وإما أن تبتعد عنه، أي أنت لما تعيش مع واحد دائمًا يؤذيك، هل سلمت منه؟ لا، إذًا ما هي السلامة؟ إما أن تزيله وهذا أمر الله به، عندما يكون هناك القوة أمر بإزالته، أمر بتأديبه لئلا يؤذي، كما فعل عمر رضي الله عنه مع صبيغ، وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم مع المشركين، وكما أمر النبي صلى الله عليه وسلم: **(لا تَراءَى نَاراهُما)**، أمر المسلم ألا يعيش بين أظهر المشركين، من أجل أن يسلم دينه، وأن يسلم عرضه وأن تسلم نفسه.

فلما يأتي يسب ماذا يقول له؟ ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦)﴾ [الأنعام: ١٠٦]، فيقول سلامة يعني أنا أبتعد عنك، أسلم منك وليس هو المعنى الذي ذكرناه في قضية السلام عليكم، ما السلام عليكم؟ هو طلب وخبر، لأنه لا يقال للكافر، **(لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام)**، لأنه ليس له السلام فلا نبدأه، لكن مع المؤمن أنت تبدأه لأنه داخل في معنى عن السلام مع الله، وأنت تدعو له، لكن هنا السلامة ليس على معنى الدعاء، ولكن على معنى الأخبار، بمعنى أنا أبتعد عنك لأسلم من شرك، لأسلم من فسادك، فلا أدخل فيه، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣)﴾ [الفرقان: ٦٣]، قلنا معنى سلام الخلوص، يعني أخلص من شرك، أخلص من فعلك السيء وابتعد عنك، وهذا دال على معنى السلام، وهو أن يبتعد المرء عن مواطن التي تفسد قلبه أو تفسد عرضه أو تفسد دينه، أو تفسد سمعه، فلما المرء يعني يبتعد عن أماكن الخنا لا يسمعه فهو يسلم قلبه ويسلم أذنه.

السائل: شيخ هل على هذا المعنى قول إبراهيم، قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧]؟

الشيخ: هذا ابتعاد عنه، ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ [مريم: ٤٩]، قال: ﴿اعْتَزَلَهُمْ﴾ فلا يسلم المسلم على الكافر ابتداء، لكن أختلف أهل العلم هل يرد السلام؟ قالوا: نعم يرد وهو بمقدار ما ألقى، يعني لما

الكافر يقول: السلام عليكم، لأنه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (٨٦)﴾ [النساء: ٨٦]، بعض أهل العلم قالوا: لا، لا يرد عليه، لا ابتداء ولا ردًا، والصواب أنه لا إذا سلم الكافر تقول وعليكم السلام لعموم الآية.

لكن لماذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (**وعليكم**)، لأنهم كانوا لا يقولون السلام، إنما يقول السام عليكم فكان يقول: (**وعليكم**)، فلا يقول: وعليكم السلام، وهم يقولوا: السام أي الموت عليكم وهو يقول: وعليكم لسلام هذا لا يصح.

السائل: شيخا أنا بطبيعة عملي أتعامل مع نصارى، فلما يكونوا في المكتب لما أدخل عليهم مسيحي ومسلم فهل أسلم؟

الشيخ: ورد هذا النبي صلى الله عليه وسلم مر على جماعةٍ في المدينة من المشركين واليهود والمسلمين فسلم عليهم، فقال كما قال النووي رحمه الله: وإنما يقصد السلام على المسلمين.

السائل: حتى أن المسلم نفسه لا يرد السلام يقول أهلين، أكثر من مرة؟!

الشيخ: يعني إذا ثبت أحد من الناس لا يرد هذا، لا تزد شره، هو الأصل أن تبدأه أنت بالسلام على المسلم، لكن إذا ثبت أنه لا يرد فهذا إثم، لأن على الصواب كما قال ابن كثير: «أن الصواب -مع الخلاف- هو ابتداء المسلم سنة، والرد على سلامه واجب»، فإذا علمت أنه لا يأتي الواجب لا تعنه على الباطل.

السائل: شيخنا مسألة المشقة في العبادة لما ذكرت (كلمتان خفيفتان)، وهناك حديث قال صلى الله عليه وسلم: (يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم)، أتكلم عن المشقة مثل الحج ماشي يعني كيف الجمع أو شرب الماء البارد مثلًا؟

الشيخ: نعم هو هذا أنا أردت أن أنبه، أن المسألة ليست على إطلاقها وإن كانت (**أحب الأعمال إلى أحمزها**)، «وأن الأجر على قدر المشقة»، ولا شك أن ما فيه مشقة أكثر أجرًا مما ليس فيه مشقة، لكن هذا محمولٌ على نفس الفعل -انتبه لهذا، وأنا ما أحببت أن أتوسع فيها- الفعل الواحد قد تكون فيه مشقة قليلة، وقد يكون فيه مشقة عالية، ما الأحب في الفعل الواحد؟ المشقة العالية، لكن إذا قدرت أن تأتي بنفس الفعل بمشقة أدنى لا يكون بنفس الأجر، لكن عادةً «الشيء يكثر بكثرة مشقته».

ومن هنا فالذي بجانب المسجد مشقته أقل، الآن من الأعظم أجرًا في بابه؟ لكن قد يقوم هذا الرجل في أبواب أخرى وهي أقل مشقة، ويصيب الأجر الذي لا يصيبه البعيد في بابٍ أخر، لكن في الباب واحد، تكون المشقة هي الحاكمة في الأمر، ثم في هذا الحديث **(دياركم تكتب آثاركم)**، أرادوا أن يخلوا جانب المدينة، يعني في مقاصد أخرى، فرغبهم في البقاء بكثرة أجورهم، عندما يأتون، لأنهم أرادوا أن يخلوا المدينة، يعني لو كل الناس جاو واشتروا، ماذا تصبح المدينة خالية، فأرادوا أن يخلوا المدينة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(دياركم تكتبوا آثاركم)**، أو **(تكتب آثاركم)** على هذا، وهذا.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني والعشرون: المؤمن

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

الإنسان بلا شك خُلق فقيرًا وخُلق محتاجًا وهو يحتاج هذا الإنسان دائمًا إلى من يطمئنه، ومن يأخذ بيده، الإنسان لا يستطيع أن يقوم في هذه الحياة بشأن نفسه فقط بنفسه، لا يستطيع، فالله سبحانه وتعالى أجرى عليه من المقادير ما تدله على حاجته، لما الإنسان يخرج من بطن أمه وهو في بطن أمه قبل أن يخرج هو محتاج، وليس له قِوام أن يقوم على نفسه، وبعد أن يخرج من بطن أمه هو يحتاج، يحتاج من يقوم على شأنه في كل شيء، في طعامه في شرابه، حتى في قضاء حاجته، حتى في طهارته لنفسه، ففطرة الاحتياج قائمة في النفس.

ولذلك دائمًا هذا الانسان يتأمل في الوجود عمن يركن إليه، وعن من يعتمد عليه دائمًا، وكلما رأى شيئًا في الوجود يمكن أن يعتمد عليه رآه يزول، وهذا المعنى علمه إبراهيم عليه السلام وأراد أن يعلمه قومه كما قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فهذه من حجج إبراهيم على قومه، أنه لما رأى كوكبًا في السماء قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، لكن هذا الكوكب زال وانقضى ذهب، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾، غاب وغيابه يعني عدم قدرته على أن يسد حاجته هذا العابد له.

ولذلك من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم من أدعيته في الفجر، في أول النهار هو يقوم **(اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا لأحد من خلقك)**، لا تكلني لنفسي فإنك إن كلتني لنفسي يعني كلتني إلى ذنبٍ وعورةٍ وخطيئةٍ، لا تكلني إلى نفسي ولا تكلني إلى أحد من خلقك، لإن هؤلاء سواء كانت النفس أو نفس الآخر فإنها تنقضي وتذهب.

ثم رأى القمر قال: هذا ربي قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧]، وهذا دليل على أنهم كانوا من عباداتهم كانوا يعبدون النجوم، لهم عبادات كثيرة في القرآن، قوم إبراهيم عليه السلام منها أنهم كانوا يعبدون النجوم، وهذا الحوار في سورة الأنعام دال على هذا المعنى وكذلك كانوا يعبدون الأصنام هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾

[العنكبوت: ١٧]، فكانوا يعبدون ما يخلقون من الحجارة، هذه جزء من عباداتهم الضالة، وهم كذلك من يعبدون النجوم والأنواء والكواكب فأفل هذا القمر، كان له نور فالناس يرونه يعينهم في حياتهم.

وأساس العبادة الاحتياج، بالنسبة للإنسان منبع أساس العبادة هي الاحتياج، عبد يعني لا يستطيع يقوم، ما معنى عبد؟ يعني مأسور لغيره خاضع لغيره، وهذا الخضوع يستلزم أنه ضعيف، فلما رأى القمر أنه يعطيهم ويقضي حوائجهم في الليل فظلمة الليل مخيفةٌ للإنسان، ومن عاش في الأدغال وعاش الغربة والوحدة في الليل لوحده رأى سطوة الليل وهيبته، بل ورأى قسوته، فحينئذٍ يحتاج.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٨].

فالقصد: من هذا أن الإنسان في عبوديته للأشياء هو محتاج لها، ولكن هذه الأشياء تزول تنقضي، فيستغني عنها لأنها لم تعد كافية لقضاء حاجته، يعني عندما يتخلى الطفل عن ثدي أمه لماذا؟ لأنه استغنى عنها، لأن هذا الثدي لم يعد يقوم بكل شأنه وهكذا يتم الاستغناء عنه، ومعنى الاستغناء عنه أنه صار فيه احتياجات أكبر، ما معنى الاستغناء؟ هل الاستغناء هو القيام على النفس بشؤونها؟ لا هذا من الجهل هذا الظن، عندما يستغني المرء أو الطفل عن ثدي أمه تصبح له حاجات أكبر، يعني يصبح محتاج أكثر، ولأشياء أكثر من هذا، وتزداد احتياجاته.

وهكذا الإنسان بحاجة إلى هذا الإله الذي يطمئنه، والذي يقضي حاجاته، وإذا لجأ إليه ولاذ به وعاذ به حصل له الأمان، ولابد من أن تكون فيه كفاية الأمان، ويكون فيه صدق الوعد، من غير كفاية الأمان وصدق الوعد، فهذا الإله يعني لا ينفع، وإن نفع مرة لا ينفع كل مرة، هذه القضية.

إذًا لابد من صدق الوعد، إذا حدث الوعد منه أنا أكفيك وكل إله يعرض نفسه للخلق على أنه كافٍ، أنا أقضي حاجتك، تعالى إلي أخضع إليّ وأنا أقضي حاجتك، لكن هل هذا يغيب أو لا يغيب؟ هل يصدق في وعده في كل آن؟ يعني عندما يشيخ الملك هو يذهب ويموت، يقول لعبيده أنا ربكم الأعلى كما قال فرعون ثم مات، من الذي يقضي حاجاتهم؟ من هو؟ فخلاص ما حصل صدق الوعد، إما لكذبٍ وتخلفٍ في الوعد وإما لذهاب هذا الوعد وعدم قدرته.

فلابد لهذا الإله أن يكون فيه الكفاية لكل ما يطلبه العبد، ولابد من أن يحصل هذا الوعد وأن يحصل في كل آن، في كل وقت، وليس فقط في هذه الدنيا، فالإنسان يحتاج إلى ما بعد الموت، بعد الموت ما الذي يكفيه؟ وعندما تكثر عليه المشاكل وتأتي عليه المصائب ما الذي يكفيه؟

من هنا كان هذا الاسم العظيم الذي تحدث عنه القرآن، وهو أن من أسمائه سبحانه وتعالى: **المؤمن**، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]، المؤمن، وتأمل عظمة هذه الصفة كيف هي لله عز وجل وجعلها كذلك لعبيده، هو المؤمن والعبد هو المؤمن، وإن كان هذا اللفظ شامل لمعاني لا تحصل للعبد.

فالإيمان في العبد هو الالتزام، بأن يصدق الخبر ولا يكذبه ويلتزم بالأمر ولا يرده، هذا التزام من العبد أمام ما يقع عليه، ولكن التزام العبد عما يأتي من غيره الإيمان بالنسبة للعبد التزام عما يأتيه من الأخر، الآخر هو الخالق جل في علاه يخبره فيصدق، ويأمره فيلتزم.

ولكن المؤمن بالنسبة في حق الله عز وجل هو شيءٌ ألزم به نفسه جل في علاه، لا يلزمه غيره ولا يخبره غيره، وإنما هو منه جل في علاه، وهذه الصفة هي التي تصنع الثقة بالله والتوكل عليه واليقين على ما يخبر به، هو المؤمن والمؤمن بأن الله عز وجل ألزم نفسه بكل ما وعد به الخلق، ألزم نفسه وهذا هو الإيمان، ماذا وعدهم؟ هو سبحانه وتعالى يلتزم به ولا ينقضه، وأقام أعظم الشواهد على هذا الالتزام، ما هي الشواهد؟ وما هو أعظم هذه الشواهد؟ هو الوجود القدري.

الله عز وجل وعد الخلق بأن يؤمن رزقه فرزقهم، ووعد الله سبحانه وتعالى بأن يكونوا هم أسياد الوجود، انظر هذا من أعظم ما يبين صدق وعد الله عز وجل لخلقه، أضعف ما في الوجود هو الإنسان، أن تتأمل هذا الإنسان هو أطول خلق الله من الحيوانات، أطول الخلق عمرًا قبل أن تنتصب قامته، كل الحيوانات تسقط من بطن أمها في لحظات ودقائق وربما يوم فتنتصب وتمشي وتقضي حاجتها، ينزل الجمل تنزل البقرة ينزل الشاة ينزل الحمار ينزل الفرس، ينزل من بطن أمه ويمشي.

فكم يحتاج الإنسان حتى يمشي؟ كم يحتاج الإنسان حتى يستقل بنفسه؟ انظر هذا شيء عجيب، وهو أن الإنسان يحتاج إلى وقت طويل أطول من الحيوانات حتى يستقل بنفسه، حتى يمشي حتى يستطيع أن يأكل يمد يده ويأخذ، ويكون له السن الذي يقرض به، فيحتاج إلى مدة طويلة، والله عز وجل لم يكلفه من التكاليف حتى يبلغ، كم يبلغ في عمر ستة عشر سنة أو خمسة عشر سنة يعني بحسب البيئات وحسب

الظروف، يحتاج إلى وقت طويل، ومع هذا الضعف في هذا الإنسان فإن الأشياء خاضعة له، هذه الدواب التي تمشي وتستقل بنفسها في الطعام والشراب، لماذا؟

هذا من وعد الله عز وجل، وما هو من لوازم أنه المؤمن جل في علاه إنه وعد الخلق بهذا وصدق في وعده سبحانه وتعالى بأن تخضع لك الأشياء وتصبح أنت سيد الكون، انظر إلى هذا الإنسان الذي ذلت له الدواب وذلت له الأشياء، وسخر الله له الشمس وسخر له القمر وو...إلخ.

ومن عجائب ما أفكر فيه بأن النبي صلى الله عليه وسلم هذا عام للناس جميعًا، وأما ما هو خاص فإن النبي صلى الله عليه وسلم مكث ثلاثة وعشرين سنة فقط في الدعوة، يعني أربعين سنة، لو قيل لو أننا أمام المشهد من بعد، لو أن رجلًا هذا –من سر القدر العجيب– لو أن مجموعة من الخلق جلسوا يراقبون الوجود، والسيرة المحمدية، وعندهم ما وعِدَ به النبي صلى الله عليه وسلم، وهم يراقبون سيرته وهذا بلا شك أنه امتحان للنبي نفسه، وامتحان لمن أمن به في الابتداء.

لكن لو تصورنا أن مجموعة من الخلق جلسوا يراقبون مشهد النبوة، وسيرتها بأن هذا النبي صلى الله عليه وسلم منذ طفولته سيبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار، وأن أتباعه بأنفسهم ستطأ أقدامهم الصين، وتذلهم الجزيرة والشام ومصر والعراق، فأنتم تتصورون وترون أنه قد بلغ الثلاثين ولم يحدث شيء، ولم يوحى إليه، ثلاثين ماذا تقولوا؟ عند البلوغ ستبدأ الدعوة.

لأن هذا الحدث العظيم في الوجود يحتاج إلى وقت، لكن أنت تعجب تجد أنها تمضي السنوات ثلاثين سنة خمسة وثلاثين سنة حتى يبلغ الأربعين ثم يأتيه الوحي، طيب تقول: الآن بدأت فهمنا جاء الوحي، فكم سنة سيحتاج إلى إعداد هذه الجماعة؟ يبقى ليس عشر سنوات، عشر سنوات تم فيها الوعد، مع ما فيها من ابتلاءات وامتحانات، بعد ثلاثة عشر سنة وهو مقيم في مكة لم يصل عدد أتباعه من الرجال مئة رجل.

فتأملوا هذا، لو أن رجلًا يراقب، لا يدرك حكمة الله، لكن جرى كل هذا على وفق الوعد الإلهي، قال الصدق جل في علاه، قال وصدق في وعده، **(صدق وعدَه ونصر عبدَه وهزم الأحزابَ وحده)**، صدق جل في علاه، ثلاثة عشر سنة، ثم ثلاثة عشر سنة خرج هاربًا محتاجًا متخفيًا لا يملك القوة في أن يدافع عن نفسه، وهكذا أتباعه وفي المدينة في كل لحظةٍ من لحظات الانتصار تظن أن كل معركة هي القاضية عليه، ولم يحدث قط في معركة من معاركه أن يقع هذا المعنى؛ أن كل معركة هي القاضية.

ففي بدر هل هناك ما يدل على النصر إلا وجود الوعد الإلهي فقط، في أحد ظن أن الأمر قد انتهى، في الأحزاب أي شيء وهكذا، صلح الحديبية شغلت عقول الصحابة وهم أعظم الناس علمًا، وأكثر الناس ثقة وتوكلًا على وعد الله، ومع ذلك حدث فيها من الأحداث العجيبة، وبعد فتح مكة كانت حنين التي قال فيها أبو سفيان: «لم يردهم إلا البحر»، الله صدق وعده، هو مؤمن أنه سبحانه صدق وعده، فهذا صدق وعده جل في علاه للخلق، في طعامهم في شرابهم في قيامهم على أنفسهم، هذا الطفل الصغير كيف ينمو؟ كيف سيكون شابًا؟ كيف يكون كبيرًا؟ كيف ستمضي هذه الحياة معه؟ الله صدقه وأعطاه القوة، كل يوم نراها في أطفالنا، ونراها في الناس.

فكم من الناس ظنوا أن المصائب لن تنقضي، هل صدق وعده أن مع العسر يسرًا مع البشر؟ انظر لو جئت إلى في الفلسطيني الخارج من فلسطين وهو مهاجر وقد أخذت أرضه وسلب ماله وخرج من لا شيء، هل كان بعد هذا العسر يسرًا؟ الذين الآن المهجرون من سوريا وكذا، كل هذا يدل على أنه سبحانه وتعالى أنه قال جل في علاه من الوعود ما تخص المؤمنين وما تخص البشرية جمعاء فصدقها سبحانه وتعالى، ولذلك هو المؤمن، الملك القدوس السلام المؤمن جل في علاه، هو المؤمن.

ووعد عباده بأن يصدقهم في كل ما صدقوا فيه من أمره جل في علاه، أنه يصدقهم في كل ما قالوا، ولذلك الله عز وجل –انظر– جعل نفسه شاهدًا عما يقول وجعل نفسه شاهدًا على الوحدانية، وجعل معه في شهادته على الوحدانية الملائكة والرسل وأتباع الرسل، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ [آل عمران: ١٨].

إخواني كل شيءٍ وكل جهةٍ وكل قول لا يكون الله معها فهي كذب، وسيحصل فيها الخُلف، فالله عز وجل لما يقول: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾، من أجل أن يقول لك بأن ميزان الحق في الوجود هو أن يكون الله مع هذه الجهة، ولا يكون هناك حق في الوجود حتى يكون الله عز وجل هو الذي شهد به أنه الحق.

ففي سورة البقرة وهذه دائمًا أنا أحتج بها لأنها عجيبة، الحكم قيمته بأن الله عز وجل قاله، وقيمة الحكم أي حكم حق قيمته بأن الله قاله وبأن الله عز وجل شهد أنه الحق، عندما أمر سبحانه وتعالى أن يُستشهد في آية المداينة، ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ماذا قال؟ ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، فقيمتها

في كونها أنها عند الله كذلك، قبل أن يكون لها أثر في الوجود، وقبل أن تكون هي في نفسها العدل هي أول شيء أن تنظر إلى كيف هي في عين الله، وكيف هي في حكم الله، وكيف هي في قول الله: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

إذن الأشياء بما تكتسب قوتها، بما تكتسب شرعيتها بأن الله قالها، وذلك في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: **(واستحللتم فروجهن بكلمة الله)**، بعض الناس يظن أن العقد هو الذي يجيز، العقد هو الذي أجاز، لا هذا كذب، وذلك لو ذهب رجل وعقد على مشركة، من غير الكتابين عقد شرعي ووافق الولي ودفع المهر، هل هو عقد صحيح؟ لا، لأن الله لم يجزه، فقوة الأحكام في أنها صدرت من الله، فكون أنها صدرت من الله عز وجل فالله عز وجل معها فهي الحق، يعني يحصل فيها ما ينبغي أن يحصل في الحق، فيحصل في الحق الخير، يحصل فيه البركة، يحصل فيه الأجر يوم القيامة، وهو أعظمه.

شيخ الاسلام ابن تيمية له اعتراض يسير رائع، على قضية المقاصد، وقال كأنه ينبه إلى أن الذين تكلموا عن المقاصد فكأنه لاحظ ذلك قديمًا واليوم أجلى وأعظم في كلامهم وهو أن الذين تكلموا عن المقاصد لم يتكلموا إلا من جهة كونها تحقق مقاصد دنيوية، وهذا غير صحيح، ينبغي النظر إلى المقاصد الأخروية، المقاصد الأخروية المطلوبة، فأنت لماذا تصلي؟ هل لمقاصد دنيوية أم لمقصد تحقيق رضا الله عز وجل ودخول الجنة، بل دخول الجنة هو تبع للمقصد الأعظم وهو تحقيق الفرح الرباني والرضا الإلهي.

فلذلك الأشياء تكتسب قوتها في أن الله شهد أنها الحق، فمن هنا كان سبحانه وتعالى يصدق فيما أخبر جل في علاه، ويصدق فيما وعد للبشرية جمعاء، لما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ [الإسراء: ١٨]، صدق فيها، انظر إلى الكفار أرادوا الدنيا فانظر ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩)﴾ [الإسراء: ١٩]، هذا الوعد صادق بما علمنا أن الله قد قاله، وبما أشهد الله من صدقه لوعده للمؤمنين ولغير المؤمنين فيما وعدهم به.

فالنبي صلى الله عليه وسلم كيف انتصر؟ هذا دليل على أن الله عز وجل سُيصدِقُ وعده بعد الموت لعبيده المؤمنين، لأنه صدقهم في الدنيا ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، هذا الرضا ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد: ٢٨]، فكل اسمٍ من أسمائه هو محتاج لهذا المؤمن أنه قاله وله صدق سبحانه وتعالى، وكذلك شهد بما شهد به المؤمنون بوحدانيته، شهد بما شهد به المؤمنون، المرء ماذا يقول؟ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١)﴾ [النساء: ٨١]، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾ [النساء: ٧٩]، لما قالت عائشة رضي الله عنها –لما اتهمت بحادثة الإفك– قالت: «وسيظهره الله»، أنا أثق بالله أنه سيظهر الحق.

لما أنت تظلم ويكون في عندك أن الله قد وعد بأن ينتصر للمظلوم من الظالم ولو بعد حين، أنت يجب أن تؤمن بهذا، لأن الله هو المؤمن لأنه قال وأنه سبحانه وتعالى سيصدق في هذا القول، هذا المعنى الإيماني الذي نذكره، هذا معنى يدل على أنه يجب أن يكون عندك الثقة، على قول الله عز وجل الثقة عما يقول، الثقة عما يعد سبحانه وتعالى هذا يصنع التوكل وهذه الصفة من الخصال الصفة والاسم الحسن لربنا سبحانه وتعالى الأسماء الحسنى وهذه الصفة الصادقة لربنا سبحانه وتعالى، كذلك يحبها جل في علاه في خلقه، فأنه يكره الكذب وأنه سبحانه وتعالى يكره إخلاف الوعد، ويكره أن لا تكون أنت مع الحق.

فالله شهد أنه لا إله إلا هو، أي شهد أن يكون مع الحق، وكذلك يحب لعبيده أن يكونوا مع الحق، إياك أن تكون مع الباطل، إياك أن تؤمن ما هو كفر، إياك أن تؤمن ما هو كذب، إياك أن تصدق ما هو باطل، عليك أن تحمي قلبك، وتحمي موقفك من أن يكون مع الباطل، بل عليك إن تكون مع الحق ولذلك قال الله سبحانه عن نبيه ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣]، الذي يبلغ الصدق يجب أن يكون موقفه من الصدق كذلك صادقًا، والذي يحمل الحق يجب أن يكون كذلك موقفه من كل حقٍ في الوجود هو الموقف مع الحق، بهذا تحصل العبودية الحقة لله عز وجل في هذا الباب.

ومن معاني هذه الصفة المؤمن هو الذي يجير المؤمنين، هذا من كل هذا المعنى، ماذا تعني يجير المؤمنين؟ يعني أنه صدق وعده أنه يجيرهم، فيجيرهم في الدنيا من الهوان، مع أنهم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ما دام أنت مؤمن فأنت مرتفع، هذه خصلة عجيبة هذه، خصلة فيها في أيام الجهاد وأيام البلاء كان كل مؤمن يراها.

فلو سألت الإخوة في غوانتنامو لرأيتهم أنهم عظماء وهم أسرى، المؤمن وهو يصعد خشبة المشنقة يكون عزيزًا، يجيره من أن يهان، الله عز وجل لم يجري المؤمن ولم يؤمنه من عدم البلاء، لأن بعض الناس يعني يقول: أنا مؤمن فلماذا أعذب؟ أنا مؤمن لماذا أفقر؟ أنا مؤمن لماذا ابتلى؟ الله لم يؤمنك، لم يقل ذلك، لم يعدك بهذا الوعد، إنما أجارك أن تكون مهانًا، أجارك أن تكون ذليلًا، منعك من أن تكون ذليلًا.

ولذلك أنت ترى المؤمن يبتلى ويكون عزيزًا، يريدون أهانته ويكون، ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فلذلك عليك أن تعرف الذين يسألون الله ويحاسبونه جهلًا منهم، لأن الله لا يجرب، ولا يحاسب جل في علاه، هو يسأل ولا يُسأل، يجير ولا يجار عليه سبحانه وتعالى، هذا وما معنى يجار عليه؟ يعني لو أن أحدًا جاء لمجرم وقال هذا في ذمتي، والله لا يستطيع أن يعذبه!! يعذبه أو لا يعذبه؟! وهو في قصره يعذبه، وهو بين جنوده يعذبه، ويذله وهو غني بين أهله وبين ماله، يذل، يُدخل عليه

أمراضه، ويدخل عليه أضعف خلقه ممن لا يراه، فيتألم ويجأر ويخور كما تخور البقرة، فهو يعذبه، يجير ولا يجار عليه.

فبعض الناس يطالب ربنا سبحانه وتعالى ما لم يعده، هل وعد الله عز وجل عبدًا أن يغنيه فلا يفقره، هل وعد الله عز وجل عبدًا أن يعزه وأن يجعله ملك ولا يسلب منه الملك، هل وعد الله عبدًا ألا يموت، فعليك أن تنظر، الله عز وجل بل وعد سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)﴾ [الفرقان: ٣١]، فهذا وعده أن يكون للأنبياء أعداء، فلا يقول لماذا هؤلاء الأعداء لي؟ أنا الرجل الصادق لماذا لا يكون هؤلاء لي؟

الله عز وجل لم يعدك بهذا، فعليك أن تنظر إلى ما وعد الله، لأن الله سبحانه وتعالى الذي وعد به يصدقه فيه سبحانه وتعالى، وهذا خاتمة كل أمر، ترى أن العلماء والعظماء الله يرفع شأنهم، حتى ولو ماتوا في الفقر وماتوا في السجن، هذا الذي نراه من العلماء في انتشار علمهم، في انتشار سيطهم وكانوا ضعفاء، هذا الذي نراه فيه ابن تيمية رحمه الله مات في السجن، كيف نرى رفعته بين الناس؟ كيف نرى اسمه في العالمين؟ كيف نرى كتبه تنتشر؟ هذا يدل على ماذا؟ يدل على أنهم قد صدقوا الله فصدقهم الله عز وجل، هذا ما نقول في هذا الباب والله تعالى أعلم والحمد لله رب العالمين.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم.

الدرس الثالث والعشرون: المهيمن

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ آخر من أسماء الله عز وجل الحسنى، واليوم الحديث عن اسم الله عز وجل المهيمن، لأنه ضمن سياق ما نتحدث عنه في أنه سبحانه وتعالى السلام المؤمن المهيمن.

واسم المهيمن كما يقول ابن جرير عليه رحمة الله يقول: «أصل المهيمن هو الحفظ والارتقاب»، يعني أنه رقيب سبحانه وتعالى، وهذا الاسم كما يقول الغزالي عليه رحمة الله في المقصد الأسنى يقول: «بأن هذا الاسم يقال بأنه ذكر في الكتب المتقدمة لأنه عنده -كما يعني كلامه- لأنه جامع لمعاني متعددة»، فالمهيمن جامع لمعاني متعددة، والمعنى الأول هو علم الله عز وجل المحيط بكل شيء، وهذا العلم لأنه سبحانه وتعالى شهيدٌ لا يغيب، ورقيبٌ لا يغيب عنه شيء، سيأتي اسم الله عز وجل الشهيد، ولكن الشهيد شرطه هو الذي لا يغيب، فإن غاب لم يحصل منه الشهود، فكونه سبحانه وتعالى له اسم الشهيد، بمعنى الذي لا يغيب، لأن الشهيد شرطه الحضور، فإذا غاب عن الحضور لم يستحق هذا الاسم الشهيد.

الأمر الأول: أول معنى لشرط العلم الذي يحيط بكل شيء هو أن يكون له الشهود ثم أن يكون الرقيب، الشهود بالنسبة له الرقيب ألا يغيب عنه شيء، هو شهيدٌ دائم الشهود بالنسبة لكل شيء، فهو رقيب سبحانه وتعالى، الذي لا يغيب عنه شيء، قال: «هذا اسم المهيمن ينبغي أن يكون شرطه أنه العالم الذي لا يغيب عن علمه شيء، وهذا العلم شرطه الذي لا يغيب عنه شيء أن يكون شهيدًا رقيبًا»، هذا هو الأمر الأول هو وعلمه بكل شيء.

الأمر الثاني: قيامه على كل شيء بما يحقق مصلحته، المهيمن هو قيامه على كل شيء بما يحقق له مصالحه أو مصلحته، فأولًا هو يعلمه سبحانه وتعالى بشروط ما تقدمت وأنه سبحانه وتعالى يمد كل شيء بما يصلحه وذلك هو له صفة القدرة التي لا تنقطع، والقدرة التي لا تغيب، والقدرة التي لا يعتريها ضعف، وهي قائمةٌ على كل شيء بما يحقق المصلحة، مع إعطائه مصالح العباد إلا أن في ذلك الدوام.

الأمر الثالث: الدوام بمعنى أنه لا يعطيه مصلحة ثم ينقطع عنه في الإعطاء، ولا يعطيه حاجته ثم بعد ذلك يفرغ عنه، بل هو يمده بمصلحته على صفة الدوام، ولذلك قالوا المهيمن هذا الاسم هو الحاوي لهذه المعاني الثلاثة بالنسبة للخلق جميعًا، وهو علمه وإحاطته بما يحقق الشهادة والارتقاب على كل شيء، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي يحقق مصالح العباد، ويؤدي إليهم ما ينفعهم ليس فقط العباد والأشياء، أعطى كل شيء خلقه كل شيء أعطاه، ليس فقط العباد.

فهناك الأشياء كلها لها مصالحها الآن الفلك الذي يمشي في السماء قيامه عليه بما يحقق مصلحته، مصلحته أن يتم به تحقيق القدر الذي خلق من أجله وهو الدوران والإشعاع إذا كان مما يشع، وكذلك مقاصد أخرى لا نعلمها، يعني نحن نعلم أنه لو اختلت الشمس اختل نظام المجموعة الشمسية كله، يعني هذا ليس فقط كونها أنها قائمة على نفسها، بأن تكون موجودة، وأن تديم النور والعطاء، هناك مصالح أخرى لهذه الأشياء، من مصالحها أن وجودها يرتبط بوجوديات أخرى، يعني هذه الشمس وجودها يرتبط به وجود المجموعة كلها، ليس فقط أنها تمد الناس بالنور، لا، كذلك لها مقاصد أخرى.

والأشياء لها مقاصد عظيمة لا نعلمها، هذا الجبل الموجود الذي دائمًا سبحانه وتعالى يمثل لنا في عظمته وقدرته فيه، والناس يرونه ولا ينتبهون له، هذا له مقاصد عظيمة جدًا، مقاصد عظيمة منها أنها رواسي وهكذا، معنى رواسي هذه لو غابت الجبال لانزلقت طبقات الأرض، وتنهد الأرض كما تنهد الخيمة إذا أزيلت منها الأوتاد، ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)﴾ [النبأ: ٧]، أوتاد بمعنى تمنع الأرض من أن تنزلق، وأن تتدمر، ومن مقاصد أخرى لا نعلمها، مقاصد أخرى الله عز وجل أوجد للأشياء مقاصد عظيمة كلها تدل على الحكمة، وعلى القدرة التامة.

فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، أول معنى أنه مصدق له، ولذلك قالوا -وهذا من معاني الشهيد-: أنه إذا شهد الأمر فأخبر الصادق بالخبر، ماذا يريد؟ شهد، شهد معه؛ يعني الذي يشهد بالصدق يكون مصدقًا لغيره.

فعندما يذهب جماعة من الناس يختصمون عند القاضي وعند الحاكم، ما الذي يفعله الذي شهد الحادثة التي حولها الخصومة؟ أنه يصدق أحد الخصمين، يصدق الصادق، فانظر مرتبطة بمعنى بعضها البعض أنه هو المصدق لما بين يديه، ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي مصدقًا لما قال فإن ما في الكتاب في القرآن يصدق ما جاءت به الكتب، ولذلك ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ

﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، لأن جريان القرآن على المعاني التي جرت بها الكتب السابقة، يجعله من نفس المصدر والمشكاة.

والناس يقرون خاصةً أهل الكتاب يقرون بأن التوراة من الله وأن الإنجيل من الله وأن الزبور من الله، فإذا جاء كتابٌ يصدقها إذًا هو من نفس العيب ومن نفس المشكاة، فإذن المعنى الأول ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أنه مصدق، وهذا هو تمام العلم وتمام الإحاطة وتمام الارتقاب كما قالوا.

وكذلك ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ بمعنى هنا أنه قاضٍ عليه، فإذا جاء الاختلاف بين هذا وهذا إما على جهة النسخ وإما على جهة أن هذه الكتب قد حرفت، فجاء هذا الكتاب بالحق، فمن الذي يقضي؟ هذا الكتاب ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ بمعنى قاضيًا عليه، هو مصدق له فيما جاء من الحق وقاضٍ عليه، إما إذا حدث الخلاف، إما الخلاف أن يقع بسبب النسخ، هذه كلها فيها أحكام وجاء القرآن فيه أحكام أخرى، فهذه الأحكام التي جاءت في القرآن هي التي يُنتهى إليها ويقال بها.

فهذا الكتاب إذًا يصدق ويشهد لهذه الكتب بأنها الحق، وهذه كتب تشهد له بأنه الحق لأنه من مشكاة واحدة، فهو شاهد لها ومصدق لها وهذا من تعظيم الكتاب والأصل أن يكون الأول هو الذي يشهد، الأصل أن تكون التوراة هي التي تشهد للقرآن، ولكن الله عز وجل جعل هذا الكتاب مهيمنًا شاهدًا لها، بما فيه من الحق والقوة والبلاغة وما فيه من الصدق وفيه من تمام النور وتمام الهداية.

فإذًا الأمر الأول ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، وبعض أهل العلم نظر، كما ترون انظروا لهذه المعاني مهيمنًا إذًا هو مصدقًا ومسيطرًا قاضٍ عليه، ولكن كما ترون في هذه المعاني غير ما يطرأ على الذهن من كلمة هيمن كما هي منتشرة بين الناس، نحن رأينا الآن بأن العلم بالأشياء والقيام بشأنها ودوام القيام بشأنها، هل هذا معنى فيه الرحمة؟ أم فيه الجبر والقهر؟ هذه المعاني التي ذكرناها في قضية الهيمنة مصدقًا له قاضٍ عليه، بأن يبين ما فيه، هل هذا في القهر أم فيه الرحمة؟

ولذلك كثير من أهل العلم قالوا: بأن المهيمن بهذه المعاني، وهي العلم والقيام على الأشياء بمصالحها، القدرة قدرته على القيام عليها بمصالحها وأمدادها بما ينفعها ودوام هذا الإمداد إنما هو مبني على الحب وعلى اللطف، ومبني على العطاء، وليس المنع، لأن كلمة مهيمن في أذهان الناس فيما يسوقونه مهيمن عليه، يعني كأنه يقهره، وإنما أصلها شهيد له ومصدقًا له، حتى هناك الإمام المبرد يقول: «بأن مهيمن مأخوذة أصلًا من مؤمن»، بمعنى مصدق، أساسها مؤيمن، يعني من الإيمان.

فإذًا المعنى الذي يدل عليه مهيمن في أصله ليس ما يطرأ على أذهان الناس من القهر، ولكن الذي يغلب عليه هو معنى الرأفة والمحبة، أي مهيمنٌ عليه بالطف والرحمة وهذا الذي نجده في الخلق، في أصل الأشياء أقيمت على ماذا؟ يقول ابن القيم رحمه الله: «بأن أساس قيام المكونات في الوجود على الحب»، وكأن الأشياء تميل لها لبعضها البعض وكأن الأشياء تقوم على الجمال والتناسق بينها تقوم على هذا المعنى.

نعم يوجد هناك ظلم وهناك يوجد علاقات بين الأشياء فيها الافتراس وفيها القهر وفي القوة، لكن أغلب ما يتم الوجود به يتم على معنى الحب، وهذا العطاء الإلهي يقوم على هذا، يعني ليس على معنى القهر، كما تدل هذه الكلمة في سياق الناس هيمنة عليه، سيطر عليه، بمعنى قهره بمعنى أذله بمعنى كسر خاطره، لا، إنما هي تدل على أن الله سبحانه وتعالى أعطا الأشياء على معنى الحب، والامداد، والذي فيه الرفق وفيه لطف.

فهذا هذا المعنى الذي ينشئ في قلب العبد من إيمانه بهذا الاسم وإقراره لله عز وجل هو أن يتوكل عليه، لأنه أصلًا هذا الإنسان لا شيء، هل هناك شيءٌ يصدر من الإنسان، يعني الناس يهموا في بعضهم كما هو شأن قارون، وقارون هو شخصية كل إنسان في داخله يظن أن الأشياء تنبع من داخله، هل هناك شيء ينبع من داخل الإنسان؟ حتى هذه المشيئة التي تنشأ في قلب الإنسان إرادة للشيء، هذه لو لم يرد الله أن تكون لم تكن.

وهذه الإرادة التي تنشأ في محبة الخير لنفسه، فعندما النفس تنشأ فيها إرادة تحقيق مصالحها، عندما تمشي في هذا الاتجاه وتقوم هذه الإرادة ما الذي أنشأها، هذه مخلوقة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)﴾ [التكوير: ٢٩]، هذه مخلوقة الإرادة مخلوقة فالإنسان لا ينبع منه شيء، ولذلك الله جرده ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة: ٦٤]، إرادتك بأن تمسك هذه الحبة فتضعها في الأرض هذه الإرادة لو لم يخلقها الله عز وجل في نفسك لم تكن وأنت فقط عندك هذه الإرادة في أن تمسكها وتضع الحبة في الأرض، فقط وانتهى دورك، من الذي يعتني بها لتكون؟ من الذي يعتني بها لتكبر؟ من الذي يعتني بها لتصبح ثمرة؟ ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ ما الذي ينبته؟

الإنسان عنده إرادة لدفع العطش، لكن هل يستطيع أن ينشئ بهذه الإرادة الماء؟ ما دورك أنت؟ دورك أن تذهب فتأكل، لكن أنت لا تنشئ الشبع، وأنت لا تنشئ الطعام، وأنت لا تنشئ الماء، أنت لا ينشأ منك شيء، قل هذا ابني، ما معنى ابنك؟ يعني كأن الناس في بعض مظاهر كلامهم يقول هو الذي

أنشأه، له دور في أنشأه، هو لم ينشئ منه شيء، هذا الحيوان المنوي الذي ينشأ في خصية الإنسان، هذا الحيوان المنوي من الذي أنشأه؟ هو أنشأه؟!!

السؤال هل هناك أحد من البشر توجهت أرادته يومًا من الأيام لإنشاء حيوان منوي في نفسه، حتى الإرادة، هل يوجد أحد؟ قال: أنا الآن أريد أن أنشئ في نفسي حيوانًا منويًا من أجل أن أنجب!! حتى هذا لم تكن له إرادة في إنشائه، وبعد ذلك يقول: أنا أريد الولد، كأنه هو الذي له الحق وله سلطة ما في إنشاء الولد، أنا أريد أن أزرع، أنا أريد أن أشبع، أنا أريد أن أرتوي، فقط الإنسان له شيء واحد فقط، وهو الإرادة، والله عز وجل أوجد عنده القدرة في الحركة للشيء، لكن هذه السيطرة على الشيء ليست له، لا يستطيع.

حتى وأنت تمارس في حياتك اليومية ما هو من مظاهر سيطرتك، أنت عندما تذهب إلى السيارة فتحرك مفتاح السيارة، ما الذي تفعله؟ هذا الفعل الكوني القدري بأن تتحرك الكهرباء في السيارة فتحرك الماتور، هل أنت فعلتها؟! هل أنت حركت هذه الكهرباء؟ ما دورك أنت؟

فلذلك هذا إيمانك هذا يقينك بأنك أنت كأسٌ فارغ، البشر كؤوس فارغة، لا يستطيع أحد أن يمدك بعطاء، لا أحد يستطيع أن يدفع عنك، كل يوم نعيش نحن عجزًا ونعرف عجزنا تمام العجز، تصور رجل قدمه تألمه يريد أن يمشي، رجل له قدم تؤلمه أو مشلولة، هل إرادته تستطيع أن تحركها يعني؟ هل يقول أنا أريد أن أمشي؟! لا يستطيع، يده أصبعه لو تألم، كم نرى من الناس تدخل فيهم الأمراض يريد أن يدفعها وجسده هذا جسده.

يستطيع المرء مرات أن يدخل عليه ضيف فيطرد هذا الضيف، يقول له: أخرج من بيتي، يستطيع أن يخرجه من بيته، طيب إذا دخل عنده المرض يقول أنا لا أريدك في بدني أخرج، أخرج من بدني لا أريدك، أليس هذا من تمام القدرة أن يكون عند الإنسان قدرة أن يطرد المرض، ضيف لا أريدك، لا يستطيع، فمن هو هذا؟ وهذا ليس فقط هذا في صاحب الإرادة وهذا في أعظم ما خلق الله في أحسن تقويم وهو الإنسان، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)﴾ [التين: ٤].

فقط الخلاف بين العلماء بين أهل الملة، من هو الأفضل في أصل الخلقة الملائكة أم الإنسان، وإلا فكل مجمع على أن الإنسان هو خير خلق الله في هذا الوجود، والخلاف فقط في الملائكة، هو أفضل من الجن، فإذا كان هذا الضعف في أعظم ما خلق الله وفي أكمل ما خلق الله من المخلوقات، التي قدر الله سننيًا أن تكون، فإذًا هذا المعنى في غيره أوضح من الضعف والحاجة.

فالله يهيمن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم كل شيء، الله عز وجل يشهد لك إن صدقت أن يصدقك، وإن كذبت أن يكشف كذب، لأنه الشهيد سبحانه وتعالى وأن يحاسبك، والله سبحانه وتعالى هو الذي يعطيك وهو الذي يمنعك، هو المهيمن والله سبحانه وتعالى في هذا الوجود هو الذي يسيطر على كل شيء، بعلمه وقدرته وإمداده ولطفه وأساس الوجود قائم على اللطف.

إخواني المشكلة أن الأمة بحاجة أن تعلم الخوف من الله وأن ترهبه، وهذا معنى ينبغي أن يكون وأن يسير في الناس لأن الناس يعصون، ولكن لو تأملتم سريان الأشياء التي أسلمت نفسها لله طوعًا، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، بالرغم أن الجبال ليست من السماوات من الأرض، ومع ذلك خصت بالذكر لعظمتها ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فهذا الإنسان حمل هذه الأمانة ففيه معنى الخوف لابد لحمل هذه الأمانة أن يكون هناك خوف من أجل يقوم على شأنها، لأن هذا الإنسان ظلوم جهول، لظلمه وجهله بحاجة للخوف.

لكن بقية الأشياء بجريان الأمر القدري فيها، ما الذي يغلب عليها؟ يغلب عليها اللطف، يغلب عليها الحب، ومن هنا فهي دائمة التسبيح، لا تستغفر، وإنما يستغفرون للذين آمنوا، **(وإن السماوات والأرض ودواب البحر لتستغفر للذي يعلم الناس الخير)**، لا تستغفر لنفسها، تستغفر لغيرها.

فإذًا هي على أي شيء تقوم على أي معنى؟ هذا الوجود على أي معنى يقوم؟ على معنى الحب، وعلى معنى اللطف، فقط لأن الإنسان ظلوم جهول جاء الخوف في قلبه من أجل أن يتابع مسيرته، لأن الإنسان لولا وجود الخوف ما مشى، أنا أتكلم عن مجمل الإنسان وإلا فكثير من المحبين على شيء يصيبون أشياء من مقام النبوة، **(أفلا أكون عبدًا شكورا)**، يعني انتهى الخوف، لن أعذب، الآن المقام مقابل حب، **(أفلا أكون عبدًا شكورا)** هذا مقام الحب.

فالقصد من هذا أن هذا المعنى الذي يقع في قلب العبد لاسم الله عز وجل المهيمن يجعله يسلم نفسه لله، ويفرغ نفسه من كل شيء، وهذا هو التوكل، التوكل ألا ترى نفسك في هذا الوجود يستطيع أن يفعل شيء، ولا ترى لأحد من الخلق قدرة **(واعلم أن الأمةَ لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ؛ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ؛ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ عليك، رفعتِ الأقلامُ، وجفَّت الصحفُ)**، ترى البشر أواني فارغة، فلماذا يفعلون؟ ابتلاء من الله وإلا ولو اجتمعت الأمة أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك، لم ينفعوك به، خلص رفعت الأقلام وجفت

الصحف، الإيمان بأن الله يعلم كل شيء وأنه رقيب وأنه شهيدٌ؛ يجعلك تخاف من الله سبحانه وتعالى وتراقب أفعالك وهو رقيب على كل شيءٍ، رقيب على السر وأخفى، رقيب على ما تظهر وما تكتم، رقيب على أدق ما ينشأ في قلبك هذا يجعل عندك الحرص ألا تكون في قلبك العقارب من الحسد ولا الأفاعي من الحقد ولا من تبييت الباطل، الرقيب هذا مطلع على قلبك.

وأن ترى هذا الوجود كله لا يستطيع أن يُنشئ شيئًا لا يستطيع، الله عز وجل جعل الري في الماء وإلا فالماء لا يستطيع أن يروي بذاته، ولو شاء سبحانه وتعالى لنزع الري من الماء فلم يكن مرويًا، وبعض التواريخ تذكر عن أناس أصيبوا بمرض العطش فيشربون ولا يرتوون، وبعضهم يأكل ولا يشبع، والماء الذي فيه الإغراق مشى فيه موسى عليه السلام، الله عز وجل أقامه لك كالجبل، الله عز وجل لا يعجزه شيء.

فأنت عليك أن تتوكل على الله هو بيده كل شيء، وحينئذٍ تشهد هذا الوجود أنه لا يحصل منه شيء إلا بإذن الله، لا يحصل فعل فهذه حركة الهواء وهذه حركة الضوء وهذا حركة الناس والبشر، هذه لا تحصل إلا بإذن الله، مراقبتك لله عز وجل لأن الله يراقبك، ومراقبتك لإنعام الله عز وجل لأن الله يمدك في كل لحظة هذا النفس يتلذذ هذا قيام من قيام الله بك قيام الله عز وجل قيوم.

فلذلك هذا يريح العبد، يريح العبد لأنه لواحد، لكن يجب أن يفهم هذا المعنى، إذا وقع في قلبه معنى –هذا مهم جدًا– إذا وقع في قلبه معنى أن الله عز وجل يجري الحياة على معنى واحد من العطاء بلا منع، والعطاء بلا بلاء المنع، فحينئذٍ وقع في الضلال، هذا خطأ، أو يظن أن هذه الحياة لدنيا هي الذي يعطيه الله هو الأحب الى الله هذا هو الخطأ، هنا هذه هي المشكلة.

أكبر مشكلة في البشر هو هذه المشكلة؛ أنهم يظنوا أن الله إذا أحب عبدًا في هذه الدنيا أجرى له من معاني العطاء الدنيوي، والله يقول: **(لو كانت الدُّنيا تعدِلُ عند اللهِ جناحَ بعوضةٍ ما سقَى كافرًا منها شرْبةَ ماءٍ)**، يعني الله يستحي أن تكون هذه الدنيا، الله يستحي ومعنى يستحي حياء الله عز وجل حيي، يستحي أن يجعل هذه الدنيا دار إكرام للمؤمن، أي أن يقدمها له.

ولله المثل الأعلى والله لو دخلت على رجلٍ فتصور أن يكرمك ببقايا الطعام يعني طعام بايت، الذي تطعمه للدجاج والدواب، هي أقل من جناح بعوضة، ومن أجل أن تصيب الخير الأعظم يحرمك من هذه الدنيا ابتلاءً؛ حتى تبقى على دوام الصلة به حتى لا تلهيك هذه الأشياء، هذه الأشياء الدنيوية ملهاة.

هنا كيف كان علماؤنا؟ وهذه قاعدة الكون وقاعدة السنة الربانية مع أهل الحق **(أشد الناس بلاءً الأنبياء)**، **(إن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا دينارا)**، حتى لو بقيت معهم بقايا أشياء من الدنيا بقايا أشياء عند موتهم هي لم تكن لهم ليرثها أبناؤهم، هذه مقامات يجب أن تفهمها.

فثقتك بالله أنه هو المهيمن، وأن هيمنته على عبيده تقوم على الحب واللطف وعلى الرعاية وعلى العطاء.. هذا يجعلك تحب هذا الإله تحب، هذا الإله يحب لأنه يمن ويعطي أكثر مما تريد، وأنه سبحانه وتعالى يخاف منه ويُستحيا منه، **(استحيوا من الله حق الحياء)**، علينا أن نستحي من الله لأنه مطلع.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا حبه وأن يرزقنا الإيمان به إيمانًا تامًا كما آمن الأنبياء وآمن الصديقون وآمن الشهداء، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل في قلوبنا من الحقائق التي هي حقائق ونراها يوم القيامة، نراها بعد الموت، يجعل في قلوبنا علم وحقيقة أن هناك القبر وأن هناك لقاء الله وهناك السؤال وهناك الصراط وهناك المحشر وهناك الجنة وهناك النار، نسأل الله عز وجل أن يجعل في قلوبنا محبة لقائه، محبة اللقاء به، وأن يرزق في قلوبنا الشوق لرؤياه، إلى رؤية وجهه والى استماع كلامه سبحانه في علاه، يستمع العبد يوم القيامة كلام الله سبحانه وتعالى ويرى وجهه الكريم، ويتنعم في جنان النعيم.

هذه هي المعاني التي ينبغي أن تكون عندنا في ذكرنا لأسماء الله عز وجل، فإنما قامت الأسماء والصفات من أجل تحقيق العبودية ومن أجل أن نحبه، انظر كلمة حُسن يعني حب، يعني شغف، يعني تعلق، كلمة حُسن فلو قلت هذا معنى حسن، فتعني قلبك يتعلق به، لو قلت هذا شيءٌ حسن يعني قلبك يتعلق به، لو قلت هذه امرأةٌ حسنة؛ أن قلبك يتعلق بها، فكيف وأنت تقول أسماء الله الحُسنى؟ فإذًا هو أساس هذه الأسماء أن التعلق به، والتعلق به يعني دوام ذكره.. هو حبيبك فلماذا لا تديم ذكره؟ هو حبيبك لماذا لا تقرأ كلامه؟ الله أكبر، الله أكبر، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

الله عز وجل أنزل كلامه لنقرأه، تصور أنت تقرأ وتجري على لسانك كلام الله.. كذلك الحُسنى هذا من أجل أن نحبه وأنزل كلامه الحسن، ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، هذا كله ليصنع التعلق به جل في علاه.. أسأل الله أن يرحمنا برحمته وجزاكم الله خيرا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا دراسة الأسماء سبحان الله تواجه موجة الإلحاد كالمعاني التي ذكرتها الآن؟

الشيخ: بلا شك هو القلب إذا غفل عن معاني أسماء الله عز وجل لاسود القلب وينشأ العداء، انظر نحن في نهاية الكلام وهو أصل الكلام هو أن ينشأ التعلق؛ تعلق القلب بالله، تعلق الحب لله، انظر تعلق الحاجة ولكن هذه الحاجة تصنع كالطفل متعلق بأمه تعلق الحاجة ولكن هذه الحاجة تعلق الحب والشغف، كأن يشعر انه لا يستطيع أن يعيش بدونها، فإذا غابت عن وجهه بكى، إذا غابت عن ناظريه بكى، إذا هذا المعنى غاب ينشأ العداء.

الملحدون ليسوا ملحدين في القلوب الله قرر هذا ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، لا يوجد ملحد إلا بعد أن يسود قلبه فلم يعد يفكر، لو سألته هو ينكر إنكار الذي لا يفكر، أما في بداية الأمر لا يوجد كافر بالله -الملحد بالمعنى والاصطلاحي المعاصر أي أنه ينفي وجود الله- إلا وهو يتخذ الإلحاد وسيلةً لعدائه لله، وهو ينكر حق الله عز وجل، لا يريد أن يعبده، فالشيطان يؤزه أزًا لا يريده أن يعود ويعبد الله عز وجل، فيريد الشيطان أن يبعده حتى عن أبواب العودة إلى الله فيبدأ من عدائي لك أنك غير موجود أصلًا.

فلما يقولوا هؤلاء الملحدون المعاصرون عن الله عز وجل غير موجود هذا من عدائهم، تمامًا كما يفعل الناس، ويقولون بعضهم لبعض -جل في علاه، جل في علاه- احتقارًا لهم يقولون أنت غير موجود أصلًا، وإنما يقصد بنفي الوجود ونفي الحق ونفي الاعتراف وكأنه هباء، هذا هو فقط.

فإذا غاب الحب غاب الإقرار غاب النظر إلى أسماء الله وصفاته غاب النظر إلى حق الله، فتنشأ هذه العداوة التي تؤدي إلى نفي وجود الله عز وجل تعالى الله جل في علاه، وابتداء الأمر إقرارهم بالوجود هو الذي يترتب عليه، فبعضهم يصل إلى درجة قبلها وهو قضية أنا لا يهمني هذا، بعض الملحدين يقول: أنا لا يهمني الله موجود أو غير موجود لا يهمني، والمهم أنني إنسان ومستقل في هذا الوجود وأستطيع أن أتدبر شأني بعيدًا عن الله خلقني أم لم يخلقني هذا لا يهمني، وهذه مرتبة من مراتب الإلحاد.

والناس يكفرون والشيطان يؤزهم، هذه أراها واضحة عندما يبدأ الإنسان يغضب، يقول: لا، لا، زيد قليلًا زيد في الكلام.

السائل: شيخنا هم يبرروا بتفسيرات علمية.

الشيخ: ولذلك هي خرافة هي خرافة أكاذيب لا وجود لها لا وجود لهذا المعنى، لا وجود علمي لها في قلبه، إنما هي الغضب وعدم الرضا بالله، وعدم فهم سنن الله وهكذا، وهذا الغضب مشكلة، يصل إلى هذه الدرجات مما يقولونه عن الله، والحقيقة أن الملحدين في خطابهم الخارجي عندما يكونوا موسومين بسمة العلم يخاطبون بخطاب العلم، ولكنهم في الحقيقة إذا تحدثوا إنما كان خطاب السفاهة والسب والتحقير، أنا سمعتهم كيف يتكلمون، يتكلمون خطاب السفهاء وليس خطاب العلم، لو تجلس معهم ممكن يخاطبك يقول لك: أنا أناقش علميًا، لكن هم بينهم خطاب السفاهة والحقارة والسِباب، وهذا كله يدل على أن المسألة هي مسألة نفسية.

فالإلحاد هو لا علاقة له بالعلم، لا علاقة له بالعقل، لا علاقة له بالتفكر، هو مسألة نفسية.. انهيار نفسي في أنهم ينكرون الحقوق لا يريدون الحقوق، لا أتكلم عن الحقائق، الحقائق مسألة علمية، أما ينكرون الحقوق هم ظلمة وفاسدون يعني يريدون التحرر، وأغلبهم بعد ذلك تنشأ عندهم الأمراض الخلقية الخطيرة الجنسية، الكثير من الملحدين في بلادنا هم لوطيون، أغلبهم، أيام تنشأ المسألة وأنا تابعت للبعض لست متخصص في هذا الباب، لكن الاساس هو أساس أخلاقي، فيريد أن يتحرر من عقدة الإثم، فخلاص، نسأل الله العفو والعافية.

وللذكر يا إخوان أريد أن أنبه على نقطة، هذه يجدها المرأة عندما ينشط في العبادة وعندما يقصر في العبادة، إياكم أن تظنوا أن أحدًا في الوجود مهما بلغ دينه، مهما بلغ عقله، مهما بلغ عدله وإنصافه أنه ممنوع من أن يصل إلى هذه الدرجة من الانحطاط، قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾ [محمد: ٢٤]، يظل القلب يسود بالمعاصي قليلًا، قليلًا يسود، وهو يبرر والناس تبرر أنا ضعفت وهكذا يضعف قليلًا، قليلًا.

وكما قال صلى الله عليه وسلم: **(ما زال الرجل يتأخر حتى يؤخره الله)**، الرجل ما زال يبتعد، يبتعد حتى يصل إلى درجة، لو قيل له في يوم من الأيام ستصلها لقتل نفسه، والله هناك شخص لا أريد أن أذكر اسمه لسفالته وانحطاطه، الآن أنا أرى صورته مرات كيف كان وكيف صار؟ لكنها اتباع خطوات الشيطان قل ما تشعر، كما أنك كبرت الآن، لكن لو أتيت به وهو صغير هل صحيح أن هذا هو هذا؟ وارتقاءه هكذا، ارتقاؤه كيف؟ لحظة بلحظة، الانهيار لحظة بلحظة وزيادة الإيمان كذلك المرء يرتقيها ليس مرةً واحدة لحظة بلحظة.

ولذلك إياكم حافظوا، كالراعي يرى حول الحمى، لتطلب معالي الأمور، لأنه إذا نزلت قليل مع ذلك اقتربت إلى الشر مهما كانت درجة النزول، إياك أنت تقوم الليل لا تترك قيام الليل، أنت تصلي الفجر جماعة إياك أن تتركها، أنت عندك ورد أن تقرأ القرآن في كل أسبوع إياك أن يصبح كل عشر أيام، إياك لأنه إذا أصبح كل عشر أيام غدًا يصبح إحدى عشر يوم، بعدها يصبح اثني عشر يوم، بعدها يصبح شهر، بعدها يصبح شهرين، بعدها تهجر القرآن وأنت لا تدري، نسأل الله العفو والعافية، نسأل الله العفو والعافية.

ودائمًا أكثروا من الدعاء في السجود يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، النبي صلى الله عليه وسلم كان من أكثر دعائه هذا الدعاء: **(يا مقلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلبِي على دينِك)**، هذه القلوب لا تدري كيف تتغير، فنسأل الله أن يميتنا على التوحيد ويميتنا على السنة ويميتنا وهو راضٍ عنا، نعوذ بالله من ضلة الفتن، والهوى إخواني مداخله خفية فاحذروا منه، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا.

السائل: شيخنا في لقاء مع زعيمة منظمة الحديث في المغرب تذكر الأقسام التي ذكرتها هي قسم تقول نحن قسم ربانيون أو شيء كهذا تقول أنا أؤمن برب لكن أؤمن بمبادئنا، وفي بعض لحظات الضعف أحتاج إلى رب أخلو بيني وبينه لكن أؤمن بمبادئنا، سبحان الله!!

الشيخ: هذه تكون قريبة، لو وجد من يحاورها ويترفق ممكن.

السائل: لكن هي تقول في بعض اللحظات تحتاج إلى رب في لحظات الضعف!

الشيخ: هؤلاء للأسف يريدون رب نافع يعني كالاعتراف عند الكنيسة، ففي الكنيسة عندهم شيء اسمه الاعتراف عند الكاثوليك والأرثوذكس أيضًا، فمرات يحتاج أن يريح نفسه والله أعظم من ذلك، الله أنت تحتاجه في كل وقت ولذلك خمسين صلاة يا عبد أساس ضعفك –انتبه– العبادة إنما هي منشأها تحقيق رضا الله، ولكنها كذلك من أجل أن تحقق لك السعادة، فكانت سعادتك لا تتحقق إلا بخمسين صلاة يا عبد الله، خمسين صلاة في اليوم والليلة على أربعة وعشرين ساعة لو قسمتها فكل نصف ساعة تحتاج إلى صلاة.. لماذا؟

للحديث وإن كان عليه كلام، **(تحترقون)**، الحديث **(تحترقون)** يعني أنت في حرق فإذا صليت أطفأت النار، أنت تحترق، يعني أنت في نار تذهب للصلاة من أجل أن تطفئ النار، تصور هذه النفس كم تحجب وكم تتعذب؟ **(أرحنا بها)**، علامة أنه قلق، علامة قلق وتعب، فكم هذا ضعف الإنسان؟ يحتاج إلى خمسين مرة في اليوم من أجل أن يرتوي لأنه عطشان، أن يرتاح لأنه تعبان، أن يبرد عليه ألمه لأنه يحترق.

فهذا نحن.. والله عز وجل رحمةً بنا خمسة صلوات جعلها بمقدار خمسين صلاة، ضرب مثلًا في الصلاة صلى الله عليه وسلم: **(كنهرٍ في باب بيت أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى على درنه شيء؟)**، علامة أنت ماذا؟ خلال بين هذه الصلوات أنت تتسخ، هذه كلمة تتسخ لا تأخذها فقط أوساخ على البدن، آلام على القلب، آلام على النفس اضطراب مرض، أمراض تتعلق بك، إرهاق ينشأ في قلبك. فأنت تصلي وكلما كانت صلاتك عظيمة كلما كان الدلك كدلك أمك لما كانت تغسلك -تتذكروا لما أمهاتنا يغسلننا كيف الليفة تكون، كلنا أظن مرينا بهذه التجربة وهذه الصابونة صابونة النابلسية التي إذا تضرب بها رأس اليهودي تفلخه، وبالماء الساخن وهكذا-.

فهي بالحقيقة الصلوات بقدر قوتها تنظفك، بقدر ضعفها تزيل بمقدار ما تحقق فيها من خشوع. نسأل الله أن يرحمنا برحمته، والله يا المرء يعني لما يصل لدرجة موت القلب فلا يشعر أنه يحترق ولا يشعر أنه يذنب، يموت إحساسه، فأي إنسان هذا ميت إحساسه، أن الذنوب لا تؤلمه، والمعاصي لا تؤثر فيه، يأتي كبار الذنوب وإذا قيل له أنت مجرم يقتل كالذين يقتلون المسلمين يقتلون الناس والأطفال يحرقونهم، كيف ينامون هؤلاء؟ والذين يسرقون أموال الناس كيف ينامون؟ خلاص مات قلبه، لم يعد إنسانًا يؤنس إليه، الإنسان من الأنس هذا لا يؤنس له، هذا صار ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [الفرقان: ٤٤]، اللهم رحمتك ومغفرتك، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت إني كنت من الظالمين.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الرابع والعشرون: العزيز

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الحُسنى وهو اسم العزيز، هذا الاسم كما يقول الإمام ابن العربي عليه رحمة الله، يقول في كتاب الأمد الأقصى: «بأن هذا الاسم أجمع عليه أهل الملة، ولكن أختص أهل السنة بمعانيه الجليلة»، هذا الاسم كثر ذكره في القرآن الكريم وكثر ذكره في السنة النبوية، وحتى أنه ورد في القرآن أكثر من اثنتين وتسعين مرة، هذا الاسم العظيم لربنا سبحانه وتعالى، وورد مقترنًا في أكثرها مع أسماء أخرى نمر على ما نقدر عليه من سبب هذا الاقتران الذي يصنع محامده عظيمة وجليلة لربنا سبحانه وتعالى.

ونحن نعلم القاعدة: أن الشيء إذا كثر ذكره دل على عظمته، ودل على أهميته، وكما أنهم يقولون: أن الشيء إذا كثرت أسمائه، دل على اهتمام الناس به، ولذلك يحبون السيف فيكثرون أسمائه ويحبون الخيل ويعرفون قيمتها وحاجتهم إليها فيكثرون للخيل الأسماء الكثيرة وللسيف ولغيرها وللأسد لأنه مهم هذا الأسد الملك، فتكثر أسماؤه، وكذلك إذا كان هذا الاسم دالًا على عظيم منبهًا لمعنى عظيم فإن الناس يكثرون من ذكره.

والله سبحانه وتعالى كما ذكر الإمام القرطبي عليه رحمة الله، وهذا من أجل ما ينبغي أن يذكره المرء لنفسه، أن يعظ به نفسه، قال: «لما علم ربنا سبحانه وتعالى أن العبيد سيعجزون عن حمده، تكفل ربنا بحمد نفسه وتعليم عبيده كيف يحمدونه»، **(لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)**، فلما علم أنهم سيعجزون عن حمده جل في علاه حمد نفسه، وهذا دليل على استغناء ربنا عن محامد كل العباد، وإنما هو يحب أن يسمع الحمد منهم وإلا فهو مستغنٍ عنهم، وحمده لنفسه هو أجل المحامد، وحمده لنفسه يكفيه، ولكن ربنا سبحانه وتعالى يحب أن يسمع محامده من لسان غيره فخلق الخلق ليحمدوه.

فأعظم عبادةٍ للعابدين هو أن يحمدوه، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم اسمه محمد، واللواء الذي يحمله صلى الله عليه وسلم الذي تجتمع حوله هذه الأمة هو لواء الحمد، فهذه الأمة حمادون وهكذا، فالله

سبحانه وتعالى أكثر ذكر هذا الاسم في القرآن الكريم، لأن العبيد يدخلون إليه من هذا الاسم عبادةً تامة بها يتحقق معنى العبد.

أنت عبد والعبودية تقتضي مظاهر عدة أولها أنك أنت أدنى فبالتالي أنت ضعيف وأنت محتاج وأنت فقير، أنت أدنى، أنت عبد، أنت لا تملك من أمرك شيئًا، فأعظم ما يدخل به الناس لربهم ليفرحوه هو أن يعبدوه سبحانه وتعالى، ومن أعظم ما يحقق العبودية هو أن يتعبد العبد ربه باسمه العزيز.

تأملوا، أنت أولًا تقول: «لا إله إلا الله»، بها تفتح باب العبودية لربنا سبحانه، «لا إله إلا الله» هذا هو المفتاح، تفتح باب العبودية لتلج إليه، فهو واحد، عز نظيره لا يشركه فيما يستحق به العبودية لأحد، هذا هو معنى العزيز، العزة هي الانفراد، وكل طعنٍ في الانفراد طعنٌ في عزة ربنا، فهو العزيز عزة مطلقة التي لا يشركه فيها أحد.

ونحن نقول إذا كان الشيء نادرًا خطيرًا بمعنى لا يشركه شيء، لا يشابهه شيء لا ينازعه أحد، نقول هذا شيءٌ عزيز نادر، فإذا كانت العزة مطلقًا، قد تطلق فكلمة العزيز في الوجود تعني النادر يعني قلة الوجود لكن تعني كذلك أن هناك ما يماثله، يقول: فلان عزيز لكن يشركه، كما يقول: الملك عزيز، يقول: هذا عزيز، عزيز مصر يعني ملكها الذي لا يشركه في مصر أحد، لكن كذلك هناك ملوك في الأرض يشركونه في معنى الملك، وقد تقول عن الجوهرة هذه عزيزةٌ نادرة لكن قطعًا يوجد ما يشبهها ويماثلها.

لكن عندما تقول عزة مطلقة لا مثيل له، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص: ١-٤]، لا أحد يساويه، لا في أسمائه ولا صفاته ولا أفعاله جل في علاه.

فأولًا معنى العزيز هو النادر، هذا معناه «لا إله إلا الله»، عزةٌ مطلقة لا يشبها شيء ولا يشاركه فيها شيء، ولذلك الآن هذه العزة ساريةٌ في كل أسمائه، هذه العزة بهذا المعنى ساريةٌ في كل أسمائه، فإذا قلنا المهيمن فهو عزيزٌ في هيمنته، وإذا قلنا الخالق هو عزيزٌ في هذه الصفة، وإذا قلنا الرزاق هو عزيزٌ فيها، هذه عزة تدخل وتؤتي ثمارها في كل الأسماء الأخرى التي نؤمن بها، وأخبرنا الله سبحانه وتعالى عنها.

ومن معاني العزة، قال: فلان عزيز، بمعنى قوي الذي لا يشركه في القوة أحد ولذلك يقال حصنٌ عزيز بمعنى منيع، بما تأتي المناعة؟ من القوة، ولذلك قال: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣)﴾ [ص: ٢٣] غلبني، بما غلبه بقوة خطابه، إما بقوة خطابه إذا كان الحجاج عقليًا، وإما بقوة ما معه من قوة أن أمضى قوله فيه، فلذلك العزة هي المنعة والقوة، المنعة إنما تأتي بسبب القوة، ولولا وجود القوة لما وجدت المنعة، ولو أدعاها الناس

لهتكت، يعني قد يدعي أحد أنه منيع لا يستطيع أحد أن يغفر ذمته، ولا أن يأخذ ماله ولا أن يفسد عليه حاجته، لكن يأتي من ينازعه فيفسد عليه حاجته، وهذا المعنى سارٍ في كل الخلق، من أجل إظهار هذا المعنى من العزة، تجد أن كل شيء مألة إلى الضعف؛ لأن من أعظم مظاهر ربوبية الرب على الخلق، هو أن يكون عزيزًا.

فالله سبحانه وتعالى متفرد فليس هناك شيء مثله، لا يوجد مثيل له، فالله سبحانه وتعالى عزيز، ومن أجل أن تبقى هذه العزة دائمة سرمدية فلا يوجد له مثيل، ويقتضي هذا أن كل من انفرد بمعنى أن يفقده، ولذلك في الحديث في صحيح مسلم قال صلى الله عليه وسلم: **(قال الله تعالى: العزة إزاري والكبرياء ردائي، من نازعني عذبته)**، ما معنى منازعه؟ في كونه أنه الواحد، في كونه أنه لا يماثله أحد لا في قوته هو منيع.

فإذا أعطى سبحانه وتعالى وهو المعطي هو الذي يعطي، إذا أعطى ربنا سبحانه وتعالى لأحد معنى من معاني العزة لأن العزة قد تكون في الخلق، الله عز وجل سمى عزيز مصر، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، يعني يجوز للمرء أن يطلب العزة -وهذا سنبينه- يجوز للمرء أن يطلب العزة، ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ [الصافات: ١٨٠]، فالعزة مخلوقة، يخلق الله العزة بمعنى القوة وبمعنى الانفراد هذا من خلقه يعطيه لبعض خلقه، ولله العزة أثبتها لرسوله، ولها معنى خاص لربنا، ولكنها معنى كذلك بشري مخلوق للعبيد الذي يعطيهم هذا المعنى لهم.

فالله سبحانه وتعالى يعطي هذه العزة للخلق ولكن، لأنه العزيز لابد أن يسلبهم منها، مهما بلغ محبة ربنا لهم، من أجل إبقاء مظهر هذه العزة قائمًا لا ينازع فيه، أولًا حتى الأنبياء أصابهم اللأواء والضعف، لماذا هذا النبي العظيم المؤيد المنصور من قبل الله، والذي يتحصل العزة في بدر لماذا يهزم في أحد؟

خذ هذه القاعدة: خذها دائمًا في نظرك، الله عز وجل لا يمنعه ولا يردعه عن المعاني التي يحبها أحد من الخلق مهما كان، المهم هي المعاني وما خلق الله الخلق إلا لهذه المعاني التي يحبها الله، الناس يقولون يعني هذا رسوله لماذا تكسر رباعيته؟! فلو جرت المعاني على ما يجري عليه الخلق لأفسدوا الكثير من المعاني مقابل ما يحبون وما يبغضون، الأب الذي يحب ابنه حبًا جما، ألا يقع منه الخطأ في هذا الحب؟ فيفقد المعاني الأخرى معاني التربية، معاني الإحسان إليه، الإحسان الصحيح، معاني العدل بين الأبناء، معاني العدل لو وقع منه الخطأ مع الناس كيف يضرب ابنه مع محبته له، ألا يقع منه الخطأ في هذه الأبواب

الاب؟ يقع، فيفقد هذه المعاني مقابل هذا الحب، هذا الأمر معدوم في نفس الرب، لا يقبله، المعاني عند الله أعظم مما يحبه من الخلق ويبغضه من الخلق.

ومن هنا فإنه سبحانه وتعالى يعطي الكافر ما يطلبه، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، هذا من عدله، معنى العدل أعظم، هو يبغضه ومع ذلك يعطيه، وهو يحب النبي صلى الله عليه وسلم، فيقع الخطأ من صحبه فيقتلون ويهزمون ويتألم النبي صلى الله عليه وسلم، هذا المعنى يجب أن يبقى في أذهاننا، الله لا يمنعه ولا يردعه جل في علاه أحد في أن يوقف المعاني وإقامة هذه المعاني.

يعني المسلمون دائمًا يسألون لما هذا؟ ألسنا مسلمين؟! لماذا نحن ضعفاء؟ لماذا يقع هذا؟ هذا السؤال ينشأ، ومن هنا فإن العقلاء قالوا –هذه أنا أكررها كثيرًا لأنها باب من فهم تعاملنا مع جريان الأقدار الإلهية– «أعظم شرك في الوجود قدم من باب الجهل على أقدار الله»، هذه قالها جموع من أهل العلم، وجموع من المفكرين، فقالها ابن تيمية وقالها العقاد، في كتاب «الله» للعقاد قالها، وابن تيمية قالها من قبله في «مجموع رسائل والمسائل» قالها، «أعظم أبواب الزندقة والكفر تنشأ في القلوب بسبب الجهل بالقدر».

لا يفهمون أقدار الله فيسبون الله، وتقع في قلوبهم معاني الباطلة فإما يحرفون معاني القدر، وإما يحرفون معاني الشرع ما يحب الله وما يبغض، لا يفهمون القدر فهمًا صحيحًا.

نعود فمن عزته سبحانه وتعالى من عزته ليبقى هذا الاسم متجليًا بربنا سبحانه وتعالى دون سواه فإنه سبحانه وتعالى يجري معاني إسقاطه على الخلق حتى لو أحبهم، ومن ذلك أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة لا تُسبق، الصحابة فرحانين ناقة النبي صلى الله عليه وسلم، فلا تُسبق، فجاء إعرابي على قعود فسابقها فسبقها، فعز ذلك عليهم أعز تألموا، تألموا أن تسبق ناقة النبي صلى الله عليه وسلم، آلامهم هذا أما من المعاني، قلنا آلامهم قلنا الله عز وجل لا يحب أن يؤلم عبيده المؤمنين الذي يحبونه.

ولذلك قال سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: **(وما تردَّدتُ عن شيءٍ أنا فاعلُه تردُّدي عن قبضِ نفسِ المؤمنِ، يكره الموتَ وأنا أكْرهُ مساءتَه)**، الله يكره إساءة المؤمن، فجاء قعود فسبقها فعزت وتألمت القلوب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(ما ارتفع شيءٌ –ارتفع بدأ يعز ويرتفع وينفرد– إلا كان حقًّا على الله أن يضعه)**، هذا العزيز، لماذا؟ ليبقى هو العزيز جل في علاه.

إذن العزة أولًا تقتضي الانفراد، هذا الانفراد يكون بتحقق معاني، أول معنى لتحقق الانفراد في الوجود هو القوة، هذه القوة تصنع المنعة، وأشد ما يعذب ربنا إذا نُزع، وخاصةً إذا نُوزع في المعاني، إذا نازعه أحد في المعاني أنا الذي لا أموت؛ يميته شر ميتة، أنا الذي يحدث عن الله يظهر كذبه حتى ليضحك به الصبيان،

إذا أحد نازع الله في المعاني التي يحبها، أنا أحب فلانًا، الله يحب الصحابة فأحد يريد أن يأتي ويسب الصحابة، قال صلى الله عليه وسلم: (مَن صلَّى الصُّبحَ في جماعةٍ فَهوَ في ذمَّةِ اللَّهِ ، فمَن أخفَرَ ذمَّةَ اللَّهِ كبَّهُ اللَّهُ في النَّارِ لوجهِهِ)، ما معنى هذا؟ هذا أغلبه في أوله في نصه هو دعوة للمؤمنين أن يحترموا من صلى الفجر، وألا يؤذوه، لأنه إذا أذوه أرادوا خفر ذمة الله أن يخفروا ذمة الله، فالذي ينتصر له الله عز وجل.

فالله سبحانه وتعالى يعلمهم إياكم، هذا منيع هذا سوار منيع لا تقتربوا منه، انظر الله يحب الصحابة (من عاد لي وليًا فقد آذنته بالحرب)، انظر شأن من سب الصحابة، تقول بشر هم أضل من الحيوانات لأنهم خفروا ذمة الله، من صلى الصبح في جماعة كان في ذمة الله، فهؤلاء دخلوا الجنة وماتوا موحدين، ونصروا الدين.

فالله منيع وهذه المنعة تقتضي القوة، وهذه العزة لا تكون ممدوحة إلا بأن تكون كريمة معطاءة، لأن العزة التي يتم بها الانفراد، ويتم بها المنع الذي لا ينفذ إلى غيره شيء تكون مذمومة، وهذا الاسم حسن، فالعزة لا تكون حسنة إلا بأن تكون كريمًا، معطاءً، ولذلك هذه المعاني يقول من أجمل ما يذكره وأن ناقضه ابن العربي في «الأمد الأقصى»، قال: «لا تكون العزة إلا بهذه المعاني الثلاثة:

المعنى الأول: الانفراد.

المعنى الثاني: القوة والمنعة والغلبة.

المعنى الثالث: أن يحتاج الكل إليها»، عزةٌ يحتاج الكل إليها، وهذه الحاجة تقضى منه، هم يحتاجون ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، والله سبحانه وتعالى هو الذي يعطي هذه العزة للخلق.

فهذه هي المعاني العظيمة في اسمه جل في علاه العزة، العزيز، وهذه العزة لربنا سبحانه وتعالى اقترنت في القرآن بأسماء أخرى، قلنا دائمًا القرآن يقوم بالتعديل والتجميل، الزيادة، يعدل المعاني الباطلة، حتى لا تقع معاني باطلة فيعدلها، وكذلك يزيدها من المعاني بالاقتران، فالاقتران في الأسماء الحسنى، من أجل زيادة المعنى.

بل يقول ابن القيم رحمه الله: «أن هذا الاقتران يصنع معنى جديدًا»، هذا الاقتران لا يعدل فقط بل يصنع معنى جديدًا، فلذلك هو يعدل ما يطرأ عليه في الذهن من معاني إذا انفردت، يقول العبد كذا وكذا

فيأتي هذا الاقتران، من أجل أن يعدل هذه المعاني التي تطرأ في الذهن، وبعد هذا الاقتران يكون معنى جميل آخر جديد، وهذا تكلمنا عنه كثيرًا.

فلنرى كيف اقترن هذا الاسم من المعاني الأخرى، إذًا معنى عزيز: نادرٌ، ممتنعٌ، قويٌ، غالبٌ، والكل يحتاج إليه جل في علاه، **(العزة إزاري والكبرياء ردائي)**، هذا حديث قدسي وفي صحيح مسلم، نريد أن ننفذ إلى بعض معانيه من أجل أن نستجلي معنى العزة، ولكن من الذي يُحتاج إليه؟ والله لا يحتاج، لكن انتبه الألوهية لا تقوم إلا به، فرق بين الاحتياج، ولكن فرق بين تمام الموصوف أن يكون في هذا الوصف، واحد يحتاج هذا الاسم فهو فقير يستمده من غيره، محتاج له فيستمد، كأن يكون الرجل فقير فيستمد اسم الغنى من غني يضعه في داخل حسابه، كمن يقول له: خلاص وضعت اسمك في الحساب البنكي، فتستطيع أن تصرف، فإذن هو أحتاج اسم الغنى من غني.

وقد يكون واحد ضعيف فاحتاج اسم القوي من القوي فيدخله تحت سلطانه، يقول له خلاص أعطيتك –كما كان قديمًا– أنت رجل مئة، يعني عندك مئة رجل أعطيك من جنودي، فستمد من غيره، هذا فرق عند الاحتياج الذي يستمد من غيره وبين من لوازم الصفة أن تكون فيه، هذه نذكرها لما سيأتي من معاني، فإنه لا يكون إلهًا إلا وهو قوي، ليس لحاجته إلى القوة، ولكن لأن القوة فيه فهي تستلزم أن يُعبد وأن يطلب منه وأن يلتجأ إليه.

ولله المثل الأعلى ولكن للتقريب، رداء المرء أعز من إزاره ولكن حاجته إلى الإزار أكثر، الرداء أعظم وأجّل لأنه مظهر قوة المرء، والناس ينظرون إليه ويعرفون مقامه من خلال لباسه، وما وضعه على صدره وعلى كتفيه، ولكن الإزار يستر عورته، فهذا حاجة المرء إليه أشد وهذا مظهر لصفاته أكثر، الرداء هل هو لحاجته أم لأنه مظهر قوته، ومظهر غناه، ومظهر منصبه وما هو عليه؟ الرداء لهذا، والإزار يستر عورته.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(قال تعالى: العزة إزاري والكبرياء ردائي)**، الآن مظهر ربوبية الله عز وجل وألوهية الله مظهرها في أنه المتكبر، ولذلك لا ينازع فيها، هذا مظهرٌ خاص، حاجة الخلق لهذا الرداء هو أن يسلموا وأن يخضعوا وأن يذلوا وأن يعبدوا وأن يسجدوا وأن يركعوا وأن يسبحوا وأن يطيعوا.

فما هو دين المرء مع اعتقاده في أن الله عز وجل هو المتكبر؟ هو هذا؛ هو أن يذل له، أن يخضع له، لكن قلنا العزة لربنا عز وجل تقتضي أن يسأله، الناس يسألونه، هو بيده كل شيء هو المتفرد بالخلق، هو المتفرد بالرزق، هو المتفرد بالعطاء، الأعظم والأجل هو الرداء، ولكن الذي به يتم حاجة الخلق إليه هو

الإزار، فقال: فلا ينازع ولكن يسأل، في الكبرياء ليس هناك إلا مظهر الخضوع وفي العزة مظهر السؤال وهو الطلب.

هذا المعنى يجب أن يبقى **(العزة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني)**، من نازعه في العزة أذل، نازعه في العزة ولكن كيف يتعامل العبد مع العزة؟ أن يسأله، أن يلتجئ إليه وهكذا، أن يطلب منه، ولكن الكبرياء ليس لك إلا أن تخضع، أن تقدم فروض العبودية له جل في علاه.

انظر إلى اقتران هذا الاسم العظيم بالأسماء الأخرى، هذا الاقتران يصنع معاني عجيبة جدًا، في القرآن يتكرر كثيرًا ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وهذا الاقتران مفهوم، لكن نذكره من أجل العلم والتنبيه، ذلك لأن العزة بهذا الانفراد قد يأتي على الذهن أنها عزةٌ باطشة، وهذا هو شأن الناس فيما يرون في العزيز، شأن العزة أن تقترن بالطغيان، تقترن بالظلم تقترن بالفجور، هكذا يرى الناس، كلما انفرد المرء كلما نسي نفسه فأتى بالمعاصي، وأتى بالأغلاط.

فلذلك ربنا عز وجل، جل في علاه، له الصفات الحُسنى التي لا ينبغي أن تطرأ هذه المعاني التي يصنعها الواقع في ذهن العبد في أن يقيس الرب عليها، فلذلك هو عزيزٌ حكيم، هو عزيز جل في علاه ولكن عزته مقترنة بحكمة، وهذه الحكمة تمنع العبث، تمنع الجهل، تمنع الفساد فهو عزيزٌ حكيم، انظر هذا الاقتران، هو عزيز جل في علاه ولكن هذه العزة لا يقع منها إلا الحق، والحكمة قد يكون الرجل حكيمًا ولا ينفذ أمره، هو حكيم يتكلم ولا أحد يسمع له، فلا يقع هذا المعنى على معنى الكمال إلا باقترانه بالعزة، لكن ما الذي يتقدم أكثر؟ العزة هي التي تتقدم، وهي الأهم.

اقترن قوله سبحانه وتعالى -هذه ذكرناها ولكن نأتي إليها- كثيرًا في القرآن وخاصةً في سورة «الشعراء»: بالعزيز الرحيم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)﴾ [الشعراء: ٩]، لو أنفذنا العزيز الحكيم لهذا المعنى لوجدناه، فإن العزة -انتبه وهذه تأتي بالعزيز الغفور كذلك أجل في العزيز الغفور-، إذا كان المرء عزيزًا يخاف المنازعة التي يقع بها إسقاط عزته، هو عزيز ملك منفرد لكنه يعلم أنه لو نوزع فربما غُلب، هل يقع منه العفو؟ يعني لو نزع وعلم أن في هذه المنازعة يمكن أن يذهب مُلكه، وتذهب هذه العزة، هل يغفر لمن أساء إليه، هو يخاف يقول لك: يسيئون إلي وينازعونني في عزتي فلابد أن أقضي عليهم واحدًا واحدًا.

فإذا كان عالمًا بأن عزته لا تذهب ولا تتغير ولا تتبدل بل هي دائمة أبدية، فأنه يغفر، انظر حتى لما قلنا في بداية الكلام كيف هو عزيز وغفور؟ هل أنه غفور هي مشتقة من العزة؟ الجواب: نعم، فلولا أنه

عزيزٌ لا يخاف هذه العزة أن تذهب ولا تنتهي لما غفر، ومغفرته عادةً المغفرة في بعض المرات إنما تنشأ من ضعف، ليس قادر، يقول: خلص سامحوه ليس لنا القدرة، أسقطوا هذا الأمر، ماذا نفعل؟ ألا يقع هذا؟

ولكنه عزيز غفور، مغفرته نشأت من عزته لأنه سبحانه وتعالى لا ينازع وإذا نزع غَلَب، إذا نزع هو الذي يغلب جل في علاه وينتقم عزيزٌ ذو انتقام، وكذلك مغفرته لم تنشأ من ضعف، وإنما نشأت من عزةٍ وقوةٍ ومنعة، انظر إلى المعنى كانت المغفرة محتاجة إلى العزة، وكانت العزة بتمامها تدل على معنى المغفرة.

فقال سبحانه وتعالى ﴿الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾، وهذا المعنى العزيز الغفور نفس المعنى في العزيز الرحيم، لأن سورة «الشعراء» تدور على ذكر الأنبياء وأعدائهم وما صنعوا فهو عزيزٌ في منازعة هؤلاء الكفرة، ورحيمٌ في تعامله مع المؤمنين، حتى مع الاقتران توزعت، نحن قلنا العزيز الرحيم عدلت، ولكن كذلك هنا العزيز توزعت إلى جهة والرحيم توزعت إلى جهةٍ أخرى.

انظر أين وردت عزيز غفور مثلًا؟ وردت في موطنين، ولكن نذكر أحدها، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾ [فاطر: ٢٨]، وردت في فاطر بعد قوله جل في علاه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، إنما خشيتهم بسبب عزته، فكان الجزاء، هذه معاني، لما هؤلاء العلماء خشوا ربهم لأنه عزيز؛ أعطاهم مغفرته، كل هذه المعاني ينبغي أن تكون في القلب.

فقوله سبحانه وتعالى في سورة «يس»: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨)﴾ [يس: ٣٨]، هذه الشمس تطيع ربنا لأنه العزيز، ما الذي يسوق هذه الشمس؟ هل هناك أحد يشاركه في سوقها؟ هل هو محتاج لأحد في أن يخضع الشمس العظيمة له، فهو عزيز وهي تجري لأمرٍ يعلمه، وهو عزيز ذلك يدل على أنها مع قدرتها لا يمكن إن تخرج على مسارها الذي علمه الله، وعلمه سبحانه وتعالى لأنه هو الذي وضع فيها هذه القوة لتجري فيه، فهو عزيزٌ عليم جل في علاه.

وفي سورة «ص» كما قال سبحانه وتعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦)﴾ [ص: ٦٦]، على معنى المغفرة كما تقدمت.

وفي سورة «البروج» قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨)﴾ [البروج: ٨]، ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾، انتبه الحديث ليس عن الكفرة، الحديث عن المؤمنين، ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا﴾، عندما تقدموا إلى الموت ماذا كان في قلوبهم؟ هذه تحتاجها إذا وقفت هذا الموقف، ما هو أعظم ما تحتاجه عندما تقف هذا الموقف من البلاء الذي وقفه أهل الأخدود؟ ما هو الإيمان الذي ينفع في هذا الموقف؟ ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

عليك أن تعلم وعدوك يتسلط عليك ليس لغلبة عزته على عزة الله، وليس لغلبة إرادته على إرادة الله، لأن الناس يقولوا كأنهم حين يكونوا في هذه الحالة، لما غلبنا؟ وكأن الله تخلى عنهم! أو كأن الله سبحانه وتعالى غلب من هؤلاء!! هو ينصر المؤمنين، وهؤلاء ينصروا الكفر، فمن الذي انتصر؟ الكفر، إذن الذي نصر الكفر هو العزيز، والباقي مهزوم، هذا المعنى باطل.

ولذلك تحتاج في مثل هذا الموقف إذا وقع البلاء من ضعفك ومن ابتلاء الله لك، أن تعلم أن الله عزيز، ما زال هو العزيز وإنما يجري هذه المعاني لما تقدم ذكره، أن الله عز وجل لا يبطل المعاني العظيمة التي يريدها لمحبة أحد أو لبغض أحد، حتى لو كان يحبه.

فلذلك كان في قلوبهم أن الله عزيز، ولماذا الحميد؟ وهم في موقفهم هذا يطلبون أن يحمد الله مواقفهم فيأجرهم ويدخلهم الجنة، إذن كان في قلوبهم رجاء طلب الآخرة، ورجاء الطلب الجنة والثواب على موقفهم هذا الذي وقفوه، في قلوبهم عزة الإيمان، ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، كان في قلوبهم العزة وفي قلوبهم الإيمان بعزة الله عز وجل، وكذلك في قلوبهم الرجاء، وكذلك هنا في هذا الموقف، ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ أي هؤلاء في قلوبهم هذا الإيمان، هذا تقريبًا بعض ما ورد اقترانه في القرآن، وذكرنا اقتران العزة.

كيف يتعامل العبد مع هذا الاسم الجليل العظيم؟ كما هو واضح في أنه العزيز ينبغي ألا تلتجئ إلا إليه، وأنت تطلب العزة لا تطلبها إلا منه، هو العزيز ولذلك هو الذي يملك العزة جل في علاه وهو ربها، مخلوقة العزة فيعطيها سبحانه وتعالى لعبيده إذا طلبوها من خلال عبوديتهم له، فلا تلتجئ إلا له، وقالوا: «العبد المؤمن لا يكون عزيزًا إلا بأن يلتجأ إلى عزيز حقيقي، ولا يفعل هذا إلا إذا عز الله في قلبه فلم يجعل أحدًا فيه سواه»، لا يُنازع، فالله عز وجل هل يقبل أن يكون في قلب العبد أحد سواه؟ لا يقبل.

ولذلك حتى تكون عزيزًا من عزة ربنا التي يعطيك إياها، يجب أن يكون الرب في قلبك عزيزًا، فلا تشرك فيه سواه، أخرج من قلبك محبة الدنيا، الخوف من الأشياء، الرجاء من غير الله عز وجل، كل هذه أخرجها من قلبك، إياك أن تكون في قلبك، ولا يبقى في قلبك إلا الله، هو الذي ترجوه، هو الذي تخاف منه، هو الذي تعبده، هو الذي تسأله، هو الذي تحبه، هو الذي تبغض فيه، هو الذي تحب فيه، فيكون المؤمن عزيزًا حين يكون في قلب المؤمن العزة، ويكون الله سبحانه وتعالى هو المنفرد في بقائه في قلب العبد.

ولذلك قالوا: «ومن معاني أنه سبحانه وتعالى يعز أولياءه، أنه يعز عند أولياءه فلا يؤثرون على طاعته شيئًا»، لا يؤثرون من أن يضع هذه العزة في قلوبهم أن لا يلتفتوا إلى شيءٍ من أشياء الدنيا، ولكن يكون

في قلبهم فقط ربنا سبحانه وتعالى، وهذا الاسم العظيم لا تنتهي معانيه ولا تنتهي تجلياته في الوجود، كلما رأيت، تذكر قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ [آل عمران: ٢٦].

أنت في كل وقت ترى رجلًا يصعد من الذي أعطاه؟ الله، في كل وقت ترى رجلًا يسقط، وفي كل وقت ترى رجلًا يغتني ورجلًا يفقر، ملوك يسقطون، مظهر من مظاهر عزته جل في علاه، وأناس سقط المتاع يرتفعون ويكونون شيئًا، كل هذا جل في علاه في أنه العزيز وأنه يعز من يشاء ويذل من يشاء، ولا تسأل إلا منه ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠)﴾ [الصافات: ١٨٠]، هو ربها سبحانه وتعالى عما يصفون، ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾ [الصافات: ١٨١-١٨٢]، ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس: ١٠]، هذا الاسم العظيم الجليل من أعظم ما يتعبد به العبد خضوعًا لله جل في علاه امتثالًا لأمره ثقةً به توكلًا عليه شكرًا له، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من عبيده في كل بابٍ من أبواب أسمائه وصفاته والحمد لله رب العالمين.

السائل: شيخنا تأتي العزة بمعنى العلو ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩)﴾ [النساء: ١٣٩]؟

الشيخ: هنا يبتغون عندهم العزة القوة الطلب هم يطلبون، والمنعة تعني الانفراد، والانفراد لا يكون إلا في علو، يعني علو المنزلة وكذلك علو المنزلة أن يكون الرجل عظيمًا في قومه، وأن يكون منزلته عظيمة هذا كله لا يكون إلا لأسبابها، أن يكون منيعًا أن يكون قويًا وهكذا.

السائل: في الحديث (فمن نازعني عذبته)، يعني كيف الإنسان لا يطلب العزة؟

الشيخ: لا، العزة التي يطلبها الكافر فيها مُنازعة لربنا، ظانًا أنه يحصلها من جهة نفسه، فإذا أخذها نازع فيها الرب، أما المؤمن عندما يريد أن يكون عزيزًا، إنما يريدها من الله وفي طريق عبوديته لله، المؤمن لماذا يريد أن يكون عزيزًا؟ يريد أن يكون عزيزًا لئلا يلتجئ لغيره، فيطلبها لئلا يلتجئ لغيره، كما كان يقول سفيان الثوري يقول: «لولا بعض المال في أيدينا لتمندل بنا الحكام»، تمندل يعني أخذونا مناديل، يأخذوا منا الفتاوى والتبريرات والتفسيرات مناديل، فالحمد لله معنا قليلٌ من المال وبعيدين عنهم نأكل ونشرب فلا نحتاج إليهم، لو احتجنا إليهم وذهبنا لم يعطونا المال إلا أن يتخذونا مناديل، أي نعطيهم الفتاوى، نتلقى لهم الأوصاف الجليلة كما يطلقها العوام والطغاة والعبيد من جنودهم.

فالمؤمن يطلب العزة التي سببها أولًا الإيمان، لا يطلبها بأشياء الدنيا يطلبها بسبب الإيمان، يطلبها بالجهاد يطلبها بقيام الليل، من أعز الناس؟ قال: «العباد الأولياء الزهاد»، ألا ترى أن الزهاد مع ضعفهم وقلة مالهم هم أعز الناس وأكرم الناس، فهم يطلبون العزة من مظانها، ففيها العبودية لله، وهذه لا تنتهي ولا تنقضي حتى وإن تقلبت به الأحوال فيبقى عزيزًا، تتقلب به الأحوال فيبقى مهابًا، وهو ملك كسليمان عليه السلام يكون عزيز وهو فقير يأكل يومًا ويجوع يومًا فيبقى عزيز.

فلذلك العزة التي يطلب بها المؤمن يطلبها عبودية لله، خضوعًا لأمر الله، تعاملًا مع عزة الله عز وجل، وأما الذي يُنازع العزة، يُنازع الرب في ربوبيته، يُنازع الله في ألوهيته، يريد أن يعبد من دون الله، يريد أن يكون له شأن كما هو شأن الرب في خضوع الناس له، في امتثالهم لأمره، ومن هنا من عزة الله أنه ما من عالمٍ من العلماء إلا وأخطأ خطأ يرد عليه صغار الطلبة فيها، الشافعي وأحمد، لماذا؟ من عزة الله أن يخطئ

الناس أخطاء، وأن يخطئ هؤلاء العلماء أخطاء، من أجل أن يعرف الناس هؤلاء يخطئون، وهم يعلمون هذا ويتذللون إلى الله عز وجل.

وذلك لا يقع في قلوبهم اتبعوني، وأنت ترى المشايخ الذين فيهم نوع من الطغيان يغضبون إذا خالفهم الناس، ولم يخالفوا الحديث، إذا خالفهم، وهم يتسترون باسم الدين يتسترون باسم أنه يخالف النص النبوي، فيخطئون، فالناس يقولون لهم أخطأتم.

قتادة بن نعمان رضي الله عنه قال: «ما حفظت شيئًا فنسيته، ثم قال لغلامه: أعطني الحذاء، قال له: يا سيدي هو في رجلك»، قتادة هو قتادة رضي الله تعالى عنه ورحمه الله.

النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحفظ القرآن، قال: **(هلا فتحتم علي، أين أُبي؟)**، هو يمرض، وتفسيرها أن النبي يمرض، ويرون الملك يموت ويضعف ويحتاج، فرعون وهو فرعون، من أعظم سر البيان في الوجود أنه يكشف النفوس، البيان الكلام، ولذلك أعظم مظاهر إعجاز القرآن هو الحديث، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١)﴾ [فصلت: ٤١]، لأنه يتحدث عن عزيز، فلا يمكن أن يظهر فيه الذل، وهو يتكلم بعظمته، لا يمكن أن يقطع رجاء المؤمن بمغفرته، لا يتحدث حديث العزة التي تقطع رجاء المؤمن، والذي يقبل إليه، وهو في دعوته للمؤمن أن يأتي إليه، ويقبل عليه وإن هو فيه الرأفة، وفيه الرحمة، لا يمكن أن يلغي أنه هو العزيز، وأنا أدعوك لا لست محتاجًا إليك.

فأعظم مظاهر هذه المعاني تظهر من خلال الكلام، فرعون وهو يقول أنا ربكم الأعلى، أعظم إذلال لفرعون قبل أن يذل بأن يغرقه الله في الماء، قال جل في علاه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر: ٢٦]، من يقول ذروني هذا؟ أنا ربكم ذروني!، سقطت ربوبيته انتهت، سقط تفرده هو بحاجة إليهم، إذن أنت بحاجة أن تقبلهم!! أنت بحاجة لجندك!!

هذه المعاني في القرآن هذا العزيز، ما معنى عزيز؟ هو منفرد، لا يوجد له مثيل، وهو عزيز لأنه مكرم فيه كل العطاء وفيه كل الخير، عزيز وهو منيع لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، والعزيز لأنه لا يستطيع أحد أن يتسور سوره فيظهر فيه الخطأ، فهو كتاب عزيز، لأنه يتكلم عن عزيز، فإذا نظرت إليه رأيت نفسًا ربانية.

والذي أذهل العرب في هذا القرآن، أنهم نظروا إلى نفس متكلمه فلم يجدوها في البشر، يعني هم يرون البشر يتكلمون، فتظهر في كلماتهم حتى مع شجاعتهم، يظهر فيهم أنهم بشر فيهم ضعف، يحتاجون ويخافون ويطلبون، فيضعفون، ويرون في كلام الملوك لكن يرونه كلامًا فيه الضعف البشري، فهم نظروا إلى

كلام كل أحد، فعلموا على ماذا يدل هذا الكلام، في النهاية يدل أنه كلام بشر، شجاع كريم فقير عاشق محب لكنه كلام بشر، فالذي أذهلهم لما سمعوا هذا القرآن، هذا لا يخرج من نفس البشرية.

ولذلك قال لهم أبو بكر لما سمع منهم قال: ماذا يقول لكم من القرآن مسيلمة؟ اقرأوه علي، قال: أعوذ بالله هذا كلام لا يخرج الإله، ليس كلام إله، ليس فقط لصياغته، ولكن لنفس متكلمه، النفس التي تكلمت هذا الكلام ليست نفس إله.

فهذه العزة الإلهية تحدثت بكلام عزيز فهموا أن هذا الكلام دالٌ على نفس علويةٍ عظيمة لا يمكن أن تكون من جهة بشرية، ولا فيها الصفات البشرية، فالله عز وجل يظهر إخفاقات البشر في كلامهم في ضعفهم وفي أحوالهم وأقدارهم، تتحول أقدارهم من حال إلى حال وفي شيء كما تكلمنا في درس فائت يمرضون فلا يستطيعون دفع المرض عنهم، يفقرون لا يستطيعون دفع الفقر، ويقفون لا يدرون كيف تتحول الأمور، الجنود هم الجنود، والمنعة هي المنعة، ومع ذلك عنده صداع ما نام طيلة الليل، في الصباح طلب الطبيب، علموا أنه بشر.

بارك الله فيكم جزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس والعشرون: الجبار

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ جديد من أسماء ربنا الحسنى تقدست أسماؤه جل في علاه وهو اسم الجبار، فإننا تكلمنا في الدرس الفائت عن اسمه سبحانه وتعالى المتكبر، والآن مع اسمه الجبار تكلمنا عن العزيز، العزيز الجبار المتكبر كما في سورة «الحشر»، ولم يرد إلا في هذه السورة سورة «الحشر» أنه سبحانه وتعالى الجبار، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣)﴾ [الحشر: ٢٣].

وقبل أن نخوض فقط أنبه على كلمة تعدد الكلام فيها وذكرت كثيرًا لكن ننبه عليها لأنها من قواعد تفسير العبد لأسماء الله الحسنى؛ وهو أن الاسم أو الصفة التي تطلق على ربنا فإنها تكون متعددة المعاني وهذا ليس من التضارب، والعلماء قالوا: هل يمكن للصفة الواحدة أن تدل على معاني متعددة في نفس الوقت؟ والأكثرون على هذا العلماء على هذا المعنى؛ بمعنى أن الاسم أو الصفة، قد تكون حاوية لمعاني عدة، وتكون هذه المعاني المتعددة مرادة، وهذا في اللغة وفي الشرع، يعني اللغة تقتضي هذه المعاني، وكذلك في الشرع.

وإن كان الغزالي في بعض كتبه -هذا فقط للتنبيه لطلبة العلم- فإنه أجازه في الشرع ومنعه في اللغة، ورد عليه تلميذه أبو بكر بن العربي في هذا وقال: «إذا جوزنا في الشرع فعلينا أن نجوز في اللغة»؛ لأن الوضع الاصطلاحي إنما هو مأخوذ في أصله من الوضع اللغوي، يعني لا يصطلح على شيء في جهة العلوم إلا ويكون له أصل من جهة اللغة فهناك ارتباط.

القصد من هذا: بأن الاسم العظيم لربنا عز وجل قد يكون وهذا بيّن في الدروس في أنه يكون حاويًا لمعاني متعددة، ولكن قد -وهذا سأناقش فيه ما قاله ابن قيم رحمه الله وسنبين- قد يكون السياق دال على أحد المعاني دون بقيتها، قد يكون السياق يدل على معنى من المعاني وليس كل المعاني، ولكن حين يكون التعدد دالًا على المدح والعظمة فإننا نجري هذا التعدد جميعه، ونعمله في نفس الوقت، هو خاص إذا أطلق أما إذا أضيف هذا الاسم أو كان في سياقٍ لمعنى محدد فنعين هذا المعنى نعينه.

والجبار اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى، وهذا الاسم هو صيغة مبالغة كما ترون الجبار، وإلا فأصله الجابر، ولكن صيغة المبالغة لربنا سبحانه وتعالى لأنه الأليق به؛ فإنه سبحانه وتعالى جبار من كل جهة وأنه سبحانه وتعالى له هذه الصفة التي لها الغاية التي لا تنتهي، الجبار في معانيها التي لا تنتهي، ومن ذلك ما دل هذا الاسم على معاني.

المعنى الأول: أول معنى كما ذكرنا في العزيز أول معنى من معاني الجبار هو ما دل عليه معنى العزيز ابتداءً، ومعنى العزيز ابتداءً هو التفرد، وهنا التفرد الذي لا يُنال، الجبار هو التفرد الذي لا يُنال، ولذلك يقال رجلٌ جبار أي طويل، ويقال نخلةٌ جبارة طويلة لا تُنال ثمرتها، طبعًا بلا شك قولنا لا تُنال، فهي يمكن أن تنال بوسائل، ولكن المقصود لا تُنال على جهةٍ فرعية على جهةٍ أصلية، وإنها قد تُنال، فلا يوجد شيء لا ينال في الوجود، لأن الإنسان إذا وصف بوصفٍ فهو وصفٌ قاصر، وصفٌ نسبي، أي لا يُنال عادةً وإلا فالنخلة الجبارة أي الطويلة التي لا تنال عادةً لكن قد تنال بوسائل فيصعد عليها بسلَّم وقد تنال ثمارها بعصى طويلة.

لأن هذا هو خلق الإنسان هو الصفات فيه قاصرةٌ نسبية، وأما ربنا سبحانه وتعالى هو الذي لا يُنال، وهنا لما نقول طويل بمعنى لا يُنال وأنه يعني يدل على انفراده، يدل على أنه لا يستطيع أحد أن ينال منه بالقهر والغلبة، ولا يستطيع أحد أن يناله إذا أراد ضد مراده، لو أن أحدًا نازع الرب سبحانه وتعالى لينال منه ما لا يريده الله عز وجل لا يناله، ولا يصل إليه.

فإذًا: هو التفرد، الجبار سبحانه وتعالى هو الذي له الملك التام، لا يُنال له الملك التام ولا يعطي إلا بإذنه ولا يصل الشيء إلى العبد إلا بإرادته سبحانه وتعالى، والذين يتصورون أن الله عز وجل ينازع وأنه يغلب فهؤلاء مشركون، وتصور البشرية لله عز وجل في أن العبد ينازع الرب هذه قضية موجودة في بعض الديانات والمذاهب التي يغلب على أهلها البطش والقوة والظلم.

مثلًا: اليونان لو نظرتم إلى ديانتهم لوجدتم أن أساس الديانة عندهم تقوم على منازعة الله عز وجل، على المنازعة الدائمة بين البشر وبين الله، كل القصص اليونانية ينازع القدر ينازع ربنا سبحانه وتعالى وأنه يغلب منه ولا يأخذ منه إلا بقوة، ولذلك العلاقة هي علاقة منازعة وهذا التصور يصنع الغرور، يصنع البطش والظلم؛ لأنه يقول أنا نازعت الله عز وجل فغلبته، وأنا نازعت الله عز وجل فأخذت هذا الشيء، وجهلة في النهاية فالبشر كلهم محكومون في هذا، كما سيأتي في معنى الجبار بأن البشر كلهم محكومون بأقدار الله عز وجل. وهناك أغلب ما يفعله البشر هو من المعنى الثاني، أو المعنى الثالث.

المعنى الثاني: هو جبار أي يكره غيره على مراده، فالمعنى الأول: هو التفرد والعلو، المعنى الثاني: القهر؛ أنه يقهر غيره، على مراده، وهذا هو أساس ما خلق الله الخلق جميعًا، كل الخلق كلهم يجرون في إرادته ولا يخرج أحد عن إرادة الله عز وجل.

الله عز وجل خلق الشمس فهي تجري لأنه الجبار أجرى مراده جل في علاه فيها بإرادةٍ منها أو بغير إرادة، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت: ١١]، فجرى فيها هذا القدر، والإنسان في أغلب أفعاله هو مجبور، هل ولد بإرادته؟ هل يموت بإرادته؟ هل يمرض بإرادته؟ هل هذه الحركات التي تجري من النفس ونبض القلب وجريان للدم في الشرايين بإرادته؟ لا إرادة له فيها.

ولو أراد شيئًا ولم يرده الله لا يجري، بل عدم حدوث الإرادة لو أراد الله عز وجل للإرادةٍ ألا تكون فلا تكون، يعني يمكن للمرء أن يفكر بإرادةٍ ما فلا تنشأ، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)﴾ [التوبة: ٤٦]، ومعنى ثبطهم: أي أزال منهم إرادة النفير، لو وجدت الإرادة لأنهم أقوياء أصحاء وليسوا من المعذورين، فالله عز وجل ثبطهم أي أزال منهم الإرادة.

فالبشر على هذا ليس فقط البشر كل ما خلق الله من العرش إلى أدنى ما خلق الله إلى الفرش كما يقولون، إلى أدنى ذلك هو كله تحت قهر الله، أولًا هو سبحانه وتعالى المتفرد والكل تحت قهره، وهذا السياق في معنى القهر هو الملائم لمعنى الآية التي في سورة «الحشر» فإنه قالها على معنى الملك، وعلى معنى التكبر، على معنى المتكبر جل في علاه وهذا هو معنى السياق على أنه سبحانه وتعالى يقهر عبيده، وهذا المعنى أنه سبحانه وتعالى هو الجبار هو المعنى الذي أخذه كثير من العلماء ومن السلف أخذوه على معنى إثبات القدر وليس على معنى إجبار الإنسان على شيءٍ من أمور التكليف، فإن التكليف ينشأ من إرادتك ولكنها إرادةٌ محكومة بإرادة الله عز وجل.

فيقول كيف؟ ﴿كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾، هذا الكره لا ينشأ إلا من فعلهم، هذا الفعل قد يكون في نوايا باطلة في أنفسهم أو أعمال سيئة سبقتهم، فالله عز وجل كره منهم ذلك، يعني لما قال الله عز وجل: ﴿كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾، هذا الكره لم ينشأ من لا شيء، هذا الكره له موجباته، ما هو؟ إما أن النيات سيئة فالله قال لا تخرج لا تفسدوا على عبيدي، لا تخرجوا معهم أبقوا لأنهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧]، فالله رحمةً بالعبيد وعدم إصابة الفضل لهؤلاء المجرمين لا يريد منهم أن يخرجوا، فأمات منهم الإرادة.

إذًا هذا الكره بسبب فساد نياتهم أو كره الله انبعاثهم بسبب ما تقدم منهم من معاصي، ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥]، فالإنسان عليه أن يحذر من النوايا السيئة التي تمنعه، ففي الأثر «إن الله عز وجل يقول للملائكة إني أحب فلان فأيقظوه للصلاة، يحب أن يسمع صوتها، ويكره فلان فيقول أنيموه، لا أريد لأنه لا يستحق»، وهذا كله من موجبات هذا، لأعمال صالحة يفعلها، فالله يحب له لأن العمل الصالح يأتي بالصالح، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد: ١٧]، فالهداية تأتي بالهداية، والعمل الصالح يأتي بالعمل الصالح.

وكذلك إذا أتى المرء بالسيئات فالعمل السيء يأتي ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾، وقع منهم المعصية لمعاصي أصابوها من قبل، والعبد لا يدرك أثر المعصية على ما يأتي من الحياة، فالمعصية كالمرض تدخل في داخل العظم وتظهر عند الجريان، فإذا لم يكن العظم قاسيًا وقويًا وصلبًا وصالحًا وإلا كسر، العبد عليه أن يحذر من المعاصي.

ومن هنا تأتي فضيلة الذكر لإنه يقوي الإيمان، تأتي قضية قراءة القرآن، الطاعات، طاعات تنفعك حيث يغيب عنك كل شيء هذه الطاعات تنفع إذا وقع البلاء، تنفع إذا تم السباق في الخلق في الطاعات تنفع هذه، ولا تدري كيف تخرج هذه، كما أنك إذا تدربت فهي بنفسها تظهر قوتك لأن القوة موجودة وهكذا بالطاعات تصنع، والمعاصي مفاسد وأمراض تهلك الأبدان وتهلك الإرادات وتهلك النوازع الطيبة في داخلنا، ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾، في كسب هو الذي أوقعهم، أكل مال حرام فأوقعه، ولا يدري، ويقول لماذا وقعت أنت؟ أكلت مال حرام، أنت ظلمت فوقعت.

القصد من هذا: بأنه سبحانه وتعالى الجبار هذه استدلوا بها على أن الله عز وجل هو الذي قدر المقادير، وهناك جاء في بعض هو الذي أجبر الخلق على مراده، وليس المعنى الذي فيه يقول الجبرية، الجبري الذين يقولون بأن الإنسان مجبور وإنما أعماله وطاعاته أو معاصيه كالريشة في مهب الريح ليس له فيها شأن، هذا غير صحيح، وإنما الإنسان مسؤول عن أعماله ويعمل أعماله على جهة الحقيقة، وأعماله تنشأ من إرادة حقيقية في داخله، وهو مسؤول عنها أمام الله، وإلا لو كان مجبورًا لسقط عنه التكليف، الله لا يحاسبه على ما لا يستطيعه، لا يحاسبه عما أخطأ فيه، **(رُفِعَ عن أُمَّتي الخطأَ والنِّسيانَ وما استُكْرِهوا عليهِ)**، يعني عندما غابت الإرادة لم يصح نسبة الفعل إليه ولا محاسبته عليه..

إذًا المعنى الاول للجبار هو المتفرد الذي له العلو والذي لا يطاله أحد متفرد لا يناله أحد، وهذه صفة ذات له سبحانه وتعالى، طيب هؤلاء الذين يسبونه هل يصيبون منه؟ **(لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا)**.

بعض الناس يظن أنه يصيب من الله مقتلة وهذا يقع في النفوس ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾ [غافر: ٣٥]، يطبع عليه والذي يقع من يأجوج ومأجوج أنهم حين يفرغون من أهل الأرض يقولون نريد أن نفرغ من أهل السماء، فيأتون بالسهام يطلقونها إلى السماء، وقيل بأنها تغمس في الدماء وترد، فيقولون قتلنا أهل السماء خلاص أهل السماء كذلك قتلناهم وانتهينا منهم، فيظنوا بأنهم ينالوا من الله.

وبعض الناس يريد أن ينازع الله سبحانه وتعالى، الله عز وجل لا يُنال جل في علاه، ولكن يترك الخلق هكذا، من أجل أن يحاسبهم، ثم بعد ذلك الذي يجري فيه القدر دائمًا أنه «من تواضع لله رفعه، ومن تكبر قسمه»، أنت تعجب في الوجود أنه ما من متكبر إلا ويكون في موته ذلة ومهانة، فانظر إلى موت فرعون فيه مهانة وفيه ذلة، انظر إلى موت النمرود كما تقول الأخبار، يقال: أنه مات بدخول ذبابةٍ في أنفه، فكان من تطبيب الأطباء له أن يضرب بالنعال على رأسه لتسكن الذبابة في دماغه وهكذا.

فما من أحد يتكبر إلا ويموت مهانًا ذليلًا، انظر إلى كيف يموت الطغاة، انظر كيف مات القذافي يقولون بأن جمال عبد الناصر وهذه ليست أكذوبة وليست دعاية، خرجت المجاري على قبره فأخرجته من قبره، مجاري القاهرة، انظر إلى كيف مات الطاغية الخميني؟ وانظر الى جنازته، وهم يحملونه تعرى حتى بان بدنه، وهو كان يقول: إن من تعرى بدنه عند موته فهو ذليل، هو كان يقول ذلك.

الطغاة لإنهم ينازعون الله عز وجل، يريدون أن يطالوه!! وأعظم الناس موتًا وخزيًا في الموت هؤلاء، ويقاربهم في هذا الخزي الذين يقولون على الله الكذب، تعجب لموت هؤلاء، اسماعيل خان زعيم الإسماعيلية جده لهذا الموجود الآن، مات وبقي أسبوع في بيت الخلاء، ما أحد يعرف به.. مات في بيت الخلاء، وممن مات في بيت الخلاء وخرجت العذرة من فمه ميرزا غلام أحمد القادياني.

فانظر إلى موت هؤلاء الطغاة الكبار كيف يموتون؟! كيف تتحول أجسامهم ومناظرهم حتى يصاب المرء بالقرف بالنظر إليهم، وانظر كيف مات أبو لهب؟ أبو لهب لم يخرج إلى بدر لسمنه وكبره فأخرج بدلًا عنه عبيد فكيف مات؟ مات بالحصبة أو بمرضٍ جلدي معدي فأهله دفنوه برجمه بالحجارة، لما مات خرجت منه الروائح فأهله وأولاده والعرب تعظمه.

فأساس قضية معاداة النبي صلى الله عليه وسلم –كما يقول الزهري رحمه الله– كانت قريش لا تأبه لما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم حتى سب ألهتهم وسب أباءهم، قال: **(آباءكم في النار)**، فوالله لما اراد ان يحرض المؤمن على ذكره. المؤمن العربي على ذكر ربه قال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، فيذكرون آباءهم.

ومع ذلك لم يستطيعوا الاقتراب من أبو لهب فرموه بالحجارة حتى تغطى، هذه اللحظات كاشفة، هذه اللحظات تبين أين أنت؟ والناس يتعجبون لموت ستالين هذا المجرم جوزيف ستالين، تقول الأخبار الناقلة لموته لكثرة إجرامه وعظم طاغوتيته قالوا: لما مات الناس يرتجفون منه وهو في داخل القفص الزجاجي وهم ينظرون إليه، لكن كيف مات؟ بإهانة، الله يذل عبيده بماذا؟ يقهرهم.

إذًا أول معنى من معاني الجبار أنه سبحانه وتعالى المتفرد، وهي التي فيها الغلبة والعلو والارتفاع.

والمعنى الثاني الذي لا يُنال، ولذلك أمره نافذٌ في الخلق، وليس إرادة أحدٍ في الخلق نافذة إليه.

ولا يُنال ما عنده إلا بطريقة واحدة، المرء ينال الأشياء إما بالشراء تدفع مقابل لها، وإما بالغلبة والقهر، وإما بالرجاء والاستكانة، فكيف يُنال ما عند الله؟ بالرجاء والاستكانة، فالله ليس محتاجًا، هو الذي خلق كل شيء، فهو لا يطلب ولكن أكرم بعض الطاعات، فقال جل في علاه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، على معنى إكرام هذا المال وإكرام هذه الصدقة أنه يريد أن يكرمها، فإنها لا تقع في يد الفقير قبل أن تقع في يد الله على معنى الإكرام لها وليس على معنى الحاجة إليه فإن قطرة الدم التي تسقط عند الذبح في الأضحية قبل أن تقع على الأرض تقع في يد الله عز وجل على معنى الإكرام والمحبة لها والرضى بها لأنها كريمة فتنسب إليه، كما ينسب بيت الله، ينسب إليه، كما تنسب دابة الله، كما ينسب عبد الله، فهذه تقع في يده رفعةً وكرامةً لها.

المعنى الثالث: من معاني الجبار وهو الذي يجبر ويصلح غيره، ولذلك الناس يقولون لإصلاح الكسر الجبيرة، ويقول الناس جبر الكسر، والناس يقولون كذلك جبر الخواطر، بمعنى يصلحها، ويقال عند إعطاء المال جبر الفقير، وحتى الناس إلى الآن العوام وهذا من ذكاء العوام في لغتهم، العوام لهم ذكاء في اللغة، حتى يقول جبر في البيع، أجبر هذا البيع، وهذا صحيح بمعنى مشيها أصلحها لأن حاجته في قضائها، وكما أن الرجل حاجته في إصلاح يده، وكما أن الرجل له حاجة في نفسه لأن النفوس كذلك بالكلمات يصلح أمرها وبالفعل الحسن يصلح أمرها.

فالله سبحانه وتعالى الجبار الذي يصلح الحياة، ويصلح ما يقع في البشر من حاجات يقوم بشأنها، فهو جبار يصلح حاجات الناس، والعبد يدعو الله بهذا الاسم يقول كما في الحديث الذي رواه أهل السنن قال صلى الله عليه وسلم: (اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني)، واجبرني، لأنه إذا مرض من الذي يجبر مرضه فيصلحها الله، عندما يغتم هذا المرء يصاب بغم في قلبه لشيء من أشياء الدنيا أو لشيء من أشياء الآخرة أو هكذا المرء، الله عز وجل هو القابض والباسط، الله يقبض ويبسط ومن ذلك قبضه للنفوس وبسطها كما أنه يقبض المال فيفقر العبد ويبسط المال فيغتني العبد، وكذلك يقبض الله عز وجل النفوس فتكتئب وتتعب والله يبسط النفوس فتفرح.. يقول لك: هذا مبسوط، يعني بسط الله عز وجل له العطاء النفسي.

فالله عز وجل يجبر ما يقع في العبيد من قضايا، المرء يحزن فيجبر الله العبد بإزالة حزنه وإبداله الفرح وذلك من خلال النسيان أو من خلال ما يعطيه، إذا وقعت عنده المصيبة فالله يعطيه ما يقابلها.

إذًا:

أولًا: أنه سبحانه وتعالى الذي لا يُنال، لا يُنال سبحانه وتعالى إذا غالبه أحد، الله غلبه فلا يُنال.

ثانيًا: أنه سبحانه وتعالى قهر عبيده ومن ذلك قهرهم بالموت قهرهم بالحاجات، قهر العبيد بالذهاب الى بيت الخلاء، أنت حين تتفكر أن هذا الذي أمامك هو مقهور بأنه يأكل فيذهب إلى بيت الخلاء، مقهور فيمرض، مقهور يموت ابنه ولا يستطيع أن يرد له الروح، مقهور بأن يفقر فلا يستطيع أن يغتني، يبحث في الأرض، تغلق عليه الدنيا تغلق.

ثالثًا: أنه سبحانه وتعالى هو الذي يجبر عبيده، يجبرهم، إما أن يجبرهم على معنى الإحسان إليهم محبةً بهم، وإما يجبرهم على معنى الأمر القدري الذي تكفل الله به، الله عز وجل يجبر الكثير من الخلق المؤمن والكافر بأن يعطيه الولد، هذا من جبر الله عز وجل، الله عز وجل يشفي المريض سواء كان كافرًا أو كان مؤمنًا.

ولكن أن تقع السعادة على معنى الطاعة، أن يقع الفرح في القلب على معنى الحب لله، أنه فرحٌ مشروع لأنه قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس: ٥٧-٥٨]، هذا سبب فرح المؤمن يفرح، الله يجبر حزنه بأن يفرح بالطاعة وأن يفرح بما يعطيه الله عز وجل من مبشرات في قلبه. هذا الاسم هذا هو

هذا المعاني الثلاث كما ترون في اسمه سبحانه وتعالى الجبار والعبد عليه في هذا الباب ألا يقترب إلى هذا الاسم لأنه خاصٌ بالله عز وجل، ولذلك في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يَخرجُ عُنقٌ من النَّارِ يومَ القِيامةِ له عينانِ تُبصِرانِ، وأُذُنانِ تَسْمَعانِ، ولِسانٌ يَنطِقُ، يقولُ: إنِّي وُكِلْتُ بثلاثةٍ: بِمَن جعل مع اللهِ إلهًا آخرَ، وبكلِّ جَبَّارٍ عنيدٍ، وبِالْمُصوِّرِينَ).

وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾ [غافر: ٣٥]، الطبع هو ألا يتغير، خلاص يطبعه على الكفر، ولذلك في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (الغلامُ الذي قَتَلَهُ الخَضِرُ طُبِعَ يَومَ طُبِعَ كافِرًا، ولو عاشَ لَأَرْهَقَ أبوَيْهِ طُغيانًا وكُفرًا)، مطبوع على الكفر، مطبوع بمعنى ملتصق لا يزول ولا يروم وأشده القفل كما يقول قتادة.

فطبع على قلب كل متكبرٍ جبار، هذا الجبار الذي يقهر العبيد بالظلم والذي لا يقبل منهم، انظر كيف اجتمع المعنى لو انفرد لوحده لكان ذمًا، لو لم يكن الجبار بمعنى الذي يجبر الخواطر، ويجبر في العطاء، لكان في تفرده وقهره معنى الذم، لو انفرد معنى الجبار الذي يقهر العبيد ويجري أمره رغم مرادهم على معنى الإكراه لهم، ولم يقع منه الإحسان والعطاء لكن في ذلك الذم، والعبيد إذا وقع فيهم هذا المعنى لأننا قلنا الصفات في الخلق نسبية فلا يمكن أن يكون على معنى الإحسان فيهم.

ولذلك (أين الجبارون)، (تحاجت الجنة والنار)، صار حجاج بينهم وهذا على معنى الحقيقة، يعني حتى الموت الذي لا نعرف إلا أنه إذهاب للحياة يتجسد يوم القيامة على صورة كبش أملح، فيموت الموت وينتهي.

فلذلك كما في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (تَحاجَّتِ النَّارُ، والجَنَّةُ، فَقالتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بالمُتَكَبِّرِينَ، والْمُتَجَبِّرِينَ، وقالتِ الجَنَّةُ: فَما لي لا يَدْخُلُنِي إلَّا ضُعَفاءُ النَّاسِ، وسَقَطُهُمْ، وعَجَزُهُمْ)، ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩)﴾ [هود: ٥٩]، انظر هذه الاقتران الجبار مع العناد، لماذا؟ هو يشعر أنه يقهر العبيد، وهذا يكون في المترفين ويكون في أصحاب الملك يغلب عليهم الجهل بأنهم يرون إراداتهم تنفذ في الخلق، اقتل فلان كما قال: أنا أحيي وأميت، ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، اقتل فلان، أعط فلان، وغلبت هذه الصورة عليه ينسى نفسه أنه إنسان، ويأت الجهلة والمنافقون حوله ليعظموا، ارفع، ارفع، هواه وشيطانه يؤزه من الداخل والمنافقون يعظمونه من الخارج، يعظمونه أنت، أنت، حتى يقول أنا ربكم الأعلى، هو ينسى أنه إنسان، ينسى أنه محتاج، ينسى أنه يجوع، ينسى أنه يمرض، ينسى أنه يفرح وأنه يحزن وأنه يتعب وأنه يُرى ينسى سبحان الله هذا إنسان عجيب!!

فلذلك حظ العبد من هذا الاسم هو أن يتواضع؛ لأن الجبار تناقض حال العبودية، اسمع اسمك عبد يعني تطيع، يعني تسمع، يعني تمتثل، هذا ليس فقط عبودية الظاهر ولكنها عبودية الظاهر والباطن فحال العبودية تقتضي التواضع وتقتضي دائمًا السؤال، فأنت حاجاتك لا يمكن أن تقضيها إلا بسؤال الله، بأن تسأل الله عز وجل، لكن ترى أن اسم الجبار له تجليات عظيمة، من ذلك في الحديث **(أن النار لا تسكن حتى يضع الجبار قدمه فيها)**، يجبرها على أن تقول: **(قط، قط)**، حتى أن العبيد يدخل فيها من خلق الله من بني أدم من كل ألف، تسعمائة وتسعة وتسعين ومع ذلك تقول: هل من مزيد؟ ولا تسكت حتى يضع الرب الجبار -في الحديث- قدمه فيها لتسكن ويزوي بعضها إلى بعض كما في الحديث.

فلذلك على العبد في هذا الباب أن يبتعد عن هؤلاء لأن عذاب الله عليهم ملحق، والعذاب يكون في الدنيا قبل الآخرة؛ إظهارًا لعظمته وإظهارًا لقيوميته سبحانه وتعالى وإظهارًا لعزته جل في علاه، فلذلك الابتعاد عن هؤلاء؛ لأن في ذلك إذلال لك، عندما تقترب من الجبار فهو لا يقبل إلا أن تهان، ولا يقبل إلا أن تذل فلا تقترب من هؤلاء، كن مع الله سبحانه وتعالى.

فهذا ما ينبغي أن يعتقده المرء في هذا الباب ولذلك ينبغي ألا ينظر لنفسه إلا أنه عبد، هذا هو، أين التفرد؟ أين العلو؟ أين الملك؟ أين قهرك للآخرين؟ أنت مسكين، فهذه المعاني التي قال ابن القيم عنها في شفاء العليل، قال: -هنا انا سأذكر شيئًا عنه- قال: «والجبار هو الذي يجتمع فيه ثلاث صفات وهو الملك والعلو والقهر»، وهذه لا ينبغي للعبد أن ينازع الرب فيها سبحانه وتعالى.

هذا فقط بقيت مسألة والعبد يدعو الله عز وجل كما في الحديث **(اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني)** ويقول في سجوده: **(سبحان ذي الجبروت والملكوت)** متى يقوله العبد هذا الذكر؟ انظر هذا المقام الذي يليق به هذا الذكر، ففي السجود يقول: سبحان ربي الأعلى، مقامه هو مقام العبد في سجوده، في أدنى ما يمكن أن يكون فيه العبد، فقط هو ملتصق بالأرض، فهو في تواضعه يلتصق بالأعلى، انظر إلى هذا التناسب بين تواضع العبد أدنى ما يكون جسدًا وحالًا وقلبًا وذكرًا، **(سبحان ذو الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة)**، يقوله في سجوده كما يقول **(سبحان ربي الأعلى)**.

فقط كلمة في «شفاء العليل»، هناك شيء من التناقض في كلام ابن القيم ننبه عليه وأجرينا شيئًا من التوفيق في الكلام السابق، في كتاب «شفاء العليل» وهو كتابٌ لا بن عالج فيه مسألة من مسائل القضاء والقدر، وهي مسألة الحكمة والتعليل في أفعال الله، تعرفون أن هناك خلاف بين أهل الإسلام هل أفعال الله وشرعه وأحكامه معللة؟ أم لا؟

فبعضهم قال: لا يجوز أن تكون هذه الأفعال الربانية إنما قامت لعلة، أو أن هذه الأوامر الشرعية وهذه الشرائع قامت لعلة، فقط وقع في قلوبهم شيءٌ من الغلط ففهموه على معنى غلط فنفوا ما ينبغي أن يثبت لله عز وجل، وهو أنهم قالوا: لو قلنا بأن الله فعل لكذا، إذًا هذه العلة التي والحكمة موجودة، ولكن هذه العلة تكون سابقة وحاكمة على الله!! وهذا من الغلط على الله عز وجل، فالله عز وجل هو الحق المبين هو الحق ولا يفعل شيئًا إلا لأنه الحق، ومن كونه حق أن يعلل بالحق.

فقط هذا الكتاب يقوم على هذا المعنى فيه، وهذا الارتباط هذا المعنى باسمه الجبار، العلماء من الأمور التي -وهذا الامام أحمد- من الأمور التي احتج بها على القدر اسمه الجبار، قال: هو الذي يجبر الخلق، فإذًا الخلق مقدرة أمورهم لأنه سبحانه وتعالى الجبار.

المهم في هذا المعنى لما جاء إليه ابن القيم نفى أن يكون الجبار مأخوذ من كونه يصلح، نحنا قلنا الجبار لها ثلاثة معاني التي ذكرناها من المعاني وهو الذي يقوم بإصلاح غيره على ما تقدم، يجبر الكسر ويجبر غيره.

قال ابن القيم -أقرأ لكم كلامه-: «وأما الجبار من أسماء الله تعالى فقد فسر بأنه الذي يجبر الكسير ويغني الفقير»، على أساس أن الفقر ضعف ومرض فجبره إزالته وإزالته بالغنى.

يقول ابن القيم: «والرب سبحانه وتعالى كذلك، ولكن ليس هذا معنى اسمه الجبار»، قال: «ولهذا قرنه باسمه المتكبر، وإنما هو الجبروت»، وقال بقية الكلام: «فالجبار صفة لها ثلاث معان الملك والقهر والعلو»، هذا الكلام الذي قاله في «شفاء العليل» نقضه في «نونيته»، فجعل الجبر قسمان فقال في «نونيته»:

وكــذلــك الجــبّــار مــن أوصـــافــه	والجــبر في أوصـــافــه قســـمــان
جبر الضّــعيف وكــلّ قلــب قــد غــدا	ذا كســـرة فــالجــبر مــنــه دان
والـثّــاني جــبر الــقــهــر بالــعــزّ الــذي	لا يــنــبــغــي لســـواه مــن إنســـان
ولــه مســـمــى ثالــث وهــو الــعــلــوّ	فــلــيــس يــدنــو مــنــه مــن إنســـان
من قولهم جبــارة للنّخلــة الـــــــــ	عــلــيــا الــتي فــاتــت لــكــل بــنــان

إذًا أثبت هذا المعنى له في نونيته وربما يعني المرء يخطئ ويقول الكلام ويرجع عنه.

ولكن إذا أردنا أن نحمل كلام العلماء على أنه ليس متناقضًا مع أنه يتناقض وربما يعني غلب عليه معنى في وقت وغاب عنه معنى في وقتٍ آخر ربما محمول على الجبر في كلمة الجبار في سياقها القرآني وليس

في معناها العام وهذا نقوله يعني تأويلًا ضعيفًا له ولكن هكذا هي طريقته الناس في التعاون مع العلماء وكلامهم، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، **قال تعالى:** ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥)﴾ [إبراهيم: ١٥]، **كيف ندعوه بأسمائه توضح لنا أكثر؟ كيف نعبد الله بأسمائه أنت قلت الدعاء للعبادة؟**

الشيخ: هذا شرحناه لكن نعود إليه بما يلزم وهو كيفية دعاء الله عز وجل بأسمائه، أولًا الدعاء هو العبادة أن نعبده العبودية التامة من خلال أسمائه، ولا تتحقق –وهذا قلناه– لا تتحقق العبودية التامة للعبد حتى يحققها من خلال أسمائه التي ذكرت لنا علمنا إياها، هناك أسماء لله لا نعلمها ولا نستطيع أن نلج إلى ربنا سبحانه وتعالى طاعةً وإخباتًا وعبادةً وطلبًا لرضاه، إلا من هذه الأسماء التي عُلمناها.

ولكن هناك من الخلق من الملائكة من خلق الله من العرش وغيره يعبدون الله بأسماء لا نعرفها نحن، ونحن بما ركبنا عليه من الخلق وهذا ينبغي أن نفهمه، الإنسان قاصر وضعيف وعاجز وهو لا يستوعب المعاني التي يتصف بها ربنا ليدخل إليه منها، وإنما تنوعت العبادة لما ذكرنا، تنوعت العبادة من أجل إذهاب الملال، ومن أجل كثرة الدخول على الله عز وجل ومن أجل تحقيق محبته بحسب أحوال الناس ومنازعهم الناس وما يحبون وقدراتهم.

فإذًا نحن ندخل على الله بهذه الأسماء كيفية الدخول، ما من أمرٍ شرعه الله لنا هذه الشرائع، وقد قال الإعرابي: يا رسول الله قد كثرت عليّ شرائع الإسلام، انتبهوا هذا الحديث هذا عجيب من الرجل، هذا ليس هروبًا من الطاعة، كثرت علّي شرائع الإسلام هذا يدل على تقفر وسعي هذا العبد أن يحب الله وأن يقوم بشرعه.

ومن هنا كان أمر الصحابة هو محبة معرفة الشرائع، لأنها تفتح لهم أبوابًا من الطاعات، يحبون أن يدخلوا على الله عز وجل من الطاعات يريدون الشرع، ولذلك قالت أم أيمن: «أني لا أبكي، أني لأعلم أن ما عند الله خيرٌ لرسوله صلى الله عليه وسلم، لكني أبكي انقطاع الوحي من السماء»، انقطعت الأبواب خلاص أقفلت أبواب التعامل مع السماء بما شرعه، أول يسمعون ويحبون، أي شرع ماذا يريد؟ ويتعاملون معها تعاملًا سريعًا حيث جاء الشرع فورًا يطبقوه.

انظر إلى نساء الأنصار، نزل أمر الحجاب فورًا، أبو طلحة الأنصاري جاء قوله تعالى: ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فورًا يريد أن يدخل من هذا الباب، وهذه أبواب يحبها الله عز وجل، وما من شرعٍ له في أمره إلا هو تحقيق لأسماء الله وصفاته، ما من أمر نذكر حال السجود، هو تحقيق العبد في أن الله هو المتكبر جل في علاه، لماذا يدعوه من غير أن يعلم أنه الجبار الذي يجبر ويعطيه، وهكذا العزيز لما أنت تعلم أن الله هو الجبار وأن البقية الخلق لا قيمة لهم أمامه سبحانه وتعالى إلا أن يطيعوه، ماذا يكون في قلبك؟ ما يكون في شأنك أنت؟

انظر إلى الصحابة كيف تحولت هذه الممالك والامبراطوريات إلى مجرد أشكال من ورق أمام أنفسهم السؤال هنا من الذي صنع هذه العظمة في قلوب الصحابة ليروا أن كل شيء لا قيمة له أمامهم؟ هو تحقق هذا القلب تحقق أسماء الله في قلوبهم، الله هو الجبار، الله هو العزيز، الله هو المتكبر، فهذه المعاني التي غزت هذه القلوب الطيبة الطاهرة النظيفة السليمة هذه جعلت الأشياء أمامهم تهون، لم يعودوا يقفوا على أبواب الملوك يطلبون منهم العطايا كما كانوا في شأن جاهليتهم، تركوا شأن الوقوف أمام الملوك من أجل أن يمدحوهم في قصيدة فيعطوهم من العطايا، الأمر أعظم، تصديق ربنا سبحانه وتعالى بأن هناك جنة ونار الله يحب منكم ان تؤمنوا بخبره، وتصدقوا ما أخبر به سبحانه وتعالى.

فالعبد في هذه المعاني إذا سجد إذا ذكر الله، فعندما يذكر الله عز وجل ماذا يحقق؟ **(من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي)**، **(وعينان لا تمسهم النار عينٌ بكت من خشية الله)**، لولا تمثل العبد **(اللهم اغفر لي ذنبي وجهلي وضعفي وكل ذلك عندي)**.

مَــــــلأْنَا البَــــــرَّ حَتَّى ضَــاقَ عَنَّــــــا وَظَهرَ البَحْــــــرِ نَمْلَــــــؤُهُ سَــفِيْنَـــــا

أين ذهبت هذه النفوس المستعلية؟ أين ذهبت هذه النفوس التي تأبى أن تسجد لله عز وجل؟

تواضعت لله خشعت لله، فتمثل العبد وإيمانه بهذه الأسماء الحُسنى في قلبه، وهذه المعاني ما تفرز من أعمال في سلوك العبد وفي تعامله مع الخلق، الرجل عندما يقف أمام الطواغيت فلا يراهم شيء، لماذا؟ ماذا يقول ابن عمر؟ أنتم بحالة واحدة تستطيعوا أن تسحبوا هذه الحالة على كل أحوالهم، العجيبة التي نشأت منهم، يأتي عروة بن الزبير ويأتي فيطلب ابنة عبد الله بن عمر وهو يطوف حول الكعبة، فيقول أنتم تأتوني بحاجاتكم للنساء في الزواج والطلاق وأنا أطوف في الكعبة ونحن نتمثل الله بين أعيننا؟ تتصور هذه الحالة؟ هو يطوف وهو يتمثل الله بين عينيه، معنى ذلك هو إذا قام يصلي يتمثل الله بين عينيه إذا وقف

أمام ملك يتمثل الله بين عينيه، إذا جاءه الفقير يتمثل الله بين عينيه، لأنه أفرِح الرب، الرب يحب منك أن تقوم بالطاعة.

فإذًا هذه الأسماء الحسنى هي التي تُعلمنا كيفية التعامل مع الشريعة، ولذلك ابن تيمية رحمه الله له كلمة رائعة، في تعليقه على موضوع المقاصد الكلية التي قالها العلماء في أصول الفقه، تعرفون الضرورات الخمسة أن الشريعة قامت من أجل الحفاظ، فقال ابن تيمية رحمه الله: «لقد غفلوا عن أعظم الضرورات، أعظم الضرورات القلب»، يشير إلى أن أعظم الضرورات هو هذا القلب ولا النسل ولا، هو هذا القلب أعظم الضرورات، كيف يصلح؟ كيف يمتلئ إيمانًا؟ كيف يصبح فيه الخشية؟

فالعبد يتعبد ثم هو كما رأينا في الحديث عندما يقول صلى الله عليه وسلم: **(اللهم انت السلام ومنك السلام)** هذا الدعاء، نحن قلنا السلام ومن ذلك السلامة، ماذا تصنع الصلاة؟ وصفها النبي صلى الله عليه وسلم: **(مَثَلُ الصَّلواتِ المكتوباتِ كمَثَلِ نَهرٍ جارٍ على بابِ أحَدِكم يغتسِلُ منه كلَّ يومٍ خَمسَ مرَّاتٍ)** سلامة، ولذلك هو بعد الصلاة ماذا يقول؟ حقق لي ما طلبته من الصلاة، حقق لي سلامة، وأعظم سلامة هو سلامة من الشرك، سلامة من غضب الله، سلامة من النار.

وبعد ذلك تأتي كل أنواع السلامة في الدنيا، من سلامة القلب من الغم والهم وسلامته من التعبد لغير الله وسلامته من النظر إلى الفناء إلى هذا الفاني هذا هو، ورأينا في هذا الحديث الذي قرأناه، يقول صلى الله عليه وسلم: **(اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني)**، يدعو الله بهذه الأسماء فادعوا بها.

والعبد إذا دعا الله عز وجل أن يرحمه، يقول: **(اللهم إنك الرحمن فارحمني، اللهم إنك الغفور فاغفر لي)**، وهكذا، وهذا هو أعظم ما يتحقق في فهم العبد لأسماء الله عز وجل، وما القرآن وما الحديث وما الشرائع إلا من أجل شيءٍ واحد أن يعرف الناس ربهم، فإذا عرفوه وآمنوا به خلو من كل شر، وأصلحوا حياتهم في هذه الدنيا ويوم القيامة الله يعطيهم.

ومن أعظم نعم الجنة هو دوام ذكر الله عز وجل، وابن تيمية رحمه الله له معاني جميلة في هذا، يقول: قال صلى الله عليه وسلم: **(يلهمون التسبيح والحمد كما يلهمون النفس)**، قال: «هذا على جهة النعيم»، نحن الآن نقوم بها على جهة التكليف، والأصل أن العباد يقومون بها على جهاد جهة النعيم، ينعم بها كما أنه يلبس اللباس الجميل متنعمًا به، فمن التنعم في الحياة أن تذكر الله، من أعظم النعم في هذه الحياة أن تذكر الله، أحسن من نعمة الأكل والشرب والثياب والأموال والغنى والرياش والبيوت هو أن تسجد لله..

أنت تتنعم ولذلك هذا الذي كان يقوله، ويقوله الكبار يقول: «نحن في لذةٍ لو عرفها أبناء الملوك لجالدونا عليها»، نعمة هذه، لا تنظر إلى أنك أنت مكلف، وهذه عبادة المنافقين ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [النساء: ١٤٢]، أن تقوم إليها على: أرحنا بها، **(أرحنا بها يا بلال)**، وقال صل الله عليه وسلم: **(حُبِّبَ إليَّ من دُنْياكمُ النِّساءُ والطِّيبُ وجُعِلَت قُرَّةُ عَيني في الصَّلاةِ)**، الرجل يقول ابني قرة عيني، زوجتي قرة عيني، أبي قرة عيني، قرة عيني يعني تقر العين؛ يعني تفرح تستأنس وهكذا، تقر العين لا تضطرب لأن المرء إذا اضطرب تراه أهوجًا عينه هنا وهنا ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]، تقر عينه في الصلاة، يعني تذهب عنه كل الهموم، تقر عينه فهو يحبها.

فمن أعظم النعم في الدنيا والآخرة هو أن تذكر الله، ولذلك في الحقيقة من أعظم ما علينا أن نحمد الله أنه خلقنا لنكون عبيدًا له، من أعظم النعم في هذه الدنيا أنه خلقنا لنكون عبيدًا له، هذا شرف وكرامة نسأل الله أن يرحمنا برحمته.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس والعشرون: المتكبر

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

الملاحظ في اعتقاد المسلمين وفي هذه الصفات الإلهية، ونحن اليوم مع الصفة أخرى من صفات ربنا عز وجل وهي صفة المتكبر، أن المراد من ذلك كله هو أنه سبحانه وتعالى الذي يستحق العبادة دون غيره، واستحقاقه العبادة دون غيره يعني تفرده، لم يستحق هذا الوصف الذي أختص به، وهو ألا يعبد سواه بل يعبد هو وحده دون غيره، إلا لأنه سبحانه وتعالى أختص بصفات الكمال دون أحد غيره، ما في أحد، الكل إنما يشتركون في صفات هي صفات الضعف وصفات الفقر وصفات الحاجة وهكذا.

وإذا حصل عندهم شيء من كمالات فهي كمالات بشرية، إذا حصل عند العباد بعض الكمالات بعض الغنى بعض القوة، الحياة، السمع، البصر، فهذه كمالات بشرية، بمعنى أنها نسبية، هي من غيرهم لم يكتسبوها من ذواتهم، وهي بعد ذلك تنتهي إلى الفقد والانتهاء، يفقدونها تنتهي، وهي من غيرهم، الله عز وجل هو الذي أكسبهم إياها، وأعطاهم إياها ليقوموا على شأن العبودية، أعطاهم هذه الصفات الله عز وجل هذه الصفات البشرية التي هي من كمالاتهم، **(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف)**، هي كمالات بشرية، **(المؤمن القوي خير وأحب إلى الله عز وجل من المؤمن الضعيف)**.

فمن كمالات الإنسان البشري أن يكون قويًا، أن يكون غنيًا يعني مستغنيًا عن الآخرين بما عنده من أشياء، فهذه الكمالات إنما أعطاها الله عز وجل للإنسان من أجل أن يحقق العبودية له، العبودية بمعنى أن يقوم على شأن الطاعة، وأعظم الطاعات هو ما يحصل في القلب، من شعور العبد في الانكسار، شعور الانكسار والحاجة، والسؤال والذلة من الدعاء، هذه المعاني القلبية هي معاني العبودية، إنما تنشأ بسبب رؤية العبد لنفسه ورؤية العبد لربه، في أنه مهما بلغ من كمالات البشر فأنه محتاج، مهما بلغ من كمالات البشر فأنه ضعيف، مهما بلغ من كمالات البشر في العلم فهو جاهل.

فلذلك هو يرى نفسه وتتجلى نفسه أمامه على معنى من الضعف والزوال والحاجة والافتقار، وهو يرى ربه سبحانه وتعالى الذي له الأسماء الحسنى الكمالات المطلقة، وكلما أشرقت هذه المعاني على قلبه،

كان من أصحاب اليقين، اليقين الذي بالعلم بهذه المعرفة القلبية، يحصل تعبد أكثر من يقين الرؤية للأشياء، وبهذا اليقين في هذه الدنيا على الغيب تحصل الرؤيا يوم القيامة أن يرى العبد ربه، يراه.

وهذا الحجاب الذي نعيشه في هذه الدنيا، هذا الحجاب الذي بيننا وبين الله عز وجل هو من أجل الامتحان والابتلاء، ومن تفرد الله سبحانه وتعالى ألا يراه المجرمون، ويوم القيامة محجوبون عن الله عز وجل، لأنهم حجبوا قلوبهم عن الله في هذه الدنيا، والمؤمنون أيقنت قلوبهم بالله وأشرقت أنوار المعرفة الإيمانية، والعلم الإيماني، هؤلاء أهل العلم والإيمان، فهذه المعاني الإيمانية أشرقت في قلوبهم فتجلت هذه الحقيقة.

والقصد من ذلك: أن المقصود من هذه الصفات كلها هو أن نعلم أن كل صفات الحُسن التي يعرفها الخلق، الله قد تفرد بها، من هنا تأتي الصفات، ابن القيم رحمه الله له كلمة في هذا قال: «العزيز الجبار المتكبر، قال: الأصل هو العزة على معنى التفرد»، يكون العزيز أصله معناها التفرد، عز الشيء تفرد، قليل، فأما تفرد مطلق وهو تفرد ربنا، وأما تفرد بمعناه قلة الشيء التفرد النسبي، يعني قليل نادر.

وكذلك العزة بمعنى القوة والْمُلك، عز يعني ملك قوة، فقال: «هذه الصفات التي تلت صفات العزيز وهي الجبار والمتكبر، قال: هذه إنما هي من العزة الإلهية».

ومن هنا نرى أن صفة العزيز هي التي قد كثر ذكرها في القرآن الكريم، كما أنه يقول: «أن الخالق والبارئ المصور أن البارئ والمصور هي من الخلق»، لكن ما دام أن هذه الصفات داخلة في هذه الصفة فلما تتعدد ذلك لمعاني جليلة تكون في كل واحدة، كما تكلمنا في الجبار أن فيها معاني، لا تدرك لو أطلقت في كلمة العزة لكنها داخلة في التفرد.

فلذلك كل صفة تدل على تفرد الله عز وجل بكمال الصفات الإلهية هي لله سبحانه وتعالى، وهذه التي نعرفها من صفات الله عز وجل، فاليوم هو الحديث عن صفة عظيمة جاءت على صيغة التفعل المتكبر، وظاهر هذه الصفة يعني كما الناس يتكبر يعني يطلب، وهذا ليس هو المقصود وإنما المقصود هنا أن هذه الصيغة تدل على الاختصاص، أنه متكبر في أنه له حق هذا التكبر، هو حقٌ له جل في علاه وليس لأحد غيره.

فلذلك قالوا هذه صفة التفعل هنا دالةٌ على الاختصاص والتفرد، ليست لأحد غيره سبحانه وتعالى، وأصل التكبر هو العلو والعظمة والتعالي فلما رأينه أكبرنه، أكبرنه يعني عظمنه لما رأينا فيه من صفات لا يريانها في بقية البشر، قلنا ما هذا بشر، لم يرين هذه الصفة التي رأينها في يوسف عليه السلام في أحد ممن يعرفن من الرجال، فلما رأينه أكبرنه وعظمنه تعظيم الانفراد بهذه الصفات التي الله عز وجل منحها لهذا

النبي العظيم، وهي صفة الجمال الحسن، ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾ [يوسف: ٣١]، فأخرجناه عن صفة البشرية، وهذا يدل على أنهم كانوا يعرفون الملائكة في ثقافتهم يعرفون الملائكة، وما فيهم من صفات الجمال وما فيهم من صفات الحسن، وخروجهم عن التطور البشري الضعيفة التي فيها الضعف والنقص والاهتراء والتغير.

فلذلك التكبر أول صفة أول معنى هو التعالي، والله عز وجل هو الذي له صفة العلو والتعالي هو الانفراد أنه متعالٍ عن الخلق، متعالٍ عما يفعله الخلق من دنس، متعال عن الظلم، الله يتعالى عن الصفات التي في البشر، سواء كانت هذه الصفات من أصل جبلتهم التي لا تعد ذمًا، ولكنها هي من صفة النقص فيهم، يعني الله يتعالى عن الفقر، الله متعالي عن صفات البشر والبشر فيهم الفقر فالله متعالي على الفقر، الله متعالي عن المرض البشر يمرضون البشر يموتون، البشر لهم أول لهم آخر لهم بداية ونهاية.

الله تعالى عن صفات الخلق خاصة تعالى عن صفات الجماد، الجماد لا يتكلم هذا الجماد لا يتكلم صامت ساكن لا يتحرك، الله تعالى عن كل ذلك الله تعالى عن صفات الخلق من الدواب، وتعالى عن صفات من الخلق من البشر، صفات من الخلق فيما يحدث من صفات هي سلبية في حقهم، ولذلك الله تعالى عن الظلم، الله عز وجل تعالى سبحانه وتعالى عن الكذب الذي يحدث في البشر، الله سبحانه وتعالى الحق المبين، الله عز وجل يصدق عبيده، ويصدق وصادق الوعد.

إذن المتكبر هو الذي تعالى عن صفات الخلق، سواء كانت هذه الصفات مما هي عندهم من صفات الجبلية التي هي يستغفر العبد من هذه الصفات، وحتى لو لم تكن من اكتسابه، كيف يستغفر؟ لأنها عجزٌ عن أداء مهمات العبودية التامة، يعني لماذا عندما يخرج العبد من بيت الخلاء فيقول غفرانك؟ هو شيءٌ جبلي لا يمكن أن ينفك عنه، وليس هو من اكتسابه رغم أنفه يفعله، يستغفر لأنه هذا مقامه وهو بصفته أنه عبد يستغفر من هذا الضعف الذي لا يقدر مع هذا الضعف أن يقوم على مقام ساق العبودية التامة التي تليق بربنا، لا يستطيع العبد أن يقوم على معنى العبودية التي تليق بالله عز وجل.

من هنا نكرر هذا الحديث **(لا أُحصي ثناءً علَيكَ)**، هذا يعني لا يستطيع العبد، **(لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)**، فعجز العبد يستحق الاستغفار، حتى لو لم يكن لكسبه لأنه عاجز عن أداء هذا الحق الذي تقوم به الملائكة، والله سبحانه يحمد نفسه ويمدح نفسه.

فالله سبحانه وتعالى جل في علاه الذي تعالى عما هو من صفات الخلق، حتى لو كانت هذه الصفات هي جبليةٌ في الخلق، كالضعف والحياة والموت، لا دور للمرء فيها، وليست هي من الذم، لكن الله عز

وجل يتعالى عن الصفات المذمومة مما يعرفها الناس، تعالى سبحانه وتعالى هو متكبر عن هذه الصفات التي يفعلها الخلق من الظلم، من الكذب، من إخلاف الوعد، الله عز وجل متعالي عن هذا.

والمعنى الثاني لصفة المتكبر هو الذي سبحانه وتعالى تكبر، هذه كما نراها المتعالي هي أقرب إلى معنى صفة الذات أنها ذات، الله متعالي الصفات، فإذن هي تتعلق بأنها وصفٌ لذاته، الآن هذه الصفة هي وصفٌ كذلك لأفعاله، الله عز وجل المتكبر هو الذي يقسم ظهور المتكبر والجبابرة.

فالله عز وجل متكبر والكبر هو المنع، فيه المنع لأن الناس يقولون هذا متكبر، يعني ماذا؟ الكبر قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم **(بطر الحق وغمط الناس)**، منع، يمنع الناس حقوقهم، الكِبر هو منع، وهذا المنع يعني دلالة القوة، وإما أن يكون على غير مستحقه، متكبر ولا يستحق، ليس له هذا.

فالله سبحانه وتعالى أنه متكبر جل في علاه في أنه من نازعه في حقه، في عبوديته، فيمن نازعه في حقه في أداء عبوديته، من نازعه في حقه في طاعته في الإخبات إليه والتذلل له، أن يذل العبد له الله عز وجل يقسمه، ولذلك سنة الله عز وجل جرت في أنه يقسم الجبابرة والمتكبرين، جرت سنته على أن المتكبر لا يمكن أن ينتهي أمره في هذه الدنيا إلا إلى زوال، ويرى الناس أن أمره إلى انتهاء، وأن قوته التي يدعيها إنما هي أكاذيب وخيالات نفس، وجهل نفس بحقيقة ما هي عليه، كيف أذل الله عز وجل فرعون؟ كيف أذل النمرود؟ كيف أذل أبا جهل؟ كيف أذل أبا لهب؟ كيف أذل الجبابرة المتكبرين القياصرة أصحاب الملك العظيم؟ أذلهم الله عز وجل، لأنه سبحانه وتعالى لا يرضى أن يُنازع.

ولذلك في الحديث: **(العزة إزاري والكبرياء ردائي)**، وهنا مظهر الكبرياء إنما هو لما هو أعظم وهذا ذكرناه في قضية **(العزة إزاري والكبرياء ردائي)** لما ذكرنا صفة العزيز، الكبرياء رداء الله عز وجل والكبرياء قلناه هو مظهر العظمة والملك، ولذلك هو الرداء، والرداء وإن كان أجّل -وهذا ذكرناها- الرداء هو الأجّل، لأنه لا ينازع فيه.

ولذلك: **(الكبرياء ردائي والعزة إزاري من نازعني فيهما عذبته)**، وها الكبرياء هو الذي يمنع العبيد قدرًا من أن يصيبوا منه ما يريدون من شر، ومن هنا قلنا الكبر هو المنع، ما معنى منع رجل عنده، صفة عنده منع، بمعنى لا يصاب منه أمرُ من أمَر، واحد تأمره فيعرض، ماذا تقول؟ تكبر غمط الناس رفض، الناس يطالبون حقهم وهو بطر الحق، واحد يطلب شيئًا من آخر، حقه من آخر ماذا يفعل؟ يتكبر إن يجيبه، يريد أن يدخل إليه فيسأله ماذا؟ يمتنع فلا يقابله لا يرضاه، فحينئذٍ أمتنع.

فلذلك الله عز وجل له المنعة جل في علاه لأنه المتكبر أولًا متكبر على من نازعته في ملكه وسلطانه، على الظلم على معنى أن الله متكبر على من نازعه في حقه متكبر على من نازعه في سلطانه، على من نازعه في ملكه، متكبر ربنا سبحانه وتعالى من نازعه في صفاته.

المعنى الثاني وهو في حديث في الصحيحين ما بين المؤمنين ما بين العبد وبين أن ينظر إلى وجه الله إلا حجاب الكبرياء، **(وما بَيْنَ القومِ وبَيْنَ أنْ ينظُروا إلى ربِّهم إلَّا رِداءُ الكِبْرِ على وجهِه في جنَّةِ عَدْنٍ)**، انظر المنع، هذا في الأول ذكرنا تكبره على الظلمة ولذلك هو يقسمهم، وكذلك هو متكبر في هذه الدنيا في أنه محجوب، ما الذي حجبه؟ حجاب الكبرياء.

وذلك في حديث ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(حجابه النور)**، قال صلى الله عليه وسلم: **(وما بين القومِ بين أن ينظُروا إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ إلَّا رداءُ الكبرياءِ على وجهِه في جنَّةِ عدنٍ)**، إذن هو ممنوع سبحانه وتعالى الآن إن يروه لأن هذه الدنيا هي دار ابتلاء، ولأن هذه الدنيا هي دار خسة، الله عز وجل لا يتجلى في هذه الضائقة، في هذه الدنيا لن تراني، مخلوقةٌ على معنى **(لو كانت هذه الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافر شربة ماء)**.

فهو محجوب على المؤمن من أجل أن يتشوف المؤمن لرؤية وجه ربه، أن يعيش هذا الشوق، هو محجوبٌ على الكافر عذابًا عليه، ومحجوب في هذه الدنيا عذاب ومحجوب في الآخرة كذلك عذاب، وأما في الدنيا فمحجوب عن الدنيا لأمور، منها أن هذه الدنيا ليست دار جزاء، ورؤية وجه الله عز وجل هو جزاء ونعمة عظيمة وكرامة، هو محجوب لأعظم من ذلك، وهو أن تتشوف النفوس والقلوب إلى رؤيته، تنقطع القلوب وهي تتمنى أن تراه وشوقها إليه يعني لا يموت المؤمن إلا وهو يتشوف أن يراه.

كما في الحديث النبي صلى الله عليه وسلم لما خطب الخطبة ولم يفقهها إلا الصديق رضي الله عنه، قال: **(خير عبد بين الدنيا والآخرة، اختار الرفيق الأعلى)**، هو يريد أن يذهب إلى الرفيق، وهكذا المجاهد يذهب إلى الرفيق يريد أن يلحق يريد أن يرى الله عز وجل، هذا الذي ينبغي أن يشغل قلب العبد، هو أن يرى ربه.

إذن مما حجب ربنا عز وجل هو حجابه ورداؤه سبحانه وتعالى، وذلك في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: **(بين أن ينظر العبد إلى ربه في جنة عدن إلا رداء الكبرياء)**، وفي الحديث: **(العزة إزاري والكبرياء ردائي)**، فالله عز وجل يزيل يوم القيامة -انظر لهذا المعنى- الله عز وجل يوم القيامة يزيل ويسقط رداء الكبرياء بينه وبين المؤمنين، فلا يمتنع عنهم بأن يروه ويتمتعوا في النظر إليه، في الدنيا نحن محجوبون برداء

الكبرياء، لأنه المتكبر أن يرى في هذه الدنيا الفانية، في هذه الدنيا التي هي دار العمل لا دار الجزاء، في هذه الدنيا التي لا تعدل عند الله جناح بعوضة، فالله عز وجل متكبر أن يرى في هذه الدنيا متكبر، هذا الرداء يوم القيامة الله عز وجل يزيله، رداء الكبرياء يزيله سبحانه وتعالى بينه وبين المؤمنين.

ولذلك هو في الجنة لا يتعامل معهم تعامل المتكبر المتعالي، ولكن يقول: **(سألوني أعطكم)**، في الدنيا يقول: **(سألوني أعطكم)**، ويعطيهم وأغلب العطاء إنما يكون في الآخرة، وذلك في الحديث قد لا يعطى العبد في هذه الدنيا، في أحاديث كثيرة الناس لا ينتبهون لها، أنه أنت أطلب أنا أعطيك ستعطى لكن ليس شرط أن تعطى في هذه الدنيا.

ومن أجل الأحاديث في ذلك، **(وإن العبد ليبلغ منازل الشهداء)** بدعائه، إذا سأل العبد الشهادة، قال صلى الله عليه وسلم: **(من سألَ اللَّهَ الشَّهادةَ صادقًا بلَّغَه اللَّهُ منازلَ الشُّهداءِ وإن ماتَ علَى فراشِه)**، يعني يمكن يعني هو يسأل منازل الشهداء والله يعطيه منزلة الشهداء ويموت على فراشه، إذًا لا يموت شهيدًا، الله يعطي ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، هذا المعنى يوم القيامة يتجلى بأحسن معانيه، فلا يكون إلا السؤال والعطاء، لأن هناك دار الآخرة **(سألوني أعطكم)**، ويعطيهم أكثر مما يتمنون وأكثر مما يسألون، لأن الإنسان لا يسأل إلا ما هو حاضر في ذهنه ويعرف معناه، واحدنا لا يعرف شيء.

يذكر في بعض الفتوح أن ابنة ملك سقطت أسيرة، فبعثوا وراء هذا الذي وقعت في يده أسيرة أن يشتروها منه فقال كم تريد منها؟ قالوا له: هذه ابنة الملك أطلب، فقال: ألفَ ألف، قال له: لو طلبت أكثر، قال: هذا الذي أعرفه، لا يعرف أكثر من هذا الرقم هو مسكين، وهكذا العوام لا يعرفون.

وفي الحديث الذي رواه أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: **(قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ، لِأَهْلِهِ: إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ، ثُمَّ اذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ، فَأَمَرَ اللهُ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَغَفَرَ اللهُ لَهُ)**، والناس يعني يخوضون في أشياء عجيبة في تفسير هذا الحديث، وهذا المسكين يظن القدرة أعظم ما تكون القدرة هكذا.

عائشة رضي الله عنها قالت: **(يمشي على وجهه!!)**، الآن نحن نستطيع أن نتصور معاني القدرة أكثر مما تصوره الصحابة، يعني لو قيل للصحابي واحد يتكلم هنا فيسمعه الله، يقول لك: الله قادر على كل

شيء، لكن كيف؟ فيعجز عقله عن إدراك مستوى القدرة، فالعبد لا يسأل إلا ما يعرف في عقله من معاني، ولذلك في الجنة فيها **(ما لا عَيْنٌ رأَت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَر على قَلب بَشَر)**.

ومن معاني ذلك أن يسقط ربنا سبحانه وتعالى حجاب ورداء الكبرياء عنه لأن لا يروه إلا على معنى الحبيب، ما في انتقام هناك لأنه من معاني المتكبر: المتعالي هو المتعالي عنهم، ولكن هناك المقام هو مقام الحب، مقام للسعادة والعطاء، ومن معاني المتكبر أنه يقسم الجبابرة والمتكبرين وهذا لا وجود له، لا على معنى الاحتمال ولا على معنى الوجود يعني معنى الاحتمال نحن حتى لو مع ضعفنا، فبقاء إيماننا بأنه المتكبر يمنعنا من أن نتكبر، يمنعنا أن نكون من العتاة لأن لا يقسمنا الله، يمنعنا من أن نكون متكبرين لئلا يذلنا الله، هذه المعاني في الجنة لا وجود لها، فإنهم **(يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّكْبِيرَ كما تُلْهَمُونَ النَّفَسَ)**، عبوديةٌ مطلقة هناك ما في خوف، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [يونس: ٦٢]، ما في خوف هناك.

فإذن هذا رداء التكبر، رداء المتكبر، رداء الكبر، هذا مع أهل الجنة إلا أن يروه، فلا يرون هذا الرداء الذي يحجبهم، ولذلك هذا الاسم الذي يتعاطى معه المؤمنون عبادةً لله هذا الاسم المتكبر، هذا يتعاطون معه على معنيين، على معنى من أنفسهم، وعلى معنى من غيرهم.

المعنى الأول: أما معنى من أنفسهم فلا يتكبرون، فإن الله عز وجل لا يرضى بأن ينازع الكبر هذه خاصة لله عز وجل، لأنها ذميمةٌ في حق العبد، لماذا ذميمةٌ في حق العبد؟ لأنها لا تليق به، على أي معنى فليس العبد متعاليًا، لأن في تعاليه منازعة لله عز وجل. ولذلك في الحديث **(إنها لمشيةٌ يبغضها الله، إلا في هذا الموطن)**، لأنها في هذا الموطن فيها تعالي على الكفرة، ولكن يبغضها الله لا يحبها، حتى المشية، حتى لفتة العين حتى نزعة القلب ونزغته في أن تُنازع الله في هذه الصفة.

فلذلك الله سبحانه وتعالى يطلب من العبد أن يكون عبدًا، لا يوجد كلمة تفسر معنى العبودية إلا هي، إلا هذه الكلمة عبد، عبد الطريق سهله، الكل يمشي عليه ما في اعتراضات، عبد الطريق أزال كل عوارض المشي عليه، فعبد هي عبد، لا ترد أمرًا، لا تنكر قدرًا، تمشي عليك أقدار الله فلا تعترض بل تسلم.

ولذلك في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: **(إذا ماتَ وَلَدُ العبدِ قالَ اللَّهُ لملائِكتِهِ قبضتم ولَدَ عبدي فيقولونَ نعم فيقولُ قبضتُم ثمرةَ فؤادِهِ فيقولونَ نعم فيقولُ ماذا قالَ عبدي فيقولونَ حمِدَكَ واسترجعَ فيقولُ اللَّهُ ابنوا لعبدي بيتًا في الجنَّةِ وسمُّوهُ بيتَ الحمْدِ)**، لا تعترض، عبد وإذا جاء شرع الله وأمره، ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، فإذًا مقام العبد مع هذا الاسم في نفسه أن يكون عبدًا، وأن

يخاف من أن يُنازع في هذا المقام، خروج العبد من معنى العبودية هو مُنازعة، هنا يأتي المتكبر عليك إن تخاف.

المعنى الثاني: هو مقامٌ العبد مع غيره، إذا رأيت متكبرًا فأعلم أن الله سيقضي عليه سيدمره، وأعظم مقامٍ في هذا الباب أن تكون أنت قدر الله الذي يعذب به، أعظم مقام هو أن تكون أنت يد الله التي يعذب به، قدر الله الذي يعذب به، ولذلك هذا من أجمل ما يكون، تصور هذا، الله عز وجل كما في سورة «الصافات» قال: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧)﴾ [الصافات: ١٧٧]، وهذه حديث عن الأمم السابقة، عن الملائكة، يعني الله عز وجل يرسل الملائكة فينزلوا بساحتهم، كما قال: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)﴾ [هود: ٨١].

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾، يأتي عذاب الله عز وجل عليه في الصباح فيدمرهم، فينزل بها أجل الخلق الملائكة، هذا المقام مقام العبودية في أن تكون أنت يد الله، قدر الله الذي يعذب به تمثله رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل خيبر وقف وقال: **(إنا -صار هو يقوم هذا المقام- إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)**.

ولذلك في الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه قال: **(لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحي، فقالوا: محمد والخميس، ورجعوا إلى حصنهم)**، وإذا جيش النبي صلى الله عليه وسلم يباغتهم، انظر أن تكون أنت تمثل القدر الإلهي الذي يحبه الله، انظر إلى ابن عباس كيف استفاد من فعل الرب مادام هو فعل الله إذًا يحبه الله، فاستدل بما فعله الله عز وجل في قوم لوط على حكم اللواط، ما هي فتوى ابن عباس في حكم اللواط؟ هو أن يحمل فيرفع إلى أعلى مكان في البلدة ثم يرمى ثم يرجم حتى يموت، فهذا فعل الله مع قوم لوط أنت تبحث عما يفعل ربنا سبحانه وتعالى.

من هنا الله عز وجل يقسم الجبابرة، اعتقادك وإيمانك بهذا الاسم أنه المتكبر من جهة النظر إلى غيره، هو أن تكون أنت قدر الله الذي يعذب به الجبابرة والمتكبرين، وأن تكون أنت ممن يرفع من تواضع لله، لأن الله يحب أن ترفعه، وأن تعلو هذه العزة للمؤمنين، وقلنا والمتكبر هي داخلة في صفات العزة، وأن تكون أنت مترفعًا عمن ترفع عن دين الله عز وجل.

ولذلك كانوا يقولون عن بعض مجالس أهل العلم: «ما كنا نرى أعظم الناس شأنًا في مجالسهم إلا الفقراء، وما نرى أذل الناس في مجالسهم إلا الأثرياء»، انظروا إلى الحالة كيف منقلبة، العبد إذا خلا عن

رؤية أمر الله رؤية صفات الله كيف يهين الفقير، فيعتوا عليه، فتصيبه عقوبة المتكبر، وتقع عليه العقوبة، ومع ذلك يسأل لماذا عذبت؟ عذبت لأنك أعرضت عما يحب الله عز وجل ولم تعظم ما عظمه الله، وتواضعت لمن أراد الله ذلته.

ولذلك الله يغضب إذا قيل للمنافق سيدًا، عندما قال صلى الله عليه وسلم: **(لعلك أغضبتهم؟)**، لما أبو بكر رضي الله عنه بالرغم أنه لم ينتصر لنفسه ولم يتعالى عليهم، أعوذ بالله أبو بكر كان يأتي بالمال فيشتري فيه الفقراء العبيد في مكة، يقول له أبوه هلا اشتريت الأصحاء الأقوياء ينفعونك؟ قال: أنا أشتريهم لأمرٍ ليس لما تطلب، لأمر آخر، ومع ذلك لما قال لهما: «أتقولون هذا لسيدي قريش؟» وجاء شاكيًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن بلال وسلمان ومصعب يعني هؤلاء مصعب كان قد قتل رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: **(يا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ)**، تمام العبودية لله عز وجل، وتمام الاستعلاء على من يعرض عن دين الله عز وجل.

هذه المعاني في القلوب في علم أن الله هو المتكبر، هو الذي جعل الممالك أمامهم مجرد تراب، وهو الذي جعل الطواغيت والأباطرة أمامهم كأنهم لا شيء هواء، لثقتهم أنهم هم قدر الله في إذلال هؤلاء الطغاة، ولثقتهم بأنهم هم يد الله وقدر الله عز وجل في إنزال هؤلاء عن مقامهم الذي تعالوا فيه على الخلق، فمقام العبد في هذا مقامه مع نفسه أن يكون ذليلًا أن يكون ضعيفًا، أن يسجد لله، أن يتواضع، إياك والكبر، **(لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)**، لأن هذه الصفة هي صفة الكبر إذا دخلت في القلب، كالخل في العسل نقطة واحدة تفسد القلب كله، تفسد معنى العبودية، ومعنى العبودية: الذلة، الكبر هو خروج العبد عن معنى العبودية، هذا بابٌ خرج عن معنى العبودية.

والكبر ليس أن يكون ثوبك جميلًا ولا أن تكون غنيًا، لا، بل أن تتعالى على الخلق، أن يأتي إليك الحق فترده، المتكبر هو الذي إذا علم حقًا من العلوم ترفع عليها، إذا جاء له الدليل على غير ما يقول ترفع عنه، إذا جاء أحد يطلب حقه لم يؤدي إليه متكبر، هذا بطر الحق، ورد الحق وغمط الناس الترفع عليهم.

ولذلك الله عز وجل يوم القيامة يحب الله المتواضعين في الدنيا، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣)﴾ [الفرقان: ٦٣]، هذا هو تمام التمثل بعبودية العبد لربه، في معنى هذا الاسم الجليل، وهذا الاسم في الحقيقة إذا استحضره العبد دائمًا لا يمكن إلا أن يكون ذاكرًا له، خائفًا منه، محبًا له في أن يأتي يوم القيامة ليكشف عنه رداء الكبرياء ليراه، هو يرجوه ويتمنى أن

يصيب منه رؤيا، وإذا رأى العبد ربه فهذا منتهى النعم، الله عز وجل لا يكشف له هذا الرداء إلا ويعطيه سؤله كله، وأعظم السؤل إلا أن يكشف لهم، كما في الحديث رداء الكبر فيرونه وينظرون إليه.

ولذلك قال في جنة عدن، جنة الإقامة نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا عبوديةً خالصةً له وأن يجعلنا من أهل طاعته وأن يرزقنا الإخبات التام له ونعوذ به أن يكون في قلوبنا الكبر أو أن يكون القليل من الكبر في قلوبنا آمين والحمد لله رب العالمين.

السائل: شيخنا أنت ذكرت معاني كثيرة للكبر منها: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف: ٣١]، بمعنى المنع في اللغة هو الذي امتنع؟

الشيخ: هو الشيء إذا وجد وجدت توابعه، أصل الكبر هو التعالي، فإذا تعالى؛ فهو متعالي لا يصاب، إذا شيء متعالي لا يصاب ولا يصيبه، فالتعالي هو الذي يصنع المنعة، التعالي -إذا كان حقيقيًا- التعالي هو الذي يصنع القوة، التعالي هو الذي يصنع القوة التي بها يتم البطش بخصومه لو أرادوه، متعالي مطلق لا يصاب، فأصل الكبر هو التعالي.

ثم بعض العلماء يفسرون الشيء بلوازمه إما يفسرونه بذات أو يفسرونه بلوازمه، أو بأمثاله، يضربون مثال يقول: المتكبر -لأنه متعالي- قال: «لأنه يقسم ظهور من نازعوه» فهذه من صفة التعالي مأخوذة، والمتكبر هو المتعالي عن صفات الخلق هكذا يطلقوها، المتعالي على أن يظلم عباده، والمتعالي أن يقسم أعداءه، هي الأصل للتعالي وبعد ذلك يمثلون إما يمثلون بأمثال متعددة لما هي، وإما يفسروها باللوازم، بلوازم هذه الكلمة.

وهذا كما يقول شيخ الإسلام -له مقدمة في التفسير- يقول: «عند من لا يعرف هذا المعنى في التفسير يظن أنه متعارض، وليس هذا متعارضًا»، تفسير الشيء بلوازمه، وتفسير الشيء بأمثاله المتعددة، هذا ليس من التعارض.

السائل: شيخنا ذكرت أن المتكبر هي صفة ذات لله سبحانه وتعالى؟

الشيخ: نعم هي صفة ذاتٍ وصفة فعل، أما صفة ذات أنه هو بنفسه متعالي، متعالي أي متفرد، التعالي هو التفرد، التعالي المطلق هو المتفرد، فإذن هو جل في علاه فريدٌ متعالي بذاته.

السائل: إذا كانت صفة ذات فكيف يزله يوم القيامة وردائه الكبرياء؟

الشيخ: فقط مما ذكره العلماء في هذا الباب أن المعنى قد يكون جزئيًا وقد يكون كليًا، فالذي يزاح بين الله وبين عبده في الجنة هو الرداء الذي يمنع الرؤيا، هو الرداء الذي يمنع التعاطي على معنى الحب التام المطلق، الذي ليس فيه الخوف، وليس فيه ترقب الخوف وترقب العذاب، فهذا هو المعنى الذي يزال.

ونحن نتكلم هنا عن المعاني المتمثلة بإزاحة ربنا لرداء الكبر، ولكن هذا لا يعني أن يحيط العبد بربه لا في الدنيا ولا في الآخرة، لا يحيط يعني هناك من المعاني هناك من الرب سبحانه وتعالى وحقيقته ما لا يدركها العبد، لا يدركه، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، مع إنه يراه، ومع ذلك لا تدركه، فلا يعني أنه ينظر إليه أنه يدركه يحيط به في بعينيه، لا يعني هذا، فدل على أن هناك من الذات الإلهية والمعاني الإلهية ما لا يبصرها العبد، واضح المقصود في هذا.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس السابع والعشرون: الطيب

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ آخر من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الحسنى وهو اسمه الطيب جل في علاه، وهذا الاسم مأخوذ من حديث أبي هريرة الذي هو في صحيح مسلم في قوله صلى الله عليه وسلم **(إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا)**، فهذا اسم كما قال أبو بكر بن العربي في الأمد الأقصى يقول: هذا لم يذكره كثيرون من أهل العلم ولعله يعرض ها هنا بالغزالي، لأن الغزالي لم يذكره، وهو في مقدمة كتابه ذكر أنه نفر من أجل تأليف هذا الباب أو هذا الكتاب في موضوع أسماء الله الحسنى لِمَ رأى من كلام أهل العلم فيه وخاصةً كلام شيخه، الغزالي هو شيخ أبو بكر بن العربي المعافري المالكي.

فقال: أعرض عن ذكره أقوام وذلك لعدم تقديرهم هذا الاسم حق قدره ولعدم معرفتهم صحة نسبه فكأنه عرض بالأمرين أن البعض لم يقبله لأنه جهل معناه، أو أنه لم يدرك سبيله من مصدرهن مصدره الذي هو السنة لأنه لم يرد في القرآن الكريم، وإنما ورد في السنة: **(إن الله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيبًا)**.

وأوسع من تكلم فيه هو أبو بكر وقال: «بأن كلمة طيب تطلق في كلام العرب على أربعة معاني:

المعنى الأول: بمعنى اللذيذ، فيقال هذا طعام طيب يعني لذيذ.

المعنى الثاني: يأتي بمعنى الحلال، ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، بمعنى الحلال.

المعنى الرابع: وتأتي كذلك كلمة الطيب بمعنى الخالي من العيوب والآفات، فالذي يخلو من العيوب والآفات فيقال هذا طيبٌ، كما النبي صلى الله عليه وسلم قال عنه علّي رضي الله عنه وكذلك قال أبو بكر لما غسل ولما قُبل، لما غسله علّي رضي الله عنه كما في البخاري قال: «غَسَّلتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فذَهبتُ أنظرُ ما يَكونُ منَ الميّتِ، فلم أرَ شيئًا، وَكانَ طيِّبًا حيًّا وميِّتًا»، وكذلك لما قبله أبو بكر رضي الله تعالى عنه قال: «طبت حيًا وميتًا».

والنبي صلى الله عليه وسلم نادى عمار ابن ياسر وقال: (أيها الطيب المطيب)، وهذا بمعنى خلوه من الآفات

المعنى الرابع: ويقال كذلك الطيب وهو من شرُف وعظُم وكمُل، فيقال: هذا بيتٌ طيب، أي اكتمل شرفه في نفسه، واكتمل شرفه في فعله، شرفه في نفسه هو شريف في نفسه وكذلك أفعاله عند الناس طيبة، هذه هي المعاني التي تدور حولها كلمة طيب في كلام عرب».

والحديث بين في قوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا)، وكذلك في الحديث الذي في مسلم أن المصلي يقول في تشهده: (الطيبات لله عز وجل)، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

والآن قبل أن نحقق ما وصف الله عز وجل أشياء مادية بأنها طيبة وبأفعال معنوية وقيم نفسية بأنها طيبة فما هو معنى هذا الاسم في حق ربنا سبحانه وتعالى؟ لمَ تقدم من المعاني التي ذكرها أبو بكر بن العربي عليه رحمة الله فيكون معنى الطيب هو الذي كمُلَ، وتم، وبلا شك أن ربنا سبحانه وتعالى كامل وأنه سبحانه وتعالى أسمائه تامة؛ فهو طيب بمعنى أنه كامل لا يعتريه النقص ولا تلحق به الآفات، هذا معنى الطيب، الطيب في حق ربنا سبحانه وتعالى الذي لا يلحق فيه النقص ولا تلحقه الآفات.

فالله سبحانه وتعالى ملكه لا يفيض، لو أعطى كل واحدٍ مسألته ما نقص ذلك في ملك الله شيئًا، لا ينقص، والزمن بالنسبة للخلق يفنيهم، والزمن بالنسبة للخلق يتعبهم ويغير أحوالهم ويقلب صفاتهم.. ولكن الله سبحانه وتعالى هو الأول فلا يعتريه النقص، ويرزق فلا يعتريه نقص، ويحاربه أعداءه فلا يعتريه نقص، ويعبده أولياؤه فلا يزيد، سبحانه وتعالى لا تعتريه الآفات، الزمن لا يغيره جل في علاه، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، فلا تعتريه الآفات، فالله طيب سبحانه وتعالى..

والطيب هنا يأتي بمعنى الكمال، ويأتي بمعنى الزكاة، شيءٌ زاك مزكى، وتعرفون كلمة زكا الشيء يعني طابة، ومنه أخذت كلمة الزكاة؟ لأنها تطيبوا طيبون مال المزكي، زكى يطيب ماله فسميت الزكاة بهذا الاسم المبارك الزكاة، فهذا هو المعنى، المعنى الأول أنه سبحانه وتعالى كمل جل في علاه.

والمعنى كذلك الذي يلحق بهذا المعنى وهو الذي لا يعتريه النقص ولا تعتريه الآفات، وأنه سبحانه وتعالى يعني جميلٌ في هذا الباب محبوبٌ في هذا الباب، ولذلك إذا أحب الناس شيئًا أطلقوا عليه هذا الاسم الطيب، كما سمى النبي صلى الله عليه وسلم المدينة طيبة، ولما كانت الجنة تامة بالنسبة إلى ما خلق الله فيها من نعيم، ينعم بها أولياءه، فلذلك يكون ما فيها طيبًا، ومن ذلك شجرة طوبى في الجنة شجرة

تسمى طوبى، من إين أخذت كلمة طوبى؟ من الطيب، لأنها نعيمٌ جميلٌ محبب، فربنا سبحانه وتعالى لا يعتريه النقص وهو تامٌ كاملٌ جل في علاه.

وهذا المعنى الله عز وجل يحبه من الخلق قال صلى الله عليه وسلم: **(اللهم أنت السلام ومنك السلام)**، فهو السلام ويأتي منه السلام، وقال صلى الله عليه وسلم **(يا أيُّها النَّاسُ إنَّ اللَّهَ طيِّبٌ لا يقبلُ إلَّا طيِّبًا)**، فأولًا هو طيبٌ لا يأتي منه إلا الطيب، فهو طيبٌ بذاته جل في علاه وهو طيبٌ بفعله، انظر إلى كرم الله عز وجل انظر إلى هذا الكمال المطلق في ما كون الله عز وجل وخلق وأحكم ودبر هذا التدبير الإلهي في أقداره، انظر إلى هذه السماوات وهذه الأرض وهذه النجوم وتقلبات الأحوال وما فيها من تمام وكمال فالله عز وجل طيبٌ في نفسه جل في علاه لا يعتريه النقص وأنه سبحانه وتعالى زكى.

ولذلك أخذت كلمة الطيب بما تستلذ بها النفس من روائح، والفعل ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾، فالطيب يوصف لما هو محسوس ويوصف لما هو فعل معنوي كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ولذلك الله عز وجل بذاته طيبٌ جل في علاه.

وانظر عندما أنت تعلم أنه طيبٌ بذاته وأنه لا يمكن أن يتغير، وأنت إذا تأملت أسماء الله سبحانه وتعالى؛ تجد يتحقق فيها قوله صلى الله عليه وسلم: **(إنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتابًا قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إنَّ رَحْمَتي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهو مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ)**، تأمل كم اسم لله عز وجل يفيد هذا المعنى الحسن والذي ترغب إليه القلوب وتقبل، محبةً وإخباتًا وإنابةً؟

لكن الأسماء التي فيها النذارة وفيها التخويف قليلة مقابل الأسماء التي فيها الرحمة والكرم والعطاء، يعني النفوس لما تعلم أنه طيب تقبل عليه، وأنه لا يأتي منه إلا الطيب تقبل عليه وتسأله، وبالتالي لأن مقام العبد مع الله عز وجل هو أن يعبده وأن يقدم إليه، العبد يجب عليه أن يقدم لله عز وجل، يقدم له من فعله، يقدم له من قوله، يقدم له من عمل قلبه، يقدم له من عمل جوارحه، يقدم له من ماله الذي يملكه، يقدم له من الفعل الذي يحبه الله عز وجل من البر والإحسان للناس وقتال أعدائه، ومحبة أوليائه.

فالله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيبًا، لا يقبل إلا الطيب سبحانه وتعالى، فأمر عباده بالطيبات؛ ولذلك ما من أمرٍ أمر الله عز وجل به عبيده إلا وهو طيب، طيبٌ بذاته وطيبٌ بآثاره، وقد يبدو للناس أن هذا المقام الذي يفعله العبد فيه الشدة ولكن هذه الشدة كشدة غسل اليدين، لما أنت تفرك يديك وإن كان في ذلك شدة ولكنها شدة تؤدي إلى الطهر لأن هذا شأن الحياة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ

كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]. خلق الله عز وجل هذه الأقدار للابتلاء فلابد أن يقوم العبد بتطهير هذا الوجود، كما أنه يقوم بتطهير وتطييب قلبه فلا يكون فيه الشرك.

أعظم قذارة تصيب القلب هي الشرك، وسواء كانت تصيب القلب أو تصيب اللسان بما يلفظ من أقوال كفرية أو تصيب البدن بما يقوم بأفعال كفرية، فالله عز وجل يبغض هذا، وكذلك يبغض الكلمات القذرة ويبغض منها كما قلنا الشرك ومنها سب الوالدين ومنها سب أولياءه ومنها سب النبي صلى الله عليه وسلم.

فالله عز وجل يحب للعبد أن يطيب لسانه وأن يطيب قلبه وأن يطيب مسلكه وأن يطيب بدنه سواء كان مما يتعلق بالأمور العملية أو الأمور المادية، وذلك أمر الله بالوضوء، انظر ماذا سماه وضوء من الوضاءة، والوضاءة هي النور والإشراق، فالله أمر بهذا جل في علاه، أمر المرء أن يغتسل من الجنابة، وأمره أن يسعى في الأرض، فقال صلى الله عليه وسلم: **(الإيمانُ بضعٌ وسبعون شعبةً، أعلاها قولُ لا إله إلا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريقِ)**، أعلاها العلاقة مع الله عز وجل وأدناه هو تحسن للناس ولو في أدنى ما هو من الأفعال، أن تميط الأذى عن الطريق، الإحسان هذا الطيب.

فالله عز وجل طيبٌ لا يقبل إلا طيبا، ومن ذلك أنه أمر بالطيبات، الصلوات، الزكوات، الطيبات لله، الصلاة هذا أمرٌ طيبٌ يحبه الله عز وجل الزكاة وباسمها دالة، الوضوء أمر الله عز وجل به، الحج أمر الله عز وجل به انظر إلى هذا الطيب في الحج؛ عندما يذهب الحاج مخبتًا إلى الله عز وجل مظهرًا ضعفه فالله يغفر له، والله عز وجل أمر بالصيام، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم: **(الصِّيَامُ جُنَّةٌ)**، لأنه يمنع من الآفات، وقال صلى الله عليه وسلم: **(من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه)**، هذا هو الطيب هو تخلص من الخطايا، فالصلاة، قال صلى الله عليه وسلم: **(أَرَأَيْتُمْ لو أنَّ نَهْرًا ببَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ منه كُلَّ يَومٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هلْ يَبْقَى مِن دَرَنِهِ شيءٌ؟ قالوا: لا يَبْقَى مِن دَرَنِهِ شيءٌ، قالَ: فَذلكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بهِنَّ الخَطَايَا)**.

فالله عز وجل يحب الطهر، يحب الطيب، ولذلك لا يقبل إلا طيبًا سبحانه وتعالى، فمقام العبد مع هذا الاسم هو أن يعتقد في أقدار الله أنها طيبة وأنها لم تأتي إلا لما هو حسن، هذا أيها الإخوة الأحبة هذا الذي نحتاجه هذا اليوم، نحن الآن نعيش كما ترون أحوال عودة الأمة، وفي هذا الوقت نرى أن الله عز وجل يريد أن يطهر الأمة وأن يكبت أعدائها، ولذلك تقع الفتن ونحن لا نراها طيبة، للأسف.

ولذلك يقع في قلوبنا الحزن ويقع الألم ومرات يقع الاعتراض لماذا يقع هذا؟ الآن عندما تخرج مثلًا الجماعات البدعية ونرى السوء ونرى الافتراق ونرى الاقتتال ونرى أن الناس الذين كانوا في سبيلٍ واحد قد تشتتوا وتوزعوا وتنازعوا بل وتحاربوا وسفك الناس دماء بعضهم بعضا، فالناس يعترضون ولا يرونها ولا يلتفتون إلى أن الله طيب، لا يلتفتون أن هذا الفعل هو من الطيب والذي لا يقع منه إلا الفعل الطيب هذا قدرٌ طيب، لأن المقصود هو الطهر.

وهذا شيءٌ نفهمه من حكمة الله في أدنى ما يمكن أن نفكر فيه، أدنى ما نفكر فيه نرى هذا المعنى أن الله عز وجل يريد أن ينصر دينه، والله عز وجل لا يريد من الناس لا يريد مال ولا يريد ملك ولا يريد سلطان.

الله عز وجل يريد أن يأتي الناس وهم ملوك؟! يعني أن تكون ملكًا أم أن تكون عبدًا؟! ما الذي يريده الله عز وجل من العبيد أن يأتوا إليه صالحين؟ أم يأتوا إليه مجتمعين على أي صفة كانت؟ أنت انظر إلى نفس الرب ما الذي يريده؟ نحن نريد أن نغنم نحن نريد ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ [الصف: ١٣]، نحن نريد أن نصبح ملوكًا، لكن أنت إذا نظرت إلى مراد الله عز وجل لا يتحقق بما نفعل، نحن نريد أن نجتمع مع كل هذا السوء والجهل والخبث والبدعة وفساد النفس والحسد والكبر والغرور والجهل، نحن نريد كل هذا، المهم من أجل أن يتحقق، والله عز وجل هذا لا يجريه على هذا المعنى.

فإذا فهمنا أن أقداره طيبة ولا يقع فيها إلا الأمر الطيب بالنسبة إليه، أولًا أن يكون طيبًا بالنسبة إليه، لأنه قد يكره الناس أشياء يحبها الله، والله لا يحب إلا طيبًا، والناس يكرهون هذا، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، فإذا تأملت أقدار الله عز وجل على كيف تجري؛ رأيت عاقبتها بالنسبة لدينه، بالنسبة للجنة والنار، بالنسبة للسنة والبدعة، بالنسبة للشرك والتوحيد.

نعم الناس في أغلبهم يقرون أن ما شرعه هو طيب، يقرون بهذا المعنى، يعني إذا سألتهم عن الزكاة يقولون: الزكاة طيبة، إذا سألتهم عن الصلاة، طيبة، إذا سألتهم عن الحج، طيب، إذا سألتم عن ذكر الله، طيب، إذا سألتهم عن الوضوء وإذا سألتم عن الغسل ... إلخ، فيقرون بالشرع الطيب ولكن الناس يجهلون القدر الطيب، هذه يجهلها الناس وهي إذا تأملت حياة الصحابة رأيت أن أعظم عباداتهم في هذا الباب.

هذا المعنى من العبودية لله هو الباب الذي أدخل الصحابة باب الولاية العظمى، التي لا ينافسهم فيها أحد، مع أنهم بشر يخفقون من أجل بيان كمال الله عز وجل وأسرار الله التي لا يدركها الخلق عز وجل،

كما أن الناس يجهلون بعض أسرار الشرع ويقولون هذه هكذا أنزلت فنسلم، يقولون بأن العبادات نسلم لها لا ندري عللها لا ندري معانيها فنسلم لها في أعمال نسكية، كذلك في أعمال القدر هناك أمور تبغت الناس ولا يرونها ما الذي يريده الله عز وجل في هذا؟ فيقع منهم هو قول الصديقية خلاص بما أنه وقع هذا حق، هذا يناسب والحكمة.

لِمَ يفعل الله عز وجل هذا؟ يسأله الصالح ليتفكر لا ليعترض، يسأله الصالح من أجل أن يسلم وجهه لله إن جهل، لا ليعترض إن جهل، فالله عز وجل أقداره طيبة، هذا القدر طيبٌ هذا، لأن تعلقه لا لِمَ يقع في الدنيا من ملك الناس! فالأنبياء لم يملكوا، نوح أين ملكك؟ هود أين ملكك؟ صالح أين ملكك؟ لوط أين ملكك، شعيب أين ملكك؟ هؤلاء لم يملكوا.

فالعبرة إذا نظر الناس طيب على أي معنى؟ فالنظر إلى أقدار الله عز وجل هذا أمرٌ مهم أيها الإخوة، هذا إذا جهلناه، لم ندخل على الله عز وجل الدخول الذي يحبه الله منا من اعتقادنا أنه طيب وأن أفعاله طيبة جل في علاه وأن أقداره طيبة يحصل فيها النفع العظيم.

فنحن لا ندري النفع، النفع يأتي من أبوابٍ تُنّكر لنا، ومن هنا دائمًا أنا أقول هذه أكررها إن تنكير اليسر ليس فقط لتعدده، ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ [الشرح: ٦]. نُكر اليسر لا تعدده فقط، الناس دائمًا يقولون هذا وهذا شيءٌ معروف، ولا يُجهل، إن عسرًا واحدًا لا يغلب يسرين، كما قال صلى الله عليه وسلم: **(لن يغلب عسر يسرين)**؛ لأن اليسر قد نُكر ليس فقط لتعدده، ولكن لجهالة منافذه كذلك.

إنما العسر معروف هذا بابه جاء الفقر، جاء العدو من هنا، لكن اليسر من أين يأتي؟ فهو مُنكّرٌ لجهالة منافذه من أين يأتي؟ أنت تنتظر أن يأتيك من هذا الباب، وتنتظر أن يأتي إليك، وإذا هو قادم من أبوابٍ لا تعرفها؛ من أجل بيان لذة المنفعة ولذة اليسر، إذا جاء اليسر من الطريق الذي ترقبه جميل ولكن جماله يزيد إن جاءك من طريقٍ لا تنتظره ليحصل به النفع العظيم والخير العظيم والجمال العظيم.

أيها الإخوة فالله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيبًا، ومن هنا فإن الله عز وجل وصف الجنة بأنها الطيبات.. كما قال سبحانه وتعالى عما في الجنة قال: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾ [الإنسان: ٢١]، ما نسب السقاية لِمَلَك يعطيه ما نسبها له، قال عز وجل: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾، هذا هو الجمال، هنا والناس يقولون: «الجار قبل الدار»، هنا لا تهتم بما سقيت ولكن اهتم هنا بمن سقاك ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

وكذلك إذا أطاع المرء، قال الله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقوله سبحانه وتعالى عن أهل الجنة لما فيها من أقوال: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤]، انظر إلى الطيب من القول، وليس إلى طيب القول، إلى الطيب من القول؛ ذلك لأنهم في الجنة يلهمون التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير كما يلهمون النفس.

والله عز وجل وصف أوامره بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ولذلك يسمون كلمة التوحيد يسموها الكلمة الطيبة كشجرة طيبة، وهذا وصفها ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾، هذا وبالله التوفيق ولذلك يقولون: «إن الطيب هو من طاب يطيب طيب من الجمال والزكاة والحلاوة والجود والحسن وهو المنزه عن النقائص»، كما قال بعض أهل العلم: «أصلها الطيب والزكاة والطهارة والسلامة من الخَبَث ومن الخُبث».

وقوله جل في علاه: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢]، مساكن طيبة، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: الحديث بأن الله هو الطبيب هل هو اسم لله عز وجل؟

الشيخ: الله هو الطبيب سيأتي إن شاء الله، وسنأتي إليها في الأخير آخر مبحثنا في هذا سنأتي إلى الاسماء التي اختلفوا فيها أو التي أثبتها بعضهم ولا تصح مثل قولهم الستير، في القول إنه الستير سيأتي إن شاء الله والمسعر سيأتي الحديث عنه إن شاء الله، والله تعالى الموفق.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن والعشرون: الحميد

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغّر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

فقط نذكر بعد هذا الانقطاع في لقاءاتنا مع شرح أسماء الله الحسنى وهذه الأسماء هي تبهج القلوب في الحقيقة وتسعدها، وترقي أعمال العبد الإيمانية ترقيها، لأنه ما من عبادة يعملها العبد إلا ويقرنها إن كان متفكرًا ذاكرًا على الطريقة الصحيحة إلا وهي مذكرة له بأسماء الله سبحانه وتعالى، فهو إذا دعا، دعا بأسماء الله الحسنى وإذا ذكر الله في القرآن فهو تاليًا لأسماء الله الحسنى، وإذا ركع فهو ذاكرًا لاسم الله سبحانه وتعالى وإذا سجد كذلك هو يكون ذاكرًا لاسم الله سبحانه وتعالى سبحان ربي العظيم سبحان ربي الأعلى، وإذا دعا الله سبحانه وتعالى يدعوه بالرحيم والغفور ويدعوه بالودود، يدعوه بالمجيد.

فإذن ارتباط الأعمال الإيمانية التي شرعها الله عز وجل لنا مربوطة كلها بأسماء الله وصفاته، ومن هنا كلما ارتقت الأعمال الإيمانية ارتقت معرفة العبد بربه وارتقت علاقة العبد، لا يرتقي العلم بلا علاقة، وهذه العلاقة مجملها وهو الحب، له أن يُحب سبحانه وتعالى وأن يُخاف، الحب والخوف، واقتران الحب والخوف هو أعظم درجات التعبد، وهو شيء عجيب ولا يليق إلا بالله على هذا المعنى، تمام الخوف وتمام الحب.

فالخلق فيما بينهم إما أن يحب حبًا زائدًا على الخوف، وإما أن يخاف خوفًا زائدًا عن الحب، وإما أن يكون أحدهما دون الآخر، ولذلك أن يكون هذا الحب مطلقًا لذات الله عز وجل، قبل أن يخلقك وقبل أن ينعم عليك أن تحبه للصفات اللائقة بهذا الحب التي تنشئ هذا الحب، وأن يخاف هذا الخوف لصفاته سبحانه وتعالى التي تنشئ هذا الخوف، قبل أن تذنب وقبل أن تخلق فيصنع حالة من التعبد العظيمة التي يحبها الله سبحانه وتعالى.

وحينئذٍ هذا العبد يكون محط التنزلات التي يتحقق بها ما يحبه الله في الخلق، هذه مسألة مهمة جدًا، وهي في الحقيقة هي سر ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فسرها بعض أهل العلم قال: «هذا هو سرها»، وهو على معنى إذا جاز أن يكون العبد خليفة الله، وإن كان هذا المعنى فيه شيء من الوحشية،

بمعنى وحشي بمعنى غريب، والنفس ربما لا ترتاح له، إلا أنه بعد أن يحب العبد ربه حبًا تامًا ولا يُحب إلا لذاته وأن يخاف منه هذا الخوف يصبح العبد محط تنزل الإرادات الإلهية فيما يريده الله من الخلق.

يعني الله يريد أن يرزق فلان، فيكون هذا العبد هو الآلة القدرية لهذه الإرادة الإلهية، لأن يرزق فلان، والله يريد أن يعذب فلان، ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، انظر هذه المنزلة العظيمة، ما هو شأن الملائكة؟ في غير عبادتهم أنهم ينفذون إرادة الله في الخلق، يتنزلون بالرحمات على المؤمنين، يتنزلون بالعذاب على الكافرين، فهذه أعظم درجات، فيكون يده التي يبطش بها.

فهل الله سبحانه وتعالى يبطش بمن لا يستحق؟ إذًا يصبح هذا العبد لا يبطش إلا بمن يحب ربنا سبحانه وتعالى أن يبطش به، والعبد حينئذٍ لا يعطي إلا من أحب الله أن يعطيه، والعبد حينئذٍ يصبح لا يبتسم إلا لمن أحب الله له أن يبتسم له، وهذا معنى مهم في بابٍ آخر، وهو أن تصبح اختيارات هذا العبد -وهذه لا تصل إلى درجة الكمال لأن الله عز وجل هو المتكبر، ولكنها على المعنى- تصبح اختيارات العبد العلمية والإرادية تصبح مفهومة أنها محبوبة إلى الله، وأسمى الناس في هذا الباب هم الأنبياء.

فاختيارات الأنبياء النفسية هي أرقى درجات اختيار البشر، وأحبها إلى الله وأقربها إلى ما يحب الله، حتى في اختياراتهم الشخصية، يعني عندما نتحدث عن أن النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يأكل الكتف، فنتحدث عن أرقى ما يحبه البشر في هذا الباب، وهذه القضية لا تعلق لها بالنبوة في هذا الباب، إنما تتعلق بما يحب النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن هذا الاختيار الشخصي يدل على أرقى ما يحبه البشر في هذا الباب، عندما يحب الطيب فهذا اختيار، **(حبب إلي من دنياكم بالطيب)**، فهو يحبه من جهة نفسه، لكن حبب إلي، وبهذا يصبح هؤلاء بمجموعهم يمثلون الحق الإلهي.

بلا شك أن هناك البشر يخطئون، الله عز وجل من أجل بيان كبريائه وعزته وقيوميته بأنكم تخطئون لأن هناك باب معاني أخرى لحكمة الرب يريدها سبحانه وتعالى، وهو أن يستغفروه وأن يشعروا بتقصيرهم، لكن من هنا بعض أهل العلم هذا على المعنى الذي أرادوه عندما تحدثوا عن تقوى الأئمة التي توجب - هم عندهم التقليد- نحن لا نقول التقليد توجب إتباعه.

فأول شيء الأئمة عندنا لا يكونوا على هذا المعنى إلا بسبب تقواهم، الحديث أولًا عن تقواهم كيف كانوا يتقون الله، هذه التقوى التي لا تنشأ إلا بالحب والخوف، دل على أنهم صاروا أقرب ما يكون، وأما الأنبياء فهم أكمل ما يكون، أما غير الأنبياء فيكونوا أقرب ما يكون إلى ما يحبه الله في الخلق، حتى أنه سبحانه وتعالى ليمنعهم من أمور يحبونها ولكنه لا يريدها منهم لأنها توقعهم في أعمال لا يريدها الله، ومن

هنا فيمنعهم هم يريدون ولكن يمنعهم كما وقع منه سبحانه وتعالى في صلح الحديبية، ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥]، هم هذا الغيب خفي عنهم، يريدونه ومع ذلك لا يقع؛ من أجل أن تبقى المحبة له.

ومرات أمور لا يريدونها ويهربون منها لأسباب، إما لأسباب نفسية وإما لأسباب تتعلق بصورتهم بين الخلق، لئلا يتهموا فيوقعهم الله عز وجل فيها لأنه يريد أن يكون الحال يتمثل فيه ما يريده الله من الخلق، مثلًا: مريم عليها السلام ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم: ٢٣]، لا تريد ومع ذلك ما الذي يقع؟ الله يوقع فيها أرادته ليكون لها الفضل، الصديقة ولتتجلى قدرة الله عز وجل فيها، ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] هذا يكون آية، انظر آية في أمرٍ عظيم تحققت فيها.

وهناك من يوقعه الله عز وجل في شر أعماله، لا يريد منه خير لو أراد الخير لمنعه الله، لأنه لا يستحق أن يكون لما يعلم ربنا سبحانه وتعالى من قلبه، ومن مآله أنه لا يستحق أن المقام، النبي صلى الله عليه وسلم لا يريد أن يتزوج زينب، ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، لا يريد، ما تخفي في نفسك ماذا؟ ما الذي يخفيه؟ أمر الله بالزواج، فيبقى هذا المعنى على أعظم المعاني.

هذا هو نهاية العبودية وهو الذي خفي على كثير من العلماء في شرحهم لحديث الولي، فيكون **(يده التي يبطش بها)** وتكلموا في أسانيده وبعضهم تجاوز في الكلام على إسناده، إلى الكلام على معانيه، على هذا المعنى، هذا هو أن يصبح العبد هو آلة الله فيما يحب الله ويبغض في الخلق.

ومن هنا انظر إلى حال النبي هذا قمة العبودية له، الله عز وجل لما تحدث في كيفية أهلاك الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧)﴾ [الصافات: ١٧٧]، وقال صلى الله عليه وسلم: **(إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)**، حديث عن قدره، يعني ما الذي فعله لوط عليه السلام؟ خرج هو وأهله، هو ومن آمن معه خرج منها، لتنزل بساحة الكافرين آيات الله سبحانه وتعالى التي تعذبهم، هذا الذي يريده الله، هذا يحبه الله، محبة الله لعذاب الكافرين، وغضب الله في عذابهم.

فالنبي صلى الله عليه وسلم تمثل هذا الحال في كونه القدر الإلهي لما دخل خيبر، فقال صلى الله عليه وسلم لما دخل **(إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)**، صار النبي صلى الله عليه وسلم يمثل القدر الإلهي، **(إن الله أمرني كذا يقول، أمرني أن أقرأ عليك –كما يقول لأبي– أقرأ عليك سورة البينة، أذكرني باسمي)**، هذا النبي صلى الله عليه وسلم يخبر فيما أخبره الله، هذا لا يقع بعد النبي صلى الله عليه

وسلم إلا على معاني ما يوقع الله عز وجل في القلوب، قالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عنْه: «فَوَاللَّهِ ما هو إلَّا أنْ قدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْه، فَعَرَفْتُ أنَّه الحَقُّ».

يوقع فيهم الإيرادات العجيبة التي ربما يقع فيها مخالفة الخلق أجمع، وتكون عندهم كالنور، لا يحتجون بحديث ولا يحتجون بآية مع أنها موجودة في نفوسهم ولكن يصبح نور القلب شديد في أن هذا هو الحق، لو الدنيا كلها، لما قاتل أبو بكر المرتدين تصور يا رجل خالف الصحابة جميعًا، هذا معنى على أن الله أوقع في قلبه قوة هذا الدافع لمحبته له من أجل أن يختص بهذا الفضل الإلهي يحبه الله، الله يحبه، فأوقع معنى لم يقع في قلب أحد من الصحابة.

برغم أن هناك أحاديث عن ابن عمر قال، قال صلى الله عليه وسلم: **(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقول لا إله إلا الله ومحمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة)**، موجود الحديث، ولم يثبت عنه أنه احتج، الصحابة يعلمون أن هذا الرجل نعم لا يوحى إليه، لكن هذا رجل أشرق قلبه بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم وبخصائص لا تكون في غيره، فإذن هو يستحق هذه الخصيصة يستحقها، لأن له من الخصائص ما له.

فينبغي أن نتمثله، هذه هي العبودية لله، هذه هي نهاية ذكر الله، نهاية قراءة القرآن، نهاية الصوم والصدقة والزكاة؛ أن ينفرد المرء بانفرادات لا تكون للخلق، **(العبادة في الهرج كهجرة إليه)**، الأماكن التي يغفل عنها الناس، لماذا العلماء يحبون الصلاة بين المغرب والعشاء؟ قال هذا وقت يغفل عنه الناس، يبحثون عن الأماكن التي يحصل فيها الخصوصية، لا كراهية للناس أن يفعلوا هذا لا يجوز أن يختص، لكن هو يعلم من الخلق ينظر في هذا الوقت يغفل عنه الناس، فهو يأتيه لتحصل له هذه الخصوصية القرب، لأنه هو الذي ترتفع أعماله، هو الوحيد أو قلة له.

من هنا إبراهيم أمة، لماذا أمة؟ قال لها: **(ليس على الأرض مؤمن إلا أنا وأنت)**، ما أحد يرفع التسبيح والتهليل والسجود والإخبات والإناء من الخلق، قال صلى الله عليه وسلم: **(وإِنَّ اللَّهَ نظر إلى أهْلِ الْأَرْضِ، فمقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وعَجمَهُمْ، إلَّا بقَايَا من أهْلِ الْكِتَابِ)**، هذا الانفراد، وهذا لا يصنع إلا بهذا التعبد، وهذا التعبد أعظمه هو أن يفهم المرء أن هذا قُربة إليك، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ﴾، انتهى خلاص ختمت القضية ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤)﴾ [طه: ٨٤]، شوق إلى الله.

فإذا نظر الله عز وجل إلى قلب العبد أنه ليس فيه إلا هو، إبراهيم عليه السلام كل شيء، الله امتحنه في امتحانات لم يمتحنها لأحد من الأنبياء، أن يذبح ابنه، يحمل أولاده زوجته يرميها في واد غير ذي زرع،

أمرني ربي عز وجل بكذا، قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧)﴾ [النجم: ٣٧]، -لا إله إلا الله- دخل في الطاعة جميعها، دخل في أبواب الطاعات كلها، وكلها تقوم على البلاء، وفى، كل شيء.

هذا الذي ننبه له لنفهم قيمة قراءتنا ومعرفتنا لما يتكلم الله عز وجل به عن أسمائه وصفاته، هذه أسماء الله وصفاته تمثلها أنها حِبال، تمثل هذه الأسماء ومعانيها أنها حبال توصلك إلى رضاه، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾.

والآن نتكلم فقط عن اسمٍ من أسمائه العظيمة، اسم عظيم، ورد في القرآن تقريبًا ستة عشر مرة، وهو اسمه سبحانه وتعالى الحميد، وهذا الاسم ككل الأسماء هذه نقطة ذكرناها في كل الأسماء، لا يمكن أن يقوم هذا الحميد بهذا المعنى المطلق الحسن الذي لا يعتريه النقص، ولا يعتريه الغلط في أي جانب ولا يعتريه الضعف، ليس حميدًا حمدًا جزئيًا، هذا الاسم مطلق، وفيه جميع معانيه الحسنة لا يكون إلا بوجود أسمائه كلها -هذه النقطة ننبه عليها دائمًا- أن هذا الاسم لا يتحقق إلا لأسماء الله عز وجل ولذلك دائمًا يقترن، من أجل أنه هذا الاسم مربوط بهذا يتحقق به، والحميد يعني المحمود.

ولم أرى أحدًا من أهل العلم نبه إلى أنه يحمد عباده على ما يفعلون لأن هذا المعنى قد يطرأ، إلا ما ذكره أبو بكر بالعربي في كتابه في شرح الأسماء الحسنى أن هذا المعنى موجود، وإن كان بعد ذلك قد استبعده، يعني أنه يحمد غيره، وإنما الحميد بمعنى المحمود، وأعظم حمد لربنا هو حمده لنفسه؛ لأنه لو كان حمد الخلق له عظيمًا دون حمده لنفسه لكان محتاجًا، أعظم الحمد فيأتي في ذلك الغني الحميد، يأتي هذا من بعض سر اقتران الغني الحميد.

وهناك معاني أخرى الآن نذكرها ولكن من معاني اقتران الغني الحميد، والغني الحميد وردت مرات، تقريبًا عشر مرات ورد في القرآن الغني الحميد، والغني الحميد من معانيها أنه حامدٌ لنفسه غنيٌّ عن خلقه في حمدهم وثناءهم عليه سبحانه وتعالى، بل في الحقيقة أجمل ما رأيت في هذا وأكررها دائمًا لأنها من أعظم ما يكون، هذه ذكرها القرطبي في تفسيره في تفسير الحمد لله رب العالمين عن بعض أولياء الله وبعض عباده الصالحين، قال: «لما علم الله عز وجل أن عبيده أعجز من أن يحمدوه الحمد التام، حمد نفسه فعلمهم كيف يحمدونه»، الحميد هو المحمود.

وابن القيم له كلمة رائعة في هذا الباب قال: «لماذا لا نقول المحمود؟» -ما دام أنه معناها، نحن الآن نقرب المعنى، دائمًا التفسير هو تقريب للمعنى، ليحصل التصور الصحيح له، ولكن لا يقوم إلا اللفظ له، وإلا وهذا التفسير ليقارب المعنى ليحصل التصور الصحيح له، قال: «ما هو الأفضل أن تقول المحبوب، أم

الحبيب؟» المحمود قد يحمد أحدهم ولا يستحق هذا الحمد، فهي وصف لمن المحمود؟ فيها إدخال لمن حمد، فهو محمود طيب هو يستحق أو لا يستحق؟ قد يحمد مرةً ولا يحمد ثانيةً، المحمود، كما يقال المحبوب، هو محبوب لكن قد يقع من هذا الفعل على ما يستحق وقد يقع على من لا يستحق، كمحبوب يحبه الناس ولكن قد لا يستحق، وقد يحبونه لأن هذا وصف لهم، محبوب فهي دلالة فعل فاعل له.

قال: «فإذا كان هذا وصف لذات المحبوب، وكانت هذه الخصلة سجية فيه هو، وجد الحامد أو لم يوجع فإن الأبلغ أن يقال هو الحميد كما يقال الحبيب دلالة على أنه محبوب»، فإذن وصفه سبحانه وتعالى بالحميد دالة على غناه، ودالة على استحقاقه، ودالة على دوامه وعدم انقطاعها، ولذلك الله عز وجل يحمد نفسه، قال صلى الله عليه وسلم: **(لا أحصي ثناء عليك، أنت كما اثنيت نفسك)**، والله عز وجل هو الذي يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، العبد يقرأها تعبدًا أن الله قد قالها.

فالله يقول عن نفسه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، الله هو الذي يقول، أنت الآن لما تقرأ الحمد لله لا تظن إن الناس يقولون، نحن نتعبد بقراءة القرآن، هذا القرآن كلام الله، فالله يقول على نفسه الحمد لله رب العالمين، لكن الله عز وجل وهو قد حمد نفسه والمحامد في القرآن كثيرة، بل افتتحت السور بالحمد لله وكان هذا الافتتاح، وهذا شرحنا في سورة الفاتحة، المحامد في بدايات السور وهي سورة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهي أجلها وأعمها وأبلغها، وجميع -كما يقول- أهل العلم جميع محامد القرآن داخلة في الحمد لله رب العالمين.

ثم بعد ذلك في السورة الثانية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، وجعلت هذا الحمد، ثم بعد ذلك ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ثم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١]، الحمد لله الذي له ما في السماء، ثم سورة فاطر ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، هذه السور افتتحت بالحمد، وأنتم تعرفون أن افتتاحية السور هي أجّل ما في السور.

فالحديث عن حمد الله يحبه الله، ولما كان سبحانه وتعالى محمودًا بحمد نفسه له، أحب؛ لأن الله يحب لا يفعل جل في علاه إلا ما يحب، الله يحمد نفسه فأمر عبيده ليحبهم أن يحمدوه، ومن أعظم عبادات الخلق له أن يحمدوه، ولا يحصل الحمد في قلب العبد حتى يعرف ربه، فإنه يحمده أولًا لأسمائه وصفاته قبل أن يجد الخلق، يحمده لأنه الله، يحمده لأنه سبحانه وتعالى الجميل، يحمده لأنه السميع، يحمده لأنه الحكيم، يحمده لأنه العزيز، واقترن الحمد بالعزة، اقترن العزيز بالحميد في القرآن.

فإذًا العبد يحمد الله عز وجل يحمده حمدًا كما يحب ربنا سبحانه وتعالى أن يحمد، لمعرفته بأسمائه، ثم يحمده لصفاته الذاتية، وهذا أجل الحمد هو أن يحمد العبد ربه لصفاته الذاتية، ثم يحمده سبحانه وتعالى لما يعطيه من نعمة، وهذه الأمة هي أعظم الأمم وقد سميت بالحمادين، فهذه الأمة يوم القيامة تحشر تحت لواء يحبه الله، لأنه هو أعظم ما يسكن غضب الرب، **(ويوم القيامة يغضب ربنا غضبًا لا يغضب قبله غضبًا مثله ولا بعده غضبًا مثله)**، فالذي يسكن غضب الرب هو الحمد.

ولذلك في الحديث: **(لما يذهب النبي صلى الله عليه وسلم ليسجد تحت قوام العرش، يفتح الله عليه من المحامد فهي التي تسكن غضب الله)**، الحمد هو الذي يسكن غضب الله عز وجل، فالله يحبه، ولذلك الله يحب من العبد ألا يأكل الطعام إلا ويحمده عليه، وألا يرى نعمة الله وإلا يحمده عليها، يشكر الله عز وجل، ويشرب الشربة فيحمده عليها.

فالحمد مبتدأ كما نرى في القرآن وهو آخرها ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس: ١٠]، وفي سورة الزمر خاتمة كل شيء ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾ [الزمر: ٧٥]، مبتدأ كل شيء هو الحمد، هذا الاسم العظيم الله يحب أن يفهمه العبد وأن يتعبد به ربه.

ولذلك اقترن بالغني الحميد اقترن بالعزيز الحكيم اقترن بالمجيد، لأن المجد لا يكون إلا على السعة والبركة والعطاء والكثرة، المجد، ولذلك الملوك يمدحون بمجدهم، لماذا المجد؟ لأنه دال على السعة والقدرة والبركة والعطاء، فاقترن به سبحانه وتعالى الحميد مع أنه هو مجيد، هو سبحانه يستحق الحمد سبحانه وتعالى.

هو سبحانه المحمود وحمده يبقى ولا يزول، ولذلك **(يلهمون في الجنة التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس)**، الله يحبه ولذلك يجري على لسانهم كما يجري النفس دون تكلف، وهذا حديث فقط بهذا المعنى يستدل به على جواز الذكر حتى مع الذي لا ينتبه، لأنه يبقى يذكر وهو ربما ينظر ربما يتفكر ولكنه يبقى ذاكرًا حتى يجري الحمد على لسانه وهو لا ينتبه لما يفعل، فينتبه لذلك أنه يحمد، هذا دليل على جواز ذلك أنه يصبح له الحمد سجية، يصبح له الذكر سجية، يصبح له التسبيح سجية.

هذا دليل على هذا أنه لا تقول أنا والله أسبح، لابد في كل تسبيحة أفكر فيما معناها، لا، ليس من الضروري هذا، إذا كان أهل الجنة من عبادتهم ألا يقع على معنى الإرادة، ولكن صار سجيًا لهم، هو في البداية المرء يمسك المسبحة ويسبح تكلفًا بعد ذلك هو سجية له يقوم بالتسبيح.

فالله يحبه من هذا ولذلك سمي نبينا صلى الله عليه وسلم محمد، لأنه حمادٌ لربه سبحانه وتعالى حماد لله سبحانه وتعالى، وهذه لا تنشأ كذلك إلا بأن يعرف المرء ربه، كما وصفه في كتابه وينظر إلى نعم الله،

ينظر إلى هذه النعم فيحمده عليها، ينظر إلى النعم العظيمة: نعمة الولد، نعمة الرزق، نعمة البيت، نعمة الستر، نعمة أن خلقه مؤمنًا، نعمة الزوجة، نعمة الولد، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨].

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: **(وسبحان الله والحمد لله تملأن ما بين السماء والأرض)**، و**(والحمد لله تملأ الميزان)**، لماذا قال: **(وسبحان الله والحمد لله تملأن ما بين السماء والأرض)**؟ لماذا قال: **(والحمد لله تملأ الميزان)**؟ وسبب ذلك أن الوجود قائم على هذين المعنيين أصلًا بين السماء والأرض فما من شيءٍ تراه إلا وهو دالٌ على عظمته موجبٌ لحمده، فسبحان الله والحمد لله، ما من شيء سبحان الله إلا ودالٌ على قدرته وعظمته وكماله فهو سبحانه، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

انظر هذا التفكر أنشأ تنزيه الله سبحانه وتعالى، وهذا التنزيه دالٌ على الكمال دالٌ على العظمة، دالٌ على براءةٍ من النقص، **(وسبحان الله والحمد لله تملأن ما بين السماء والأرض)**، وثم تنظر فلا تجد شيئًا بين السماء والأرض إلا وهو لك، فهذا موجبٌ للحمد.

ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: **(والحمد لله تملأ الميزان)**؛ لأن الميزان له كفتان، كفة لما أعطى وكفة لما أوجب، فأعطاك النعم، فما الذي يملأها؟ لا إله إلا الله، انظروا ماذا طلب الله منا، يعطيك المال، يعطيك الحياة، يعطيك النعم، يعطيك البركات، يعطيك الوجود، يسخر لك السماوات والأرض ويطلب منك أنت تقول: الحمد لك، الحمد لله، إذًا هذه ليست هينة، هذه حبيبة إلى الله.

قال صلى الله عليه وسلم: **(كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)**، هذا سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم هذا تملأ ما بين السماء والأرض، هذا من توفيق الله للإمام البخاري، كان هو آخر حديثٍ له في الصحيح، وأول حديث **(إنما الأعمال بالنيات)**، انظر إلى هذا التوفيق الإلهي، هل هو علمه فكتبه هذا دلالةٌ على بركة هذا الشيء إن علمه، وإن لم يعلمه فهذا دليلٌ على التوفيق.

حينئذٍ تعرف الصالح من الطالح والجيد من غير الجيد، لا تنظر فلان سجن، انظر أنت وفقت أو لم توفق، من أعظم دلائل أن محمدًا صلى الله عليه وسلم رسول الله أنه نصره، ما وضع يده في شيء إلا وقد بورك فيه، تعب ضربت يده ولكنه أحدثت خضرًا وخيرًا، ما سار في أمرٍ الله وتحقق مراده مع تعبه ومشقته، لا تفهم أنه تحقق المراد من غير تعب، لا كان يتعب.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)﴾ [الرعد: ٤١]، بماذا فسروها؟ لو لم يكن كلام الصحابة عليه في تفسير هذه الآية إما أن لن نفهمها أبدًا، إلا على معاني ما يفسرها الناس، من ظاهرها وإما أن يفسروها على هذا التفسير، يقولوا هذا التفسير إنشائي ونقع في مشكلة الرد والقبول، ابن عباس رضي الله عنه يقول معناها: «ينقص الله هذه الأرض بملك النبي فيها»، في هذا الموطن من سورة «الرعد»، ومن سورة «الأنبياء»، قال: ما معنى ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؟ تنقص بدخولها في ملك النبي صلى الله عليه وسلم،

فإياك أن ترى أن رجلًا هو قريب إلى الله وهو غير موفق، هذه إهانة من الله، يضع يده فلا يأتي إلا الشر، هذا تنقص الأرض التي يملكها، ولكن لا تنقص أرض أعدائه فيملكها.

هذا هو الغني سبحانه وتعالى الحميد، وهو سبحانه وتعالى العزيز الحميد، عزة الله عز وجل هو محمود وهو عزيز، هذا أفضل ما يفسر في هذا، وذكروا كثيرًا من اقتران العزة مع الحمد ولكنه سبحانه وتعالى عزيز، وغني عن حمد خلقه له فهو عزيزٌ حميد، إذا جاء على المعنى هذا، وهو لعزته يستحق الحمد، لأنه سبحانه وتعالى غني عن كل خلقه، هو يستحق الحمد.

ولذلك علينا أن نكثر من هذه المنقبة التي أمرنا الله وأقامنا ليتحقق اسمه قدرًا من الخلق، لماذا خلقنا؟ هل خلقنا لنأكل؟! أم خلقنا ليطعمنا من أجل أن نحمده، يعني الله عز وجل أطعمنا وأجرى هذا المعنى من الطعام والشراب من أجل أن نقول الحمد لله، خلقنا على معنى الحاجة من أجل أن يحصل لنا الحاجة ويعطينا إياها فنحمده سبحانه وتعالى، هذا وجودنا هذا فقط هذا هو الوجود.

وبعد ذلك في الجنة يحمدونه سبحانه وتعالى على ما أعطاهم من نعم وما أدخلهم، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ [الزمر: ٧٤]، فالحمد لله الذي صدقنا وعده، فلذلك أنت لا تسر إلا مسبحًا لله معظمًا إياه، حامدًا له سبحانه وتعالى، نسأل الله أن يرحمنا برحمته وأن يغفر ذنوبنا وأن يجعلنا من أهل الحمد وأن يحشرنا تحت لواء الحمد، نسأل الله أن يغفر لنا تقصيرنا سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع والعشرون: الولي

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء الله عز وجل الحسنى وهو اسمه سبحانه وتعالى الولي والمولى، والملاحظ في أسماء الله عز وجل أنها على العموم والأغلب أنها أسماء يغلب عليها الرحمة ويغلب عليها العطاء ويغلب عليها القرب ويغلب عليها التأييد والنصرة والتدبير.

وأما الأسماء التي يخوف الله عز وجل بها عبيده فهي أسماء قليلة، وإلا فالأغلب أنه سبحانه وتعالى الرحمن الرحيم الرؤوف الغفور، وكذلك هذا الاسم على هذا المعنى وهذا السياق في تحبب ربنا سبحانه وتعالى لعبيده وقيامه بشؤونهم، أنه سبحانه وتعالى هو الذي يقوم بشؤون الخلق ويدبر أحوالهم، وأنه ليس هناك أحد يقوم عليهم مقام الرحمة دون الطلب إلا بما يسعدهم.

وحتى التكاليف التي هي مما يحبها الله عز وجل لنفسه كتسبيحه وتحميده والسجود له وطاعته والصيام له حتى هذه التكاليف التي يحبها الله وطلبها الله عز وجل من عبيده لنفسه، لأنه يحبها وخلق العبيد من أجلها، حتى هذه لها آثار عظيمة في تنعم الإنسان وفي سعادة الإنسان.

الله عز وجل يقول: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤)﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]، بمعنى أن هذه العبادات الله عز وجل ركب الإنسان عندما فطره ركبه على أن تكون هذه الأعمال التي يحبها الله عز وجل تحقق السعادة للإنسان.

فإذا طلب الله عز وجل من العبيد عملًا من الأعمال وشرع لهم شريعةً من الشرائع، إنما هو قبل كل شيء عليهم أن يتفكروا أن هذا يسعده، وأن هذا يريح حياتهم وأن هذا يحقق لهم المصالح، مع أن العبد لا يفكر في الابتداء في هذا المعنى، العبد الذي يعبد الله ظاهرًا وباطنًا أولًا يفكر بإرضاء ربه، لإنه عبد، ويفكر بالمقصد الأول وهو إفراح الله عز وجل وإرضاؤه، أن يفرح الله عز وجل أن يضحك أنه سبحانه وتعالى يرضى عن العبد، ومع لك تأتي هذه المصالح التي يتحصلها العبد من الأعمال الصالحة تبعًا لهذا.

والله عز وجل يغري العبيد للقيام بطاعته يغريهم بوسائل شتى، من هذه الوسائل إنما أمركم به هو يحقق المنفعة لكم، ومن هنا فلما كانت هذه المعاني موجودة في الشريعة نظرنا في أسماء الله عز وجل فوجدنا أن هذه الأسماء يغلب عليها الرحمة، **(إن رحمتي سبقت غضبي)**، الله عز وجل يتحبب إلى عبيده أكثر مما ينذرهم، ويتقرب إليهم سبحانه وتعالى ويدعوهم إلى التقرب منه أكثر مما يخوفهم، فهذا يؤدي إلى حب الله.

المشكلة في البشرية جمعاء وهذه نراها في الناس المعرضين عن الله، نراها في المشركين ونراها في الملحدين؛ أنهم ينظرون إلى أنهم في حالة تحدي مع الله عز وجل! كأنهم يريدون التحدي!! وكأن الله عز وجل ضدهم! يعني عندما تتأمل كلامهم كأنهم يريدون أن يخرجوا من أن يكونوا سعداء! ومن أن يكونوا طائعين ربهم ولا ينظروا إلى أنهم عبيد ضعفاء وأنهم بحاجة إلى هذا الإله، وأنهم لا يستطيعون أن يخرجون من جلودهم الضعيفة، الإنسان ضعيف مركب على الضعف، الله، إذا امتنع عنه الطعام جاع وتألم، إذا لم يأتيه الماء عطش وتألم، إذا لم تكن له الزوجة تعب وتألم؛ فالإنسان ضعيف فهو بحاجة إلى ركنٍ يأوي إليه، وبحاجة إلى من يسند ظهره إليه؛ من أجل أن يعينه على قضاء الحوائج بل يحصل له المنافع، ومع ذلك يسبون الله عز وجل.

والله أني بيني وبين نفسي لما أمر على قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، أقول الله فقط أنت تبغض اليهود وإلا من يقول عن الله عز وجل هذه؟!! ولولا أنها في القرآن ما قالها المرء، فكل هذا العطاء الإلهي، وكل هذا الكرم الرباني لعبيده، ثم يقولون يد الله مغلولا!! إن الله فقير ونحن أغنياء!! لا إله إلا الله، إي غناء عندكم أنتم؟!! غناكم هو مجرد عَرَض زائل ومعنى عَرَض أي يتحول وينقلب ولا يثبت ولا يدوم، هذا هو العرض، عرض له عارض، ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] يعني شيء يأتي ويذهب، ومع ذلك يقولون هذه الكلمات الكبيرة في حق الله.

وكلنا لو تأمل بينه وبين نفسه، ماذا كان يحلم وهو صغير؟ وماذا هو عليه الآن، يرى أن الله قد أعطاه أكثر مما يتمناه، أكثر، سبحانه جل في علاه، ثم هذا العطاء الذي يكون للعالم أجمع هو لك، الشمس هي لك أنت.. الشمس عندما تشرق أنت انظر إليها كأنها لك من دون بقية الخلق والكل يحس بهذا عندما يخرج القمر انظر إليه لا أحد يملكه فهو لك عندما تهب الريح فهذه لك أنت، هذا الهواء من الذي يملكه؟ هو لك أنت تملكه، فهو عطاء إلهي في كل عطاء عام لجميع الخلق هو عطاءٌ خاصٌ لك، أنت تملكه.

ومن هنا يأتي هذا الاسم الجليل العظيم الولي، وكذلك المولى، والولي ورد في القرآن خمسة عشر مرة، والمولى ورد اثني عشر مرة، هذا الاسم العظيم يدل على قيام ربنا سبحانه وتعالى على الخلق قدرا، ويدل على حسن عطائه لعبيده الأولياء شرعا.

فأولا الله الولي، الله المتولي أي القائم على التدبير والعطاء والقائم على الخلق جميعًا المسلم والكافر، الله عز وجل يقوم عليهم هو الذي خلقهم، هو الذي تولى أمر شؤونهم، فأوجدهم وأوجد ما يحييهم وأوجد ما يعينهم على تسهيل حياتهم، هو تولى كل هذا، هو تولى الخلق جميعًا، فهو سبحانه وتعالى قائم على كل نفسٍ بما كسبت، وما من ذرةٍ في الوجود إلا هو الذي خلقها ويعلمها ودبر لها قدرها لتكون على وجهٍ من وجوه النفع لهذا الخلق وهذا الإنسان، كل ذرة وكل نسمة هواء، ولو تغيرت هذه النسمة إلى غير هذا المعنى لكانت سببًا للقتل، فبعض الناس يموت بذرة، ذرة صغيرة هكذا تدخل في الإنسان في غير مكانها، فتسد عليه منافذ النفع فتؤدي إلى هلكته، ذرة صغيرة.

يقال إن النمرود دخلت ذبابة في أنفه فدخلت في رأسه، وذكر في كتب الأقدمين أنه لم يكن يهدأ ويعرف النوم حتى يضرب بالأحذية على رأسه، ذبابة دخلت إلى دماغه فقتلته، وانظر إلى الفيروس، هذا الفيروس الصغير ماذا يصنع؟ ماذا يصنع السرطان هذا؟ ماذا يصنع الإيدز؟ هو فيروس صغير جدًا.

فلما الله عز وجل يريد أن يقتل الخلق يقتلهم بشيء هم يحتقرونه ولا يذكرونه بل لا يرونه، فالله قائم على كل نفس بما كسبت، الله عز وجل تولى الخلق، والولي والمولى من الذي يلي الشيء ونحن نعرف أن يلي الشيء الذي يكون تابعًا له، يعني وراءه، انظر يكون وراءه.

فانظر إلى هذه الصورة التي تعطيها كلمة ولي من مولى إي الذي يتبعه، ويتخيل في ذهنك أن هناك طفلًا يمشي ووراءه والده أو أمه أو من يعتني به كأنه يريد أن يتلقاه إذا أراد أن يسقط، فإذا احتاج إلى من يعينه أعانه وهو في كل لحظةٍ يعينه ويضع يده وراءه، لأنه ولينا، أنت وليته أي كنت تابعًا وراءه في الحال هذا هو المعنى.

الآن نقول الولاء والبراء، ومعنى الولاء أن يكون معه، إما أن يكون تابعًا له، وإما ان يكون الآخر تابعًا له، فأنت لما تتولى الله سبحانه وتعالى أي تطلب منه أن يعينك وحين تكون وليًا لله، قال لتعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ [يونس: ٦٢]، هو يتلقاهم وهو يعينهم، وقال جل في علاه: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ [الشورى: ٩]، بمعنى أن الذين اتخذتموهم لا يصلحون

للولاية، فقال عز وجل ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ هذه لتدلل على الاختصاص؛ أي لا يصلح أن يكون وليًا لشؤنك إلا الله وحده جل في علاه،

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ فهؤلاء لا ينفعونهم، عندما تقع الأزمات والمشاكل وعندما تقع المصائب فإذا دعوا هذه الآلهة لا تستجيب لهم لا تنفعهم، سواء كانت هذه الآلهة من حجر أو من تمر أو كانت من ذهب أو كانت بقرة أو كانت إنسانًا أو كانت نظامًا أو كانت دولة يتخلون عن أوليائهم، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، الله الولي.

وكلمة ولي وأول آية وردت في القرآن فيها كلمة ولي هي التي هي سورة «البقرة»: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فالآية تقول فالله هو الولي إذًا لا ولاية، هذا المقصود به هؤلاء أولياؤهم الطاغوت أي يتولون الطاغوت، والطاغوت يتولاهم، لكن في النهاية لا يستندون على شيء، على هواء، كالذي يظن أنه يستند إلى قوة فينظر وراءه فلا يجد شيئًا، يظن أن المال ينفعه فإذا جاء إلى المال، المال لا ينقذه.

والله عز وجل ينوع البلاء على الخلق ليدل على أن كل شيء لا ينفع في كل شيء، وقد ينفع في باب وقد لا ينفع في باب، عندما يغضب الملك على وزيره مثلًا، الوزير معه السلطة ومعه المال، فلو أعطى هذا الوزير كل ما له إلى الملك وهو غضبان عليه، لا يدفع عنه غضب الملك، مثال آخر المال لا ينفع في دفع المرض، فلو واحد قال للمرض أو للفيروس خذ أموالي وابعد عني لا ينفع.

وأصحاب القوة فكذلك لا تنفعهم قوتهم في كل باب، فالذي ينفع في باب لا ينفع في أبواب متعددة، ولكن الله عز وجل جل في علاه بيده كل شيء، إذا احتجت إلى المال الله يعطيك، إذا احتجت إلى السلطة الله يعطيك، إذا احتجت إلى الشفاء الله يشفيك، إذا احتجت إلى الغنى الله يعطيك.

فالله عز وجل بيده كل شيء، وأما هذه الآلهة الباطلة إذا نفعت، إذا نفعت في باب لا تنفع في بقية الأبواب. ولذلك قال الله عز وجل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وليهم، من يتوكل على الله هؤلاء يتولاهم.

هنا تأتي الولاية بالمعنى الأول القدري: الله يتولى كل شيء في الإيجاد، والإمداد، الله يتولى كل شيء بإيجاده هو الذي أوجده، ولا يبقى هذا الوجود إلا بدوام الإمداد، لابد من وجود طاقة دائمًا، وراءه دائمًا مضخة البنزين وإلا لا يمشي، هذا الفلك السيار في السماء ما الذي يجريه؟ أي قوةٍ وأي طاقةٍ فيه؟

ومن الذي قال بقانون الجاذبية؟ هذا قانون الجاذبية الذي أوجده الله عز وجل في داخل هذه الكائنات التي تؤدي إلى عملية الجذب وعملية النفر التي تؤدي إلى السريان الدائم لهذه الأفلاك في هذا الوجود، فمن الذي يوجد هذه الطاقة ويمدها دائمًا ويقول لها: كوني فتكون، كوني فتكون؟ هو الله عز وجل يمدها بالطاقة.

وهذه هي الخلية في داخل الإنسان من الذي يمدها بالطاقة؟ ثم إذا أراد أن ينزعها منه نزعها، العبرة ليست في الكبر والصغر قد تنزع هذه الطاقة، هذا القلب الذي ينبض بطاقة، الطاقة هي تحركه، كما نرى أنك إذا وضعت الكهرباء تحركت الآلة، فهذه الآلة تتحرك بالطاقة، فمن الذي يمد هذا القلب بهذه الطاقة ليبقى متحركًا؟ ثم في لحظة يقول له خلاص ينزع منه الطاقة مثل قابس الكهرباء فيتوقف.

فالله عز وجل هو الذي تولى إيجاد الأشياء من العدم، ثم في هذا الوجود أبقى وجوده بدوام الإمداد له. فالله تولى هذا الوجود، كذلك سبحانه وتعالى تولى عبيده المؤمنين ولايةً خاصة، وتولى الكافر بالطعام والشراب والزواج والمال وقد يعطيه كذلك شيء من العزة الدنيوية فتنةً له، وبلاءً له وبلاءً للمؤمنين، لكن الله عز وجل يختص المؤمنين بولاية.

فما هي أعظم أعمال الولاية الإيمانية؟ ليست النصرة الدنيوية، وليست الأشياء المادية يعني هذه ليست من شروط الولاية الربانية للمؤمنين بسبب الإيمان والتقوى، الناس للأسف أول ما يفكر أنك ولي لله بأن يعطيك من الدنيا، لا، فهذه قد تكون وقد لا تكون وليست شرطًا، بل إن الله عز وجل يحمي عبده الولي له من هذه الدنيا من أجل أن يبقى امر قلبه معلق بالسماء، إذا جاع سأل وإذا عطش سأل، وإذا احتاج سأل، كما كان حال أعظم الخلق عند الله وهو رسوله صلى الله عليه وسلم، حماه من الدنيا كما يحمي أحدنا ابنه من الامراض، بل أشد ولله المثل الأعلى.

فما هي أعظم أعمال الولاية الإيمانية في رعاية الله لعبده؟ هو أن يجعل قلبه خالصًا له، فقط، هذه أعظم الولاية، إذا الله عز وجل تولى عبده الولاية الإيمانية يعني جرد هذا القلب من الأغيار، وجعله سليمًا، آتى ربه بقلبٍ سليم، وجعله دائم الحضور حيث طلب منه الحضور لطاعته.

ما هي الصديقية؟ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩]، فما هي الصديقية؟ الصديقية يمثلها الحديث التالي، لما كان في صلاة الفجر فالنبي صلى الله عليه وسلم سأل أصحابه: **(من أصبح منكم اليوم صائمًا؟ من تصدق منكم اليوم؟ من شهد الجنازة؟ من عاد مريضًا؟)**، وإذا تحققت كل هذه الأعمال في شخص الصديق، وهذا يجمعه حديث قول أبي بكر رضي الله عنه: يا رسول الله –

لما قال عن أبواب الجنة أن في الجنة مئة باب- **(قال يا رسول الله: أليس على المرء من حرج أن يدعى من الأبواب كلها، فهل أحدٌ يدعى من الأبواب كلها؟ قال: نعم وأرجو أن تكون أنت منهم)**.

فدرجة الصديقية تعني: وقوفه على كل بابٍ من أبواب الطاعة وقيامه بها، هذه هي الصديقية، الصديق هو أن يكون عنده تمام الإرادة والاستعداد للقيام بكل الأعمال.

ولذلك أنا أعتقد -وهذه قلتها قديمًا وأكررها- إن أعظم ابتلاء وقع على الصديق رضي الله عنه هو أن يبتلى بين امتثال أمر الشرع أو امتثال أمر فاطمة رضي الله عنها التي يحبها كحبه لأبيها، أو لحبه لأبيها، يعني المرء يمكن أن يعادي الخصوم، سهل جدًا، جارك تتشاجر معه، يقول لك بطلع لك بالسيف، بعيد لا تعرفه ممكن تقاتله جارك، صديقك ممكن تقاتله، لكن المرء كلما اقتربت درجة الحب في القلب كان الابتلاء أشد،

ولذلك ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧)﴾ [النجم: ٣٧]، كان أعظم الابتلاءات أن حصلت مع زوجته، وحصلت مع ابنه عندما أراد أن يذبحه، ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣)﴾ [الصافات: ١٠٣]، خلاص هذا أعظم ضرر، بعدها انتهى خلص انتهى وقع الابتلاء، أول شيء ترميهم في واد غير زرع يبتعدوا عنك، هذا شيء عظيم من الابتلاء، لكن أن يمسك ابنه بسكين ويأخذ السكين ليذبحه، انتهى خلاص، لم يبقى شيء فانتهى الابتلاء، ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾، انتهى.

فلذلك ما هي الصديقية؟ هو أن يقف على أبواب الطاعات كلها، وأن يقوم بكل أبوابها، هذه الصديقية، وهذه مرتبة ليس بينها وبين النبوة إلا الوحي، ومقامات النبوة التي لا تنتهي رفعةً ومقامًا وقدرا ومكانة.

فما هي أعظم درجات الولاية؟ ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، يخرجهم، أعظم درجات الولاية هذه لا تنظر، إذا نظرت إلى الولي أنه غني أو فقير أخطأت فهمك للولاية، إذا نظرت هل هو في القصر أم في السجن، أخطأت فهم الولاية، إذا نظرت إلى ثيابه أخطأت تقييم الولاية، هنا المهم ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ماذا يفعل؟ أول عمل بل هو أعظم الأعمال أن يخرجك من الظلمات إلى النور، ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

ولذلك أعظم درجات الولاية هي الاستقامة، هذه أعظمها، فإذا رأيت توفيق الله لك إلى الطاعات والبعد عن المعاصي، وأن يوفقك إذا ابتليت بمعصية، مال حرام عرض عليك فوقفت، امرأة عرضت نفسها

إليك فاتقيت الله، رجل دعاك إلى معصية فاتقيت، اعلم أن الله يحبك، اعلم أن الله تولاك، ولم يخل بينك وبين ما يكرهه لأنه إذا خلى دل على أن ليس لك حاجة، ليس لله فيك حاجة، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ﴾، هذا هو القصد أعظم درجات الولاية ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وحينئذٍ هذه النور درجات، هذا النور ليس نور الإيمان، هذا شيء عظيم جدًا.

وكذلك حينئذٍ أعظم درجات النور قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، حينئذٍ تصبح فقيهًا في الحياة، فقيهًا في الأقدار، الله يفصل لك الأمور، وتدرك دقائق الأمور وتعرف مسالك الشر، أخو ثورٍ الذي علم الناس دقائق الورى، سفيان الثوري مدح بأنه لم يعلم الناس الورع، الورع يعرفه الناس ولكن علم الناس دقائق الورع.

فكلما كنت قريبا من الله أخرجك هذا هو هذا الاسم، انظر هذا الاسم ما أعظمه في علاقة العبد مع الله، وانظر إلى هذا المعنى قلنا يليه فأنت كلما تقربت إلى الله كلما رفعك، كلما سندك كلما أخرجك من الملمات والغمرات والمصائب، أخرجك ورفع لك درجتك وهذه طريقته.

وهذا الذي حدث مع الصحابة لما أحبهم، أي بشرٍ هؤلاء خرجوا من الجزيرة العربية حفاة عراة، لا يملكون شيءٍ وفتحت الممالك بأيديهم، أي بشرٍ هؤلاء!! المؤرخون وقفوا أمام هذه الحقبة التاريخية في حالة صدمة، في حالة ذهول، من هؤلاء؟ تسقط أمامهم الإمبراطوريات والممالك والمدن، وليس فقط هذا، وهذه الحضارات الكبرى التي أقيمت ومن أناس سقطت بعد ذلك بأيدي هؤلاء أصحاب بيوت الشعر والقفر والطين ولا قيمة لها، ثم بعد ذلك يصبح هؤلاء بإقرار البلاد المغلوبة يتخذون هؤلاء الغالبين أسيادًا لهم، يعظمونهم ويحبونهم ويتلقفون كلماتهم ليسترشدوا بها في كل حياتهم.

أنت تعرف ما معنى أنه هؤلاء أسلم على أيديهم أهل الشرق والغرب!! أهل فارس أهل الغرور، بعض أهل العلم يقول: «أصلًا الأمم تتسمى بأسماء أخلاقها»:

العرب: فالعرب من الإعراب الإبانة لأن العربي مادته هو الإبانة الشعر والبيان، وإلي في قلبه بطلع، من بعد خمسين متر تقول والله أبو فلان زعلان، صار يتجاهلنا، انظر كيف يمشي، الإبانة وهذا صحيح، العربي يكره هذا ليس عنده القدرة على التخفي، لا في اللسان ولا في السلوك والمنظر.

الروم: قالوا: والروم؟ قالوا: لا، الروم من الرَوم، والرَوم هو المخاتلة، كما يسمونها الرَوم في التجويد مخاتلة، فيها شيء من المخاتلة، قال الروم هذا هو شيء، ولذلك سميت بالضحكة الصفراء، لأنهم بنوا

الأصفر فسميت بهم، فيهم مخاتلة فيهم ذكاء الخداع والثعلبة وغير ذلك، ولذلك سمي العجم لأنهم لا يبينون.

الفرس: وسمي الفرس من الفرس وذلك من الكبرياء والخُيلاء.

ومع ذلك هذه الأمم مع كل ما رأينا دخلت في دين الله، وتبعوا هؤلاء الفقراء، اتبعوهم ودخلوا في دينهم واتخذوهم أسيادًا، واتخذوهم أئمة، لرفعة الله لهم، هذا ما الذي أحدثه؟ أحدثه ولاية الله، الله تولاهم خلاص، وإذا الله عز وجل تولاك خلاص، ما تحتاج إلى شيء، فالله هو الولي وهو المولى جل في علاه.

والولي والمولى بمعنى واحد، نعم المولى، نعم المولى وهذه تكررت، ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾، انظر المولى والنصير، المولى يتولاك والنصير ينصرك، يتولاك في إقامتك يتولاك في رفعتك، وكذلك ينصرك إذا أراد بك عدو الشر دافع عنك سبحانه وتعالى، هذا هو مدار القرآن في حديثه عن علاقة المؤمن بربه.

ولذلك كيف أثبت القرآن صحة نبوة الأنبياء؟ ما هي أعظم قضيةٍ يثبت القرآن بها صحة صدق الأنبياء في دعواهم أنها من الله، ما هي؟ هو ما أوقع لهم من النصر، فإنهم لو كذبوا عليه لخذلهم، ولو ادعوا أن الله ينصرهم فخذلهم لكانوا كذبة، ولكن في كل القرآن يثبت أن الله نصر الأنبياء، علامة أن دعواهم الصدق، أن ينصر الله أمةً وأن يرفع شأنها من الضعف إلى القوة، ويبقيها ويهلك أعدائها هذه الولاية، هذا لابد أن تفهمه.

وأعظم كذلك الولاية هو أن يجنبهم عذاب يوم القيامة، النار، يحميهم، ولذلك في الحديث -والعلماء يعني بعضهم يراهم مضطربًا كما يرى البعض- **(من عاد لي وليًا فقد أذنته بالحرب)**، هذا حق، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)﴾ [يونس: ٦٢-٦٥]، انظر هذا الترتيب الإلهي لهذه القضية، ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾، لن يضروك أقوال هم مجرد أقوال الله عز وجل يبتليك، ويبتلي بك من أجل أن يظهر المؤمن من الكافر.

والقصد: أن هذا الاسم يجب أن يترافق في قلب العبد في كل مقام، وأن يسعى لتحققه، كيف وبأي طريقة؟ عن طريق الولاية الصحيحة، وأن يطلب ما عند الله بما يرضيه، هناك الذين يسمون بالأولياء وهم فجرة فسقة، يزعمون ولاية الله وهم لا يتبعون السنة، ويأتون بالبدع ويأتون بالخرافات، ولا يتقون الله ويخونونه في السر، هؤلاء الله لا يقبل منهم والله رب القلوب.

ولذلك على المرء أن يهتم بهذا الاسم ليكون وليًا لله، ويكون الله عز وجل قد تولاه، فمعنى الولي: الناصر، المرشد، المؤيد، يرشدك ربك هذا من ولايته، ينصرك من ولايته، يبعد عنك أسباب الحزن، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته.

والذي رأيته أن في سورة «الشورى» -وقد شرحتها- رأيت أن هذا الاسم يتكرر كثيرًا فيها الولاية، يتكرر فيها هذا الاسم ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ [الشورى: ٩]، وكذلك ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨)﴾ [الشورى: ٢٨]، هذا حديث عن ولايةٍ دينية وحديث عن ولايةٍ قدرية وتكرر هذا الاسم فيها، نسأل الله أن يرحمنا برحمته، وأن يجعلنا من أوليائه.

وليس من شرط الولاية أن تخرج من قانون الدنيا وتتعامل بقانون إبطال الأسباب، لا، هذا رسولنا صلى الله عليه وسلم هو إمام الهدى وإمام الأولياء وسيد الأولياء، كان يجوع وكان يعرى وكان يمرض وكان يتزوج النساء، الولاية ليست بصورتها التي في أذهان بعض الناس بأشكالها ورموزها وبعض رتوشها، لا، الولاية هي علاقة حقيقية مع الله عز وجل.

وقد يحتقر الناس الولي، قد يبتلي الله عز وجل الولي بإعداء له لا يعرفونه، يسبونه ويعذبونه كما حدث مع العلماء، أبو حنيفة رحمه الله سجن لطلبه القضاء ورفض، سجن، ولي في السجن، نحسبه والله حسيبه أنه من أولياء الله، الإمام مالك لما طلب إلى القضاء فرفض، أو لما ابتلي في حديث: **(لا إكراه في الطلاق)**، فابتلي وضرب حتى خُلعت كتفه، الإمام الشافعي حمل على جمل بلا قتب من اليمن إلى بغداد لاتهامه أنه قام بثورة يدعو إلى الخروج على العباسيين، لأنه من بني عبد المطلب، من المطلبين، فابتلي وهكذا العلماء.

والإمام أحمد رحمه الله، انظر لو أن رجل يقول هذا ولي هذا يضرب كيف هو ولي؟ ولكن هذه هي سيرة الأنبياء وهذه سيرة الأولياء وهذه سيرة الصالحين، الذين ينظرون إلى الغيب وينظرون مقامته يعرفون قيمة الناس، والذين تحجبهم الأشياء الدنيوية، وتحجبهم الدنيا فإنهم يقولون كما قال، لما خرج قارون على قومه، ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)﴾ [القصص: ٧٩].

فيتمنون الدنيا وإذا جاءتهم الدنيا، صاروا مثل صاحب الجنتين في سورة «الكهف» في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦]، ينسى ويغفل ويضيع أمره، فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من أوليائه الصالحين.

والولاية درجات، الولاية ليست درجة ولكن درجات، الله سبحانه وتعالى يبتلي العبد من أجل أن ترتفع درجته في هذا المقام العظيم، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته، وأن يغفر لنا ذنوبنا، وأن يجعلنا من أهل طاعته وأن يخرجنا خروجًا تامًا من الظلمات إلى النور، النور أن تعيش في النور أهم شيء أن تعيش في النور.

فأول دعاء تدعو به إذا خرجت من بيتك ما هو؟ وأين هو الخروج يخرج؟ تخرج إلى صلاة الفجر أول خروج، ما هو من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم المأثور في الخروج؟ **(اللهم أجعل في قلبي نورا، وفي سمعي نورا وفي بصري نورا)** -وأزيد وفي نطقي نورا، نحن نحتاج في الدعوة أن يكون في نطقك نورا- **(ومن أمامي نورا ومن فوقي نورا، ومن تحتي نورا وعن يميني نورا، وعن أمامي نورا من خلفي نورا، وأجعل لي نورا، واجعلني نورا)**، تحتاج إلى هذا النور الذي يكشف لك ظلمات الحياة والفتن، يُعرفك والله ييسر لك من يقيمك على الحق ويعرفك الحق.

انظر الفتن الآن الناس كيف ينساقون، وأهل الدين ينساقون في فتن لا يعلمها إلا الله، يخرج شيخ يتكلم كلمة القلوب تمشي، ما في تقوى، فأن يجعل الله لك النور الذي يكشف لك ويعرفك الناس، وفي الابتداء تدرك أن هذا رجل فيه شيء فيه شر في كلامه ويخاتل وهكذا، أن يفتح الله لك هذا أول ما تحتاجه في هذه الحياة، أول ما تحتاجه أن تحمل المصباح، من أجل أن تعرف أين أنت، وهذا المصباح هو إرشادي وقلبي، إرشادي لابد أن تعلم ما يقول النبي صلى الله عليه وسلم، وقلبي بأن يعلمك الله عز وجل من أجل الاتباع، لأنه قد يكون تعرف الحق من الباطل كما قال الله عز وجل عن اليهود ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، يعرفون الحق وينكرونه ولا يتبعونه، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

السائل: شيخنا هل الولي والمولى اسم واحد؟

الشيخ: نعم، بعضهم قال هذا، ولكن وجدت القرآن ما يخالفه، أنه يجوز أن يقال هل الله ولي الكافرين، يجوز أن يقال الله، على المعنى الأول وهو أنه يقوم عليهم بالتدبير والإنشاء والإمداد المادي، فيجوز هذا، وإن كان بعض العلم أنكره ورفضه، وممن نصر هذا المعنى أنه يجوز أن يقال، ولي الكافرين قال ذلك ابن القيم رحمه الله في بدائع الفوائد، وقال ذلك الشيخ الشنقيطي عليه رحمة الله صاحب أضواء البيان في تفسيره، وقال بعضهم: «الولي هو الذي قائم على الأمرين، الأمر الشرعي والقدري,، والمولى لا تكون إلا للأمر الشرعي»، قال بعضهم هذا.

ولكن في القرآن ما يدل على من غير ذلك، أنه هذه تقوم مقام هذه ولا فرق بينهما والله تعالى أعلم.

السائل: شيخنا الولاية الدنيوية ولي الأمر ولي المرأة؟

الشيخ: يجوز في القرآن ذكر هذا قال تجل في علاه: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٦]، فيجوز أن يقال هذا ولي في الدنيا يعني يجوز تسمية هذا الاسم لعبيده للقيام بهذا المعنى، لقيامه بالمعنى الجزئي الموجود في كلمة ولي، وذلك من معاني الولي الناصر المرشد السيد، يقول فلان مولى فلان، قد تكون على معنى السيد وقد يكون على معنى العبد، لأن العبد يقوم برعاية سيده، يعني لو يقوم في النوم، يريد كأس ماء من يتولاه بالرعاية في إحضار كأس الماء أو الوضوء له؟ عبده.

ولذلك العادة تطلق على السيد هذا من أسماء الأضداد تطلق على السيد، وتطلق على العبد، فيجوز في القرآن موجود هذا، ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦)﴾ [النساء: ٦]، نعم فهذا قيام عليهم، فهذا كله يجوز فيه يعني من اللغة، وبعض الأسماء الله يختص بها كالمتكبر لا يجوز، لأنها من صفات الربوبية العظمى التي لا تليق بالعبد، فشرط العبودية التواضع، وشرط العبودية الطلب والحاجة، فلا يجوز للمتكبر.

كذلك هناك أسماء لله دالة على تمام غاية الحُسن، فلا يمكن أن يلتحق بها الإنسان كالرحمن، ولم يتسمى به أحد إلا المجرم مسيلمة الكذاب رحمان اليمامة فهذه أسماء لأنها دالة على تمام الحسن، بخلاف

الرحيم، الرحيم لا تدل على ما تبلغه كلمة الرحمن، ولذلك يقال فلان رحيم، ولكن لا يقال رحمن، لأن الرحمن دالة على تمام حسن هذا اللفظ وهذا الوصف، هناك أوصاف لربنا هي تليق له وحده دون غيره، وهناك أسماء لا، يجوز أن يتسمى بها هذا وهذا فيما هو معلوم.

بارك الله فيكم وجزاك الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثلاثون: الغني

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغّر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء الله سبحانه وتعالى الحسنى وهو اسمه جل في علاه الغني، وهذا من الأسماء والصفات الذاتية لربنا سبحانه وتعالى التي لا تعلق لها بالإرادة وهو اسمٌ تقوم به أسماء كثيرة، فلولا وجود هذه الصفة لربنا ما قامت بعض الصفات الأخرى على حقيقتها كقوله سبحانه وتعالى: ﴿الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦)﴾ [الانفطار: ٦]، أنه الكريم.

فصفة الكرم وإن كانت صفة نفسية لكنها كذلك هي صفةٌ فعلية فيمكن أن يكون الإنسان كريمًا في نفسه يحب أن ينفق وله نفس عالة في تعلقها بهذه الصفة ومحبتها أي النفس لهذه الصفة لكنه لفقره لا يستطيع أن يعطي، فلولا أنه غني لما كان هذا الكرم.

فلذلك هذه الصفة لربنا سبحانه وتعالى ذاتية ولها تعلق بالأسماء الأخرى، ولذلك هذه الصفة وردت في القرآن مفردة ووردت مقرونة، فانفرادها يدل على أن هذه الصفة بذاتها لا تحتاج إلى من يعدلها ولا إلى أن يكملها؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨]، فهذه الصفة تكفي لوحدها أن تكون ممدوحة لذاتها وتامة في فضلها، ثم وردت بعد ذلك مقرونة بالصفات الأخرى وأكثر ما وردت مقرونة بقوله أنه ﴿الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وسنبين سبب هذا الاقتران.

وكذلك وردت في اقترانها بأنه ﴿غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾ [النمل: ٤٠]، ووردت كذلك مرة واحدة في سورة البقرة بأنه ﴿غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)﴾ [البقرة: ٢٦٣]، جل في علاه.

وهذه الصفة أيها الإخوة الأحبة صفة من أجل صفات ربنا سبحانه وتعالى، والصواب أن الصفات كما الكلمات، كما أن كلام الله عز وجل يتفاضل، فكذلك هناك ما هو اسمٌ لله أعظم، الاسم الأعظم، فكذلك أسماء الله عز وجل تتفاضل فهناك صفة هي أجل من غيرها، ونحن تقدمنا أن هناك من الصفات لله عز وجل ما وردت عشرات المرات كالرحمن، الرحيم، العزيز، الكريم، لأنها صفاتٌ أجل وأعظم.

وكذلك ورد أن اسم الله الأعظم هو الحي القيوم، وقلنا ما قاله بعض أهل العلم كابن القيم رحمه الله بأنه لا يمكن أن تكون هناك صفة من غير حياة، صفة ممدوحة من غير حياة، ولا يمكن أن تكون هناك صفة من غير قوامة على غيره وعلى نفسه، سيكون محتاجًا، فكل الصفات متعلقة بهذين الوصفين الحي القيوم.

من هنا جاء في بعض الأحاديث الصحيحة أن هاتين الصفتين هما اسم الله عز وجل الأعظم، فالصفات تتفاضل، فهذه صفة الغني هي من أجل صفات ربنا سبحانه وتعالى، وهذه الصفة هي صفةٌ ذاتية تدل على استغنائه عن خلقه، تدل أنه لا يحتاج إلى أحد، بل كل أحدٍ هو محتاجٌ إليه، لا يحتاج إلى أحد جل في علاه، ولم تنشأ هذه الصفة لعرض يحتاجه ربنا سبحانه وتعالى.

فنحن أهم شيء أن نعلم حتى إن أهل العلم وبعض أهل التربية يرون أن أجل صفات الربوبية هو الغنى واجل صفات العبودية هو الفقر، فإذا نشأ في نفس العبد معنى الافتقار إلى الله حصلت العبودية التامة، وكلما ازداد العبد فقرًا أمام ربه وليس المقصود به الفقر الاضطراري بل ما يسميه بعض أهل العلم «بالفقر الاختياري»، وسنبين هذا وكلما زاد العبد فقرًا اختياريًا لربه كل ما ازدادت عبوديته، كلما التجأ إليه؛ شعر بأنه لا يقوم إلا به، ولذلك ازدادت عبوديته، ازدادت طاعته لله، ازداد تقربه لله، زاد خوفه منه، ازداد التجاءً إليه، أعوذ بك، ألوذ بك ألتجئ إليك، يدعوه ارحمني لأنه محتاج، كلما ازداد شعور العبد بأنه فقير كلما ازدادت عبوديته لله سبحانه وتعالى.

والله عز وجل هو الغني جل في علاه لأنه ليس محتاجًا إلى أحد، فسبحانه غنيٌ عن كل أحد، غناءه بأسمائه وصفاته، غناءه بنفسه عمن سواه، لا يحتاج لأحدٍ ليقوم بالخير وليفعل الخير في الخلق، لا يحتاج لأحد.

فلماذا يوجد الله سبحانه وتعالى الملائكة ليحملوا الرسائل وينزلوا العذاب وينزلوا الكرم وينزلوا الخيرات؟ إنما هو جريًا على حكمة في الوجود ألا يُنشئ شيئًا إلا بسببه، ولماذا؟ من أجل أن يُنشئ ربنا سبحانه وتعالى التعبد، الله يحب أن يأمر فيطاع، يأمر الملائكة فيطيعونه، فالله يحب أن يأمر الملائكة ويطيعونه ويحب أن يأمر الخلق فيطيعونه، وليس لحاجة منهم، وإلا فإنه سبحانه وتعالى كما قال عز وجل: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]، يقول للملائكة أني معكم، والملائكة نزلوا ليكونوا مع المؤمنين فينصرونهم في المعركة والله يقول للملائكة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أني معكم، فإذًا حصل الثبات لأن الله معهم، ليس لأن بيدهم شيءٌ من الثبات يعطونه من جهة أنفسهم، فالملائكة مع

هذه القدرات العظيمة والأوصاف التي وردت في شأنها لا تستطيع أن تعطي الثبات، ولا أن تعطي النصرة لأحد ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾، فالملائكة ليس بيدها شيء، وهي تحتاج إلى الله سبحانه وتعالى.

فالله عز وجل من غناه يُنشئ هذا الخلق من أجل أن يدل على غناه، ومرات الله عز وجل ليثبت حتى هذه لا تستطع أن تفعل شيءً، فكما أن ميكائيل هو الذي يكيل الأمطار وتنزل الأمطار من يده مكلةً لها، الله عز وجل في زمن نوح أخرج المياه عن سيطرة ميكائيل، أخرجها عن سيطرة هؤلاء الملائكة.

وهناك من الأسرار ما بين العباد وبين خلقه ما لا يعلمها الملائكة، الملائكة لا يعلمونها، ولإظهار كبريائه وقيوميته وغناه عنهم، الملائكة لا تعرف متى الساعة، ويخشونها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، فلا يعلمونها ويخافون منها.

فالله عز وجل غني قبل أن يوجد الخلق بخلاف غنى الخلق، فالخلق يغتنون ويصبح عندهم الغنى بسبب ما يحصل من أيديهم من العرض، فالمرء يكون غنيًا بوجود المال، إذًا هو فقيرٌ لوجود المال لحصول الغنى، هو فقير، منشأ الغنى هو الفقر.

ولذلك هذه الصفة، الصفة الجليلة لربنا أنه سبحانه وتعالى مستغنٍ عن كل خلقه، ولا يحتاج إلى أحد هو غنيٌ عن خلقه، هو غنيٌ عن العرش، استوى على العرش وهو غنيٌ عن العرش، العرش الله لا يحتاج إليه، كما قال صلى الله عليه وسلم: (**كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ**)، فكان ربنا ولم يكن هناك عرش، فاستغنى عن العرش، وكان ربنا ولم يكن هناك ملائكة، وكان ربنا ولم يكن هناك خلق، كان الله ولم يكن شيء معه، فالله عز وجل في علاه مستغنٍ عن كل أحد هذا هو الغناء، وهذا الغنى الممدوح ينشئ العطاء، ولذلك كل شيءٍ محتاجٌ إليه، هذا المعنى الثاني.

المعنى الأول: الغنى هو عدم الحاجة لشيء، وأن غناه بذاته سبحانه وتعالى، لأنه عظيم، لأنه لا يحتاج إلى شيء، الله عز وجل هو الصمد، الصمد مأخوذة من المصمت الذي لا جوف له والذي لا جوف له لا يحتاج إلى طعام ولا يحتاج إلى شرب ولا يدخل فيه شيء.

المعني الثاني: هذا الغنى لا يكون محمودًا إلا بأن يقوم غنى الآخرين به، يعني هو غنيٌ بذاته ويحصل غنى ما سواه كل ما سواه بعطائه، فلذلك هو غنيٌ بذاته سبحانه وتعالى وكل شيءٍ محتاج إلى غناه ليحصل لهذا الشيء الغنى، فغنى الآخر أمرٌ عرض ليس أصلي، ومن هنا قال أهل العلم: «فالفقر فقران، فقرٌ اضطراري وفقرٌ اختياري» والفقر الاختياري هو المطلوب، معرفة العبيد أنهم خلقوا على معنى الفقر، وجدوا

بغيرهم، أُمِدوا في وجودهم بغيرهم، ما حصل لهم من نعيم بغيرهم، هذا فقر اضطراري، العباد كلهم محتاجون إلى الله، لا يتنفس المرء إلا بأمر الله عز وجل، الله هو الذي في هذا، لو منع عنهم سبحانه وتعالى وأمر الهواء ألا يدخل في جوفهم ما دخل، المرء من غير طعام مهما بلغ، المرء في كبرياءه هو محتاج إلى الطعام.

ولذلك قال أهل المعرفة: «كلما اقترب العبد من الله ازداد له حبًا وخوفًا وطاعةً وعبادة، وكلما عرف العبد غيره من العبيد عرف فقره حاجته»، وضربوا لذلك أمثلة فقالوا: «من هو أعرف الناس بالملك الذي تهابه الجيوش ويهابه السلاطين ويهابه الناس؟ زوجته وأولاده يعرفونه»، يعرفونه على ما فيه من ضعف وحاجة وأنه يصرخ ويتعب ويجوع واجلبوا طعام وإذا مرض بدأ يصرخ مثل الأطفال وهكذا، يعرفونه، ويذهب إلى بيت الخلاء يعرفون.

فكلما عرف العبد العبد ازداد معرفةً بضعفه، وكلما ازدادت معرفة العبد لربه ازداد تعظيمه لهذا الإله، علمه، كلما رأى هذا الوجود تأمل هذا الوجود ورأى يد الله كما في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: **(يدُ اللهِ ملأَى لا يُغِيضُها نَفَقَةٌ، سحَّاءُ اللَّيْلَ والنهارَ)**.

فمن غناه جل في علاه أنه خلق هذا الخلق ولو كان يخاف الفقر لما خلقه، هل يقبل أحد أن يوجد شيئًا يأخذ منه من خزائنه؟ هل يقبل إلا بمقابل هل يقبل أحد؟ لا، الله خلق الخلق جميعًا وهم يحتاجون؛ لأنه غني، فهم يأخذون من خزائنه ويأخذون من عطاياه ويأخذون من نعمه، وهو خلقهم مع أخذهم، ومن أعظم دلائل غناه هو إدخال أهل الإيمان الجنة، فإنهم يتمنون ما يشاؤون فيعطيهم ولا ينقص من خزائنه شيء.

من أعظم دلائل غناه هو إدخاله عبيده الجنة، لماذا؟ ما هو دلالة الغنى على هذا؟ أن أهل الجنة ليس لهم عيش فيها إلا التمني، اجلس وتمنى هناك، بما خلقك الله من خلقٍ جديد وصبغةٍ جديدة ونفسٍ عظيمة، وصارت تعرف مقدار النعم، في الدنيا الحال كما جاء الوصف في الأخبار رواها جماعة من أهل العلم يذكرها أهل العلم في كتب الأموال يذكرونها على أنه إذا دخل أهل الإسلام بلدًا صلحًا وكان الإمام قد وعد أحد الجنود بغنيمة منها فهذه الغنيمة تكون خاصة خارجة من الإطار.

فالنبي صلى الله عليه وسلم وعد أحد الصحابة بابنة بقيلة، امرأة مزيونة وبنت ملك، قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله هب لي ابنة بقيلة، فقال صلى الله عليه وسلم: **(هي لك)**، فدخلها الصحابة صلحًا، فلما فتحت، ادعاها الصحابي، وشهد له اثنان من الصحابة، فامتنعوا من تسليمها إليه وقالوا: ما تريد إلى امرأة ابنة ثمانين سنة؟

فقالت لقومها: ادفعوني إليه، فإني سأفتدي منه وإنه قد رآني وأنا شابة، فسلمت إليه فلما خلا بها، قالت: ما تريد إلى امرأة بنت ثمانين سنة وأنا أفتدى منك فاحكم بما أردت.

فقال: والله لا أفديك بأقل من عشر مائة فاستكثرتها خديعةً منها، ثم أتت قومها فأحضروا له ألف درهم، ولامه الناس وقالوا: لو طلبت أكثر من مائة ألف لدفعوها إليك، فقال: وهل عدد أكثر من عشر مائة؟

فماذا تعرف أنت؟ حتى نحن الآن ماذا نعرف من الأرقام؟ ماذا نعرف من الدنيا؟ اجلس وتمنى، لو أضعك شهر في بيت معك أوراق وتمنى، متى تنتهي أمانيك؟ بعد أسبوع، يعني اسهر أسبوع ولا يوم ولا يومين واكتب أمانيك ما شئت، كم تجلس تتمنى؟ يوم، يومين، شهر، وتنتهي أمانيك، لأن سقف عقلك لِمَ تعلم من الكرم والعطاء محصور، فتصور أن أهل الجنة يعلمون قدرة الله عز وجل أكثر مما يعلمها أهل الدنيا، فيرون الملك الكبير، يرون مالا عين رأت ولا أذنٌ سمعت وو...إلخ.

فلذلك من غنى ربنا عز وجل أن يدخل أهل الجنةِ، الجنةَ، ومن غنى ربنا أن ينزل شرعه وأعظم ما في شرعه أن يعبدوه وهم يطلبون منه إلهي، يعني لما يتفق الشريك أو يتفق صاحب العمل مع العامل، ماذا يكون همه في العقد؟ أن يقلل مطالب الشريك أو مطالب الأجير، يكثر مطالبه ويقلل مطالب الآخر، هذا هو فن العقد بين السيد والأجير وبين السيد والعبد وبين الشريك وشريكه.

وفي ديننا عقدك هو عقد اسمه عقيدة، أعظم عقد بينك وبين الله أن يقول لك إني أحب منك أن تطلب، وأعظم ما في هذا العقد أن السيد يطلب من عبده يقول: اطلب؛ فإن لم تطلب أغضب عليك، أليس هذا دل على غنى ربنا، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾ [فاطر: ١٥]، الله هو الغني، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، خزائنه لا تنتهي.

وكما في جاء في الحديث القدسي عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: **(يا عبادي! لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وجِنَّكم وإنسَكم اجتمعوا وكانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ منكم لم يُنقِصْ ذلك من مُلكي مثقالَ ذرَّةٍ، ويا عبادي! لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وجِنَّكم وإنسَكم اجتمَعوا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني جميعًا فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ منهم مسألتَه لم يُنقِصْ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يُنقِصِ المَخيطُ إذا غُمِس في البحرِ)**، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، الكافر والمسلم لأن الكفار في جهنم سيطلبون فلا يغاثوا، قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠)﴾ [الأعراف: ٥٠].

فتصور أنه وقف كل أحد من الإنس والجن، أنت تصور أنه حتى في واقع الأمر أن الدواب حتى تطلب، والحشرات تطلب والهوام تطلب والطيور تطلب، **(لو أنَّ أوَّلكم وآخرَكم وجِنَّكم وإنسَكم اجتمَعوا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني جميعًا فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ منهم مسألتَه لم يُنقِصْ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يُنقِصِ المَخيطُ إذا غُمِس في البحرِ)**، فهذا دلالةٌ على غناه هو أن يجعل أعظم العبادات هو أن يسألوه، اطلب ماذا تريد؟

وأعظم العبادات، قال صلى الله عليه وسلم: **(سلوا الله الفردوس الأعلى)**، يعني ليس فقط لكثرة المطالب، ولكن أن تنظر إلى أجّل المطالب، قال له لما قابله في الطواف قال له: سألني، قال له: من أمر الدنيا أو من أمر الآخرة، قال له: لا أستطيع أمر الآخرة ليس لي -الخليفة يقول لهذا العبد- يقول: لا أستطيع أمر الآخرة ليس لي، أعطيك من أمر الدنيا، قال له: أنا في هذا المقام استحييت من ربي أن أسأله الدنيا، أسألها منك؟ فانظر انتبه إلى مقصده العظيم في أنه طلب الأجّل والأعظم، فهذا كله دال على غناه.

أولًا: أن هذا الخلق دل على غناه، ولو كان سبحانه وتعالى فقيرًا لما خلق الخلق على معنى الحاجة، لو كان فقيرًا جل في علاه أو يخاف الفقر جل في علاه لخلق الخلق يعبدونه على غير مقام الحاجة، ممكن أن يخلق الله الخلق على غير معنى الحاجة؟ لا يحتاجون فقط يسبحون، الملائكة هكذا، ولكن خلق الخلق على معنى الحاجة، فهذا من غناه.

ثانيًا: ومن غناه أنه جعل أعظم العبادات أن يسألوه وأن يبالغوا في السؤال وأن يطلبوا أجل المطالب، قالوا: يا رسول الله إذن نكثر، قال صلى الله عليه وسلم: **(الله أكثر)**، وهذا المعنى ينشئ العبادة، هذا فقر الأول هو فقر اضطرار الخلق يحتاجون إليه، وأما الفقر الثاني وهو فقر الاختياري أنا فقير، هذه تُبكي.

ما هو أعظم ما يتقرب العبد به إلى ربه وهو ساجد؟ هو أن يظهر ضعفه، وهذا أعظم بواعث الالتجاء إلى الله على معنى يحبه الله، يعني أنت انظر يعني هذا طبعًا ليست من طريقة الدعاء ولا من أدبه الذين يضعون أيديهم هكذا يدعون، هذا لم يرد قط، حتى في شكله ووصفه هو معنى الاستغناء، لكن انظر إلى هذا طلب العبد من ربه وهو يسأل يرفع يديه، فإذا اشتدت الحاجة ماذا يصنع؟ رفع يديه حتى يبين بياض إبطيه، الحاجة.

فأعظم ما تتقرب إلى الله هو إظهار فقرك له، وهذا الفقر ليس بألفاظ، هو الفقر الذي ينشأ من داخل القلب إني لا أقوم إلا بالله عز وجل، فهذا الفقر هو أعظم أنواع التعبد، ينشئ أعظم أنواع العبودية، هذا

الفقر هو الذي يجعلك تفهم كتاب الله عز وجل، لأن أجل ما في كتاب الله هو ذلك الخطاب العلوي، من إلهٍ إلى إنسانٍ وهو العبد، ما الذي ينشئ البكاء وأنت تقرأ كتاب الله؟ ما الذي ينشئ القشعريرة؟ هو هذا التحقق الذي يعيشه العبد وهو يسمع كلام الله.

وما الذي يبكي العبد عندما يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾، ما الذي ينشئ هذا؟ من الذي ينشئ هو القشعريرة في البدن والخشوع في القلب والإخبات في النفس، ما الذي ينشئه عندما تسمع ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)﴾؟ هو هذا المعنى.

ومن هنا أجّل العبادات هو أن تكون فقيرًا، فإذا كنت فقيرًا كنت من أعظم العباد، كلما ازددت فقرًا على هذا المعنى الاختياري، كلما ازددت فقرًا لله عز وجل كلما ازددت عبودية، كلما اقتربت من الله، وكلما أعطاك، ما هي أعظم الأوصاف عند الأنبياء عليهم السلام؟ أن نوح ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾ [الإسراء: ٣]، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، عبد.

وأعظم دلالات العبودية أنه محتاج لا يقوم إلا بغيره، هذا المعنى الذي ينبغي أن يحققه هذا الوصف لربنا سبحانه وتعالى في داخل النفس، ومن هنا سبحانه وتعالى فيحب من العبد أن يشعر بالفقر، وهذا الفقر لا يمكن أن ينشأ إلا ومع علم العبد غنى ربه، وهذا الغنى الذي لا ينقطع ولا ينتهي، هو أمره يقول للشيء كن فيكون، خزائنه لا تنتهي.

وإياكم أن يخطر على بالكم أن هناك خزائن يعني مقفلة موجودة، الناس يقولوا خزائنه لا تنتهي، هو خزائنه بمعنى أنه كلما أراد أن يُنشئ خلقًا لا ينتهي، كلماته لا تنتهي فخلقه لا ينتهي لو أراد، والدليل أن الخلق لا ينتهي، هو دخول أهل الجنة في الجنة، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧]، يتنفسون يتنعمون ينشأ خلقٌ بعد خلق وو ... إلخ.

فالله هو الغني جل في علاه ونحن فقراء، هذا الفقر الذي هو رغم أنوفنا أننا فقراء، لِمَ خلقنا الله عز وجل على معنى الفقر له، والفقر لِمَ خلق من أشياء، كلنا نحتاج إلى أحد، ليس عندنا واحد غني، والغنى الذي يمدح به العبد هو الغنى الذي ينشأ مع قلة الحاجات، هناك غنى ينشأ مع كثرة الحاجات، بالنسبة للإنسان ما هو الغنى؟ هو كثرة الحاجات، هذا غنى غير ممدوح، ولو كان ممدوحًا لأعطاه الله للأنبياء والأولياء.

الغنى في الخلق لا يكون ممدوح بكثرة الحاجات انتبه لها، الغنى الذي يحبه الله هو الاستغناء عن الحاجات انتبه لكلمة الاستغناء عن الحاجة، هذا غنى ممدوح يعني بمعنى أنه يقلل سؤاله للحاجات، لإنه

إذا قلل؛ قل ارتباطه بهذه الدنيا، تصور أن رجلًا نهم يريد الحاجات الكثيرة، قال صلى الله عليه وسلم: **(لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)**، وبعده يعني بصير يتمنى أربعة، بطل يتمنى واحد واثنين، بصير يطلب أكثر، يعني لو واحد عنده مليون يتمنى مليونين، لكن مليونين بصير يقول ثلاث، بصير يقول ستة عشر، وعشرين، فتكثر أماله، فهذا غنى لا يمدح.

فغنى كثرة الأشياء لا يمدح بل ربما يذم، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨)﴾ [الزخرف: ١٨]، ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣]، ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف: ٢٣]، كثرة الحاجات تكون النفسية ليست جيدة،

ولذلك كان أكثر الأنبياء وأول نبي بأكبر عار وصفه، ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)﴾ [الشعراء: ١١١]، وأنهم من الشرذمة وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤)﴾ [الشعراء: ٥٤] هذا دليل على نقد التوراة، والتوراة قالت مئة وعشرين ألف مئتا ألف الذين هاجروا من بني إسرائيل من مصر إلى الأرض المقدسة هذا غير صحيح، وصفهم بالشرذمة، هذا وصف العبيد عند الله عز وجل.

وأما أعظم الغنى هو أن يستغني عن حاجته، يستغني يكفيه كما كان الأنبياء، قال صلى الله عليه وسلم: **(إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم)**، **(من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بأسرها)**، بعض الناس يظن هذه أن سهلة، عنده قوت يومه، آمنًا في سربه، فهو آمن مساكين، كم حبة دواء يأخذ؟ وكم يخاف القتل ويخاف السرقة وخائف من أولاده وخائف من زوجته وخائف من العبد وخائف...؟ ومعافى في بدنه يعني **(خير ما أعطي العبد بعد الإيمان هو العافية)**، يعني سبحان الله!

فمن أعظم ما في القرآن أنه في قضية شرحه للإنسان، أن الإنسان هو الإنسان فيجب ما تشعر به في بيتك أن تعرف أن الناس كلهم يشعرون به، لما تمرض فيوجد أناس مرضى، ولما أنت صحيح يوجد أناس أصحاء ولكن في أناس مرضى، ولذلك في القرآن قال في لحظة عز وشعور الكفرة بنصرهم قال جل في علاه: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، تصور هو في لحظة هذه ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾ قالها في أحد والكفرة منتصرون ﴿يَأْلَمُونَ﴾، حتى وخصمك غالب لك هو متألم، فقط الذي لا يتألم لا من نصر ولا من هزيمة هو المؤمن إن أصابه خيرٌ شكر وأن أصابه ضرٌ صبر، فكان خيرًا لهو ليس ذلك إلا

للمؤمن، أما هو مع الكافر يعرف حتى وهو ينتصر عليك يتألم، لأن مات له أولاد، وخسر دنيا وكذا، أما المؤمن إذا كان منتصر في طاعة الله ومهزوم في طاعة الله والجنة إذا مات أو مات له كانوا شهيد، هذا يقهرهم هذا المعنى.

فالقصد: هذا الغنى الذي أراده الله عز وجل من العبد ويحبه ربنا في العبد، قال صلى الله عليه وسلم: **(ليس الغنى من كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس)**، كثرة العرض تُنشئ مرات نهمًا كالسعار، كالذي يأخذ المخدرات كلما شرب منها يريد أكثر، كالذي يشرب من ماء البحر كلما شرب يأخذ أكثر.

وهناك كاتب روسي عنده أفكار عن الصدقة على الناس وكذا، فقال للعبيد عنده، أراد أن يعتق العبيد، قال لهم: اسمعوا هذه الأرض كبيرة جدًا، عنده أربع خمس أعبد، فقال لهم: اسمعوا سأطلقكم عند شروق الشمس وكل واحد منكم يمشي بدائرة حيث وصل إلى بداية نقطة الدائرة فالأرض له، قال لهم ينطلق الرجل من أي نقطة من الدائرة، حيث رجع إلى النقطة التي بدأ منها قبل مغيب الشمس فالأرض له، فلم يرجع أي عبد بسبب أنهم كبروا الدائرة، فكانوا يقولوا لأنفسهم أكبر الدائرة قليلًا أكبر...، فلما كبرها بالنهاية غابت الشمس ولم يعد، فهذا هو الإنسان فعليه أن يوقف ذلك، خلاص كفاه يكفي.

وفي حديث علّي رضي الله عنه لما نظر إلى وجه النبي صلى الله عليه وسلم فوجد فيه الجوع، فأجر نفسه ليهودي هذه يذكرها العلماء والحديث في الصحيح، فيذكرونها على جواز تأجير المسلم للكافر مع الكراهة، يعني علّي رضي الله عنه أجر نفسه ليهودي هذا مع الكراهة لأن فيه استعلاء للكفار على المؤمن، في علو، ولكن للإضرار، قال للحاجة.

القصد من هذا ذهب فأجر نفسه ليهودي على أن يسحب الماء بالدلاء وكل دلو له تمرة، فبعد ما سحب ستة عشر تمرة اكتفى، قال له اليهودي: أكمل، قال له: يكفي، هو جاء يشتغل من أجل أن يطعم النبي صلى الله عليه وسلم لأنه رأى في وجهه الجوع، فخلاص يكفي، والإنسان إذا تابع لا ينتهي.

ولذلك الغنى الذي يحبه الله هو الاستغناء عن الحاجة، الغنى عن كثرة الحاجات، ولو فتح المرء نفسه لهذا ما انتهت الدنيا، كل المطالب لا تنتهي ويموت وهو على طريقة الأعبد وهو يلف ليصل ولا يصل، وتصور أن أغلب الناس يتصور أنه إذا جلس لا يأكل الأولاد ولا يشربون، فيمرض ويذهب يجلس في المستشفى شهرين ثلاث، فإذًا كيف عاش الناس وراك؟ هو تصور أنه مسكين إذا ما أشتغل فكيف سيدير شؤون الشركة؟ وشؤون الأولاد؟ وشؤون البيت؟ أغلب الناس هكذا يعيشون بهذا الوهم، يأتيه مرض يجلسه ويقعده شهر وشهرين طب فكيف أكل الناس؟ فهكذا على المرء إن يشعر بهذا.

فالغنى لربنا عز وجل هو غنى وصفٌ ذاتيٌ له، وأنه سبحانه وتعالى لغناه يحتاجه الآخرون، ويقوم عليهم بهذا الغنى فيما ذكر، وكذلك الله يحب من العبد أن يكون فقيرًا إليه غنيًا عمن سواه، وهذه معادلة لابد أن تقوم، وهو أن يكون فقيرًا إلى الله غنيًا عمن سواه، لا يسأل من غيره، إنما الغنى غنى النفس، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من عبيده في هذا الباب، وأن يرزقنا الزهد في الدنيا، وأن يجعل غنانا في صدرنا، وأن يبعدنا عن شأن اليهود.

فاليهود قالوا إن الله فقير، ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]، انظر وصفوه وصف ذاته ووصف عطائه، اليهود لإجرامهم ذموا ربنا في ذاته وذموا عطائه وفعله، فوصفوه ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ ولازم ذلك ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، هذا إجرام، نسبوا لذاته الفقر أن الله فقير محتاج ولما وصفوا عطاءه وصفوه بالبخل، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، نعوذ بالله من شركهم وكفرهم، ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وهذا هو ظن من كان على دينهم فيما ينظر فلا يشكر ربنا ماذا أعطيتني؟ ولو نظر إلى نعم الله عليه لعجز عن عدها، انظر إلى عطائه فيه لعينيه انظر لعطائه لشكله انظر لزوجته لأولاده لبيته، لما يسكنه للباسه أنه مستور، وهذه الدواب غير مستورة، أنت أكرم من الدواب الله سترك، أنزل لنا اللباس والريش، فزين بها الإنسان، ولباس التقوى، انظر إلى نعمه علينا، وهذا الشعور بالفقر لربنا سبحانه وتعالى، وأنه غني وأعطانا لا ينشأ المعصية.

انظر للسرقة ما سببها؟ لو أن الناس يسرقون للفقر لا تقطع أيديهم، عمر رضي الله عنه لم يقطع أيدي الأعبد الذين سرقوا الجمل للجوع فأكلوه، وإنما أخذ من سيدهم ضعف ثمن الجمل، لأنه أفقرهم واضطرهم إلى السرقة، ابن حزم عليه رحمة الله قال: «إذا منع الفقراء زكاة أموال الأغنياء جاز لهم أن يأخذوها بالقوة»، لأنهم لا يأخذون أموال الأغنياء هم يأخذون أموالهم، لأن ثبوت الملك ليس بنظام دنيوي، ثبوت الملك بالعطاء بالحكم الإلهي، **(واستحللتم فروجهن بكلمة الله)**، كلمة الله يعني حكمه شرعه، لماذا أنت تنام مع هذه المرأة لا تنام مع غيرها؟ لأن الله عز وجل أباح لك، ولم يبيح لم يجز.

فالمعاصي كلها تنشأ بسبب هذا، وهو عدم الفقر أمام الله والاستغناء عن الخلق عن غيره، يسرقون لأنهم لا يرضون عطاء الله، يزني لأنه لا يرضى عطاء الله، وهذا شيء عجيب في الإنسان مركب عليه هذا الإنسان، الله أعطا آدم الجنة، كل منها حيث شئت إلا هذه الشجرة، قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ

أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة: ٣٥]، فترك كل هذه الأشجار وهذا النعيم وأتى إلى هذه الشجرة.

ففي هذا الباب المرء عليه أن يحبس نفسه، وهذا الذي ينشئ الأولياء والصالحين وينشئ العصاة، هذا هو الباب، والنظر إلى ما أقامك الله عز وجل من الخيرات ومن العطاء وما أقام فيك من العطاء والخيرات، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته وأن يكرمنا بكرمه، والإنسان بغناه عن الأشياء يتصدق، بغناه عن الأشياء يقذف نفسه شجاعًا، هو غني حتى عن نفسه يبذلها لله، ومع الله، وفي الله، وإذا سجد لله عز وجل أظهر فقره.

وانظر إلى كلام ابن تيمية رحمه الله كما يقول عنه ابن القيم رحمه الله:

أنا المكدي وابن المكدي ... وهكذا كان أبي وجدي

تأملها أفعلها أسجد بها وأذكر كيف يقشعر بدنك، أنا الفقر ابن الفقير، المكدي: هو الذي يسأل المتسول، الكدية: هي التسول، أنا الفقير وأنا المتسول انظر هذا التواضع لربنا، أنا المكدي ابن المكدي هكذا كان أبي وجدي، ليس فقط أنا، كلنا كل أهلنا، فانظر إلى هذا الكلام والافتقار إلى الله وقول جماعتنا هنا، أنا ابن فلان، من ابن فلان يا مسكين، من أنت؟ تعرف كيف ينشأ الكبر كيف المعاصي من عدم شعور العبد بالفقر.

فشعور العبد بالفقر أنه يقال لماذا لا تذكر الناس؟ قال أنا ما فرغت من ذنوبي، حتى أفرغ لذنوب الناس، هذا شعور الفقر أمام الله، قام رجل يصلي أمام محمد بن واسع، أحد الأولياء، فصلى مسرعًا، قال يا رجل أليس لك حاجة؟! كيف بسرعة صليت ألا يوجد في السجود دعاء؟! أليس لك بالله حاجة ولا أي مطلب عندك، بسرعة صليت وما قدمت ولا عريضة.

انتبهوا إلى عدد المواطن التي شرع الله لعبيده ليسألوه، كل العبادات كل موطن عبادة هو دعاء، انظر خمس صلوات بين الأذان والإقامة، وأي وقت لو دعا المرء لو سجد هو قريب، لو سجد في أي صلاة، قال صلى الله عليه وسلم: **(أقربُ مَا يَكونُ العَبْدُ مِن ربِّهِ وَهَو ساجدٌ، فَأَكثِرُوا الدُّعاءَ)**، لكن انظر لأمور الفرائض بين الأذان والإقامة، في كل سجود من الصلوات، فنصلي في الفروض سبعة عشر ركعة، في كل فريضة سجدتان أي أربعة وثلاثين موطن للطلب، أبواب ليطلب فيها من الله عز وجل، مع الخمسة بين الأذان والإقامة، قبل أن تسلم عندك خمس صلوات، كم تقريبًا الآن أكثر من أربعين موطن من فرائض الله، فتحها الله لك للعبادة، بأن تسأله.

وانظر إلى أئمتنا الآن، ليس هناك وقت لتقول حتى سبحان ربي الأعلى ثلاث مرات، يا شيخنا أصبر علينا قليلًا، كم من الأئمة يفقه إطالة الجلسة قبل السلام كم من الأئمة؟ وكان ابن مسعود إذا صلى بهم ظنوا أنه قد نسي لإطالة الوقت، فالله عز وجل يقول لك أطلب اسأل، هذه أقل شيء أربعين موطن في الفرائض هي للدعاء لحاجتك لطلبك، لأنه الغني سبحانه وتعالى، نسأل الله أن يرحمنا برحمته، جزاكم الله خيرا، والحمد لله رب العالمين.

بقي في الحقيقة اقتران الأسماء، يعني الأمر سهل لأن الله عز وجل الغني الحميد، ما هو الجمع بينهم؟ عشر مرات تقريبًا وردت في القرآن اقتران الغني الحميد، ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ لماذا؟ الغني لها معاني اقتران الغني هو المعطي، الحميد هو الذي يشكر على ما يقدم له، والله يقدم له الطاعات، هذا اقتران أنه غنيٌ في عطائه، حامدٌ لمن قدم إليه العبادة، هذا المعنى موجود.

معنى آخر أنه غنيٌ فيحب أن يطلب منه فيحمد على غناه أن يطلب منه، وما هو فضل الغنى؟ ماذا يعني الغنى أي فضل فيه؟ هو فضلٌ إذا كان بذاته وإذا أثمر آثره، ما هو فضل الغنى وكيف يمدح الغنى؟ لو أن رجلًا غنيًا فلا يؤدي ثمار هذا الغنى وهو النفقة على الناس وإعطاء الناس وبذل الصدقات، فالناس يذمونه، فيكن مذمومًا، الغنى بلا عطاء مذموم، فالله عز وجل غني على معنى الحمد، أن يسأله الناس فيحمد لهم سؤالهم، ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

وأنه ﴿غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾، كما في سورة البقرة لماذا جاءت؟ قوله جل في علاه: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)﴾ [البقرة: ٢٦٣]، الحلم هو الإناء، فلماذا جاء هنا الغنى مع الحلم؟ لأن العبد يؤدي الصدقة، وهذه الصدقة فيها نقص، فكأن الله يقول: كل ما أديته فأنا غني عما تؤديه ولكني أحلم بمقدار عطائك، أحلم عليك وإن كان قليلًا، ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ﴾، ولو قال أقل شيء، ﴿خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾، يحلم على عبده حتى ولو أدى أقل القليل.

وأما أنه غني كريم في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾ [النمل: ٤٠] فبينة، على ما ذكرنا الغنى لا يكون ممدوحًا إلا بالعطاء، فالله غني كريم، فاقترنت بهذه الأوصاف الثلاثة، وكذلك جاءت مفردة كما ذكرنا في مقدمة الكلام كما في سورة «يونس»، نسأل الله أن يرحمنا برحمته بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا.

الأسئلة

السائل: شيخنا ذكرت أن الغنى صفة ذات هل لها تعلق بالإرادة؟

الشيخ: ما يثمر هذا الغنى هو الكرم، هذا الغنى يثمر الكرم، والكرم صفة إرادة، يعطي أو لا يعطي، ولكن الغنى صفة ذات، فالغنى في ذاتها هي صفة ذات، لا تعلق لها بالإرادة، يعني لا يقال إنه إذا أراد أن يكون غنيًا أراد، وإذا أراد أن يكون غير غني جل في علاه، فهي صفة ذات، فصفات الذات هي التي لا تعلق لها بالإرادة، ومن ذلك الغني، أما هناك صفات لها تعلق بالإرادة، لكن هذه الصفات لها آثار، هذه الآثار لا تنشأ في الخلق إلا بإرادة.

بارك الله فيكم والحمد لله جزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الواحد والثلاثون: العلي

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الحسنى وهو اسم له ثلاث صيغ دالة على معنى واحد وإن كان هناك بعض التمايز في معانيها، مع أن ديرها واحد وهو أنه سبحانه وتعالى العلي والأعلى والمتعال، وكل هذه الأسماء والصفات قد وردت في كتاب ربنا سبحانه وتعالى:

قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠)﴾ [الليل: ٢٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى: ١].

وكذلك ورد عنه سبحانه وتعالى أنه اسمه العلي ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وكذلك ورد أن من أسماءه سبحانه وتعالى المتعال، ورد مرةً واحدة في سورة «الرعد» قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)﴾ [الرعد: ٩]، وهذه الصفة لربنا سبحانه وتعالى دالة على علوه على خلقه، وأنها صفة ذات له سبحانه وتعالى، لا تتعدى لغيره إلا على معنى أن يؤمن بها العبد وأن يتعبد العبد بهذه الصفة لربنا سبحانه وتعالى.

هذه الصفة فيها تعظيم لربنا سبحانه وتعالى وهو أساس كل هذا الدين وأساس كل هذه الصفات وهو أن يعظم العبد ربه، وما من خِصلةٍ أو من صفةٍ من صفات الخلق تعد مدحًا في حقهم إلا وربنا سبحانه وتعالى أولى بها وهذا الذي يسمى عند علمائنا بقياس الأولى، فالعلو عند الناس يقع على معاني، وكلها تدل على الشرف، وكلها تدل على المنزلة العظيمة.

فأول معنى من معاني العلو هو أن يقع علو الذات، أن يكون هناك لربنا سبحانه وتعالى علو الذات على خلقه، الله سبحانه وتعالى بائنٌ عن خلقه، بائن بمعنى أنه لا يدخل فيه شيءٌ من خلقه، ولا يدخل هو في شيء من خلقه، فالله سبحانه وتعالى أجلّ وأعظم من أن يكون هناك شيءٌ من خلقه يحيط به، هو لا يحيط به إحاطة العلم فكيف يحيط به إحاطة الذات؟!

فالله سبحانه وتعالى أعلى بهذا المعنى، أعلى أنه سبحانه وتعالى لا يدخل في شيءٍ من خلقه، ومن زعم أن الله يدخل في شيءٍ من خلقه كأهل الحلول فقد كفر بالله سبحانه وتعالى؛ لأنه تصغيرٌ لربنا وتحقيرٌ له سبحانه وتعالى وهذا لا يليق به.

فالله عز وجل علّي وهذا العلو هو علو ذاته عن خلقه، ومعنى هذا: أن الله عز وجل فوق ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)﴾ [النحل: ٥٠]، وهذا الذي يقع في قلوب العابدين عند عبادتهم لربنا فإنه يقع في قلب كل عابد، فطري لا يدخل عليه كلام الفلاس وكلام المتكلمين؛ أنه إذا دعا الله عز وجل توجه قلبه وتوجهت يداه إلى السماء، توجه قلبه إلى السماء إلى الأعلى، والمقصود في السماء هنا بمعنى العلو، والعلو ليس علوٌ نسبي؛ لأن كل شيء بالنسبة للخلق هناك علو نسبي فهناك ما هو أعلى منه.

مثلًا: الآن فوقنا نحن الغيم والغيم فوقه كذلك خلق ثم تأتي السماء الدنيا ثم تأتي السماء الثانية فهذا علو، لكن نحن لما نقول الله سبحانه وتعالى فوق وأنه علّي نقصد بها العلو المطلق، لا شيء فوقه، ونهاية العالم وهذه المخلوقات الكبيرة جدًا نهايتها العرش وربنا سبحانه وتعالى ارتفع على العرش، استوى على العرش واستوى بمعنى ارتفع، وهذا كل فطري يعلمه، فلا يمكن أن يقع في القلب إلا على هذا المعنى.

فإذا حاول هذا العبد أن يُنازع هذه المعاني القلبية الفطرية وقع في النفي المطلق، عندما يُطلب من العبد من قبل المتكلمين أو من قبل الفلاسفة في أن ينفي هذا المعنى أن الله عز وجل أنه سبحانه وتعالى موجود جل في علاه وأنه منفصل لا يدخل في شيءٍ من خلقه ولا يدخل شيءٌ من خلقه فيه؛ فإذًا الله عز وجل بائن، هذا الذي سماه العلماء الحد إثبات الحد لله، ومعنى الحد: ليس بمعنى المحدود والمحصور ولكن بمعنى الحد الذي به يتم تمايز الشيء عن غيره.

ومن هنا أخذ التعريف بالحد لأنه يؤدي إلى تمايز الشيء عن غيره فيسمى بتعريف الحد؛ لأنه يميزه في الذهن عن غيره.

والله سبحانه وتعالى جل في علاه فوق الخلق، فوق الخلق جميعًا والعرش محيطٌ بكل الخلق وربنا سبحانه وتعالى فوقه جل في علاه.

فأول صفة نثبتها لله عز في معنى العلو له؛ أنه سبحانه وتعالى فوق خلقه بذاته جل في علاه، وهذا معنى لا يمكن لأي إنسانٍ فطري إلا يقول به، الفطر تقول به، العوام لو سألتهم يقولوا: **(ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)**، تقول زينب رضي الله عنها: «أنا زوجني ربي من فوق سبع سماوات»،

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول لسعد بن معاذ رضي الله عنه: **(لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات)**، فالله سبحانه وتعالى فوق كل شيء.

ولما تقول الجارية كما في حديث معاوية بن الحكم السلمي في صحيح مسلم لما يسألها صلى الله عليه وسلم: **(أين الله؟)**، تقول: «في السماء»، المقصود انه في العلو المطلق، وليس المقصود في السماوات المخلوقة أنه فيها، هذا لا يجوز لأنه حينئذٍ يقع فيه الذي تقدم وهو أنه يدخل في شيءٍ من خلقه والسماوات هي من خلق عز وجل، فالله عز وجل بائنٌ عن خلقه عظيم.

والعبد كما قال ابن عمر رضي الله عنه لما كان يطوف في الكعبة قال: «أيأتينا أحدكم بحاجته من حاجات الدنيا؟! والله يتخايل بين عينه»، يعني للعبد تصور ليس التصور الذي يقع على الماديات ولكن له معاني تقع في قلبه أنه سبحانه وتعالى فوق خلقه، وهذه ليست الفوقية في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، ليست هذه الفوقية فوقية الرتبة، فإن «مِن» إذا دخلت على الشيء دلت على المكان، دخلت على المعنى والذات كما تقول، فلا تقول: الذهب من فوق الفضة بل تقول: الذهب فوق الفضة ولا تدخل «مِن»، لكن تقول السقف من فوقنا، فعندما تكون الرتبة لا تدخل «مِن» لا على تحت ولا على فوق.

لكن إذا دلت على المكان وهنا لا أقصد المكان المخلوق الذي يحيط بالخالق، لا، إنما نقول هو موجود سبحانه وتعالى، على معنى يقع في القلب ويعبر عنه بما جاءت به الآيات وبما جاءت به السنة، فهكذا يعبر عنه بهذه الألفاظ التي جاءت بها الشريعة جاء به الوحيان من الكتاب والسنة.

وهذا أليق بأنه سبحانه وتعالى العلي، العلي أليق به أن تكون صفة لذاته سبحانه وتعالى في معنى علو الذات.

ومعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أسري به ثم عرج به إلى السماء وتردد بين الله وبين موسى عليه السلام، **(أريد أن أراجع ربي)** فتردد؛ فدل على أنه سبحانه وتعالى فوق العرش بائنٌ عن خلقه سبحانه وتعالى، ولكن علمه محيطٌ بكل شيء وسمعه محيطٌ بكل شيء وبصره محيطٌ من كل شيء، وهو لا يحتاج إلى شيءٍ من خلقه جل في علاه، أنه محيط بكل شيء، أنه فوق جل في علاه، وهو فوق الخلق وهو مع الخلق.

وهذه المعية إما تأتي بمعية المراقبة وإما بمعية التأهيل والنصرة فالله مع المؤمنين نُصرةً وتأييدا والله مع الكافرين مراقبًا وعلمًا بهم وإحاطةً بما يفعلون وما يقولون، يسمعهم سبحانه وتعالى ومهما دقت أفعالهم،

﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧)﴾ [طه: ٧]، ولكنه سبحانه وتعالى عالٍ عن خلقه ولا يمكن أن يقع في القلب الإثبات والتعبد إلا على هذا المعنى، لا يمكن، ولو أدى هذا العبد أن ينفي هذا المعنى الذي يقع قلبه وعقله على ما يقع في قلوب العوام، وهو العلم الصحيح؛ لأدى إلى النفي، يقول: لا يوجد، لا يوجد، لا يوجد؛ فيؤدي إلى إنكار وجود الله، هذا الإنكار المطلق يؤدي إلى الوحدة المطلقة. ومعنى الوحدة المطلقة هو اعتقاد أن الله هو كل شيء، ينتهي بهذا، لأن دائمًا الضد ينتهي إلى الضد هذه قاعدة: «المبالغة في شيء تؤدي إلى ضده».

كما نضرب مثال دائمًا: نحن نرى الخوارج يلتقون مع المرجئة كلهم يلتقون في حالة واحدة وهي قتل المسلمين، هذا يقتلهم تكفيرًا وهذا يقتلهم بدعة، وهذا يوالي أعداء الله، وهذا يوالي الشيطان في قتل المسلمين، كلاهما، انظر إلى المرجئة الذين غالوا في الإرجاء وصلوا إلى نفس ما وصل إليه واقعًا الخوارج في قضية بغض المسلمين وقتلهم والتآمر عليهم و...إلخ.

فالقصد من هذا: أنه سبحانه وتعالى فوق خلقه ونثبت له سبحانه وتعالى صفة الفوقية، هذه الصفة ما من كلمة في القرآن إلا وهي دالة عليها.

فحتى لما قال فرعون لهامان ابني لي صرحًا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ [غافر: ٣٦-٣٧]، فمن أين جاء هذا فرعون أن رب موسى عليه السلام في الأعلى ويحتاج الصعود إلى الأعلى؟ من خطاب موسى له؟ يعني هو قالها استهزاءً، فالبعض زعم أن هذا هو دين فرعون، لا، هو ليس دين فرعون، هو فعله ليتم النفي، ففرعون لما طلب من همان أن يبني له صرحًا أي بناءً عاليا ليطلع إلى إله موسى عليه السلام ليرتفع إلى فوق، فمن أين جاء بهذا؟ هل هذا هو دين فرعون أم قاله فرعون نافيًا لما قاله خصمه وهو موسى عليه السلام.

فكلام فرعون هو دليل، وما مع ذلك زعموا أن الصعود إلى الأعلى والارتفاع إلى الأعلى بحثًا عن الرب هو دين فرعون، لا، هو قالها على معنى الاستهزاء، ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾، يعني موسى عليه سلام قد أخبره بهذا.

فالله عز وجل له صفة الفوقية في معنى فوقية الذات على بقية الخلق جميعًا، الله عز وجل استوى على العرش وأجمع أهل العلم على أن استوى قديمًا على أنه ارتفع، لا يعرفون إلا هذا المعنى كما قال ابن العرابي، وهذا يؤدي إلى تعظيم الله عز وجل ويؤدي إلى الإثبات والإثبات يؤدي إلى الإخبات، وإلا لو لم يكن في القلب هذه المعاني لما توجه ولما عبد، فإنه لا يدري ماذا يقول.

فهذه الصفة لله عز وجل وهي صفة أنه العلي، وهذه وردت تقريبًا أكثر من ثمان مرات في القرآن الكريم، ﴿الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، ﴿الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾، سبحانه وتعالى، ﴿عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، وكما سئل أُبي من قبل النبي صلى الله عليه وسلم: **(أي آيةٍ في كتاب الله أعظم؟)**، فأجاب: «بأنها الكرسي»، وفيها ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وهذه من أعظم الصفات التي يجب على العبد أن يعلمها في هذا الباب.

فكذلك من علوه سبحانه وتعالى هو علو القهر، أنه عالٍ ويقهر عبيده، وهو من اسمه سبحانه وتعالى القهار، وقهر العبيد بأنهم لا يخرجون عن قدره ولا يخرجون عن أمره هو الذي خلقهم، وربما يخلق العبد شيئًا ثم يخرج عن طاعته، ولكن الله خلق الخلق كلهم تحت قدرته يقهرهم، لا يرزقون إلا بأمره، لا يحيون إلا بأمره، لا يموتون إلا بأمره؛ فهم مقهورون تحته سبحانه وتعالى، وهذا هو الكبير المتعال وهي وردت مرة واحدة في سورة «الراعد»، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)﴾ [الرعد: ٩].

سبحانه وتعالى، تعالى على خلقه قهرًا لهم سبحانه وتعالى، ولا يقع القهر إلا بعلو، ولا يقع العلو على هذا المعنى إلا من كان الأعلى بصفاته سبحانه وتعالى وقدره، لا يقع العلو والقهر إلا فيمن يملك القوة فلذلك هنا يقع الأعلى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى: ١]، والأعلى تعني: الأعلى بصفاته سبحانه وتعالى، ليس هناك من صفةٍ تقال إلا وهذه الصفة متضمنة هذا المعنى وهو أنه الأعلى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١)﴾ [الأعلى: ١]، ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠)﴾ [الليل: ٢٠].

فربنا سبحانه وتعالى ما من صفةٍ إلا ومن شرطها أن تكون هي الأعلى، إذا قورنت بغيرها مما يطلق على العبد، فلو أطلق على العبد صفة الكريم فصفة الكريم لربنا هي الأعلى، وإذا أطلقت صفة الرزاق أنه يرزق عبيده فإن صفة الرزاق في ربنا سبحانه وتعالى هي الأعلى فهي صفة أعلى، فما من صفة لربنا إلا وهي متضمنا بأنه سبحانه وتعالى الأعلى.

إذًا الله سبحانه جل في علاه العلي بذاته، العلي بصفاته، العلي بقهره، فالكل خاضع له، وهذه الصفة بهذا المعنى تُنشئ هذا الخضوع، لأن الله هو العلي وأنت محتاج له، ما دام أنه يقهر عبيده، والأشياء تؤخذ من العبيد -كما قلت مرة- الأشياء تؤخذ من العبيد أو تؤخذ بالأشياء إما بالثمن وإما بالقهر وإما بالتذلل.

فإما أن تأخذ الأشياء بالثمن فهي معاوضة يدفع له فيعطيه، والله عز وجل لا يحتاج إلى شيء، ليس هناك من شيء يحتاجه فتقدمه لله فيعطيك بدلًا منه، الله عز وجل هو الغني وهو الذي خلق كل شيء ولا يحتاج إلى شيء.

وإما أن تؤخذ الأشياء بالغلبة والقهر، والعبد لا يمكن أن يأخذ من الله على هذا المعنى، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]، الله اتخذ أولياء فالملائكة هم أولياء الله والأنبياء هم أولياء الله، والصالحون هم أولياء الله، والمجاهدون هم أولياء الله، والناس يكثرون من الأولياء لحاجتهم إليهم لأنهم بهؤلاء الأولياء يرفعون عنهم الذل.

ونحن نعرف قصة جد النبي صلى الله عليه وسلم عبد المطلب، لما أراد أن يكشف عن زمزم وقد جاءته المنامات الكثيرة بأن يكشف عن زمزم فلما كشف عنها قريش ضحكت عليه، حمل المجرفة ونزل إلى مكان زمزم يزيل عنها التراب، من أجل أن يعيدها إلى ما كانت عليه لأنها درست، فلما جاء وأزالها فكان قد ألقي فيها الكثير من الذهب من بعض الملوك، وضعوا فيها الذهب، فلما كشف عنها وإذا هي مليئة بالذهاب فجاءت قريش تطالبه –أول كانوا يضحكون عليه– فلما جاءت الغنائم، جاؤوا يطالبونه بالقسمة، فشعر بالهوان فسأل الله عز وجل أن يرزقه عشرة من البنين، وإن رزقه عشرة؛ قدم أحدهم أضحية لله عز وجل قربانًا له على ما كان يعتقد الجاهليون من هذا، وهذا من ظنونهم بما وقع مع إبراهيم عليه السلام وإسماعيل.

فلماذا طلب الأولاد هنا الشاهد؟ دفعًا للذل، وكانوا قديمًا يتنازعون على الأولاد فلما ألحق أبو سفيان زياد ابن أبيه ألحقه به لأن كثرة الأبناء رفعة، يحبون الأولاد، وكذلك الأولياء يتخذونهم أولياء وهذا الولاء والحلف على هذه الولاية من أجل دفع الذل ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]، الله عز وجل إذا أتخذ الأولياء من الذل، هل لرفع نقص عنده؟!! سبحانه وتعالى، إنما أتخذهم أولياء لمحبتهم له ولمحبته لهم، من أجل أن يعطيهم إن سألوه أعطاهم، كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي قال تعالى: **(ولئن سألني لأعطينَّهُ ولئنِ دعاني لأجيبنه ولئن استعاذَني لأعيذنَّهُ)**، هو أتخذهم على هذا المعنى.

القصد أيها الإخوة الأحبة كذلك أن هذه الصفة إذا وقرت في القلب أنشأت تذللًا لربنا سبحانه وتعالى، أنشأت التذلل، أنشأت الإخبات، الخوف منه والخضوع له، وإذا علم العبد أن كل ما عنده وكل ما يحتاجه إنما هو من الله عز وجل سأله، إما أن يأخذ على معنى العوض، وإما أن يأخذ أشياءه على معنى من القهر، وهذا لا يقع مع الله عز وجل، وإما أن يأخذ على سبيل التذلل، ومن هنا جاء الدعاء، وجاءت

الصلاة وجاء الزكاة، وجاءت قراءة القرآن، كلها وسائل ليتحصل بها العبد ما يريده من حاجاته في الدنيا، هذه الطاعات الله أعطانا إياها وسائل لنتحصل السعادة في الدنيا والآخرة، نتحصل رضاه، نتحصل الرزق، الاستغفار يأتي بالرزق، الصلاة تأتي بالرزق، ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠)﴾ [نوح: ١٠]، رزق الله يعطيك الرزق.

ثم هذا العلو، علو الصفات، علوه سبحانه وتعالى في صفاته وقدره ومكانته هذا يؤدي إلى حبه، فإن النفوس مجبولة على حب الكمال، حتى لو لم يكن هناك ثمة منفعة تؤدى إليه، فإذا ذكر الرجل أنه مثلًا شجاع، فالنفس تحب هذه الصفة وتحب الموصوف بهذه الصفة، وإذا قيل فلان جميل، فالنفس تميل إلى حبه، ولو لم ينتفع بهذا الجمال، النفوس مجبولة على حب الكمالات، طبعًا أنا أتكلم عن النفوس العظيمة، النفوس إذا هانت ربما تحسد وربما تؤدي إلى البغض والحسد، الذي يتمنى زوال الشيء، نتحدث عن النفوس الجليلة الكريمة.

فإذا علم العبد عظم صفات الله وعلو هذه الصفات، وكمال هذه الصفات أدت به إلى حب الله عز وجل، أنه إذا سمع أن الله جميل وأنه سبحانه وتعالى عالٍ بهذه الصفة عن خلقه، جماله لا يبلغه جمال الخلق؛ فحينئذٍ يحب هذا الرب، فإذن هي مؤدية إلى سؤال الله وعبادته وتؤدي هذه الصفات إلى محبة الله وتؤدي إلى الخوف منه، عندما يعلم أنه سبحانه وتعالى إذا عذب، عذب عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، لا يعذب أحد لا ملك ولا غيره، عذاب الله شديد، ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، الناس أين نارهم التي هي وقودها الناس والحجارة؟ هذه الصفة كذلك تنشئ هذا الاعتقاد من الخوف وهذا المعنى من الخوف في قلب العابد.

ثم يأتي اسم المتعال لله سبحانه وتعالى الذي له صفة القهر على عبيده، والقهر هنا ليس بمعنى أن ينشئ المعاني المؤلمة في القلب، الناس تقول لك: فلان مقهور، وأساس القهر هو الغلبة، لكنها تنشئ معنى الألم في القلب، الإنسان الذي عليه القهر هو لا يحب، الإنسان خلق على فطرةٍ حرة وعلى فطرة السلامة من الخضوع لا يحب، الخضوع الذي يؤدي إلى الإيذاء، ليس المقصود هذا.

فالقهار وصفته المتعال أنها علو القهر ليس على هذا المعنى ولكن على معنى خضوع العبد في كل حركةٍ وسكنة، في كل قولٍ وفي كل فعلٍ وفي كل وجود، يتحرك وهو مقهور لأمر الله عز وجل، هذا حتى على المعنى الجبار، أن العبد مجبورٌ بهذا المعنى وأنه سبحانه وتعالى من صفاته الجبار.

القصد: أن هذه الصفة صفة عظيمة لله عز وجل، وقد وقع للأسف الانحراف وهذا بابٌ عظيم، وقع الانحراف الشديد في نفي هذه الصفة في تاريخ هذه الأمة، وتحت زعم الأخذ بمحترزات ما كانت تخطر على بال الأولياء والصالحين، وزعموا أنه إذا قلنا إن الله عز وجل فوق أنه يؤدي إلى أنه داخل العالم أو أن يؤدي إلى أنه محصورٌ بجهة، وأطلقوا هذه العبارات أن الله ليس محدود بجهة من الجهات، لأن الجهة ماذا يقصد فيها؟ الجهة للحد يعني أنه سبحانه وتعالى محصور بين حدين، وهؤلاء لا يفهمون هذه الصفة في بإطلاقها، وأضرب أمثلة الآن:

زعم المعاصرون –طبعًا الأرض الآن كروية معروفة– ويقولون بأن كل فوق ما يقابله الذي يقول في الأسفل تحت، وهذا بمعنى هذه الكرة الذي يقول هنا فوق، لو جاء هذا وقال تحت لالتقى مع الذي يقول فوق، أي هذه الأرض كروية لو كان رجل يقف هنا، ويشير إلى السماء للأعلى ورجل يقف هنا فلو أشار إلى الأسفل هذا من دعوى الكاذبة التي فيها الافتراء وعدم الفهم، قال له لو أشار إلى الأسفل لالتقى مع الرجل الذي يقول بأنه فوق، وهذا من أضل الضلال والجهل.

وزعم بعضهم أنه قد أكتشف الضربة القاضية في القضاء على عقيدة أهل السنة في استواء الله على خلقه وعلوه على خلقه جل في علاه، هذا الكلام غير صحيح، المثال يسير جدًا، لو أن رجلًا أراد أن ينزل إلى الأرض، أن ينتهي نزوله وكيف يبتدأ ارتفاعه؟ كيف يبدأ صعوده؟ رجل هكذا لو أراد أن يحفر فيدخل في جوف الأرض، في صفة النزول، إلى أين ينتهي قوله أنا نازل؟ رجل يريد أن ينزل إلى جوف الأرض إلى مركزها، هو يمشي إلى أسفلها، فلو نزل حيث وصل إلى مركزها ينتهي النزول، وحيث يتحرك إلى أي جهة بعد هذا المركز فإنما هو يصعد، سواء رجع من نفس الطريق أو أخذ طريقًا آخر، أو واصل طريقه في الصعود في الجهة الأخرى فينتهي.

إذًا النزول لا يوصل إلى الجهة الأخرى، نتكلم عن مادة والناس يعرفون، فالنزول لا يواصل إلى الجهة الأخرى، وإنما الجهة الأخرى من المركز يبدأ الصعود فكل واحد لو أشار إلى الأسفل لما التقى السفل إلا في الوسط، ليس منتهى السفل إلى الجهة الأخرى، في أحد يزعم فيلتقي مع إشارة الرجل المقابل له في الكرة الأرضية، هل يلتقي معه، لا، هو إشارة السفل تنتهي إلى مركز الأرض ثم بعد ذلك يبدأ الصعود.

فلذلك من هنا هذا يشير إلى علو وهذا يشير إلى علو، هذا هو العلو المطلق، وهذا الذي لا يصح النسبة إلا إليه، وهو أنه فوق سبحانه وتعالى، يشير إلى الفوقية، أين ربنا؟ في السماء فوق، هذا من هنا

يشير فوق، وهنا يشير فوق وهنا يشير فوق فكلهم يشيرون إلى نهاية العالم، العلو المطلق، وهو إشارةٌ إلى ربنا سبحانه وتعالى.

من هنا يأتي خطأ كلمة الجهة، فهنا تأتي موهمة إذا قصد العلو المطلق، فهذا صحيح، لكن لما نقول قل لي في أي جهة؟ بمعنى محصور، يعني يكون في هذه الجهة، ولا يكون في هذه الجهة، نحن ما قلنا هكذا، قلنا يشير إلى الجهة التي فيها العلو المطلق، وليس الجهة التي فيها الحصر، لأنك لو أشار إلى الأسفل، لا ينتهي إلا إلى نسبة محددة، ثم ينتهي في الأرض، لو أشار إلى الأسفل شرحنا ينتهي إلى المركز، لو أشار للأعلى لا تنتهي إشارته إلى العلو المطلق لا تنتهي، لو انتهت لأقررنا، ولكن لا تنتهي إلى النهاية المطلقة، وإنما إلى نسبة محددة ثم تختلف الصفة إلى صفة أخرى، فحينئذٍ لو أن كل رجل أشار فإنما تعود إليه، هذا ينبغي أن يفهم في هذا.

فلذلك حتى تصور البشر للكون يشير إلى هذا المعنى من علو الله، فهذه الأقوال والمزاعم أدت إلى هذه الانحرافات، أدت إلى أعظم الانحرافات في عدم إثباتها لربنا فانتهى العابدون أو النافون إلى النفي المطلق، النفي المتكرر إلى هذا المعنى نفي مطلق أنه غير موجود، لما يقول: ليس كذا، ليس كذا، وينكر كل شيء، في النهاية إذا جردت الذات عن كل الصفات فحينئذٍ غير موجودة تنتهي إلى النفي المطلق وهذا الذي وقعوا فيه، وقعوا إلى النفي المطلق ووقعوا في الحيرة، وهذه من الطامات للأسف طامات الابتعاد عن الكتاب والسنة.

ويكفي المرء أن يعتقد ما يقوله ربنا سبحانه وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥)﴾ [طه: ٥]، وانظر ما ورد الاستواء صفة لربنا، ما قال: العلي على العرش استوى، وإنما هو الرحمن دائمًا ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، وهذا يوافق قوله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي)**، فهو ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، علمه محيطٌ بكل شيء، قدرته محيطةٌ بكل شيء، بصره محيطٌ بكل شيء، وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى أنه قدوس لا يشبهه شيءٌ من خلقه وليس هناك شيءٌ من خلقه يشبهه، فإذا تم التقاء الصفات فإنما هي على المعنى الجزئي بالنسبة للخلق وعلى المعنى المطلق العلي بالنسبة لربنا سبحانه وتعالى.

هذا ما في هذا الباب والله سبحانه وتعالى أعلم جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم، وهذه الصفة كما ترون أشبه ما تكون أن الخصومة فيها، أنها خصومة علمية فينبغي أن يشار إليها على هذا المعنى الذي تقدم ذكره والله تعالى أعلم بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا عندما نقول قال تعالى، ويقول تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣)﴾ [الإسراء: ٤٣]، **أيكون على هذا المعنى؟**

الشيخ: هذا هو المعنى أنه قال تعالى أي أنه علا عن الظنون التي تخطر فيما يقوله البشر، لأنك أنت لما تقول ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، يعني له الصفات العظيمة التي لا يمثل بها حين تذكر في الخلق، هو المثل لماذا يذكر؟ من أجل مقاربة المعاني فإذا غاب عنك شيء فلن تعرفه مُثل لك ذهنيًا طبعًا وقد وقع التمثيل في الصورة أن يصنعنا لك نموذجًا ويقول هذا مثل هذا، ما معنى الْمَثل؟ مأخوذ من المِثل مِثله، فإما أن يصوره لك ذهنيًا لأنه غائب عنك.

فلو قيل لك اسم من أسماء الأشياء التي لا تعرفها، حيوان لا تعرفه الآن في حيوان لو قلنا الماموث ما أحد يعرفه مثلًا، تقول له: هو أشبه ما يكون بالفيل، فأنت تشبهه، تضرب له مثلًا يقاربه من أجل أن يقع التصور في الذهن، فإما أن تقدم له المثال تجيب له ماموث وتقول له هكذا وترسمه، وإما أن ترسم مجسم، مجسم له، وهذا الأغلب لا يقع هذا، الأغلب يقع التمثيل الذهني.

فالمثل الآن لما نقول نحن، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ وردت مرتين، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧]، يعني أنه لا يجوز أن يمثل ربنا بخلقه، فإذا مُثل المعنى ليقارب كان مثله أعلى لا يقاربه إلا في الأصل، وأما في الوصف فهو أجل وأعظم لا يقاربه فهو أعلى، نحن قلنا الأعلى يعني الرتبة، علو الرتبة، التي لا يشابهها أحد، الآن هذا ملك وهذا ملك لكن لا يعني المشابه بينهما إلا في صفة الملك، وأما في الوصف فقد يكون هذا يملك الدنيا وما فيها، وهذا يملك مسكين بيته ويملك مزرعته، فهذا المعنى المشترك موجود ولكن في المماثلة لا يقع، فنقول هذا مثله أكبر من هذا.

الآن بالنسبة لربنا عز وجل نقول هو الغني، ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧]، فكيف غني؟ لو افترضنا أن الرجل لا يفهم كلمة غني، وإن كانت هذه الكلمة من الكلمات، لكن هناك أسماء نحتاج إلى شرحها لغة، لأنها غير متداول لكن كلمة غني الناس يعرفونها يعني من حصل عنده الغنى عن الناس بوجود الأشياء، حصل له الغنى استغنى عن الناس، فستغنى بوجود الأشياء عنده، فيفهم المرء ما معنى الغنى هنا.

فنقول ربنا غني، ثم نقول: قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، مثلنا لك ما معنى غني ولكن حين نأتي إلى القدر في هذا التمثيل لا يماثله شيء، ومن هنا نقول ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، حين نقارب في الصفات من أجل إدخال المعاني فإذا جئنا إلى مقدار الصفات رفعناها بهذا الوصف ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾، رفعناها إلى هذا أنه لا يشبه شيءٌ من خلقه ولا يشبه خلقه في.

ومن هنا تأتي هذه المسألة من مسائل العلم هل الاشتراك في الصفات هو فقط اشتراك في الألفاظ، أم هو اشتراك في الحقيقة مع المغايرة في المقدار؟ والأخير هو الأقرب، وإن كان كثير من أهل العلم قال، وقالها صاحب «الأمد الأقصى» أبو بكر بن العربي ناقلًا لها عن إمام أهل التحقيق وهو الغزالي عنده، يقول: «إنما الصفات في الخلق صفات مجازيه»، بمعنى ليست حقيقية، وهي حقيقية بهذا المعنى، وإن كان هو يقصد بأن الإنسان يقول للإنسان يملك أين ملكه؟ الله أعطاه بعض الملك ليتصرف، ولكن هو في الحقيقة لا يملك شيئًا يعني ممكن حمل هذا وهذا، يعني من الذي أعطاه؟ الله، من الذي يأخذ منه؟ ومن الذي يقبضه؟ الله عز وجل، فهذا المعنى على أن الصفات في العبد حقيقية وفي ربنا حقيقية، فإذا وقع الاشتراك في أصل الكلمة ولكنه في المقدار لا يكون.

فهل يقع اختلاف في النوع؟ لا شك هناك اختلاف في النوع إذا وقع مثلًا الرحيم، الرحمة في العبد رقة في القلب، والرحمة في ربنا على معنى سبحانه وتعالى جليل في ذاته سبحانه وتعالى، يقول اليوسفي ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ يقول معناها أي الذي تحقق به أعظم الصفات، وأجل الصفات، أنه لا يشترك في شيء من خلقه إلا على معنى الاسم لنتفق على هذا، أنه فقد يشتركون بالاسم، وأما في المقدار والجلال والرتبة والمكانة، فالأعلى، لا يشركه شيءٌ من خلقه، وكلما علا زادت المسافة بينه فلا يدركه، والعبد في أدنى ما يكون فهو علا سبحانه وتعالى، نتكلم عن الرتبة هنا، علا بما لا نهاية له، فإذن له المثل الأعلى لا يشبه شيء، لا يشبه ولا يقاربه، هذا هو المعنى.

السائل: شيخنا في سورة «الاسراء» ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء: ٤٣]، ذكر كثيرًا أنه تعالى، هل على نفس المعنى؟

الشيخ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾، يعني هم ماذا يقولون، وتقال ردًا عليهم حين ينسبون لربنا ما لا يليق، مثلًا نسب له الولد، ماذا نقول؟ سبحانه تقدس، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢)﴾ [مريم: ٩٢]، فسبحانه، وتعالى: تعني على علوًا مطلقًا كبيرًا عن أن يصيبه ما يقولونه من نقص، حتى أننا نقول: قال تعالى، فكل هذا من أنه سبحانه وتعالى العلي الأعلى المتعال، قال تعالى أي علا حتى لا تصيبه

ظنون الخلق، ولا تصيبه أوهامهم ولا تدركه عقولهم، وتدل على التنزيه بلا شك ومن أجل هذا نحنا قلنا ما من صفةٍ إلا وهي محتاجة لهذه الصفة أنه تعالى، تعالى في قدوسيته، تعالى في رحمته، تعالى في خلقه لا يشبه شيء، مما يقع في ظنون الخلق مما يفعله الخلق.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني والثلاثون: الصمد

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى التي تَعبدنا بها وأنعم بها على الخلق لأن أعظم النعم هو أن ينعم الله عز وجل على الخلق بالعلم، وأشرف العلم وأعظمه هو أن يعلم المرء ربه، وأشرف ما في هذا الوجود هو هذا الأمر، وما خلقنا الله عز وجل إلا لهذا الأمر، أن نتعبده بعلمنا به سبحانه وتعالى؛ لأنه إذا نشأ هذا العلم نشأت العلاقة الصحيحة بين العبد وبين ربه وهي علاقة العبودية والطاعة، وحينئذٍ تفتح لهذا العبد الخزائن العظمى، تفتح الخزائن الإلهية من الكرامات في الدنيا والآخرة، «خلاص هذا المفتاح»، كما أن لا إله إلا الله هي مفتاح الجنة.

ما معنى لا إله إلا الله هو أن العبد يعلم ربه على ما هو عليه، ويقره على هذا العلم أن يعلمه كما هو سبحانه وتعالى وأن يقر بهذا العلم جاعلًا هذا العلم سببًا للعبودية له، ولا يخلص المرء إلى العبودية الخالصة لله حتى يكون عالمًا بربه، ومن ذلك أن يعلم أن الله متفرد بصفات الربوبية، متفرد لا يشاركه غيره في صفات الربوبية، وحين يعتقد المرء هذا التفرد في صفات الرب ينشأ في قلب العبد الخضوع له وحده دون غيره، عندما يعلم أنه متفرد بهذه الصفات؛ حينئذٍ يأتي في قلب العبد أنه لا يستحق أن يعبد إلا الله، أن لا يُسأل إلا الله، أن لا يُطاع إلا الله، أن لا يُذلل إلا له وإلا يُحب المحبة التي فيها معنى التعبد إلا له سبحانه وتعالى، يُحب هو جل في علاه.

من هنا هذه السورة العظيمة التي كما يقول أهل العلم: «تواتر ذكر فضلها بأنها ثلث القرآن»، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص: ١-٤]، وسميت بسورة الإخلاص، والإخلاص: هو الخلوص والتفرد، أنت تقول: خَلِصت منه يعني انتهيت لم يبقى شيء، فمعنى الإخلاص: أي خرجت من كل عبوديةٍ لغير الله، القيتها وراءك، خلصت إلى عبودية واحد أحد وهو الله عز وجل، هذا هو الإخلاص.

والعلماء اختلفوا أولًا اختلفوا لماذا هذه السورة تعدل ثلث القرآن والأغلب على أنها تعدل ثلث القرآن لأن القرآن شامل للأمور الثلاثة، شامل لصفات الله عز وجل وأسمائه، وشامل لأحكام ما يحب الله عز

وجل وشاملٌ لقضية الأخبار المتعلقة بنهاية الخلق أين يذهبون، كل فرقة أين تذهب، الصالح أين يذهب، والفاسد أين يذهب.

فإذن يقولون القرآن ثلاثة أقسام فهذه السورة جامعة للقسم الأول المتعلق بتوحيد الله عز وجل، والذي يعتقد أن علة كون هذه السورة أنها تعدل ثلث القرآن هو قوله صلى الله عليه وسلم حين فسر هذا بقوله مشيرًا إلى معنى هذا الأمر وهو لما قال صلى الله عليه وسلم في حديث أبي سعيد الخدري: **(أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ)**، فسماها بما ورد فيها من أسماء الله الجامعة لكل أسماء الله عز وجل.

وبعد ذلك هذه الأسماء الله الأحد، الصمد، هذه الأسماء يتفرع منها كل شيء، يتفرع منها بقية الوجود المتعلقة بالإنسان في حياته والإنسان في مقاماته في الآخرة، فالله الأحد الصمد جامعة لكل حقائق الإخلاص لله عز وجل، ومعانيها:

الله: الله هو اسم الذات، هذه الذات الجامعة لكل معاني الحق والحسن، دلالة على ذاته سبحانه وتعالى.

الأحد: وأما الأحد الدالة على الاختصاص، أحد نحن تكلمنا عن هذه الصفة في لقاءٍ سابق، فمعنى الأحد لما أقول أحد يعني هو المختص، لا يشركه غيره فيما هو فيه سبحانه وتعالى، من أسماء وصفات.

الصمد: الصمد كما سنتبين بمعناها العام هو الاسم الدال على جمع جميع صفات الكمالات.

انظر إليها الله الدالة على الذات، الجامعة لكل الصفات خلاص كل الصفات لا تكون إلا بهذه الذات، وكونه الأحد الدال على تفرده اختصاصه، بما هو حق له سبحانه وتعالى، هو اختصاصه في الخلق اختصاصه في الوجود اختصاصه في الرزق، اختصاصه في العطاء، مختص، وما معنى الصمد؟ الصمد هنا أي الذي جمعت له جميع الكمالات، فهذه الصفات الثلاثة كما نرى جامعة لكل صفات ربنا سبحانه وتعالى.

فمن هنا هذه السورة من أحبها دخل الجنة، لأن حبها إنما لحب موضوعها، وموضوعها هو الحديث عن الله، القرآن كله كلام الله، لكن هذه السورة لم يرد فيها ذكر شيء إلا الحديث عن الله، لا فيها ذكر الجنة ولا فيها ذكر النار ولا فيها ذكر الأحكام ليس فيها إلا ذكر ربنا، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ [الإخلاص: ١-٤]، فهذه اختصت هذه السورة بالحديث

عن الله سبحانه وتعالى، ومع هذه الكلمات الموجزة إلا أنها بلغت كما يقال قاموس البحر، قاموس المعاني كلها، بلغت كل خير.

ففي الحديث كانَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصارِ يَؤُمُّهُمْ في مَسْجِدِ قُباءٍ، وكانَ كُلَّما افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ بها لهمْ في الصَّلاَةِ ممَّا يَقْرَأُ به افْتَتَحَ: بقُلْ هو اللَّهُ أحَدٌ حتَّى يَفْرُغَ مِنْها، ثُمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أُخْرَى معها، وكانَ يَصْنَعُ ذلكَ في كُلِّ رَكْعَةٍ، فَكَلَّمَهُ أصْحابُهُ، فقالوا: إنَّكَ تَفْتَتِحُ بهذِه السُّورَةِ، ثُمَّ لاَ تَرَى أنَّها تُجْزِئُكَ حتَّى تَقْرَأَ بأُخْرَى، فَإِمَّا تَقْرَأُ بها وإمَّا أنْ تَدَعَها، وتَقْرَأَ بأُخْرَى فقالَ: ما أنا بتارِكِها، إنْ أحْبَبْتُمْ أنْ أؤُمَّكُمْ بذلكَ فَعَلْتُ، وإنْ كَرِهْتُمْ تَرَكْتُكُمْ، وكانُوا يَرَوْنَ أنَّه مِن أفْضَلِهِمْ، وكَرِهُوا أنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ، فَلَمَّا أتاهُمُ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أخْبَرُوهُ الخَبَرَ، فقالَ صلى الله عليه وسلم: **(يا فُلاَنُ، ما يَمْنَعُكَ أنْ تَفْعَلَ ما يَأْمُرُكَ به أصْحابُكَ، وما يَحْمِلُكَ علَى لُزُومِ هذِه السُّورَةِ في كُلِّ رَكْعَةٍ)**، فقالَ: إنِّي أُحِبُّها، فقالَ صلى الله عليه وسلم: **(حُبُّكَ إيَّاها أدْخَلَكَ الجَنَّةَ)**.

لأنه يحب الحديث عن الله، والمرء إذا أحب شيئًا أحب سماع أخباره، وهو من شغفه بها لا يصلي صلاة ولا ركعة إلا أن يقرأ بها، تصور هذا الذوق العظيم لهذه السورة.

فقالَ صلى الله عليه وسلم: **(حُبُّكَ إيَّاها أدْخَلَكَ الجَنَّةَ)**، لأن أساس دخول الجنة هو التوحيد، فهذه السورة هي سورة الإخلاص، والتوحيد هو الإخلاص، التوحيد: واحد خلاص ما في غيره.

فهذا الاسم العظيم هو اسم الله الصمد، والحديث عن اسم الله الصمد، هذا الاسم الجامع لكمالات المعاني كلها، وكمالات الأفعال كلها، وكمالات الصفات كلها، يستغرق جميع الصفات، وكل الصفات لا يبلغ كمالها إلا بوجود صفة الصمد، لأنها تبرئ كل اسم من أي دخيلٍ يؤدي إلى النقص، وذلك ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «الصمد هو السيد الذي كَمُل في سؤدده، والغني الذي كَمُل في غناه، والحكيم الذي كَمُل في حكمته، والعليم الذي كَمُل في علمه»، فكل صفة إن لم يقترن بها الصمد قد يعتريها النقص، ومن هنا كانت هذه الصفة لازمة لكل الصفات من أجل أن تؤدي إلى المعنى العظيم وهو كمال هذه الصفة.

وهذه الصفة ليس فقط صفة ذات ولكنها كذلك صفة فعل، لأن ربنا سبحانه وتعالى هذه الصفة دالة عليه في ذاته كما تبين من كلام ابن عباس وهي كذلك تدل على أن الله قد صمد نفسه للخلق ليقضي حوائجه أن سألوه، صمد نفسه: أي أقام نفسه، من أجل أن يسأله الخلق، قال: سألوني في كل لحظة سألوني أنا الصمد فسألوني.

فلذلك هذه الصفة صفة ذات لربنا لتعطي الكمالات في المعاني فيه، وكذلك هي صفة عطاء بالنسبة للخلق، وأساس هذه الصفة الصمد من أجل أن نبين لأن هذه الصفة ربما أوصل بعض أهل العلم في معانيها إلى عشرة معاني، ولكنها كلها تدل على حقيقة واحدة؛ أنه الغني فلا يحتاج إلى أحد، وكل الخلق يحتاج إليه، هذا أصل معناه.

فمن أين أخذت هذه الصمد؟ قالوا أخذت من المصمت، والمصمت الذي لا جوف له، ومن لا جوف له لا يأكل ولا يشرب، أي أنه مستغني عن الخلق، الناس كلهم يحتاجون أكل وشرب والحاجة،

فالله عز وجل لا يحتاج إلى أحد هذه أساسها، ويحتاجه كل أحد هذا معناه.

ولما كان كاملًا بهذا المعنى فالناس يصمدون حوائجهم إليه، قالوا إذن هذا يقضي الحوائج، وقالوا الصمد هو الباقي الذي لا تحول له، من هنا حتى الآن الناس من عباراتهم فلان صامد يعني مقيم على ما هو عليه، ما أتاه نقص بأن هرب، وترك مكانه يقولوا لك: صامد، وهذه كلمة صحيحة، وصح عن ابن مسعود وإن شكك البعض بها لم يفهمها، حتى رأيت أن ابن العربي يعني أشار إلى تشككه فيها، مع أنها صحة عن ابن مسعود، قال: «الصمد هو الباقي الذي لا زوال له» لا يزول.

فأساس هذه الصفة اجتماع جميع الكمالات فيه، تبرؤه عن النقائص، لا يأكل لا يشرب لا يحتاج، ودالة على غناه، مادام أنه يقيم نفسه صمدًا ليقضي الحوائج وجميع الحوائج التي يحتاجها الخلق؛ فدل على غنى خزائنه وغناه سبحانه وتعالى، ولا يقوم أحد يقول سألوني أي شيء تريدون من حوائجكم إلا إذا كان كاملًا في غناه لا يعتريه نقص.

ومن هنا هذه الصفة هي الدالة على كمال خصاله سبحانه وتعالى على كمال الخصال، وإذا أعتقد المرء بهذا المعنى هذا الحب، لماذا ينشأ الحب هو في قلوب العبيد؟ ينشأ لأمور:

أولًا: لأن الإنسان إذا صحت فطرته أحب الجمال، وأحب الطهر، أساس العلاقة، طبعًا ممكن المرء يفسد فيحب الفاسد مثله، أنا أتكلم عن الفطرة، فأنه يحب الجمال، لكن واحد يحب القبح!! هذا لفساد فطرته، واحد يحب غياب العقل يسكر فهذا لضياع فطرته وفسادها، لكن الذي يحب الطهر هو الإنسان الذي كان على فطرته.

إذن محبة الجمال المعنوي هو أعلى درجات الإنسانية، من هنا يستغني الناس عن الدنيا مقابل العلم، والعلم جمال معنوي، الناس يبذلون الأموال يشترون الكتب من أجل أن يقروا ويمتعوا أذهانهم وتستفيد

عقولهم بالمعاني والعلوم، فأولًا ينشأ هذا الحب، سبب الحب وهو أعلى درجات الحب هو أن يتجرد هذا الحب إلا من المعاني، بعدين تأتي الحاجات، أما أولًا يحب هذه المعاني لمجرد أنها معاني جميلة، وإلا المرء ماذا يستفيد من بيت الشعر عندما يقرأه فيتمتع به ويجريه على لسانه المرات ويتغنى به ويلقيهم بينه وبين نفسه؟ هل يشبعه هذا البيت؟ لا يشبعه، هل يرويه إذا كان عطشان؟ لا يرويه، لكن هو يتمتع بالمعاني.

وكلما ارتقى المرء في المعاني كلما اقترب من الله لأن الله هو حق، ولأنه سبحانه وتعالى الجليل ولأنه سبحانه وتعالى الجميل، فكلما ارتقت المعاني في الإنسان، كلما اقترب من الله عز وجل حق الارتقاء والقرب فازداد محبة لله لأنه يدرك عظمة هذا الإله، وجمال هذا الإله، وحكمة هذا الإله، وعلم هذا الإله، ويعلم قدوسية هذا الإله، فيزداد حبًا له.

فأساس الحب لما ترى الإنسان يحب الله عز وجل دل على أنه من أرقى الخلائق، خرج عن هذه الدنيا وغيرها خرج عن هذه المحسوسات وارتقى إلى ذرة المعاني.

ثانيًا: ينشأ الحب لما يأتيه من منافع، ومنها ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠)﴾ [الرحمن: ٦٠]، حين يرى هذه النعم العظيمة عليه فأنه يحبه، وإذا رأى أنه لا يقع عليه شيء إلا لحكمة يحب هذه الحكمة، حتى لو وقع فيه البلاء يحبه لأنه يراها على معاني الحكمة، فهذا الحب نشأ لأنه علم أن الله هو الأحد وهو الصمد، فأحبه لما فيه صفات الله عز وجل من معاني الجمال في هذه الصفة، ولأنها بها يتم التعبد في قضاء الحوائج، يحب الله عز وجل لقضاء الحوائج لأنه هو الذي يقضي حاجاته، الإنسان لا يمكن أن يرتقي أن يخرج من حاجاته، يزهد نعم لكن يبقى محتاج إلى الطعام والشراب، يصبر لكن بحاجة إلى ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ [الشرح: ٦]، تحتاج إلى اليسر بعد العسر، وإلا لو ضاقت به الدنيا من كل يسر لضاقت نفسه وتغيرت وتبدلت، فالمرء يحتاج إلى اليسر بعد العسر.

فإذن هذا مجمع هذه الصفة العظيمة، وكل ما قالوه بعد ذلك يعود إلى هذا الأمر، أن الله لا يحتاج إلى أحد، وأنه سبحانه لا يتحول ولا يتبدل، وأنه سبحانه وتعالى أحد الصفة اقتران الأحد بالصمد، دل على أنه سبحانه وتعالى لا يتفرق ولا يتجزأ، وأنه سبحانه وتعالى على ما هو عليه جل في علاه، دل على أنه على ما هو عليه فلم ينشأ فيه زيادة، ربنا لا ينشأ فيه زيادة جل في علاه، فلا يوجد هناك صفة تحتاج إلى زيادة وأن الزمن ينميها وأنه إذا وجد الخلق زادت هذه الصفات، هذا لا يحتاجها فهو صمد سبحانه وتعالى، على هذا المعنى، الباقي الذي لا فناء ولا تحول له سبحانه وتعالى.

فكل ما قالوه وأكثروا في هذه الصفة، أكثروا إكثارًا شديدًا؛ لأن هذه الصفة هي التي تستغرق الصفات، وتُعطي هذه الصفات الكمال، كل الصفات تحتاج لهذه الصفة من أجل -نحن قلنا ماذا؟ التكميل والتعديل- من أجل أن تطرد كل المعاني الباطلة التي تطرأ على العقل، إذا نشأ المرء الحكمة إلى ماذا؟ هو الصمد سبحانه وتعالى، كمل في حكمته، هذا أجل ما يقال في هذه الصفة هو ما فسره ابن عباس رضي الله تعالى عنه، والباقي تبع لهذه المعاني.

وهذه المعاني تتعدد ألفاظها ولكن جذرها واحد وهذا الذي عبر عنه الإمام الشافعي في البيان، ماذا قال عن البيان في كتابه الرسالة؟ قال رحمه الله: «شيءٌ اجتمعت جذوره واتحدت ولكن اختلفت فروعه وتعددت»، فيبدو -هذا معنى الكلام- فيبدو لمن جهل البيان أن هذا التعدد في الفروع هو خلاف لأنه يجهل، ولا يعلم ولكن إذا علم، إذا كان عالمًا بالبيان وأساليبه وطرق التعبير عن هذا البيان علم أن أصولها متحدة، ومن هنا فكل هذه التفسيرات التي قيلت في الصمد إنما هي متحدة، على هذا المعنى الذي قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنه: «السيد الذي كمل في سؤدده، والغني الذي كمل في غناه، والشريف الذي كمل في شرفه».

هل العرب كانت تطلق هذه الصفة على غير الله؟ وأكثر العلماء، الطبري ذكر هذا، ثم نقله ابن القيم كثيرًا في كتبه وشرحه ابن تيمية رحمه الله في فتاواه -طبعًا يجوز فتاوي وفتاوى للذكر، الناس يظن أنه لابد من واحدة، كصحارى وصحاري، يجوز هذا وهذا- فشرح هل يجوز أن نطلق الصمد على غير الله؟ الجواب: لا، وإنما هو فيه صمدية، الإنسان فيه نوع صمدية، ولكنها ليست الصمدية التامة وليس فيه أصل الصمدية، فالإنسان يجلس، وحتى عندنا الفلاحين يقولوا صمدوا العروس، يعني أجلسوها المجلس للنظر إليها، وصُمد الملك يعني جلس مجلس الملك من أجل أن يقضي بينهم من أجل أن يعطيهم، فيجوز أن يستخدم هذا الاسم ولكن أنظر إليه، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢)﴾ [الإخلاص: ١-٢]، فلا تكون الصمدية التامة الحق إلا لله عز وجل.

فهذا المعنى العظيم في أسماء الله ماذا يوجب علينا؟

أولًا: أول ما يوجب هو توحيده، هذا أول واجب، ما دام أنه هو الذي كَمُل في كل شيء يجب أن يوحد، مُل هو الوحيد لا يشركه غيره فيجب أن يوحد، كما هو واحدٌ في ذاته، وواحدٌ في صفاته، يجب أن نعتقد هذا وأن نتعامل مع هذا وأن نعبده وحده دون غيره.

ثانيًا: وكذلك بعد توحيده هو أن يحب، على المعنى الذي ذكرناه لأنه إذا ارتقت أفعال الإنسان إلى إدراك المعاني لا يحب إلا الله عز وجل هذه المحبة التي هي على معنى العبودية.

ثالثًا: أن يلتجأ إليه ما دام أنه قال سلوني، أنظر هذه نكررها دائمًا، الله عز وجل هو الواحد الأحد الذي لا يمل من سؤال عبده، فالأب يمل من سؤال ابنه، والأم تمل من سؤال ابنها، والملك يمل من سؤال رعيته، والكل، ولا يوجد أحد لا يمل، لو أكثر عليه في اليوم مرتين ثلاثة أربعة يطرده، مهما كان مهما كان غنيًا ومهما كان حبيبًا، مهما كان غنيًا هذا المسؤول ومهما كان حبيبًا هذا السائل.

والله يحب أن تكثر من سؤاله، وأوجب عليك السؤال، ففي الفاتحة هي: **(ولعبدي ما سأل)**، جعل الفاتحة سؤالًا نصفها لك من أجل أن تسأل، وجعل السجود من أجل أن تسأل، وأعظم ما يمكن أن تتعبد به في سجودك هو السؤال، ما دام أنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، إذن أعظم ما يقوم به العبد وهو ساجد هو أن يسأله، فإن تتعبد هذا التعبد هو عظيم جدًا، فيه سر غريب جدًا وهو أنه يقضي لك الحاجات التي تسأل بها ربك تقضي هذه الحاجات بهذا السؤال، ويقربك إلى الله وهو الأعظم.

يعني عندما يسأل العبد ربه يبكي، هذا البكاء هو بكاء العبودية الذي يحبه الله، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩)﴾ [العلق: ١٩]، فإذا سجد فسأل اقترب إلى الله، الأعظم ليس أن تقضى حاجتك.

أنا أسألكم سؤالًا، لو أنك سألت الله لشيءٍ أنت عاجز أن تحصله، فسألته واستغثت به، ثم قضي هذا الأمر، وإذا جاء أمرٌ من الله بالقضاء فيقضى، ما الأجمل في هذه اللحظة؟ ما هو الذي يدعو إلى الفرح أكثر من الآخر، هل قضاء الحاجة، أم أن الله استجاب دعائك؟ جاءت الحاجة التي سألته فها هذا شيء جيد، لكن أن الله عز وجل قد استجاب دعائك، وسمع لك، وأنفذ مرادك محبةً لك، وسماعًا لاستغاثتك ولصوتك ولندائك، هذا أعظم، وأظن أن الأغلب لاحظ هذا المعنى في قضاء الحاجة، وهو يسأل الله عز وجل فقضيت الحمد لله، فهو يفرح لقضاء الحاجة أكثر من وجود هذه الحاجة بين يديه.

فلذلك هذا الاسم يصنع التوحيد، ويصنع الحب ويصنع العبادة وهي أعظم أنواع العبادات بعد توحيده وحبه والإخبات إليه وأدراك المعاني العظيمة؛ أن يوحد الله وهو أن يسأل الله عز وجل هذه الحاجات أن يسأله ولا يسأل غيره، هنا موجود أمامك واحد مصمود للسؤال، وتترك الله عز وجل، هذا إذا سألته مل –خلاص طيب بعدين بنشوفك– وهنا أنت تسأل الله عز وجل فيقول لك اسأل، وقد يزيد عليك في البلاء ليسمع صوتك أكثر، لا لأنه لا يريد قضاء حوائجك ولكنه يريد أن يقرب إليه، يريد أن يقربك أن

يجعلك قريبًا منه الحاجة مقضية تأتي، لكن يريد أن يقربك إليه أن يعرفك بنفسه أكثر في أن يعرفك بنفسه؛ من أجل أن تحبه، من أجل أن تخاف منهم، من أجل أن تحب لقاءه.

فالعبيد في شوق إلى المعاني قال له لماذا تحب الجنة؟ قال: لأن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم ينظر إلى ما فيها من نعم وإن كان هذا مطلبٌ بشري لا يمكن للمرء أن يخرج من بشريته إلا إذا صار مريضًا، هو يحب الحور العين ويحب أن يأكل ويشرب ولكن فيها رسول الله، فإذا جاء الآخر وقال لماذا تحب الجنة؟ قال لأنني أرى الله، أريد أن أدخل الجنة لأرى الله، هذا الإله العظيم أريد أن أراه، فهذا أعظم شوق في قلوب العبيد.

فهذه السورة على المرء إن لم يكن يحبها، على معنى ما نشأ فيها من المعاني عليه أن يكثر من قرأتها لينشئ الحب، وهذه قضية يعرفها الناس، وهو أن الشيء قد يكون موجودًا في القلب ينشأ من معاني، ولكن هذه معاني كبيرة وعظيمة لا يصل إليها، فيتكلف حصولها لتحصل في القلب، بمعنى قد تنشأ كثرة قراءة هذه السورة لما نشأ في القلب من حب، ماذا قال الرجل؟ إني أحبها، فإذا أحبها أكثَرَ قراءتها، طيب هو يريد أن يحبها فهو يعلم أنها عظيمة يريد أن يحبها فماذا يفعل؟ يكثر من قراءتها.

الشيء إذا أكثَرَ المرء علاقته به وكان عظيمًا، ليس فيها أن أكثَرَ علاقته به وكان سفيهًا، وكان صغيرًا أكتشف أخطاءه، اكتشف ما في من انحراف من فساد، لكن إذا كان عظيمًا وحاول ازدادت محبته له، ازدادت هذه المحبة ولكن من طرق محبة هذه السورة ليحبك الله وأن تدخل الجنة أن تكثر قراءتها، ومن هنا يعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة يقرأها، عليه أن يديم هذه القراءة لهذه السورة من أجل أن يحصل الحب لها، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ممن يحب هذه السورة وأن يحب هذه الصفات العظيمة في ربنا سبحانه وتعالى، ليجمعنا بمن يحب يوم القيامة وأن يجّلي لنا وجهه العظيم يوم القيامة لنراه وأن يجعلنا من المحبين له سبحانه وتعالى آمين، آمين، بارك الله فيكم، والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: الزيادة في السؤال في دعاء الاستفتاح (سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك)، ما المقصود بـ (وتعالى جدك)؟

الشيخ: الجد هو المقام، وتعالى أي ارتفع عن الأوهام، هذا المقام ارتفع لا تدركه الأبصار، يعني مقام الله عز وجل لا يدرك، نحن نعتقد أنه عظيم لكن لا يمكن أن ندرك هذه العظمة، الرجل مشكلته لما قال: «لأن قدر الله عليه»، هو يثبت القدرة ولكن لا يعرف المسكين القدرة أين هي، فنحن نؤمن أن الله قدير لكن هذه القدرة لا نهائية هل يمكن أن تتصورها؟! نحن إدراكنا محدود، لا ندرك هذا لا النهائي غير مدرك.

فقال: **(وتعالى جدك)**، أولًا أي تعالى مقامك، الجد هو المقام، وهذا الجذر واحد، فحتى نقول فلان جد فلان أي: أصله، ولما كان أصله هو نسبه الذي يفتخر به فهو مقام، يعني الجد هو نسبه مقامه، لما نقول فلان شريف فهذا مقامه، فالمعنى واحد وإن استخدمت هنا على معنى وهناك على معنى، ولكن الجذر واحد، فتعالى جدك أي مقامك، أولًا تعالى عن الظنون الباطلة، هذا المقام تعال عن الظنون الباطلة، كقولهم: إن لله ولدا، تعالى الله عن هذا الظن الباطل، قولهم أنه لا يدخل على الله إلا عن طريق الوسائط، كما يقول المشركون ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، تعالى الله عما يقولون بهذه الظنون، وكذلك تعالى سبحانه وتعالى عن أن يحيط به علم أو يحيط به عقل أو يحيط به إدراك، نحن نراه لكن لا ندركه، يوم القيامة المقصود، وقوله: **(وتعالى جدك)** أي: تعالى مقامك عما تكلمنا به، بكل هذا المعاني شاملة لها ولغيرها.

السائل: عل تفسيرها بالغنى لله عز وجل شيخنا؟

الشيخ: لما قلنا تعالى يعني أنه العالي فإذن يقتضي العالي في الصفات وفي الأفعال ومن ذلك أنه غني، ما معنى الغنى؟ وما معنى عالي؟ أصل الغنى هو دفع الحاجة، لما أقول أنا غني عنك يعني لا أحتاج إليك، لما يكون هذا الأمر فيه وهو أنه عدم الاحتياج لأحد، دل على وجود عنده الكفاية، إما أن ينشأ لقلة الحاجة أو أنه دفع لهذه الحاجة وعدم الاهتمام بها، وإما لوجود المعنى الآخر وهو أنه غني عن فلان لوجود ما يكفيه أو ما عنده من الأمور وهذا في حق الله التام، أنه لغناه عن خلقه، ولكمال ما عنده سبحانه وتعالى من صفات، من هنا كان العلو، فعلى ارتفع للغنى، أنه غني عن الخلق هذا من معانيها.

والشيء قد يفسر بأصله -الكلمة بأصلها- وهذا هو الذي عليه التفسير الأكثر، ولكن قد يفسر ببعض معانيها، يعني عندما نقول معنى تعالى أنه سبحانه وتعالى العلي المتعالي، نقول الغنى هذا من مقتضيات العلو، من مقتضيات أنه سبحانه وتعالى العلي العظيم أو الأعلى، سبح اسم ربك الأعلى، مقتضيات أن يكون غنيًا نعم، وإن كان الغنى صفة خاصة لها معانيها الخاصة بها، وهذه أشمل من الغني وغيره.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثالث والثلاثون: الرزاق

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى التي تعبّدنا بها وأنعم بها علينا؛ ألا وهي صفة الرزاق.. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات: ٥٨]، كما وصف نفسه هو الرزاق، والله عز وجل وصف نفسه في كثير من الآيات أنه ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، وطلب منا أن نبتغي الرزق منه وحده تعالى، قال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وجعل لهذا الرزق أسبابًا من أعظمها هو تقوى الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وهذه الصفة من أعظم ما أنعم الله عز وجل به على العبد حقيقةً ومعنى.. فمعنى الرزاق هو الذي تعدد عطاؤه وكرمه لمن خلق، فيعطيهم ويكرر العطاء، ولذلك أساس كلمة الرزق هو ما ثبت به العطاء وداوم العطاء عليه؛ بمعنى أنه يقال: أجرى عليه الرزق أي جعل له مالًا إما أسبوعيًا وإما شهريًا وإن كان يطلق كذلك الرزق على ما كان مقطوعًا على مرة أو مرتين يعني أعطاه فرزقه هذا يصح، ولكن أساس كلمة الرزق هو الذي يجري فيه العطاء على معنى الدوام، والرزاق سبحانه وتعالى وصف نفسه من أجل أن يقطع أنظار العباد عن غيره، حتى يتم توحيد العبد قلبًا ولسانًا واعتقادًا وكذلك قولًا.

فالله عز وجل وصف نفسه أنه هو الرزاق ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾، وهذه صيغة مبالغة أي أنه سبحانه وتعالى عم رزقه جميع الكائنات، حتى أن رزقه لا ينقطع عن الكافر، والرزق كما يقولون هو الذي به قوام البدن أولًا.. فالرزق هو العطاء؛ من أجل أن يقوم البدن وأن يدوم هذا البدن وأن تدوم هذه الحياة، وإن كان الرزق أوسع من القوت.

فالقوت هو ما يقوم به البدن على الاختصاص، والرزق ما يقوم به البدن وغيره، يعني أي شيء ملكه العبد سواء كان به قوام البدن أو فيه مما هو من المحسنات ومن الرزق، ومن المحسنات فالمرأة تتحلى بالذهب وهذا ليس به قوام البدن، لكن الله يرزقه الذهب يرزقه المال يرزقه ... إلخ، ولذلك الرزق أوسع من كلمة القوت، وإن كان الرزق يقع على القوت أي: رزقه قوته.

فالقوت هو ما به قوام البدن من طعام ومن شراب ومن هواء ومن قوة ومن بصر ومن سمع، السمع هذا قوام البدن، فالبدن إذا تعطل سمعه وتعطل بصره ضعف البدن ولم يتم به ما هو مطلوب منه من الحاجات حتى يمشي لابد من أن يسمع لابد من أن يبصر لا بد من أن يعقل فهذا كله من القوت الذي الله عز وجل أقام العطاء عليه ومن أجل أن يدوم هذا البدن بأداء ما أمره الله عز وجل أو ما به حاجات هذا الإنسان.

ولذلك الله سبحانه وتعالى جعل الرزق له وحده ونفاه عن غيره، وإذا وقع الرزق من غيره فإنما هو بأمره، قال الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾ [الجمعة: ١١]، يمكن أن تسمي السيد إذا أعطى عبده في الدنيا أو أعطى المالك الأجرة لأجيره بأنه رزقه، يمكن هذا لكن هذا لا يقع إلا بإذنه ولا يقع إلا بأن يملك الله المالك هذا الرزق، ولذلك العلماء المحققون يقولون وحمد كل شيءٍ إنما هو حمدٌ لله.

فلا ينبغي أن تحمد شيءً إلا بأن تحمد الله قبله، لولا أن الله ما أعطى هذا العبد ما أعطاك، ولولا أنه لم ييسر لهذا العبد أن يعطيك ما أعطاك، ولولا أنه تيسر ملكك له ما ملكته، ولذلك عندما تشكر العبد إنما عليك أن تشكر الذي أجرى هذا الفعل الحسن على يد هذا العبد من أجلك.. فالله عز وجل هو الرازق الحقيقي لأنه لا يوجد أحد يملك هذا الكون إلا الله.

وهذه الصفة لربنا سبحانه وتعالى أولًا تعطى أنه هو المالك، لأنه لا يمكن لأحد أن يرزق دون أن يملك، فهو مالك كل شيء وبيده كل شيء، فهو الرازق الذي أعطى العباد كل هذه المنافع، أعطاهم الشمس، أعطاهم القمر، أعطاهم الأرض، أعطاهم الهواء، أعطاهم الماء، أعطاهم الأبدان، أعطى بعضهم بعضًا، أعطى الرجل الولد وأعطى المرأة الولد، وأعطى الزوجة الزوج والزوج والزوجة، فهذا يدل على اتساع ملكه، وكلما تفكر العبد بما رزق فإن هذا التفكر يوجب أمرين:

الأمر الأول: أن ينظر إلى ملكوت الله، إلى ملك الله العظيم.

الأمر الثاني: أن ينظر إلى نعمة الله عليه، هذا الملك كل شيء ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، ﴿وَسَخَّرَ﴾ أي: جعله رزقًا لكم.

فالشمس لك أنت على الخصوص، المشكلة في الخلق أنهم ينظرون إذا عمت النعمة بمعنى أنهم لا ينظرون بأنها لهم فلا أحد يقول: هذا الهواء لي، مع أنه له، لا أحد يقول أنا أملك الهواء، مع أنه يملك الهواء وإن كان على معنى أنه لا يستطيع أن يحبسه عن غيره ولا يستطيع أن يحوزه إلى نفسه بحيث يجعله ملكًا على معنى القِوامة عليه، ولكن هو يملكه من جهة، فأنت تملك الهواء.

وهذا الهواء أهم من المال يعني لو أن رجلًا قيل له أنت لك مليون دينار في البنك هذا لطار من الفرح وربما مات من الفرح، لكن لو قيل له هذا الهواء كله هو لك، أنت تتنفس تأخذه متى شئت، فتتنفس هذا الهواء وهو مِلكٌ لك، وكذلك هذه البحار هي مِلكٌ لك وهذه الشمس العظيمة هي مِلكٌ، لا تنظر لها ما دام أنها عمت فليست مختصة بك، لا تنظر إلى هذا، لكن انظر إلى أن هذه النعمة وقد عمت كانت لك على الخصوص قبل كل أحد.

وأنت لما كنت في بطن أمك هذا المكان هو الله عز وجل جعله لك، ولما خرجت من بطن أمك الله أعطاك هذين الثديين لك أنت، وأنت تملكها، والناس لا يشعرون بها، الناس للأسف يشعرون فيما هو يتنافس فيه الناس، وما لا يحصل به التنافس لا يشعرون به، لا أحد ينافسك فلا تشعر به، لكن لما كان الدينار والدينار يتنافس الناس به ويتعاطون به، يتنافسون أعطني وأعطيك ويتقايضون به فشعروا بالملك، وأما الشمس لا أحد يتقايض بها فلا أحد يتنافس عليها، القبر لا أحد يتنافس عليه فلا يشعرون بملكه، يشعرون بملك ما يتنافسون فيه، يشعر بأن زوجته له لأنها له فقد نافسه غيره ودفع مهرًا لها، وهي كذلك أنها اختصت بهذا الزواج لأنه جاء لها دون بقية النساء.

وأما ما لا يتنافسون به مع أنه هو الأعظم، فيمكن للمرء ألا يتزوج، لكن لا يمكن للمرء أن يعيش بلا شمس، ويمكن للمرء ألا يملك المال الذهب والفضة لكنه لا يمكن أن يعيش بلا هواء، فما لا يتنافس الناس فيه هو أعظم.

ولذلك الله سبحانه وتعالى جعل أنه هو الرزاق من أجل ألا يعبد إلا هو ولا يسأل إلا هو ثم لا يحمد إلا هو.

فأولًا: أنه الرزاق وأن له الملك العظيم.

ثانيًا: له القدرة، الله القدير، لأن هذه الأرزاق لم تكن قبل أن يخلقها الله عز وجل، فالله قدير، خلقها.

والناس يظنون أن الخلق قد تم وإنما يقع بالتوالد، ولا يدرون أن الله عز وجل يخلق من العدم في كل لحظ يخلق من العدم، في كل لحظة ما زال الخلق من العدم قائمًا، الناس بجهلهم وبضعف نظرهم يظنون أن الخلق من لا شيء توقف وإنما هو التوالد، مع أنه في كل يوم يقع الخلق من لا شيء وفي كل لحظة يقع الخلق، فالله يخلق.

فهذه الحيوانات المنوية من أوجدها ومن بث فيها الروح؟ هذه روح جديدة هذه الروح هل تتوالد؟! يعني هذا الطفل عندما يكون في بطن أمه فيقذف ربنا سبحانه وتعالى فيه الروح، فهل هذه الروح ولدت من شيء سابق أم أنها خلقت من العدم؟ خلقت من العدم، فالله ما زال يخلق فإذًا الله يرزق هذا الخلق. وهذا النبت الذي تخرج من الأرض وهذه الحيوانات التي نراها في كل يوم تتوالد هذه لها أرواح ولها نفوس ما الذي أوجد هذه الأرواح والنفوس المستقلة؟ هذه لا تنتقل من أرواحنا لا يوجد في ديننا هذا الذي يسمونه التقمص أو يسمونه التناسخ، لا يوجد، الله عز وجل يخلق روحًا جديدة من الحيوانات ويخلق روحًا جديدة من الدواب.

والله عز وجل جعل رزق كل شيء له ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾، دابة أي هي تدب حتى الإنسان بهذا المعنى يدب بمعنى يمشي، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦)﴾ [هود: ٦]، ما من أحد في هذا الوجود إلا سبحانه عز وجل، هل من خالق غير الله يرزق؟ ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣)﴾ [فاطر: ٣]، هل يوجد أحد؟ لا يوجد أحد إلا الله عز وجل.

ولذلك هو سبحانه وتعالى برزقه هو القدير برزقه سبحانه وتعالى علمنا حكمته، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، فالله عز وجل إنما أنزل هذه المقادير في الوجود لأنه حكيم، ومن أعظم الحكمة أن يمنع الخلق من أن يكفروا ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)﴾ [الزخرف: ٣٣]، فلو أن الله عز وجل أعطى الناس كل ما يطلبون من المال لكفروا، ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

فالله عز وجل يقدر الأرزاق انظر تقدير عجيب في الرزق، الله عز وجل إذا أحب عبد منع عنه ما يفسده، ربما بعض الناس إذا أغناه كفر وبعض الناس إذا أفقره كفر وبعض الناس الخير له في أن يكون عنده الرزق لأنه يعطي.

كان قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه يقول: «اللهم إنك تعلم أني أحب المجد والمجد لا يكون إلا بالمال، اللهم ارزقني المال لأنفقه»، يحب أن يكون عنده المال لينفقه، وذلك إذا ذكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم وبعد الصحابة إذا ذكر الكرم كان من أعظم المنافسين في درجة الكرم قيس بن سعد بن عباد، من أكرم ما عرف، حتى هناك قصة ذكرت جلس ثلاث رجال وتذاكروا من أكرم الناس فقال بعضهم قيس بن سعد –كان رجلًا طوالًا عظيمًا– فاختبروه فوجده من أكرم الناس، أنه جاءه رجل وقال

له: أعطني، فنزل عن الدابة وما فيها فأعطاه إياها وقال له: خذ ما تشاء، فهذا الرجل الله يعطيه فالخير له الغنى.

وبعض الناس يبتليهم الله عز وجل بالغنى من أجل الابتلاء حتى يعلم، فيكون عابدًا ذاكرًا في فقره فإذا اغتنى خرج، عبد الملك بن مروان كان جالسًا في المسجد النبوي وهو يقرأ القرآن، جاءته الخلافة فقال: هذا آخر العهد بك وأغلق المصحف، مع أنه كان ذاكرًا ولكن نزلت درجة عبادته وقراءته وتبتله، خلاص الخلاف والملك والمال.

القصد: أن الرزق الذي نراه هذا الرزق العجيب الذي يعطيه الله عز وجل ويمنعه ويقبضه ويبسطه إنما هو لحكمةٍ عظيمة فدلت على حكمته وثم دلت على علمه سبحانه وتعالى، وشهدت على أنه واسعٌ عظيم ودلت على أنه سبحانه وتعالى حليم، أن في هذا الرزق حلم الله عز وجل، كيف نعرف أن الله هو الرزاق فدل على حلمه؟ أنه يعطيهم فلا يشكرونه، فهذا المال من الذي أعطاهم إياه؟ الله عز وجل، ولكن لا يشكرونه وينسونه، ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، هو بذكائه من الذي أعطاك هذا العلم؟!

وكثير من الناس عندهم العلوم وليس عندهم الأموال، الأقدار تمنعهم، ولو كان المال بالعلم لكان أغنى الناس هم العلماء مع أنهم أفقر الناس.

قلت للفقر أين أنت مقيم؟؟	قال لي: بين عمائم الفقهاء
إن بيني وبينهم لإخاءٌ	وعزيز علي قطع الإخاء

القصد من هذا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦)﴾ [هود: ٦]، فالله عز وجل أعطى العباد خلقهم ورزقهم وأبلغ في العطاء سبحانه وتعالى واليهود مع كل ما أعطاهم الله عز وجل قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، والله ثم والله لولا أنها آية ما جاز لنا أن نقول هذه الكلمة، وأعجب بها!! يعني لما أنا أمر على هذه الآية والله لولا أنها آية لتركتها، هذا الفجور منهم، وهذا العطاء الإلهي لهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]، الله أعطاهم الملك وأعطاهم النبوة وفضلهم ومع ذلك قالوا ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، لأنه لا يعطيهم بل وصفوه بالفقر لأنه قال ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١٨]، وإنما أراد تكريم ما يعطونه بأنه قرضٌ لهم، لأنه سأنميه كما ينمي أحدكم فلوه حتى يأتي يوم القيامة، الحبة الصغيرة حبة القمح حبة

التمر عندما تعطيها إلى الفقير الله ينميها حتى تأتي يوم القيامة كجبل أحد. فالله أراد ان يعطي هذه الصدقة كرامة فسماها ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، هم حملوها على الشر وهذه الصفة أولًا: توجب تعظيم الله عز وجل، هذه أن الله عز وجل هو الرزاق توجب تعظيمه.

ولذلك كلما نظرت إلى الأرزاق في الخلق تعجب أن الله عز وجل قدير يعطي، نحن نتعجب من القادر من البشر لكن ننسى أن الله هو الذي أعطاه.

فمثلًا: الآن لو نظرنا إلى أمريكا انظر إلى قواتها وانظر إلى صواريخها وانظر إلى القنابل فهذه النظرة إن لم تدلك على تعظيم الله كانت حجابًا وأشركت بالله، يعني عندما تخاف أنت من هذا دون أن تنظر إلى أن الله هو القدير وهو الذي أعطاهم فهم لا شيء، وهذا في قدرة الله عز وجل، قال صلى الله عليه وسلم: **(لو كانتِ الدُّنيا تعدلُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ما سقى كافرًا منها شربةَ ماءٍ)**، أي هذا العطاء الإلهي للكافر، فلو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما أعطاهم هذه القوات، انظر إلى أطنان الذهب التي عندهم، انظر إلى الرزق.

يقولون في أمريكا أن من أعظم أسباب السمنة هو بأنهم أرخص بلد في العالم بالأطعمة، ماذا يريدون الطعام كله عندهم، حتى أنهم يقولون هناك لا توجد عبارة لا يوجد «ما فيش ما فيش»، فهذا الرزق من الذي أعطاه، فإما أنك لا تنظر إلى يد الله التي أدارت أعطت ورزقت؛ فحينئذٍ يكون هذا حجابًا عن الله عز وجل، والله عز وجل أقام الأسباب والوجود حجابًا فجاء الأنبياء ليزيلوا هذا الحجاب ويعرفوك بالحق، ويعرفوك بمن هو الذي يدير هذا الكون من الذي يعطي ويمنع.

فأولًا: كلما نظرت إلى رزق الله عز وجل عظمته.

ثانيًا: كلما نظرت إلى رزق الله عز وجل حمدته.

هو الذي أعطى فأنت تحمده، من منا حلم أن يكون أكثر مما هو عليه؟ نحن حلمنا بأقل مما نحن عليه، فالله أعطاك البيت وأعطاك الزوجة وأعطاك الولد وأعطاك المال، فما الواجب عليك؟ الواجب عليك أن تشكره وأن تحمده في هذا النفس الذي أنت تنفسته، من الذي أحياك بعد ما أماتك؟ اليوم هذا اليوم من الذي أحياك بعد ما أماتك؟ هو الله عز وجل.

ولذلك من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: **(الحَمْدُ لِلَّهِ الذي أحْيَانَا بَعْدَ ما أمَاتَنَا)**، وقال صلى الله عليه وسلم: **(إنَّ اللَّهَ ليَرضى مِن العبدِ أن يأكُلَ الأَكلَةَ فيحمَدَهُ عليها ويشرَبَ الشَّربَةَ فيحمَدَهُ علَيها)**،

يعني إذا رزق هذا الرزق أن يحمده عليه، فعندما يرزق الله العبد وجب عليه أن يقول: الحمد لله الذي كساني هذا والحمد لله الذي أعطاني هذا؛ ما من رزقٍ في الوجود إلا منه سبحانه وتعالى فهذا يوجب الحمد.

وكذلك علمك بأن الله هو الرزاق تتوكل عليه، وخاصةً إذا علمت ان رزقك مقسوم ولا يتقدم ولا يتأخر ولا يقل ولا ينقص، قالت أم حبيبة رضي الله عنها ابنة أبي سفيان، زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: (اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ قالَ: فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: قدْ سَأَلْتِ اللَّهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجِّلَ شيئًا قَبْلَ حِلِّهِ، أَوْ يُؤَخِّرَ شيئًا عن حِلِّهِ، ولو كُنْتِ سَأَلْتِ اللَّهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِن عَذَابٍ في النَّارِ، أَوْ عَذَابٍ في القَبْرِ، كانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ).

وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢)﴾ [الذاريات: ٢٢]، ثم أقسم ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣)﴾ [الذاريات: ٢٣]، حتى الإعرابي لما سمع قال ما الذي أغضب الله حتى يقسم؟ لأن العرب يعلمون أن القسم لا يكون إلا بالإنكار، أو عند وقوع الشك.

العربية تترقى، فأنا أخبرك، يقول: فلانٌ قادم علمت أنك أنت تسلم لا يقع منك المعارضة، أقول: فلان قادم، لكن إذا حصل شيء من المعارضة أقول لك: إن فلانًا قادم، التأكيد بسبب وجود المعارض، فإذا زادت المعارضة اضطررت لزيادة التأكيد: إن فلانًا لقادم، فإذا وقعت المعارضة الأشد: والله إن فلانًا لقادم، فلماذا يكون التأكيد بسبب المعارضة؟

فقال جل في علاه: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾، إذًا هناك معارض، واحد يقول كيف في السماء الرزق والسماء؟ نعم، الرزق في السماء؛ لأن ما يحدث في الأرض إنما هو استجابة ما في الأرض من أقدار لكلمات الله في السماء، كيف يحدث ما في الأرض؟ وكيف يقع ما في الأرض؟ ينزل المطر، يحيا فلان، يرزق فلان بالولد، بما يحصل هذا كله؟ بكلمات الله عز وجل الذي في السماء كن

فعندما الرجل في الحديث سمع صوتًا –كان يمشي– فسمع صوتًا في السماء يقول لغيمة فوقه: اسقي حديقة فلان، بما مشت؟ بأوامر الملك في السماء، فمن الذي أجرى هذا السحاب؟ الملك، ومن الذي أمر الملك؟ الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣)﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣]، فلم يقل إنه الحق، قال: ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ -على ما سبق لزيادة التأكيد-، وهذا ما لا ينكره أحد، فلا أحد ينكر النطق، هذا يوجب عليك أن تجمل في الطلب.

أجملوا في الطلب، لا تضيع أوقاتك كثيرًا في المال، ويلحقك رزقك كما يلحقك أجلك، أيوجد أحد يهرب من أجله؟ فالزمن يمشي، ما معنى الزمن؟ الآن قبل الساعة كانت أعمارنا بهذه الساعة الآن قل هذا العمر، البارحة ما معنى البارحة؟ يعني ذهب يومٌ من أعمارنا وكذلك الرزق، فأنت الآن ترزق، عينك تتحرك نفس يتلجلج في صدرك هذا رزق، فرزقك يلحقك.

وكذلك المال، فأصحاب الأموال لو قورنت أقدارهم ومقادير قوتهم بما معهم من مال ما كان شيء، لحظة تغيب عن الرجل شهر شهرين ثلاث سنة فإذا هو قد بنى بيتًا وصار له سيارة، ماذا قدم من قدرات ليعادل هذا؟ وذلك ثقتك ويقينك بأن الرزق في السماء وأن الرزق مقسوم مقدر هذا يرزقك التوكل، التوكل على الله، والتوكل أعظم أبواب الرزق، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، ما معنى حسبه؟ كافيه وأعظم كفاية هو الرزق، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)﴾ [الطلاق: ٣].

يقول ابن القيم رحمه الله: «هذه الخواتم في الآيات -كما نقول دائمًا- للتعديل والتكميل»، هذه قاعدة «التعديل والتكميل»، قال واحد يتوكل لكن يأتيه الرزق، نقول له: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾، لا يعني أنك إذا توكلت يأتيك الآن، كالذي يقول لك: اعمل فأعطيك المال، لا يعني أنه يعطيك المال الآن ربما يعطيك غدًا، هو حكيم هو الذي يديرك، لا أنت الذي تدير نفسك.

وشرط التوكل على الله ألا تنظر، فإذا أردت نفسك وكلت إليها، أذا أنت أردت تقول: أنا لا أريد أدير، أنا أريد مليون، ليس لك، أنت لك الكفاية، وذلك **(اللهم أجعل رزق آل محمدٍ كفافا)**، ما هو أعظم الرزق؟ قال صلى الله عليه وسلم: **(يقولُ ابنُ آدَمَ: مالي وإنَّما لكَ مِن مالِك ما أكَلْتَ فأفنَيْتَ أو لبِسْتَ فأبلَيْتَ أو تصدَّقْتَ فأمضَيْتَ)**، والباقي محسوب عليك، محاسب عليه يوم القيامة، ولذلك أعظم الناس الأنبياء.

تقول عائشة رضي الله عنها -إلا كانت هذه حصيرة في البيت- قالت: **(قد اسودت من طول القيام)**، هؤلاء أعظم الناس عقلًا وأكرم الناس منزلةً عند الله، ولو أراد هذا النبي أن تسير جبال مكة وراه ذهبًا لسارت، ولكنه رضي أن يكون عبدًا رسولًا، يجوع يومًا فيسأل الله، ويشبع يومًا فيحمد الله، هذه

المقامات، الواحد ما يطمع، إذا سلم نفسه لله يجب أن يخرج ما في قلبه من هوى في ملك الأشياء، وأعظم الرزق في هذا الباب هو ما يرزقه ربنا سبحانه وتعالى، من هداية وإيمان وعلم وتقوى ومعاني في القلب، في هذا الباب أعظم.

والناس ينفقون أموالهم، علماؤنا كلهم كانوا ينفقون أموالهم وأوقاتهم وخير ما اقتنى المرء هو الوقت، ما هو أعظم ما عندك؟ كل شيء يشترى بالوقت؟ إذن الوقت هو أغلى شيء، إذا أردت المال بالوقت، إذا أردت الزوجة بالوقت، إذا أردت الملك بالوقت، فالوقت هو معيار هذه الحياة قيمته، فأعظم ما ينفق فيه الوقت هو ما حصّل لك الجنة هي أعظم الرزق، ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا﴾ [غافر: ٤٠]، رزقهم فيها، لأن رزقها دائم لا ينقطع، كل رزقٍ في الدنيا نهايته إلى الذهاب، كل رزقٍ في الدنيا نهايته إلى الموت، يتركه وراءه مهما كان.

فسليمان عليه السلام الملك الذي الله عز وجل أخضع له الجن، وصار له من الْمُلك ما لا يكون لأحد من بعده أبدًا وصار يفهم منطق الطير، وصار يسمع كلام النملة، الله أكبر، الله أكبر، ومع ذلك أين هو الآن؟ انتهى، إذن ما هو أعظم الرزق؟ هو من ينفق وقته من أجل أن يأتي يوم القيامة من أهل الجنة، لا تنظر لهذه الدنيا كلها:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

كل نعيم لا محالة زائل إلا نعيم الجنة، لكن كل نعيم محالة زائل، هو مسكين هذا -لبيد بن ربيعة- لا يعرف الجنة وإلا لاستثنى إلا نعيم الجنة.

فأفضل ما تحصله هو الثمن في قلبك الذي لا يزول، هذا الذي في قلبك من المعاني يأتي يوم القيامة فتأخذ عليه ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠)﴾ [العاديات: ١٠]، يؤخذ ما في قلبك ويوضع في الميزان، ويوم القيامة لو أتيت بملء الأرض ذهبًا هل تستطيع أن تحصل حسنة؟ هل تستطيع أن تدفع لحظة من النار؟ فقط الذي يدفع عنك الأذى يوم القيامة ويحصّل لك النعيم في الجنة هو الله في قلبك، العلم يرفعك الإيمان يرفع، التقوى ترفعك، الزهد انظر ما هذه الألفاظ التي ذكرناها؟ الإيمان، التقوى العلم، الزهد، هل العلم هو هذه الكتب؟ ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩)﴾ [العنكبوت: ٤٩].

العلم:

فـلـيـسَ عـلـمًـا مـا حـوى الـقِـمَـطْـرُ   مـا الـعـلـمُ إلاَّ مـا حـواه الصـــدرُ

أحد العلماء يقول: خرج علينا اللصوص -كان يكتب- خرج علينا اللصوص فأخذوا مخلاته التي فيها الكتب، ذهب علمه، فعلم أن العلم ما في الصدر لا يسرق.

تذهب إلى السجن معك القرآن، لو منعوك معك القرآن، قالوا: لا نريد ولا ورقة معك، هل يستطيعوا أن يبطلوا ما في قلبك من علوم، أيوجد آلة تسحب العلوم من عقلك من قلبك؟!! أيوجد آلة تسحب التقوى؟!! كل ما يجدوه معك يأخذونه لكن لا يأخذون ما في القلب، فهذه التي تحصّل يوم القيامة، الزاهد عظيم عند الله، العالم عظيم عند الله، الذي في قلبه التقوى عظيم عند الله، الذي في قلبه الإيمان الذي في قلبه الخوف، الذي في قلبه حب المسلمين.

فانظر إلى هذه الأشياء في الدنيا قيمتها بقيمة ما ارتبطت في القلب، وخستها بمقدار خسة القلب، المال بخسة القلب يكون عذابًا على صاحبه، والمال بتقوى القلب يكون خيرًا وبركة، الوقت بخسة القلب يكون خسيسًا يمضيه في خسة الأمور، والوقت بعِظم القلب يصرف في المعالي والمكارم.

وهذه ثقتك بأن الله هو الرزاق فأول شيء تعظمه أن تحمده أن تتوكل عليه، هذا التوكل يصنع الدعاء «حتى إن الصحابة كانوا ليسألونا الله الملح»، يسألون كل شيء، ولا يجوز القياس في حق الله لا يجوز القياس، أعظم مفاسد الوجود هو قياس ربنا على الموجود على المخلوق، وهذا الذي يسمونه قياس الغائب على الحاضر الغائب هو الله، الحاضر هو الخلق، أساس الضلال هو أن تقيس الغائب وهو ربنا سبحانه وتعالى وهو أعظم الغيب على المخلوق.

فالعبد في الدنيا إذا حضر عند العظماء لا يسأله القليل يسأله الكثير، جاء رجل إلى الإمام أحمد رحمه الله قال: جئتك بحويجة، قال له: «أبحث لها عن رجيل»، تأتي الملك تطلب منه مثلًا كلبًا، يقول لك: أطلب ما تشاء، فأنت تطاب مثلًا خمس دنانير، هو يضربك، فهذا لا يجوز قياسه في حق الله، هذا يجوز في حق البشر أنه كلما علت مرتبة المسئول، عظم السؤال، في حق الله تطلب كل شيء، لو أردت ملحًا تطلبه من الله، أي شيء، ما الذي تريده؟ فعليك ألا تستحي من الله أن تسأله والله يحب، والعبد من القياس، فالعبد إذا أكثرت السؤال عليه غضب، والله إذا أبطلت السؤال غضب، وكلما أكثرت السؤال أحبك، لأن كثرة السؤال يدل على التصاقك به، تعوذ به دائمًا أنت ملتصق به.

فالطفل الصغير كم مرة يسأل أمه؟ فإذا كبر استقل قلت الحاجة، أما الطفل إذا أراد أن يأكل، يريد أن يشرب، إذا تعب يسأل أمه، كل شيء يسأل أمه لأنه ملتصق بها، وهذا هو شعور الضعيف مع القوي،

فإذا استقل بالقوة ترك السؤال، والله يحب المعنى الأول، أنك تأتي إليه ضعيفًا، تأتي إليه محتاجًا، الله يحب الضعف، أساس التعبد عند العابدين هو شعور العبد بالفقر، قال: «أخص صفة للمخلوق أنه فقير»، لا شك أنه فقير.

ففقرك أمام الله عز وجل في كل حاجة، وعليك ألا تشعر لا أحتاج إليه، هذه أنا أستطيع أن أقوم بها بنفسي، وإذا خل الله بينك وبين شيء، والله لو أردت جرعة ماء ما حصلتها، ولو أردت نفسًا لمنعك إياه، النفس الذي هو مبذول لكل الخلق، ومن هنا يأتي معنى التوفيق، أنه إذا جاء من يد الله أنت تفرح، والله أنا أقول دائمًا إن فرح العبد أن الله استجاب إليه أشد من فرحه في حصول الشيء.

ومثال ذلك ولله المثل الأعلى، ماذا تفيد الشهادة هذه لو أن ملكًا أفادك أنا أحبك فأعطاك الشهادة أنا أحبك، تؤكل أم تشرب؟ لا، لكنها تعطي معنى الصلة، فأنت تحبها لهذا المعنى، وحين يستجيب الله لك، فهل أنت تنظر إلى العطاء أم تنظر إلى أن الله عز وجل قد سمعك، وأن الله عز وجل قد أجاب سؤالك؟ هذا فرح عظيم.

لذلك هذا يوجب التوكل يوجب الحب لله عز وجل، أن الله عز وجل أعطاك، وهذا يوجب كذلك العبادة الخالصة أن تسأله في كل شيء، ما أجمل أن يمشي العبد وهو يسأل الله عز وجل في كل لحظة أن يسأله ويرفع يديه ويستغيث به، وأن يديم ذكره من أجل أن يعطيه ما يشاء، والله عز وجل يكفيه خلاص يكفيه، تفتح له الأبواب، تفتح له السدود مع البلاء، من أجل أن لا يبقى مغترًا، الله عز وجل يقي العبد، يقول له: لا تأتي هذا، يمنعه من الإتيان بشيء حتى لا يصيبه من الغرور وأن يصيبه من شعور الغنى فلا يبقى حتى يأتي يوم القيامة عند الله عبدًا تام العبودية، قد أدام ذكر الله وأدام سؤاله وتوكل عليه.

وهذه صفة الرزاق فابتغوا عند الله الرزق، ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]، هل من خالق؟ فلما كان هو الرزاق من موجبات تأليه وتوحيده، كما أنه هو الذي خلقك فيجب أن تكون عبدًا له، وهو الذي رزقك فيجب أن تكون عبدًا له، فإذا رزقك غير اذهب، ولذلك كانوا يقولون: «من أراد أن يخرج من عبودية الله فليخرج من رزقه»، ما دام أنك تأكل من طعامه وتأكل من رزقه، فلابد أن تشكره، فإذا أردت ألا تعبده لا تأكل من رزقه، هل يستطيع العبد؟ فقره لله عز وجل فقرٌ حقيقي دائم، ذاتي والله عز وجل هو الغني.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا من فضله وأعظم الرزق –أكرر لأهميته– أعظم الرزق أن يرزق العبد الإيمان، فكثير من الناس أعطيت لهم الأموال وأعطي لهم الملك وحرموا الإيمان، فحرموا كل فضل، فأعظم

الرزق أن يرزق العبد الهداية، وأن يرزق العبد الاستقامة هي خير كرامة، ومعنى الكرامة هو الرزق، أن الله أكرمه من الكرم، أكرمه فخير الكرامة الاستقامة، أن يستقيم على أمر الله.

وإذا الله وفقك للدعاء -كما كان يقول أبو بكر- إذا الله وفقك للدعاء إذن هو سيستجيب لك، حين توفق للدعاء يعني أن الله قد استجاب، حين توفق للذكر دلالة أن الله قد أحبك، حين توفق للصلاة دلالة أن الله يريد بك الخير، فلذلك أعظم الرزق هو رزق الدين، أن يرزق الله العبد الدين، أن يرزقه ميراث النبوة، قال صلى الله عليه وسلم: **(وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا ، ورَّثُوا العِلمَ فمن أخذَه أخذ بحظٍّ وافرٍ)**، لم يورثوا رزق، ولم يورث درهم ولا دينار ولكن ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ الحظ الوافر نسأل الله أن يرحمنا برحمته وأن يغفر لنا ذنوبنا، وأن يوفقنا إلى طاعته بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

السائل: هل صلة الأرحام تطيل العمر؟

الشيخ: نعم، قال صلى الله عليه وسلم: **(مَن سَرَّهُ أنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، أوْ يُنْسَأَ له في أثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ)**، وبعضهم قال: **(يُنْسَأَ له في أثَرِهِ)** بمعنى أن أجله محدود، ولكن آثار هذا الأجل يزيد، بعضهم قال هكذا، ولكن الصواب أن العمر يزيد كما أن الرزق يزيد، لو سأل أحد هل الله يزيد الرزق؟ نعم، ويزيد العمر، ما الفرق بين العمر والرزق؟ كلاهما مقدر، ولكنه كله بأجل، وكله بعلم الله عز وجل ولا يخرج عن علم الله عز وجل.

فيكون العبد بغير هذا السبيل رزقه مقدر بكذا، لنقل بألف دينار فإذا اجتهد في الدعاء أو اجتهد في طلب الرزق، فحينئذٍ يزيد رزقه، فنقول: زاد الله عز وجل رزقه، والأولى بقدر الله عز وجل، والثانية بقدر الله عز وجل، والأولى بعلم الله عز وجل، والثانية بعلم الله عز وجل، كذلك يكون عمره في هذه المدة، فإذا فعل ما كان سببًا لإطالة العمر زاد عمره، كما أنه زاد رزقه، لا فرق ولكن كله بماذا؟ بعلم الله عز وجل، وكله في أجل الله عز وجل، لا يخرج عن علم الله عز وجل، كما أن الرزق هو بعلم الله عز وجل ومقدر كذلك العمر بعلم الله عز وجل ومقدر، ويزيد العمر.

(مَن سَرَّهُ أنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، أوْ يُنْسَأَ له في أثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ)، انظر جمعها **(يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، أوْ يُنْسَأَ له في أثَرِهِ)**، نحن نرى في الحقيقة في واقع الأمر أن من أعظم أسباب الرزق هو صلة الرحم، تجد أن الذي يصل رحمه؛ الله يبذل له العطاء، ويزيد رزقه عن غيره، كما أن صلة الرحم هي كرم، والكرم

هو موجب الموجبات، وسبب من أسباب الرزق فكذلك يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله، أو يؤجل له في عمره، فالعمر يزيد بهذا المعنى.

كما أننا نقول إن الدعاء يرد القضاء، هو القضاء نازل، لكن يرده، ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (٩٨)﴾ [يونس: ٩٨]، كشف الله عنهم العذاب، وهكذا ينزل العذاب فيأتي الدعاء فيرده، وكله لجريان الأسباب في هذا الوجود، حتى يجري الوجود بأسبابه، كما أنه لم تأتي إلا بالزواج، مع إنه مقدر أن يكون، لكن الله لا يجري هذا الوجود إلا بأسباب.

وقال شيخ الإسلام: «الوجود في الدنيا والآخرة لا يقوم إلا بأسباب»، حتى دخول الجنة بأسباب، فكل شيء بسبب؛ فزيادة الرزق بسبب، زيادة العمر بسبب، وكله بأقداره، وما قدر سيكون، **(قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، أفلا نَتَّكِلُ علَى كِتابِنا، ونَدَعُ العَمَلَ؟ قالَ: اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له، أمَّا مَن كانَ مِن أهْلِ السَّعادَةِ فيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أهْلِ السَّعادَةِ، وأَمَّا مَن كانَ مِن أهْلِ الشَّقاءِ فيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أهْلِ الشَّقاوَةِ)**، عمل، أعمل حتى يكون هذا العمل هو السبب الذي قدره الله ليكون الرزق ويكون العمر ويكون العطاء ويكون الإيمان ويكون الخير وهكذا.

السائل: إذا الإنسان دعا أن الله يزيد رزقه هل يجوز ذلك؟

الشيخ: نعم هو يجوز في هذا ولكن النبي صلى الله عليه وسلم نبه إلى ما هو الأفضل، يعني اللهم أطل عمره وأحسن عمله، هذا يجوز، لكن بما ينشغل المرء وقد دعا ينشغل بما هو خير، حتى الذي قاله صلى الله عليه وسلم هو مقدر ولا غير مقدر، قال صلى الله عليه وسلم: **(ولكن لو سألت الله الجنة واستعذت من النار)**، وقال صلى الله عليه وسلم: **(إنَّ اللهَ قبض قبضةً فقال: هذه إلى الجنةِ برحمتي، وقبض قبضةً فقال: هذه إلى النارِ ولا أُبالي)**، فكل شيء مقدر، لكن ما هو الأفضل؟ هذه دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لما هو الأفضل، أما يدعو المرء بالرزق مع إنه مقسوم، ويدعو الله عز وجل الأجل وهو مقسوم فهذا لا بأس به، لا حرج فيه.

كما أنه يدعو الله كما دعا زكريا، ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾ [الأنبياء: ٨٩]، مع أنه مقدر أن يكون له الولد، ولكن الله جعل الولد بسبب هذا الدعاء، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾ [الأنبياء: ٩٠].

السائل: شيخنا انقطاع الرزق هل يكون هناك سبب من الأسباب؟

الشيخ: بلا شك ما من شيءٍ في الوجود إلا بسبب، قد نعلمه وقد يخفى علينا، الأسباب كثيرة، فمثلًا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ [البقرة: ١٥٥]، هنا نقطة في قضية الرزق، كان ينبغي أن نمر عليها، وهو أن بعض الناس يظنون أن كثرة الرزق هو دلالة رضى الله عز وجل، حتى أن ابن القيم ذكر في بعض كتبه أن البعض كان يخاف كثرة العبادة لأن لا ينقطع رزقه، لأن كثرة العبادة توجب البلاء، أنا لست أهلًا للبلاء فيقلل العبادة لكي لا يقع، وهذا من الجهل، فالمرء مبتلى بهذا وهذا مبتلى، فقد يقع البلاء بسبب ذنب وقد يقع البلاء بسبب حب الله عز وجل في منعه ليلتقي.

قال ابن تيمية رحمه الله: «فإنه إذا وقعت المصيبة أحب بعض العباد دوامها لكثرة ما يستغيث بالله فيشعر من المعاني ما هي أفضل من الحاجة التي سألها»، يعني هو بالدعاء يشعر بمعاني قلبية أحب من الذي طلبه، فالوسيلة التي يحصل بها الدنيا تصبح هي المقصودة لديه وليست الوسيلة، فالعبد قد يقع منه الذنب فيعاقب، قد تقع منه الغفلة فيعاقب، ولكن قد يصل إلى أعلى درجات الإيمان فيبتلى ولا يعاقب.

قال صلى الله عليه وسلم: **(أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثم الذين يلونَهم، ثم الذين يلونَهم)**، لماذا هم أشد الناس بلاءً؟ لأنهم يقومون بالعزائم، والعزائم توجب البلاء، فمثل نبينا صلى الله عليه وسلم يقول الحق فيبتلى، يقوم الليل فيبتلى، ويعلم الناس فيبتلى، النبي صلى الله عليه وسلم ليس هناك عنده وقت ليذهب ليشتغل من أجل أن يطعم فيبتلى بالفقر، هذا معنى أشد الناس بلاءً للأسباب التي يقومون بها، كلما اقترب المرء من درجة النبوة كلما شغلته الطاعات كلما شغلته المكارم، كلما أتى بالعزائم فالنتيجة هو البلاء.

فالصحابة مع عظمتهم يذهبون فيشتغلون، لكن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجد وقتًا، يعلم الناس يسأله هذا ويأتيه هذا، فحينئذٍ لا يستطيع أن يأتي بالمال فيكون فقيرًا، وكذلك يحصل من الأمور الخاصة بينه وبين الله على معنى آخر غير هذا، كما بدأ عنده شكوى الموت عليه الصلاة والسلام فقالت عائشة رضي الله عنها: وارأساه، قال صلى الله عليه وسلم: **(بل أنا وارأساه، إني أوعك مثل رجلين منكم)**، يعني عندما كان يصيبه الصداع في رأسه يصيبه أكثر من رجلين منا، المرء إذا أصيب بالصداع منا، يزيد فيبدأ بالصراخ والشكوى إني أوعك، **(إني أوعك مثل رجلين منكم)**.

ويقول صلى الله عليه وسلم عند الموت: **(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ)** لشدته، لماذا؟ لأن من المقامات ما لا يبلغها العبد إلا بهذا الفعل، هناك من الذنوب ما لا يكفرها إلا البلاء، وهناك من المقامات

لو صليت طيلة الليل وصمت النهار كله ما بلغت درجةً من درجات البلاء، كقوله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ في الجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ، أعَدَّها اللَّهُ لِلْمُجاهِدِينَ في سَبيلِ اللَّهِ، ما بيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كما بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ)، هذه لمن؟ للمجاهدين، فلا بد من أن نجاهد، لو أن رجلًا ملك الدنيا فأنفقها لا يبلغ هذه الدرجة، مئة درجة للمجاهدين في سبيل الله، هذه للمجاهدين، فيجاهد فيصاب.

وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا ماتَ ولدٌ لعبدٍ قال اللهُ عزَّ وجلَّ لملائكتِه: قبضتم ولدَ عبدي، فيقولون: نعم، فيقولُ: قبضتم ثمرةَ فؤادِه، فيقولون: نعم، فيقولُ: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمَدك واسترجع، فيقولُ: ابنُوا لعبدي بيتًا في الجنَّةِ وسمُّوه بيتَ الحمدِ)، هذا لا يبلغه أحد، تصدق لا تبلغ هذا، قال: (ابنُوا لعبدي بيتًا في الجنَّةِ وسمُّوه بيتَ الحمدِ)، في بيت في الجنة اسمه بيت الحمد، هناك مقام في الجنة اسمه الشهداء لا يبلغه إلا الشهيد، فهناك مقامات لا تصلها إلا بهذه الطريقة، لا تصلها إلا بهذا الباب، فحينئذٍ يعطيها الله عز وجل رغم أنف العبد لأنها أبواب بلاء لا يحبها الناس، لا يأتونها بأراداتهم مهما بلغ إيمانهم لا يحبونها، لا يوجد أحد يحب البلاء، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، فيحصل من العطاء الإلهي من البلاء ما يبلغ العبد به ما لا يبلغه بغيره، لا يمكن.

السائل: شيخنا بما أن الأرزاق مقسومة وقلت لا دخل للعلم بمعنى أن هذا الإنسان يكون الله رزقه مال كثير وهذا قليل فهل الأسباب لها دخل بالموضوع أيضًا؟

الشيخ: بلا شك، لا يكون شيء إلا بسبب ولكن قد يكون السبب من فعله، وقد يكون السبب من غيره، الآن رجل ولد لرجلٍ غني مات أبوه ورث المال هذا سبب، وهذا ليس سبب من فعله، ومن هنا قال أهل العلم: «الحكم حكمان حكم تكليفي وحكم وضعي»، الحكم الوضعي منه ما هو بفعل العبد ومنه ما لا يأتي بفعل العبد، الحكم الوضعي مثل الفجر ليس للعبد فيه دخل، لكن تحصيل نصاب الزكاة، حكم وضعي نصاب الزكاة لكن من حصله العبد، وهكذا الأسباب قد تكون منه بفعله وجهده وقد تكون من عطاء الله، لكنها بسبب، لا يحصل شيء بلا سبب، لو أن رجلًا جاء وأعطى إنسان ألف دينار هذا سبب، هذا هو ليس من فعله، لكن إنسان اشتغل عند آخر وأعطاه أجرته ألف دينار بفعله، ولكن كل شيءٍ بسببه، فأنت الآن بالنسبة للدعاء قد تدعو لنفسك، وقد يدعو غيرك لك.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الرابع والثلاثون: الفتاح

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغّر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

فقر الوجود لله عز وجل هو دليل صناعته ودليل حاجته، والله سبحانه وتعالى وجوده هو دليل وجود فقر الأشياء، الناس دائمًا يستخدمون المخلوق دليلًا على وجود الخالق، ويستخدمون المخلوق في حكمة وجوده على حكمة الخالق، ويستدلون على إبداع هذا الموجود المخلوق، على أن الله سبحانه وتعالى هو المبدع، وأنه البديع جل في علاه.

والحق أن المرء لو تفكر قليلًا لوجد أن هذا الوجود هو أشبه بالخيال؛ لأنه زائل، كالصور الأشياء التي نراها أشبه بالصور هي حقائق لكنها في وجودها في تكونها خرجت من العدم، وتذهب إلى الفناء والعدم، الله يفنيها فهي أشبه بالصورة، فإثبات وجودها هو الذي يحتاج إلى دليل، لنثبت وجودها نحتاج إلى دليل، والله سبحانه وتعالى هو الدليل، الله سبحانه وتعالى لولا وجوده لما وجد شيء لبقي كل شيء في عالم العدم والإغلاق، لكان كل شيء مغلقًا علينا سواء كان كونه مخلوقًا أن يظهر فيبين من الأشياء أو من المعاني التي تطرأ على الأذهان، الناس ربما لا يتفكرون فيها كثيرًا باعتبارها أعظم من الأشياء.

الله عز وجل كرم المعاني في أصل وجودها، أن أوجدها قبل أن يوجد الأشياء، قال سبحانه وتعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، فحصل لآدم العلم بالأسماء، قبل أن يعلم الأشياء، وبعد ذلك الله سبحانه وتعالى علم آدم كما يذكر في كتب التواريخ، ذكر هذا الإمام الطبري رحمه الله في تاريخه وغيره، أن الله علمه النار كيف يستخدم النار، علمه كيف يصنع من الحديد الْمُديَة من أجل أن يقتل بها ومن أجل أن يذبح بها ومن أجل أن يأكل ومن أجل أن يستخدم الأوبار والأشعار من أجل غطائه ولباسه.

فالقصد من هذا: أن المعاني هي التي ترقى أولًا، والمرء يبدأ صغيرًا بالنظر إلى الأشياء ثم يرتقي بأن يفكر بالمعاني، ولذلك المرء يمدح بكونه حكيمًا، ما معنى الحكمة؟ الحكمة هي إجراء العقل على أعظم ما خُلق له، وما خُلق له هي الحكمة أي التي ينطق بها، أو التي يعمل بها بيده، في يده، كأن يكون نجارًا هذه من الحكمة أن يصنع من الأشياء هذه الأدوات، وأعظم الحكمة هو التي ينطق بها بلسانه.

والناس لا ينظرون إلى المعاني، الله عز وجل لولا وجوده جل في علاه، لولا هذا الوجود الإلهي العظيم لما وجدت الأشياء لبقيت الأشياء في عالم العدم، فوجوده هو دليل على وجودها، ولولا وجوده سبحانه وتعالى أنه الحق، لما بان حقٌ في الوجود، لبقي مخفيًا ومستورًا هذا الحق، ولولا وجوده أنه سبحانه وتعالى الحكيم لما ظهرت الحكمة في الوجود، هذه الحكمة في الوجود التي نراها في الخلق، في الناس، في الحياة، في الموت، في تتابع الأجيال، هذه لولا حكمته ما بانت هذه الحكمة، ما بانت ولا ظهرت.

ومن هنا فكون اسمه سبحانه وتعالى الذي نحن نتكلم عنه في هذا اليوم أنه الفتاح معنى ذلك أنه أبان كل شيء، أنه أبانه أظهره، لأن الفتح هو ضد الإغلاق، والإغلاق هو عدم، سواء كان موجودًا فلا ينتفع به الناس أو غير موجود، الأصل هو أن تفتح، من أجل أن يحصل الحضور لولا الفتح ما حصل الحضور، لولا فتح الباب ما دخلت أنت هنا، لولا فتح الخزائن لما ظهرت الأموال وانتفع بها الناس، لولا فتح المعاني في الأذهان لبقيت المعاني غريبة بعيدة عن العقول، ولكن يفتح الله على العقل، فتظهر المعاني والحكم.

لولا نصر الله عز وجل للمؤمنين، لما بان الحق لبقي الحق مختلطًا، لولا إعطاء الحق دليل القوة لبقي مختلطًا الحق بالباطل، لا يعرف الناس ما الحق وما الباطل، لكن أن يفتح الله وجل أدلة قوة الحق فتظهر هذه الحقائق، يعرفها الناس، لولا أن الله أنزل نصره على المؤمنين لما كان لهم فتح، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ [الفتح: ١]، أظهره أبانه.

فالله سبحانه وتعالى جل في علاه هو دليل الحق، لأنه يظهر الحق، لأنه يبين هذا الحق، أولًا أبان الوجود، هذا الوجود كيف عرفنا أنه حق؟ بإخبار الله لنا، -انتبهوا لهذه النقطة- كل ما عندنا يستطيع الناس أن يقولوا فيه كل شيء، لو لما أظهر الله من الحق.

مثلًا: تعالوا هل الإنسان مسير أم مخير؟ يستطيع الناس أن يقولوا أي شيء، فلا يظهر فيها أي حق ولا باطل، لو جاء رجل وقال: ما الذي يدريني أنني أنا لما تحركت الآن، أن هناك قوة هي التي حركتني ولست أنا، ما الذي يستطيع أن يدفع هذه الفرية أو هذه التهمة، أو هذه المقالة، لأن قد لا أكون أنا، لو جاء رجل وقال هذه المقالة: أن كل ما يظهر في الوجود هي صور وليست حقائق، هناك من قالها أنا لا أتكلم عن خيالات، هناك من قال هذا الوجود خيالات ليس له وجود.

مثلًا: الشر ما هو الشر؟ هناك ناس يقولون: الشر هو مجرد وهم لا وجود للشر، وبعضهم يقول: الخير وهم لا وجود للخير، هذا الذي نراه في الوجود هذا الألم وهم، الألم الذي يحصل لدينا في أبداننا وهم، بعض الناس يقول هذا، فما الذي يستطيع أن يدفع هذه العقائد وهذه المقالات، ما الذي يبينها؟ ما الذي

يفتح العلم للناس ليعرفوا حقائق وجودهم وأن الأشياء حقائق وليست وهمًا؟ هذه ما الذي يدرك أنها صور؟ ما الذي يريدك إنك لما قمت أنت لم تقم؟ ما الذي يدرك؟

لولا أن الله عز وجل قال لكان كل شيء مجرد وهم، أنت وجودك وهم، ما الذي يريدك أنك حقيقة أنت؟ ما الذي يمنع أن نكون نحن الآن في هذه الجلسة أن نكون في حلم؟ ما الذي يمنع أننا نعيش الآن حلمًا لا حقيقة له، وأننا نعيش فقط صور مجرد أفلام صور؟ ما الذي يثبت حقائق الوجود؟ الذي يثبت حقائق الوجود أن الله جل في علاه قال وأن وجوده أثبت وجود الأشياء وإلا فكل شيءٍ يستطيع الناس أن يجعلوه وهمًا.

وهنا الرحمة الإلهية والعظمة الإلهية والكرم الإلهي أنه لم يخفي هذه الحقائق بل فتحها للناس وأظهرها، ولذلك فهو الفتاح، وأعظم فتح في الوجود هو أن ينصر الله الحق، لأن الحق ليس فيه أي عوامل القوة دائمًا ليس فيه ذاتية إلا أنه حق فقط، وأما العوامل الأخرى التي تكون في الوجود من أدلة قوة شيءٍ ما فالحق عارٍ عنها، فقوة الحق فقط في كونه أنه هو الحق.

تعالوا إلى نصر الله للأنبياء، إلى قصص القرآن في نصر الله للأنبياء، في طيلة عمرهم في صراعات الحق مع الباطل، في غير كونه حق وكون هذا الباطل من الباطل، إذا حصل الصراع الذي يغلب قبل نزول التأييد الإلهي النهائي هو الباطل، لأنه يملك العوامل الخارجية للنصر، يكون معه الملك ويكون معه المال ومعه السلطان ويكون معه الجنود، يكون معه الأكثرية من الناس، والحق يكون معه الفقراء المساكين الضعفاء، وهكذا يبدو أن الباطل هو الذي انتصر ونحن فجأة نرى أن الله يفتح ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]، ماذا تستفتحوا؟ يعني تطلبون بيان الحق من الباطل، يقول أنتم طلبتم، ماذا قالوا؟ اللهم أنصر أولى الطائفتين بالحق وأوصلنا للرحم، طلبوا بين لنا، ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾: يعني طلبتم أن يبين لكم الحق من الباطل، قال الله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ أبنتها لكم، ما هو الفتح؟ بالنسبة إليهم –هكذا يزعمون– أنه كان الحق مخفيًا، وكان الباطل مخفيًا لا يعرفون، فأظهره بالنصر.

ولذلك نصر الله للأنبياء هو أعظم دليلٍ خارجي على أن هذا هو الحق خارجي، وأما داخلي فالحق يملك دليله في نفسه، الحق يملك دليله في نفسه.

من هنا أعظم الحق لم تذكر اسم الله عز وجل سواء كان بالإفراد أو بالجمع لم يذكر إلا في هذا الموطن، مع إنه ذكرت كلمة الفتح في أبواب الحياة كلها في القرآن في فتح الرزق، الرزق كان مخفيًا، ففتح الله خزائنه،

﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾، بعض الناس قال: مفاتحه يعني المفتاح، لا، المفاتيح هي الخزائن، إن مفاتحه أي خزائنه هي التي تفتح فتبين، هناك الله عز وجل فتح أبواب الرزق والعطاء لهذا الخلق؟

فتح أول شيء وأعظم شيء فتح أنه أوجده، كان الإنسان في عدم، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان: ١]، أنت لم تكن شيئًا، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: ٢٨]، فسمى الله عدم الوجود موتًا ثم فتح الله هذه الخزائن فأوجد الخلق، ثم فتح الخزائن فأعطى الرزق، ثم فتح المعاني فأوجد العلم، ثم فتح بين الحق والباطل فأظهر الحق وصار الحق ظاهرًا بينًا لا يخفى على أحد، وهذا أعظم الفتح.

وما خلق الوجود ولا الرزق ولا العلم إلا من أجل أن يبين الحق من الباطل، كل ما خلق في الوجود من أجل أن ينتصر الحق دائمًا في الدنيا وفي الآخرة.

فلذلك هذا الاسم العظيم ورد في أجل معانيه، ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦)﴾ [سبأ: ٢٦]، يجمع بيننا ثم يفتح بيننا هذا في يوم القيامة، ثم يفتح بيننا بالحق، ففي الدنيا مختلط الفقير فقير والغني غني والكافر ربما والعدو للحق يسجن صاحب الحق ويقتله، قتل بعض الأنبياء، وقتل الأولياء ويوم القيامة أعظم الفتح يوم القيامة أن الناس يعرفون مصائرهم بحسب ما كانت عندهم من علوم وعقائد وأعمال، فتح الله يفتح.

هذا الاسم العظيم إيمانك به يجعلك من أعظم العابدين، هذا الإيمان بهذا الاسم، إذا علمت أن الله هو الفتاح العليم، وأنه هو الذي يفتح ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾ [فاطر: ٢]، إذن أين ستجلس؟

إذا كنت محتاج إلى قطرة ماء في مكان، من أجل أن ترد لك الحياة، وعلمت أن هذا الباب هو الباب الوحيد في هذه البلدة هو الذي يعطيك كأس الماء، عند من تجلس؟ أنت عطشان أين تجلس؟ لو ذهبت إلى كل أبواب هذه القرية لا تتحصل قطرة ماء، لابد أن تذهب إلى هذا الباب، هذا الباب هو الذي إذا فتح لك أعطاك، وإذا أغلق عليك لم يعطك أحد من بعده، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾، ما أحد، الله يعطيك فلو الدنيا كلها وقفت، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس: **(وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ)**.

فالعالم كله وقف ضد الأنبياء عليهم السلام، وأوصل الله النصر إليهم، العالم كله وقف ضد النبي صلى الله عليه وسلم، امبراطوريات ووصل إليه النصر، المال أخذ منهم ووضع بأيدي هؤلاء الشعث الغبر الفقراء، كل أموال الدنيا جيئت ووضعت بين أيديهم، العالم كله يقف وغضبان، غضبهم ماذا ينفع؟

فلو أن رجلًا فوق سفينة وجاءت الأمواج العظيمة، ووقف وهو غاضب أمام هذه الأمواج هل غضبه يرد هذه الأمواج عنه؟! لو جعل يصرخ، هل الأمواج تهرب من صراخه؟! ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)﴾ [فاطر: ٢]، تصور المرء لما يأتيه الموت هل يستطيع أحد أن يرد الموت؟ لما الله عز وجل يمنع عنه شربة الماء!! لما يمنع عنه نسمة الهواء!!

فالله عز وجل هو الفتاح فإيمانك بهذا الاسم، أولًا: أن كل شيء هو منه، لا يوجد وجود شيء إلا منه سبحانه وتعالى، الله هو الذي أعطى الوجود، هو الذي أوجد الوجود من العدم، هو الذي أمد هذا الوجود بكل أشكاله، ألا ترى خضرة الأرض كيف تكون خضراء، أعطاها لون الخضرة، ألا ترى زرقة السماء وزرقة البحر، هذه الألوان هذه من الذي أمدها بهذه الألوان؟ ترى الفراشات بهذه الألوان العظيمة من الذي أمدها بهذه الألوان؟ الله أعطى هذا الوجود.

انظر إلى أشكال الناس، هذه الأشكال كلها تعود إلى الإنسان لكنها متنوعة، تكاد قليلًا ما تجد رجلًا يشبه رجل، وإذا وجد تعد هذا من الفرادة الأصل هو هذا التنوع، من الذي أعطى هذا التنوع؟ من الذي أعطى الهواء لكل حي؟ من الذي أعطى الرزق لكل محتاج؟ من الذي أعطى الروح لكل مخلوق؟ الله فتح خزائن رحمته لهذا الوجود ليبقى مستمدًا حتى يأتي أمر الله سبحانه وتعالى.

وثم بعد ذلك أعطى العلو فتح الله ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، يقول القرطبي عند هذه الكلمة قال: «وهذا الشرح والفتح ليس لكل أحد»، هذا خاص الطعام أعطاه لكل أحد والوجود أعطاه للكافر والمؤمن، لكن المعاني أن يفتح الله المعاني ولذلك ماذا قال علي رضي الله عنه لما قيل له هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء؟ ماذا قال؟ «لا والذي فلق الحبة وبرء النسمة، ما خصنا الرسول صلى الله عليه وسلم بشيء إلا شيئًا يفتحه الله على عبده»، علم خاص يعطيه، هذا فتح خاص الله يفتح، يقول لك: فتح الله علي، معناها كانت مغلقة فأظهرها له خاصة، وبهذا يتمايز الناس بين الخلق ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠)﴾ [العاديات: ١٠]، هذا العلم الذي يحصل في القلب مما يفتح الله على العبد، هذا يعني من أجل أن يثقل ميزانه يوم القيامة، حتى يأتي يوم القيامة عالمًا.

هل العلم يوزن يوم القيامة؟ يوزن، فالأعمال توزن، الأعمال الحسنة لها وزن، تنتقل من عالم المثال إلى عالم الوزن والحقيقة والمادة، هناك وزن، ميزان يزن الروائح، رائحته الطيبة، ذكره هذا الذكر له ميزان، فيفتح الله عز وجل على العبد، يفتح عليه يقول لك هذا فتح الله عليه، ماذا فتح؟ يعني كان هذا الأمر مغلقًا عليه وعلى بقية الناس فأعطاه هذا الخاص، كما فتح الله على نبيه بالنبوة، وفتح على العلماء بالمعارف والمعاني.

وبعد ذلك أعظم فتح هو أن أظهر الله عز وجل الحق بما نصره به، ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف: ٨٩]، هذا في الدنيا، ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦)﴾ [سبأ: ٢٦]، هذا في الآخرة، أما هذه الآية ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾، أظهر، ليس الظهور العلمي.

يقول ابن حزم رحمه الله –له كلمة طيبة–: «في معارك السلاح قد ينهزم الحق»، صحيح، كما قال الله عز وجل ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ [النساء: ١٤١]، وللكافر نصيب يَقتلون ويُقتلون، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، القراءة المشهورة كذلك، فيمكن أن ينهزم الحق في لحظة من أجل الابتلاء لأسباب، الابتلاء له حكمة عظيمة عند الله عز وجل، كما حصل مع الصحابة في أحد رضي الله تعالى عنهم كما حصل في مؤتة، لكن في معارك العلم لا يمكن أن يهزم الحق، في معارك العلم والمناظرة وبيان الحق بجهة البلاغة وجهة البيان لا يمكن ان يهزم الحق أبدًا، الحق دائمًا ظاهر في هذا الباب.

فأعظم فتحٍ هو أن يفتح الله عز وجل، انظر إلى الآية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١)﴾ [الفتح: ١]، انظر هذه الكلمة أي الحاء في كلمة فتح، هي تعطيك هذا الاتساع، الفتح فأنت تحس كأنك كنت مضيقًا هكذا، وصار لك الفسحة العظيمة، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾، أنظر هذه الكلمة كأنك أنت كنت في عماء فأبصرت، وكأنك كنت مضيقًا عليك في مكان ففسح لك، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، أي ظهر الحق الذي معك بينًا بما نصرك الله عز وجل على هؤلاء، كان وحيدًا.

واحد كاتب كلمة جميلة في ألمانيا على سيارته، قال: رجل ليس عنده فيسبوك ولا عنده توتير ولا عنده تيلجرام وأتباعه ثمان مائة مليون في العالم أنه محمد صلى الله عليه وسلم، فالله أعطاه وبلغ رسالته، وتصور لا يمر وقت ولا لحظة في العالم إلا ورفع الله له ذكره «وأشهد أن محمدًا رسول الله»، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، انظر هذا الفتح، الله فتح له فأعطاه كل شيء، من هو الرجل الذي يتردد اسمه في الوجود في كل

لحظة؟ يعني الله أقام اسمه وفتح ليكون اسمه شاملًا عامًا لكل الأرض في كل لحظة، «أشهد أن محمدًا رسول الله».

لا يوجد أحد في الوجود لا يتوقف الناس عن ذكر اسمه في الأرض، في كل وقت اسمه موجود، إما في الأذان، وإما في المسبحين والمصلين عليه صلى الله عليه وسلم بالمسلمين عليه، وأقام الله عز وجل لهذا الاسم من الفتح من الفضائل العظيمة، ما إن صليت عليه حتى يصل إليه يحمله ملك فيقول فلان يسلم عليك، فيرد الله روح هذا النبي فيرد عليك السلام، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، أي جيوشه ضربت في كل الأرض، جيوش النبي صلى الله عليه وسلم ضربت في المشرق والمغرب خرجت إلى العالم.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، فتح الله عز وجل صار علمه مترددًا في كل الأرض، هذا القرآن الذي جاء به وهذه السنة، انظر أعطني رجل في الوجود أعتنى الناس بكلامه كما اعتنوا بكلام الرسول صلى الله عليه وسلم، نثره الله بالجهاد في كل الأرض، ثم جمعه العلماء في الكتب، نثره في كل الأرض، فهو مجموعٌ منتشر.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، وهذه الأمة هي الأمة الوحيدة في الوجود التي يزيد أتباعها، ولا ينقصون، يزيدون حتى في وقت البلاء، يعني كانت –وهذا ذكرته في مناقشة كتاب سير الأوزاعي– كانت بيروت زمن الأوزاعي الذي توفي سنة مئة وسبعة وخمسين للهجرة، كانت بيروت أرض رباط، يعني بيروت هذه في لبنان كانت في القرن الثاني الهجري كانت أرض رباط، يعني محاذية للروم، الآن أين الإسلام؟ الإسلام دخل إلى أوروبا الآن إلى هناك داخل، وهكذا الإسلام يمتد ونحن في وقت الضعف، العشرات والمئات والألاف يسلمون فتح الله له، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾.

فالإنسان إذا أراد الرزق، إذا أراد الله أن يوجد له معدومًا من ولد إلى الحياة فيفتح الله لك بالولد، فأنت عليك أن تلتزم هذا الباب لتسأله وتستغيث به تستغيث في كل لحظة به، تسأله، وإذا أردت نصرًا فمنه وحده وإذا أردت علمًا فمنه وحده، وإذا أردت الحياة التامة يوم القيامة فهناك على أعتابه **(لك العتبى)**، انظر لك العتبى، والعرب جميلين يسموا العتبة، وكأن هذه من هذه العتبة، لأن المرء إذا طرد من البيت وهو محتاج طرده أبوه أين يجلس؟ بالعتبة، يبقى يبكي حتى يرق قلب الوالد عليه فيفتح له الباب ويدخله.

(لك العتبى حتى ترضى)، حتى يفتح هذا الباب، فإذا فتح الباب أعطاك الله كل شيء، ولا يمكن لمن أكثر القرع أن يُغلق بوجهه، الذي يكثر القرع لابد أن يفتح له، ولذلك أكثروا من العلاقة مع الله، من

ذكره لأنه يحب، مفاتيح الخزائن، وخزائنه ملأ سبحانه وتعالى، خزائن العلم خزائن العطاء، خزائن الرزق، خزائن الجنة، خزائن الغفران، المغفرة كل اسمٍ من أسماء الله وكل عطاء هو مربوط بأن يفتح الله لك، المغفرة لابد لها من فتح، أن تقوم لتصلي تحتاج إلى أن يفتح الله عز وجل باب الهداية والرشد والتوفيق هو الذي يفتح، لا يوجد أحد يجبره جل في علاه.

فلا يمكن الدخول على الله إلا من بابٍ وحيد؛ هو باب العبودية والتذلل، حتى وأنت منتصر لا يمكن أن تدخل على الله منتصرًا في الدنيا إلا من باب العبودية والتذلل، كيف دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة؟ دخل متذللًا خاشعًا، لا يؤخذ بشيء من يد الله عز وجل بالتذلل، فمفتاح هذه المفاتح الربانية هو بالتذلل والعبودية، إن أردت التميز هذا هو الباب.

ولذلك كان العلماء إذا أغلق عليهم أبواب بعض العلم استغاثوا بالله فيفتح لهم، فهو الفتاح جل في علاه وهو خير الفاتحين، هناك من يفتح كذلك الأب يفتح لابنه ليدخل، والملك يفتح للناس ليدخلوا عليه، والمضيف يفتح للضيوف ليدخلوا عليه، ولكنه خير الفاتحين لأنه ما من فتح في الوجود إلا منه جل في علاه، فيجب تعلق القلب في هذا الباب نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته، وأن يجعلنا من عبيده الذين يقفون على أعتاب رحمته ليفتح لنا أبواب رحمته، وأبواب مغفرته، وأبواب عطائه وأن يجعلنا من أهل الجنان.

هذا هو خلاصة ما في هذا الباب من اسمه سبحانه وتعالى الفتاح وهو خير الفاتحين، وهكذا يقول ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ [المائدة: ٥٢]، هذه «عسى» يقول ابن عباس رضي الله عنه: «موجبة»، هي عسى على معنى الترجي، عسى الله، هكذا هي عند الناس، ولكنها في القرآن موجبة يعني ستقع حقيقة، ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾، سيأتي الفتح، لكني تأملت هذا فوجدت أنها لماذا جاءت على معنى الرجاء؟ يعني ما دام أنها موجبة فلماذا جاءت بلفظ الرجاء وهو عسى؟ هذا لم يقله الأوائل، فتح لي في هذا بأن عسى في القرآن دائمًا مربوطة بفعل العبد، فعسى الله أن يأتي بالفتح يعني لابد العبد أن يكون مؤهلًا للفتح، فهي موجبة للفعل ولكنها مربوطة بفتح الله على من وعد بها، يعني مربوطة بفعل العبد دائمًا، أي لابد من فعل العبد، لابد أن تفعل، من هنا جاءت فعسى بالرغم أنها موجبة إلا أنها جاءت بلفظ الرجاء؛ لأنها مربوطة بفعل العبد، لأنها مقيدة بشرط فعل العابد، والله تعالى أعلم، جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم.

فقط أذكر شيئًا كقوله صلى الله عليه وسلم: **(أعطيت مفاتيح الكلم)**، هذه الحديث في البخاري، فالعلوم مغلقة خفية، فأعطي النبي صلى الله عليه وسلم مفاتيح العلوم، الكلم المقصود به العلوم، وليس فقط العلوم بل أعطي أعظم ما تصاغ به العلوم وهو البلاغة.

هو ما الفرق بين العالم والعامي في بعض جوانبه؟

أولًا: ربما العامي لا يفتح عليه المعاني التي عند العالم.

ثانيًا: من التفاضل في العلم بين الناس هو أن يصيغ العالم العلم بلغة؛ لأنه قد يبقى الرجل حبيسًا في بيان ما يقع في قلبه، حتى العلماء الكبار فالشافعي رحمه الله يقول: «يأتيني المعنى في قلبي فلا أستطيع أن أبين عنه»، والشافعي هو الشافعي رحمه الله، يعني مرات تصبح المعاني أعظم من الألفاظ.

والناس من أخطائهم يقولون أعذب الشعر أكذبه، ما معنى هذا؟ في داخل هذا الكلام أنه ربما يكون الكلام أعظم من المعنى أي الحقيقة، معناه أن الرجل يتكلم يقول: هذا فلان كالجبل، وهو يكون فلان لا يسوى ذرة، فإذًا يكون الكلام أكبر من الحقيقة، وفي الحقيقة أن الكلام فيما يتعلق بالحق الإلهي أدنى بكثير من هذا الحق، يقول النبي صلى الله عليه وسلم لما أسري به فرأى شجرة المنتهى، قال: **(ففيها من التهاويل ما لا يستطيع أحد أن يصفه)**، الجنة الآن هل يستطيع أحد ماذا قال الله في القرآن؟ وصف لنا الجنة فقال ابن عباس ليس من الجنة في القرآن إلا الأسماء، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: **(فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت)** يعني عجز البيان.

الآن لو جلس الخطباء يتحدثون عن الجنة سيكون فيها فوق ما يخطبون ويتكلمون ويقولون الشعر، فمرات الكلمات تكون أعجز من أن تبين الحقائق، تعجز، مهما بلغ الرجل من البلاغة، النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(أعطيت مفاتيح الكلم)**، فالكلم لا يكون إلا عن علم، ثم أعطي البلاغة التي توصل الحق في أعظم معانيه، وأوجز ألفاظه، هذه مفاتيح الكلم.

فلذلك قالوا: ما مفاتيح الكلم؟ قال: «الكلمة القليلة التي تحتوي على المعاني العظيمة»، لأن البلاغة في الإيجاز، لكن هذا الإيجاز يجب أن يكون غزيرًا، اللفظ يكون غزيرًا، كقوله صلى الله عليه وسلم: **(إن من البيان لسحر)**، انظر إلى هذه الكلمة عظيمة، يعني دال على معاني جليلة، الناس يقفون على ساحلها ولا يستطيعون الغوص إلى منتهاها ولا إلى قاموسها.

فقوله صلى الله عليه وسلم **(أعطيت مفاتيح الكلم)**، ولذلك بالنسبة لظهور الحق يقول أهل اللغة: بأن العرب تسمي القاضي فتاحًا، لماذا؟ لأنه قبل قضائه الناس لا يعرفون من صاحب الحق، هذا ولا هذا، هذا يتكلم بحجة، والناس لا يعرفون، فالقاضي يفتح فيقول: هذا هو الحق، الحق يكون خفيًا، والمعنى يكون خفيًا، فيظهره القاضي فيسمى فتاحًا، ابن عباس رضي الله تعالى عنه وقف عند ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف: ٨٩]، قال: «ما أدري ما الفتح؟» انظر هي كلمة عربية ولكن ما يدري في هذا الباب كيف، قال: «حتى سمعت امرأة تقول جيء لأفاتحك»، يعني جيء لأقاضيك، يعني بالقضاء يفتح بيننا، خلاص ليكون ظهور الحق فحينئذٍ ينتهي ما بيننا من خصومة، لأن المشكلة في الخفاء ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥)﴾ [إبراهيم: ١٥]، ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ طلبوا نريد الحق، بارك الله فيكم وجزاكم الله خير.

وكما نقرأ في صباح كل جمعة قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨)﴾ [السجدة: ٢٨]، أي هذا الذي تقولونه متى يكون ويظهر، حتى يكون هو الصدق الذي يعمي الباطل، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩)﴾ [السجدة: ٢٨-٢٩]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨)﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فيوم الفتح، الناس الآن ينكرون الساعة، فعند الفتح يعني ظهور الساعة خلاص تظهر تبين، حينئذٍ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا.

الأسئلة

السائل: قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١)﴾ [القمر: ١٠-١١]، **هل إظهار الحق كان كامل؟**

الشيخ: بلا شك، طبعا والفتح نستخدمه حتى في الأمور المادية، يعني نقول افتح الماء، افتح الباب، وكل هذا من هذا المعنى وهو الظهور بعد الخفاء وإزالة الخفاء، وإزالة الأشكال في العلوم، ويقولون: الفتح هو ضد الإغلاق، نحن أردنا أن نعطي المعنى الأعظم فيما يتعلق بصفات الله عز وجل وإلا فالناس يستخدمون هذا المفتاح، يعني الذي يفتح ما هو مغلق، ويفتحون الباب وهكذا، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ [يوسف: ٦٥]، ما كان يعرفون ما فيها لأنه أمر غلمانه بوضع أموالهم فيها.

جزاكم الله خيرًا بارك الله فيكم الحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس والثلاثون: المجيب

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى ألا وهو اسمه المجيب، وهذا الاسم من أسمائه سبحانه وتعالى هو من أجل حاجة الإنسان ومن أجل حسن العلاقة مع الله عز وجل، العبادات كلها تقوم على ركنين، الركن الأول: أنها طاعة لله عز وجل تقرب العبد إلى الله سبحانه وتعالى، المقصد الأول، وأعظم المقاصد هو تحقيق العبودية لله عز وجل، من هنا لما انتقد بعض أهل العلم كابن تيمية رحمه الله فيمن ذكر الضرورات الخمس، قال: غفلوا عن ضرورات اهم مما ذكروها وهي ضرورة علاقة القلب مع الله عز وجل، هذه أعظم ضرورة، وعند قيام بهذا الحق لله عز وجل وحسن العلاقة معه تنشأ مصلحة للعبد من مصالح الدنيا والآخرة،

أما المقصد الأول هو تحقيق رضا الله وتحقيق العلاقة الصحيحة مع الله سبحانه وتعالى وحسن العلاقة معه، فالله سبحانه وتعالى علمنا من الأسماء ما يحقق هذا، وإلا هناك لله أسماء الله سبحانه وتعالى ادخرها لنفسه، لا يعلمها ملك مقرب ولا على يعلمها نبيٌ مرسل؛ وهذه لأن الخلق لا يحتاجون إليها في عبوديتهم التامة لله سبحانه وتعالى، بحسب ما كونهم الله عز وجل من تكوين وأنشأهم من إنشاء.

فمن الصفات التي يحتاجها العبد في هذه الدنيا بعد أن خرج من السماوات وخرج من الجنة هو أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى هو المجيب، ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥)﴾ [الصافات: ٧٥]، انظر الله عز وجل وصف نفسه بأعظم وأحسن وأنعم ونعم المجيب سبحانه وتعالى؛ لأن الناس يستجيب بعضهم لبعض، وإذا نادى المرء غيره ربما أجابه وإذا استغاث به ربما أعطاه وإذا سأله ربما منّ عليه وأكرمه، ولكن الله سبحانه وتعالى نعم المجيب، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١)﴾ [هود: ٦١]، ودائمًا يقترن هذا الاسم بهذا الاسم نذكره إن شاء الله عند ذكرنا لاسمه سبحانه وتعالى القريب، لكن نقتصر الآن على اسمه سبحانه وتعالى المجيب.

فهو سبحانه وتعالى الذي إذا سئل أعطى والمجيب هو الذي إذا استغيث به أغاث وإذا سئل أعطى وإذا خوطب استمع هذا هو المجيب، إذا خوطب خطابًا استمع أي أجاب بسمعه ليرى ماذا يقول، فإذا

كان القول يتعلق بسؤال واستغاثة كان فوق هذا السماع ما هو أن يعطيه ما سأله وأن يمن عليه بما استغاث به، والله سبحانه وتعالى قريب يسمع نداء العبد ويجيب سبحانه وتعالى، وجعل هذه العقيدة وهذا الإيمان في قلب العبد شرط تحقيق العبودية، أن يستجيب العبد لأمر ربه وأن يسأل العبد ربه ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٥-٧]، فأعظم العبادة هو أن تستجيب لأمر الله عز وجل ومن أعظم العبادة هو أن تسأل الله سبحانه وتعالى، لماذا هذه أعظم العبادة؟ لأنها تحقق شروط العبادة وتحقق شروط اعتقادك في الله عز وجل.

أولًا: تعتقد بأن الله يسمعك، لولا هذا الاعتقاد بأن الله يسمعك وأن الله بصير بك وأن الله عليم بك ما سألت، تصور أن رجل يدعو فلا يسمع له ولا يعلمه المسؤول، ويستغيث ولا يسمعه ولا يعلم به من استغاث به، فإذًا هذه العلاقة وهذا الفعل من العبد من الدعاء في اعتقاده أن الله يجيب يحقق معرفته بربه، والله عز وجل يحب ذلك لأنه إذا دعا علم الله عز وجل أن هذا العبد يعلم الرب سبحانه وتعالى بعظمته وبقدوسيته.

ثانيًا: يعلم أن الله عز وجل هو الكريم؛ لأن الله هو الذي يعطي، لأنه لولا أنه يعلم ذلك ما سأله، الإنسان إذا اشتهر عنه البخل وعدم العطاء فإن العبد يعرض عنه ولا يسأله، وإذا قيل له اذهب إليه واسأله لا يذهب إليه لأنه ليعلم أن حاجته مقطوعة وممنوعة من هذا الطريق، فإذا علم العبد أن هذا الطريق يؤدي إلى منافع سلكه، فإذا رفع العبد يديه، الله يعلم أن في قلب هذا العبد أنه يعلم أن طريقه واسعٌ إليه سبحانه وتعالى.

ثالثًا: يعلم أن الله عز وجل هو القوي، في قضية السماع في قضية السماع تصور نحن قبل مدة كان شهر الحج وهو شهر ذو الحجة، انظر هذه الملايين التي كانت في صعيدٍ واحد، انظر إليها، كم عدد لغاتها؟ وكلماتها؟ وكم هي حاجاتها؟ ومع ذلك الله عز وجل سمع كل أصواتهم ولم يختلط عليه صوتٌ على صوت ما قال أنا لا اسمع، بل كلهم سمعهم وعلم مرادهم وطلباتهم ثم علم كل حاجة عبد حتى لو دعا بقلبه، أنت تتصور أنه ليس فقط يعلم ما يقولون ولكن يعلم عن أحوالهم كلهم سبحانه وتعالى، ويعلم حاجات الناس وألسنتهم ويقضيها جل في علاه.

ففي الحديث القدسي قال صلى الله عليه وسلم: **(قال تعالى: يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي**

شيئًا إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر)، فالعبد يعلم ان الناس سألوه فأعطاهم فخزائنه ملأى لا تغيض ويده سحاء كريمة جوّاد لا يحبسها سبحانه وتعالى إذا سأل العبد.

فأولًا يعلم العبد ربه ثم العبد يعلم أن الله عز وجل قاضيه فهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى رحيم به، لأنه من يقضي الحاجات لا بد أن يكون في القاضي الرحمة، ولو كان غير رحيم ما قضى حاجات العباد.

وإذا قيل لي أذكر آيتين كانتا تحضران لك في كل موقف في السجن فأقول إن هاتين الآيتين هما أعظم ما كنت أستحضره في السجن آية من سورة النمل وآية من سورة الأحقاف كانتا إذا مرتا علي ولهما ذكريات عجيبة قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾ [النمل: ٦٢]، هذه آية في الحقيقة لها وقع في قلبي أذكر أخذوني من السجن الجماعي يريدون أن يضعوني في سجن خاص، يعني عقوبة وكذا، فوقفنا في باب الغرفة داخل السجن الكلي لكن في إحدى العمائر، وقفت على الباب والمطر يهطل، وأنا واقف مقيد وينتظروا السيارة لتنقلني، فلا أدري كيف جاءت هذه الآية؟ فقط هي التي جاءت على قلبي في هذا الموطن.. ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾ [النمل: ٦٢].

انظر هذا التدرج العظيم في هذه الآية ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾، فدل إجابة الدعاء لكل داعٍ أن الله هو الحق؛ لأنه مهما بلغت رحمة العبد بالعبد كرحمة أبيك عليك أو أمك، لا تجيب كل دعوة، ومهما بلغ غنى كل غني مع رحمة كل رحيم لو اجتمع في قلب عبد ليقضي لك كل حاجة ولا يعطيك كل سؤال، حتى لو كان من أغنى الخلق، سيصل إلى حد يقول لك: لا أقدر عليه، ربما هو غني بالمال وليس غني بالجاه، فأنت تحتاج جاهًا من أجل أن يقضي لك حاجتك عند أحد، يتوسط لك.

فانظر إلى الآية ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، إذا دعاه في كل دعاء والعبد فقط هو مسكين لأنه يستعجل، ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾، يرفع ما وقع فيك من بلاءٍ ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، وليس هذا فقط، بعد ذلك يعطيه منزلة أعظم، ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، وهنا الخلافة ليس المقصود بها الخلافة الدينية والإمامة المقصود بها هي خلافة الدنيا، يعني أنت تكون فقير فتخلف غيرك في الغنى، وتكون محتاج فتخلف غيرك في المال الذي كان بعيدًا عنك، لأن المال الذي بين يديك هذا قطعًا مر على أناس قبلك كثيرين، فأنت الذي خلفت ملكهم على هذا المال.

أما الآية الثانية التي كانت لما أمر عليها أطمئن وأرتاح أنني ألجأ إلى ركنٍ وثيق، وهي قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ

النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦)﴾ [الأحقاف: ٥-٦]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، الله يعيب على المسؤول الذي لا يجيب سائله، فإذا كان الله يعيب على المسؤول الذي لا يجيب سائله هل يكون منه هذا الفعل وهو الرحمن؟ وهو الغيور وهو العظيم، هل يمكن أن يقع منه هذا؟

فربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، لو بقي يدعو إلى يوم القيامة لا يستجاب له، فدل هذا على أن الله عز وجل سيستجيب، وفي يوم من الأيام سيستجيب في حياتك سيستجيب، ولذلك هذه الأيام كانت تمر علي وأقول أنا وكلت أمري إليك أنت تستحي جل في علاك أن يكن منك هذا.

فإذا دعا العبد ربه على هذا المعنى أنه يستحي أن يرد عبده بيدين خائبتين؛ وثق أن الله سيجيب، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾، ربما لا يسمع يدعو ولا يسمع وربما سمع فانشغل بغير سؤاله فنسي، قال الله عز وجل: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، الله لا ينسى.

فالعبد حين يتعامل مع الله أنه غاب في الدعاء، سأل فلم يستجب هذا الدعاء، فيقع في قلبه من معاني الجهل، ربما لم يسجل هذا الطلب عنده، ربما نسيه وهكذا يقع فيه من معاني الانحراف عن الفهم عن الله ما يجعله يقع في الانحراف ويقع في اليأس، لا، حتى أنت -وهنا مسألة مهمة- حتى وأنت تدعو الله عز وجل كثيرًا لا تظن أنك تذكر، فيقع في الوهم أنني أنا أدعو من أجل أن أذكر، يعني دعوت فالبارحة كما أنك تذكر العبد في الدنيا لأنه ينسى، يقول: ذكرني، هذا المعنى باطل في حق الله عز وجل، الله لا ينسى، حين دعوت الدعاء الأول وهو مسجل عنده.

فقد يسأل السائل لماذا يكثر الدعاء؟ لأسباب كثيرة، من تلك الأسباب، تحقق العبادة الكافية للإجابة، كما في حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، فإن الأول دعا دعاءً شق الصخرة لكن لم يصل هذا الشق إلى قوة الخروج، ولذلك أنت قد تدعو وهذا الدعاء ثمن لشيء، فقد يكون دعاء فيه ضعف وقد يكون المطلوب كبير، ومن هنا يأتي دعاء الأنبياء والأولياء والصالحين يأتي بقوة فتتحقق الإجابة، لأن الدعاء يصدر بقوة الإيمان التي في قلب العبد، وإذا دعا العبد وهو لا يستغيث ولا يبكي ولا يطلب، فهو يحتاج إلى دعاء متواصل ليحصل من الدعاء الكمية التي يحصل بها الإجابة.

يعني هم دعوا دعاء عظيم هذا الرجل الذي دعاه، لكن المصيبة كبيرة صخرة فتحتاج إلى دعاء آخر، لكن الآن يظن بعض الناس كما ذكر هذا أهل العلم بعض الناس يظن أنه عندما قال تعالى عن العسل: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]، يكفي أن تأخذ معلقة، لا، فبعض الأمراض تحتاج إلى عشرين معلقة.

كما الرجل الذي جاء إلى النبيّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: إنَّ أَخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: (اسْقِهِ عَسَلًا فَسَقَاهُ)، ثُمَّ جَاءَهُ فَقالَ: إنِّي سَقَيْتُهُ عَسَلًا فَلَمْ يَزِدْهُ إلَّا اسْتِطْلَاقًا، فَقالَ له: (ثَلَاث مَرَّاتٍ)، ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ فَقالَ: (اسْقِهِ عَسَلًا)، فَقالَ: لقَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إلَّا اسْتِطْلَاقًا، فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: (صَدَقَ اللَّهُ، وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ)، فَسَقَاهُ فَبَرَأَ، فلم تكن هذه الكمية كافية لحصول البرء والشفاء فاحتاج إلى كمية أكبر، فلما حصلت الكمية الكافية للبرء حصل الشفاء، وهكذا في العبادة، وهكذا في الدعاء.

فأولًا: قد يكون الطلب كثير.

ثانيًا: وهو أعظم من ذلك، إن هناك من المراتب غير التي طلبتها أنت، فأنت تطلب المال، لكن هناك مراتب من الإيمان هي أعظم من مطلوبك يريد الله أن يوصلك إليها، فيحبس عنك الإجابة لتبقى داعيًا ليحصل المطلوب في رفعة الدرجات الإيمانية، أي الله عز وجل يعطي أحب مما يريد العبد، والعبد نظره قاصر، فطلبه أن يُحَصِّل المال، أو أن يُحَصِّل هذا المقصد أو هذا الطلب الدنيوي، والله لا يريد منه هذا بل يريد منه أكثر من ذلك، وهو أن يُحَصِّل مراتب معرفية إيمانية درجات في الجنة، فيحبس عنه الطلب الدنيوي ليبقى يدعو من أجل أن يصل إلى المرتبة التي يريدها الله منه من الإيمان، هذا مهم جدًا أن تفهمه.

ولذلك الله عز وجل يبتلي العبد، من أجل أن يسقط عنه الذنوب، العبد يقول: ذهب مني المال، فهو ينظر إلى المال ولا ينظر إلى الذنوب، ولكن الله ابتلاه لا ليأخذ منه المال، ابتلاه من أجل أن يسقط عنه الذنوب، فالمقصد الديني في هذا الابتلاء أعظم من المقصد الدنيوي الذي يطلبه العبد ويريده.

وأمرٌ آخر ذكره أهل العلم ذكروا بأن عند وقوع المصائب عليهم فيستغيثوا بالله فتحصل لهم من المعاني الإيمانية ما يفرحهم بالبلاء، لإنه دون البلاء يكون الدعاء بغير المطلوب وليس على ذروة المطلوب وهذا نراه في أنفسنا، فإنك حين تكون في الرخاء لا تسأل الله السؤال الذي تكون فيه عند البلاء، عند البلاء يتغير القلب، وتصبح الحاجة حقيقية، وبسبب هذا يفتح الله عز وجل بالمعاني الإيمانية على قلبك، فلذلك بعضهم كان يتمنى ويفرح لمجيء البلاء؛ لإنه يكفر عنه الذنب، لإنه يرفع له الدرجات، لإنه يُحصّل في قلبه هذا البلاء معاني إيمانية عظيمة فيه، فالمهم أن الله عز وجل يؤجل لخيرٍ فيك، هذا لابد أن تفهمه.

ثالثًا: ما الذي أدرك أنه لم يجب؟ بمعنى أن هناك من البلاء ما لا تعلمه صرف عنك، يعني ما الذي أدراك أنه لما تأخر صرف الله عنك بلاءً؟ أو لما لم يعطك المال صرف الله عنك بلاءً؟ نحن لا ندري فهذا عالم الغيب لا ندري ماذا يجري فيه، ماذا نعطى؟ وماذا نمنع؟ كيف تجري أحوال الغيب من المنع والعطاء؟ ومن البلاء ومن حبس البلاء، لا ندري هذا، فالله يجيب ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، الله يجيبه، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

والله عز وجل في علاه ذكر نماذج إيمانية عظيمة في إجابته للدعاء أنه المجيب، فسورة «الأنبياء» سورة جامعة لأمرين: أولًا: حاجات الأنبياء النفسية والشخصية، وثانيًا: فيها تعليم العبد إجابة الدعاء، وذكر فيها الأنبياء وما فيهم ومشاكلهم وزكريا عليه السلام وما طلب من الولد وأيوب وما طلب من رفع البلاء ويونس فيما طلب من الخروج من بطن الحوت وهكذا، فلهم حاجات شخصية، وهذه الحاجات بها تتحقق العبودية حتى ولو كانت استغاثات وحاجات شخصية.

فالله عز وجل جّل شخصية النبي في سورة «الأنبياء» شخصية النبي ماذا هو؟ كيف هو وكيف كان يتعامل مع نفسه في بيته في أولاده في البلاء إذا وقع عليه، في بدنه كيف يتعامل؟ واقترن هذا العرض الإلهي لحقيقة الأنبياء ونماذج الأنبياء بإجابة الله لهم، قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)﴾ [الأنبياء: ٧٦]، ما الذي دعاه نوح عليه السلام في هذا؟ ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)﴾ [القمر: ١٠-١٢]، ولذلك سماه الله عز وجل الكرب العظيم.

وكذلك من الكرب العظيم يصح أن نقول في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)﴾ [الصافات: ٧٦]، وهو ما حصل من أعدائه، استهزائهم وما حصل من الإعراض والكفر به وتكذيبه فهذا كرب عظيم، هذا استجابة الله لدعائه.

والله عز وجل بين عن أيوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، عن البلاء الذي وقع في بدنه حتى صار مضرب المثل في الصبر، يقال: صبر أيوب عليه السلام، أن البلاء وقع عليه، ابتلاه الله من الابتلاءات العظيمة فالله أخرجه، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤)﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤]، هل هذا فقط؟ ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ

إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، الله أعطاه زيادة من الأولاد وزوجة والمال الله أعطاه، وهكذا. و

كذلك زكريا عليه السلام وذا النون قبله ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، انظر هذه الاستجابة، كلمة الإجابة، كلمة الاستجابة، قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، هذا بلاء الصبر بلاء لسبب، وبلاء نوح عليه السلام لسبب، وهذا لسبب، وتتعدد الأسباب لكنها كلها إذا وصلت إلى باب الدعاء قضيت.

فلا يهم لماذا وقع عليك البلاء، حتى لو وقع عليك البلاء بذنب فلا يرفعه إلا الدعاء، حتى إذا وقع البلاء عليك من أجل الابتلاء والرفعة، لا يرفعه الى الدعاء، حتى لو وقع البلاء عليك من أجل أن يكون لك الدرجات العلى والآيات العظيمة كما في حالة زكريا عليه السلام، لا يقضي هذا الحاجة إلا الدعاء. ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، حصل بسبب تقصير منه، هذا نبي، نبي عظيم ولكن مغاضبًا، العلماء الأوائل قالوا: «مغضبًا لربه».

وهذه ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ ابن كثير رحمه الله في تفسيره أعرض عنها، وهذا من منهجه فاستثقلها أو ظن أنها لا تلائم عصره، المهم أنه لم يذكر أنه مغاضبًا لربه، وإلا فأغلب المفسرين القدماء قالوا: «أنه مغاضبًا لربه»، هو ذكر ابن كثير في تفسيره قال: «مغاضبًا لقومه».

﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، نقدر: يعني نضيق، ألا نضيق عليه بهذا الخروج، ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وهنا تعليم لطريقة الدعاء والاستغفار، لماذا قال: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، لأن المعصية ذنب في حق الله عز وجل وذنب في حق الإنسان، كل معصية هي إيذاء لرب العالمين، لا يصلون إليه، ولكنه سبحانه وتعالى يكره ويبغض المعصية، فإذا عصى العبد كره الله منه ذلك، فحين يقول العبد: «سبحان الله»، قدس الله أن يؤذيه، وقدس الله أن يقول فيه الباطل؛ لأنه كما يقول العبد الباطل يفعل الباطل وكلاهما يؤذي ربه سبحانه وتعالى.

فلذلك قال تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾، كان قريب منه رب العباد وهو في الظلمات، سمعه وعلم حاله، ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء: ٨٧]، والله عز وجل استجاب له، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾

[الأنبياء: ٨٨]، يعني هذا ليس خاصًا بيونس عليه السلام ذي النون، ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾، كل من سلك هذا الطريق أعطاه الله سبحانه وتعالى.

وكذلك نبي الله زكريا عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠]، كذلك هذا باب لا بد أن تكون محضر له، العرب تقول: «العليقه عند الغارة ما بتنفع»، الله عز وجل يرحمك ويستجيب لك إذا كنت في زمن الرخاء معه سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾، رهبًا خوفا من وقوع البلاء، فالعبد عليه أن يدعو ربه أن لا يقع عليه البلاء، ورغبًا في تحصيل الخير، رهبًا في دفع البلاء، ورغبًا في تحصيل الخير والنعمة، هذا هو دعاء العبد.

وأعظم الدعاء هو دعاء العبادة، ما هو دعاء العبادة؟ كل ذكر لله هو دعاء عبادة، لا إله إلا الله دعاء، قالوا لسفيان بن عيينة: دلنا على دعاء ندعوه به يوم عرفة، قال: قولوا «لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير»، قالوا: هذا ذكر وليس دعاء، فذكر لهم ماذا قال الشاعر، قال:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي ... حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الحَيَاءُ

إذا أَثْنَى عَلَيْكَ المرءُ يَوْمًا ... كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

هذا أمية بن أبي الصلت يمدح أحد كرماء قريش وهو عبد الله بن جدعان التيمي، الذي هو عم أبي بكر، وكان عظيمًا في قريش وقف وقال: أأذكر حاجتي، هل أذكر لك الحاجة أم قد كفاني حياؤك، من هنا الصلاة على النبي تقضي الحاجة، قال: «أأجعل لك صلاتي كلها -عليك-؟» قال: **(إذن تُكفى همك)**، تقضى حاجتك، الصلاة على النبي الله يفرح بها فيعطيك حاجتك.

فقال: إذا أثنى عليك المرء يومًا، ذكرك بالثناء وعظمك ومجدك وقدسك، كفاه من تعرضه يكفي هذا خلاص ما في ضرورة أن يذكر حاجته، كفاه من تعرضه الثناء، الثناء يكفيه ولا يذكر حاجته، انظر هذا الفقه العظيم من سفيان ابن عيينة الذي قال عنه الإمام الشافعي لولا مالك وسفيان ابن عيينة لذهب علم أهل الحجاز.

القصد من هذا: أن سورة «الأنبياء» فيها هذا المعنى تكرر والله يحب الدعاء، يحبه والذي يعرض عن دعائه، الله يبغض ذلك، لأن العبد بحاجة إلى الرب في كل لحظة، وذلك هو سبحانه وتعالى المجيب، علمنا

أنه يجيب، وهذه الصفة حين يؤمن بها العبد تزداد علاقته مع الله عز وجل حتى أنه يسأله الصغير والكبير، والعبد هنا في هذه الدنيا لا يقيس ربه على ما يقع من العبيد، فجاء رجل إلى الإمام أحمد قال: جئتك بحويجة، قال: «ابحث لها عن رجيل»، ما دام هي حويجة ابحث لها عن واحد صغير بحجمها، هذا القياس لا يصح مع الله، فإن الصحابة كانوا يسألون الله حتى شراك النعل، يسألونه الله لا يسألون أحدًا حتى يسألون الملح من الله، هذا يجب أن يتعود العبد عليه.

والله عز وجل فتح من الأوقات العظيمة ما تتحقق فيها الإجابة غير كل وقت، يعني الأصل هو أن يدعو العبد ربه في كل وقت، وأن يسأله في كل وقت لكن هناك أوقات كل يوم تزيد على أربعين موطن، في كل يوم يحصل بها الإجابة لما هو فرض، ومن ذلك بين الأذان والإقامة، انظر كم مرة بين الأذان والإقامة خمس صلوات، هذا وقت إجابة الدعاء، عليه أن يستغله وخاصة ما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم لاستغلاله بصلاة الظهر، بعد أذان الظهر وقبل الإقامة، هذا وقت لا تضيعه أكثر فيه من الدعاء وأكثر فيه من الصلاة.

القصد: خمس أوقات لصلاة الفريضة، هذا من وقت إجابة الدعاء، في الصلاة ما هو أوقات إجابة الدعاء؟ في السجود، كم سجدة؟ عندك الفريضة فتصلي سبعة عشر ركعة فريضة في اليوم وفي كل ركعة يكون فيها سجودان، فأربع وثلاثين موطن فقط لهذا، طيب خمس صلوات هذا السجود هذا موطن إجابة الدعاء، كذلك من موطن إجابة الدعاء في الفرائض هو قبل السلام، النبي صلى الله عليه وسلم سأل عن إجابة الدعاء أي الأوقات أقرب؟ فقال في ثلث الليل الأخير، وعقب الصلوات المفروضات، فخمس صلوات عندك.

وكان ابن مسعود إذا صلى بهم وأطال قبل السلام حتى يظن أصحابه أنه قد نسي، هذا وقت إجابة الدعاء، هذه الأبواب هي أبواب رزق، لماذا يغلقها الناس، رجل صلى بجانب أحد الصالحين فجعل ينقر ولا يطيل في السجود، فقال له لما انتهى من صلاته، قال: «أليس لك عند الله حاجة؟!»، بسرعة داخل فأنت مررت على عظيم، أليس لك حاجة عند الله لماذا تستعجل؟

فخمس صلوات، بخمس تسليمات، كل خمس تسليمات هذه خمسة وخمسة ذكرنا وأربعة وثلاثين، فأربعة وأربعين موطن فقط في صلاة الفريضة، الله جعلها مواطن إجابة لدعاء فقط في اليوم، غير طبعًا المستحبات غير ثلث الليل الأخير، غير عند نزول المطر، عند حصول البلاء، عند هبوب الريح، هذه مواطن الله يحبها، فأنظر إلى أن الله عز وجل،

فانظر إلى هذا الحديث تذكره لما تقوم الليل تذكره، تذكر أن الله يناديك الآن، **(هل من سائلٍ فأعطيه؟)**، أصغ، لما تقوم قبل الفجر بساعة وربع ساعة ونصف ساعة بحسب ما يعطيك الله عز وجل حتى لو صليت ركعتين، **(أعجز أحدكم أن يصلي ثلث القرآن في ليلة)**، لما تسجد وأنت في السجود أقرب ما يكون العبد من ربه، أصغ سمعك، الله يقول: **(هل من سائلٍ فأعطيه؟)**، قل له: أنا أسال، نعم، أنا أسألك، هل تراه يردك؟ هل لترى كرمه يعجز أن يعطيك؟

وإياك أن تظن إن الله عز وجل يغفل، لكن المشكلة في قضية إجابة الدعاء، الفرق بين النعمة والبلاء، أن البلاء يحس به المرء لأنه يأتي مرة واحدة، فإذا ازداد، ازداد ألم المرء، فيحس به أن يأتيه، يفقد الولد، يفقد المال، يسجن يقع في البلاء، فالبلاء يقع عليه مرة يحس به، لكن النعمة تأتي متدرجة، لم يكن عندك الولد فصار عندك الولد، لم يكن عندك المال فصار عندك المال، فلا يذكر الإنسان النعمة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣)﴾ [الإسراء: ٨٣]، ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١)﴾ [فصلت: ٥١]، فالإنسان لا يحس، النعمة إذا جاءته تأتي متدرجة، فلا يحس بها ولا ينظر إلى النعم ولكن ينظر البلاء لأنه يؤلمه، أما النعمة فيستغرق فيها يدخل فيها حتى تلهيه.

ولذلك على العبد أن يكثر الدعاء دائمًا أن يعرف عنه أن هذا العبد يدعو فإذا علم ذلك منه الله عز إجابه وأعطاه، وأغلب الناس للأسف في هذا الزمان لانشغالهم بالدنيا ولنظرهم إلى منافذ العطاء، يريدون العمل يريدون ..إلخ، والله أعجب يعني من بعض الصالحين من قابلتهم، والله أذكر أشياء المرء يخجل عنها متى يدعو ربه لثقتهم بالله، كيف أنهم إذا أصابهم البلاء قاموا صلوا واستغاثوا بالله، والله إني مررت بأناس أنهم إذا وقع بهم أمر فقد دخلوا في مسجدهم، في بيوتهم، في غرفهم، واستغاثوا بالله حتى يقضى هذا الأمر، حتى يخرج عنهم هذا الأمر، لثقتهم بالله وسؤالهم وتعودهم أن الله عز وجل على كل شيء قدير، وأنه يسمعهم.

أما الناس لا يذكرون الآن، لا يذكرون الدعاء، وتجدهم عند الدعاء الجماعي يبسطون أيديهم هكذا يعني كأنهم في غنى عن الله عز وجل!! أما هذا الدعاء الذي فيه حر القلوب وألم القلوب، وفيه دمع العين وفيه الاستغاثة، انظر إلى دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في بدر، تصور أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه قد حزن على النبي صلى الله عليه وسلم، حزن على النبي صلى الله عليه وسلم أن يرى هذه الاستغاثة الشديدة منه، تصور يعني الآن الحالة التي يكاد المرء يتخيلها هو حالة الطفل عندما يتعلق بأمه ويستغيث، ويتعلق بثيابها ويسأل يا أماه، ويسأل، وأنت تسمع ترق عليه، أنت لست المسئول ولكن إذا سمعته ترق

عليه، حتى قال له: «يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك، إن الله عز وجل مجيب ما تسأله، إن الله يعطيك ما تريد»، ثقةً بالله، لكن هذا دعاء العبد لربه، الله يحب من العبد أن يرى منه هذا التعلق، **(لك العتبى حتى ترضى)**، **(إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي)**، يستغيث بالله.

وانظر إلى الاستغاثة بالله في ذكر حوائجهم لا يستحون من ذكر حوائجهم، لا يستحون لأنهم ضعفاء، لأن العبد ضعيف، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، يذكر حاجته ولا يخجل، فالله عز وجل يحب هذا الضعف، لأن أساس قيام العبد على الفقر، هذه تذكروها، أنت فقير، أساس قيام العبد على الفقر الحاجة والضعف، وأساس قيام قيومية الله أنه القيوم، أنه الصمد من أسمائه الصمد معناه أن تصمد إليه الحوائج، القيوم القائم على كل نفس بما كسبت، هو قائم على كل نفس قائم على نفسك، قائم على الهواء، قائم على الماء قائم على كل دابة، قائم على الملائكة، قائم على العرش، بقوته تقوم السماوات والأرض بعطائه يتم العطاء في الدنيا.

وأن تعلم أن الله كريم، جواد، غني، ملك، بيده كل شيء ولو أراد العالم كله، لو أجمع أن يضروك فلن يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، فأنت أسأل الله لا تخجل أتذهب إلى غيره!! أكثر، أطلب من الله عز وجل، أسأل الله الغنى، أسأل الله الجنة، أسأل الله الفردوس الأعلى، عمر رضي الله عنه يسأل الشهادة وهو في المدينة، يستغربون منه، كيف يطلب الشهادة وهو في المدينة، الجهاد في بلاد الشام، الجهاد في العراق، الجهاد في فارس، كيف تأتيه الشهادة في المدينة؟ أتت الشهادة إليه أو لم تأتِ؟ أتت الشهادة إليه.

فلا تفكر كيف يقع هذا ليس عملك، أن تفكر كيف هذا يقع، كيف سيكون، سبحان الله كم من الأمور نظنها من المستحيلات، ووقعت وحصلت معك، أنت آية، كلنا عندنا من الآيات ما لا يعلم بها إلا الله، كيف حصلت؟ هذا ثقة بالله عز وجل، ثقةً بوعده، ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢]، تقدم تمدح الرب تمدحه، **(لا إله إلا أنت سبحانك)**، ذكره بأعظم ما يمدح به الرب، ويفرح به الرب، **(لا إله إلا أنت)**، **(أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة)**، انظر بالله عليك، **(أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات)**، هذا المدح، ينادي الله فماذا سيقول له الله؟ لما يقول: **(أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل بي غضبك أو تنزل بي نقمتك)**، خلاص أعوذ بك، أنت عذت، جئت.

والناس يقولوا طنيب، والطنيب من الطنب والطنب هو عمود الخيمة، يدخل إليه الرجل إذا كان مبتلى فيمسك عمود الخيمة ويتعلق به، ويقول لك: خلاص وصلت، هذا طنيب، وأنت الآن دخلت على الله

أعوذ بك، ينزل عليك ربنا سبحانه وتعالى الكنف، أنت تصلي الفجر فأنت في ذمة الله، الذي يعتدي عليك يعتدي على الله، الله سينتقم لك، قال صلى الله عليه وسلم: **(من صلى الفجر في جماعة كان في ذمة الله)**، أنت في كلأ الله في حفظه، هذا الأمر هذا هو سر وجودنا، هذه هي الحياة، وهذه طريقة الأنبياء.

انظروا إلى سيرة موسى عليه السلام في سورة «القصص»، في كل حالة يدعو ربه، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص: ٢٢-٢٤]، في كل حركة يدعو ربه، في كل مرحلة يدعو الله عز وجل.

وهكذا العبد، الله عز وجل معه، ما دام أنه مع الله فالله معه، هذا الدعاء الذي يقوم على اعتقاد أن الله مجيب، انتبه الله المجيب يسمعك فإذا ناديته قال لك: **(لبيك عبدي)**، فإذا سألته أعطاك وأنفذ لك طلبك، فإن حبس عنك شيئًا إنما هو لحاجتك أنت، ولمنزلتك أنت، ولمقامك أنت، هو يريد منك شيئًا آخر.

قد هيّؤوكَ لأمرٍ لو فطنتَ لهُ فاربأ بنفسكَ أن ترعى مع الهملِ

فالله يريد منك أمرًا فأكثر، وكما قال العلماء: «من أكثر الطرق؛ فتح له الباب»، هو الله أنه من أول الطرق يفتح لك الباب، لكن أنت محجوب من أول الطرق يفتح لك الباب، ولكن يريد الله عز وجل منك المقامات الأخرى التي أنت في غفلة عنها عند حضور حاجتك الدنيوية، أنت تريد فقط هذا، لو أن رجلًا دخل وقال: أنا أريد لباس، فأعطوه حذاء، يقول: أنا أريد لباس يا أخي، حذاء عندي، فالعبد للأسف إذا قيل له عند حاجته للولد، يقول أعطيك بدل منه جنة، يقول: أنا لا يهمني أعطيني الولد، وهذا هو الإنسان.

وأعظم حديث يكشف ضعف الإنسان وأنه ينسى هو حديث آخر من يخرج من النار، أقروا هذا الحديث أخر رجل يخرج من النار، فحتى إذا خرج منها قال: الحمد لله الذي أعطاني ما لم يعطي أحدًا من العالمين، ومع ذلك ينظر الجنة، وهكذا يبدأ ويقول له: **(إن سألتني لأعطيك)**، قال: «والله وعزتك وجلالك لا أسألك غيره» ينسى، هذا هو الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣)﴾

[المعارج: ١٩-٢٣]، الذي يقوم فيصلي ويعبد الله ودائمًا نظره إلى الآخرة، لا يزداد من الدنيا لا يأخذ منها إلا ما يكفيه حاجته، ويغتني بالله عز وجل.

وانظر إلى هؤلاء العلماء، ثلاثة من الأئمة من المحدثين اسمهم محمد، محمد بن نصر المروزي، محمد بن جرير الطبري، محمد بن إسحاق، ثلاث أئمة كبار من المحدثين هؤلاء طلبوا العلم مرةً في جَمَعَة مع بعضهم البعض، فانفقوا كل ما لديهم حتى افتقروا ما بقي معهم ولا شيء، فقالوا فيما بينهم: كل يوم على واحد ينزل فيحضر لنا المال، يسأل باب الجامع، يدخل على الدكاكين يشحد يدبر حاله كل يوم على واحد، فنزل محمد بن جرير ونزل محمد بن نصر، وحتى جاء إلى محمد بن إسحاق فقال له: يومك هذا، قال لا والله لا أفعلها، فقام وتوضأ وصلى ركعتين، قام ويصلي ويناجي ربه، وما حتى إذا انتهت الصلاة وإذا الطرق على الباب، فتح الباب قال: أيكم فلان وذكر أسمائهم، فقال: أنا فلان وهذا فلان وذكروا أسمائهم، فقال هذا طعام من سيدي، ثم بعد ذلك ذهبوا إليه يسألوه، قال جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي: أتأكل وتشرب وأحبابي في المسجد لا يجدون ما يأكلون؟ فذكركم وأراني صوركم، فأحضر الطعام إليهم.

وهذه تحصل لكل أحد عندما يستغيث بالله، ما من أحدٍ إلا وقد أجيب الدعاء، والله ثم والله ثم والله لعلمك أن الله أجاب دعائك واستمع نجواك واستغاثتك أحب إليك مما حصل من الدعاء من الفائدة، وهذه ترونها في حياتكم سترونها إذا دعوتم الله فحصل سيكون فرحك بأن الله ذكرك، وأن الله استجاب دعائك، أحب إليك من الحاجة التي سألتها، دائمًا تذكروا الله المجيب قريب يسمع مجيب، دائمًا تذكروا هذا في حياتكم، وإياكم أن تيأسوا وتقنطوا، إياكم.

ووالله أتحدث عن نفسي، ووالله رب العرش العظيم، إنني رأيت من إجابة الدعاء ما يعجز الوصف عنه، ووالله إني دعوت وأنا أتعجب أن يكون هذا يقع أو لا يقع؛ فيقع، فيعطيك الله عز وجل إياه، ولكن لابد من الصبر، الدعاء معه لابد من الصبر، من غير الصبر لا يقع الدعاء، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)﴾ [الطلاق: ٣]، عليك أن تترقى حتى يحصل الأمر، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾، دائمًا تذكرها، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥)﴾ [الشرح: ٥]، دائمًا يتذكر المرء هذا يسلم بإذن الله عز وجل ويحصل له العبادة، اللهم أرحمنا برحمتك ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾ [البقرة: ١٨٦]، بارك الله فيكم وجزاكم الله خير والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا حديث موانع الدعاء في صحيح مسلم، قال صلى الله عليه وسلم: (الرَّجلَ يُطيلُ السَّفرَ أشعثَ أغبرَ يمدُّ يدَه إلى السَّماءِ يا ربِّ يا ربِّ ومطعمُه حرامٌ ومشربُه حرامٌ وملبسُه حرامٌ وغذِّيَ بالحرامِ فأنَّى يستجابُ لذلِك)، كثير من يسأل سؤال أن الله سيستجيب للكافر وقت الحاجة، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، فلماذا لا يستجيب للأول؟

الشيخ: الدعاء على أمرين، دعاءٌ عام ودعاءٌ خاص، الدعاء العام: أن يدعو المرء بزيادة الولد، يدعو المرء بحصول المال، يدعو المرء بحصول الشهادة، يدعو المرء بحصول المنصب، هذا ليس دعاء المضطر، ولكنه دعاء عام، يدعو المرء الله أنه لحاجاته، أو لما ليس من الحاجات يدعو الله للغنى، كما النبي صلى الله عليه وسلم يدعو يقول: **(اللهم أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى)**، فدعا الغنى دعا غنى المال، فهذه يدعو الله عز وجل بأن ييسر له سبل الوصول للبلدة، يمشي يقول توكلت على الله، اللهم يسر لي وهكذا، فهذا دعاء عام.

وهناك دعاء الاضطرار، الذي يكون فيه المضطر، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، هذا المضطر الذي يكون في البحر فتأتي عليه الأمواج فيدعو دعاء المضطر هذا حتى يستجيب للمشرك لأنه يدعو الله مخلصًا، حتى المشرك إذا أصابه الضر دعا في هذه اللحظة دعا الله وحده، لم يدعو ألهته، لكن دعا الله على الإخلاص فأجاب الله دعاءه. فالمنفي في إجابة دعاء هذا الذي يأكل الحرام وغذي بالحرام هذا المنفي هو الدعاء الأول، الدعاء العام، هذا لا يعطيه، يسأل ويقول: يا رب يا رب وحاجته لنفسه فهذا لا يعطى، أما إذا حصل الاضطرار فدعا الله دعاء الاستغاثة أجابه ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ هذه الإجابة.

فلذلك يجب أن نفرق بينهم، حتى المشرك يقول كيف مشرك ويستجيب الله دعاءه؟ هذا دعاء المضطر، دعاء المضطر الله يستجيبه سبحانه وتعالى، أما الدعاء الآخر الذي على المعنى العام فهذا خاص بهذه الأوصاف التي ذكرت في الأحاديث ليس هذا فقط، ومن أن يأتي بشروط الأحاديث، بشروط الدعاء كأن يستفتح بالحمد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وأن يرفع يديه من السنن أن يرفع يديه، وأن يكون أكلًا للحلال مؤديًا للفرائض، موحدًا لله سائلًا الله بإخلاص بتوجه هذا كله في هذا الباب، فإذن

الأمر نفرق بين دعاء الاضطرار الذي يحصل من كل أحد على معنى الاستغاثة التي بها يتم توجه القلب بإخلاص إلى الله، هذا يحصل به الإجابة بلا شروط، إلا هذا الشرط وهو شرط الاضطرار والإخلاص.

السائل: شيخنا هل صح الدعاء يوم الأربعاء بين الظهر والعصر مستجاب؟

الشيخ: هل هذا صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دعا في هذا الوقت؟ وهذا يحتاج إلى تحقيق، للذكر أنا لا أعتقد أن هذا الوقت هو من إجابة الدعاء، الذي حصل أن النبي دعا فاستجيب له في هذا الوقت، الذي حصل في الحديث أنه لم يحرض النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء في هذا الوقت، لكن حصل للنبي أنه دعا في هذا الوقت فاستجيب له، هل هذا لحصول هذا الوقت، لفضل هذا الوقت أجيب له؟ أم لأنه توافق قدريًا؟

يعني مما يذكر علينا أن نفرق في الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم بينما يحصل على جهة القدر من غير طلب للمقصد، وما يحصل من مقصد، من طلبًا للمقصد، كأن النبي صلى الله عليه وسلم يكون ماشيًا فتدركه الصلاة في مكان فيصلي، فهذا لا يدل على فضل هذا المكان، وإنما حصل توافقًا، توافق أن حصلت الصلاة في هذا المكان.

ولذلك ذكره مثلًا الصلاة عند الإحرام، بعض أهل العلم لا يرى الصلاة عند الإحرام، لماذا؟ لأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى ولكن توافق حضور الإحرام الصلاة في ذلك الوقت، فهذا مما لا يقتدى به، أما الذي يقتدى به الذي فعله قاصدًا إياه، كطلبه صلى الله عليه وسلم في الصلاة كان يصلي يذهب إلى قباء في كل سبت ماشيًا لأن الصلاة في قباء تعدل عمرة، **(من تطهر في بيته، ثم أتى مسجد قباء، فصلى فيه ركعتين؛ كان كعمرة)**، فهذه مقصودة.

الآن الذي حصل بهذا الفهم وبهذه القواعد عندما دعا النبي في هذه اللحظة، هل دعا لأن هذه اللحظة مجابة أم توافق قدرًا هذا الوقت في الدعاء؟ الذي عندي هذا الثاني وليست الأولى، الذي عندي أن هذا الوقت توافق في الدعاء، لطلب دعاء فأجاب الله عز وجل دعاءه، وليس لأن هذا الوقت مقصود به الدعاء للإجابة، والدليل أنه لم يرد بعد ذلك أنه التزم هذا الوقت أو حض عليه، أو بينه، لا هو صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه من بعده، لم يحضوا على هذا الوقت بالذات، كحضه صلى الله عليه وسلم عن ساعة الجمعة المجابة، كحضه في السحر من الليل، الثلث الأخير من الليل وهكذا.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس والثلاثون: القريب

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغّر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى وهو اسمه القريب جل في علاه اسم الله القريب، وهذا الاسم العظيم ورد في كتاب ربنا ثلاث مرات ورد مفردًا وورد مقرونًا.

فأما المفرد في قوله سبحانه وتعالى في سورة «البقرة»: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾ [البقرة: ١٨٦].

وأما مقرونًا فقد ورد في سورة «سبأ»: ﴿فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)﴾ [سبأ: ٥٠].

وورد مقرونًا بالمجيب في سورة «هود»: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١)﴾ [هود: ٦١].

وهذه الصفة لربنا سبحانه وتعالى اختلف أهل العلم فيها، اتفقوا على جانبٍ معين واختلفوا في جانبٍ آخر، وأما جانب الاتفاق فهو أن قربه سبحانه وتعالى هنا كما هو قرب الإجابة وقرب الحب وقرب النصرة والتأييد، أنه سبحانه وتعالى إذا سأله العبد أجابه، فهذا قرب الإجابة، وهذه الإجابة لا تكون إلا بالحب والرضا، وكذلك هو السميع سبحانه وتعالى يسمع، فكل هذا دليل عندهم على أن هذا القرب هو قرب المحبة.

وورد القرب كذلك في السنة على هذا المعنى في مواطن متعددة مثل قوله صلى الله عليه وسلم: **(أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)**، وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: **(ومن تقرب إلي باعًا تقربت منه ذراعًا)**، فهذا قرب المحبة من تقرب إلى الله سبحانه وتعالى تقرب الله إليه، والتقرب قد يكون من جهة واحدة فيحصل القرب، وقد يكون من الجهتين بمعنى أنك لو مشيت إلى الحائط فأنت تقترب منه ولكن هو لا يقترب منك، وقد تقترب أنت من رجل وهو لا يقترب منك ولكن الله سبحانه وتعالى من رحمته أنه إذا تقربت إليه بالطاعة تقرب إليك بالنصرة والتأييد والإجابة والمحبة، فهذا القدر من القرب الإلهي لعبده المحبوب ولعبده المؤمن متفق عليه.

وأما القرب الآخر وهو الذي يسمى بقرب الإحاطة والعلم، فأهل العلم على خلافٍ فيه، كثير من أهل العلم يثبت هذا القرب وأن الله قريبٌ من عبيده أي قرب الإحاطة الذي تدل عليه أنه سميع، فقرب الإحاطة، وكذلك يفسرون قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)﴾ [ق: ١٦]، على هذا المعنى؛ أنه قرب العلم.

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وابن القيم فينفيان هذا القرب وهو قرب الإحاطة والعلم على المعنى هذا أنه سميع محيط بسمعه لكل شيء وأن بصره محيط بكل ما يُبصر ويُرى، ولكن قالوا: «إن القرب هنا لم يرد»، وفسروا الآية ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ أن الملائكة، معنى هذا مختصٌ بالملائكة، ولذلك قال: ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (٨٥)﴾ [الواقعة: ٨٥]، فدل هذا على أن الموصوف بالقرب هنا يُبصَر لو وجدت القوة؛ قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)﴾ [ق: ٢٢]، يرى الملائكة.

ولكن قالوا بأن هذا ممتنع في حق الله عز وجل، أن الله عز وجل لا يرى في الدنيا وليس هو داخل العالم حتى يراه العبيد، ولذلك عقيدة الحلول هي من العقائد الشركية يعني أن الله عز وجل يحل ببعض مخلوقاته فتكون هذه المخلوقات أكبر من الله محيطة بالله نعوذ بالله ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فإذا كانت الأبصار لا تدركه، فمن باب أولى ألا يدركه شيء بأن يحيط به وأن يكون فوقه.

ولذلك قالوا كل ما ورد في القرب إنما هو قرب المحبة والنصرة والإجابة والتأييد، وهذا وارد ويقترب من قوله صلى الله عليه وسلم: **(يَنْزِلُ رَبُّنا تَبارَكَ وتَعالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّماءِ الدُّنْيا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يقولُ: مَن يَدْعُونِي، فأسْتَجِيبَ له؟ مَن يَسْأَلُنِي فأُعْطِيَهُ؟ مَن يَستَغْفِرُنِي فأغْفِرَ له؟)**، وكذلك نزوله سبحانه وتعالى يوم عرفة على الحجيج خاصةً دون بقية البشر، وهذا النزول كما ترون هو نزولي ليس في كل العالم فدل على أن نزول ربنا.

كما قال البخاري في صوت ربنا سبحانه وتعالى في حديث **(ينادي الله عز وجل يوم القيامة بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ)**، فقال: «هذا دليل على أن صوت الله لا يشبه أصوات المخلوقين»، لأن أصوات المخلوقين إذا اقتربت منها كانت أوضح وأقوى، فإن ابتعد عنها ضعفت، ولكن صوت الله عز وجل يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ، فدل على أن صوته سبحانه وتعالى ليس كأصوات المخلوقين، وهذا في كل صفة لربنا سبحانه وتعالى، حتى لو اتفقت في الألفاظ فهي لا تشبه ما في الخلق من صفات، فالله عز وجل يرى والعبد يرى، ولكن رؤية الله وجل ليست كرؤية المخلوقين.

وكذلك هنا فأنه سبحانه وتعالى المقصود بالقرب هو قرب المحبة، وهذه صفة لربنا سبحانه وتعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ومن هنا فإن العبد إذا دعا الله عز وجل على هذا المعنى دعاه على صفة تُبين هذه الصفة لربنا، وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)﴾ [مريم: ٣]، لماذا يدعوه نداء خفية؟ لاعتقاده وتصوره وإيمانه بأنه قريب يسمع منه وهو يناجيه في سجوده، لأنه **(أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)**، وهذا قرب كما ترون ليس قرب مكان لأن العبد في السجود يكون أدنى، ولكن المقصود هنا هو قربه من الله عز وجل قرب المحبة وقرب الرضا وقرب القبول.

ولذلك هذه الصفة لربنا سبحانه وتعالى إذا اعتقادها المرء وتعبد ربنا سبحانه وتعالى فيها فأنه يناجيه ولا يخاف من غيره، ولا يسأل غيره، حتى وهو لا يراه، لأن الله عز وجل من عالم الغيب، ليس من عالم الشهادة نحن لا نراه، وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه: قال صلى الله عليه وسلم: **(إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا)**، مع اختلافهم في رؤية الله عز وجل في المنام، اختلف أهل السنة في ذلك، والأكثرون على أن الله عز وجل يرى في المنام، والنبي رأى ربه في المنام كما في حديث **(رأيت ربي الليلة في أحسن صورة)**، مع أنه صلى الله عليه وسلم لم يرى ربه بعينيه، كما قالت عائشة رضي الله عنها وهو الصحيح.

فإن الله عز وجل لا يرى في الدنيا، فهو من عالم الغيب، ولكن إيمان العبد بربه سبحانه وتعالى أنه بقربه وأنه يسمعه، يعني لا يناديه مناداة البعيد، ولذلك لما كان الصحابة في غزوة فصعدوا وجعلوا يكبرون ويرفعون أصواتهم بالتكبير، فقال صلى الله عليه وسلم: **(اربعوا على أنفسكم)**، يعني هونوا لا تنادوا نداءً بعيدًا، وقال صلى الله عليه وسلم: **(فإنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا)**، أي لو كان رجلٌ بجانبك يسمع صوتك فمن الحمق ومن قلة العقل هو أن تناديه بصوتٍ بعيد، وصوتٍ قوي؛ لأنه يسمعك بأقل من ذلك.

ولذلك من حسن الدعاء مع الله، ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)﴾ [مريم: ٣]، وحتى لو كان الذي بجانبه لا يسمعه، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)﴾ [المجادلة: ١]، فقالت عائشة رضي الله عنها: «وكنت في البيت لا أسمع ما تقول له خولة، لا أسمع ما تناجي به النبي صلى الله عليه وسلم وما تشكو به»، ومع ذلك سمع الله سبحانه وتعالى.

أما أدلة من قال: بأنه سميع، قال في قوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧)﴾ [المجادلة: ٧].

فالمقصود بأن هذه الصفة لربنا سبحانه وتعالى إذا اعتقدها المرء وتعبد الله عز وجل بها فإنها توجب على القلب التوكل، ودوام السؤال والاستغاثة ودوام الشعور بأنك محفوظ وأنا كتبت هذا في تفسير سورة «الإسراء»، تأملته فوجدته عجيبًا، وهو المعلوم أن النبي صلى الله عليه وسلم أسري به بعد موت أبي طالب وموت خديجة فسمي هذا العام بعام الحزن، والنبي صلى الله عليه وسلم خرج من مكة وليس فيها مئة رجل مؤمن، مئة رجل وامرأة قد آمنوا، عدد قليل جدًا، والمرء تقتله الفرادة تقتله الوحدة والغربة، أشق ما يعانيه العبد هو الغربة والانقطاع، الإنسان أخذ اسمه من الأنس، وليس من النسيان، قال بعضهم من النسيان وهذا ضعيف، وإنما الإنسان أخذ اسمه من الأنس، والأنس يقتضي وجود من يسمع ويحاور ويتكلم ويرى.

ولذلك آدم عليه السلام لما الله عز وجل وضعه في الجنة احتاج إلى الأنس، فخلق له سبحانه وتعالى زوجته حواء، وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن أم إسماعيل: **(وكانت تحب الأنس)**، لما وضعها إبراهيم عليه السلام مع ابنها إسماعيل عند البيت الحرام في مكة قال: **(وكانت تحب الأنس)**، فالإنسان ليس وحشًا، الوحش هو ضد الأنس، الفرق بين الإنسي وغيره، أن الوحش ربما يعيش وحيدًا، مع أنه ثبت بأن الوحش كذلك يعيش في جماعات والقليل منها ما يعيش منفردًا ويكره الجماعة، وربما لا يوجد، فالإنسان يحتاج إلى الأنس.

وأعظم الغربة ليس فقط غربة البدن، ولكن أن تعيش بين الناس غريبًا، يعني إذا غاب الناس عن بصرك تحتاج إلى رؤيتهم والأنس بهم، لكن تصور أنك تعيش بين الناس بأجسادهم وهم يبغضونك، ويشيحون بوجوههم عنك، ولا يلتفتون إليك، تصافحهم فلا يردون عليك، تسلم عليهم فيعرضون عنك، هذا أشد.

فالنبي صلى الله عليه وسلم في عام الحزن وهو بشر والنبي صلى الله عليه وسلم من أكمل الناس نفسا، والإنسان بنفسه يحب الأنس، ولذلك الله سبحانه وتعالى لما رأى منه ذلك، أخذه إلى السماء، ليرى مكانته وهذا كل الدعاة يحسون به، فالله ينزل عليهم من المعاني ما يشعرون بها بقربهم من الله عز وجل، يعني ما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم من معجزات يحصل نوعها ومعانيها لعبيده المؤمنين من اتباعه، من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، يحصل كل معجزة حصلت للنبي كل معنى إيماني حصل لقلب النبي فبعض معانيه يحصل لاتباعه هذا مما لا شك فيه.

فلذلك الله عز وجل أخذه إلى السماء فرأى مقامه عجبًا! ولذلك الله عز وجل لما تحدث في سورة «هود» عن الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠)﴾ [هود: ١٠]، تحدث عن الإنسان، هذا الحديث الذي يبين منزلة الإنسان وانشغاله بنفسه وعدم تمام عقله وإدراكه لما يقع عليه من الأقدار، ماذا ختم هذا الحوار في بيان حقيقة الإنسان؟ قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]، بعد أن ذكر الإنسان وما هو: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، فبين أنه إنسان أنه فقط مربوط بالمال، ومربوط بالدنيا ومربوط بالعاجلة، هذه حقيقة الإنسان.

فبعد هذه المقدمة قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ فما المقصود بها؟ من أجل هؤلاء تترك الحق! بعد أن بين من هو الإنسان، من أجل هؤلاء تترك الحق، ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾، في نفس السياق، فأنت كأنك تقول يعني هذا جاهل، تترك هذا العلم من أجل هذا الجاهل، هذا ليس مدركًا للعواقب تترك هذا العلم من أجل هذا الذي لا يدرك العواقب فلعلك تعرف، أنظر هذا بعد أن مكن منه حقيقة الإنسان وما هو عليه أراد البناء عليها شيئًا عظيما أن تمسك بالحق.

فالنبي صلى الله عليه وسلم نشأ في بيئة يعظم فيها هؤلاء أعمامه وأخواله، ويعظم فيها قبيلته وعشيرته وهكذا، ولذلك الله عز وجل قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، في بيئة تعظم الآباء والأجداد.

فالله عز وجل سرى به فرأى عظمته ومقامه –أنا أريد أن أصل لنقطة الآن ليس هذا فقط، هذا شيء مفهوم، ولكن أريد أن أصل لماذا جاءت بعض المعاني في قربه– فسرى به فرأى موسى قائمًا يصلي في قبره، ثم أمَ بالأنبياء في بيت المقدس، جمع له الأنبياء فصلى بهم إمامًا، هذا مقامك، ثم صعد به إلى السماء فكانت الملائكة تسأل من هو؟ من هذا؟ يستفتح جبريل، ويقول: محمد صلى الله عليه، هو بعث وهكذا يمر على الأنبياء يسلمون عليه يصافحونه، ثم صُعد به إلى سدرة المنتهى، حيث كلمه الله عز وجل رأى مقامه.

هذا المعنى كيف يحسه؟ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾ [الإسراء: ٤٤] لماذا ورد هذا النص في هذا السياق من سورة الإسراء؟

الأنس الذي حصل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا ذكر الله وإذا عبده تذكر هؤلاء العباد من الأنبياء، فتأمل وأنت تسبح منفردًا ليس معك أحد في زنزانة، وضعك الطاغوت في زنزانة وأقفل عليك، فتأمل هذا الحال فقط تأمل أنك تسبح وكل شيءٍ يسبح معك، بما يحصل الأنس؟ أنه يوجد أحياء حولك.

وأذكر كان إخواننا في السجن يفتحون دائمًا التلفاز، وهم لا يشاهدونه لماذا؟ قالوا: نريد أن نشعر بصوت إنسي حولنا، فقط حتى نشعر بصوت، أنه في إنس موجود معنا، فهم يبقوا في هذا السجن انفرادي سنين، فتأمل أنك تحس بأن يسبح معك.

ما الذي يريد أن يقول؟ ما أراده الله عز وجل من معاني في قلب النبي صلى الله عليه وسلم بأن يريه عظمته في إنك أنت في هذا المقام في كل وقت، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، أنت إذا كنت منفردًا وإذا كنت وحيدًا في الذكر فلست وحيدًا، أنت وحيدًا من الإنس من إخوانك من البشر، ولكن لست وحيدًا بالنسبة لبقية الخلق، فكل الخلق يسبح معك، فإذا اعتقدت هذا الاعتقاد، وتصورت هذا التصور على المعنى الصحيح التام، هل تحصل الغربة؟ الغربة عند الآخرين تقتل النفوس، والصالحون يطلبونها، يطلبونها لِمَ يأنسون به من معاني لا تحصل لدى غير المؤمن.

تصور أن رجلًا يقول: أين تقوم؟ قال: رجل من أهل الحديث، قال: أقوم إلى الصالحين الذين لا يكذبون، يقول الحديث ويجلس، أنت إذا دخلت المكتبة ابتعدت عن الناس، دخلت المكتبة تقرأ الحديث تكون مع من؟ أنت تحادث من؟ في كتابك في حديث تحادث من؟ تحادث علي بن المديني، تحادث يحيى بن سعيد القطان، تحادث عبد الرحمن بن المهدي، أنت تحادثهم وهم يحدثونك، تسألهم فيجيبونك، فكيف إذا أنت قمت تصلي وباعتقادك أن كل شيء يسبح بحمد الله؟ وهذا المعنى على درجة من اليقين يعطيك الأنس الذي حصل لقلب النبي صلى الله عليه وسلم وهو يأنس، عندما أسري به وعرج به إلى السماء، وهذا هو المعنى الذي يحصل بالقرب.

فإذا أنت كنت ساجدًا وعلمت أنك أقرب ما تكون إلى الله وأنت ساجد، القريب، فأنت تكثر من السجود، وكل سجدة يحصل لك بها في الحديث درجة، وفي كل سجدة تكون قريبًا فتُسأل، هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ وباعتقادك أن الله قريب منك لا تحس بالغربة، حتى وأنت مبتلى الله قريب منك.

فمن الذي أنقذ إبراهيم عليه السلام من النار؟ ﴿قُلْنَا يَا نَارُ﴾، الله قال للنار، الله عز وجل سبحانه هو الذي أنقذه كرامة له، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء: ٦٩]،

كان الله عز وجل بقدرته جل في علاه أن يرسل ريحًا، فتفسد النار وتطفئها، أو أن ينزل المطر، تأملوا هذا المعنى ليكون كرامة لإبراهيم، هذا المعنى لتكون كرامةً لمن أراد الله أن ينقذه، فلم يطفئ النار ولم يفسد النار بالمطر ولا بالهواء، ولا بما تفسد به النار، ولكن جعل النار حقيقةً أخرى، ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾، النار نفسها صارت بردًا وسلامًا على إبراهيم، لماذا هذا؟ لأنه قال هذه الكلمة: حسبي الله ونعم الوكيل، كما قال ابن عباس رضي الله عنه، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وإذا ذكرت الله ذكرك الله، من ذكر الله في نفسه ذكره الله، وأنت تذكر الله تأمل هذا المعنى، وأنت مصليًا وأنت تقوم وأنت مصلي، تأمل أن الله قال: **(فلا يبزقن أحدكم في قبلته فإن الله تجاهه)**، تأمل أن الله عز وجل معك، وتأمل أن الله عز وجل يراك، ليس هذه الرؤية التي تحصل لكل أحد، لكنها على رؤية الرعاية وعلى رؤية الحب، فأنت تذكر الله فالله عز وجل قريب منك، وأنت إذا ذكرت الله ذكرك الله، إذا ذكرته في ملأ ذكرك في ملأ خير من ملأك، الملائكة، لا إله إلا الله.

فهذا العالم أي عالم المعاني يبعد عنك قيمة الأشياء، كل هذه الأشياء وهذه الدنيا مختلطة بالقاذورات، إلا ما كان من التوحيد والعبادة إلا ذكر الله وما والاه وعلمًا ومتعلمًا، الدنيا ملعونة، فتأمل أنك وأنت تذكر الله سبحانه وتعالى الله يذكرك، وهذه من البسط والفرح ما لا تطيقه القلوب.

جاء جبريل قال: **(بشر خديجة ببيتٍ في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب)**، الله يذكره، وجاء للنبي صلى الله عليه وسلم في عائشة رضي الله عنها وبشرها، «هو ذكرني»، **(ذكرك)**، جاء صلى الله عليه وسلم لأبي بن كعب وقال له: **(إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة البينة)**، ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١)﴾ [البينة: ١]، قال صلى الله عليه وسلم لأُبيّ: **(إنَّ اللّهَ قد أمَرَنِي أنْ أُقْرِئَكَ القرآنَ، قال: آللهُ سَمَّانِي لك؟ قال: نَعَمْ، فجعَلَ يَبْكي)**، يعني مفهوم العموم أنه ذكر أقرأ على أصحابك، فأنت تقرأها علي، قال: بل ذكرك باسمك، فهذا عالم المعاني لأن الله أحبهم، ولهذا لم تكن هذه المحبة لتحدث إلا لمحبتهم لله، وانشغالهم بما يحب الله، انشغالهم بقراءة القرآن، انشغالهم بالصلاة، في تقدمة أنفسهم وأرواحهم وأموالهم لله عز وجل.

المقصود: أن هذا الاسم إذا المرء استشعره ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، سبب نزول هذه الآية وإن كان في الحديث ضعف ولكن في التفسير وفي أسباب النزول يتسمح في هذا، قالوا: أقريبٌ

ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه، ما الجواب؟ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، الله عز وجل قريب للمؤمنين بحبه لهم وبرضاه عنهم، وهذا قرب لا ندري عنه، لا نعرف كيفيته، وهو سبحانه وتعالى مع علوه فوق عرشه، هو سبحانه وتعالى خارج هذا الكون فأنه لا يحيط به شيء من هذا الكون، هو خارج هذا الكون جل في علاه، واستوى على العرش وهو له العلو المطلق، هو في السماء في العلو المطلق الذي لا شيء فوقه، وهو مع ذلك سبحانه وتعالى مع عبده قريب من عبده القرب الذي به يجيب دعاءه ويسمع نداءه ويحب تسبيحه ويحفه بالملائكة ويحفه بمحبته وبرضاه.

وهذا ما يدعونا هذا الاسم أن نتفكر فيه، وأنه سبحانه وتعالى قريب وسميع، وقريب مجيب وانظر قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ﴾، لأنه قد يكون القرب بلا فائدة، وقد يأتيك الرجل بالكلام من غير أن يعطيك الفعال، قريب منك ولا ينقذك إذا جاءتك المصائب والبلاء لا ينقذك، لكن هنا ماذا قال الله عز وجل؟ ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وهذا ما يجب الإقرار به، وهذا القرب هو فوق السمع والبصر بمعنى آخر هذا القرب يقتضي أنه سميع، يقتضي أنه يسمعك، هذا قرب يقتضي أنه بصير ولكن هذا معنى آخر، وهو معنى النصرة والتأييد والمحبة وهو خاصٌ لأناسٍ دون أناس، ويختلف هذا، فالسمع والبصر عام لكل الخلق، وهذا قرب خاصٌ لمن يستحقه من عباده.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته وأن يجعلنا ممن يتقرب إليه سبحانه وتعالى بهذا الاسم العظيم وهو ما أنزله على عبيده إلا لحاجتهم إليه، فالله عز وجل غني عن العباد لكن يحب لهم أن يعيشوا المعاني التي يريدها الله، الله عز وجل أوجد الأشياء من أجل أن تتحقق المعاني، أوجد المال من أجل أن يتحقق معنى الغنى، في كل وقت يحمل المال على ظهره، هل يحمل المال على ظهره كل وقت؟ لا، إنما هو يحمل اسم الغني، يكفي أن يكون اسمه الغني، فمعنى الغنى لتتحقق المعاني كلها، يدخل على البيوت فيشتريها يدخل على الطعام فيشتريه يدخل على الذهب فيشتريه، بما يشتريه بالمعنى.

وهكذا الله خلق الأشياء من أجل أن تحصل المعاني، وخلق كل هذه الدنيا من أجل أن يحصل شيء واحد وهو عبادة الله، خلق كل الأشياء من أجل أن تتحقق هذه الصفة بالعبد؛ عبودية العبد لربه، ما هي العبودية؟ أن يحمده، الحمد فعلٌ أولًا هو القلب، معنى القلب لو لم تنشأ هذه المعارف في القلب لما كان لها قيمة، لو أن رجلًا تكلم بلسانه بلا قلبه فلا قيمة لكلامه، فالمعاني، فالله خلق الأشياء كلها من أجل المعاني.

ومن هنا فالعلماء خير الخلق، لماذا؟ قال صلى الله عليه وسلم: **(إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)**، ما هو العلم؟ المعاني، أن تعلم معاني الأشياء، يقال لك: صلي، تقول: كيف أصلي؟ فأنت تبحث عن معنى الصلاة، كيف أصلي؟ الزكاة تتسأل ما هي الزكاة؟ فأنت تسأل عن أحكامها، فأنت تسأل عن معانيها، لتحصل، فإذا حصلت المعاني حصلت قيمة المرء، وارتفعت أسهمه ومنزلته عند الله عز وجل.

فالقصد: هو أن نُحصّل المعاني، وحيث عظمت المعاني في نفس المرء عظم المرء في عين الله عز وجل، لو أتى المرء يوم القيامة لو أتى بكل الأرض ذهبًا هل يفتدي؟ هل يستطيع؟ لكن لو أتى بالإيمان، لو معه ذرة من الإيمان، تنجيه أو لا تنجيه؟ ذرة من الإيمان تنجيه، كم هذه الذرة؟ كم ثمنها في الجنة؟ ما هو أدنى أهل الجنة منزلة؟ تعرفون الحديث **(ذرة من الإيمان خير من الدنيا وما فيها مرة ومرة قال عشر مرات)**، فقط هذه للمقاربة وإلا في الحقيقة الأمر أعظم، ليس في الدنيا من الآخرة إلا الأسماء، فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا هذه المعاني القلبية وأن نذوقها عملًا وعبادةً وتقوى، وهو السميع العليم جل في علاه.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس السابع والثلاثون: المُقيت

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغّر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الذي نتعبد الله سبحانه وتعالى بالعلم به، ونتعبد الله عز وجل به في أعمالنا وفي أقوالنا وفي عباداتنا وفي حاجاتنا ألا وهو اسمه سبحانه وتعالى: **الْمُقيت**، وهذا الاسم ورد في كتاب ربنا سبحانه وتعالى مرة واحدة في سورة «النساء»، وكذلك ورد في الحديث المشهور في أسماء الله الحسنى مع أن الحديث كما تعلمون ليس صحيحًا عن النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو من جمع بعض أهل العلم، فهذا الاسم من أسماء ربنا سبحانه وتعالى ورد في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (٨٥)﴾ [النساء: ٨٥]، والْمُقيت ورد لأهل العلم فيه أقوال:

القول الأول: الذي رجحه ابن جرير الطبري عليه رحمة الله، وهو بمعنى القدير، الْمُقيت بمعنى القدير، وأحتج له ببيت الشعر المنسوب لحمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم، أسد الله وأسد رسوله:

وذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ ... وكُنْتُ عَلى مَساءَتِهِ مُقِيتا

يقول: وذِي ضِغْنٍ: أي ذي حقد أو ذي خصومة، كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ: أي لم أرد أن أجابه وأوجهه، وكُنْتُ عَلى مَساءَتِهِ: أي أن أسيء له وأن أذيه، قادرا: مُقيتا.

القول الثاني: مُقيتا أي بمعنى شاهدا، وهذا قول جماعة من أهل العلم.

القول الثالث: الْمُقيت هو القادر على أن يعطي أهل الحاجة قوتهم، من القوت والمعنى اللغوي كما ترون هو مأخوذ من هذا، في الاشتقاق هذا مأخوذ من المعنى الثالث وهو القوت، أي الذي يقيت الناس، مُقيت أي الذي يقيتهم، ماذا يقيتهم؟ القوت، والقوت إنما ما تقوم به النفس من حاجاتها وإنما تقوم النفس بشيئين من الأشياء المادية كالطعام والشراب ولذلك يسمى الطعام قوتًا، لأنه مما تقوم به النفس.

وكذلك الأرواح تقوم بالعلم، وتقوم بالإيمان، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦]، فالأرواح تقوم ليس بالطعام ولا بالشراب، ولكنها تقوم بالعلم وتقوم بالإيمان، فالله عز وجل يُقيت الخلق ما يحتاجونه في قِوام أجسادهم وأبدانهم وحياتهم، حتى إذا جاءهم الموت منع عنهم القوت فسلبهم حياتهم وماتوا، فيحبس عنهم النفس، يحبس عنهم الحياة يأخذ منهم أرواحهم، فيعودون أبدانًا بلا حراك.

وهذه المعاني من تأملها أي الثلاثة ليست بعيدة عن الأصل، وليست بعيدة عن بعضها البعض، فالاشتقاق اللغوي من القوت، فمن كان عنده هذا القوت في أن يطعم غيره وأن يعطيه ما يحتاجه، والخلق لا ينتهون يعني الخلق مع الله عز وجل ليس كالضيف مع مضيفه، لأنه إذا مات واحد قام غيره، والله سبحانه وتعالى لم يخلق فقط الإنسان الذي يموت، هناك من المخلوقات ما هي تحتاج إلى قيام الله عليها، فهو يقيتها بالقوة والمدد والوجود هناك الجن، هناك السماوات هناك الأرض والله يُقيت هذا القوت ليكون قوتًا، يقيت هذا الشجر الله يمده ليكون هذا شجر ويكون مثمرًا.

فالضيف إذا حل بك تقوم به في حاجة ثم بعد ذلك ينصرف، يذهب، ولكن إذا مات العبد انتقل إلى حياة أخرى يحتاج فيها إلى مدد، يحتاج فيها إلى إغاثة، لا ندري ما هي أقوات الخلق في عالم البرزخ، ماذا يحتاجون ليعيشوا هذه الحياة في عالم البرزخ؟ ونحن نعلم أن الشهداء أحياء عند ربهم، أحياء يعني الله عز وجل يمد أرواحهم بمدد من عنده، وعطاء وقوت من عنده، وكذلك نعلم الصالحين كثير منهم يكونون أحياء في قبورهم، وأبدانهم لا تبلى، كما لا تبلى أبدان الأنبياء، وكذلك بعض الشهداء، يؤتى إليهم بعد عشرات السنين، كما ورد في زمن معاوية عن قتلة أحد، جاء السيل فكشف أبدانهم، فإذا هي طرية حتى أن أحدهم رفع يد أبيه عن مكان جرحه فنفث دمًا، وكأنه دفن الآن، بل لربما يدفن الآن فيبلى بسرعة ويتغير بفعل عوامل ما، لكن هؤلاء بعد عشرات السنين كانوا كما هم فمن الذي أقات أبدانهم لتكون هكذا؟ وهؤلاء الملائكة الذين يسرحون في الجنة ثم يؤوبون إلى قناديل معلقة في العرش من الذي يقيتهم؟

فلذلك الله سبحانه وتعالى هو الذي أعطى القوت للخلق، وكما نرى هنا لابد من شيء نكرره كثيرًا، الله أقام العباد لتتحقق في تعامل الله معهم أسمائه وصفاته، يعني هو اسمه سبحانه وتعالى الْمُقيت، فخلق الخلق على هذا المعنى ليكونوا محتاجين للقوت، كما أن الله عز وجل غفور فأنه أقام الخلق على معنى الذنب من أجل أن يقع اسمه الغفور، أقامهم، الله أقام الخلق لتتحقق أسماؤه فيهم، لتتحقق أفعاله فيهم، لتتحقق صفاته سبحانه وتعالى فيهم، أي على معنى الإجراء.

فالله عز وجل خلق الخلق يحتاجون إلى القوت، والله لو أراد لجعل الخلق ... ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٠-٥١]، الله سبحانه وتعالى قادر أن يخلق الإنسان على معنى الحجر فلا يحتاج لشيء، ويعيش ويتحرك ويتنعم وهو حجر أو حديد ولا يحتاج، الله قادر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها: **(الذي أمشاه على رجلين قادر أن يمشيه على وجهه)**، من الذي جعل للرجلين خاصية المشي؟ ولو شاء لسلبها، وكانت الرجلين للرؤية، من الذي أدراك، أن يرى المرء برجليه وأن يمشي على وجهه، فسبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: ٥٠]، ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣)﴾ [الأعلى: ٣]، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالله عز وجل أقام الخلق على هذا المعنى، وهو الذي قدر الأشياء أن تكون هكذا، قدر للدواب أن تكون على هذا المعنى ليتحقق بها النفع للإنسان، الله الذي خلق الشجر على هذا المعنى ليكون فيه المنفعة للإنسان، فخلق الإنسان على حالةٍ لتتحقق عبودية الله عز وجل فيه، فكل اسمٍ نراه حاجة الإنسان إليه في عبادته.

فالله عز وجل إذن أولًا ما دام أنه مُقيت، ويعطي كل شيء قوته الذي يقوم به، وقِوام الحياة على هذا الطعام والشراب والعلم، الذي يقوم به فمن كان كذلك كان قادرًا، فلذلك فسروا الْمُقيت بالقادر، لأن من يكون قائمًا على غيره بإعطاء القوت له، في كل ما يحتاجه، وهو قائم على كل شيء فيما يحتاجونه فدل على أنه سبحانه وتعالى قارد، ومن هنا جاء كلام ابن عباس رضي الله عنه الذي اختاره ابن جرير رحمه الله بأن الْمُقيت بمعنى القادر وأحتج في هذا ببيت الشعر الذي تقدم ذكره.

وأما أنه سبحانه وتعالى الشاهد أو الشهيد على الخلق فإنه سبحانه وتعالى ما دام أنه يعطي كل أحدٍ ما يحتاجه من القوت إذن هو يشهده، ما معنى الشهود؟ الحضور، فلو غاب عنهم لجاعوا وماتوا.

فمثلًا: الطفل لو أن أمه تركته في البيت من غير رعاية، وهو لا يقوم على شأن لا يستطيع، الإنسان لا يستطيع أن يقوم بشأنه، الإنسان فقير أخص خصائص الخلق الفقر، والفقر فينا ذاتي لا يتغير ولا يرتفع الفقر منا، ولو الدنيا كلها كانت بين أيدينا لما خرجنا من معنى الفقر، لأننا لما كنا بحاجة إليها كنا فقراء، فخلقنا على معنى الفقر، فالفقر فينا ذاتي، كما أن غنى الله ذاتي لا يحتاج إلى أحد، ولم يتحصل معنى الغنى بتحصيل الأشياء وخلق الأشياء ووجود الأشياء بين يديه.

فلذلك سبحانه وتعالى لما كان معطيًا كان شهيدا، فلو أن أمًا تركت ابنها في البيت من غير أن تطعمه وأن تقيته لما كانت شاهدة غائبة عنه، لكن لو كانت حاضرة لأعطته حاجته متى طلبها، فالله سبحانه

وتعالى الْمُقيت بمعنى الشهيد الذي يعطي، أنت تطلب، أنت تحتاج الآن إلى النفس لولا شهود الله لك، لولا شهود الله لك ما تلجلج النفس فيك، وهو شاهدٌ عليك أنك الآن تتنفس، هو شاهدٌ على عينك أنها الآن تبصر، هو شاهد عليك أن الدم يجري في عروقك، هو شاهدٌ على هذا، فلو غاب عنك ما الذي يقع؟ خلاص يتوقف كل شيء، فشهوده قدرته ثم شهوده هو الذي يجعل القوت يصل إليك، الدم يتحرك، في قوة العين تبصر وهكذا، الأذن تسمع، اللسان يتحرك وهكذا.

ولذلك قالوا: كذلك من معنى المقيت الحفيظ، وكل هذا معنى واضح، ما دام أنه سبحانه وتعالى يقيتهم ويعطيهم أقواتهم وحاجاتهم، فدل على أنه هو الذي يحفظهم، حتى إذا جاءت أقداره بأن يبيدوا وينتهوا، حبس عنهم كل شيء، وغابت عنهم رعاية الله عز وجل بأنه أزالهم من هذا الوجود، فهذه المعاني حين يستحضرها العبد في حياته أنه سبحانه وتعالى هو الذي يعطينا كل شيء، ما من شيءٍ في الوجود يخرج عن إرادة الله.

وجاء في وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس في الحديث الذي رواه الإمام الترمذي أنه صلى الله عليه وسلم قال له: **(... واعلم أن الأُمة لو اجتمعت على أَن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)**، فلو أن البشر كلهم أرادوا أن ينفعوا بشيء لا ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو أراد البشر كلهم بل الخلق كلهم بل الجن والإنس والملائكة على أن يضروك بشيء، لم يرده الله عز وجل لم يشأ الله أن يقع، لن يضروك بشيء، فإذن لماذا تجزع؟ ولماذا ترتبط بغيره؟ لماذا تسأل غيره؟ لماذا تمد يدك إلى غيره؟ وهو يعطيك بإذنه، حتى لو شخصٌ ما أراد أن يعطيك ولم يرد الله لا يستطيع.

وهكذا نرى نحن لو قدر لأباءنا أن يكونوا هم أصحاب أقدارنا، لأفسدونا وأعطونا كل شيء، ولكن لا يستطيعون، الأب يريد أن يعطيك، لا يستطيع، ابنه يموت بين يديه يريد الأب أن يعطي ابنه الحياة، لا يستطيع، ابنه يمرض فلا يستطيع أن يأكل يريد أن يطعمه فلا يستطيع، والإنسان يريد أن يتحرك فلا يستطيع، إذا سلبه الله القوة قال لهذا الجسم خلاص ما في قوة، هو يتمنى أن يمشي يتمنى أن يأكل يتمنى الأعمى أن يبصر لا يستطيع.

فلا يوجد شيء أنت تملكه، فاعلم أن كل شيء بيد الله، هذه الثقة بالله عز وجل اليقين على أن كل شيء بيد الله، هذه تصنع العلاقة الحقيقية لواحد وهذا هو التوحيد، التوحيد هو ألا تنصرف إرادتك القلبية

إلا لواحد، في سؤالك وحاجاتك وحمدك وثنائك وطاعتك وإخباتك وعبوديتك إلا لواحد، هذا هو التوحيد.

التوحيد: أن تصرف كل إرادة في قلبك إليه سبحانه وتعالى مما تحتاج، إذا احتجت تتوجه إلى واحد، إذا حمدت هو الذي يستحق الحمد، لأنه ليس هناك شيء أتى إلا منه.

وقد يقول قائل: ألا أشكر الناس، هذا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(لا يَشْكُرُ اللهَ مَن لا يَشْكُرُ الناسَ)**، لأن فطرة الشكر في رؤية يد المنعم حقيقة واحدة، الإنسان لا ينشطر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [محمد: ٣٠]، فالإنسان لا ينشطر، ما معنى لا ينشطر؟ أي لا يمكن أن يكون في نفس الوقت حسنًا وسيئًا بخلقٌ واحد.

فالكرم لا يتجزأ في الإنسان، نعم الكرم مراتب هناك كرماء عظام، هناك كرماء في الوسط، هناك كرماء قِلة، هناك بخلاء، ولكن إذا وجدت صفة الكرم في المرء فإنها لا يمكن أن تعطى لأحد دون أحد، وكذلك الشكر من فطر قلبه على رؤية المنعم وأن كل شيءٍ يعطى يستحق أن يثنى على معطيه هذه حقيقة واحدة في القلب، لكنها في ابتداء الأمر ينبغي أن تتوجه إلى المنعم الحقيقي الذي يسر لك المنعم المجازي الذي أعطاك إياه.

فمن الذي يسر لك والدك من أجل أن يعطيك؟ من الذي يسر لك أمك؟ من الذي أجرى في ثديها اللبن الذي لا يتحرك إلا بعاطفة أمومة أجدوها الله في القلب، ما الفرق بين أمك وهذه المرأة؟ ما الفرق؟ هذا جسد وهذا جسد، ومرات يكون غير أمك فيها من العاطفة التي تتحقق بها عاطفة الأمومة، كما وقع مع موسى عليه السلام، فإن زوجة العزيز زوجة ملك مصر، أوجد الله في قلبها من المحبة كأنه ولدها، من الذي أوجد هذا؟ قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩)﴾ [طه: ٣٩].

قال صلى الله عليه وسلم: **(إنَّ اللَّهَ إذا أحَبَّ عَبْدًا دَعا جِبْرِيلَ فقالَ: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأحِبَّهُ، قالَ: فيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادِي في السَّماءِ فيَقولُ: إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فأحِبُّوهُ، فيُحِبُّهُ أهْلُ السَّماءِ، قالَ: ثُمَّ يُوضَعُ له القَبُولُ في الأرْضِ)**، وقد يقول قائل: الله لماذا ينادي؟ هذا النداء من أجل شهود الخير، قد يقول قائل: الله يضع في قلب جبريل فيحبه، طب لماذا يا جبريل إني أحب؟ هذه كرامة زائدة، قد يأتي الملك فيعطيك مال بالسر بينك وبينه، هذه نعمة عظيمة، لكن عندما يشهر بك إني أحب فلان فخذ ما شئت، هذه عظمة أخرى هذه شهود النعمة التي فيها الفرح أكثر ربما أشد من النعمة نفسها، فانظر لما ينادي الله، الله ينادي فالأمر أعظم من أن فقط يأمر القلب بأن يحب فلان، لكن فيه شهود الخير.

أحدهم قال: لماذا قال أبو نواس:

ألا فاسقني خمرا وقل لي: هي الخمر ولا تسقني سرًا إذا أمكن الجهر

قال: يريد أن يجمع بين لذة الذوق ولذة النظر، قال: ولذة سماع اسم الخمر.

فيقع الفضل الإلهي، ولله المثل الأعلى، يقع الفضل إلهي أني أحب فلان، ينادى اسمه في الملكوت، أنت هل تعلم هذا الفضل؟ يعني هذا اليقين يجب عليك أن تتجاوز حجب الوجود من أجل أن تعيش حياةً حقيقية، البقاء في هذه الحياة بهذه المادة التي نعيشها هذا ستار حديدي كأنك تعيش في سجن، والله أنه قاتل ومؤلم ومتعب، هذا الإنسان الذي يعيش فقط في جدار هذا الوجود الدنيوي المشهود، هذا إنسان مسكين مأسور، محبوس أنت عندما تكشف هذا الحجاب فتعلم أنك إذا ذكرت الله في ملأ ذكرك في ملأ خير من ملأك.

فنحن الآن نجلس فهل يغيب عن أذهاننا أن هناك ملائكة يشهدوننا؟ لأننا نذكر الله ونتكلم عنه، نحن الآن في هذا المجلس بيقين أن الملائكة حفته، وجعلت تحفه حتى تصل إلى السماء، فيقول الله من أين أتيتم؟ يقولوا: من عند عبيدك، ماذا يفعلون؟ يذكرونك يسبحونك يمجدونك، ونحن بفضل الله في هذا المجلس نسبح الله ونحمد الله ونعظم الله ونتحدث عنه، ونرجو جنته، فاكشف الحجب.

جاء النبي ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤)﴾ [التكوير: ٢٤]، جاء النبي من أجل أن يكشف الحجب، من أجل أن يعرفك الحياة الحقيقية، ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤)﴾ [الفجر: ٢٤] هذه ليست حياتك، ليس لك من الدنيا إلا ما أكلت فأفنيت ولبست فأبليت، ما بقي شيء كله ذاهب ولا شيء، الطعام إلى بيت الخلاء، الثوب والبدن بعد ذلك إلى التراب، فأنت اكشف الحجب.

ومن أجل هذا أقول: من أعظم ما يحصل لك الخشوع في الصلاة هو أنك حين تذكر الله تريد أن ترضي الله عز وجل، أن يرضى الله عز وجل عنك وأنت عندما تسبح يجب أن تعلم أنك إذا قلت سبحان الله ذكرك الله، عندما تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم اكشف الحجاب أبعد، عندما تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم اعلم اللهم صل على محمد وعلى آله وصحبه وسلم الآن رد عليك رسول الله السلام، هذا العطاء الإلهي.

فأنت بحاجة إلى مدد الله، بحاجة إلى عطاء الله، بحاجة إلى كرامة الله عز وجل، فأن تعلم أن الله عز وجل بيده كل شيء هو الْمُقيت هو القادر هو الذي يعطيك هو الذي يمنعك، وسبحانه وتعالى إذا منع فلا من معطي، والأصل في ربنا جل في علاه أنه العطاء، لكن حكمته وأقداره تغلب حبه للعطاء، قال

صلى الله عليه وسلم: **(إن الله تعالى قال: وما تردَّدتُ عن شيءٍ أنا فاعلُه تردُّدي عن قبضِ نفس المؤمن، يكره الموتَ وأنا أكْرهُ مساءتَه)**، تردد لأن الله كتب القدر يموت أن يموت، ولكن يكره مساءته، فيجري القدر لا يجري يحب الله، يكره مساءته يحب أن لا يميته حتى لا يسيئه.

انظر الله يتعامل مع عبده بهذا المعنى العظيم الجليل، قال: **(أكره مساءته)**، الله يكره أن يسيء لك، طب لماذا يسلمك لأعدائك، فتسجن وتبكي؟ لماذا؟ لحكمة القدر والأمور بمآلاتها، ما قيمة الأشياء في لحظتها؟ اللحظة ذاهبة، اعلم أن أسوء ما يعيشه المرء هو أن تطحنه اللحظة الراهنة، اللحظة الراهنة قلقة لا قيمة لها، الآن قبل ثانية أين كنا؟ ذهبت، والآن هذه اللحظة ذهبت.

فلذلك المشكلة في الإنسان هو استغراقه في اللحظة التي يعيش فيها، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣)﴾ [الإسراء: ٨٣]، إذا مسه الشر لا يعلم العاقبة لا ينظر للعاقبة، إما إذا نظر للعاقبة لا يهتم، وإذا جاءته اللحظة الممتعة بعد ذلك خلاص هي تذهب، من هنا هذه الدنيا دار الغرور، لأنها كلها ذاهبة، كلها لحظات ذاهبة، الآن مساكين نحن، في كل يوم يا أخي تذهب أرواحنا وتذهب أنفسنا وننتهي من هذه الحياة كل يوم، البارح ذهب سجلت ورقة بذهاب أعمارنا واقتربنا إلى القبر، الآن اقتربنا للقبر في كل لحظة نعيش ونقترب إلى القبر.

فتعجب والله عندما تمشي كيف تجد الناس يلعبون ويلهون تحزن عليهم والله تحزن، يعني يا حسرة على العباد، فلذلك التعامل مع الله سبحانه وتعالى أنه إذا وقع خير عليك إن تعلم أنه خير لك من أجل أن تشكر الله، وإذا وقع عليك بلاء من أجل أن تصبر فبهذا تبلغ الجنة، بين هذا وهذا، بين الصبر والشكر، وبين الذكر والفكر، وبين حاجتك، وبين ساعة لربك وساعات لك لدنياك، والساعة الله يحبها، ويعطيك بدلًا منها الأشياء العظيمة، ليلة القدر خير من ألف شهر، الحسنة بعشر أمثالها ويضاعف الله لمن يشاء.

فهذا هو دين الله، هذه هي تربيتنا لأنفسنا، فلا يوجد أحد عليك أن تقول عنه عاش عظيمًا، لا، عليك أن تنظر أين هو الآن، مساكين الناس يكتبون عن أناس ماتوا فلا ينظرون إلى حالهم بعد الممات، ينظرون إلى ما تنعموا به، انتهت، قيصر انتهى، كسرى انتهى، فرعون انتهى ليس موجودًا، عاش منعمًا هنيئًا له، أين هو الآن؟ ففي ليلة واحدة أول جلسة في القبر وأول ليلة في القبر، انتهت المواضيع، ونحن جربنا الذين يعيشون نجرب تكون تعبان، بعد ذلك يأتيك الفرج وأين يذهب، صورة تبقى ما الذي بقي في الحياة؟ صور.

ولذلك في الحقيقة الإنسان هو ذكريات، الإنسان صورة، صورة تذهب وصورة تأتي، أين كنت؟ كنت كذا، كنت في السجن، كنت في الجهاد، كنت في البلاء، كنت في كذا، صور ذهبت لا فرق نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا، وأن يجعلنا من عبيده المخلصين له، والله أعظم نعمة أن تعيشها الحياة الحقيقية، أن تكشف هذه الحجب الساترة بينك وبين الحقيقة.

وهؤلاء أعظم البشر الذين عاشوا مع الحقائق أعظم البشر، عاشوا مع القرآن عاشوا مع ذكر الله، عاشوا مع العلم، عاشوا مع الطاعة، نظروا إلى ما يحب الله، ارضَ عنا يا الله، هكذا هم فقط ارضَ عنا يا الله، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤)﴾ [طه: ٨٤]، يعيشون مع الله، هذا أعظم ما ينبغي أن يطلبه المرء وأن يفهمه من هذه الأسماء، يتعامل مع الله سبحانه وتعالى في هذا فيحبه وهذه أسماء حسنة، والحسن محبوب للنفس.

وابن حزم رحمه الله له كلمة في بعض رسائله قال: «الحسن لا يكون كذلك إلا باكتمال الصفات»، يعني لا يصير واحد أذنيه كبار وعينيه زرق ويقول لك: هذا حسن، ولا أنفه كبير ولكن أسنانه جميلة ويقول لك: هذا حسن، لا، فالحسن هو اكتمال الصفات، اكتمال الخصال، فأسماء الله الحسنى، يعني هي لماذا حُسنى؟ حُسنى في نفسك، هي حُسنى في حقيقتها، حُسنى في ذاتها، لكنها كذلك حُسنى لك، ومن كان حسنًا لك أحببته، ومن كان حسنًا لك أطعته، ومن كان حسنًا لك استجبت لأمره، حَسن هو حَسنٌ لك.

وكما قال ابن عطاء الله السكندري: وما منعك إلا ليعطيك، وما ابتلاك إلا ليقربك، لماذا ابتلاك؟ تقول لماذا ابتليتني؟ ابتلاك من أجل أن يقربك، ابتلاك لأن هناك منازل عظيمة جدًا كصعود الجبال لا تعيش في القمم، إلا إذا صعدت الجبل، هل يمكن أن تصل إلى قمة الجبل من غير صعود؟ لابد أن تصعد، لابد أن تدفع، فهو يجعل لك أمامك من الجبال والبلاء، من أجل أن يرفع شأنك، هذه سنة الله؛ لا يعطي بلا ثمن، الله لا يخدع، الله لا يعطي شيء بلا ثمن، ولكنه سبحانه وتعالى أنت تتقرب إليه بالقليل فيعطيك الكثير تأتيه تمشي فيأتيك هرولة.

والناس للأسف يسبون على الله يظنون، يسبون الله عز وجل الناس ويظنون فيه الشر ويظنون.. أنا قدمت فماذا أعطيتني؟ فمعظم الناس يظنون أنهم لم يعطوا بمقدار ما قدموا أغلب الناس هكذا، وبعض الناس يريد عطاءً واسعًا بلا تقدمة بلا شيء.

ووالله أكررها دائمًا والله لولا أنها آية في كتاب الله ما استطعت أن أقولها، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، نعوذ بالله، تعالى الله عما يقولون، هذا الوجود، ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]، كيف؟ ما هذه القلوب التي تقول هذا؟ فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا عبيدًا له وأن يخلصنا له وأن يرفع شأننا كما رفع شأن الأولياء والصالحين وأن يجعلنا عباد له.

يا إخوتي أعظم ما تدعوا الله أنك تسلم نفسك لله، **(اللهم إني أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك ووجهت أمري إليك وألجأت ظهري إليك)**، هذا كل يوم في الصباح لازم تدعونه، لابد، **(اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين)**، ماذا تقدم لنفسك أنت؟ فأسلم نفسك لله في كل يوم ولذلك هناك أعمال أنت إذا عملتها كنت في كنف الله، الله يدافع عنك، قال صلى الله عليه وسلم: **(من صلى الصبح في جماعة كان في ذمة الله)**، **(من صلى أربعًا في أول النهار كفيته آخره)**، الله يعطيك، اللهم ارحمنا برحمتك جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠]، ﴿لَمَقْتُ﴾ من غير الياء هل المعنى مختلف تمامًا؟

الشيخ: المقت هو الغضب، أما المقيت من القوت كما ذكرنا، فالمقت من الغضب، مقته لعنه سبه وغضب عليه، لكن ذاك القوت والقوت معروف مما يقتات به الإنسان، ونرى مقاربة شديدة بين القوت والقوة، أي اقتراب الحروف يعني بين القوت والقوة لأنه في القوت تحصل القوة، أما المقت شيء آخر.

بارك الله فيك وجزاكم خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن والثلاثون: الرفيق

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغّر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى ليتعبدنا بتعلمه والإخبات به وإحصائه على ما ورد في الحديث النبوي الشريف، قال صلى الله عليه وسلم: **(إنَّ للهِ تعالى تسعةً وتسعين اسمًا مائةً إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنَّةَ)**، وأسماء الله سبحانه وتعالى حُسنى من جهة معناها وحُسنى لأنها حسنةٌ للخلق يعني هي حُسنى لأنها حَسنةٌ في ذاتها، والحُسن هو تمام الكمال وحُسنى لأنها حَسنةٌ للخلق، الخلق إذا تعاملوا معها فإنما يتعاملون مع رحمة، يتعاملون مع لطف، يتعاملون مع كرم، يتعاملون مع جواد، يتعاملون مع مغفرة، ويتعاملون مع طيب، يتعاملون مع جميل، فهي حسنة بالنسبة إليهم.

والعبد مفطور خُلق على الحاجة فالله سبحانه وتعالى جعل بابه أعظم الأبواب من أجل بلوغ مأرب الإنسان، يعني الإنسان محتاج، والإنسان ضعيف، فأين يقضي هذه الحاجات التي هي فطرةٌ فيه؟ وأين يرتفع عنه الضعف الذي هو قدرٌ لازم له؟ فالله فتح أبوابه، كرمه، وعطائه، أسمائه، من أجل أن يتعامل بها الخلق، من أجل أن ترتفع مراتبهم من الضعف إلى القوة، ومن الحاجة إلى الغنى، ومن البعد والضيق إلى السعة العظيمة التي يعطيها الله عز وجل للعبد.

ولذلك من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الرفيق، وهذا الاسم ورد في السنة، تعلمون لما جاء اليهود استأذنوا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليك، والسام في لغتهم الموت، فعائشة رضي الله عنها غضبت قالت: «عليكم السام واللعنة»، فقال صلى الله عليه وسلم: **(يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله)**، أو **(إن الله رفيق يحب أهل الرفق)**.

والنبي صلى الله عليه وسلم لما حضرته الوفاة وهو على صدر أمنا عائشة رضي الله عنها قال: **(اللهم الرفيق الأعلى)**، **(اللهم الرفيق الأعلى)**، فهذا الاسم لربنا سبحانه وتعالى كما هو بين في معناه يدل المعنى العظيم الذي نحتاجه، صلى الله على الحبيب، **(اللهم الرفيق الأعلى)**، الناس يخافون من الموت، ولا يحبون الانتقال من هذه الحياة، على ما في هذه الحياة من مشقة، فلا يوجد نعمة من نعم هذه الحياة إلا

ويتبعها التعب والمشقة، المرء يرزق المال فيرزق معه الهم، كيف يقضيه كيف ينميه، كيف يحسبه، المرء يتمتع في الأكل فبعد الأكل يصاب بالتخمة والمشقة، ويعطى الولد فيأتي مع الولد الهم والمشاكل وكيف يربيه، فما من نعمة من نعم هذه الدنيا يعطاها المرء إلا وفيها الكبد وفيها المشقة، وبعد الموت إذا كان على مقامٍ عظيم فإنما يرحل من هذه الدنيا إلى لقاء الله.

قال صلى الله عليه وسلم: **(ما من نبي يمرض إلا خيّر بين الدنيا والآخرة)**، والنبي صلى الله عليه وسلم خير، فاختار **(اللهم الرفيق الأعلى)**، والرفيق من الرفق، والرفق هو اللين، لين الجانب واللطف، وهي ضد العنف، فالله سبحانه وتعالى رفيق بخلقه، لما خلقهم؛ خلقهم على معنى الرفق، ولما عاملهم؛ عاملهم على معنى الرفق، ولما حاسبهم؛ حاسبهم على معنى الرفق.

أما أنه خلقهم على معنى الرفق فأنه سبحانه وتعالى صبور، خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وانظر إلى صبره سبحانه وتعالى في خلقه لهذا العبد لهذا الإنسان، كيف الإنسان يعصيه؟ كيف هذا الإنسان يعصي ربه منذ أن خلقه وأنزله إلى الأرض؟ والله عز وجل رفيق به، يطعمه ويسقيه، ويقضي حوائجه ويرعاه، ويصبر عليه إذا عصاه، لا يؤاخذ الله عز وجل السيئة بالسيئة مباشرة، بل يمد له، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، ولكن الله سبحانه وتعالى يصبر على الخلق، يسبونه فيعطيهم.

فلما خلقهم، خلقهم على معنى الرفق، انظر كيف يخرج الإنسان من بطن أمه، وكيف يبدأ البيت ليس فيه أحد إلا الزوج والزوجة، ثم بالرفق، بالرفق أي بالصبر والأناة والحلم يكثر هؤلاء الأولاد، لما خلق الله الأرض بـ **(كن)** فيكون كل شيء، لكن خلقها في ستة أيام لا ندري هذه الأيام ما طولها، كيف كان هل هو النظام الشمسي الذي يجري في الستة أيام؟ أنا استبعد هذا، وإنما هي أيام الله عز وجل أعلم بأي نظام، ليس نظام مسير الشمس أو دوران الأرض حول الشمس، إنما هي أيام الله أعلم.

فأول من قال بعدم نسبية الزمن هو القرآن، بعدم ثبات الزمن، الناس عندهم الزمن شيءٌ واحد لا يمكن أن يتغير، ممكن تتغير المواد من كتلتها أو وزنها، ويفرقون بين الكتلة والوزن أليس كذلك؟ الوزن بحسب دخول الأشياء عليه، كالتسارع كالحركة، لما يتحرك يزيد وزنه، لو رجل وضعت على بدنه كيلو وضعته وضعًا على رأسه لا يحصل به شيء، لكن لو ضربته به يحطم رأسه، لماذا؟ مع أن الكتلة واحدة والوزن كيلو، لكن ما الذي زاد؟ زاد الوزن بسبب الحركة.

فقديمًا كان الناس يظنون أن الزمن شيئًا واحدًا ثابتًا، لكن قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾ [الحج: ٤٧]، فالزمن ليس شيئًا واحدًا، لما أخرج أينشتاين هذه النظرية سواء من جهة نفسه أو من جهة أنه سرقها، لأن كثيرًا من الناس يقولون: إن أينشتاين سرق هذه النظرية على طريقة اليهود في الصعود على ظهور غيرهم، فقال لهم: بأن الزمن ليس شيئًا واحدًا، الزمن مختلف، وقوله هذا يفسر قوله سبحانه وتعالى ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾، ما هو الزمن عندنا نحن؟ هو حركة الشمس، الظهر، العصر، المغرب وهكذا، فالزمن هو حركة الشمس.

ومن هنا فالذين كانوا يقولون –يعني انظر الجهل قديمًا– يقولون: الله حي يعني كيف حي؟ هل يجري عليه الزمن ما يجري على الإنسان، والناس مجانين عقولهم قاصرة، وأساس كل ضلال هو قياس الغائب على الحاضر، الله من الغيب له سبحانه وتعالى من الحقائق ما لا تنطبق عليه هذه الحقائق الوجودية التي خلقها، الله خلق هذه القوانين، فلا يعني أن هذه القوانين تنطبق على الخالق، فهو فوقها؛ لأنه سبحانه وتعالى الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، هو غير متناهي، لا ينتهي جل في علاه.

والشيء في الدنيا في الأشياء الدنيوية إذا انتهى إلى مالا نهاية يعني خروجه عن القوانين، إذا الشيء صغر إلى مالا نهاية خرج عن القانون، وإذا كبر إلى مالا نهاية خرج عن القانون، والدليل على ذلك المستطيل، الناس يعلمون المستطيل لا يكون إلا بأن يكون طوله أكثر من عرضه، هذا قانونه، لكن لو أنه تصغر إلى ما لا نهاية انتهى القانون، وإذا تمادى إلى مالا نهاية، كبر إلى ما لا نهاية.

فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق على معنى الرفق، وانظر كيف خلقه على معنى الرفق أنه أجرى له أمه أن تطعمهم، وأن تسقيه، وأن ترعاه، كيف وهو في بطنها ما الذي يمده؟ خلق الإنسان على معنى الرفق، خلق الوجود على معنى الرفق والصبر، ستة أيام وخلق الوجود في ستة أيام مع أنه قادر أن يقول للشيء كن فيكون، والناس يتحدثون أن الدواب تنزل من بطن أمها فتمشي، لكن كم يحتاج الإنسان ليمشي؟ هو تعليم له، تعليم له على الصبر، كيف كنت؟ ليرى وليدرك، الحيوانات ليست مكلفة، فليس مطلوب منها التفكر، استعداد التفكر هو عند الإنسان، الله أعطاه الأسماء ليكون مستعدًا للتفكر، مستعد لتلقي العلوم، فمن أجل ذلك أجرى على هذا المعنى ليدرك كيف كان وكيف صار، وتبقى ذكرى أنه كان طفلًا محتاجًا لأمه وهي ترعاه من أجل أن يبقى على هذا المعنى.

فالله عز وجل خلقه على معنى الرفق، وأجرى شرعه على الرفق، لم يكلف الله عز وجل هذه الأمة شيءً فوق طاقتها، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ

لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لما يدعو المرء هذا الدعاء ويقرأ هذه الآية يقال له: قد أعطيت، قد أجبت، فخلقه على معنى الرفق، وأجرى حياته على معنى الرفق، الإنسان يخرج من بطن أمه فيكون له ثديان، ثم تكون له الأسنان ثم تفتح له أبواب الرزق وتعدد هذا الرزق من هواء ومن ماء ومن لباس ومن طعام ومن شراب ومن أصدقاء، فكل شيء له ميسر، ثم الشرع أجراه على معنى الرفق، غفر له، صبر عليه، ما من أحدٍ أصبر على أذى يؤذى، كصبر الله على خلقه، فبعض الناس ربما يصبر من أجل حاجة.

مثلًا: رجل يؤذيه آخر فيصبر عليه، لماذا؟ إما لأنه يخاف منه، يخاف بطشه، وإما أنه يصبر عليه حتى يأخذ حقه، يصبر عليه من أجل يأخذ حاجته، لكن صبر العظماء على السفهاء وهم يحتاجون إليهم، الحكماء والعظماء يصبرون على السفهاء مع أن هؤلاء السفهاء يحتاجون إليهم، وهذا الصبر نجده عند الآباء مثلًا، نجده عند الأمهات، فالأب لا يريد من ابنه شيء، يكون غني عن ابنه، مع ذلك يصبر عليه ويعطيه، يصبر عليه في العطاء ويصبر عليه في تلقي الأذى، يصبر عليه أنه يعطيه، ويصبر عليه أنه يتلقى منه الأذى من ابنه، هذا صبر عظيم.

ولله المثل الأعلى صبره في هذا أعظم، هو الذي خلقه، هو الذي يعطيه هو يؤذيه ويسبه ثم سبحانه وتعالى يصبر عليه، فسبحانه رفيق في شرعه، وشرعه هذا انظر إليه، انظر إلى هذا الشرع العظيم، هو كله لمصلحته، الله يحب هذا أن يعبده ولكن هذه العبادة من أجل القيام على شأنه كذلك، حتى امتزج العلماء لا يدرون كيف يتكلمون، يتكلمون عن محبة الله لهذه العبادة، أم يتكلمون عن مصلحة العبد في هذه العبادة، ويخافون أن يزل أحدهم عن الآخر، لأنه إذا ضعف جانب التعبد، قوي جانب المصلحة الدنيوية تحولت العبادة إلى منفعة مادية وهذا خطأ، وإذا تحدثوا عن جانب العبادة المحضة دون أن يتحدثوا عن جانب المصلحة غلب على الذهن معاني باطلة، لا يحبها العلماء من ذلك تصور أنه يمكن أن يكون الشرع فيه الضرر للعبد.

انظر هذا التوازن أنه ما من عبادة إلا تحقق محبة الله، وما من عبادة إلا تحقق مصلحتك، وأعظم مصلحة دخول الجنة، المصلحة لك في هذا، يعني أنت عندما تقوم تصلي؛ أنا أصلي لأن الله يحب ذلك، وأنا أصلي لأني أريد الجنة، انظر هذا الامتزاج، شيء عجيب جدًا فالله شرع الشرع وهو موافق لرفقه سبحانه وتعالى للينه ولطفه، وأعطى من الأجور ما يناسب هذا الرفق، وصبر عليه ما يعادل هذا الرفق.

فلذلك رفقه سبحانه وتعالى في الابتداء، وفي الأثناء وفي الانتهاء، والرفق يأتي بهذا المعنى ويأتي بمعنى كما نقول نحن مرافق، ما هي المرافق أو المرفق؟ المرفق هو الذي يكون في حواشي البيت من أجل أن

يساعد البيت، المرافق تساعدك كوجود المطبخ، الحديقة يقول: هذه مرفق للبيت، فلذلك ما يؤدي لقضاء الحوائج هو مرفق.

فلذلك الله سبحانه وتعالى على هذا المعنى وهو أجل سبحانه وتعالى يأتي بمعنى الرفق يأتي بمعنى العطاء، الذي يحصل به العطاء، يحصل به الكرم يحصل به الأخذ، وكذلك نحن نقول مرفق وهو الذي يكون بين العضد وبين الزند، الناس يسموه –الفلاحين– الكوع، اغسل إلى المرافق، فهذا هو المرفق، والمرفق يكون هو مصدر قوة الإنسان، فانظر إليه المرفق هو الذي تقضى به الحوائج، والمرفق الذي هو القوة، قضاء الحوائج لما تحتاج والقوة لدفع ما يضرك وتحصيل ما ينفعك.

فلذلك الرفيق سبحانه وتعالى يأتي بمعنى اللين واللطف، وهي ضد العنف وتأتي بالذي يؤدي ويعطيك الحوائج، ويأتي بمعنى الذي يحصل لك القوة، ويعطيك القوة ويحصل لك القوة من غيره، والناس كذلك لهذا المعنى من الرفق بمعنى اللطف وبالمعنى الذي به تقضى الحوائج وبالمعنى الذي تحصل به القوة، يسمون الصاحب والصديق بالرفيق، حتى كأنها هي الأصل، كأن الأصل عندما تأتي على الناس كلمة رفيق تأتي بمعنى الصاحب المصاحب له، الذي يكون معه، وهذا المعنى حق، وهذا المعنى في ربنا سبحانه وتعالى حق، كيف يكون حقًا؟ لأنه سبحانه وتعالى لا يغادر هذا الإنسان، في كل آن لو سأله يعطيه، في كل آن لو استغاث به يغيثه، وفي كل آن هو قائم عليه، من الذي يجري هذه الأنفاس؟ الله، من الذي يجري هذه الدماء في الشرايين؟ الله، وفي كل آن معه.

ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(اللهم الرفيق الأعلى)**، **(وإن الله رفيق يحب الرفق)** أو **(يحب أهل الرفق)**، وهذه الصفة حين يتعبد المرء بها فيعلم أنه سبحانه وتعالى رحيم، وأنه لطيف هذا أعظم ما يبعد اليأس عن الإنسان، أشد ما يقتل الإنسان اليأس، سواء اليأس بصرف الذنب أو بصرف القدر المؤلم، الإنسان أمام هاذين الأمرين في مشكلة.

أولًا: أنه يقع بالذنب فييأس من التوبة وييأس من المغفرة، وهذا لا تستهينوا به، خاصةً حين يقع الذنب من العابد الصالح هذا يقتله، فهو بحاجة إلى هذا العلم أكثر من غيره، العامي يقول لك: الله يغفر، مهما بلغ من معصية، يقول لك: الله يغفر، لكن إذا وقعت من العابد إذا وقعت المعصية الكبيرة من العابد، هذه أدعى لحصول اليأس، ولذلك هو بحاجة لهذا العلم أكثر من غيره، خاصةً إذا وقعت كبيرة، أعوذ بالله كيف وقعت فيها؟

فالله عز وجل سبحانه وتعالى يرفع التوفيق عن العبد امتحانًا له، وإن المرء ليقع في المعصية وهو بين يدي الله، لماذا؟ من أجل أن يسمع الله أنينه بالتوبة والاستغفار، فالمرء حينئذٍ بحاجة إلى هذا المعنى من طرد اليأس، أن الله رفيق.

ثانيًا: هو عند حصول البلاء الدنيوي، ما أضعف الإنسان في هذه اللحظة، أن لم يستشعر رفق الله له ورفقة الله له، حين إذن يغلب عليه اليأس والقنوط، وأعظم الذنوب هي ذنوب القلوب، الذنوب البدنية قد لا يقع فيها العبد، أي ذنوب السرقة، ذنوب شرب الخمر، ذنب الزنا، هذه بعيدة عن المتعبدين، بعيدة عن الصالحين، ولكن أين أغلب ذنوبهم؟ هي ذنوب القلوب، المعاني، تخطر على بالهم المعاني الباطلة، وهذه أعظم الذنوب.

وأعظم الذنوب هو أن تلتفت لغيره، أو أن يغلب عليك الشيطان، الشيطان يأتي فيؤزك، أين أنت؟ تزعم أنك عبد، أين أنت الآن؟ ما الذي سينجيك؟ ما الذي ينجيك منا؟ من الذي ينجيك من هذا البلاء وهذه الحالة؟ فحينئذٍ أنت بحاجة إلى استشعار رفق الله لك، أنه رفيق وما من شيءٍ يقع بك في هذه الدنيا على معنى البلاء إلا وهو رحمة بك.

وهذه ليست كلمات توضع في الأذن وتنسى، هذه يجب أن تبقى شعار لك في كل حركة من حركاتك، وفي كل سكنة من سكناتك، أنه ما من بلاء يقع بك إلا من أجل عاقبة الرحمة أول شيء من أجل مغفرة الذنوب، في ذنوب يجب أن تمسح، فهناك ذنوب تمسح بالوضوء وفي ذنوب تمسح بالصلاة صلاة الفريضة، **(كالنهر أمام البيت)**، لكن في ذنوب «بدها شوية كيماويات»، بل في ذنوب لا تحصل إلا بالقشط، هناك بعض الأمراض تحصل بالبدن تقشط، يجب أن تزال كلها حتى ينبت شيء جديد.

وهناك درجات في الجنة لا تبلغها إلا بالبلاء، أن يقع عليك البلاء من أجل أن ينقيك من الذنوب وتُحصّل به الدرجات، إذا وقع المرء بهذا، إذا هذا المعنى حصل له، حمد الله على كل حال وصبر على كل بلاء، فبهذا المعنى أنك ترى أن كل ما يقع بك رحمة من الله، وهناك من الرزق ما لا يحصل إلا بالبلاء، الله يريد أن يعطيك فيبتليك، وما ابتلاك إلا ليعطيك، وما ابتلاك إلا ليغفر لك وما ابتلاك إلا ليرفعك.

فتحقق معنى الرفق في القلب يريحك، انظر هذا المعنى أنك في كل لحظة تشعر برفق الله لك، هناك رفق على معنى القدر، وهناك رفق على معنى الرحمة والحب، كيف يحصل بدوام الذكر، قال صلى الله عليه وسلم: **(قال اللهُ تبارَك وتعالى: أنا مع عبدِي ما ذكَرني وتحرَّكَتْ بي شَفَتاهُ)**، هناك الله عز وجل معيته

ومراقبته ورفقه للخلق، انظر رفقه للدابة، رفقه للطفل لما ينزل من بطن أمه، كيف ترعاه أمه، عجيب هذا، قال **(أترون هذه طارحةً ولدَها في النَّارِ)**؟! يعني عجيب هذا!

فنحن الصورة الأغلب في قلوبنا أن الإله يغلب عليه العذاب، ونحن نتعب في العبادة، قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً)**.

تتقرب إليه ذراعًا يأتيك باعًا، تتقرب شبرًا يأتيك ذراعًا، وسبحانه وتعالى إذا ذكر العبد ربه كان معه، فإن ذكرته في نفسك ذكرك في نفسه، لا إله إلا الله، يعني حضور هذه المعاني عند التعبد، هذه قمة التعبد، هو أن تستحضر سبحان الله، خلاص الله عز وجل معك، **(فإن ذكرته في نفسك ذكرك في نفسه)**، في نفسه العلية، في نفسه العظيمة الجليلة، وإن ذكرته في ملأ ذكرك في ملأ خير من ملأك، الملائكة يسمعهم صوته حيث يذكر اسمك جل في علاه.

فحضور هذا المعنى من رفق الله عز وجل لك، أنه رفيق حين خلقك، رفيق حين شرع لك، رفيق حين تعامل مع ذنبك، وتعامل مع حاجاتك، وتعامل مع طاعتك معه، هذا من أعظم التعبد، ثم أنه من الواجب أن تكون رفيقًا، هذه من الصفات التي يحبها الله، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها: **(إن الله رفيق يحب أهل الرفق)**، الذي يحب الذين يقومون على شؤون الناس، ويحب الذين عندهم الأنا واللطف.

ولذلك جاء في الحديث **(لا يكون الرفق في شيءٍ إلا زانه)**، سر كلماتك في أن توضع في داخلها الرفق، سر معاملتك هو أن يكون فيها الرفق، **(إن شر الرعاء الحُطمة)**، تصور الرجل الراعي حين يرفق بغنمه بشياهه يوصلها إلى مستقرها، لكن لو كان مما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن شر الرعاء الحُطمة)**، كيف تصل؟ إما ميت بعضها وإما مكسر البعض الآخر، أما الهوينا، الهوينا.

وقال صلى الله عليه وسلم: **(إن المؤمنَ لَيُدْرِكُ بحُسْنِ خُلُقِه درجةَ الصائمِ القائمِ)**، فشر الناس هو الذي يأتيهم بالوجه الذي لا يحب أن يؤتى به، وخير الناس هو الذي يأتي الناس بالوجه والحال الذي يحب أن يؤتى به.

وقال صلى الله عليه وسلم: (**إنَّ الرِّفْقَ لا يَكونُ في شيءٍ إلَّا زانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِن شيءٍ إلَّا شانَهُ**)، و(**زانه**) محتملة المعنيين وهما على المعنى الواحد، من الزين يزينه، إذًا اللباس الجميل لكل الكلمة هو أن يكون الرفق، وزانه بمعنى الميزان، يعني كان ثقيلًا فانظر إلى هذين، يكون المعنى حق وكبير وقوي ويوصل للمراد، لأنه ما المقصود بالميزان؟ أنت عندما تقول لرجل أريد خمسة كيلو، فيضع لك كتلة خمسة كيلو ويحضر الطعام الذي تشتريه، هو يبقى يضع حتى يحصل، يعني يكون ثقيلًا، لابد أن يكون فيه الثقل ليتحصل به المراد، فالذي يحقق الوصول للمراد هو الميزان، أن يكون ثقيلًا.

فقوله صلى الله عليه وسلم: (**إنَّ الرِّفْقَ لا يَكونُ في شيءٍ إلَّا زانَهُ**)، أي يوصلك إلى المراد، لأنه الميزان الحقيقي، وبمعنى زينه جمله، فانظر يُحصّل لك أمرين، يُحصّل لك كسب النفوس ويُحصّل لك مقصدك، والله يحب الرفق مع الأطفال، يحب الرفق مع الإخوان، يحب رفق الرجل في بيته، يحب الرفق في البيع رحم الله سمحًا إذا با ع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا اقتضى.

فبحاجة المرء أن يتعلم كيف يحسن كلماته، وبحاجة المرء أن يتعلم كيف يحسن أخلاقه مع الناس، الله يحب ذلك، والله سبحانه وتعالى يعطي على الرفق ما لا يعطي على غيره، يعطي على الرفق يعطي سبحانه وتعالى، يكرم العبد بهذا، فهذا من أجل ما ينبغي أن نتعبد الله عز وجل به، هذا تعبد الخَلق مع الله، وتعبد الخُلق كيف نتعبد بأخلاقنا مع الله، ونتعبد بأخلاقنا مع الخلق، هذا ينبغي أن نتعلمه، والله أن الرجل ليضيع جبالًا من الطاعات بسوء خلقه مع الناس.

كشخص يظن بأخيه أنه أذاه سرق ماله، هذا إيذاء، لكن كذلك أذاه بأن ألمه، يعني دخل لبيته وهو متضايق وهو تعبان، لماذا؟ لأن فلان أذاه، (**ولا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا**)، كذلك هذه خُلق، إذا تكرر المرء ما زال يحب أن يؤذي الناس حتى يبغض من قبل الله، الأصل في الإنسان أنه إذا أذى أحدًا أن يتألم، أنا كيف أذيته؟ لابد أن أصلح شأني معه، لا أعود إليها، لكن يبقى على هذا الخُلق من إيذاء الخلق حتى تصبح له مزية ويصبح إيذاء الناس له محبة يحبه.

وتعجب لبعض الناس يحب أن يؤذي! لماذا؟ لأن نفسه قد خَبُثت، لأن نفسه صارت خبيثة، لا تتلاءم مع الخير، بل ربما إذا رأى الناس سعداء لا يسعد لا يفرح، تجده هكذا، لا يتمنى سعادة الخلق، وإذا وقعت السعادة عنده أبغضها وحسدهم!! لماذا؟ لأن نفسه قد اسودت خَبُثت، فيجب على المرء أن يحب الخير للناس، النبي صلى الله عليه وسلم خرج والأنصار يفرحون قال: (**والله إني أحبكم**)، فرحان إنهم يفرحون، أنهم سعداء، قال صلى الله عليه وسلم: (**تبسمك في وجه أخيك صدقة**).

والقصد من هذا: أن الله عز وجل يحب الرفق، وأنه سبحانه وتعالى الرفيق وتأملوا هذا، **(اللهم الرفيق الأعلى)**، كأنه كان في الدنيا رفيقًا له، وهو رفيق به، وه رفيق فاستحق أن يكون معه **(اللهم الرفيق الأعلى)** وفي رواية **(اللهم في الرفيق الأعلى)**، كأنه دخول الشيء في الشيء، حتى يصير جزءًا منه، أن العبد بحاجة بعد الموت إلى رفق الله به، وبحاجة في القبر إلى رفق الله به، وبحاجة في أرض المحشر إلى رفق الله به، وبحاجة في الجنة إلى رفق الله عز وجل به.

اللهم نسألك أن تجعلنا عبادًا لك كما تحب وترضى، وأن ترزقنا حُسن الخُلق وأن ترزقنا حسن التعبد، وأن نستشعر معيته ورفقه وأن نحمده عليها، عندما نعلم أنه الرفيق يتطلب منا أن نحمده على هذا الرفق، أن نحمده على أنه هدانا لهذا، أن نحمده أنه علمنا هذا الاسم العظيم له، ويكفي أن يكون آخر ما نطق به النبي صلى الله عليه وسلم **(اللهم الرفيق الأعلى)**، آخر رحلة هذه الدنيا آخرها **(اللهم الرفيق الأعلى)**، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل أخر كلماتنا لا إله إلا الله، **(اللهم الرفيق الأعلى)**، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع والثلاثون: القهار

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغّر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الذي تعبدنا به معرفةً وعلمًا وإخباتًا وتعبدًا وحالًا، وهذا هو حال العبد مع أسماء الله عز وجل، أولًا: أن يعلمها وأن يعلم معانيها، ثم أن يتعبد بها حالًا، حاله في أعماله وفي عقائده وتصوراته وفي سلوكه أن يتعبد الله بهذا الاسم، وهذا أعظم ما تتحقق به العبودية لله عز وجل، وقصد الأسماء كلها هو أن يتحقق في العبد عبوديته لربه أن يصبح عبدًا لله.

وهو عبد لله عز وجل من جهة قدر الله عليه، **(اللهم إني عبدك وابن عبدك)**، فالنبي صلى الله عليه وسلم أبوه مات كافرًا على الصحيح، ومع ذلك سماه عبدًا، والناس كلهم عبيد له، والتعبيد هو الخضوع والتذلل، الخضوع، كل البشر كل الخلائق تعبد الله عز وجل على هذا المعنى، أي خضعت لأمره، وذلت لقدرته ولم تقوى على منازعته فهو قهارٌ عليها سبحانه وتعالى قاهرٌ لها، مُذل ها، غالب لها، أوجدها سبحانه وتعالى من غير إذن منها.

ولذلك عمر الخيام في رباعيته يقول:

لبســــت ثوب العيش لم أســـتشـــر ... وحـرت فـيـه بـين شـــتى الـفـكـر

طبعًا «عمر الخيام» فيلسوف ملحد عليه كلام، لكن العبد إذا قال هذه الكلمة على جهة الإقرار والرضا يكون مؤمنًا، أي لبس ثوب العيش لم يستشر، فإذا قالها العبد على جهة الإقرار كان مؤمنًا، وإذا قالها على الصفة الاعتراض والرد كان كافرًا، ولذلك، قال الله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان: ١].

فالله خلق العبيد كلهم جل في علاه قهرهم بأن أوجدهم بغير اختيارهم، ما استشارهم، حتى في قوله تعالى عن الملائكة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٤]، هذا ليس استشارة، لم يستشرهم ولكن أعلمهم، فسؤال المستشير يحتاج إلى أن يستخرج الفكرة من عقول الناس ليستفيد منها، ولذلك يقولوا: شار العسل أي استخرجه، يقولوا: شار الدابة أي امتحنها، أركضها حتى يكتشف قوتها، والله عز وجل لا يريد من

العبيد شيئًا، ما من علمٍ عندهم إلا منه، وما من قوةٍ عندهم إلا منه، فلذلك قهر الوجود كله بأن أوجده بغير استئذانٍ منه، لأنه هو الرب.

ومشكلة البشرية والخلائق كلها أنها تريد أن تخرج من هذه الصفات التي فيها التعبد وفيها الخضوع وفيها التذلل، لماذا لم يستشرني؟ أنا ربكم الأعلى، لماذا لم يستشرني فيمن بعد الخلق كيف يكون حالي في الخلق؟ من الذي قهره أن يكون عربيًا أو يكون أجنبيًا أو يكون أسمرًا أو يكون أبيضًا، أو يكون أحمرًا من الذي قهره؟ لم يقهره في الإيجاد فقط ولكن قهره بأن أوجده على صفة من الصفات ليس له فيها اختيار.

ولذلك من نعم الله عز على العبد أن أوجده مؤمنًا، أن الله خلقه مسلمًا، وإلا لو تفكر العبد فوجد الناس الذين يعيشون في هذه الأرض لوجد منهم الكفار الذين لا يعرفونه، لم يسمعوا بأسماء الله ولا يعرفونه سبحانه وتعالى ولا يعبدونه ولا يعرفون السجود له، بل يعبدون غيره يعبدون الشمس والقمر والنجوم، يعبدون الوحوش، يعبدون الجن والإلهة الباطلة والأصنام.

فالله عز وجل قهر العباد بأن أوجدهم، وقهر العباد على صفة من الإيجاد، وقهر العباد على خصالٍ فيهم، من الذي اختار أن يكون غنيًا أو فقيرًا، الناس يظنون أنه باختيارهم هذا، ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، هذا جنون، العبد قد يكون غنيًا فيفتقر، وقد يكون فقيرًا فيغتني، ويكون ملكًا فيسلب منه الملك حتى يكون من أحقر الناس، ويكون من أحقر الناس فيكون له الملك، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ [آل عمران: ٢٦].

فالله عز وجل بيده كل شيء قهر العبد على صفاتٍ من الحياة والتصرفات ما يعلم العبد أنه ليس له فيها اختيار، وقهر إراداتهم، قهر إرادات الخلق، كل واحد منا يريد أن يخرج من نفسه، يريد أن يمشي، ولذلك بعض أهل العلم قال: «عرفت ربي بفسخ العزائم»، كلنا يريد شيئًا، كلنا يستيقظ من الصباح أو يبات في الليل، على أن يفعل شيئًا فلا يفعله، إما لعجزٍ وإما لكسلٍ وإما لوجود طارئٍ آخر يصرفه عنه، لذلك: «عرفت ربي بفسخ العزائم».

لو كنت أنت الإله لأمضيت عزائمك، لو كنت أنت إله لكمل علمك، لو كنت أنت الإله لكملت إرادتك، لو كنت أنت الإله لكملت قوتك، فأنت خال من كل هذه المعاني مقهور، وتكون عندك النية فلا تأتي، تكون عندك الإرادة فتذهب، تنصرف يأتي ما يعارضها من نية أقوى أو مصيبة أو مشكلة أو

حاجة، أو نعيم، تسلك هذا الطريق فيأتيك خمس دنانير، فيأتيك عارض أن تأتيك طريق أخرى تكسب فيها عشر دنانير، تترك الأولى خلاص، فمن أنت؟

من هنا خلق الله عز وجل الخلق على معنى القهر، فهو سبحانه وتعالى القهار، هو القاهر وهو القهار، وأتت هذه الصفة على هاتين الصيغتين، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ لماذا؟ ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية من سورة الأنعام ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾، قال: **(أعوذ بوجهك)**، فلما قرأ ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: **(أعوذ بوجهك)**، فلما قرأوا ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: **(هذا أهون)**، لأنه إذا جاء القهر من فوق والعذاب من فوق أحاط بك من كل جانب، لا منفذ منه، كما أنه إذا أتى من تحته، فقال وهو القاهر فوق عباده، لأن القهر لا يكون إلا بفوقية.

وحين يأتي القهر من فوق يُسبغ على العبد منافذ الهرب فلا يستطيع منها مخرجًا، لا يستطيع ولا يقدر يحيط به، إذا جاء من فوق سيطر عليه، لكن قال تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، مع الناس تنحل المشكلة، ولذلك هذا الذي وقع الأمة بفضل دعاء النبي صلى الله عليه وسلم برحمة الله قبل كل شيء، وبفضل دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لم يأتي عليها يوم أغلقت عليها المنافذ كلها، يأتيها البلاء ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، تفرقت الأمة شيعًا وأحزابًا تفرقت طوائف **(تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة)**.

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، ويقتل بعضهم بعضًا، ويحصل الفناء ولكن يكون في ذلك المخرج، ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ يعني من العذاب، ولكن دائمًا فيه المخرج، الأمة تعود تصطلح ويعود الخير فيها ويرتفع البلاء عنها لكن إذا نزل كما نزل على الأمم السابقة، كما نزل على قوم نوح، كما نزل على قوم هود، كما نزل على قوم صالح، كما نزل على قوم لوط، كما نزل على قوم شعيب، لما ينزل البلاء الكلي لا يبقى منهم شيء، يفنيهم.

لكن هذه الأمة كل ما ظن أحد أنها بادت وانتهت وماتت عادت فانتفضت، وزال عنها الغبار وحققت مقاصد الدين وانتصرت وتمددت، **(أعوذ بوجهك)**، فقال عز وجل: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)﴾ [الأنعام: ١٨]، لماذا اقترن ذلك؟ لأن كلمة القهر كلمةٌ تبعث على الألم والخوف، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ انظر هذه الكلمة، أنظر حرف القاف كيف يقلقل النفوس ويجعلها مضطربة.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾، الألفاظ تتناسب مع المعاني، جرس الكلمة يتناسب مع معناها، والكلمة نفسها تفتح رحاب معانيها، كما أن تقول: الصبح، فتفتح لك هذه الحركة من الحاء، النفس في الحاء إلى الانبساط، فكيف إذا اجتمع ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨)﴾ [التكوير: ١٨]، كيف تلقي هذه الكلمة من المعاني الرائعة على نفسك، كأنك تكون منغلقًا فتنفرج عليك الأمور، كأنه يفتح عليك الأبواب وتفسح لك الأمور، الكلمة تعطي هذا المعنى في نفسك.

فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، فهذه تعطي الخوف والاضطراب في النفس، فإذا جاء بعدها ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)﴾ [الأنعام: ١٨]، ألقت بظلال من الرحمة، فحصل ما يسمى مما قلناه التعديل، قد عدلت المعنى في النفس، حتى لا تبقى النفس مضطربة، حتى لا تبقى قلقة، حتى لا تبقى خائفة، هو الرحمن الرحيم حتى وهو يلقي تحذيره في أنه قاهر لعبيده، يلقي عليهم أنه لا يفعل ذلك على جهة الإطلاق، بل هذه الدنيا ما من شر إلا ويكون فيه خير.

فقال جل في علاه: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ [الشرح: ٦]، ما قال إن بعد العسر يسرا، قال إن مع، فأول معنى من معاني اقتران اليسر مع العسر إذا جاء أن العسر يبدأ بالزوال خلاص ما دام جاء دل على أنه سيذهب، هذا أول معنى من معاني اليسر في اقترانه مع العسر إذا جاء، فلذلك قال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ مع، فهذا هو التعديل.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، انظروا المعنى، وهاتان الآيتان في سورةٍ واحدة، ومن تأمل اقتران المعاني، في الكلمة الواحدة لمعانيها الخاصة والعامة أغلب ما تكون عادةً في السورة الواحدة، هذه في سورة الأنعام، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، وتأمل كلمة عباده، هي نفسها تلقي أنك عبد، والعبد مقامه الرفق، صحيح مقامه التأديب ولكن مقامه الرفق.

فلذلك الله عز وجل قهر العبيد، قهراهم بموتهم، قهرهم ببعثهم يوم القيامة وقهر الكفار بأن أمشاهم على وجوههم يوم القيامة، يقهرهم هذا كله من القهر، فلذلك القهر هو الغلبة، ولذلك لما جاءت صفة القهار لم تقترن إلا باسم واحد، ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)﴾ [الزمر: ٤]، القاهر وردت مرتين فقط في سورة الأنعام.

أما القهار وردت ست مرات، لكن في جميعها الواحد القهار، لأنه لا يمكن تصور القهار المطلق إلا لواحد، لا يمكن، أنا يمكن أن أقهرك، لكن في النهاية هناك قاهر يقهر الجميع، فلذلك لا تكون إلا لواحد، والناس يعرفونها كلهم يموتون، وكلهم يمرضون وكلهم جاءوا إلى هذه الدنيا من غير إذنهم، فلذلك هناك

واحد، الواحد اقترنت مع الله في جميعها، ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)﴾ [الزمر: ٤]، أتت على هذا المعنى، لماذا؟ لأن القهار سبحانه وتعالى لا تكون إلا له، وهي دالة على وحدانيته، هذه الصفة دالة على وحدانيته، فجميع ما سواه مقهورٌ له، فلا يحتاج للولد، ولا يحتاج للزوجة، الكل هو مقهور له ما يحتاج للزوجة، الحاجة للزوجة أن الزوجة قاهره له في هذا المعنى، يذل لها الرجل مهما كان رجلًا يذل لزوجته.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]، أي ما من أمر يأمر به إلا وهو يغلب أمر غيره، وإن نازعه، حتى لو نازعه الخلق جميعًا، حتى لو نازعته الملائكة، حتى لو نازعته السماوات والأرض، انظر إلى هذا القهر له سبحانه وتعالى القهر لعبيده القهر لخلقه، للشمس التي تشرق وتغرب مطيعة له.

والعجيب هذا الإنسان، يعني عجيب هذا شيء غريب هذا الإنسان أنه يظن أنه هو كل شيء، هذا خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، الله قهر السماوات هذه تمطر والله أمطرها، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت: ١١]، ولذلك هذه الصفة لا يجوز أن تطلق على غير الله لا يجوز، لأنها خاصة به، ولأنها من جهة العبد مذمومة، هذه الصفة لو صدرت من العبد قهر غيره مذموما.

قد يقول قائل أليس من الخير أن يقهر المؤمن الكافر؟ الجواب يغلبه ولا يقهره، لماذا؟ لأن القهر هي صفة فعلٍ في الآخر، وهي صفة ذات في نفس الفاعل، حتى ولو وقع قهر مسلم على كافر فعلًا، فلا يجوز أن يتصورها في نفسه، وهذا الذي حدث مع النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة؛ غلب وقهرهم، لكن هو في نفسه هل هو قاهر؟ **(وهزم الأحزاب وحده)** نسب كل شيء لله، فلم يقع هذا المعنى في نفسه، ولذلك لا يجوز لأحد، وإذا سمي عبد به كان حقًّا على الله أن يقهره، إذا وقع هذا المعنى في نفس العبد فتسمى به وسمى نفسه القاهر فلابد أن يذله الله.

على فكرة مصر ضحكوا على البشر لما أرادوا يحاربوا إسرائيل فسموا الصواريخ «القاهر والظافر»، أحد الإخوة يقول: شهدت بنفسي العرض –عرض للصواريخ زمن عبد الناصر قبل السبعة وستين فعملوا عرض للصواريخ الظافر والقاهر– قال: عجيب جدًا الصواريخ كانت مقدمتها مربعة وليست مدببة!! المهم هذه الصواريخ، كانت فقط نماذج كرتونية نماذج حديدية ليست حقيقية.

لذلك من الخير أن يكون الإنسان عبدًا لهذا الرب الإله العظيم، أن يكون عبدًا له وأن يخضع له وأن يُذل له، وإذا علم المرء أنه مقهور وأن الله عز وجل قاهر له فعليه أن يخافه، عليه ألا يتكبر وعليه ألا يرتفع على إخوانه ولا يرتفع على غيره حتى على خصومه، حتى وهو ينتصر عليهم عليه أن يذل لله عز وجل بينه

وبين ربه، ولذلك **(هذه مشية لا يحبها الله إلا في هذا الموطن)** غيظًا لهم، وإلا فهي مشية مذمومة، الله لا يحب أن ينازع جل في علاه.

والعبد إذا تحققت هذه الصفة من قلبه ذل لربه، فلم يخضع له خضوع العبد الآبق، ولكن يخضع له كذلك فوق أنه عبد لله في قدره يكون عبدًا لله عز وجل في إرادته أن يخضع له، أنه إذا أمره يستجيب، إذا نهاه يستجيب، إذا طلب منه فعليه أن يستجيب، حتى يحصل له هذا المعنى من العبودية التي يحبها الله وإلا فبقية الخلق كلهم قد خضعوا لله عز وجل قهرًا، وخضعوا له عبوديةً قدرية، واستجابوا لأمره، ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت: ١١]، كل السماوات وكل الأرض العرش وما فيه، حملة العرش، الروح القدس جبريل عليه السلام، كلهم خضعوا لله عز وجل، يأمرهم فيخافون منه، يأمرهم فيستجيبون لأمره، يأمرهم فيطيعونه.

وما من ذرة في الكون ما من ذرة تتحرك إلا بإرادة من الله، تصور هذا الوجود، ما من قطرة ماء تنزل إلا بإذن من الله، ما من ذرة رياح تسري الكون إلا بأمر منه، فكل شيءٍ خضع لأمره كل شيءٍ الله قد قهره، فهذا رب عظيم، واحدٌ قهار، لا يوجد ولا يتصور أن أحدًا يستطيع أن يقهر الجميع إلا واحد، أين الملوك؟ أين السلاطين؟ أين الجبابرة؟ أين الأباطرة؟ كلهم ذهبوا، أين الأغنياء الأثرياء؟ أين أصحاب القوة الشديدة؟

أحد الإخوة كان رجل من أبطال الأجسام، قال: منعوه من الذهاب لأمريكا ليدخل المباريات، وكانوا يجزمون لو ذهب لأخذ البطولات، فأحد الإخوة يعرفه -من غير ذكر أسماء- قال: أنا كنت أتعجب كيف سيموت هذا الرجل صاحب البنية الشديدة!! المهم هذا الرجل ذهب إلى بيروت أراد أن يأخذ الفيزا من السفارة الأمريكية تذكرون تفجير السفارة الأمريكية في بيروت راح فيها آلاف السي أي إي، كان فيها هذا الرجل هو سوري كان في هذه السفارة فذهب مع الذاهبين.

فما من شيءٍ إلا والله عز وجل أقوى منه، عندهم صواريخ نووية عندهم كذا، الله يقهرهم، سبحان الله الله عز وجل يحرك ما هو أضعف، من أضعف شيء، إلى الآن هم لا يستطيعون رد الأعاصير، ما موقفهم من الإعصار؟ انظر يعني تأتي الأمراض فممكن أن يعالجوها، يقول لك: اعمل أمصال، ويستخدمونها بالتطعيم، قالوا طيارة قادمة ارموها بصاروخ، فإذا جاءهم إعصار ماذا يفعلون؟ إذا تحركت المياه، الهواء إذا تحرك الهواء، فقط يستسلمون له، لا يستطيعون له ردًا، الله عز وجل إذا أراد شيء، بأضعف الأشياء بأضعف ما يمكن، الهواء ذرة الهواء تتحرك فتصبح عذاب تدمر.

المياه وأنا أتعجب إذا رأيتم كيف يقطعوا الصلب بالمياه!! أفضل الطرق الآن وأدق الطرق في قطع الحجارة الضخمة والقوية والصلبة أو الحديد الصلب الشديد يضخ عليه المياه بقوة هائلة جدًا، فتقطعه كأنه مشرط حديد يقطع قطعة الجبن، هذه ذرة مياه سبحان الله، الله جعل فيها الحياة لتتحرك بقوة تدمر كل شيء، الريح تدمر كل شيء، تزيل كل شيء لا تنفع، أين صواريخهم؟ أين قواتهم؟

ولذلك التعلق بالله عز وجل هو العز، التعلق بالله عز وجل هو الرحمة، أنت مع الله عز وجل، كل قريش اجتمعت على أن تقتل هذا الرجل الضعيف، وتحالفوا عليه ثم وضعوا الجوائز لقتله، الله أنقذه، كل القوم تمالوا على أن يحرقوا رجل، تصور يحرق، جابوا من كل الأشجار حتى صارت النار عالية، فقال تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩)﴾ [الأنبياء: ٦٩]، الله عز وجل أبطل هذا كله، الله هو القهار، وإرادتهم ذهبت هباءً لا قيمة لها أمام رجل، لا يملك شيئًا، ليس عنده شيء، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط،

فدائمًا تذكروا هاتين الآيتين يا إخوان:

الآية الأولى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾ [الطلاق: ١٢].

والآية الثانية: في سورة «غافر» قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، الله وسع كل شيءٍ رحمةً وعلمًا، لا إله إلا الله، رحمة الله وسعت كل شيء، فتصور أن يحبسها عن قوم، علامة أن هؤلاء خرجوا عن حد لا يمكن تصوره حين يحبس عنهم الرحمة، وإلا فالله وسع كل شيء رحمةً وعلمًا، ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾، تذكر القدرة التي لا يحدها شيء والرحمة التي تسع كل شيء والعلم الذي لم يغب عنه شيء، تذكر هذا.

فالله سبحانه وتعالى حين يتعبده العبد بهذه الصفة الجليلة الكريمة التي وردت ست مرات، هذه الصفة صفة القهار، وكلها مقترنة باسمه ﴿اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ هذا الاقتران كلها، فحين تتعامل معها تذللًا له سبحانه وتعالى؛ حينئذٍ يقهر عبيده أمامك، يقهر الناس أمامك، والله كما أن الله قهر قلب امرأة فرعون، قهرها بأن جعل في قلبها الحب لموسى هذا قهر، قهر فرعون بأنه لم يستطع أن يأتي لهذا الرضيع ليقتله، لم يستطع وهو وجنوده، هؤلاء الجنود جاءوا إلى قوم ضعاف، فنظروا إليهم فانشق البحر ضرب بعصاه قهرهم.

أنت تأمل فرعون وهو يأتيه الماء وينظر إلى عدوه، هذا فرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى، نفسه لم تتغير، كبرياؤه لم تذهب، غروره لم يذهب، شعوره بالملك لم يذهب، بقي كل هذا في قلبه وهو محبوس في الماء وينظر إلى عدوه في الشط، وهو يفر من أمامه، أي قهر هذا، فهو يقهر جل في علاه، القهار، وهذا فرعون لم يطغى أحد مثل طغيانه، لم يحكي الله عز وجل عن أحد هذا القول، وهو ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤)﴾ [النازعات: ٢٤]، وإنما حكى عن قوم آخرين يأتون وهم يأجوج مأجوج، والحديث في مسند أحمد، قال: **(قهرنا من في الأرض فهيا لنقهر من في السماء)**.

البشرية لا تتعلم، بعض الناس يظن أن البشر ترتقي أفكارهم من جهة الصناعات، صنعوا البرغي وصنعوا الدولاب وصنعوا الكمبيوتر فترتقي معارفهم المادية، لكن البشر لا يرتقون في معارفهم الخلقية والقيمية لا يرتقون، فرعون في بداية الزمن مع موسى عليه السلام، ويجوز موجود في نهاية الزمن كلهم بعقلية واحدة، وبحالٍ واحد لا يفهمون الحياة لا يتعلمون، ترى الطاغوت يموت أمامك!! يعني تتعجب!!

طبعًا أنت تقول كلمة واحدة تقول أعوذ بالله أن تضلني، لأنه إذا ضل القلب لا ينفع معه كل هذا الحوار، يعني الحمد لله الذي هدانا، البارح رأيتم أنتم القذافي، البارح رأيتم الطواغيت، كيف يموتون، كيف يذهبون، كيف يزولون، وفي أحوال متعددة، منهم من ذهب بطريقة مهينة ومنهم من سجن، أين صدام، كل العالم العربي كان يخاف منهم، ويرجون رضاه، فذهبوا، أخذ الله منهم الملك أخذهم وقهرهم.

أنت تصور أن صدام يجلس هكذا ويأتي أولاد صغار ممن كان يحكم قبيلتهم وأهلهم، ويحكم عليه ويسبه رأيتم كيف يسب القاضي الطفل هذا الولد، رأيتم كيف القذافي هذا كيف شكله؟ انظروا ارجعوا، انظروا شكله كيف لما أُخذ حملوه مثل.. فهذا قهر، ومع ذلك لا تظنوا أن نفسيته نفسية المرء العبد الذليل الخاطئ، لا هي نفسية الطاغوت هي، هي لم تتغير، من أنتم؟

فالله عز وجل يقهر العبيد، يقهر الغني يكون غنيًا، بعض الأغنياء كان يقول: أنا لو أشعلتم النار في أموالي لا تنتهي، انتهى به الأمر متسولًا في الطرقات، متسول يمد يده، الله عز وجل هو الغالب، ما أحد يغالب الله، ما أحد ينازع الله عز وجل في ملكه، ولا يُنازع الله في نفسه، لو أراد المرء أن ينازع الله عز وجل في نفسه هو في بدنه في أصابعه، أصابعه موجودة لا يستطيع أن يحركها، عينه موجودة ولا يستطيع أن يبصر بها، الله قهر العبيد.

فذلك على العبد أن يعلم مقدار نفسه، وأنه فقير، وأنه ضعيف وليس بيده شيء، لا يستطيع أن يغير شيء، ولذلك هو في دائم الدعاء مع الله، يعني لا يتحرك إلا بالدعاء، لا يتحرك إلا بطلب من الله أن يمده وأن يعينه وأن يقويه، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته وأن يجعلنا عبيدًا له في كل حال.

لنرى الآيات التي ذكر فيها الله عز وجل القهر:

- نهى الله عز وجل أن يقهر العبيد غيرهم ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩)﴾ [الضحى: ٩].

- يقول جل في علاه في سورة «يوسف»: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)﴾ [يوسف: ٣٩]، ﴿أَأَرْبَابٌ﴾؛ لأنهم يعبدون غير الله، فما دام يوجد أرباب إذن هؤلاء لا يقهر بعضهم بعضًا، إذا علا بعضهم على بعض، لابد أن نعرف الألوهية من خلال القهر، فما دام أنها آلهة موجودة، فدل على أنها ليست بآلهة لأنه لم يقهر بعضهم بعضًا.

- ويقول سبحانه وتعالى في سورة «الرعد»: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾ [الرعد: ١٦]، أي هو خلق ثم بقي الخلق تحت سلطته ولم يخرج، لأنه يمكن للمرء أن يصنع مادة وتخرج من سلطانه، المسدس أنت تطلق الطلقة، بيدك تطلقها أو لا تطلقها، لكن إذا خرجت لم تعد تحت سيطرتك، لكن الله خلقك كل شيء كما رأيت وأبقى قهره على ما خلق، ولم يخرج له سلطان.

- وفي سورة «إبراهيم» يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)﴾ [إبراهيم: ٤٨]، انظر بالله عليك يعني هذا المشهد ماذا يلقي في ذهنك؟ يوم تبدل الأرض هذا مشهد من مشاهد يوم القيامة العجيب جدًا، وما أظن أن أحدًا لما يقرأه يمر عليه هكذا دون أن يسبق هذه النفس بالتذلل والعظمة، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾، انتهى ملكهم، ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، برزوا له أي أحضروا ليكونوا أمامه، انظر متى تكون هذه الآيات في هذه المواطن التي يظهر فيها عزة الرب، وقدرة الرب وألوهية الله وقهر الله عز وجل لغيره من العبيد.

فيقول سبحانه وتعالى في سورة «ص»: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥)﴾ [ص: ٦٥].

وفي سورة «الزمر»: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤)﴾ [الزمر: ٣-٤]، لا يحتاج لأحد البقية عبيد لا يحتاج إلى أولاد، حتى يعني هذا مظهر الضعف أن يكون هناك أولاد.

يقول سبحانه وتعالى في سورة «غافر» نفس المشهد، ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر: ١٦]، هل هذا يدل على أنه قبل هذا اليوم ليس هو الواحد القهار؟! لكن هناك يظن العبد أنه يلتجئ يهرب يهم، لكن هناك ما في منفذ، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ (١١)﴾ [القيامة: ١١]، ما الوزر؟ الملجأ، لذلك سمي الوزير وزيرًا لأنه يلتجأ إليه، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ (١١)﴾، ما في يوم القيامة ما في مهرب، العبد يظن في الدنيا أن له مهرب لا يوجد مهرب.

يقال إن داوود عليه السلام لما جاءه ملك الموت فتسور عليه الأسوار والقصور، فدخل عليه قال له: من أنت؟ قال: أنا من لا تمنعه الحصون، ولا تقهره الجنود ولا ينفع معه الرشاء، لا حصون تنفع! ولا جنوده تنفع ولا رشوة تدفع لي، فهكذا هو العبد أمام الله سبحانه وتعالى، فهنيئًا للعبد الذي يستشعر عبوديته لله وكلما ازداد العبد تواضعًا لربه كلما ازدادت عزته، هذا منفذ عجيب جدًا لا يفهم إلا بالتطبيق، كلما ازددت تواضعًا ازدت محبة عند الله ورفعة عند الله، وهذه رفعة ليس فيها علوّ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾ [الحج: ٤١]، ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

فالعلو للمؤمنين في الدنيا هو علو عجيب، هو علو القلوب يحكم القلوب، ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢]، يحكم القلوب، يحبونه مع ضعفه، العجيب في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يقدم إليهم إلا البلاء ويحبونه، يذهب أولادهم معه فلا يرجعون، ويمشون معه فيخرب أموالهم وديارهم ويحبونه، هذا شيء عجيب!! فلما المرأة

فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من أحد قالوا لامرأة قتل أبوك، قتل أخوك، قتل زوجك، قالت: «ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم» -فقط!!- «كل أمرٍ جلل بعدك يا رسول الله»، هذه هي العزة، هذه العزة التي يحبها الله، هذه العزة التي تكون في القلوب، العزة تكون في بيتك، العزة أن تكون زوجتك تحترمك لأن الله عز وجل يحبك، فهي تحبك لحب الله لك، وابنك يحبك لحب الله لك، وأنت تصور الطواغيت زوجاتهم لا تطيعهم، وأبناؤهم لا يطيعونهم، قهر على معنى الطاغوتية، على معنى البعد

عن الله، وأما إذا كان العبد لله خاضعًا، أذل له الله الأشياء، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرا والحمد لله رب العالمين.

السائل: شيخنا القاهر والقهار هما اسمان مختلفان؟

الشيخ: نعم هما اسمان لله عز وجل، القهار كما ترون هو صيغة مبالغة، وبعض أهل العلم قال هناك بعض الفروق بينهما ولكن هذا الفرق الظاهر القوي وهو أن القاهر يعني أقل مرتبة من القهار، ولعل القهار تكون عند المغالبة، وأما القاهر فبغير مغالبة، ولذلك كما نرى الله عز وجل عندما ذكر القاهر في السورة عدلها كما قلنا بالحكيم الخبير قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)﴾ [الأنعام: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، على معنى الحفظ.

وأما القهار على معنى الغلبة وعلى معنى المنازعة، أنه إذا نزع كان هو القهار، وإن لم ينازع فكان هو القاهر، وهكذا والله تعالى أعلم، العلماء يضعون القهار اسم والقاهر اسم كما في العلي والأعلى، رأينا هذا أنهم يضعون هذا اسم وهذا اسم لله عز وجل، وإن كانت المادة واحدة كما نرى في الرحمن والرحيم اعتبرنا المادة واحدة، وهي مادة الرحمة لكن هذه لها مقتضياتها، وهذه لها مقتضياتها.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الأربعون: المبين

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغّر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا جل في علاه الذي تعبدنا به عِلمًا وحالًا ألا وهو اسمه سبحانه وتعالى المبين، وهذا الاسم العظيم ورد مرة واحدة في كتاب الله عز وجل، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)﴾ [النور: ٢٥].

وللأسف هذا الاسم مع بين وواضح بكل جهة وبكل وصف في القرآن إلا أنه لم يرد من حديث أبي هريرة الذي فيه ذكر تسعة وتسعين اسمًا لله عز وجل الذي رواه الترمذي من حديث الوليد بن مسلم، وإنما ورد بدلًا منه المتين، حتى أن بعضهم شكك، هل هو المبين أم المتين، لكن الذي عليه جرى أكثر الشراح والواصفون للحديث والمتكلمون فيه أنه المتين في النص، والمتين لم يرد إلا في هذا الحديث لم يرد فيه أحاديث أخرى، ولم يرد كذلك في كتاب الله عز وجل، وإنما ورد هذا الاسم العظيم المبين.

والمبين من الإبانة، والإبانة هي القطع والانفصال، ولذلك يقول أبان يعني قطع، أبان رجله قطع رجله، أبان يده أي قطعها انفصل عنها، ولما كان الفصل يؤدي إلى تمايز الشيء عن غيره، يتميز يعني إذا قطعت اليد تميزت عن بقية البدن، فلذلك سمي ما يقع من الكلام الفصيح الذي به يتم فصل العلوم عن بعضها البعض والأشياء الذهنية عن بعضها البعض تسمى الإبانة ويسمى البيان، أبان عما في نفسه إما تقع بمعنى أي أخرج ما في نفسه فصار معلومًا لدى الآخرين، أبان أي صار الكلام خارجًا يقول الكلام في داخله في باطنه، فإذا أبان أخرجه عن نفسه، وأما تأتي بمعنى البيان بمعنى أنه أفصح، أظهر جل ما في نفسه لأن الكلام يكون في القلب في بداية الأمر، يكون معنى في نفس المرء فإذا أبانه بينه أوضحه للناس حتى يعرفونه.

ومن هنا فإن ميزة الإنسان أن الله عز وجل أعطاه البيان الذي به يبين عن نفسه أنه يعلم الفوارق بين الأشياء، لأن أعظم ما أعطي الإنسان هو الاستعداد لهذا المعنى، وهو الاستعداد للمعاني ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، علمه حتى يصل إلى الأشياء، ومن هنا الإبانة هو كما أنك تفرق بين الطاولة

وبين الكرسي وبين السماء والأرض وبين البيت والكوخ وبين الإنسان والحيوان فأنت تبين عن معرفتك لهذه الأمور، تبينها أنك تعرف هذا من هذا.

كذلك البيان ينبغي أن يكون في أجلى صورة وأجملها وأحسنها لا فقط أن تتحدث حديث الذي به يتم الإبانة أنك تعرف الأشياء مبينة عندك تعرف الفرق بين الكتاب والقلم، ولكن كذلك أن تجلي هذا المعنى في أجلى صورة ولذلك صار البيان معناه حسن الإبانة، **(وإن من البيان لسحرا)**، فصار علامة من علامات الإبانة وهو الإيجاز والبلاغة والفصاحة، فالبيان صار:

أولًا: هو إظهار الفروق بين الأشياء.

ثانيًا: إظهار هذا المعنى من الباطن إلى الظاهر.

ثالثًا: صار فيه زيادة عن ذلك، وهو إحسان هذه الإبانة، فهذا أصل كلمة المبين.

والله عز وجل سبحانه وتعالى الحق المبين، فهو مبين في ذاته بمعنى أنه جل في علاه لا يختلط مع خلقه، لا في أسمائه ولا في صفاته ولا في ذاته ولا في أفعاله، الله عز وجل بيّن بمعنى أنه ظاهرٌ ولا يختلط في الأشياء، ليس مختلطًا، ومن هنا فأي تسميةٍ تقع من الخلق على الخلق ثم يوقعها على الخالق هذا خلط، هذا خلط بين الخالق والمخلوق ما في أبانة ما في فصل.

فالذي يقول: لله ولد هذا أشرك مع الله أسماء المخلوقين في معنى الخالق وفي اسم الخالق، هذا هو الباطل، أنه لم يبينه أنه الله عز وجل الذي ليس له ولد وليس له زوجة وليس له مُعين، ومن هنا كان أعظم معنى من معاني المبين هو سبحانه وتعالى المستغني عن غيره، لأن الاشتراك في الفعل إنما يقع أصلًا في معنى العجز، ومعنى المعاونة، أي هذا لا يستطيع أن يستقل بوجود هذا العمل، لا يستقل لا يستطيع أن يقوم بهذا العمل بنفسه، هذا يحتاج إلى غيره، يختلط يكون له مجاورًا.

والله عز وجل سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى أحد، فهو بائن عن خلقه في أفعاله، لا يحتاج إليهم، مستغني عنهم هو الغني، فبان بهذا المعنى عن معنى الخلق، الله خلق الأشياء فالله عز وجل بهذا المعنى أنه لا يختلط ما يحدث في المخلوقات مما يحدث فيه، هذا أول معنى من معانيه وهو كذلك مشتق من أنه بائنٌ بذاته عن خلقه، بائنٌ في ذاته، نقول نحن: بائن، الله عز وجل بائن بذاته، ما معنى بائن؟ هذه موجودة في كتب كثير من أهل العلم، نقول: الله بائنٌ عن خلقه، بمعنى منفصل عنهم، ليس فيه شيء من خلقه وليس في خلقه شيء منه، ولا هو في شيء من خلقه.

ولذلك لما نقول الله في السماء، لا نعني السماء هنا بمعنى السماوات المخلوقة، التي هي سبع سماوات الله ليس فيها، وإنما السماء هنا بمعنى العلو المطلق لأنه لا يكون في شيء من خلقه، لا يدخل في شيء من خلقه لأنه إذا دخل في شيء من خلقه احتواه، فكان أكبر منه سواء كان من بعضه أو كله، فالله بائنٌ عن خلقه بمعنى: أولًا بائنٌ في الذهن.

من هنا لما قال الذهبي رحمه الله واصفًا كلمة لأبي الحسن الأشعري، انظر هذا الحضور الذهني للمعاني، لما قال وكان خاتمة أمره ألا يكفر أحد من هذه المذاهب، لأن كلهم يشيرون إلى معبود واحد -انظر في ذهنهم معبود واحد- قال: «وهكذا كان ابن تيمية رحمه لله في أخر عمره»، يقول: «أنا لا أكفر أحدًا، لأنهم كلهم يشيرون إلى معبودٍ واحد»، بخلاف من يشير إلى معبودٍ آخر.

فلو جئت إلى النصراني فقلت له: ما معبودك؟ فيقول لك: ثلاثة في واحد، أب، ابن، روح قدس، فهو إلهٌ آخر، لو جئت للبوذي من إلهك؟ فيصف إلهًا خاصًا به، لو جئت إلى الهندوسي يصف إلهًا خاصًا به، وهذا طبعًا يشرك فيه معنى البشر، يشرك فيه معنى الضعف، يشرك فيه معنى الغلط، وكذلك يجعل شيئًا من مخلوقاته فيه، ففي ذهنه تصور هذا الإله على معنى غير ما أخبر الله به عن نفسه، الله أخبر عن نفسه أنه له صفات له ذات سبحانه وتعالى لها أداة علية، ليس فيها شيء من خلقه وليست في شيء من خلقه، وأنه سبحانه وتعالى له الصفات العظيمة التي لا تشترك مع البشر في الضعف، ولا في الحاجة.

فأولًا: أن الله عز وجل مبين في ذهنك بيّن، وأبان عن نفسه إبانة جل في علاه قطعت أعذار البشر في أن يقع منهم الغلط، وأريد أن أبين فقط مسألة ليرى الناس كيف يقع الخطأ في عدم الفهم حتى عن الله، يقول ابن قتيبة رحمه الله في كتابه «تأويل مشكل القرآن»: «أن المجاز -يستخدم الكلمة المجاز على طريقة كثير من علماء اللغة والبيان- يقول: بأن البيان لا يجوز أن يشتق منه لا تكرارًا لفظيًا ولا مصدرًا يكرر به، فإذا جاء التكرار وجاء المصدر خرج عن معنى المجاز»، أي لما نقول جاء الرجل أو جاء الرجال واحدًا، واحدًا أو جاء الرجل، الرجل، هنا أنت كررتها فلا يمكن أن تأتي على معنى غير الرجل الذي نعرفه، لأنها تكررت لفظًا، وأتى إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤)﴾ [النساء: ١٦٤].

والذين يجعلون الكلام على معنى آخر غير معنى ما يعرفه الناس من الجامع للمعنى واللفظ، لا يكون الكلام كلامًا جامعًا إلا باشتراك هذين المعنيين في حال واحد، المعنى واللفظ، فالمعنى وحده لا يكون كلامًا إلا على معنى مجازي، أنا اتكلم عمن يقول بالمجاز، ولا يكون الكلام كلامًا من غير معنى إلا على معنى مجازي، لكن لابد من اشترك اللفظ المفيد للمعنى، ليكون كلامًا حقيقيًا.

فلما قال الله عز وجل: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، هنا كره بالمصدر تكليم، فخرج على أن يكون مجازًا، ولماذا ذكرت هذا؟ ذكرت على أن الله عز وجل حين تحدث عن نفسه تحدث بإبانة تقطع الشكوك والظنون والأوهام، أبان عن نفسه إبانةً لا يمكن أن تشترك مع غيره، يعني واحد يأتي يقول كما يفعل النصارى الآن، يأتي النصارى فيقولون: بأن الذي تقولونه من التثليث أنه الشرك عندنا هو موجود عندكم، هل عاقل يصدق هذا الكلام؟! أن التكليف موجود في القرآن؟! والقرآن يكفر هؤلاء ويخرجهم من الحق يخرجهم من الهداية؟ لا يوجد.

هل لو جاء أحد ليحتج أن في القرآن أن محمدًا معبودا!! أن القرآن قرر أن يعبد محمد!! هل يجد هذا في القرآن؟!! الله لما أبان عن نفسه أبان إبانةً تامة واضحة، قطعت كل الظنون، يعني أنا في هذا حتى تتضح الصورة في هذا المعنى، عندما تأتي للنصراني وتقول له: أظهر لي من كتابك أن عيسى هو ابن الله، على معنى الألوهية التامة، تجد هناك ضعف في عيسى عندما يُسأل عن أمور، إنما أسأل أبي الذي في السماوات، عندما يقول له أحدهم: أنت الصالح، فيقول: لا يوجد صالح إلا الذي في السماوات أبي، وكلمة أبي موجودة أصلًا في كل الكتاب عندهم تدل على معنى الرجل الصالح، ليس على معنى يعني الابن، ليس على معنى الابن بالمعنى النسبي والمعنى الصهر، أو المعنى الذي يتحدث به الناس كما يقول فلان ابني يعني أرعاه واعتني به.

فأنت تقول لهم أين هذا في كتابكم؟ فيأتي إلى إشارات غريبة جدًا، ليست بينة ولا واضحة، ويزعم أن الدين كله قائم على هذه الإشارات، هذا لا يكفي، موضوع العقيدة وتصور العبد عن الله عز وجل يجب أن يكون بينًا واضحًا، هل يخفى في القرآن أن الله عز وجل هو ربنا لا إله إلا هو؟! قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)﴾ [الزخرف: ٤٥].

من أجل هذا مثلًا نأتي إلى الروافض ونأتي إلى بعض ولاة الصوفية، يقولون: أن الله أذن لنا أن نسأله، فنحن نستجيب لأمر الله أن نسأل فلانًا، يعني أن يستغيثوا به، هؤلاء ما كفروا من جهة بل كفروا من جهتين!! أولًا: الكذب على الله، لأن الله لم يقل هذا، ثانيًا: جوزوا أن الله يأمر بأن يعبد سواه!! يعني أكبر حجة لهم لهؤلاء الذين يستغيثون بغير الله ويعبدون غير الله ويتقربون إلى ألهتهم الباطلة بالقرابين الشركية الوثنية، أنهم يقولون: أن الله أذن لنا، هو الذي أمرنا.

فتقول له: كيف مثلًا هذا الإمام الذي تزعمه أن له السلطة الكونية على الوجود كله، بأنه يحيي ويميت فأنت تسأله لأنه يحيي ويميت، وإذا سئل في مشرق الأرض ومغرب الأرض في آن واحد سمع لكل سؤال

فأجابه، فيقول: الله أعطاه هذه القوة، هذا أكبر دليل عندهم، يقول: الله أعطاه هذه القوة وأنا استجيب لأمر الله، وهنا لم يكن كفرًا واحدًا وما ازداد كفره بأن نسب إلى الله أنه يجوز الشرك، وأن الله يجوز أن يكون معه آله أخرى، يعني يقول هذا إله أعطيته صفات الألوهية والربوبية والتمكن في الأرض والتصرف في الوجود.

فلذلك الله عز وجل في أذهان المسلمين لا يوجد دين، الإله بين وضوحًا تامًا كما هو في القرآن، بائن عن نفسه، انظر قل ما تجد خاتمة آية إلا والحديث عنه، وأعظم ما في القرآن هو الحديث عن نفسه، الله أبان عن نفسه، فلذلك هو في قلوب العباد بيّنٌ ظاهر، كذلك سبحانه وتعالى هذا المعنى الذي قلنا إنه يعطي المعنى الآخر، وهو أنه سبحانه وتعالى مستغنٍ عن خلقه.

الآن لماذا الزوجة تسمى جار؟ شريك، «يا جارَتي بيني فَإِنَّكِ طالِقَة»، سمى زوجته لأنهم مشتركان في شيء واحد في مكان واحد، وهو يحتاج إليها وهي تحتاج إليه، ولكن الله عز وجل بائنٌ عن خلقه، لا يحتاج إليهم، حتى وهو مستوٍ على العرش لا يحتاج إلى العرش، الله خلق العرش يعني كان قبل أن يكون هناك ثمة عرش يستوي عليه، فالله سبحانه وتعالى لا يحتاج لأحد، بأنٌ عن خلقه.

وطبعًا المسائل مترتبة على هذا في كتب العقائد كثيرة جدًا، حيث يزعمون طيب ما معناه أن الله ينزل في الثلث الأخير من الليل، تقول هذا نزول لا ندري، عندما نعرف ما الذات نعرف الصفات، فالقول في الصفات كالقول في الذات لا نعلم ذاته، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، هو سبحانه وتعالى لا نعرف ذاته فلا نعرف صفاته، ولكن نؤمن بها أنه ينزل نزولًا حقيقيًا يليق بذاته، حتى ندرك عالم الغيب وندرك ما فيه من سنن سنجيب.

إذن نحن في هذه الدنيا هناك أمور مما يتعلق بفيزياء الكون الذي نعيش فيه لا نعرفها، كثير من الأمور لا نعرفها، الناس يتكلمون عن نظريات عن الضوء هذا يتكلم عن النظريات، لكن عن حقيقته وعن كنهه ما هو لا نستطيع، فكيف الحديث عن الغيب عن الآخرة، النبي صلى الله عليه وسلم لما أسري به، مر وهو على موسى وهو يصلي قائمٌ في قبره ثم صلى به إمامًا في المسجد الأقصى ثم صعد إلى السماء فوجده في السماء، وحادثه فكيف هذا؟ هذا عالم الغيب هذا له سننه، له قوانينه، لا ندري عنها الله خلق الكون على شيء يتناسب مع فنائه ويتناسب مع قدرات البشر، وأما في الغيب فهذا متناسب مع قدرة أخرى، فالله له القدرة هنا عالم السنن الذي هو جزء من القدرة، وفي عالم الغيب هناك عالم القدرة، تلك سنن أخرى لا ندري عنها، **(إن الذي أمشاه على رجلين ليمشيه على وجهه)**.

فالله عز وجل المبين بهذا المعنى أن ذاته سبحانه وتعالى بينة وأنه بيّنٌ واضح ولا يدخل فيه شيء من خلقه، لا يجوز أن تدخل شيء فيه من خلقه، لا ذهنًا، لا علمًا، لا ذاتًا، لا يجوز لك هذا.

المعنى الثاني: أنه هو الله عز وجل المبين في ذاته وهو كذلك يحب الإبانة في كل شيء، أنه أبان كل شيء، أبان عن ذاته، أبان عن رسله، أبان عن شريعته وما يحب ما يكره، أبان عن مستقبل البشر وأين مقراتهم أين نهاياتهم، في الجنة أم في النار، إن أطاعوه أين يذهبون، وإن عصوه أين يذهبون، فأبان عن كل شيء، وفصل ذلك تفصيلًا لتنقطع به كل تهمة وكل غبش، فالله إبان عن كل شيء، لما أنزل رسوله.

فالرسول صلى الله عليه وسلم هو مبين كذلك، ﴿جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣)﴾ [الدخان: ١٣]، الرسول بيّن لا يخفى، وذلك من إقامة الحجة على الخلق، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم تصور، هل الرجل يخفى عليه أبنائه؟ ابنه الذي عاش معه ورباه؟ كذلك الرسول صلى الله عليه وسلم بين للخلق أنه رسول الله، ولا تجد أحدًا يسمع بالرسول صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من الحق فلا يتبعه إلا هو متبع للهوى، وليس من جهل، ما أحد عاد النبي صلى الله عليه وسلم من جهل به، وما أحد أعرض عن دعوة النبي لأن النبي غير بيّن، توقف أنا أريد أن أفكر حالك يخفى علي!! أعطاه من الآيات ما يؤمن عليه جميع البشر.

أعطي لكل نبي من الآيات ما يؤمن عليه قومه، أعطى موسى عليه السلام الآيات التي آمن عليها بنو اسرائيل وآمن بها فرعون وقومه، وهكذا بقية الأنبياء، وأما النبي محمد صلى الله عليه وسلم فأعطي من الآيات ما يؤمن بها جميع البشر، يعني من أي جئت لتستدل على أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم تجد الدليل قائمًا بينًا واضحًا، وأعظم دليل هو هذا القرآن، القرآن الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يبلى من كثرة الرد، لا يبلى لا ينتهي.

فالله أقام في هذا القرآن من الدلائل، حتى أنه جعله نورًا يقرأه الذي لا يفهمه فيحس بمعاني في قلبه عجيبة جدًا، هذا ذكره العلماء قديمًا من أوجه الإعجاز، ما أعظم ما أوجه الإعجاز؟ أن الذي يقرأه يحس بنور في قلبه يحس باهتزاز في قلبه، هذه العلاقة لهذه القوة ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، هذه العلاقة لا يمكن أن يصنعها كلام بشر، الناس يطربون للمعاني ويطربون للأصوات الجميلة حتى لو لم يفهموها يطربون، لكن أن تهتز قلوبهم من الداخل لكلام لا يفهمونه وحتى لو تلي عليهم تلاوة، هذا شيء عجيب.

وأعطي هذا القرآن البلاغة التي أبهرت العرب، وأظهرت أنه لا يمكن أن يخرج من بشر، هذا كلام ليس حديث بشر، النفس التي تحدثت بهذا القرآن، وبهذا الكلام لا يمكن أن تكون بشرية، الإنسان يظهر في

كلامه، البخيل يظهر في كلامه، الغني يظهر في كلامه، الفقير يظهر في كلامه، المحتاج يظهر في كلامه، هذه إبانة، ما معنى الإبانة؟ ما أنت في داخلك، فالكلام إبانة عما في النفس.

فلما قرأ العرب هذا الكلام علموا أنه ليس كلامًا يخرج من بشر، حديثٌ علوي خرج عن نطاق البشرية إلى نطاق الإلهية، هذا كلام رب، إله يتحدث ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ١-٥]، وأبان الله عز وجل في القرآن أنه واحدٌ أحد لا يوجد أحد ينازعه، فالملك يقول: هذا لي هذا السلطان لي، فيأتي من ينازعه فيقول: بيني وبينك حرب على هذه النقطة، نحن مختلفون، يعني يتنازع الناس، يأتي رجل يقول: هذه زوجتي، يقول الآخر: لا، أنا أريد أن أخذ زوجتك منك، يأتي الموت يأخذها منه.

فلما قال الله أنا الذي خلقت هذا الكون، من الذي نازعه؟ هناك واحد قال: أنا خلقت هذا الكون، لم يأتي أحد نازعه عليه، هناك إله قال: أنا أحيي وأميت، أنا أحييكم وأميتكم، أنا أشرق الشمس من المشرق وأغربها من المغرب، فمن نازعه؟ فلم ينازعه أحد.

ولذلك الله سبحانه وتعالى أرسل رسوله وأبانه وأرسل كتابه وفصله تفصيلًا، ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ١-٢]، انظر هذا ما هو الخبر؟ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، فالله عز وجل أبان، وكذلك سبحانه وتعالى أبان للناس شرائعهم، انظر إلى حياة النبي صلى الله عليه وسلم وإلى صلاته، إلى وصف الإمام ابن حبان رحمه الله –ضع هذا الكتاب– جمع كتابًا فيه أكثر من ألف سنة للصلاة، ألف سنة في الصلاة فقط، هذا الوضوح تمام البيان لما يحتاجه الناس.

وأبان سبحانه وتعالى عما يحب، أبان عن الأذكار التي يحبها، انظر لكثرة الأذكار، يعني لو أن المرء أراد الأذكار، أراد أن يقرأ القرآن وأراد أن يسبح وأن يهلل تستغرق يومه كله، الكلمات التي يحبها «سبحان الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، حسبنا الله ونعم الوكيل، سبحان الله، الحمد لله، الله أكبر، لا إله إلا الله، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»، أبان سبحانه وتعالى، فهو المبين.

وكذلك سبحانه وتعالى في هذه الدنيا أبان الحقوق، أقام على الحقوق علامات، هذا لو الناس تفكروا ما من حقٍ إلا وله دلائل لعلموا أن هذا دليل على أن الله عز وجل حق، من الذي أقام دلائل الحق في الوجود؟ الحق المطلق بين الناس؟ فالناس يتنازعون فأقام معرفة الحقوق، هذا يعرف حقه وهذا يعرف أنه مبطل، هذا يعرف أنه محق وهذا يعرف أنه مبطل، من الذي أقامه؟ هذا الوجود المتناسق على هذا المعنى، أقام أمارات في على الأراضي، هذا الناس لماذا يعلمون؟ يقولون أين أنت الآن؟ لو أن الأرض كلها سبخةً

واحدة ليس فيها جبال، ليس فيها أنهار، ليس فيها تميز فكيف يعرفون الأراضي؟ لكن أقامها، فأنت تقول في الجبل الفلاني، تقول في النهر الفلاني وهكذا.

بل أقام الشمس والقمر تعرف أنها في مسيرتها أن هذا المكان انتقل إلى هذا المكان، أقام سبحانه وتعالى الإبانة، ولذلك الله يحب البيان وجل الإنسان وعظمه بأن علمه البيان، الفرق بين الخلق جميعًا في تمايزهم هو ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وكلما اقترب الحيوان إلى معنى الإبانة كان متميزًا.

ومن هنا لا يوجد نص –بعضهم يقيس لكن انا أتكلم عن نص– لا يوجد نص يبين نجاسة لعاب دابة في الأرض، إلا نجاسة لعاب الكلب، مع ذلك لما يكون مُعلمًا، لماذا مُعلم؟ يميز ما له وما لصاحبه، هذا الْمُعلم، فإذا صاد لنفسه في الحديث لا تأكل، لكن إذا صاد لك ميز، فالأشياء تقترب معانيها وقيمتها من خلال وجود البيان الإبانة، أن تعرف هذا لي وهذا لك، القط لا يعرف هذا لك يهرب به، الكلب يُعلم فيعرف أن هذا يصيده له فيأكله وهذا يصيده لك فيحمله ويحضره إليك، ومع ذلك الشرع تجاوز عن الريق هنا، وتجاوز عن أنه ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤].

فالبشر تميزوا في فضلهم بأنهم إذا خوطبوا أدركوا الخطاب، كلما كان الرجل واسعًا في تمييز الأشياء كان عالمًا، من هنا قال بعض أهل العلم وهذا كلام الشافعي رحمه الله في الرسالة: «إذا اتسع عقل الرجل اتسعت عبارته»، لأنه صاحب علم كبير، فيضطر أن يبحث عن كلمات تعبر، من هنا كانت غزارة اللغة العربية، في الإبانة عن نفوسهم لما في نفوسهم من معاني.

فانظر هذا القرآن لأنه حديث عن الله، انظر هذه البلاغة فيه، انظر هذا العمق فيه، وهكذا كل من اشتق من القرآن علومه فاتسعت علوم هذا الرجل فتتسع عباراته، من هنا انظر للشعراء لأن المعاني في أذهانهم عجيبة، بل يخرجون من معاني الحقائق إلى معاني الأوهام، تتسع عباراتهم، فالله سبحانه وتعالى يحب البيان، ويكره سبحانه وتعالى يكره ضد البيان وهو العجز، العجز دليل ضعف الإنسان، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: **(لعل أحدكم ألحن بحجته من بعض)**.

فالله يحب هذا البيان، ويحب أن يمدح أعظم أن يمدح بما فيه من حق، انظر هذا الرجل الذي قال: «الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا»، هو بحث عن كلمات عظيمة جدًا من أجل أن توصله إلى مدح الرب، هو يريد أن يمدح الله، وهذا المدح ليستغرق ما فعل الله وما ملك الله وما قال الله، «الحمد لله» هو يريد أن يحمده عما فيه سبحانه وتعالى من خصال، «الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ملء السماوات وملء

الأرض وملء ما شئت من شيء بعد عدد خلقك ورضاء نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك»، لما علم أبان فحصل له الفضل العظيم.

من هنا العلماء يتميزون عن غيرهم ربما تنقدح المعاني في نفس العامي، لكن هو عادةً مشغول بعلومه الخاصة به يعني هذا الرجل الذي يعمل في تصليح الأحذية، ما مقدار علمه، مقدار علمه في هذا الباب، لكن الذي يتحدث عن الفنون والعلوم، يتحدث عن الغيب، يتحدث عن الملائكة، يتحدث عن أحوال البشر، من أجل إعطاءهم الأحكام الشرعية، تصور رجلًا تأتيه أحوال بشر متعددة في البيوع في الشراء في الزواج في النكاح في الخصومات فهو يحيط بها.

فالله عز وجل يحب الأبان، ويكره سبحانه وتعالى العي والعجز، ولذلك يقول العلماء: «البيان يطرد الشيطان»، من أجل هذا لازم في البيوع وفي الزواج وفي الأمور كلها تكون بائنة وواضحة، كل واحد يعرف حقه، وإذا وقع الغرر وقع الإثم وقع الخطأ، ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الغرار، لماذا الغرر؟ ليس واضح، بيع السمك في البحر، بيع العبد الآبق، بيع الثمار داخل الأرض، بيع الثمار قبل أن تحمر وتصفر، هذا كله لا يحبه الله عز وجل، لأنه يؤدي إلى الخصومات.

ويوم القيامة هو يوم الحق، أي إقامة الحق البين الواضح الذي لا خفاء فيه، في الدنيا ربما تضيع بعض الحقوق، مثل أن يقتل رجل رجلًا فتضييع الحقوق، الناس يتخفون ولهم فنون من الكذب والتخفي والدجل والإشاعات الباطلة، فربما يُظلم، كما الأم التي كانت تحمل ابنها فمر الملك الناس يفرحون له فقالت: اللهم اجعل أبني مثله، كان ظالمًا كافرا، ومرة امرأة يرجمونها زانية فقالت: اللهم اجعلني مثلها.

فالدنيا هذه تحتاج إلى بصيرة لئلا تمشي وراء الناس، وراء كلماتهم، وراء دجلهم، وراء إشاعاتهم، أكبر كذبة في الدنيا أن تقيس الماديات مطلقًا، هناك يوجد قياس يعني الله يمثل المعاني دائمًا بالأشياء المادية ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، مثل المعاني وهو النفاق بالمادة، لكن ليست كهذا على الإطلاق، ولذلك يقولون من أكاذيبهم: لا دخان بلا نار، هذا في الدنيا فيما يتعلق بالماديات لكن هل يمكن أن تخرج إشاعة وهي الدخان بلا نار بلا حقيقة، ممكن تصنع الكلمات بلا حقيقة؟ الدخان لا يصنع بلا نار، لكن هل يمكن أن تخرج إشاعة بلا حقيقة؟ الإنسان ماذا يصنع، ولذلك عندما يكذب يقول: لا يا أخي، لا دخان بلا نار، هذه أكذوبة هذه ضلال، هذه فساد بهذا المعنى لأن الله أقام الأدلة فيجب، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]، فتبينوا، افصل، ميزوا الأمور

خاصةً هؤلاء العلماء والثقات هؤلاء يفصلونها بحيث تكون كالعجب عند العامي، كيف عرفها، لِمَ يفتح الله عليه من البصائر، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

فيوم القيامة تظهر كل الحقائق، يؤتى بالرجل العظيم يوم القيامة، رجل عظيم في الدنيا فيحشر يوم القيامة على صورة الذر، تطأه الناس بأقدامهم تدوسه الناس بأقدامهم، هذه حقيقتك، كنت الناس يصفقون لك يسجدون لك، يقبلون يديك يعظمونك يوم القيامة يحشر كالذر، هذا الذي خرج على قومه في زينته ضربته الملائكة فهو يتلجلج في الأرض سبعين خريفًا، إلى يوم القيامة، سبعين ذراعًا في الأرض يتلجلج فيها إلى يوم القيامة، وفي الدنيا ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩)﴾ [القصص: ٧٩]، الدنيا تخدع.

ولذلك ينبغي على المرء أن يقيس الأمور بما عند الله، أن يعظم ما عظمه الله، كان علماؤنا يذكر عن الإمام شعبة وغيره قال: «لم نكن نرى قيمة للفقير إلا في مجالسهم»، لا يدخل الملك فيوسعون له، لا، يقدم الفقراء، يقدم الذين يحبهم الله، هكذا هو العبد إذا قدم من يحبه الله أحبه الله، وإذا رفع شأنه الله يرفع شأنه، ومن تواضع لله رفعه الله سبحانه وتعالى، فيوم القيامة يعلمون أن الله هو الحق المبين فيوم القيامة: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر: ١٦]، تظهر الحسنات، تظهر قيمتها.

نحن نقول حسنة، ما الحسنة؟ الحسنة معنى الآن أما يوم القيامة تصبح وزن حقيقي توزن هذا ميزان وهذا ميزان، الحقيقة هناك يوم القيامة تظهر للكفار جهنم، الآن جهنم كلمة في أذهاننا تدل على عقيدة لكن يوم القيامة يراها الناس بأبصارهم، الجنة كلمة الآن، يوم القيامة وإذا هي حقيقة يدخلونها ويتمتعون بها، ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)﴾ [النور: ٢٥].

نسأله سبحانه وتعالى في هذا الباب أن يعلمنا الحق، أن يعلمنا وأن يجعلنا من أهله، وأن يجعلنا من أهل الإبانة إبانة الحقائق، من أعظم المقامات أن يصبح مقامك تبليغ عن البيان الإلهي، من هنا سماه ابن القيم «الموقع عن رب العالمين»، هذه كلمة في الحقيقة يقشعر منها البدن، أنت موقع عن رب العالمين، انظر أنت دورك الله يريد أن يخبر الناس فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم وأنت تحمل ميراث الرسول صلى الله عليه وسلم فتبينه للناس؛ هذا أعظم ما يكون، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، إياك أن تقول شيئًا بلا بينة ولا ظهور إياك، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وأعظم مصيبة هو اتباع الظن، من أين جئت بهذا؟ من أين الكلام يقوله الناس؟ أبحث لا تتابع الناس، النصارى ملايين في البشرية كلهم يقولون: إن عيسى صلب، ويعبدون الصليب ويقبلونه ويحملونه ويسجدون

له، يعبدونه وهي أكذوبة، هذه عبرة لك ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦)﴾ [الإسراء: ٣٦]، السمع والبصر والفؤاد؛ هذه هي مصادر العلم.

فلذلك من تعبدنا لربنا أن نعلمه، تعبدنا لهذا الاسم أن نعلمه، وكلما ازداد المرء معرفةً بربه زاد تعبدًا له، كلما ازداد علمًا بالله علمًا وحالًا خبرًا وتعاملًا كلما ازداد قربًا إلى الله عز وجل ومحبة له، وعليك أن تعلم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الحق، وأعظم ذلك هو الكتاب القرآن، تبيانًا لكل شيء، عليك أن تقرأه تدبرًا ثم عليك أن تعيش في هذه الدنيا بلا غفلة لا تكن مغفلًا.

الآن من أكثر أسباب الفساد في الأرض هو متابعة الظلمة، لأن الناس يخفون عليهم لا يريد أن يسمع، ومن هنا يأتي كفر الأعراب لا يريد أن يسمع، تريد أن تكشف له حال هذا الرجل تقول له: تعال، تعال أدلك أنت تتبع إبليس، تتبع شيطان هذا يكذب عليك، وهو يأبى إلا أن يمشي في طريق الشر، ولا يصفو حتى يأتيه الموت أو تأتي قارعة من الله، فلا تقبل بهذا، تعلم أن تتعلم الإبانة والظهور، لا تتبع الناس إياك والتقليد، الله لا يرضى منك التقليد، الله أعطاك عقلًا.

ولا يوجد أحد في الدنيا يسد مسدك في طلب العلم، اطلب أنت العلم بنفسك، إلا أن يدلك على خير فتهتدي به، وما في أحد أخذ علمًا أكثر منك إلا فهمًا يؤتيه الله من كتابه، بهذا يتمايز الناس، فعليك أن تعلم السنة تعلم بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، تعلم بما جاء القرآن الكريم، ثم بعد ذلك في هذه الدنيا عليك أن تعلم الناس الذين أمر الله بمعرفتهم، لا يجوز تجوز بنتك لواحد ما بتعرفه، لا يجوز أنت تصادق واحد لا تعرفه، لا يجوز أن تأتم برجل لا تعرفه.

فالله أقام الأمارات لا تقول أنا لا أعرف، قد تخفى بعض الأمور الضيقة ما هو الطريق؟ الطريق سؤال الله، اسأل الله عز وجل، اطلب منه أن يبين لك أن يكشف لك الحقائق في القلب، وبعد ذلك الله يفتح عليك، يعرفك ييسر لك الخير، أقم نفسك مقام العبودية والتسليم لله، الله يعرفك الطرق يبين لك السبل ويهديك إلى أقومها ويجنبك الشر فيها، وحينئذٍ تكون إمامًا لهذا تصبح إمامًا، ويوم القيامة لا تختلف عليك الحقائق، فقط ما الفرق بين الدنيا والآخرة؟ ما آمنت به في الدنيا تراه في الآخرة، آمنت بالجنة فتراها آمنت بالنار تراها، آمنت أن هذا مجرم فترى أنه مجرم، آمنت أن هذا عالم فتراه عالما، آمنت أن هذا صالح فتراه يوم القيامة صالح وهكذا، فيوم القيامة تكون إظهار لما اعتقدت وهذا هو أعظم الخير، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته وأن يغفر لنا ذنوبنا.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا قلت في البداية المتين لم يذكر في القرآن، لكنه مذكور في آية في القرآن؟

الشيخ: نعم، ذكرت ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات: ٥٨] إن شاء الله نذكرها، وأنا قلت لم يذكر في الكتاب!! وهذا خطأ.

الدرس الواحد والأربعون: الوتر

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الذي تعبدنا به علمًا وحالًا وهو اسمه سبحانه وتعالى الوتر، فهذا الاسم العظيم ثبت في السنة المطهرة لقوله صلى الله عليه وسلم: **(إن لله مئة اسم إلا واحدًا تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها –أو من حفظها– دخل الجنة وإن الله وترٌ يحب الوتر)**. ويصح وِتر ووَتر في القرآن ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣)﴾ [الفجر: ٣] وكذلك هناك قراءة كما تعلمون ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوِترِ﴾ كلاهما قراءتان مشهورتان، كما يذكر الامام الطبري رحمه الله.

والوتر هو الفرد الذي لا شفع له وهو قسيم الشفع والشفع هو كما نحن نقول بالعامي المجوز والوتر هو الفرد، والله سبحانه وتعالى وتر، بمعنى أنه سبحانه وتعالى فردٌ متفرد واحدٌ لا يتعدد، الله سبحانه وتعالى في أسمائه كما في الحديث الذي اختار سبحانه وتعالى من الأسماء تسعة وتسعين اسم فأسماء الله عز وجل كثيرة أكثر من تسعة وتسعين اسم ولكن اختار تسعة وتسعين اسم لأنه وتر، ويحب الوتر.

والله عز وجل متفرد، فالعبيد نرى فيهم الشفع، الله خلق كل شيء زوجا، ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)﴾ [الذاريات: ٤٩]، الرجل والمرأة الدواب الحشرات الذكر والأنثى، حتى الذرة اكتشفوا أنها مذكر ومؤنث يعني فيها سالب وفيها موجب، والرياح فيها الصبا وفيها الدبور، فالأشياء كلها هي زوج.

والله عز وجل سبحانه وتعالى جعل الخلق على معاني متعددة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨]، أي أقام لهم مقام القنوط ومقام هذا الاستبشار، للعبد مقامان في هذه الحياة مقام الفقر ومقام الغنى، مقام الجوع ومقام الشبع، مقام العطش ومقام الري، فهو ليس فقط في وجوده التكويني في ذكر وأنثى ورجل وامرأة ولكن كذلك أقام العبد على أحوالٍ من التناقض الشيء وقسيمه موجود، فالإنسان يكون غنيًا ويكون فقيرًا، ولا يكون شيئًا ثم يكون، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان: ١]، فالإنسان لا يكون شيئًا ثم يكون. وبعد

ذلك يبيد ثم يحيه الله عز وجل، فهو قام على معنى التغير والشفع، وكذلك نرى الإنسان يضحك وكذلك يغضب، فيه هذا وهذا، والإنسان كذلك يعطي ويمنع ويقبض ويبسط وهكذا.

فالله سبحانه وتعالى أقام الخلق على الشفع، ولكنه أحب من الخلق الوتر لأنه سبحانه وتعالى الوتر وهذا المعنى في الشفع ليس موجود في حق الله وما تعلق بصفات الذات أما ما يتعلق بصفات الفعل فلأنها قائمة على الإرادة، إرادة الله إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، الله إن شاء تكلم وإن شاء لم يتكلم، إن شاء أعطى وإن شاء منع، فصفات الفعل هذه حقيقتها، الوجود والعدم. ليس المقصود بالعدم عدم وجود البتة والقدرة، المقصود عدم وجود الفعل.

وأما صفات الذات فلا تحول فيها ولا تغير فهو فردٌ فيها سبحانه وتعالى، الصمد، الأحد لا تتغير هذه الصفات، الله عز وجل غني لا يطرأ عليه الفقر، الله عز وجل قوي لا يطرأ عليه الضعف، الله سبحانه وتعالى جميل لا يطرأ عليه القبح، وهكذا، فصفات الذات فيه سبحانه وتعالى فرد ووتر ولا تتعدد، الله سبحانه وتعالى واحد كما شرحنا في اسمه الواحد الأحد، فلا يكون شفعًا، لا يوجد معه إله لا في الفعل عندما خلق ولا صفاته يشاركها في أحد وهو سبحانه وتعالى الوارث لكل شيء، وكل شيءٍ سواه هو مخلوق له، الله خلقه، وكل شيءٍ سواه عابدٌ له، عابدٌ لله عز وجل.

فالله عز وجل وتر وهذه الفردانية هي التي تعطيه حق التعبد، من الذي له حق أن يعبد؟ هو الذي خلق وهو الذي رزق وهو الذي أعطى وهو الذي يمنع وهو الرب، ولذلك مقتضى سبب وجود الألوهية وسبب حق الألوهية هو ربوبيته سبحانه وتعالى؛ أنه رب هو الذي خلق هو الذي رزق هو الذي يحيي هو الذي يميت هو الذي يوجد هو الذي يمنع هو الذي يعطي هو الذي يقبض هو الذي يبسط، وكل شيءٍ بيده وكل ما سواه فقيرٌ إليه، وهو الغني سبحانه وتعالى.

فالله عز وجل وتر بمعنى أنه فرد وهذه الفردانية تعطيه العظمة وتعطيه القدوسية وتعطيه الكمال وتعطيه الجلال وتعطيه الجمال هذه الفردانية هي التي تعطيه سبحانه وتعالى صفات أنه هو الله جل في علاه.. والله عز وجل أقام الخلق على معاني يحبها، وجودًا وشرعًا، الله أقام خلقه على معاني يحبها في نفسه، نحن نقول معاني يحبها في نفسه يعني هي فيه، هي فيه، يعني الله سبحانه وتعالى -على معنى الخلق- أقام الخلق على معاني يحبها في نفسه، وما معنى يحبها في نفسها؟ يعني هذه المعاني فيه، إذا كانت تليق بالإله، هذا الذي يسمى عند العلماء بقياس الأولى.

ومعنى قياس الأولى إذا كان هذا مدحًا في حق المخلوق فالأولى أن يكون مدحًا في حق الخالق، المدح في المخلوق أن يكون سميعًا، فالسميع في المخلوقات خير وأفضل من عدم السمع، والبصر في المخلوقات صفة مدح خير وأكمل من الذي لا يبصر والذي يعقل وهكذا، والذي يفهم صفة مدح، والله يحب المؤمن القوي، وكلاهما خير ولكن يحب.

فالله أقام الخلق على معاني يحبها سبحانه وتعالى، ومن ذلك أقام في الخلق هذه الصفة الله وتر خلق سبع سماوات، سبع أراضين، الأسبوع سبع أيام، هذه وتر كلها كما ترون، فأقامها على معنى الوتر، ثم سبحان تعالى شرع شرعه على وتر لأنه يحب الوتر، كم صلاة عنا في اليوم؟ خمس صلوات، كم كمال الوضوء؟ ثلاثًا كمان، وهكذا، نجد أن هذا المعنى موجود في شرع الله، قال صلى الله عليه وسلم: **(إن الله وتر يحب الوتر)**، فأقام هذا التكوين على هذا المعنى لأنه يحبه سبحانه وتعالى وأقام الشرع على هذا.

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في الحديث: **(أوتروا يا أهل القرآن فإن الله يحب الوتر)**، كم ركعة فريضة؟ سبعة عشر ركعة فريضة، ولو جمعتم ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من السنن كم ركعة؟ ثلاثة وعشرين ركعة، سبعة عشر ركعة فريضة، وثلاثة وعشرين ركعة من السنة الثابتة عنه صلى الله عليه وسلم، اثنتي عشر ركعة سوى قيام الليل والوتر.

وهذا جمع الشافعي رحمه الله وذكره في كتابه الأم -الفريضة متفق عليها- أن كمال السنن أن يصلي العبد كل يوم ثلاثة وعشرين ركعة، هي اثنى عشرة ركعة: الصبح ركعتين سنة، الظهر أربعة، مع ركعتين ستة، والمغرب مع ركعتين، والعشاء ركعتين، ثم يأتي الوتر وعشر ركعات من قيام الليل يصلي عشرًا، إلا لما عجز صلى الله عليه وسلم وكما قالت عائشة رضي الله عنها عندما سئلت هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي وهو قاعد؟ قالت: «نعم، بَعدَما حَطَمَهُ النَّاسُ» صار يصلي جالسا ويقتصر على ست ركعات، وإلا فكمال القيام عشر ركعات، فهذه ثلاث وعشرين ركعة من الرواتب السنن الراتبة، وسبعة عشر ركعة فريضة، فهذه أربعون ركعة يصليها العبد في كل يوم لكن هذا وتر وهذا وتر وهكذا الله عز وجل وتر ويحب الوتر.

ولذلك يستحب للمرء أن يصوم من كل شهر ثلاث أيام، وهكذا، لو أعد المرء هكذا يسبح ثلاثًا وثلاثين، يكبر ثلاثًا وثلاثين وهكذا، فالله عز وجل وتر يحب الوتر، لماذا؟ لأن الله عز وجل هو وتر، والخالق سبحانه وتعالى لا يحسد العبد، والعبد لا يحب أن يكون له مثيل في هذه الدنيا، لا يحب المماثلة ويحب

الفرادة، الله سبحانه وتعالى لا ينازع العبد في شيء لأنه يعطيه منه، وإذا أراد أن يسلبه إياه سلبه إياه وفي النهاية كل شيء يعود إليه، فالناس كلهم سيموتون، الملك سينتهي، المال سينتهي.

فالله سبحانه وتعالى يحب أن تكون الفرادة في العبد ومن ذلك حديث **(سبق المفردون)** [1]، ما معنى المفردون؟ يعني الذين تميزوا عن غيرهم في أمرٍ يحبه الله، وهذا من الفرادة، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم ما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات»، كل أمرٍ من أمور العبادة إذا اشترك مع الذكر بز غيره، الصلاة هي ذكر، لكن ما الفرق بين الصائم والصائم عند الله عز وجل؟ أن هذا ذاكر وهذا غير ذاكر، فيتميز الناس في صيامهم بالذكر، يتميز الناس في صدقاتهم إن تصدقوا بالذكر، يتميز الناس في أعمالهم في وجودهم بالذكر، فالذكر هو الذي يصنع الفرادة في الأعمال، حتى المرء وهو يعبد الله عز وجل وهو قائم يصلي فيذكر يعني يكون ذاكرًا لله وليس غائبًا عن الصلاة، ما الفرق بين مصلي ومصلي؟ ان هذا المصلي يعبد الله سبحانه وتعالى وهو لاهٍ فليس ذاكرًا، وهذا يعبد الله وهو ذاكر، «فسبق المفردون»، في الجهاد في سبيل الله ما الفرق بين هذا المجاهد وهذا المجاهد وكلاهما في مقامٍ واحد؟ هذا يذكر الله وهذا لا يذكر الله، «فسبق المفردون».

ولذلك الفرادة يحبها الله عز وجل لأنه دعا إليها، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطففين: ٢٦]، الله عز وجل يحب السبق، والله عز وجل يريد منك أن تجري وأن تسبق في هذا المجال ولذلك سورة سميتها أنا هي سورة «غافر» سميتها سورة الفرادة، الله تحدث فيها عن الفرادة، الفرادة كيف تكون؟ لماذا مدح الله سبحانه وتعالى إبراهيم؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] لماذا مدحه؟ مدحه لأنه تحققت فيه هذه الصفة صفة الفرادة، قال صلى الله عليه وسلم: **(قال إبراهيم عليه السلام لزوجته سارة: يا سَارَةُ، ليسَ علَى وجْهِ الأرْضِ مُؤْمِنٌ غيرِي وغَيْرُكِ)**.

ومن خير الناس؟ يقول صلى الله عليه وسلم: **(العِبادةُ في الهرَجِ كالهِجرةِ إليَّ)**، الهرج: أي الفتن الناس مشغولين في دنياهم مشغولين تجد مثلًا توزيع أموال تجد فتن في قتال على أشياء والعبد مشغولٌ بربه، فهذه العبادة في الهرج تفرد، ولذلك مدح النبي صلى الله عليه وسلم أبا ذر بأنه يعيش وحيدًا ويموت وحيدًا ويبعث يوم القيامة وحيدًا، لماذا؟ لتميزه في خصال ليست في بقية الأمة في هذا الباب، ولذلك يحب الله سبحانه وتعالى للعبد أن يبز غيره من العابدين، وهذا يؤدي إلى التنافس، وتجد أن الصحابة يتميزون بهذا؛ بعضهم

---

[1] كانَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، يَسِيرُ في طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ علَى جَبَلٍ يُقَالُ له جُمْدَانُ، فَقالَ: «سِيرُوا هذا جُمْدَانُ سَبَقَ المُفَرِّدُونَ» قالوا: وَما المُفَرِّدُونَ؟ يا رَسولَ اللهِ، قالَ: «الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا، وَالذَّاكِرَاتُ». أخرجه مسلم، صحيح مسلم (٢٦٢٧).

يبز غيره في باب لا يشاركه فيه غيره، ومرتبة الصديق هذه لا تدرك، كما قال عمر رضي الله عنه: «وليس فيكم من تقطع إليه الأعناق كأبي بكر»، أي يركضون ويركضون فيموتون ولا يدركونه، يركضون فيموتون تقطع أعناقهم يموتون ولا يدركونه هذا ما فيه.

وبقية الصحابة رضي الله عنهم تجد أنهم فيهم الفرادة هذا يتميز بالعلم –حتى العلم– هذا يتميز بحفظ القرآن، هذا يتميز بالفرائض، هذا يتميز بالحج.. بمسائل الحج، وهذا يتميز بالعطاء والكرم والبذل، وهذا يتميز بالصبر، وهذا يتميز بالحلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأشجِّ –أشجِّ عبد القيس–: **(إنَّ فيك خصلتين يحبُّهما الله: الحِلْم، والأناة)**، قال: «يا رسول الله، كانا فيَّ أم حدثا؟» قال: **(بل قديم)**، قال: «قلت: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبُّهما»، في خصال يحبها الله، يتميز العبد بهذه الخصال، فالله عز وجل يحب هذه الفرادة.

فبهذا المعنى أن يتفرد العبد بأعمال لا يشاركه فيها غيره بل ينظر والله ينظر إليه لان هذا باب يحبه الله لئلا يموت في الناس.. هذا الخير لئلا يموت في الناس، إذا الناس تركوه فيموت، الكرام إذا تركه الناس يموت الكرم، فينظر الله فلا يجد الكرماء الذين يتسابقون في الكرم، الله ينظر لحفظة القرآن لا يتنافسون في قراءته، الله عز وجل ينظر إلى الخلق فلا يجدهم يكثرون من السجود، ينظر فلا يرى هذا، والله يبغض هذا لا يحبه إنما يحب أن يرى الناس يتنافسون في هذه الأبواب، هذا باب يتنافس فيه الناس بحسب قدرتهم وما من عبد إلا وفيه وفي الدنيا مجال بأن يكون بارزًا فيه، يعني واحد فقير من أين يتصدق فيسبق الآخرين؟ فقير، لكن يستطيع أن يسبقهم في باب آخر بقراءة القرآن يسبقهم، بكثرة ذكر الله عز وجل يسبقهم، بكثرة السجود، **(أعني على نفسك بكثرة السجود)**.

فالعبد بهذا يبحث عن باب من أبواب الخير التي تلائم حاله وتلائم نفسه، باب من أبواب العلم والناس يجهلونه ولا يعرفونه، هناك أبواب كثيرة من أبواب العلم الناس لا يهتمون لها، فيبرز فيها، حتى في أبواب العلم التي تخدم الكتاب والسنة والناس لا يهتمون لها، نحن رأينا ذكرتها هذه في إحدى كتاباتي: «قال أبو بكر بن مجاهد المقرئ: قال لي أبو العباس ثعلب: يا أبا بكر، اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن؛ ففازوا، واشتغل أهل الفقه بالفقه؛ ففازوا، واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمرو، فليت شعرى ماذا يكون حالي في الآخرة! –زيد وعمرو يعني ضرب زيدٌ عمرو، الذي هو في النحو– يقول ابو بكر: فانصرفت من عنده، فرأيت تلك الليلة النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقال لي: أخبر أبا العباس إنك صاحب العلم المستطيل»، يعني أخذ العلم الجامع لأن كل العلوم تقوم على اللغة فالكتاب يقوم على اللغة والسنة تقوم على اللغة.

والناس لا ينتبهون إلى أن أهل اللغة هم أهل العلم، الإمام الكسائي هو أحد رواة القرآن، وهو إمام من أئمة اللغة وهو له قراءة مشهورة من القراءات المشهورة، الناس لا يدرون أن أئمة اللغة هم أئمة عِظام في التعبد والاخلاص لله عز وجل وبذل الخير، ويتعبدون الله عز وجل بهذا العلم، فالمرء يجري في ميادين الخير، وتجد الناس سبحان الله يرفعهم الله، يقول لك فلان: هذا في الدعوة إلى الله، ما شاء الله.. لا تجد أحدًا إلا يقف معه ويتكلم معه في الصلاة ويحببه في الدين يبرز في هذا، يقول فلان: لا أراه إلا ذاكرًا، فلان ما شاء الله يبذل الصدقة مع فقره ومع حاجته يبذل الصدقة، فتجد الناس يتحدثون بهذا و«ألسنة الخلق أقلام الحق».

الله عز وجل يقيمهم من أجل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(الرجلُ يعملُ العملَ للهِ فيُحبُّهُ الناسُ عليهِ قال: ذلك عاجلُ بشرى المؤمنِ)**، عاجل بشرى ليكون في هذا.

فالله عز وجل جل في علاه فردٌ وهذا يوجب تألهه وحده وتعبده العبادة التي تليق به سبحانه وتعالى، وألا يشرك العبد معه غيره، لا يجوز، لا يجوز أن تعظم أحدًا تعظيم الرب إلا الله عز وجل، لا يجوز لك أن تخاف من أحد مخافة التعبد إلا من الله، لا يجوز لك أن تحب أحدًا محبة التأله إلا الله؛ لأنه هو الذي يستحقها، ولا يكون في قلبك إلا هو، الله لا يحب الشراكة ويرفضها، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، عبدوا الله فجعلوهم شفعاء، شفع، جعلوهم شفعاء عند الله، أي جعلوا هؤلاء شركاء من الشفع وهو المشاركة والمقابلة التي هي ضد الوتر.

ولذلك الله عز وجل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ليس كمثله شيء في صفاته وفي أفعاله وفي ذاته جل في علاه، وقال صلى الله عليه وسلم: **(الله عز وجل وتر يحب الوتر)**، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته وأن يجعلنا من العابدين له حق التعبد، وأن ينادى يوم القيامة علينا نداء الصالحين والصديقين والشهداء، نسأل الله أن يرحمنا برحمته ويغفر لنا، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

الأسئلة

السائل: شيخنا وجه المدح في اسم الوتر هو التفرد؟

الشيخ: نعم، هو هذا، أنه قال هو الفرد الذي بز غيره، الوتر هو القاهر، وكل اسم من أسمائه –دائمًا هذه نقولها ويجب أن تكون حاضرة– ما من اسمٍ إلا وجميع الأسماء محتاجة إليه، وهو لا يقوم إلا بالأسماء الأخرى، لا يقوم معناه إلا بالأسماء الأخرى، وكل الأسماء تحتاج إليه، كل اسم يحتاج إلى اسمه الوتر، الرحمن لو شاركه غيره لما تفرد به، الرحيم لو شاركه غيره في هذه الصفة على المعنى التام فيها؛ لما كان وترًا، فإذن نحتاج في كل اسم مما ذكر إلى اسم يوتر، ومعنى الوتر أنه وترٌ في كل هذه الأسماء، لولا هذه الأسماء لم نعرف عظمة هذا الاسم، ولولا هذا الاسم لما تجلت عظمة هذه الأسماء كما ينبغي، هذا دائمًا فمدحه سبحانه وتعالى بأنه وتر لأنه سبحانه وتعالى متفرد واحد، وحيث كان لم يكن هناك شيء لم يكن هناك مخلوق فهو واحد، وسبحانه وتعالى يوم القيامة يقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، واحد جل في علاه.

جزاكم الله خير وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني والأربعون: المتين

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا الذي تعبدنا به علمًا وحالًا وهذا الاسم هو اسمه سبحانه وتعالى: **المتين**، وقبل أن نتكلم عن هذا الاسم نريد أن نشرح ما شرحناه سابقًا، أو مررنا عليه سابقًا في موضوع التكميل والتعديل، وكذلك حاجة كل اسمٍ للاسم الآخر، وكذلك استقلال الاسم بنفسه على المدح والحُسن والثناء، هذه قواعد يجب أن تكون حاضرة لتفهم هذه الأسماء على معانيها الصحيحة، لتفهم علمًا، ويحتاج إليها العابد في ظروف متغيرة ومتبدلة، يحتاج إلى هذه المعاني الخاصة لكل اسم.

فأول هذه القواعد نحن تكلمنا عن قاعدة التعديل والتكميل بمعنى؛ أن الاسم ربما لو استقل لوحده ربما تطرأ في ذهن السامع والعالم، أن هذا الاسم يعني ليس كاملًا أو أنه يفيد معاني لا يحبها العبد لربه سبحانه وتعالى، فيأتي الاسم الآخر ليعدل هذا المعنى، وهذا عام في كتاب ربنا سبحانه وتعالى، ومن قواعد أهل السنة في هذا الباب التي انحرف عنها أهل البدع، وهو أنهم يأخذون قسمًا دون أن يأخذوا الآخر.

مثلًا في الموضوع النفسي: الخوارج أخذوا الجانب الذي فيه جانب العذاب الإلهي جانب التخويف، فلا يرون إلا جانب الخوف من الله عز وجل فهذا الجانب النفسي أفرز جانبا علميًا، أيها الإخوة العلاقة بين الجانب النفسي والجانب العلمي علاقة تبادل، «قد العلم يفرز نفسًا ما، وقد النفس في طبيعتها تفرز علمًا خاصًا بها»، ولابد من التوافق لا يمكن للمرء أن يكون في حالة فُصام بين نفسه وعلمه.

فتجد الرجل إذا تشدد في التعامل مع الناس وكانت نفسه شديدة في قضية العفو مثلًا قضية السماحة في البيع السماحة في الشراء، لو جلسته وناقشته لماذا أنت كذلك؟ يبرر لك إياها علميًا وقد يكون السبب هو قسوة القلب، وشدة النفس في هذا الباب، وكذلك بالعكس لو أنك رأيت رجلًا يتشدد فيما يطرح علميًا تجده كذلك يتشدد فيما يتعامل به سلوكيًا، فالعلاقة بين النفس وبين العلم واحدة تبادلية هذا يمد هذا وهذا يمد هذا.

ولذلك الخوارج تجدهم يتشددون في الأحكام فيتشددون في النفوس، في نفوسهم تجد المرجئة في الجانب الآخر، العلم عندهم مبني على أن العمل لا قيمة له مقابل التصديق والعمل القلبي الذي يسمى الاعتقاد، فتجدهم يتساهلون في التعاون مع الخلق، فيدخلون الجنة كل أحد.

واليوم طبعًا لانتشار هذا للأسف تجاوزوا الحد عما يقوله أهل الإسلام، ليس أهل السنة، يعني الذين يقولون الآن بدخول اليهود والنصارى يدخلونهم في الإسلام ويدخلونهم في الجنة، ويمنعون عنهم وصف الكفر والشرك، وهذا كله مبني على الجهل في العلم، وعلى تأويل الكتاب في غير محله، فإذن الطريقة الصحيحة هو جمع الآيات في الباب الواحد من أجل أن يستقيم الفهم، لا يكون في تفريط ولا إفراط، لا يكون في إفراط ولا تفريط، بل يكون معتدلًا سليمًا وهكذا الأمر في أسماء الله سبحانه وتعالى.

ولكن على المرء أن يغلب دائمًا جانب الرحمة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتابًا قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إنَّ رَحْمَتي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهو مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ)**، والذي ينتشر عند الناس في نفوسهم أن الخوف أشد، حتى من جهة كلامية، يعني من جهة كلامية إذا سُئل عن عذاب الله تحدث باستفاضة، وإذا سئل عن رحمة الله تكلم باقتضاب، إذا يعيش مرة بوجع في الأسنان ينسى كل النعم التي عنده، يعيش حالة من حالات العجز عن تحصيل شيء فينسى كل النعم التي عنده، وهذا طبعه والإنسان يعني لا يملأ عينه إلا التراب، وإلا فهو دائمًا دائم الشكوى.

وإلا فالله عز وجل رحيم بعباده، الله عز وجل رحيم في الدنيا وفي الآخرة، يخرج أقوامًا من النار إلى الجنة، لم يعملوا خيرًا قط يعني أتوا بالتوحيد فقط، يخرجهم ويسموا بالجهنمين يدخلهم سبحانه وتعالى نهر الحياة فيخرجون متألقين لم يعملوا خيرًا قط هذا من رحمة الله، ولا أحد في الجنة يدخل الجنة بعمله، ولا تكون منزلته في الجنة بمقدار عمله، الله يرقي العبيد ويعطيهم أكثر مما يستحقون، أنت عبدتا في الدنيا عشرين سنة ثلاثين سنة بعد البلوغ أربعين سنة، بعد البلوغ خمسين سنة ثم تدخل إلى الجنة خالدًا فيها أبدا، أين هذا من هذا؟

ومن هنا لابد من هذه القاعدة قاعدة بما تتعاون مع أسماء الله الحسنى، فكل اسم لو استقل لدل على حُسنٍ تامٍ في ذاته، فلو استقل لوحده لعلم العبد أنه حسن ويكفي تمام الحُسن أنه مطلق وغير مقيد، ولذلك هي حُسنى اسماء الله الحُسنى، والحُسن هو اكتمال الشيء من كل جوانبه، هذا هو الحُسن، عندما تقول امرأة حَسنة لا يمكن أن تكون قبيحة الأنف وجميلة العين، لا يمكن، هذا يقوله ابن حزم رحمه الله يقول: «الحسن هو اكتمال الجمال في كل جانب»، هذه قاعدة مهمة جدًا.

فأسماء الله حُسنى جميلة من كل جانب، فإذا استقلت دلت على الحُسن التام، وهي في استقلالها ومن حُسنها التام في استقلالها تحتاج إلى غيرها، تكمل هذا المعنى بالأسماء الأخرى، وذكرنا خلال هذه المسيرة من الشرح أن كل الأسماء بحاجة إليه، كل الأسماء بحاجة إلى هذا الاسم، لأن الإنسان عندما يقول: الله هو السميع، هذا جمال لا ينتهي لا حد له، لكن هذا الجمال لابد من انفراده مثلًا، هو في ذاته حد الجمال فيه لا ينتهي، لكن هذا لابد من الانفراد، فتأتي الأسماء الدالة على انفراده، فالسمع يحتاج إلى بصر يحتاج إلى قوة يحتاج إلى علم، فهو بذاته حسن مع ذلك هو بحاجة لغيره، فهذه قاعدة التكامل في هذه الأسماء، وتعدل المعاني الطارئة على العبد، حتى لا يأتي من العبد أي معنى قبيح فيها، وهو في لحظات الدعاء يحتاج إلى معنى خاص بهذا الحدث.

وهذا الذي نقوله هنا من أجل أن نبين هذا الاسم الذي هو اسم الله المتين، هو هذا الاسم والأسماء التي ذكرناها هي بذاتها مطلقة، لكنها كذلك بحاجة لهذا الاسم العظيم، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات: ٥٨]، والعلماء قالوا: «المتين هو القوي»، فإذا كانت بمعنى القوي على هذا المعنى إذن لم يحصل فيها فضلٌ زائد، وهذا غير صحيح، أن تطلق هكذا المتين بمعنى القوي هكذا، لأن بعض أهل العلم فسرها قال: «المتين هو القوي»، فإذا فسرناه على هذا المعنى التام التساوي بين المتين والقوي فلا يكون فضل لأحدهما على الآخر، والترادف على الصحيح بعيد في اللغة العربية.

وقال بعضهم: «هو شديد القوة»، حتى هذه شديد القوة فإن القوي بمعناها الحسن الذي لا نهاية لكماله دالة عليه، ولكن المعنى الصواب، انظر وهذا هو الارتقاء، العلماء قالوا هذا، قالوا: القوي وقالوا: شديد القوة، والثالثة هي المتممة لهذا المعنى كله، وهو القوي الذي لا يعتريه الضعف، نحن نعلم الآن ولله المثل الأعلى لو رأينا مخلوقًا قويًا فأنه يعتريه الضعف، يقاوم والمماتنة هي المصارعة على القوة، والمتن أخذت أصلًا من المتن هو الصلب لأنه مجمع قوة المرء، العلماء يقولون: «أي حركة في البدن بحاجة إلى الظهر»، الذي هو المتن، ما هو متن الرجل؟ ظهره، فحيث وقفت احتجت إليه حيث حركت يدك بحاجة إليه، هو أصل كل قوةٍ في البدن، لأنه هو الذي يعبر عن القوة التامة.

فأصل المتن هو الذي لا يعتريه النقص في أي حالة من حالات سمعه وبصره، وفي حال قوته ومن هنا اقترن بالقوة في هذه الآية ورد في آية واحدة فقط في سورة «الذاريات» قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات: ٥٨]، فلماذا اقترن بالقوة وبالرزق؟ أن قوته تمامها يعني ألا يعتريها ضعف، وتمامها ألا يعتريها مقاومة، لا يقدر عليها أحد، يمكن للمرأة أن يكون قويًا، لكن يأتي من يقاومه، ويمكن

أن يكون قويًا وفي نهاية الأمر يشد، هو حبل متين، يعني يبقى مقاومًا لما يعرض عليه من قوة تقاومه، فيمكن يبقى يشد بعد ذلك تنتهي قوته مع طول الأمد، وطول المقاومة، تنتهي هذه القوة.

أما الله عز وجل فلا يعتريه هذا المعنى، ولذلك اقترن بالقوة والرزق، أنه حيث يرزق لا ينتهي رزقه، وحيث هو قوي لا تنتهي قوته، فسبحانه وتعالى هو الرزاق ذو القوة المتين، لو كان على معنى القوة لما اقترن، إن الله هو الرزاق ذو القوة، يكفي فلماذا يقول متين؟ من أجل أن يدفع المعاني الباطلة أنه يرزق ولكن في النهاية ينتهي رزقه، هو عليم ولكن ينتهي علمه إلى حد، هو يعطي ولكن ينتهي عطاؤه إلى حد، هو يمكر بأعدائه ولكن ينتهي مكره إلى حد، لكن هذا ممنوع في حق الله عز وجل، وإنما هو سبحانه وتعالى لا يعتريه الضعف لا في قوته ولا يعتريه العجز في عطائه ورزقه، ولا يعتريه النقص في أي صفة من صفاته، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى كيده أمام أعدائه لكثرة ما يفتنون ويمكرون ويكيدون فقال عز وجل في آيتين، في موطنين في الأعراف وفي القلم: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥)﴾ [القلم: ٤٥]، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣)﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣]، والمتانة هنا في الكيد أنها من كل جانب، لا يقدر أن يشردوا، يمكن أن تكيد له ويبقى له مجال للهرب، تكيد له لتمنعه من شيء دون شيء، يمكن أن تكيد لأحد بأن تصنع له فخًا لكن يمكن أن يهرب منه، لا يدخل من جانب، ولكن من جانب آخر له مجال للهرب.

فقال عز وجل: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾، وصف الله عز وجل كيده بالمتين، هذه الآية عجيبة، عجيبة لأنها في بدايتها هي التي تتعب العبد المؤمن في رؤية عطاء الله لأعدائه، العبد يتعب، الله يقول ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾، ما معنى أملي لهم؟ يعني يعطيهم عطاء بحيث يبدو لمن نظر إليهم أنه خلاص لا كيد وراء هذا الإملاء والعطاء، ولا انتهاء لهذا العطاء ولا زوال منه أنظر الآية ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾، هذه متعبة للعبد المؤمن لأنه يعطيهم، لماذا يعطيهم؟ ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣)﴾ [الزخرف: ٣٣] أملي لهم من قوة، انظر ما يعطيهم من قوة، يعطيهم من أولاد، يعطيهم من جيوش، يعطيهم من ذهب يعطيهم من ثراء، يعطيهم من سلطان وملك، انظر إلى هذه الكلمة، العربية فيها هذا السر ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾، حتى وأنت في نفسك لا تتوقف، يعني لا تأتي إلى حرف قاف تقف أو همزة تعطيك نهاية وأنت تتحدث ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾.

فهذه متعبة للمؤمن ولكنها كذلك خادعة للكافر، هذا مكر الله، أنه يبتلي العبيد بهذا، يبتلي المؤمنين بهذا العطاء ويمكر بالكافرين وهو يملي لهم ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾، من هنا دائمًا أنا استحضر هذا أن الناس حين تقع المشاكل كيف ستحل؟ يعني لو اجتمعت كل العقول لتصور كيف ينتهي هذا البلاء؟ لا تجد حلًا، والله لو اجتمعت كل العقول الآن لمعرفة كيف تزول اسرائيل ما نستطيع نعرف، لكن ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾، وقال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦)﴾ [النحل: ٢٦]، والله لا هم يشعرون ولا المؤمن يشعر ولا يعرف المؤمن كيف.

فزوال قريش التي قاتلت للنبي كيف زالت؟! يعني انتهت قريش، تصور قريش، والنبي صلى الله عليه وسلم يدخل مكة من غير قتال، أين ذهبت قريش؟! هذه التي قاتلته وخرجت في بدر من أجل أن تشرب الخمر وترقص وتلعب ليسمع العرب الصيت، أين ذهبوا؟! وبعد عام جاؤوا أحد وانتصروا، وهم جاءوا بكل قواتهم وحاصروا المدينة، أين ذهبت هذه؟ لتدخلها جيوش النبي صلى الله عليه وسلم فاتحة مكة فقط مجموعة قليلة عند الصفا والمروة هناك فأشار النبي صلى الله عليه وسلم لهم أشار بيده ما تدعوا أحد، هربوا وانتهت، دخلها سلمًا والناس جالسين في بيوتهم أين هم؟ هذا هو مكر الله ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾، فأملي لهم، هذا العجيب، هذا كأنك تريد أن تجمع بين النار والثلج، وأملي لهم تخالف ما بعدها، وأملي لهم تخالف إن كيدي متين.

فالله يعطي هؤلاء عطاء يتوافق مع قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾، وانتبهوا إلى أملي، فيها معنى الامتلاء، وفيها معنى الإطلاق، يعني يتركهم، وأملي لهم كالذي يعطيه حبل يمد له، ويملي له، أنه يملأه يعني هذه الكلمة دالة على أمرين، دالة على مقدار القوة ومقدار الزمن، يعني أنت لو سألت عن تفسير ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾، أول ما يخطر لك يقول لك: يمكن زمنًا، طال عليهم الزمن، وكذلك ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾، يعني يعطيهم فهي جامعة لهذين الأمرين جامعة للعطاء في القوة، وجامعة للترك في الزمن، هذا هو مكر الله عز وجل، ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

في النهاية الله عز وجل لا يفلت منه شيء، أنت يأتيك ابنك أنت ابنك منك، ثم يفلت منك، تطلق الطلقة تفلت منك، تطلق الكلمة تفلت منك، ولكن الله عز وجل خلق الخلق وهو محيط به، ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾، بمعنى أنه لا ينازع، من هنا كانت حاجة هذا الاسم، ولو قال إن كيدي قوي تصلح لها ولكن لا تكون تامةً إلا بمعنى المتين، فكيده متين، وقوته متينة ورزقه متين، الرزق من الذي يعطي هذا العطاء ولا ينفذ، هو صاحب الرزق المتين ومن الذي لا يفلت من قوته أحد؟ هو صاحب القوة المتين.

من هنا هذا الاسم بحاجةٍ العبد أن يعلمه عند هذه التي نراها، عندما يرى عطاءه فيقول هل ينفذ؟ الله يعطي أسأل، الله أكبر، وكذلك عندما ترى عطاء الله عز وجل فأعلم أنه يحيط بهم، والله لو أن هذه فقط هذا المعنى ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾، كانت شعار لقلوب المؤمنين ما يئسوا لحظة، ما يئسوا لحظة أن الله عز وجل يكيد لهؤلاء الكفرة، ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣)﴾ [القمر: ٤٣]، بني قريش قالت: نحن لسنا كذلك، كل أمة جاءت نحن لسنا كذلك.

الإسكندر المقدوني خرج من اليونان من أثينا أخذ كل البحر الأبيض المتوسط صار تحت سلطانه، ومشى حتى وصل الصين، أهلك الممالك ومشى وسيطر على الأرض، أين ذهب وأين سلطانه؟ الناس يظنون أنه لم يمر على الدنيا مثل هذه القوة يظنوا إذا في قليل من المتفجرات وقليل من الطائرات يعني انتهى الموضوع، يعني الله كان يقدر على الناس وهم عندهم الخيول، وعندهم السيوف لكن لا يقدر عليهم عندما صار عندهم طيارات ودبابات وقنابل وصواريخ، الله عز وجل هو الذي أعطاهم من أين هم؟

نحن رأينا آياته سبحانه وتعالى أنتم رأيتم «تشالنجر» لما طلع، هم سموه التحدي، أين ذهب؟ تبخر في الجو، الله عز وجل في علاه يمكر، هذه آية من آيات الله يرينا هذه الآيات، في هناك بلاء يمكن صده، الآن البرد ندفعه باللباس، يلبس الإنسان جاكيت، جاء الجوع بلاء يأكل، جاء العطش يشرب، فهذه الأعاصير التي تقدم على أمريكا بماذا تدفع؟ هل يمكن أن يصنعوا يعني جدار بينهم وبين البحر يمنع كل هذه الأعاصير والهواء، ما هي مقاومة هذا؟ هو الاستسلام لها، أعاصير الحرائق أعاصير المياه أعاصير الهواء، ويعطيهم إياها كل عام، ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)﴾ [التوبة: ١٢٦].

فمكره سبحانه وتعالى متين وقوته متينة وعطاؤه متين، فأنت بحاجة إلى هذا الاسم وأنت ترى عطاء الله أو إملاء الله هو عطاء، لكن العطاء فيها معنى المدح، وإنما هو إملاء، أملى له أعطاه من أجل أن يمكر به بنهاية الأمر، فالمرء بحاجة لهذا الاسم العظيم ويتعامل مع عطاء الله في نفسه مع عطاء الله في غيره مع إملاء الله للكافر مع كثرة عطاءه للخلق، يعني هذا الرزق الإلهي الذي لا ينتهي.

تعرفون لو ترجعوا إلى بعض الكتابات قبل ثلاثين سنة أو أربعين سنة، العالم يتحدث عن مشاكل خطيرة جدًا في الطعام والشراب، أن العالم سيصاب بمجاعة كبرى لقلة الطعام، لماذا؟ لأن العالم ينمو الأعداد البشرية تنمو، وعادةً في التقدير الإحصائي في نمو البشر تقريبًا بلدنا تتضاعف، الآن الغرب أقل

كثير بسبب الأعراض عن الزواج وترك الرغبة في الولد، لكن عادة الأمة العربية المسلمة كل عشرين سنة تتضاعف، تصبح ضعف، فالعالم ينمو.

وكان الناس ينظرون في ذلك الوقت ينظرون إلى نسبة الطعام الموجود مع أعداد البشر فيجدوا في مشكلة يعني في قلة، فكيف لو كبر هذا العدد من البشر؟ كيف لو كبروا، فكانوا يتوقعون توقعًا شبه أكيد إن العالم سيدخل في مجاعة، ستكون هناك مجاعة كبرى، بسبب تنامي الأعداد وقلة الموارد وخاصةً أن الكثير من الأراضي تدمر، وكذلك بفعل عوامل إفساد البشر لها، طبقة الأوزون ومشاكل الأعاصير وتغير المناخ.

لكن أنتم ترون اليوم هل هناك مشكلة في الطعام والشراب؟ زاد العالم مرتين زاد، هل البلاد تعاني من مشكلة؟ البلاد تعاني من كثرة الطعام والشراب، يرموا الأطعمة عجيب يعني الذين شايبين زي حكايتي لو تذكروا قبل ثلاثين سنة، بالله عليكم كانت الخضار والفواكه في هذا البلد في الأردن، هل كانت تعرف بمثل هذه الكثرة؟ عجيب! يعني أنا أذكر أنه كان الموز هذا الموز الذي الآن موجود كأنه صنابير الماء في الشوارع، يعني أنت لا تمشي كيلو إلا وفي شاحنة، أو لو تذكر قديم يعني كان يأتي فقط موز صغير هكذا يومين ثلاثة وبعدها الناس يبحثوا عنه فلا يجدونه.

اليوم أنت تتعجب من الذي يعطي؟ الله هو الذي يعطي سبحانه وتعالى لم ينتهي رزقه، فهذا يعطي هذا العبد الثقة بالله عز وجل أنه سبحانه وتعالى لا تيأس، لا تقل قد قدروا علي، لا تقل قد قدروا على الدين، لا تقل هذه حضارة لا تنتهي، لا تقول هذا كبير خلص كيف يموت؟ البعض كان يقول: والله لو أن النار دخلت في أموالنا لانتهت أعمارنا ولم تنتهي النار من أكل الأموال، وبعد ذلك بسنوات قليلة وإذا هم يتسولون في الطرقات.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات: ٥٨]، هذا الاسم يطمئن العبد أنه ما في أحد يفلت من يد الله، لا قوي ولا زعيم، والفقير مكفي لأن الله يعطيه، والغني في قدرة الله والقوي في قدرة الله وكلهم تحت أمره، وهو المهيمن جل في علاه وهو القوي الذي لا تنتهي قوته ولا تضعف ولا تتغير ولا تنقص، الرزق يعطى فلا ينقص، فقط هو يقدم لنا مثال **(ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره)**، هذا تقريب لهذه القضية، اللهم ارحمنا برحمتك، جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا ذكر اسم الرحمن في سورة «مريم» بكثرة، حتى في آية التخويف، لماذا؟

الشيخ: ذكر في سورة «مريم» ستة عشر مرة، وهي أكثر سورة ذكر فيها هذا الاسم العظيم الرحمن، أما لماذا؟ السبب أنا كتبت هذا، لما في لحظات مع القرآن كتبته، وقلت إن عذاب الرحمن لعبدٍ من العباد علامة أن هذه الرحمة لا يستحقها مع طولها، أي أنه خرج من الرحمة لأنه قد أتى بأعمال لا يمكن أن تدخله في الرحمة، يعني إذا عذب الغضوب، فاستغربوا منه لأنه غضوب، واحد بينفرز وطول النهار ومقطب جبينه، وقلبه غليظ وقاسي فعلى أي خطأ ولربما يسمع الطفل الصغير يبكي فيمسكه ويضربه، ربما يسمع صوت المطبخ والمرأة تطبخ له فيضرب، وربما يغضبه واحد بكلمة أو يظن بها الغضب فيضرب، فإذا فعل هذا كان ضربه ليس فيه دلالة على العدل، وليس فيه دلالة على الرحمة، وسيكون الأغلب فيه الظلم.

لكن حين نقول: حين يعذب الرؤوف، ما بتقول أنت؟ اتق غضب الحليم، لأن الحليم يصبر صبرًا طويلًا، فإذا غضب كان غضبه مستحقًّا ويكون عذابه شديدًا، لأنه يكون مستحق، لأن عذابه يكون مستحقًّا ويكون شديدًا.

مثال: لماذا سعد بن معاذ حكم هذا الحكم على بني قريظة؟ لأنه حليم، ولأن قلبه طاهر هو حكم بحكم قلبه الطاهر، الآن الرجل الصادق في حبه لإخوانه فإذا أحب رجلًا ثم خانه هذا الصديق، كيف يكون انتقامه؟ يكون شديدًا لأنه أمنه، ولم يتخيل منه إلا الوفاء والأمانة، فإذا خانه تعجب فلطهر قلبه يعذب، فهؤلاء بنو قريظة هم أخوالهم، تزوجوا منهم وحلفاء، وكانوا يفدونهم بأموالهم، ويحبونهم حبًا شديدًا، فهو يثق بهم وعاش معهم، ليس بيني وبينكم شيء، فخانوا هذه الخيانة.

فلما خانوا هذه الخيانة هذا المحب الصدوق الطاهر رآها عظيمة فعذبهم بعذاب الرحيم، من هنا قال صلى الله عليه وسلم: **(لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات)**، الله رحيم وهذا قلبه طيب، فالتقت رحمة الله التي لا تعذب إلا من خرج عن الرحمة من كل وجه.

فإذن لما يعذب الرحيم ماذا دل؟ على أن ذنب هذا العبد قد خرج من الرحمة من كل وجه، لا يستحق لما آدم عليه السلام أذنب، ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢)﴾ [طه: ١٢٢]، ثم اجتباه يعني

الاجتباء هو الاصطفاء هو القرب، فتاب عليه وزاد كمان وأعطاه هداية، إذا تاب العبد لم يغفر له ذنبه، لكن جعل سيئاته حسنات، ماذا تريد أكثر من هذا.

لكن لما امتنع إبليس أن يسجد لآدم قال الله عز وجل له: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦)﴾ [ص: ٧٥-٧٦]، يعني هل الله حكم عليه قبل أن يحاوره، حاوره، لماذا فعلت هذا الفعل؟ وهو أعلم لكن لينطقه بلسانه وليحكم عليه باعترافه هو، قال له: حكمك غلط، هذا خرج من الرحمة من كل باب، ما بقي له.

إذن لما يأتي العذاب من الرحيم دل على أنه خرج من أبواب الرحمة كلها، ما بقي له مجال للعودة، ولتعلم هذا جاء في الحديث في مسند أحمد وفي المستدرك بسندٍ صحيح، بأنه لما غرق فرعون جعل جبريل يأخذ الطين من البحر ويلقمه فم فرعون لئلا يتوب، ما الذي يدل هذا؟ أنه لا يقع منع الرحمة من الله حتى يكون هذا المعنى موجودًا في العبيد، كيف هذا معنى؟

أنت الآن أنا أسألك سؤال، لو قيل لك والله يعني بعد طول العمر واحد وهو يموت زي ترامب، أو طاغوت مثل السيسي أو طاغوت مثل محمد بن سلمان يقول يريد أن يتوب، تقول: الله لا يتوبوا، إن شاء الله يموت قبل ما يتوب، هذا بعد كل الذي فعله يتوب ويدخل معنا الجنة، هذا الاستفراغ الذي أنت تفعله يكون في حق الله، بمعنى أنه منع عنه الرحمة، ولو علم فيه رحمة أي جانب من جوانب الرحمة لهداه، أو منعه من أن يصل إلى هذا المعنى.

فإبراهيم عليه السلام نظر لهذا المعنى لا تعادي الله عداءً يخرجك من رحمة الله من كل جانب، فإنه إذا وقع عذاب الرحمن كان على معنيين:

المعنى الأول: أنك خرجت من الرحمة فلم تأتي بخير قط.

والمعنى الثاني: أن عذاب الرحمن يكون شديدًا.

الناس يقولون كيف؟ نقول: اتقي غضبة الحليم، لأنه لما يغضب الحليم ...

انظر رجل يثق بامرأته ويعطيها ويحبها وتحبه ثم تخونه كيف تكون غضبته؟ كيف يكون غضبه عليها؟ شديدًا وهو فإذا رأيته يضرب، تقول: والله هذا ما ضرب إلا لأمر عظيم، وإذا ضرب لا يكون لأمر تافه، لأن التافه ماذا يفعل به؟ يغفره، الصالحون يفهمون هذا.

دخلوا على سفيان وهو يبكي في المسجد سفيان الثوري رحمه الله، فقال له صاحبه: أتبكي ذنبك؟ قال: اذهب عني وأي ذنوب يُبكى عنها؟ والله ما أخاف ذنبي، ولكني أخاف أن أسلب الإيمان عند موتي، ما هو أرجى حديث؟ **(ضحك ربنا عز وجل من قنوط عباده وقرب غيره، فقال أبو رزين: أو يضحك الرب عز وجل، قال: نعم، فقال: لن نعدم من رب يضحك خيرا)**، المهم أتي بالتوحيد الذنوب تذهب بإذن الله تذهب ما دام أنه يرجو الله وأنه يستغفر وأنه لا يكون ذنبه معاندة لربه، تذهب لكن المشكلة عندما تغضب الرب غضبًا يستحق به العذاب، هذا هو واضح المعنى، نسأل الله أن يرحمنا برحمته.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثالث والأربعون: القابض الباسط

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ جليل من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الذي أمرنا أن نتعبد به عِلمًا وحالًا، وهذا الاسم لهذا اليوم هو القابض الباسط سبحانه وتعالى، وهنا في الابتداء مسألة وهي تتعلق بأن هناك من الأسماء لله عز وجل ما يجب أن تقرن ببعضها لتؤدي المعنى الحسن في ذات ربنا سبحانه وتعالى، سواء كان هذه الصفة معنوية أو تكون خبرية أو تكون متعلقة بالإرادة.

هناك من الأسماء ما هو من الحُسن أن تقترن ببعضها، وهذا بحسب السياق وبحسب الموطن كاقتران العزيز الحكيم هذا من الحُسن أن تقترن صفة العزة مع صفة مثلًا الحكمة، لكن يجوز أن تستقل كل صفة على حِدى، يعني يجوز أن نقول: إن الله عز وجل هو العزيز ونسكت، فإن هذه الصفة دالة على الحُسن من كل وجه ما لو استقلت، وإنما يقع التكميل والتعديل فيما لو قرنت بحسب السياق، فقد تقرن العزة والحكمة وقد تقرن العزة بالعلم، العزيز العليم، لماذا تقرن العزة مع الحكمة؟ بحسب السياق، وهي الأكثر في كتاب ربنا لأن العزة بلا حكمة تكون نقص، العزة بلا حكمة كعزة الملوك والأقوياء لا تكون عندهم الحكمة فيستخدمون ما عندهم من التفرد، والقوة والتميز في البطش.

وكذلك العزة بلا علم، فبحسب السياق ولكن من الحُسن أن تقترن بحسب السياق بصفةٍ أخرى، ليقع ما تكلمنا عنه في أكثر من مرة «التعديل والتكميل»، التعديل تعدل ما يقع في النفس من معاني غير مقبولة، فتأتي الكلمة الثانية معدلة لها، وهذا كثير في القرآن ليس فقط في ما يتعلق بأسماء الله وصفاته، بل كذلك فيما يتعلق في الأوامر، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، تزودوا يعني تزودوا بالطعام والشراب، وهي رد على أهل اليمن الذين جاؤوا حجاجًا بلا طعام ولا شراب، فقال لهم لماذا؟ فقالوا نحن متوكلون، فأنزل الله ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾، ثم صرفهم إلى ما هو أعلى من تزود الطعام والشراب فقال: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾.

فهذا يقع في كلام ربنا سبحانه وتعالى وذكرنا هذا مثل قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، لماذا قال إن الله

بالغ أمره؟ ليصرف عن النفس أنه ما لو توكل سيحتاج إلى النصرة في نفس الوقت، لا ما ينفع، ما واحد يتوكل على الله في شيء فلابد أن يقع أثر التوكل في لحظته، لا ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾، لابد أن تجري الأمور بحسب أقدارها.

فالمهم هنا لأول مرة في هذه الدروس نبين بأن هناك من الأسماء والصفات ما وجب اقترانها، وهذا قول كثير من أهل العلم، البعض ينسب هذا القول فقط لابن القيم رحمه الله، في قضية وجوب اقتران القابض الباسط، وإن كان كلام ابن القيم لا يفصّل بين ما هو واجب وبين ما هو مستحب، فأتى بالأمرين معًا فوضح في الكلام بعض ما يحتاج إلى البيان، ولكن ليس هذا فقط كلام ابن القيم هذا كلام جماعة من أهل العلم.

فالإمام الزجاجي من أهل اللغة أوجب هذا أنه لا يجوز لأحد أن يدعو ربه القابض أو أن يصفه القابض دون أن يقرن معه الباسط، لابد القابض الباسط، وكذلك الخطابي في شأن الدعاء أوجب أن يقرن العابد حين الدعاء أو حين الكلام أن يقرن القابض الباسط، لأن استقلال أحدهما دون الآخر، كما ذكرنا في التكميل والتعديل هناك قد تطرأ المعاني الخطأ، وهنا لا، هنا لو استقلت لوحدها لما بينت الحُسن التام، لما أتت بالحُسن التام كما ينبغي، ومن هنا لابد من اقتران القابض الباسط.

هل القابض الباسط هي صفة واحدة، أم أنهما صفتان؟ لم أجد لأهل العلم كلامًا في هذا الباب، يعني هل إذا أردنا أن نعد أسماء الله عز وجل، فهل نعد القابض لوحدها ثم نعد الباسط لوحدها، لم أجد لأهل العلم كلامًا في هذا الباب، ولكن الظاهر أنهما صفة واحدة أن اقترانهما يدل على صفة واحدة.

وها هنا نقطة هل يقع القبض والبسط في نفس الحال أم أنهما يقعان في إرادتين مختلفتين؟ في الحقيقة من تأمل الوجود وجد القبض والبسطة في نفس الإرادة، وهذا سر عجيب لم أجده في كلام أهل العلم فيما نظرت فيه، لكن عندما تتأمل قول سبحانه تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ [الشرح: ٦]، والناس يظنون ويقع في أوهامهم أنه ما يقع العسر إلا ويعقبه اليسر، وهذا معنى الصحيح، لكنه ليس تامًا، المعنى الصحيح التام وهو أن اليسر يرافق العسر، يقول قائل كيف؟

لو ترك باب العسر بلا يسر، ماذا يقع في الوجود؟ لوقع كما أن الماء عندما دمر الله قوم نوح خرجت على حد الملك ميكائيل، الذي هو يوصف بأنه ملك القطر وملك العطاء، لأنه يكيل لأنه صاحب الكيل، فلو الله عز وجل قبض بلا بسط، أو بسط بلا قبض، لا يتحقق المعنى الجميل لا في العطايا في القبض ولا في البسط، يكفي قوله سبحانه وتعالى على معنى ما يحصل من أثرها على نفس العبد ﴿وَلَوْ

﴿بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، هذا على معنى أثرها على نفس العبد من التعبد من الإيمان، لكن لو وقع على معنى القدر فقط لو بسط الله عطاء لصار مهلكًا.

يعني لو الله عز وجل بسط للأرض عطاءها من الزرع، ما الذي سيكون؟ يعطي بلا قبض، ما الذي سيكون؟ يكبر الزرع حتى يهلك الناس، وكل شيء -هذه قاعدة من قواعد الوجود- «كل شيء زاد عن حده انقلب إلى ضده»، فلو بسط بمعنى ترك لأن البسط هو ضد القبض، والقبض هو من إحدى معانيه المنع، وله معاني كثيرة ذكرها الراغب الأصفهاني يرجع إليها، ولكن القبض على معنى ضد البسط، بمعنى أنه يمنع، فالله عز وجل يمنع أن يزيد الشيء عن حده، ويجريه على معنى الحكمة.

والبسط هو العطاء كما قال الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، هذه أهل الحكمة القديمة اكتشفوا فيها أن الأرض كروية والسماء ليست كذلك، هذه الآية قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾، ما قال طواها، فدل على أن الأرض كتلة مصمتة، ولله المثل الأعلى إذا قبضت على شيء فدل على أنه مجموع على بعضه البعض، لكن لما جاء للسماء ما قال قبضها، قال جل في علاه: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ ، والطي لا يكون إلا لما هو ممدود، بخلاف القبض لا يكون إلا لما هو مجموع مصمت.

-هنا هذه النقطة- أن القبض يقع مع البسط، وما من شيءٍ ما لو بسط لا حد له، لأنه لا حد لقدرة الله عز وجل، وكل شيءٍ ما لو قبض فلن يكون له وجود سينتهي إلى العدم، ومن هنا سبحانه وتعالى من أسمائه القابض الباسط، ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ﴾ هذا فعل، ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، -ذكرونا إذا نسيت لماذا جاءت القابض قبل الباسط؟ مع أن المدح هو البسط قبل القبض-.

ولكن الدال على أن هذا هو اسم من أسماء الله هو ما رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه مع غيره كالترمذي الذي صححه ابن ماجة وكذلك رواه ابن حبان في صحيحه ورواه أبو يعلى في مسنده، من حديث أنس، عن طريق حماد بن سلمة لأن هذا عن حُميد الطويل وكذلك عن ثابت، عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سئل عن التسعير فقال: **(إن الله هو الخالق القابض الباسط المسعر الرازق)**، فأثبت لله عز وجل صفة القابض الباسط، وهذا الحديث لم يروا في الصحيحين، لكنه كما قال الإمام بن حجر في «التلخيص الحبير» قال بأنه على شرط مسلم، وهو في الحقيقة على شرط البخاري سوى حماد ابن سلمة، فحماد ابن سلمة ليس من رجال البخاري إنما هو من رجال مسلم، فلذلك صححه وصححه الترمذي قبله، وقال هو حديث حَسنٌ صحيح، وكذلك صاحب المختار صححه

وابن حبان روايته في الصحيح دل على أنه يصححه، فهذا حديث صحيح وما رأيت في الحقيقة مع تعقبي ومحبة معرفة علل الحديث من قبل المتقدمين لم أرى أحد تكلم عنه بعلة، أو أشار إلى علة سواء كانت مرفوضة أو مقبولة.

فالنبي صلى الله عليه وسلم وصف الله عز وجل بأنه القابض الباسط، وهذا الذي نراه في الوجود، فالحقيقة الوجود قائم على هاتين الصفتين، وما من صفة إلا ويتحقق فيها القبض الرحمة يقبض الرحمة، ويبسطها والرزق الله عز وجل يقبض الرزق ويبسطه، والمغفرة يقبض المغفرة ويبسطها، ويعطي الأرواح للأبدان هذا بسطٌ لها ويقبضها يميت المحي المميت.

فما من شيء في الوجود إلا ويتحقق من خلال هاتين الصفتين، لله عز وجل واجتماعهما يدل على أنه ما من شيء يقع إلا وهو يحتاج إلى القبض والبسط، الله عز وجل هذا يدل على أن الوجود يجري مجرى الحكمة ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض، ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤] وأنا أكرر ليسمعها الكل، لولا وجود هاتين الآيتين ما قدرت أن أقرأها ولا أن أقولهما ولو حكاية عن الآخرين، لأن كل شيء في الوجود دل على تكذيب ما يقولون، ما من شيء في الوجود إلا ويكذب ما يقولون، الله فقير جل في علاه له ملك كل شيء وهم يعلمون ويسمعون أخبار الغيب عن العرش وعن الكرسي وعن السماوات وعن الجنة التي أعدها للمؤمنين ثم الله فقير.

ولا يمكن أن تنشأ هذه الكلمة في نفس عبد إلا وهي نفس دنيئة مظلمة خسيسة، أن يقول العبد عن ربه هو فقير بمجرد أن يقول: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١٨]، ولما قال: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، من أجل أن يدل على عظمة ما تفعل، لا حاجة ما يريد، لأن الإقراض يعني هي مِنّةٌ وحسنة، فالله يريد أن يجل فعلك بأن جعله إقراضًا له لأنه يقع في يده، لا لحاجة منه ولأنه يقع في نفسه على موقع ما يقع المحتاج حين يتصدق عليه أو حين يقرض، حين يعطى دينًا، فكيف المحتاج لما يكون ملهوفًا، فيأتي أخاه وينقذه ويعطيه كيف يقع؟ فالله عز وجل يقع هذا العطاء منه وهذا الموقف العظيم فأراد أن يعظمه، فسبوه وقالوا الله فقير.

ولما رأوا أن الله يعطي بحكمة ويريدون الملك بلا شيء ويريدون العطاء بلا حدود، لأن الله اختارهم وفضلهم على العالمين في وقت من الأوقات، ذلك لأن الأنبياء قد كثر فيهم ولأن فيهم أمة ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة: ٦٦]، فأرادوا أن يعطوا العطاء بلا حد، فقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال الله

عز وجل ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، ومشيئته بتبع حكمته، وبتبع أحكامه يعطي الحكمة أن يعطي من يستحق، ويمنع عن من لا يستحق وهكذا، ويعطي من يرى أن عطاءه ينفع له، وأن منع أو هذا المنع ينفع له.

فالقصد من هذا: أيها الإخوة الأحبة أن الله عز وجل هو القابض الباسط، والوجود كله قائمٌ على هذا، وحين يقع البسط ولو متجاوزًا قليلًا يفعل الهلاك هذا كما ترون، الماء يهلك، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فهو سبب الحياة، الله جعل فيه سر حياة البشرية والوجود كله، مع ذلك حين يبسط قليلًا يتحول إلى دمار إلى هلاك، الهواء الريح هل هناك أحد يعيش بلا هواء، مع ذلك حين يطلق فيصبح دمارًا ريحًا صرصرًا عاتيًا يعني فيها العذاب، فيها الهلكة، الهواء يصبح يدمر كل شيء بإذن ربه.

فالله عز وجل هو القابض الباسط، وأجرى الله عز وجل هذا الوجود ليبقى حين يبسطه كذلك محتاجًا إليه في بقائه، يعني لا يظن ظان أن الله حين يبسط الشيء فيوجده ثم يتركه مبسوطًا، وهو على حال البسط هو محتاج له، لأنه لا يمكن كل شيء يهلك، كل شيء يذوب، فحتى يبقى إلى نهايته الله يقوم عليه بالإحياء وبالعطاء والإمداد، والله عز وجل يقبض.

وهذه كلمة ذكرها ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» وجدتها له، وهي تجري على مجرى ما يتكلم به الصوفية والتربويون لنقل ما يتكلم به أهل التربية على معنى القبض، له كلمة عجيبة يقول: «إن البسط عند أهل هؤلاء، أنه يحصل تجلي الجمال»، فتجد النفس منشرحة، حين يبسط لها تجلي الله عز وجل بأسماء الجمال، هناك أسماء الجمال يقولون وأسماء الجلال، أسماء الجمال هي التي تبسط النفس كقولك: الله الرحيم الغفور الرزاق فهذه أسماء الجمال، فتبسط النفس فإذا هذه الأسماء تجلت على قلب العبد بالعلم والمعرفة أو بأثارها على العبد حصل بذلك البسط.

وحين تتجلى أسماء الله عز وجل أسماء الجلال يحصل القبض مثل المنتقم الجبار المتكبر فحين هذه تشرق على النفس بمعانيها على القلب ويستحضرها وتتجلى هذه أسماء فيحصل القبض، النفس تنقبض تخاف، وهكذا المرء حتى في هذه المعاني يحصل له قبضٌ في نفسه وبسطٌ في نفسه، هو الذي أضحك وأبكى، حتى أهل الرؤى يفسرون الضحك بتحلل المرء من همومه، أما لو تقتم اجتمعت عليه فكأنه حصل عنده القبض.

فلذلك إيمان العبد بهذه الصفة الجامعة للقبض والبسط هو يعني أن يراقب حركة الوجود، التي يترتب عليها معرفة حكمة الله لماذا يجري القبض هنا؟ ولماذا يجري البسط هنا؟ ولا يعترض على حكمة الله، لأن

القبض والبسط إنما له تعلق بحكمة الله، لا يقوم بلا حكمة، ولا يقوم لمجرد إظهار عظمة التأله بلا حكمة، لا، الله عز وجل نعم يجلي للخلق مظاهر ربوبيته، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فأنت ترى حركة الوجود تدرك أن كل شيء هو بيد الله، وأن هذا الذي يجري في الخلق هو عطاء إلهين يمنع ويعطي، يقبض ويبسط ولكن مع ذلك لا يقع في شيء في هذا المنع والقبض، وهذا القبض والبسط لا يقع إلا بحكمة، لا يقع إلا بحكمة، فجريان تعلق العبد بهذه الصفة بمعنى أنه أول شيء يعلم أنه ما من شيء يبسط إلا قادر الرب أن يقبضه، كما أنه قبضه قبضًا ما، عندما أطلقه، يعني الناس الآن يرون أمريكا أغلب الذين يستهزئون بأهل الدين، يقولون هؤلاء لا يعرفون عظمة الأعداء لا يعرفون عظمة أمريكا، انظر إلى قنابلها أنظر إلى صواريخها أنظر لطائراتها، فهم لا يرون إلا عالم الخيال الأشباح، لا يرون إلا الأشباح، لكن هذه الأشباح من الذي أعطاها؟ هذا الوجود وكونها حتى صارت حقيقة في هذا الوجود؟ هو الله، فالله قادر كل شيء بيده، أعطاهم فقط من أجل أن يفتنهم وأن يفتن بهم.

فثقة المرء أنه ما من شيء وقع في هذا الوجود إلا من قبضه وبسطه يؤدي إلى الثقة بالله والتوكل عليه واليقين عليه، وإذا أراد شيئًا في الوجود سأل من؟ سأل من بيده ملكوت السماوات والأرض ومن بيده خزائن السماوات والأرض، فيقع في القلب اليقين على الله عز وجل، بأن كل شيء هو منه، هو الذي بسطه فأوجده، الحياة الذي أوجدها هو الله، فهذا هو البسط، البسط هو التقاء الروح مع الجسد ليكون الإنسان، الإنسان لا يكون إلا بروح وجسد، فإذا قبض الروح، فالله يقبض الروح يأخذها فحينئذٍ ينتهي هذا الإنسان، وكذلك ما يقع في القلب من معاني وما يقع في الوجود من أعمال وأقدار كلها بحسب هذه الصفة الجليلة.

المطلوب من العبد هو أن يتوكل على الله وأن يثق به، وأن يعلم أنه ما من شيء إلا وله نهاية، وأما هذه النقطة وهي قضية أن ما من شيء قلنا عند وجوده إلا ويتحقق به القبض والبسط، وكذلك يجب عليه أن يعلم بأنه ما من شيء يبسط إلا وسيقبض، ما من شيء يبسط إلا وسيقع عليه فعل القبض يومًا ما، لابد، حتى أن الله سبحانه وتعالى ليقبض عن العبد المؤمن أمورًا من أجل أن يظهر أنه هو الله.

نحن نعرف قصة ناقة النبي صلى الله عليه وسلم التي لا تسبق، فماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم؟ **(كان حقًا على الله ألا يرتفع شيء إلا وضعه)**، ما في شيء يرتفع إلا وضعه، مين ما كان يكون، انظر في أي عالم، عالم الأموال هل ترى أمةً أو دولةً أو عائلةً غنية وبقيت غنية طوال الحياة، أين فرعون؟ أين

قوم فرعون؟ أين قارون؟ أين الأثرياء السابقون أين هم؟ ما من عائلة غنية إلا وزالت، ما من أمةٍ إلا وذهبت، حتى لو كان مؤمنًا حتى لو كان صالحًا، الدوام لا يجوز، البسط لواحد دون قبض لا يجوز.

قال صلى الله عليه وسلم: **(قال الله عز وجل: إني ما ترددت في شيء ترددي في قبض روح عبد المؤمن، يكره الموت وأكره أساءته)**، يعني هو مؤمن يكره الموت ومع ذلك يقع عليه الموت، المؤمن يكره الفقر ويقع عليه الفقر، المؤمن يكره موت الأولاد أن يموت له ولد، يموت له الولد، ولذلك ترقب حين يأتي البسط أن يقع القبض، فعليك حين القبض أن تصبر وحين البسط أن تشكر فيكون العبد بين هذين المقامين الجليلين بين الشكر وبين الصبر، فحين يصبر يدعو الله عز وجل بالعطاء وحين يشكر يدعو الله عز وجل بالحمد والثناء، فهكذا وحينئذٍ يطمئن القلب.

أنت تراه أمامك هو يمشي، أنت لا تفهم أنه فقط الله أطلق له هذا، لنطلق هذه العبارة الرسن، فعندما أنت ترى رجلًا طاغيةً يفعل ما يشاء، إذا كان عندك اليقين على الله أنت مطمئن في النهاية هو أطلق له الرسن، هو فقط كلب يعوي أو حيوان يعض، أطلق له الرسن من أجل ماذا؟ أن يبتليه ويبتلي به، ابتلاء، وبعد ذلك ماذا؟ يسحبه وينتهي كأنه لم يكن، فيراقب المرء أقدار الله على هذا المعنى، وعلى هذه الصفة حينئذٍ يرتاح.

وإذا تعلق القلب بالله والآخرة هان عليه كل شيء، يا أخوة أكررها ألف مرة لا يمكن تفسير هذا الوجود على معنى من الرضى إلا بأن يرتبط مقصد هذا الوجود وما فيه من أحداث بالآخرة، من غير الآخرة لا نقدر أن نفسر شيء، من غير آخرة لا يمكن أن نفسر شيئًا في هذه الدنيا، من هنا أعظم ما يقع، يعني الواحد له كم أسبوع يتابع أخبار الملحدين وأحوالهم وما يقولونه والردود عليهم، مشكلتهم الوحيدة هي الشر في الوجود، هذه مشكلتهم، وهذه قالها العقاد قديمًا في كتابه «الله»، ما كثرة اطلاعه وقراءته، يقول: ما رأيت سببًا لإلحاد البشرية إلا عدم فهمها للشر.

فمن أين ينشأ عدم فهمها للشر؟ من عدم فهمها للآخرة، إذا ذهبت الآخرة هو أعظم سبٍ لله عز وجل أن تقول: لا يوجد ميزان يوم القيامة، ولا يوجد إحياء للبشرية بعد الموت، ولا يوجد جنة ولا نار، هذا أعظم السب لربنا، هذا أعظم الكفر، لماذا؟ لأنه هذه النقطة إذا غابت وزالت عن النفس البشرية وعن المعتقد حينئذٍ يؤدي إلى سب الله عز وجل، يتهم بالظلم بعدم الحكمة بالجهل، وهكذا ربما ينتهي إلى أنك غير موجود، وإذا موجود أنت لا تدير الوجود على معنى من الحق، هذا هو أعظم السب، هذا تستطيعون تجدونه في كتاب الله مبثوثًا وهو أن الذين ينكرون قالوا، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا

تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥)﴾ [الرعد: ٥]، هذا كفر، ليس هو كفر لأنه تكذيب لخبر الله، هذا معنى موجود، يعني بعض أهل العلم يقول: أنه كفر بالله لأن الله أخبر بالآخرة، وهذا مكذب لخبر الله في وجود الآخرة، هذا معنى صحيح، لكن المعنى الأجل هو أنه سب لربنا سب لله عز وجل.

فلذلك أعظم ما يريح العبد هو الناس يقولون: في آخرة، يا أخي في آخرة، هذا ما يريح العبد وهذا ما يحقق الإيمان به سبحانه وتعالى على معنى ما أمر الله به وما كان عليه الأولياء والصالحون، نسأله سبحانه وتعالى أن يحقق في أنفسنا على هذه المعاني، وأن يبقى العبد بين هذين الحدين على معنى من الطاعة والقبول والإخبات والدعاء والإنابة والاستغفار، وأن يطلب من الله ألا يبتليه وألا يمتحنه.

والعلماء قالوا أشياء عجيبة في هذا الباب، يعني عندما يذكر بعض الطغاة في الوجود يذكر أنهم لم يكونوا يتألمون، يقال إن فرعون ما شكَى يومًا ألمًا في رأسه، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(إني أوعك كرجلين منكم)**، يعني هذا شيء عجيب مع الدين، من غير الدين فرعون هو المرتاح من غير الدين، وهذا رجل تعبان صلى الله على الحبيب، مع الدين هذا السعيد وهذا الشقي، لو تأمل المرء يفهم معنى البلاء ماذا يعني في هذه الدنيا، ولذلك من رحمته وجود القبض، من رحمته وجود القبض، قال صلى الله عليه وسلم: **(أفلا أُحِبُّ أنْ أكُونَ عَبْدًا شَكُورًا)**، شكورا ليس فقط لما أعطي من المعاني الإيمانية والمقامات الربانية وكذلك هو لأنه جعله على هذا المعنى من الابتلاء الذي يرتفع به في قوله صلى الله عليه وسلم: **(أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل)**، اللهم ارحمنا برحمتك وأغفر لنا وأنا أسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وبارك الله فيكم.

السائل: كيف نتعبد الله في هذا الاسم، بالصبر والشكر؟

الشيخ: أول مرتبة من مراتب التعبد لله هو العلم بها، والعلم بها أن يرى هذا الاسم كيف يتجلى في الوجود، والعلم ليس فقط أن يكون ذهنيًا، لما يدرك، يعني يعلم لما يدرك، هذه مرتبة من المراتب أن تعلم هذا، تعلم هذا الاسم، لكن من أعظم العلم هو أن ترى هذا العلم في الوجود، يعني أنت يمكن -هذه لا بأس- يمكن أن أصف لك الصلاة، فتصبح الصلاة مدركة في ذهنك، لكن أعظم العلم بها **(صلوا كما رأيتموني أصلي)** هو أن تراها.

من هنا الآن العلم بالجنة، نحن نعلم الجنة لكن من أعظم العلم هو أن تراها، فأعظم العلم بهذا الاسم هو أن تعلم معناها وأن تدركه ثم إن ترى آثاره، كيف يقبض ويبسط، هذا هو العلم بها، أن ترى هذه وبعد ذلك آثار هذا العلم على القلب هذا من العلم، آثار هذا العلم وآثار هذا العلم بماذا؟ بأن تنسب كل ما في الوجود إلى الله، أنه هو صاحب كل شيء وأن مرد كل شيء إليه، ولا يخرج شيء من هذا الوجود عن فعله ولا عن إرادته ولا عن قدرته، بل كل شيء خاضع له، وهذا هو تمام الإيمان، وهو أن ترى أن الله فوق كل شيء وقاهر كل شيء، ورحيم لكل شيء، ومعطي لكل شيء ومانع لكل شيء، سبحانه وتعالى، حينئذٍ يصبح العبد ربانيا، ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، هذا هو هذا العبد، بعد ذلك ينظر إلى يد الله وفي كل شيءٍ له آية، تدل على أنه الواحد سبحانه وتعالى.

السائل: شيخنا في القابض الباسط قلت وجوب اقترانهما في الدعاء، أنفس الاقتران يكون مع الخافض الرافع؟

الشيخ: نفس الشيء نحن بدأنا بهذا لنأتي لغيرها، لكن أنا قلت ذكروني بشيء، وهو لماذا جاء القابض قبل الباسط؟

أولًا: القبض يكون لما هو موجود، ولا يقع القبض على لا شيء، إلا على معنى أنه قبضه لئلا يكون، وعلى هذا المعنى قبضه على ألا يكون دل على أنه ما بقي في الخزائن أكثر مما أخرج من الخزائن، من أكثر عند ربنا؟ الذي خرج من أول ما خلق الوجود ولا الذي بقي عنده في الخزائن؟ ما الأكثر؟ الذي بقي، ما

خرج شيء، إذا كان علم الأنبياء الذي هو علم البشرية مأخوذ من علم الأنبياء كما أخذ هذا الطائر من هذا البحر، فوجود القبض دل على القوة والعظمة، ووجود الأكثرية.

ثانيًا: القبض يجب أن يوضع كشرط للبسط، فأنت تضع الشرط قبل أن تضع الفعل، من أجل أن يقع الفعل على معنى حسن، وإلا فالبسط معلوم لربنا بما نرى من الوجود، البسط معلوم بالوجود، إذًا هو يحتاج إلى ماذا؟ يحتاج إلى وضع الشرط له، من هنا كان القابض الباسط قبل في الحديث، القابض الباسط، هذا المعنى أرجو أن يكون صحيحًا في هذا، ولما أقرأه لأحد لكن خطر على البال، والله تعالى أعلم.

جزاكم الله خيرًا بارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الرابع والأربعون: الوارث

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الذي تعبدنا به عِلمًا وذكرًا وحالا، وهذا الاسم لربنا سبحانه وتعالى دال على صفة عظيمة من صفاته إلا وهو اسمه الوارث جل في علاه وهذا الاسم ورد في الكتاب على صيغة الجمع ثلاث مرات وورد مرة على صيغة الفعل، وجاء في حديث أبي هريرة المشهور ويقول ابن العربي عليه رحمة الله في «الأمد الأقصى» بأن الأمة أجمعت عليه وهو الاسم الوارث.

والوارث يعني كل عبارات الأئمة تدل على معنى واحد:

عباراتنا شتى وحسنك واحد ... وكل إلى ذاك الجمال يشير

الناس يتغزلون في الشمس آلاف العبارات والكلمات والمعاني ولكنها حقيقةٌ واحدة، وهكذا القمر كم تكلموا في الحب كثيرًا وهو حقيقة واحدة، فعباراتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشيع، فالعبارات العلماء يتفننون فيها وكلها دالة على معنى واحد، فأغلب الأئمة على أنه الباقي سبحانه وتعالى وهذا هو لزم أنه الوارث، ما دام أن كل شيءٍ يفنى فلمن يذهب كل شيء إلى الذي يبقى، كل شيءٍ سيفنى وكل شيءٍ سيذهب وكل شيءٍ سيتحول من ملك إلى ملك من يد إلى يد.

والعلم المعاصر يثبت أنه لا شيء يفنى، يقول: المادة لا تفنى، بحسب هذه السنة لا يروها تفنى، يرون المادة تتحول من حالة إلى حالة لكنها لا تفنى، فدل على أن المادة تبقى فما الذي سيرث هذه المادة حتى الأشياء يرثها الله، ولا شك أن الله عز وجل يحيي ويميت يعني المادة خلقت من لا شيء، هم يقولون المادة لا تفنى ولا تستحدث هذا باعتبار الخلق وباعتبار نسبة المادة إلى الخلق ولكن بالنسبة إلى الله عز وجل هو الذي أحدثها من لا شيء، وهو سبحانه وتعالى الذي يفنيها ويذهبها ولا يبقى منها شيء.

ولكن بالنسبة للبشر المادة تتحول من شيء إلى شيء، تتحول من حالة إلى حالة الآن مثلًا لو أتينا إلى كتلة حديدية، فإنها لو فجرت فتتحول إلى طاقة كما يقولون، وكذلك الماء يتحول من حالة السيولة إلى حالة البخار ويتحول إلى حالة التجمد، فتتحول الأشياء، وإذن من الذي يرثها بعد ذلك؟ يرثها الله.

فالإنسان بيده أشياء ويملك أشياء ولكن يوم القيامة يقول الله عز وجل: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، الإمام الغزالي رحمه الله في شرحه لأسماء الله الحسنى قال: «هذا النداء يسمعه الناس جميعًا صوتًا من الله يوم القيامة»، ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، ما في أحد إلا الله عز وجل والله عز وجل يجيب بعد ذلك، ودائمًا علينا أن نعلم أن الكلمة التي تصدر من الله هي الحق، وأنها أبلغ الكلمات، يعني ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، من الذي يجيب؟ يجيب الحق، الله يجيب، فهي الحق، البشر جميعًا لو أجابوا بكلمة لا يعدلوا أن يقولها الله، لأن الله هو الحق.

ولذلك دائمًا أكرر هذه الكلمة التي قالها الإمام القرطبي رحمه الله في «الجامع لأحكام القرآن»، قال: «لما علم الله أن عباده سيعجزون عن حمده كما ينبغي، أو أن يبلغوا تمام الحمد في الثناء عليه»، قال: «فالله تكفل في أن حمد نفسه وعلم الخلق كيف يحمدونه»، فالله علم الخلق كيف يحمدونه، كيف حمد نفسه، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾ [الفاتحة: ٢]، فحمد نفسه، فحمده لنفسه هو أعظم الحمد، حمده لنفسه وهذا في حق البشر مذمة، لأن البشر يعلمون نقصهم، والله يعلم كماله، والبشر يعلمون ضعفهم والله عز وجل الحق يعلم قوته التي لا تنتهي، فهو عندما يحمد هو يحمد ذاته، التي يعلمها سبحانه وتعالى، فلا أحد أعلم بالله من الله، لا أحد.

ولذلك **(لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)**، الله هو الذي يثني على نفسه، فلذلك العبيد كلهم إلى فناء والله عز وجل هو خير الوارثين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣)﴾ [الحجر: ٢٣]، ﴿نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ هذا بالنسبة لجريان الدنيا، يحيي ويميت، لكن عاقبة كل شيء هذا فيما يحييه وفيما يفنيه عاقبة كل شيء ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾، مطلق الإرث إليه، البشر يرثون، ولذلك يسمى الإرث بما يأخذه المرء بعد وفاة مالكه وفاة أبيه، ووفاة أمه وفاة زوجته، وفاة زوجه، فالعبد يرث، وهذا الورث نسبي، بمعنى هو يرث بعضه ولا يرث زمانه كله، ليس العمر كله «لو دامت لغيره كما وصلت إليك»، وفي النهاية أنت ورثت غيرك، وغيرك سيرثك.

وهذا في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، أي يرث بعضهم بعضًا، يخلف بعضهم بعضًا، والله عز وجل قال على لسان زكريا عليه السلام كما في سورة «الأنبياء»: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي

﴿فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾ [الأنبياء: ٨٩]، لكن لماذا قال هذه الكلمة زكريا عليه السلام؟ قالها لما ورد في سورة «مريم»، ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥-٦]، فلما كان في هذه الكلمة إظهار لإنسانيته، والإنسانية في أصلها مركبة على الضعف ما في مجال، يعني أصل الإنسانية كما يصف الله عز وجل الإنسان باعتباره إنسانًا يرثه مركب على الضعف.

فالله ركب هذا الإنسان على الضعف، ركبه أنه كنود، ركبه أنه يؤوس قنوط، هكذا ركبه، فتأتي الشرائع لتقوم هذه الأخلاق لا تزيلها، لا يمكن أن تزول منك إنسانيتك، لا يمكن أن يزول منك ضعفك، والضعف هو أمر يقيني وذاتيٌ فيك، وكذلك محبة الأشياء، يعني وكأنه يقول له الله عز أنا الوارث، فيقول في آية أخرى ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾ [الأنبياء: ٨٩]، ويقول: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، وعلى معنى على وجه من وجوه التفسير وليًا يعني ابنًا، لأنه قال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ [مريم: ٥]، فأراد واحدًا من نسله لكن لما بشر بالولد، قال: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [آل عمران: ٤٠]، يعني هو الذي سأل وطلب من الله ثم لما جاء تعجب!! وهذا هو الإنسان هذا هو ضعفه كما يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه، قال تعالى: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤)﴾ [يوسف: ٨٤].

وتحدث الله عز وجل عن الأنبياء في مواطن كثيرة جدًا متحدثًا عن رغباتهم البشرية، وسورة «الأنبياء» من أجل هذا، أنا فسرت سورة «الأنبياء» وموجودة في النت الحمد لله، وقلت في بدايتها سورة «الأنبياء» كاشفة عن إنسانية الإنسان، أو عن إنسانية الأنبياء، فهو لما قال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٥-٦]، كأنه عوتب، ولكن معاتبة المحب.

كما حدث مع نبي الله أيوب، أيوب عليه السلام كما في الحديث[١] قام يغتسل عريانًا فأنزل الله عليه مطرًا جرادًا من ذهب، لكنه ليس الجراد الذي يأكل ولكن الجراد الذي يستقر، من ذهب فقام أيوب يجمعه، فناداه الله عز وجل قال: **(ألم أكفك عن هذا)**، يعني ما أعطيتك ما أغنيتك، ألم أغنيك، لأن أيوب عليه السلام هو إمام الصبر في الوجود وإلى الآن الناس يقولون: «صبر كصبر أيوب»، لأن الله ابتلاه ابتلاء عظيمًا ثم بعد ذلك دعا الله سبحانه وتعالى فأنجاه وأعطاه ومثله معه، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤)﴾ [الأنبياء: ٨٤]، انتبه! قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾، العجيب أن الموطن هو موطن فيه شيئان:

---

(١) قال صلى الله عليه وسلم: (بيْنَما أيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيانًا خَرَّ عليه رِجْلُ جَرادٍ مِن ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَحْتِي في ثَوْبِهِ، فَنادَى رَبُّهُ: يا أيُّوبُ ألَمْ أكُنْ أغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قالَ: بَلَى، يا رَبِّ، ولَكِنْ لا غِنَى بي عن بَرَكَتِكَ)، صحيح البخاري.

الشيء الأول: فيه العبادة المستجابة، الدعاء المستجاب.

الشيء الثاني: فيه عطاء المادي، فيه العطاء المادي فيه الرزق، وكأن العابد كذلك بحاجة إلى أن يتذكر أنه بعبادته يرزق، وأنه بعبادته يغنى، وأنه بعبادته ويعطى، يعني هو عابد لا يقول: أنا تساميت عن الدنيا، لا يقولها ما في أحد يقولها، قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(حبب لي في دنياكم الطيب والنساء)**، بشر فتبقى فيه بشريته.

فرد أيوب عليه السلام قال: **(ليس لي غنى عن بركتك)**، يعني زيادة الخير خير، وهكذا إنسان يحب أن يستكثر ويزيد، فهكذا لما قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، فأراد أن يستدرك، أن هذا الإرث هو إرث نسبي، وإرث دنيوي لما ركبت عليه من البشرية والإنسانية، فقال في هذه الآية: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾ [الأنبياء: ٨٩]، ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ وكأن هذه الكلمة تشير يعني وأين أنا؟ فقال: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾.

هنا دائمًا هذا القرآن هكذا يركب على هذه المعاني بما يطرأ على النفس من المعاني فتأتي الكلمة الأخرى لتستدرك هذا المعنى وهكذا هي طريقة الأنبياء، وطريقة الصالحين في تعاملهم مع الله عز وجل تعامل الأدب، حتى وهم يظهرون حاجتهم حتى وهم يظهرون إنسانيتهم يتعاملون مع الله تعامل العباد، الذي ينسب الخير كله لله عز وجل، فقال: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾، فجاءت على صيغة الجمع، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾ [مريم: ٤٠]، يرث كل شيء الأرض ومن عليها.

فكل شيءٍ يرجع إليه حتى في الحديث قال: **(والقرآن يرجع إليه)**، رأوا أنه ليس شيء يعني ليس مخلوقًا، قال يقوم الناس فلا يجدونه بين أيديهم، يسرى بالقرآن في الليل فيقومون صباحًا فلا يجدون القرآن بين أيديهم، كل شيء يرجع إليه سبحانه **(وإليه يعود)**، وفي الحديث في متن الطحاوية قال: **(وإليه يعود)**، **(منه بدأ وإليه يعود)**، يرجع إلى الله سبحانه وتعالى قالوا من معاني إليه يعود، قال: «بأن الناس يقومون فلا يجدون القرآن».

فمعنى الوارث هو الباقي الذي يرث كل شيء والذي يصير إليه كل شيء، وينتهي ملك كل شيء ملكًا تامًا إليه، ولذلك في آية في الفاتحة قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾ [الفاتحة: ٤]، طيب يعني قبل يوم الدين أليس هو مالك؟ هذا ينازع فيه الجهلة ينازعون، العبد الصالح يرى أن كل شيء هو ملك لله حاضرًا ومئالًا، العبد الصالح يرى أن كل شيء في هذا الوجود هو ملك لله وهو في يده، وربما يكون الملك بيد أحدنا ولا يستطيع التصرف به، فلقمة الخبز ربما يمنعها للثري وللغني، كأس ماء لا يستطيع أن يشربها، يمنعه

الله من شربها، وهي كأس ماء، وربما يكون مالكا للدنيا وما فيها ويستطيع أن يشتري الأنهار، وبعد ذلك لا يستطيع أن يشرب كأس الماء.

فإذن كل شيء هو في الحاضر هو بيد الله عز وجل، ومآل كل شيء يعود إلى الله سبحانه وتعالى، لكن أجرى الدنيا على هذه السنن أن يتم استخلاف الناس في المال، يستخلف الناس في الزوجة، يستخلف الناس في البيوت، يستخلف الناس في الأرض، يخلف بعضهم بعضًا فتنةً لهم وإجراءً على معنى السنة، إجراء على معنى هذه الدنيا أنها تقوم على السنن، فسبحانه وتعالى أنه الوارث أي الذي يعود ملك كل شيء إليه، لماذا يعود كل شيء إليه؟ لأنه الباقي وكل شيء سيفنى.

فثقة المرء بربه ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨)﴾ [القصص: ٥٨]، والله يا أخوة يعني من أكثر الأمور التي الإنسان يتعجب منها، لما هكذا يرى الرُّقم آثار المدن الكبيرة التي قامت فظن أهلها أنهم خلاص انتهى الوجود بهم، مدن قامت وذهبت لم يبقى منها شيء، قصور انظر إلى القصور، أين القصور التي تحدث عنها؟ وهذه الأنهار تجري من تحتها، أين هي؟ عندما أنت تمر على قرية، يقول لك: هذه كانت عامرة بالناس وأنت تتخيل كيف الناس يمشون إليها، وكيف التجار وكيف الأسواق فيها أين ذهبت؟

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾، تأمل ليست قرية عادية، بطرت معيشتها يعني المعيشة فيها على الكثرة وعلى النعيم، ومع ذلك ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وبعضها لم يسكن قط، وإنما الاستدراك هنا على بعضها، وإنما هو البعض الآخر ذهبت لم تكن كأنها لم تكن، يعني أين ملك سليمان عليه السلام، نتحدث عن الكفرة ونتحدث عن المؤمنين، أين ملك سليمان عليه السلام؟ قال تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٣]، الله وصف القدور التي كان يطبخ بها كما وصف السفن، ﴿وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾.

وفرعون بلغ من سلطانه وبنائه أن يقول لقارون: ابني لي على الطين صرحًا؛ ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ [القصص: ٣٨]، يعني يدل على أن الرجل كان عندهم بناء عالي جدًا، عندهم قدرة أن يبنوا الأبنية العالية التي تصل إلى ملامسة الغيوم، لكن كلها ذهبت لم يبقى شيء، رسوم حتى أجسادهم لم تبقى لا نعرف أجسادهم، وربما نمشي على الأرض التي نمشي عليها، وأحذيتنا تطال أبدانهم أو بقايا عظامهم، ونحن لا نعرف، ذهبت مدن كبيرة وممالك عظيمة ذهبت، من الذي ورثها هو الله.

ولذلك هذا اليقين على هذا المعنى في النظر في التاريخ، في النظر في القرآن، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، هذه الآية تكررت خمس مرات، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [فاطر: ٤٤]، والآية الأخيرة ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، تكررت هذه الآية من أجل أن تبين على عبرة التاريخ.

فيجب عليك أن تنظر وألا يغفل الإنسان وألا يسهو إلى أن ينسى نفسه، أنه في النهاية مرده إلى الله سبحانه وتعالى، هذا اليقين على هذا، أول شيء يصنع عند المرء التعبد، وأن يحسن التعامل مع الأشياء لأنه مفارقها، أن يتعامل معها تعامل المحسن لأنه إذا تعامل معها تعامل المسيء ذهبت عنه في دنياه وهو يعيش بين ناس كثير في أيديهم المال فتذهب عنه، عليه أن يحسن، من أين أتينا بهذا الإحسان من قوله صلى الله عليه وسلم: **(اللهم متعنا بإسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا وأجعله الوارث منا)**، ما معنى أجعله الوارث منا؟ وقوتنا؛ المال، الزوجة، الولد، ما معنى وأجعله الوارث منا؟ معناها أن تبقى في حياتك فإذا مت بقيت وراءك، لأنها لو ذهبت في الدنيا لم تكن وارثة، فأنت أحسن التعامل معها هذا ينبغي.

وعليك أن تتذكر إنك مسؤول عن هذا الذي بين يديك، ستسأل يوم القيامة عن مالك وعن صحتك وعن وقتك، ستسأل فأنت أحسن تعامله ليشهد معك يوم القيامة، يشهد ليكون من كسبك الذي يشهد لك أنك أحسنت التعامل معه، كذلك هذا المعنى من أن الله سيرث كل شيء في الدنيا، من كل شيء في الدنيا سيرثه، لن يبقى أي شيء في يد أحد، لن يبقى، لا في يد أفراد ولا في يد جماعات ولا في يد دول كل شيء سينزع منهم في الدنيا لأنه هو المالك الحقيقي سبحانه وتعالى، هذا يعطيك اليقين على أن ما من قوي إلا سيذل، وما من غني إلا سيفقر، وما من عال إلا وسيرتفع، هذا حق على الله سيرثه في الدنيا قبل الآخرة، وبالتالي يكن اليقين على الله عز وجل أن كل شيء في أيدي أعدائنا إلى زوال، لا تيأس لا تقنط.

فلذلك يبقى السؤال والمشكلة عندنا تقوم دائمًا على كيف؟ هذه مشكلتنا وكأننا نحن الذين سنقوم بهذا الفعل، فنبدأ نخطط كأن يقال لك أنا سأبني بيتًا عظيمًا، فيقول كيف؟ أنت تحتاج إلى مهندس، فلو كان طلبك لا يوافق الهندسة التي تعلمها؛ لا يستطيع أن ينشئ هذا البيت، لا يمشي على قواعد السنن الهندسية لا يمشي، نحن المشكلة نتعامل مع هذا الوجود مع أعدائنا مع أنفسنا مع ما نراه نقول كيف؟ وهذه الكيف هي التي تصنع عندنا شيء من عدم اليقين، المؤمن تصنع فيه شيء من عدم اليقين، يبقى يسأل كيف؟

وأرى هذا السؤال دائمًا يتكرر لما تبشر الناس ببشارات عظيمة ويقينية أنها ستكون، دائمًا يسألون كيف؟ وأنت لا تجد الجواب، أنت لا تعرف الجواب والمشكلة أنه عندما يقع الكيف الذي لا يتوقع ولا يجري المجرى الذي هو له المقدمات، يظن أن هذا الوعد لم يكن صحيحًا، هذا شأن المنافقون فالمنافقون كيف بقوا حتى آخر وقت النبي صلى الله عليه وسلم؟ يعني المنافقون كانوا في غزوة الأحزاب، طيب هذا الآيات التي رأوها لماذا لم تؤثر فيهم؟ ما هو السبب؟ يعني رأوا آيات عظيمة وبشارات تقع ووعود ونبوات ونبوءات للنبي صلى الله عليه وسلم رأوها تقع يقينا، فلماذا لم تهتدي القلوب؟ دعك من وعلى قلوب أقفاله، لكن لماذا؟

السبب أنهم يقولوا هذه مشت يعني نجحت معك هذه مشت معك، لأنه لم يخبرهم كيف، فجاء الكيف على غيره ما يعلم الناس، فظنوا أن الوعد لم يقع على هذا المعنى الذي قاله هذا النبي، وهذا الم نجده كثيرًا، الناس يقول كيف؟ هو مسكين، يظن أن الأمور ستجري كلها على هذه السنن، فهو يمشي ينظر إلى هذا الطريق كيف يعني، فيمشي على الطريق المرسوم أمامه والذي يعرفه، يعني الناس يحتاجون لهذا الطريق فيمشون وراءه فلا يجدونه، ثم إذا وقع وجدوه على غير هذا الطريق لأن كان ما يحجبهم عن رؤية الواقع هو نظرهم إلى الطريق الذي بين أيديهم فوقع على غير الطريق، فظنوا أنه ليس هذا هو الوعد.

كما أن في الابتداء وقع القنوت وعدم اليقين على وعد الله، فلما وقع لم يروه كذلك على أنه من وعد الله عز وجل، وهذه مشكلة البشرية، الله سيرث، كيف بادت الممالك؟ الله عز وجل سبحانه وتعالى له سنن مما نراه ومما لا نراه، فالله عز وجل يرث الأرض ومن عليها، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾ [مريم: ٤٠]، والله عز وجل حين هذا يرث هذه الأشياء يعطيها من يشاء، يرثها ويورثها فالإرث قسمه سبحانه وتعالى وجعله فريضةً محكمة، فريضة من الله، الله قسمه، قال للأب كذا وللأم كذا، كما في الحديث الصحيح، قال صلى الله عليه وسلم: (**أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ**).

فقسم وراث مال إلى قسمين، فرائض وعصائب، ما هي الفرائض؟ الفرائض هي التي قدر الله انصبتها، فالأم فريضة، الزوجة فريضة قدر الله النصاب، الأب قد يكون فريضة وقد يكون عصبة، لماذا؟ لأنه إذا كان وجد الفرع الوارث، يكون فريضة له الثلث، إذا ما كان له فرع وارث يكون عصبة هو الذي يرث، (**فما تبقى في أدنى رجلٍ ذكر**).

وكذلك كما قسم سبحانه وتعالى في الشرع إرث الأموات كذلك قسم الوجود إلى إرث، ولذلك لما دعا الناس إلى الأنفاق، قال إنه هو الوارث سبحانه وتعالى، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠]، أنفق، يقول: هو يرثه يعني أن قدمه قبل أن يهلكه غيرك، قدمه لله عز وجل، أعطيه لله فهو يقع في يد الله، **(وإن الله عز وجل يربي صدقة أحدكم، كما يربي أحدكم فلوه)**، كما يربي حصانه، فيأتي يوم القيامة مثل جبل أحد.

وكذلك سبحانه وتعالى يورث العبيد ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فالله يورث الناس يعطيهم، وهذا كله جريان على معنى السنن التي خلقها الله عز وجل، فأولًا إذا رأيت الناس يرثون فأعلم أنها سنة جرت، إما لحكمة الابتلاء، وإما لحكمة العطاء، وإما لحكمة الشكر لله، أن الله أعطى هذا العبد شكرًا أعطاه لأنه شكر، ماذا قال الله عن زكريا عليه السلام؟ قال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فجعل العطاء مكرمة لما قام به هذا العبد الصالح زكريا عليه السلام، وقال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فالله يعطي على معنى البلاء ويعطي على معنى الإرث الذي يجري على معنى العطاء الإلهي، ويعطي على معنى الكرم الإلهي الذي يكون مقابل.. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، يعطيهم الله سبحانه وتعالى، فالمرء حين يستيقن بهذا يزداد يقينه أنه ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾ [البقرة: ١٥٦]، هذه الكلمة العظيمة إنا لله وأنا إليه راجعون، ما من شيء يأتي، إن لله ما أخذ ولله ما أعطى، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨)﴾ [الرعد: ٨].

وقال الصحابة الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم: «وما تأخذه منا أحب إلينا مما أبقيته لنا، خذ من أموالنا ما تشاء»، وهكذا العبد لأن ما يأخذه الله خير مما تبقى، وكما قال لعائشة رضي الله عنها لما قال: **(أنَّهم ذبحوا شاةً فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ ما بقيَ منْها؟ قلت ما بقيَ منْها إلَّا كتفُها، قالَ: بقيَ كلُّها غيرَ كتفِها)**، خلاص الآن احتفظنا به يوم القيامة نجده، قال صلى الله عليه وسلم: **(يقولُ ابنُ آدَمَ: مالي وإنَّما لكَ مِن مالِك ما أكَلْتَ فأفنَيْتَ أو لبِسْتَ فأبلَيْتَ أو تصدَّقْتَ فأمضَيْتَ)**، وانتهى الموضوع وخلاص انتهى هذا، وأما ما وضعته في يد الله فهو خير لك.

كما قال لما جاء قول الله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فجاء أبو طلحة رضي الله عنه وكان من أكثر الأنصار مالا فقال هذه كذا وكذا وضعتها للمسلمين فقال ضعها في أقاربك، فوزعها النبي صلى الله عليه وسلم على أقارب أبي طلحة، فلذلك المرء حين يتيقن أن الله هو الوارث، لا يطمئن إلى شيء من أشياء الدنيا في أي لحظة يأتي البلاء ونحن نرى هذا، يعني في أشياء قديمة تكون لها مقدمات وفي أشياء لا تكون لها مقدمات، ترى المرء يمشي وهو سليم معافى في لحظة وإذا هو مات، وترى الإنسان عنده الأموال فيأتي البلاء فيأخذه مرة واحدة، وربما تأتيه النذارة واحدة، واحدة، يمرض ويتعب فيقول خلاص عليك إن تحضر نفسك للآخرة.

ثم هذا يجعله لا يطمئن إلى هذه الدنيا، وهذه الدنيا هذا شأنها، شأن هذه الدنيا ألا يطمئن المرء إليها، قال صلى الله عليه وسلم: (كُنْ في الدنيا كأنَّك غريبٌ أو عابِرُ سبيلٍ)، وإياك أن تطمئن إليها، إياك أن تقول خلاص جلست، وأنتم ترون يعني ما من قنطرة ينتهي من المرء حتى تظهر له أخرى، ويقول لك: غدًا أرتاح، مسكين لما كان يدرس يقول لك: بس أخلص، بس خلص يقول لك بس أتزوج وبس تزوج...إلخ، وهكذا كالقناطر فعليه أن يهتم بالآخرة، ينسى هذا كله.

وقال صلى الله عليه وسلم: (ومن جعل همه همًا واحدًا كفاه الله هموم الدنيا والآخرة)، فجعل همك الآخرة فقط، مع قيامك بشأن الدنيا بما يكفي، (اللهم أجعل رزق آل محمد كفافا)، الكفاف، فلا تطمئن لهذه الدنيا، لا تطمئن لولد، لا تطمئن لزوجة، لا تطمئن لمال، كل شيء سيفارقك أو تفارقه، ودائمًا إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، والله أن هذا من نعم الله عليك هو الذي يرقق قلبك وهو يجعلك دائمًا التحضر إلى الآخرة، ودوام الذكر لله وقراءة القرآن والإحسان والصدقات، هذا الذي يجعلك تفكر أن الله سيرث، ثم هذا من جهة نفسك.

وأما من جهة الحياة والكون والإسلام فأعلم أنه ما من قوة إلا ستزول، هذه أمريكا ستزول، والله ستزول، والله أن الله فوقها وليست هي فوق الله، والله قوتها ليست بشيء أمام الله عز وجل، والله لو سلط عليها أضعف جنده لأهلكها، أنتم ترون الساحل الغربي لأمريكا كل سنة يأتي عليهم أعاصير، تأتي عليهم الحرائق لا يستطيعون يقفون أمام الأعاصير ما هي طريقة رد الأعاصير؟ طيب المرض له طريقة فيعطوا أمصال، يقول لك سرت الكوليرا، أعطيهم أمصال، من أجل أن لا يصابوا بالكوليرا، والأعاصير كيف يوقفوها؟ إذا علموا أن هناك زوابع عظيمة وأعاصير تسونامي أتٍ، فما الطريقة لإيقافها؟ لا شيء فقط الاستسلام، اهربوا من أمامها فقط، الله لو سلط عليهم الأمراض والبلاء، ما الذي يقيمهم؟

ولذلك الله سبحانه وتعالى لطيف حتى في لطفه يدخل عذابه دون أن يشعر أحد، وفي لطفه يدخل نصره دون أن يشعر أحد، فيوسف عليه السلام كيف نجاه الله؟ اللطف، لطيف خبير، يدخل مراده في الخلق دون أن يشعر الناس أن الله سبحانه وتعالى فعل هذا، فكيف خرج يوسف عليه السلام من السجن؟ لم يحتاج دبابات ولا طائرات ولا شيء، رؤية فقط رآها، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾ [يوسف: ٣٦]، رؤيا رآها فخرج وصار ملكًا رؤيا كل الأمور رؤيا، تصور منام يحدث كل هذا التغير في الحياة، فسبحانه جل في علاه لطيف لا ترى يد الله في الوجود، وهي حاضرةٌ في كل الوجود، حاضرة في كل فعل وفي كل عطاء وفي كل منع، في كل إكرام، في كل هلاك، حاضرة يد الله عز وجل.

فالله هو الوارث، وبعض العلماء قال: قبل أن يرث أليس هو وارث؟ هكذا الصيغة الأولى أن الوارث هو الذي ينتظر هلاك من بيده الشيء ليأخذه، طيب وهو في يدك أليس هو وارث؟ أصله أين؟ أصله بيد الله، أنت فقط تتحرك به في الظاهر وأما أصله فهو في يد الله عز وجل، فهذا هو من أسماء ربنا الذي نتعبد به وندعو الله عز وجل به، وعندما ندعو الله عز وجل بطلب شيء، نتأدب بأدب زكريا عليه السلام ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩)﴾ [الأنبياء: ٨٩]، نتأدب مع الله في تعاملنا والله خير الوارثين، سبحانه وتعالى، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته وأن يجعلنا من عبيده الصالحين، وأن يقذف في قلوبنا محبته والخوف منه، ومحبة طاعته سبحانه وتعالى.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس والأربعون: المقدم والمؤخر

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا الذي تعبدنا به ذكرًا وعلمًا وحالًا ألا وهو الاسم الجامع لهذين الأمرين من أفعاله في خلقه، وهو المقدم والمؤخر، وما يقال في اجتماع هذين الأمرين أو هاتين الصفتين في حالٍ واحد هو ما قيل سابقًا في قوله في اسمه سبحانه وتعالى القابض الباسط، فإنه سبحانه وتعالى هو الذي يقدم الأشياء ويؤخرها، والتقدمة لا تحتاج إلى شرح لغوي، الناس يعرفون من المقدم ويعرفون من المؤخر، وما معنى المقدم والمؤخر.

وإنما المطلوب هو شيء من التفصيل ليتحقق معنى التعبد بهذين الاسمين لله عز وجل، يعني ابتداءً على المرء أن يعلم أن هذه الصفات إذا تأملها المرء علم أن الله عز وجل كل شيءٍ تحت قدرته وتحت تصرفه، وأنه سبحانه وتعالى خلق الخلق وأجرى ما فيه من مقادير، لم يخلق الأشياء وتركها لتقدر لنفسها مقاديرها، لا، الله خلق الخلق وقدر مقاديره، وبقيت حتى ما أعطاها من قوة بقيت تحت سلطانه، إن شاء أعطى وإن شاء منع، وكل ذلك بحسب هذه الصفات الثلاثة التي نتكلم عنها دائمًا، هذه هي عماد فعل ربنا في خلقه وهو:

أولًا: العدل. **ثانيًا**: الحكمة. **ثالثًا**: الرحمة.

هذه يجب علينا أن نستحضرها أن أفعال الله عز وجل في الوجود ومع خلقه لا تخرج عن هذه الدوائر الثلاثة عن هذه الصفات الثلاثة.

أولًا: العدل ربنا سبحانه وتعالى العدل، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾ [الكهف: ٤٩]، وأنه سبحانه وتعالى يقيم الوجود حتى في تقديره على العدل، ولولا العدل في الوجود لما قام وما استقام، والله سبحانه وتعالى يعطي بحسب عدله ويمنع بحسب عدله، يعاقب بعدله وينعم بعدله.

ثانيًا: والصفة الثانية هي صفة سبحانه وتعالى الحكمة، هذه دائرة لا يخرج عنها فعل ربنا في الوجود ولا شرعه، لا يخرج شرعه ولا يخرج عدله عن الحكمة، أنه سبحانه وتعالى حكيم يضع الأمور مواضعها،

ولذلك كثر في القرآن ذكر هذه الصفة، صفته سبحانه وتعالى أنه الحكيم، ومن تأمل الوجود علم حكمة الله، وأعظم حكمة هو وجود اليوم الآخر، أعظم حكم في الوجود إرسال الأنبياء، أعظم حكمة لله عز وجل هو إنزال الكتب من أجل أن يتعلم الناس، فهذا من حكمة الله عز وجل.

ثالثًا: الصفة الثالثة التي يجب أن تفهم صفات أفعال ربنا من خلالها هي صفة الرحمة، **(إن رحمتي سبقت غضبي)**، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فرحمة الله عز وجل يقدمها على عدله وهي ضمن حكمة الله عز وجل، فإذا أعطى جل في علاه أعطى برحمته وحكمته، وإذا منع، منع بعدله وحكمته، هذا فعل الله عز وجل في الخلق إذا عاقب، عاقب بعدله وحكمته، وإذا عفا، عفا برحمته وحكمته، فدائمًا نستحضر هذا، كل شيء يجري على هذا المعنى، وأي اختلال في هذه المعاني هو كفر بالله، وما تفرز هذه المعاني من حقائق.

مثلًا: عدم الإيمان باليوم الآخر، هو اتهام لربنا سبحانه وتعالى بالعدل، الدنيا لا تقام فيها موازين الحق كاملة لا تقام، موازين الحق في الوجود مختلة في هذه الدنيا، لأن الله عز وجل أجرها على معنى الابتلاء، كيف أقام الله هذه الدنيا؟ على معنى الابتلاء، الله كيف يبتلي من يحب؟ فالأصل فيمن يحب أنه يعطيه ولا يمنعه، وأنه يحميه ولا يتركه لأعدائه، ولكن هذه الدنيا ليست قائمة على هذا المعنى، على معنى الجزاء، فيها بعض الجزاء من أجل أن يذكر بالآخرة وأن يرى الناس فيها نصرة الله لأوليائه، وأن يتذكروا اليوم الآخر ويوقنوا على الحقيقة الربانية التي جاء بها الأنبياء.

ولكن هذه الدنيا ليست هي دار عطاء وجزاء، الدنيا دار عمل ولا جزاء، والآخرة دار جزاء ولا عمل، ما فيها أعمال خلاص انتهى، يصار إلى مصائر الناس إما جنة وإما نار.

القصد من هذا: أن أفعال الله القائمة على هذه الأركان الثلاثة، يجب علينا دائمًا أن نتأملها، وإذا تعامل العبد معها ازداد يقينه بالله، وازداد إيمانه وبصره بالوجود، الناس أيها الإخوة الأحبة الناس لا يفهمون مقادير الله، لأنهم لا يجرونها على الحكمة، يقول لك: لماذا حدث كذا؟ لماذا يقع هذا؟ ويعيبون الدهر وهم لا يفهمون اسم الله في الوجود، يعني تعجب في هذا الزمان وفي كل زمان يصاب فيه أهل الإسلام بالبلاء، الناس يتساءلون لماذا البلاء فينا؟ سبحان الله أنت ما يضرك، أنا أريد أن أفهم ما يضر أنت، انظر إلى الأنبياء، لحظة من لحظات الانتصار لحظة، وأما حياتهم فابتلاء.

الآن لوط عليه السلام ما الذي جرى له من النعيم؟ ما الذي جرى له من الملك؟ ما الذي جرى له من السلطان؟ جاء الملائكة فدمروا قريته وأخرجوا أهله إلا امرأته، وانتهى الموضوع، أنت ما ضرك؟ ما الذي

أنت يضرك إن يكون الإسلام مرتفعًا أو يكون مبتلى؟ المهم أنت دينك، يعني أيعجز الله أن يدمر الكفرة وأن يزلهم من الوجود ولا يبقى في الناس إلا مؤمن؟! إنما هذا هو ابتلاء لك، ابتلاء يريد أن يرفعك.

والمؤمن إذا نظر إلى حكمة الله في الأفعال أصاب التعبد في كل حال، إن كان غنيًا صار عابدًا بغناه، وإن كان فقيرًا صار عابدًا بفقره، إن كان سيدًا كان عابدًا بسيادته، وإن كان مسودًا كان عابدًا بضعفه وحاجته، فالناس ينظرون ما الذي يضركم أنتم؟ الله قادر أن يزيل هذه القوى ولكن يبتليكم، ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

والقصد من هذا: هذه الصفة الجليلة لربنا سبحانه وتعالى أنه المقدم والمؤخر، ترى أنه سبحانه وتعالى في الوجود قدم أشياء، قدم فهو الذي خلق الخلق فجعل متقدم ومتأخر وهو الذي قدم الأسباب على مسبباتها، هو الذي قدم الشروط على مشروطتاها، فالله خلق الأشياء على التقدمة والتأخير، حتى خلقها على التقدمة والتأخير في الرتبة، الأمور الكونية، من الذي جعل سر الذهب في أن يكون غاليًا نفيسًا محبوبًا لدى الناس، ومعيارًا للثمنية ومعيارًا للقيمة في الوجود، واتفقت عليه البشرية؟ أليس هذا من العجائب؟!

والله هؤلاء الملحدون الذين ينكرون الله كذبًا ونفوسهم تثبته، لو نظروا فقط إلى جريان الفطرة على معنى واحد في كل البشرية، لعلموا أن الله عز وجل وراء ذلك، وأنه سبحانه وتعالى هو الحق، الآن موضوع الذهب بالله عليكم ما الذي جعل البشرية في كل أطوارها وفي كل تقلباتها وأحوالها واختلاف الناس فيها في مكان، ومكان من الذي جعل للذهب رتبة على بقية المعادن؟ وكان هذا الذهب هو معيارية النقد، معيارية القيمة معيارية الثمن صحيح، ما الذي جعل أهل الصين، الناس يذهبون لأمريكا فوجد ذهب هو معيار النقد، والناس يجمعونه، ما الذي جعله دون بقية المعادن الأخرى، حتى ولو كانت قليلة؟

فهذا يدل على أن الله عز وجل هو الذي جعل هذه المعيارية هذه فطرة في الخلق، فهو الذي قدم الذهب على غيره، وهو الذي سبحانه وتعالى جعل بعض الأماكن خيرًا من أماكن أخرى في الرتبة، من الذي جعل مكة هذا المكان تهوي النفوس إليه؟ ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٥] ما معنى مثابة؟ يعني يثوبون إليه مرةً بعد مرة ما في أحد يذهب إليه إلا ويتمنى أن يعود إليه، ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ منذ عهد إبراهيم عليه السلام، والناس يذهبون إليه، ما الذي جعل لهذا المكان خاصية الحب؟

ومن الذي جعل بيت المقدس هذا بؤرة الصراع، بين الأمم الكبرى؟ من الذي جعل بيت المقدس على هذا المعنى؟ اليهود يقاتلون من أجله، والنصارى يقاتلوا من أجله، والمسلمون يقاتلوا من أجله، الله يقدم

يخلق الخلق ويختار، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨] يجعل الأشياء تقدم في رتبتها وتقدم في وجودها، الأب هو سبب الابن، فالأب قبل الابن الله قدم الأب على الابن، الله عز وجل قدم وجود الغيث والسحاب على المطر، فجعله هو سببًا، الله عز وجل قدم الشروط قدم الشمس خروج الشمس على الصلاة، جعل حركة الشمس وانتقالها من منزلة إلى منزلة سببًا لقيام الصلاة.

فالله هو الذي يقدم جل في علاه في الأكوان، وهو سبحانه وتعالى يؤخر هو الذي أخر الابن عن الأب، وهذا نحن عندنا في سننا، الناس ربما لا يتصورون أن تجري الأمور على غير ما يعتدون من السنن، سألني أحد الإخوة في الجنة هل تمشي الأمور فيها بالحركة البطيئة؟ لأن الناس يعني عند الرجل يأتي زوجة أربعين سنة، حركة بطيئة الحياة تمشي، وهكذا بقية الأمور زمان يمشي، ولا ندري كيف يزور الرجل أخاه يجلس مئة سنة، المهم هل تجري؟ لا، ليس كذلك.

المشكلة عندنا أن الزمن في أنفسنا شيئًا واحدًا لا نتصور أن الزمن شيئًا مختلفًا، ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾ [الحج: ٤٧]، الناس يتسألون كيف يعني ألف سنة؟ هذا على معنيين:

المعنى الأول: حركة هذه الكواكب ربما يأتي جرم كبير فحتى يمشي هذا اليوم ببعض الشموس تختلف عن شمسنا، فتحتاج بعض الكواكب أن تمشي حتى تلف هذه الشمس في يوم واحد تحتاج إلى سنة، بدل يوم واحد تحتاج إلى السنة، يعني تبقى الشمس مشرقة ليومها يوم واحد، ولذلك قال: ﴿مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

المعنى الثاني: وكذلك الأمر الآخر وهو مهم جدًا أن الزمن ليس شيئًا واحدًا، كيف ليس شيئًا واحدًا؟ هو نسبي بحسبنا، الزمن في النور غير الزمن في هذه الكواكب والأكوان التي نراها يختلف، يعني هذا لما قالوا لو أن رجلًا ركب في مراكبة بأقل من سرعة الضوء يقول تريليون من الثانية أقل من سرعة الضوء بقليل، قد لا نتخيل هذا القليل، وأنه إذا مشى بسرعة الضوء تحول إلى شيءٍ آخر، خلاص انتهى من الحالة المادية إذا مشى المرء بسرعة الضوء تغير تكوينه، لكن نريد أن يبقى في تكوينه فهو أقل من سرعة الضوء بقليل، قال: إذا ركب هذه المركبة ومشى بها بسرعة الضوء في ساعته التي معه التي يمشي بها من ساعة الأرض، فمشى بسرعة الضوء أقل بقليل عشر دقائق فنزل يكون الناس في الأرض عاشوا مئة سنة، بعشر دقائق بحركة الساعة هي، ليست ساعة أخرى يحضرها ثم إذا نزل بعشر دقائق نزل يكون قد مشى الناس بعشر دقائق هذه مئة سنة في الأرض، ينزل فيجد الناس غير الناس، انظر إلى الزمن اختلف، عشر دقائق للرجل نفس الرجل في مكان واحد!

ومن هنا أنا كنت أعجب لوقت طويل جدًا لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: **(نور أنى أراه)**، كنت أعجب لهذا الحديث **(نور أنى أراه)**، حديث مسلم، لما سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أرأيت ربك؟ قال: **(نور أنى أراه)**، فالنور هو مما يبصر به المرء وليس مما لا يرى المرء، أي النور لماذا؟ ليبصر الناس، فالناس ينظروا للنور يبصرونه، فكيف نور ولا يرى؟ الآن يقولون وبالتجربة لو دخلت هذه الغرفة الضوء عادي، إذا رفعت درجة الضوء إلى عشرين ألف واط تتلاشى الأشياء تنتهي لا ترى، ازداد النور فتوقفت الرؤيا، خلاص تتلاشى الأشياء **(نور أنى أراه)**، لا يرى إذا زاد النور فكيف نور الحجاب؟ والله حجابه النور، في حديث ابن مسعود قال صلى الله عليه وسلم: **(حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه من انتهى إليه بصره من خلقه)**.

فكيف إذا جلست يوم القيامة على منابر من نور، فمن أنت يومها؟ فإذا دخلوا الجنة كانت من النور فكيف أنت فيها، الله عز وجل هو المقدم وهو سبحانه وتعالى المؤخر، يؤخر الأشياء ثم سبحانه وتعالى المقدم للناس بالرتبة، والشرائع بالرتبة، الله عز وجل أحب الإحسان أكثر من حبه للعدل، ولذلك قال جل في علاه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، الله أحب العدل ويحب الإحسان أكثر، فقدم الإحسان على العدل، جعله أفضل الأشياء.

وقد يسأل السائل طب أن الله يأمر بالعدل والإحسان فلماذا قدم العدل؟ قدمه لأنه هو المبتدأ، قبل كل شيء العدل ثم بعد ذلك الإحسان، ولا يعرف الإحسان إلا بمعرفة العدل، فالله عز وجل قدم الأشياء وقدم الخلق، انظر كيف قدم سبحانه وتعالى الأنبياء على غيرهم، الأنبياء الله نظر إلى قلوبهم فرآها خير القلوب، وهم أحب الخلق إليه، فاصطفاهم ليحملوا رسالته إلى عبيده إلى خلقه، اصطفاهم أحبهم، ولذلك يجب علينا أن نعتقد بتقدمة الأنبياء أنهم خير من غيرهم، وكذلك قدم الأولياء وأعظم الأولياء هم حواري الأنبياء، وأعظم الحواريين هم حواريو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

سألت سؤال لماذا قدم الله الصحابة؟ فأقول: قدم الله عز وجل الصحابة لأمور كثيرة، لكن أهم الأمور:
أولًا: أن قلوبهم حين خلقها الله كانت خير القلوب بعد الأنبياء، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)﴾ [الحديد: ٢١]، لا يسأل عما يفعل، لماذا تسأله؟ هو الذي يعطي؟ فالله عز وجل أعطى هذه القلوب لهذه الأبدان لهؤلاء الرجال وجعلها خير القلوب فاصطفاهم لصحبة النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

وهذا الفضل القدري يجب على المرء أن يستسلم له، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للفقراء، جاء الفقراء يشكون إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أن الأغنياء يتسابقون معهم في كل شيء فيفضلوهم في صدقة أموالهم، فدلهم على أمر من الذكر لعلهم يدركون فضل الصحابة الأغنياء، فسمع الأغنياء ففعلوا فعلهم، فكيف أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم؟ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، يعني هذا أمر لا ينتهي.

وأنا أعتقد ﴿ذَلِكَ فَضْلُ الله﴾، ليس تقدمةً للأغنياء لأن الفقراء بتمنيهم يبلغ ما يبلغ الأغنياء، يعني هنا يعني أبواب الفضل كثيرة، يكفي أنك تتمنى وأعظم الفضل في هذا الباب، الرجل مع من أحب، انظر واحد يسأل هل يمكن للرجل أن يصل ما لا يستطيع أن يفعله من الآخرين؟ أبواب الفضل كثيرة، التمني هو من أعظم درجات الفضل، تصور رجل يتمنى أن يكون مثل فلان الغني الذي يتصدق، فيأتيه أجر صدقة هذا الغني، كأنه يفعلها، إن علم الله فيه الصدق، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، أبواب الفضل العظيمة، أبحث عن سر.

لكن القصد: أن الله عز وجل فضل قلوب الأنبياء ثم قلوب أصحاب الأنبياء فجعل أعظمها هم قلوب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: الأمر الثاني الذي جعل الخيرية للصحابة أنهم شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنت لا تعرف ما معنى هذه المشاهدة؟ الناس لا يعرفون ولا نحن نعرف، أنت ربما تدخل ترى متصدق، تصور أن رجلًا يملك الأموال الكثيرة فيأتي لهذه الأموال فيفعل بها هكذا وهكذا فلا يبيت عنده شيء من هذا المال أبدًا، يعني أنت كيف تبهرك هذه الحالة، ماذا تصنع في قلبك؟ ثم بعد أن يوزع الأموال تلتفت إليه وإذا هو قائم يصلي، وفي قيامه يسمع له أزيز كأزيز المرجل في صدره من البكاء فيصبح يصلي في الناس ثم ينظر إليهم فيبتسم، يبتسم لهم، يبش لهم، يجالسهم.

أنت تأمل هذه الصورة العظيمة لمشهد النبي صلى الله عليه وسلم في حنين، تنزل جموع من الرجال، شلال من الرجال من الجبال تنزل عليهم فحتى يهرب صناديد الرجال، أنت تعرف من هرب يومها؟! ذلك من الخيالات والأكاذيب والأماني الباطلة التي يزعمها البعض لو كنت لفعلت، لليوم أنت لست فاعل.

هلا برزت إلى غزالة في الوغى | بل كان قلبك في جناحي طائر

فنحن نعرفك، ففر الرجال الصناديد وبقي النبي صلى الله عليه وسلم ومعه بضعة عشر رجل وهو يصرخ هذا المنظر انظر إليه، **(أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب اللهم أنزل نصرك)**، هذا الحدث ماذا

يصنع في قلب الناظر إليه؟ أنت شاهد هذا المشهد، وما الذي يخيفك بعد ذلك إذا كنت ممن يعتبر؟ وما الذي يجعل في قلبك الشك إن هذا الدين منصور؟ ولن يقف له أحد؟

وانظر إلى حادثة الإفك، هذه الحادثة العجيبة جدًا! والله إني أقولها لو لم يكن في سيرة محمد صل الله عليه وسلم إلا هذه لدلت أنه نبي، كيف صبر عليها؟ وكيف لم يؤذي؟ وسيد قطب له كلمة عجيبة في حادثة الإفك في «الظلال»، قال: «وأعجب ما في هذه القصة أنها قامت هذه القصة، وبلغت الذروة من الألم في قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم انقضت ولم يؤثر عنه كلمة واحدة تقدح فيه، أو تنزل مرتبته» ولا كلمة، لا انهيار ولا ضعف ولا سب على الناس، صلى الله عليه وسلم.

فالله عز وجل قدم هؤلاء قدمهم بفضلهم، لهذا الأمر لأنهم شاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم، لأن الله اختار قلوبهم، شاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم، وهنيئًا لمن سار على دربهم من أهل الحديث وأهل السنة الذين يقرأون سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ويحاولون الاقتداء واللحاق به، حتى يحصل لهم الفضل.

فالله عز وجل قدم الرجال وقدم المراتب وقدم الدين، الله عز وجل قدم الشرائع جعل شرائع خير من شرائع، الله عز وجل شرع للأمم شرائع ولكن أعظم شريعة هي شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، والله عز وجل جعل السماء خيرًا من الأرض، وجعل الآخرة خير من الأولى، وجعل السابق خير من المتأخر، **(ما زال الرجل يتأخر حتى يؤخره الله)**، هذا سابق، ولذلك قال الله عز وجل قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠)﴾ [الواقعة: ١٠].

فالله عز وجل هو المقدم والمؤخر، وهذا كما قال الإمام ابن العربي: «وهذا الاسم لله عز وجل، اسمٌ أجمعت الأمة عليه»، المقدم لم يرد في القرآن وإن ورد فعله، ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ [هود: ٨]، وورد الفعل، أنه سبحانه وتعالى يؤخر الأشياء زمنًا، حتى يؤخر في الزمن، ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾، يؤخر العذاب عنهم.

ولكن هذا الاسم ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم وفي دعائه وخاصةً في الدعاء، لم يرد إلا في الدعاء هذا الحديث، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: **(ربي أغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما اسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت)**، هذا الدعاء ورد في صحيح مسلم أن العبد يقوله في قيام الليل، **(اللهم أنت الحق ولقاؤك حق ووعدك حق والجنة حق والنار حق، والنبيون حق ومحمد صلى الله عليه وسلم حق، اللهم أنت المقدم والمؤخر... إلخ)**

الحديث، فهذا يدعو به العبد ربه أنت المقدم وأنت المؤخر، وهو موافق لقوله: **(اللهم أنت المقدم وأنت المؤخر اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت)**، موافق أنه المقدم وأنه المؤخر سبحانه وتعالى.

ومن الخير للعبد أن يقدم سيئته ثم يختم له بالحسنة، بخلاف العكس أن يفعل صالحًا ثم يختم له بالشر ويختم له بخاتمة السوء، يختم له يؤخر حتى يكون موته على غير الدين، فلذلك ثقة العبد أنه لا يقع شيء في هذه الدنيا هو الذي قدم، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦)﴾ [الزمر: ٤٦]، هو مالك الملك ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ [آل عمران: ٢٦]، يجعل من يشاء فقيرًا ويجعل من يشاء غنيًا.

فسبحانه وتعالى هو الذي يقدم ويؤخر، إذا العبد وثق بهذا لم يعترض على فعل الله عز وجل لم يعترض عليه، لا في شرعه لأنه سبحانه وتعالى لا يأمر إلا بالخير، يقدمه للعبيد ولا ينهى عن شر إلا لأنه يضرهم فيؤخره عنه يبعده عنهم، ومن الخير أن يثق المرء بربه عز وجل بأفعاله أنه لا يقع في شيء إلا لحكمة وأنه هو المقدم وأنه هو المؤخر سبحانه وتعالى.

ويجب يكون العبد على يقين أنه إذا تقدم فلان في المال فالله هو الذي يعطي، لماذا تعترض؟ وأن الله إذا أعطاك المال، الله أعطاك من أجل أن يبتليك، والله عز وجل جعل الحياة الدنيا من أجل البلاء، فالله عز وجل منعك من أجل أن يبتليك من أجل أن يمتحنك، أو من أجل أن يرفع درجتك بالصبر، لأن هناك من المنازل ما لا يبلغها العبد إلا بالصبر، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)﴾ [الزمر: ١٠]، تأمل هذه كلمة الله عز وجل ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، يعني يفتح الله عز وجل يوم القيامة له من المقامات ومن الكرامات ومن العطاء ومن ملك في الجنة ما لا عين رأت ولا إذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذا كله بسبب الصبر، وإنما ينشأ الصبر على أن الله عز وجل يرفع هذا فهو يقدم وهو يؤخر سبحانه وتعالى.

وهذه الصفة لله عز كما قال الأئمة: «لا ينبغي أن تفصل هذه الصفة عن بعضها البعض»، لا ينبغي أن يقال الْمُقدم بدون أن يقال المؤخر، ولا يقال مؤخر دون أن يقال الْمُقدم إلا عند بيان الفعل؛ أن الله أخر فلانًا، أن الله قدم فلانًا، **(وما زال العبد يتقدم ويسابق حتى يقدمه الله، وما زال العبد يتأخر حتى يؤخره الله)**، فيقال هذا آخره الله، ومن عجائبه صلى الله عليه وسلم هذا من أواخر ما وقع بينه صلى الله عليه وسلم وبين الصحابة، أن النبي صلى الله عليه وسلم ما ذهب إلى تبوك كان يسأل الناس أين فلان؟

يعني خرج أم بقي مع المنافقين، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم كلمة هذه جرأت بها رمال الصحراء من أجل أن تدل على أن المسألة انتهت خلاص ما في، هذا الدين انتهى أمره لا بالعصا يمشي ولا بالضرب، هذا أمرٌ في نهاية الأمر هو فعل الله في القلوب وبحسب هذه القلوب مع الله، **(إن يرد الله به خيرًا يأتي به)**.

ومن عجائب العلماء والعابدون أنهم إذا حرموا من طاعة بكوا، إذا حرموا من قيام الليل بكوا، دخل بعضهم على أحد الأئمة وهو يبكي، قال: ما يبكيك؟ قال: فاتني اليوم وردي من القرآن، هذا فضل، يبكي أن فاته هذا الفضل، لأن الله أخره وما أخره إلا لذنب ولشر، فلذلك على العبد إذا رأى هذا أن يستغفر الله، وأن يكثر الإنابة إليه وأن يقوم بهذه الطاعات حتى يحصل له التقدمة، لأن الله عز وجل يهيئ القلوب بالطاعات ليكون ما هو أعلى منها، يعني الله يبتليك بالشيء القليل، ثم يرقق ونحن نرى هذا الشيء عجيب في زمن الصحابة رضي الله عنهم، أي غزوة سميت بغزوة العسرة؟ الغزوة الأخيرة آخر غزوة للنبي صلى الله عليه وسلم وهي غزوة العسرة.

فالله يرقي العبد بالابتلاءات حتى يأتي يوم القيامة على درجة عظيمة من الجنة، ودرجة فاضلة من العبيد، ولذلك على العبد إلا يقبل الدونية، هذا الدين أيها الإخوة الأحبة يدعو إلى المعالي، معالي الأمور ومن ذلك أن العبد يدعو اللهم إني أسألك الفردوس الأعلى، **(إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى من الجنة)**، الله لا يقبل الدونية، العبد يرى نفسه أنا لا أفعل، لا أستطيع.

وأعظم ذنبٍ في هذه الدنيا وشر من الشيطان هو التسويف، هو يرى نفسه لا يفعل، «قم أمت علينا ديننا» يقول عمر رضي الله عنه، انظر إليهم الصحابة رضي الله عنهم، يبحثون عن المعالي، حتى وهم في أدنى الدرجات من الضعف يبحثون عن المعالي، وهكذا العبد ويجب أن نربي أبنائنا على هذا، أنت رجلٌ عظيم لا بذاتك ولكن بدينك، أنت رجل عظيم تستطيع أن تبلغ، أما هذا القتل الذي يمارسه البعض بأبنائه ولزوجاته ولتلاميذه إذا كان مدرسًا، أنتم لا شيء وكذا يميت فيهم السبق يميت فيهم نزعة المنازعة لهذا الوجود.

وانظر إلى كلمة عبد القادر الجيلاني التي شرحها ابن تيمية رحمه الله، قال: «نازعت أقدار الحق بالحق للحق»، انتبه لهذه الكلمة وتأملها، نازعت أي القدر يحتاج إلى منازعة، يجب أن نربي أبناءنا، يجب أن نربيهم على الهمم العظيمة، أنهم عظماء، نحن نقتلهم أنت كذا، إذا أخطأ خطاءً تبدأ بتثريبه وقتله ونزع عوامل القوة من نفسه، هذا ما ينبغي هذا.

انظر إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع الحسن والحسين رضي الله عنهما، يعطيهم يدفعهم لا يقتل فيهم نوازع الخير، ولا نوازع التقدمة ولا نوازع الإمامة، بل يدفعهم لأن يكونوا أئمة، هذا مع ما تربى القلوب على أنها ضعيفة أمام الله، إذا واجهت الوجود فهي قوية بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

فهذه دعوة كذلك للعبيد أن يتسابقوا لأن يحصل لهم رحمة الله عز وجل بالتقدمة، المقدم والمؤخر أن يقدمهم الله، لا تتأخر عن الصف الأول لا تتأخر، لا تقول المهم حضرت الجماعة، لا احضر الجماعة في الصف الأول، لا تقول أنا لا أستطيع أن أقرأ القرآن، مدام فعله غيرك أنت تفعله، كيف الصحابة يقرأون كذا ويفعلون كذا، وإذ الناس يفعلونها ويستطيعون أن يفعلوا الكثير، المرء يستطيع أن يفعل الكثير أن يذكر الله كثيرًا، أن يقوم الليل كثيرا، أن يقرأ القرآن كثيرا، أن يتعلم الكثير، فهؤلاء العلماء الذين حفظوا السنة وحفظوا كتاب الله وحفظوا العلم، كيف هؤلاء؟ الله قدمهم بالعلم وهذا أمرٌ لا ينتهي، وتعجب،

فابدأ، والناس يقولون: «مسافة الألف ميل تبدأ بخطوة»، ابدأ والله يعطي سبحانه وتعالى، والله يعطي خزائنه ملأ من طلبها أعطاه، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]، هذا قانون إلهي، المهم تريد العاجلة يعطيك عاجلة، تريد الآخرة يعطيك الآخرة، هذا قانون رباني، سُنة سبحانه وتعالى الزم نفسه بها جل في علاه لعدله، أن الذي يطلب شيء يعطيه، يجب علينا أن نملأ نفوس أبنائنا بطلب المعالي.

قيل للإمام أحمد رحمه الله: جئتك بحويجة، قال: «أبحث لها عن رجيل»، أبحث لها عن واحد يناسبها، يجب أن نربي أبناءنا على هذا، نربي أنفسنا على هذا، خاصةً أن في هذه الأوقات الفتن قادمة والأبواب ستشرع والتوحش سيقدم وستنهار هذه الدول، وستنهار هذه النظم، فمن الذي سيقود الأمة؟ هؤلاء الشباب هؤلاء الرجال يجب أن يتعلموا، يجب أن نربي فيهم المعالي.

أعجبني -وإن كان هذا أمر خارج لكن الحكمة ضالة المؤمن- واحد قال من إحدى الدول العربية قال: لماذا لاعبين كرة القدم دول عربية همل والأجنبية؟ قال: لأن هؤلاء يربوهم كبار أنه أنتم أسياد العالم، وفي الدول العربية يربيهم عبيد مثلهم، يأتيهم يضعون عليهم أسياد يتعاملون معهم كالعبيد فيربون عبيدًا، مشكلتنا أننا نربي نفوسًا تخضع للبشر، تذل وتخاف تهان من قبل البشر، فرق بين رجل يربى عزيز لا يخاف.

-هذا أمر يمكن خارج عن الموضوع قليلًا-، انظر إلى تربية أسامة بن منقذ، سمعتم القصة، قال: ما نهاني أبي يومًا عن شيء قط، إلا مرة واحدة، قال: ورأيت أفعى عظيمة في سطح البيت فصعدت إليها

مقبلًا عليها وأبي ينظر لي ويبتسم، والله نحن اليوم لا أهله ولا أمه ولا أبوه، بل قتلوه خوفًا بالصراخ عليه، الرجل يموت قبل أن يصل، لا يموت من الأفعى يموت من الصراخ والتخويف، قال: مرة واحدة فقط نهرني، قال: رآني مقبلًا على وجه الأسد، كانت منطقتهم يصيدوا الأسود، قال له: ليست هذه الطريقة، قال: إياك أن تقابل أسد وهو جريح في وجهه خلاص سيقتلك، قال: فرآني مقبلًا عل وجهه، قال: زجرني، فقال هذه المرة الوحيدة التي زجرني فيها رآني مقبلًا على الموت، قال: رأى أفعى عظيمة فوق البيت صعدت إليها بالسلم، صعدت إليها وأنا مقبل إليها وهو ينظر إلي ويبتسم.

وتجد عندنا التربية للولد تزجره عن أي شيء لا تفعل يا ولد، لا تقع يا ولد... الخ، والمسكين خائف ومرعوب الطاولة حواليه أوعى، وهذه الأمثال الضالة التي نعلم بها؛ احفظ راسك عند مخالفة الدول يا ابني، اليد التي لا تقدر عليها بوسها، ونربى عليها على هذه الأمثال الضالة، ومرء مسكين ماشي بعكازات صناعية.

أبواب الله عظيمة والله يعطي لماذا لا تقبل لماذا لا تأتي إليها؟ هذه هي النفوس التي يجب أن نربي أبناءنا، نربي أمتنا عليها هذا الجلد الموجود الآن على الأمة، الأمة خربانة، الأمة تعبانة، الأمة الشريرة، أمتنا أعظم أمم، والله أخلاق أمتنا أفضل من أخلاق أي أمة في الدنيا، والله فيها رجال أعظم رجال، إنما المشكلة هؤلاء الطواغيت، يشغلوا الناس بالرزق، يشغلوا الناس بالفتن، يشغل الناس بسفاسف الأمور، كالسجين مسكين أنتم جربتم أغلبكم السجون، السجين مسكين يضغطوا عليه، حتى تصبح حاجته أن يحضر مقص أظافر، همه الكبير مقص الأظافر، وهكذا صنعوا في هذه الأمة، صار هم المرء فقط أن يأكل ويشرب، وإلا هذه أمة عظيمة، لا يجوز جلدها، **(من قال: هلك الناس فهو أهلكهم)**، هذه أمة عظيمة.

فلا يوجد شيء ينقص هذه الأمة ورجالها وعلماؤها ونسائها لا ينقصهم شيء إلا أن هذه القيود التي أنتم لا تعرفون كم يبذل من الأموال والطاقات والتفكير والتخطيط من أجل إفساد هذه الأمة وتدميرها، وعدم رفع الرأس، أنت انظر إلى البلاد، الحكام والطواغيت الكبار والصغار الخارجيين والداخليين، همهم ماذا؟ ما حد يرفع رأسه، مهما كان يكون في أي باب، ممنوع أحد يرفع رأسه، ولكن هذه الأمة عظيمة، وإن شاء الله بإذن الله تزال كل هذه القيود، وتعود الأمة إلى ما وعد الله عز وجل من أن هذا الدين يبلغ ما بلغ الليل والنهار، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم والحمد لله رب العالمين.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس والأربعون: المعطي

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من اسماء ربنا سبحانه وتعالى الذي تعبدنا به ذكرًا وعلمًا وحالًا، ألا وهو اسمه المعطي جل في علاه، المعطي وهذا الاسم لم يرد في حديث أبي هريرة المشهور في ذكر اسماء الله الحسنى حتى إن بعض أهل العلم لم يذكره في كتبه كالإمام ابن العربي عليه رحمة الله في «الأمد الأقصى» لم يذكره، وكذلك لم يشرحه ولم يأتي على ذكره الغزالي رحمه الله في «المقصد الأسنى».

والسبب هو أن هذا الاسم مأخوذ من حديث معاوية رضي الله عنه الذي في صحيح البخاري **(من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، والله المعطي وأنا القاسم ولا تزال هذه الأمة ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون)**، فقوله صلى الله عليه وسلم: **(والله المعطي)**، الحديث هذا ورد بصيغة أخرى **(وإنما أنا قاسمٌ والله يعطي)** على صيغة الفعل: **(والله يعطي)**.

ولكن هذا الحديث في صحيح البخاري بهذا اللفظ وأظنه الأقرب لأن الصحابي لا يتصرف بذكر الاسم المشتق من الفعل بخلاف اشتقاق الفعل من الاسم فإنه يتصرف فيه الراوي، يعني الراوي شرط أن يروي الحديث بالمعنى أن يكون فقيهًا في المعاني، أن يكون فقيها فيما يتصرف به من ألفاظ، حتى لا يروي الحديث على غير مراد قائله على غير مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالراوي لا يمكن أن يتصرف بجعل الفعل اسمًا لأنه يعلم أن هذا لا يجوز مستقر في أذهان الصحابة وأذهان العلماء بأن الفعل يشتق منه الاسم لأن الفعل قد يكون لحالة من الحالات بخلاف الاسم، الاسم هو سمة، إما أن يكون الاسم مشتق من السمو وهو الرفعة، هذا قول بعضهم، وإما أن يكون الاسم مشتق من السمة والسمة كما يقال يوم بصمة أي علامة والعلامة هي شيءٌ ثابت بخلاف الفعل، الفعل قد يذهب وقد يأتي بحسب الإرادة، فمن كان اسمه صفة يكون منه الفعل الذي يشتق من الاسم، إذا كان الاسم صفة لأنه قد يكون الاسم غير صفة، مجرد علامة سمة على الرجل، كأن يقال: رجل خالد وهو ليس بخالد، قد يقال: شداد وهو ليس شديد، قد يقال: حسن وهو ليس بحسن.

فقد يكون الاسم مجرد علامة، واشبه بالكلام الجامد الذي لا يشتق منه صفة ولا فعل، جامد كما يقال حجر ما الذي يفيده الحجر من معاني؟ لا يفيد فهذا اسمٌ جامد، فقد تكون الأسماء غير دالة على معاني فتكون جامدة، لكن إذا كانت الأسماء صفات فإنه يقع منها الأفعال، من هنا كانت أسماء الله سبحانه وتعالى حُسنى، لماذا؟ من معاني الحُسن فيها من معاني أنها صفات، ومعنى أنها صفات أي يقع بها الفعل، أنها حقيقة.

فإما أن تكون هذه الصفات ذاتية غير متعلقة بالإرادة كالسمع والبصر والحياة والقدرة لا تعلق لها بالإرادة وإما أن تكون هذه الصفات لها تعلق بالإرادة فهذه تسمى بصفات الفعل، الإرادة لها دور في أن يقع آحاد هذه الصفة كالخالق، إن شاء خلق وإن شاء لم يخلق، إن شاء أعطى وإن شاء لم يعطي، إن شاء منع وإن شاء جاد وهكذا.

فالقصد من هذا: أن الراوي شرط الرواية بالمعنى فالعلماء تسمحوا برواية الحديث في المعنى، ولكن مع هذا التسمح اشترطوا شروطًا –أنا أذكر هذا للفائدة حتى نعرف لماذا اخترنا هذا الاسم الذي ورد في صيغةٍ أخرى بالفعل– من شرط الرواية بالمعنى: أن يكون الراوي فقيهًا لما يروي وإلا يتصرف في النصوص يتصرف الألفاظ بما لا تدل على مراد قائلها وهو النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يدخل قائله في قوله صلى الله عليه وسلم: **(من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار)**، العلماء يتشددون في هذا، ليس كما يفعله اليوم يقول لك: يجوز رواية الحديث بالمعنى ويقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبدأ يهرف من عنده وربما قال كلامًا لا يدل على مراد المتكلم، لا.

من هنا الكثير من أهل العلم أغلق بعد باب التصنيف أغلق رواية الحديث بالمعنى، خلاص انتهى، قلة الورع وقلة الفقه وقلة الإبصار باللغة.

فالقصد من هذا: أن الذي تصرف هو تصرف أنه اشتق من الاسم فعلًا، ولا يشتق من الفعل صفة واسمًا، فلذلك قال صلى الله عليه وسلم في حديث معاوية رضي الله عنه: **(والله المعطي وأنا القاسم)**،

والقصد من هذا: **(من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، والله المعطي وأنا القاسم)**، أن النبي صلى الله عليه وسلم يوزع ما يأتيه من غنائم أو يعطي ما يعطي من علمه لأن السياق هو حديث عن العلم، **(من يرد الله به خيرًا يوفقه في الدين والله المعطي وأنا القاسم)**، ما معنى القاسم؟ الذي يوزع على الناس، لكن النبي صلى الله عليه وسلم إنما جعل أساس العطاء لله عز وجل وهذا هو العطاء فالله المعطي أي كثير العطاء بل المعطي الذي يدل على أنه لا عطاء إلا عطاءه، كيف معنى لا عطاء اللي عطاءه؟ بمعنى أنه لا

يقع عطية في هذا الوجود إلا منه، حتى ما يتعاطاه الناس من العطاء ومن السخاء ومن الجود لا يقع إلا منه سبحانه وتعالى؛ أولًا: لأن أصل الشيء هو منه هو الذي خلقه وهو أعطاه للخلق، وثانيًا: لا تقع إرادة العطاء إلا بإرادته، فلو شاء لقسى قلب الأب فلا يعطي ابنه، ولو شاء قسى قلب الأم فما احتضنت ابنها ولا أعطته من ثديها ولا من لبنها.

فالله عز وجل هو المعطي أي بمعنى دل على أن كل شيء:

أولًا: هو من عطائه.

ثانيًا: لا يقع عطاء إلا وهو من اذنه سبحانه وتعالى فهو المعطي.

من هنا ما هو دور البشر؟ يقسمون، الله عز وجل الذي أعطى وهو الذي ينفذه.

وهذا الاسم الجليل لربنا سبحانه وتعالى يعني بأن يتوكل المرء على الله، وأنه إذا وقع عليه حبس من الدنيا فليعلم أنه من الله، وإذا وقع شيء من النعم عليه فليعلم أنه من الله عز وجل، كل شيء هو بيد الله عز وجل، وهذه دائمًا أضربها يذكرها العلماء يقال: جاءت نملات إلى حرف جيم، فقالت النملة الأولى: ما أجمل هذا الحرف! النملة الثانية قالت لها: ليس الجمال في الحرف بل الجمال في اليد التي كتبت الحرف، قالت الثالثة: ليس الجمال في اليد التي كتبت الحرف ولكن الجمال في الذي كتبه الذي أجرى هذه اليد، فقالت الرابعة: ليس الجمال في كل ذلك إنما الجمال في الذي خلق اليد التي كتبت هذا الحرف.

فلذلك قالوا: «فجمال كل شيء هو جمال الله» وبالتالي عطاء كل شيء في الدنيا هو عطاء الله، وكل شيء يقع في هذا الوجود هو من الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥)﴾ [الضحى: ٥]، هذا هو عطاء الإيمان، العطاء الذي يمدح في العبد إذا وجد عنده، والله عز وجل يعطي الدنيا، قال صلى الله عليه وسلم: **(لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء)**، فالدنيا لا تعدل جناح بعوضة في عين ربنا ولا في نفس ربنا.

وإنما سبحانه وتعالى أعطى رسوله صلى الله عليه وسلم أعظم ما يعطى في البشر، فهذه هي العطية الأولى التي يجب أن يتفكر فيها، وأن نسأل الله عز وجل إياها، لأنه إذا تحصلها المرء تحصل الخير كله، وهو أن يأخذ من ميراث النبوة، ماذا كان عطاء النبي صلى الله عليه وسلم؟ ماذا أعطى الله حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم؟ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥)﴾ [الضحى: ٥]، أول عطية لله عز وجل أن

أعطاه المغفرة، وهذا طلب كل الصالحين، إذا عبدوا الله أول ما يطلبون المغفرة، وإذا تابوا أول طلب ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ [الشعراء: ٥١]، هذا أول ما طلبه السحرة بعد توبتهم.

وفي سورة «هود» الأنبياء جاءوا ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ [هود: ٥٢]، أول شيء هو طلب المغفرة؛ لأن الذنوب هي أكبر الأوساخ والأثقال والأحمال التي تثقل العبد في الدنيا والآخرة، إذا وقعت الذنوب على الإنسان إنما هي قاذورات وأثقال وأحمال على الإنسان، فمن نعم الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن غفر الله له قبل أن يُخلق وغفر له قبل أن يفعل الفعل، والأنبياء مبرءون من الكبائر، واختلفوا في الصغائر والصغائر تقع منهم، ولكن هذه المغفرة التي تمنع العبد من الوقوع في المعصية، هذه مغفرة أعظم، أن يمنعك الله من الوقوع في المعصية هذه مغفرة؛ لأنه ما هو قصد المغفرة؟ هو ستر الذنب، فعدم وجود الذنب هو ستر له.

يعني أنت استحقاقك أن تذنب، بل ما خلقنا الله عز وجل إلا ليغفر لنا، أعظم، أعظم أمر خلقنا له أن نستغفر، فالله خلقنا لنستغفر، وأما التسبيح، الملائكة يسبحون، السجود الملائكة يسجدون، كل هذا تفعله الملائكة، الأمر الذي لا تفعله الملائكة أي من أجله خلقنا وهو أن نستغفر الله، ولذلك أعظم عطية لرسولنا صلى الله عليه وسلم والتي هي عطية لأولياء الله من التابعين لنهج النبي صلى الله عليه وسلم هو أن يستغفروا الله، فيغفر الله عز وجل لهم، هذا أعظم العطية.

العطية الثانية هي عطية العلم، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦]، أن يعطيك الله عز وجل العلم والعلم هو منه الإيمان، **(فاعلم أنه لا إله إلا الله)** أن يعطى الرجل العلم، والعلماء كانوا يستحون أن يسألوا الله عز وجل الدنيا بالرغم أنها سيرة السلف، يعني هذه أنا لما أمر عليها أجد حرجًا فيها، لأني لم أجدها عند الصحابة، وجدتها عند المتأخرين، إذا سئل يقول: أنا لا أسأل الله الدنيا، رغم أن الصحابة كانوا يسألونه أدنى ما يقع عندهم لو أراد الملح سأل الله، لو أراد شراك نعله أن يصلحه سأل الله عز وجل، لو أراد درهمًا سأل الله، أنا لا أحب هذه يقول لا يسأل الله الدنيا، لأنه في النهاية نحن أبناء الدنيا، ولا أحد يستغني منها، لا أحد يستغني عن الدنيا؛ لأنه إذا وقعت الحاجة لها ذلت نفسه.

كان يقول سفيان الثوري رحمه الله وهو أعلم الناس بالورع والتقوى وخبايا النفوس، أعلم أهل زمانه في هذا الباب، قال: لولا هذه الأموال في أيدينا لتمندل بنا هؤلاء، تمندل بنا: أي جعلونا مناديل يمسحون بها أوساخهم، لأنك إذا احتجت إليه سألته وإذا سألته استغلك، فهذا العطاء هو أعظم العطاء وهو عطاء التوبة أن يتوب الله عليك فلا يوقعك بالذنب، فإن وقعت بالذنب غفر لك، أعانك على المغفرة، وإذا

استغفرت غفر لك، فأعظم عطية هي عطية العلم، وهكذا **(الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا، وإنما ورثوا العلم)**، فهذا أعظم العطاء، الله المعطي.

وكذلك عطاء الرزق، الله عز وجل يعطي هذا المال يعطيه للصالحين، قال صلى الله عليه وسلم: **(نِعمَ المالُ الصَّالحُ للرَّجلِ الصَّالحِ)**، إذا أعطاه الله عز وجل إياه، وكان هناك من الأنبياء ما هم ملوك، وتصرفوا في ملكهم تصرف العباد الورعين الأتقياء الذين لم تغرهم الدنيا ولم يخوضوا في معاصيها، ونحن إذا نظرنا إلى هذا الوجود رأيناه كله قائم على العطاء الإلهي على الجود الإلهي، انظر هذا الوجود، الله عز وجل أعطاه لماذا؟ لماذا خلقه؟ الله غير محتاج له، ما خلقه لحاجةٍ له، الله خلقه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، فانظر إلى هذا الوجود، الله أعطاه، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: ٥٠].

فالله منَّ عل كل شيٍ بأن أعطاه وجوده، الله منَّ على العرش بأن أعطاه وجده، ولولا مدد الله بعد ذلك المستمر الدائم له لما وقع له وجودٌ ثابت، انظر السماوات الله أعطاها وجودها وخلقها، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: ٥٠]، أعطى؛ بأن أوجده على ما هو عليه، فأقامه على المقصد الذي خلق من أجله، وأعطاه من القدرات ما يقع به تنفيذ مراد الله فيه، ما هو تنفيذ مراد الله فيه؟ أولًا هو أن يسبحه ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فكل شيء يسبح بحمد الله.

وأنت الله أعطاك، أعطاك الجبهة وهداك لمقصدها؛ أن تسجد لله بها، أعطاك اليدين من أجل أن تتصدق أن تعطي أن تجاهد، وأعطاك القلب من أجل أن تذكره وتخافه وتحبه وأعطاك اللسان من أجل أن تذكره، فأقام خلقك على مقصد هداية الله لك، والضلال هو أن تخرج الأشياء عن سكتها حينئذٍ يقع الفساد وهذا الذي تجدونه من فساد العالم هو أن العالم أخرج الأشياء عن سكة مقصد خلقها.

فالحياة لا تقوم إلا بالبيع والشراء والسماحة وترك المعاصي من الربا والسرقة والخيانة، ولكن العالم انظر العالم الجاهلية فيها جرثومة فسادها، ما في ضرورة الأشياء لما تهلك، تهلك بالمعاصي في داخلها، الله يقيم الفساد في داخلها، إذا قام العالم الاقتصادي على الربا، الربا سيفسده من داخله، ما في حاجة يأتي واحد يضربها هي من داخلها تفسد خلاص تخرب.

فيأتي واحد يقول لك: انتعشت!! هذا هو سر المعاصي، الناس يعني يغفلون عن سر المعاصي في أولها فيها نشوة عجيبة جدًا، ولولا هذه النشوة ما أقبل الناس عليها، الله أقام على المعاصي فتنة للناس وابتلاء شيئًا من رغائب النفوس، التي هي النشوة والشهوة التي تأتي بسرعة، لكن بعدها يُدفع الثمن، إذا زنا المرء

انتشى، شرب الخمر انتشى، إذا سرق فرح معه أموال، فلذلك العالم عندما يقوم على الربا يقول لك: انظر الاقتصاد، انظر ماذا حدث وزعوا الأموال، بعد ذلك يبدأ هذا الفيروس بهلكة هذه الأبدان وهلكة هذه المجتمعات وهلكة هذه المؤسسات فتهلك من الداخل، فيحاول الإصلاح لكن في النهاية تصبح كالقِرب البالية.

فالثوب إذا كان جديدًا فخرق من مكان يمكن إصلاحه، لو كان جديد ومتين يمكن يأتيه شيء يعلق فيه مسمار، كذا، يأتيه ضربة يهلك في مكان فأنت تصلحه، لكن إذا وقعت الهلكة فيه جميعًا وصار بالي، لا تستطيع أن ترجعه، بعد ذلك تصبح الرقع فيه هي الأصل وقد باد ذهب خلاص انتهى، هذا الذي حدث في الجاهلية اليوم، الجاهلية تتساقط، هم أصلحوها في ظروف كثيرة، وكثير من ردات الفعل جاءتها وجاءتها أسباب هلكة وجاءتها أعاصير فاصلحوها ورقعوها، لكن الآن الجاهلية وصلت إلى نهايتها خلاص لا بد أن تهلك، لابد هذا يقين، ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ [الإسراء: ٥٨]، خلاص الجاهلية الآن تتساقط.

القصد من هذا: أن الله سبحانه وتعالى أعطى هذا الوجود وأعطى كل شيءٍ خلقه، وهو الذي يقدر المقادير في الخلق، يجعل هذا غنيًا يجعل هذا فقيرًا، ومن هنا يجب الثقة على عطاء الله، والنظر إلى حكمة الله في العطاء، لا يعني ألا ننازع الأقدار، لا، الفقير يجب أن ينازع الاقدار، بالبحث عما يكفيه ويسد رمقه، وأن يبتعد عن الفقر الذي يؤدي به إلى الفساد، قال صلى الله عليه وسلم: **(كاد الفقر أن يكون كفرا)**، هذه حقيقة، مرات زنا الزانية هذه المرأة التي أرادت في الحديث **(الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار)**، ما الذي جعلها تذهب لتقبل الزنا من ابن عمها؟ الحاجة والفقر لذلك الفقر لا يمدح الفقر بمعنى زوال ما يحتاجه المرء من ذات اليد، هذا لا يمدح، لا يمدحه إلا المتأخرون، الأوائل لا يمدحونه، الصحابة لا يمدحونه.

فالفقر يقتل الفضائل وهذه يجب أن نتعلمها ونفهمها، والمجتمعات إنما تضرب قيمها بالفقر، النفوس العالية إذا مدت يدها سقطت قيمتها وهانت، يقال يضربونه مثل هذا دائمًا على كيفية تدمير الفقر للقيم وسقوط المجتمعات بالفقر، يقولون: بأن ملكًا غزا قرية فحاصرها، فأراد أن يعرف ما القرية أرسل وزيره إلى القرية يستطلع ما هم الناس في داخلها، فراح على أول محل ليشتري منه قماش، قال له: أعطني من هذا القماش فاشتراه، ثم قال: أعطني من هذا القماش، قال له: اسمع أنا اشتريت وبعت مني، جاري يحتاج لا باع ولا اشترى، اذهب اشتري من عند جاري موجودة عنده البضاعة بنفس السعر، ذهب إلى التاجر الآخر واشترى، فقال له: أعطني قماشًا آخر، قال له: أنا اشتريت وبعت، اذهب إلى غيري، فخرج المهم

هذا الوزير وأخبر الملك بأخلاق هذه القرية، قال الملك: هذه القرية ما تزال متينة وقوية، اتركوها، فحاصرها حتى جاعوا، فأدخل وزيره وقال له: اذهب الآن وانظر الأوضاع، هل تغيرت الناس أم لم تتغير؟ فأرسله ودخل إلى المكان واشترى، فقال: أعطني قماش آخر الأخرى فأجابه البائع أعطيك، قال له: دعني أذهب إلى جارك، قال: لا، لا يوجد ضرورة أن تذهب إلى جاري، اشتري من هنا، فالفقر غير القيم، فذهب إلى الملك وأخبره، قال له: هذه الأخلاق انتهت، الآن نستطيع أن نغزوها، يشتري الذمم يشتري الرجال من داخلها خلاص انتهى، «فالفقر يقتل القيم والفضائل»، هذه قضية يجب أن نفهمها.. ومن هنا تكثر السرقة ويكثر الفساد.

فالقصد: بأن ما عند الله عز وجل لا يؤخذ إلا بطاعته، فرزقك هو مقسوم، هذا من الفرق بين أهل السنة والمعتزلة، المعتزلة لأنهم قدريون، يقولون المعصية في السرقة أنه أخذ رزقًا لم يقدره الله له، يعني لماذا سميت السرقة بمعصية عندهم؟ لأن الله عز وجل قدر ألا يكون هذا الرزق لك فخالفت قدره فأخذت الرزق!! أي نازعت قدر الله عز وجل!! الله قدر ألا تأكل هذا الطعام فأكلته فهنا من أجل هذا التقت المعصية الشرعية مع المعصية القدرية عندهم.

أهل السنة، لا، يقولون: حتى الذي يأخذه المرء على سبيل المعاصي هو من رزقه الذي قدره الله له، لكن أخذه من غير حله، وإلا هو الله قدر له أن يأكل هذا الطعام، وإن كان قد سرقه قدر أن يأكله، المعتزلة قالوا: لا، لا، الله لم يقدر أن يأخذه فأخذه، فمن هنا كانت المعصية.

فإذا علم المرء أن كل شيء هو بقدر الله عز وجل وأن الله هو المعطي، رضي بقدر الله عز وجل ولم يعترض، **(فإذا أصابه خير فرح وحمد الله، وإذا أصابه شر صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن)**، وإذا علم المرء أن الله هو المعطي لكل شيء فحينئذٍ لا تقع المنة لو أعطى، فعندما المرء يتصدق من الذي أعطاك هذا المال؟ الله فأنت وكيل، من أصيل المال الله عز وجل، الله هو الأصيل هو له أصالة الملك، وإنما أنت وكيل، فإذًا لا تقع المنّة، لأن الله عز وجل هو الذي أعطاني، هذا الملك ليس بيدك، «لو دامت لغيرك ما وصلت إليك»، هذا المال دوار، ومنه القرش الدائري لأنه يمشي.

فلذلك هذا المال ينتقل، اليوم لك وغدًا لغيرك، وهكذا الدنيا لا تدوم لاحد.. فالله عز وجل أعطاك فلا تمنّ على أحد بعطية، فالله هو المعطي، لست أنت، الله هو الذي أعطاك، ليس انا، الله عز وجل جعلني فقط سببًا في الإيصال لأن الحياة لا تقوم إلا بأسباب، فالله قدر لك هذا.

ومن هنا كذلك فهمنا لعطاء الله عز وجل يعني أن تعرف موارد العطاء، ما معناها؟ لما نقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: ٥٠]، أي لكل شيء سنة، فلا ينبغي أن تأخذ الأشياء من غير سبيلها، يعني كمثال الذي يجلس وراء الكمبيوتر هو يريد حرف الجيم فيصر على الضغط على حرف الميم، يضغط على الميم يا ابن الحلال هذا حرف الميم لا يجاوب، بهذا يطلع لك حرف ميم، لا بد أن تذهب إلى حرف الجيم.

فلذلك الأشياء أبواب الرزق فيها معلومة، يجب أن تطرقها لا تطرق غيرها، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم، **(إذا تبايعتم بالعينة واتبعتم أذناب البقر وتركتم الجهاد في سبيل الله؛ سلط الله عليكم ذلًا، لا يرفعه إلا أن تعودوا لدينكم)**، هنا دينكم يعني جهادكم، الذلة لا ترتفع بالصلاة الذلة ولا ترتفع بالصيام ولا ترتفع بالزكاة، هذه كلها معينة في هذا الباب، وإنما الأصل هو ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، فتزودوا أولًا فكل شيءٍ له بابه.

فإذن رفع الذلة عن الأمة له باب وهو الجهاد لا يصح أن تذهب إلى باب آخر، المسلمون عندهم الأمور اختلطت أنه بمجرد الإتيان بسبب معين فيه طاعة وهنا عدم التقاء الشرع مع العقل في عقولهم، ظنوا أن جوانب الشرع تقع بغير دلالة العقل ولا دلالة السنة، نذكر الله فالله يفتح علينا روما، نذكر الله فيرجع لنا القدس، نذكر الله فيزيل الطواغيت، هذا فهم قاصر، فهم باطل، هذا فهمٌ عجمي، فهم غنوصي، لا دين فيه، يجب عليك أن تبحث عن الأشياء من خلال أبوابها السننية. الله عز وجل قدر للأشياء أسبابًا، وأعطاها من طرق، فأنت هل يجوز لك أن تطلب الولد من الحجارة؟! هل يجوز لك أن تطلب الورق من الحديد؟! واحد يريد الورق أين يذهب؟ يذهب للشجر، يصنع الورق من الشجر، يريد سيف فلابد أن يذهب للحديد... وهكذا.

فالله عز وجل عندما أعطى، أعطى من خلال أسباب، ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: ٥٠]، فيجب أن تطلب الأشياء من أسبابها التي قدرها الله، إذا طلبتها من غير أسبابها لا يصح هذا لا يجوز، حينئذٍ أنت متعدٍ على الله وحكمته وانتبهوا الله هو الذي خلق القدر وهو الذي شرع الشرع، كلاهما منه، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فمنه الأمر ومنه الشرع، الشرع إن لم تقدر عليه الشرع أعطاك بدائل أو أسقط عنك التكليف، لنرى من هو الأقوى؟ من هو الذي يثبت؟ ومن هو الذي يجوز ألا يثبت؟ الشرع أمر، فأمرك بأوامر، فإن لم تستطع أن تأتي بهذه الأوامر، إما أن يعطيك البدائل كعجزك عن الماء فتتيمم وهكذا أمور كثيرة، فالله اقام بدائل لمن لم يقدر، ثم لمن لم يقدر البتة سقط عنه الحكم،

واحد ما معه مال ما يزكي، ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]، ما معه قدرة.

لكن في الأقدار لا يجوز أن تتغير، أهل الأخدود مع إيمانهم قتلوا، ما انتصروا الانتصار القدري، وإن كانوا انتصروا الانتصار الإيماني بالثبات، فما الأثبت الحكم القدري أم الحكم الشرعي؟ الحكم الشرعي رأيناه يتغير ويسقط لأنه يتعلق به الإثم، لكن الحكم القدري لا يتغير، بل لم نعلم صلاح الشرع إلا لموافقته للقدر، كيف الصحابة اكتشفوا أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق؟ لأنه يوافق الفطرة، لأنه يوافق القيم الحق التي عندهم من الأقدار، فعلموا أنها الحق.

فالذي يخالف الشرع كمن يخالف القدر، والذي يخالف القدر كما يخالف الشرع، بل إن العقوبة القدرية أشد من العقوبة الشرعية، العقوبة القدرية واحد ذهب فقاتل أعداءه بسفاهة فما هي النتيجة؟ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧]، خرجوا بطرًا ورئاء الناس، وإذا لم يحضر نفسه ما هي النتيجة؟ هذا كمذبحة تحدث فيه، مين ما كان يكون؟

في ثورة عُرابي في مصر مشهورة، عُرابي كان سياسي ولكن كان صوفي، فأمر جيشه في الليل كلهم أن يرقصوا، يعني اذكروا الذكر الصوفي، ظن أن هذا سيستنزل النصر، صبحوا في الصباح تعبين، فأبادوهم الإنجليز، فيأتي النصر من بابه.

والقصد من هذا كله: هو أن نأتي عطاء الله عز وجل من بابه، فإذا ملكنا إياه اتقينا الله عز وجل فيه وعلمنا أنه من الله سبحانه وتعالى، وهكذا علمنا بأن الله هو المعطي لا نسأل إلا إياه، فهل نطلب عطاءه بالسعي في أبواب الأرض؟ الجواب: نعم، حتى لو وقع المرء في المكروه الأصل أن إجارة المسلم أن يؤجر المسلم نفسه للكافر مكروه، ذكر هذا أهل العلم وذكره ابن حجر في «الفتح»، لأن في ذلك استعلاء للكافر على المؤمن، أي لا يجوز للمسلم كراهةً أن يذهب فيؤجر نفسه لكافر، لأنه في النهاية يضع يده الدنيا ويكون في هذه الحالة في الإيجارة محتاجًا إليه، لكن رأينا علي رضي الله تعالى عنه ذهب لما رأى الجوع في وجه النبي صلى الله عليه وسلم، رأيناه أجر نفسه ليهودي، لما قال: «خرجت فرأيت الجوع في وجه الرسول صلى الله عليه وسلم» فذهب عند يهودي فأجر نفسه كل دلو بحبة تمر حتى أخذ سبعة عشر حبة تقريبًا، فجاء بها النبي صلى الله عليه وسلم، قال له اليهودي: زد، قال: هذا يكفي خلاص سبعة عشر حبة تكفي، فأخذه على مقداره.

والقصد من هذا: أنه يجوز للمرء في هذه الأبواب، ولكن عليه أن يستعين على ذلك بتقوى الله سبحانه وتعالى بالابتعاد عن المعاصي بقدر ما يستطيع.

فإذا علم المرء بأن الله هو المعطي سأله وحده واستغاث فيه وحده فهذه الأشياء كلها بيد الله فليأتيها المرء على وجهها وأن يتقي الله سبحانه وتعالى، وكذلك رؤية هذا الوجود أن الله هو الذي أعطاه هذا يوجب الحمد والثناء على الله لأنه أعطاه على وجهٍ من وجوه الحكمة، وهناك كلمة صاغها الناس لمعنى ما قاله الغزالي، وهي كلمة ليست جيدة، قال: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»، ذكر هذا في «الإحياء» أن الوجود قائم على تمام الحكمة وتمام القدرة فليس فوق القدرة التي خُلق فيها الكون قدرة، وليس فوق الحكمة التي خلق عليها الكون من حكمة، وهذا خطأ غير صحيح، لأن قدرة الله غير متناهية وحكمة الله عز وجل غير متناهية، فهذه عابها حتى تلميذه ابن العربي وقال: «هذا مما يعاب على الغزالي»، وأهل بغداد عابوها على الغزالي هذه الكلمة.

الله عز وجل سبحانه وتعالى لو أراد خلقًا أجمل من هذا لكان وحكمةً أكثر من هذا لكانت، لكنها الحكمة التي تلائم مقصد الوجود، ما مقصد الوجود؟ وهو أن يعبد الناس ربهم وأن يقع الابتلاء لتقع الجنة والنار وإلا فالجنة أجمل من الدنيا وأعظم قدرًا من الدنيا والسماوات أعظم من الأرض وهكذا، فلو شاء سبحانه وتعالى لخلق أكوانًا أعظم مما خلق جل في علاه ولا تناهي لقدرته ولا لحكمته.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته وأن يرزقنا التوكل عليه والثقة به وسؤاله وعدم سؤاله سواه سبحانه وتعالى جل في علاه، بقي هذا وإنما الحديث انظروا هذا كيف وقع بين السياق **(من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، والله المعطي وأنا القاسم ولا تزال هذه الأمة ظاهرة على الحق حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون)**، يعني هذا السياق إما أن يكون هذا الحديث مجموع من أحاديث قالها صلى الله عليه وسلم في مواطن متعددة، وإما أنها قيلت في وقتٍ واحد، فإذا قيلت في وقتٍ واحد وهو الأقرب، هو الأقرب أنها هي قيلت في موقع واحد، فما هو الجامع بين هذه الأمور في هذا الحديث؟

قال صلى الله عليه وسلم: **(من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين)**، إذًا دلت على تنوع الناس في العلم، **(من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين)**، فالناس وراثتهم للعلم ليست على مرتبة واحدة، فالله معطي، **(من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين)**، فهذا تنبيه على أنك ابحث عن هذا الباب اذهب إليه، وحين يقع التوزيع الإلهي عليك أن تثق أن الله هو المعطي، وإنما يعطي الله عز وجل بحكمته وباستحقاق البشر وبمقدار تحملهم ومقدار طهارة قلوبهم، ثم قال صلى الله عليه وسلم: **(ولا تزال هذه الأمة ظاهرة)**، هذا مما قسمها

الله عز وجل وأعطاها له، وقوله صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث: **(ولا تزال هذه الأمة ظاهرة على الحق)**، هذا يدل على ما قسمه الله أولًا هو قسمة بين أهل الإسلام، ثم الثانية القسمة أهل الإسلام وغيرهم، ما هي القسمة؟ أن هذه الأمة ظاهرة.

والظهور كما يقول ابن حزم رحمه الله: الظهور ظهوران:

الظهور الأول: ظهورٌ علمي وهذا لا يمكن أن يقع فيه خلف، ظهور علمي، الآن ترون الإسلام محارب ومقاتل وملاحق أهله ومع ذلك لا تقع مناظرة بين أهل الاسلام وبين أعدائهم في العلم إلا وانتصر أهل الإسلام عليهم، فصغير أهل الإسلام يغلب كبارهم فالظهور العلمي هذا لا يمكن أن يتغير ولا يمكن أن يقع فيه خلف لا يمكن لأهل الباطل أن ينتصروا، وما من موقعةٍ علمية بين أهل الإيمان من المسلمين وبين غيرهم من أعداء الإسلام إلا وكانت الغلبة لأهل الإسلام، فهذا ظهورٌ لا يمكن أن يقع فيه التخلف.

وأما الظهور الثاني: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦)﴾ [آل عمران: ١٤٦]، هذا يقع، يقع أن تقع الهلكة والقوة كما وقع في أحد، لماذا؟ ابتلاء، ابتلاء ليتخذ منكم شهداء وتنظيفًا لما يقع منهم من معاصي أو من تغير أو من خلاف، فيقع هذا.

فالظهور العلمي هذا لا يتخلف أما الظهور الكوني القدري في الغلبة المادية فهذا يمكن أن يتخلف، فالله عز وجل هو المعطي جل في علاه، يعطي هذه الأمم ما لم يعطي أمةً أخرى، فلو رأينا تاريخ هذه الأمة حتى قبل الإسلام رأيناها أين عاشت هذه الأمة؟ أين عاش أصولها؟ في الصحراء، ماذا لديهم من الدنيا؟ أين كانت الدنيا؟ قبل الإسلام أين كانت؟ كانت فارس في الروم في الهند في الصين هم يعيشون في الدنيا، فالله اختار هذه الأمة على ضعفها، على جهلها، على أميتها، على عدم نظرتها إلى المال ونظرتها إلى الترف، أعظم الترف عندهم هو شيء يسير جدًا:

لبيت تخفق الأرواح فيه	أحبُ إليّ من قصر منيف
ولبس عباءة وتقرّ عيني	أحبُ إليّ من لبس الشفوف
كسيرة في كسر بيتي	أحبُ إليّ من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج	أحبُ إليّ من نقر الدفوف

بعدها طبعًا تغيرت النفوس وصار النظر للقصور.

فالقصد: هذه الأمة عزتها في الدين، وقوتها في دين، الله أعطاها هذا الأمر المناسب لهذه الأمة هو الإسلام، المناسب لهذه الأمة هو الدين، هكذا قدر الله لها، كما قدر الله لأهل الشام، الآن أهل الشام في التاريخ بلاد المحن وبلاد البلاء، هكذا مقدر لها، يعني أعطني قرنًا من الزمان خلت بلاد الشام من المحن والابتلاءات، منذ أن دخلها الإسلام وهي في حروب بين أهل الإسلام وبين أعدائهم ما في أبدًا، يأتي الصليبيون يأتي التتار يأتي الآن اليهود وهكذا.

فالله يقدر المقادير لكل أمة ما هي عليه، هذه يقدر لها شيء وهذه يقدر لها شيء، يعطيها هذا ويمنع منها، ويعطي كذلك الأراضي، الأراضي لها قدر، لها سنة جارية، لماذا بورك فيها؟ ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وهذه الأرض عي بلاد الشام، فأي بركةٍ فيها؟ أي بركةٍ أعظم من الشهادة؟ أي بركةٍ أعظم من الجهاد؟ أي بركةٍ فيها دلائل نصرة الله لأوليائه على ضعفهم؟ يعني أنت انظر إليها، تاريخها يثبت أنها مباركة، فيها شهداء، فيها علماء، الأولياء من كل أنحاء الأرض يأتون إليها، الأولياء الصالحون يأتون وينفرون إليها، إما لمقام الرباط فيها وإما لمقام البركة فيها.

ولذلك الله جعلها بابًا من أبواب الشهادة، وأوجدها على معنى من معاني الصراع، اليهود يقولون هذه لنا، النصارى يقولون هذه لنا، المسلمون يقولون هذه لنا، في قيمٍ لا يمكن أن تحل سلميًا ولا بالمصالحة ولا بالمفاوضة، لا تنحل، «ما بتنحلش» هذه لي وهذه لي وهكذا، لا يمكن، وكل محاولات السلم فيما يقع عليه السلم بائت بالفشل، انظر إلى جنوب افريقيا حلوها، يعني جاء البيض فأخذوا جنوب افريقيا واستولوا عليها في النهاية حلوها، وهذه البلاد لا يمكن. فالله أقامها على معنى الصراع الذي يدوم ولا ينتهي، ولا يمكن أن تحل بهذا لا يمكن، ولذلك لما يأتي واحد يقول لك حلوها، لم يحلوها، يضحكوا ويكذبوا وأتينا من أجل صفقة القرن.

فالله عز وجل هو الذي يوقد هذه الحروب من أجل بيان قوته وقدرته واصطفائه لهذه الأرض، اصطفائه للأولياء، اصطفائه للشهداء، اصطفائه لكرامة هذه الأرض وبركتها، الله هو الذي يعطي، فالله هو المعطي، قسم للناس مقاماتهم في العلم وقسم لهذه الأمة مقامها من الظهور الذي لا يمكن أن ينتهي، وهذا يؤدي إلى الحسد، الأمم تحسدها، **(ما حسَدَتْكم اليهودُ على شيءٍ ما حسَدَتْكم على السَّلامِ والتَّأمينِ)**، اليهود يحسدون العالم يحسدونهم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا القول الذي اشتهر عن أبي حنيفة رحمه الله: «لا يحل لأحدٍ أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه» وفي رواية: «حرامٌ على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي»، هل هذا الكلام على إطلاقه أم يُقيد؟

الشيخ: الناس في أخذ كلام أهل العلم مراتب؛ فكما أن الناس مراتب مع الكتاب والسنة فكذلك هم مراتب مع كلام أهل العلم، وهذه المراتب ليست بإرادتهم، وإنما هي بحسب أحوالهم؛ فالناس بحسب أحوالهم، فلو كنتَ تقول لرجل: هذا من كتاب الله، وانظر هذا الأمر فهو موجود في كتاب الله.

فهذا الرجل الذي يؤمر بالنظر في كتاب الله ليعلم الكتاب يجب أن يكون قادرًا على النظر في الآية أولًا. ثم ثانيًا: أن يكون قادرًا على معرفة مرتبة هذه الآية ودلالتها على الحكم؛ ونعرف أنه ابتداءً ربما يكون الحكم نصًا في كتاب الله؛ فلو أن رجلًا أراد أن يعرف حكم المرأة إذا طُلقت أي أحكام الطلاق، والعدة المترتبة عليها؛ فمن أين يأتي بها؟ جاءت نصًا: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فهذا يكفي في هذه الحالة.

ولكن الآن يأتي مراتب الناس في معرفة القرء، وما هو؟ فالناس يختلفون ويتفاوتون في هذا.

وما نقوله عن الأخذ من الكتاب والسنة نقوله عن كلام أهل العلم؛ فالناس مراتب، حتى ابن حزم الذي منع التقليد قال بالتقليد على صورةٍ من الصور.. وارجع إليه عندما يمنع عن التقليد؛ فماذا يفعل الفاعل هنا؟ قال: الجاهل الذي لا يعرف مدارك الأحكام ولا يعرف كيفية أخذ الأحكام ولا إذا خوطب بالحكم من نصه من الكتاب والسنة فهم عليه، لا يعرف.. فماذا يعمل حينها؟ هذا يأتي ليسألك عن حكم شرعي فتعطيه الآية؛ فبعض مراتب الكتاب والسنة لو خوطب بها العالم لا يعرف كيف أخذها الآخر، وهذه قصص مشهورة.

فلما تناظر أبو عبيد القاسم بن سلام، مع الإمام الشافعي، فتناظرا في بيوت أهل مكة.. أتكرى؟ أم تباع؟ أم لا يجوز كراها ولا بيعها؟ اختلف العلماء على أقوال في بيوت أهل مكة هل يجوز تأجيرها؟ وهل يجوز بيعها؟ فبعض أهل العلماء قال: يجوز بيعها لكن لا يجوز كراها؛ فيوجد خلاف، ولكنَّ الإمام الشافعي كان يرى جواز بيعها وكرائها أي تأجيرها؛ فتناظرا، فقال الشافعي لأبي عبيد: ألم تعلم قوله صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة: **(ما ترك لنا عقيل من رباع)**؟.. فالشافعيُّ احتج بهذا النص. فقال أبو عبيد: فوالله

ما دَريت ما يقول واستحييت أن أسألَه.. وأبو عبيد القاسم بن سلام هو الذي قال عنه الإمام أحمد: «إن الله يحب الحق، وأبو عبيد أعلم منا؛ نحتاج إليه ولا يحتاج إلينا» وذلك لأنه أعلم منهم باللغة، وأما الحديث فأحاديث الأحكام يعلمونها، وبلا شك أن الإمام أحمد عنده من الأحاديث والأسانيد أكثر من أبي عبيد؛ لكنَّ الأحاديث التي يحتاجها العابد ويحتاجها المجتهد موجودة عند أبي عبيد، فقال أحمد: نحن نحتاج إليه للغة، وهو لا يحتاج إلينا فيما عندنا من علم؛ لأنه من العلم الزائد.

ومع ذلك لم يفهم أبو عبيدٍ كلمة الإمام الشافعي، ثمَّ بعد ذلك شُرحت الكلمة من أهل العلم –وليس مني الشرح– بأن النبي صلى الله عليه وسلم نسب البيوت رباع، ونحن نقول الآن: رَبع، لأنه كان قديمًا لما بنيت مكة قسمت رباع لكل قبيلة؛ فكل قبيلة أخذوا رباع فسميت: الرباع، حتى إني وجدت الليبيين يقولون عن البيت: مربوعة؛ فالبيت هو الرباع.. هذا المقصود، فقوله: **(ترك لنا عقيل)** يعني أنه لما هاجر الصحابة وهاجر علّي وهاجر النبي؛ فهنا عقيل بن أبي طالب أخذ الأموال كلها وباعها؛ فنسب المال إليه، وقال: **(ما ترك لنا عقيل من رباع)** فأفاد على أنه نسب الأموال لعقيل؛ فدل على أن الرباع عنده يجوز بيعها ويجوز كريها لأنها له، هذا الذي أراده الشافعي رحمه الله.

فالقصد من هذا: أنَّ عالمًا من كبار أهل العلم والمجتهدين خطب بنص لم يفهم دلالته.. إذًا الناس مراتب.

ونرجع لكلمة ابن حزم وهو رجلٌ قد منع التقليد، طيب وماذا نفعل مع رجل لا يفهم الكتاب والسنة؛ كيف يستفتي؟ قال ابن حزن: «ليأتي إلى عالم يعلم أنه لا يفتي إلا بالكتاب والسنة».. طيب؛ هل يوجد أي عالم أصلًا فهل سيفتي من دار أبيه؟! فلو سألت أي عالم يفتي فيقول لك: أنا أفتي من الكتاب والسنة، سواء أصاب أو أخطأ، فقال: «تأتي إلى عالم يفتي بالكتاب والسنة فتسأله، فيجيبك، فتقول له: أمن كتابٍ وسنة افتيتني أم من رأي؟» قال: «فإن قال لك من كتاب الله وسنة رسول الله فامضِ به».. خلاص امشِ بقوله، وخلاص؛ اذهب إليه فهذا ليس تقليدًا!! ولكن الصواب أنَّ هذا عين التقليد؛ لكن ابن حزم جعل هذه الصورة فيها مخرج للمرء؛ لأنه يحرم التقليد على كل أحد.

فمراتب الناس مع كلام أهل العلم كهذه المراتب، ولذلك فمرات كثيرة بعض أهل العلم نهى أن يأتي العامي فيسأل العالم فيقول له: من أين أتيت بهذه؟ فهذا بعض أهل العلم نهى عنها؛ فهذا عامي لا يفهم ولو خوطب ما يدري، ولكن هذه إنما تكون للعالم، فانظر إلى الرواية الثانية؛ حيثُ قال: «يفتي» يعني

المفتي لا يجوز له أن يفتي إلا وهو يعلم الدليل.. وإنما أجاز بعض أهل العلم إفتاء من لا يعلم الدليل لأنه كثر الجهل؛ أي كما أنهم أسقطوا شرط الاجتهاد عن القاضي.

فالأصل بالإجماع: أنَّ القاضي يجب أن يكون مجتهدًا، والإجماع على أن المفتي يجب أن يكون مجتهدًا، لكن بعد ذلك تنازلوا.. لغلبة الجهل وقلة العلم، فمن أين نحضر قضاة مجتهدين؟! يعني إما أن نغلق باب القضاء، وإما نفتحه لأقل مرتبة من المجتهدين.

فلذلك الناس مراتب في هذه الكلمة.. هناك عالِمٌ يخاطب علماء آخرين؛ فتجده يخاطب محمد الحسن الشيباني ويخاطب أبا يوسف ويخاطب زفر بن الهذيل؛ فيقول لهم: «لا تفتوا بقولي حتى تعلموا من أين أتيت به».. لكن هذا لا يقال للعامي؛ لأن من مدارك ما يفتي به أبو حنيفة، بعض المدارك الخفية جدًا التي لا تظهر للعامي؛ فربما تظهر للعالم، ولكنها تخفى عليه.

ومن هنا يقول الآمدي في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام»: «ليس العلم في كلام أهل العلم نقل مقالاتهم»، هذا سهل.. بمعنى يعني ليس العلم العميق والكبير، ماذا يقول الشافعي في هذه المسألة؟ فتجيب، وماذا يقول أحمد في هذه المسألة؟ تجيب، فقال إنه ليس هذا هو العلم الحقيقي، العلم وإنما «العلم الحقيقي: معرفة مدارك أقوالهم»، يعني من أين أتوا بهذه الأقوال؟ وما هو وجه ما قالوا؟ فمرات هذا الوجه هو الذي يبين لك قوة الاستدلال أو يبين لك ضعفه.

فالجواب على السؤال: أن هذه الكلمة ليست لكل أحد؛ بل بحسب مرتبته؛ ففرق بين من يفهم الخطاب فيخاطب به، وبين غيره.. فإذا كان وجه ما قاله الإمام أبو حنيفة أحد وجوه القياس فكيف يفهمه العامي؟ فالعامي لا يعرف القياس إذا قلت له: القياس يقول لك: ما هو القياس يعني نأتي «بمتر» أو نأتي «بكركر»، فلا يعرف.

فالقصد: أن كلام هؤلاء العلماء في فهم أدلته، إنما هي تقال لمن يفهم الأدلة، وأما العامي فمرتبته التقليد.. وأصلًا مرتبة التقليد هي التي لا تصح غيرها لهم؛ فإذا كان معرفته بالكتاب والسنة غير موجودة، فكيف يعرف كلام أهل العلم؟! فأنا أتكلم عن مدارك العلماء وأن العلماء يجب أن تعرف مدارك أقوالهم من أجل أن تقبل أو ترد.

فمرات عدم معرفة السامع لكلام أهل العلم من اين آتوا به تحصل به التهمة والاستهزاء، وهذا منتشر بين من يقال لهم بالسلفيين على نوع ما -وليس كل السلفيين- فتجدهم مثلا يستهزئون بكلام أهل العلم لأنهم لا يعرفون وجهه.

وأعطيك مثال منتشرًا أنا أحب أن أمثل به لأنه منتشر وأعتبره ضعفًا في الفقه؛ فالأئمة الأربعة اتفقوا على أن المسافر إذا جلس في مكان أربعة أيام فما فوق: اختلفوا في المدة فالأربعة أيام تحسب، ثم اختلفوا في بعض الفروع؛ فهل اليوم الداخل محسوب وهل الصلاة الداخلة محسوبة.. لكن على الجملة تعتبر الأربع أيام مجتمعين عليها؛ فإذا نوى أن يقيم في مكان خرج عن حد السفر وصار مقيمًا.. هذا كلام الأئمة الأربعة، والذهبي كذلك، وابن رجب عليه رحمة الله –وابن رجب هو ابن رجب وهو عندي في الفقه أقوى من ابن القيم، وفي الحديث أقوى من ابن القيم.. وإن كان ابن القيم له أبواب أكبر من ابن رجب، وأما في الفقه والحديث فوالله إني أشهد أن ابن رجب أعظم من ابن القيم في هذين العلمين–.. يقولان: لا يجوز مخالفة الأئمة الأربعة –ثم ينبه هنا لئلا يساء فهم الكلام– ولا أقول إجماعًا. وأنا أقول: يكاد المرء أن يقول هذه الكلمة؛ فليس بالسهولة أن تخالف الأئمة الأربعة؛ لأن مذاهب هؤلاء الأئمة حوت أقوال الكثيرين، لا أقول كل الأقوال، وقد نقحت.. إلخ، لكن اليوم الأئمة الأربعة يخالَفون بما هو أعظم من ذلك؛ فصار الإجماع ينقض من قبل بعضهم، فقال الإمام أحمد كما روى عنه الأثرم وهذا في المغني، قال: من أين أتوا بالأربعة أيام؟ قال: أتوا بكلام ابن عباس رضي الله عنه، فابن عباس رضي الله عنه هو الذي أفتى بأربع أيام، قال –كما هو معنى كلامه–: وهذا مدرك لا يعرفه كل أحد.

واليوم –ابن القيم على الراس والعين والذين تابعوه ومن قلدوه على رأسه العين– لكن هم يستهزؤون ويتهمون من يقول بالأربع أيام؛ لعدم فهمهم من أين أتت، وأغلب أقوالهم أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم مكث في مكة أربعة أيام قبل أن يصعد في حجته لما نزل في مكة قبل أن يصعد إلى عرفات، والإمام أحمد ذكر أن ذلك عشرين صلاة، وبعضهم قال: أربع أيام.. إلخ.

فقال ابن القيم مجيبًا: ما الذي أدراكم؟! والحقيقة أن ابن القيم لم يفهم ما قاله الإمام أحمد، فقال: ما أدراكم لو أنه مكث خمسة أيام أنه لن يجمع؟! وهذا لضعفهم في معرفة من أين أتى هذا؟

وللأسف اليوم يستهزئون؛ وأعطيكم مثالًا –وليس هذا تأكيدًا لقول دون قول ولكن يجب عليك أن تعرف من أين أتى وكيف اجتهد من أجل أن ترده أو تقبله؟–؛ فموضوع الطلاق الثلاثي في كلمة واحدةٍ: طلقتك ثلاثًا؛ الآن من يتكلم عنه –وبلا شك هناك من أهل العلم من يتكلم هذا، ولا أتكلم بأن الأرض قد صوحت وانتهوا؛ أعوذ بالله، لا أقول هذا– لو تسمع كيف يتكلمون في الأحاديث لظننت أنه قد انتهى الموضوع. قال ابن عباس: كان الطلاق كذا! ثم ينتهي عندهم الموضوع.. كأنَّ البقية مثل الإمام الشافعي لم يسمع بالحديث وكأن الإمام أحمد لم يسمع بالحديث، فلنرجع إليهم ولننظر ماذا يقولون في

الحديث، فهم تكلموا في الحديث، وأسهل شيء على الجهلة في هذا العصر زعمهم أن الأئمة لم يطلعوا على هذه الأحاديث.. هذه الحقيقة تشد شعرك بسببها.

في زمن المتأخرين؛ أقصد الشافعي وأحمد ومالك: هذه الأحاديث صارت منتشرة، في أوقات متقدمة خاصةً قد يأتي من لا يعرف الحديث فقد يخفى الحديث -وأنا أتكلم عن المتن هنا ولا أتكلم عن الحديث بمعنى السند-، وأما أن تأتي إلى أوقات المتأخرين وتقول: لا يعرفوا الأحاديث.. فهذا غير صحيح؛ لأنهم جمعوها حتى نخلوها نخلًا، فارجع فقط لكلامهم، وأنا لا أطلب منك أن تأخذ قول ابن تيمية، ولا قول ابن حزم ولا قول الأئمة الأربعة؛ مطلوب منك أنت فقط أن تقرأ للأئمة ماذا قالوا، أقل شيء ينتهي عندك الاستهزاء لما ترد على المخالف، فتعرف أنه ثمة كلام متين، وتضطرب لأنك لا تقدر أن ترد عليه.

فمعرفة مدارك أهل العلم توسع الأفق، ومن هنا نشأت هذه الكلمة الكبيرة العظيمة الجليلة: «من كثر علمه قل اعتراضه».. فكثير الاعتراض هو الذي كلما ذكرتَ كلمةً قال: من أين أتيت بها؟ لا، هذه غير صحيحة، من أين هذا الكلام؟ ونحن كل يوم نقرأ الكتب وليست هذه الكلمة موجودة.. فمن قل علمه كثر اعتراضه، فمن لم يطلع على مذاهب الأئمة ولا اطلع على اجتهاداتهم ولا على كتبهم؛ فلا يدري، فيعيش وهم السماع من شيخ واحد أو من كتاب واحد أو من نظرة واحدة ويبطل كلام الآخرين.

فالقصد من هذا: أن ما قاله الإمام أبو حنيفة رحمه الله هنا ليس هو قوله فقط، ولكنه قول كل الأئمة؛ أن الذي يريد أن يفتي بأقوالهم يجب عليه ان يعرف من أين أتوا بها، ليعرف أأصابوا فيها أم أخطأوا؟ ومن أين أتيت بها؟ وهذا باب واسع وأنا أهتم به كثيرًا.

وقد ذكر الإمام البيهقي عن الإمام الشافعي نحو هذا؛ فأنا لما كنت أقرأ كتاب الأم كنت أتعجب أنه يذكر أقوالًا ليست هي في المذهب من الأصول ليست هي من أصوله، ومن ذلك الاحتجاج بالتابعين، فتجده مثلًا في المناسك عند البيهقي يحتج كثيرًا بعطاء، وعطاء إمام أهل المنسك، وهو فقيه مكة؛ فالمناسك كلها عنده يعني الذي يريد أن يأخذ عنده من المناسك، كمن يأخذ بكلام زايد في الفرائض.. إلخ.

ويختلف المذهب في الصحابي؛ فهل قول الصحابي حجة في مذهب الشافعي أم لا؟ ثمة خلاف، مع اتفاقهم أن مذهبه القديم يقول بقول الصحابي، ثم اختلفوا في المذهب الجديد والصواب أن مذهب الشافعي يحتج بقول الصحابي، ولكن يوجد خلاف في المسألة.. فإذا اختلف في الصحابي؛ فكيف يحتج بالتابعي؟ والله ما فهمت هذا وبقيت على حيرة حتى قرأت للإمام مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح؛ كيف فسر

منهج الإمام الشافعي في فقهه؟ وكيفية كتابته للفقه؟ فأنت بحاجة لهذا حتى تعرف كيف كتب هذا الكتاب، وكيف هو؟

وأنا أتعجب مرات؛ فثمة كلمات يظنها البعض على جهة المبالغة، ولكنَّ الأصل نحن لم نفهمها، فلما يأتي البيهقي ويأتي عالم ويقول: كل سنةٍ لرسول الله موجودة في كتاب الشافعي.. ومن غير ذكر أسماء لبعض المعاصرين الذين كانوا يستهزئون بها؛ فكل السنن موجودة في كتاب الشافعي.. أين هذا؟! وذهب بعض أهل العلم عليهم رحمة الله ممن أحسنوا فجمع الأحاديث المرفوعة في «الأم»، وفي اختلاف الحديث فسماه مسند الشافعي -فمسند الشافعي ليس من جمع الشافعي، وإنما هو لبعض الشافعية حيثُ جمعوا الأحاديث المرفوعة المسندة في كتب الشافعي؛ فسماه مسند الشافعي-، فلما تذهب وتفتح المسند فلا تجد فيه كل السنن، بل لا تجد فيه السنن التي عند أبو داوود.. وليس كل السنن.. فكيف تكون كلمة البيهقي كلمة صحيحة؟! نقول: عندما تعرف منهج الإمام الشافعي في الاستدلال تعرف أن كلا البيهقي صحيح.

ففي هذا الباب نرجع لقضية الاجتهاد.. فعندما يقولون: «الشافعي له يدٌ على كل طالب علم - أي له فضل- إلا البيهقي؛ فله يدٌ على الشافعي» فهو صحيح.. فلما تقرأ كتاب السنن، قال: هذا السنن الكبرى للشافعي، وبقية الكتب له والسنن الصغرى والوسطى والسنن والآثار.. إلخ، هذه كلها خدمة لكتب الشافعي؛ فهو يريد أن يقول لك من أين أتى بهذه وهو لا يشترط أن يخبرك من أين أتى به؛ لأن له طرقًا أخرى، فهذا الكلام الذي ذكره البيهقي من أين أتى بها؟ أتى بها لعلمه أنها في نفس الشافعي لكن لا يحتج بها.. ولماذا لا يحتج بها؟ لأنَّ هذه العملية مثل عملية استخراج المعادن في الأرض؟ تضرب، تضرب وتميز هذه عن هذه، ثم بعدها تضعه في النار، وإذا هي عملية كبيرة جدًا من الاجتهاد، في قضية استخراج الفقه.. ولماذا أخذ بهذا دون غيره؟

ولو قدر أن أقرأ لكم كلمة الإمام مسلم في صياغة الشافعي لفقهه، فستعجب لأن هذا العملية غير موجودة اليوم، فالذي أريد أن أقوله: الاطلاع على مدارك أهل العلم ومن أين أخذوا توسع العقل وتعطي العذر للعلماء وتوقف هذا السعار في تخطئة العلماء.

وأنا يعجبني أنور الكشميري في كتابه «فيض الباري في شرح صحيح البخاري»، وهو الإمام الحنفي الشهير، قال -معنى كلامه في كتابه-: اسمعوا؛ أنا في اللغة أجزم جزمًا كبيرًا فأخطئ فلان وعلان وأجزم، وفي علم الكلام أجزم وأخطئ من أشاء.. حتى إذا جئت للفقه فلا أخطئ أحدًا ولا أقدر، والسبب هو

هذا أنني عندما أقرأ للفقهاء أجده صحيحًا، وهذه المرء يجده صحيحا.. فيقرأ هذا يقول والله كلامه صحيح يا رجل، في نفس الوقت يذهب إلى الثاني والله كلامه صحيح، ليس بهذه صورة من التخطئة والجزم.

فرحم الله عمر بن عبد العزيز قال: «الحمد لله أن الصحابة قد اختلفوا»، من أجل أن يتعلم الناس أن الصحابة قد اختلفوا؛ فأنت تتكلم عن إمام جمع الأحاديث ثم تغيرت أقواله، ونتكلم عن آخر إمام من الأئمة وهو الإمام أحمد تغيرت له أقوال، والشافعي قبله تغيرت له أقوال؛ هؤلاء هم الذين أحاطوا بالسنة النبوية التي هي الأحاديث التي هي عمد الفقه.

فموضوع الفقه هذا موضوع ليس بهذه السهولة والصبيانية التي يمارسها البعض، والله تعالى أعلم، أطلت عليكم في الجواب..

السائل: كثير استدلال بقول الشافعي: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»، ومارسها الكثير من العلماء.

الشيخ: هذا صحيح، وهذه الكلمة مارسها أئمة الشافعية، وهذه الكلمة حقيقة ورائعة وبلا شك هي من توفيق الله للشافعي، ولمن قالها من غيره؛ فانظر كيف طبقها الإمام النووي رحمه الله، فالإمام النووي لم يتم «المجموع في شرح المهذب» ولكنه فيه خالف الشافعي أكثر مما خالف ابن قدامة مذهب أحمد؛ فابن قدامة في المغني اختار له اختيارات، وخالف فيها بعض المشهور في مذهب أحمد، والإمام النووي في هذا المجموع الذي لم يتمه؛ خالف المشهور في مذهب الشافعي أكثر مما خالف ابن قدامة المشهور في مذهب أحمد، وكان كلما جاء للمخالفة جاء بهذه الكلمة: «إذا صح الحديث فهو مذهبي».. فإذا أتى لمثل قضية الوضوء من لحم الإبل، قال: على مذهب الشافعي كذا، لماذا؟ ثم يقول: وليته قال بكذا.. إلخ.

والإمام الغزالي -لأنه عماد المذهب الشافعي في كتاب الوجيز والوسيط والبسيط-، قال: ليت مذهب الشافعي في المياه كمذهب مالك، كمذهب مالك العلماء يطبقون هذه النصوص، وهذه للعلماء إذا صح الحديث.

وأنا أريد أن أسأل سؤال: واحد لا يعرف كيف يصحح الحديث، يعني عمد الناس اليوم يقول لك أحدهم: صححه الألباني؛ يعني أنت لم تصحح، طيب لو فرضنا أنه قال الالباني قولًا والسيوطي قولًا وقال أحمد قولًا ويحيى ابن معين قال قولًا، وفلان وفلان ضعفوه، وآخرون صححوه.. الخ، فأين أنت يا حضرة الشيخ؛ ماذا ستعمل؟! فإذا صح يلزم منه أنه بدك تروح تشوفه صحيح ولا مش صحيح!

والله مرة سمعت لشيخ -وكنت زمان على هذا؛ فسمعت كلمته مبتسمًا وفرحًا بها، ثم بعدها لما يكبر الشخص وينظر إليها يعني كأنه يغطي وجهه من العار، يعني حقيقة عار علمي بكل معنى الكلمة-.

وذلك أن الإمام أحمد لا يرى طهارة جلد الميتة بالدباغ؛ هذا مذهبه المشهور عنه، وذلك أخذًا لقوله صلى الله عليه وسلم: «إنها نجس» على الميتة، فخلاص، وبعض أهل العلم يرى جواز دباغتها ويرى أن **(أيُّما إهابٍ دُبغ فقد طهر)**.. المهم ليس هذا الموضوع؛ فهو خلاف بين أهل العلم كبير، فقال الشيخ: ناقشت حنبليًا -وهو من هؤلاء الجماعة الذين يقولوا «إذا صح الحديث هو مذهبي على طريقة صححه الألباني»، حتى هذه صححه الألباني، وعلى طريقة قال به الألباني، وليس المقصود به الشيخ ناصر رحمه الله لكن هذا وقع الكثير من المعاصرين الذين يزعمون الاتباع-، فقال: ناقشت حنبليًا فقلت له في مذهبكم، أنتم تخالفون رسول الله صلى الله عليه وسلم!! هكذا صور المسألة.. فما دام أن أحمد لم يأخذ به فصار مخالفًا لرسول الله.

ولو نظرنا في المسألة فأحمد كان يقول به ثم تركه، نعم؛ أحمد كان يقول بحديث **(أيُّما إهابٍ دُبغَ فقد طَهُرَ)** ثم تركه.. فانظر إليه لماذا تركه؟ هو عنده لكن انظر لماذا تركه؟ انظر إليه وارجع إليه؛ هذا عالمٌ عظيم أصولي محدث فقيه ارجع إليه لا تقول له خالف قول رسول الله، هو يعلمه ولذلك جاؤوا إلى أضعف ما يتصور في الفقه هؤلاء وقالوا: بأننا الآن علمنا من الحديث ما لم يعلمه الأوائل، ولربما فاته ولم يعرفه.. ولكننا نقول: بل إن ذلك الإمام كان يعرفه وخالفه.

وهذا كله ظهر عندما نظر الإنسان وصار يطلع على كتب الأئمة وكتب الأصول.. فكيف يناقش هذه الأدلة؟ **فالقصد**: لستُ هنا أصوب كل ما قاله العلماء، ولكن عندما تخالف فالآخر عنده دليله، فاحترمه، أقل شيء احترمه وتعامل معه أنه وجه وربما تعود إليه غدًا، ربما تغيره.. وأنا لست نموذجًا جيدًا لطلب العلم؛ لكن صدقني يمكن كل أسبوع أو كل يومين أغير قولي في قضية وجوب غسل الجمعة، واجب أم مستحب؟! أم بين البين؟!، يعني واحد سألني أقول له: والله ما بعرف، والله لا أدري، إلى الآن يمكن الإنسان قرأ هذه المسألة قل آلاف المرات ولكن والله لا أدري، وهي مسألة يحتاجها المرء كل أسبوع، يغتسل ولا ما يغتسل؟ واجب ولا سنة؟ لأن الأدلة مرات تكون يعني عند الناظر إليها شبه متكافئة أو أن تقوى في يوم وتضعف في يوم آخر.

فالقصد: من أن هذه الكلمات حقيقية ولكن تعطى لأصحابها، كما نقول للناس عليكم بالكتاب والسنة، ولكن عليك أن تعلمه كيف يأخذ من الكتاب والسنة، عليك أن تعلمه، ولا يصير أن ترميه في البحر وتقول له: اسبح، وهو مسكين عمره ما رأى الماء.. لا يصير هذا الكلام.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس السابع والأربعون: البصير

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا، تعبدنا به ذكرًا وتعبدنا به علمًا وتعبدنا به حالًا ألا وهو اسمه سبحانه وتعالى البصير، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾ [الإسراء: ١]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى: ١١]، وهذا الاسم الجليل لربنا سبحانه وتعالى، ورد في القرآن أكثر من أربعين مرة، اثنتين وأربعين مرة تقريبًا، ورد كقوله سبحانه تعالى: ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧)﴾ [الشورى: ٢٧].

وهذا الاسم لربنا سبحانه وتعالى يعني أنه يدرك المبصرات ويدرك الأشياء ويراها سبحانه وتعالى والله عز وجل له عينان كما في الحديث **(إن ربكم ليس بأعور)**، لما قال صلى الله عليه وسلم عن الدجال أنه أعور لأن الدجال يدعي الألوهية، فأراد منا النبي صلى الله عليه وسلم أن نميز بين ربنا سبحانه وتعالى الذي هو له ذكر وحضور في القلوب وبين هذا الدجال، فقال صلى الله عليه وسلم: **(إن الدجال أعور وإن ربكم ليس بأعور)**، وأهل السنة اثبتوا هاتين الصفتين لله عز وجل العينين وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] أي برعايتنا، وهذا ليس من التأويل المبطل لحقيقة الصفة، العلماء يرون أنه لا يطلق هذا إلا من استحق الصفة في حقيقتها، ثم يطلق عليه مقتضى الصفة، كقولهم: «تلقاها عرابة باليمين» يعني بالقوة.

ولكن لما كان الإنسان الكامل من صفاته أن يكون له يد حقيقية، فأطلق عليه مقتضى الصفة، ما مقتضى صفة اليد؟ القوة، ولولا وجود الاستحقاق لهذه الصفة كمالًا في الموصوف لما أطلق هذا المقتضى عليه، فالله عز وجل له عينان سبحانه وتعالى يبصر بهما جل في علاه، ولا شك أن أهل السنة في إثباتهم لهذه الصفات الذاتية لله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، لا تشبه هذه الصفات صفات المخلوقين، لا تشبهها، والله سبحانه وتعالى أجل وأعظم من أن يشبهه خلقه، هو سبحانه وتعالى فوق الخلق.

والله سبحانه وتعالى يُرى يوم القيامة، يرى سبحانه وتعالى، ولذلك كان الإمام أحمد يقول في تعليمه لتلاميذه في مُحاجة أهل البدع، يقول حاجهم في الرؤيا، لأن الرؤيا لا تقع إلا على حقيقة، ومجرد وجود الله سبحانه وتعالى في أذهان الناس دون إثبات الحقيقة لله على حقيقةٍ تثبت هذه الصفات لله سبحانه وتعالى، وتجعل هذه الصفات لا تشبه صفات المخلوقين، وعلى صفة من الكمال والجمال والنور، فلا يعني هذا تجسيمًا لربنا سبحانه وتعالى أو تجسيدًا لربنا سبحانه وتعالى يشبه تجسيد وتجسيم ما عليه الخلق مما نرى ونعلم.

لكن المقصود هنا هو أن نثبت لربنا سبحانه وتعالى هذه الصفة الجليلة التي تدل على أن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء، يبصر كل شيء يرى كل شيء، وصفة البصر هي إدراك المبصرات التي تبصر ولكن هنا البصر كذلك تطلق على معنى آخر، ليس فقط أنه مبصر، لأن في اللغة إنما بديع من المبدع أخذت مبدع فحولت إلى بديع، وكذلك السميع من المسمَع أو المسمِع وحولت إلى سميع، وكذلك عذابٌ مؤلم تحول إلى أليم، وهنا كذلك الله معنى البصير أنه مُبصر، وهي صيغة مبالغة أنه سبحانه وتعالى بصير، وبصره سبحانه وتعالى شامل لجميع خلقه لا يغيب عنه شيء، فالله عز وجل مطلعٌ في آنٍ واحد، وفي حالةٍ واحدة على كل ما خلق لا يغيب عنه دقيق الأشياء.

حتى أهل العلم يقولون في كتبهم «يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء»، ويرى عروق النملة الصغيرة العروق كيف تجري فيها المياه، كيف تجري فيها الأشياء، يراها سبحانه وتعالى ويبصرها ومهما اختفى المرء فالله عز وجل مبصر له ولا يغب عنه شيء، لا يستر شيءٌ نفسه عن الله عز وجل، وكما يرى دقائق الأشياء وهي بعيدةٌ عنه كذلك يبصر سبحانه وتعالى في آنٍ واحد يبصر كذلك عظائم الأمور، فهو مبصرٌ لعرشه ومبصرٌ لملائكته ومبصرٌ للسماء ومبصر للكرسي، كل شيء يراه سبحانه وتعالى لا يشغله في إبصاره لشيء عن شيء، وهذا خلاف ما عليه الخلق.

فالخلق في هذه الدنيا إذا اشتغلوا بالبصر عن شيء شُغلوا، إذا اشتغلوا شُغلوا، إذا اشتغلوا بالنظر إلى شيء شُغلوا عن النظر إلى غيره، لأن بصرهم محدود، وبصرهم قاصر وبصرهم كذلك يمكن أن يحجب، أنت الآن ترى الذي أمامك ليس بينك وبينه حجاب، فإذا وجد الحجاب سور وجدت أشياء لا تراها، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣)﴾ [سبأ: ٥٣]، يعني الغيب هو بعيد عنك فلا تراه، لا تبصره وكذلك إذا ابتعدت الأشياء عنك بصرك محدود في المدى، بصر الإنسان مهما حد وبصر المخلوق مهما كان حادًا، فأنه ينتهي إلى غاية، وأما بصر الله عز وجل فلا انتهاء له، وهو مطلق ولا يشغله بصر عن بصر، ولا يشغله الصغير عن الكبير، ولا الكبير عن الصغير، ولا يحد بصره شيء

سبحانه وتعالى يبصر الأشياء وما ورائها ولا يخفى عليه شيء، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥)﴾ [هود: ٥]، ابن عباس أجرها على ظاهرها يعني هذه على ظاهرها لما الإنسان يغطى في الثياب عند النوم يغطى بالثوب فالله يعلم ما هم عليه من تحت الثياب.

فالله عز وجل يبصر الأشياء سبحانه وتعالى، وهذا مقتضى ربوبيته وهو مقتضى كماله، فمن الذي يمدح المبصر أم الأعمى؟ البصر ضد الأعمى، الأعمى هو عدم الأبصار، فإذا كانت صفة البصر ممدوحة في حق البشر والخلق فهي في حق ربنا أولى، ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)﴾ [البلد: ٨-١٠]، فالله يجعل له عينين، فالله مدح الإنسان أن فيه البصر ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤]، يعني الله عز وجل شبه غير المهتدين بأنهم عميان لا يبصرون، عندهم ألة الأبصار أي القلبية لكن لا يرون النور محجوبين في الدنيا عن الخير والهدى، فشبه هؤلاء بمن ليس لهم بصر أي لا يبصرون، الحقائق أمامهم تعرض، العلوم أمامهم لها أدلتها الكبيرة التي لا تخطئها العقول المهتدية ومع ذلك هم يعرضون عنها.

فإذا كانت صفة البصر ممدوحة في حق الخلق، فهي في حق الله عز وجل أولى، وهذا هو قياس الأولى الذي اتفق العقلاء على العمل به في حق الله سبحانه وتعالى أن كل ما هو ممدوح في حق الخلق من الصفات فهو في حق ربنا أعلى إلا ما كان مدحًا على جهة العبودية، الإنسان يمدح في عبوديته وهذه خاصة بالإنسان لأنها لازمةٌ لفقره، والله عز وجل لا يوصف بها الإنسان يمدح بأنه يسجد لله، هذه لا يجوز أن نجعلها لله سبحانه وتعالى لأنها خاصة بالعبودية خاصة بالفقر خاصة بالحاجة، الإنسان يدعو ويستغيث ربه ويسأله وهذه ليست في حق الله عز وجل لكن ما كان في صفات الذات كالقوة كالبصر كالسمع كالحلم كالحياء فهذه في حق الله عز وجل أولى.

والبصر هو كما قلنا إنها إدراك المبصرات أي ما يمكن أن يرى، فكذلك تطلق على البصر العلمي، ما معناه؟ معناه يقال لرجل بصير بكذا، أي بمعنى خبيرٌ به، عالمٌ بخباياه وخفاياه، وكيف يجري وكيف يعمل، وما هو عليه من الخفاء، كما يقال في العلم هذا بصيرٌ بالفن الفلاني، بصيرٌ بالفقه، وبصيرٌ بعلم الفيزياء، بصيرٌ بعلم الأفلاك، والمقصود بذلك أنه خبيرٌ بها، فالله سبحانه وتعالى بصيرٌ بالأشياء بمعنى أنه سبحانه وتعالى يعطي الهداية لمن يستحقها ويصلح القلوب بما يصلحها، الله عز وجل لولا بصره بالأمور لما شرع لهم الشرائع الملائمة لصلاحهم، وهذا بصر أنه سبحانه وتعالى لإبصاره ما عليه الخلق، قدر لهم من الهداية

الكونية والهداية الشرعية ما تلائمهم، لولا أنه يعلم ما القلوب لما أعطى هذه الهداية ومنع هذه الهداية، لماذا؟ لأنه يعلم القلوب سبحانه وتعالى يعلمها على ما هي عليه.

ويعلم كذلك ما سيكون سبحانه وتعالى، ولذلك قدر من الحِكم التي تلائم البشر في صلاحهم، فشرع لهم الشرائع التي تصلح أحوالهم، وقدر من مقادير الهداية ما عليه البشر وما عليه الناس، الله عز وجل بصير بما يصلح الناس ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، هذا من بصره سبحانه وتعالى وعلمه بالأشياء.

فالبصر بمعنى إدراك وأنه مبصر للأشياء ولكل ما خلق سبحانه وتعالى، ولا يعزب عنه شيء، وأنه سبحانه وتعالى خبيرٌ عالمٌ بالأشياء وخفاياها الخفية وما هي عليه من المعاني، والعلماء تكلموا في قضية البصر على قضية إدراك أنه مُبصر –بالمعنى الثاني– مُبصر بما لا يبصر من المعاني، وذلك كلذات الآن الله يعلم أن هذه اللذة، هل اللذة ترى هل يراها الخلق؟ الله عز وجل عالمٌ بها خبيرٌ بها بصيرٌ بها اللذة في داخل الإنسان، الألم في داخل الإنسان، الفرح في داخل الإنسان، فهذه المشاعر التي في الإنسان شهوة القتل عند الحيوان والدابة، شهوة الغضب عند الإنسان إذا غضب، الله عز وجل يبصرها ويعلمها، إذا غضب الإنسان إذا فرح الله عز وجل مطلع عليها لا يخفى عليه شيء سبحانه وتعالى.

ويعلم النوايا في داخل الإنسان هل هي على جهة العلم بها أو جهة البصر بها أنها تبصر، والأولى أنها تبصر، لكن نحن لا ندريها، لا نعرفها لا نعرف كيفيتها ليس عندنا الأدوات في معرفتها إلا بمعرفة آثارها، كيف ندرك الغضب؟ بآثاره، ما هو الغضب نفسه؟ لا ندري الله أعلم به، الناس في كل زمان يختلفون في تحديده، الآن الناس يقولون غضب إنما ينتج هكذا يقولون، والعلماء يردون عليهم، يقولون الغضب ينتج بسبب مادة تكون في البدن، مادة تفرز فيكون غضب، كذبوا هذا غير صحيح.

إنما الصحيح أنه إذا غضب أفرزت هذه المادة، فرق بين أنها تُنشئ وبين أنها ترافق أو تكون بعد، وإلا الغضب منشأه المشاعر، المشاعر تُنشئ الغضب فيترافق مع الغضب أشياء من رحمة الله، وربما تكون هذه الأشياء تعطى من أجل تسكين الغضب يعني مادة الإندورفين «Endorphin» التي تكون في العقل تفرز عند الغضب، وتفرز كذلك عند الفرح الشديد هذه من رحمة الله هي مادة مخدرة بسيطة تنشئها إحدى غدد الدماغ من أجل تسكين الدماغ لأنه إذا اضطرب الإنسان غضبًا اضطرب الدماغ خلايا الدماغ وصفائحه تضطرب وربما تنزلق فيموت الإنسان، وهذا هو سبب موت الإنسان بسبب الغضب بسبب الفرح الشديد والغضب الشديد، فهذه المادة الناس يقولون: هي سبب الغضب، وهذا غير صحيح،

إنما هي رحمة من أجل أن تفرز من أجل أن تسكن الغضب لئلا يصل إلى مرحلة يعني حرجة فيموت الإنسان.

والقصد: أن الله يبصر ذلك، وعلم المرء بأن الله يبصره ينشأ لديه الحياء، الله عز وجل هذا الذي خلقك، الذي أحسن إليك هذا الذي أعطاك هذا الذي أكرمك، كيف تعصيه؟ ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، لما أبصر لما تذكر فإذا هم ماذا قال الله عز وجل؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١)﴾ [الأعراف: ٢٠١]، يرون نعم الله عليهم، يرون الله وهو يراقبهم، يرون الله سبحانه وتعالى وهو يعظهم وهو يمنعهم وهو يكرمهم، فتنشأ لديهم الحياء من الله عز وجل وينشأ لديهم الخوف من الله عز وجل.

فالمرء عندما يدخل الستر من أجل أن يعصي، يغلق الأبواب ينزل ستائر البيت، من الذي يمنعه من المعصية؟ الله إذا ذكر كما قالت: **(يا عبدَ اللهِ اتقِّ اللهَ ولا تفتحِ الخاتَمَ إلا بحقِّه)**، فخاف أتقى الله، تراجع، ظهر الله عز وجل في قلبه وهذا لا يكون إلا فيمن عظم الله، ولذلك مريم عليها السلام ماذا قالت؟ ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨)﴾ [مريم: ١٨]، هذه استعاذة وإن كانت استعاذة كونية لكن لا يستجيب لها الفاعل إلا والله في قلبه وهو تقي ولذلك قالت: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾، لما قالت المرأة للنبي صلى الله عليه وسلم أعوذ بالله منك ماذا قال؟ عُذتِ بعظيم الحقي بأهلك، لأنه تقي.

ومن هنا قال النبي صلى الله عليه وسلم **(من صلى الصبح في جماعة كان في ذمة الله)**، ما معنى في ذمة الله؟ لا يعني أنه لا يقع عليه الألم قدرًا ربما يظلمه ظالم، فيتجاوز حق الله، كما يقول الملك: لي حمى فإياك أن تخفر حماي، إياك أن تنتهك هذه الحمى، لكن هل تُنتهك؟ ممكن أن ينتهكها منتهك، يمكن قدرًا أن يقع الانتهاك، ماذا تكون النتيجة؟ عقاب الملك لمن انتهك، وهكذا من صلى الصبح في جماعة يمكن أن يُظلم؟ ممكن، ولكن يقول: إياك أن تخفر ذمة الله، هذا صلى الصبح في جماعة، لأنك إن أذيته أذيت عهد الله الذي قاله فيه، **(من صلى الصبح في جماعة كان ذمة الله)**، خلاص أنت في ذمة الله، فمن أذاك فإنما يؤذي ربنا سبحانه وتعالى، فمن الذي ينتصر؟ الله فإياك الله يحذرك أن تؤذي من يصلي الصبح في جماعة.

وهكذا قالت مريم عليها السلام ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨)﴾ [مريم: ١٨]، لأنه إذا لم يكن تقيًا، يقول: لا أخاف، لا يهم، لو أن رجلًا فاجرًا أراد كما يفعل الطغاة، فيقول له: يا رجل أنا في ذمة الله، ماذا يقول له الطاغي؟ ربما يسب ربنا سبحانه وتعالى، يقول: يعني لا يهمه، لماذا؟ لأن الله عز

وجل في قلبه ليس عظيمًا، ومن هنا ينتصر الله له، لهذا الضعيف المستضعف إذا أستغاث بالله، فالله ينتصر ويهلك هذا الظالم، لأن هذا خفر ذمة الله.

فلذلك إذا قال العبد في الصباح: **(بسم الله توكلت على الله)** كان في ذمة الله، **(أعوذ بكلمات الله التامات)** ماذا قال أهل العلم؟ قالوا: «هذه كلمات الله الكونية»، أعوذ بكلماته بمعنى أصرف عني يا رب، أعوذ بكلماتك الكونية وليس الشرعية، الشرعية لا تحجب، الشرعية متعلقة بالأمر والنهي أما الكونية متعلقة بالمنع والوقوع وعدمه، المنع والوقوع، فيقول العبد: **(أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)**، يعني يا رب عُذني بكلماتك الكونية أن يقع علّي ظلم، أن يقع علّي بلاء، أن يقع علّي ما يؤذيني.

فالقصد من هذا: أن العبد إذا أدرك أن الله عز وجل وتيقن أن الله يبصره في كل حال استحيا منه، فلا يخفر ذمة الله، ولا يعصي الله سبحانه وتعالى، بل يكون الله سبحانه وتعالى حاضرًا في قلبه وهذا هو الإحسان، والإحسان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّه يَرَاكَ)**، هو لا شك أنك تراه، لا يمكن أن يقع الفضل إلا بمرتبة أعظم وهو أنه يراك، لثقتك أنه يراك فأنت تراه، تأمل أن أحدًا يراك وأنت متيقن أنه يراك، لكن لا تراه، هذا ضعف، فأنت متيقن أنه يراك، فإذا كنت مبصرًا له كان المقام الأعلى.

وقال بعض أهل العلم: «الإحسان هو الجمع بين الإيمان والإسلام»، لذلك قال صلى الله عليه وسلم في حديث: **(أن تعبد الله)**، ما هي العبادة؟ هو الإسلام، وكأنك تراه هذا هو الإيمان، هو علو درجة الإيمان لأنك أنت تؤمن أن الله عز وجل يرى، فالإحسان هو اجتماع الإيمان مع الإسلام، فصارت مرتبة جديدة أعلى من الإسلام وأعلى من الإيمان، إذا اجتمع أن تعبد الله كأنك تراه، هذا أن تعبد الله هو الإسلام، كأنك تراه هذا الإيمان، هذا يقين وهو مرتبة من مراتب الإيمان، فلما اجتمع الإسلام والإيمان كانت مرتبة أجل وأعظم وهي الإحسان.

فلذلك الثقة العبد ويقين العبد على أن الله يراه يصنع هذه المرتبة فلا يعصيه، ويتذكر إذا جاءت الطاعة أن الله يراه، ماذا تفعل أن الله يراه، ثم ثانيًا يحسن وينظف قلبه، لأنه يستطيع أن يمنع الناس من رؤية ما في قلبه عن طريق النفاق الظاهر، يعني يستطيع أن يظهر وجهه على وجهٍ من الصفة التي تخدع الناس يبتسم لهم، يحسن كلامه، يظهر الخشوع وقلبه صلب، لكن إذا علم أن الله يرى ما في قلبه، هذه المعاني التي تحدثنا عنها يرى خوفه منه يرى حبه له، يرى طاعته، إما أن يرى غير ذلك منه فإذا علم أن الله يرى ما في قلبه نظف قلبه من الشوائب.

والله عز وجل يجري في قلوب الخلق ما في القلوب من حقائق، ولذلك القاعدة البشرية الناس يقولونها على جهة الحكمة وإدراك ما في الوجود، إدراك السنن، قال: «تستطيع أن تخدع بعض الناس بعض الوقت، لكن لا تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت»، في النهاية سيكشف، ومن ذلك **(أن الله عز وجل ينادي جبريل إني أحب فلان فأحبه، أو ينادي إني أبغض فلان فيبغضه، ثم ينادى في السماء أن الله يحب فلان فأحبوه، ثم يوضع له القبول في الأرض)**،

والقصد من هذا: أن العبد لا يمكن إذا أدرك هذا اليقين على هذه الصفة الربانية لا يمكن إلا أن يتعامل معها بالإحسان، أن يرى أن الله يراه، فالإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، إذا لم تكن هذه الصفة، كيف ترى الله؟ قالها ابن عمر رضي الله عنه وهو يطوف في الحج فجاء أحد أبناء من الزبير يطلب بنته للزواج قال: «أحدكم يأتينا لشهوته ونحن ننظر إلى الله في هذا المقام»، انظر يعني هنا مقام التجليات وعالم المثال وهو يرى الله عز وجل.

(أن تعبد الله كأنك تراه)، تتأمل يعني من هو هذا الله العظيم الجليل، هذا الخوف من الله، يعلم أن الله يقول للشيء كن فيكون، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾ [الزمر: ٦٧]، قال الله عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] إذا أنت تنظر إلى ممالك الدنيا فتهاب، الآن لو تسمع هذه دولة عندها صاروخ يدمر نصف الكرة الأرضية، الله يرسل الرياح التي هي سبب الحياة فتدمر الأرض، يرسل المياه يعذب بما هو نعمة، الحياة تقوم على الماء، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، لكن المياه إذا ثارت إذا الله عز وجل أقامها، أغرق قوم فرعون بالماء فكيف إذا أخرج لهم النار؟

فالله يهد السماوات ويهد الأراضين يوم القيامة كل هذا الكون ينهد يزول، يذهبه فمن هو هذا الإله العظيم؟ هذا الإله العظيم الكبير المتعالي والذي يحب خلقه وهو الذي خلقهم، ويعطيهم ولا يحتاج إليهم وطلب منهم شيئًا واحدًا، كما يقول لهم يوم القيامة [1]: يأتي بالمشرك فيقول المشرك: ارجعني إلى الدنيا لأحضر لك الدنيا وما فيها، يقول: طلبت منك أهون من ذلك، لا طلب منك تجيب الذهب ولا تجيب الفضة ولا تضرب الجبال وتستخرج منها الكنوز، قال: **(طلبت منك أهون من ذلك أن تعبدني ولا تشرك بي شيئًا)**.

---

[1] قال صلى الله عليه وسلم: (يقالُ للرجلِ من أهلِ النارِ يومَ القيامَةِ: أرأَيْتَ لو كان لكَ ما على الأرضِ من شيءٍ أكنتَ مفتديًا بِهِ ؟ فيقولُ: نعم ؟ فيقولُ اللهُ: كذبْتَ قدْ أردْتُ منكَ أهونَ من ذلكَ ، قد أخذتُ عليكَ في ظهرِ آدمَ أن لَّا تُشرِكَ بي شيئًا فأبيتَ إلَّا أنْ تُشْرِكَ). أخرجه البخاري (٣٣٣٤)، ومسلم (٢٨٠٥) باختلاف يسير

فلذلك الله سبحانه وتعالى علمه إذا علم العبد من هو الله استحيا منه، إذا علم من هو الله أحبه، إذا علم من هو الله خاف منه، إذا علم من الله عز وجل امتثل لأمره، ومن ذلك أن يعلم هذه الصفة الجليلة لربنا وهو أنه مبصر وأنه سبحانه وتعالى يرى الخلق ويراك، سبحانه جل في علاه لا يخفى عنه شيء، انظر هذه المكتبة فقط أنت تأمل هذه المكتبة من يستطيع أن يحصيها في لحظة واحدة، من الذي يستطيع أن يحصي كل حرفٍ فيها؟ وهذا الحرف بأي مادةٍ صنع؟ والحرف كم ذرة فيه؟ الله يبصرها، كم ورقة كل ورقة كم ذرة، وما في الذرة من خلق، أي ليست الذرة هي أصغر شيء في المادة كما كانوا يقولون، ثبت أن الذرة هناك ما هو أصغر منها، تأمل أن الله يرى كل ذلك في آن واحد.

فانظر إلى الكون انظر إلى عدد ذرات المطر في هذه اللحظة الله يبصرها، ويبصر كل ذرة على ما هي عليه وأين تقع؟ ولذلك هذا ربٌ عظيم، هذا ربٌ جليل، وكل شيءٌ يسبح بحمد الله إلا هذا المخلوق الصغير، يعني لما أنت بتطلع فوق الأرض بثلاثين أربعين ألف قدم انظر إليها، الأشياء كم تصبح؟ لا ترى البشر، لا ترى الخلق، ربما ترى الأشجار العظيمة، ترى البيوت والعمارات الكبيرة لكن لا ترى الإنسان، فقط كل شيء خلق من أجل هذا الإنسان، ومع ذلك لا يستحي ويكفر ويتعالى ويتكبر.

وهذه صفة البصير لربنا سبحانه وتعالى جاءت مقترنة بصفتين عظيمتين، أنه خبير، ﴿خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾، وجاءت مع السمع، ﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، اقترنت بهاتين الصفتين وهذا بيّن بما تكلمنا؛ فإنه لا يقع الكمال بمجرد البصر، إذا وجد ما يسمع في هذا الشيء لأن الشيء متكلّم كذلك له حقيقة وله هيكل وله جرم، فلذلك الله يسمع وهذه الصفة سنتكلم عنها إن شاء الله فيما يأتي من الأيام، بفضل الله الأسبوع القادم، فإنه سميع، لأن هذا هو الكمال، لأنه قد يقع السمع بلا بصر، وقد يقع البصر بلا سمع، وهذا يقع في الخلق، تجد الرجل يبصر ولا يسمع، والصغير ربما يبصر ولا يسمع، وربما يسمع ولا يبصر، أعمى، فيقع الكمال في إدراك الأشياء بإدراك ما هو مسموع وإدراك ما هو مبصر.

وأما أنه خبير فقلنا بأن صفة البصر قد توهم أنه يرى الأشياء في ظاهرها، لا يعرف الخبايا يبصرني أنا، لكن لا يبصر ولا يخبر ما يتحدث به قلبي وما تجري في قلبي من إرادات ومعاني، فهذا الله عز وجل جعل الصفة التامة لتمنع هذا لتعدل هذه المعاني التي تطرأ على الذهن تعدلها وتصنع الكمال باقترانها.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا مقام الإحسان وهذا المقام أيها الأخوة الأحبة إنما يكون بذكر الله بدوام الذكر، لا يوجد شيء في هذا الوجود أعظم من القرآن في إصلاح القلوب، إذا أردت التوكل فعليك بالقرآن، إذا أردت الخوف من الله عليك بالقرآن، إذا أردت الإحسان أن يقع في قلبك عليك بالقرآن، إذا

أردت مراقبة الله عليك بالقرآن، إذا أردت الخوف من الله عليك بالقرآن، إذا أردت محبة الله عليك بالقرآن، لا يوجد أعظم من القرآن في بلوغ القلب مراتب التعبد لله عز وجل وحصول منازل السير إلى الله، لا يوجد، لا مثيل له.

ثم يأتي أمر الذكر، ثم يأتي الذكر، دوام الذكر أول شيء القرآن هذا لابد أن نلتزمه، يوم يمر عليك بلا قرآن هذا يوم لم تستفد منه شيء فاتك هذا اليوم، فعلى المرء أن يلتزم القرآن ويكون له ورد من الليل وأعظم عبادةٍ في ديننا هي قراءة القرآن في الصلاة، لأن أعظم العبادة هي الصلاة، وأعظم ما فيها هو قراءة القرآن، طول القنوت، فإياك أن يفوتك هذا المقام في الليل والنهار تداوم عليه، القرآن لا يفوت.

فإذا المرء يعني انتهى من حزبه أشغل ذكره ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، والمرء لا يمكن أن يذكر إلا ويتذكر أن الله يراه، لا يقرأ القرآن إلا وهو يعلم أن الله يراه، انظر إلى هذه المعاني كيف تقع على القلوب، وهؤلاء أسعد الناس، الناس يتبارون في الدنيا ويصابون بالاكتئاب والمشاكل والخصومات، مشغول معه ألف يريد أكثر والزوجة تطلب، والدنيا تطلب، والله عز وجل بهذه المعاني من الانشغال في طاعته يقضي لك الحاجات.

أحد الأئمة من آل قدامة المقدسة قال: «ما رأيت مثل القرآن في قضاء الحاجات، حتى في طلب العلم»، قال: «لما أقرأ القرآن أكثر يحصل لي في طلب العلم والقراءة يحصل لي ما لا يحصل في أيام أخرى»، فقال: «ازددت كل يوم ازداد فيزداد عطاء الله لي»، يشعر عطاء الله في المال، عطاء الله في العلم، عطاء الله عز وجل في المعاني الإيمانية، فقال: «حتى وصلت في اليوم أن أقرأ عشرة أجزاء»، بلغ لهذه المرتبة والمرء بحسب حاله، وأقله أن يقرأ جزء كل يوم، لابد، فإذا قرأ المرء هو يقول: أنا أقرأ –هكذا مسكين– أنا أقرأ ولا أفهم أنت تفهم، لأنه ليس شرط أن تفهم ما يقال شرط أن تستحضر معاني الحال الذي أنت فيه.

لذلك قال المناوي: يقع على القلب عند قراءة القرآن للعامي من المعاني، يعني معاني حب الله يقرأ ويبكي، يقرأ ويتذكر أن الله يقول هذا يقرأ ويتذكر أن الله يتكلم معه، هذه معاني هي علم ويقع للعامي من المعاني ما لا يقع للعالم، ومن هنا تجد ربما العامي يبكي ولا يبكي العالم، ويستغرق في المعاني التي يحصلها هذا الحال الذي فيه من قراءة القرآن ما لا يحصله من ينظر ويتعقب ربما بعض العلوم في القرآن، يعني الآن يمكن أن يجلس واحد نصراني يعرف العربية يتعقب القرآن ليستخرج منه المعاني، ماذا يستفيد من المعاني الإيمانية في قلبه؟ لا شيء، ويجد العامي لا يفهم الآية لكنه يتذكر هذا كلام ربي، هذا كلام الله، فيحصل له، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦]، فيحصل وتجده يخاف الله أكثر ممن عنده العلم

بالقرآن، تجده يحب الله عز وجل ويذكره أكثر ممن علم أو حفظ القرآن أو أطلع على معانيه وما قاله العلماء فيه.

هذا من المعاني التي يجب أن نستحضرها فالناس يقولون أنا أقرأ ولا أفهم، لماذا؟ اقرأ لأنك بالقراءة تستحضر أن الله يراك، تستحضر أن الله يعطيك، تستحضر أنك ستبلغ وتريد الجنة، تستحضر أن الله يحبك يحب هذا المقام، أنا في مقام يحبه الله، وتذكر ما حصل للصالحين عند قراءة القرآن، قال صلى الله عليه وسلم: **(تلك السكينة تنزلت للقرآن)**، هذه الملائكة تتنزل.

اللهم ارحمنا برحمتك وأجعلنا من عبادك الصالحين وارزقنا العلم بك والخوف منك والحب لك، والإخبات لك آمين، آمين بارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤)﴾ [العلق: ١٤] لمن الخطاب؟

الشيخ: هذه في سورة «العلق»، هي كما ترى خطاب القرآن الخطاب المكي ليس لأحد دون البقية إنما هي للإنسان، هي خطاب لكل للإنسان، لكن هل هذا لما يكون الإنسان طائعًا، فتقال له ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾، ليس على سبيل الزجر على سبيل التذكير، لكن إذا أعرض المرء وأفسد يقال ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾، فتقال له على سبيل الزجر، فهي خطاب للإنسان لكل الإنسان، يعني ليس لأحد، ولا أعلم في هذه الآية سببًا لنزول خاص نزلت في أحد ناس دون ناس، لا أعلم في هذا، لكن السياق ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥)﴾ [العلق: ١٤-١٥]، أقرب في السياق لخطاب المعرض.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن والأربعون: السميع

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغّر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الذي تعبدنا به علمًا وذكرًا وحالًا، ألا وهو اسمه سبحانه وتعالى السميع وهذا الاسم قد ورد كثيرًا في كتاب ربنا سبحانه وتعالى وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم، في القرآن ورد أكثر من خمسة وأربعون مرة هذا الاسم، وهذا مما يدركه المرء عقلًا في حق ربه سبحانه وتعالى فإن الله عز وجل الذي خلق الأبصار في الخلق ألا يكون بصيرًا؟! الذي خلق الأسماع في الخلق ألا يكون سميعًا؟!

ذلك لأن الصفة المضادة للسمع وهي الصمم هذه صفة نقص تمنع صاحبها من إدراك ما ينبغي إدراكه ولذلك هي نقص في حق الخلق فكيف في حق ربنا سبحانه وتعالى؟! ولذلك ربنا سبحانه وتعالى الذي له الكمالات وأنه هو القدوس لا تليق بحقه ألا يسمع خلقه، وخاصةً أنه سبحانه وتعالى خلق الخلق ليعبدوه، من أجل أن يذكروه، من أجل أن يسبحوه، من أجل أن يقرأوا كتابه ومن أجل أن يدعوه ويستغيثوا به، فهذا لا يمكن أن يتحصل وهذا الإله سبحانه وتعالى لا يسمع سرهم ونجواهم، قال تعالى: ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)﴾ [الزخرف: ٨٠]، فالله عز وجل هو السميع البصير، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١)﴾ [المجادلة: ١]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾ [الإسراء: ١].

فالله عز وجل هو السميع، ومن الكفر والشرك هو اعتقاد أن الله عز وجل لا يسمع كل شيء، أو لا يسمع إلا بعض ما له صوت عالي، ففي الحديث من حديث ابن مسعود في الصحيحين: أنه جلس إلى الكعبة ثقفيان وقرشي فقال أحدهم: أتظنون أن الله يسمع سرنا وجهرنا؟ فقال الثاني: لا، لا يسمع إلا الجهر وأما ما نخفي فلا يعلم ولا يسمع!! وأما الثالث فقال: إن كان يسمع جهرنا فيعلم سرنا وما نسر، فانزل الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)﴾ [الزخرف: ٨٠]، فوق أن الله عز وجل بذاته جل في علاه وبهذه الصفة الجليل له أنه يسمع ما يقولون سواء

أسروا أو أظهروا، بل هناك أمرٌ أعظم من ذلك وهو أن هناك من يكتب وذلك لحصول الشهادة، انظروا إلى إعذار الله عز وجل.

فالله يعلم، والله عز وجل يسمع، والله عز وجل يبصر، هو لم يكتفي بهذا من أجل أن يقيم الحجة على الخلق، فيرسل ملائكة يحيطون بالإنسان ويسمعون ما يقول فيكتبون كل كلمة، كل ما يصدر من هذا الفم يكتبونه، وكذلك لم يكفي هذا، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل سبحانه تعالى يشهدهم يوم القيامة على أنفسهم، يختم الله عز وجل على الأفواه ويختم على ألسنتهم، وينطق جلودهم، وينطق أبشارهم.

ولذلك الله عز وجل عاب على الأصنام فقال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (١٩٥)﴾ [الأعراف: ١٩٥]، هذه الآلهة التي تعبدونها ليس لها أرجل تمشي بها، أنتم صنعتم الأرجل وهي لا تمشي لا تتحرك، وجعلتم لها أيدي وهذه الأيدي لا يستطيع أن يبطش بها ولا يرد العاديات عليه، إذا أراد أحد أن يتعدى عليها لا تستطيع أن تدافع عن نفسها، وليس لها بصر تبصر به وليس لها أذن تسمع بها.

فالله عز وجل أجّل من ذلك من هذه الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، والله عز وجل بل سبحانه وتعالى يسمع وسمعه جل في علاه يأتي بمعاني: أول معنى من معاني السمع هو إدراك المسموعات ومهما خفيت، وهناك كلمة للغزالي في شرحه لهذا، قال: «معنى السميع وهي أصلها السامع ولكن جاءت للمبالغة»، أصلها السامع الذي يسمع، لكن جاءت للمبالغة كعالم وعليم، وقادر وقدير، قال: «هو السامع وهو السميع»، فقال: «يدرك كمالات الأصوات»، وهذه كلمة منه جميلة من الغزالي، قال: «السمع هو إدراك كمالات الأصوات»، كيف هذا؟ ما معنى كمالات الأصوات؟ يعني أن هناك من يسمع ولكن يكون سمعه لما يسمعه ليس تامًا، يعني انظر انت قد تسمع الرجل ويأتيك الكلام إذا كان عن بعد يأتيك الكلام ضعيف، بل ربما لو حضر إلى إذنك لا تسمع كمالات الصوت، فهناك ما يخفى عنك، السمع في النهاية له إدراك يسير ليس في إدراك حصول الصوت أو عدم حصوله بل في إدراك كمالات الصوت أي ما فيه من ميزات وما فيه من قدرة وما فيه من ضعف وما فيه من دلالات وما فيه من نغم.

فالله عز وجل يدرك كمالات الأصوات، ليس فقط يدرك الأصوات، الذين كتبوا من أهل العلم قالوا: «يدرك الأصوات»، الغزالي اختص في شرحه قال: «يدرك كمالات الأصوات»، وهذا من الفقه وهذا من الكلمات التي يوفق الله عز وجل صاحبها لمدح الله سبحانه وتعالى بما يليق بجلاله.

فأول معنى من معاني السمع أنه يدرك ما يقوله الناس وما يتحرك وما يحصل من أصوات ليس فقط الخلق، لأن الناس ينظرون إلى سمع الله عز وجل لما يقال من أصوات الخلق من الإنس، لكن هناك مان يتكلم في البحار ويتكلم في السماء ويتكلم في الأرض، الوحوش تتكلم وتصرخ والله يسمعها، وتستغيث به فيغيثها، وقد سمع الله قول النملة، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨)﴾ [النمل: ١٨]، الله سمعها وعلم ما تقول ومن رحمته أعلم سليمان ما تقول.

فالله يسمع أصوات الدواب ويعلم ما تقول وما تتحرك وكيف تناغي وكيف تحزن وكيف تتكلم وكيف تغضب وكيف يكون هذا السمع دال على هذا المعنى وعلى هذا المعنى، فأولًا هو أنه سبحانه وتعالى يدرك ما هو مسموع يدركه إدراكًا تامًا لا يغيب عنه شيء، لا يحجب سمعه في إدراك المسموعات شيء، حتى لو كان في أقصى الأرض حتى لو كان في باطن الأرض الله عز وجل يسمعها.

هذه السمكة العمياء التي تكون في ظلمات البحر في الظلمة، وليس لها ضرورة للبصر، فهي تفقد بصرها لأنها تعيش في الظلمة، وتمشي بها أقدار الله عز وجل كما يعطي الوطواط، الوطواط ليس له عين يبصر بها، له أحاسيس أخرى، هي أشبه بأشياء من الاستشعار، الغريب وكأنه يبصر بها!! فالله عز وجل يسمع هذه السمكة في باطن البحر وفي آلاف الأمتار تحت الماء، بل آلاف الكيلومترات تحت الماء، لو تكلمت مع أختها تكلمت مع ابنتها تكلمت مع أمها فالله يسمع ما تقول ويدركها إدراكًا تامًا جل في علاه، فهذا هو السمع الأول.

السمع الثاني: هو سمع التبكيت والتهديد لقوله جل في علاه ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٠]، هذا تهديد من الله عز وجل وهذا إثباتٌ لسمع الله وهو يهدد الخلق أنا أسمع ما تقولون وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، هذا تهديد أنا سمعتكم، ما معناه هنا سمعتكم وستعاقبون ستدفعون ثمن ما تقولون، ستجزون على هذا الكلام.

وهناك سمعوا التأييد أن الله عز وجل يسمع فيؤيد، الله سبحانه وتعالى سمع رسوله صلى الله عليه وسلم وسمع من يدعوه فيؤيده يقول: أنا اسمعك وأؤيدك، ولذلك تقول عائشة رضي الله تعالى عنها: «سبحان من أحاط سمعه الأصوات» ولما نزل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]، تقول كنت في ناحية البيت، وهي تحدث رسول الله ولا أسمع ما تقول، فانزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾، فبيّن ماذا جرى من الحديث ليس مجرد السمع ولكن علم ما فيه.

قال تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩]، فالله عز وجل يسمع سبحانه وتعالى ما يقوله الخلق، فإما أن يسمع سماع الإحاطة وإما أن يسمع كذلك سماع الإجابة، وهذا سمعٌ آخر وهو سمع الإجابة، أنك إذا دعوته أجاب وقد يسمعك فلا يجيبك تبكيتًا، طردًا من رحمة الله عز وجل.

فالله يسمع بمعنى أنه سمع، وسمع أنه أجاب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، ما معنى لأسمعهم؟ يعني هدى قلوبهم، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لتم سمع الإجابة، لأنه أنت الآن العامي ربما تقول لابنك: أنت لا تسمعني، وأنت إنما لا تريد أنه لا يفهم ما تقول، ولا يدرك ما تقول، ولكن المقصود أنه لا يجيب طلبك، فالسمع يأتي بمعنى كذلك الإجابة، أنه يدعو الله عز وجل فلا يسمع له، ولذلك كما في مسند أحمد **(اللهم إني أعوذ بك من دعاءٍ لا يسمع)**.

وعلم المرء بهذه الصفة الجليلة لربنا سبحانه وتعالى أنه محيط بكل شيء يصنع الخوف، ولأنه يعلم أن الله يراه ويسمع ما يقول فسيجازى على ما يقول ويعمل، سيجازى فلذلك يخاف فإذا أراد أن يتكلم يعلم أن الله سيسمعه، وهذا السماع إنما يقع على معنى من المعاني في أمر الله عز وجل، فإما يسمع فيرضى عنه، ولذلك هو ينطلق به فيسبح الله، ويقرأ القرآن لأن الله يسمعه، فهو يفرح، لأن الله إذا سمع هذا من العبد، سمع تحميده، سمع شكره، سمع تكبيره، سمع تهليله، الله يفرح، ويسمعه حيث يقرأ القرآن فالله يفرح، فهو يحب أن يفرح الله عز وجل.

وكذلك إذا أراد ان يتكلم الشر تذكر أن الله سيسمع هذا الكلام وسيغضب الله، وإذا أحب العبد ربه لا يغضبه، إذا أحب العبد ربه إنما يسعى لإرضائه، هذا الحب يقوم على الرضا ولا يقوم على الإغضاب، فإذا تذكر أن الله عز وجل يسمع هذا الكلام لم يقله وحبسه وامتنع عنه، فإدراك العبد أن الله يسمعه يؤدي إلى الخوف منه ويؤدي إلى السعي إلى إرضائه.

وكذلك إدراك العبد أن الله يسمع له، يقيم العبادة ومن ذلك الدعاء، ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم على أن يرفع الرجل صوته عند الذكر بحديث أبو موسى الاشعري: قال غزونا مع الرسول صلى الله عليه وسلم فكنا إذا صعدنا كبرنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(اربعوا على أنفسكم)**، يعني لا تشقوا على أنفسكم، هونوا عليها، **(إنكم لا تدعون أصمًا إنما تدعون سميعًا بصيرًا قريبا)**، ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)﴾ [إبراهيم: ٣٩]، فلذلك لا ينبغي للعبد أن يدعو الله كأنه ينادي، وفي الحديث وإن كان فيه مقال: أنَّ أعرابيًا قالَ: يا رسولَ اللَّهِ أقريبٌ ربُّنا فنُناجيَهُ أَمْ بعيدٌ فنُنادِيَهُ؟ فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ

عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾ [البقرة: ١٨٦]، قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)﴾ [ق: ١٦].

فالله عز وجل يسمع فلا ينبغي للعبد أن يدعو الله كأنه ينادي، قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)﴾ [مريم: ٢-٣]، انظر هذه الصفة كم رتبت من الأوامر الشرعية التي أمر الله بها عبيده؟ رتبت عليها ألا تعصي الله لئلا تغضبه، لا تقل الشر، رتبت عليه أن تذكر الله لأن الله يحب ذلك، رتب على ذلك الدعاء ثم رتبت على هذا كله كيف يدعو وكيف يذكر؟ لا ينبغي أن يصرخ حتى يُسمع وإذا أراد الدعاء لا ينبغي أن ينادي حتى يُسمع أنه يسمع وهو في جوف بيته، وكم من الأصوات التي في هذه الليلة صعدت إلى الله، هذه الليلة أو هذه اللحظة كم من أصوات تصعد إلى الله؟ وهذه الأصوات التي تصاعد إلى الله عز وجل ويسمعها الله سبحانه وتعالى، هذه الأصوات مختلفة ومتنوعة، هناك من صوت صوتًا في طاعة الله، هناك من صوت صوتًا في قراءة القرآن، هناك من صوت صوتًا في إنقاذ غريق، هناك من صوت صوتًا في معصية الله وسب الله وكفر وأتى بهجر من القول.

انظر هذه الصفة كيف ارتبطت بها أوامر الله سبحانه وتعالى، فإدراك العبد لهذه الصفة يعني أن يخاف، والعلماء اختلفوا ما هو الأعظم وهذا لا ينبغي أن يدخل المرء فيه لعدم أهميته، لكن هذا مما جرى بين العلماء من هو الأعظم السمع أم البصر؟ فابن قتيبة مثلًا يقدم السمع يقول: «في أغلب الآيات تقدم السمع على البصر»، وقال مما أستدل به: «أن الله عز وجل أرسل أنبياء عميان ولكن لم يرسل الأنبياء لا يسمعون»، فجاء الباقلاني واستهزأ به وقال: «هذا كلام غير صحيح»، على كل حال هذا بلا شك أن هذه المقارنة بينهما مقارنة بين أمرين يعني مختلفين، هذا السمع ضروري لما له صوت وإدراك المسموعات والبصر له أحقيته في إدراك فيما هو يبصر ويدرك من الموجودات ويدرك فيما هو من المبصرات.

وكما نقول دائمًا أن العبد له سمع وأن الله له السمع ولكن سمع البشر يختلف سمع البشر له نهاية، المرء ربما يسمع ولا يفهم، ولا يدرك ما يقال لاختلاف اللغة، أنت لا تدري ماذا يقول الطفل؟ أنت لا تدري ماذا يقول أجنبي عنك؟ وإذا تكلم ثلاثة في نفس الوقت لا تفهم لأحد، **(لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيدٍ واحد، فسألوني؟ فأعطيت)**، استجاب علامة أنه يعلم ماذا يقولون، انظر أول الإنس والجن كم من الخلق مضوا، وفي لحظة واحدة.

وانظر إلى هذه الملايين في عرفة، كيف تقف كلها في لحظة واحدة في عرفة مليون أو مليونين كلهم يرفعون أيديهم فيعطيهم الله عز وجل، يستغفرون فيغفر لهم، يستغيثون فيغيثهم، يطلبون منه المطالب

فيعطيهم، ومن أعظم ذلك أنه يؤخر العطاء، يعني يبقى، ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢)﴾ [طه: ٥٢]، العبد ربما يدعو دعاء فينسى فلا يتذكره حتى يجيب الله دعاءه، وربما يجيب الله دعاءه بعد مدة فينسى أن هذا للدعاء الذي دعا به قبل سنوات، هذا يقع مع كل أحد، الكثير هناك أدعية دعا بها المرء وتحققت ولا يربطها ولكن الله عز وجل قال: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦)﴾ [المجادلة: ٦].

كل شيءٍ عنده سبحانه وتعالى لا ينسى فيسمع والله سبحانه وتعالى يجيب، وإدراك العبد لذلك يصنع منه العبد الذي يحب إرضاء الله عز وجل ويحب أن يدعوه وأن يستغيث به وأن يكثر من ذلك، الله عز وجل ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)﴾ [البقرة: ١٨٦]، قالوا: إذن نكثر يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم: **(الله أكثر)**، فأنت تدعو سبحانه وتعالى هذا الإله الذي لا تنقص خزائنه، ولو أعطى لا تنقص خزائنه، لا تنقص لا من العلم ولا من الرزق ولا من أي شيء، لا تنقص خزائنه من أي شيء، خزائنه ملأى سبحانه وتعالى.

فعلى المرء أن يتذكر هذا وأن يعبد الله على هذا المعنى، وهذه العبادات كلها تقوم على هذا السمع والبصر، وما يترتب عليهما، ما يترتب على السمع من إجابة وما يترتب على السمع من حساب، ما يترتب على السمع من إحاطة، وما يترتب على البصر كذلك من إعانة، ومن عطاء ومن كرم، كل ما نراه من هذا الشرع الذي هدانا الله عز وجل إياه وجعله يعني من كمالات النعم العظيمة، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، كله مربوط بهاتين الصفتين السمع والبصر.

فعلى المرء أن يتذكر هذا وأن ينظر في كتاب الله عز وجل كيف قرن السمع مع البصر كثيرًا لماذا؟ لأن الأشياء إما أن تدرك بالبصر وإما تدرك بالسمع، كل الأشياء إذا أردت أن تدركها كيف تدركها؟ إما بالبصر وإما بالسمع، من أوسع السمع أم البصر؟ السمع أوسع، لأنك أنت الآن تسمع أكثر مما تبصر، كم حادثة في الدنيا لم تبصرها؟ لكن سمعت أخبارها، مضى كثير من التاريخ أنت تسمعه، فإحاطة السمع أكثر من البصر، أنت الآن مرت عليك حوادث قليلة رأيتها فترويها بصرًا ترويها لأنك رأيتها، لكن أنت سمعت الكثير فإحاطة السمع أكثر ولذلك قدمه الله، دائمًا ﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، لأن إحاطة المسموع أكثر من البصر، فقرن الله عز وجل السمع والبصر لأن الإحاطة بالشيء سمعًا وبصرا.

وقرنه سبحانه وتعالى ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] قرن السمع بالعلم، لماذا؟ أنه السميع العليم قرنه عند الطلاق، كما قال ابن القيم رحمه الله قال: «إنما قرن السمع والعلم عند الطلاق ذلك لأن الله عز وجل سمع ما قالوا وعلم معنى ما قالوا»، ولذلك يقرن السمع بالعلم لماذا؟ لأنه ربما تسمع ولا تعلم ما يقال، فقرن السمع بالعلم.

وقرن السمع بالقرب، ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)﴾ [سبأ: ٥٠] لماذا؟ إما أن القرب بمعنى قرب ما تطلب، وإما القرب بمعنى الإحاطة لكل ما تقول، أن يأتي السمع بقرب كل ما تقول، ولذلك قرن السمع بالبصر، السمع بالعلم، السمع بالقرب، وردت كثيرًا يعني على معنى ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]، ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ﴾ [المجادلة: ١]، فجاءت ليس فقط على صيغة الصفة والاسم أنه السميع البصير ولكن جاءت كذلك في القرآن الكريم على صيغة الفعل أنه يفعل يسمع سبحانه وتعالى.

والعلماء في هذه الصفة كبقية صفات الله عز وجل، نظروا فيها على أنها مغايرة لما يريد البعض أن يقول، يعني المعتزلة يقولوا: أن السمع المقصود به أنه يعلم، وهذا غير صحيح، لأن المرء قد يعلم ولا يسمع، الآن مثل البصر، لو أن الرجل لا يبصر الخيل، ولم يبصر في حياته الفيل، وهو لا يبصر لعمى في عينيه، لكن قد يعلم بوجود الفيل، قد يعلم بوجود شيء، الآن نحن لم نرى الماموث، ولم نرى الديناصورات لكن نحن سمعنا عنها فعلمنا وجودها، نعلم وجودها، فالعلم بالشيء ليس هو السمع ولا البصر هو شيء فوق ذلك، هو من إحدى منافذ العلم السمع والبصر هو الذي يؤدي إلى العلم أن يسمع فيعلم، أن يبصر فيعلم لكن السمع ليس هو العلم، البصر ليس هو العلم، لماذا نقول هذا؟ تدل على أن هذه الصفات وأن تشترك في بعض المعاني لكن لها خصوصية في كل شيء.

ومن هنا جاءوا إلى موضوع الترادف، ما المقصود بالترادف؟ الترادف إما أن يكون تسمية الشيء بأسماء متعددة، الأسد يسمى بأسماء كثيرة يسمى بأسامة، بقصوره، فيه زبر، له أسماء متعددة، فهي تدل عليه هذا الترادف ممكن لأنها أسماء تدل على حقيقةٍ واحدة، ولكن حين تكون الصفات تختلف، حين تدل الأسماء على حقيقةٍ واحدة يقع الترادف كما ذكرنا اسم الأسد، اسم السيف، السماء، الهواء، الماء، المطر له أسماء متعددة، لكن يدل على حقيقة واحدة، لكن إذا جاءت هذه الأسماء لتدل على صفات فكل معنى لكل كلمة تدل على معنى آخر، كما يقال قعد وجلس، وإن انتهت إلى حقيقة واحدة، لكن الحال الذي انتقل إلى القعود، غير الحال الذي انتقل إلى الجلوس مع أنها تنتهي إلى حالة واحدة.

فتختلف السميع البصير، يختلف السمع عن البصر، العليم الحليم يختلف العلم عن الحلم، فحين تكون الصفات لا يقع الترادف لكن حين تقع الأسماء يقع الترادف.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته وأن يوفقنا لطاعته وأن يرزقنا اليقين عليه سبحانه وتعالى، ومقصد العبد في ذلك كله أن يصل إلى درجة الإحسان أن يعبد الله كأنه يراه، ما الإحسان قال صلى الله عليه وسلم: **(أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فأنه يراك)**، فإذا أدركت أن الله يسمع دعوت، فالله يجيب، وسبحان الله هذا المعنى يعني لا يدركه إلا المؤمن.

قال صلى الله عليه وسلم: **(أَقْرَبُ ما يَكونُ العَبْدُ مِن رَبِّهِ، وهو ساجِدٌ، فأكْثِرُوا الدُّعاءَ)** أقرب ما يكون، هذا القرب ماذا؟ هذا قرب الحب، ولذلك الصلاة، الصلاة كم ركوع في كل ركعة؟ ركوع واحد، لكن كم سجود؟ سجودان في كل ركعة لأنه أحب إلى الله، ولأن الله يكثر هذا الباب من أجل الدعاء.

جلس محمد المنكدر في المسجد! فجاء رجل وصلى ركعتين وأسرع فيهما فناداه وقال له: «أليس لك لله حاجة»، ما عندك طلب؟ بسرعة على طول صليت وطلعت مالك حاجة تطيل، فلذلك انظر هذا المعنى، مَن مِنَ المسلمين كان خاليًا فلم يرد الدعاء، بأن يقول خاليًا من يسمعني الآن! هل أحد المسلمين يقع في قلبه هذا المعنى؟! أنه أنا الآن داخل البيت من سيسمعني فلماذا أدعو؟ انظر هذا اليقين في القلب، ماذا يصنع من الطاعة ومن العبادة ومن الثقة بالله ومن العلاقة معه.

وأما هؤلاء الذين ذُكروا في حديث الذي تقدم حديث ابن مسعود، قال أحدهم: هل تظن أن الله يسمعنا إذا جهرنا وإذا أسررنا، إذا أخفينا وقع في قلوبهم هذا لو أنه أسر لا يسمع الله عز وجل دعاءه، لو أسر أن الله لا يسمع ما يقول، وهذا كله من الكفر بربوبية الله، والكفر بربوبية الله يؤدي إلى الكفر بألوهيته، يعني لو أن المرء تصور أن الله لا يسمع إن أسر، لا يدعوه يترك العبادة فكفر بألوهيته، ترك الدعاء لأنه لم يعتقد الاعتقاد الصحيح بربه، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرحمنا برحمته وأن يوفقنا لطاعته.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع والأربعون: الهادي

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الذي تعبدنا به ذكرًا وعلمًا وحالًا، ألا وهو اسمه الهادي جل في علاه، وهذا الاسم من أسمائه سبحانه وتعالى ورد في حديث أبي هريرة المشهور أنه الهادي، وكذلك ورد في كتاب ربنا سبحانه وتعالى ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)﴾ [الفرقان: ٣١]، وقوله تعالى عن نبيه صلى الله عليه وسلم إجلالًا له ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد ورد هذا الاسم عن الصحابة بـ ال التعريف والتسمية، سُمع ابن الزبير رضي الله عنه كما في موطأ الإمام مالك رحمه الله أنه خطب يومًا فقال: «إن الله هو الهادي والفاتن»، وهذا الاسم الجليل يعني أجمل ما قرأته في معناه الكلي هو ما قاله الغزالي رحمه الله في «المقصد الأسنى» أن الله عز وجل هدى أوليائه بذاته إلى ذاته، وهدى عوام الخلق بخلقه إلى ذاته، ومعنى الأصل الهُدى والهادي أصلها من المهادى وهو الميل، ومنها لقد تهادى الرجل بين الرجلين معناها الميل، ثم هذه الكلمة جُعلت مقابل الضلال ومقابل الفتنة مقابل الإضلال، فصار الهادي دلالة على الخير حتى أنه ليسمى الرأس الذي يقود البدن إلى الخير ومصالحه يسمى الهادي، ويسمى النهار الهادي، لأنه يكشف الحقائق.

ولذلك الإمام بن جرير الطبري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)﴾ [الفرقان: ٣١]، قال كلامًا جميلًا قال: «أنه أرشدهم إلى الحق الصريح، والحق الواضح»، لأن أي سبيل يحتاج إلى أمرين يحتاج إلى أن يكون الأمر في نفسه موصلًا إلى المراد، يعني هذا الشارع يوصلك إلى مرادك، وقد يكون الشارع هذا الذي تمشي عليه قد يكون هذا الشارع لا ضوء فيه، وفيه ظلمة وفيه اعوجاج ولكنه في النهاية هو موصل، فالشرط الأول للإرشاد التام الذي هو إرشاد ربنا سبحانه وتعالى والذي عليه أن يكون أي إرشاد في الوجود:

أولًا: أن يكون هذا الإرشاد موصل إلى المراد.

ثانيًا: أن يكون هذا الإرشاد بينًا وواضحًا.

الأول فيه شرطٌ آخر وهو أن يكون الأقصر، يعني قد يكون موصل ولكنه الأطول، لكن الصراط المستقيم هو الموصل للمراد، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، موصل للمراد في أقصر الطرق، أولًا: موصل للمراد، ثانيًا: في أقصر الطرق، ثالثًا أن يكون واضحًا، يعني أن يكون بينًا، مكشوفًا عليه النور، وقد يكون الطريق موجود ولكن ليس عليه النور فيتعب صاحبه ولا يصل إلى مراده إلا بأشق الأعمال وبأطول الأوقات.

ولكن الله سبحانه وتعالى جعل هدايته، جعلها صريحة وجعلها واضحة، ولذلك الهدى صار بدلالة على البيان الحق، وبعض الخطباء يقولون وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وبعضهم يقول خير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وبعضهم ما هو الأصوب؟ وخير الهدي، أنت تريد إن تبين أن إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم هو خير إرشاد، لكن غيره لا يجوز أن تقول هو أنه هدى، لأن غيره ضلال، فهم يميزون عند كلامهم، يظنون أنهم يميزون بين هدى وهدى، وإنما هو الصواب التمييز بين هدى وضلال، فإذن النبي صلى الله عليه وسلم هو يهدي خير الهدي، وذلك الصواب أن يقول وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، هذا يعني مما ينبغي أن ينبه عليه لأنه بعض الخطباء ما زال يكررها ويخطئ فيها.

والقصد من هذا: أن الله سبحانه وتعالى هدى الخلق هدايات متعددة، فقط شرح لكلمة الغزالي: «أن الله هداهم بذاته إلى ذاته»، أصوب ما تفسر به هذه الكلمة هو التالي، قال: «وهدى أولياءه بذاته إلى ذاته، وهدى عوام الخلق من المؤمنين بالمخلوقات إلى ذاته»، ما هو أجّل؟ هذا هو السؤال ما هو الأجّل في تحصيل الهداية؟ أن تأخذها من الكتاب المقروء الذي نزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، أم أن تأخذ هذه الهداية من الكتاب المنظور، وهو الكون والمخلوقات، ما هو الأعظم؟

والناس يتساءلون دائمًا، الله عز وجل يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠]، فالله عز وجل هنا هدى الناس إلى أن يتجولوا في الوجود ليروا أن هذا الوجود ولا شك أنه مخلوق، وأن في هذا الخلق الذي أقامه الله في هذا الوجود دل على حكمته دل على قدرته دل على عظمته، فهذا الكون المنظور بين أيدي الناس هو دال على الله ولا شك في هذا المعنى لكن ما هو الأعظم؟ هو أن تستدل على الله عز وجل بهذا الكتاب الكوني المنظور أم أن تستدل على الله

بكلامه؟ بكلامه، ولذلك الصحابة رضي الله تعالى عنهم هم أعظم الناس هداية، لماذا؟ لأنهم استدلوا على الله بكلامه، استدلوا على عظمته بما أخبر، والنظر في القرآن أعظم هداية من النظر في غيره، حتى ولو كان النظر إلى خلق الله عز وجل، وهذا أفضل ما يفسر به كلام الغزالي رحمه الله في هذا المعنى.

كذلك يمكن أن تفسر بمعنى أخر وهو أنه ما يقذفه الله عز وجل، ما الأفضل أن يقذف الله عز وجل في القلب الهداية والمعرفة والنور، فيحصل بهذه المعرفة قرب من الله، وعبادة من الله أم النظر بمعنى التفكر؟ ما هو الأعظم في تحصيل الهداية؟ بلا شك أن العبد الذي يقوم فيصلي ويذكر ويقرأ القرآن ويدعو الله عز وجل يحصل له من نور المعرفة أعظم مما يحصل في قلب الناظر إلى الكون من المعرفة، يمكن أن ينظر إلى الكون فيرى حكمة الله وقدرة الله عز وجل فيبقى شأن هذا الأمر فقط في عقله، ولا ينزل إلى قلبه لا تجده لا عابدًا، وهناك كثيرا من المفكرين يتفكر في هذا الكون ويقول كلمات في حق ربنا سبحانه وتعالى عظيمة جدًا، لكنها ليست على معنى الهداية التي يريدها الأنبياء والتي جاء بها الأنبياء.

فلذلك أن تستدل على الله بدعائه، أن تستدل على الله بقراءة كتابه أن تدعو الله بالصلاة، أن تستدل على الله بالأعمال والاستجابة للطاعة يحصل في القلب النور والهداية ما لا يحصل في غيرها، هذا من المعاني الذي ينبغي أن ننتبه لها في هذا الباب، لأن كثيرًا من الناس يشتغلون بعقولهم فقط بعقولهم، ولكن لا تنزل هذه المعاني إلى القلوب، لا تنزل هذه المعاني إلى القلوب إلا بالتعبد، لا تنزل المعاني الإيمانية في قلب العبد إلا بالتعبد، وأما أن يبقى يتحدث بها وينظر بها ويفكر بها، بهذا قد تنزل القلب وقد لا تنزل، بحسب هداية الله عز وجل.

الله سبحانه وتعالى نوع الهداية في الخلق ولذلك هو الهادي، ربنا هو الهادي، هناك هداية لكل الخلق، **أولًا: الهداية القدرية**: قال تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: ٥٠]، ﴿قَدَّرَ فَهَدَى (٣)﴾ [الأعلى: ٣]، الله عز وجل خلق الخلق على معنى من هداية سلوكهم في الحياة، خلق الله عز وجل البصر وهداه إلى الرؤية، خلق الله السمع وهداه إلى إدراك المسموعات، خلق الله الأيدي وهداها إلى القبض وإلى الضرب وإلى الدافع عن النفس، والأرجل إلى المشي، فالله خلق كل شيء، وأجراه على معنى ما خلق له، هذا هو الهداية، يعني يتحصل بهذا الشيء المخلوق ما خلقه الله له من أجله، ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، هذا معنى لما خُلقت الأشياء.

وكذلك قدر فيها هداية أن تسلك من غير إرشاد، فنحن في ممارستنا للحياة الناس لا يشهدون أنك إذا جئت أذهب فكل، هم يعرفون، أنه إذا جاع أكل، وهو بعد اليوم ولد فيصرخ إذا جاع، ثم يذهب إلى

التقام ثدي أمه يعلم هذا الله خلقه، ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾ [النحل: ٦٨]، وهذا الوحي القدري، ليس الوحي التشريعي ليسوا أنبياء، وإنما أوحى لهم وحيًا قدريًا بهذا المعنى، فهي لما تخلق يكون هذا فيها.

ومن تأمل حقيقة في هذا الباب من تأمل كلام العلماء في باب المعاني في القلوب يعجب أنهم في حالة الجهل كل البشرية، يجهلوا في تركيب المعاني في النفوس، يعني كيف تحصل هذه المعاني في النفوس؟ نحن الآن نتساءل يعني لماذا هذا هداه الله وهذا أضله الله؟ لماذا هذا جاء إلى المسجد وذاك ذهب إلى الخمارة؟ لماذا هذا في صف المؤمنين؟ وهذا في صف الكافرين؟ المعاني في القلوب تعجب كيف تحدث!!

مثلًا: هذا رجل يقرأ وهذا رجل يكره القراءة، هذا رجل يحب العلم، هذا رجل يبغض العلم، هذا رجل يحب أن يعمل كذا، هذا التركيب الإلهي هذا هو عطاء إلهي سر كامل في الفطرة لا يمكن للناس أن يدركوه، هذه طريقة التفكير طريقة اختيار، لماذا يختار؟ كلاهما يفكر نفس التفكير وجالس ويسمع نفس الكلام تجد هذا الرجل يقع في نفسه معنى لا يقع في نفس الآخر، والآخر يقع في نفسه معنى لا يقع في نفس الأول، فهذا كيف؟ ما هي الآلة التي في داخل هذه العقول؟ لا تدري.

فلذلك الله عز وجل ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ لماذا؟ والخلق عطاء، ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ وإلا هو: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان: ١]، ما كان، ومن الأشياء لم تكن هناك الدواب لم تكن موجودة قبل أن تولد، لكن الله عز وجل أوجدها فأعطاه كل شيء خلقه، وهذا الخلق مصور والخلق مقدر، مصور على هيئة صورة، ومقدر فيه من القوى، اللسان قوته بأن ينطق، الحنجرة قوته أن تتكلم، العين قوتها أن تبصر فيها قوة هي مصورة على هيئة ومعطى لها من القدرة التي تلائمها ثم أجراها على معنى الهداية التي هدى الله بها الخلق، وهذه هداية شاملة للوجود كله.

هل الجبل قد هداه الله؟ نعم من الذي أقامه على معنى الوتد، ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)﴾ [النبأ: ٧]؟ الله، ولو أن هذه الجبال تخلت عن هذا القدر الذي قدر لها لصار انزياح في طبقة الأرض وما استقرت حياة البشر، هذه الجبال صنعت لتكون أوتادا، هذا بمعنيين ليس معنى واحد، ليس فقط في شكلها، هي وتد بشكلها، ولكنها وتد كذلك بأدائها ووظيفتها، كيف الوتد ماذا يصنع؟ الوتد أنه مغروس في الأرض، وبعضه خارج للأعلى، وهذا شكل الجبال ولم يعرف هذا إلا فقط في الخمسينات والستينات من هذا العصر، أن الجبل هكذا شكله، وأن هذا عمله يكون لا يكتمل شكل الجبل إلا بأن يكون كيانًا كاملًا من الأعلى ومن الأسفل، فإذن هو شكله ووتد، أوتادا.

وثانيًا: وظيفته وتد، ما وظيفة الوتد؟ حماية ما يربط به والوتد كذلك يقوم في هذه الأرض فيمنع انزياح القشرة الأرضية، القشرة الأرضية لو لم تكن هناك وتد يثبتها لانزاحت وما استقامت حياة البشر عليها، هذا مهدي هو الآن نحن نظن أنه ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾ [طه: ٥٠]، فقط لما فيه روح، للخروف للحصان للإنسان، وكذلك لما هو مادي، الله قدر للخشب خلقه وقدر فيه هذا المعنى، ما لم يقدره في الحديد، وقدر في الحديد ما لم يقدره في البدن فيما هو جلد أو ما هو لحم، فقدر فيه من المقادير، فقدر كل شيء الله خلقه.

وهذا من أعظم ما يستدل به على الله أنه واحد، لماذا؟ أنت تجد التنوع في الواحد، لو خُلق على معنى واحد كل شيء خُلق على شكل واحد، لعلمت القدرة ولكنها قدرة عاجزة، لم تستطع إلا شيئًا واحدًا، لكن أنت انظر الخلية هي الخلية، هي واحدة لكنها في الجفن غير في اليد، هي خلية، والخلية في الجفن غير في الدماغ، فهي خليةٌ واحدة، دل على أن الذي خلقها هو واحد، وتنوع هذا الواحد يدل على القدرة وعدم تقييدها أنها متسعة لا تقيد، ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، جل في علاه.

فهو الهادي لكل شيء، الهادي لما قدر وخلق، ﴿قَدَّرَ فَهَدَى (٣)﴾ [الأعلى: ٣]، هذا التقدير وهو تقدير الخلق تقدير الوجود، وكذلك حتى التقدير فيما يتعلق بالمقادير التي تتعلق بأقدار الحوادث والأزمنة، الله قدر، فعندما أنزل المطر أنزله بقدر أم أنزله بلا قدر؟ قدر له إنزالًا مهديًا يؤدي وظيفته في الوجود، وإذا زاد هذا التقدير تصير الأعاصير وتدمر، فيكون الله قدر لها ألا ينزل المطر للاستشفاء ولا لي لهدية ولا للمنفعة بل ينزل للعذاب ويهلك الله عز وجل به الخلق.

وكذلك الله عز وجل هادي المؤمنين إلى معاني.

ثانيًا الهداية الإرشادية: أن الله عز وجل أرشد الخلق جميعًا إلى ما فيه صلاحهم، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]، الله هداهم وبين لهم الحق من الباطل، علمهم ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ [الشورى: ٥٢] أي تبين للناس ما هو السبيل الحق الذي ينبغي أن يسلكوه، فكل الخلق يسمعون، أنزل هذا القرآن أنزل رسوله صلى الله عليه وسلم ليشرحه ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وأبانه بيانًا تامًا من أجل أن لا يبقى للناس عذر، الله يحب الإعذار، لا يحب لأحد أن يأتي يوم القيامة وله حجة على الله أنه لم يبين له.

وأنت قد تقول عجيب هذا الملحد كيف يكفر يعني معقول هذا الملحد أنه بالصح أن عنده هذه الشكوك؟!! الجواب، لا، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ [الأنعام: ٣٣]، الله كشف قلوبهم، أعظم ما في القرآن وهو كتاب ربنا إنه يكشف النفوس، هذه قاعدة يجب

أن نعلمها، وتعامل ربنا بأحكامه مع هذه النفوس ليس بالظاهر، تعامل معهم بما في نفوسهم، فيوم القيامة، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)﴾ [يس: ٦٥]، فتشهد عليهم أرجلهم وأيديهم وجلودهم تتكلم والقلوب تتكلم ويكشف ما فيها من المعاني التي أخفتها بسبب أتباع الهوى.

فالله عز وجل أرشد الخلق وإقام الحجج على هذا الإرشاد، الحجج العظيمة، وتفلت منهم هؤلاء الحقيقة، انظر مثلًا إلى كبار المجرمين من الباباوات، تفلت منهم كلمات عجيبة أنهم لا يصدقون هذا الدين، زعيم الكنيسة الأنجليكانية في بريطانيا، سألوه عن الإلحاد والملحدين، قال: نحن نتفهم الملحدين، يعني هو في شك في دينه، وإذا بحثت عنهم تجد أنهم يقولون الكثير من الحق بينهم وبين أنفسهم كما في وفد نجران.

وفد نجران جاؤوا للنبي صلى الله عليه وسلم الذي طلب منه المباهلة، ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١]، فهم رفضوا، قالوا نباهل، فلما ذهبوا إليه قالوا والله أنه لنبي لأن باهلناه لا يبقى منا أحد، نقطع، ولما رجعوا إلى بلادهم فأحدهم سقط ضرب رجله في حجر وسقط قال كلمة شقيق ذلك الحبر الكبير للراهب، القدماء يسمونه الهرطليق، فقال: تعس الأبعد، سب على النبي صلى الله عليه وسلم، ذلك مصدق القصة التابع أخوه، فقال له: بل تعست أنت وأبوك وأخوك، قال له: والله أنه على الحق، قال له: لماذا لا نتبعه؟ قال: تريد أن نترك هذا العز والجاه الذي وضعنا فيه الروم والملك والأموال ونضيع كل هذا، فجعله ينام في الليل ركب ورجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم.

فالله عز وجل هدى الناس بهذا الدين، وأقام الحق، وإنما هم أعرضوا عنه بسبب الهوى، وهذه أسباب من أعظم ما يكفر به المرء هو اتباع الهوى مخافة ذهاب السلطان، فاتباع الحق له موانع كثيرة في هذه الدنيا يجب على المرء أن يتجاوزها، فهذه هداية، الهداية الأخرى هي هداية التشريع.

ثالثًا هداية التوفيق: وهذه التي يحتاجها المرء بعد أن يعلم التشريع أن يوفقه الله، ولذلك الله عز وجل مع أنه قال له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى: ٥٢]، قال له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، أي أنت لا تستطيع أن تضع الهداية في القلوب، هذا ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢)﴾ [الغاشية: ٢٢]، بل أن المرء حتى لو أرادها ربما لا يأتيها لأسباب الله يعلمها في قلبه، كما قال الله عز وجل: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧]، يعني يأتي الإسلام فالله يكفي شر المسلمين منه، فبقائه على ما هو عليه شر عليه كما لو أتى ورحمة بالمسلمين ألا يأتي.

ولذلك على المرء دائمًا أن ينظر إلى يد الله الراعية لهذا الدين، الحانية لهذا الدين دائمًا، حتى والإسلام وهو مبتلى يجب على المرء أن يتفكر أن الله أراد به الخير، حتى وهو مبتلى، هذا خير له ما تدري، أنا مرات لما أفكر في طالبان سبحان الله كيف الله أزالها، أقول والله من رحمة الله إزالتها، أراد الله أن يذهبهم شهداء، لأنه ثبت بعد أن ذهبت كثير فيها من الفساد كان في الداخل، الذين انضموا للدولة وانضموا لأمريكان وانضموا للنظام، هؤلاء كانوا في مفاصل طالبان، وكثير منهم كان يدعو إلى بعض الأمور التي فيها الشر، فالله أذهبهم شهداء خيرٌ لهم، فأنت لا تدري أين الخير، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، فلا ندري الغيب وماذا يجري فيه.

رجلٌ تأخر عن وظيفته لا تدري لو أنك جئت في موعدك ماذا سيكون، رجل تأخر أن يأتيه المال لا تدري لو جاء المال ماذا سيكون، فالمرء يقبل أقدار الله عز وجل.

القصد من هذا: أن الله سبحانه وتعالى وفق أهل الطاعات فقط للهداية، وحرم الخلق، لماذا؟ بعدله، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، هم سمعوا ولكن ما أسمع قلوبهم ما وصل إلى القلب، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾، فإذن هو في الأصل لو جاءوا لكانوا من أهل الشر، فهذه هداية هي هداية التوفيق الإلهي وهذه هي أعظم ما يسأل العبد ربه، هذا هو الدعاء الذي ندعو الله عز وجل به في كل صلاة وفي كل ركعة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦].

والناس يتساءلون نحن نرى أن كثيرًا من المصلين ليسوا على الهداية ومع ذلك يقولون، يعني هم يقولون لا يتفكرون فيها ولو قيل له الله يهديك يزعل ويقول: أنا ما الذي أحتاجه أكثر مما أنا فيه، وبعض الناس يرى أن ما فيه هو الخير لا يحتاج إلى نصح ناصح، وتجد عنده من الأهواء والمعاصي التي تحجب هذا الدعاء، لأن الدعاء يجب أن يكون من خلال طريقه الصحيح، وأعظم الطرق الصحيحة هو أن يطلب المرء من ربه طلب الصادق لا طلب الإعراض، ما يُجري الكلام هذا ليس هو المهم.

ولذلك أعظم ما يسأل العبد ربه هو ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، فيسأله أن يهديه الصراط المستقيم، خاصةً كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم إذا قام لله قال: **(اللهم رب جبرائيل واسرافيل وميكائيل عالم الغيب والشهادة فاطر السماوات والأرض أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اللهم اهدني لما اختلفوا فيه من حق)**، تصور هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو هذا، **(اللهم اهدني لما اختلفوا فيه من حق)**، خاصةً في زمان الفتن، حقيقة هي في زمان الفتن المرء بحاجة لا

يدري، يظن أنه على الحق فيجب عليه أن يبكي أمام الله أن يهديه وأن يقوم الليل ويدعو بهذا الدعاء، هذا الدعاء كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقوله عقب القيام من الركوع، قال: **(اللهم رب جبرائيل واسرافيل وميكائيل عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اللهم اهدني لما اختلفوا فيه من الحق بأذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)**.

فالله سبحانه وتعالى هو الهادي، ومعرفة العبد أن الله هو الهادي أولًا يحمده على ما هداه لأنه لو سلب شيئًا من بدنه أو ممن حوله هداية أمر لفسد، وبالدليل أنه لو شُلت اليد، حرمت هداية ما خلقت له، لو سُلبت هداية العين لعمي، فيحمد الله عز وجل أن الله هداه ما رزقه إلى الخير، ومن ذلك أن يشكره على هِداية ما أعطاك، والله لو هذه النار، الله عز وجل حرمها الهداية وأضلها أن لا تؤدي ما فيه الخير للناس لكانت السبب في دمار البيوت، كم بيوت حرق أهلها، حُرمت الهِداية، حرمت التوفيق القدري، فعلمك أن كل شيء في هذا الوجود إنما يقوم بهداية الله يستوجب عليك أن تحمده، أن تشكره على ما أعطاك، الله أعطاك هذا البدن كله أنت تصور أن هذا الأظفر ينمو لوحده، الرموش من الذي أقامها، الأذان من الذي أقامها والصمغ الذي فيها، وهكذا.

فأولًا: علمك أن كل شيء هو هداية من الله، وأنه يقوم معك برعاية من الله يوجب عليك الحمد أولًا.

ثانيًا: علمك بأن الله هو الذي يملك الحق فيما يشرع للخلق، يستوجب عليك أن تقف أمام بابه لتتعلم ماذا يقول، ولا تأخذ من غيره، لا تأخذ مما يقول فلان، لا عليك بهذا الكتاب الذي يهدي.

فميزة الصحابة أنهم تربوا على هذا الكتاب، علموا أنه لا هداية لهم إلا من هذا الكتاب، لا هداية لهم إلا من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فوقفوا على هذا الباب واستفادوا منه، ونهلوا من هذا العلم العظيم فارتفعت مراتبهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فعلمك بأن الله هو الذي يهدي وأن شرائعه هي الهادية دون غيرها، بل أن ما يقوله غيره هو الضلال، يجعلك في إعراض وحتى لو تزين لك ما يقوله الآخر، فأدعو الله أن يكشفه لك، لأن حتى العلماء الكبار في تاريخنا عندما نظروا في كتب الآخرين والكثير منهم لم يكن له العلم بما يقوله الله أو الثقة بما يقوله الله ورسوله ما الذي حدث؟ تبنوا ما يقوله الأغيار، هذه الترجمات التي تمت لكلام اليونان وكلام الهند وكلام فارس، أخذوها فأحدثت فسادًا عظيمًا في أمتنا، وخلطوا الحق بالباطل، ولولا أن الله عز وجل أقام علماء

ميزوا بين الأمرين ميزوا بين الماء النمير وبين ما يأتي من القاذورات وإلا لفسد العالم، والله عز وجل قال: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، فالفساد يقع لو أخذت كلمة من الآخر، فلا نحتاج من الآخر، أنا لا أقول هذا تعصبًا وفقط لكلام عام بل نقوله على ثقة أن ما يقوله الآخر لسنا بحاجة إليه.

والله لولا وجود الفتن الموجودة في هذا الزمان من كثرة ما يقوله أهل الباطل لما احتاج المرء أن يقرأ مما يقولونه كلامًا واحدًا ولا كلمة واحدة، لكن المضطر أن يقرأ من أجل أن يرد، وكما قال أبو فراس الحمداني:

عَرَفْتُ الشَّرَّ لا لِلشَّرِّ ... لَكِنْ لِتَوَقِّيهِ
وَمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الشَّرَّ ... مِنَ الخَيرِ يَقَعْ فِيهِ

وكما قال عمر رضي الله عنه: «تنتقض عرى الإسلام عروة، عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»، فأنت ابن هذا الزمن فيه كلام كثير يقال يجب أن تطلع عليه وتعرف وترد عليه، وأن تدركه من داخله من باطنه، وإلا في الحقيقة أن الذي يقف أمام الآخرين ليتلقى منهم، أنظر لما يسمى بالديمقراطيين المسلمين، انظر إلى الصوفية هؤلاء كلها أخذوا من روافد أخرى غير الكتاب والسنة، وحصل الضلال والفساد.

ثم معرفتك أنك لا يمكن أن تختار الحق بقوتك، بل بهداية الله يوجب عليك أن تكثر الدعاء وتدعوه في سجودك، وتدعوه في كل حين ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وكما قلنا خاصًا عند حدوث الفتن سواء الفتن العلمية المتعلقة بالشبهات، أو الفتن العملية المتعلقة بالشهوات، أن تدعو الله أن يحفظك، أن تدعو الله عز وجل أن يعرفك الحق، وسبحان الله ثم الله يكشف على البصائر ويعرف الناس إذا دعوا هذا بشيء غريب جدًا يعني كما كان العلماء، إذا دعوا الله عز وجل فتح عليهم من المعارف والمعاني الغريبة، من العالم اليوم الذي إذا عجز عن مسألة من مسائل العلم نظر فيها في الكتب فلم يهتدي قام يصلي لله، أين هؤلاء؟ أين هؤلاء إذا حدثت فتن بين علماء بين مشايخ بين مسلمين بين طوائف، وقف لله عز وجل باكيًا لله يقول: يا رب أقمني موقف الحق.

انظر هذا أمر عظيم بماذا تميز الصديق رضي الله عنه في فتنة الردة، وخالفه كل الصحابة، إما خالفوه على جهة جواز القتال وإما خالفوه على جهة حكمة القتال، أنه هل يقاتل أم لا؟ يعني عمر رضي الله عنه خالفه على جهة حكمة القتال، لكنه لم يأبه لذلك كله، ورأى أن التنازل هذا سيؤدي إلى نقص في

الدين خاصةً أن الأمر جديد، وأن الدين هذا ما زال في بدايته، إذا في الابتداء تم التنازل، كيف سيكون في الانتهاء؟ وقال كلمته التي اشتهرت عنه «أينقص الدين وأنا حي»، لكن انظر إلى هذه الهداية القلبية.

هل تظن أن أبا بكر رضي الله عنه في لحظتها حصلت له الهداية أم أنه بهذا القلب الذي استعد طوال حياته على تحدي الباطل، والوقوف مع الحق مهما كان، انظر إلى تاريخه مع تصديق النبي صلى الله عليه وسلم، انظر إلى تاريخه مع الصبر، انظر إلى تاريخه مع الصبر، انظر إلى تاريخه مع الإنفاق على النبي صلى الله عليه وسلم، انظر إلى تاريخه مع التصدي، لما قال سهيل للرسول صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية: أجئتنا بهؤلاء الأوباش؟ والله لو قامت الحرب لا تجد أحدًا حولك، كيف رد عليه أبو بكر قال كلامًا شديدًا فيه، قال: «أنترك النبي ونفر»، فقال كلام شديد يعني الناس ربما يخجلون من قوله لكنه من شدة نصرته للحق، فالله عز وجل هداه.

فالمرء ينبغي أن يحضر قلبه ومعرفة الله في الرخاء تعرفك ربك في الشدة، في وقت الرخاء تدعو الله أن يوفقك لكل خير، وهكذا حدثت فتن في التاريخ كثيرة جدًا من الذي وقف لها؟ العلماء وقف لها العُباد وقف لها الذين لا يخافون في الله لومة لائم، لكن بسبب توفيق الله عز وجل وكثير منهم سقط، جاءت الفتن فسقط، لأنه لم يسأل الله عز وجل لم يقف على باب الله عز وجل سائلًا: **(لك العتبة حتى ترضى)**، يعني أقف على بابك معتذرًا كما اسمها العتبة، الناس يسموها العتية، تصور أنت لما تطرد ابنك تقول له: أخرج ليس لك مقام في البيت، فالدنيا برد ويبقى واقف على العتبة، ويقول لك العتبة حتى ترضى، أنا واقف هنا أعتذر لك أقبل يديك أقبل قدميك حتى ترضى، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(لك العتبة حتى ترضى)**، أنا واقف على بابك حتى ترضى، حتى تدخلني مدخل الحق ومدخل الصدق.

وهكذا إذا المرء أدرك أن هذا الكون كله لله في كل شيء في خلقه في هدايته في عطائه في منعه، تعلق بالله عز وجل دون بقية الخلق، الخلق مجرد أواني –يا إخوة– أواني فارغة، ليس فيهم شيء، ولو اجتمع العالم على أن ينفعوك بشيء لا يريد الله أن ينفعك به لن تنتفع به، وإذا أراد الله أن ينفعك بشيء لو العالم كله وقف، **(وضعت الأقلام وجفت الصحف)**، انتهى.

ثقتك بالله أن الحق من الله وأن القدر من الله وأن كل شيء بيد الله، وأن الله يهدي هذا القلب لينفعك، لو أنه هداه ليضرك خلاص، والله لو أن الله عز وجل سلب هداية زوجتك في منفعتك لما نفعتك، ولو سلب هداية ابنك في منفعتك ما حصل لك النفع، بل لو أنت تريد أن تنفع نفسك لا تستطيع أن تنفع نفسك، كل شيء بيد الله، فالثقة بالله عز وجل هو أساس هذا الدين، أن منه القدر منه الشرع، وأن

مرد كل شيء له سبحانه وتعالى، وأن كل خير منه سبحانه وتعالى، يوجب عليك الحمد والدعاء والاستغفار والوقوف منه موقف العبد، أنت عبد، العبد باطنًا وظاهرًا مستسلم لأمر سيديه.

اللهم ارحمنا برحمتك ويسر لنا الخير حيث كان وأجعلنا من العباد وأجعلنا من الصالحين وارزقنا علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وشفاءً من كل داء، وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

السائل: شيخنا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، الخير هنا ما هو المقصود به؟

الشيخ: كما تعلم في سورة «الأعراف» ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾، ربما تأتي بمعاني متعددة، يعني لو أعلم أني غدًا ماذا سيكون لأكثرت من الاستعداد له، هذا معنى وهو معناه الظاهر، لو أعلم مثلًا غدًا سيكون المطر لأكثرت الحطب، لو كنت أنا أعلم الفتن لأكثرت العلم في هذا الباب، كما ترى أن الناس تأتي أبواب من الفتن العلمية لا يُحضر لها، فقال: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ﴾، أي ما سيكون لحضرت له من الخير الذي يدفعه هذا معنى، ومعنى آخر ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾، يعني -وهذا هو المعنى- لأقمت نفسي حيث يأتي القدر.

أولًا: أن تحضر القدر.

ثانيًا: لأقمت نفسي حيث يكون القدر.

مثال: أنه لو أن رجلًا علم أن السيل يأتي من هذا الباب أين يذهب؟

ولنضرب مثال في حياة النبي صلى الله عليه وسلم في أحد، لو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير، لبين لهم، لصنع شيئًا يمنع هذه الهزيمة ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾، يعني كذلك الآن وأنت تشرب الماء لو تعلم أن هذا الماء فيه ضرر لما شربته، ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾، فهذا هو معناه والله تعالى أعلم.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخمسون: الحكيم

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الذي تعبدنا به علمًا وذِكرًا وحالًا، هذا الاسم هو اسمه الحكيم جل في علاه، وهذا الاسم ورد كثيرًا في كتاب الله سبحانه وتعالى، حتى عد بعضهم أنه ورد أكثر من أربعة وتسعين مرة بهذه العلمية، وهو الحكيم، واقترن اسمه سبحانه وتعالى الحكيم بأنه ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿وَاسِعًا حَكِيمًا﴾، ﴿عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ جل في علاه.

والمقصود من هذا الاسم كما هو بيّن من الحُكم أو الحِكمة وكلها تعود إلى متانة الشيء وضبطه، وعدم الخلل فيه، فالحكيم هو الذي لا يعتري قوله ولا فعله زللٌ ولا خلل كما يقول الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله يقول: «الحكيم هو الذي لا يعتري تدبيره خللٌ ولا زلل»، وحكمة الله سبحانه وتعالى بالغة، وهذه الحكمة بعض أهل العلم يقولون: «كل مدار كلمة الحكمة يعود على الفهم والعلم»، كل مدار كلمة الحكمة سواء كان الحُكم أو الحِكمة أو أحكم الشيء أي بمعنى اتقنه، أو حاكم أو حِكيم كلها تدل على الفهم.

وذلك لأنه إذا أتى المرء إذا كان مُدركًا الشيء من كل جوانبه فأنه يحتاج إلى ضبطه إلى شيئين:

أولًا: إلى علمٍ بهذا الشيء، أن يعلمه على جهةٍ تامة لا خلل فيها، لأنه متى يصدر النقص في الأحكام عند الناس؟ إذا كان هناك ثمة مناطق مظلمة لا يصل إليها فهمه، لا يصل إليها علمه، فيجب أولًا الذي يحكم الأمور من كل وجوهها أن يكون عالما بكل الجوانب فيها.

ثانيًا: لا يمكن أن يحكمها إلا بقدرةٍ تامة، يعني يمكن للرجل أن يكون حكيمًا في ذهنه غير حاكمٍ بقوته، وهذا نقص ويمكن للمرء أن يكون حاكمًا بقدرته بسلطانه ببطشه بقهره ولكن لا يكون حاكمًا برأيه ولا بعلمه ولا بفهمه، فيقع الخلل.

ولذلك قد يتساءل لماذا وصف الله سبحانه وتعالى بعض الأنبياء في صغرهم بالحكمة، ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢)﴾ [مريم: ١٢]، مع إنه لم يكن حاكمًا بالمفهوم الاصطلاحي الذي عليه الناس يعني لم يكن أمرًا

لهم ولا ناهيًا لهم ولا قادرًا على سوقهم إلى مراده، فلماذا وصف الله سبحانه وتعالى عيسى عليه السلام أنه ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ فلماذا قال الحُكم؟ وإنما هو مراده سبحانه وتعالى الحكمة، ذلك لأن الحكم يكون شاملًا لأمرين في كماله كما تقدم، شاملًا لقضية تمام الفهم وتمام العلم وتمام العقل وتمام الإدراك، فهذا متحقق في الحكم، لأن جذر كلمة الحكم هي الحكمة والسلطان، الحكمة بمعنى الفهم والسلطان بمعنى القهر والقوة، ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ﴾ في أنه أوتي الحكمة فيكون مسيطرًا عمن عنده العقل الذي يدرك هذا الحكم أنه صواب، وإن كان الأكمل في سلطان المرء أن يكون مسيطرًا عمن رضي به، وعمن لم يرضى.

ولذلك العلماء يقولون مقام النبي صلى الله عليه وسلم حتى في الدنيا أعظم من مقام بقية الأنبياء في الدنيا، لماذا؟ لأن بعض الأنبياء إنما استجاب لهم العقلاء، لما رأوا في كلامهم الحكمة فسيطرت حكمة القول على قلوبهم وعقولهم فاتبعوهم، لكن تأمل الذين لم يكونوا على هذا المدرك وهذا الأمر، يعني لم يكن عندهم العقل، فلم يستجيبوا لهم، فالأنبياء لم يسيطروا عليهم، ولم يقهروهم بحيث يمشوا في ركابهم دون إذنهم أو دون إرادتهم، لكن النبي صلى الله عليه وسلم مشى بركابه من كان على معنى الحكمة ومعنى العقل ومعنى الفهم ومن لم يكن كذلك، لتمام سلطانه في العلم وفي القوة وهذا أقوى وهذا أعظم.

فوصف الله عز وجل لعيسى عليه السلام ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، بمعنى كان له سلطان العلم فيما يقوله على الحكماء وليس له سلطان على غير الحكماء، لكن الوصف الأكمل أن يوصف به، له الحكم على من يستجيب له، له الحكم وهذا يكفي بأن يوصف بأنه حاكم، لأنه ليس من شرط اللفظ أن يكون الموصوف به متصفًا به بإطلاقه، والدليل أنه ما من حكيمٍ في الدنيا تبلغ حكمته الحكمة التامة، لا يوجد أحد، وإنما هو الله، الذي تبلغ حكمته الأمر التام والحكمة التامة هو الله.

فالله عز وجل مدحه بأنه له سلطان، وهذا السلطان على من استجاب له، فلذلك مدحه بهذا المقام العظيم فقال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ﴾، يعني الحكمة التي يتم بها السيطرة على القلوب التي تستجيب له، وهذا أمدح من أن يقول له آتيناه الحكمة فإنها لا تدل على المعنى الثاني إنما تدل على أنه يقول الحكمة، لكن لا تدل على أن يتبعه أحد أو أن يرفضه أحد، لأن الرجل أوتي الحكمة فلا تدل على أن يتبع الحكماء والعقلاء، لا تدل، فالله مدحهم من جهةٍ أكمل في ذكر أنه ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

ولذلك لماذا هذا الجذر؟ هذا الجذر واحد الحكمة والحكم، الحكم يقول أحكام الدابة يعني ماذا؟ أحكمها يعني ملكها، ولذلك الحاكم لماذا يسمى حاكمًا؟ لأنه يقضي، القاضي، أبو عبد الله الحاكم، أبو أحمد الحاكم، لماذا سموا بهذا الوصف؟ لأنهم قضاة، فالقاضي يسمى حاكمًا، والحاكم الذي له السلطان

يسمى حاكمًا لماذا؟ لأنه يُحكم أي يمنع الناس أن يخرجوا عنه، يمنع الناس من إتيان السفاهة، يعاقب من غلط فهو يُحكمهم يعني يضبطهم، والحكمة لأنها تمنع العقل من الزلل، وتمنع المرء من أن يزل في سلوكه وعمله، تمنعه من سوء الفهم وتمنعه من سوء القضاء وسوء الإرادة وسوء التوجه.

المهم أن الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بأنه حكيم، يعني لا يأتي ما يأمر به ولا ما يفعله لا يأتيه خلل، وهذا وصف نراه في قوله الشرعي وفي قوله القدري، تأمل هذا القدر، وقيام هذا القدر على معنى الحكمة التامة، حكمة تامة في أنه أجراه بتوازنٍ عجيب، ولذلك في الحديث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب، ثم نهى عن قتلها وقال: **(أنها أمةٌ من الأمم)**، هذا مدرك عجيب، ما المشكلة في أن تقتل ويكون العلة في النهي عن قتلها أنها أمة من الأمم لماذا؟ وكأن الوجود لا يقوم على زوال أمة من الأمم، أي لو أن أمة من الأمم أزيلت من هذه الأرض لوقع الخلل فالشارع منع من ذلك، وكأنه يمنع من قتل الرجل، قتل الرجل فساد في الأرض لماذا تقتله؟ أنت هذا ليس بيدك هو الذي أعطاه الروح وهو الذي يسلبها أنت لا دخل لك.

فالله عز وجل أعطى هذا الوجود هذا التمام وهذا الكمال بوجود الأمم المتنوعة ونحن نرى في هذا الزمان لو أنه أزيلت أمة من الأمم حتى لو كانت فيها الضرر لتم الفساد، وهذا موجود قصص كثيرة، أزالوا بعض ما يزعجهم في الزراعة أو في الطيران أو كذا، فيأتيهم أشد من ذلك وأفسد من ذلك.

يقال: مرةً أرادوا قتل بعض الطيور فاحضروا لها الصقور، فصارت الصقور أشد، الآن الناس يغضبون في بعض البلاد على وجود الفيلة لو قتلت لتم فساد كبير في الأرض، لأن الفيلة لها فوائد عظيمة حتى وفي وجودها، الميكروبات التي في الأطعمة لو أزيلت كلها لتم فساد كبير، وإنما يقوم الوجود على التوازن، حتى عندما أوجد المعصية إنما ليتم بذلك الحكمة.

ومن ذلك وجود المعاصي أن الصحابة كانوا كما ذكر ابن تيمية رحمه الله في «الصارم المسلول» كان السلف إذا سب أهل الحصن النبي صلى الله عليه وسلم استبشروا خيرًا، يكون سبهم استبشار بهلاكهم، فالله عز وجل يوجد الفساد، فالناس يسرون فالله يستر عليهم، فإذا أعلنوا أهلكهم، فوجود المفسدين الآن يعني أن يعلن الناس لأن الله يريد أن يدمرهم، يريد أن يهلكهم، كانوا مستورين في ستر الله وفي حفظه.

القصد: ما من شيءٍ أقامه الله في الوجود إلا على معنى الحكمة، أنت تصور أن الوجود كم ذهبت منه الملايين لو بقيت هذه الملايين، ماذا سيكون شأن الأرض وحال الناس، خمسة عشر مليون إنسان قتل في أوروبا في الحرب العالمية الثانية، في أوروبا لوحدها، هذه أوروبا التي أوجدت قارات، الأمريكان أغلبهم

من أين؟ من أوروبا، أستراليا من أوروبا، نيوزلندا هذه القطعة من الأرض، فتصور لو بقي الخمسة عشر مليون يتوالدون ويتكاثرون، ماذا سيكون أمرهم في هذه الحالة؟ فالله عز وجل هو الذي يضبط هذا الكون بسننه إما بالحروب وإما بالزلازل والبراكين، والناس يقولوا أين؟

لما دخل هولاك بغداد وقتل ألف ألف وثمان مئة ألف كما يقول ابن الأثير في كتابه «الكامل»، تصور في ذلك الزمان قتل مليون وثمان مئة ألف بني آدم، دخلت الدولة العثمانية فلسطين وعدد شعبها مليون ونص خرجت وعدد شعبها ميتين وخمسين ألف، بسبب الأمراض وبسبب ترحيل الناس من أجل سفرلك هذا الذهاب للجهاد ضد الروس وضد الأرمن وضد اليونان، وبعد ذلك الآن عدد الناس الذين توالدوا من فلسطين عددهم في الخارج والداخل اثني عشر مليون.

فالله يقيم الأمور على حكمة في القدر، في الوجود يقيمه على حكمة عجيبة جدًا، التوالد النساء والرجال والأطفال، ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ليس فقط في التشريع، حتى في الأقدار، ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ﴾ الله عز وجل الحق المبين ﴿أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾، تصور لو أن الله استجاب للعرب بأن لا يلد لأحد أنثى، ومع ذلك الله يقول عن الأنثى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى﴾ [النحل: ٥٨]، جعلها ماذا؟ سماها بشرى، هي ليست له بشرى هو لا يحب ولكن هي بشرى للوجود، الوجود له شأن آخر في قبولها ورضاها، الله عز وجل يفرح والوجود الذي خلقه يفرح لوجود هذه النسمات الجديدة لا بإرادتك.

القصد: أن الله عز وجل انظر إلى هذا المطر يقيمه على معنى الحكمة يهلك هنا ويقيم هنا، هذه حكمة عجيبة جدًا، ودائمًا المرء يتأمل كيف إذا الناس أرادوا شيئًا على غير وقته، يعني الناس يقولوا: «من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه»، لماذا استعجال الشيء؟

فتصور أن الطفل لو ولد في غير وقته، هناك نسمة هواء آتية من أوروبا من أجل أن يتنفسها لم تصل بعد، هذه النفس الذي يدخل إليه هو معين، وليس أي نفس في الوجود، نحن عندنا هو أي نفس، عندنا عندما يخرج الولد من بطن أمه أي نفس ينفع له، المهم يدخل هواء، المهم أن يتنفس لكن هل هذا ينفع؟ هل هذا في حكم الله أي نفس يدخل إليه، أم أنه محدد له الأنفاس التي تدخل في رئتيه فتنشئ الحياة وتعيد الحياة له، فتصور أن هذا النفس لم يصل بعد إلى هذه المنطقة الله لم يقدر بعد أن يصل، هي تتحرك بحسب سنة الله فيموت، ينتظرها فلا تأتي، بقية الأنفاس ليست مكتوبة له، كل هذه الأنفاس في هذه الغرفة ليست

مكتوبة له، ولذلك يخرج في وقتٍ مبكر عن وصول النفس المقدر له يموت، هذا هو عدم التقاء القدر، الموافق لسريان قدرٍ آخر يتعلق بشيء وخلقٍ آخر يتعلق به، هذه هي سنة الله.

يعني هذا لو أخذناه حتى في حكمة ربنا سبحانه وتعالى في التعامل مع الأنبياء، تأمل أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا ثلاثة عشر سنة في مكة ماذا كان ينقص دعوته سوا القدر؟ هو أحكم الناس وأعلم الناس وأكثر الناس رحمةً بالخلق، ماذا ينقص دعوته من قبول الناس لها، هل هناك ثمة نقص؟ يعني عندما يتهم الداعية أنه متشدد، عندما يتهم الداعية أنه شديد في كلامه، أنه غير لين في عبارته، فالناس يعلقون عدم قبول الناس لكلامه عليه، طب ماذا نعلق على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟ لا يوجد، ثلاثة عشر سنة وهو يدعو لم يستجب له أحد، حتى جاء أمر الله بعد ثلاثة عشر سنة ليلتقي الأمر مع قدرٍ آخر يتعلق بالمدينة المنورة،

فهذه الأقدار اتركها، هذا سر، والذي يتأمله المرء يرى أن سر القدر هو سر العبودية، انتبهوا أن سر التسليم للقدر هو سر عبوديتك، تصور لو أن رجلًا صلى وصام وزكى واستجاب لأمره الشرعي كما يشاء الله، ثم لما جاء الولد فمات ابنه كفر بعبارته وجعل يعترض على الله ويقول لماذا فعلت كذا؟ لا تنفع لا صلاته ولا زكاته ولا حجه ولا صيامه، الاستسلام للقدر ويقع الاستسلام للقدر بأنك تعجز عن فهمه في حالته وقد يفتح الله عليك بعد ذلك لماذا حدث.

كما أنك تمشي في السيارة فيؤخرك ابنك في الصعود إليها، فلما يأتي تضربه، ربع ساعة تأخرت وأنا انتظر فيك، فبعد أن تمشي وإذا في حادث في الطريق قبل ما تمر في اللحظة التي كنت فيها أو سيارة التي تركبها فما أدى إلى وفاة كل أحد، أنت تركت لماذا تأخر ابنك، ولم يتأخر بإرادته.

أيها المعرض عنا … إن إعراضك منا

من هنا العُباد يحبون الله لأقداره، وهذا أعظم أنواع الحب وأعظم أنواع التذلل والتعبد لله عز وجل، أن يستسلم لله، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنه: «الناظر في القدر كالناظر في الشمس كلما ازداد نظرًا ازداد تحيرًا»، هل هناك أحد في الوجود من أهل الإسلام لا يعرف سر الصلاة وفوائد الصلاة؟ كلنا نعرف فوائدها، هل هناك أحد من المسلمين يجهل سر الصيام؟ ما أحد يجهل سر الصيام، أذكرت للناس أسرار الصيام، يأتوك بالعشرات والمئات، لو قلت للناس: هل تعرفون ما هي أسرار الزكاة؟ يقولوا لك: الحمد لله هي نعمة عظمى، لكن لو ذكرت للناس لماذا جرى القدر هذا؟ الكثير من الأقدار يقولوا عنها: لا ندري،

ولكن لأنها من الله فهي حكيمةٌ عادلة عظيمة مقبولة رحيمة، وهذا أعظم أنواع الحب؛ أن تحبه وأنت لا تدري مراده، لأنك تحبه لذاته.

ولذلك معاذ رضي الله عنه وهو في لحظات الموت كان يقول وهو ينزع والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(إن للموت لسكرات)**، نزع الموت كإخراج الشوك من السفود المبلول، وهو يتألم ويقول: «أفعل ما شئت فإني أشهدك إني أحبك»، ومن هنا أعظم أنواع التعبد هو أن تعبد الله عز وجل في وقت صرف منافعك الظاهرة، لإدراكك أنه لم يفعل هذا إلا لحكمة.

ولذلك العلماء في وقت البلاء يظهرون البشائر والنبوءات النبوية العظيمة الدالة على العظيم، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، متى النبوءات ظهرت المبشرة، هل هم في سعة وجلوس، أقال لهم أنتم في سعة الحمد لله في سعة أعظم، هل هكذا؟ متى ظهرت البشائر والنبوات المبشرة العظيمة؟ في وقت المحن، هذا أعظمها، ومُصدق على وعد الله ويدرك حكمة الله، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤)﴾ [العنكبوت: ٤]، لما جئت لهذه الآية في تفسير سورة «العنكبوت» رأيت فهمًا خاصًا فيها لا يخالف كلام أهل العلم الذي قالوه، وإنما قالوا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، بمعنى: أن يفلتوا، الذي قاله العلماء هذا الذي قالوه: بمعنى أم حسب أن يدعوا علينا أنهم مؤمنون، ثم لا نكشف بواطنهم إنهم كفرة بالمحن، هذا معنى ما قالوه، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾، أي في قلوبهم مرض نفاق، وهم يظهرون الإيمان، فهل يحسب أنهم يسبقون يغلبون بإظهار إيمانهم الذي لا مصداقية له في بواطنهم، بل سنسبقهم ونغلبهم بإظهار ما في قلوبهم من النفاق والغل، هذا قاله العلماء.

ولكن أنا لما قرأتها وجدت فيها معنى أعظم من ذلك، وهو مرتبٌ علي ولكنه أعظم من ذلك وأعلى منه، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، هؤلاء الذين يعملون السيئات أحسبوا انتبه هم يعملوا السيئات بكيد ومكر فسيئاتهم هي مكرهم من أجل غلبة المؤمنين، بماذا يقع انتصار أهل الايمان عليهم؟ بابتلاء أهل الإيمان، بماذا يقع انتصار المؤمنين على الكافرين وعلى المنافقين؟ بأن يبتلي الله أهل الإيمان، يبتليهم، ففي ابتلاء أهل الإيمان، ونصرهم في ابتلائهم وثباتهم في إيمانهم هي نصرة من الله عليهم، هم يكيدون ليذهبوك عن الإيمان، فماذا يفعل الله، كيف يجيبهم، ما هي طريقة السنة الإلهية في التعامل مع إذلال الكافرين ما هي؟ هو أن يبتلي الله المؤمنين، ولذلك وجود المؤمن في السجن وثباته هو النصر.

ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾ [آل عمران: ١٣٩]، مع أنه قتل منهم سبعون رجل وجرحوا وعذبوا مع ذلك اعتبر هذا أنكم ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾، بماذا يقع نصر الله على الكافرين؟ بابتلاء الله للمؤمنين، فكلما كان هناك بلاء للمؤمنين دل على النصر.

والدليل: انظر التاريخ الذي نعيشه لا تذهب بعيدًا، كم مُكر بأهل الإسلام؟ كم مُكر بهذا الدين؟ بل كما قال الله عز وجل في سورة «سبأ»: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سبأ: ٣٣]، مكر الليل والنهار هؤلاء، فبما نصر الله الدين؟ نصره بابتلاء أهل الإيمان، دخلوا السجون فكان سجنهم نصرا، دخلوا السجون فقالوا عِلما، دخلوا السجون وقتلوا وعلقوا على المشانق فنشروا عبق الخير في العالم أجمع.

انظر هذا السر في حكمة الله في جريانه في الأقدار أمرٌ عجيب!! ووالله ما رأيت فتنةٍ في القرآن أعظم من فتنة الله لأوليائه وأنبيائه بالقدر، أنا لم أرى نبيًا من الأنبياء أعترض أو تساءل أو وجما أمام الشرع في القرآن لا يوجد، لكن كم مرة من الأنبياء وقع منهم، ابراهيم عليه السلام يقول: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٣٢]، هذا ليس اعتراض لكن يعني إن فيها لوطا، ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢)﴾ [العنكبوت: ٣٢]، لوط ماذا يقول؟ ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: ٨١]، فيقول الصبح الآن، فيأتي الجواب، ما ذكر قوله ولكن جاء الجواب على قوله: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)﴾ [هود: ٨١]، لما دخلوا عليه قال ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)﴾ [هود: ٧٧]، ما الذي أتى بكم؟ وهذا الذين جاءوه في صورة البلاء في داخلها النصر.

ومريم يأتي يبشرونها بولد، فهي تقول: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم: ٢٣]، هو يريد ربنا سبحانه وتعالى أن يقول –وعبده أمام القدر ويتألم– يريد أن يقول: هذا تألم طبيعي، وتأمل أم موسى عليه السلام، الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧]، طبع في قلبها هذا المعنى وهذا الإيحاء الإلهي ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص: ٧]، ومع ذلك ماذا أصبح بقلبها؟ يقول الله عز وجل: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠)﴾ [القصص: ١٠]، في وعد ولم يعاتبها الله، الله يعلم مقامات البشر كلهم.

ولذلك آخر فتنة للصحابة تصور هؤلاء الصحابة الذين عاشوا في ثلاثة عشر سنة في مكة وعاشوا المعارك والآيات ورأوا كل شيء ورأوا النصر الإلهي، ولا معركة اختاروها هم، انظر كل المعارك التي خاضها

رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختارها لا رسول الله ولا الصحابة، صلى الله على الحبيب ورضي عن أصحابه، بدر هم اختاروها، أحد تنازعوا فيها، الخندق أسيروا فيها، أعطني معركة هم اختاروها بإرادتهم، فالله يريد يقول لهم: ليس بأمركم حتى اختيار المعارك، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(ويح قريش أكلتها الحرب لو أنهم خلوا بيني وبين الناس)**، يعني اتركوني أهدي بالناس ويأبى الله إلا أن يجري الحكمة على أمر النبي لا يحبه، ووصلوا إلى حد صلح الحديبية، كل هذا التعليم هذه مرحلة القدر.

ما هي المشكلة في مرحلة القدر كل ما تجاوزت مرحلة في أكبر منها، نجحت في المرحلة الأولى في مرحلة أعظم منها، تبقى في حالة حيرة وتعلم لتبقى عبوديتك تامة لرب العباد، وأعظم ما يتحقق «إن قالها فقد صدق» هذا دينه، أكبر خطأ يمارسه الناس في هذا الزمان يظنون أن نصرة الدين بأساليبهم وبتدبيرهم وبحكمتهم، وأنتم ترون حتى المعارك والجهاد، أعطوني معركة اختارها أهل الإسلام في هذا الزمان، هم اختاروا أفغانستان ولا الروس الذين جاؤوا، هم اختاروا العراق ولا الأمريكان جاؤوا، فحكمة الأقدار حكمة، أما حكمة التشريع فهذا شيء يعني أهل العلم يتسابقون بذكره وأمرٌ عظيم، وكل يوم تظهر من الدلائل الكونية الدالة على أن شرعه هو خير الشرائع، وأن دينه هو خير الأديان من جهة الأحكام التي تتعلق بتشريعات البشر، إلى اليوم يكتشفوا لماذا نشرب ماء ونحن جالسين، لماذا عند صلاة الصبح الصلاة خير من النوم طلعت الجلطة بتطلع الفجر، يعني حتى هذه الدقائق من حكمة التشريع، وموافقتها للقدر أمرٌ عظيم.

وأما حكمته سبحانه وتعالى في خلق المؤمن والكافر، حكمته في القضاء الإلهي المتعلق بالغيب وما بعد الموت، هذا أمرٌ لا ينتهي هذا، كفر البشرية كما يقول كبار العلماء: «كفر البشرية متعلق بالقدر، لم يفهموا سر الله في القدر»، لماذا الخير؟ لماذا الشر؟ لماذا يوجد جنة؟ لماذا يعذبنا؟ لماذا يفعل بنا هذا؟ نحن عبيد هكذا خلقنا لا ندري.

ولذلك **(إذا ذكر القدر فامسكوا)** ما لك إلا أن تعظموا الله العظيم الجليل في خلق هذا الكون وخلق هذه الأقدار، وكيف أن نوح عليه السلام تسع مائة وخمسين سنة وهو يدعو الناس إلى الدين ثم لا يستطيع أن ينقذ أبنه، قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥)﴾ [هود: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾ [هود: ٤٠] هو نسيها.

أنور الكشميري رحمه الله رائع عندما يتكلم عن هذا في «فيض الباري» في تفسيره، أنا أنسبها له لأنها كلمة عظيمة، وأكررها كثيرًا، قال: «لماذا وقف النبي صلى الله عليه وسلم داعيًا في بدر أكثر وهو الذي

بشر»، ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، يعني مبشر إحدى الطائفتين أنه خلص فاتت القافلة إذن البشرة الثانية بالحرب، ومع لذلك وقف داعيا حتى سقط رداءه وهو يستغيث بربه، أن ينصره حتى يعني شفق أبو بكر عليه وقال: «كفاك مناشدتك ربك أنه منجزك ما وعدك حتى سقط الرداء عنه»، هل يعني هذا أبو بكر رضي الله عنه متذكر للوعد، والحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم إمامه وأبو بكر هو حسنة من حسنات رسول الله صلى الله عليه وسلم هل ينسى ذلك؟!! فقال -أنور الكشميري-: «إنما يخاف النبي فوات شرطٍ من شروط النصر ذكر لم يأته ولم ينتبه له»، لماذا؟ لو تتفكر بهذه الكلمة تجد أن كثيرًا ممن نسوا، لحظة البشرى ينسى، ويحتاج إلى تذكير.

كما قال الله عز وجل على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هود: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾ [هود: ٤٠]، لكنه ابنه، الله جل في علاه يقول لرجلٍ من عبيده من أحبابه وقف داعيًا تسع مائة وخمسين سنة، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦)﴾ [هود: ٤٦]، انظر عظمة الاعتراض على القدر، وقال له: واستهزأوا به، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨]، وقال تعالى على لسان قومه: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦)﴾ [الشعراء: ١١٦]، قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦)﴾ [هود: ٤٥-٤٦]، تنبه لهذه الكلمات كيف يرتعد منها القلب، ما في اعتراض على قدر الله.

فإياك أن تعترض سلم لله عز وجل، لا تقول وعدني ولم يوفي، أعوذ بالله، لا تقل أين نصره للمؤمنين؟ لا تقل هذا، لماذا يعذب هنا يسلط الكفرة على المؤمنين؟ لا تقل هذا انتبه، ومن هنا يأتي يقين العُباد والصالحين، سيد رحمه الله يقول: المستقبل لهذا الدين قبل أربعين سنة قبل خمسين سنة، اليوم تقول كل البشائر هذه اليوم والله تعجب!! كل هذه البشائر العظيمة التي تهل على الأمة من سقوط الجاهلية ودمارها فتقول البشائر قدمت، يقول لك أحدهم: عن ماذا تتكلم أنت؟! أين البشائر يا ابن الحلال؟! رجل في السجن رجل يرى الإقبال ويقول المستقبل لهذا الدين، كلهم كتبوا المستقبل لهذا دين كل أهل العلم، هذه الثقة بالله عز وجل وثقة بنصره.

فعمر رضي الله عنه يقول لما نزل قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر: ٤٥]، هذا في مكة قال: أي جمع هذا!! لكن تأمل أنه أنزلها على نفسه، تأمل فقه الصحابة مع القرآن، قال لما نزل

قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، قال: أي جمع سيهزم هذا؟ فلما رآهم في بدر علم ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، كم بين نزولها وبين بدر؟ كم بين وعد الله عز وجل أن ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [البقرة: ١٢٩]، بينها وبين بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.

وانظر إلى قوله سبحانه وتعالى في قضية كما يقول العلماء هذه القضية تتعلق قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: ٤٥]، ما معنى السكون هنا؟ تأمل أن الحياة في الضوء، الدقيقة الواحدة تعادل عشر سنوات، لو تعيش دقيقة في الضوء ماشيًا معه متحركًا فيه، يكون قد عاش أهل الأرض عشر سنوات، فالناس يظنون الزمن هو شيء واحد، لا، الزمن في الضوء هو غير الزمن في هذه الأرض، هذه هو النظر إلى أن الله عز وجل الصبور الحكيم جل في علاه، أترك وسلم، الله قال لك فقط افعل الطاعة وعلي الباقي، انصر الدين وعلي الباقي، والنصر يأتي بتقدير من الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾ [يونس: ١٠٩].

القصد: أن حكمة الله عز وجل عظيمة، تدرك في بعض جوانبها وفي بعض جوانبها التسليم مع الله عز وجل، وهذا هو منتهى التعبد، لما يقول ابن القيم رحمه الله: «كنا يشتد بنا البلاء في السجن في القلعة، فنأتي إلى الشيخ، فوالله ما نقوم من عنده حتى يفرج عنا»، يقلب الصورة، الصورة هي بلاء، وكان يقول: يتمثل قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣)﴾ [الحديد: ١٣]، لا إله إلا الله، هذا عجيب!! هو شيء واحد، أهل هذه الأرض يرونه بلاءً، وأهل هذه المنطقة يرونه رحمة، النظر إلى أن تعيش فيما يرى الله، فأن تكون ربانيًا هذه هي الحكمة، هذه هي العظمة، هذا هو الحق، هذا الذي يؤدي إلى النتائج العظيمة، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤)﴾ [العنكبوت: ٤]، اللهم ارحمنا برحمتك أغفر لنا وأجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الواحد والخمسون: الناصر والنصير

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغّر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أيها الإخوة الأحبة أهلًا وسهلًا بكم في لقاءٍ جديد مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى، الذي تعبدنا به عِلمًا وذِكرًا وحالًا، ألا وهو سبحانه وتعالى اسمه الناصر والنصير، وقبل أن أتكلم عن هذا الاسم ومعناه، وأتكلم عن أثاره في الحياة، وعلى أهله والمعنيين به، المقصود من تعلم هذه الأسماء هو التنبه إليها وإلى أثارها وأن ندرك أن هذا الوجود كله هو محكومٌ في كل تصرفٍ فيه وفي كل حدثٍ فيه، أنه محكومٌ لله عز وجل، وأن كل شيءٍ فيه مما يراه الناس إنما هو يدل على الله عز وجل، وحين يقع في قلب العبد هذا فأنه يشهد الربوبية، أي الربوبية حاضرة في كل ما يقع في الخلق، من إيجاد لهذا الخلق، من تصرف فيه، من جريان أحداثه ونوازله، ومن فعل البشر وفعل الخلق وفعل الدواب.

فالله سبحانه وتعالى هو رب كل شيء، والعبد محاط بهذه الأقدار، لا انفكاك عنه، لا يستطيع هذا الإنسان جاهل حين يرى نفسه شيئًا، حين يرى نفسه أنه يستطيع أن يخرج من أقدار الله عز وجل، أو أن يصنع شيئًا بلا مشيئة الله وبلا إرادته، وبلا استمداد العون والقوة والنصر منه، فأولًا يقع في قلب العبد حين يتأمل هذه الأسماء أن كل شيء هو منه سبحانه وتعالى، ما يقع من خلق، ما يقع من علم، ما يقع من عطاء ما يقع من منع، ما يقع من إيجاد، ما يقع من إفناء، هو كل شيء بيده سبحانه وتعالى.

فيكون ذكر الله عز وجل حاضرًا في قلبه، وتكون عظمة الله عز وجل حاضرة في قلبه ويكون شهود الرب سبحانه وتعالى حاضرًا في قلبه، **(أن تعبد الله كأنك تراه)**، لِمَ تراه من أثاره التي تقع في كل لحظة، هذه الأنفاس الآن ونحن نجلس هذه الجلسة هذه إنما هي بتدبير الله عز وجل، وخلق الله سبحانه وتعالى وعطاء الله سبحانه وتعالى، يمنعه أقوامًا فيموتون، تنتهي أعمارهم فيمنع عنهم النفس خلاص الدنيا كلها هواء، لكن يمنع النفس عنهم، تنتهي حياتهم، فتعلم أن الله له إرادة خلاص أراد الله عز وجل أن يفني هذا، وأراد الله عز وجل أن يحيي هذا كم في هذه اللحظة كم من الناس يُلدون يخرجون، فتنتفخ فيهم أرواحهم، ويخرجون الحياة ويبدأ نفسهم يبدأ العداد، الله عز وجل يبدأ إعطاء لهم الأنفاس وتبدأ هذه الإحصاء الرباني

لكل ما يفعلون وكيف يقدر لهم أقواتهم ويقدر لهم أنفاسهم ويقدر ما يمنعه عنهم ويقدر البلاء عليهم ويقدر الرزق، كل شيء بتدبيره جل في علاه.

فعلى المرء أن يشهد هذا ونهاية هذا الشهود العظيم لأثار الله عز وجل في الوجود تنتهي بترديد هذه الكلمات «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»، وأنت ترى هذا وبعد ذلك تدرك حكمة الله وعلم الله ورحمة الله، تنظر إلى الرحمة التي تسبق الغضب، البشر كم يعصونه وكم يسبونه وكم يكفرون بنعمته، يكفرون بالنعمة!! ومع ذلك يعطيهم تدرك أن الرحمة هي السابقة، وتدرك أن العطاء هو أكثر من المنع، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، أعطاهم، وأعطى أهل الإيمانِ الإيمانَ، والناس تسابقوا فيما في ميدان الإيمان حتى لترى العجب! الناس يتسابقون في مجال الأموال فترى كذلك العجب!! ولكن في النهاية الإنسان محاط بأقدار الله، ما معنى أقدار الله، ما معنى أن نقول قدر الله؟ يعني أن الله هو الذي يقدر الأشياء، يقدرها على الخلق، فلا يستطيعون لها انفلاتًا سواء بكتابته السابقة الأزلية على ما سيكون أو بعطائه عندما يريد أن يعطي سبحانه وتعالى.

وتدرك حكمة الله حينئذٍ المرء يلهج بهذه الكلمات سبحان الله، أقام هذا الوجود على وفق كمالٍ مطلق لا ترى فيه عوجًا ولا أمتا، فلو قلبت نظرك ألف مرة لا تجد فيه ما يخدش عظمة الله عز وجل ولا يخدش قوته، أقامه على الكمال وأقامه على العطاء وأقامه على التمام، حتى لو تأملت بعد ذلك تأملت هذا الخلق ثم رجعت متفكرًا كرةً أخرى متفكرًا إلى شرعه، كيف الله عز وجل ربط النصر بالشرع؟ وربط العطاء بالشرع وربط إنزال الأمطار بالاستغفار، ونصر الأنبياء مع ضعفهم وأبقى دينه مع كل ما يُكاد لهذا الدين بالليل والنهار، ثم إذا تأملت شرعه، رأيت العلم التام بحسب ما ترى من عقلك وموازين الفطرة التي لديك وبحسب ما ترى من أثارها في الوجود.

فانظر عندما ترى المعاصي كيف يتم الخذلان ويتم الدمار ويتم الهلكة، فيروس جرثومة الفساد تدب فيهم حتى ولو كانوا من أعظم العظماء، حتى لو بنوا وشيدوا، وانظر إلى ماذا شيدوا، انظر إلى الفراعنة ماذا شيدوا في مصر وانظر إلى عاد، انظر إلى أهل البتراء الأنباط العرب النبط، انظر أين هم؟ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]، خاوية لا يوجد فيها أحد، بيوت كبيرة مقام بالصخر، مع ذلك آلت إلى لا شيء.

فأنت حينئذٍ تنظر إلى عظمة الله، هكذا تسبح الله سبحان الله هذه الكلمات الباقيات الصالحات، بعد أن يفهم كل شيء وبعد أن يبدأ كل شيء ينتهي المرء إلى هذه الكلمات: «سبحان الله والحمد لله ولا

غله إلا الله والله أكبر»، تأمل هذه الكلمات ما فيها من تجريد التوحيد وما ترى فيها من بيان أفعال الله عز وجل وتدبيره وبيان علمه وبيان عطائه ومنعه وحكمته سبحان الله! لا يوجد شيء يقدح في قدوسيته سبحانه وتعالى هو القدوس، مبرأ من كل نقص تام، الحمد لله أعطى الخلق هذا العطاء، الكافر والمؤمن أعطاهم، خلقهم على هيئات عجيبة جدًا! وجعل هذه الهيئات كلها موافقة لشرعه ليسجدوا ويركعوا ويسبحوا ويرون نعمة الله ويسمعوا آثار نعمة الله وهكذا.

لا إله إلا الله وهذا نهاية كل شيء، **(أفضل ما جئت به أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله)**، لا معبود بحق إلا الله، كل هذه المعبودات باطلة، يعبدونها يظنون أنها تنفع وأنها تضر، يستغيثون بها يسجدون لها، وهي لا تنفع ولا تضر، يأخذون منها العلوم، يظنون أن علومهم فيها التجربة وفيها الذكاء وفي كل يوم يغيرون أراءهم، الله أكبر هو القاهر جل في علاه الذي يسيطر على كل شيء جل في علاه.

المقصود: أيها الإخوة الأحبة حين أن نتفكر في هذه الأسماء علينا أن نرى آثارها، علينا أن نتأملها في كل لحظة، في كل لحظة، ومن أجل أن نُعامل هذه اللحظة على وفق ما أمر الله، فإذا رأينا نعمةً شكرنا الله وحمدناه، وإذا رأينا بلاءً صبرنا ونسبنا الخير إليه، ولم نعترض على قدره، لأن الكثير من البلاء يقع على الخلق ثم ينتهي إلى نعمة، كم من محنة انقلبت إلى منحة؟ وهذا نراه، وما من منحة في الوجود إلا وهي معطاة من قبل البلاء.

فحتى الطفل عندما يخرج من بطن أمه أنظر إلى آلام طلقها وإلى عذابها وتعبها، ثم بعد ذلك يخرج هذا الطفل والكل يفرح والكل يبتسم ويروه نعمةً عظيمة نسمة في الوجود، الله خلقها أمام الخلق خرجت، حتى وهو يأكل ويشرب هذه النعمة كيف خرجت، القرآن وهو ينبئنا إلى قدرة الله وعطائه ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾ [الرعد: ٤]، هي كلها نراها نحن بالنسبة لنا الخلق، هم يكتشفون فقط ولكن ما الذي أوجدها، عندما نرى خشبة هذه الخشبة التي تزرع في الأرض، وإذا هي قد صارت شجرة وأنبتت النبت وأعطت الثمار فمن الذي أنبتها؟ من ماءٍ واحد كلها تسقى من ماءٍ واحد، ويفضل وبعد ذلك هذا الأكل العظيم والعجائب ترى الألوان العجيبة والمذاق العجيب والرائحة العجيبة، والأشكال العجيبة!

فالله ينبهنا إلى ما نعيشه في كل لحظة ولا ننتبه له، ينبهنا جل في علاه إلى الليل والنهار، هذه آيات الله عز وجل ولو شاء ربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى

يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص: ٧١-٧٢]، هذه الآيات العظيمة هي آثار صفات ربنا سبحانه وتعالى، آثار هذه الصفة.

ومن أعظم ما يدل على أن الأنبياء جاءوا بالحق، هو أن الله نصرهم، مع أن كل موازين الدنيا تدل على أنهم لا يمكن أن يحصلوا النصر، الله عز وجل أيدهم ونصرهم ونوع نصرهم جل في علاه، تنويعًا عجيبًا جدًا! لأنه يأتي هؤلاء الأعداء من حيث لم يحتسبوا، نوح عليه السلام الله نصره بالمياه، ماء من أجل الشرب والحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، جل في علاه يقلب هذا الماء إلى عذاب، سبحان الله! نوح بالماء نصره، عاد دمرهم الله بالريح، الهواء هذا الذي لا قوام للحياة إلا به فالكائنات لا يمكن أن تحيا إلا بالهواء والتنفس، ومع ذلك هذا الهواء يتحول إلى ماذا؟ إلى عذاب، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨)﴾ [الحاقة: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤)﴾ [الأحقاف: ٢٤]، بنوا المزارع وبنوا الأشياء ومع ذلك الله دمرها.

وربط كل هذا الكون ما يعطيه وما يمنع ربطه بالشرع، فقد يعطي من أجل أن يبتلي ومن أجل أن يعذب وقد يعطي من أجل أن يحمد ويشكر فيحب ربنا، وهكذا، وقد يمنع من أجل أن يكفر الخلق، يكفرون إذا منعهم يقولون: ماذا نحن؟ لا يرون في الوجود إلا الشر، وقد يمنع فيصبرون، كما قال الله عن المؤمنين: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)﴾ [البقرة: ١٥٥]، الله نصر العبيد في وقتٍ وفي أحوالٍ وصل الكفر فيه إلى منتهاه، وبغوا وكفروا إلى المنتهى.

كما حدث مع لوط عليه السلام، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩)﴾ [هود: ٧٨-٧٩]، في هذه اللحظة من البغي والكفر والطغيان ورفض الحق والتعالي على دعوة الأنبياء يأتي النصر، وذلك من أعظم ما يدل على أن الله عز وجل يدبر الكون أنه يؤتي من حيث لا يحتسب، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، ما معنى من حيث لا يحتسب؟ يعني جريان السنة أنه يدل على هذا المسير، أنه مسكين فقير هذا الأمر الفقر سيؤدي إلى النهاية، ولكن يأتي وإذا هو سبب للغنى.

وكما حصل مع يوسف عليه السلام، كل الدلائل توصل إلى نهاية واحدة، أنه خلاص انتهى، إخوته يرمونه في البئر ويتركونه يباع هذا النبي العظيم يباع، وامرأة العزيز تراوده وتصر على أن يسجن، ومن السجن ينطلق النصر ويصبح هذا الذي مكنه الله في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، وهذا النموذج القرآني يحصل أمثاله في الوجود الكثير.

وهؤلاء العرب في الجزيرة العربية في الحجاز ماذا عندهم؟ تخرج الجيوش من أجل أن تدك الحضارات الشركية الوثنية ويقيمون الشرع وينصرهم الله، العالم يقف مذهولًا، والله يا أخوتي اقرأ لبعض المستشرقين فيتعجب من أين أتت هذه القوة؟! كيف حصل لهؤلاء القوم النصر؟! كيف غلبوا هذه الإمبراطورية؟! كيف رجل واحد ينتهي دينه إلى هذه الأرض الكبيرة وينتشر الأذان؟! انظر الكلمة تبدأ في مكة والأذان الآن يصدع في كل العالم، هذا دينه.

ومن أعجب ما يحصل مع هذا الدين أنه في الوقت الذي ترى أنه ضعيف ينتشر، بعد الحروب الصليبية الإسلام دخل إلى أوروبا، أوربا الشرقية دخل فيها، البوسنة والهرسك هذا متى دخل؟ بعد أن جاء التتار والحروب الصليبية الإسلام دخل الأناضول، في وقت الضعف ينتشر ويقوى، فبعد المحنة ترى أن الدين يتقدم، وهذا من أعجب العجب!! اليوم الإسلام كم هو محارب ومع ذلك الناس العقلاء يأتون إليه! فيه النصر هذا الدين فيه عامل النصر والقوة؛ ذلك لأنه دين الناصر والنصير جل في علاه، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)﴾ [الفرقان: ٣١]، هذه قوة العلم بالغلبة، هاديًا.

وما أعظم ما يحصل للعلم به؟ هو أن يأخذه المقابل، هب أن الناس يقولون حقًّا فلا تجد له تابعًا فما قيمة الحق؟ لكن الله عز وجل أنزل الحق والهدى، وأدخله القلوب، وأخذه خير الناس وأفضل الناس وهم لا يملكون شيئًا إلا أنهم أخذوا الحق فنصرهم الله، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١)﴾ [الفرقان: ٣١]، لأن الذي يأخذ هذا الدين الله يتولاه، الله يتولاه بالعطاء، يتولاه بدفع العداء عنه، يتولاه بالمدد، يتولاه بأن ينصره من أعدائه، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥)﴾ [النساء: ٤٥]، وهذه كفى هذه عجيبة! من لم يتأملها تاه في وديان البحث عن ناصر وعن ولي، ولن يجد والله يقول: ﴿وَكَفَىٰ﴾، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، كفى خلاص أغلق الباب، إذا دخلت إلى حمى هذا الرب العظيم كفاك، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥)﴾.

وهذا هو الشأن الأولياء لا يرجون غيره ولا يسألون إلا إياه، ولا يطمعون إلا في رحمته، ولذلك الله سبحانه وتعالى من أسمائه ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠)﴾ [آل عمران: ١٥٠]، إذا كان الناس ينصر بعضهم بعضًا، القبيلة تنصر ابنها الدولة تنصر جنودها فالله خير الناصرين لأن هؤلاء هم جنده، هم عبيده هم يسألونه دخلوا إلى حماه، تعلقوا به قالوا: حسبنا الله، وهم يقولوا: حسبنا الله يكفينا، حسبنا الله ونعم الوكيل، أسلموا له، هل تظن أن الله جل في علاه يخذلهم؟!! فالكرماء من البشر يسموا طنيب يدخل عليهم ويمسك الطنب الذي هو العامود من أجل هذا سمي بالطنيب، يدخل عليه ويقول له: طنيب عليه، خلاص أنا تعلقت بهذا البيت وما فيه من عز وكرم وقوة وشجاعة، هل يخذله؟!! وهل الإنسان وهو يقول: حسبي الله ونعم الوكيل، هل تظن أن القلب لا يستشعر أنه قد التجأ إلى ولي وإلى عظيم وإلى قادر، وإلى نصير؟ حسبي الله ونعم الوكيل، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، يكفيه خلاص يكفيه.

(ولو اجتمعت عليه من بأقطارها)، النبي صلى الله عليه وسلم اجتمعت قريش حتى جاء الشيطان دخل بينهم الشيطان زعيم هذا المجلس هو رجل نجدي وهو الشيطان، وكادوا له وكم كادوا؟ وكم كيد لهذا الدين في تاريخه كم تمالؤا عليه، كم جاءت الجيوش، كم كتبوا الكتب؟ كم فكروا؟ ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ [سبأ: ٣٣]، مكر الليل والنهار.

بالله عليكم لو كان هذا الدين الذي هذا الإسلام لو لم يكن منصورًا من الله بهذا الكيد الذي يحصل، هل تجد رجلًا مصليًا؟ انظر كم تنفق المليارات، كم تتحرك الجيوش، كم يفكر بالليل والنهار في المؤسسات ومراكز البحث، كم يدفعون بالنساء، انظر هذا المجرم الآن هذا الرحلة التي يقوم بها البابا إلى شرق الجزيرة العربية، هذه كما أنفقوا عليها؟ كم كادوا لها؟ الآن لو نجلس كم فكر هذا المجرم هذا أبوهم، كم فكر؟ ماذا سيجني؟ لكن يحارب من هذا؟ انظر الناس الآن كيف هذا الفعل ينقلب على عكس مراده، يريد أن يحرقوا هذا الدين فالله ينبت منه الأشجار ينبت من الرماح ينبت منه الجهاد، وهذه كلها هم كلما ازدادوا عداء للدين، كلما ظهر ضعفهم أمام الله، والله يتركهم.

ومن ذلك كلام سيد رحمه الله من أعظم ما يكون، قال: لماذا يؤجل الله عز وجل نصرة المؤمنين؟ فذكر أسبابًا كثيرة، ومنها هو أنه حتى تقوم الحجة، اصبر حتى تقوم الحجة، دعه يتمادى، وهو يتمادى يمشي إلى حتفه، الآخر يقول اقتله من أول أحسن يقوى ويتعبنا، أي تفكير بشري ماذا يقول؟ اكسر قرنه وهو طري، لأنه إذا قوي قتلك فلا تتركه يقوى، لا تترك الشر يكبر في بيتك، ولا العدو يكبر في بيتك، أقتله في بدايته، الله ماذا يفعل جل في علاه من سنته؟ يتركه ويمد له، لأنه هل يستطيع أن يقول خرج عن قدرة الله خلاص انتهى لا يستطيع له؟!، يمد له يعطي حتى يصل إلى أقصى ما يصل إليه من القوة، ﴿وَقَالُوا

﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ويقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤)﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]، ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥)﴾ [الشعراء: ٥٤-٥٥]، فقط أتعبوا نفسيتنا منهم هؤلاء وجودهم يؤرق الوجود، لحاهم صلاتهم تكبيراتهم هذه تزعجنا بس تزعجنا، وفي أوج قوته يأتي النصر الإلهي، فهذا إلهٌ عظيم، هؤلاء شيء يدمرهم يأتي إلى النمرود فيدمره بذبابة تدخل في أنفه كما يقال في كتب التاريخ، خلاص ينتهي.

وفي كثير من أخبار الخلفاء والسلاطين أشياء عجيبة حتى مع المؤمنين، ألب أرسلان كان هذا الرجل السلجوقي كان من كبار وعظماء السلاطين، فمرة وقف أمام الجيش على جبل، بعد أن انتصر في إحدى معاركه الكبيرة، فنظر إليه وأعجبته نفسه قال بما يعني: أنا ملك الأرض، بالرغم أنه من الصالحين هو من المجاهدين لكنه قال: أنا ملك الأرض، فجلس على كرسي ملكه وأحضر أسير من الأسرى من كبارهم في المعركة، فقال: لا يقتله إلا أنا فكوه، فما أن فكوه كان مخبئ سكين في حجره، حتى أخذ السكين وهجم على ألب أرسلان وطعنه وقتله، بين جنده وفي مملكته وفي قصره، وبعد انتصاره، لكن الله أراد أن يؤدبه، بقي طيلة الليل يقول: جاءني الموت ويستغفر ويتوب تذكر هذه الكلمة التي قالها.

والكثير من السلاطين وقع في قلبه هكذا فيأتي التأديب الإلهي، فإذا كانت مثل هذه المعاني اليسيرة تؤدي لهذا التأديب، فانظر إلى كفرهم إلى ماذا يؤدي؟ يؤدبهم كذلك ﴿يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ولذلك سبحانه وتعالى هو الذي يعين، قال الحُليمي رحمه الله في شعب الإيمان قال: «الناصر هو الذي يعين على الغلبة، والنصير هو الذي يدفع الأذى»، لأن أصل معنى كلمة الناصر هو المعين، ومن إعانته هي المنع فهي حالتان قوتان، قوة إعانة لما تطلب ومنع لما تخاف، ولذلك هو خير الناصرين، وكذلك هو الذي يمنع الأعداء من أن يجروا أقدارهم وتخطيطاتهم على أوليائه، فسبحانه وتعالى الناصر الذي إذا وثق العبد به أعطاه نصره وأعطاه تأييده، وقد نصر الله عز وجل أولياءه ونصر أنبيائه، قال لهم: أنتم لا تتدخلوا.

وانظروا من أعجب ما يكون -هذا ربما قلتها عشرات المرات- من أعجب ما يكون: أنه ما من نبي حقق النصر بنفسه وحتى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ما من معركة هو أرادها بنفسه، كل المعارك جاءت على خلاف تقدير أصحابه، وعلى خلاف طلبهم لماذا؟ لو تأمل المرء هذا، لماذا؟ ليبقى النظر إلى أمر الله وإلى يد الله الفاعلة، بدل أن ينظروا إلى أفعالهم ويقولوا: فلان خطط لها، من أولها ماشي فيها، وأنت لا ترى شيئًا في الوجود يمشي بهذا المعنى، هم يكذبون ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص:

٧٨] يكذبون، وما أكثر كذب الناس يقولك لك: أنا قلت لك، هذه كثير يكذبوا فيها، أو يقول الكلمة وعشرات ضدها حتى إذا وقعت على إحدى المعاني التي يقولها وكثير ما يفعل الناس هذا.

القصد من هذا: أيها الإخوة الأحبة أنه إذا وثق العبد بأن الله هو الناصر لم يطلب النصر إلا منه، ولم يتوكل إلا عليه ولا يستغيث إلا به ويطلب نصره بما أحب الله، ما عند الله لا يؤخذ إلا بالدعاء والتذلل، طرق تحصيل الأشياء في الوجود إما بالغلبة تغلب فتأخذ، وإما بدفع الثمن، وإما بالرجاء، مع الله لا ينفع إلا الدعاء، مع الله لا ينفع إلا أن تستغيث به، إلا أن تتذلل له، وكلما زدت تذللًا زدت عزة عنده، هذا شيء عجيب! هذا شيء من الأمور التي تراها ولا تفهم كيف تجري، كلما ازداد المرء تواضعًا كلما ازداد رفعة، كلما ازداد هروبًا كلما أحضره الله، كلما طلب الستر الله أظهره ورفع شأنه، شيء عجيب! وكلما حاول أن يصنع شيئًا بنفسه كلما أذله الله وأبعده.

فهذا الباب، باب العطاء الإلهي لا يقع إلا في **(لك العتب حتى ترضى)**، لك العتبة تأمل هذا لك العتبى أي أن يقف بين يدي الله فيسأله فيعطيه جل في علاه، ولذلك إذا وقع بلاء فلا تسأل إلا الله، وإذا أردت نصرًا فلا تسأل إلا الله، لكن الناس يقولون أين النصر لنا؟ في النصر يقول الله عز وجل: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وأهل العلم يأتون لها، حتى ابن العربي في «الأمد الأقصى» يقول: هذه المسألة جرى فيها بحضوره حوار في المسجد الأقصى ليلة كاملة حتى الفجر، وهم يتأملون ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾، وهم يبحثون فيها أهل العلم يبحثون في هذا.

فالله لا يطلب العون من أحد، أي أن تنصر دينه، أن تنصر أولياءه، أن تنصر شرعه، إن نصرته نصرك الله، ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾، هذه قاعدة الحق سبحانه وتعالى، قاعدة الشرع وقاعدة القرآن إن نصرت الله سبحانه وتعالى نصرت دينه، نصرت أولياءه، نصرت الحق، فالله عز وجل ينصرك، وقال الله عز وجل: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)﴾ [النساء: ١٤١]، وقال بعض أهل العلم الكثير منهم يقولون هذه في الآخرة، حتى أن ابن جرير في تفسيره لم يذكر كلام أحد من أهل العلم في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، أي في الآخرة.

وابن القيم رحمه الله يرد على هذا يقول: «هذه مطلقة حتى في الدنيا»، ولكن حين تجري بعض الأقدار إنما هي تأديب لهم، أو إغراء للكافرين، أو بسبب المعاصي تأديب، إما بأنها ابتلاء وإما أنها تأديب وإما أنها إغراء، وكل ذلك لتكون العاقبة للمؤمنين، ما في عاقبة إلا لهذا الدين.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الثقة به، والتوكل عليه وأن يجعلنا من المخبتين له الطائعين لأمره، المكثرين بالدعاء بما في خزائنه من عطاء جل في علاه آمين، جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: ورد اسم النصير كاسم لله سبحانه وتعالى؟

الشيخ: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)﴾ [الأنفال: ٤٠]، النصير، نعم المولى من أسماء الله والنصير من أسماء الله، وقال ابن العربي في الأمد الأقصى قال: «وأجمعت الأمة على هذا الاسم».

بارك الله فيك جزاك الله خير والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثاني والخمسون: الرقيب

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الذي تعبدنا به علمًا وذِكرًا وحالًا، وهو اسمه سبحانه وتعالى الرقيب، وهذا الاسم كما يقول أهل العلم أنه ذُكر في كتاب ربنا سبحانه وتعالى وكذلك ذُكر في الحديث الذي هو عند الترمذي والحديث كما تعلمون لا يصح سنده، فورد في قوله سبحانه وتعالى في كتاب ربنا: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)﴾ [المائدة: ١١٧]، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء: ١]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢)﴾ [الأحزاب: ٥٢].

ومُحصل ما يقوله أهل العلم بالنسبة لمعنى الرقيب، مجموع في ثلاثة معاني مذكورة، هذه المعاني ذكرها الإمام ابن العربي عليه رحمة الله في «الأمد الأقصى»، وهي مجموعة في أقوال أهل العلم في كتبهم:

المعنى الأول: معنى الرقيب أنه سبحانه وتعالى العليم الحفيظ، وهذا المعنى ذكره الغزالي رحمه الله في شرحه لأسماء الله الحسنى، والمقصود الرقيب مأخوذة من رقب الشيب، راقبه وأرقبه، أي حفظه وعلمه فهي تنشأ بأنه يعلم ما فيه ويراعي أحواله ويراعي شأنه بحيث يقوم به على كل ما يحتاجه يقوم على كل ما يحتاجه، فهو عليم به لأنه يراقبه فهو عليم به، ويراقبه من أجل حفظه، يدفع عنه الضرر ويراقبه من أجل أن يعطيه حاجاته، فهذا هو المعنى الأول ولذلك هو معنى الحفيظ، أولًا معنى العليم الحفيظ.

المعنى الثاني: وهو معنى المراقب، وهذا كذلك ذكره على أنه يرقُبه، يرقُبه ليرى ماذا يفعل وليس هذا في حق الله عز وجل متعلق فقط في أنه يراقبه ليعطيه حاجاته كما في الحفيظ، ولكن هنا يراقبه بمعنى أنه يعلم ما يفعل، يراقبه ليرى اختياراته، ليرى ماذا يقول في هذا الأمر الذي نزل به وهذا ليس من جهل وليس من عدم علم، ولكن ليرى الله ما تفعلون، ويبتلي العباد ليرى ماذا يفعلون؟ يبتليهم بالأوامر فيرى هل يسلمون أو لا يسلمون، يبتليهم بالأقدار، ليرى كيف يعالجوها بالشرع أم بالتشكي وبغير الشرع، إذا الله عز وجل ابتلى العبد بفقر، فيريد أن يرى ربنا سبحانه وتعالى ويراقبه من أجل أن يرى كيف يتصرف مع الفقر.

فبعض الناس يقف مع الفقر فقط بالتشكي، يجلس يتشكى ويجلس هكذا ويكسل ولا ينزع إلى دفع هذا البلاء عنه، ولا أن يقوم بحاجات أهله وحاجات من وكل بهم، فهذه حالة لا يرضاها الله عز وجل ويعاب عليها هذا الفاعل.

وهناك من يتلقى الفقر بالاعتراض على قدر الله عز وجل، أن يعترض عليه، وهذا عامة الخلق إنما يكفرون باعتراضهم على أقدار الله عز وجل، تنزل عليهم المصائب فيسبون ولا يفهمون حكمة الله عز وجل فيها، فيتهمون الله سبحانه وتعالى بعدم الحكمة، أو يتهمونه بالظلم أو يتهمونه بما هو بريء منه سبحانه وتعالى.

وبعض الناس يتلقاها بدفع الفقر عن طريق المعصية، بأن يعصي الله سبحانه وتعالى فيذهب فيبحث عن مصادر الرزق التي حرمها الله عز وجل، وما عند الله لا يؤخذ بمعصيته، ما عند الله من الكنوز والخزائن والعطايا لا يأخذ بمعصيته، فإن العبد عليه أن يدفع أقدار الله بالطاعة، وما من قدر من أقدار الله سبحانه وتعالى ملزمٌ به المرء أن يدفعه بالمعصية إلا ويجد له باب من أبواب الطاعة، حتى لو تدافعت الأقدار، أي أن يأتي هذه معصية وهذه المعصية فلابد أن ينظر العبد إلى مراتب هذه المعاصي فيختار منها أخفها، إذا لم يكن إلا هي، وإلا في الحقيقة في سنن الله العامة والغالبة أنه لابد أن يكون اختيارًا من الخير.

ولذلك قال أهل العلم: «ليس في الشر خيار»، الشر ليس خيارًا، لا يتخذه العبد إحدى الخيارات التي يسلكها لدفع الشر عنه، فقد يرابي العبد وقد يسرق وقد يكذب وقد يزور وقد يغش من أجل أن يدفع عنه الفقر، وهذه معصية، هو دفعها قدرًا لكن لم يدفعها شرعًا بخلاف الأول، لم يدفعها لا شرعًا ولا قدرًا.

وأما العبد الله يراقبه فيرى أنه إذا ابتلاه بالفقر أن يسلك سبيل الطاعة في ذلك، وسبيل الطاعة في دفع الفقر هو أولًا أن يصبر ولا يتشكى، والصبر لا يعنيه عدم الدفع، وإنما الصبر يعني الرضا على الله عز وجل بهذا القدر الذي عليه، وهناك فرق بين الرضا على الله عز وجل والرضا على الفعل، أن يرضى على الله عز وجل بأنه اختار له هذا القدر لأنه يلائمه، لأن الناس قد يغتنوا فيفسدون، فالله يختار لهم هذا القدر من البلاء من أجل أن لا يفسدوا، وهذا كما رأينا في الأنبياء، الأنبياء إلا القليل منهم إنما كانوا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(عريش كعريش موسى)**، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: **(اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا)**، وكل الأنبياء **(لم يورثوا دينارًا ولا درهما)**، ومن كان منهم ملكًا فلم يورث الملك إلى أبنائه، وذلك لحكمة ربانية عظيمة وهي براءة الأنبياء من تهمة الدنيا، وبراءة الأنبياء من تهمة أن هذا

الدين سبيلًا للدنيا كما يتخذ الكثير من الناس في دعوتهم إلى مبدأ من المبادئ سبيلًا من أجل أن يغتنوا، من أجل أن يتملكوا، من أجل أن يورثوا أبنائهم الملك من أجل أن تكثر الأموال لديهم.

فالله عز وجل منع توريث الأنبياء لأبنائهم من أموالهم وأشيائهم من أجل أن يبعد هذه التهمة عنهم، حتى في قضية تربيتهم في العلوم التي يأتونها لا يكون لهم شأن قبلها، بحيث قال تعلموها من جهة فلانة أو علان، كما هي أمية النبي صلى الله عليه وسلم، أميته دافعة لتهمة أنه يعلمه بشر، هم اتهموا النبي صلى الله عليه وسلم أنه يعلمه بشر، وهذا البشر الذي اتهموه لا يحسن العربية، ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣)﴾ [النحل: ١٠٣].

فالقصد من هذا: أن الله سبحانه وتعالى يجري الأقدار من أجل أن يبين صواب الحق، ليدفع التهم التي تحصل لدى الناس في النظر إلى هذه النبوءة، والقصد أن الله عز وجل يراقب ما يختاره البشر، في دفع الأقدار ويراقب ربنا سبحانه وتعالى ما يفعل البشر في اختياراتهم للشرع وعند نزول الشرع هل قبلوا أم رفضوا.

وهكذا نرى أن الصحابة رضي الله عنهم إذا نزل عليهم أمر فرحوا به، وحزنوا لما مات النبي صلى الله عليه وسلم، وقالت أم أيمن: «إِنِّي لأعلمُ أنَّ ما عندَ اللَّهِ خيرٌ لرسولِهِ ولَكن أبْكي أنَّ الوحيَ قدِ انقطعَ منَ السَّماء»، وانقطاع الوحي انقطاع العلم خلاص توقف نزول العلم عن طريق الوحي الذي يقطع الحجج وبقيت التنزلات الإلهية، ولم ينقطع المعنى أن الله يفتح على العالم، يفتح على المجاهد، يفتح على طالب الخير، على الباحث، يفتح عليهم من العلوم ما لا يعرفه الأوائل، كما قال علي رضي الله عنه لما سئل هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء؟ قال: «لم يخصنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء إلا عِلمًا يؤتيه الله عبدًا من عباده»، بمعنى أن يفتح على العبد.

ولذلك قالوا وإن توقف نزول القرآن لكن لم تتوقف تنزلاته، ما توقفت تنزلات القرآن، يفتح الله عز وجل، وهكذا نجد العلماء الله عز وجل يفتح عليهم من المعاني القرآنية ما لا يفتحها على من سبق، وهذا يدل على أن المعنى هو فقط توقف الوحي الذي يقطع به، يعني كان الصحابة رضي الله عنهم يقعون في كثير من النوازل والحوادث، فالله عز وجل من رحمته بهذا الجمع المبارك من الصحابة، يرفع هذا البلاء بماذا؟ بنزول الوحي كما في قصة الإفك، أنت تصور أن قصة الإفك لو لم تكن في زمن الوحي، ما الذي يحسمها؟ والمنافقون ماذا قالوا؟ وو ... إلخ، فمع ذلك جاء الوحي ورفعها وهكذا الكثير من الأمور التي وقعت عند الصحابة رفعها الوحي وبين أحوال الناس فيها.

ومن هنا فكان الحق في زمن الصحابة أجلى ما يكون، لماذا؟ لأنه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)﴾ [الأنفال: ٣٣]، ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، هؤلاء الصحابة بسبب وجود النبي صلى الله عليه وسلم كان النور يعيش بينهم فيحسم ويقضي بها، ولذلك لما تولى عمر رضي الله تعالى عنه الخلافة قال: «كان الوحي ينزل، والآن نحن نجتهد، فمن أظهر لنا الخير عاملناه به ومن أظهر الشر عاملناه به، والله أعلم بالقلوب»، ومع ذلك كان عمر من الملهمين رضي الله عنه، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(لو كان في أمتي محدث لكان عمر)**.

وقال ابن تيمية رحمه الله في هذا الباب قال لم تحتج الأمة محدث، لم تحتاج هذه الأمة لا تحتاج، كما كانت تحتاجه الأمم السابقة، وذلك لوجود هذه القلوب، بوجود هذا القرآن في هذه القلوب، يعني الناس يفهمون بعض الأمور خطأ، الآن لماذا الأنبياء لم يكونوا أغنياء؟ لاستغنائهم عن المال، نفوسهم غنية عنه، فهم لا يحتاجون إلا هذا القليل، الله يعطي مرات لنقص العبد، وهذا الذي شرحه شيخ الإسلام في «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، لما ذكر قضية الكرامة وحصولها كم كانت في زمن الصحابة وكم كانت فيمن بعدهم؟ فقال الكرامات بعد عصر الصحابة أكثر من عصر الصحابة، لأن الكرامة يحتاجها الناس كما يحتاجون الآيات مرات لضعف الإيمان، وأما المؤمن فلا يحتاج إليها، الكرامة تأتي على معاني تأييد الحق، كما تأتي المعجزة لأن الكرامة نوع من أنواع المعجزة في تأييد الحق، قال: لا يحتاج الصحابة إلى هذا الأمر لا يحتاجون إليه، وأما غيرهم فيحتاج إليه فكثرت فيهم، فمعنى الكثرة إنما نشأت من الضعف، ولم تنشأ من قوة الإيمان، والناس يعكسون هذا، فمما قال: لو كانت الأمة تحتاج إلى محدث، لكان في ذلك ضعف، أنهم لا يعرفون الحق، فلما كانت هذه الأمة أعلى منزلة من الأمم السابقة لم يحتاجوا إلى أن يكون فيهم ملهم ومحدث، لأن فيهم العلماء الذين يقضون بالحق ويصيبون الصواب، ويدركون الحق.

والقصد من هذا: أن الله سبحانه وتعالى يراقب العباد من أجل محاسبتهم، أنه يراقبهم من أجل محاسبتهم على ما يفعلون كل شيء ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق: ١٨]، وهذا للكتابة وإقامة الشهادة، والله غني عن كل هذا، لكن الله أجرى الوجود على معاني السنن، ولذلك حتى العبد يشهد عليه بدنه ويشهد عليه لسانه ويشهد عليه جلده، ويشهد عليه عظمه ويشهد عليه شعره، تشهد عليه عينه وأذنه، ولكنه أقام هؤلاء من أجل الشهادة وإلا فهو غني سبحانه وتعالى ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء: ١]، وهذا على البشر جميعًا ولما جاء على كل شيء ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢)﴾ [الأحزاب: ٥٢].

ولما الله عز وجل قال لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧]، يعني أنا أشهد بما رأيت، أما بعد ذلك فلا أدري ما الذي أحدثه الناس، وأحدث النصارى من الأقوال الباطلة في عيسى عليه السلام الشيء الكثير.

القصد: أن الله عز وجل سبحانه وتعالى حافظٌ للعبد يراقبه وهذا حفظٌ عام لكل أحد، فكل أحد الله يحفظه ويعطيه، ما من أحد إلا ويعطيه الله حاجاته، اليهود والنصارى والمشركون يأكلون ويشربون يعطيهم الله عز وجل، يحتاجون فيعطيهم، وكذلك المؤمنون يحتاجون فيعطيهم سبحانه وتعالى، وأعظم ما يحتاجوه هو الإيمان فيعطيهم إياه، فهو يحفظ إيمانهم يحفظ إيمانهم في هذه الدنيا، انظر إلى غزوات الشبه على القلوب في هذا الزمان، من الذي يحفظ على الناس إيمانهم؟ الله سبحانه وتعالى.

فالله سبحانه وتعالى هو الحفيظ هو الرقيب العالم بهم فيحفظ عليهم إيمانهم، يحفظ عليهم حاجاتهم، يحفظ عليهم وجودهم، وإلا لو ترك الناس من غير ذلك، لحصل فساد أعظم مما يرى الناس، كما قال الله عز وجل: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، انظر الى هذا يعني مع كل ما يصنع الكفار من الشرور هم مع ذلك هم مقيدون، والله يحفظ المؤمنين منهم مع كل ما يفعله من الشرور، ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦)﴾ [إبراهيم: ٤٦]، فأولى من ذلك أن يزول منه البشر، فلو ترك الناس من غير حفظ الله عز وجل لما بقي مؤمن وما بقي إلا القوي الفاسد، حتى أهل الفساد وحتى المجرمين لم يبق إلا المجرم الأكبر منهم، ولو أتخذ الناس بعضهم بعضًا إما قتلوا وإما زنوا وإما...إلخ.

وهكذا نرى أن الله عز وجل سبحانه وتعالى يرينا من دلائل هذا المعنى في الكثير من الأمور أنك تجد شخصًا واحد يقتل ملايين، ستالين كم قتل من المسلمين؟ ملايين، ماو تسي تونغ كم قتل من المسلمين الصينيين في تركستان الشرقية؟ قتل الملايين، كم قتل التتار لما غزوا ودخلوا بغداد ثم دخلوا حمص ثم دخلوا دمشق؟ وهذا يريك أن هؤلاء لو تركوا لأبادوا الأرض وما فيها، والله عز وجل يحفظ الوجود، هذا للحفاظ على الوجود هذا من الله عز وجل، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢)﴾ [الأحزاب: ٥٢]، هذه السماوات التي يرفعها، هذه الأرض التي تجري، هذه الأفلاك التي تجري في الكون، من الذي يحفظها؟ هو الحفيظ عليها، هو الذي يراقبها سبحانه وتعالى فيقيمها في كل لحظة، الله لم يقل لها كوني ثم افعلي كذا ثم تركها، هي لا تتحرك إلا برعاية الله وحفظه، هذه المجرات ما من مجرة في الوجود إلا والله عز وجل يراقبها، ما من

شعرة في بدنك إلا الله يراقبها، ما من همسة يقولها لسانك إلا الله يراقبها، ما من رَمشة عين تجري فيك إلا الله عز وجل يراقبها، ما من جريان قطرة دم في بدنك إلا الله يراقبها، كل هذا الوجود الله عز وجل يراقبه ويطلع عليه.

وأنت حين تعلم ذلك؛ تعلم قدرة الله عز وجل، وتعلم إحاطة علم الله لكل شيء، وتعلم أن كل شيء إنما هو يجري بأقدار الله عز وجل، تغيب عنك هذه الصور، هذه صور فقط تجري بأقدار الله عز وجل، هذا ومن حفظ الله سبحانه وتعالى، وإذا علمت أن كل شيء هو بحفظ الله؛ فحينئذٍ أنت لا تخاف من أحد، لو اجتمعت البشرية كلها على أن يضروك والله عز وجل يحفظك فسيحفظك ولن يضروك بشيء.

فهذا نبي الله موسى عليه السلام من الذي أراد أن يكيد له؟ هذه قصة موسى التي تتكرر عليه السلام كما تكرر في القرآن، من الذي حفظه؟ وأنت ترى هي شيءً عجيبًا! لما تقرأ ما قاله الله عز وجل في سورة «طه»، انظر إلى هذا التركيب العجيب! ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨) قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢)﴾ [طه: ٤٣-٥٢]، ما نسب شيء إلا لله عز وجل، كل شيء بيد الله عز وجل.

وانظر إلى موسى وهو يعلم ذلك ما من حركة يقوم بها إلا ويدعو الله، ما من حركة يقوم بها يمشي فيدعو الله أن يحفظه، يأوي إلى الظل فيدعو الله عز وجل ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص: ٢٤]، ماذا الجواب؟ ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: ٢٤-٢٥]، على طول وهذه حرف الفاء حرف الفجأة، ليس للتراخي، وإنما هو فجأة، ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾، وإذا علم العبد أن كل شيء بيد الله عز وجل، يسأل من؟! غريق يتعلق بغريق!! ما الذي تريده من هذا؟ والله لن يعطيك إلا ما أراد الله، ولن يمنعك إلا ما أراد الله، هو لا شيء، فإذا كان في قلبك هذا المعنى هبت الله، ولم تهب سواه.

فكم من عالمٍ وقف أمام طاغوت أمام حاكم يملك الدنيا وسيوفها وجنودها فلم يستطع أن يفعل معه شيء خرج، خرج من بين يديه، موسى عليه السلام كل جنود فرعون أرادوا أن يقتلوه، الله عز وجل أجراها

حتى وصل إلى قصر فرعون فأقام عنده، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾، من الذي يفعل؟ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ﴾ [طه: ٣٩-٤٠]، هي فقط ترقبه، فماذا قال؟ ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠]، الله عز وجل هو الذي يفعل، فدخل قصر فرعون والله ألقى المحبة عليه، ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾ [القصص: ٩]، فالله عز وجل أقامه في قصر فرعون، وكان هلاك فرعون على يديه.

هذه لما تتلى بعض الناس يظن أن هذه انتهت، لا هذه لم تنتهي، هذه الأحكام القدرية في نصرة أوليائه لم تنتهي، والدليل ما حدث مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ما الذي أرادته قريش؟ اجتمعت كل قريش على أن تقتله، ما الذي يملكه؟ الله دافع عنه، ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠]، العجيب في هذه الآية لما أتأملها أنه خرج منهم فعد الخروج نصر، وفي أي سياق قيلت هذه الآية؟ قيلت في سياق تهديد ربنا لأهل المدينة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨)﴾ [التوبة: ٣٨].

ثم جعل ذلك تهديدًا لهم، ما هو تهديد الله لهم؟ أن يخرجه مرةً أخرى مهاجرًا من عندهم، انظر يقول: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٤٠]، يعني أنا أخرجه من بينكم، وجودكم هو المنة الإلهية العظيمة أنه خرج، ومع ذلك خرج ضعيفًا والله نصره حتى صارت هذه المدينة هي موئل المؤمنين، خرج من المدينة هذا النور العظيم الذي شاع في كل الوجود، والآن العالم كله يقول: الله أكبر، محمد رسول الله.

هذا الكيد -أقول وأكرر- هذا الكيد الذي يحدث الآن لهذا الدين، هذا يدل على أن الله يحفظه ويحفظ أولياءه، في كل مكان ترقب يعني الله يريك مرات أنه لو فتحت للكفار ماذا يفعلون بك، انظر ماذا فعلوا البارحة في درنا، رموا على شباب مساكين، لو ترى صورهم قد قتلهم الجوع، وفي النهاية لم يستطيعوا الدخول عليهم رموهم بالغاز حتى قتلوهم حتى استطاعوا الدخول إليهم، الله عز وجل أراد، العالم كله جاء إلى طالبان بالله عليكم تأملوا هذا، أمريكا ذهبت إلى اليابان فأذلتها، ما الذي يقيم اليابانيين انتهوا، ذلوا خلاص ودخلت عليهم الحضارة الغربية وانتهوا، وهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا في فئة مؤمنة ضعيفة، ما الذي تملكه؟ ما الذي يملكونه أمام هذه الصواريخ؟ ومن الذي يحجب عنهم أن يضربوا بالصواريخ والدمار والهلاك، الله هو الحفيظ، لأنه يراقب ويحفظ ويعلم سبحانه وتعالى.

فإذا أنت تيقنت على أن الله هو الرقيب وهو الحافظ وهو العليم، وأن الله هو الوكيل كما يقول الخطابي في شأن الدعاء في شرح معنى الرقيب أنه سبحانه وتعالى الوكيل، ونحن شرحنا معنى الوكيل الذي يقوم على كل شيء، يقول لك أنا وكيله، أنا الذي أتكفل بكل شيء، والله عز وجل يتكفل بكل شيء، لكن بقانون وسنة سبحانه وتعالى يفعل في هذا العبد.

والقصد: أن العبد يتعلق بالله، يعلم أن الله مطلع على كل شيء، ومن هنا ينشأ الإحسان **(أن تعبد الله كأنك تراه)**، أنت ترى أن الوجود وما في الوجود وأن كل شيء تحت أمر الله عز وجل، والله لا تتحرك هذه اليد إلا وقد أذن الله لها، لا تتحرك هذه الشفاه إلا والله رقيب وأذن لها أن تتحرك، كم من الناس لا يستطيعون الكلام، كم من الناس قد شلت أيديهم لا يستطيعون تحريكها، الأصابع هي الأصابع، وكم من الناس ماتوا فانتهت أبدانهم من الحركة، فلا شيء يتحرك، نسمة الهواء هذا لا تتحرك إلا بالله عز وجل، الثقة بالله سبحانه وتعالى.

والثقة بالله عز وجل توجب طاعته لأنه لا يُنال منه شيء إلا بطاعته، وأعظم الطاعة هو أن تتذلل إليه، مظهر فقرك هو عزك، كما يقولون وهذا منسوبة لعبد القادر الجيلاني وغيره نسبها إلى سعيد النورسي وهي «كنزي عجزي»، أين قوة النبي صلى الله عليه وسلم؟ في عجزه أمام الله، أين قوته وهو واقف في بدر، أين قوته؟ قوته تكمن في عجزه أمام الله، هذا هو العبد من غير غرور من غير كبر، دخل مكة صلى الله عليه وسلم وهو مطأطئ رأسه وينسب الحمد كله لصاحبه ومستحقه.

هذا المعنى أنه إذا وقع بك الخير نسبته إلى الله حمدت الله عليه، إذا وقعت بك حاجة سألت الذي بيده كل شيء، هذا هو سر الوجود، وأن تطيعه وتراقب كما يقول ابن تيمية رحمه الله: «ولقد رأيت بعض إخواننا عند موته يقول حبيبي ها أنا قادم إليك»، هذا هو سر الوجود، هذا هو السر العبادة، في مكمن أن ترى الله عز وجل حافظًا لك، معينًا لك، مُعطيًا لك، مُكرمًا لك، دافعًا عنك، وترى آثار هذه الآيات وآثار هذه الأسماء العظمى في الوجود كله، تراها من العرش، العرش الله رقيب عليه، يقيمه رقيب عليه، الله رقيب عليه يعلمه، والله عز وجل يحفظه ويعلمه ويراقبه وموكل به، من العرش حتى الملائكة، وهذا الدين وكل شيء أبنائك ذرات الهواء.

فهذا المعنى أن مراقبة الله للدقيق كما مراقبته للعظيم هذا يعلمك أن تعلم أن من لا يهتم بدقائق الأشياء لا يهتم لكبار الأشياء، كذاب الذي يقول لك أنا مهتم بالعظائم، أنا دعني للأشياء الكبيرة الله يكرمك، بعض الناس هكذا يعني لا فهذه شخصية النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة تعجب! يهتم بدقائق الأمور

كما يهتم بعظائم الأمور، هذا النبي وتأتي الجارية -الجارية البنت الصغيرة- تأخذ بيده وتمشي به في شوارع المدينة ويمشي معها، ولا يتركه حتى يقضي لها حاجتها، هذا عظيم، هذا الذي يهتم بهذا يهتم بالجيوش، فمراقبة الله للدقيق تعلمك؛ لأن من لا يهتم بهذا لا يهتم بهذا، الذي لا يهتم ببيته وأبنائه وإحضار الطعام والشراب هذا لا يهتم غدًا بقيادة الأمم ولا الجيوش.

والقصد من هذا: أيها الإخوة الأحبة أن هذا الاسم العظيم الرقيب لله عز وجل باب الإحسان، ولذلك الرقيب ما الذي أنتجه؟ دائمًا نرى المراقبة، دائمًا هكذا يقول الخطباء والوعاظ والمدرسون يقولون: باب المراقبة، تجدونها في كتاب رياض الصالحين، باب المراقبة كما أن الله يراقبك أنت تراقبه، هو يراقبك سبحانه وتعالى لما رأيت من المعاني وأنت تراقبه من أجل دوام الصلة به في كل شيء، تسبيحه، يعني ما معنى أنت ذاكر لله تسبحه؟ التسبيح وهذه الكلمات الباقيات هي سر الوجود، كل شيء في الوجود هو داخل في هذه، أنا هذه الكلمة أقولها في كل مجلس ومن لا يدرك هذا لم يفهم سر التعبد والعبادة، «سبحان الله الحمد لله لا إله إلا الله، الله أكبر» هذه حاويةٌ للوجود كله، حاويةٌ للشرع كله، حاويةٌ لعلم الله وقدرة الله وخلق الله وإحاطة الله وحاويةٌ لشرع الله، كل الشرع، الصلاة اسمها صلاة، **(أثنى علي عبدي، حمدني عبدي، مجدني عبد)**، هذا هو «سبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر».

فإذا العبد قام هكذا كان عبدًا حقيقيًا، أحدث الله به التغيير في نفسه، عندما يُقبل على الله عز وجل يُقبل عليه آمنًا، ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾ [فصلت: ٣٠]، إذا الإنسان عاش هذه المعاني، ما الذي سيفاجئ به في القبر؟ ما الذي سيخيفه في القبر؟ هو مع الله عز وجل في هذه الدنيا، فكيف إذا رحل إلى الله رحلةً بلا شهوة، رحلةً بلا دنيا، رحلةً بلا ولد، وذهب إلى حبيبه ها قد جئت إليك:

ركضًا إلى الله بغير زاد	إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد	وكلّ زاد عرضة النفاد

خلاص ركض إلى الله، نسأل الله أن يرحمنا برحمته أن يوفقنا لطاعته، جزاكم الله خيرا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: لما ذكرت أن الأنبياء لم يورثوا الملك، ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: ١٦]؟

الشيخ: نعم العلم هذا بإجماع أهل العلم إلا ما قاله الروافض، ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾، أي ورث النبوة، هذا نبي، وهذا نبي، ولم يرث الملك.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثالث والخمسون: الحَيِيّ

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الذي تعبدنا به علمًا وذكرًا وحالًا، إلا وهو اسمه سبحانه وتعالى الحيي، وهذا الاسم المبارك ورد في حديث صحيح صححه جمع الأئمة وقال بهذا الاسم جمع من الأئمة أثبته شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في إثباته لما قاله الكرجي الشافعي في «الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول»، وذكر فيه هذا الإمام الكرجي عليه رحمة الله، بعضهم قال الكرخي وهو إمامٌ شافعي، غير الإمام الكرخي الحنفي، وذكر فيه مذاهب من كبار الأئمة الإثني عشر الذين لهم المرجع عند أئمة أهل السنة في الاعتقاد، كالسفيانين سفيان بن عيينة وسفيان الثوري، كمالك، كالشافعي، كأحمد، كعبد الله المبارك، كالأوزاعي، فذكر إثني عشر إمامًا هم مرجع الاعتقاد الذي اتفقوا عليه، والأئمة كذلك البقية يجمعون على هذا الاعتقاد ولم يذكر الإمام أبا حنيفة عليه رحمة الله لما علم من قوله في الإرجاء عليه رحمة الله.

فذكر هذا الاسم معناه أنه سبحانه وتعالى يستحيي وذكر الإمام ابن القيم رحمه الله في نونيته هذا الاسم أنه سبحانه وتعالى حييٌ كريم، وورد في ذلك حديث صحيح صححه جمع من الأئمة **(إن الله حييٌ كريم)**، وأما حديث **(وإن الله حييٌ كريم يستحي إذا مد العبد يديه إليه أن يردهما فارغتين)**، وأما حديث **(إن الله حييٌ ستير)**، فهذا حديث فيه كلام عليه كلام، والصواب أنه لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو **(إن الله حييٌ ستير يحب العبد إذا أغتسل)**، والذي ورد في البخاري إن **(موسى حييٌ ستير)**، كان يغتسل أمام الناس، أن موسى عليه السلام فهذا عدوه من أخطاء الرواة، حيي ستير، الناس الآن تبعًا لتصحيح الألباني لهذا الحديث **(أن الله إن حييٌ الستير)**، يقولون أن الله ستير ولكن حقيقة لم يرد هذا إلا في هذا الحديث وهذا الحديث لم يثبت عند كثير من الأئمة مع تصحيح الألباني له، وأما حديث **(إن الله حيي كريم)** فهذا الحديث وأن لم يرد في الصحيحين إلا أن كثير من الأئمة قد صححوه وأثبتوا هذا الاسم لله عز وجل.

ومعنى الحيي هو الذي من الحياء، والحياء هو مَلَكة نفس، صفة من صفات النفس تردع العبد عن المكروهات وعن المعاصي وعما يشين النفس، يستحيي لأنه يمتنع عن إتيان القاذورات وإتيان ما يشين، وكذلك تدفعه إلى العمل الطيب، ولذلك في الحديث ما يدل على هذا المعنى **(إن الله حييٌ كريم، يستحيي أن يمد العبد يديه ثم يردهما فارغتين)**، هذا حياء أنه إذا طُلب من الكريم وإذا التجأ إلى الكريم أنه سبحانه وتعالى يعطيه، ويعيده ويلجئه يدفع عنه ما يضره.

وهذه الصفة لله سبحانه وتعالى، العبد يتعامل معها تعاملًا عظيمًا جدًا، فالله عز وجل من حيائه أنه أقام هذا الوجود على خير ما يقام له من الحكمة، «إن المباني لتدل على عظمة الباني»، فالله عز وجل أقام هذا الكون على الكمال ولذلك من حيائه أن يكون فيه نقص، والله سبحانه وتعالى له الأسماء الحُسنى، من حيائه أن يكون هناك أسماء غير حُسنى، والله سبحانه وتعالى أقام شرعه على الكمال من حيائه أن يكون في هذا الشرع نقص، لئلا يتهم فالله عز وجل يستحيي، ومن حيائه سبحانه وتعالى أنه منع القاذورات أن يأتي بها العبد، الله يستحيي أن يأتي العبد في القاذورات، ولذلك الله عز وجل منع المعاصي حتى لا يأتي بها العبد؛ لأن الله يكره السوء والشر، وكره للعبد أن يأتي المعاصي لأن الله يستحيي من عبده أن يأتي العبد من الشر الذي يضره فهو يعمل الشر في عين الله، والله عز وجل يستحيي من ذلك.

وأعظم الحياء الذي العبد يتعبد به وهو أنه يوقن بنجاته يوم القيامة اعتمادًا على حياء الله عز وجل، اليقين على النجاة مع الخوف من عدم الإدراك والخوف من السقوط، هذا أمر جامعٌ في قلبه كما هي القاعدة «أن العبد يجمع بين الرجاء وبين الخوف»، والرجاء هو يقينه أن الله عز وجل يعني حيي، ويحضرنا في هذا كلمة ابن الجوزي رحمه الله وقد أسلم على يديه الآلاف، وتاب على يديه من الفتيان ما يسموهم، أو من أهل المعاصي، أو كما يقال: شبيحة اليوم، تاب على يديه الآلاف وعشرات الآلاف، فكان يقول على المنبر: «إذا لم تجدوني معكم في الجنة فقولوا يا رب ما دلنا عليك إلا هذا»، ولذلك هذا هو مخاطبة الله بما يستحيي منه أن هذا الرجل دل هذه الجموع على الله فدخلوا الجنة بسببه، فيعني شفعنا به، نحن شفعاء لأن تقضي هذا به، هذا من قبيل مخاطبة الله عز وجل بهذا المعنى.

فالعبد عندما يخاطب الله عز وجل أن يغفر له، عندما يقول: اغفر لي، هو مخاطبته بأن الله عز وجل يستحيي أن يرده، يعني الناس يقولون بالنسبة للعظماء والناس في هذا الزمان يقول: هذا رجل يستحي، إذا دخلت بيته لن يردك، إذا التجأت إليه لن يردك، إذا سألته لن يردك، فهذا الاسم أولى بالله عز وجل،

أنك أنت تسأل، فالله يستحيي أن يرد يديك خائبتين، يستحيي أنك إذا استغفرته إلا يغفر لك، يستحيي إذا سألته ألا يعطيك، يستحيي جل في علاه.

وأعظم ذلك وهو أن الله عز وجل يستر العبد، الله يحب الستر، حتى لو عصى العبد، يحب الله عز وجل أن يستر العبد نفسه، لا يحب الفضائح، **(كل الناس معافى إلا المجاهرون)**، لماذا المجاهرون؟ لأنهم يخرقون ستر الله عز وجل، والستر يكون لمن يستحيي، يعني لو رأى المرء معصية يستحي ويغض بصره حياءً من أن تقع عينه على ما يستقذر أو أن يفضح العبد الآخر كأنه لا يعرف لا يريد أن يكسر خاطر هذا العبد، فـ **(كل الناس معافى إلا المجاهرون)**، وذلك من حياء الله عز وجل أنه يحب سبحانه وتعالى ستر العاصي، وهذا الذي يفعله جل في علاه.

فالعبد يكون له معاصي وخبيئة من الشر، ما من عبد إلا وهو يعصي، فيأتي يوم القيامة يدخله الله عز وجل في كنفه، يأتي به إلى كنفه، وهذا من محبة الله ومن ستر الله أنه يستره، لماذا يستره؟ لأنه حيي سبحانه وتعالى، لأنه لا يحب أن يفضح، فيدخل ربنا سبحانه وتعالى هذا العبد في كنفه ويعدد عليه معاصيه، لا يشهر به في الملأ، كما يفعل في كبار المجرمين لأن كبار المجرمين هؤلاء عتاه، فمن حكمة الله أن يظهر صغارهم **(وإن أقوامًا من الناس يحشرون يوم القيامة على صورة الذر تدوسهم الناس بإقدامهم)**، هؤلاء الفراعنة هؤلاء المتكبرون انظر كيف يعاملهم ربنا عز وجل، بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الغرور والكبر والتعالي وقتل المسلمين ونسيان الله عز وجل، واحد منهم يذكر بالله ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦)﴾ [البقرة: ٢٠٦]، يعني أنت قارن بين هذا الشخص الذي تقول له اتق الله فأخذته العزة بالإثم، انظر لكلمة أخذته ما معنى ذلك؟ أنها قلعته من الموعظة في اتق الله إلى موطن آخر هو أنه يعتز بالإثم.

واحد يعتز أن والده مجاهد، واحد يعتز أن والده جواد، واحد يعتز أن والده غني، وأنه ملك، واحد يعتز بالله عز وجل، لا يرى شيئًا في هذه الدنيا يستحق أن يتعلق به إلا الله عز وجل، فهو يصبح عزيزًا بالله، فهذا تراه في الدنيا من أكثر الناس تواضعًا ومن أكثر الناس سهولةً وخُلقا، ومع ذلك لا يأبى الضيم، ولا يقبل المعصية، فهو عزيز بالله عز وجل.

هذا الرجل يعتز بالإثم، ويعتز بأنه يفتخر ويرتفع بالمعصية فإذا قيل له أتق الله، انقلع من هذا المعنى وهذا عجيب!! بالله عليكم ما رأيتم أناس تقول له: اتق الله فكانت هذه الكلمة مدعاة لأن يعتز بالإثم، أن يزداد إثمًا أن يلتصق بالإثم، أخذته العزة بالإثم، ماذا أخذته؟ قلعته من هذا الموطن الذي فيه الموعظة

إلى مكانٍ آخر في نفسه والحديث هو حديث عن مراتب النفوس، أخذته نفسه إلى أن يعتز بالإثم فيفاخر به، والإنسان إذا اعتز بالشيء، ماذا يفعل؟ يجاهر به، أنا ابن فلان، ونحن عبيد الله، المسلم حين يعتز بالله يقول: أنا عبد الله، ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، أول كلمة قالها عيسى عليه السلام، وهي الكلمة التي اختلف عليها كل النصارى، ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)﴾ [مريم: ٢٩]، هم حتى استبعدوا أن يكلموه لا أن يتكلم، قالوا كيف نكلمه؟ ظنوا أنه يعني كلموه، ما علموا أنه سيتكلم قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، هذه قف عندها.

فانظر إلى هذا الرجل الذي تأخذه العزة بالإثم فينقلع من هذه الموعظة إلى موقف الالتصاق والشهرة والتشهير بالإثم وانظر إلى مقام الفاروق رضي الله عنه لما جاء بعض الناس من المدينة إلى الشام وكان بلال رضي الله عنه في الشام، فسألهم عن عمر رضي الله عنه، قالوا: فيه شدة، قال: لكني أعلم كلمة لو قلتموها له لهدأ أو سكن، ذهب غضبه، قال: قل له اتق الله، كان إذا قيل له اتق الله سقط الدرة من يده، هذا خوف من الله سبحانه وتعالى، وذلك لأنهم يعلمون أن الله يحب منهم هذا، فيستغفرونه ويسترون أنفسهم فالله يسترهم.

ولذلك انظر إلى هذا المقام، هذا مقام عجيب! يعني إخواني الناس يشمون الروائح فيستقذرون الرائحة القذرة، هذا شيء معروف، فإذا إنسان تلائم مع القاذورات تصبح القاذورات بالنسبة لأنفه أجمل من أي رائحة أخرى، ما الذي حدث؟ انقلب، ماذا حدث؟ انمسخ، وقال ابن القيم رحمه الله: «وفي هذه الأمة مسخ إما في الدنيا أو الأخرة، وأما المسخ فأعظم ما يكون في العلماء»، ابن القيم قال: «أعظم المسخ في هذه الأمة يكون في العلماء».

وأنت ترى العجيب!! وأنت ترى هذا المسخ في العلماء أنت تراه، كيف يتكلم بهذا الشر؟ كيف يقول هذا هذه الوساخة؟ مسخ، صار يفكر تفكير الخنازير، صار يفكر تفكير القردة، ما هو الجمع بينهما؟ الجمع بين القذارة وبين اللهو، ما الجمع بين القردة والخنازير، القردة ما شأنها؟ اللهو لا يعنيها إلا الأكل والشرب واللهو، يقول لك: يرقص متل القرد، هو دور مسخ، والخنازير دورها القذارة قاذورة، فانظر إلى هذين الشرين، تراهما بالفعل هذا كأنه فقط يزين للحاكم وللناس شرهم، كي يضحكهم، لا يحملهم تكاليف، يدخلهم الجنة بلا ثمن، يدخلوهم الجنة بلا شيء، أنظر الناس يحبونه يقول لك الخطيب هذا أدخلنا الجنة الحمد لله ذهبوا وقد شعروا أنهم دخلوا الجنة وانتهى الموضوع، ما حملهم تكاليف، ما دعاهم للاستغفار ما دعاهم للتوبة، ما دعاهم لعمل الصالح، هذا مسخ حصل فيهم، في هؤلاء.

هؤلاء أناس مسخوا صار الشر عندهم خير، وينظرون إلى المعاصي، ما الذي يحدث عندما مثلًا الناس يتمتعون في رؤية النساء العاريات؟ يا رجل جمال المرأة في سترها، جمالها في سترها، يعني إذا كشفت صارت قذرة، ولذلك سمى الله عز وجل المرأة عورة، سمى ما يستتر منه ماذا سماه؟ عورة، يعني عورة مما يستعر منه، يستره، إذا الإنسان في جنبه أو في بدنه شي يستقذره الناس ماذا يفعل؟ يستره، يستعير منه، فسماها عورة، والناس يكشفونها يتلذذون، ماذا يدل هذا؟ يدل على أنه قد قُلبت أمزجتهم.

انظر الى الصحابة رضي الله عنهم، عندما سألَهُ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ معاويةُ بنُ حيدَةَ: يا رسولَ اللَّهِ عوراتُنا ما نأتي منْها وما نذَرُ، قالَ: **(احفظ عورتَكَ إلَّا من زوجتِكَ أو ما ملَكت يمينُك)**، قالَ قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ الرَّجلُ يَكونُ معَ الرَّجلِ، قالَ: **(إنِ استطعتَ ألَّا يراها أحدٌ فافعل)**، قلتُ: فالرَّجلُ يَكونُ خاليًا، قالَ: **(اللَّهُ أحقُّ أن يُستحيا منْهُ)**، يعني أنت في الدرجة الأولى عليك إن تستحي من الناس، فتستر عورتك فتبتعد، إذا أردت في بيتك، فإذا كنت في بيتك هنا مقام آخر، مقام المراقبة لله عز وجل مقام الحياء من الله، والحياء من الله لأن الله يستحيي لا يحب منك أن تُظهر هذا، لا يحب منك أن تجاهر بالمعصية، لا يحب منك أولًا أن تأتي بالمعصية، لا يحب منك أن يكون في قلبك غيره، عليك أن توحد الله، أن يكون هو الوحيد في قلبك، هو الذي تسأله هو الذي تستغيث به، هو الذي ترجوه هو الذي تخاف منه، الله لا يحب الشِركة.

فالله عز وجل حيي ويحب لعبده أن يكون حييًا، وإنما محبة الله للعبد أن يكون حييًا لأنه هو الحيي، فالله يحب للعبد أن يكون حييًا، وهذا المعنى إذا وقع في القلب حينئذٍ رجا الله عز وجل سأله وأكثر سؤاله وحين يعلم ذلك يتعامل مع الله عز وجل بالحب، لا يوجد في الوجود أعظم مقامًا لتحقيق العبودية التي يحبها الله أعظم من الحب، الحب هو الذي يجعلك أرقى ما تكون، الحب هو الذي يجعلك أقرب ما تكون، أنت تحبه فأقرب ما يكون، وتحبه وتكون أرقى ما تكون لا تؤذيه لأنك تحبه.

ولذلك درجة الإحسان والمراقبة تحصل بهذا المعنى أكثر من أي معنى آخر، أكثر من معنى الخوف، الخوف ضروري ومهم جدًا وهو من أركان التعبد لله، لكن ما الأعظم؟ الحب، الخوف يمنعك من إتيان المعاصي، والحب يمنعك من إتيان ما هو أقل من المعاصي، فالله أحق أن يُستحى منه، في الأول هي مقام الشرع، الثاني مقام الحب، لا تحب أن تؤذيه، قال صلى الله عليه وسلم: **(قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: يُؤْذِينِي ابنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وأنا الدَّهْرُ، بيَدِي الأمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ والنَّهارَ)**، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، إيذاء الله عز وجل بمعصيته مخالفة أمره بإتيان ما لا يحب بإتيان ما يغضب.

ولذلك هذا الاسم الجليل لربنا سبحانه وتعالى، إذا تفكر العبد به أكثر من الطاعة، وأكثر من السؤال، ما دام أنه سبحانه وتعالى حيي لا يرد يدي عبده فارغة إن سأل، **(فالله أكثر)**، أكثر من الدعاء أكثر من الاستغاثة أكثر من النظر إليه سبحانه وتعالى، وإذا علمت هذا ابتعدت أكثر ما يكون عن المعاصي، فالله عز وجل لا يحب لعبده أن يأتي المعصية فإذا أتاها فليستتر ولا يجاهر بها ليكون له مقام المغفرة، عدد عليه ذنوبه وقال جل في علاه: **(فإنّي قد سَترتُهَا عليكَ في الدُّنيا، وأنا أَغفِرُهَا لكَ اليومَ)**، سبحان الله! أي مقام أعظم من هذا؟! فهذا يجعله يحب الله عز وجل، يحب ربه سبحانه وتعالى لمثل هذه الصفات الكريمة، هذا إله يحب لما فيه من جلال وجمال وعظمة الصفات التي فيه سبحانه وتعالى.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا حبه وأن يرزقنا العلم به، العلم بالله هو أساس كل شيء، أن تعلم الله، أن تعلم من هو الله، إذا علمت الله علمت شرعه وعلمت قدره، ما الذي جعل الصحابة أعلم الناس تقديرًا للشرع؟ يصيبون إذا فكروا، إذا فكروا وافقوا الوحي، هذا الفاروق كيف يوافق الوحي؟ وافقه عندما قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم **(لَوِ اتَّخَذْنَا مِن مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى)**، فَنَزَلَتْ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، ما الذي يجعل هذه النفس بمثل هذا المقام أن يوافق الله، وقال عمر رضي الله عنه: «يا رَسولَ اللَّهِ، لو أَمَرْتَ نِسَاءَكَ أنْ يَحْتَجِبْنَ، فإنَّه يُكَلِّمُهُنَّ البَرُّ والفَاجِرُ، فَنَزَلَتْ آيَةُ الحِجَابِ»، وافق الله في هذا، في أسرى بدر نريد أن نري الله أننا ليس في قلوبنا محبة إلا له، وليس في قلوبنا محبة إلا للمؤمنين، يحبه الله، **(لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات)**، هذا السؤال ما الذي يجعلهم بهذه المعرفة بربهم؟

أنت لو كنت عارفًا لأبيك أي سؤال تسأل عنه عن أبيك، فتقول: أبي سيقول كذا، أنا أعرف أبي سيقول كذا، ولو كنت عالما بزوجتك، أنا أعرف ماذا ستقول، ستقول كذا، فعلمك به يعلمك ماذا يقول وماذا يشرع، وماذا يقدر وماذا سيختار، وعلمك بالله يعلمك شرعه، علمك بالله يجعلك تلتزم بأمره علمك بالله حتى لو لم يأت شرع، لماذا قال الله عز وجل ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥]؟ قلوبهم منورة حتى ولو لم يعلموا الحق لغيابه لسبب غياب ليس بتقصير، أنهم يعلمون أن الله سيقول كذا، وكنا نعلم أن الله سيقول كذا وسينزل كذا وهكذا.

فقلوبهم تنورت بالله وبالعلم به فصاروا يعلمون ماذا سيفعل، بل صار تقديراتهم لما سيقع في الوجود يعرفونها لأنهم علموا الله، وماذا يقدر، هذا الخوف في نفس عمر رضي الله عنه لما رأى الدنيا جاءت والغنائم فاليوم يوم فرح، هم ينظرون إلى ظاهر الأمر، وهو ينظر إلى واقع الأمر وإلى حقيقته ومآلاته، هذا المال ما جاء إلا للفتن، وذلك دعا الله، لما علم أن الفتن ستأتي دعا الله أن يقبضه، لماذا الفتن؟ الأموال، والناس

على ماذا نقموا على عثمان؟ على المال، فلما جاء المال علم، هذا فقه، ولذلك دعا الله أن يقبضه خلاص أنا لا أقدر على هذه الفتن، وهذا من رحمة الله عز وجل بالعبد.

والقصد من هذا: أنه إذا علم المرء ربه علم شرعه، وعلم ما هو أعظم من الشرع وهو ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] وليس فقط بالعدل، الناس الآن العدل ما هو بين والله الشمس تكون بينة على قلوب أقفالها والشمس بينة فينكرونها، وهذا من رحمة الله عز وجل على العبد أن يعرف شرعه وأن يراقب قدره فيخاف من العقوبة، هذا عمر رضي الله عنه خاف، من الفتن التي من المال، حتى ولو كان المال حلالًا، ما سأل المال حلال أم ليس حلال، لا، لمجرد وجود المال فهو فتنة، حتى لو كان حلالًا، هذا من فقهه رضي الله عنه.

وهكذا يعني العبد إذا صار مع الله وهذا ما نفقده، يعني يا إخوة هذا شيء فقط في جانب الدرس، يعني في الحقيقة لا يمكن أن يكون المرء قائدًا ولا يمكن أن يكون المرء مصلحًا ولا يمكن أن يكون المرء داعيًا، وهو غير منور في قلبه الطريق، على ماذا أنت تدل؟ أنت تدل الناس على الله وأنت لا تعرفه، تدل الناس على الله وأنت لا تخافه، أنت تريد أن تقيم الشرع في الأرض وأنت لا تقيمه في قلبك، ومن هنا كل المصلحين في التاريخ أمتنا هم الناس الذين تنورت قلوبهم، تنورت قلوبهم، بالعلم تنورت قلوبهم بالطاعات، تنورت قلوبهم بالقرآن، فكلماتهم كانت تصلح الوجود.

ولذلك إذا نظرت إليه دلك على الله، سمته يدلك على الله، حديثه يدلك على الله، اختياره وهو يتحرك، العلماء الآن نحن نحفظ سيرتهم نحفظ كلامهم نحفظ مواقفهم دلتنا على الله، عندما تحضر الجموع والملوك والسلاطين تخيفه ويخيفه هم القضاة، فلا يذكره إلا الله، هؤلاء هم مشاعل الوجود وقناديل الدنيا ونور الحياة، هؤلاء هم، فلا يصلح الوجود إلا بمن يدل على الله لأن الله في قلبه، لا يصلح الوجود إلا من دلك على طريق الله، لأن الطريق بينة ونور في قلبه، نور على نور في قلبه، نور الشرع في قلبه ونور العمل به، نور الثقة بالله والتعامل معه.

هذا الذي نريده يا إخوة انتبهوا لهذه الكلمة، هذه كلمة ليست تربوية خارج إطار التغيير للحياة والجهاد هذه ليست خارج، بعض الناس يقول لك: هذه مواعظ، كأنه هناك سياسة وهناك مواعظ، كأن هناك عمل وهناك مواعظ، لا، العلم بهذا هو الذي ينور قلبك للاختيارات التي يحبها الله، العلم بالحق، العلم بالله عز وجل هذا ليس فقط عملية تربوية قلبية، هذه كذلك اختيار عقلي، أن العلم في شريعتنا هو العمل بالدين، العلم في الشريعة هو العمل، فالله لا يصلح عمل المفسدين، والمفسدون هم الذين قلوبهم

امتلأت بمحبة الدنيا، إذا رجل اختياراته دنيوية ويخاف من غير الله، ماذا ستكون اختياراته؟ إذا أحب الدنيا ولم يحب الآخرة ماذا ستكون اختياراته؟

ولذلك الحديث يدور عن السياسة، ماذا قال موسى وفرعون يتحدث؟ ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر: ٢٧]، أساس الوجود وهو يتحدث مع فرعون، فرعون قائد سياسي عسكري، الحديث عن ماذا يدور؟ أما أن تتبع شرع الله، ماذا كان الخوف؟ ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾، هذه هي القضية، هذا هو الموضوع.

ولذلك نحن بحاجة لأناس وسيكون هذا هناك أناس يربون في الخفاء، يخافون الله وهم على إطلاع على الشرع، هذه الثنائية بين العالم والعابد هذه ثنائية نكده، ثنائية شيطانية هذه، لا يكون العالم إلا عابدًا ولا يكون العابد الذي يحبه الله إلا أن يكون عالمًا، لا يكون القائد الذي يحدث في التاريخ إلا أن يكون عابدًا، إلا أن يكون تقيًا خائفًا من الله سبحانه وتعالى، نسأل الله أن يرحمنا برحمته.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

الدرس الرابع والخمسون: الشافي

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى، الذي تعبدنا به علمًا وذكرًا وحالًا، وهو اسمه سبحانه وتعالى الشافي، وهذا الاسم ورد في الأحاديث على صيغة الاسم، وأما في القرآن فورد فعلًا، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)﴾ [الشعراء: ٨٠]، وأما في الحديث فمن حديث عائشة رضي الله تعالى عنها، الذي في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا عاد مريضًا فرقاه أو جاءه مريض فرقاه، فيقول له: **(اللهمَّ ربَّ الناسِ أذهبِ البأسَ واشفِ أنت الشافِي لا شفاءَ إلا شفاؤُك، شفاءً لا يُغادرُ سَقمًا)**، الحديث فيه **(وأنت الشافي)**.

فالله عز وجل هو الشافي، والشفاء كلمة الشفاء من شفى الشيء أنه وصل إلى حده المطلوب، حتى أنك تقول شفى قلبه، ما معنى شفى قلبه؟ أي أخذ منه ما يريد حتى وصل إلى الحد المطلوب، لو أن رجلًا أراد الثأر من رجل، فقال: شفى أنه شفى قلبه بمعنى أخذ منه ما يريد من الثأر حتى انتهى، هي هذا أصلها، فإذا بلغ المرء حدًا من الصحة وخروج السقم منه فيقال: شفى أي وصل إلى الحد المطلوب من العودة إلى ما كان عليه وذهاب المرض عنه.

فالله عز وجل هو الشافي، وهذا الاسم من أسمائه سبحانه وتعالى دال على الرحمة الإلهية، ودال على العطاء الإلهي سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي إذا وقع في الناس البلاء أخرجهم منه، وهو سبحانه وتعالى الذي أعطى من الأسباب ما تخرج العبد من الأمراض ومن الأسقام، سواء كانت هذه الأمراض مما يتعلق بما هو بدني أو ما هو مادي أو ما هو قلبي وعلمي، فالله سبحانه وتعالى شفى القلوب من أمراضها والقلوب لها أمراض على المرء أن يخرج منها، وأن يطلب من الله عز وجل أن يخرجه منها أعظم مرض هو الشرك بالله سبحانه وتعالى، هذا مرض عظيم، وهو مرض لأنه خلاف الصحة، والصحة هي الفطرة، والفطرة هي التوحيد، فالله عز وجل شفى القلوب من مرض الشرك وشفى القلوب من مرض الحسد، شفى القلوب من مرض اتباع الأغيار من هذه الأصنام.

الناس في هذا الوقت ترون في الشباب ترون في الناس لهم أمثلة، يمشون إليها ويقتدون بها، هذه الأمثلة مريضة فتورث المرض في القلوب، الذي يتبع قديمًا إلى الآن يتبعون ممثلين يتبعون اللاعبين، وفي وقت من الأوقات اتبعت أمتنا وما زال البعض وإن كانوا قلة يتبعون أصحاب الأفكار المريضة كماركس ولينين، وماو سي تونغ وجيفارا وما شابه ذلك، فهذه قلوبٌ مريضة في اتباعها لهؤلاء والحب يقوم على المشاكلة، لا يحب المرء حبيبًا له إلا إذا شاكله في الصفات وخاصةً الصفات القلبية، إذا تشابهت الصفات القلبية أحبه.

وذلك مما يذكر في الكتب في هذا الباب أن رجلًا قال لأرسطو: أني أحبك، قال: ما أحببتني إلا لمرضٍ فيا، لأنه يرى أن هذا مريض، فلا يحبه.

فالله عز وجل شفى القلوب بأن جعل المثال الذي يقتدى به هو رسولنا صلى الله عليه وسلم الذي هو المثال الكامل في البشرية، جعل القلوب تتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم تعلقًا عجيبًا، بأن تقتدي به في كل أفعاله وأقواله وحركاته وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم، فالله عز وجل شفى القلوب من الشرك، شفى القلوب من محبة غيره، شفى القلوب من أن يكون في القلب سوى الله سبحانه وتعالى، وشفى القلوب من أن تتبع غير النبي صلى الله عليه وسلم، فالله هو الشافي.

والله عز وجل شفى البشر بهذا الشرع العظيم أولًا: شفاهم بأن لا يوقعهم في الخطأ، لأن منع الوقوع في المرض هو شفاء، أعظم الشفاء هو أن لا تقع في المرض، ولذلك الإنسان الصحيح مشافى، فالله عز وجل أعطى هذه الشرائع من أجل أن لا تقع في القلوب الأمراض، أقام الصلاة التي فيها تكبير لله عز وجل، التي فيها حماية، أنزل القرآن الذي فيه شفاء للناس من أمراضهم القلبية، وكذلك أقام الحدود بعد أن يقع العباد في المعاصي، لأنها تشفيهم، الله عز وجل شفى المجتمعات من السرقة بأن منعها، وشفى المجتمعات بعد أن تقع السرقة بأن أقام الحدود.

وحين لا تعالج هذه القلوب وهذه المجتمعات بهذه الأدوية الربانية، ينتشر الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، لا يوجد شفاء، إذا سرق السارق تركوه، هذا الغرغرينا وهذا المرض وهذا الفيروس ينتشر في الناس تنتشر السرقة، لأنه كما قال علماؤنا: «إن الحدود تطهر وتزجر»، تطهر قلب هذا الرجل تؤدبه وتطهره من الإثم، وتطهره من العذاب يوم القيامة، وتزجر غيره من أن يقع، فإذا أزيل هذا المطهر بقي الفساد، كثر وزاد، وإذا زال المطهر انتشر الفساد فلم تعد تزجر، لأنه لا يوجد زواجر فينتشر الفساد، فالله عز وجل أقام شرعه شفاءً، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، انظر هذا الاقتران، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ

جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾ [يونس: ٥٧]، ورحمة، فاجتماع الشفاء مع الرحمة، فالشفاء: هو زوال الفساد، الرحمة ما هي؟ أعلى من الشفاء، الشفاء هو زوال الفساد، الرحمة أعظم، أنت ربما تقوم على الرجل بالعناية على مقدار ما يحتاج، فإذا زدت عليه أنت رحمته.

فالله أنزل هذا القرآن من أجل أن يشفي البشرية، أن يشفي المجتمعات من أمراضها، الله عز وجل أقام الشرائع انظر للزكاة، هذه فريضة الزكاة كم يحصل بها من الشفاء، تطهر القلوب، تطهر الأموال، تطهر النفوس وكذلك تقضي على الفقر، لو أن الناس يطبقون هذه الفريضة فقط، انظر لأصحاب الأموال والملايين والمليارات في المجتمعات الإسلامية لو طبقت فريضة الزكاة كم يبقى في المجتمع من فقراء؟ هل يبقى فقير؟ لا يبقى فقير، يوجد مليارات بأيدي الناس، فلو أخرجت فقط الزكاة ستقضي على مرض اسمه الفقر، والفقر يوجد البغضاء، والفقر يسقط القيم، كما قال الإمام علي رضي الله تعالى عنه: «لو كان الفقر رجلًا لقتلته»، فالفقر هو الذي يدفع المرأة للزنا، الفقر هو الذي يدفع الرجل للمهانة لأن يمد يده، الشريعة تشرف المرء أن تكون يده دنيا لأن اليد العليا أعظم وأحب إلى الله عز وجل من الدنيا، الله يعظم النفوس فتقوم الزكاة والله جعلها حق للعبد، يعني أنت عندما تؤدي الزكاة أنت لا تؤديها من جيبك بأنها مِنّة بل هي حق لله عز وجل، حق للفقير في مالك، فانظر إلى هذا الشفاء العظيم الذي يتحقق بهذه الشريعة.

انظر إلى علاج وأمر الله بالجهاد، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وإذا كان كل أمر لله عز وجل طاب؛ لأن الله عز وجل هو الطيب، إذا كان كل شيء لله؛ طاب، إذا كانت الأحكام لله والأفعال لله والصلوات لله والعلاقة بين البشر لا تقوم إلا على الإخوة مع عبودية الله، والناس لا يحكمون إلا بسم الله، فانظر إلى هذا الوجود كيف يطهر، ولذلك يكون الدين كله لله، فإذا كان الله؛ طاب، انتهى الفساد، فالجهاد يقضي على الفساد الداخلي لأنه إذا وقف الجهاد في أمة؛ انتشر الفساد، لأن الجهاد ينقي الأمة ينقيها يجعل فيها الشهداء، يجعل فيها البر، يجعل فيها الإحسان، يجعل فيها العرق من أجل دين الله، الله ينزل البركات من السماء.

فالله عز وجل جعل الشرائع جعلها شفاء، وغير ما يحصل هذا انظر إلى القرآن الكريم كيف يطهر القلوب من أدرانها من مرض الحسد، انظر كيف إذا قرأ العبد القرآن ماذا يحصل له من الخير، نزول الملائكة تتنزل، الملائكة تحضره وتسمع له، الوجود تراه يطيب والوجود الذي لا تراه من عالم الغيب، كذلك يطيب هذا الوجود، بوجود الملائكة تتنزل الرحمات وتتنزل السكينة على هذا العبد الذي يقرأ القرآن، انظر حال المدينة المنورة في الليل، حال المدن الإسلامية العظيمة في الليل، كيف يكون فيها العباد، سرُج، القرآن نور.

وبهذا الله عز وجل شفى بشريعته القلوب وشفى المجتمعات وشفى الأفراد وشفى الأُسر، انظر إلى الأُسر عندما يكون فيها أمر الله كيف شفاها، كيف بشريعته تم شفاء الأسرة من أمراضه، قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، أنت تعجب! والله تعجب أن البنت تكون في البيت ولا تنظر إلى هذا الشخص وليس في قلبها فبمجرد أن يكتب العقد، تتعلق به ويتعلق بها، بمجرد كتابة العقد كأنها تعرفه وكأنها لا تعرف أباها، وتعرف هذا الشخص طول عمرها كأنها عاشت معه الدهر كله، ما الذي يوجد هذا كلمة الله، كلمة الله صارت بينهما فأوجد الله المودة والرحمة، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، هذا البيت قام على كلمة الله.

وانظر إلى البيوت في الغرب عندما لا يوجد فيها الشريعة والعلاقات لا تقوم على العقود الشرعية، الآن انتهى، الزواج قليل في الغرب، الموجود الآن هي العلاقات الأخرى ويعترف بها بالقانون، ولها قوة الزواج، مثل ما يسمى: بوي فرند «boyfriend»، جيرل فرند «girlfriend»، العلاقات هذه هو معناها العشيق أو العشيقة، كانت قديمًا عار ويستعر منه، اليوم لا، اليوم موجودة في القانون والأب يتحدث أن ابنته لها عشيق، والرجل يتحدث أن ابنه له عشيقة وهكذا شيء عادي، ولذلك هذه بيوت مدمرة، أسر منهارة، ولا يوجد فيها ما قاله الله عز وجل لا يوجد فيها المودة والرحمة.

وأصحاب الأموال في الغرب إذا تزوجوا كتبوا في العقود شروطًا تتعلق بالمال، ماذا لكِ وماذا له وكل شيء، ويجلس محامي الزوج ومحامي الزوجة أسابيع وهم يكتبون العقود كأنها عقود شركات التأمين، كم تصرف السيارة، الكلب الموجود في داخل البيت لمن؟ من صاحبه؟ من يطعمه؟ من يقوم به؟ لا تخدعكم هذه الصور الخارجية أنه يحبها وتحبه، هذا انتهى، لأنه لو يحبها وتحبه هم يعيشون الحب خارج إطار الزواج، الزواج شيء أخر عندهم له حسابات أخرى لا تعلق له بالمودة والرحمة، حتى لا تعلق له بقضية الحاجة الجنسية، لا تعلق له بهذا، هو شركة مؤسسة حتى الآن يسمونه مؤسسة الزواج، وأخذنا نحن ألفاظهم بقوله شركاء، قال شريكته، انظر هذا اللفظ شريك، كأن العلاقة علاقة شراكة وأموال، والله يقول: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

فالله شفى الأسر، شفى الأفراد في تعاملاتهم، فهذا هو سبحانه وتعالى الشافي، ثم أنه سبحانه وتعالى هو الذي يشفي الأمراض وهذا هو سبب الحديث، قال صلى الله عليه وسلم: **(اللهمَّ ربَّ الناسِ أذهبِ البأسَ واشفِ أنت الشافِي لا شفاءَ إلا شفاؤُك، شفاءً لا يُغادرُ سَقمًا)**، إذا الإنسان وقع في الأمراض والأسقام، فمن الذي يشفيه؟ يشفيه الله عز وجل، حتى لو وجدت الأسباب فلو أراد الله أن لا يشفيه لا

يشفيه، وإنما الله عز وجل أقام الأسباب لأن هذا الوجود يقوم على السبب، فلذلك أقام الله عز وجل الأدوية التي تزيل هذه الأمراض، أدوية كثيرة الله عز وجل أنبت أدوية وأنزل من السماء الأدوية، المطر، عندما ينزل اله عز وجل المطر، يتحدث الخبراء كم أنه يزيل من الأمراض، عندما ينزل المطر فيطهر الأرض وينظفها، وهذه الأعشاب التي في الأرض يعرفها أصحابها وأصحاب الفن في الطب، يعرفون كيف هذه تشفي هذا المرض الفلاني.

وهكذا ينوع سبحانه وتعالى رحمته على الخلق لأن المرض جندي من جنود الله، ولذلك لا يسب، لا يجوز، نهى رسول الله عن سب الحمى، قال صلى الله عليه وسلم لأم السائب أو أم المسيب رضي الله عنها: **(لا تسُبِّي الحمَّى فإنَّها تُذهِبُ خطايا ابنِ آدَمَ كما يُذهِبُ الكِيرُ خبَثَ الحديدِ)**، فالمرض لا يسب لأنه جندي من جنود الله عز وجل، فالله عز وجل أنزل هذا الشفاء لما يتحقق من البرء للأبدان والنفوس.

وانظر إلى العسل قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]، انظر الآن كيف يكتشفون قوة هذا السر الإلهي في هذا الخلق العجيب، خلق عجيب والله سبحانه جل في علاه، وأعظم الشفاء في هذا كله حتى الشفاء البدني هو الرقية الشرعية ولها من الآثار العجيبة، أنتم ربما سمعتم المقرئ الحافظ كيف أن كبده قد تغيرت بالدعاء، أسمعتم بقصته؟

رجلٌ اسمه عبد الحليم قارئ لكتاب الله عز وجل فأصيب بمرض، وقالوا له: أنت خلاص شهر ستموت، وقصته مشهورة انظروا إليها، وحتى الناس الذين يزورون جدة يعرفونه، ويذكرون عنه الخير العظيم في الديانة والتعبد والقراءة للأخ الذي جاره يقول لي: هذا رجلٌ عجيب كأنه يعني ليس من البشر، أصيب بتلف في الكبد، الكبد خلاص انتهى، فكل الأطباء جزموا: أنك ستموت بعد شهر، قال: فذهبت إلى أبي في البيت قلت له، قال: أنت مقبل على رحلةٍ طويلة يا بني، هو مصري، تفرغ للعبادة، خلاص هذه المدة أجلس في البيت ولا تفعل أي شيء سوى قراءة القرآن والتعبد، فقال: سألنا هل يمكن يعني استبدال الكبد بكبد واحد آخر؟ فقالوا: نعم ولكن لا يوجد الآن، إلا فقط هناك مستشفى في أمريكا تستبدل الكبد ومستشفى في مصر، قالوا: والآن لا يوجد شيء، لا يوجد عندنا أي حاجة، فقال: دخل الغرفة ووضع بجانبه فقط الحبة السوداء والعسل والماء لأنه لا يستطيع أن يأكل شيئًا، فجعل فقط يقرأ القرآن قال: هذا الخبر جاءني في نهاية رمضان، فأنا دخلت شوال منتظرًا نهايته للموت، وجعل فقط يقرأ القرآن ويشرب من الماء والعسل والحبة السوداء فقط، في غرفة لوحده، وهو يقول: ما كدت أنام، هذا شهر يريد أن يستغله للموت، قال: بعد خمسة عشر يوم هو يقول: أنا كنت أرقي الناس فيشفون، لماذا لا أرقي نفسي؟ قال: فجعلت يدي على مكان الكبد وجعلت أقرأ وأرقي، قال: أيام مضت فشعرت بتحسن، فقلت: احضروا

لي اللحم، فستأذن والده يعني نعطي اللحم، قال: هو ميت، ميت أعطوه لحم، قال: أي شيء أضعه في بطني يخرج، فقال: أكل ولا يرجع وتحسنت، فقال: أخبروني في مصر أنه تحصلنا لك على كبد فتعال، فذهب من جدة إلى مصر، واستقبلوه، وعملوا له الصور، فقال الدكتور: من هذا الذي يريد استبدال الكبد، قال: له أنا، قال له: صور شكل كبدك يبدو جديد، مركب فقط قبل شهرين فقط، قال: حتى الكبد ليس لونه أسود، كبدك لونه زهري وكأنه فقط مركب من شهرين، المهم الله عز وجل شفاه وخرج سليمًا إلى الآن هو يتحدث.

فالرقية الشرعية هذه عظيمة، أن يرقي الرجل المريض مريضه يرقيه، وأن يطلب الرقية الشرعية بقراءة القرآن، كذلك الرقى من أمراض خفية، كالرقية من العين، يستشفي بالرقية الشرعية من العين بقراءة المعوذات كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يرقي الحسن والحسين، وكذلك الرقية من الحسد، الرقية من السحر، الله أنزل القرآن شفاءً لذلك، ولذلك أعظم الرقية هو القرآن، أعظم الرقية النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما، وهذا كله ثقة بأن كل شيء بيد الله، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)﴾ [الأنعام: ١٧].

فكل شيءٍ هو بيد الله عز وجل هذه ثقة العبد أن كل شيء بيد الله عز وجل هذا الكون لا تتحرك أسبابه إلا بيد الله عز وجل، حتى وقد وضع فيها الشفاء لا يحدث الشفاء إلا بإذنه، أي الله عز وجل وضع الشفاء في العسل، لكن تحقق الشفاء بالعسل عندما تشربه لابد من إذن إلهي لهذا الأمر، ليس فقط بالوضع الأول لمجرد أن فيه شفاء يكون الشفاء، لابد أن يأذن الله عز وجل له بأن يقع منه الشفاء، فكل شيء هو بيد الله عز وجل، مرض الفقر من يشفيه؟ من الذي يشفيه مرض الفقر فيكون الغنى؟ الله سبحانه وتعالى.

فعلى العبد أن يدعو الله عز وجل، ما هي رقية زوال الفقر هو الدعاء، **(اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى)**، قال له هذه لي ربي أسألك الهدى والتقى لربي لآخرتي، قال له: اهدنا، قال له: العفاف والغنى، هذه جمع لفضلٍ يتعلق بالآخرة، ويتعلق بآخرة العبد ويتعلق بدين العبد ويتعلق بدنياه الغنى، من الذي يعطي الغنى؟ الله عز وجل، من الذي يسلب الغنى؟ الله عز وجل، لو أراد لرجل لو كان ماله مال قارون، لسلبه الله هذا المال وأعاده فقيرًا متسولًا.

فالله هو الذي يشفي لو صار في البيوت الشر في العلاقة بين الزوج وزوجته، فيجعل الحب والمودة وتزول المشاكل، بينه وبين زوجته، بينه وبين ابنه، بينه وبين أهل بيته، بينه وبين أصدقائه وجيرانه، من الذي يشفيها؟ الله سبحانه وتعالى.

فالله عز وجل هو الشافي جل في علاه هو الذي يشفي، هذا من أجّل أسمائه الدالة على رحمته وعطائه وكرمه، ولذلك أن العبد إذا علم أن الله هو الشافي أحبه، لماذا؟ **(أحبوا الله لما يغدوكم من نعمة)**، بالله عليك إذا إنسان إذا مرض فقام من مرضه هذا يحب الله، كمن كان فقير فيعطيه المال، إلا يحب هذه اليد التي تقدم له المال، ألا يحبها؟ فلذلك يوجب هذا الشفاء حمد الله عز وجل.

هذا الشفاء يوجب أن يحمد العبد ربه، وأن يحبه من كل قلبه، أن يستغيث به، ولذلك انظر ما من شيءٍ يقع إلا والدعاء، ما من شيءٍ يقع إلا وعليك أن تسأل الله عز وجل، أعظم العبادات هو أن تدعو الله عز وجل، أعظم العبادات أن تقرأ القرآن، أحد أبناء آل قدامة المقادسة، قال: «ما من شيءٍ أعظم لقضاء حوائج العبد من القرآن»، قال: «حتى في طلب العلم كنت بمقدار ما أقرأ أكتب الأحاديث، فإذا زدت في القراءة كتبت حديثًا أكثر»، فحتى العلم بابه هو قراءة القرآن، وقال: «وصرت أقرأه حتى صرت اختمه في كل ثلاث أيام مرة»، والناس يظنون أنه إذا طال وقته في قراءة القرآن، ذهب وقته ولا يدري أن الله يبارك له في الأوقات يعطيه، فهذا العالم أدرك بالتجربة بأن قضاء الحوائج يقع في القرآن، يقع بقراءة القرآن، اقرا القرآن.

ولذلك قيل لأحدهم: فلان لا يحفظ القرآن، قال: بما يترنم، يعني الإنسان عندما يحفظ سورة يحفظ سورتين يحفظ ثلاثة يحفظ جزئيين أربعة خمسة، فه لا يوجد عنده شيء اسمه وقت فراغ، هذا وقت فراغ لا وجود له، وإذا هو يقود السيارة يقرأ القرآن، وإذا هو جالس يقرأ القرآن، إذا هو نائم يقرأ القرآن، كما وصف النبي صلى الله عليه وسلم يقرأه نائمًا ويقظان، يقرأ القرآن الله يقضي له الحوائج، البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله شيطان، هذا شفاء، الشيطان مرض، **(الجوف الذي لا قرآن فيه كالبيت الخرب)** هذا مرض، فإذا وجد القرآن طرد هذه الأمراض طرد هذه الشياطين.

فالله سبحانه وتعالى يحب لأنه يقضي حوائج العباد، انظروا إلى العباد كم يعطيهم الله وكم ينزل عليهم من الرحمات، **(خيري لعبدي نازل وشره إلي صاعد)**، للأسف هذه هي القاعدة، فعلى العبد أن يكثر الاستغفار، فمن أعظم الأدوية الاستغفار، من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل عسر يسرا، ومن كل ضيق مخرجا، الاستغفار، استغفر الله، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا

(١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢)﴾ [نوح: ١٠-١٢]، هذا شفاء سبحان الله!.

والله أقولها فقط تعليمًا وتعجبت من هذا الرجل! تعجبت ثقته بالله عز وجل! وهو حي يعني لا أتكلم عن ناس ماتوا وذهبوا، قال: والله إني استعين بإتيان أهلي بركعتين قبل ذلك، كانوا يتحدثون عن أدوية معالجة العجز، في إتيان النساء، قال: أنا أتعجب منكم، ماذا تستخدمون أنتمْ؟ سبحان الله انظر لهذه القلوب، قال: إذا أردت أهلي أتيت قمت بركعتين استعنت بالله بركعتين، والله، هذا شيء عجيب! هذه قلوب معلقة بالله عز وجل تعرف أن كل شيء بيد الله عز وجل، تستعين بالله بالاستغفار بقراءة القرآن، الله هو الشافي، الله بيده كل شيء وجعل الشريعة أعظم شفاء، القرآن شفاء للأمراض القلبية، وشفاء للأمراض البدنية.

وكذلك ما شرعه الله عز وجل انظر لما جعل الله عز وجل ماء زمزم، قال صلى الله عليه وسلن: **(إنها مباركة، إنها طعام طعم، وشفاء سقم)**، أي أنت تشرب الماء فهي طعام وتشرب ماء زمزم فتشفى، هذه الثقة بالله عز وجل، اليقين على الله، هذه لا يقع إلا باليقين على الله عز وجل، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(صدق الله وكذب بطن أخيك)**، عليك إن تثق بالله عز وجل وأن تتعلم.

انظر يتحدث الناس عن آيات الله في قضية الاستغفار كيف يفتح الآية،، والله أحدهم قال: كنا في زيارة والدنيا مطر شديد، فالسيارة قديمة ووقفت، ومعنا شيخ رحمه الله وهو الشيخ أحمد السالك إذا سمعتم به، نسأل الله أن يرحمه وهو من عباد الله عز وجل، نحسبه والله حسيب أنه من الصالحين، قال: فو الله وضع يده على السيارة يقول: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فما زال بها حتى اشتغلت السيارة وما زال بها حتى وصلنا البيت، وهو مشى بها أكثر من مئة وعشرين كيلو في المطر، قال: فقط وهو واضع يده ويقول: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

الثقة بالله عز وجل أنه بيده كل شيء، ثق بالله عز وجل، لماذا تتوكل على الأشياء؟ لماذا تسأل غيره؟ سل الله سبحانه وتعالى، هذا القرآن، انظر أنا فكرت في هذا الشيخ لما حدثني الرجل الذي حدثني بقصة الشيخ أحمد السالك، ولو كان حيًا ما ذكرت اسمه، والله هو الذي في السيارة هو السائق، قال: والله هذه حدثت معنا، ولماذا؟ لأن ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)﴾ [الأنبياء: ٨٧]، هذه أخرجت يونس عليه السلام من بطن الحوت.

وابن تيمية رحمه الله يقول: «هذه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، إذا أكثر العبد منها في سجوده في قيام الليل لم أعلم أعظم منها في قضاء الحوائج، وفي درء الأعداء»، لما تقع المصائب عليك بها، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، سبحان الله! انظر لهذه الكلمة وأنا دائمًا هذه الكلمة لما أمر عليها كأنها والله كالنار التي تحرق كل الأوساخ، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾: هذا التوحيد، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾: وحد الله، فقد وحد الله فقدسه، ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: ثم نسب العجز لنفسه والضعف لنفسه والذنب لنفسه والتقصير لنفسه، هذا قمة التوحيد هذه كلمة كأنها نار تحرق كل الأوساخ، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم على العبد أن يتذكر هذا حديث والله يا إخوة يعني المرء لا يدري كيف يتكلم، إما في قلبه في مثل هذا، لما يقول صلى الله عليه وسلم عن أسماء الله عز وجل: **(بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء)**، لا يضرك شيء، الأعداء لا يضرونك، الأمراض لا تضرك، الفقير لا يضرك، العجز لا يضرك، هذا **(بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء)**، هذه الثقة بالله عز وجل، الله هو الذي يقدر المقادير فعليك أن تثق به.

قد يقول أحد: أنا دعوت فلم يستجاب لي؟ هذا يحتاج إلى اليقين، وكما في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: اسقه عسلًا، هل شُفي من أول شربة؟ أمن ثاني شوربة؟ لا، حتى شرب كمية تكافئ المرض، والثلاثة الذين دخلوا في الغار، فهل خرجوا من دعاء الأول؟ أول مرة استغث اجلس أمام الله سبحانه وتعالى استغث به، أطل السجود اسأله، الله يعطيك لأنه يحب أن يسمع أنينك، يحب أن يسمع حاجتك، يحب أن يسمع ضعفك، يحب أن يسمع استغفارك، فأنت تطرق، فيقول: من؟ فتصور أنك تجيب بكلام يحبه، أنت مشغول بحاجتك لتدخل البيت، وهو رب العالمين يحب أن يسمع صوتك، تستغيث أدخلني، فما هو مقامك؟ **(لك العتبة حتى ترضى)**، سأقف حتى ترضى فتفتح الباب، إذا طردت من الباب، لا تكون الأبواب الأخرى إلا هلاكًا لك، ودمارًا لك وفسادًا لدينك وفسادًا لبشريتك ولصلاحك ولخيرك، وبابه الوحيد الذي يعطيك هو يريدك لنفسه ليكون كل شيءٍ لك، والآخرون يريدونك لأنفسهم ليكون كل شيء لهم، وحتى أنت تكون لهم، لا ليس لك شيء.

فهذا الاسم العظيم له سبحانه وتعالى الشافي، وكذلك عليك إن تستغيث به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(اللهمَّ ربَّ الناسِ أذهبِ البأسَ واشفِ أنت الشافِي لا شفاءَ إلا شفاؤُك، شفاءً لا يُغادرُ سَقمًا)** أي يستغيث به، استغث بالله عز وجل اللهم أنت الشافي، اللهم أسألك وأنت الشافي، فاسأله سبحانه وتعالى لما يقع لك وسترى السر الإلهي في هذه الأسماء، **(بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء)**،

فبسم الله انظر إلى اسم الله عز وجل لما يخرج الإنسان من بيته ماذا يقول؟ **(بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله)**، ماذا يقول له الملك؟ **(كفيت ووقيت)**، خلاص أنت كفيت ووقيت، الله الذي هو يحفظه، **(بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله٩، توكلت في قضاء الحوائج، استعنت به على قضاء الحوائج ودفع الضرر، لا إله إلا الله.**

فإذا القلب تعلق بالله عز وجل بهذا المعنى خلاص لا يضره شيء، لا يحزنه شيء، وإذا وقع عليه البلاء فيستعين بالله عز وجل، وإذا جاءه الموت التحق الحبيب بحبيبه خلاص انتهى الموضوع، «أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله»، الموت لا يكون حينئذٍ لا يكون إلا انتقالًا من دار فيها البأس وفيها البلاء وفيها الشدة وفيها التعب إلى دار لا نصب فيها ولا صخب، رضوان خادمها والله عز وجل هو جارك فيها فهذا هو قمة النعيم، ولذلك من أعظم الشفاء هو أن يشفي الله عز وجل هذا العبد بأن لا يدخله النار، هذا شفاء، ينقيه وهو في القبر، أن ينقيه عند النزع، أن ينقيه عند البعث، فيدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، اللهم اجعلنا من أولئك، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، والحمد لله رب العالمين.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس والخمسون: الشهيد

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا الذي تعبدنا بهذه الأسماء علمًا وذِكرًا وحالًا، ألا وهو اسمه سبحانه وتعالى الشهيد، وهذا الاسم الرباني ورد في الكتاب والسنة وكما يقول الإمام ابن العربي: وأجمعت عليه الأمة، وأصل الشهادة هو الحضور، شهد أي حضر، وفيها معنى زائد عن قضية الحضور لأن الحضور يقتضي العلم ويقتضي الاطلاع ويقتضي الخبرة، ولكن فيه معنى زائد وهذا المعنى الزائد هو إظهار ما علم، ومن هنا أخذت الشهادة، فالشهادة جامعة لأمرين إن كانت حقًا:

الأمر الأول: أنه حضر الشيء فاطلع عليه وخبره وعلمه.

الأمر الثاني: انه أبان عما اطلع عليه، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، أي أعلم الخلق بذلك، وكفى بشهادته شهادة جل في علاه، وهذا الاسم ورد في كثير من النصوص القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)﴾ [الحج: ١٧]، فالله عز وجل ما من شيء إلا وهو سبحانه وتعالى مطلع عليه، عالمٌ به، وهناك من العلم ما نعلمه لله عز وجل مما لا يطلع عليه أحد من ذلك أسمائه، قال صلى الله عليه وسلم: **(اللهمّ إني أسألُك بكلِّ اسمٍ هو لك سميتَ به نفسَك أو أنزلتَه في كتابِك أو علمته أحدًا من خلقِك أو استأثرت به في علمِ الغيبِ عندك، أن تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلبي ونورَ صدري وجلاءَ حزني وذهابَ همّي وغمّي).**

فعلم الله عز وجل لا منتهى له، فإنه يعلم الأشياء التي أوجدها، وهناك من العوالم التي خلقها الله عز وجل ما لا نعلمها، أو أنه أخبرنا عنها على صفة الإجمال، فهذا العرش العظيم، هل يستطيع أحد أن يحصيه أو أن يحيط به؟ مع أن الله عز وجل أخبرنا بهذا العرش، وأنه عظيم وأنه مجيد وأنه كريم، ومع ذلك نحن لا نستطيع أن نعلم علمًا في الإحاطة بما خلق، بل نحن لا نعلم أنفسنا والأشياء الدقيقة نحن لا

نعلمها، ﴿مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، كم يحيط الناس بعلم الله عز وجل مما علم من البعوضة التي خلقها؟ فلا يعلمون.

فالله سبحانه وتعالى لما يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)﴾ [الحج: ١٧]، تستطيع أن تعلم فقط تصورًا أنه ما من شيء يغيب عنه فهو مطلع عليه ويراه، وأنه سبحانه وتعالى لو شاء أبان عنه وأظهره، فلا يعجزه شيء.

والعلم أيها الإخوة الأحبة مبتدأه هو أن تعلم الشيء، لكن هذا لا يسمى علمًا فقط، إذا اقتصر المرء على معرفة الشيء فقط هذا لا يسمى علمًا ولا يكون الرجل عالمًا، لابد من شيء آخر أن يعلمه، ثانيًا أن يحيط به ويدركه، يعني لو أن رجلٌ سمع بشيء اسمه أصول الفقه، فهل يكون عالمًا؟ لا، فهو يحتاج إلى شيء آخر، ما هو هذا الشيء الآخر؟ يحتاج إلى أن يحيط بهذا العلم، أن يعرف دقائقه، أن يدخل في مسائله، أن يطلع على فروعه، وهكذا لا يسمى عالمًا، مع أنه علم الشيء وأن هذا الشيء موجود من العلوم، وما يختص به، ولكن لابد أن يعلم دقائقه وأن يعلم أن يحيط به، وكذلك هذا لا يسمى عالم لا يسمى، لا بد من شيءٍ آخر، وهو أن يستطيع الإبانة عن هذا العلم، أن يجلس فيتكلم ويحيطه من هنا يختلف العالم عن الجاهل.

فإن الجاهل ربما يتحدث عن الأشياء فيفسدها، ربما الجاهل يتكلم عن شيء لكنه يتكلم عنه بطريقة فيها الجهل فيفسد الموضوع الذي يخبر عنه، ولكن العالم يخبر عنه وتتفاوت درجات الناس في الإخبار عن الشيء فتتفاوت مراتب علومهم في إحاطتهم لهذا العلم، في معرفة دقائق مسائله، في معرفة تنوع مسائله، وبعد ذلك تختلف مراتب أهل العلم في العلم وهو أن يبين هذا العالم عن هذا العلم ان يبين عنه، فالعيي الذي لا يستطيع الإبانة عن نفسه لا يسمى عالمًا لا يستطيع.

الآن العامي يرى أشياء في نفسه يرى أشياء في الناس، فلو قيل له تحدث عن الكبر، هو يراه في الناس وأدركه وربما يلاحظ من الكبر ما لا يلاحظه غيره في الناس، أو قيل له تحدث عن البخل، فلا يستطيع يقول لك: البخل هو البخل، ولكن العالم يطلع على أسرار هذا الأمر ويستطيع أن يبين عنه، من هنا كانت الشهادة ليس فقط أن يعلم، هذا لنفرق بين أسماء الله فيما يزيد الاسم عن الآخر.

فلو قال: لماذا يسمى شهيد ويمكن أن يستعيض عنه بعالم أو عليم؟ لماذا نقول شهيد ولا يستعاض عنه ويكتفى بقوله خبير؟ مع إن الشهادة خبرة والشهادة علم، وتختلف الشهادة عن هذا:

أولًا: العلم قد يأتي بالسماع والشهادة لا تكون كذلك، الشهادة لا تكون بالسماع، العلم أنا أخبرك بمعلومة فتصبح عالمًا بها، ولو لم ترها، فنحن نعلم أشياء كثيرة في هذا الوجود وفي عالم الغيب ولم نراها ولم نحسها ولم نشمها، ولكنه إذا حضرتها وأبصرتها بعينك فإنك تسمى شاهدًا لما حضر، ومن هنا قالوا كما قال ابن العربي في شرحه لهذا الاسم قال: «ما حصل به العلم سوى السماع»، الشهادة أن يحصل لديك العلم مع ان يستثنى بالسماع؛ لأنه إذا اقتصر على السماع لا يسمى شاهدًا.

وقد يقول قائل: هناك شهادة بأني سمعت فلان يقول، أنت هنا شهادة على أنك سمعته وليس شهادة على ما أخبر به، هذه تسمى الشهادة على الشهادة أو الشهادة على الخبر.

ثانيًا: الشهادة فيها أمرٌ زائد فقد يكون عالمًا بالشيء ولا يخبر به، والله عز وجل يوم القيامة يشهد على الخلق وكفى به شهيدًا، ومع أنه سبحانه وتعالى كفى به شهيدًا إلا أنه لرحمته وحكمته وتمام إعذاره للخلق يُشهد غيره، فأول ما يشهد للعبد بدنه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)﴾ [يس: ٦٥]، تشهد عليهم أبشارهم، تشهد عليهم شعورهم، تشهد عليهم ذرات أبدانهم، تشهد عليهم أنهم فعلوا وتنطق، وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

العجيب! أن الناس يظنون أن الأدوات هي التي يقتصر عليها الفعل، فإذا غابت الأداة لا يمكن أن يقع الفعل، وهذا غير صحيح.. كما قال رسولنا صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها: **(إن الذي أمشاه على رجليه يمشيه على وجهه)**، المسألة هو أن الله خلق الرجلين ووضع فيها قدرها وقوتها بأنها تمشي، ولو سلبها لا تمشي، فكم من الناس عندهم أرجل ولا يمشون بها، فلو شاء الله جعل المشي بآلة أخرى غير آلة الرجلين، موجود هذا في الوجود لنا، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ [النور: ٤٥]، سمى الله عز وجل حركة هذه الدابة التي تتحرك على بطنها سماه مشيًا، فليس لها شيء سوى البطن تمشي عليه.

فالله عز وجل يجري هذا المعنى، فيوم القيامة الله عز وجل يجعل هذه الأبدان والأشياء تنطق، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **(وإني لأعلم حجرًا في مكة كان يسلم علي)**، الحجر يتكلم ليس له حنجرة ولا يتردد في جوفه الهواء لأن الكلام هو تردد الهواء في الجوف، الهواء، سبحان الله! مع هذه الآلات التي خلقها الله عز وجل من أجل هذا المعنى، مثل الحنجرة، مثل الجوف، مثل القصبات، وغير ذلك.

فالله عز وجل يوم القيامة يشهدها هؤلاء، طيب اليس الله كافيا؟ يقول أنت فعلت وفعلت، لكن من تأمل القرآن وجد أن المجرمين يعاندون الله يوم القيامة، حتى يوم القيامة، قال عز وجل: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨)﴾ [المجادلة: ١٨]، يعني يوم القيامة يقف الواحد منهم، فكأن هناك أنواع في القيامة أنواع من إقامة الحجة على الخلق، وهذه الآية فيحلفون له كأنه في الابتداء سبحانه وتعالى لا يظهر لهم الأدلة، كما يُفعل عند المحققين فيقول: له ماذا فعلت؟ فهو يظن أن المحقق لا يعلم شيئًا عنه، فيبدأ يصنع قصة من الخيال أو ينفي أفعالًا وقع بها، وذاك ينظر إليه يعني أي مسخ أمامه يتكلم وفي داخله يستهزأ به، اكذب قل ما تشاء، وأظن أن هذه ويحلفون له قبل ظهور الأدلة.

﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾، هم يحلفون لمن؟ الضمير يعود لمن؟ يعود لله عز وجل، يحلفون لله عز وجل، تصور! فانظر إلى هذه النفوس العجيبة التي تحلف لله عز وجل وهي تعلم أن الله عز وجل لا يغيب عنه شيء، فقبل أن يظهر لهم الأدلة، يقول لهم: ماذا فعلتم؟ ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾، ماذا كانوا يحلفون لهم؟ يحلفون أنهم معهم، يحلفون لهم أنهم على الخير وليسوا منافقين، يحلفون أنهم يناصرونهم ولا يناصرون أعدائهم، يحلفون أنهم على الإيمان وليسوا على الكفر والنفاق والزندقة.

فيحلفون لله عز وجل هذا اليمين ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾، وقوله جل في علاه: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾، إما أنها متعلقة بالحلف، أي إذا حلفوا حصل لهم إثبات القضية التي يريدونها، تعلقها بها ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾، أي يحسبون أنهم بحلفهم على شيء، يعني كما يقال في العامي، «قالوا: للسارق احلف، قال: جاء الفرج»، والله قال لهم ماذا فعلتم؟ فجعلوا يحلفون له فقالوا: خلاص ملصنا، «نجونا»، هذا واحد.

المعنى الثاني: وهو الأقوى والله تعالى أعلم أن متعلق ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾، أن تعلقه يعود لظنهم أنهم كانوا على دين، كيف يظنون أنهم على دين؟ وهذا دليل على أن المرء قد يكفر وهو لا يدري ظانًا أن ما يفعله هو الخير، رجلٌ رجله في الشرق ورجله في الغرب، رجله مع المؤمنين –لأنه هذا حديث عن المنافقين– فرجل رجله مع الكفار ورجله مع المسلمين، فماذا يقول؟ يقول: إن نجح هؤلاء كنت معهم، مذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، مذبذبين، فهو يأتي يوم القيامة يشهد أنه كان مع المؤمنين، هل هو صادق أنه مع المؤمنين؟ نعم، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾، أنه كنت معهم ولما خرجوا لكذا خرجت معهم ولما جلسوا لكذا جلست معهم ولما فعلوا كذا كنت معهم فيحسبون أنهم على شيء بما أتوا من أفعال عند حضور قوة الإيمان أو عند احتمال نصرة الإيمان، وهذا متعلقه لما كانوا عليه، وليس لما حلفوا عليه.

فهذان معنيان في قوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾، لأنه هذا ينجينا كنا معهم، هذا كنا معكم نحن، قال تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤)﴾ [الحديد: ١٤]، وقال جل في علاه: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢]، فكانوا يأتون إليه، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾، نحن ذهبنا وجلسنا وصلينا وفعلنا فيحسبون أنهم على شيء ولا يدرون أن هذا لا قيمة له، ولا قيمة لهذا العمل لأن الأعمال لا تقبل إلا بالإيمان الكامل والتوحيد الكامل، نحن نقصد التوحيد الكامل ونقصد بالإيمان هنا أركان الإيمان.

والقصد من هذا: أن الله سبحانه وتعالى شهيدٌ على كل شيء يشهد كل شيء يحضره، تعلمون أن كلمة شهيد هذا للمعنيين اخترقا؛ الأول: أن الشهادة لا تكون بالسماع إنما تكون بالحضور، إذًا لما يسمع المرء أن اسم الله الشهيد أنه الشهيد ما هي الأقوى دلالة في قضية الحياء من الله عز وجل ومراقبة الله عز وجل وأن الله عز وجل حاضر، ما هو الأقرب أن تقول عليم أم تقول شهيد؟ شهيد، في هذه الدلالة نقول شهيد، يشهد أنه يشهدكم أنه حضر إليكم أنه سبحانه وتعالى حاضر، ينظر إليكم الآن، بخلاف ما يقال الملائكة تخبره فإن الأولى أدعى للحياء من الله وأدعا لمزيد من الخوف وأدعا لمزيد من المراقبة، فهذا مهم جدًا.

فالله عز وجل مطلع على كل شيء وحاضر أنه يحضره جل في علاه يحضره بعلمه وسمعه وبصره يحضره سبحانه وتعالى حتى أنه أقرب إلى أحدنا من حبل الوريد، يشهد، وشهيد على كل شيء ليس فقط على الخلق من البشر ولكن على كل خلقه من البشر وغير البشر، يشهد على كل شيء سبحانه وتعالى، ثم سبحانه وتعالى في شهادته على أفعال البشر يوم القيامة يبينها ويظهرها ويكشفها للناس، والسعيد من ستره الله يوم القيامة، السعيد من ستره الله في هذه الدنيا وستره يوم القيامة، وهو يشهده، ولا يحصل الستر إلا بشهود، أول شرط وأهم شرط في حصول الستر هو أن تستر نفسك، أول بأن تسعى لأن يسترك الله عز وجل «وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا»، (وكل ابن آدم خطاء)، لا يوجد أحد كلنا ذنوب، كلنا معاصي كلنا يقع منه الذنب الظاهر والباطن، ويوم القيامة عندما تكشف هذه الحركات وتكشف الكلمات ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويكشف ما في الصدور ماذا فكرت وماذا قالت وماذا تمنت وماذا سألت وماذا طلبت وماذا اشتهت هذه النفوس عندما تظهر هذه الكتب العظيمة السجلات، كما جاء في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: (**كلُّ سِجِلٍّ مدَّ البصرِ**).

وأنا حدثتكم في قصة لما حققوا معي في بريطانية، نقلونا من سجن إلى سجن وهذا سجن سيء وضعونا مقيدين وكذا ومنعونا حتى من الحديث بالعربية حتى في التلفون إلا يوم واحد في الأسبوع مع الأهل، فمرةً أقول لزوجتي هؤلاء كلاب، فأحضروني وإذا هم مترجمين كل الحديث في الربع ساعة، كانوا يعطوننا ربع ساعة في كل أسبوع لنتكلم مع الأهل، وإذا هم مترجمين الربع ساعة، هو قدمها -المحقق- وقال: تفضل فانظر إليها، حقيقة ذهب مشهد الدنيا، لا عاد أمامي لا هؤلاء ولا ماذا يقررون؟ إنما ذهبت إلى مشهد الآخرة، ربع ساعة فقط ماذا كتب فيها؟ تذهل! أنا قلت هذا، نعم، قلت هذا، هذه الكلمة وهذه الكلمة، فتصبح فقط تعد ماذا قلت؟

فكيف لو سجل كل ما فعلت؟ وكيف حركت يدك؟ وكيف غمزت بعينك؟ وكيف لويت بفمك؟ تصور لو أن رجل قال: «أ» مسجلة؟ ماذا تعني وماذا تدل هل هي استهزاء هل هي احتقار هل هي كبر هل هي غرور هل هي رضا، لو أن رجلًا قال عملًا فاجرًا فرضيت عنه أو قال كلمة فاستهزئت به كل هذا مسجل.

فالله عز وجل جل في علاه مع أنه الشهيد وكفى بشهادته شهادة جل في علاه إلا أنه يقيم الشهداء، فلستر الله أولًا أن تستر نفسك، الستر الثاني هو ألا تبيت الخيانة، الله عز وجل يكره الخيانة، ما منا إلا وله ذنب، لكن إياك أن تبيت الخيانة لدينه وتبيت الخيانة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أعظم الخيانة هي خيانة الدين، قال السلف لو أن رجلًا في السحر بيت أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصبح الناس يقولون: فلانٌ كذاب خلاص، انكشف الستر، انتهى..

يذكر عن أبي حنيفة رحمه الله ولا أظنها تصح عنه، لكنها ربما تصح عن غيره، أنه كان يمشي فصار الناس يقولون: هذا الذي يقوم الليل كله، الله نشر له هذه الفضيلة أن الناس يقولون: أنه يقوم الليل.

وَمَهما تَكُن عِندَ اِمرِئٍ مِن خَليقَةٍ وَإِن خالَها تَخفى عَلى الناسِ تُعلَمِ

الأخلاق تضع رائحة طيبة تنتشر هذه الرائحة الطيبة الله يبينها ويظهرها للناس ويضع المرء رائحة خبيثة فيمشي والناس يقولون، يقال أن رجلًا كان يرابي سرًا فيمشي فيقول الأطفال: هذا مرابي، ثم تاب وصلح فصار الناس يقولون: هذا الرجل الصالح المزكي، أي شيء يكتب إلا ما أسر العبد ولم يظهر من فعله واستحيا من الله فيه، طلب من الله الستر واستحيا من الله لما يقع من قلبه من نوازل الشر من محبة الظهور من كراهية أن يسبقه أحد، أما إذا كره الخير للمسلمين لا هذا من الشر الذي يفضحه الله عز وجل، وإذا أحب الشر للمسلمين هذا يفضحه الله عز وجل.

فأولًا هو أنه دائمًا ينوي الخير لهذا الدين ثانيًا: ينوي الخير للمسلمين، وشرط ثالث لستر الله لك هو أن تستر الناس، للحديث، قال صلى الله عليه وسلم: **(يا مَعْشَرَ مَن آمن بلسانِه ولم يَدْخُلِ الإيمانُ قلبَه، لا تغتابوا المسلمينَ، ولا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِم، فإنه مَن تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيه المسلمِ، تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَه، ومَن تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَه، يَفْضَحْهُ ولو في جوفِ بيتِه)**، فمن فضح عورة المسلمين فضح الله عورته، حتى يكشفه وهو في بيته في عقر بيته، لا يجوز لك أن تتعقب العورات، افرض أنك رأيت عورة فعليك أن تصرف نظرك وعقلك عن متابعتها لا تتعقبها، خلاص، لو قدرًا وقعت على ذنب لأخيك فاستره.

أما انظر اليوم للمسلمين ما بصدق الواحد غير أن يعرف عورة لأحد فيمشي بها في الناس ويقولها ويشيعها فهذا الذي يظهر عورات المسلمين الله عز وجل سيكشف عورته، القانون الغيبي مرتبط بقانون الدنيا، انظر القانون هذا هو القانون الإلهي **(أنفق ينفق عليك)**، **(من ستر عورة أخيه، ستر الله عورته)**، هكذا الغيب كله مربوط بك يا مسكين، كل الغيب مربوط بك، لو أن رجلًا لا يستطيع أن يفعل لكنه يحب الله ويحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه عاجز، ماذا يأتي في الحديث؟ قال: **(أنت مع من أحببت)**، أفعال القلوب، انظر هذا يدل على قيمة أفعال القلوب فالله مطلع عليها.

القصد من هذا: أن العبد إذا علم أن الله عز وجل يشهد ويحضر فعله استحيا منه، فالله عاب على الكافرين، قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨)﴾ [النساء: ١٠٨]، هذا بيت، لماذا اسمه بيت؟ لأنه يكن صاحبه، بيت الشيء، ولذلك يسمى الفعل في الليل بيات؛ لأنه يستتر بالليل، فالليل يستر.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾، فالمرء إذا علم أن الله يراه ويحضره استحيا منه فكيف يفعل، وفي ذلك جاء في بعض الآثار الإسرائيلية أن العبد إذا دخل إلى الفاحشة وألقى الستائر وأغلق البيت فالله يقول له ما الذي يحول بيني وبينك؟ أنت سترت بينك وبين الناس، الناس لا يرونك، لكن ماذا تفعل معي؟

فالله عز وجل شهيد ثم الله عز وجل أقام شهادة الكتابة وشهادة الملائكة وهناك أعمال أقام شهادة الأنبياء، ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩)﴾ [المائدة: ١٠٩]، وهذا من هذه الكلمة توضع تحت باب كذلك الأدب مع الله عز وجل أدب الأنبياء مع الله عز وجل، هم علموا أم لم يعلموا؟ ولكن هذا مقامٌ عظيم من الذي يقف أمام الله عز وجل يقول أنا علمت وأنا ...؟

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، حتى علمنا شيئًا من الظاهر لكن خفايا الناس أنت أعلم بها، ومن ذلك قول الله عز وجل على لسان نبيه عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)﴾ [المائدة: ١١٧]، نسب العلم وأسنده إلى الله عز وجل، هذا مقام عظيم، لما أمر على هذه الآية يعني يقع في قلبي ما لا يعلمه إلا الله، وممكن هي تتلى كل يوم في الأرض.

انظر إلى قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]، فأي موقف سيقفه هذا النبي العظيم بفعل هؤلاء المجرمين الذين نسبوا له أنه قال: اعبدوني من دون الله، أو أنني ابن الله، فأي موقف؟ وعيسى عليه السلام نبيٌ حيي كريم ككل الأنبياء عليهم السلام.

القصد من هذا: أنه إذا علم العبد أن الله عز وجل يشهده فيستحيي منه فلا يقبل على المعاصي يتوب، وكم من العبيد الله عزوجل أحبهم لموقفٍ واحد تذكروا فيه شهادة الله عز وجل عليهم؟ هؤلاء الثلاثة الذي آواهم المبيت إلى غار، بما نجوا؟ بما صار من الصالحين؟ بلحظة واحدة تذكروا أن الله عز وجل يحضرهم، **(إياك أن تفض الخاتم إلا بحقه)**، فقمت أتذكر ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١)﴾ [الأعراف: ٢٠١]، هل التقي يصيبه طائف من الشيطان؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾، ماذا تذكروا؟

كما حدث مع يوسف عليه السلام قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]، رأى البرهان، البرهان هو الدليل، وهو ليس فقط الدليل، الدليل الملزم، الدليل القاطع، البرهان لا دليل فوقه يفوق عليه أو يزيله، فهو رأى برهانًا إما أنه رأى حكم الله عز وجل وإما أن الإيمان أشرق في قلبه وهذا معنى قوي، وإما أن النبوة التي جعلها الله عز وجل له عصمته من الوقوع في هذه المعصية، وكل هذه معاني صحيحة، متحققة في حال يوسف عليه السلام، فهذا إذا علم العبد أن الله سيشهد.

ثم يوم القيامة يشهد سبحانه وتعالى يسكت الخلائق جميعًا، يسكتهم يميتهم، قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر: ١٦]، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾ [النساء: ٧٩]، وهذه إذا استحضرها العبد لم يخف، هذا الرجل الذي استدان من أخيه كما في الحديث الصحيح من بني اسرائيل استدان من أخيه، ووعده أن يؤدي إليه الدين في يوم كذا وكذا، فهذا اليوم جاء المطر وسال الوادي، فلم يقدر أن

يوصل الأمانة لأخيه، فوضعها في داخل زجاجة وربط عليها وألقاها قال: والله وكيل على أن يوصلها، وصلت أم لم تصل؟ وصلت.

فلذلك أنت عندما تعلم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، وحين تعلم أن هذا الشهيد قاهر وأنه قوي وأنه سبحانه وتعالى الملك وأنه لا يغلبه أحد الشهادة ما قيمتها؟ أنها تقطع الحجج وتقيم البينات ويُفصل فيها الحقوق، فإذا علمت أن الله هو الشهيد؛ اطمأننت أنه سيقطع شهادتك كل مزور، وأنه سيقطع حجة كل أحد، وأنه سبحانه وتعالى سيبين الحق، فلو ظُلمت لحين النتيجة سيظهر الله الحق، سيظهره الله عز وجل، لأنه -كما قلنا- الشهادة حضورٌ وإبانة، تذهب فتشهد أي تبين ما تعلم وما حضرت، فإذا علمت أن الله هو الشهيد اطمئن قلبك أنه لن يغيب حق، سيأتي يوم ينتصر فيه الحق وسيعرف الناس من فلان ومن المصيب ومن المخطئ، سيأتي يوم.

ولا أقول فقط يوم القيامة، بل أقول كذلك في الدنيا، ولا يضرك ألا يشهد الكاذبون لأنه ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام: ٢٨]، هل تظن أن الفاجر في هذه الدنيا سيتوب؟ لا تنتظر من المبطل أن يعترف حتى بعد ظهور الشهادة، كم من القضايا في المحاكم حتى بعد ظهور آلاف الأدلة ومع ذلك يبقى المعرض معرضًا، والمنكر يبقى منكرًا، فهذه قلوب صلفة متكبرة معرضة، لا تستجيب، لكن يكفي أن يعترف الناس أصحاب الحق.

ولذلك الله عز وجل قال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾ [آل عمران: ١٨]، والملائكة ما قال الخلق، قال: ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾، فهم الذين يُهتم لشهادتهم ويقام الاعتبار لمقالاتهم، وإلا فغيرهم ما قيمة ما يقولون، ما أهمية ما يأتون به من ألفاظ وكلمات وأكاذيب، ما قيمة ما يأتون؟ فلا تنتظر أن يشهد أهل الباطل إنما المطلوب هو أن يشهد أهل التقوى وأهل الصلاح الذين إذا ظهر لهم الحق أبانوه وأظهروه.

فالله عز وجل وهو الشهيد هذا وهو الشهيد، هذا من صفاته جل في علاه أن يُظهر الحقائق في هذه الدنيا، والآن انظروا من الذي يقول اليوم أن النمرود هو على الحق؟! من الذي يقول: أن فرعون أنه هو الحق؟ هؤلاء في هذه الدنيا كانوا ملوك، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، من رد عليه؟ من كل شعبه من رد عليه؟ لكن الآن ما الذي يشهد أنه على الحق؟ لا أحد يشهد، فلابد أن يظهر الحق ولو بعد حين، فاطمئن أن الله عز وجل ما دام أنه هو الذي يحضر ويعلم الحق أنه سيبينه، وهذا يخيفك إياك أن تستغل أن غياب الحق يؤيد باطلك في وقت من الأوقات، أياك، سيظهر.

ومن هنا فأصلح علاقتك في الباطن مع الله عز وجل، قالوا: ما نبتت حبة إلا بعد دفنها، استر علاقتك في الداخل عليك أن تميت نفسك لا تسعى للظهور، تميت نفسك الله عز وجل هو الذي يظهر، ولذلك كان العلماء تصور أن علمائنا في التاريخ من أكثر الناس بعدًا عن الشهرة، يفرون يهربون، وأبعد الناس محبةً لظهور النفس، ابعد الناس، ظهروا أو لم يظهروا، علم الناس أقوالهم، جمع الناس ألفاظهم تقفر الناس مسالكهم وأعمالهم لأنه سبحانه وتعالى الشهيد.

وإذا علمت هذا كذلك علمت أن الله عز وجل يكفيك ذلك يكفي أنك تعلم أن الله يشهد، ماذا قالت عائشة رضي الله عنها: «وكنت أعلم أن الله سيظهر الحق» في حادثة الإفك، هي لم تظن أن سيصل الظهور إلى أن تنزل الآيات تتلى إلى يوم القيامة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)﴾ [النور: ١١]، إلى هذه الأيام نقرأ براءة عائشة رضي الله عنها، كانت هي تظن أن الله سيظهر الحق، إما برؤية يراها النبي صلى الله عليه وسلم أو بخبر لكن أن ينزل القرآن لكن الله أراد أن يظهر الحق في هذه الأمة العظيمة وهذه المبرأة من فوق سبع سماوات وهذه الطاهرة «حَصانٌ رزانٌ» كما سماها حسان بن ثابت رضي الله عنهم جميعًا:

حَصـــــانٌ رَزانٌ مـا تُـزَنُّ بِـريـبَـةٍ	وَتُصـــبِحُ غَرثى مِن لُحومِ الغَوافِـلِ
عَقيلَـةُ حَيٍّ مِن لُؤَيِّ بنِ غـالِـبٍ	كِرامِ المسـاعي مَجدُهُم غَيرُ زائِـلِ
مُهَـذَّبَـةٌ قَـد طَيَّـبَ اللهُ خَيـمَـهـا	وَطَهَّـرَهـا مِن كُـلِّ سـورٍ وَباطِـلِ

فعلى المرء أن يراقب، ربه أن يراقب قلبه، الله عز وجل شهيد عما في القلوب، الله عز وجل لا يغيب عنه ستر، لا يغيب عنه حجاب، لا يغيب عنه شيء بسبب هذه الموانع بل هو يشهدها، فعلى المرء أن يتقي الله عز وجل، وعليه أن يتعلم ألا يشهد إلا بالحق فمقام العبد من هذه الصفة أن يشهد بالحق وإذا لزمه الحق كان عليه أن يشهد ويدفع الثمن، فالله ناصره ومؤيده فعليه أن يقول ويشهد بالتوحيد وأن يشهد ببعثة الرسالة وأن يشهد بالحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وأن يدفع ثمن هذا وأن يخبر الناس بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، تكون له الرفعة في هذه الدنيا وفي الآخرة.

وأعظم الشهادة يوم القيامة أن يجعل الله عز وجل شهادتك على الخلق، فالأنبياء يستشهدون يوم القيامة يسألهم مَاذَا ﴿أُجِبْتُمْ﴾، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ

﴿أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩)﴾ [المائدة: ١٠٩]، وفي الحديث في مسند أحمد لما يسأل الله عز وجل الأنبياء من يشهد لكم أنكم بلغتم الرسالة؟ فيستشهدون بهذه الأمة العظيمة، هذه إذًا أمة الشهادة.

وسمي الشهيد شهيدًا لأنه كما قال سيد قطب رحمه الله وهذا من أعظم وصفٍ لهذه الشهادة، قال: «لأنه شهد أن دين الله عز وجل أغلى عليه من نفسه وروحه وأثبت ذلك بتقديم روحه في سبيل الله عز وجل»، هذا وصف الشهيد، أنه شهد، أنظر شهد أولًا على أن الله الحق، وقدم شاهدًا على أن الله هو الحق؛ بأن قدم روحه، ولذلك يوم القيامة شهداء، يشهدون على الخلق أنه بلغنا وفعلنا وقلنا وقُتلنا في سبيلك، وقتلنا أعدائك فلان وفلان فهؤلاء شهداء، ولذلك هم من أعظم الخلق يوم القيامة بعد الأنبياء والصديقين، لأنهم يشهدون، يأتون شهداء يوم القيامة، والله يستشهد بهم على ما فعلوا وقدموا وأقاموا الحق في الناس فماتوا في سبيل الله، الذين يعذبون ويقتلون هؤلاء شهداء يوم القيامة أن الناس ظلموهم، وأن الناس تخلوا عنهم، وأن الظالمين بغوا وتجبروا وتكبروا وفعلوا الأفاعيل، فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا في مقام هؤلاء ونسأله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الشهادة في سبيله آمين، آمين.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.

الدرس السادس والخمسون: الحفيظ والحافظ

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا الذي تعبدنا به حالًا وذكرًا وعلمًا، ألا وهو اسمه الحفيظ والحافظ، والله عز وجل ذكر هذين الاسمين في كتابه سبحانه وتعالى، قال الله عز وجل: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)﴾ [يوسف: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر: ٩]، وكذلك قوله جل في علاه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)﴾ [هود: ٥٧].

وهذا الاسم من أسمائه سبحانه وتعالى من الأسماء التي يتعبد بها العبد ويشعر بنعمة الله عز وجل عليه بهذا الاسم العظيم، وكما قال ابن القيم رحمه الله: «فإن هذا الاسم من الأسماء التي يتعبد بها العبد مراقبةً لله عز وجل»، والحفظ أيها الإخوة الأحبة أساسه عدم النسيان وعدم التضييع وعدم الغفلة، فإذا كانت من جهة العلم فيضادها النسيان، يقال: رجلٌ حفظ أي لم ينسى، وإذا كان من جهة الفعل ويأتي بمعنى الرعاية ومعنى الحراسة والقيام عليه، والله عز وجل قائمٌ على كل نفس بما كسبت، وقوله سبحانه وتعالى عن قيامه على الخلق، ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي لا يتعبه سبحانه وتعالى ولا يرهقه حفظ هذه السماوات وهذه الأرضين لا يتعبه سبحانه وتعالى.

فالله عز وجل ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢)﴾ [طه: ٥٢] جل في علاه، علمه أزليٌّ قديم وعلمه محيطٌ بكل شيء، وهذا العلم لا يعتريه النسيان، فالله عز وجل يحفظ، وكذلك ما يقع من المخلوقات من أعمال، فالله عز وجل يحفظها، قال تعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، والله عز وجل يحفظ وكذلك العبد، الله عز وجل لا ينسى عمله، الإنسان ينسى ما يعمل ينسى حتى الذي عمله، فإنه يذكر به كما في الحديث أن الله عز وجل يذكر العبد يقره بذنوبه يوم القيامة، والعبد ينسى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن أبينا آدم، قال: **(نسي آدم ونسيت ذريته)**.

فالله عز وجل لا ينسى ولذلك هو يحفظ ما يفعل العبد، وإذا كان هناك من عملٍ صالح فالله عز وجل يبقيه، وإذا كان هناك من عمل سيء فالله يكتبه، وإنما الكتابة تقع على معنى الإشهاد بأن الله عز وجل يحب التقرير ويحب الإشهاد ويحب العذر، وإلا ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)﴾ [هود: ٥٧]،

فالله يكفي ذلك، وأما أنه سبحانه وتعالى حفظ الخلق فحفظهم بما أعطاهم من قوة، حتى أنه حفظ كتابه سبحانه وتعالى وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر: ٩].

وقد يسأل السائل وهذا سؤال موجود في كتب أهل العلم بكثرة، لماذا يأتي ربنا سبحانه وتعالى بصيغة الجمع؟ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وإنما هو واحد جل في علاه، فلماذا يأتي بصيغة الجمع؟ يأتي بها لمعنى التعظيم، وهذا أسلوب من أساليب العرب في لغاتهم أن المرء إذا أراد أن يتكلم عن نفسه وكان عظيمًا أو أراد غيره أن يتكلم عنه وكان عظيمًا في نفس المتكلم، إنما خاطبه بصيغة الجمع تعظيمًا له وتكثيرا، وكأنه لم يعد واحدًا، إنما صار كثير بما يفعل من أفعالٍ كثيرة، وبما يقوم من مهماتٍ عظيمة، فهذا أسلوب.

ثم ثانيًا تأمل أهل اللغة هذه المواطن التي فيها صيغة الجمع، في فعل ربنا وجدوا أن الفعل هذا لا يكون خاصًا بأمرٍ واحد وإنما يكون قد وقع على هذا الفعل أمور متعددة، ووقعت عليه أفعال ربانية متعددة ومتكاثرة، مثل ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، فتنزيل الذكر ليس عملًا واحدًا، وإنما هو كلامه والله تكلم به، أولًا أنه تكلم به، وبعد أن تكلم به سبحانه وتعالى سجله في اللوح المحفوظ، ثم إن هذا التنزيل لم يقع مرةً واحدة، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢)﴾ [الفرقان: ٣٢]، فنزله ليس مرةً واحدة نزله متتابعًا.

وكذلك حفظه بعد أن أنزله حفظه، منع من دخول الشياطين عليه، ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾ [الحج: ٥٢]، فحفظه الله سبحانه وتعالى إذًا لم يقع فعل واحد وإنما وقعت أفعال متعددة، فلما وقعت أفعال متعددة جاء بصيغة الجمع، لتدل على هذه الصفات المتعددة التي صدر منها هذا الفعل، أو الصفات المتعددة التي صدر منها هذا القول.

ومن هنا جاء الله سبحانه وتعالى بالخطاب عن نفسه في مواطن متعددة بصيغة الجمع تعظيمًا له كما في هذا الحال، فالله عز وجل أنزل هذا القرآن وحفظه، وكذلك جعل الإنسان يحفظونه من أمر الله، جعل هناك ملائكة تحفظ الإنسان من أمر الله لو خلي بين العبد وبين أمر الله لما استطاع أن يقوم بشيء، الله يوفقه ويحفظه يوفقه يمنعه من الجن أن تتسلط عليه، يحفظونه من أمر الله، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله عز وجل، الله أقام ما يحفظك وأعطاك من الأطعمة والأشربة والهوى والنفس والقوة ما يحفظك، وكل هذا من حفظ الله عز وجل للعبد.

والله عز وجل أقام هذه الدنيا كلها وأقام الخلق وحفظه سبحانه وتعالى بماذا؟ حفظه بإن أقام الملائكة كحملة العرش، يحملونه لِمَ الله أقامهم ليحفظوه، وإلا فالله لا يحتاج للعرش ولا يحتاج لحملته، ولكن الله عز وجل يا أيها الإخوة الأحبة الله عز وجل يحب المدح، الله عز وجل يحب الحمد، الله عز وجل متكبر والمتكبر يحب إظهار نفسه، هذه خاصية لا يجوز لأحد أن ينازع الله فيها، لا في قليل ولا كثير، **(العزة إزاري والكبرياء ردائي)**، الله عز وجل هو المتكبر، والمتكبر ماذا يحب أن يُمدح، حتى أنه ليمدح نفسه، هل هناك أعظم من مدح الله لنفسه؟ هل هناك أحد يستطيع أن يمدح الله، أعظم من مدح الله لنفسه؟ لا يستطيع وهذه صفة مدح له، لأنه سبحانه وتعالى الواحد لا ينازعه في صفات أحد، ولا في أفعاله أحد ولا في قدرته أحد، لا ينازعه في ملكه أحد هو سبحانه وتعالى المتكبر، فسبحان الله جل في علاه.

وهذه إذا تأملها العبد تواضع لله عز وجل، وهذه إذا فهمها العبد واستقرت في قلبه، أتت على أعظم معاني العبودية وحرقت كل كلمة أنا، «الأنا» هذه تذوب وتذهب إذا تجلت هذه الصفات على قلب العبد، إذا تجلت معانيها وتجلت آثارها على قلب العبد، وهو أن العبد يرى أن الله عز وجل هو المتكبر، يحب أن يُمدح ويحب سبحانه وتعالى أن يخلق خلقًا يعرفونه، من أجل ذلك قال ابن عباس رضي الله عنه: في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات: ٥٦]، قال: «ليعرفون»، حتى إذا رأوا قدرتي حمدوني، حتى إذا رأوا نعمتي حمدوني، حتى إذا رأوا ملكي مجدوني وأثنوا علي، وهكذا هو العبد.

فالعبد إنما تتجلى على قلبه معاني هذه الصفات الإلهية العظيمة، التي إذا وقعت في القلب، العبد أحب ربه، والعبد خاف من ربه والعبد استحيا كذلك من ربه، ثم لم يرى العبد نفسه شيئًا، تأمل هذا، تأمل هذا المعنى إذا وقع في قلب العابد والمخبت والطائع والساجد والذاكر، أنه حين يعلم عظمة الله، لو أن العبد حمده طيلة عمره، أيصل إلى تمام الثناء؟ لو أنه فُتح عليه من المحامد ما لم يفتح على أحد، هل يبلغ ثناؤه ثناء الرب على نفسه، يعني عندما النبي صلى الله عليه وسلم يسجد عند قوائم العرش يوم القيامة، فيفتح الله عز وجل عليه من المحامد ما لم يفتحه على أحد من الخلق، ولن يفتحه على أحد من الخلق، أترى أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ من المحامد التي بها ينتهي الحمد.

فإذا علم المرء ربه علم أن كل ثناء هو دون، يقصر، وأن كل عبادةٍ تقصر عن مقام ربنا سبحانه وتعالى، ثم هذا يوجب عليه الخوف من الله عز وجل، أنه العظيم، فالملك إذا كان له حِمى –ولله المثل الأعلى– إذا كان له حِمى فأنه يُبغض أن تنتهك هذه الحِمى هذه له، والله عز وجل له حِمى، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، هذه حِمى لله عز وجل، ولذلك إذا تجلى على هذا القول هذا العظمة لله عز أنه الواحد وأنه ما خلق الخلق إلا لتدل عليه، وما أنزل الشر إلا ليعرفنا عن نفسه.

تأمل آية الكرسي فيها عشر مهمات عظيمة كلها تحكي صفةً لربنا سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾ [البقرة: ٢٥٥]، تصور عشر مهمات وعشر قضايا، وهي انظر تأملها كيف إذا غزت القلب، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، قائمٌ على كل نفس ما كسبت، الله يحفظها.

وتأملوا حفظ الله عز وجل على خلقٍ ماتوا ولم يقم على حفظهم حتى أنفسهم لم تقم على حفظها، هؤلاء أهل الكهف، من الذي قام على حفظهم؟ ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥)﴾ [الكهف: ٢٥]، ثلاث مئة وتسع سنوات من الذي كان يطعمهم؟ من الذي كان يقوم عليهم في تغذيتهم وحركة قلوبهم ودمائهم؟ الله سبحانه وتعالى.

وكذلك تأمل قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾ [البقرة: ٢٥٩]، انظر إلى هذه المقابلة بين أمرين حصل مع كل واحد هما الضد، مما يجري عليه من السنن في جريانها الاعتيادية، أما الطعام والشراب من أسرع تلفًا الطعام والشراب أم بدن الإنسان أم بدن الحيوان الدابة؟ الطعام، الدابة تعيش سبع سنوات أو عشر سنوات، ولكن الله عز وجل جعل طعامه وشرابه لم يتسنه، لم يصبح أسنا يعني لم يتغير لا طعمه ولم تتغير رائحته بقي كما هو، وأما حماره فأنه صار رميمًا، ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، من الذي قام على حفظ هذا الطعام لئلا يتسنه؟

ثم انظر قيامه سبحانه وتعالى حفظ أوليائه، كم كاد أعداء الله عز وجل للأنبياء؟ كم كادوا لهم؟ الله حفظهم، هذا إبراهيم عليه السلام، لا يوجد نبي تحدث القرآن عنه بصفة شخصية، انتبهوا موسى عليه السلام تحدث عنه كثيرًا في معاناته مع فرعون معاناته مع قومه، تحدث أكثر قصص الأنبياء مع أقوامهم تحدث عن موسى عليه السلام، لكن أكثر الأنبياء ذكرًا في القرآن من جهة نفسه وحاله هو إبراهيم الخليل عليه السلام، أكثر الأنبياء حديثًا، حتى تحدث القرآن عنه فتى، تحدث عنه زوجًا، تحدث عنه أبًا، تحدث عنه مهاجرًا، تحدث عنه مُخبتًا، تحدث عنه مضحيًا، تحدث عنه وعن زوجته ماذا عمل مع أبنائه، ولما أراد قومه أن يرموه في النار، أتوا بنار عظيمة، من الذي حفظه من النار؟ الله سبحانه وتعالى.

وهكذا الأنبياء كاد لهم أقوامهم أشد كيد، فهذا محمد رسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠] إذا أنتم لا تريدون، انظر وانتبه إلى هذه المقابلة العجيبة في هذه الآية ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾، حيث كنتم غائبون، وحيث لا يوجد أحد منكم عندما خرج من مكة مهاجرًا إليكم، أين أنتم، وأين كنتم؟ فما الذي نصره؟ الله عز وجل، فحيث كنتم غائبون الله ينصره حتى مع غيابكم، ولكنه أقامكم، انتبهوا لهذه اللفتة العظيمة في كتاب ربنا، ولكن الله أراد أن يقيمكم مقام نصره لنبيه، فقال: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ﴾، من هنا الذين يدعوهم إلى نصرته؟ أصحابه رضي الله عنهم، فأقام الصحابة في أفعالهم مقام فعل الرب في نبيه صلى الله عليه وسلم، ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾، وكأنه يقول لهم هذا دوركم، انتبهوا لهذا المقام الآن دوركم أن تنصروه.

وحيث تنصرونه ينصركم الله، ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وحيث قمتم مقام النصر لنبيه صلى الله عليه وسلم أقام الله عز وجل فيكم النصر، من الذي يقيم النصر في هذا الضعف، كل غزوات النبي صلى الله عليه وسلم كأنها معركة ابتدائية، وكلها محكومةٌ بقانونٍ واحد، أنه لو وقعت الهلكة لما بقي هناك إسلام، في بدر **(اللَّهمَّ إنَّكَ إنْ تُهلِكْ هذهِ العِصابةَ مِن أهلِ الإسلامِ، فلا تُعْبَدُ في الأرضِ أبدًا)**، في الأحزاب كادوا أن يشتاثوا المدينة، كل المدينة لا يبقى فيها أحد يزيلونها، في حُنين قال الله عز وجل: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]، حتى صاح صائح والله لن يردهم إلا البحر.

فالله عز وجل جل في علاه يحفظ أنبيائه بالنصر والتأييد وبماذا يحفظهم؟ يحفظ الأنبياء بوجود الأولياء حولهم، الرماح حولهم، العظماء حولهم، قال صلى الله عليه وسلم: **(ما مِن نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ في أُمَّةٍ قَبْلِي إلَّا كانَ له مِن أُمَّتِهِ حَوارِيُّونَ، وأَصْحابٌ يَأْخُذُونَ بسُنَّتِهِ ويَقْتَدُونَ بأَمْرِهِ)**، فالله عز وجل نظر في قلوب الخلق فلم يجد أطهر ولا أعظم ولا أجل ولا أكرم من قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم نظر سبحانه وتعالى فلم يجد أعظم من قلوب أصحابه رضي الله عنهم فاختارهم لصحبة هذا النبي صلى الله عليه وسلم، فالله حفظ النبي صلى الله عليه وسلم بهم وحفظهم بالنبي صلى الله عليه وسلم، الله عز وجل نصرهم برسولنا صلى الله عليه وسلم، ونصر النبي صلى الله عليه وسلم بهم.

الله عز وجل يقيم لحفظه من الأسباب العجيبة جدًا، **(ما من داء إلا له دواء)**، الله عز وجل يحفظ هذا الطفل يخرج من بطن أمه، لو ترك لأكلته العاديات أكلته الأوابد، قتله المرض، الرياح، البرد، أمه تقوم عليه تحفظه، من الذي وضع في قلب الأم هذا الحنان العظيم في قلبها؟ الله لتحفظه، موسى عليه السلام

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص: ٧].

ولن يعود إليك كما خرج، بل هناك عودة عظيمة جدًا ثم بعد ذلك سيكون من المرسلين، من الذي حفظه؟ وقالت لأخته قصيه، أخته فقد تنظر لم تصنع شيئًا، أخذت أخته تنظر قصيه البحث ورائه، لتعرفي أين استقر مقامه وحاله، وأين هو انتهى، الله عز وجل حفظه، أين حفظه الله؟ حفظه في قصر عدوه الذي يسعى لقتله ويريد كل الكيد إن ينتهي منه، ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾ [القصص: ٩]، جاء في بعض الإسرائيليات أن فرعون قال لها: قرة لكي وليس لي، قرة عين لك أنت، كأنه يعلم أنه سيقتله، وتصور أن الله يحجزه عنه، سيقتلني هذا الفتى، يحجزه الله عنه ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)﴾ [طه: ٤١]، الله صنعه سبحانه وتعالى وأين؟ في قصر عدوه.

والحقيقة أن هذه السنة أيها الاخوة الأحبة سنة حفظ الله للدين تحت أعين الكفرة سنةٌ جارية في كل تاريخ الأنبياء، كل الأنبياء عاشوا على هذا المعنى، الملأ، قوة، مال، سحر، دعاية، سلاح، سلطان، إخافة، رهبة، ومع ذلك هؤلاء الضعاف ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤)﴾ [الشعراء: ٥٤]، أتركهم قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥)﴾ [الشعراء: ٥٥]، والله عز وجل جره وهذا قوله: شرذمة تضاد ما تقوله التوراة أن أعدادهم مئات الآلاف، لا مئات آلاف ولا عشرات آلاف شرذمة قليلة، أين تربوا؟ تربوا في سلطان فرعون ولم يستطيع أن يصنع شيئًا.

ونوح عليه السلام ماذا قالوا؟ ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧]، خذوهم واذبحوهم وارتاحوا منهم، الله يحجب ويمنعهم وهم ينظرون إليهم، والناس اليوم بسبب انتشار الذكاء العجيب، أنهم يقول لماذا فلان موجود؟ فاتركوه، فلان موجود، يتعجبون لماذا هؤلاء لماذا تتركونهم؟ ليس بيدهم، هو بيد الله، الله مقدر المقادير، ورغم أنوفهم يأتي بالدين ويخرج الدين ينبته في قلوب العبيد كما ينبت سبحانه وتعالى البقل بماء السماء، ينزل الإيمان في القلوب فيتحول الشباب في لحظات من أفسق خلق الله إلى أعظم الناس عبودية، كم حدث مع السحرة، كما قال ابن عباس رضي الله عنه: «كانوا في أول النهار سحرة كفرة، وفي أخر النهار شهداء بررة».

فالله يحفظ هذا الدين، ولذلك الناس عليهم ألا يخافوا، وهذه نقطة يجب علينا أن نفهمها، لا تخف على الدين، خف على نفسك، والدين أتٍ ومنتصر لكن أين مقامك أنت، فالله عز وجل يحفظ، أنزل

الذهب والفضة ليحفظ الناس، ليحفظ معاملاتهم، والله عز وجل أنزل الشرائع كذلك ليحفظ بهذه الشرائع وجود الناس لأنه من غير الشرائع يتحول الناس إلى وحوش إلى دواب، وبغير الشرائع ينتشر فيروس الفساد فيدمر البشرية يدمرها، الربا تدمر البشرية، الزنا يدمر البشرية، الكذب يدمر البشرية، إذا انتشرت هذه المعاصي أفسدت، فأقام الله لها من الشرائع ما يحفظ وجود الإنسان، ثم أغراه إلى أن يحفظ نوعه.

انظر للرجل يأتي زوجه فأقامه ليحفظه، الله أقام سبحانه وتعالى الحفيظ، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)﴾ [هود: ٥٧]، الله عز وجل على كل شيء يقوم عليه بحفظه بإحصائه كما هو، والعجيب أنه لا يحصيه عددًا لا تظن فقط أنه يحصي الكتاب فقط هو يحصي ذرات الكتاب، وأنت تقول هذا نعم أنا أحصي الكتاب، هذه المكتبة فيها مئة كتاب، فيظن هذا هو إحصاء الله لها، إحصاء الله لها في كل حرف فيها يحصيه، وكل ذرةٍ من مداد الحرف يحصيها، وكل ذرةٍ من الورق فيها يحصيها، وهكذا يعلمها سبحانه وتعالى، يعلمها جل في علاه.

تأمل دائمًا عليكم أن تتفكروا في صفات الله، تفكروا في خلق الله، تفكروا في علم الله، هذه التي بعد ذلك رغم أنفك ينطق لسانك، مستجيبًا لنداء قلبك في تأملاته وتعقله سبحان الله!! تخرج هذه الكلمة رغمًا سبحان الله!! ثم ترى أن كل شيء هو من نعم الله عليك فتحمد الله، ثم ترى أن هذا الخلق عظيم، دال على تعظيم الله «الله أكبر»، ثم دل أنه لا ينبغي أن يعبد إلا الله، «لا إله إلا الله»، هذه الباقيات الصالحات، والله هذه الباقيات الصالحات تستغرق الوجود كله قدرًا وشرعًا، كل القدر يدخل في هذه الكلمات وكل الشرع يدخل في هذه الكلمات، كل العبادات تدخل في هذه الكلمات، كل العبادات إنما هي تسبيح وتحميد وتكبير وتأليه لربنا سبحانه وتعالى، ويزاد عليه الاستعانة بالله عز وجل لا حول ولا قوة إلا بالله هذه منفعة العبد، وهذا حال العبد في قضية حاجته إلى الله سبحانه وتعالى.

فالمهم على العبد أن يتأمل حفظ الله عز وجل حفظه للسماوات حفظه للأرض حفظه للأنهار، لو أنه سبحانه وتعالى أطلق الرياح كما أطلقها على عاد، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾ [الحاقة: ٦]، تدمر كل شيء بأمر ربها، هؤلاء العظام ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧)﴾ [الحاقة: ٧]، الريح جاءت، ولو أطلق المياه سبحانه وتعالى ولو أطلق الملائكة.

جبريل عليه السلام جاء على قرى سدوم، قرى قوم لوط فجعل عاليها سافلها ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢]، ثم ألحقها سبحانه وتعالى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٢-٨٣]، مدققة دقة تصيب أهدافها، وقال بعضهم مسومة أي على كل حجر

اسم من سيصيبه من هذه القرية الظالمة، الله حفظ الأنبياء أخرجهم من بين أقوامهم، الله يحفظ المؤمنين، يحفظهم بدينهم.

ولذلك على العبد أن يستعيذ بكلمات الله التامات لأنها تحفظ، حجاب، وفي الحديث الذي حسنه بعض أهل العلم، قال صلى الله عليه وسلم: **(إنَّ اللهَ يقولُ: يا ابنَ آدمَ اكْفِني أوَّلَ النَّهارِ أربعَ ركعاتٍ، أكْفِكَ بهِنَّ آخرَ يَومِكَ)**، القرآن يحفظك في الدنيا ويحفظك في الآخرة، الأذكار تحفظك في الدنيا وتحفظك في الآخرة، الرقية تحفظك في الدنيا ولك أجرها في الآخرة.

فالله أقام من الأمور التي ينبغي أن يحافظ عليها العبد من أجل أن يتحقق له حفظ من الأقدار، الدعاء لا يرد القدر إلا الدعاء، فالله يحفظ العبد بالدعاء، يحفظه بذريته، يحفظه بأبنائه، يحفظه بأهله، يحفظه بأحفاده، ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠)﴾ [إبراهيم: ٤٠]، دعا ربنا ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، دعا حتى وقعت على شخص نبينا صلى الله عليه وسلم بعد أن قطعت النبوة في ذرية إسماعيل طيلة آلاف السنين، قطعت حتى وقعت على أعظم نبي في الوجود صلى الله عليه وسلم.

وهكذا المرء عليه أن يراعي هذا، وينظر لنعمة الله ثم ينظر إلى حفظ الله له، أنت في كل يوم يا مسكين في كل يوم والله، في كل يوم أنت ترى حفظ الله لك، **(ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير)**، هناك في الغيب من صراع الأقدار ما نعجب به، لو اطلعنا عليه لمتنا خوفًا، يعني أنت لا تدري ما صرف الله عنك، لماذا مشيت من هذا الطريق، لم تمشي من هذا الطريق، لماذا تأخرت الوقت بكلمات وهكذا، هذا عالم من الغيب تصطرع فيه الأقدار، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(لا يرد القدر إلا الدعاء)**، فأنت لا تدري ما يجري في الغيب من صراع القدر.

مثلًا: لما الإنسان يكون عند الطواغيت يتباحثون فيقول: ماذا يفكر بي؟ فأنت لا تدري ما يفكرون بك، ولله المثل الأعلى أنت ما لا تدري ماذا يقدر لك من الأقدار، بعد دقيقة ما يقدر، كان على أن عليك كذا ثم رفع هذا بماذا؟ بدعاء أخًا لك، بصلاة عملتها، بدعائك أنت قبل سنوات لا تدري عنه، ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]، لو قيل لك إن هذا العمل الذي تجني ثمرته اليوم كان بسبب عملٍ قد قمت به قبل عشرين سنة، ما الذي يذكرك به؟ جلست يومًا في المسجد فرفعت يديك بالدعاء، الله عز وجل أخذه وحفظه نماه من أجل أن يرد عنك مصيبة بعد عشرين سنة، ما تدري؟ جلست يومًا ذكرت الله عز وجل حفظه لك، أخذ الله هذا الذكر من أجل أن يعطيك ثمرته بعد سنوات.

تأمل أن الرجل يدعو والده له دعاء يقول والله هذا دعاء والدي بي، والده مات وهو صغير لكن، ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]، يدعو لهم، يدعو الله أن هذا المال لا يذهب سدى عن أبنائه فالله حفظه، على المرء أن يتأمل هذا المعنى فيزداد حبًا لله، يزداد تعلق بالله، يرى يد الله سبحانه وتعالى في كل شيء تغيب عنه هذه الظواهر، لا يقيم لها شأنا، افعلوا ما شئتم، تغيب عنه ظواهر هذه القوة والبهرجة، ما أنتم إلا أواني فارغة، لا قيمة لكم، أنتم لا قيمة لكم، أواني فارغة أنتم لا تصنعون شيئًا.

قال صلى الله عليه وسلم: **(واعلَم أنَّ الأمَّةَ لو اجتَمعت علَى أن ينفَعوكَ بشَيءٍ لم يَنفَعوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ لَكَ، وإن اجتَمَعوا على أن يضرُّوكَ بشَيءٍ لم يَضرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ عليكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحفُ)**، انتهى يا عبد الله، الأقدار ستقع، فأنت سلم انشغل أنت بما ينفع، انشغل كيف تجابه نفسك وأحداثها، كيف تجابه النعمة بالشكر لا تغرك هذه النعمة، هذه تعطى وتسلب، لا يغرك الله أخذ منك شيئًا فقد يعطيك ما هو أعظم منه، أخذ منك شيءً هو يريد أن يعطيك بدلًا منه أعظم، لكن لا يأتي هذا الأعظم إلا بفوات هذا، هكذا، قال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧]، هم يريدون العير فذهبت العير جاء ماذا؟ جاء النفير، جاء النصر، جاء أعظم هدية من الله، **(جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ما تَعُدُّونَ أهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قالَ: مِن أفْضَلِ المُسْلِمِينَ –أوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا– قالَ: وكَذلكَ مَن شَهِدَ بَدْرًا مِنَ المَلَائِكَةِ)**، وقال صلى الله عليه وسلم: **(لَعَلَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ اطَّلَعَ علَى أهْلِ بَدْرٍ فَقالَ: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)**، هم يريدوا مال، فالله ماذا أعطاهم النصر وأعطاهم المغفرة، أعطاهم العزة، أعطاهم الكرامة، كرامة أن أهل بدر هم خير البشر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، خير الناس، خير أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هم أهل بدر، فات شيء جاء ما هو خير منه.

ولذلك لا تحسد الناس على ما هم فيه، فلا تدري ماذا أعطوا وسلبوا، أعطوا أشياء وسلبوا، كم من يعطى المال فيسلب الولد، كم رجل عنده أموال ولكن يشتهي ولد فلا يأتيه، كم من الناس عندهم الأموال يشتهون النوم فلا يجدونه إلا بالمنومات والمخدرات، فلماذا يموت هؤلاء الأغنياء والأثرياء، يموتوا بصورة عجيبة جدًا!! يدخلون عليهم بعضهم يموت في الحمام يأخذ الجرعة فيموت، فأنت تعجب!! وبعضهم ينتحر! أنت بينك وبين نفسك ماذا ينقصه؟ نعم ينقصه الكثير، سلبه الله، الله أعطاك، فتحمد الله وتشكر الله، ترى يد الله كيف تدير هذا الكون، يحفظ أهل الإيمان، انظر إلى حفظه لأهل الدين، انظر لحفظه لهذا الدين الذي ابتلي وامتحن ومكر به الليل والنهار.

هل هناك دين على الأرض مكر به كما مكر بأهل الإسلام والإسلام؟ سبحان الله! جيوش جاؤوا، جيوش الصليبيون جاءوا دفعات، دفعات، والأمة مسكينة كانت، كل قرية لوحدها تدافع قدر الاستطاعة، وبعضهم يستسلم وبعضهم يهرب، والله وجدت أخبارًا أن بعض من هرب من فلسطين عندما جاء الصليبيون وصلوا إلى خراسان خوفًا، والكثير منهم هرب إلى الاسكندرية، جاؤوا ونزل الصليبيون بالإسكندرية وقتلوهم، قرى -وأنا سجلت هذا في مقال- كم من القرى دخلها الصليبيون فارغة هاربة، وبعض المدن دخلوها فأبادوها جميعًا.

ثم ما كاد أهل الإسلام يفرغون من الصليبيين حتى خرج لهم التتار، كيد ومع ذلك هذه الأمة حية، بعد الصليبيين الإسلام وصل إلى «قونيا» ودخل هذه المناطق الشمالية كلها التي تسمى الآن تركيا، بعد هذا الضعف، من الذي ينصر هذا الدين ويحفظه؟ الله عز وجل، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ [يوسف: ٦٤]، تأمل هذه الآية ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾، الله خير يحفظك أفضل مما يحفظك به مالك، ويحفظك أكثر مما يحفظك بيتك، ويحفظك أكثر مما يحفظك صاحب القوة وملك، وهو أرحم الراحمين في حفظه لك يرحمك جل في علاه.

فعظم الله واحمد واشكره وانظر إلى آياته في هذا الكون، فكل شيء أقام الله له حافظًا، لأنه ما من شيء إلا ويوجد ما يعاديه ويهلكه، قال صلى الله عليه وسلم: **(حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لا يَرْتَفِعَ شيءٌ مِنَ الدُّنْيا إلَّا وضَعَهُ)**، كل واحد فيه كل واحد، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾ [الإسراء: ٥٨]، كل شيء له زواله كل شيء، والله تقرأ سيرة الملوك والأباطرة والدول، تعجب! الجنود الأموال القوة السلطان أين ذهبوا؟ ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨)﴾ [القصص: ٥٨]، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)﴾ [يوسف: ٦٤].

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يحفظنا بحفظه، نسأل الله أن يحفظ أموالنا ويحفظ أبنائنا ويحفظ قلوبنا ويحفظ ديننا ويحفظ إخواننا، وأن يحفظنا من عذابه سبحانه وتعالى ويحفظنا من الشرك ومن الكفر ويحفظنا من البدعة ويحفظنا من الإثم والفسوق والعصيان، وأن يجعلنا عبيدًا له وأن يشهدنا جل في علاه ويشهد قلوبنا وحدانيته ويشهدنا عظمته، ويشهدنا إكرامه جل في علاه، آمين.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس السابع والخمسون: الجميل

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغّر الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الذي تعبدنا به علمًا وذكرًا وحالا، إلا وهو اسمه سبحانه وتعالى الجميل، هذا الاسم الجميل ورد في حديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن مسعود في صحيح مسلم وعن غير ابن مسعود في غير صحيح مسلم من حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(لا يدخل رجل الجنة وفي قلبه مثقال ذرة من كبر)**، قالوا: يا رسول الله الرجل يحب أن تكون ثيابه حسنة، فقال: **(ليس هذا الكبر، الكبر بطر الحق وغمط الناس، إن الله جميل يحب الجمال)**.

فمن أسمائه سبحانه وتعالى أنه جميل وهذا الاسم وهذه الصفة سابغةٌ لأسماء الله جميعها، وسابغٌ لصفاته سبحانه وتعالى جميعها، وهو سابغٌ كذلك لأفعال الله سبحانه وتعالى جميعها، وهو سابغٌ كذلك لذات الله سبحانه وتعالى، فهذا الاسم هذا مقامه، مقاماته أنه جميلٌ بذاته سبحانه وتعالى، وأما أنه جميلٌ بذاته فأنه سبحانه وتعالى ينادي أهل الجنة، عندما يدخل أهل الجنة، يناديهم جل في علاه يقول: سألوني، يقولون لله عز وجل: ألم تدخلنا الجنة، ألم تمنعنا من النار وتنجينا من النار، ألم تكرمنا، فيتجلى لهم الله سبحانه وتعالى، فلا يرون أفضل من النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى، فهو سبحانه وتعالى جميل بذاته جل في علاه.

وهذه صفةٌ أي الجمال كذلك صفة ذاتية لله سبحانه وتعالى، وفي الحديث الصحيح عند أحمد وغيره من حديثه أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: **(رأيت ربي الليل في أحسن صورة)**، فسبحانه وتعالى جميل بذاته، ولا يتمتع أهل الجنة بشيء كتمتعهم بالنظر إلى وجه الله، لأنه جميل، والدال على ذلك أننا لو رأينا ما خلق الله عز وجل في هذا الخلق من جمال لعلمنا ما هو الجمال، تقرب لنا، لأنه سبحانه وتعالى ولله المثل الأعلى، فإنه ما من حُسنٍ في الخلق إلا والله عز وجل أولى به، ما من حُسنٍ في المخلوق إلا والخالق أولى به جل في علاه، فانظر إلى جمال ما خلق الله عز وجل من الأشياء.

الله سبحانه وتعالى حجب هذه الذات الجليلة ذاته سبحانه وتعالى بسبحات النور، كما في حديث ابن مسعود: **(حجابه النور لو كشفه لأحرقتك سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)**، فهو نور سبحانه وتعالى، له هذه الصفة العظيمة التي يدل على ما نعلم فقط أننا لو نظرنا إلى الخلق فانظر إلى يوسف عليه السلام وقد أعطي شطر الحُسن، فأنه لما دخل على النساء بمكر امرأة العزيز قطعن أيديهم، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾ [يوسف: ٣١]، هذا خلق من مخلوقات الله بهذا الجمال أن تَذهل النساء برؤية جماله حتى عن الألم الذي يصيب الأيدي عند تقطيعها بالسكاكين.

فكيف الجمال المخفي عنا في خلقه؟ كيف الجمال في الحور العين؟ عندما يتحدث الله سبحانه وتعالى عن الحور العين، ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢)﴾ [الرحمن: ٧٢]، وما فيهن من الجمال، قال صلى الله عليه وسلم: **(وأنه ليرى مخ ساقيها من وراء اللحم والعظم)**، لجمالها وكذلك الجنة ما فيها من الجمال الجنة فيها من الجمال ما لا يوصف، قال صلى الله عليه وسلم: **(قالَ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالَى: أعْدَدْتُ لِعِبادِي الصَّالِحِينَ، ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ)**، فكيف لو علمنا جمال العرش؟ هذا العرش الذي هو مخلوق من نور، وفيه تهاويل وسدرة المنتهى التي قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(لا يقدر على وصفها أحد)**، يعني النبي صلى الله عليه وسلم قال فيها من التهاويل والصور، التهاويل أي أمواج النور، النور كيف يتموج تهاويل هذه، وفيها من الصور قال: **(ما لا يقدر أحد على وصفه)**.

الناس يظنون أن اللغة يمكن أن تنطلق أبعد من الواقع، وأن يكون الوصف في المدح أبلغ من الواقع، حتى أنهم ليقولون: «أكذب الشعر أجمله»، بمعنى أن المرء يصف أوصافًا كثيرة لشيء فيبالغ فيها فيعدون أن اللغة تتجاوز الواقع، الواقع له حد واللغة تتجاوزه، هنا اللغة تعجز أن تبلغ مقدار حق الواقع، لا يقدر على وصفه أحد، فيها **(ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ)**.

وعادةً المرء إذا تكلم فلا يتكلم إلا وفي ذهنه تمثل لما يريد أن يتكلم أم إذا تكلم بما لا يستطيع أن يتمثل له لا يكون مفهومًا، حتى في العلم يقولون: إذا أردت أن تعرف إدراك العالم لمسألة فانظر كيف يصفها، انظر إليه كيف يصفها، فإن وصفها ببلاغة وبيان كانت جلية في نفسه، كانت واضحة، أما إذا كانت المسألة في نفسه غير جلية ومضطربة فإن هذا الاضطراب ينعكس على لغته وعلى كلامه وعلى بيانه، فهنا انظر أنه لو رأى شيء هذا والنبي صلى الله عليه وسلم دخل الجنة ورآها، فلما جاء ما جاء في القرآن من وصفها كما قال ابن عباس رضي الله عنه: «إنما هي الأسماء»، الأسماء تشابه وأما الحقائق ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، الحقائق تختلف هذه يدلك على جمال المخلوق، هذه الجنة.

والجنة سقفها هو عرش الرحمن، وأعلى مِقدار في الجنة هو الفردوس الأعلى، لأن سقف الفردوس هو عرش الرحمن، فكيف جمال العرش؟ كيف جمال الملائكة؟ ماذا قالت النسوة؟ ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١)﴾ [يوسف: ٣١]، فهن يعلمن أن الملك له من الجمال ما لا يبلغه الإنسان، ولما أردن وصف هذا الجمال الإنسي المتمثل بيوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم قلن: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

فانظروا إلى جمال الملائكة وانظر إلى جمال ما خلق الله، والجمال والحُسن في الشيء هو قيامه على ما خُلق له، الجمال قد يكون فقط في المنظر وقد يكون في المخبر، أي بالنظر إلى قيامه على مقصد خلقه، المطلوب من السباح هو أن ينزل في البحر، الجمال في العامل هو أن يشمر عن ذراعيه ويضرب بالفأس وإلى آخره، فتجده مغبرًا، فإن رأيته مغبرًا تعبًا عِرقا، فتعلم أنه في حالة جمال، لأن الجمال في حقه هو أن يقوم بشأنه.

وانظر إلى هذا الكون ما فيه من جبال ما فيه من شموس، ما فيه من قمر، ما فيه من نجوم، ما فيه من السماء ما فيه من أرض من أنهار، فترى أن هذا جمال عجيب! وأنتم ترون بعض مناطق الجبال عندما تصور أو يراها الناس يذهل من جمالها، هذه لتدلك على جمال ربنا سبحانه وتعالى فهو أولى بالجمال، هذا جمال ذاته سبحانه وتعالى، وأما جمال أسمائه فأين ما نظرت هذه القاعدة التي نكررها لماذا هي حُسنى؟ الجمال هو الحسن، لماذا هي حُسنى؟ لأنك من حيث أتيتها وجدت حُسنًا لا يمكن أن يعتريها النقص، لا يمكن أن يعتريها الجهل، لا يمكن أن يعتريها القبح.

فهو جميلٌ سبحانه وتعالى بذاته، جميلٌ بأسمائه، هذه الأسماء الرحمن الرحيم جل في علاه الواحد الأحد الوتر العليم الحكيم، انظر إلى هذه الأسماء، حتى وأنت تلقي على قلبك من المعاني العظيمة الجليلة، لأنها جميلة، وكذلك صفاته سبحانه وتعالى، صفات ربنا سبحانه وتعالى التي تدل عليها هذه الأسماء الجميلة، وكذلك أفعاله جل في علاه ما من فعل له إلا وهو جميل، حتى وهو يبتلي العبد بالفقر لأن المآل جميل، والأمور إنما يحكم عليها من خلال مالاتها، يعني الرجل مرتاح يقول لك: أنا مرتاح هذا جمال، لكنه يؤدي إلى فقره هذا الارتياح، هذا الكسل يؤدي إلى فقره يؤدي إلى مرضه يؤدي إلى فوات الخيرات، فلا يمدحه الناس يذمونه حتى ولو كان جالسًا مرتاحًا لماذا؟ لأن مآلات فعله تدل على القبح، فالشيء ولو كان في ذاته في آنيته جميلٌ في ظاهره، لكن إن كانت مآلاته القبح لم يحكم عليه إلا بالقبح.

ولذلك سبحانه وتعالى له صفة الجمال والعلماء يقولون: «إن العبد يصل إلى الله من خلال الطريقين: من طريق الجمال ومن طريق الجلال»، فأما كما يقول القشيري في رسالته يقول: «إن التعبد بصفة الجمال يؤدي إلى العطش الشوق»، الجمال أنت تسعى إليه، تريد أن تستزيد منه، فقال: «إذا تجلى ربنا على قلب العبد بصفة الجمال؛ عطشت النفوس، وإذا تجلى بصفة الجلال دهشت النفوس»، أصابها الدهشة، وذلك لأن الجلال يؤدي إلى الإخبات والخضوع، بخلاف الجمال يؤدي إلى السرور، يؤدي إلى الفرح، فالعبد يقيم بين هذا وهذا، أنه إذا تجلى ربنا سبحانه وتعالى على قلب العبد بمعاني الجمال فرحت النفس، لم ترى إلا هذا الأمر وإذا تفكرت انتهت إلى تسبيح الله، ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وإذا تجلى ربنا سبحانه وتعالى على القلب بصفة الجلال التخويف من النار، العظمة، هو يحب سبحانه وتعالى، لكن محبة الإنسان محبةً لهذا العظيم المتكبر الجبار القهار، فهذه الأسماء إذا تجلت على نفس العبد خضعت النفس.

كما ولله المثل الأعلى عندما الضعيف الفقير يُفاجئ وإذا أسد أمامه ماذا يفعل؟ يدهش يتوه، لماذا؟ لأنه يخاف من هذا، ولكنه إذا كان في حالة من حالات الجوع والعطش والضياع والغربة فرأى من يُحسن إليه ويعطيه، فرح وأقبل عليه ورمى نفسه بين يديه يطلب منه المنن والعطايا.

ولذلك هذا الاسم الجميل يؤدي إلى محبة الله، لأن النفوس مفطورةٌ على حب الجمال إلا –بعيد عنكم كما يقولون– إلا النفوس القذرة، أهناك نفوس تكره الجمال؟ نعم، هناك نفوس كالخنفساء، ما هي مادة حياتها وعشقها؟ تذهب إلى العَذَرة، تجمع العَذَرة وتمشي فيها طوال النهار تكون العَذَرات كالكرات الصغيرة تمشي أمامها، وما تعشق من الروائح؟ خبيثها.

وهكذا تجد بعض الناس أنه لو جلس مع أهل الدين لما ارتاح، لو جلس في مجالس العلم نفرت نفسه، لكن ضعه في مجالس الغيبة، ضعه في مجالس السرقة والكذب والبهتان والافتراء خلاص نفسه ترتاح، وهذا من انتكاس الفطرة، وهذه لها طرق، ما هي الطرق؟ هو الزمن والتكرار، لا يوجد إلا هذا الطريق الزمن والتكرار، لقوله صلى الله عليه وسلم: **(وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا)**، يعني يكتب كذاب أي لا يمكن أن يكون صادقًا، خلاص انتكست فطرته، **(وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا)**، خلاص لا يستطيع أن يكذب، لا يستطيع، مرآة نفسه طاهرة نقية مُجّلاة، ولسانه متلائم مع هذه النفس النقية المجّلاة فتنطق بأفضل الكلام، ولا ينطق إلا الحق الذي يراه وسمعه والذي شهده من الحق يقوله، قال صلى الله عليه وسلم: **(إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي**

إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدِي إلى الجَنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتَّى يَكونَ صِدِّيقًا. وإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إلى النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا).

والقصد من هذا: أن المرء إذا علم أن الجمال ممدوح وأنه في حق الله؛ تمثل بالجمال، فلذلك قال: «إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا»، ويقول ابن القيم رحمه الله –هنا لفتة رائعة– يقول: «بدأ الحديث بالمعرفة وانتهى بالسلوك»[1]، ما هي المعرفة؟ وهي إثبات صفة الجمال لله عز وجل، وأما السلوك فهو إن يتمثل العبد هذا الجمال، في خُلقه وفي سُلوكه حتى في بدنه، ومن هنا جاءت السنة للدعوة إلى جمال المظهر، **(إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)**.

ليس كما يفعل الناس يبالغون كما يفعل السلاطين وكما يفعل القياصرة، لا، هؤلاء يبالغون ويخرجون عن الحد الشرعي، يلبسون الذهب ويشربون بأواني الذهب التي إذا شرب العبد بها إنما يجرجر في بطنه نارا، وإذا لبس الذهب كأنه وضع جمر بين أصابعه، فيتجاوزون، ولكن المقصود ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فكان طيب صلى الله عليه وسلم ويحب الطيب، وكان خلقه صلى الله عليه وسلم كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «ما مَسَسْتُ حريرًا قطُّ ولا دِيباجًا ألْيَنَ مِن كفِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولا شَمَمْتُ رِيحًا قطُّ ولا عَرَقًا أطيَبَ مِن ريحِ عَرَقِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم»، قال: هل هي نعومة التي عند البعض الخنوثة؟ قالوا: «لا، إنما هذه ليونةٌ مع قوقة»، ترى يد المرء لينة ولكنها قوية بخلاف الخشونة التي تكون في الخشب، فهذه ليست فيها ليونة، هذه ليونة مع قوة.

لذلك الواحد منهم مع زوجته يرضى منها قال: يراجعنه وهو أسد، مع زوجته يذل لها **(خيركم؛ خيركم لأهله،)**، هو لين معها، لين مع الطفل، يدخل الحسن والحسين يركبان على ظهره صلى الله عليه وسلم ويلعبان، تدخل الجارية وتكشف عن ظهره وتلعب بظهره، هو لين صلى الله عليه وسلم ومع ذلك: «كنا إذا حمي الوطيس التجأنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم»، انظر هذه الشجاعة.

سمعوا يومًا جلبة في المدينة فخرجوا وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم راجع، على فرسٍ لأبي طلحة الأنصاري يقول: **(لا تراعوا، لا تراعوا)** على فرسٍ عري، راكب الفرس بلا سرج، هذه شجاعة وهو مع ذلك صلى الله عليه وسلم تأتي الجارية بنت صغيرة فتأخذ بيده وتمشي به في زقاق المدينة لا يردها، هذا

---

[1] من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ قالَ رَجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يَكونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ونَعْلُهُ حَسَنَةً، قالَ: إنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ)، المصدر: صحيح مسلم.

جمال الخلقة العظيمة في شخص النبي صلى الله عليه وسلم وجمال لباسه صلى الله عليه وسلم من أجمل الناس كان له ثوب يتجمل به في العيد، ويتجمل به عند الوفود، وهكذا، ويدعو الصحابة رضي الله عنهم إلى أن يغتسلوا يوم الجمعة لما يرون من العراق ويدعوهم إلى الطيب **(ومسَّ ما كتبَ اللَّهُ لَهُ من طيبِ أَهلِهِ)**، ويدعوهم إلى الجمال، هذا السلوك، ثم هو جميل في كلامه، **(يا عائشة أن الله يكره الفحش)**، السام عليكم، قلت له: **(وعليكم)**، لا يخرج من فمه صلى الله عليه وسلم إلا الطيب.

ولو نوزع في أشد الأوقات لا يخرج منه إلا الطيب صلى الله عليه وسلم، في حادثة الإفك يكاد الرجل ينهد، وهو رجل عظيم الذي يتكلم في عرضه، لا يوجد أعظم من ذلك فتنة، في الدنيا أعظم الفتنة أن يقال في رجل عن عرضه، هل رأيتم النبي صلى الله عليه وسلم خرجت منه كلمة يُعتذر منها بعد انتهاء الفتنة، خُلق، يمتحن.

ولما جاء اليهودي قال: نظرت فإذا فيك كل خِصال النبوة وأردت أن اختبر خصلة الخلق والصبر، فجاء اليهودي وامتحنه بأشد الامتحان، فماذا خرج من النبي صلى الله عليه وسلم، كلما ضغطت يخرج الطيب أفضل، كل ما شددت يخرج الطيب أفضل، فهذا كله من تجمل النبي صلى الله عليه وسلم بعلمه **(إن الله جميلٌ يحب الجمال)**، فقال صلى الله عليه وسلم: **(نظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود)**، وساخة في البيوت هذه الوساخة في الألبسة الوساخة في الأبدان الوساخة هذه بعض الناس في بعض البلاد لا يغتسلون بالسنة والسنتين مرة، ماذا علمنا النبي صلى الله عليه وسلم؟

انظر إلى الوضوء ثم كيف أراد الله عز وجل أن يعظم أمر الصلاة فربطها بالطهور، هي طهور لما قال عن الصلاة قال: **(أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، أيبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى، قال: كذلك الصلوات الخمس)**، الذنوب هي قبيحة على القلب، تقسي القلب، قبيحة في السلوك، انظر ماذا قال عن الرجل الذي لا يصلي ركعتين قبل الفجر، ماذا قال عنه صلى الله عليه وسلم؟ **(فإذا صلى ركعتين فقام)**، قال: **(يصبح مسرور النفس)**، وإلا يصبح ضيق النفس، وضيق النفس لا يكون إلا على معنى رؤية القبح، ضيق النفس، لما يعتريها من هموم، لما يعتريها من أفعال باطلة تقوم بأفعال سيئة، انظر آثار المعاصي على النفوس فمن أثارها الاكتئاب، لماذا يعيشون؟ نعم انظر إلى أمر القضاء والقدر، إيمان المرء بالقضاء والقدر، ماذا يحسنه؟

ثم قال صلى الله عليه وسلم: **(تبسمك في وجه أخيك صدقة)**، يعني انظر هل هناك دين أعظم من هذه، صدقة، كأنك تتصدق عليه، تقدم عليه ما يحسن حقيقة أنت تراها، إذا وجدت الأخ فتبسم لك

كأنه أعطاك مالًا، حتى الناس يقولوا: «قابلني ولا تغديني»، هذه كلمات صحيحة، الكلمة الطيبة صدقة، فالبسمة في وجه أخيك صدقة، التمرة يأخذها المرء فيداعب بها زوجته ويضعها في فمها هذه صدقة، هذه العظمة التي نفهمها من أن الله جميل، كذلك جميلٌ في شرعه، أنه جمل شرعه حتى أقام هذا الشرع على أحسن حال في الدنيا والآخرة، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد: ٢٨]، أعطاك من الذكر ما تطمئن به القلوب، فلو جاءتك الدنيا على ما فيها، انظر إلى موسى عليه السلام، لما رأوا فرعون ورائهم ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)﴾ [الشعراء: ٦١]، هذا من اطمئنان اليقين على الله، قال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء: ٦٢]، فأمره الله بأن يضرب بعصاه البحر، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣] انظر جاء الفرج، مادام حصل الاطمئنان والثقة جاء الفرج.

فاليقين على الله عز وجل بأن بيده كل شيء؛ هو الذي يقضي الحوائج، اليقين على الله هو باب قضاء الحوائج، إبراهيم عليه السلام ما خاف من النار، حسبي الله ونعم الوكيل، ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)﴾ [الأنبياء: ٧٠]، وهكذا فالله عز وجل جعل من الشرائع ما تطمئن به الحياة، عن الزوجة سكنًا، ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، الأخ مع أخيه، الأب مع أبنائه وهكذا.

فهذا الجمال انشغال القلب بالنظر إلى جمال الله، وحينئذٍ يسبحه ويقدسه إذا رأى هذا الجمال سبحه حمده، وسبحه لأنه ما أقام شيئًا إلا على معنى الجمال، فأحب الله، أعظم باب لأن تدخل عليه لأن تحبه هو أن تراه جميلًا، وهو كذلك جل في علاه جميل، فإذا أدركت أن هذا الجمال يتعدى عليك، يصيبك فضله؛ حمدت الله، الحمد لله، وإذا أدركت أنه ما من جمالٍ في الوجود إلا من الله؛ وحدته «لا إله إلا الله».

وإذا علمت أن هذا الجمال إنما هو مقترن بالعظمة، وهذا هو، ليس كما جمال المرأة مع زوجها، مقترن بالضعف، ولا جمال الابن مع أبيه مقترن بالضعف، لكنه جمال العظمة، حينئذٍ كبرته، الله أكبر، حينئذٍ دارت العبودية بهذا الاسم على أي وجهٍ كان، نظرت إليه وأتيت إليه.

ولذلك عليك أن تنتبه لهذا **(إن الله جميل يحب الجمال)**، ويحب الجمال، أنا أعتقد أن هذا وسيلة، غير ما قاله ابن القيم رحمه الله، ولكن أعتقد أن الطريق لإدراك جمال الله هو أن تسلك سبيل الجمال، وعلى معنى التفكر أن الله أمر به، فما من جمالٍ أمر به الشارع إلا وهو يدلك على جمال الله، على جمال نفسه جل في علاه، على جمال ذاته، على جمال صورته سبحانه وتعالى وله الصورة، ثم على جمال ما خلق،

انظر أين خبأ الله عز وجل أين خبأ المسك؟ أين خبأ العنبر؟ أين خبأه؟ أنت تبحث عنه، انظر أين خبأ في الوردة هذه الرائحة الطيبة؟ انظر أين خبأ الله عز وجل في هذه الحبة كيف تضعها في الأرض فخبأ فيها هذه الثمرة؟ وأنت **(كالأترجة، ريحها طيب وطعمها طيب)**[1].

فأنت إذا نظرت إلى أمره في جمال ما تدرك، أدركت جماله سبحانه وتعالى في هذا الخلق، انظر إلى أثار رحمة الله، هذا الوجود هو فيضٌ من أسمائه وصفاته، هذا الشرع هو فيض مما يحب سبحانه وتعالى وما يكره، أدركت الله على حقيقته، وحينئذٍ تتقدم في مدارج السالكين، تتقرب في مدارج العبودية، هذه العبودية وهذا هو العبد، وبعد ذلك يأنف من أن يجالس الفسقة، لأن لهم ذنوب كما أنك لا ترضى بأن تعيش في المزبلة، من الذي يرضى أن يعيش في المزبلة؟ هو المنتكس هو المجنون، وكيف تجالس هذه المزابل؟ لا ترضى:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

فكيف يجلس مع هؤلاء! إلا إذا جلس معهم ليعلمهم الدين، ويدعوهم إلى الله ويبين لهم الخير، أما أن يكونوا أصحابه، قال صلى الله عليه وسلم: **(لا تُصاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، ولا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ)**، أنت تأنف منهم، وتأنف من المعاصي لها خبث، هذه المعاصي خبيثة انظر إلى هذه الكلمة خبيثة، هذه المعاصي الخبيثة عليك أن تنفر منها وتهرب منها، ولا ترضاها، لا تنظر إلى المعصية، لا يخرج من فمك السوء.

حتى للفلاحين كلمة من أجمل ما يقولوا لما واحد يغلط: «تف من فمك»، أي كأن قذارة في فمه، ابسقها، هذا عجيب! هذا الذوق في هذه الأمة! ذوق قرآني مأخوذ الكتاب والسنة، ابسقها هذ كلمة لا تقال، أعوذ بك أن تضع هذه الكلمة الخبيثة في فمك، هل يرضى أحد أجلكم الله أن يأتي إلى قذارة ويضعها في فمه، هذه الكلمة خبيثة لا تقولها، لا تسب لا تكن فحاشًا لا تكن لعانًا الناس ينفرون منك، والناس كما ينفرون من القاذورات المادية وينفرون من القاذورات المعنوية، ينفرون منها لا يجالسونه، لا يحبونه ولا يذكرونه ولا يدعون له، لا يتمنون رؤيته، إذا رأوه تذكروا كل القبائح، كما أنهم إذا رأوا القاذورات نفرت نفوسهم منها.

هذا كله من آثار علم العبد وتعبده بهذا الاسم الجمال، والجمال يؤدي إلى الحب والجلال يؤدي إلى الخوف، وهما مطيتا الوصول إلى الله عز وجل، أن تحبه كل الحب، وأن تحبه لذاته ما معنى لذاته؟ في أنك

---

[1] من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثلُ المؤمنِ الَّذي يقرأُ القرآنَ كالأُتْرُجَّةِ طعمُها طيِّبٌ وريحُها طيِّبٌ والَّذي لا يقرأُ كالتَّمرةِ طعمُها طيِّبٌ ولا ريحَ لها ومثلُ الفاجرِ الَّذي يقرأُ القرآنَ كالرَّيْحانةِ ريحُها طيِّبٌ وطعمُها مُرٌّ ومثلُ الفاجرِ الَّذي لا يقرأُ القرآنَ كمثلِ الحنظلةِ طعمُها مرٌّ وريحُها مرٌّ)، أخرجه البخاري (٥٠٢٠)، ومسلم (٧٩٧).

لو لم ينعم عليك لكان محبوبًا، وهذا هو الحمد، ليس شرطًا أن تصل إليك النعمة لتحمده، لكن يكفي أن يكون هو بهذه الصفات قبل أن يربها عليك، وقبل أن يعطيك إياها، أنت تحبه لهذه الصفات، وهذا قمة المعارف وقمة الأخلاق، وهذا الذي كان يطلبه كل البشر من العقلاء وهو محبة الأشياء، لا لما يحصل بها من نفع، ولكن لأنها هي تستحق الحب، هي تستحق الحمد، وهذا حق لله عز وجل لأنه يحب لذاته حتى لو ابتلاك، وهذا نذكره في كثير من المجالس.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: وإن بعض إخواننا لما توفاه الله جعل يقول لله: «وعزتك إني أحبك افعل بي ما شئت»، يحب الله ويرضى بقضاء الله وقدره يحبه، حتى لو ابتلاه يحبه، أيوب عليه السلام الله ابتلاه وهو يحب الله عز وجل، يحب الله، أنا أحبك، اسأل الله أن يرحمنا برحمته، وأن يرزقنا محبته جل في علاه وأن يجلي قلوبنا لمشاهد الجمال، لأن نشهد جمال الله عز وجل في ذاته وصفاته وأفعاله، جل في علاه، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الأسئلة

السائل: شيخنا قول الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾ [مريم: ٦٥]، هل المقصود الاسم أم الصفة؟

الشيخ:

أولًا: قال الله عز وجل: ﴿سَمِيًّا﴾ أي مما يشابه الاسم، الاسم، وبالتالي لا يشابه الصفة، الصفة، لأن الاسم هنا ليس جامدًا، معنى جامد: لا يدل على معنى، فهذه هل تعلم له ﴿سَمِيًّا﴾ نافية لأن يستحق أحدٌ من الخلق اسمه وهو الله، اسم الذات، ونافية بأن يستحق أحدٌ صفات هذا الإله، لأن الله عز وجل اسم على الصحيح مشتق من الإلهية، فمن الذي يقول أنا الله؟ هل أحد نازع الله بهذا الاسم؟

ثانيًا: هل أحد يستطيع أن ينازع الله عز وجل بما يستحق هذا الاسم؟ هل أحد في الوجود، -هذه كلمة للشيخ الشعراوي رحمه الله- هل هناك أحد في الوجود في تاريخ البشرية قال: أنا خلقت هذا الكون؟ هل هناك ملك ادعى هذه الدعوة؟ هل هناك جني ادعاها؟ هل هناك أنسي في البشرية قالها؟ لكن هناك واحد أحد قالها: الله عز وجل، ولم يُنازع.

وهل هناك أحد ادعى أنه أحيا البشر جميعا؟ ويميت البشر جميعا؟ هل هناك أدعى أنه هو الذي يرزق البشر جميعا، منذ أن خلقهم الله إلى أن يميتهم، وأنه هو الذي يمنع الخلق من رزقه؟ فالذي قال ذلك هو صاحب الحق، الذي قالها: هو الله عز وجل، قال: ﴿أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤]، أنا الذي خلقتكم وأنا أحييكم وأنا أميتكم، وكل واحدٍ من الخلق يحس بهذه المعاني على معنى الضرورة، الاضطرار، أعطوني واحد من البشر قال: أنا خلقت نفسي، أخرجت نفسي من بطن أمي، وكونت نفسي في بطن أمي، سبحانه وتعالى قال: أنا خلقتكم، أنا أحييكم أميتكم رغم أنوفكم، سبحان من قهر العباد بالموت، ما من أحد إلا القلة يقبلون، هذا فقط الأنبياء ومن معهم، يحبون لقاء الله عز وجل.

وأنا تأملت -وقلتها لكم مرة- في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ما مِن نَبِيٍّ يَمْرَضُ إلَّا خُيِّرَ بيْنَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ)**، لا يقبض إلا بعد التخيير، كنت أقول هكذا بين وبين نفسي، أقول: أين هذا مقام النبوة، كيف هو معناه في الخلق؟ مع الأنبياء ومع الصالحين كيف هو، مع الأنبياء بيّن أنهم يأتي إليهم ملك الموت، تريد البقاء أم الرحيل فيختارون الرحيل، محبة لله وشوقًا إليه، ورغبة بالنظر إلى وجهه، فكيف مع

الأولياء والصالحين؟ كيف يتمنون؟ سبحان الله وجدت أن الله عز وجل يضيق عليهم الدنيا حتى يتمنون لقاء الله عز وجل، يضيق عليك في آخر الحياة فيطيقون ويملون فيحبون الرحيل، وهذا تحسه حتى بأهل الفطرة من أباءنا وأمهاتنا كأنه في آخر الموت يقول: يا أبي -يا ولدي- والله إني مشتاق للقاء الله، تجد هذه الكلمات تخرج من أفواههم على معنى من معاني الدين يعني مع فطرتهم السليمة، هكذا يقول من غير فقهٍ ولا علم، لكن الله يجريها على لسانه: والله إني مشتاق إلى الله ومشتاق للآخرة وهكذا، أما تسمعونها؟ تسمعونها كثيرًا.

بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا والحمد لله رب العالمين.

الدرس الثامن والخمسون: الحكم

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الذي تعبدنا به ذكرًا وعلمًا وحالا، ألا وهو اسمه سبحانه وتعالى الحكم، فهو أحكم الحاكمين، وهذا الاسم الجليل لربنا ورد في الكتاب والسنة، وأما في الكتاب قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)﴾ [التين: ٨]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، وكذلك ورد: ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥)﴾ [هود: ٤٥]، ورد على لسانه نوح عليه السلام كما في سورة هود: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥)﴾ [هود: ٤٥]، وفي كذلك في سورة الأعراف في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧)﴾ [الأعراف: ٨٧].

فسبحانه وتعالى هو الحكم وهذا اسمٌ جليل من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الدال على أنه سبحانه وتعالى لا يُقضى بين الخلق إلا بقضائه، ولا يُحكم بين الناس إلا بحكمه، ولا يُصدر الناس إلا عن قضائه الكوني، كما أنهم خاضعون جميعًا لقضائه وحكمه القدري جل في علاه، خلقهم من غير مشورةٍ منهم، لا يوجد أحد استشاره الله عز وجل يخلقه أم لا يخلقه فهو خاضع في الوجود لله عز وجل، وهذا الكون كله يخرج المرء إلى هذا الوجود فيجد أن الأمور مقدرة لا دور له فيها، الشمس تشرق والنهار يتحرك والزمن يمشي والليل يأتي والنهار يعقبه والأمطار تنزل، وكذلك قدر الله عز وجل هذه التضاريس من الجبال وغيرها وما فيها من أقوات.

فالله عز وجل هو الحكم الذي يحكم بين الناس بحكمه القدري جل في علاه، وكذلك يميتهم، يميت الخلق بغير إرادة منهم، ويصيبهم من الأوجاع والأمراض، ويصيبهم من الصحة والعطاء والغنى والفقر، وهذا ليس لهم إرادة فيه في أغلبها بل أنه سبحانه وتعالى يحكم بينهم بحكمه القدر، الدال على أن الإنسان عاجز، فكل ما ترونه من آلات تعطي الإنسان القوة إنما هي من عطاء الله عز وجل، وبعد ذلك الإنسان تجري عليه أقدار الله عز وجل وهو يحاول دفعها، الناس ربما يستطيعون دفع البرد إذا أتاهم باللباس،

يستطيعون دفع المطر بأن يكنوا أنفسهم في داخل بيوتهم، لكن من الذي يستطيع أن يدفع المرض عن بدنه إذا أتاه أو أتاه الموت؟ كم من الناس عندهم الأموال ولا يستطيعون أن يشتروا عينًا؟ لا يستطيعون، ولا يستطيع أحدهم إذا قطع أصبعه أن يشتري أصبعًا آخر، وإذا أصاب التلف أجزاءه.

فهذه أقدار الله عز وجل جارية على هذا الإنسان الدالة على أنه ضعيف عاجز، ومع ذلك هذا الإنسان يبغي ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨)﴾ [العلق: ٦-٨]، يبغي، إذا استغنى يبغي، يطغى ويظن أنه ملك الدنيا، وهكذا تروا فراعنة الوجود ونماردة تروهم يظنون أنهم قد ملكوا الأرض، والواحد منهم والله ربما في بيته لا يستطيع أن يملك زوجته ولا يستطيع أن يملك ألمه، لو أن الألم أصابه في ضرسه لجعل يخور كما يخور الثور، لا يملك شيئًا فالإنسان خاضع لقضاء الله عز وجل خاضع لأمره، الدال على أن الإنسان عبد لله عز وجل في قضائه وقدره، وأنه خاضع لأمره خاضع لأمره الكوني.

فهذا الإنسان مظهر وجوده يقوم على الفقر، يقوم على العجز، يقوم على الضعف، يقوم على الجهل، هذا موسى عليه السلام النبي الكريم ذهب فوجد رجلًا صالحًا وهو النبي الخضر وجد عنده من العلم ما لم يعلمه، ماذا نملك من العلوم؟ ماذا نعرف من العلوم؟ في كل يوم يكتشف الناس أنهم جهلة، في أمور تقررت في أنفسهم، الله يسوقها لهم، وفي كل يوم يكتشف الناس أنهم في ضعف، الأغنياء يقولون نحن نملك كل شيء، فيأتيهم المرض فأموالهم لا تدفعه، وصاحب الصحة يقول أنا عندي كل شيء فيحتاج إلى المال فلا يجده وهكذا.

ولو أراد الإنسان أن يأتي زوجه ربما لا يكون له القدرة أن يأتيها وهو يملك الدنيا كلها، علمت أن الإنسان خاضع، أنت عبد لله عز وجل لا تتكبر، لا تظن أنك شيء، إنما تمام صلاحك هو أن تشكو إلى الله عز وجل فقرك، تمام وعزتك أن تسجد بين يديه سبحانه وتعالى هذا العظيم الجليل الذي يقضي عليك، وأن تسأله أن يمدك بالقوة، وأن يمدك بالعلم وأن يمدك بالفضل الإلهي والكرامة والقوة، فمن الناس ربما من لا يستطيع أن يقوم ولا يمسك تجد عنده المال لا يستطيع أن يمسك كأس الماء فيشربها بيده، ويبحث عن الأصدقاء فلا يجد، يبحث عن الأبناء حوله أين الأبناء؟ لا يستطيع أن يشتري، لو أن الله منعه الولد، قضى ألا ينجب وأن منيه ليس فيه الحياة، كيف يشتري الحياة؟ لو أنه ملك الدنيا بإجماعها.

فإذًا الله عز وجل هو الذي يحكم على الخلق بأحكامه القدرية، هو الذي يجري كل شيء، الشمس تشرق بغير إرادتنا، تغيب بغير إرادتنا، نخرج من بطون أمهاتنا بغير إرادتنا، نذهب إلى القبر بغير إرادتنا،

من نحن؟ وهو كل شيء جل في علاه، يقضي على كل شيء، هو الذي يسير الخلق كما يريد، وسبحانه وتعالى يسيره بحكمة ورحمة، هذه رحمة إلهية، لو أن الناس لا يموتون كيف يكون حالة البشرية؟ الناس يموتون بالجوائح بالملايين لو لم تأتي كيف حال البشرية؟ فالله يجري الأمور بحكمته لأنه سبحانه وتعالى هو الحكم.

وكذلك سبحانه وتعالى يقضي على الناس بالشرائع، ينزل الشرائع الله يعلم أن الخلق لا يستطيعون أن يخرجوا بأنفسهم من الحق حتى لو فكروا، لا يستطيعوا لا يعرفون، وربما يبصرون الأمر بنتائجه الأولى ولكن في مآلاته، من الذي يعرف أن الربا هو مهلكة للبشرية؟ الخلق في كل العالم في كل التاريخ البشري خارج تاريخ الأنبياء يتعاملون بالربا، ويظنون أن الربا هو السبب النماء الاقتصادي، سبب رغد العيش للبشرية، خذوا أموال تاجروا، نعطيك مال وتاجر به، ثم بعد ذلك يجدوا أن البشرية تسير إلى الهاوية وأن الاقتصاد يتهاوى وأن الفقر يزداد وهكذا، هذا الربا، الله هو الذي يقرر: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

من الذي يقر أن الزنا حلال أو حرام؟ هو الله جل في علاه الذي أقام البشرية على أسرة زوج وزوجة تجد هذا الزواج هذا العقد عجيب، عجيب سره! تجد أن البنت في بيتك ربما يمر عليها الشاب فتغض بصرها ولا تعرفه وربما يعني تنفر منه، فما أن ينشأ العقد حتى يصبح التعلق، فتتعلق به ويتعلق بها كأنه يعرفها منذ أن ولدت، وتعرفه منذ أن ولد، يُنشئ بينهما مودةً ورحمة بمجرد هذا العقد الذي هو امتثال لأمره، من الذي ينشأ هذا الود؟ هذا الود في داخل البيوت هذه الرحمة هذه السكينة، من الذي ينشئها؟

وانظر إلى هذه البيوت التي تقوم على المعصية، بيوت والله تشتعل نارا، المشكلة فينا أن الله عز وجل يستر البيوت وإلا بالمعاصي تشتعل نارا، من الذي يقدر أن الزنا حرام؟ وأن الزواج والعقد أنه حلال؟ من الذي فرق بين السِفاح والنكاح؟ الله عز وجل، من الذي فرق بين البيع والربا؟ الله عز وجل فانظر إلى آثارها في الوجود في الدنيا تقوم على الحكمة، من الذي يقدر أن الصلاة هي رحمة؟ أن الصلاة خير من النوم؟ هذه التقادير في هذه الأوقات من الذي يقدر ذلك؟ الله عز وجل.

وهذا الحج وهذه الزكاة كيف هي نعمة من الله عز وجل حكم بها على الخلق، من أجل أن تسعد، إلى من يؤدى المال، هل هو يأخذ مالكم؟ يقول أعطوني هذا المال؟ وإنما يقول أعطوه لفقرائكم، خذوه من أغنيائكم وردوه إلى فقرائكم فتنشأ الرحمة، الله عز وجل يرفع بهذه الصدقات يرفعكم ويرفع عنكم البغضاء ويرفع عنكم الشر ويرفع عنكم البلاء والفقر، فمن الذي أحل أن تشرب العصير ومنعك من الخمر؟ الله عز وجل هو الذي يحكم فهو أحكم الحاكمين في شرعه جل في علاه هو أحكم الحاكمين،

البشرية في عناء في ضنك في تعب فسبحان الله، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠)﴾ [الكهف: ٥٠]، سبحان الله!! أي خلقٍ هؤلاء؟! أي عقولٍ عند هؤلاء؟! تركوا الشرع المحكم وترك الرحمة، انظر (**إقامة حد من حدود الله عز وجل خير من أن تمطر الارض أربعين عامًا**)، إقامة حد من حدود الله، تنزل الرحمات الكرامات من الله.

والله يا أخوتي ما زلت أذكرها، والله لما فتحت كابل وانتشر الفساد وضعفت أفغانستان صارت غابة من الإجرام غابة، من انتهاك الأعراض ومن السرقات واللصوصية واللواط، والله ما زلت أذكر وأنا أفكر أقول هذه البلد من الذي يصلحها؟ هي خلاص انتهت، هذه حتى لو جاء الصالحون والله تحتاج عشرين سنة حتى يقضى فقط على مظاهر الفساد، تجد محطات الرصد في داخل الطرق في السيارات، عصابات مجرمة يوقفون السيارات يسرقونها من أهلها، يلوطون بالأولاد يزنون بالنساء، جرائم المخدرات، غابة لا تطاق، فما إن جاءت طالبان بستة شهور، صارت من آمن بلاد الأرض، ولم يقم فيها من الأحكام إلا حكمين ثلاث في السرقة والزنا، والناس صاروا يحضرون الأموال المسروقة إلى أصحابها ويؤدونها، خذوها.

والله بمقاييس البشر لا يمكن أن تُعرف، لا يمكن أن تُحلل، ستة شهور هذه الغابة من القتل والفساد وسفك الدماء تصبح واحة من الآمن والخير والبركة كله بأمر الله، كله بتطبيق شرع الله عز وجل، الناس تجد البعض منهم يتكلم: من الذي يصلح هذه الأمة؟ هذا من الوهم لأنهم ما جربوا ما عاشوا، يحق لهم هذا التساؤل ما عاشوا ولا جربوا، أنه لو طبق شرع الله عز وجل في أفسد البلاد، والله لو يطبق فقط حكم حكمين.

فلماذا يكرهون حكم الله؟ لأنهم لصوص، لماذا يكرهون حكم الله؟ لأنهم زنا، لماذا يكرهون حكم الله؟ لأنهم مدمنو الخمر لأن حياتهم الفساد وإلا فالصالح يحب أن يكون في أمان، والذي يمد يده ليسرق تقطع يده؛ حينئذٍ ذاك يتحسس يده، ولكن انظروا يضعون هذه القوانين في السجون، يدخل الرجل في السجن أعمى لا بصر له بالجريمة فيخرج من السجن زعيمًا في الجرائم، ويزعمون أنهم يحققون الأمن وأن هذه هي الإنسانية، وهكذا يترك الناس الأمر ويتعذبون، يتعذبون في أبنائهم في بناتهم في أصدقائهم في أعمالهم، الأرض تشتعل نار بسبب مخالفة أمر الله، ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، هذا لا يبتغى، هو سبحانه أحكم الحاكمين جل في علاه يعلم، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك: ١٤]، ألا يعلم ماذا تحتاجون؟!

فهو سبحانه وتعالى الذي يحكم بهذا الشرع المنزل الحكيم؛ الذي فيه سعادة البشرية سعادة الإنسان في الدنيا، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤)﴾ [طه: ١٢٤]، وغير ذلك مقابل ذلك أنه يعيش في سعادة، يعيش في هناء، يعيش في راحة، يعيش في عزة، يعيش في كرامة، يعيش في اطمئنان.

والله عز وجل هو الحكم الذي يقضي بين الناس يوم القيامة، وهذا هو القضاء الجزائي، هذا قضاء قدري، هذا قضاء شرعي، هو القضاء يوم القيامة هو الذي يحكم بين الخلق وحكمه قائمٌ على العدل يوم القيامة، يحكم بين الناس **(ويوم القيامة تؤدى الحقوق إلى أهلها حتى أنه ليقضى من الشاة القرناء لشاة الجلحاء)**، ولولا هذا اليوم يوم القيامة لكان الناس أتعس الناس وأتعب الناس وأشقى الناس، بسبب هذه الدنيا، لولا أن الناس يطمئنون يوم القيامة آتٍ فسيقضى ولن يفوتني الحق وكل من جلد ظهر الناس وآذاهم وأغتابهم وأفسد عليهم حياتهم سيدفعها يوم القيامة.

وأول ما يقضى يوم القيامة فيه من حقوق الله في الصلاة، وأول ما يقضى بين الناس في حقوق الخلق في الدماء جل في علاه، فهو يحكم بينهم يوم القيامة، قال صلى الله عليه وسلم: **(أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ، وَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ)**، ومن رحمته أنه إذا أحب عبدًا، وكلنا خطاء، كل ابن آدم خطاء، وهكذا هو شأن آدم عليه السلام لما قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فهذا شأن الإنسان، هذا شأنه، فيأتي الله عز وجل بهذا العبد الصالح الذي أذنب وتائب وأصاب وستر الله عز وجل عليه في الدنيا، ولكنه يحب الله ويؤدي الحقوق ويبذل وسعه ما استطاع، فتغلبه أهوائه مرة، وفي الجملة هو عبدٌ لله، الله يدخله إليه، وينزل بينه وبين الخلق الحجاب ويقرره ذنوبه جل في علاه، يقرره ذنوبه حتى يظن العبد أنه سيهلك، كم من رمشة عين من خائنة الأعين قد فعل؟ كم من كلام خرج من فمه وهو لا يدري أنه شر؟ كم من رجل مشيت إلى معصية وهو نسيها راحت في غياهب النسيان؟ **(نسي آدم فنسيت أمته)**، حتى يظن هذا العبد أنه قد هلك، فيقول جل في علاه: **(سترتها عليك في الدنيا وها أنا أسترها عليك هذا اليوم)**، الرحيم جل في علاه.

فتنصب الموازين يوم القيامة الميزان وليس ميزان، موازين الحق تنصب، ويؤتى بالناس، يؤتى بين الحاكم والمحكوم والظالم والمظلوم والصغير والكبير والقوي والفقير والغني وهكذا يقضى بينهم، فلا تزول عبد يوم القيامة حتى يسأل هذه الأسئلة عن عمره وعن ماله وعن وقته، يسأل كيف أقضاه؟ كيف مضى؟ فيقرر

الله يقرره هذا يوم الجزاء هذا يوم عظيم يوم القيامة وتدنو الشمس من الخلائق يوم القيامة مقدار ميل، حتى أن الناس ليغرقون في عرقهم بحسب أعمالهم.

وهناك أناس يوم القيامة هم في خير وبركة، المتحابون بجلالي، المتحابون في الله على منابر من نور يوم القيامة، تحت ظله جل في علاه، تحت ظل الله سبحانه وتعالى يظلهم بظله يوم لا ظل إلا ظله، ويمضي هذا الزمن عليهم كأنه اللحظة السريعة يمر، لأنهم يعيشون في النور، هكذا النور هذا زمن النور مختلف عن زمن الذي يعيش في الظلمة، الظلمة لها أزمانها الطويلة المتعبة، والنور له زمنه السريع الذي يمضي، هكذا تقام يوم القيامة الموازين يقضى بين الناس، الذي أغتاب، الذي كذب على الناس والذي أفترى عليهم والذي سرق أموالهم، الذي أخذ حقوقهم، كل درهم سيدفعه يوم القيامة، كل كلمة اغتابها سيدفع ثمنها يوم القيامة لأخيه، فالإنسان هو وما يجني على نفسه.

فالله هو سبحانه وتعالى الحكم الذي يحكم بين الناس يوم القيامة سبحانه وتعالى حكمًا جزائيًا يقوم على العدل والحق، حقوق البشر يجب أن تؤدى في هذه الدنيا، أدوا للناس حقوقهم، هذا رسولنا صلى الله عليه وسلم يقف قبل موته يقول: **(من كان له عندي مظلمة فليقتص مني في هذه الدنيا قبل يوم القيامة)**، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الأب الذي إذا ضرب إنما يضرب على جهة التأديب، وله الحق في ذلك، وهو كذلك المربي الأستاذ الذي إذا ضرب له الحق أن يؤدب تلاميذه، وهو إمامنا وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن مجرد اتباع له، نمشي على هديه، كم قدم للأمة من خير؟ ولو أنه ضرب الأبشار وظلم الناس مقابل ما حصل لهم من خير وأتى لهم من فضائل وأعطاهم من كرامات وارتفعت درجاتهم بنسبتهم إليه، هذه أمة محمد ارتفعت نسبتها بأن انتسبت إليه صلى الله عليه وسلم، مع ذلك هو يقول: **(من كان له عندي مظلمة فليقتص مني في هذه الدنيا قبل يوم القيامة)**، فعلى الناس أن يؤدوا حقوقهم.

فالله عز وجل يوم القيامة هو الحكم جل في علاه، وعلينا أن نعلم أنه سبحانه وتعالى الحكم والذي لا يجوز لأحد أن ينازعه فيها، لا يجوز لأحد أن يُنازع خاصةً فيما يتعلق بالحكم الشرعي، وأما الحكم القدري فهناك أقدارٌ لربنا عز وجل أمرنا أن ندفعها، لا أن ننازع الله ولكن ينزل علينا هذه الأقدار من أجل أن نتعامل بها بالدفع، كما يأتي المرض فتدفعه بماذا؟ تدفعه بالدواء، قال صلى الله عليه وسلم: **(ما أَنْزَلَ اللَّهُ داءً إلَّا أَنْزَلَ له شِفاءً)**، وكذلك إذا جاءت علينا أقدار الشر من المعتدين دفعناها بالجهاد في سبيل الله، وإذا أتى رجل لعِرضك دافعت، لا تقول هذا قدر الله فأسلم، هذا لا يجوز، فهذا من أمر الله عز وجل الذي أمرنا أن ننازع هذه الأقدار، كما شرح ذلك أهل العلم ومن ذلك مقالة عبد القادر الجيلاني

الشهيرة: «نازعت أقدار الحق بالحق للحق»، أي الأقدار التي ينازعها بالحق، من أجل من أجل الله عز وجل، من أجل الحق، «نازعت أقدار الحق بالحق للحق».

ولذلك اعتقاد هذا العبد في أن الله سبحانه وتعالى الحكم يرتاح ويسلم، انظر كيف أنه سبحانه وتعالى أحاط الوجود بأحكامه، أن كل شيءٍ خاضع لحكمه قدرًا، وأن كل شيءٍ خاضع لحكمه شرعًا وأن كل شيء سيحاكم عنده يوم القيامة جزاءً، فهو محيط سبحانه وتعالى وذلك هو أحكم الحاكمين، ولذلك جاء في الحديث النهي عن تسمية الرجل نفسه بأبي الحكم، كما في سنن أبي داوود وحسنه كثير من أهل العلم، فعن هاني بن يزيد أنه جاء مع قومه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله هو الحكم، فأرى أهلك ينادونك يا أبا الحكم، من أنت؟)** قال: يأتون إلي فأقضي بينهم فإن قضيت بينهم، لا راد لقولي، فقال: **(ما أبناؤك؟)** فذكر له كذا وذكر له أبناءه ومنهم شريح، قال: **(أنت أبا شريح)**، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تسمية الرجل أبي الحكم، لأن هذا اسم من أسماء الله عز وجل.

والعلماء قالوا: «ما هو الأفضل الحاكم أم الحكم؟»، ومبحث الحاكم من مباحث الأصول، عندما يقول: من هو الحاكم؟ أي من الذي يحكم هذه الأحكام؟ بالمنع والوجوب والإباحة، من الذي يحكم هو الله عز وجل، فهو الحاكم والحكم، وقالوا: «الأجدر هو الحكم»، وهي أبلغ، حتى أن القرطبي قال: «الحاكم إنما تقع على من يحكم بالحق والباطل»، الحاكم إنما تطلق على من إذا حكم، حكم بحق أو باطل، وأما الحكم فلا تطلق إلا على من حكم بالحق، من قال الحق؛ فذلك هي أجدر في صفات ربنا سبحانه وتعالى، وقال بعضهم: الفرق بين الحاكم والحكم، أن الحاكم ليست صفة أصيلة ثابتة وأما الحكم فهي صفة ثابتة أصيلة وهي أبلغ في الدلالة على ثبوت الحكم لمن أطلقت عليه.

ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمي الرجل نفسه أبا الحكم، وهو مشهور أن هذه التسمية لأبي جهل، فهو كان اسمه أبو الحكم لأنه هو من حكماء قريش، ومن عقولهم، لكنه لما اختار الكفر وجاهر بعداوته لنبينا صلى الله عليه وسلم، وكان من كان من أشد الناس عذابًا، بل هو فرعون هذه الأمة، سماه النبي صلى الله عليه وسلم بأبي جهل بدل تسميته بأبي الحكم.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا القبول لحكمه، انظر الرضا بالقضاء والقدر، قال علماؤنا: «أما الصبر فواجب، وأما الرضا فمستحب»، ما هو مقام العبد في تلقيه لأقدار الله؟ هناك مقامان:

المقام الأعلى وهو مقام الرضا أن يرضى بما قدر الله عز وجل له، يقبل ما قدر الله ويسعى أن يدفع هذه الأقدار التي أمر الله بدفعها، فيسعى من أجل الرزق، يسعى من أجل الولد يسعى من أجل الصحة، لكنه إذا أحاطت به الأقدار فلم يستطيع دفعها، فإنه يقبل بحكم الله، هذا مقام الرضا أن يرضى بالله عز وجل، **(رضيت بالله ربا ومحمدًا رسولا وبالإسلام دينا)**، أن يرضى بالله ربا ومن رضاءه لربه، من رضاه على ربه ورضاه لربه هو أن يقبل أحكامه القدرية، هذا مقام عالي، ولذلك قالوا: «هذا المقام مقام المستحب».

وأما الصبر فمقامٌ الواجب، يجب عليك أن تصبر، إذا وقعت عليك يجب أن تصبر لا تشكو، وأعظم ذلك الصبر الجميل، والصبر الجميل بلا شكوى، أن تصبر على هذا المقام وهذا هو مقام الأنبياء، مقام أيوب عليه السلام، وما من نبي إلا وقد وقع في هذا المقام، ما من نبي إلا وقد ابتلي في هذه الدنيا، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: **(أشد الناس بلاءً الأنبياء)**، وكانوا يصبرون على ما يقع عليهم، انظر النبي صلى الله عليه وسلم أي دنيا أتته، بل منع من بعده من أهله أن يرثوا منه إذا ترك مالًا، وماذا ترك؟ إنما مات صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهون عند يهودي، وما الذي تركه صلى الله عليه وسلم كانت «فدك» فقط يأكل منها، ومنع أن يرثها أهله من بعده؛ لئلا تقع شبهة أن الأنبياء يريدون الدنيا، وأنهم يجمعونها لأبنائهم كما يقع في شأن الملوك.

ولذلك على المرء أن يصبر إذا وقعت عليه أقدار الله، لا يشكو، وإذا خرج من الصبر خرج إلى المعصية، وهي مرتبة التشكي، وربما تتطور إلى الرفض والإعراض والرد على الله عز وجل، فيكفر المرء وهذا الكفر بأقدار الله عز وجل كثير في الوجود، إنما أول كفرٍ وقع في الوجود هو الرد على أقدار الله عز وجل، ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف: ١٢]، رد على حكم الله سبحانه وتعالى بأقدار الله التي ظنها أنها منه، وميز نفسه.

ولذلك على المرء أن يقبل أقدار الله عز وجل فيطمئن وإذا جاء شرع الله عليه أن يحبه، ولا يقبل منه إلا أن يحب شرعه، وأن يُقبل على أمر الله عز وهو محب، إذا أقبل على الصلاة وهو محب لها، إذا أعطى الزكاة محب لها، هذا باب من أبواب الخير، هذا باب من أبواب دخول الجنة، ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، هذا يريد البر وإذا حج فعليه أن يقبل عليه وهو محب لذلك، أن يذكر الله وهو محب لهذا الأمر، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾ [النساء: ٦٥]، «هذه حوت مقامات تعامل المؤمن مع الأحكام»، هذه قالها ابن القيم رحمه الله.

أولًا: مقام ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾، أن يقوم بالفعل.

ثانيًا: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾، وهذا مقام ثاني هو مقام الواجب، الأول ركن من أركان الإيمان، إذا لم يحكموك كفروا، والثاني هو مقام ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾، قال: «هذا مقامٌ واجب».

ثالثًا: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، هذا مقام مستحب، يسلم تسليم لذلك، أن يرضى بهذا الحكم، وأن يحبه وأن يسعى إلى أن يطبق في الوجود كله، وأن يجاهد في ذلك.

ويوم القيامة:

قال تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٤-٥]، هو مالك يوم الدين سبحانه وتعالى، فأنه يرجو من الله أن يعامله برحمته وأن يعامله بمغفرته، وبعفوه سبحانه وتعالى، وإذا المرء أصاب عفو الله ورحمة الله فهي السعادة، ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ سبحان الله! والعادة إذا كرر الحرف في الاسم دل على التتابع، مثل صلصلة، في زلزلة، في تكرار، هنا زحزح يعني أبتعد ابتعادا يسيرًا ولو على درجة من التتابع، ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾، لأنه لا يوجد مقام بعد النار غير الجنة، قال ربنا سبحانه وتعالى وهو الذي يقدر الأمور مقاديرها: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، خلاص انتهى فاز.

ولذلك على المرء في كل ليلة عليه أن يسأل الله الفردوس الأعلى، «ومن أكثر الطرق وجد الجواب»، من أكثر الطرق: عليه أن يدعو الله مهما كان تقصيره، مهما كان ضعفه لأن هذا من الإيمان، انتبه هذا من الإيمان أن تسأل الله سبحانه وتعالى الفردوس الأعلى من الجنة، ولا تظن أنه لا يسعك، هو يسع الوجود كله، لو أن الناس كلهم آمنوا لوسعهم الفردوس الأعلى، لو أن الناس كلهم كانوا على قلب محمد صلى الله عليه وسلم لوسعهم الفردوس الأعلى، لذلك لا تقول أنا لا مقام لي، هناك صالحون فأين سأكون؟ ادعوا الله عز وجل أن يرزقك الفردوس الأعلى، في كل ليلة وأنت ساجد، **(اللهم إني أسألك الفردوس الأعلى من الجنة)**. اسأل الله عز وجل أن يغفر لك، تسأل الله سبحانه وتعالى أن يقضي يوم القيامة أن يجعلك مع القبضة التي قبضها فقال: **(هؤلاء للجنة ولا أبالي)**، قال صلى الله عليه وسلم: **(إنَّ اللهَ قبض قبضةً فقال: هذه إلى الجنةِ برحمتي، وقبض قبضةً فقال: هذه إلى النارِ ولا أُبالي)**.

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من أهل الجنة، وأن يرزقنا حبه سبحانه وتعالى حبه هذا إلهٌ عظيم، أوجدنا، رزقنا، انظر إليه هو الذي أوجدك، ومتعك في هذه الدنيا، وهو الذي شرع لك هذه الشرائع

وقدمها لك، انظر إلى تعظيم، هناك خلق أعظم من خلقك، السماوات أكبر منك، هناك دواب بأجسامها أعظم منك بعشرات المرات، هناك دواب من دواب البحر أعظم من الإنسان، لكن انظر إلى كرامة الله لهذا الإنسان، ومع ضعفه ومع فقره ومع عجزه، ومع ذلك الله عز وجل يريد منه أن يحبه ويقدم له ويعطيه ويرحمه ويصبر عليه، يصبر عليه جل في علاه، فعلى المرء أن يحب الله عز وجل، أحبوا الله من كل قلوبكم، أحبوا الله لِمَ يغدوكم من نعمة، أحبوا الله عز وجل لِمَ يعظمكم، يعظم هذا الإنسان، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)﴾ [التين: ٤]، كيف الله عز وجل أكرمه.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الجنة وأن يجعلنا من أهلها وأن يجعلنا مع صحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، نسأله سبحانه وتعالى أن يستخدمنا لدينه أن يستخدمنا لطاعته أن يحبب إلينا الصلاة ويحبب إلينا الزكاة ويحبب إلينا الحج ويحب إلينا الصيام ويحبب إلينا حُسن الخلق، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل في قلوبنا ما يحب، ويُبغض في قلوبنا ما يَبغض جل في علاه، آمين، آمين.

بارك الله فيكم، وجزاكم الله خيرًا، والحمد لله رب العالمين.

الدرس التاسع والخمسون: الكافي

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغرّ الميامين وعلى من تبعهم بإحسانٍ وهدى وتقى إلى يوم الدين، جعلنا الله عز وجل وإياكم منهم آمين، آمين.

أهلًا وسهلًا بالإخوة الأحبة مع اسمٍ من أسماء ربنا سبحانه وتعالى الذي تعبدنا به علمًا وذكرًا وحالا، هذا الاسم هو اسمه سبحانه وتعالى الكافي الذي ورد في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦]، وهذه قراءة مشهورة ﴿أليس الله بكاف عباده﴾، وعبده هنا المقصود به الرسول صلى الله عليه وسلم، أي الله عز وجل كاف ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾ [الحج: ١٥].

وأصوب الأقوال في هذه الآية كما قال ابن كثير رحمه الله: «أن المقصود من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله»، فماذا يفعل؟ ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾، يرفع حبل يعلقه في سقف بيته، السماء المقصود به الارتفاع، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾، أي بحبل فيربطه ثم يخنق نفسه، يقتل نفسه، فهذا مُذهب لغيظه إن كان يريد أن يُذهب غيظه بحيث يموت، من كان يظن أن لن ينصره الله، أي ينصر رسوله صلى الله عليه وسلم، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾، حينئذٍ يموت وحينئذٍ يذهب غيظه ولكن يبدأ غيظ آخر، وهو غيظ العذاب.

فالله عز وجل قال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾، والمقصود كافٍ رسوله صلى الله عليه وسلم بما يحتاجه وما يقوم من شأنه، وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿أليس الله بكاف عباده﴾، فالمقصود به النبي صلى الله عليه وسلم وبقية الأنبياء عليهم السلام، الله عز وجل كفى الأنبياء، وهذا الاسم العظيم هو متوافق مع العبادة، ومعنى الكفاية: القيام على شؤون الآخر بما يحتاج، بحيث يستغني عن غيره، إذا كفيت أحدًا أعطيته ما يكفيه بحيث لا يحتاج إلى غيرك، ورجلٌ كافٍ: أي يقوم على شأن من يقوم به فيكفيه بحيث يجعله لا يحتاج إلى أحد.

ولما كان الله عز وجل قد أمر عباده بأن لا يعبدوا إلا إياه، ولا يسألوا إلا إياه، **(إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله)**، هذا من أعظم العبادة، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾ [الفاتحة: ٥]، فهما سؤالان سؤال العبادة، ما المقصود بسؤال العبادة؟ عندما أنت تقول: «لا إله إلا الله» هذه دعاء،

تقول: «سبحان الله» هذا دعاء، عندما تقرأ القرآن هذا دعاء، يعني أنت تدعو الله عز وجل بعبادةٍ مجردة دون سؤال أن يعطيك ما وعدك، عندما يقرأ المرء القرآن ما الذي يطلبه من طلب القرآن؟ يطلب، أي المرء بقراءته للقرآن يطلب من الله، يطلب من الله أن يعطيه الأجر، يطلب من الله عز وجل أن يعطيه النور، حين قراءة القرآن يأتي النور في قلبه، عندما يقرأ القرآن يطلب البركة، عندما يطلب القرآن يطلب ظل السور يوم القيامة أن تظله من الشمس، تأتي سورة البقرة وسورة آل عمران زهروان تظلان العبد يوم القيامة، قال صلى الله عليه وسلم: **(اقْرَؤُوا القُرآنَ؛ فإنَّه يأتي شافِعًا لأصحابِه، اقْرَؤُوا الزَّهْراوَينِ: البَقَرةَ وآلَ عِمرانَ؛ فإنَّهما يأتيانِ يَومَ القيامةِ كأنَّهما غَمامَتانِ أو غَيايَتانِ أو فِرقانِ من طَيرٍ صَوافَّ تُحاجَّانِ عن صاحِبِهما، اقْرَؤُوا البَقَرةَ؛ فإنَّ أخذَها بَرَكةٌ، وتَرْكَها حَسرةٌ، ولا تَستطيعُها البَطَلَةُ)**.

فأنت بالعبادة المجردة أنت تطلب، وهذا دعاء، وأما دعاء الاستعانة فهو معروف، هو أن تستغيث بالله سبحانه وتعالى، أن يعطيك ما تحتاج، إذا الإنسان يحتاج الولد يطلب من الله، إذا أحتاج الملح كما كان الصحابة يطلبون من الله إذا احتاجوا الدابة يطلبونها من الله، إذا احتاجوا الاطمئنان القلبي يأتيهم، وغين القلوب يطلبونها من الله، فالله عز وجل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، لما كان جل في علاه قد طلب من عباده أن لا يسألوا إلا إياه؛ إذًا لا بد أن يكون كافيًا ليعطيهم، أي لو أن رجلًا يعلم أن هذا الرجل يعطيه إلا الماء، ولكن لا يستطيع أن يعطيه الطعام، فحينئذٍ لا يجوز لهذا المعطي لهذا الماء أن يقول له: لا تسأل إلا إياي، لا يجوز لأنه إذا قصر وحصر السؤال به يجب عليه أن يكفيه في كل شيء، يقول له: أنت تعطيني الماء فلا تستطيع أن تعطيني الطعام فلابد أن أسال غيرك، إذا عنده الطعام والماء ولكن ليس عنده الهواء، فهو يسأل غيره، إذا عنده السمع يعطيه سمعًا، فإنه يسأل غيره ليعطيه البصر وهكذا.

فلما كان الله عز وجل كافٍ العبد فدل هذا على أن لا يسأل إلا إياه، أي لا يسأل غيره شيئًا من الأشياء، وخزائن الله عز وجل ملأة وهذا دال على أن كل شيءٍ هو منه سبحانه وتعالى، حتى عندما ترضع الأم كما يقول الغزالي عليه رحمة الله: حتى لما ترضع الام ابنها هو الذي يسر هذا الإطعام هو الذي وضع الحنان في قلبها هو الذي رزق الأم هذا الحليب، هو ليس منها هو سبب، لكن الذي حرك السبب وأوجد السبب وأوجد الخلق للعطاء هو الله عز وجل، لولا أن الله أعطاك ما أعطيت، لولا أن الله عز وجل أعطاك القوة ما قويت على إعطاء الآخر، فالذي أعطى كل شيء هو الله عز وجل، وكل شيء بيد الله عز وجل.

فالله عز وجل هو الذي يكفي العبد، والعبد إذا توكل على الله حق التوكل كفاه كل شيء، لم يجعله يحتاج إلى شيء ولكن مع الاهتمام والتنبيه إلى أن الله يكفيك، وأما ما تطلب من الزيادة من الغنى وغيره فالله عز وجل ليس أخذًا على نفسه أن يعطيك فوق ما تحتاج، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم

يقول: (اللهم أحيني مسكينًا وأمتني مسكينًا واحشرني مع زمرة المساكين)، وإذا سأل الطعام يسأله الكفاية، (الحمدُ للهِ الَّذي أطعَمنا وسقانا وكفانا فكم ممَّن لا كافِيَ له ولا مُؤوِيَ)، فكفى، أنت مطلوب أن يكفيك الله عز وجل، لكن الناس أنما يبغون عندما يطلبون ما هو فوق حاجتهم، ويطلبون ما هو فوق ما يحتاجونه وما يريدونه لأنها شهوة النفس.

فانظر إلى الأنبياء، الأنبياء الله كفاهم، كفاهم الناس، ولم يحتاجوا إلى شيء من الناس لأنهم كانوا من أغنى الناس في نفوسهم لا يحتاجون إلا ما هو كفاية لهم فيطلبون الكفاية، ولا يزيدون عن ذلك فالله كافٍ عبده، والمرء إذا أيقن أن الله عز وجل كافيه لم يسأل إلا إياه، لم يستغث إلا به، وهذا شأن الصحابة رضي الله عنهم، الصحابة علمهم النبي صلى الله عليه وسلم، قالوا: بايعنا رسول الله على كذا وكذا، قال ثم أسر لنا قولًا، وكأن هذا هو السر، سر كل شيء، قالوا: «وأسر لنا كلمة»، قال صلى الله عليه وسلم: (وأن لا تسألوا الناس شيئا).

الإمام أحمد عليه رحمة الله، سُئل كيف يتقي شر الناس قال: «لا تنازعهم في دنياهم»، إنما ينشأ الحسد والبغضاء والقتل والخصومات تنشأ بسبب تنازع الناس عن الدنيا، فإذا تركتها لهم ارتحت، إذا لم تنازعهم في الدنيا هم حينئذٍ تركوا خصومتك وأنت حينئذٍ ترتاح، وإنما تأخذ كفايتك من هذه الدنيا، فالله سبحانه وتعالى هو الكافي، واعتقاد المرء بعد أن لا يسأل إلا إياه، يعتقد أن الله بيده كل شيء، وما وقعت لك كفاية من لباس من سمع من بصر من شكل من زوجة من طعام من شراب إلا منه سبحانه وتعالى، كل شيء يجب عليك أن تتفكر أن الله عز وجل هو الذي كفاك إياه، والله لو اجتمعت الدنيا كلها على أن تعطيك شيئًا لا يريد أن يعطيك الله عز وجل إياه فلن تستطيع هذه الدنيا بأكملها، وأعلم أن العبد لا يمكن أن يأخذ شيئًا من يد الله عز وجل بالقوة، لا يمكن، من نازع الله عز وجل غلبه، والله لا يغالب، ما معنى لا يغالب؟ لا ينافس.

ولذلك الله عز وجل قال: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، انظر رؤوس قريش في معركة واحدة، سبعون رجلًا من رؤوسهم قطعوا ذهبوا، وقريش سميت قريش لدابة في البحر تأكل غيرها، وهذه قريش كانت كل العرب تخافها، وجاؤوا إلى بدر من أجل أن تتسامع بهم العرب والنتيجة رجعوا مدحورين لأنهم غالبوا الله.

وأعظم مكر لله عز وجل هو أن يمد لهم بحيث يبغون، ابن القيم رحمه الله يقول: «من أعظم ما يقع على القلب من سوء هو أنه لا يرى العقوبة العاجلة على ذنبه»، فيتمادى، فينظر الله ما عقبه فعل اليوم

المعصية وخرج، وإذا محله يبيع كما يبيع ومشى بالسيارة لم تتعطل، فيقول: أين قول هؤلاء المشايخ يقولون: أن الله يعاقب؟ الشيطان هكذا يأتي، والنهاية لا تدري في لحظة وإذا هو فيها هو في عقوبات وليس عقوبة، حتى أنه ليصرخ فلا ينجد، ويستغيث فلا يُغاث، ويسأل فلا يعطى، ولو كان من أغنى الناس وأقوى الناس ولكن الله عز وجل يعاقبه.

ولذلك على المرء أن يثق بالله عز وجل، ويتيقن أن الله عز وجل هو الذي يكفيه، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦]، أي كفاه أعدائه، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦)﴾ [الزمر: ٣٦]، انظر هنا أمران في هذه الكفاية:

الكفاية الأولى: وهي الكفاية الإيمانية ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، فهذه كفاية الإيمانية ولذلك على المرء أن يعتقد أن كل شيء يريده لابد أن يأخذ من هذا كذلك لابد من الكفاية الإيمانية، والكفاية الإيمانية أن يعلم أنه لن يحصل له من الإيمان والراحة والاطمئنان والدين والشرائع الصحيحة إلا من الله عز وجل، هو الذي يكفي، فالله عز وجل كفاه كما في الآية كفاه أمرين.

الكفاية الثانية: ومن يضلل الله فما له من هاد، وهذا الضلالة والهدى بكلها سواء الضلالة والهدى مما تعلق بالشرائع أو ما تعلق بالأقدار، أي أنه يضله هذا ضلال، فيقول له: هذا ضلال لا تقترب منه، هذا الزنا هذا ضلال لا تقترب منه، فيعلمه سبل الضلال ويعلمه سبل الهدى ويكشف له هذا الأمر كشفًا بينًا واضحًا، أو أن يكفيه الضلال والهدى بحيث يجنبه سبحانه وتعالى يجنبه الضلال، يكفيه في أن يجنبه الضلال، وهذا أعظم هداية هو التوفيق الإلهي.

دائمًا أيها الإخوة الأحبة انظروا إلى هذا السر وهو التوفيق، إذا غفل المرء عن نظر الله عز وجل إلى توفيق الله له في الطاعة، فليعلم أنه مع أنه محبوس عن رحمة الله، إذا أنت رأيت أن الله أكرمك في قيام الليل ووفقت، فاعلم أن الله يريد بك خيرًا، لأنه لو أراد بك شرًا لضرب على إذنك أعجزك وأنت صاحي ولا يقيمك، ويأتي آخر نائم وربما له نائم ساعة أو ساعتين فالله يقيمه، من الذي أقام هذا وأنام هذا؟ من الذي أقام هذا وأعجز هذا؟ التوفيق الإلهي، أن يرى أنه يعجز أن يقوم يصلي ركعتين هكذا جالس، وهو يقول له: صلي ركعتين كأنه محبوس، الله يضله، وذاك يهديه.

وتتعجب من سيرة السلف! والله كنت البارحة أعجب! يعني لما تتفكر في عالم والله يا أخوتي مرات كتاب تريد أن تقرأه فيأخذ معك يوم يومين، ثلاث أيام وأنت تقرأ لتستوعب ما يريد الكاتب، فأقول

كيف مضت سيرة العلماء لما تراجع ما قرأوا من الكتب! ترى العالم قرأ التفاسير، سبعين تفسيرًا، مائة تفسير! يعني لما ترى إمامًا كالإمام ابن الجوزي رحمه الله متى قرأ؟! السيوطي هذا الذي في كتبه، إذا رجعت إلى كتبه تجدها مليئة، ارجع إلى «الدر المنثور» مثلًا، كيف وفي أي وقت استطاع أن ينظر في هذه التفاسير وينقل من هذه الأقوال يجردها؟! وليس هذا فقط تجده في الفقه، تجده في اللغة، تجده في الأصول، تجده في السيرة، تجده في الحديث، من الذي كفاه في هذا أعطاه؟ من الذي أعطاه؟ الله كفاهم أعطاهم.

وعندما تجد ابن جرير الطبري رحمه الله في أي وقت كتب هذا الكتاب؟ وكتب التاريخ في أي وقت؟! فهذا عجيب!! مع أنهم رحلوا في طلب العلم، رحلات على أرجلهم وعلى الدواب، اليوم نحن الشيخ بعيد عنا ساعة في السيارة لا نذهب إليه، هم يذهبون إليه يأخذون رحالهم ويجوعون ويعرقون ويجلسون عند العلماء ويسجلون، وبعد ذلك الله عز وجل يبارك لهم ويعطيهم ويغنيهم، وتتعجب كذلك من أين تأتيهم الدنيا؟! لأنهم تركوها، الله عز وجل كفاهم، ما دام هناك من جعل الهموم همًا واحدًا هم الآخرة كفاه الله الهموم كلها، يا الله، يا الله.

ما معنى أن تجعل الهموم همًا واحدة؟ أي أن تكون عبدًا لله وحده، لا تخاف من أي شيء من جعل الهموم، هم الخوف من الناس لا يهتم له، هم الرزق لا يهتم له، هم العذاب من الناس إذا هجروه أو أنهم آذوه لا يهتم له، كفاه الله الهموم كلها، خلاص، فقط هم واحد وهو أن يرضي الله عز وجل كفاه الله، كفاه الله عز وجل الهموم كلها هموم الدنيا والآخرة، ويبقى له في هذه الدنيا تُكفى هموم الدنيا، تعطى له، تأتيه الدنيا وهي صاغرة، يسعى إليه الملوك، علمائنا كان الواحد منهم لا يُعرف، فيطلب العلم فيسعى إليه الملوك ليعلم أبنائهم، يسعى إليه الملوك.

يسعى إليه الملوك كما كانت صحبة هارون الرشيد وسفيان الثوري فلما استلم هارون الرشيد الخلافة سعى سعيًا ليجلس معه، فدخل إليه ونسي وترك حذاءه لأنه أقسم عليه بالله أن يعود إليه، هو صديق، يعني صديق قبل الخلافة، فنسي حذاؤه لما خرج من الباب رجع قال: نسيت الحذاء، فأخذ الحذاء من أجل أن يبر بيمينه أن يعود إليه لئلا يعود أبدًا، لا يريد أن يدخل، الله رفع شأنهم، انظر أي نعيم يعيشون به في هذا الوقت، هذه السنين الطويلة كم؟ ألف وأربع مئة سنة، يعيشون في القبور في روضة من رياض الجنة، ويوم القيامة الله يكفيهم، يكفيهم عند الموت، يكفيهم بأبعاد الشيطان عنهم، ويلقنهم كلمة التوحيد وإذا دخلوا القبور يكفيهم العذاب، يبعد عنهم العذاب ويكفيهم بالعطاء الإلهي والكرم، وإذا صبروا إلى يوم القيامة كانوا على منابر من نور تحت ظل الله عز وجل، ثم يكفيهم يوم القيامة بأن يدخلهم الجنة، فكفاهم، اشتغلوا فيما يرضي الله فأعطاهم، وتعلقوا بالله لم يتعلقوا بشيء، لم يتعلقوا بشيء من أشياء الدنيا، جعلوا

الدنيا وراءهم جعلوا الدنيا وهمومها وراءهم، فالله عز وجل رفع شأنهم، جعلهم ملوك بل ملوك على الملوك، ليس ملوك الأرض جعلهم ملوك على الملوك.

ومما يُذكر أن هارون الرشيد مع زوجته سمعوا جلبة في بغداد جلبة كبيرة فأرادوا أن يستطلعوا من؟ فقالوا: فلان المحدث عطس فحمد الله فشمته تلاميذه، فقالت الزوجة والله هو الخليفة وليس أنت، أنت الناس يشمتوك خوفًا منك وهذا يشمتوه من أجل أن يقول: الحمد لله، يرحمكم الله، من أجل أن يدعو لهم، فالله عز وجل يكفي هؤلاء، الله جل في علاه بيده كل شيء فخزائنه ملأى، الله خزائنه ملأى سبحانه وتعالى.

وأعظم ما يؤتى العبد هو الإيمان عليك ألا تسأل الإيمان إلا منه هذا هو السر، فالناس يغترون بالأسباب، يغترون بالأسباب في الدنيا، الدكان يحضر الرزق، الزوجة تأتي بالولد، الطعام يأتي بالشبع، الماء يأتي بالري، لكن هل يستطيع أحد يقول: أن الإيمان يعطى من غير الله؟ فالعبد يسأله الإيمان، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة: ٦] هو منه، في يقين على أن الكفاية الإيمانية لا تأتي إلا منه، وهي أعظم كفاية، إذا جاءت خلاص سعد المرء، إذا جاء الإيمان في القلب من الله ووضعه في القلب أحدث هذا الحدث العظيم الذي أحدثه في قلوب الأنبياء، وفي قلوب أصحابهم وحواريهم، فانظر هذا الإيمان الذي قذفه الله في قلوب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، هذا الإيمان الذي قذفه الله عز وجل في قلوب السحرة.

فهذا عمير بن وهب شيطان قريش، جاء ليقتل النبي صلى الله عليه وسلم، فقذف الله في قلبه الإيمان، فصار الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه، أحب إليه من ولده، وقال: «والله يا رسول الله ما من مقامٍ قمت فيه أعادي فيه دينك إلا وأقوم فيه وانصر هذا الدين»، من الذي قذف هذا، تعجب كيف واحد صغير هكذا كيف قذف الله في قلبه حب القرآن، مشغول به، وبعض الناس يعجز أن يقرأ آية والله ربما تراجعه حتى من رمضان إلى رمضان لا يقرأ القرآن ولا يفتح القرآن، بالله عليكم هذا ما هو؟ هذا محروم، هذا الله حرمه، هذا والله هذا هو الأحق بالبكاء، والله هذا الذي عليه أن يبكي إذا حرمه الله لا يقرأ القرآن، لا يذكر الله، لسانه ليس رطب بذكر الله، لا يشعر لذة الإيمان، ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، واحد يذكر بالله فلا يهتم وتمشي عليه الآيات فلا يهتم، ولا ينتبه لها هذا محروم.

فالكفاية في هذا كله من الله عز وجل، كفاية الشرائع، لا ينبغي للمرء أن يعلم أن هناك سنة محبوبة لله إلا وهي في كتاب الله وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم، لا يأخذ، لا يخلط، الله لا يحب الشركة، في أي

شيء، الله عز وجل يحب أن يسأل هو، لا تلتفت لغيره، الله يعلم لا تلتفت لغيره، أجعل همك له وحده سبحانه وتعالى أن تسأله في دنياك والله يحب جل في علاه، لا يجوز للعبد أن يقيس الله على الخلق في هذا الباب فإن الخلق يبغضون من سألهم وأكثر السؤال حتى لو كان ابنه، حتى لو كان زوجته لا يحبون، لكن الله عز وجل يحب أن يُسأل، وإياك أن يخطر على بالك أن تستحي من الله أن تسأله أدق الأشياء فهذا حياء مذموم.

كان الصحابة رضي الله عنهم إذا احتاجوا إلى الملح سألوا الله عز وجل، حتى أن أحدهم ليسأل الله عز وجل شسع نعله، الله أكبر، يعني بالله عليكم من الذي يقوم يصلي ركعتين إذا فقد في البيت شيء، ما قدر عليه، فيقوم يصلي ركعتين فهذا أحتاجه فغير موجود فيسأل الله، أول ما يخطر في باله هو ألا يسأل إلا الله، هل هذا موجود في قلوبنا في حياتنا في شأننا؟ إذا احتجنا شيء أن نقوم فقط أولًا لا نسأل فلان وقعت المشكلة، من الذي يحلها؟ فلان من الذي يتدخل فيها؟ احتجنا لكذا من الذي يقضيها؟

وهل فكرنا أول ما نحتاج شيئًا من أشياءنا التي هي من ضرورات الحياة أن نقوم فنتوضأ ونصلي ركعتين ونسأل الله في سجودنا؟ من الذي إذا خطرت على باله مسألة فلم يفهمها، سأل الشيوخ ما فهمها هذا شيخ يقول كذا وهذا شيخ كذا، فتوجه إلى الله وصلى ركعتين يستغيث بالله اللهم أهدني للحق، هؤلاء الشيوخ كل يوم يقولون قولًا، هؤلاء اختلفوا في هذه المسألة، كيف؟ ما هي الطريقة للحل؟ استغث بالله، « يا معلم إبراهيم علمني، يا مفهم سليمان فهمني»، ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، الله يعطي أسأله جل في علاه، وتعلم هذا، تعلم لترى وراقب النعمة كيف تنزل عليك، راقب متى تأتيك النعمة، وإذا جاءت فاشكره، قل هذا لأمر كذا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩)﴾ [الرعد: ١٩]، وقال الله عز وجل ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

فعليك أن تفكر هذه النعمة لما جاءتني، هذا النذارة من العذاب لما جاءني دائمًا تربط هذا، هذا هو شأن القلوب الطاهرة الطيبة التي تتعامل مع الله تعامل الصدق تعامل العبادة، هذه هي العبادة، وإياك فقط أن لا تعرف الله إلا لما تقوم للصلاة، وقلبك حاضر للأشياء كلها ومليء بالحاجات كلها ولا تنظر إلى الله عز وجل، لا تسأل الله عز وجل ليس نظرك إلى الله، هذا إذا انشغلت به كنت عبدًا لله، وكلما ازدادت – هذه من أهم ما يقال في هذه الجلسة– كلما ازدادت عبوديتك لله كلما ازدادت كفاية الله لك، كلما ازددت ذكرًا لله ازدادت كفاية الله لك، كلما ازددت تعلقًا بالله كلما ازدادت كفاية الله لك، الكفاية مربوطةٌ بالتعلق بالله، أي مربوطةٌ بالذكر.

ولذلك أحد أبناء آل القدامة قال: «أعلمني شيخي إنني كلما أكثرت من القرآن قضيت لي حاجاتي»، طبعًا كل إنسان له حاجات، فمثل هذا العالم ما حاجته؟ العلم فقط، مطلبه العلم فقال: «كلما كنت أزيد في القرآن يزيدوني الشيخ في الحديث»، حتى وصل في كل يوم أن يقرأ عشرة أجزاء، تقرأ القرآن الله يكفيك، تقوم الليل الله يكفيك، تتصدق الله يكفيك، تذكر الله، الذكر، هذا كلما ازددت عبودية لله كلما ازدادت كفاية الله لك.

ولذلك أعظم الناس كفاية أي الله كافيهم، منعهم، الله عز وجل منعه، عصمه من الناس، منعه، نصره أعطاه، أكرمه، أعطاه أعظم ما يعطى، ماذا أعطاه؟ أعطاه ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)﴾ [الشرح: ٤]، لا يذكر الله إلا يذكر ورائه أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، هل هناك أعظم من هذا العطاء؟ أم عطاء فرعون أن يكون له ﴿ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦)﴾ [غافر: ٣٦]، ماذا بقي من ملكه؟ قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥١-٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)﴾ [الأعراف: ١٣٧]، راح انتهى كل شيء، ولم يبقى إلا ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)﴾ [الشرح: ٤].

وهكذا هو شأنه سبحانه وتعالى مع عبيده، كلما ازددت عبودية كلما كفاك الله، وأعظم ما يكفى الإيمان وتكفى الهموم، والله الدنيا قد تكون بين يدي الناس، لا تغركم السيارات الفاخرة، إياكم أن تجهلوا في فهم الحياة، لا تغركم السيارات الفاخرة مع أبنائهم ولا العمارات الفاخرة ولا الأموال والأرصدة في البنوك، والله يتمنون ما يتمناه أفقر المؤمنين وأفقر الصالحين ما هو يعيشه من الرحمة والطمأنينة والسلامة، والله ربما يتمنى أن يدخل عليه ابنه فيسلم عليه ويقبل يده فلا يجدها، والله يتمنى أن يستر في بنته فلا يجدها، ويتمنى أن ينام وهو لا يفكر في هموم بيته وزوجته وأبنائه وبناته وأمواله والله لا يجدها، لا تضركم هذه كلها زخارف خادعة، أكذوبة هذه، الله يعطيها لأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، لكن ناس مساكين يروا هذه الصور أمامهم فينخدعوا.

قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠)﴾ [القصص: ٧٩-٨٠]، يا الله! تصوروا هؤلاء العلماء، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، هذا هو العلم، ولما قيل للإمام أحمد رحمه الله: «من نسأل بعدك؟! قال: عبد الوهاب الوراق، قيل له: إنه ليس له اتساع في العلم قال: إنه رجل صالح مثله يُوفَّق لإصابة الحق، وسُئل كذلك عن معروف الكرخي؛ فقال: كان معه أصل العلم: خشية الله»، عنده خشية الله هذا هو العلم، يعلم السنة فيتبعها، يعلم البدعة فيجتنبها، يعلم الحق في القرآن

فيمشي وراءه، هذا هو العلم، الباقي كلها زيادات، يفتخر الناس فيها بعضهم في بعض، ويجلس الناس يفاخرون بعضهم في بعض.

عبد الله بن المبارك قال: لسفيان، إما عبد الله بن المبارك وإما الأوزاعي نسيت الآن مع سفيان، جلس كل واحد يحاكي صاحبه، فقال: هل رأيت أجمل من هذا المجلس، قال: والله أخاف أن أكون أنا وأنت قد جلسنا فكل واحد يجلس ليظهر أجمل ما عنده ليتحدث الناس به، فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يكفينا بطاعته أولًا أن يجعلنا من عبيده أن يجعلنا من أوليائه وأن يجعلنا من صالحي من عباده ونسأله سبحانه وتعالى أن يغنينا بغناه.

وقد يقول قائل: هل يجوز لأحد أن يستغني عن الناس كلهم؟ الزوج لا يستغني عن زوجته، والناس يعملون فيحتاجون، فيحتاج الرجل أن يأتي صاحب عمله، ومن هنا أمر الشارع بالإحسان للناس، الإحسان إليهم، المرء لا يستغني عن الناس ولكنه يعلم أن الله عز وجل هو الذي يرقق عليه القلوب، هو الذي يبغض فيه القلوب بالمعاصي تنشأ البغضاء، بينه وبين زوجته، بينه وبين أبنائه، بينه وبين إخوانه، «ما كان لله دام واتصل ما كان لغير الله انقطع وانفصل».

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكفينا بكفايته ويجعلنا من أهل ولايته، وأن يدخلنا فيمن يحب ويرضى، نسأله سبحانه وتعالى وهو الرحيم، أن نحبه من أجل أن يكفينا، المحب هو الذي يكفي، من الذي يكفيك؟ الذي يحبك، أبوك يحبك فيعطيك، صديقك يحبك فيعطيك، فإذا أحبك الله كفاك، لا تسأل غيره، لكن ابقى أنت جالس أمام عطاءه وكرمه، ابقى أنت فقط نظرك إلى عطائه ليس إلى غيره، فالله يعطيك ويكرمك وينصرك، والناس يحتاجون لهذا من أجل أن تقضى حاجاتهم وتذهب همومهم ويرتاحوا ويكون ناس إخوة، أساس كل الفساد في الدنيا الكبر والحسد، بما قتل ابن آدم أخاه؟ بالحسد، حسده، ترفع.

جزاكم الله خيرًا وبارك الله فيكم والحمد لله رب العالمين.